



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للغلام



عليه
صلى
عليه
وآله
وسلم

www. **Ghaemiyeh** .com
www. **Ghaemiyeh** .org
www. **Ghaemiyeh** .net
www. **Ghaemiyeh** .ir

مستدرکات

عیان السبعین

بیت القریب

«ع»

دار المعارف الطیور مات

پوربند

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مستدرکات اعیان الشیعه

کاتب:

محسن امین عاملی

نشرت فی الطباعة:

دار التعارف للمطبوعات

رقمی الناشر:

مركز القائمیة باصفهان للتحریات الكمبيوتریة

الفهرس

٥	الفهرس
٢٣	مستدركات أعيان الشيعة المجلد ٤
٢٣	اشاره
٢٣	اشاره
٢٩	الأميره آرام جان بيگم
٢٩	أرده خاتون بنت ترمشيرين خان
٢٩	أفاق بيگه بنت الأمير على الجلانريه الهراثيه
٣١	أغا بيگم بنت السيد محمد على بن السيد عابد بن السيد على بن السيد محمد
٣١	أغا سلطان بنت طهماسب قلى بيك الأصفهانيه
٣١	أمنه بيگم و يقال أمنه خاتون بنت الشيخ محمد تقى المجلس الأول ابن الشيخ
٣٢	السيد أحمد ابن السيد سلطان على المرعشى
٣٤	الميرزا أحمد بن الميرزا كاظم بن الميرزا صادق الكشميرى
٣٤	شهاب الدين أحمد بن ماجد
٣٤	اشاره
٣٤	تشيع «بن ماجد»
٤٥	الأثار العلميه لابن ماجد
٤٥	اشاره
٥٢	الأرضيه التاريخيه
٥٨	النهروالى
٥٨	البرق اليماني
٥٩	مثال على تخليطه التاريخى
٦٣	أسطوره النهروالى
٦٣	مناقشه أسطوره النهروالى
٦٧	و جاء فران

٦٨	مناقشه قران
٦٩	دليل من التاريخ
٧٠	تبعيتنا للمستشرقين
٧١	الدكتور أنور عبد العليم
٧٤	أهدافهم
٧٤	و أهدافنا
٧٧	النصب التذكارى
٧٨	السيد أحمد الصافى النجفى
٧٨	اشاره
٧٩	شعره
٨٥	أحمد بن عبد الله أبو العلاء المعرى:
٨٥	اشاره
٨٥	١ - مقدمه:
٨٨	٢ - الكوميديا و إشاراتها الإسلاميه
٨٨	٣ - مخطوطه المعراج الأندلسيه و ترجمه
٩١	٤ - أبواب مخطوطه المعراج الأندلسيه
٩٧	٥ - بعض نقاط الالتقاء بينها
١٠٣	أحمد بن يزيد القشيبى:
١٠٦	ميرزا تقى خان، أو ميرزا محمد تقى خان، ابن مشهدى قربان الهزاوى
١١١	تيمور لنك
١١١	اشاره
١١٥	الملحق ٢
١١٧	الملحق ٣
١١٨	الملحق ٤
١٢٠	الملحق ٥
١٢١	الملحق ٦

١٢١	الملحق ٧
١٢٣	الملحق ٨
١٢٣	ميرزا جاني عزتي.
١٢٣	السيد جعفر الرضوي العاملي:
١٢٤	الشيخ جعفر النقدي ابن الحاج محمد.
١٢٨	السيد جمال الدين بن السيد عبد الكريم بن السيد أحمد بن السيد الحسن بن
١٣٠	السيد جواد بن السيد جمال الدين حسن بن السيد محمد باقر بن السيد
١٣٠	حسن علي ميرزا شجاع السلطنة ابن فتح علي شاه القاجاري
١٣٨	الحاج حسين بن علي قصفه
١٤٠	السيد حسين فخر الدين ابن السيد علي
١٤٣	الوزير المغربي أبو القاسم الحسين بن علي:
١٤٣	اشاره
١٥٣	٢ - نشاته - بين الشام و مصر
١٦٩	٣ - الثورة في الرمله
١٧٩	٤ - بعد الثورة
١٩٩	شخصيه الوزير المغربي
٢٠٧	بعض مجالات اهتمامه
٢٠٧	١ - شعره و نثره:
٢١٠	٢ - النقد الأدبي:
٢١١	٣ - إعجاز القرآن:
٢١٣	٤ - تفسير القرآن:
٢١٣	٥ - الطب:
٢١٤	٦ - السياسة:
٢١٧	ما تبقى من شعره
٢٥٥	رساله له في الرد على من تحداه
٢٦٩	فصل له من رقعته

- ٢٧٠ و من فصل له يصف الموصل حين وردها
- ٢٧١ و فى فصل من رساله له
- ٢٧١ فصل من رساله بعث بها إلى ذى السعادتین
- ٢٧٢ كتابه إلى رئيس اعتنق الإسلام
- ٢٧٤ رسالته إلى أبى العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعرى و أخيه
- ٢٧٧ خطبه له بين یدی الحاكم
- ٢٧٨ رساله فى السياسه
- ٢٧٨ باب
- ٢٨٣ باب
- ٢٨٤ باب
- ٢٨٧ نصوص من أدب الخواص
- ٢٩٠ نصوص من كتابه
- ٢٩٥ تذييل
- ٢٩٩ الشيخ حميد السماوى ابن الشيخ أحمد
- ٢٩٩ اشاره
- ٢٩٩ شعره
- ٣٢٩ خديجه سلطان خانم بنت الشيخ محمد صالح بن الشيخ محمد الملائكه ابن
- ٣٢٩ الدكتور داود العطار
- ٣٣٠ السيد راحه حسين بن طاهر الحسنى الرضوى القمى البهيكپورى الهندى
- ٣٣١ ربابه خانم بنت الشيخ محمد صالح ابن الشيخ الملا محمد الملائكه ابن الشيخ
- ٣٣٢ الشيخ رشيد بن الشيخ طالب البلاغى
- ٣٣٢ الشيخ سالار و يقال سالار تخفيفا ابن جبيش البغدادى
- ٣٣٣ سيده بيگم فخر النساء الخراسانيه
- ٣٣٣ أبو النجيب شداد بن إبراهيم بن حسن
- ٣٣٧ السيد عز الدين شرف شاه بن محمد الحسينى الأقطسى النيسابورى المعروف
- ٣٣٧ الشيخ شريف المهشتى القزوينى

- ٣٣٩ الشيخ شكر بن أحمد بن شكر البغدادي.
- ٣٤٠ مير شمس الدين شاه جهان آبادي.
- ٣٤٢ الشيخ الميرزا ضياء الدين بن الشيخ أسد الله بن عبد الله البروجردى.
- ٣٤٢ طالب الأملى المشتهر ب طالبا.
- ٣٤٣ السيد أبو منصور ظفر بن أبي الحسين محمد.
- ٣٤٥ الشيخ أبو منصور ظفر بن حمدون البادراني.
- ٣٤٥ الشيخ عباس بن الشيخ إبراهيم بن الشيخ حسين بن الشيخ عباس بن ..
- ٣٤٦ الشيخ عباس بن الشيخ محمد علي بن محمد البلاغى الحائرى.
- ٣٤٨ الميرزا عباس الايروانى.
- ٣٥٤ عباس قلى آغا.
- ٣٥٥ عباس ميرزا ملك آرا.
- ٣٥٧ الشيخ أبو محمد عبد الباقي بن محمد بن عثمان الخطيب البصرى.
- ٣٥٨ الشيخ الأغا عبد الحسين بن الشيخ الأغا محمد باقر بن الشيخ محمد أكمل.
- ٣٥٩ السيد عبد الحسين بن السيد محمد بن السيد عبد الحسين بن السيد أحمد بن ..
- ٣٥٩ عبد الرحمن الخازن أو الخازنى:
- ٣٦٢ السيد عبد الرحمن الكواكبى.
- ٣٦٨ عبد الرزاق اللاهيجى القمى.
- ٣٦٨ أبو أحمد عبد السلام بن الحسين بن محمد بن عبد الله البصرى.
- ٣٦٨ اشاره.
- ٣٦٨ أقوال العلماء فيه.
- ٣٧١ عبد العزيز الجواهرى ابن الشيخ عبد الحسين.
- ٣٨٥ السيد المير عبد الفتاح.
- ٣٨٦ السيد عبد القاهر بن السيد كاظم بن السيد حسين بن السيد عبد القاهر بن ..
- ٣٨٦ السيد عبد الكريم بن السيد أحمد بن السيد الحسن بن السيد جعفر الرضوى.
- ٣٨٨ الشيخ عبد الله بن أبى بكر بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أحمد بن أبى ..
- ٣٨٩ الشيخ أبو محمد عبد الله بن أحمد بن أحمد بن أحمد بن عبد الله بن نصر.

- ٣٨٩ اشاره
- ٣٨٩ أقوال العلماء فيه
- ٣٩٤ وجيه الدين عبد الله لسانى ابن محمد مشك فروش الشيرازى.
- ٣٩٤ الشيخ عبد المنعم الفرطوسى ابن الشيخ حسين.
- ٣٩٤ اشاره
- ٣٩٥ أسرته
- ٣٩٥ شعره
- ٤٠٢ مؤلفاته
- ٤٠٣ عبد مناف أبو طالب بن عبد المطلب.
- ٤٠٧ الشيخ عبد المولى الطريحي ابن الشيخ عبد الرسول.
- ٤٠٧ اشاره
- ٤٠٨ آثاره المخطوطه و المطبوعه
- ٤٠٩ عبد الواحد بن أحمد بن محمد النقفى الكوفى
- ٤٠٩ الشيخ عبد الوهاب البهشتى القزوينى.
- ٤١٠ ملا عظيما النيسابورى ابن ملا قيلى
- ٤١١ على نقى كمره اى المشهور بنقى:
- ٤١٢ الميرزا على أصغر خان:
- ٤١٩ الشريف المرتضى على بن الحسين.
- ٤١٩ اشاره
- ٤٢٩ الشاعر العالم
- ٤٣١ مدفن المرتضى
- ٤٣٥ دار المرتضى
- ٤٣٥ الشيخ فضل الله نورى
- ٤٣٥ اشاره
- ٤٤٠ مؤلفاته
- ٤٤٠ بدايات النظم الحديثه

- ٤٦١ عوامل مساعده
- ٤٦٣ بدايه الحركه
- ٤٦٤ تفاقم الحركه
- ٤٦٥ التجاء فى كربلاء
- ٤٦٦ صياغه الدستور الايرانى
- ٤٦٦ الشاه محمد على
- ٤٦٨ الشقاق فى العراق
- ٤٧٠ عند إعلان الدستور العثمانى
- ٤٧٠ إنذار الخراسانى إلى الشاه
- ٤٧٢ الوضع فى كربلاء
- ٤٧٣ الفوضى فى إيران
- ٤٧٤ إعلان الجهاد على روسيا
- ٤٧٥ نظره عامه
- ٤٧٥ فقير الله اللاهورى،
- ٤٧٧ الشيخ قاسم حرج ابن الشيخ محمد
- ٤٧٩ الشيخ كاتب الطريحي ابن الشيخ راضى.
- ٤٨٠ كمال الدين سحابى الأسترآبادى
- ٤٨٠ الشيخ لطف الله بن عطاء الله الحويزى:
- ٤٨٢ الشيخ محسن الجواهرى ابن الشيخ شريف.
- ٤٨٤ محمد إبراهيم القزوينى.
- ٤٨٥ الشيخ أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن أبى الثلج عبد الله بن إسماعيل
- ٤٨٥ اشاره
- ٤٨٦ أقوال العلماء فيه:
- ٤٨٨ خواجه محمد بن إسحاق البخارى،
- ٤٨٨ الشيخ فخر الدين محمد بن الشيخ الملا أسد الله بن عبد الله البروجردى.
- ٤٨٩ مير محمد أفضل الله آبادى

- ٤٨٩ الشيخ أبو الفضل محمد بن الحسين الكاتب البيهقي.
- ٤٩١ الشيخ محمد كاظم بن الشيخ محمد شفيح الهزار جريبي الأسترآبادي
- ٤٩٢ السيد النقيب تاج الشرف محمد بن محمد بن أبي الغنائم المعروف بابن
- ٤٩٢ السيد النقيب أبو طالب محمد بن محمد بن أبي زيد الحسن الحسنى البصرى
- ٤٩٣ الشيخ محمد باقر الهجرى.
- ٤٩٨ محمد حسن شهریار.
- ٤٩٩ الشيخ محمد حسن بن الشيخ ملا صفر على البارفروشى اللاهيجانى القزوينى
- ٥٠٠ الشيخ الميرزا محمد حسن بن محمد ولى بيك الافشار البكشلولى الأرومى.
- ٥٠٠ محمد رضا ابن الخواجه ظهير الدين عبد الله الأصفهانى
- ٥٠١ محمد بن هانى الأندلسى
- ٥٠١ اشاره
- ٥٠٧ خروجه من الأندلس - فى عهد من و كم كان عمره
- ٥١٢ موت ابن هانى
- ٥١٢ شعر ابن هانى و الحياه الاجتماعيه
- ٥١٥ المدح
- ٥١٦ الشاعر و ابنا على بن حمدون
- ٥٢٢ الشاعر و المعز لدين الله
- ٥٢٤ الهجاء
- ٥٢٨ الرثاء
- ٥٣١ الحكمه
- ٥٣٤ الوصف
- ٥٤٠ مير عماد الدين محمود بن مير رحمه الله الحسينى الأسدآبادى الهمدانى
- ٥٤١ الأمير فخر الدين محمود ابن الأمير يمين الدين الطغرائى المستوفى
- ٥٤٣ المختار بن أبى عبيد بن مسعود بن عمر الثقفى
- ٥٤٣ اشاره
- ٥٥٧ هدم دور من شرك فى

- ٥٥٧ قتل الذين رضوا جسد
- ٥٥٧ قتل عمرو بن الحجاج
- ٥٥٨ قتل خولى بن يزيد الذى جاء
- ٥٥٨ قتل حكيم بن الطفيل
- ٥٥٨ قتل مالك بن النسر
- ٥٥٩ قتل شمر لعنه الله
- ٥٦٠ قتل حرمله بن كاهل
- ٥٦٠ قتل الذين نهبوا الورس من
- ٥٦٠ قتل جماعه آخرين ممن شرك
- ٥٦٠ قتل من اشترك فى قتل
- ٥٦١ قتل عمر بن سعد
- ٥٦٣ ما جرى لمره بن منقذ قاتل
- ٥٦٣ قتل زيد بن رقاد قاتل
- ٥٦٣ قتل بجدل بن سليم الكلبى الذى
- ٥٦٣ قتل الذين أكلوا من لحوم
- ٥٦٤ قتل عمرو
- ٥٦٤ قتل قيس بن الأشعث بن قيس الذى
- ٥٦٤ قتل سنان بن أنس النخعى
- ٥٦٤ ذكر الذين هربوا من المختار فهدم
- ٥٦٦ قتل عبيد الله بن زياد
- ٥٧٣ نهايه المختار
- ٥٧٨ نادر شاه الافشارى
- ٥٧٨ اشاره
- ٥٨٤ عند حاكم مشهد
- ٥٨٦ حرب الملك محمود
- ٥٨٧ الاتصال بالشاه طهماسب

٥٨٧	انكسار محمود و احتلال مشهد
٥٨٧	تغير طهماسب
٥٨٩	ثورات و فتن
٥٩٠	محاربه الأفغان
٥٩٢	احتلال هرات
٥٩٣	تحرير أصفهان
٥٩٦	تحرير شيراز
٥٩٦	مقتل أشرف و نهايه الأفاغنه
٥٩٨	معاوده غزو هرات
٥٩٩	احتلال قندهار
٦٠١	غزو الهند
٦٠٢	الصلح
٦٠٤	دخول دهلى
٦٠٤	فتنه رهيبه
٦٠٧	معاوده الصلح
٦٠٨	عوده نادر إلى إيران
٦١٠	غزو تركستان
٦١١	غزو خوارزم
٦١١	العوده إلى خراسان
٦١٣	حرب نادر و العثمانيين
٦١٤	خلع الشاه طهماسب
٦١٧	استئناف محاربه العثمانيين
٦١٨	إعادته الكره على العثمانيين
٦١٩	غزو داغستان
٦٢١	محاولة اغتيال نادر
٦٢١	متابعه الحمله على داغستان

- ٦٢١ رجوع نادر من داغستان
- ٦٢٢ استئناف محاربه العثمانيين
- ٦٢٢ معاودة الصلح
- ٦٢٤ عوده إلى الحرب
- ٦٢٤ عوامل سلبيه
- ٦٢٥ تتويج نادر
- ٦٢٧ المؤتمر السنى الشيعى
- ٦٢٨ فاجعه ولى العهد
- ٦٣٠ مقتل نادر
- ٦٣٧ وقائع و عبر
- ٦٣٩ قبر نادر شاه
- ٦٣٩ نقش خاتمه
- ٦٣٩ بعض خصائسه و تطلعاته
- ٦٤٠ شهادات
- ٦٤٥ القاضى ناصر الدين ناصر بن أبى جعفر الامامى الديلمى الأصل القزوينى
- ٦٤٦ نركس بنت الشيخ محمد صالح بن الشيخ الملا محمد الملائكه ابن الشيخ محمد
- ٦٤٦ ميرزا نظام الدين ابن مير أمين الدين حسين دستغيب الشيرازى
- ٦٤٨ هشام بن الحكم
- ٦٤٨ اشاره
- ٦٥٢ ٢ - مصطلح هشام فى كلمه "جسم":
- ٦٦٠ ٣ - أصل هذه المقوله
- ٦٦٧ ٤ - دليل هشام على اختيار
- ٦٧٠ ٥ - المقوله لا تدل على التجسيم
- ٦٧٨ ٦ - مواقف الكلاميين من المقوله:
- ٦٨١ ٧ - موقف الشيعه من المقوله:
- ٧١٦ الحاج ودأى العطيه

- ٧١٨ أبو محمد يحيى بن أبي الحسين محمود الذى ادعى الخلافه فى نيسابور
- ٧١٩ المكفوف ابن الحسن الأفطس ابن على الأصغر ابن الامام زين العابدين بن
- ٧٢٠ السيد عماد الدين يحيى بن السيد ركن الدين أبى منصور هبه الله بن أبى
- ٧٢٢ الشيخ أبو الفرج يعقوب بن إبراهيم البيهقى.
- ٧٢٢ تنبيه إلى خطأ فى المجلد الثالث
- ٧٢٤ ملحق بالمستدركات
- ٧٢٤ صلاح الدين الأيوبي
- ٧٢٤ الذكريات
- ٧٢٨ الذكريات
- ٧٢٨ اشاره
- ٧٢٨ فى مدرسه القريه
- ٧٢٩ إلى القنيطره فدمشق
- ٧٣١ فى دمشق
- ٧٣٤ اليوم كالأمس
- ٧٣٧ العاصفه
- ٧٣٧ نص الإنذار
- ٧٤٥ جماهير الحرب
- ٧٤٥ بعد معركة ميسلون
- ٧٤٧ فى المدرسه العلويه
- ٧٤٩ مصر و السودان
- ٧٥٠ الخطاب المرتجل
- ٧٥٢ دمشق يوم ذاك
- ٧٥٢ أزياء، مقاه و فرنسيون
- ٧٥٣ من تقاليد دمشق
- ٧٥٤ فى أزقه دمشق
- ٧٥٨ العراضات

٧٥٩	السيران
٧٦١	سيران الربوه
٧٦٢	تقاليد السيران
٧٦٤	الشارع و اليهود
٧٦٥	بعد الاحتلال
٧٦٩	اليوم كالأمس
٧٧٢	الهمود
٧٧٣	الصيحه الأولى
٧٧٤	أول مقال
٧٧٤	ذكرى الثامن من آذار
٧٧٦	الاتحاد السوري
٧٧٧	مع الجنرال ويغان
٧٨٠	متابعه الحركه الوطنيه
٧٨٠	أول احتفال بذكرى ميسلون
٧٨٢	أول مظاهره
٧٨٤	قراءات
٧٩١	الاصطياف في جبل عامل
٧٩١	مفوض سام جديد
٧٩٢	إلى جبل عامل
٧٩٦	شقرا
٧٩٧	الثوره
٨٠٣	كيف ثارت الثوره
٨٠٦	مفوض سام جديد
٨٠٦	موقف مجلس لبنان من الثوره
٨٠٨	الحليشه
٨٠٩	الحصيده

٨٠٩	الرجيده
٨١١	البيادر
٨١٣	الكروم و السحارى
٨١٤	عوده القطيع
٨١٦	المعزى و الغنم
٨١٧	الصيف فى القريه
٨١٧	الماء
٨١٩	العيون منتزهات القريه
٨٢٢	الشتاء فى القريه
٨٢٦	ليالى الشتاء
٨٢٨	دروس النحو
٨٣١	الإعلان فى القريه
٨٣٢	طبقات القريه
٨٣٢	العرس فى القريه
٨٣٥	المطاحن
٨٣٧	البرغل
٨٣٩	بنات آوى الواويه
٨٤١	سباق الخيل
٨٤٢	الحركه الوطنيه
٨٤٣	فى النباطيه
٨٤٩	السيد طعان خليل
٨٥٠	البقاء فى شقرا
٨٥١	التردد فى قبول الوظيفه
٨٥١	فى النباطيه
٨٥٣	الجهر بعد الإخفات
٨٥٥	بصيص من النور

- ٨٥٦ دراسه ثانويه
- ٨٥٧ دروس الجبر
- ٨٥٨ اللغه الفرنسيه
- ٨٦٢ رفيقى يقبض على
- ٨٦٤ فى الدراسه الثانويه
- ٨٦٤ دخول الجامعه
- ٨٦٧ يوم الانتخاب فى دمشق
- ٨٧٠ نتائج الانتخابات
- ٨٧١ انتخابات جديده
- ٨٧٤ يوم المعاهده
- ٨٧٧ ثوره حمرا
- ٨٧٧ مع دى مارتيل
- ٨٧٩ زياره احمد رامى
- ٨٨٠ وداع الدروس
- ٨٨٢ اول المعارك الوطنيه
- ٨٩١ مره اخرى مع عبد اللطيف الأسعد
- ٨٩٢ فى العراق
- ٨٩٤ فى الحله
- ٨٩٩ موت الملك غازى
- ٩٠١ تعيين الوصى
- ٩٠٦ استطراد لا بد منه
- ٩١٦ بعض الحقائق
- ٩١٧ الجيش العراقى المظلوم
- ٩٢٠ فى دار المعلمين الريفيه
- ٩٢٤ مدرسه الفقراء
- ٩٢٨ المفتش

- ٩٢٩ من أيام دار المعلمين
- ٩٣٠ فى القضاء
- ٩٣٢ دعاوى طريقه
- ٩٣٥ شهود الزور
- ٩٣٧ بيعوع الأرض
- ٩٣٩ خلافات القرى
- ٩٤٠ مبدأ وطنى
- ٩٤٠ من الأحكام
- ٩٤٢ فى طريق الاستقاله
- ٩٤٨ إلى مصر
- ٩٥٣ إلى العراق مره ثانيه
- ٩٥٣ من ذكريات معهد الملكه عاليه
- ٩٦١ آخر الذكريات
- ٩٦٢ وداع العراق نثرا
- ٩٦٥ وداع العراق شعرا
- ٩٦٦ نخيل العراق
- ٩٦٨ أعذب أيام حياتى
- ٩٧١ البحث و التأليف
- ٩٧١ الاتصرف الانصراف إلى البحث و التأليف
- ٩٧٢ دائره المعارف
- ٩٧٤ بشاره الخورى فى مذكراته
- ٩٧٦ سياسات لبنانيه
- ٩٨٠ أحمد الأسعد و عادل عسيران
- ٩٨٣ ندوات أدبيه فى شقرا
- ٩٨٥ فى المؤتمرات العلميه
- ٩٩٦ مع الناشرين

٩٩٧	قصائد متنوعة
٩٩٧	أشواق
٩٩٩	بعقوبه
١٠٠٠	ذكريات شعريه
١٠٠٢	على عباب البحر الأبيض المتوسط
١٠٠٤	على السين
١٠٠٤	ليله سهاد
١٠٠٥	إلى جدت والدى
١٠٠٥	هواجس بارانا Parana
١٠٠٧	إلى نيليدا شراره
١٠٠٨	وحده
١٠٠٩	رعشات
١٠١١	الصحارى
١٠١٢	الحنين إلى الرويس
١٠١٣	حنين
١٠١٣	صخره
١٠١٥	أشواق
١٠١٥	يوم جلا الفرنسيون عن لبنان و نحن في بغداد
١٠١٦	وفاء
١٠١٨	حماسه و أمل و استنجد
١٠٢١	ربيع السيوف
١٠٢٢	آمال
١٠٢٣	حديث الرزايا
١٠٢٤	مناجاه حيفا بعد استسلامها
١٠٢٥	يا نخل دجله و الفرات
١٠٢٧	حماسه و رثاء

١٠٢٨	شاكبه
١٠٢٩	عودى
١٠٢٩	غضب و رضا
١٠٢٩	الخامس من حزيران
١٠٣٠	ايلات...
١٠٣١	عزاء..
١٠٣٢	صامته
١٠٣٢	من الذكريات
١٠٣٢	اشاره
١٠٣٢	"لن نحاور"
١٠٣٣	لا سلم
١٠٣٣	مؤتمرات القمه
١٠٣٩	تعريف مركز

مستدرکات أعيان الشيعة المجلد ٤

اشاره

عنوان : مستدرکات أعيان الشيعة

پديد آورندگان : امين و حسن و ١٨٨١-١٩٤٨ م. (پديد آور)

مشخصات ظاهري: ٧ ج

زبان : عربي

ناشر: دارالتعارف للمطبوعات بيروت - لبنان

ص: ١

اشاره

الأمير آرام جان بيگم

توفيت بعد سنه ٨٥٥ ملكه جليله ذات عقل راجح و رأى صائب و جمال بارع.

فتن بجمالها السلطان محمد ميرزا بن جلال الدين ميران شاه بن الأمير تيمور فتزوجها فاستولت على جميع مقاليد الحكم و شئون الدوله و السلطان و كانت تدير أمور الدوله بأحسن وجه. ذكرها الوزير الميرزا محمد حسن خان اعتماد السلطنه فى كتابه خيرات حسان بما تعريبه: (آرام جان بيگم زوجه السلطان محمد ميرزا بن جلال الدين ميران شاه بن الأمير تيمور ملكه جليله ذات جمال بارع و حسن باهر و من ربات الفصاحه و البلاغه طلقه اللسان و بعقلها و ذكائها و فطنتها تمكنت فى مده قليله أن تكسب اعتماد السلطان فتسلمت جميع مقاليد الحكم و كانت فى أكثر الأحيان تلبس التاج الملوكى و تحضر فى البلاط و تدير أمور الدوله و السلطان..(١)؛ حكمت مع زوجها من سنه ٨٣٠ إلى (٢).

آرده خاتون بنت ترمشيرين خان

* آرده خاتون بنت ترمشيرين خان(٢)

توفيت حدود سنه ٨٠٨ من أبرز نساء عصرها ذات عقل راجح و حزم و دهاء و إرادته، مصلحه حكيمة. و هى أم زوجه الأمير حسين والد زوجه الأمير تيمور المتوفى سنه ٨٠٧ و كانت من مستشارى الأمير تيمور.

يقول الوزير الايرانى الميرزا محمد حسن خان اعتماد السلطنه فى كتابه خيرات حسان ما تعريبه: (... كانت محل اعتماد و وثوق الأمير حسين و فى أكثر الأحيان التى كانت تحدث فيها بعض الخلافات فى وجهات النظر بين الأمير تيمور و الأمير حسين كانت تتوسط بين الاثنين لرفع الخلاف و يؤخذ برأيها...)(٣) و هى من ربات الشجاعه و الفروسية تشهد الحروب و الغزوات و تبنى آراءها فيحترمها الجميع خاصه الأمير تيمور و كان يشاورها فى بعض أمور الدوله(٤).

آفاق بيگه بنت الأمير على الجلائريه الهرايه

و يقال آقا بيگه الهرايه الجلائريه توفت بعد سنه ٩٠٥ أديبه شاعره فاضله من ربات البر و الإحسان و مشاهير نساء عصرها محبه للعلم و العلماء، ترعرعت فى بلاط أبيها و أخذت العلم و فنون الأدب على كبار علماء عصرها و لما بلغت سن الرشد زفوها إلى الأمير درويش على كتاب دار شقيق الوزير الأمير على شير نوائى المتوفى سنه ٩٠٦ و ترجمها فى كتابه مجالس النفائس الذى ألفه فى سنه ٨٩٥ هجريه(٥). كما ذكرها المير شير على خان اللودى فى كتابه مرآه الخيال الذى ألفه فى سنه ١١٠٢ و ذكر فيه شعراء عصره و أثنى عليها بما تعريبه (... كانت من الشاعرات المعاصرات للسلطان حسين بايقرا فى بلده هرات و مرجعا للخاص و العام و من أهل الثراء و الجاه و لها ديوان عامر و خدم و حشم و أملاك و أسواق و مقاطعات زراعيه، ينفق من مالها الخاص على العلماء و الشعراء و أهل الفضل...)(٦). و ذكر ديوانها شيخنا الأستاذ فى موسوعته الذريعه إلى تصانيف الشيعة القسم الأول من الجزء التاسع صفحه ٩ و قال (ديوان آفاق بيگه جلاير الشاعره الهرايه معاصره السلطان حسين بايقرا ترجمها مير على شير

اللودی فی مرآه الخیال لکن سماها آقا بیگه غلطا و الصحیح ما عبر عنه میر علی شیر النوائی فی مجالس النفائس..) و هی من أبرز نساء الشیعہ فی عصر السلطان حسین بايقرا (-) و كانت دارها فی مدينه هرات مجمع الأدباء و الشعراء و العلماء و أهل الفضل، تحب مجالستهم و معاشرتهم و قد عینت رواتب شهریه تدفع لبعض شعراء و علماء هرات و كان والدها من أمراء الدوله الجلائریه و أخوها الأمير حسین الجلائری من رؤساء القوات الجلائریه و هو أديب شاعر متكلم، و هی من أسره عریقه معروفه فی التاريخ الشیعی جاء ذکر رجال هذا البيت الجلیل فی محله من أعيان الشیعہ (٧).

ص: ٧

- ١- الميرزا محمد حسن خان اعتماد السلطنه: خيرات حسان ج ١ ص ٦ الطبعة الحجريه الأولى طهران سنه ١٣٠٤ هجريه.
- ٢- الشيخ عبد الحسين الصالحی عن كتابه المخطوط (رياحين الشيعه).
- ٣- الميرزا محمد حسن خان: خيرات حسان ج ١ ص ٦ الطبعة الحجريه الأولى طهران ١٣٠٤ هجريه.
- ٤- الشيخ عبد الحسين الصالحی عن كتابه المخطوط (رياحين الشيعه).
- ٥- المير نظام الدين علی شیر نوائی: مجالس النفائس ص ١٦٤ تحقيق علی أصغر حکمتطهران الطبعة الأولى.
- ٦- المير شیر علی خان اللودی: مرآه الخيال ص ٣٣٦-٣٣٧ الطبعة الحجريه الأولى بمبئی.
- ٧- الشيخ عبد الحسين الصالحی.

آغا بيگم بنت السيد محمد علي بن السيد عابد بن السيد علي بن السيد محمد

الطباطبائي النجفي الأصفهاني البروجردى.

توفيت سنة ١٣٢٣ من أفاضل نساء عصرها فقيها محدثه عابده زاهده متكلمه خطيبه أخذت المقدمات و العربية على أفاضل علماء عصرها ثم تفقّهت على رجال أسرتها و لما بلغت سن الرشد زفوها إلى السيد علي الطباطبائي البروجردى و رزقت منه السيد حسين البروجردى المرجع الشهير المتوفى سنة ١٣٨٠ هجرية.

و أسرتها آل الطباطبائي من أسر العلم و الفضل الجليله فى بروجرد التي لها مكانتها الساميه و نبغ منها علماء أعلام مذكورون فى محالهم من أعيان الشيعة.

توفيت فى بروجرد و نقلت رفاتها إلى النجف الأشرف حسب وصيتها و دفنت فى وادى السلام(١).

آغا سلطان بنت طهماسب قلى بيك الأصفهانيه

توفيت بعد سنة ٩٣٨ عالمه فاضله جليله صالحه عابده زاهده من ربات البر و الإحسان نشات و ترعرعت فى بلاط السلاطين الصفويه و أخذت العلم و الفنون الإسلاميه و الأدب عن أفاضل علماء أصفهان و كان أبوها طهماسب قلى بيك من أمراء الدوله الصفويه لها آثار و ماثر فى مدينه أصفهان منها تعمير و تأسيس جناح فى مسجد جامع أصفهان و تعمير و تزيين الجناح الذى أسسه الصاحب بن عباد(٢) ذكرها السيد مصلح الدين المهدوى فى كتابه تذكره القبور صحيفه ٢٨ و وصفها بأنها عالمه فاضله صاحبه مبرات و خيرات(٣).

آمنه بيگم و يقال آمنه خاتون بنت الشيخ محمد تقى المجلس الأول ابن الشيخ

مقصود على المجلسى الأصفهاني.

توفيت بعد سنة ١١١١ و دفنت قريبا من قبر أخيها المجلسى تكررت ترجمتها فى المجلد الثانى من أعيان الشيعة صفحه ٩٥ باسم آمنه بيگم ثم فى المجلد الثالث صفحه ٦٠٧ تحت عنوان بنت المولى محمد تقى المجلسى و نزيد هنا ما يلى: عالمه فاضله فقيمه محدثه محققه أديبه شاعره من ربات الفصاحه و البلاغ و الورع كانت شديده الزهد لم أقف على تاريخ ولادتها و وفاتها أخذت العلم و فنون الأدب و العربية و علم النحو و الصرف و البديع و المنطق على أفاضل رجال أسرتها و تخرجت فى الفقه و الحديث و التفسير على والدها الشيخ محمد تقى المجلسى الأول المتوفى سنة ١٠٧٠ و هى شقيقه الشيخ محمد باقر المجلسى الثانى صاحب البحار المتوفى سنة ١١١١ و ربما أخذت عن أخيها المذكور أيضا فنون العلوم الإسلاميه و لما بلغت سن الرشد زفوها إلى الشيخ ملا محمد صالح المازندراني المتوفى سنة ١٠٨٦ فرزقت منه ستة أولاد كلهم من العلماء و الشعراء و هم: ١ - الشيخ محمد حسين(٤) ٢ - الشيخ محمد سعيد المتخلص بأشرف من شعراء عصره هاجر إلى الهند(٥) ٣ - الشيخ هادى ٤ - الشيخ ملا نور الدين محمد ٥ - الشيخ ملا حسن على ٦ - الشيخ ملا عبد الباقي.

تصدرت للتدريس و الإفادة و الإرشاد فكانت من نوابغ نساء عصرها و كان زوجها مع فضله يستفسر منها فى حل بعض المسائل

العلميه و الفقيهه المستعصيه. يقول الشيخ محمد على المدرس التبريزى فى كتابه ريحانه الأدب ما هو تعريبه (... صادف زوجها الشيخ محمد صالح المازندراني فى مسأله فقيهه مشكله مستعصيه عجز عن حلها و تركها إلى اليوم الثانى فكتبها آمنه بيگم مشروحه و مبسوطه و حلت ابهاماتها و وضعتها فى غرفه زوجها. و عند رجوع زوجها ليلا شاهد شرح المسأله المستعصيه ففرح فرحا شديدا و سجد لله يشكره على نبوغ زوجته آمنه بيگم...)(٦) ترجمها معاصرها الميرزا عبد الله أفندى الأصفهاني المتوفى سنه ١١٣٠ تلميذ شقيق المترجم لها المجلسى صاحب البحار فى كتابه رياض العلماء قال:

(آمنه خاتون بنت المولى محمد تقى المجلسى فاضله عالمه صالحه متقيه و كانت تحت المولى محمد صالح المازندراني و سمعنا أن زوجها مع غايه فضله قد يستفسر عنها فى حل بعض عبارات قواعد العلامه و هى أخت الأستاذ الاستاد مد ظله)(٧) تركت مؤلفات منها: ١ - شرح على ألفيه ابن مالك ٢ - شرح على شواهد السيوطى ٣ - مجموعه المسائل الفقيهيه ٤ - ديوان شعر: و كتب من شعرها على لوحه قبرها(٨).

السيد أحمد ابن السيد سلطان على المرعشى

ولد سنه ١٣٠٤ و توفى سنه ١٣٦٠ فى سامراء و دفن فيها عند عتبه الحرم العسكرى.

نشا و ترعرع فى النجف الأشرف فى بيت علمى عريق ثم استقر فى سامراء و نظم فيها أمور الدراسه فازدهرت فى عهده بالأساتيد و الطلاب، و كان منزله فيها ملتقى الوفاد. و كان فى شبابه يتردد على إفريقيا الشرقيه للإرشاد فيقصد زنجبار و دار السلام و مقديشو و جزيره مدغسكر.

و بعد وفاته أقام مرجع الشيعه فى عصره السيد أبو الحسن الأصفهاني مكانه ولده السيد كاظم فتولى الشؤون العلميه فى سامراء حتى وفاه الامام الأصفهاني فاضطربت الأمور و غادر سامراء الكثير من الفضلاء و الطلاب فغادرها السيد كاظم إلى إيران.

و عدا السيد كاظم ولده الأكبر فقد ترك المترجم أربعة بنين أكبرهم السيد إسماعيل الذى سلك طريق أهله فى طلب العلم و العمل به، فبعد تخرجه من معاهد سامراء و النجف استقر فى مدينه الأهواز مرشدا هاديا و شيد فيها مدرسه و مسجدا و مكتبه، إلى أن قامت الحرب العراقيه الإيرانيه و صارت الأهواز عرضة للقصف المدفعى و الجوى فتركها إلى طهران. له من المؤلفات: عنوان الطاعه فى إقامه الجمع و الجماعه، إجماعيات فقه الشيعه، الأصول الوجيزه.

ص: ٨

١- الشيخ عبد الحسين الصالحى عن كتابه المخطوط (رياحين الشيعه)

٢- انظر گنجينه آثار تاريخى أصفهان صفحات ٩٢ و ١٠١.

٣- الشيخ عبد الحسين الصالحى عن كتابه المخطوط (رياحين الشيعه)

٤- انظر الذريعه إلى تصانيف الشيعه القسم الأول من الجزء التاسع صفحه ٢٤٨ بيروت دار الأضواء..

٥- انظر تذكره نصرآبادى: الميرزا محمد طاهر النصرآبادى ص ١٨١ طهران مكتبه فروغى.

٦- الشيخ محمد على المدرس التبريزى: ريحانه الأدب ج ٥ ص ١٤٨ الطبعة الثانيه تبريز مطبعه شفق..

٧- الميرزا عبد الله الأصفهاني: رياض العلماء ج ٥ ص ٤٠٧ قم منشورات المكتبة المرعشيه..

٨- الشيخ عبد الحسين الصالحى.

و هي خلاصه من مباحث أصول الفقه كانت بعض دراساته لطلابيه في مدرسته بالأهواز.

و شقيق المترجم السيد محمود عرم [عمر] مائه سنه و كان من الاعلام في النجف الأشرف ثم مدينه قم.

الميرزا أحمد بن الميرزا كاظم بن الميرزا صادق الكشميري

المتخلص بأزادكان حيا سنه ١٢٣٥ أديب متضلع و شاعر فنان و خطاط مبدع. من أدبائنا المنسيين.

لم أقف على تاريخ ولادته و وفاته هاجر من إيران إلى الهند و سكن بلده كشمير له آثار و نفايس من الفن الإسلامي الخالد منها نسخه من القرآن المجيد بخط ثلث جميل و تفسير الكاشفي كتبه بخط ثلث و نسخ و رقاع و نستعليق.

و النسخه من مخطوطات مكتبه جامعه إستانبول و جاء في آخره: (تم كلام الملك العلام من التفسير على يد أحمد بن ميرزا كان بن ميرزا صادق آزاد تخلص... سنه ١٢١٧ هجرية).

ذكره الأستاذ محمد علي كريم زاده التبريزي في كتابه أحوال و آثار نقاشان(١) و قال أنه إيراني الأصل سكن في الهند و كان من أساتيد صنع الميناء (فسيفساء) في أواسط القرن الثالث عشر للهجرة و من صنعه يد خنجر و غلافه مطليا بالميناء (الفسيفساء) بألوان زاهيه تم صنعه سنه ١٢٣٥...

الموجود في متحف البريطانى...

أقول: ان آثاره الخطيه و فنونه الإسلاميه الخالده موجوده في أروقه المتاحف في العالم و المكتبات العامه و الخاصه و ذكره الدكتور مهدوى في كتابه أحوال و آثار خوشنويسان ج ١ ص ٣٦(٢).

شهاب الدين أحمد بن ماجد

إشاره

المشهور بابن ماجد هو الربان العربى الشهير الذى كان فى الوقت نفسه شاعرا مؤلفا، و قد كتبت عنه باللغه العربيه دراسات قيمه، منها الدراسه الواسعه التى كتبها عبد الله بن على الماجد عن حياته، و تحقيق مؤلفه (الفوائد فى أصول علم البحر و القواعد)، و الدراسه التى نشرها الدكتور أنور عبد العليم بعنوان (ابن ماجد الملاح) فى سلسله (اعلام العرب) الحلقه ال ٦٣ منها. و ما كتبه حسن كامل الصيرفى بعنوان: (الملاح الشاعر)، و ما نشره الديوان الأميرى فى رأس الخيمه من الدراسات الخاصه.

تشيع «ابن ماجد

و ابن ماجد من أفذاذ الشيعه و أعلامهم التاريخيين، و لم يشر بعض من كتبوا عنه باللغه العربيه إلى تشيعه، فى حين أن مجله (الموسم) فى عددها السابع (١٩٩٠) فى الصفحه ٧٨٦ تقول: و قد سبق لعدد من الباحثين التأكيد على مذهب آل البيت الذى كان يعتقه العبقري الخالد ابن ماجد و منهم المستشرق الفرنسى غبريل فران فى المجلد الثالث من كتابه (المدخل إلى الفلك

و نقول: أن تشيع ابن ماجد واضح لا سيما فيما نظمه من الشعر. قال الدكتور عبد الهادى التازى المغربى فى مجله البحث العلمى سنه ١٩٨٦:

ان ابن ماجد بما يحمله معه من تاريخ حافل كان جديرا بهذا البروز..

و جديرا برد الاعتبار إليه، و من هو مؤهل فى العالم كله ليقوم بهذا الواجب غير أبناء خلدته من أبناء المنطقه الذين يظنون مدينين لابن ماجد فيما كتب عن ديارهم، عن سواحلهم، عن بحورهم، و عن علومهم.. عن عبقريتهم بما فيهم المتواجدون على شاطئ خليج فارس أو خليج عمان و المحيط الهندى.. و سائر إفريقيا الشرقيه. و من كل أولئك الذين تظل جغرافيتهم بتراء شوهاء ان لم تعتمد على إفادات ابن ماجد.. من هو جدير فى العالم ليقوم بهذا الواجب غير الرجال الذين يعيشون على نفس الأرض التى نشأ فيها؟ غير الذين يستظنون بنفس السماء التى كان بها يستظل، و غير الرجال الذين نبهتهم صيحات ابن ماجد و انذاراته للخطر المحقق بهم من الطامعين فى خيراتهم.

و ان من حقنا فعلا- أن نطالب المسئولين عن التربيه و الثقافه فى هذه البلاد أن يخصصوا يوما من السنه نطلق عليه: "يوم ابن ماجد" يمكن أن يكون "منتصف شهر شتنبر من كل سنه" لأن ذلك التاريخ يصادف بالضبط اليوم الذى أتم فيه ابن ماجد مؤلفا له مهما بعنوان: "السبعيه" كتبه و هو فى جلفار:

تمت لشهر الحج فى جلفار أوطان أسد البحر فى الأقطار

يوم الغدير أبرك الأيام إذ خص بالإحسان و الصيام

و كان فى الهجره يا مولاي سته و ستين و ثمان مائه

يكون ذلك اليوم ملتقى للمبدعين و الفنانين و الكتاب و المحققين و الذين ينشدون الحقيقه من كل مكان.. ملتقى للمهتمين بعلوم البحر و تطور الأساطيل.

علينا أن نعرف بقدر ابن ماجد فترفع عنه ما ألحق به خطأ أو قصدا..

يكفى أنه عاش فى حياته مهضوم الحق، علينا أن نستحضره و هو يخاطب مواطنيه بالأمس:

فان تجهلوا قدرى - حياتى فإنما سيأتى رجال بعدكم يعرفوا قدرى!

د. عبد الهادى التازى باريز - فال دو كراص - مجله البحث العلمى ص ٧١ ع ٣٦ (١٩٨٦) هذا ما كتبه الدكتور عبد الهادى التازى، و لم ينتبه و هو ينقل أبياتا من أرجوزه ابن ماجد الذى يعلن فيها تاريخ انتهائه من كتابه (السبعيه) إلى ما ذكره ابن ماجد من أن تاريخ هذا الانتهاء يصادف (يوم الغدير أبرك الأيام)، و ما دام لم ينتبه لهذا فمن البديهي أن لا ينتبه لما وراء هذا الذكر

من تشيع ابن ماجد الذى لم تنسه مشاغله الكبرى أن يحصى الأيام ليصل إلى (يوم الغدير) الذى هو عنده (أبرك الأيام).

و كيف لا يكون هذا اليوم عند ابن ماجد (الشيعى) العريق أبرك الأيام و

هو اليوم الذى جمع فيه النبى (ص) المسلمين فى (غدير خم) و قال لهم: من كنت مولاه فعلى مولاه. فكان ذلك إيدانا بان عليا هو خليفته من بعده.

و سنرى فى الآتى من القول أن الدكتور أنور عبد العليم و هو يذكر

ص: ٩

١- انظر أحوال و آثار نقاشان قديم إيران: محمد على كريم زاده ج ١ ص ٥١ لندن ١٣٦٣ هجرية شمسيه.

٢- الشيخ عبد الحسين الصالحى.

مؤلفات ابن ماجد يذكر من بينها: (الأرجوزه المنسوبه إلى علي بن أبي طالب)، و قد ذكرها بهذا الشكل لأنه رأى بين ما ألفه ابن ماجد شعرا أرجوزيا باسم علي بن أبي طالب ع، فلم يدرك أن هذا الشعر هو في مدح الامام، لذلك اكتفى بالقول: (الأرجوزه المنسوبه إلى علي بن أبي طالب)، في حين أن هذه النسبه هي نسبه المدح.

و بعد هذا نترك الكلام للدكتور أنور عبد العليم، ثم للمؤرخ البحرانى على التاجر الذى توسع فى الحديث توسعا مفيدا لا بد منه فى هذا المجال:

سيره ابن ماجد و حياته

فى مكتبه بباريس مخطوط عربى قديم يرجع عهده للمائه التاسعه الهجريه يحمل رقم ٢٢٩٢ يحتوى على تسعه عشر مؤلفا ملاحيا للربان العربى شهاب الدين أحمد بن ماجد أولها "كتاب الفوائد" و هو أكبرها و منشور، أما باقى المؤلفات فاعلها منظوم من بحر الرجز. و فى نفس المكتبه أيضا مخطوط آخر تحت رقم ٢٥٥٩ يحتوى على مؤلفات ملاحيه أيضا للشيخين أحمد بن ماجد و سليمان المهري. و قد نشر هذين المخطوطين و علق عليهما المستشرق الفرنسى جبريل فران Gabriel Ferrand فى الثلث الأول من هذا القرن.

و يعتبر هذان المخطوطان فى نظر الكثيرين أهم وثيقه فى الجغرافيا الفلكيه و الملاحيه وصلتنا من العصور الوسطى، و تنحصر أهميتها فى أنها أقدم الوثائق الجيده التى دونت عن الملاحة فى البحار الجنوبيه بين الساحل الشرقى لافريقيا و بلاد الصين بلغه من اللغات، و لذلك أثره فى تاريخ العلوم، كما أنها تلقى كثيرا من الضوء على مقدار ما بلغه العرب من تقدم فى فنون البحر و الملاحة فى ذلك الوقت و على مدى تاثر البرتغال بالتعاليم الملاحيه العربيه، و فضلا عن ذلك فالمخطوطان الآنفا الذكر يحتويان على كثير من المصطلحات العلميه و الفنيه التى تعتبر فى حد ذاتها ثروه للغه العربيه.

هذا و توجد أيضا ثلاث أراجيز (راهنامجات أو رهمانجات أو رهمانات أو رهنمات) (١).

أخرى لابن ماجد فى مكتبه الاستشراق بلنيجراد نشرها و علق عليها باللغه الروسيه الأستاذ تيودور شوموفسكى عام ١٩٥٧.

و قد أتيح لنا الاطلاع على بعض أعمال ابن ماجد فى لينيجراد عام ١٩٦١ و على نسخ مصوره من مخطوطى بباريس السالفى الذكر بالاضافه إلى مصادر أخرى. و إذ نحن بسبيل تقديم دراسه علميه جديده عن هذا الربان العربى من واقع مخطوطاته فقد آثرنا أن نعرف به أولا بهذا البحث فى "تراث الإنسانيه".

و سنتناول فيه تقديم كتاب "الفوائد" و لا- يسعنا إلا- أن ننوه أيضا بمقال كتبه قبلنا الأستاذ حسن كامل الصيرفى فى مجله "المجله" عام ١٩٥٧ عن هذا الربان تحت عنوان "الملاح الشاعر" (٢) أما مؤلف كتاب "الفوائد" فرييس علم البحر و فاضله و أستاذ هذا الفن و كامله الشيخ شهاب الدين أحمد بن ماجد بن محمد بن عمرو بن فضل بن دويك بن يوسف بن حسن بن حسين ابن أبى معلق السعدى ابن أبى الركاب النجدى (نسبه إلى نجد) حاج الحرمين الشريفين المكنى بالمعلم و بأسد البحر و ليث الليوث، شيخ رباننه المحيط الهندى و البحر الأحمر و خليج عمان و الخليج الفارسى و بحر الزنج و بحر جاوه و بحر الصين فى القرن الخامس عشر الميلادى غير منازع، و أوسعهم علما و تجربه و فضلا.

يقول المؤلف فى سبب تاليفه لهذا الكتاب: "ألفته و صنفته لركاب البحر و رؤسائه و فيه ما اشتبه من الحاويه يعنى "حاويه الاختصار" و هى مؤلف سابق له) و غيرها على الطالبين و سميناه كتاب "الفوائد" و هو مشتمل على فوائد كثيره غوامض و ظواهر و يضيف فى موضع آخر من الكتاب سببا آخر... "فهو يخاف أن يدركه الموت و نوادر الحكم فى القلوب".

و لا يعرف على وجه التحقيق تاريخ ميلاد هذا الربان الماهر و المعلم القدير و لا تاريخ وفاته، إلا أن الثابت أن نشاطه ينحصر فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر الميلادى (أواخر القرن التاسع و أوائل العاشر الهجرى) كما أنه درس الحساب و هو بعد صبي صغير. و قد ذيل المؤلف مخطوطه هذا بقوله " و ختمنا هذا الكتاب فى عام خمس و تسعين و ثمان مائه (٣) على الاختصار بقولى أوصيكم بتقوى الله و قله الكلام و قله المنام و قله الطعام و نستغفر الله من التقصير و الزياده و النقصان". و هذا التاريخ يوافق عام ١٤٨٩ - ١٤٩٠ م.

و من الثابت أيضا أن مؤلفنا قد تجاوز الستين من عمره و شهد أوائل القرن العاشر الهجرى، و قد وجدنا فى أرجوزته المسماه "ضربيه الضرايب" ما يعزز ذلك من قوله:

شباب برأسى أعجب الناس من أمرى أتانى عقيب الشيب فى آخر العمر

و أى شباب بعد ستين حجه سما فى السما فوق السماكين و النسر

(٤) و منها قوله:

أنا فرحتى فى ليله قد ترتبت كانى أعطيت المنى ليله القدر

مهذبته فى تسع مائه قد أتت إذا هى تمت وفيت لها نذرى

و البيت الأخير يدل بوضوح على أنه قد دخل فى عام ٩٠٠ هجرية و يتمنى أن يوفى نذره بتمامه و لربما كان ذلك النذر هو حج بيت الله كما تعود أن يفعل، و يوافق هذا التاريخ عام ١٤٩٤ - ١٤٩٥ م.

كما نستشف من كلام ابن ماجد فى "الفوائد" الذى يرجع تاريخ النسخه التى تحت يدينا منه إلى خمس سنوات قبل هذه الأرجوزه أنه تولى قياده المركب فى سن مبكره ربما فى الثانيه عشره أو الخامسه عشره من عمره و يتضح ذلك من قوله: (و ما صنف هذا الكتاب إلا بعد أن مضت لى خمسون سنه و ما تركت فيها صاحب السكان (الدفه) وحده إلا أن أكون على رأسه".

و للأبيات التى اخترناها دلاله أخرى فمنها نستشف أيضا أن ابن ماجد على الرغم من تجاوزه الستين من عمره كان جم النشاط متوقد الذهن و القريحه صحيح البنيه باعترافه مما أدى إلى عجب الناس، و أغلب الظن أنه عاش لسنوات عديده بعد هذا التاريخ، و ليس ذلك بمستبعد فى الأحوال الطبيعیه على شخص قضى أغلب حياته فى البحر يعيش فى بساطه و هدوء يتنفس الهواء.

- ١- عن الفارسيه بمعنى راه (طريق) و نامہ (كتاب) أى كتاب الطريق و هى هنا بمعنى المرشد الملاحى
- ٢- انظر أيضا محمد ياسين الحموى بعنوان "الملاح العربى" طبعه دمشق سنه ١٩٤٧.
- ٣- من المرجح أن ابن ماجد قد نسخ كتاب الفوائد أكثر من مره على سنوات مختلفه (انظر جبرييل فران ١٩٢٨. و فى النسخه المشار إليها فى مكتبه باريس يذكر المؤلف حوادث وقعت عام ٨٩٤هـ.
- ٤- السماكين و النسر الطائر من النجوم الملاحيه المشهوره.

النقى، متفرغا لعمله لا يشغل باله بعرض الدنيا وزينتها. ثم أنه كان عفيف النفس ورعا تقيا مخلصا لربه و لمهنته زاهدا فى المال، كما يتضح من كتاباته. و لهذا كله مغزى خاص سنورده فيما بعد. و نحن نؤيد ما نقول بفقرات من كتاب الفوائد مثل قوله: و ينبغي أنك إذا ركب البحر تلزم الطهاره فانك فى السفينه ضيف من أضياف البارى عز و جل فلا تغفل عن ذكره).

على أن عدم تقييد ابن ماجد بالوزن و القافيه فى شعره أو بقواعد الـاعراب لا يعنى بحال من الأحوال أنه كان قليل الحظ من الثقافه، فهو رجل بحر مجرب موهوب خبير بالنجوم و بمسالك الملاحه و بالبحر و عواصفه و أنوائه و تقلب أحواله، مشغول بقياساته الفلكيه و تجاربه التى أنفق فيها عمره. ثم يجب ألا ننسى أنه ربان يخاطب أهل فنه و مهنته بلغه المهنه، كما يجب ألا ننسى أيضا أن العصر الذى عاش فيه كان عصر اضمحلال أدبى أفقد فيه السجع المفتعل كثيرا من بهجه اللغه و التعبير. و بهذه المناسبه يرى بعض المستشرقين أن كتابات ابن ماجد صعبه شاقه كالرموز تحتاج إلى مفاتيح لحلها، و هم يقصدون بذلك بالطبع أراجيزه التى ضمنها قياساته الفلكيه و تعبيراته الملاحيه و لهم عذرهم فى ذلك. و الواقع أن دراسه ابن ماجد دراسه مجديه تحتاج إلى إلمام بالكثير من فنون الملاحه و البحر، كما أنها تحتاج فى نفس الوقت إلى معرفه بأصول مثل هذه الكلمات و المصطلحات التى استعملها و اشتقاقها من اللغات الفارسيه و الهنديه و السواحليه و غيرها، و قد يسر هذا الأمر الأخير للباحثين تلك الدراسات القيمه التى أجراها جبريل فران(1) أثناء إقامته الطويله فى مدغشقر و جاوا و جزر الكومور و غيرها من جزر المحيط الهندي. ثم إن دراسه ابن ماجد تحتاج أيضا إلى تحقيق لمواقع الأمكنه و البلدان التى ورد ذكرها فى كتاباته، و على سبيل المثال عند ما يتكلم عن "جوزرات" فإنما يعنى "كجرات" بالهند، و إلى معرفه أيضا بآلات الملاحه و أدواتها التى كانت مستعمله فى وقته و كذلك إلى معرفه أسماء النجوم التى رصدها و مدلولاتها الحديثه.

و تدل كتاباته على اطلاع واسع و إلمام بكتب و آثار من سبقوه ليس فقط بالنسبه لمؤلفات الجغرافيا الفلكيه و الجغرافيا الرياضيه بل أيضا بالنسبه لكتب الأدب و الأشعار. فهو يستشهد فى كتاب "الفوائد" مثلا بأبيات من معلقات امرئ القيس و عمرو بن كلثوم و المهلهل ابن أبى ربيعه من شعراء الجاهليه و كذلك بأبيات من عمر ابن أبى ربيعه و الطغرائى و أبى نواس و غيرهم. و فى موضع آخر من كتاب "الفوائد" يعدد كتبا متخصصه يجدر "بمعامله البحر" قراءتها فيقول "بل أنا نقول للمعالمه و نعرف الغافلين منهم و ندلهم على الكتب الكبار التى لم تتم صنعتهم إلا بها مثل كتاب المبادئ و الغايات تصنيف رجل مغربى من أهل مراکش و مثل كتاب التصاوير فان فيه جميع الكواكب بصورهن و ممرهن و بعدهن و درجاتهن و طولهن و عرضهن و كذلك فى كتاب تقويم البلدان و فى الاختصار الشحبتيه (؟) و زيغ الفتيك بن شارخ بن تمرلنج(2)..

و كان بليغا فى علم الفلك عمدته جميع العجم. و فى هذا الفن (أيضا) كتاب المجسطى لبطليموس و هو كتاب يونانى عرب منه المأمون بن هارون بعض أجزاءه.

و من كتب هذا الفن كتاب البتانى و زيغ ابن الشاطر المصرى و عليه أكثر كلم الديار المصريه، و كتاب أبو حنيفه الدينورى و كتاب الطوسى و كتاب أبو المجد إسماعيل بن إبراهيم الموصلى و يسمى مزيل الاشباه عن مشتبه الأنساب و كتاب المشترك لياقوت الحموى و كتاب ابن سعيد و كتاب ابن حوقل فإنه مستوفى العرض و الطول و الدرجه و البلدان و الجبال و المدن و البحيرات و الأنهار.. فانى وقفت على أكثر مما ذكرت".

و نحن نميل إلى الاعتقاد بان ابن ماجد كان ملما بلغه الهند السنسكريتية و بلغه فارس و بلغه ساحل الزنج و ربما بلغه جاوه

كذلك لاختلاطه بمعالمه من هذه البلاد و طول إقامته بينهم و لاستخدامه في كتاباته كثيرا من المصطلحات المشتقه من تلك اللغات و بخاصه من الفارسيه التي يستشهد منها بيت للفردوسى في كتاب الفوائد ثم يعربه بقوله:

خف من الله و لا تؤذ أحد هذا طريق الحق لا تخش أحد

و هو ان كان قد نشأ في جلفار في عمان، إلا أنه كان دائم التنقل بين الساحل الإفريقي و العربي و للمحيط الهندي، و لربما قضى في البحر أكثر مما قضى على البر من عمره.

على أن ابن ماجد على الرغم من ذلك كان شديد الثقة بنفسه دائم الاعتداد بعلمه عن يقين، و يتضح ذلك في مواضع كثيره من مؤلفاته المنظومه و المنثوره، و لطالما نعت نفسه بأنه " رابع الليوث " أو " رابع ثلاثة " من جهابذه هذا العلم و لكنه يستكثر على نفسه أن يسبقه هؤلاء فيستدرك بقوله و نهايه المتقدم بدايه المتأخر، و قد عظمنا علمهم و تاليفهم و جللنا قدرهم - رحمه الله عليهم - بقولنا أنا رابع الثلاثة، و ربما في العلم الذي اخترعناه في البحر ورقه واحده تقيم في البلاغه و الصحه و الفائدة و الهدايه و الدلاله بأكثر مما صنّفوه ".
و كأنه رحمه الله عليه، كان عليما حين اختتم قصيدته المسماه (ضريبه الضرائب) بقوله:

فان تجهلوا قدرى حياتى فإنما سياتى رجال بعدكم يعرفوا قدرى

و قد تحققت نبوءته بعد نصف قرن من موته تقريبا على يد الأدميرال [الأدميرال] التركي " سيدى على كاتب رومى " كما سيرد ذكره ثم مره أخرى في القرن العشرين على أيدي العلماء من المستعربين من روسيا من أمثال كراتشكوفسكى و شوموفسكى و من فرنسا من أمثال فران و من سويسرا من أمثال دى سوسير و غيرهم ممن أجهدوا أنفسهم في التعرف عليه و دراسه مؤلفاته. ناهيك بملاحى الشراع من أهل عدن أيها الشيخ الذين يقرءون لك الفاتحه كل يوم كلما خرجوا إلى عرض البحر (٣) و لا ترجع شهره ابن ماجد إلى كونه ملاحا قديرا فحسب، لا يزال أهل عدن يقرءون له الفاتحه كل يوم، و لا إلى مؤلفاته الغزيره في علوم البحار و الملاحة التي لم تكتشف إلا في القرن العشرين، و إنما اكتسب هذا الملاح ".
ص: ١١

١- انظر: G.Ferrand: Relations des voyages et textes geogr.arabes etc.;reIatifs a l'ex. -

treme orient du VIII au XVIII siecles;Paris في جزئين

٢- يقصد " زيح الغ بيك " لاولوج بيك بن تيمور لنك و ربما كان هذا التحريف في الأصل من الناسخ.

٣- يقرر ذلك الرحاله الانكليزى رينشارد بيرتون في كتابه " السبيل إلى إفريقيا و استكشاف هرر " طبعه لندن عام ١٨٥٦ م عن رؤيته لبحاره عدن يقرءون الفاتحه للشيخ ماجد " مخترع البوصله البحريه " .

فضلا عن ذلك، شهره دوليه حين ثبت أنه هو نفسه الربان الذى قاد سفينه فاسكودى گاما البرتغالى من ساحل إفريقيا الشرقى إلى الهند لأول مره فى عام ١٤٩٨ م. و لقد استغرق هذا الموضوع جانبا كبيرا من اهتمام المؤرخين و المحققين الأجانب فى عصرنا الحاضر، و أخيرا أقرت حكومه البرتغال بهذا الفضل للملاح العربى فأقامت له فى ميناء ملندى فى كينيا نصبا تذكاريا يخلد هذه الواقعة. و لما لهذه القصة من طرافه فاننا نوردها هنا ببعض التفصيل.

يرجع أول عهد البرتغال بجنوب إفريقيا ثم بالمحيط الهندى بعد ذلك لعام ١٤٨٧ - ١٤٨٨ م أى قبل دى جاما بعشر سنوات تماما حين نجح ربانهم المسمى برتليمو دياز فى اجتياز رأس العواصف (رأس الرجاء الصالح) فى ديسمبر عام ١٤٨٨ م مستعينا طول الوقت بالملاحة الساحليه.

فالقول إذن بان ابن ماجد قد دار باسطول دى جاما حول رأس الرجاء الصالح كما يتبادر إلى ذهن العامه لأول مره مردود من أساسه إذ أن أى ملاح ماهر يستطيع أن يدور حول هذه الرأس محتصنا الساحل طول الوقت.

و الأصعب من ذلك و الأهم أن يحاول ملاح أن يصل إلى الهند من ساحل إفريقيا الشرقى مجتازا محيطا مجهولا له تماما دون أن يرشده خبير بأصول الملاحة فى هذا الحيط.. و من ثم لم يجرؤ فاسكودى گاما أن يفعل ذلك وحده و مكث أسابيع على الساحل الشرقى لإفريقيا فى انتظار هذا الملاح الذى يرجح البعض أنه لم يكن سوى ابن ماجد كما سنعرف عما قليل. و جدير بالذكر أن البرتغال كانوا يسعون للوصول إلى الهند لاحتكار تجاره التوابل كما هو معروف، بيد أنهم لم يفصحوا عن غرضهم بادئ الأمر.

و قد تمت رحله دى گاما إلى الهند فى أول عهد الملك مانويل الثانى الذى حكم البرتغال بين سنوات (- ١٥٢١ م). أما دى گاما نفسه فقد ولد فى عام ١٤٦٠ م و قام برحلته الأولى إلى الهند بين أعوام ١٤٩٧ - ١٤٩٩ م أى و هو فى سن السابعة و الثلاثين و كان رجلا- متوسط الذكاء و التعليم و لكنه يتميز بعزيمة قويه. أما أسطوله فكان يتكون من ثلاث سفن من نوع عرف باسم " Caravelle " و كان العرب يطلقون على مثل هذه السفن باسم " غراب " (١) أما هذه السفن فقد كانت تحمل أسماء قديسين فسفينه القيادة التى كان عليها دى جاما سميت باسم " سان جبرائيل ".

و تولى شقيق دى جاما و يدعى بولو قياده السفينه " سان رافائيل " و قد غرق هذا المركب بين كلوه و ممباسا حين عوده الحمله من الهند، كما تولى نقولا كولخا قياده القطعه الثالثه من الأسطول و هى السفينه " برىو " أو " سان ميغيل ". و اصطحب دى جاما معه على هذه السفن الثلاثه ١٥٠ من البحاره و بدأ الرحله من البرتغال فى يوم ٢٥ مارس سنه ١٤٩٧ م بعد أن قضى ليلته يتعبد.

وصل دى گاما إلى رأس العواصف فى جنوب إفريقيا يوم ٢٢ نوفمبر سنه ١٤٩٧ ثم إلى ساحل (ناتال) يوم عد الميلاد و سميت الأرض بهذا الاسم تيمنًا بميلاد المسيح. و فى يناير عام ١٤٩٨ فقد دى گاما السفينه (برىو) على الساحل الإفريقى الشرقى نتيجة العواصف، و حمل بحارتها على السفينتين الأخريين. ثم أنه واصل سيره شمالا بعد ذلك على الساحل حتى بلغ ثغر ملندى فى كامبايا (كينيا الآن) على خط عرض ٠٣ جنوب خط الاستواء. و ذلك فى شهر مارس من نفس السنه. و هنالك ألقى مراسيه فى ذلك الثغر لأسبوعين أو أكثر يتقصى الأخبار عن الهند و يبحث عن مرشد يقوده إليها. و فى قوله أن سلطان البلاد و قد تصادق معه فاسكودى گاما و غمره بالهدايا هو الذى أرسل فى طلب الملاح العربى و كلفه بإرشاد سفينه البرتغال إلى الهند فأوصله

الأخير إلى كلكتا في أواخر أبريل عام ١٤٩٨ م (٢) و من المعروف أن فاسكودي غاما نفسه لم يترك لرحلته مذكرات بخط يده، وقد أرخ لهذه الرحلة الكتاب البرتغاليون القدامى من أمثال لوبيز كاستنهدا عام ١٥٥٤ م.

.F.L.Castenheda:Historia do descobrimento ecoquista da India ١٥٥٤ –pelos Portugueze.

و دي باروش عام ١٥٥٣ م. joao de Barros:Da Asia ١٥٥٣. و يلاحظ أن الطبقات الأولى لهذه الكتب تمت بعد الرحلة بنحو نصف قرن تقريبا مما أدى إلى اختلاف الروايات حول اسم الملاح الذي أرشد فاسكودي غاما إلى الهند، فمن المؤرخين من قال أنه "المعلم كانا" Malem Cana أو Mullemo المسلم من جوزرات و منهم من قال أنه المعلم كاناكا Canaque و جدير بالذكر أن لفظ معلم و جمعه "معالمه" كان هو الاصطلاح الملاحي المرادف للربان أو القبطان أما لفظ "كانا" أو "كاناكا" فيعني بلغه السنسكريت (الحاسب) أو (المنجم) و المقصود به هنا الخبير بالملاحة الفلكية. و من أقوال ملاحى المحيط الهندي المسلمين المأثوره فى ذلك الوقت: أن المعلم كالإمام كلاهما عاهد الله على القيادة فكما لا يستطيع الأخير ترك الصلاه فان المعلم لا يستطيع أن يترك سفينته.

و يرجع الفضل فى الواقع فى التعرف على أن ابن ماجد كان هو المرشد الذى قاد أسطول دي غاما إلى الهند إلى جهود المستشرق الألمعى جبريل فرانعام ١٩٢٢ كما ذكرنا من قبل.

.G.Ferrand:Le piIote arabe de Vasco do Gama au XV siele).

Annales de geographie.tom٣١P.٢٨٩-٣٠٧) و قد اهتدى "فران" إلى المصدر الأصلي الذى ورد فيه ذكر ابن ماجد صراحه و ذلك فى مخطوط لقطب الدين النهروالى بعنوان "البرق اليماني فى الفتح العثمانى" (٣) ليرجع تاريخ تأليفه إلى عام ١٥٧٧ م و توجد النسخه الثانيه المتداوله من هذا المخطوط فى الخزانة التيموريه بالقاهره و قد أطلعنا عليها و نحن نورد هنا مقاله النهروالى عن هذا الملاح تحت باب (فى ذكر انتقال الدوله باليمن من بنى طاهر إلى الأمير حسين من الجراكسه) (وقع فى أول القرن العاشر (الهجرى) من الحوادث الفوادح النوادر دخول الفرقتال اللعين من طائفه الفرنج الملاعين إلى ديار الهند و كانت طائفه منهم يركبون زقاق سبته (مضيق جبل طارق) فى البحر و يلجون فى الظلمات و يمرون خلف جبال القمر بضم القاف و سكون الميم جمع أقمير أى أبيض و هى ماده أصل بحر النيل و يصلون إلى المشرق و يمرون بموضع قريب من الساحل عند مضيق على أحد جانبيه جبل و الجانب الثانى بحر الظلمات فى مكان كثير الأمواج لا تستقر به سفائنهم و تنكسر و لا ينجو منهم أحد و استمروا على ذلك مده و هم يهلكون).

ص: ١٢

- ١- قال ابن جحله و هو من شعراء القرن الثامن الهجرى: غربانها سود و بيض قلوها يصفر منهن العدو الأزرق.
- ٢- فى روايه أخرى أن فاسكودي غاما أبحر من ملندى فى ٦ أغسطس سنه ١٤٩٨ و وصل قاليقوط فى ٢٦ أغسطس سنه ١٤٩٨.
- ٣- طبعته "دار اليمامه للبحث و الترجمة و النشر" و هو الحلقة ال ٦ من سلسله:(نصوص و أبحاث تاريخيه و جغرافيه عن جزيره العرب).

فى ذلك المكان و لا يخلص من طائفتهم أحد إلى بحر الهند إلى أن خلى منهم غراب (مركب) إلى الهند فلا زالوا يتوصلون إلى معرفه هذا البحر إلى أن دلهم شخص ماهر من أهل البحر يقال له أحمد بن ماجد صاحبه كبير الفرنجه و كان يقال له الملندى (الأميرال) و عاشره فى السكر فعلمه الطريق فى حال سكره، و قال لهم: لا تقربوا الساحل من ذلك المكان و توغولوا فى البحر ثم عودوا فلا تنالكم الأمواج. فلما فعلوا ذلك صار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم فكثروا فى بحر الهند و بنوا فى كوه (جوا) بضم الكاف المعجمه و تشديد الواو و بعدها هاء اسم لموضع من ساحل الدكن هو تحت الفرنج الآن من بلاد الدكن قلعه يسمونها كوتا ثم أخذوا هرموز و تقووا هناك و صارت الأمداد تترادف عليهم من البرتقال فصاروا يقطعون الطريق على المسلمين أسرا و نهبا و يأخذون كل سفينه غصبا إلى أن كثر غدرهم على المسلمين و عم أذاهم على المسافرين فأرسل السلطان مظفر شاه (١) بن محمود شاه بن محمد شاه سلطان كجرات يومئذ إلى السلطان الأشرف قانصوه الغورى (٢) يستعين به على الإفرنج و يطلب العدد و الآلات و المدافع لدفع ضرر الإفرنج على المسلمين و لم يكن أهل الهند إذ ذاك يعرفون المدافع و المكاحل و البندقيات يومئذ و من أرسل إلى السلطان الغورى يطلب منه النجده على الإفرنج السلطان عامر بن عبد الوهاب لكثره ضرر الإفرنج بالمسلمين فى بحر اليمن و استعمال المدافع و نحو ذلك فجهز السلطان قانصوه من كبار مقدميه الأمير حسين الكردي و أصحابه طائفه كبيره من اللوند كبيرهم سليمان الرئيس و جهز لهم عماره عظيمه و أغربه نحو الخمسين بمدافع كبيره و ضربانات و ولاه نيايه جده.. فأول ما جاء بنى على جده سورا محيطا بها فى عام سبع و عشر و تسعمائه (٩١٧هـ).

هذه هى روايه النهروالى أوردناها بنصها. و يرى أغلب المستشرقين أن الموضوع الخاص بسكر ابن ماجد مبالغ فيه، و نرى معهم ذلك و قد سبق أن دللنا على ورع الرجل و تمسكه بالدين و الفضيله و بخاصه و قد تجاوز الستين من عمره فى ذلك الوقت، و لا تسمح له هيئته أن يجالس فى السكر رجلا من أبنائه، ثم كيف يطمئن دى گاما على سلامه أسطول له إذ ما قاده رجل فى حاله سكر! و لربما كان الدافع على هذه الروايه أن أرشد ربان مسلم سفينه للفرنجه إلى الهند ثم ظهرت نياتهم السيئه فيما بعد. هذا و لم يرد فى روايه المؤرخين البرتغال أى إشاره لموضوع السكر هذا و كان أجدر بهم أن يفعلوا لو حدث.

بل و يذكر دى باروش مؤرخ الرحله أن الأميرال البرتغالى قد اطلع المرشد العربى فى ماليندى على أسطرلاب خشبى كبير قطره نحو ٦٠ سنتيمترا و على بوصلات و "كواردنت" و لم بيد الملاح العربى أى دهشه لما رأى بل الذى أخذته الدهشه هو دى گاما نفسه حين أطلعه ابن ماجد على خارطات عربيه ممتازه موضح بها خطوط الطول و العرض و على آلات ملاحيه عربيه.

و وضح من هذه المقابله أن الربان العرب كانت لديهم طرق مختلفه لحساب خطوط العرض تتفوق على تلك التى كان يستعملها البرتغال، فبينما كان هؤلاء يتبعون بطليموس فى الاستعانه بحساب ارتفاع الشمس بالاسطرلاب و يستعملون دائره محيطها ٣٦٠ كان العرب يستخدمون الحساب الليلى بقياس ارتفاع النجوم و مواقعها بالنسبه للنجم القطبى و هى طريقه أكثر دقه كما كانوا يستعملون وحده "الإصبع" فى الحساب "و إلزاما" للمسافات و يقسمون حقتهم (بوصلتهم) إلى ٢٢٤ درجه و طريقتهم كانت المثلى فى الملاحه فى المحيط الهندى.

و سرعان ما وضح لفاسكو دى گاما من مقابله لابن ماجد أنه أمام ند خطير، و أن تحت يديه كثر ثمين فى شخص هذا الربان العربى مما دفعه إلى الابحار فورا إلى الهند دون تباطؤ و بعد يومين من مقابله ابن ماجد، فترك ماليندى يوم ٢٤ أبريل عام ١٤٩٨ فوصل كلكته بعد ٢٢ يوما على حد قول المؤرخ دى باروش البرتغالى. و حالما وصلت البعثه إلى كلكتا بعث فاسكو دى گاما

بأحد أعوانه مع ابن ماجد لمقابله رجال الجمارك و اعلامهم بمجيئه و قضى الاثنان الليله ضيوفا على أحد عمال الجمارك فى كلكته و يدعى أبو سعيد فى مكان بالقرب من الميناء يسمى "كايوكات". و إلى هنا تنتهى أخبار المرشد العربى فى المصادر البرتغاليه و ان كانت هذه المصادر لتذكر أيضا أن دى گاما أرسل بمخطوطات عربيه ملاحيه و بخارطات بحريه من المحيط الهندى إلى الملك عمانوئيل ملك البرتغال، كما ينص المؤرخ دى باروش أيضا على أن البرتغال قد أفادوا من تلك المخطوطات و الخارطات العربيه فى وصفهم لمنطقه الخليج الفارسى و الساحل العربى و فى ذلك يقول فى كتابه الكبير عن آسيا: (أن جميع ما كتب عن هذه المنطقه فى كتبنا الجغرافيه مستمد من المعلومات الجغرافيه العربيه و الفارسيه التى تملك منها خمس مؤلفات..).

الآثار العلميه لابن ماجد

إشاره

أما كيف وصلتنا آثار ابن ماجد العلميه فيرجع ذلك أولا إلى مصادر تركيه و لو لم تعلن فيها صراحه أن بعض ما كتبه الأميرال التركى "سيدى على ريس" بعد نحو نصف قرن من ابن ماجد فى كتابه "محيط" هو ترجمه حرفيه لبعض كتابات ابن ماجد نفسه. و قد لاقى هذا الكتاب رواجا كبيرا و اهتماما من الغربيين فيما بعد.

ذلك أنه فى عام ١٥٥٤ م جهز العثمانيون حملة بحريه فى السويس بقياده سيدى على كاتب رومى الملقب أحيانا بالحلبى (نسبه إلى حلب) لاسترداد قطع الأسطول المصرى التى آوت إلى البصره بعد معركه مع البرتغال فى الخليج الفارسى. و تمكن سيدى على بالفعل من الوصول بتسع سفن منها (و كان عددها ١٥ سفينه) إلى ديوبو سورات بالهند بعد أن شتت عاصفه أسطوله و اضطر لالقاء مدافعه فى البحر لتخفيف حموله المراكب. و قد اشترى أمير سورات هذه السفن و تم تسريح بحارتها و أثر سيدى على البقاء بعض الوقت بالمنطقه قبل أن يعود إلى تركيا برا عن طريق الهند و خراسان فى عام ١٥٥٧ م. و خلال هذه المده أتم سيدى على الجانب الأكبر من كتابه "محيط" بالتركيه و قد ضمنه مقالات بعضها من مؤلفات ابن ماجد و سليمان المهري عثر عليها أثناء إقامته بالهند و الخليج الفارسى. و قد أشار سيدى على فى مقدمه كتابه بأنه اعتمد فى تليفه على محادثات مثمره مع المعالمة المهريه الذين التقى بهم فى الخليج الفارسى و على خمس مصنفات عربيه اثنان منهما لابن ماجد و ثلاثه لسليمان المهري. و قد حقق العالم النمساوى توماشك(٣) Tomaschek كتاب "محيط" و قدم له باللغه الألمانيه عام ١٨٩٧ م كما قدم أجزاء منه قبله المستشرق همر Hammer فى الثلاثينيات من القرن الماضى. هذا و توفى سيدى على ريس عام ١٥٦٢ م

ص: ١٣

١- حكم بين سنوات (- ٩٣٤ هـ - ١٥٢٥ م).

٢- حكم بين سنوات (- ٩٢٢ هـ - ١٥١٦ م).

٣- "Die topographischen Capital des Indischen Seespiegels" Mohit و قام بالترجمه من التركيه لهذا الكتاب المستشرق ماكس بيتنر (Max Bittner)

و على الرغم من أن اسمى ابن ماجد و سليمان المهري كانا معروفين للعلماء الأوربيين عن طريق هذا المصدر التركي منذ القرن الماضى إلا أننا ندين للمستشرق الفرنسى جيرييل فران (١٩٢١ - ١٩٢٣) فى اكتشاف ابن ماجد من جديد و نشر المخطوطتين اللذين أشرنا إليهما فى أول هذا المقال و الذين ظلا بمكتبه بباريس مده طويله دون أن يفتن أحد قبله إلى أهميتهما.

و من ثم أمكن الربط بين كتاب "محيط" و مؤلفات "ابن ماجد". و بظهور المصادر العربيه لكتاب "محيط" فقد فقد هذا المرجع الأخير كثيرا من قيمته.

و يرى البعض أن أغلب ما ورد فى كتاب محيط هو ترجمه حرفيه لآثار المعلمين العربيين (١)، بينما يرى كراتشكوفسكى (٢) و يؤيده فى ذلك آخرون بان كتاب "محيط" به إضافات جديده قيمه تدل على اطلاع مؤلفه على فنون المعالمة (الإفنج) أيضا بالاضافه إلى المصادر العربيه.

و يقال أن مؤلفات ابن ماجد تقرب من الأربيعين مؤلفا بينما يحصرها آخرون فى نحو الثلاثين و لا شك أن بعضا مما كتب ربما فقد و لم ير النور حتى اليوم.

و باستثناء كتاب "الفوائد" فان أغلب مؤلفات ابن ماجد الأخرى كتبها بالشعر، بعضها قصائد طويله و الأخرى قصيره و كثير منها يصف المسالك الملاحيه فى المحيط الهندى و بحاره و أطرافه و خلجانة، و كذلك فى أرخبيل الملايو و بحر الصين. و نحن نورد قائمه من المعروف منها كما يلي:

١ - كتاب الفوائد فى أصول علم البحر و القواعد.

٢ - حاويه الاختصار فى أصول علم البحار.

٣ - الأرجوزه المعربه التى عربت الخليج البربرى من رأس حافونى إلى باب المنذب.

٤ - قبله الإسلام فى جميع الدنيا.

٥ - أرجوزه كنز المعالمة فى علم المجهولات فى البحر و النجوم و البروج.

٦ - أرجوزه فى التتخات لبر الهند و بر العرب.

٧ - الأرجوزه المسماه بميميه الأبدال.

٨ - أرجوزه مخمسه.

٩ - أرجوزه فى عده الشهور الروميه.

١٠ - الأرجوزه المسماه "ضربيه الضرائب (٣)".

١١ - الأرجوزه المنسوبه لعلی بن أبی طالب.

١٢ - الأرجوزه الملكيه (من مكه لجده إلى فرتك لكالكوت و دابول و كنكن و جوزرات و الأطواح و هراميز).

١٣ - الأرجوزه المسماه نادره الأبدال فى الواقع و ذبان العيوق.

١٤ - أرجوزه بر العرب فى خليج فارس.

١٥ - أرجوزه قسمه الجمه على أنجم بنات نعش(٤) ١٦ - القصيده الذهبية.

١٧ - الأرجوزه المسماه بالفائقه فى قياس الضفدع(٥) ١٨ - البليغه فى قياس السهيل الرامح(٦) ١٩ - فصل فى معرفه قياس

الماززه(٧) ٢٠ - فصل فى معرفه النتخه الجاه(٨) عشره فى أرض جوزرات.

٢١ - فصل فى معرفه البلده فى أرض جوزرات.

٢٢ - فصل فى معرفه البلده على جاه عشره.

٢٣ - فصل فى معرفه المنتخ.

٢٤ - فصل فى معرفه البلده إذ كان من داخل الباب.

٢٥ - فصل فى معرفه البلده جوزرات على جاه عشره و ربع من الماززه.

٢٦ - فصل فى معرفه دير القطب من روس بحر العرب.

٢٧-٢٩ - ثلاثه أزهار و هى "الراهنامات" التى حققها شوموفسكي عام ١٩٥٧ و هى على الترتيب: الأرجوزه السفاليه و أرجوزه بر

الهند و سيلان و الصين و الأرجوزه التائيه فى وصف المجارى من جده إلى عدن.

أما كتاب الفوائد(٩) فيقع فى ١٧٦ صفحه بكل صفحه ١٩ سطرا و فى كل سطر نحو ١٣ كلمه و يحتوى بدوره على اثنى عشر

فصلا "فائده" نلخصها فيما يلى: ١ - الفائده الأولى: فى منازل للقمر و بروجيه و نجوم اخنان الحقه "أى البوصله".

٢ - الفائده الثانيه: فى ركوب البحر و أسبابه.

٣ - الفائده الثالثه: فى تعريف النجوم الملاحيه و مجموعاتها و قياسها و هى: الشرطين، البطين، الثريا، الدبران، الهنعه، الهنعه،

الذراعين، النثره، الطرف، الجبهه، الزبره، الصرفه، العواء، السماك، الغفر، الزبانيان، الإكليل، القلب، الشوله، النعائم، البلده، سعد

الذابح، سعد بلع، سعد السعود، سعد الأخييه، الفرع المقدم، الفرع المؤخر، بطن الحوت.

٤ - الفائده الرابعه: فى معرفه الاخوان و تشمل: الجدى، الفراقد، النعش و سهيل، الناقه و الحمارين، العيوق و العقرب، الواقع،

الإكليل، السماكين و التير، الثريا و الجوزاء، الطائر.

٥ - الفائدة الخامسة: فى تركيب المغناطيس على الحقه و غيره.

٦ - الفائدة السادسة: فى الديرات الثلاث.

٧ - الفائدة السابعه: فى الباشيات و القياسات. قياس الفرقدين، قياس النعوش.

٨ - الفائدة الثامنه: فى الإشارات و السياسات و ترتيب المرتب و العسكر و مناتخ جوزرات.

٩ - الفائدة التاسعه: فى بعض المرشدات الملاحيه و المسالك و أصناف المعامله.

١٠ - الفائدة العاشره: فى الجزر الكبار المشهورات المعمورات و هن:

جزيره العرب و جزيره القمر (مدغشقر) و هى مدكسكر و شمطره و جاوه و الغور و سيلان و زنجبار و البحرين و جزيره ابن جاوان و سوقطره.

١١ - الفائدة الحاديه عشره: فى المواسم الملائمه للسفر فى البحر.

ص: ١٤

١- يرى فران أنها ترجمه غير دقيقه فى بعض الأحيان.

٢- الأدب الجغرافى عند العرب ترجمه الأستاذ صلاح الدين عثمان (ج ٢ سنه ١٩٥٧).

٣- يرى المستشرق فران و عنه ينقل آخرون أن هذه الأرجوزه غير مؤرخه و لكننا استطعنا تاريخ كتابتها بخمس سنوات على الأقل بعد "كتاب الفوائد" و ذلك من أبيات فيها.

٤- نجوم ملاحيه مشهوره.

٥- نجوم ملاحيه مشهوره.

٦- نجوم ملاحيه مشهوره.

٧- نجوم ملاحيه مشهوره.

٨- نجوم ملاحيه مشهوره.

٩- منه نسخ فى الظاهريه بدمشق، و فى مكتبه باريس، و لدى الأستاذ على محمد التاجر، و يقوم الأستاذ إبراهيم الخورى بدمشق بتحقيق الكتاب و غيره من مؤلفات ابن ماجد للنشر.

و يعتبر كتاب الفوائد فى نظرنا دستور الملاحين فى جميع العصور لما فيه من حكم و صفات و أسرار للمهنة يجب أن يتصف بها قائد السفينه، و إرشادات للملاحين تنفعهم فى كل وقت، فهى تعتبر بالنسبه لهم بمثابة قسم "أبقراط" بالنسبه للأطباء. فضلا عن أن هذا الكتاب يعتبر أيضا أوفى موسوعه ملاحيه وصلتنا عن المحيط الهندى و البحار الجنوبيه حتى نهايه القرن الخامس عشر الميلادى.

و فى هذا الدستور الملاحى يتطلب ابن ماجد فى المعلم أو الربان الماهر مستوى أخلاقيا و إنسانيا معيناً، و قدرا معيناً من المعرفة بالبحر قبل أن توكل إليه قياده السفينه. و يصلح هذا الدستور لكل العصور كما ألمحنا و لا يقتصر فى الواقع على عصره فقط. انظر إلى قوله:

"اعلم أيها الطالب أن لركوب البحر أسبابا كثيره فافهمها: فأولها:

معرفة المنازل و الأختان (أختان البوصله) و الدير و المسافات و الباشيات (١) و القياس و الإشارات و حلول الشمس و القمر و الأرياح و مواسمها و مواسم البحر و آلات السفينه و ما يحتاج إليه و ما يضطر إليه فى ركوبها. و ينبغى تعرف المطالع و الاستواءات و جلسه القياس و ترتيبه و مطالع النجوم و مغاربها و طولها و عرضها و بعدها و ممرها إن كان معلما ماهرا، و ينبغى أن تعرف جميع البرور و ندرجاتها (مداخلها) و إشاراتها كالطين و الحشيش (النبات) و الحيات و الحيتان و المواوز و الأرياح و تغير الأمواه (خواص المياه) و مد البحر و جزره فى كل طريقه، و يكمل (المعلم) جميع الآله و يتفقد فى أحضان السفينه و آلاتها و رجالها. و لا يشحنها غير العاده و لا يطلع فى مركب لا يطاع فيه، و لا مركبا بغير اعتداد، و لا فى موسم ضيق (أى فى وقت لا تكون فيه الريح مواتيه)، و يعنى اتجاه الرياح الموسميه (فى المحيط الهندى) و يحترز عن الأخطار فى مثل عده و رجال (أى لا يعرض رجاله و آلات سفينه للخطر) و غيره، و ينبغى للمعلم أن يعرف الصبر من التوانى (أى يعرف كيف ينصرف بحكمه فى الوقت المناسب) و يفرق بين العجله و الحركه عالما بالأشياء، عظاما فتاكاً، لينا فى قوله، عادلا لا يظلم أحدا لأحد، مقيم على الطاعه لربه متق لله تعالى، لا يعصب (يظلم) التجار على حقوق إلا على شىء وقع عليه القول (الاتفاق) أو جرت به العاده، كثير الاحتمال على الهمة، صبارا مقبولا بين الناس، لا يسعى فيما لا يصلح له، أدبيا ليبيا و إلا فليس هو معلم بالقاعده".

و أى شروط أحسن من هذه يمكن أن يتطلبها أحد فى الربان الذى يأمنه الناس على أرواحهم و أموالهم فى البحر.

و ابن ماجد يولى انتباها كثيرا لطريقه القياس قبل أن يحدد الربان اتجاهه فى البحر فيقول بان القياس. "يكون من مقدمه السفينه يؤيده بقياس من المؤخره" و للقياس جلسه خاصه و ينبغى أن يكون الربان يقظا فى كل الأحوال. انظر إلى دقته فى القياس من قوله "و أكثر الباشات فيها كسور فلذلك قالوا أن الغلط من القياس بين المعلمين ربع إصبع ليس بغلط، و لكنه (فى نظرى) فضاح فى النتخات خصوصا فى ديره الشقاكات فى مثل من فرتك إلى عدن أو من الكرازى للسند".

أو قوله "شرط القياسات أن تكون ضيقه بين النجم و الخشبه خيط و بين الخشبه و الماكدك خيط كحد السكين يراه الذى يقيس".

ثم إن علمه كان مبنيا على التجربه و قلما كان يثق فى قياسات لم يحققها هو بنفسه حتى و لو كانت قياسات أبيه، و فى ذلك يقول:

"كان جدى عليه الرحمه محقق فيه و مدقق و لم يقر لأحد فيه و زاد عليه الوالد - رحمه الله عليه - بالتجريب و التكرار و فاق علمه علم أبيه. فلما جاء زماننا هذا و كررنا قريبا من أربعين و قد حررنا و قدرنا علم الرجلين النادرين و ورخاناه و جميع ما جربناه أرخاناه - انكشف لنا عن أشياء و حكم لا يجمعها فى زماننا شخص واحد إلا أن يكون عنده شخص متفرقه. فنخاف أن يدركنا الموت و نوادر الحكم فى القلوب".

و بحث ابن ماجد الرباين دائما على زياده العلم و التحصيل و ينصحهم بالبعد عن الخيلاء و دوام المساءله فيقول " فإنه علم نفيس لا- يتم إلا بتمام العمر و من لا يدرك كله لا يترك كله "، أو " ينبغى ألا يتكبر فيه الإنسان و ينبغى البعد عن الخيلاء عند كمال العلم " أو قوله " لعارف هذا العلم أن يسهر الليل و يجتهد فيه غايه الاجتهاد، لأنه علم عقلى، و كثره السؤال فيه ترقيه لباقيه".

و لابن ماجد فوق ذلك " اختراعات " كثيره فى علم الفلك و الملاحة و من ذلك قوله " و من اختراعنا فى علم البحر تركيب المغناطيس على الحقه بنفسه و لنا فيه حكمه كبيره لم تودع فى كتاب... أنه لم يقابل الجاه (القطب الشمالى) إلا سهليه (القطب الجنوبى) فميزوا فى هذه النكته فإذا كان أحد يعرف فنحن مسبقون، كذلك و رتبنا المنكاب و أدركناه فى الذهبية و شرحها" . و معنى هذا أن ابن ماجد استعان بنجوم نصف الكره الجنوبى و بالقطب الجنوبى أيضا فى قياساته و هى أصلح القياسات للمحيط الهندى.

و لا ريب فى أنه ابتكر طريقه لتعليق الابره المغناطيسيه فوق قرص " ورده الرياح " الذى عليه تقسيمات دائره الأفق وفقا للجهات الأصلية تمتاز عن الطريقه القديمه التى كانت تعتمد على قطعه رقيقه من المعدن المطروق على شكل سمكه تطفو فوق الماء فيشير فمها إلى القطب (٢) هذا و قد تمكن بعض المحققين من تقدير وحدات القياس التى ورد استعمالها فى كتابات ابن ماجد فعلى ذلك تنقسم الحقه (الدائره أو ورده الرياح) العربيه إلى ٣٢ خنا (و الخن الزاويه التى تحددها المسافه أو القوس بين مطلع نجمين متجاورين أو مغيبهما على الدائره) و بكل خن سبعة أصابع (الإصبع وحده قياس أو درجه على الدائره).

و على ذلك يكون تقسيم الدائره العربيه مساويا ل ٣٢ خنا.

٧ أصابع ٢٢٤ إصبع و على ذلك أيضا يكون " الإصبع " مساويا ل ١٣٧ ٠ [درجه] باعتبار تقسيمنا للدائره إلى ٣٦٠ درجه بدل ٢٢٤ أى أن الإصبع أكبر من الدرجه المعتاده.

إذن يكون الإصبع مساويا ل ٩٧ ميلا بحريا من أميال الملاحة - ١ ترفا (وحده تغير الارتفاع) - ٨ زاما (و هى وحده طوليه للطريق الملاحي).

- ١- الباشى هو ارتفاع نجم معين بالنسبه للنجم القطبى عند ما يكون الأخير على أقل ارتفاع له فوق الأفق.
- ٢- انظر مقال المقريزى فى الخطط.

و إلزاما على الأساس تعادل مسيره ثلاث ساعات فى البحر فى المتوسط بالشراع أى ١٢ ميلا بحريا.

و لابن ماجد فضلا عن تحقيقاته و قياساته الفلكيه و الملاحيه إضافات جديده كثيره عن الريح و تغير المياه و مناطق دخول "البرور" و علاماتها و عن الحيوان البحرى و المد و الجزر " و المحذورات " التى تعوق الملاحه كالشطوط المرجانيه و الأقاليم الرملية (و يسميها التقاصير) و عن الأعماق فضلا عن وصف الجزر و مسالك الملاحه مما لا يمكن حصره جميعا فى مثل هذا المقال.

و نعتقد أننا استشهدنا فى متن هذا البحث بالكثير من الفقرات التى توضح طريقه تفكير هذا الملايح العربى العظيم و المعلم القدير.

الدكتور أنور عبد العليم

دفاع و تقويم

و قد علق المؤرخ على التاجر على ما تقدم بهذا البحث:

الأرضيه التاريخيه

١ - لم يأت وصول البرتغاليين إلى الهند عن طريق الصدفة، و إنما جاء نتيجة لجهود متواصله استمرت أكثر من سبعين سنه من الزمن، فما هى صله أحمد بن ماجد بها؟ لا صله له بها البته، اللهم إلا ما يقال من أنه هو نفسه الربان الذى قاد سفينه فاسكو دى گاما البرتغالى من ساحل إفريقيا الشرقى إلى الهند لأول مره عام ١٤٩٨ م فما صحه هذا القول؟.

كان البرتغاليون حينما وصلوا إلى إفريقيا الشرقيه لأول مره، على بينه من أمرهم، و يعرفون أن أى ربان من عشرات الربانين الذين يقطعون المحيط الهندى سنويا، ما بين السواحل الإفريقيه و السواحل الهنديه، قادر على قيادتهم إلى الهند، فقد سبق للجاسوس البرتغالى كوفلهام أن "اكتشف" هذا الطريق من قبل، و وصفه وصفا دقيقا، عرف البرتغاليين معالمه بصوره شامله، كما وصف الأوضاع السياسيه و الاجتماعيه و الاقتصاديه التى كانت سائده آنذاك فى المحيط الهندى.

٢ - إننا لا نجد مؤرخا برتغاليا واحدا ممن عاصروا فاسكو دى گاما، و عنوا بتاريخ رحلاته، أو ممن جاءوا على آثارهم، قد مر على لسانه اسم "أحمد بن ماجد" و لو بصوره محرفه، كما هو شأنهم بالنسبه للاعلام العربيه.

أما الربان الذى قاد سفينه دى گاما من ملندى إلى كليكوت، فيطلقون عليه لقب كانا أو كاناكا، و يجمعون على كونه "هنديا" من كجرات.

صحيح ان مؤلفات هؤلاء المؤرخين لم تطبع إلا بعد نصف قرن تقريبا من رحله دى گاما(١)، و ربما تأخر طبع بعضها أكثر من ذلك، و لكننا لا ندرى كيف يؤدى ذلك "إلى اختلاف الروايات حول اسم الملايح الذى أرشد فاسكو دى گاما إلى الهند" (٢) ثم إن تلك الروايات لا تختلف على اسم ذلك الملايح. إنها لم تذكر اسمه قط، فكيف تختلف فيه؟ و إنما اكتفت بذكر

لقبه، أو مهنته فقط. "و جدير بالذكر أن لفظ معلم، و جمعه "معالمه"، كان هو (الاصطلاح) الملاحي المرادف للربان، أو القبطان. أما لفظ "كانا" أو "كاناكا"، فيعني بلغة السنسكريت "الحاسب" أو "المنجم"، و المقصود به هنا الخير بالملاحه الفلكيه (٣). "أورد الدكتور أنور عبد العليم، اسمى مؤرخين من مؤرخى البرتغال، الذين عنوا بالكتابة عن رحلات فاسكو دى گاما، و هما كاستنهدا F.L.Castenheda و دى باروش Joao de Barros و كلاهما من كبار المؤرخين البرتغاليين الذين عاصروا دى گاما، و أقاموا بعض الوقت فى الهند. و يعتبر دى باروش المرجع الأصيل فى الموضوع. أما كاستنهدا، فيمتاز بالدقه فيما كتبه عن الأحداث التى شهدها بنفسه.

و بالاضافه إلى هذين المؤرخين، فهناك ثمه عدد من مؤرخى البرتغال ممن عاصروا دى گاما، و من أهمهم جاسبر كوريا Casper Correa. و كان كوريا قد ذهب إلى الهند، و اشتغل كاتباً لألبوكرك فى سنواته الأخيره، فتسنى له بذلك الاطلاع على بعض المعلومات التى لم تتوفر لغيره. و قد وضع تاريخاً لأعمال البرتغاليين فى الهند خلال الثلاث و الخمسين سنه الأولى من وصولهم إلى تلك البلاد. و لكتابه أهميه خاصه، فقد امتنع عن نشره فى حياته حتى تتوفر له الحريه الكامله للكتابة بصراحه تامه، و تسجيل الوثائق البشعه على علاقتها عن يتصدى للكتابة عنهم من غير تشذيب أو تزويق، دون أن يعرض نفسه لانتقام الزبانيه الموكلين بديوان التفتيش. كما اطلع على أجزاء من مذكرات كتبها جون فيجويريا Joao Figueria، و هو راهب كاثوليكى كان فى حمله فاسكو دى گاما الأولى. و قد ترجم هنرى ستانلى. Henrye.J Stanley ما كتبه كوريا عن رحلات دى گاما الثلاث إلى الهند، و نشرته فى سنه ١٨٦٩ م جمعيه هكلويت HaKluyt Society الإنجليزيه الشهيره فى صوره كتاب بعنوان "رحلات فاسكو دى گاما الثلاث" The Three Voyages of Vasco de Gama.

و هناك ثمه مذكرات ثانيه وضعها مؤلف مجهول من رجال فاسكو دى گاما فى رحلته الأولى، و تعتبر من أوثق ما كتب عن تلك الرحله (٤)، و تنص بكل وضوح على أن الربان الذى قدمه ملك ملندى لفاسكو دى گاما من المسيحيين (٥)، و كان البرتغاليون فى أوائل عهدهم بالمحيط الهندى يعتبرون الهنود إما مسلمين أو مسيحيين. فمن لم يكن مسلماً فهو مسيحي فى نظرهم، حتى و لو كان من الهندوكيين. و على هذا فالترجمه الصحيحه "لمسيحي" فى هذه المناسبه، هى "هندوكى"، بصوره مؤكده.

٣ - عاصر وصول البرتغاليين إلى المحيط الهندى عدد من المؤرخين العرب فيما يعرف اليوم باليمن الجنوبيه، منهم شنبلى، مؤلف تاريخ شنبلى، و المتوفى سنه ٩٢٠هـ/١٥١٤ م، و هو من أهل تريم، و عبد الله بامخرمه مؤلف كتابى "قلاده النحر"، و "تاريخ نجر عدن"، و المتوفى سنه ٩٤٧هـ/١٥٤٠ م و ينتهى كتابه بسنه ٩٢٧هـ/١٥٢١ م، و ابن أخيه عبد الله بن عمر الطيب بامخرمه، مؤلف "رشف الزلال الراوى فى التكميل و التذييل على طبقات الأنساوى"، و المتوفى سنه ٩٧٢هـ/١٥٦٤ م، و ينتهى كتابه بسنه ٩٤٨هـ/١٥٤١ م (٦).

٤ - و عاصر وصولهم أيضاً إلى المحيط الهندى، أحمد بن محمد بن إياس

ص: ١٦

٢- الفوائد، العرب س ٤ ص ٨٤٠. انظر كذلك "ابن ماجد الملاح" ص ٤٩.

٣- الفوائد، العرب س ٤ ص ٨٤. انظر كذلك "ابن ماجد الملاح" ص ٤٩.

٤- الفوائد، العرب س ٤ ص ٨٤٠. انظر كذلك "ابن ماجد الملاح" ص ٤٩.

٥- H.J.Wood,Exploration Discovery;C.D.Ley,Portuguese Voyages ٤٩٨-١٦٦٣,P. Xi Charles

DavidLey.portuguese Voages ١٤٩٨-١٦٦٣,P.xi

٦- نجيل من أراد التوسع في معرفه مؤرخى جنوب الجزيره العربيه إلى ما كتبه عنهم الأستاذ سر جنت مؤلف كتاب "البرتغال أمام الساحل العربى الجنوبى".

المصرى، مؤلف "بدائع الزهور فى وقائع الدهور"، وقد عنى بتسجيل بعض النبذ عن القرصنه البرتغاليه و تصدى المصريين لها فى البحر الأحمر و المحيط الهندى.

٥- و قبل أن تتلاشى أصداء الأحداث التى وقعت فى المحيط الهندى نتيجه لقرصنه البرتغاليين، جاء رجيل آخر من مؤرخى جنوب الجزيره العربيه، بحيث يمكننا اعتبارهم من معاصرى تلك الأحداث، مثل با فقيه الشجرى، و عبد الله بن محمد سنجله، و مؤلف النور السافر، و مؤلف السنه الباهر، و مؤلف روح الروح، و غيرهم كثير (١) ٦- و فى الهند كتب عبد الله بن محمد الأوغخانى Ulughkhani تاريخا لكجرات، احتوى على معلومات قيمه و موثوقه عن جنوب الجزيره العربيه (٢) و جميع هؤلاء المؤرخين من معاصرى أحمد بن ماجد، أو ممن جاءوا على آثارهم، فى الجزيره العربيه و خارجها، لا يذكر أى واحد منهم أى صلح لأحمد بن ماجد بالبرتغاليين، بل لا يكاد اسمه يجرى على لسان أحدهم.

٧- و "فى عام ١٥٥٤ م جهز العثمانيون حملة بحريه فى السويس، بقياده سيدى على كاتب رومى الملقب بالحلبى (نسبه إلى حلب) لاسترداد قطع الأسطول المصرى التى أوت إلى البصره بعد معركه مع البرتغال فى الخليج الفارسى، و تمكن سيد على بالفعل من الوصول بتسع سفن منها (و كان عددها ١٥ سفينه) إلى ديوى سورت بالهند، بعد أن شتت عاصفه أسطوله و اضطر لالقاء مدافعه فى البحر لتخفيف حموله المراكب. و قد اشترى أمير سورت بالهند هذه السفن، و تم تسريح بحارتها، و آثر سيد على البقاء بعض الوقت بالمنطقه، قبل أن يعود إلى تركيا برا، عن طريق الهند و خراسان فى عام ١٥٥٧ م. و خلال هذه المده أتم سيد على الجانب الأكبر من كتابه "محيط" بالتركيه، و قد ضمنه مقالات بعضها من مؤلفات ابن ماجد، و سليمان المهري (٣)، عثر عليها أثناء إقامته بالهند و الخليج و قد أشار سيد على فى مقدمه كتابه بأنه اعتمد فى تاليفه على محادثات مثمره مع المعالمة المهريه الذين التقى بهم فى الخليج، و على خمس مصنفات عربيه، اثنان منها لابن ماجد، و ثلاثه لسليمان المهري".

و ربما كان من المستحسن أن نستمع إلى سيد على نفسه، يحدثنا عن بعض انطباعاته و تجاربه فى الخليج و المحيط الهندى أبان تلك الفتره. قال:

"فى عام ١٥٥٤ م أقمت خمس أشهر فى مدينه البصره، حتى بدأت الرياح الموسميه، ثم أفلت إلى الهند. و قد دامت رحلتى هذه ثلاثه أشهر، تبتدى من أول شهر شعبان، و تنتهى فى سلخ شوال، أى من ٢ تموز - ٢٧ أيلول ١٥٥٤ م. و كنت خلال هذه الأشهر الثمانيه أثناء إقامتى و رحلتى لا أدع فرصه تمر دون أن أشغل نفسى فى الحديث بأمر الملاحه مع نوتيه السواحل، أو ملاحى مختلف البلدان، ممن كانوا على ظهر سفينتى، و بذلك علمت كيف عبر الربابنه الأقدمون هرمز و هندستان، أمثال: (الليث بن كهلان، و محمد بن شادان، و سهيل بن أبان). و كذلك جمعت الكتب التى ألفها البحاره المحدثون، أمثال: (أحمد بن ماجد) من جلفار من مقاطعه عمان، و (سليمان بن أحمد المهري) من الشجر من عرب الجنوب. كما جمعت الكتب المعروفه ب " الفوائد و الحاويه " لأحمد بن ماجد، و " تحفه العقول و المنهاج و قلاده الشموس " لسليمان المهري، و تعمقت فى دراستها كلها، إذ الملاحه فى المحيط الهندى بدون هذه الكتب جد [جدا] متعذره، فالربابنه و القواد الغرباء لا يعرفون سبيل هذا البحر، و لا بد لهم من ربان يدلهم على الطريق، ما دامت تنقصهم المعلومات الضروريه، و لذا وجدت من اللازم اللازم قراءه أفضل المؤلفات، و نقلها إلى اللغه التركيه فى كتاب يكون دليلا للربابنه الذين تهتمهم معرفه مثل هذه الأمور... و ترجمتى لهذه الأسفار العربيه انتهت بمعونه الملك القدير جل شانته، و قد حوى كتابى هذا أشياء غريبه كثيره تتعلق بالملاحه، و سميته

"المحيط" (٤)...". و قد خص سيد علي، أحمد بن ماجد بالمديح والإطراء، وقال عنه أنه "الباحث عن الحقيقه بين البحارين..." وأنه "أفضل ربان الشاطئ الهندي الغربي في القرنين الخامس عشر و السادس عشر مقدره و نراهه" (٥) و كان في استطاعه سيد علي أن يضيف على هذا المديح لأحمد بن ماجد، الجملة التاليه، أو ما يماثلها:

" و هو الذي قاد البرتغاليين، أو قاد فاسكو دي غاما، إلى الهند".

و لكن هذه الأسطوره لم تكن قد برزت إلى الوجود بعد، و لذلك فان سيد علي، لا يعزو في كتابه أية صلته لأحمد بن ماجد بالبرتغاليين.

٨ - عاصر ابن ماجد ربان آخر من جنوب الجزيرة العربيه، هو سليمان المهري (توفي سنه ٩٦١ هـ / ٢). و قد ترك لنا عددا من المؤلفات العلميه عن البحر، وصلنا خمسها منها، ليس فيها أى ذكر لأحمد بن ماجد على الإطلاق.

فما السر في تامر كل هؤلاء المؤرخين، عربا كانوا أو أتراكا أو برتغاليين، على عدم الإشاره إلى تلك الصله المزعومه لأحمد بن ماجد بالبرتغاليين؟ ٩ - و أحمد بن ماجد نفسه؟ إننا لا نجد في جميع ما وصل إلينا من مؤلفاته، أية إشاره لاتصاله بالبرتغاليين، حتى و لا مجرد ذكر للقاء عابر بأحدهم في إحدى الموانئ التي كان يتردد عليها في شرق إفريقيا و الخليج و الهند. و لكننا على النقيض من ذلك نحس شده حنقه عليهم، و غيظه منهم، كلما مر ذكرهم على لسانه، كقوله:

و ساحل البر و كل جزره فحكمها للبرتغال الفجره

و البرتغالى حكم الجميعا كفيت كل الشر و التصديعا

و جا لكاليكوت خذ ذى الفائده لعام تسعمائه و ست زائده

و باع فيها و اشترى و حكما و السامرى برطله و ظلما ٣.

ص: ١٧

١- انظر الحاشيه السابقه.

٢- R.B.Serjeant, The portuguese off the South Arabian Coast, p.٣٩.

٣- يقول حسن الأمين: عرف عن المعلم سليمان المهري أنه ربان ماهر و مؤلف صرف علمه لفنه دون الخروج منه إلى مجال آخر، و هو ينتمى إلى قبيله مهرة التي تمتد مساكنها على طول الساحل الجنوبي للجزيره العربيه حتى عمان. و لم يتضح متى ولد سليمان بن أحمد المهري. و يعتقد أمير البحر سيد علي أنه لم يكن في عداد الأحياء سنه ٩٦١ هـ (١٥٥٤ م). و المهري أتم كتابه العمده المهريه سنه ٩١٧ هـ (١٥١٠ م) فيكون قد عاش بعد تاليفه لكتابه هذا أربعا و أربعين سنه. و من الجائز أن يكون قد عاش قبل تاليفه لهذا الكتاب أربعين سنه. و على هذا الافتراض يكون ميلاده سنه ٨٧٧ هـ (١٤٧١ م).

٤- محمود ياسين الحموي، أحمد بن ماجد الملاح العربى "، ص ١٣.

و سار منها مبغض الإسلام و الناس فى خوف و فى اهتمام

و خبرتى بحمله الفرنجى من جانب السودان شط اللجى

و هو الذى قد قهر المغاربه و أندلس فى حكمه مناسبه

و قد نزع من أن هذا الشعور المعادى للبرتغاليين، من جانب أحمد بن ماجد ما هو إلا ترجيع لاحتاسه بالخيبه، و شعوره بالمرأه للنتيجه التى أدت إليها قيادته البرتغاليين إلى الهند، " إذ لم يكن بخلده أن هذه الحمله ستعود على الملاحه العربيه بالدمار و الخراب "(1) و لكن مثل هذا الزعم لا ينسجم مع المنطق، إلا إذا ثبت أولا أن أحمد بن ماجد قد قاد البرتغاليين فعلا إلى الهند.

النهرالى

ثم جاء النهرالى بعد ثمانين سنه تقريبا على زياره فاسكو دى كامال للمحيط الهندى، فاخترق تلك الأسطوره عن تعاون أحمد بن ماجد مع البرتغاليين. فمن هو النهرالى؟ هو الشيخ محمد بن أحمد النهرالى، نسبة إلى نهرواله، و هى بلده صغيره من كجرات، تسمى اليوم "بتن" و عدد سكانها ٣٠,٠٠٠ نسمة.

ولد فى "لاهور" فى سنه ٩١٣هـ، و تربى فى الهند، ثم هاجر إلى الحجاز و هو ما يزال صغيرا دون البلوغ، و تعلم على والده، ثم اتصل برجاله الدوله العثمانيه، و كانت قد استولت على الحجاز بعد هجرته إليها، و توثقت صلته بهم، و تعلم التركيه و أتقنها حتى صار يؤلف و ينظم بها، و يترجم عنها.

و تعددت أسفاره إلى مصر و الشام و بلاد الأتراك.

و كانت صلته بالحجازيين سيئه فى الغالب. و قد احترق بيته، و احترقت مكتبته، و كان الحريق مدبرا كما يقولون. أما صلته بالأتراك فكانت على أحسن ما يرام: غمروه بالعطاء، و خصصوا له راتب سنويا يوازى راتب شيخ الحرم المكى، و رتبته لديهم تلى رتبه شريف مكه. و لما أنشئت المدارس السلعيانيه بمكه، عهدوا إليه الاشراف على بناء مدرسه الأحناف منها. و كان هذا الاشراف يدر على القائمين به مالا كثيرا. ثم تولى التدريس فيها بعد إتمام إنشائها، براتب مقداره ٦٠ عثمانيا فى اليوم. أما من جانبه فقد قابل إحسانهم هذا بالتفانى فى جهم، و المغالاه فى الدعوه إليهم و الإشاده بذكهم، فطفحت مؤلفاته بالمبالغه فى مدح سلاطينهم و رجال دولتهم، و هو ما تجب ملاحظته عند قراءه كتبه، و خاصه كتابه "البرق اليماني"، الذى يزخر بالتحامل الشديد على العرب و ذمهم فى أغلب الأحيان.

" و مع أن القطبى حنفى المذهب، إلا- أنه كثيرا ما يخالف مذهبه، و المخالفه إذا كانت جاريه على أساس من الدليل فهى محموده، غير أنه - و الله يغفر له - قد يفتى بعض الرؤساء بفتاوى يؤاخذ عليها".

البرق اليماني

و للنهرالى عدد من المؤلفات، يهمنها منها بصفه خاصه، كتابه "البرق اليماني فى الفتح العثماني، فقد انطلقت تلك الأسطوره

عن علاقه أحمد بن ماجد بالبرتغاليين. " ويتضمن هذا الكتاب مجمل تاريخ اليمن، من أول القرن العاشر الهجرى إلى آخر سنه ٩٧٨ هـ، و يفصل ما قامت به الدوله العثمانيه من أعمال عنيفه لمحاوله الاستيلاء على ذلك القطر، و يصور أول صراع بين قوات أجنبيه محاربه و بين العرب فى جنوب الجزيره "(٢)" و أصل هذا الكتاب أن القائد سنان باشا، بعد عودته من غزو اليمن [سنه ٩٧٨ هـ]، طلب من القطبى [النهروالى] أن يؤلف كتابا عن فتوحاته هناك. و قدم له كتابا عنها منظوما و مؤلفا باللغه التركيه، نظمه مصطفى بك الرموزى، أمير اللواء، و " دفتر دار اليمن "(٣) و قد انتفع النهروالى بذلك الكتاب التركى انتفاعا كبيرا "(٤)

مثال على تخطيطه التاريخى

و النهروالى قليل الاهتمام بتحرى الحقيقه، عديم العنايه بصحه ما يكتب، و خاصه بالنسبه للتاريخ.

اهتم السلطان قانصوه الغورى، اهتماما كبيرا بوصول البرتغاليين للمحيط الهندى، و المجال لا يتسع هنا لشرح الأسباب، فجهز عماره بحريه فى السويس، و عهد بقيادتها إلى حسين الكردى. و قد أبحرت تلك العماره من السويس فى الأيام الأولى من جمادى الثانيه سنه ٩١١ هـ - سبتمبر ١٥٠٥ م، و كان الحجاز يعيش آنذاك فتره عصيبه من جراء الصراع على الحكم بين أفراد البيوت الحاكمه فيه، و توالى الثورات على أرضه. و قد انغمس أمراء الحج من المماليك فى ذلك الصراع، مما اضطر الغورى إلى تجريد أكثر من حملته حربه لاعاده الأمن و الاستقرار إليه. و كان الحجاز من الأمكنه الحساسه بالنسبه إلى حكم المماليك. فبالإضافه إلى ما كان يضيفه عليهم من الفخار و الشرف فى أنظار العالم الإسلامى بوصفهم حماه البلد الأمين، و خدام الحرمين الشريفين، فقد كان لميناء جده أهميه خاصه بالنسبه للاقتصاد المصرى، نظرا لما كان لها من أهميه تجاريه، ناشئه من كون الجزء الشمالى من البحر الأحمر مليئا بالصخور المغوره، و الشعب المرجانيه، مما يجعل الملاحه فيه محفوفه بالخطار. و لذلك فقد كانت السفن الكبيره تتجنب السفر فيه، و تفضل أن تفرغ ما تحمل من بضائع إلى مصر فى جده، و تتوسق فيها بالبضائع المصريه المرسله إلى الهند و الشرق الأقصى. و كانت تتولى نقل البضائع من جده إلى السويس، و من السويس إلى جده، سنابيك(٥) صغيره جدا فى الغالب، لأن قله الغاطس فى هذه السنابيك يجعلها أقل عرضه للأخطار، من السفن الكبيره، و لأن الخساره التى تنجم عن فقد أحد هذه السنابيك ضئيله جدا إذا ما قورنت بالخساره الكبيره التى تنجم عن فقد إحدى السفن الكبيره. و من هنا كانت أهميه جده بالنسبه للاقتصاد المصرى.

بعد سفر الحمله المصريه من السويس بثلاثه أشهر، "جاءت الأخبار من مكه [من أوائل سنه ٩١١ هـ] بان الأحوال فاسده، و ان عربان بنى إبراهيم قد التفوا على يحيى بن سبع أمير الينبع، و مالك بن رومى، أمير خليص، و قد اشتد الأمر فى ذلك جدا فلما تحقق السلطان [قانصوه الغورى] ذلك أمر بإبطال التوجه إلى الحجاز فى هذه السنه من مصر و الشام و سائر الأعمال قاطبه، و كانت هذه الوقعه من أعظم المصائب و الثلم فى

ص: ١٨

١- عبد الله الماجد، "العرب" س ٣ ص ٧٣.

٢- الجاسر، ص ٦٠-٦٨. فى مقدمه البرق اليمانى.

٣- الجاسر، صفحه ٦٨.

٤- الجاسر، صفحه ٦٨.

٥- نوع من السفن الشراعيه ما يزال واسع الانتشار في الخليج العربي و البحر الأحمر الواحد منها سنوك.

الدين. وقد حضر الركب التكروري، و الركب المغربي، و لم يحج منهم أحد في تلك السنه. ثم إن السلطان أرسل كسوه الكعبه الشريفه، و صرر الحرمين، و الزيت، من البحر المالح في مراكب من الطور، و يتوجهون من هناك إلى جده... و لم يسمع من مبتدأ دوله الأتراک [الممالیک] و إلى الآن، بان الحجاج امتنع خروجهم إلى مكه سوى في هذه السنه، و هي سنه إحدى عشره و تسعمائه^(١) و قد ورطت الحمله المصريه نفسها في ذلك الصراع الحجازي، ثم ما كانت تفرغ منه حتى شرع حسين الكردي في بناء أبراج و سور على ساحل جده، و ذلك في أواخر سنه ٩١٢ هـ / ١٥٠٦ - ٧ م، فاضاعت الحمله وقتا ثميناً جداً.

و أخيراً أبحر الأسطول المصري إلى الهند في سنه ٩١٣ هـ، ١٥٠٧ م، و حينما وصل إليها، أرسل الميدا Almeida حاكم الهند البرتغالي، و ولده لورننزو Lourenco لمنازله الأسطول المصري. و التقى الأسطولان في شاول Chaul (يناير ١٥٠٨ م)، و اشتبكا في معركة ضاربه، استمرت يومين كاملين، عزم البرتغاليون في نهايتهما على الفرار، و لكن المصريين ضربوا نطاقاً حول الأسطول البرتغالي، و تمكنوا من اقتحام سفينه القيادة البرتغاليه و قتل قائدها و إغراقها. و لم ينج من الأسطول البرتغالي، سوى سفينتين صغيرتين انتهزتا فرصه الفوضى التي أعقبت إغراق سفينه القيادة البرتغاليه، فانسلتا من الحصار، و فرتا إلى القاعده البرتغاليه في كوشين nihcoc تحملاً إلى البرتغاليين أبناء الفاجعه التي حاقت بأسطولهم^(٢) و لكن حسين الكردي لم يتابع هجومه على البرتغاليين، و تلكا طويلاً. في ديو uid حتى هاجمه الميدا في ٣ فبراير سنه ١٥٠٩ م، ٩١٤ هـ. و كان الأسطول البرتغالي مؤلفاً من ١٩ سفينه، بينما لم يتجاوز عدد الأسطول المصري ١٠ قطع فقط. و مع ذلك فلم تسفر المعركه عن نتيجة حاسمه، و لم يستطع أحد الطرفين أن يدعى النصر لنفسه^(٣) و على الرغم من الخسائر الفادحه التي تكبدها الطرفان. و لكن الأمير حسين الكردي اضطر إلى الانسحاب من الهند، فابحر إلى البحر الأحمر بثلاث سفن محمله بالتوابل و البضائع الثمينه، قدمها إليه ملك كجرات، كيما يستعمل ثمنها في تحصين جده و إكمال سورها، حمايه لها من قرصنه البرتغاليين، إذا ما سولت لهم أنفسهم مهاجمتها.

و ما كاد حسين الكردي يصل إلى جده، حتى شرع في إتمام "عمارته الصور و الأبراج". و هذا ما يؤكده ابن إياس في عبارته يشوبها شيء من الاضطراب^(٤) و يؤكده المؤرخون البرتغاليون الذين كانوا يتبعون من الهند حركات حسين الكردي بدقه بالغه^(٥) ثم توجه حسين الكردي إلى القاهره، فوصلها يوم الخميس سلخ رمضان المبارك سنه ٩١٨ هـ، ١٥١٢ م بعد غيبه دامت "سبع سنين و ثلاثه أشهر" و كان الغوري أثناء ذلك يعمل جاهداً على أعداد أسطول ثان في السويس، على الرغم من الأزمات العصيبه التي كانت تكتنفه من كل ناحيه، و العقبات الكبيره المثبطه التي اعترضت سبيله. و قد ساعده على ذلك السلطان بايزيد الثاني، فامده بكثير من المعدات و أدوات القتال. و قد وصلت إحدى امداداته إلى مصر في أواخر شوال سنه ٩١٦ هـ، ١٥١٠ م^(٦) و وصلت أخرى في رمضان سنه ٩١٨ هـ، ١٥١٢ م^(٧). ثم أمده ب ٢٠٠٠ مقاتل من العثمانيين، و على رأسهم الرئيس سليمان للعمل في الأسطول^(٨) لم أتمد إلى تاريخ مجيء الرئيس سليمان و رجاله إلى مصر، و لا- أدرى هل جاءها مع الامدادات العثمانيه الأولى؟ أم مع الثانيه؟ أم جاء مع رجاله على حده؟ و لكنه كان في السويس عند ما زارها السلطان الغوري في أوائل سنه ٩٢٠ هـ، ١٥١٤ م للكشف على سفن الأسطول المصري التي كان يجري انشاؤها هناك^(٩).

و كان سليمان هو الذي أشرف على أعداد ذلك الأسطول و تجهيزه^(١٠) و قد أنفق عليه الغوري، "نحو اربعمائه ألف دينار و كسور بالاضافه إلى الامدادات التي جاءت من بايزيد. و قد عهد الغوري إلى الرئيس سليمان قياده ذلك الأسطول، فخرج و جنوده من القاهره في ١٠ رجب سنه ٩٢١ هـ، ١٥١٥ م، و كان الأسطول مؤلفاً من ٢٠ مركبا. و قد أبحر إلى جده للانضمام إلى

الأمير حسين الكردي الذي كان قد سبقه إليها في ١٤ جمادى الآخرة سنة ٩١٩ هـ، ١٥١٣ م. و ليس من غرضنا أن نتبع أثر الحمله بعد أن أبحرت من السويس، و يكفي أن نشير إلى أنها انحرفت عن غايتها الأولى، و هى التصدى لمقاومه البرتغاليين فى المحيط الهندى، إلى محاربه اليمينين.

استغرقت هذه الأحداث فتره من الزمن تمتد من سنه ٩١١ هـ، ١٥٠٥ م إلى ٩٢١ هـ، ١٥١٥ م. أى أكثر من عشر سنوات. فكيف عالجه النهروالى؟ لنستمع إليه:

"...فجهز السلطان (قانسوه) من كبار مقدميه الأمير حسين الكردي، و أصحابه طائفه كبيره من اللوند، كبيرهم سليمان الرئيس، و حجز لهم عماره عظيمه، و أغربه نحو الخمسين، بمدافع كبيره، و ضربانات و ولاه نيابه جده، و عظم شانه. و كان مقداما شجاعا فاتكا، كثير الظلم، شديد السياسه. فأول ما جاء بنى على جده سورا محيطا بها فى عام سبع عشر و تسعمائه، حمل فيها التجار التراب و الأحجار، و هدم ما أراد من بيوت المسلمين، و غصبها و أدخلها فى البناء، و وضع بعض التجار فى وسط البناء لىبنى عليه، فخلص نفسه بمال كثير، بعد الشفاعة فيه...

" و لما فرغ الأمير حسين من بناء سور جده، توجه باغربته إلى الهند، و دخل "أمير"، و اجتمع بالسلطان مظفر شاه، و حصل منه امداد كبير غير أن الفرنج ارتفعوا إلى كوه (جوه)، و ما أمكن الأمير حسين أن يستمر فى ٦.

ص: ١٩

- ١- أحمد بن محمد بن إياس: "بدائع الزهور فى وقائع الدهور"، ج ٤ ص ٨٩.
- ٢- Panikkar.Asia and wester Dominane.P.٤٥:F.B.Eldridge.The Background of Eastern S. PP.١١٦-٧ Panikkar.٤٥
- ٣- ابن إياس، بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ط. دار المعارف بالقاهره، ج ٤ ص ٢٨٦ - ٢٨٧.
- ٤- (The. De Barros.Daadas(Dec.III.,KK.i.ch.٣.quoted by Mansel Longworth Dames. (Book of Duarte Barbosa.Vol.PP.٤٨-٥٠n
- ٥- ابن إياس، ج ٤ ص ٢٠١.
- ٦- ابن إياس، ج ٤ ص ٢٠١.
- ٧- المصدر نفسه ص ٢٨٥.
- ٨- المصدر نفسه ص ٣٦٥، ٤٥٨.
- ٩- المصدر نفسه ص ٣٦٥.
- ١٠- المصدر نفسه ص ٣٦٦.

الهند، فعاد من غير عمل، فوصل إلى بندر كمران (1)، و معه العدد والآلات، و كثير من عسكر اللوند و منهم الأمير سليمان الرئيس، و كان فاتكا شجاعا، ذا معرفه بالحروب، خصوصا بالمدافع و البنادق (2) و أحسبني لست في حاجه بعد كل هذا إلى تفصيل ما في حديث النهروالي عن تلك الأحداث من تخطيط و تخيط، حتى ليصح فيه قول العامه: " من معرفته بالصحابه صلى على عنتر"، فذلك أوضح من أن يحتاج إلى بيان.

أسطوره النهروالي

ذلك هو النهروالي، و هذه أسطوره:

" وقع في أول القرن العاشر، من الحوادث الفوواح النوادر، دخول الفرتقال [البرتغال] اللعين، من طائفه الفرنج الملاعين، إلى ديار الهند. و كانت طائفه منهم يركبون من زقاق سبته في البحر، و يلجون في الظلمات، و يمرون بموضع قريب من جبال القمر"، بضم القاف و سكون الميم، جمع أقمر، أى أبيض، و هى ماده أصل بحر النيل، و يصلون إلى المشرق، و يمرون بموضع قريب من الساحل في مضيق، أحد جانبيه جبل، و الجانب الثانى بحر الظلمات (3)، فى مكان كثير الأمواج، لا تستقر به سفائنهم، و تنكسر، و لا ينجو منهم أحد. و استمروا على ذلك مده، و هم يهلكون فى ذلك المكان و لا يخلص من طائفهم أحد إلى بحر الهند، إلى أن خلس منهم غراب إلى الهند. فلا زالوا يتوصلون إلى معرفه هذا البحر، إلى أن دلهم شخص ماهر يقال له أحمد بن ماجد، صاحبه كبير الفرنج، و كان يقال له "الملندى" (4) و عاشره فى السكر، فعلمه الطريق فى حال سكره، و قال لهم، لا تقربوا الساحل من ذلك المكان، و توغلو فى البحر، ثم عودوا، فلا تنالكم الأمواج. فلما فعلوا ذلك، صار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم، فكثروا فى بحر الهند، و بنوا فى كوه من بلاد الدكن قلعه يسمونها "كوتا"، ثم أخذوا هرموز، و تقووا هنالك، و صارت الامدادات تترادف عليهم من البرتغال، فصاروا يقطعون الطريق على المسلمين أسرا و نهبا، و يأخذون كل سفينه غصبا، إلى أن كثر ضررهم على المسلمين، و عم آذاهم على المسافرين (5)

مناقشه أسطوره النهروالي

و بغض النظر عما فى هذه الأسطوره من خلط و تشويش و اضطراب، و أخطاء تاريخيه و جغرافيه، فإنها لا تزعم أن أحمد بن ماجد هو الذى قاد البرتغاليين إلى الهند. بل أنها على النقيض من ذلك تؤكد أن وصولهم إليها قد تم دون معونه من أحد، و هو ما لا يتفق مع الواقع التاريخى. كما تؤكد أن ابن ماجد لم يلتق ب "الملندى" إلا بعد أن "خلص منهم [من البرتغاليين] غراب إلى الهند" و استمروا يترددون عليها. و ان كل ما عمله أحمد بن ماجد، هو أنه، بعد رجوع "الملندى" من الهند، "علمه الطريق و قال لهم لا تقربوا الساحل من ذلك المكان، و توغلو فى البحر ثم عودوا، فلا تنالكم الأمواج".

و أعتقد، و الله أعلم، أن الأستاذ نجاتى صدقى، كان محقا كل الحق، حينما قرر "إن الوصف الذى ورد على لسان المؤرخ العربى النهروالي، ينطبق على رحله دياز، و ليس على رحله فاسكو دى گاما" (6) و لا نعى بهذا أن كبير الفرنجه الذى صاحبه أحمد بن ماجد و علمه الطريق فى حال سكره، كما يزعم النهروالي، هو دياز، و ليس فاسكو دى گاما. فان ابن ماجد لم يجتمع باى منهما، و لا باى برتغالى آخر، و خاصه فى التاريخ الذى تمت فيه زيارتهما. و إنما نعى أن ذلك الوصف، بغض النظر عن مصدره و تاريخه، أقرب انطباقا على رحله دياز، منه على رحله دى گاما، لأن منطقته رأس الرجاء الصالح، هى المنطقه الوحيدة

على الطريق فيما بين البرتغال و الهند، التي يستلزم الوصول إليها، اتباع تلك النصيحة: "لا تقربوا الساحل في ذلك المكان، و توغلو في البحر، ثم عودوا، فلا تنالكم الأمواج". فليس صحيحا أن برثلميو دياز "نجح في اجتياز رأس العواصف (رأس الرجاء الصالح) في ديسمبر ١٤٨٨ م، مستعينا طول الوقت بالملاحه الساحليه" (٧)، و ليس صحيحا، أن أي ربان ماهر، يستطيع أن يدور حول هذه الرأس، محتضنا الساحل طول الوقت " (٨) أو على الأقل لم يكن الوضع في رأس الرجاء الصالح بهذه الصفه حينما بدأ البرتغاليون يترددون عليه. فعند ما أصبح دياز على مقربه من نهر البرتغال Orange River أثناء محاولته الوصول إلى طرف القاره الجنوبي، عاكسته التيارات و الرياح المضاده مده خمسه أيام كان يجاوش (٩) خلالها دون جدوى، ثم طوحت به الرياح جنوبا مده ثلاثه عشر يوما متواليه لم ير البر خلالها، حتى تغيرت حراره الجو، و أخذ البرد يشتد كلما تقدموا نحو الجنوب و لما هدأت الرياح، اتجه نحو الشرق، و كان يعتقد أنه ما يزال بمحاذاه الساحل الإفريقي الغربي، و لكنه لما لم ير البر بعد مده، اتجه شمالا، فجاء إلى ما عرف بعد ذلك بخليج اللحم Flesh Bay في جنوب القاره الإفريقيه و يقع إلى الشرق من رأس الرجاء الصالح، ثم و أصل مسيره شرقا إلى أن بلغ ما سمي بنهر السمك الكبير Creat Fish River فجار بحارته بالشكوى و أجبروه على الرجوع. و أثناء عودته إلى الغرب، جاء إلى رأس الرجاء الصالح الذي كان قد تجاوزه من قبل دون أن يراه حينما طوحت به الرياح.

أما فاسكو دي گاما، فقد أفاد من تجارب دياز، فلم يحاول الاقتراب

ص: ٢٠

- ١- و هذه أخرى من تخطيطات النهروالى. فان احتلال المصريين لكمران لم يقع بعد عوده حسين الكردى من الهند (حوالى سنه ٩١٥ هـ) أو بعد سنه ٩١٧ هـ كما يزعم النهروالى، و إنما فى بدء قيام الحمله المصريه الثانيه، و على التحديد فى ١٧ ذى القعده سنه ٩٢١ هـ. و فى هذه الحمله لم يذهب حسين الكردى إلى الهند.
- ٢- البرق اليمانى ص ٢٠.
- ٣- كيف يكون مضيقا و أحد جانبيه بحر؟.
- ٤- Almirant نائب أمير البحر.
- ٥- البرق اليمانى ص ١٩.
- ٦- عبد الله الماجد، العرب س ٣، ص ٧٠، عن الأديب عدد أبريل ١٩٦٨ ص ٣٠-٣٢- لم يسعنى الحظ بالاطلاع على مقال الأستاذ نجاتى صدقى، و لم أستطع الحصول على نسخه منه فى دبی حينما شرعت فى كتابه هذا المقال.
- ٧- الدكتور عبد العليم، الفوائد..
- ٨- المصدر السابق ص ٨٣٩.

٩- جاوش، يجاوش، مجاوشه. من الاصطلاحات البحريه فى الخليج: يعنى التحايل على الريح. فمثلا إذا كان هدف سفينه ما فى مهب الرياح، فإنها تجاوش حتى تصل إلى غايتها، أى تتحايل على الرياح بالانحراف إلى اليمين أو إلى الشمال، و التوغل فى البحر، ثم العوده إلى الجبهه التى بدأت فيها انحرافها، مع انحراف نحو الجبهه المضاده لانحرافها السابق، مشكله بذلك ما يشبه المثلث، حتى إذا أصبحت محاذيه لنقطه انحرافها الأول، أصبح هدفها خلف ظهرها، فتتجه إليه، و تكون الرياح عندئذ وراءها،

بدلاً من أن تكون في وجهها. ويمكن ترجمتها ترجمه دقيقه إلى الإنجليزية بكلمه Tack.

من البر أثناء رحلته إلى رأس الرجاء الصالح، و إنما أبحر رأسا من البرتغال إلى جزائر الرأس الأخضر Gape Verde Islands و منها اتخذ لنفسه طريقا في وسط المحيط الأطلسي ما بين جزيره اسنشن Ascension Island و البرازيل، تجنبا للرياح العنيفه عند السواحل الإفريقيه. و لما ظن أنه أصبح بمحاذاه رأس الرجاء الصالح، بعد سفر استغرق ثلاثه أشهر لم ير البر خلالها، اتجه نحو الشرق، و لكنه أخطأ التقدير، فقصر عن بلوغ هدفه بمسافه غير كبيره نسبيا. و عند ما اقترب من البر، تعرض لعاصفه شديده، أشرف من جرائها على الغرق. فتذمر رجاله، و طالبوه بالعوده إلى البرتغال، و لكنه أصر على مواصلة السفر، و هدد كل من يتحدث عن العوده بإلقائه في البحر، فتأمر بعض بحارته على التمرد و إلقاء القبض على قادتهم و سجنهم، و العوده بالسفن إلى البرتغال، غير أن أحد المتأمرين و شى بزملائه، فالقى دى جاما القبض على قادة المتأمرين و سجنهم. و أخيرا، و بعد جهود مضنيه، استطاع الوصول إلى رأس الرجاء الصالح. و مع أن المسافه بينه و بين نهر البرتغال، لا تزيد على ثلاثه و ثلاثين فرسخا، فقد استغرق اجتيازها أسبوعا كاملا، من ١٦ إلى ٢٢ نوفمبر.

ثم جاء بعده بيدرو الفارس كبرال Pedro Alvarez Cabral و كان معه عدد من القاده المجرمين من ضمنهم برثلميو دياز، مكتشف رأس الرجاء الصالح، و كثيرون ممن رافقوه، أو رافقوا دى جاما. و حاول كبرال أن يستفيد من تجارب سلفيه، دياز و دى جاما، فابحر رأسا إلى جزر الرأس الأخضر، و من ثم اتخذ الطريق التى اتخذها قبله دى جاما، وسط المحيط الأطلسي. و لكنه بالغ فى التطرف نحو الغرب، فاكشف ساحل البرازيل عن غير قصد. ثم اتجه رأسا إلى رأس الرجاء الصالح، فلما اقترب منه صادفته عواصف هوجاء، أغرقت أربعا من سفنه، و كان برثلميو دياز نفسه من بين الغرقى.

تلك هى طبيعه الأنواء فى رأس الرجاء الصالح، كما وجدها رواد الكشوف الاستعماريه البرتغاليون، و لا أدري إذا كانت تغيرت الآن، فأصبح أى ربان ماهر يستطيع أن يدور حول هذه الرأس، محتضنا الساحل طول الوقت، أم لا؟.

و لكن ما ذا يعنى صاحب تلك النصيحه، كائنا من كان ب "الساحل من ذلك المكان".

إذا كان يعنى به الساحل الإفريقي الغربى، أو أى جزء منه، أو رأس الرجاء الصالح، فقد جاءت نصيحته متاخره جدا. لأن فاسكو دى جاما، كان على علم تام بها قبل سماعها منه، و قد سبق أن طبقها عمليا، كما رأينا، تطبيقا كاملا، عن وعى و إدراك، فلم يقترب من الساحل إلا- فى المرحله الأخيره لخطا فى التقدير. و مع ذلك فحتى تلك المسافه القصيره التى بقى عليه أن يقطعها حتى يصل إلى رأس الرجاء الصالح، لم يحاول اجتيازها عن طريق الملاحه الساحليه، و إنما كان يخرج إلى عرض البحر أولا، ثم يقوم بمحاولاته لاجتيازها. و قد فعل ذلك مره بعد أخرى. و على الرغم من فشله المتكرر فى محاولاته الأولى، فإنه لم يجرب الملاحه الساحليه لقطع تلك المسافه.

و إذا كان يعنى ب "الساحل من ذلك المكان"، السواحل الإفريقيه الشرقيه، فان الوصول إلى أى من موانئها فى الأحوال العاديه، لا يستلزم الابتعاد عن الشاطئ، و اتخاذ مثل تلك الاجراءات التى يوصى بها. و قد جرب فاسكو دى جاما ذلك بنفسه.

أما إذا كان يعنى به الطريق من ملندى إلى كليكوت، فهناك ثمة طريقان طريق ساحلى، يساير السواحل الإفريقيه إلى رأس حافون، بل إلى باب المندب، و منه إلى عدن، ثم يسير محاذيا لسواحل الجزيره العربيه إلى رأس الحد، و ينعطف شمالا إلى رؤوس الجبال عند مضيق هرمز، فيعبر البحر إلى الضفه الشماليه من المضيق، و ينعطف شرقا فيساير السواحل الفارسيه فالمكرانيه،

حتى سواحل السند الشماليه. أما إذا كان هدف الرحله فى جنوب الهند، كما كان الأمر بالنسبه لفاسكو دى گاما، فيجب أن يواصل سيره فيقطع السواحل الهنديه الغربيه من الشمال إلى الجنوب. و من الممكن اختزال هذا الطريق بعض الشىء، بالانتقال من رأس حافون إلى جزيره سقطره، ومنها إلى سواحل الجزيره العرييه، ثم من رأس الحد إلى سواحل السند. و هذا الطريق فى حالتيه شاق و طويل و لا تسلكه فى العاده حتى السفن المتجهه إلى شمال الهند. و لكن السفر فيه لا يستلزم الابتعاد عن الساحل و الإيغال فى البحر. و قد شاهدت فى جنوب الجزيره اعدادا غير يسيره من السفن، على مقربه من الساحل، و هى فى طريقها من البحر الأحمر و من إفريقيا الشرقيه، إلى الخليج العربى.

أما الطريق الأخرى، فتتجه من ملندى رأسا، عبر المحيط، إلى الميناء الهنديه المعنيه. و لكن ليس ما يدعو إلى تطبيق تلك النصيحه: "لا تقربوا الساحل من ذلك المكان، و توغلو فى البحر، ثم عودوا، فلا تنالكم الأمواج بالنسبه إليها. و الأرجح أن النهروالى ترامت إليه أصداء بعيده مشوشه و مختلطه عن وصول البرتغاليين إلى المحيط الهندى فاستغلها، دون تمحيص فى تلفيق هذه الحكايه السخيفه، للتشهير بأحمد بن ماجد، لغايه فى نفسه.

و جاء فران

انتشر كتاب النهروالى "البرق اليمانى" انتشارا واسعا، فقل أن تخلو مكتبه عامه فى العالم العربى منه، فى مصر و الحجاز و العراق. أما فى تركيه فيوجد فى مكتبات اصطنبول العديد من نسخه(١) و قد نقله إلى التركيهمصطفى بن محمد المعروف بخسروزاده، المتوفى سنة ٩٩٨هـ. و مع ذلك فان أحدا من المؤرخين الذين جاءوا بعد النهروالى، عربا و غير عرب، ممن اهتموا بتاريخ تلك الفتره، و الصراع العربى البرتغالى فى المحيط الهندى، لم يهتم بأسطوره النهروالى، أو يعيرها التفاتا. حتى الذين اعتمدوا على كتابه من هؤلاء المؤرخين عند ما عنوا بالكتابه عن تصدى الغورى لقرصنه البرتغاليين و توجيهه حمله حسين الكردى ضدهم، كابن العماد الحنبلى، أهملوا الإشاره إلى أسطوره النهروالى إهمالا تاما(٢) و لهذا الإهمال دلالتة المعبره و لا شك. ثم جاء المستشرق فران Ferrand فى سنة ١٩٢٢ م فباضت تلك الأسطوره و فرخت على يده. كانت كما وضعها النهروالى، مجرد نصيحه من شخص سكران، و هو أحمد بن ماجد، زعموا، لكبير الفرنجه "الملندى" أما متى و أين أدلى هذا السكران بتلك النصيحه، و من هو هذا "الملندى" الذى ألقى إليه، فأمور على أهميتها، لم يكن النهروالى ليهتم بها. فلما جاء فران استكمل تلك النواقص الهامه، فحدد مكان اللقاء فى

ص: ٢١

١- الجاسر ص ٦٩.

٢- شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، ط مصر، ١٣٥١ ج ٨ ص ١١٥.

"ملندی"، و حدد تاريخه ب ٢٢ من ابريل سنه ١٤٩٨ م. أو خلال زياره فاسكو دى گاما لملندی فى ذلك الشهر، و حدد شخصيه الملندی على أنه فاسكو دى گاما ذاته. و لكنه حاول، مشكورا، أن يدفع تهمة السكر عن أحمد بن ماجد، ليثبت عليه اقتراف ذلك العمل الذى "بعده مسلمو مکه خيانه عظمى" (١)، و زاد على كل ذلك هاما جدا، لم يرد فى نص النهروالى، و لو تلميحا، و هو أنه جعل أحمد بن ماجد يتولى قياده اسطول دى گاما من ملندی إلى كليكوت.

مناقشه فران

فإذا تدبرنا جيدا أسطوره النهروالى، و استعرضنا وقائعها على ضوء الواقع التاريخى، وجدنا ما استنتجه فران منها، لا يستقيم بحال من الأحوال. يقول النهروالى:

"و كانت طائفه منهم (من البرتغاليين) يركبون من زقاق سبته فى البحر و يلجون فى الظلمات.. فى مكان كثير الأمواج فلا تستقر به سفائنهم، و تنكسر و لا ينجو منهم أحد. و استمروا على ذلك مده، و هم يهلكون فى ذلك المكان، و لا يخلص من طائفتهم أحد إلى بحر الهند، إلى أن خلص منهم غراب إلى الهند، فلا زالوا يتوصلون إلى معرفه هذا البحر، إلى أن دلهم شخص ماهر، يقال له أحمد بن ماجد، صاحبه كبير الفرنج، و كان يقال له "الملندی"، و عاشره فى السكر، فعلمه الطريق فى حال سكره، و قال لهم لا تقربوا الساحل من ذلك المكان، و توغلوا فى البحر، ثم عودوا فلا تنالكم الأمواج.

إن هذا المكان الكثير الأمواج، الذى لا يستقر به السفائن، هو على ما يبدو الطرف الغربى الجنوبى من القاره الإفريقيه، فهو المكان الوحيد الذى تنطبق عليه تلك الصفات. و أول من حاول الوصول إليه، و وصله فعلا، من البرتغاليين، دياز، فى أواخر سنه ١٤٨٦ م كما مر بنا. و قبله لم تقترب أية سفينه برتغاليه من رأس الرجاء الصالح، و لم تنكسر فى مياهه بطبيعته الحال.

و دياز أيضا، هو أول من خلص إلى الطرف الغربى من المحيط الهندى حيث يلتقى المحيطان. و لكنه لم يصل إلى السواحل الإفريقيه الشرقيه، و لم يفقد و لا سفينه واحده فى تلك السفره. و إذا افترضنا أنه اجتمع بأحمد بن ماجد، فلا بد أن يكون ذلك الاجتماع قد تم فى جنوب إفريقيا، فهذا أقصى ما بلغه فى تلك السفره. و لكننا لا نجد فيما وصل إلينا من كتب أحمد بن ماجد أية إشارة لتلك المنطقه. و لا يعقل أن يهمل الحديث عنها، لو كان قد وصل إليها، لميله القوى إلى التظاهر بالعلم و المعرفه. كما اننا لا نجد أى ذكر لمثل هذا الاجتماع فيما نشر من وثائق البرتغاليين.

و ثانى من اجتاز رأس الرجاء الصالح، هو فاسكو دى گاما. و لكنه لم تنكسر له و لا سفينه واحده أيضا، إلا بعد أن اجتاز ذلك المكان الكثير الأمواج الذى تنكسر فيه سفائنهم. فقد شتر (٢) إحدى سفنه فى ناحيه ما من جنوب إفريقيا، بعد أن نقل أمتعتها و رجالها إلى سفنه الأخرى. و لم يفقد أحدا من رجاله.

و أول نكبه منى بها البرتغاليون عند رأس الرجاء الصالح، هى تلك التى حلت بحمله بيدرو الفارس كبرال فى ٢٤ مايو سنه ١٥٠٠ م، حيث غرقت له أربع سفن بجميع من كان على ظهرها.

فإذا أردنا أن نحمل كلمات النهروالى على محمل الجد، فلا يمكن أن يكون خلوص ذلك الغراب البرتغالى إلى بحر الهند، لأول مره، إلا بعد أن توالى النكبات على البرتغاليين فى ذلك المكان الكثير الأمواج، أى بعد نكبه بيدرو الفارس كبرال فى سنه

١٥٠٠ م على الأقل، و لا يمكن أن يكون اجتماع "الملندي" بأحمد بن ماجد، قد تم على افتراض وقوعه، إلا بعد خلوص ذلك الغراب البرتغالي إلى الهند و عودته منها بزمن ما، قد يكون في تلك السنه نفسها، و قد يكون بعدها. فكيف يمكن أن يكون أحمد بن ماجد هو الذى قاد فاسكو دى گاما إلى الهند، مع أنه لم يجتمع به إلا بعد عودته من الهند كما تقول تلك الأسطوره؟ ثم اننا نعلم بصورة مؤكده، أن فاسكو دى گاما، كان قد خالص إلى بحر الهند، و وصل إلى ملندي، قبل ذلك التاريخ بسنتين على الأقل، و على التحقيق فى ابريل سنه ١٤٩٨ م. فكيف نوفق بين هذه المتناقضات؟ الواقع أن النهروالى كان يتحدث عن موضوع يجهل ملابساته كلها جهلا- تاما، فلفق و خلط، كما هى عادته. و مع ذلك فنصه لا- يحتمل كل هذا التعسف فى التحريف.

و نعود إلى اسطورته مره أخرى، نضعها تحت المجهر، و نتفحص كلماتها، كلمه كلمه، علنا نلمح فى ثناياها ما قد يساعدنا على الاهتداء إلى ما اهتدى إليه المستشرق فران، فلا نجد إلا سرايا يتمثل فى بضع كلمات مراوغه هى: "إلى أن دلهم شخص ماهر"، و "فعلمه الطريق". و لكنها لا يمكن أن تعنى أكثر من أنه وصف له الطريق، كما يؤكد ذلك سياق الحديث الذى جاء على الصورة التاليه:

"إلى أن دلهم شخص ماهر يقال له الربان أحمد بن ماجد، صاحبه كبير الفرنج... و عاشره فى السكر، فعلمه الطريق فى حال سكره، و قال لهم لا تقربوا الساحل من ذلك المكان... فلما فعلوا صار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم".

فاى عربى يمكن أن يفهم من هذا الحديث أكثر من أن أحمد بن ماجد قد وصف الطريق لكبير الفرنجه، على افتراض الصحه فى روايه النهروالى؟ أى عربى يفهم من هذا الحديث أن أحمد بن ماجد تولى فعلا قياده فاسكو دى گاما إلى كليكوت؟

دليل من التاريخ

"يقول باروس... أنه بينما كان فاسكو دى گاما فى ملندي، جاء لزيارته بعض البانيان (٣) Banyans من مملكه كنبايه من كجرات. فظن فاسكو دى گاما، إن هؤلاء الهنادكه الذين يقصدون صوره العذراء (ظنا منهم أنها إحدى آلهات الهندو) (٤)، هم من طوائف المسيحيين الذين كانوا فى الهند فى أيام القديس توماس St.Thomas و جاء معهم مسلم من كجرات

ص: ٢٢

١- دائره المعارف الإسلاميه، الإنجليزیه، ماده شهاب الدين أحمد بن ماجد.

٢- شتر، يشتر، تشتيرا: حطم السفينه. و تشترت السفينه: تحطمت، اصطلاح بحرى مستعمل فى الخليج.

٣- طائفه من التجار الهندوس. و يطلق لقب البانيان فى الخليج على جميع الهنادكه بغض النظر عن مهنتهم و أعمالهم.

٤- الكلمات و الجمل المحصوره بين الأقواس فى هذه النبذه. هى لفران، أدخلها لتوضيح النص الأصلي، حسب تفسيره له.

(كذا!!) يسمى معلومو: (معلم) كانا Cana : (كاناكا Kanaka). وقد وافق هذا المعلم على السفر مع رجالنا (ليدلهم على الطريق إلى الهند) لسروره بصحبته، و لرغبته في إرضاء الملك (ملك ملندي) الذي كان يبحث عن ربان للبرتغاليين و حينما تبادل فاسكو دي گاما الحديث معه، اقتنع بمعرفته، و خاصة عند ما أطلعه على خريطه للساحل الهندي كله، وضعت حسب خرائط المسلمين، و رسمت فيها خطوط الطول و العرض، بدقه بالغه، دون الإشاره إلى مهاب الرياح. و لما كانت المربعات (التي تتالف من تقاطع) خطوط الطول و العرض، صغيره جدا، فان (اتجاه) الساحل بالنسبه لخطى الشمال و الجنوب، و الشرق و الغرب، كان دقيقا جدا، دون أن (يؤدى ذلك) إلى ازدحام الخارطة بكثرة (العلامات التي تشير إلى اتجاه) الرياح و الابره المغناطيسيه، كما هو شان خريطتنا البرتغاليه التي تعتمد عليها الخرائط الأخرى. و قد أطلع فاسكو دي گاما ذلك المسلم على الأسطرلاب الخشبى الكبير الذى كان معه، و على غيره من الاسطرلابات المعدنيه، التي كان يقيس بها ارتفاع الشمس، فلم يدهش المسلم لرؤيه تلك الآلات، و قال أن الربانه (العرب) فى البحر الأحمر يستعملون آلات من النحاس مثلثه الشكل، أو مؤلفه من أقواس قائمه الزوايا مقسمه إلى ٩٠ درجه Quadrants لقياس ارتفاع الشمس و النجم (القطبى) الذى يهتدون به فى أسفارهم. و أضاف أنه و ملاحى كنبايه و الهند جميعها، يسترشدون ببعض النجوم الجنوبيه و الشماليه و غيرها من النجوم التي تعبر قبه السماء من الشرق إلى الغرب، و أنهم لا يقيسون خطوط العرض بمثل تلك الآلات (التي أراها له فاسكو دي گاما) بل بآله أخرى يستعملها هو أيضا. و أظهرها فى الحال و أراها له (...) و كانت مصنوعه من ثلاث صفائح... و بعد هذا الحديث و غيره من الأحاديث التي جرت بينهم (البرتغاليين) و هذا الربان(١)، شعر فاسكو دي گاما أنه عثر على كنز عظيم (...)، و لكى لا يفقده، أبحر بأسرع ما يستطيع إلى الهند فى ابريل ١٤٩٨ م (٢) هذا الحديث وحده، يفصح عن هويه ذلك الربان بما لا يدع مجالاً للشك فى أمرها. لتتدبر جيدا تصنيفه ربانه المحيط الهندي. لقد قسمهم إلى قسمين: ربانه (العرب) فى البحر الأحمر، الذين يهتدون فى الليل بنجم واحد معين، هو النجم القطبى الشمالى، و يسمونه الجاه، أو كما ينطقها الكثيرون فى الخليج "الياه"، أى الاتجاه، و بحاره كنبايه و جميع الهند، الذين يستعينون ليلا، "ببعض النجوم الجنوبيه و الشماليه و غيرها من النجوم التي تعبر قبه السماء من الشرق إلى الغرب". فأين وضع نفسه؟ مع الصنف الثانى بالطبع. أى مع الهنود. لأنه هندي. لأنه ليس أحمد بن ماجد العربى. حتى الآلات التي يستعملها لرصد النجوم، لم تكن من الآلات التي يستعملها ربانه العرب فى البحر الأحمر، و إنما من الآلات التي يستعملها الهنود.

تبعيتنا للمستشرقين

و لكن أى سحر لهؤلاء المستشرقين على قلوبنا و عقولنا؟ إن أكثرهم غير خليق بالثقفه و لا يمكن الاطمئنان إلى أمانته العلميه، و مع ذلك، فما يكاد أحدهم يجترح ما يسىء إلى تاريخنا، أو ديننا، أو ثقافتنا، أو ما يمس كياننا الروحى و الفكرى فى الصميم، حتى نعتد عمله منه علينا، نشكره عليها، و نقدم إليه جزيل الحمد و وافر الثناء من أجلها، ثم نعتبر صنيعه جزءا من تراثنا القومى، ندافع عنه، و ندعو إليه، و نعلن عنه بجميع الوسائل المتاحه إلينا. و قل منا من يحاول أن يلقي نظره مستقلة على حقيقه تلك "المنه"، أو يعالجها بشىء من النقد و التمحيص. بينما يركبنا الشيطان، عند ما يتعلق الأمر بمصادرنا المأثوره، فتتخذ من "الشك" فى تلك المصادر صنما نعبده من دون الله.

ولدت أسطوره النهروالى ميته فى أواخر العشر التاسع من القرن العاشر الهجرى (حوالى سنه ١٥٧٠ م) و بقيت مدفونه فى قبرها منذ ذلك التاريخ، لا يجرى اسمها على لسان، أو يمر ذكرها على خاطر، حتى جاء فران (١٩٢٢ م) بعد أكثر من أربعة قرون و

نصف على دفنها، فنبش عنها التراب، ثم جبل رفاتها بما درب عليه المستشرقون، من تحريف للكلام الواضح المستقيم، و صاغ منه مسخا جديدا لا يمت إلى الأسطوره النهرواليه بسبب، إلا بنسبته المزوره إلى صاحبها، فتلقينا ذلك المسخ الدعى، بالتاهيل و الترحيب، و أفسحنا له فى صدور مجالسنا، و ذهبنا نستبق فى تكريمه، و التغنى بفضائله، دون أن يتوقف أحدنا لحظه، يتساءل فيها عن حقيقه ذلك النسب، و هل هو صريح كما يقولون؟ أم من قوارير، كنسب صاحب بشار؟ لقد رفضنا الأصل و نبذناه، و تهنأ غراما بالدعوى الممسوخ.

الدكتور أنور عبد العليم

و فى كل هذا الزمن الطويل، منذ سنه ١٩٢٢ م، لم تساور الشكوك فى ذلك النسب المنحول، سوى واحد منا فقط، كما أعلم، هو الدكتور الفاضل أنور عبد العليم، و لكنه ما لبث أن أغفل تلك الشكوك، و لا أدرى هل نسيها، أم رأى أنه لا يجوز الشك فيما يصنع المستشرقون، أم اتضح له أن الحق فيما شك فيه، فرجع عن شكه؟ أن للدكتور دراسات قيمه عن أحمد بن ماجد، منها كتابه "ابن ماجد الملاح"، و قد قدمه إلى المطبعه فى يوليو سنه ١٩٦٦ م. و الدكتور غنى عن التعريف، لا فى البلاد العربيه وحدها، بل و فى الدوائر العلميه فى الغرب كذلك. فى هذا الكتاب يكرر الدكتور، أولا، ما شاع منذ سنه ١٩٢٢ م، من أقوال مبتسره، لا- تمت إلى الحقيقه بصله، عن علاقته أحمد بن ماجد، بفاسكو دى گاما، فيرددها بصيغه المطمئن إليها، الوثائق منها، المعول عليها، كقوله:

" و لا ترجع شهره الربان العربى، إلى كونه مؤلفا ترك للتراث العربى ذخيره هامه من المؤلفات العلميه و التكنولوجيه، عن البحر و فنون الملاحه فحسب، بل أنه كان أيضا المرشد لسفينه فاسكو دى گاما البرتغالى، من ثغر ماليندى، على خط عرض ٣ درجات جنوب خط الاستواء على الساحل الشرقى لافريقيا إلى كلكتا (٣) عام ١٤٩٨ م (٤)

ص: ٢٣

١- ترجم الأستاذ محمود ياسين الحموى (الملاح العربى ص ٨-١٠) هذه النبذه عن فران كما يبدو، بشىء من التصرف و الزيادات التى يخلو منها النص الانكليزى. و لا أدرى إذا كانت تلك الزيادات موجوده فى الأصل الفرنسى أم لا. من ذلك أنه وصف هذا الربان فى هذا الموضع ب" العربى " بينما هو فى النص الإنجليزى ربان فقط، مجرد من أى وصف. أما صفته فيما سبق من هذا الحديث فمسلم من كجرات، كما مر بنا.

٢- دائره المعارف الإسلاميه، ترجمه الإنجليزية، ط. الأولى، ماده شهاب الدين أحمد بن ماجد.

٣- ليست كلكتا Calicut بل كليكوت Calicut و تقع فى الجنوب الغربى من السواحل الهنديه الغربيه، بينما تقع كلكتا فى أقصى الشمال من السواحل الهنديه الشرقيه، على رأس خليج البنغال. و لم تكن للبرتغاليين علاقته فيها، و بالتالى فان فاسكو دى گاما لم يرها فى حياته. لقد تكرر هذا الخطأ أكثر من مره، و إلا لما أعرناه اهتماما (راجع كتاب ابن ماجد الملاح ص ٤٨ و ٥٤، و الفوائد فى أصول علم البحر و القواعد " العرب " ص ٤، ص ٨٤٠ و ٨٤٣)، و قد وقع فيه عدد من كتابنا الذين تصدوا للحديث عن أحمد بن ماجد، منهم الأستاذ محمود ياسين الحموى الذى ترجم Calicut ب" كالكوتا " أى "كلكتا" (الملاح العربى ص ١٠)، و الدكتور السيد يعقوب بكر، فى ترجمته القيمه لكتاب فضلو الحورانى "العرب و الملاحه الهندي" ص ٢٣٧.

و قوله:

"لا ترجع شهره ابن ماجد إلى كونه ملاحا قديرا فحسب - لا يزال أهل عدن يقرءون له الفاتحه، ما خرجوا إلى البحر - و لا إلى مؤلفاته الغزيره في علوم البحار و الملاحة، و التي لم تكتشف إلا في القرن العشرين. و إنما اكتسب هذا الملاح، فضلا عن ذلك، شهره دوليه حين عرف أنه هو نفسه الربان الذي قاد سفينه الملاح البرتغالي الشهير، فاسكو دي غاما Vascode Gama لأول مره من ثغر ماليندى في مملكه كامبايا (كينيا الآن)" (١) و لكن الدكتور الفاضل، بعد هذه الأقوال الواضحه الحاسمه، عن علاقه أحمد بن ماجد بالبرتغاليين، يطلع علينا، في الكتاب ذاته، و لأول مره منذ عام ١٩٢٢ م، بموقف جديد، يتميز بالشجاعه و الاستقلال، فيعلن عن تشككه "في صحه الروايه التي أوردها فران، و أقرها معه علماء السوفييت". فهو يقول في معرض تعليقه على الأبيات التاليه من أرجوزه لأحمد بن ماجد تسمى السفاليه (نسبه إلى سفاله):

و بعد ذا في عام تسعمائه و ست جاءوا الهند يا اخايه

و اشتروا البيوت ثم سكنوا و صاحبوا و للسوامر ركنوا

و الناس تضرب فيهم الظنونا ذا حاكم أو سارق مجنونا

"و إذا كان ابن ماجد قد دون هذه الوقائع في أرجوزته، فلا يتضح من كلامه أنه أرشد البرتغال إلى الهند، مما يجعلنا نشكك في صحه الروايه التي أوردها فران، و أقرها معه علماء السوفييت. و على أى حال، فان هذا الأمر، يحتاج إلى مزيد من التحقيق، و ربما أفردنا له بحثا مستقلا" (٢) ثم يكرر الدكتور هذا الشك مره أخرى، أثناء حديثه عن كتاب "محيط"، لسيدى على، فيقول:

"و مما يسترعى النظر، أن كتاب "محيط"، و قد كتبه صاحبه بعد ابن ماجد بنحو خمسين سنه (و قبل النهروالى)، و هو في نفس الوقت ملاح قدير، تهمة أخبار الملاحة - هذا الكتاب لم يرد فيه إشاره إلى قصه إرشاد ابن ماجد لفاسكو دي غاما إلى الهند. و لو أن "سيدى على"، قد سمع من ربانته بحر فارس أيه إشاره لقصه الإرشاد المذكوره، لما تردد في ذكرها" (٣) و نرجو أن يعذرنا الدكتور، إذا سألناه عن مغزى أقواله السابقه عن علاقه أحمد بن ماجد بفاسكو دي غاما، ما دامت لديه مثل هذه الشكوك "في صحه الروايه التي أوردها فران و أقرها معه علماء السوفييت"؟ على أن الدكتور الفاضل ما لبث أن عاد إلى سابق عهده، و اطمئنانه المطلق إلى روايه فران، و ذلك بعد أقل من عشره أشهر على تاريخ تلك الشكوك، فقد نشر في مجله "تراث الإنسانيه"، بتاريخ ٥ ابريل ١٩٦٧ م، مقالا قيما عن كتاب ابن ماجد، "الفوائد في أصول علم البحر و القواعد"، جاء فيه:

"و لا- ترجع شهره ابن ماجد إلى كونه ملاحا قديرا فحسب، لا- يزال أهل عدن يقرءون له الفاتحه كل يوم، و لا إلى مؤلفاته الغزيره في علوم البحار و الملاحة، التي لم تكتشف إلا في القرن العشرين، و إنما اكتسب هذا الملاح فضلا عن ذلك، شهره دوليه، حين ثبت أنه هو نفسه، الربان الذي قاد سفينه فاسكو دي غاما البرتغالي، من ساحل إفريقيا الشرقى إلى الهند، لأول مره عام ١٤٩٨ م" (٤) و جاء فيه:

"و يرجع الفضل في الواقع في التعرف على أن ابن ماجد، كان هو المرشد الذي قاد أسطول دي غاما إلى الهند، إلى جهود المستشرق الألمعى، جبريل فران، عام ١٩٢٢" (٥) و لا ندرى بعد هذا ما الذي استقر عليه رأى الدكتور الفاضل في هذا الصدد؟

هل ما يزال على تشككه " في صحه الروايه التي أوردها فران، و أقرها معه علماء السوفيت "، فتطلع إلى بحثه المستقل الذى وعدنا به؟ أم " ثبت (عنده أن ابن ماجد) هو نفسه الربان الذى قاد سفينه فاسكو دى گاما البرتغالى، من ساحل إفريقيا الشرقى إلى الهند، عام ١٤٩٨ م "؟

أهدافهم

و لكن ما الغايه من الإصرار على أن أحمد بن ماجد هو الذى أرشد فاسكو دى جاما إلى الهند؟.

ص: ٢٤

١- الذى أعرفه، و ما أقله، ان كامبايا، كنبايه، كما تسميها المراجع العربيه، كانت جزءا من كجرات بالهند، و تقع فى الجزء الشمالى من الساحل الغربى، على الخليج المعروف بهذا الاسم نفسه إلى اليوم. و كانت لها صلات تجاريه وثيقه جدا بالأمارات العربيه فى إفريقيا الشرقيه و منها ملندى، و بالبلاد العربيه فى الخليج الفارسى و البحر الأحمر و مصر، و أخشى أن يكون الدكتور قد اعتمد على ترجمه الأستاذ محمود الحموى لحديث دى باروس عن لقاء فاسكو دى گاما بالمعلم كانا فى ملندى، الذى ترجمه، عن فران كما يبدو. فترجمه الأستاذ الحموى، إذا اعتمدنا النص الانكليزى لدائره المعارف الإسلاميه (الطبعه الأولى) غير دقيقه فقد ترجم فقره التاليه: [While Vasco da Gama was at Malindi some Banyans From the Kingdom of cambay .in gujrat came to visit the Admiral...With then came a Moor(Muslim)of gujrat (sic!)called Mulemo(Muallim)came(Kauaka) بما يلى: " أثناء إقامه فاسكو دى گاما فى ملندى من مملكه كامبايا، زاره بعض الهندوس على ظهر السفينه... و كان يرافقه مسلم من مسلمى (جزرات) [كجرات] و يدعى معلم (كاناكا). بينما ترجمتها الحرفيه هى: "بينما كان فاسكو دى گاما فى ملندى، جاء لزيارته بعض البانيين من مملكه كنبايه من كجرات.. و جاء معهم مسلم من كجرات (كذا) [كلمه " كذا " و علامه التعجب، الفران]، يسمى معلمو (معلم) (كانا) (cana) (كاناكا canaka). أما إذا كنت مخطئا فى ظنى، و بعض الظن أثم، ران ما يعرف الآن بكينا، كان يطلق عليه اسم كامبايا، فانا أعتذر منه الآن، و أرجو أن يتكرم الأستاذ المذكور بذكر اسم المرجع المذكور الذى اعتمد عليه، لأننى مهتم بتاريخ إفريقيا الشرقيه.

٢- ابن ماجد الملاح ص ٦٥.

٣- ابن ماجد ص ٦٣.

٤- الفوائد، العرب، س ٤ ص ٨٣٨.

٥- المصدر نفسه ص ٨٤٠.

أما المستشرقون فقد أفصح فران عن بعض أهدافهم بصراحه تامه، أثناء محاولته دفع تهمة السكر عن أحمد بن ماجد، فزعم أن قصه السكر مختلفه من أساسها، للتجاوز عن عمل يعتبره مسلمو مكه، الذين كان قطب الدين يعيش بينهم، خيانه (عظمى) و أن المعلم العربي، على العكس من ذلك، وافق على أن يتولى قياده سفينه القيادة فى الأسطول البرتغالى، لقاء وعد بمكافاه سخيهِ (١) أى أن ابن ماجد أقدم على اجتراح تلك الكبيره التى يعدها مسلمو مكه و جميع العرب خيانه عظمى، عامدا معتمدا، و هو فى غايه الوعى و الإدراك، أو مع العمد و سبق الإصرار، كما يقول رجال القانون.

إن سنه ١٩٢٢، التى توصل فيها فران إلى "اكتشافه العلمى" الهائل، عن علاقته أحمد بن ماجد بالبرتغاليين، من السنين التى اشتد فيها سعار الاستعمار الفرنسى فى أعقاب الحرب العالميه الأولى، فقد سبق قبل ذلك التاريخ بسنتين أن بسط الافرنسيون ظلهم الثقيل على الشام، بقوه الحديد و النار. و لكنهم جوبهوا بمقاومه صامده من قبل السوريين، أجبرتهم على الاستعانه بالجواسيس و العملاء، للعمل ضد المقاومه السوريه. غير أن حاجتهم إلى العملاء و الجواسيس كانت دائما أكبر مما يستطيعون تجنيده منهم، فجاء هذا "الكشف العلمى" كأنما ليوحى للمتردددين فى العمل للفرنسيين خوفا من وصمه الخيانه: بان الخيانه عند العرب لا أهميه لها، فهذا أحمد بن ماجد، أحد الأعلام العربيه الضخمه، لم يتورع عن التعاون مع البرتغاليين رواد الاستعمار الغربى فى البلاد العربيه. و مع ذلك فإنه يتبوأ فى التاريخ العربى منزله ساميه، و يحظى من علماء العرب بالتبجيل و الاحترام.

و هذا "الكشف العلمى" ،بعد، حيله ماكره. فقد قدروا أن نتبناه، و نعتبره من ماثرنا الحضاريه الباهره، و هو ما حصل فعلا. ثم ياتى بعد ذلك و لا بد من يقارن بينه و بين ما حققه البرتغاليون وحدهم من اجتياز للمحيط الأطلسى، و طواف برأس الرجاء الصالح، و وصول إلى إفريقيا الشرقيه. و النتيجة المحتومه لتلك المقارنه، ستكون، و لا شك، فى صالح البرتغاليين، و هو ما حصل فعلا كذلك، مع فارق بسيط، هو أن الذى قام بتلك المقارنه، لحسن الحظ، يعتقد أن الربان الذى "تولى"، عمليا، إرشاد القائد العام (فاسكو دى غاما) فى عبور المحيط، ربان هندى، وضعه تحت تصرفه ملك ملندى (٢) تقول تلك المقارنه:

"علينا أن نتذكر، أن المحيط الهندى، و من ضمنه الساحل الافريقى كله، كان قد تم اكتشافه قبل قرون، على أيدي الملاحين الهنود، و كانت السفن الهنديه تتراد الموانئ الافريقيه، و تعرف مدغشقر بصوره مؤكده..

و على هذا فان المحيط الهندى بحر قد تم ارتياده، و عرفت مسالكه، و ان وصول دى غاما إلى كليكوت، كانجاز ملاحى، لا يمكن أن يضاهى ما حققه أولئك القاده الذين كانوا أول من اجتاز سواحل الصحراء الكبرى، و عبر خط الاستواء، أو ما أنجزه دياز، بوصوله إلى رأس الرجاء الصالح (٣) فإذا كانت رحله فاسكو دى غاما كلها لا تضارع ما حققه البرتغاليون قبلها، مع ما فيها من اكتشاف الجزء من السواحل الافريقيه كان ما يزال مجهولا للعالم أجمع، إلا لعرب السواحل الإفريقيه الشرقيه، و هو ذلك الجزء الممتد من آخر نقطه وصل إليها برثلميو دياز فى جنوب القاره الإفريقيه إلى سفاله؟ فما بالك ببعضها الذى يعرفه كل ملاح فى المحيط الهندى؟.

إن صاحب هذه المقارنه، دبلوماسى و مؤرخ هندى من الملبار، هو الأستاذ بانكيار، الذى كان ذات يوم سفيرا للهند فى القاهره. ان له أكثر من دراسه عن البرتغاليين فى المحيط الهندى. و كانت الوثائق البرتغاليه فى لشبونه، عن الغزو البرتغالى للشرق، من ضمن المصادر التى اعتمد عليها فى تلك الدراسات. و هو مطلع، و لا شك، على مزاعم فران، و تهمة الخيانه العظمى التى طوق بها عنق الربان الذى تولى قياده فاسكو دى غاما إلى الهند. و بناء على تقييمه لسفره فاسكو دى غاما، فان دور ذلك الربان فيها

قليل الأهميه، و لا يمكن أن يحقق لبلاده شيئا من المكاسب الأديبه، بل ربما عاد عليها بالخسران. و لذلك فقد كان المتوقع من بانيكار، أن يحاول استغلال مزاعم فران، لخلق جو من الشك حول هويه ذلك الربان، كيما يدفع تلك التهمه عن أحد مواطنيه، أو يثير حولها سحابه من الغبار على الأقل، لو أنه رأى فى تلك الزاعم ذره من الحق. و لكنه تجاهلها تجاهلا تاما، يوحى بما لها من قله الاعتبار فى نظره.

ذلك بعض ما كانوا يهدفون إليه من الترويج لتلك الخرافه.

و أهدافنا

أما نحن فماذا نحقق، حتى و لو ثبت بصوره قاطعه لا تقبل الجدل، أن أحمد بن ماجد هو الربان الذى قاد سفينه فاسكو دى گاما إلى كليكوت؟ لا شىء غير خفى حينئذ.

كان المحيط الهندى على امتداده من السواحل الإفريقيه الشرقيه، إلى السواحل الصينيه، بحيره عربيه منذ عشرات القرون. و قد ارتاد ملاحونا جميع سواحله و جزائره، و خلجانه، و خيرانه، و كتب أحمد بن ماجد شاهده على ذلك. و كان السفر بين السواحل الإفريقيه و السواحل الهنديه، متوصلا منذ أقدم الأزمان، يقوم به سنويا عشرات الرباننه من العرب، و غير العرب. فلو افترضنا أن أحمد بن ماجد، قد قاد فعلا سفينه فاسكو دى گاما، من ملندى إلى كليكوت، فليس فى عمله ما يدعو إلى الزهو و الفخر، حتى و لو حاولنا تجريده من مدلوله السياسى، و اعتبرناه عملا ملاحيا ليس إلا. فقد سبقه إلى القيام به أعداد لا حصر لها من الرباننه على امتداد التاريخ. بينما انجازاتنا الملاحيه أجل من ذلك و أعظم. و قد مر بنا حديث الملاح العربى ابن فاطمه. و دورانه حول إفريقيا من الغرب إلى الشرق. و كنا نعرف طول الوقت، امكانيه العبور من المحيط الهندى إلى المياه الغربيه، فمننا عرف الجاسوس البرتغالى كوفلهام فى سفاله، أنه من الممكن الابحار بمحاذاه الساحل إلى الغرب ^(٤) أما لما ذا لم نستغل ذلك الطريق مع معرفتنا به؟ فقضيه أخرى. إن الإنسان لا يتنكب الجاده القصيره المطروقه إلى جاده أخرى طويله و عره مهجوره، إلا لسبب من اثنين: أما لحائل يحول بينه و بين

ص: ٢٥

١- دائره المعارف الإسلاميه، الترجمة الإنكليزيه ط. الأولى، ماده شهاب الدين أحمد بن ماجد.

٢- . ٣٢ . panikkra ,Asia and Western Dominance,p.

٣- . Ibid ٣-٣٢ .

٤ - F.C.Danvers,portuguese in India vol.I.P:٠٣;Panikkar,Asia and Western - ٤ . Dominance,P٣٣ .

الجاده الأولى، أو لما تنطوى عليه الثانيه من مغريات، كالأرباح الهائله التي يمكن أن يحققها إذا ما حول طريقه إليها. و كلا السبيين لم يكن له وجود بالنسبه إلينا. فيوم كانت أسبانيا و البرتغال في أيدينا كانت جميع الطرق مفتوحه أمامنا، من الصين إلى ما وراء جبل طارق. و كانت قوافلنا التجاريه، بريه و بحريه، تتهادى غاديه رائحه، بين سواحل البحر الأبيض المتوسط، و سواحل الصين، في أمن و اطمئنان، و هي تتجر أثناء سيرها في تلك الطرق، فتضاعف أرباحها، و هو لم يكن ليتسنى تحقيقه، لو أنها سلكت طريق المحيط الأطلسي.

أما غرب إفريقيا، فلم يكن ثمه ما يغرى بالسفر إليه، لا- من الناحيه التجاريه، و لا- من أيه ناحيه أخرى. لقد كانت أسواق الاستهلاك الإفريقيه مقصوره على الشمال و الشرق من القاره. أي في الإطار الحضارى الذى صنعه العرب على السواحل الإفريقيه. و لسنا بسبيل الحديث عن الشمال الافريقي، فأمره معروف مشهور. أما السواحل الشرقيه فقد استوطنها عربالخليج و اليمن منذ أقدم العصور. و حينما جاء البرتغاليون كان يحكم الشقه الساحليه - الممتده من جنوب بلاد الصومال في الشمال، إلى حدود سفاله الجنوبيه في الجنوب - حكومات عربيه. و كانت التجاره الإفريقيه كلها، باستثناء الأجزاء الشماليه، في يد هذه الحكومات العربيه، فهى التى تزود إفريقيا بما تحتاجه من منتجات البلاد المتحضره، و خاصه الأقمشه التى كانت تستوردها من كنبايه، مقابل الذهب و العاج من مناجم روديسيا و جنوب إفريقيا و غاباتها. و يصور لنا بربوزا Duarte barbosa حجم تلك التجاره عند وصول البرتغاليين إلى المحيط الهندي، و ما كانت تدره على أصحابها من خير و رخاء. كما يصور لنا ما كان للعرب من نفوذ في تلك المناطق الإفريقيه، و ذلك خلال حديثه عن مدينتى كلوه و ممباسه.

أما كلوه، "فتقوم على جزيره قريبه جدا من الساحل. و هى مدينه عربيه كثيره البيوت الجميله المبنيه بالحجاره و الملاط. و لهذه البيوت نوافذ كثيره تشبه النوافذ التى يتخذها البرتغاليون فى بيوتهم. و شوارع المدينه منسقه تنسيقا جيدا و أسقف البيوت مسطحه، و أبوابها الخشبيه جميله النقش، ممتازه الصنع. و تحيط بكلوه الجداول و البساتين و حدائق الفاكهه الكثيره القنوات، المترعه بالمياه الحلوه. و عليها ملك عربي. و يتجر أهلها مع سفاله، فيأتون منها بالذهب، و يوزعونه فى جميع أنحاء البلاد العربيه السعيده(١) Arabia Felix و نحن نطلق عليها هذه التسميه منذ اليوم و ان كانت تقع فى الحبشه (إفريقيه)، لأن الساحل كله أهل بالعرب و مساكنهم. و فى هذه المدينه كميه عظيمه جدا من الذهب، لأن السفن المتجهه إلى سفاله، لا بد و أن تمر أولا بها، و عربها بعضهم من البيض و بعضهم من السود. و هم حسنو البزه. و لباسهم من الأقمشه الثمينه المصنوعه من الذهب و الحرير و القطن، و كذلك ثياب النساء اللواتى يستعلمن مقادير كبيره من الذهب و الفضة على هيئة قلائد و أساور و دمالج، و يكثرن من الأقراط الذهبيه المرصعه بالأحجار الكريمه. و هم يتكلمون اللغه العربيه، و يتبعون شريعه القرآن، و لهم إيمان عظيم بمحمد(٢) و أما ممباسه فمدينه جميله جدا، و تشبه كلوه فى تخطيطها و بنائها و سكانها". و كانت تجارتها مزدهره، و ميناؤها طبيه، يرسو فيها دائما، عدد كبير من أنواع السفن الصغيره المختلفه، و المراكب الكبيره، سواء تلك التى تقصدها من سفاله، أو تأتى إليها من كنبايه و ملندى، أو تمر بها أثناء سفرها إلى جزيره زنجبار... "(٣) فما حاجتنا إذا إلى إفريقيا الغربيه، و لم تكن لها فى ذلك التاريخ، أيه أهميه اقتصاديه، لا من الناحيه التجاريه و لا من الناحيه الإنتاجيه على الإطلاق! إن عدم استعمالنا للمحيط الأطلسي، لم يكن عن جهل به، أو عجز عن ارتياده، و إنما لمعرفتنا بالأوضاع الاقتصاديه فى السواحل الإفريقيه الجنوبيه و الغربيه و لو تاتت للبرتغال الطرق التى تانت لنا، لما فكرت فى سلوك المحيط الأطلسي يوما من الأيام.

استشهد الدكتور أنور عبد العليم، دعما لمزاعم فران عن قياده أحمد بن ماجد لسفينه فاسكو دي جاما، من ملندي إلى كليكوت، بنصب تذكاري يقال أن حكمه البرتغال أقامته مؤخرا في ميناء ملندي، تخليدا لتلك المناسبه، و ذكر أن أستاذا في جامعه شرقي إفريقياه أخيره بذلك، و أطلعه على صوره فوتوغرافيه للنصب المذكور، عام ١٩٦٦ م.

و نظن أن الأمر تشابه على الأستاذ الإفريقي، و ان النصب الذي تحدث عنه لم يكن لأحمد بن ماجد، و لم تقمه حكمه البرتغال: و إنما هو لعيسى بن طريف، شيخ قبيله آل بن علي، البحرانيه - القطريه، "الذي فتح بمباسه [مباسه] [١٨٣٦ - ١٨٣٠ م] من جنوب (شرق) إفريقياه مع عشيرته (آل بن علي) مساعده لحاكم مسقط و زنجبار، السيد سعيد بن سلطان آل أبي سعيد" (٤). [١٧٩١ - ١٨٤٤ م]، و ان ذلك النصب أقامته حكمه زنجبار العربيه العمانيه، و ليس البرتغال التي كانت قد طردت نهائيا من جميع الأراضي الواقعه في الشمال من موزمبيق، على يد الأسطول العماني فيما بين عامي ١٦٩٦ و ١٦٩٨ م، في أيام الامام سيف بن سلطان قيد الأرض العربي، أمام عمان و انقطعت بذلك صلتها بتلك البلاد.

إن لدينا في دبي عددا كبيرا من عرب إفريقياه الشرقيه، و بينهم خريجو جامعات، و حمله شهادات عليا، و يعرفون عن أحمد بن ماجد ما يعرفه أي مثقف عنه. و قد رجعنا إليهم، و بعضهم حديثو عهد بكينيا، فلم يعرف أحد منهم شيئا عن ذلك النصب و مع ذلك، و حتى و لو صحت روايه الأستاذ الإفريقي، فيبقى أن نسأل عن الأسس التاريخيه، و عن الوثائق الثابته، التي اعتمدت عليها حكمه البرتغال في إقامه ذلك النصب، فقد تكون إقامته اعتمادا على مزاعم فران.

السيد أحمد الصافي النجفي

إشاره

ولد في النجف سنه ١٣١٤ و توفي في بغداد عن عمر ناهز الثمانين و دفن في النجف. نشا في النجف و فيها درس. و لما احتل الإنكليز العراق في نهايه الحرب العالميه الأولى و ثارت النجف ثورتها الأولى عليهم، و شق الإنكليز

ص: ٢٦

١- نفس التسميه التي أطلقها الكتاب اليونان و الرومان على اليمن.

٢- The Book of Barboas, pp. ٧١-٨.

٣- Ibid. P. ١٩-٢٠.

٤- الشيخ خليفه ابن حمد النبهاني، تاريخ البحرين، ص ١٦٢، انظر كذلك لوريمر. دليل الخليج، الترجمه العربيه، حكمه قطر،

من شنقوا من النجفيين و سجنوا من سجنوا خاف المترجم على نفسه فهاجر إلى إيران و بقى فى عاصمتها طهران ثمانى سنين اتقن فيها اللغة الفارسيه و درس آدابها، ثم ترجم إلى اللغة العربيه رباعيات الخيام، فكانت ترجمته لها أفضل الترجمات.

و بعد قيام الحكم الوطنى فى العراق و استقراره عاد إلى النجف سنه ١٣٤٦. و فى سنه ١٣٤٨ ساءت صحته فأثر السفر إلى سوريا و لبنان للاصطياف و الاستشفاء، فكان أن استقر فى دمشق متنقلا أحيانا بينها و بين و بيروت و غيرها من البلدات اللبنايه، و طبع خلال ذلك رباعيات الخيام المعربه فلاقت إقبالا و اشتهر هو فى الأوساط الأدبيه و لقى فيها تقديرا، و طبع عدده دواوين صغيره.

و كان يعيش حياه بسيطه فى مسكنه و مأكله و ملبسه، حتى كانت أحداث سنه ١٩٧٥ م فى لبنان و امتدت حربها و طالت، فأصيب مره برصاصه طائشه كادت تقضى عليه و حيدا، و كان قد صار شبه أعمى فأثر العوده إلى بغداد حيث عنى به أحد أرحامه فنزل منزله حتى وفاته.

شعره

قال يصف حال العراق بعد الاحتلال الانكليزى:

ما للفرات يسيل عذبا سائغا عجبا و شرب بنى الفرات أجاج

الفقر أحرق فى بنيه و إنما ماء الفرات العسجد الوهاج

جاءته حوت البحر ضامته له أو ما كفهاها بحرها العجاج

النفط شب بجوفه نارا فهل يطفى سناها ماؤنا النجاج

النفط يجرى فى العراق و ما لنا ليلا سوى ضوء النجوم سراج

قد أثقلوه من القيود بمرهف و أحاط فيه من العداه سياج

زعموه مختارا و قد وضعت له تحت الصوارم و القنا أوداج

أ يكون ذا رشد بعقد عهودهم و بغير ذاك لقيم يحتاج

نم الخداع بما تكن صدورهم إن الخداع لدى اللبيب زجاج

سروا العراق فكم فدينا أنفا عنه فهل لأسيرنا إفراج

أن الأدله ليس تقرن طامعا حتى يقرن بالدليل هياج

أضحى عراقى للمطامع كعبه فيها لمختلف الورى حجاج

لم ترحل الأفواج خصما حله إلا دهته غيره أفواج
حتى النعاج طمعن فى استعمارهم ما حال من يطمعن فيه نعاج
داء المطامع إن تاصل لم يفد فيه سوى قطع الوريد علاج
طعنوا فؤادك فى الصميم و لم تهج فباى شىء يا هزبر تهاج
ما صفقت أمواج نهرك عن هنا هزأ عليك تصفق الأمواج
لا يعرفونك أن حقولك أجديت بل يعرفونك إذ يحين خراج
كم من عدو بالتجنس داخل بحشى العراق و حكمه الإخراج
كثر الخليط به فان لم يبتعد أخلاطه لم يشف منه مزاج
سوق السياسة كم تروج و هل ترى فيه لسوق التضحيات رواج
لا يستقر على السياسة مبدأ إن السياسة زئبق رجراج
النبت صوح بالعراق و بدلت بالفقر منه تلکم الأفواج
و النهر يجرى كاللجين و حوله الأرض ترب و السماء عجاج
و الجهل زوج بالنفاق فاولدا بؤسا فبئس العرس و الإنتاج
لا تياسن من اللجاج فإنما سبل النجاح شجاعه و لججاج
الغرب سار و ما عرفنا قصده و لنا على آثاره أدراج
خير المدارس ما تخرج فتيه ما بينها الحداد و النساج
لا ما تخرج معشرا كل لدى توظيفه لتذبذب محتاج
و قال يخاطب الفلاح العراقى:

رفقا بنفسك أيها الفلاح تسعى و سعيك ليس فيه فلاح

لك فى الصباح على عناتك غدوه و على الطوى لك فى المساء رواج

هذى الجراح براحتيك عميقه و نظيرها لك فى الفؤاد جراح
فى الليل بيتك مثل دهر ك مظلم ما فيه لا شمع و لا مصباح
فيخر سقفك ان همت عين السماء و يطير كوخك إذ تهب رياح
حتى الحمام عليك رق بدوحه فله بحقلك رنه و نواح
هذى ديونك لم تسدد بعضها عجزا فكيف تسدد الأرباح
بغضون وجهك للمشقه أسطر و على جبينك للشقا ألواح
عرق الحياه يسيل منك لثالثا فيزان منها للغنى وشاح
أ تصد جيش الطامعين و لم يكن لك فى الدفاع سوى الصياح سلاح
قد كان يجديك الصياح لديهم لو فجر الصخر الأصم صياح
يتنازعون على امتلاكك بينهم و لهم عليك تشاجر و كفاح
كم دارت الأقداح بينهم و لم تملأ بغير دموعك الأقداح
حسب الولاه الحاكمون على القرى أن ثم أجساد و لا أرواح
كيف التفاهم بين ذينك نائح يشكو العذاب و سامع مرتاح
قد أنكروا البؤس الذى بك محددق أ فينكرون الحق و هو صراح
عجبا أ يشكو بؤس سكان القرى إلا وجوه كالصفيح وقاح
يا غارس الشجر المؤمل نفعه دعه فان ثماره الأتراح
أقلعه فالثمر اللذيذ محرم للغارسين و للقوى مباح
أصبحت تورثك الحقول أسى فما يهتاج أنسك نشرها الفياح
ترتاع من مرأى النخيل كأنما سعف النخيل أسنه و رماح
يا واهب الخير الجزيل لشعبه أ كذا يجازى بالعقاب سماح

أفنت حقولك آفه أرضيه عبثت بها و شعارها الإصلاح
طير السعاده طار عنك محلقا و على و لا تك رف منه جناح
قد أقسم البؤس الذى بك نازل ان لا تمر بدارك الأفراح
تقضى حياتك بالعناء و لم تكن فى غير أيام السقام تراح
سر ببؤسك فاضح لذوى الغنى لو أن سر ك فى البلاد يباح
حتام يا هذا لسانك ألكن و إلى م ألسنه الطغاه فصاح
كل الجناح على الضعيف إذا عدا أما القوى فما عليه جناح
باريف ان كتاب بؤسك مشكل يعيبى بحل رموزه الشراح
أطيار أرضك غالها باز العدى وعدا على أسماكك التمساح
الورد قد خنفته أشواك الربى ظلما و فر البلبل الصداح
أفرا ما لك شرب أهلك آجن رنق و شرب و لاه أمر ك راح
صرنا كآلات بكف عدونا فبلادنا بسيوفا تجتاح
و قال:

جرس النهضه قد دق فلم نتيقظ حين دق الجرس
سرق الطامع أبهى مجدنا و مضى يعدو فأين العسس
قد رقدنا أملا فى حرس و لقد نمنا و نام الحرس

سهروا فى أول الليل و منذ نهض السارق يسعى نعسوا
قد حصدنا الشوك مما زرعوا و جنينا المر مما غرسوا
باسم هذا الشعب نالوا ثروه ثم باعوا الشعب لما أفلسوا
كرماء لم يردوا طامعا و أجابوا كل من يلتمس
كم قشور ما ترى لبابها لا يغرناك هذى الأروس
قرروا نصرك لما اجتمعوا و على سححك فض المجلس
لم تراقب فرسا ار كضته ثم ألقاك و فر الفرس
مرضاء نقهوا من عله فعرتهم نهمه فانتكسوا
أخذوا رأى شياطين لهم همسوا فى أذنهى ما همسوا
ما أرى المجلس إلا حاكيا صوته عن مجلس منعكس
ضم آلات بسلك وصلت فإذا حرك يوما تنبس
إن دعاها لدفاع شعبها رجفت ثم اعترها الخرس
أصبحت ترسا عليها طعننا و اختفى من خلفها المفترس
بحسب الحزم رضى اعدائها و من الذله لا تحترس
يطمع الظالم فى كل امرئ أن يلن منه لديه الملمس
ما عرفنا سهونا إذ ضحكوا و عرفنا السهو لما عبسوا
اخرسوا الشعب لسانا فغدا بالشفاه ينطق هذا الأخرس
إن صمت الحر كالحبس له فإذا فاه بامر يحبس
نسمه الإخلاص هى نحونا فلقد ضاق علينا النفس
هل نرى يوما سنا حريه فلقد ساد علينا الغلس

فى ظلام الشرق نار لمعت و على الغرب نهار مشمس

ان ضوء النار يطفى عاجلا هل لنا من ضوء شمس قبس

لا أضاءت فى دجانا شمعه نورها من خصمنا مقتبس

لا ترم أن ترتقى الإخلاص فى أمه يرقى بها المختلس

تغسل الأوساخ من ثوب الفتى و بثوب النفس يبقى الدنس

و قال:

ان الشعوب إذا ما كان جوهرها الماس صلدا فلا تخشى لضى الفتن

فالنار تحرق ما فى التبر من خشب و الخطب يغسل ما فى النفس من درن

و الكون بحرمتى أمواجه التطمت فليس يحطم إلا واهى السفن

فدع سكوتك فالحاكى بنغمته ينيك أن الحجى ينقاد للسنن

لا تنتظر أن يرد الحق منك أذى فالحق فى محبس القانون و السنن

الدهر يملى دروسا فى حوادثه للناس و الخطب فيها خير ممتحن

فالنار تتلو اصطدام الزند فى حجر و العزم يتلو اصطدام النفس بالمحن

الضغط يجمع منا كل مفترق و الضغط يوقظ منا كل ذى وسن

لا تشكو للعدل ضيما و اشكه لظبا فالعدل أصبح فى الدنيا بلا أذن

ما فى المدينة من عدل تلوذ به فالعدل فر إلى الصحراء من المدن

لا تنتظر أن يرد الحق منك أذى فالحق فى محبس القانون و السنن

ضعف الخراف دعى ذئب الفلاه لها فالذنب للضعف ليت الضعف لم يكن

يا من جهلت من الأوطان قيمتها ادخل حمى الليث تعرف قيمه الوطن

حتى الثعالب تحمى عن مغائرها و الطير يدفع مهتاجا عن الوكن

يا خائنا لبلاد قد نشأت بها ما خنت بالأرض بل بالأهل و السكن
ما ذقت إذ خنت للإخلاص لذته و من يذق لذه الإخلاص لم يخن
المال صادك للأعداء لا شبك و الحب عله صيد الطائر الفطن
إن كان دينا ولوع المرء فى وطن فقد كفرت به يا عابد الوثن
حتام تعلن إخلاصا لتخدعنا و السر ينقض ما تبديه فى العلن
كم أوجد الخصم من ثلم بسوركهم و أنتم توسعون الثلم بالاحن
من مات روحا فلا تحسب ملابسه مهما تنوعن أزياء سوى كفن
يسعى العدو لنزع الروح من وطن ما ذا انتفاعى بعد الروح بالوطن
كم قدسها مستشار و هو مؤتمن فكيف فى - مستشار - غير مؤتمن
لكل غال عزيز قدروا ثمنا و لم يقدر لغالى العز من ثمن
افتح طريقك بالبيض الرقاق و سر و إن عجزت فخل الليث للسجن
فالورق تشكو هموما و هى مطلقه و الصقر فى الأسر لا يشكو من الحزن

أحمد بن عبد الله أبو العلاء المعري:

إشاره

مرت ترجمته فى مكانها، و مرت دراسات عنه فى المجلد الثانى من (المستدركات)، كما مرت فى المجلد الثالث دراسه عن أوجه التشابه و الاختلاف بين (غفران) أبى العلاء و (كوميديا) دانتى. و نشر هنا دراسه عن علاقته (الكوميديا) بما سمي رساله (المعراج) الأندلسيه، بما لذلك كله من ارتباط برساله الغفران:

و هى بقلم الدكتور نذير العظمه:

١ - مقدمه:

فى مؤتمر جمعيه الاستشراق الأمريكيه المنعقد فى جامعه جنوب كاليفورنيا بتاريخ ٢-٣ نيسان ١٩٧٩ كنت ألقى كلمه عن رساله الغفران و أثرها فى الأدب العربى الحديث، و كنت قد ألزمت نفسى ألا أخرج عن دائره البحث التى حددتها ألا و هى مؤثرات الرساله فى الأدب الحديث، و تو انتهائى من إلقاء الكلمه جاء دور الأسئلة و الأجوبه، استوقفتنى سؤال منها جاء بصيغه التقرير:

طبعا أنت واع لمؤثرات رساله الغفران على الأدب الغربى و خاصه الكوميديا الالهيه؟! مشيرا إلى دراسه آسين بلاسيوس فى هذا الخصوص التى تناولت مؤثرات المصادر الإسلاميه فى الكوميديا و خاصه الرساله و المعراج و صوره الكثيره التى لم ينحصر أثرها فى دوائر الآداب العربيه و الفارسيه و التركيه بل تعدتها لتقترب بنشوء الأدب الأوروبى فى عصر النهضه و بزوغه و خاصه الكوميديا الالهيه لدانتى (١٣٢١ - ١٢٦٥) الأمر الذى يطرحه بلاسيوس فى كتاب مستقل اعتمدنا هنا ترجمته الإنجليزى فى هذه الدراسه سنتناول مصادر جديده للبحث لم يعرفها بلاسيوس رغم أنها تؤيد أطروحتة و مقولته، أما لأنها لم تنشر فى عهدہ أو لم تكتشف. و من المؤسف ألا- تنقل القضية التى طرحها بلاسيوس فى كتابه الإسلام و الكوميديا الالهيه إلى القارئ العربى نقلا موضوعيا أمينا فلم يترجم الكتاب إلى اللغه العربيه. و علق عليه تعليقات مبتسره مجتراه عتمت على طرحه العلمى و أضاعت على القارئ فرصه المعرفه السليمه.

يتسم عرض بلاسيوس بفهم القضية فهما شموليا فهى ليست قضيه شكلية لمؤثر و متأثر بقدر ما هى تعبير عن تمازج حضارى أوسع تتناول كل الأشكال الدينيه و الأدبيه و الصوفيه لنوع المعراج و تسربها إلى أوروبا النهضه

و مظاهر تأثيرها في الكوميديا الالهيه مضمونا و شكلا، رمزا و رؤيا صورا و دلالات في مقابلات و مقارنات رائعه فرضت سلطانها على ثقافه القرن العشرين لأكثر من سته عقود و ما زالت.

لقد استنفر الكتاب عددا غير يسير من الاستجابات على أطروحتة التي ترسخت مع مرور الزمن و أيدتها حركه البحث المتأخر.

و قد صنف بلاسيوس روايات المعراج و مطبوعاته و المؤلفات التي تتصل بهذا النوع الأدبي الفذ، و أحصى كل ما وقعت يده عليه حتى زمن تأليف الكتاب و نشره (١٩ [١٩١٩] - ١٩١٨ م) و رتب ذلك في دوائر ثلاث:

الأولى: دائره الأسراء.

الثانيه: دائره المعراج.

الثالثه: دائره تدمج الدائرتين الأولى و الثانيه معا، مبتدئا بالقرآن فالقصص الإسلامى المتعلق بهما منتقلا إلى الأشكال الأدبيه التي تصل بالقصه و جذورها في الفلسفه الإسلاميه و تشكلها تشكلا جديدا في إطار الرموز الصوفيه.

و قد استوفى المؤلف مصادره المتنوعه و تناولها تناولا مقارنا يعتبر الأول في هذا الباب.

و لما كانت الأوساط الأدبيه عندنا لم تتعرف حقيقه على المعراج كنوع أدبي متميز، و محصولها من البحث في هذا الاتجاه فقير و أنها واقعه تحت سيطره العصرنه [العصريه] و التحديث و ما يستتبع ذلك من تصنيف، فلم يحظ هذا النوع باهتماماتها و أدرجته في باب القصص الدينى و أهملته جاهله أهميته الفلسفيه و الفكرية و خطورته الأدبيه.

لذلك تشوهت القضييه التي تناولها بلاسيوس في كتابه و انتقل التركيز من الأصل و هو المعراج إلى الفرع كرساله الغفران، و أخرجت الأطروحه من محورها الأساسى و تشتت في ذهن القارئ العربى على الأقل.

إن (المعراج) هو النموذج الأصل للرساله، احتذاه المعرى و استعار إطاره و تركيبه لي طرح من خلالهما نقده الفكرى و الأدبى و الاجتماعى.

و ليس مبالغه القول: إن المطبعه العربيه لم تطبع كتابا واحدا للمعراج يمكن أن يأنس له القارئ العربى و تركت طبعات الرصيف الصفراء تنتظر من ينفذ عنها الغبار و ينقلها إلى دوائر الوعى.

و رغم أن آسين بلاسيوس قد أفرد حيزا خاصا في كتابه (الإسلام و الكوميديا الالهيه) ناقش فيه مؤثرات (الرساله) على (الكوميديا) في إطار الفرضيه و التخمين الذى يستند على المقابله و المقارنه بين المواضيع و الأفكار و الصور و الأساليب لكل من المؤلفين غير أنه لم يستطع أن يؤيد مقارناته المقنعه و تحليله الأدبى الأسر بالوثائق الفعلية مفترضا أنه لا بد للرساله و قد سبقت الكوميديا بما لا يقل عن خمسه قرون من أن تتسلل إلى أوساط الثقافه الأوربيه الناشئه بدءا من القرن الثالث عشر عبر الوسائط الحيه الشفهيه إن عبر الأندلس أو صقلية و جنوب إيطاليا أو الفتره الصليبيه أو عبر ترجمات مكثفه لمصادر تفسير القرآن و السنه. و نحن مع الأستاذ عيسى الناعورى و بنت الشاطىء من أن نقاط الالتقاء بين (الرساله) و (الكوميديا) لا تتعدى الإطار العام

و الحوار بين صاحب الرحله و سكان الجحيم و الجنه.

أضف إليه أن فلسفه كل من المعرى و دانتي و خلفياتهما و مزاجهما تختلف اختلافًا أساسيا بل إنهما ليتقاطعان أيضا في نظريتهما للوجود و الحياه و الموت و العقائد الدينيه.

٢ – الكوميديا و إشاراتنا الإسلاميه

الكوميديا الالهيه هي ملحمه شعريه قصصيه لمؤلفها دانتي الأليجيري الذي كتبها في مطالع القرن الرابع عشر الميلادي، و تتالف هذه الملحمه من ثلاثه أقسام: الأول الجحيم و الثاني المطهر و الثالث الفردوس، و هي من ملاحم الرحلات في العالم الآخر كالمعراج و رساله الغفران اللذين سبقاها و الفردوس المفقود لملتون.

و تعتبر الكوميديا الالهيه مع ملحمه "أغنيه رولان" نقطه انطلاق الآداب الأوربيه الحديثه لتحولها عن التعبير باللاتينيه إلى اللغات الرومانسيه.

و تكتسى الكوميديا الالهيه أهميه خاصه بالنسبه لنا نحن العرب للعلائق التاريخيه و الموضوعيه بينها و بين قصص المعراج، هذه العلائق التي درسها آسين بلاسيوس بالتفصيل في كتاب بالاسبانيه نشره في مدريد عام ١٩١٩ و ترجم إلى عدد من اللغات الأوربيه.

و للكوميديا مستويات متعدده أديبه و دينيه و فقهيه و رمزيه و حضاريه و تصوفيه. و تعتبر الكوميديا قصه رمزيه Allegory لخبره دانتي الروحيه و مساره من عالم الماده إلى عالم الروح و عروجه من الجحيم إلى النعيم مرورا بالمطهر حيث تتطهر الأرواح من أدرانها و تستحق الانتقال إلى النعمه الالهيه.

و الذي يؤكد إعجاب دانتي بماتى الحضاره الإسلاميه كونه أحل ابن رشد و ابن سينا في "الليمبو" كأعظم مفكري اليونان و فلاسفتهم لكونهما حازا على فضائل العقل و حرمانهما نعمه الروح فما هما في الجحيم و لا-هما في الجنه بل في منزله بين المنزلتين.

و يتناقض مع هذا التقدير الذي يحمله دانتي للأخلاق العريبه و الإسلاميه و للخدمات الفكرية و الحضاريه التي أداها العرب و المسلمون للغرب مع موقفه من الإسلام كدين و عقيدته.

مهما يكن فان اهتمام دانتي بالأفكار و العقائد و الأخلاق الإسلاميه و موقفه من رجالها سلبا أو إيجابا يعكس لنا و لو بايجاز معرفته الأكيده بالإسلام و مصادره الأساسيه.

هذه الإشارات الرمزيه التي لا يمكن أن تكون إشارات عابره لمعرفة سطحيه.

٣ – مخطوطه المعراج الأندلسيه و ترجمه

كان الدانتيون يحتجون دائما على نظريه المؤثرات العريبه الإسلاميه على شاعرهم بكونه لا يعرف اللغه العريبه، فليس من المعقول

إذن أن يتأثر بالمعراج و ما يتصل به من قصص ديني و صوفي و أدبي. و على فرض أنه قرأ بعض ترجمات القرآن و السيره إلى اللاتينية، فما ورد فيهما من وصف النعيم و الجحيم و ما جاء في السيره المترجمه من ذكر الأسراء و المعراج لا يشكل خلفيه كافيه أو أرضيه صلبه لنظريه خطيره كنظريه آسين بلاسيوس(1) لكن محاربه واقع التاريخ بالمنطق لا يؤدي إلا إلى نتائج منطقيه بعيده

ص: ٢٩

Asin Palacios ,Islam and The Divine Comedy ,Translatel Byharold Sutherland N.Y . -١

. ١٩٤٨.PP.٥٤-٦٧

عن الحقيقة و الواقع الذى لا ينكره دارس منصف.

كانت العلوم الإسلاميه تدرس فى مدارس - رعاها الفونسو العاشر (٨٤ [١٢٨٤] - ١٢٢١) - للأسبان و الأوروبين و المسلمين الأندلسيين على حد سواء و قد استمر حكمه قرابه ثلث القرن (١٢٨٤ - ١٢٥٢).

إن مؤسسه الترجمة التى رعاها هذا الملك الحكيم كانت قبله أنظار المهتمين بفلسفه المسلمين و علومهم و آدابهم. و تسرب هذه الترجمات إلى أوروبا و خاصه فرنسا و إيطاليا أصبح حقيقه واقعه كشفت عنها بحوث كثير من المستشرقين على اختلاف أجناسهم و حضاراتهم.

و نحن الآن على يقين من أن قصه كامله من قصص المعراج و أكثرها سعه و تفصيلا قد ترجمت إلى اللغات الكاستيليه الإسبانيه و اللاتينيه و الفرنسيه فى وقت واحد من القرن الثالث عشر الميلادى (١٢٦٤ م) أى بما لا يقل عن أربعين سنه من إنجاز دانتى الأليجىرى للخطه العامه للقسم الأول من كوميدياه الالهيه (١٣٠٥ م) (١) كما أن بعض المترجمين الذين تعاونوا مع الفونسو المار ذكره كانوا من الطليان و أن برونيتو لاتينى صديق دانتى و أستاذه و مستشاره الأدبى الذى تحلى بثقافه موسوعيه كان سفيرا فى كاستيل (١٢٦٠ م) حوالى التاريخ الذى ترجمت فيه النسخه الأندلسيه للمعراج إلى اللغات الثلاث المذكوره آنفا.

و كان مستقره فى طليطله و أشبيليه حيث تمركزت مؤسسات الترييه و التعليم و الثقافه و ترجمه و قد لعب العرب دور المؤثر و المحرض أن بالتماس المباشر أو عبر الترجمة، فتلقف منهم الطليان و الإسبان و الفرنسيون علوم الطب و الفلسفه و الرياضيات و الفلك و الكيمياء و غيرها من العلوم.

و إذا كان يسهل على الباحث أن يحدد المؤثرات فى تلك العلوم و يحدد المصادر التى ترجمت إلى اللغات اللاتينيه و الرومانسيه فإنه من الصعوبه بمكان أن يحسم و يقرر فى قضيه المؤثرات فى العلوم الإنسانيه و الآداب لقله الترجمات منها بالنسبه إلى الترجمات العلميه و الفلسفيه، إلا أنه واضح فى أذهان المستشرقين أن القرآن و السيره و جزءا هاما من الحديث قد نقلت إلى اللاتينيه منذ أواخر القرن الثانى عشر الميلادى. و الخلاف بين الدانتينين و أخصامهم لا يتناول المؤثرات العلميه و الفلسفيه الإسلاميه على الحضاره الغربيه بقدر ما يتناول قضيه الكوميديا الالهيه بالذات و مصادرها و المؤثرات الإسلاميه عليها و بكونها عملا شعريا إبداعيا فان مسأله الحسم فيها أكثر صعوبه و لكونها أيضا تعتبر نقطه انطلاق الآداب الأوروبيه الحديثه فى عصر النهضة و استقلالها عن اللاتينيه و توسل الرومانسيه فى التعبير بدلا عنها.

مهما يكن، لقد أصبح ثابتا لدى الباحثين المنصفين من المستشرقين أن قصص المعراج بالذات لم ينتقل إلى الغرب بالوسائط الحيه أو بترجمات مجترأه تتضمن خلاصات عنها كتفاسير القرآن و السيره و كتب الحديث و التاريخ فحسب بل أن هناك ترجمه فعليه لما وصفناه بالنسخه الأندلسيه لقصه المعراج إلى اللغات الفرنسيه و اللاتينيه و الإسبانيه الكاستيليه) و هى من أطول القصص و أكثرها اسهابا و تفصيلا و أحسنها بناء و تركيبا و أغناها بصور الضوء و العطر و اللون و ألصقتها بالتعبير الأدبى المبدع و أبعدا عن الفقه و علوم التفسير و الحديث مع حسن الاقتباس و الاستشهاد من القرآن و السنه و تنزهها عن النزعه التعليميه و شفافيه رموزها و إشاراتها.

وقد كنت إلى أمد قريب غير مقتنع بنظريه بلاسيوس حتى وقعت على هذه الترجمة لأنها تشكل في نظري برهانا وثائقيا ثابتا كانت هذه النظرية بأمس الحاجة إليه.

وقد نشر هذه الترجمة الثلاثيه وحققتها مع مقدمه مستفيضه و تعليقات بالإسبانيه خوزى مونوز سندنو Jose Munos, Sendino فى مدريد عام (٤٩ [١٩٤٩] - ١٩٤٧) بواسطه المديرية العامه للعلاقات الثقافيه و رعايه وزاره الخارجيه فى كتاب تضمن دراسه مسهبه لهذه المخطوطه بالإسبانيه و تعليقا على ترجماتها الثلاث، و ينوف الكتاب على (٦٦٠) صفحه من القطع الكبير.

و من حسن الحظ أن الترجمة الفرنسيه كانت متضمنه فى هذا العمل النفيس فاعتمدت عليها اعتمادا أساسيا رغم أن فرنسيتها هى فرنسيه القرن الثالث عشر فدللت صعوبتها بالجهد و الصبر المتواصلين و قرأت المخطوطه قراءه كامله و اكتفيت هنا باختزال أبوابها العامه آملا أن يعثر الباحثون على أصل المخطوطه العربى أو يترجمها المهتمون إلى اللغه الأم. أما الإسبانيه فاضطرت إلى الإلمام بها لإتمام كتابه هذه الدراسه، و لفهم جزء غير يسير من مداخلات الأستاذ سندنو و تعليقاته و شروحه آملا ممن يجيد الإسبانيه من العلماء العرب أن يترجم هذه الدراسه النفيسه و دراسه آسين بلاسيوس على السواء لما لهما من أهميه تتصل بترائهم و أدبهم.

٤ - أبواب مخطوطه المعراج الأندلسيه

و أقسامها العامه

الفصل الأول: الكلام عن مجيء الملك جبرائيل إلى محمد (ص) و ما قاله له.

الفصل الثانى: الكلام عن الدابه التى قادها جبرائيل إلى محمد (ص) و أسرى عليها إلى المسجد الأقصى فى القدس.

الفصل الثالث: الكلام عن الأصوات التى نادى محمد (ص) و ما قاله جبرائيل عنها له.

الفصل الرابع: الكلام عما فعله محمد (ص) فى المسجد و وجده قبل أن يؤدى صلاته و يتلوها.

الفصل الخامس: الكلام عن شكل المعراج الذى عرج عليه محمد (ص) إلى السماء.

الفصل السادس: الكلام عن صعود محمد (ص) المعراج و رؤيته ملاكا عظيما فى الفضاء و عما قاله لمحمد عنه و عن أمته.

الفصل السابع: الكلام عما سمعه محمد (ص) من الملاك قبل أن يرى و يسمع ملاك الموت و عن الأمور التى سال عنها و أجابته عليها.

الفصل الثامن: الكلام عن ملاك الموت و كيف يقبض أرواح النفوس الصالحه و الشريره.

الفصل التاسع: الكلام عن محمد (ص) و رؤيته ملاكا على هيئة ديك

La Escalade Mahoma ,Traduccion Delarabe Al Castellano ,Latin Y.Fraences – ١
,Ordenda por .Al Fonso x El Sabio ,Edicion ,Introduc cion-y Notes por Jose Munoz
Sendino Madrid ١٩٤٩ انظر أيضا Palacios ، الهامش رقم ١.

و ملاكا آخر نصفه من نار و نصفه الآخر من ثلج و عما أو كل إليه.

الفصل العاشر: الكلام عن محمد (ص) و رؤيته خازن الجحيم و عما قاله له عن أمته.

الفصل الحادى عشر: الكلام عن محمد (ص) و سؤاله مالك خازن النار و عن الأمور الكثيره التى قالها له و كيفية الجواب عليها.

الفصل الثانى عشر: الكلام عن محمد (ص) و دخوله السماء الأولى و ما رآه فيها.

الفصل الثالث عشر: الكلام عن السماء الثانية.

الفصل الرابع عشر: الكلام عن السماء الثالثة.

الفصل الخامس عشر: الكلام عن السماء الرابعة.

الفصل السادس عشر: الكلام عن السماء الخامسة.

الفصل السابع عشر: الكلام عن السماء السادسة.

الفصل الثامن عشر: الكلام عن السماء السابعة.

الفصل التاسع عشر: الكلام عن السماء الثامنة.

الفصل العشرون: الكلام عن خطاب الله تعالى لمحمد (ص) و رؤيته للعرش.

الفصل الواحد و العشرون: الكلام عن محمد (ص) و رؤيته للملائكة الذين يحملون عرش الله تعالى.

الفصل الثانى و العشرون: الكلام عن رؤيه محمد و أصناف الملائكة فى السماء أو حيث العرش الذى تكلم عنه فيما سبق.

الفصل الثالث و العشرون: الكلام عن محمد (ص) و رؤيته ملائكة و عن كيفية صورهم.

الفصل الرابع و العشرون: الكلام عن محمد (ص) بين الملائكة و رؤيته أنواع الأنهار المختلفه و جبال الثلج.

الفصل الخامس و العشرون: الكلام عن محمد (ص) و رؤيته بحرا عظيما حيث الملائكة و السماء المحاطه بالأنهار.

الفصل السادس و العشرون: الكلام عن الله تعالى و خلقه كائنات كثيره و أنواعا مختلفه من المخلوقات.

الفصل السابع و العشرون: الكلام عن أرض بيضاء خلقها الله تعالى لأولياءه و مخلوقات فيها.

الفصل الثامن و العشرون: الكلام عن محمد (ص) كيف رأى فى لحظه واحده كل ما لم يره من قبل.

الفصل التاسع والعشرون: الكلام عن محمد (ص) و رؤيته للديك و عما يفعله.

الفصل الثلاثون: الكلام عن محمد (ص) و رؤيته جدار الفردوس (الأعراف) و مما هو و كيفية المجيء إليه.

الفصل الواحد و الثلاثون: الكلام عن محمد (ص) و سؤاله جبرائيل عن الفردوس المار ذكره و عن إجابته عليه. الفصل الثاني و الثلاثون: الكلام عن محمد (ص) و سؤاله جبرائيل عن المسافه بين السماء الأولى و الأرض و أمور أخرى.

الفصل الثالث و الثلاثون: الكلام عن الجنة حيث خلق الله آدم و الأنهار التي تجرى فيها.

الفصل الرابع و الثلاثون: الكلام عن الجنات و عن أسماء كل منها و نعمها.

الفصل الخامس و الثلاثون: الكلام عن الحور العين التي فى الجنة المار ذكرها و عما تحسنه.

الفصل السادس و الثلاثون: الكلام عن وصف الفردوس المسمى بجنة النعيم.

الفصل السابع و الثلاثون: الكلام عن مسرات و محاسن جنة النعيم المار ذكرها.

الفصل الثامن و الثلاثون: الكلام عما يصنعه أهل الجنة و عما يأكلونه.

الفصل التاسع و الثلاثون: الكلام فى وصف شجره فى الجنة اسمها طوبى.

الفصل الأربعون: الكلام عن شجره أخرى من أشجار الفردوس التي حدثه عنها الملاك و النعم التي يسبغها الله.

الفصل الواحد و الأربعون: الكلام عما يظهره الله تعالى لهم و يريه و يقوله و يعطيه.

الفصل الثاني و الأربعون: الكلام عن كيفية ذهابهما إلى الجنة و كيف دخلاها.

الفصل الثالث و الأربعون: الكلام عن أنهار و جبال و بساتين و عيون الجنة.

الفصل الرابع و الأربعون: الكلام عن أشجار البساتين المار ذكرها و قصور و حور فيها.

الفصل الخامس و الأربعون: الكلام عن محمد (ص) رؤيته رضوان حارس الجنة و عما قاله له و أبداه.

الفصل السادس و الأربعون: الكلام عن نهر يتخلل الجنة جميعا و قصور و حور عليه.

الفصل السابع و الأربعون: الكلام عن الملائكة يدلون الحور العين على أزواجهن فى الجنة.

الفصل الثامن و الأربعون: الكلام عن شجره من اللؤلؤ و عن عين تجرى تحتها.

الفصل التاسع و الأربعون: الكلام عن محمد (ص) و تلقيه القرآن من الله تعالى.

الفصل الخمسون: الكلام عن فرض الله تعالى الصلاة على محمد (ص) و تكليفه بها.

الفصل الواحد و الخمسون: الكلام عن صلاة محمد لله تعالى و على الصيام الذى كلفه به و فرضه عليه.

الفصل الثانى و الخمسون: الكلام عن الأقداح الأربعة التى قدمت لمحمد (ص) ليشربها و عن أهميه كل منها

ص: ٣١

الفصل الثالث و الخمسون: الكلام عن ذهاب محمد (ص) إلى أسفل الجنة و عما رآه فيها.

الفصل الرابع و الخمسون: الكلام عن زياره محمد لأرض الجحيم الأولى و عما رآه فيها.

الفصل الخامس و الخمسون: الكلام عن أرض الجحيم الثانيه.

الفصل السادس و الخمسون: الكلام عن أرض الجحيم الثالثه.

الفصل السابع و الخمسون: الكلام عن أرض الجحيم الرابعه.

الفصل الثامن و الخمسون: الكلام عن أرض الجحيم الخامسه.

الفصل التاسع و الخمسون: الكلام عن أرض الجحيم السادسه.

الفصل الستون: الكلام عن أرض الجحيم السابعه.

الفصل الواحد و الستون: الكلام بعد ذلك عن سهل كله من النار قرب الجحيم عن عذاب النار عند ما يقترب يوم الحساب.

الفصل الثاني و الستون: الكلام عن خلق الله تعالى (طبقات) أراضي الجحيم السبع التي سبق ذكرها و عن اسم كل منها.

الفصل الثالث و الستون: الكلام عن محمد (ص) و سؤاله جبرائيل عن قدره و عن الأمور التي فى يوم الحساب و إجابته عليه.

الفصل الرابع و الستون: الكلام عن سؤال آخر وجهه محمد (ص) إلى جبرائيل حول طبقات الجحيم السبع السابق ذكرها و إجابته عليه.

الفصل الخامس و الستون: الكلام عن سيدنا تعالى و خلقه اللوح و القلم.

الفصل السادس و الستون: الكلام عن كيفية جمعه للبشر فى يوم الحساب و صفه حشرهم.

الفصل السابع و الستون: الكلام عن يوم الحساب و قضاء الله تعالى.

الفصل الثامن و الستون: الكلام عن محمد و سؤاله جبرائيل عن السموات و الأراضي و أمور أخرى مرثيه و غير مرثيه و إجابته عليها.

الفصل التاسع و الستون: الكلام عن محمد (ص) و سؤاله جبرائيل عن جبل (قاف) فيما إذا كان ماهولا أم لا و عن أمور أخرى و إجابته على ذلك.

الفصل السبعون: الكلام عن هبات الله تعالى و قسمته لمخلوقاته.

الفصل الواحد و السبعون: الكلام عن محمد (ص) و زيارته الجحيم و بواباته و أشياء أخرى.

الفصل الثانى و السبعون: الكلام عن وصف جبرائيل لمحمد (ص) أنواع العذاب و مراتبه فى الجحيم.

الفصل الثالث و السبعون: الكلام عن حيوان عجيب يجعله الله يسير أمامه فى يوم الحساب.

الفصل الرابع و السبعون: الكلام عن محمد (ص) و سؤاله جبرائيل عن الحيوان السابق ذكره و إجابته على ذلك.

الفصل الخامس و السبعون: الكلام عن إجابته جبرائيل لمحمد (ص) عن سؤال سألته إياه عن يوم الحساب أ كبير هو أم صغير.

الفصل السادس و السبعون: الكلام عن صفه السراط [الصراط] و ما يجب على المرء لاجتيازه و واجبات المرور عليه.

الفصل السابع و السبعون: الكلام عن جبال حول السراط [الصراط] المار ذكره و أنهار من النار و أشياء أخرى كثيرة.

الفصل الثامن و السبعون: الكلام عن أمه محمد و كيف سيتفرق شملها و كيف ستجتاز حد السراط [الصراط].

الفصل التاسع و السبعون: الكلام عن محمد (ص) و رؤيته أنواع العذاب المختلفه التى يعذب بها الخطاه فى الجحيم.

الفصل الثمانون: الكلام عن جبرائيل يترك محمد (ص) و يودعه و عودته إلى منزله.

الفصل الواحد و الثمانون: الكلام عن محمد (ص) و وصفه لبنى قريش العجائب التى شاهدها.

الفصل الاثنان و الثمانون: الكلام عن محمد (ص) يعدد كل الأمور التى رآها لبنى قريش و تكذيبهم إياه.

الفصل الثالث و الثمانون: الكلام عن تكذيب القريشيين لمحمد و سؤالهم إياه ليصف لهم القافله.

الفصل الرابع و الثمانون: الكلام عن محمد (ص) و إجابته على القريشيين و ادعاءاتهم و قوله لهم الحقيقه.

الفصل الخامس و الثمانون: الكلام عن تدوينه كل الأمور التى سبق ذكرها و هكذا ألف كتاب أسماء بالمعراج (1)

٥ - بعض نقاط الالتقاء بينها

و بين الكوميديا

للذين يودون أن يتوسعوا فى موضوع مؤثرات المصادر الإسلاميه فى ملحمة دانتي ليس لهم إلا- أن يرجعوا إلى كتاب آسين بلاسيوس الذى أثبتت البحوث الحديثه صلب نظريته رغم الخلاف على جزء كبير من التفاصيل و هى أن شاعر النصرانيه الأكبر مدين لهذه المصادر.

و الأبحاث المقارنه اليوم لا تعنى بالمؤثر و المتأثر من الأدب تحت طائله الأخذ أو النقل المباشر فالأواصر بينهما قد تقتصر على

الإيحاءات الغامضة التي يوحىها مؤلف لمؤلف أو عمل أدبي على عمل أدبي آخر دون معرفه اللغه الأصلية بالضروره، و فى حال كهذه قد يكون التأثير أبلغ فعلا و أعمق أثرا لأن المتأثر يذعن للتصورات و الخيالات التى يثيرها هذا العمل أو ذلك فى مناخات من الإيحاءات لا ترتبط عضويا بالأصل المؤثر.

أو تتعدى علاقته المؤثر بالمثاثر إلى عناصرها بعينها من الأدبين أو المؤلفين أو العاملين أو المدرستين أو العصرين كالموضوع و الأسلوب و ما يرافقهما من بنى فكرية و نفسية و فنيه.

و رغم إصرار بلاسيوس على التفاصيل من حيث العلاقه بين ملحمة دانتي و المصادر الإسلاميه فانا أميل إلى الاعتقاد بان المؤثرات الإسلاميه تتناول التصور العام أكثر ما تتناول الجزئيات فى ملحمة الشاعر الألبجيري.

كما أعتقد أن هذا التصور انعكس أكثر ما انعكس فى قسم الجحيم من

ص: ٣٢

ملحمه الشاعر أما المطهر الذى يذكرنا بالأعراف فيكاد يكون رمزا منفصلا عن قصص المعراج و ألصق بالمصادر القرآنيه كالتفسير و غيرها.

فالأعراف و هى جدران تفصل بين النار و الجنه لا يمكن أن تشكل أصلا لمفهوم المطهر، كما أن "الموقف" الذى ينتظر فيه ابن القارح سته أشهر ليدخل الجنه فى رساله الغفران لا يمكن أن يوحى بمفهوم المطهر أيضا.

و أقرب شىء فى نظرنا لهذا المفهوم من الناحيه الفكرية و الفلسفيه لا من الناحيه الفنيه هو مفهوم المعتزله من أن مرتكب الكبيره هو فى منزله بين المنزلتين لا فى الجنه و لا فى النار حتى يحكم الله فيه يوم القيامه.

أما أن يكون دانتي قد ركب أقانيم "الأعراف" و المفهوم المعتزلى الفلسفى و ظاهره "الموقف" الفنيه فى رساله المعرى فى كل واحد هو "المطهر" فهو أمر يستبعده البحث الرصين مع كونه ممكنا.

أما القسم الثالث و الأخير من ملحمة دانتي و هو "الفردوس" فالمؤثرات تتناول البناء الفنى و الخيال العام لا المفهوم الروحى أو الفلسفى، و أياما كان الأمر أمر الجزئيات و التفاصيل و عناصر المؤثر و المتأثر فان الكوميديا الالهيه ككل ولدت فى مناخات الحضاره العربيه و رحم آدابها مع كونها كائنا مستقلا متميزا يعبر عن تصور روحى مغاير للموت و الحياه و العالم الآخر.

إن (المعراج) بتمايز أقسامه و تنوع نماذجه و كثرتها و استمراره كنوع أدبى قائم بذاته و دخوله فى الطقوس الدينيه و الصوفيه هو السابق، هو النموذج للكوميديا الالهيه.

و يؤكد الأستاذ سندينو على أهميه النسخه الأندلسيه للمعراج و ترجمتها و يستمر مستفيضا بدقه و موضوعيه على خطه بلاسيوس فى الكشف عن التقابل بينها و بين الكوميديا الالهيه متوسلا منهجه فى تحليل الرموز و الصور و الأفكار و مقابلاتها فى نص المعراج و الكوميديا. نخص بالذكر منها الأمور الآتيه:

أولا: لقد قاد دانتي عبر رحلته كل من "فرجيل" و "ماتيلد" و "بياتريس" و "سان برناردو" بالتتابع و قد أسبغ الشاعر على كل من هذه الشخصيات أهميه خاصه و رمز بها إلى مستوى من مستويات الروح ففرجيل يمثل التراث كما يمثل العقل و ماتيلدا و هى صديقه بياتريس حبيبه دانتي تمثل الحياه المجسده الحيه و بياتريس تمثل الحب الالهى و سان برناردو يمثل النعمه السماويه و هكذا.

أما الرسول العربى فقد قاده فى صعوده كل من جيريل ملك الوحي معرجين إلى عزرائيل ملك الموت و مالك خازن الجحيم و رضوان حارس الجنه. و لا يخفى ما بين هذه الشخصيات و شخصيات دانتي من تقابل فى الرؤيا و الرمز.

ثانيا: يطول بنا الكلام إذا أردنا الوقوف عند الصور الجزئيه التى تناولها سندينو بالتحليل و المقارنه لذلك نكتفى منها بالالمام إلى صورته النسره العظيم الذى يتشكل من أفواج من الملائكه فى ملحمة دانتي، و هى من أعظم الصور الابداعيه التى خبلت عقول الدانتيين. هذه الصوره بالذات تذكر كلا من بلاسيوس و سندينو بصوره ديك العرش فى المعراج، رأسه تحت العرش و قدماه فى الأرض السابعه، و هو ملاك ضخم على صورته الديك يسبح الله فى ضوء الألوهه و يصيح فتردد معه ديوك الأرض و

خلاتها في السموات و الأرض هذا التسيح جوقه واحده. ثالثا: الأمر الذي استرعى انتباه سندينو و أدهشنا هو أن كثيرا من أوصاف الجبال و الوديان و الأنهار في النسخة الأندلسية المترجمه للمعراج و تركيبها الطبوغرافى و بنيه التصور العام لا يتشابه مع الكوميديا الالهيه فحسب بل يكاد يتطابق في أقسام كثيره منهما.

و تتميز نسخه المعراج الأندلسيه عن باقى المعارج بكونها تناسب بين الصعود فى السماوات السبع، مخصصه سماء ثامنه منفصله لله العلى الأعلى، و الهبوط فى الأرضين كجزء من الرحله إلى النار.

فالسماة الأولى و هى من الحديد هى كرسى يحيى و عيسى.

و السماء الثانية من الرصاص و هى ليوسف.

و السماء الثالثة من الفضة و هى كرسى الياس و إدريس.

و السماء الرابعة من ذهب و هى لهارون.

و السماء الخامسة من لؤلؤ و هى لموسى.

و السماء السادسة من فيروز أخضر و هى لإبراهيم.

و السماء السابعة من عقيق فهى لآدم.

أما السماء الثامنه فهى من الياقوت و هى كرسى العرشى.

و يقابلها طبقات الأراضين السبع فى الهبوط إلى الجحيم:

الأرض الأولى و هى أرض الجلاده.

و الأرض الثانية و هى الأرض العرقاء أو الأرقى "Arka".

و الأرض الثالثة و هى الأرض الخرباء.

و الأرض الرابعة هى أرض الملطع.

و الأرض الخامسة و هى الأرض الزاهقه.

و الأرض السادسة و هى الأرض الحاجب.

و الأرض السابعة و هى الأرض الفلق.

و كذلك تتناسب و تتقابل أبواب الجحيم مع بوابات النعيم تقابلا ملحوظا أما أبواب الجحيم فهي سبع و تجرى كما يلي:

باب جهنم، و باب اللذعه و باب الحطمه و باب الظاهر أو الزائر ثم باب سقر و باب الجحيم و باب الكاويه.

تقابلها فراديس النعيم السبع، و هي كما يلي:

فردوس عدن، فردوس الجلال، فردوس السلام، فردوس المأوى، فردوس الخلد، دار الفردوس، النعيم.

فالتصور العام و الخيال المعماري لكل من النسخه الأندلسيه للمعراج و الكوميديا الالهيه يتلاقيان في العديد من سماتهما البارزه أن نحن تجنبنا الإغراق في التفاصيل و الأمور الجزئيه.

ذلك كله كان في متناول المتنور الأوروبي لا- عبر الوسائط الحيه و الشفهيه بل باللغات المكتوبه عبر الترجمه التي رعتها المؤسسات العلميه للدوله فكانت هذه الترجمه المثلثه البركات.

أما أن يريد الدانتون التمحل في وصول أو عدم وصول هذه الترجمه إلى شاعرهم فهو أمر تنفيه القرائن. ان النسخه الأندلسيه للمعراج بما تحتويه من نقاط التقاء مع الكوميديا الالهيه في البناء العام أو الشخصيات و التصوير الفنئ

و كون هذه النسخه متداوله فى دور العلم باللغات الحيه للثقافه الأورويه فى مطالع عصر النهضه لا تدعم نظريه بلاسيوس فحسب بل بحسمها حسما أكيدا فى صالح المؤثرات الإسلاميه. و للأستاذ سدينو الشكر الجزيل على جهوده العلميه الرائعه لا على نشره هذه المخطوطه النفسيه **La Escala-de Manama** فحسب بل على دراسته المصاحبه و مداخلاته و مقدماته و حواشيه و توثيقه التى لا تقل قيمه عن اسهام بلاسيوس و إنجازه⁽¹⁾ و يهمنى أن نؤكد فى هذه الخاتمه أن الحضارات لا تلد من الفراغ و النهضات لا تنشأ من العدم و ان الحضاره الإنسانيه كل لا يتجزأ و للبشريه جمعاء أن تعتر بهذه الحضاره و مشاركتها فيها كائنا ما كان حجم هذه المشاركات. أما الذين يريدون أن يقسروا المقولات العرقيه أو المذهبيه أو الدينيه على هذه الحضاره و يطوبونها لهذا العرق أو هذا الشعب أو يخرجون من شرف إنشائها و بنائها هذه الأمه أو تلك فإنهم لا يزالون يعيشون فى ربه أفكار سلفيه باليه أوجدتها عهد منقرضه من الاستعمار الفكرى و السياسى نادت بتفوق جماعات من البشر على جماعات أخرى من أجل السيطرة و الهيمنه الاقتصاديه على ثرواتها و خيراتها و إبقاء الفكر الإنسانى فى عتمه الاستثثار و الاحتكار بعيدا عن روح التحرر التى أخذت تنهض الشعوب من كبواتها و جعلتها تدرك مكانتها من حضاره الإنسان المتكامله الواحده أن عمقا فى التاريخ من حيث السياق الزمنى أو من حيث المكان على هذه الأرض.

و هذه حضارات ما بين النهرين و وادى النيل انفتح بعضها على بعض اقتباسا و تمثيلا و توليدا، ثم هذه حضارات اليونان و الرومان التى تمثلت حضارات الشرق و أضافت عليها ثم جاء العرب و الإسلام و جاءت معهم أكبر حركه استيعاب فكرى و ثقافى فى التاريخ فهضموا فى آن تراث الهند و اليونان و فارس و الرومان كما هضموا تراث ديانات التوحيد هضمًا كليًا تكشف لنا فى فقههم و أدبهم و علم كلامهم و تصوفهم و فلسفتهم ثم أضافوا إلى ذلك كله مولدات فكرهم و اختباراتهم فى شتى الحقول و قدموه لأوروبا فنهضت شعوبها بحيويه جديده تجلت فى حركه اكتشاف رائعه فى المكان و الزمان و التراث و الاكتشاف العلمى آخذه بيد البشريه صوب الأزمنه الحديثه.

و لم يتم ذلك كله عفواً أو عن طريق المصادفه بل غالبا ما كان يأخذ شكل المؤسسه المنظمه الواعيه لدور العقل و الحضاره فى إسباغ نعمه التقدم على الأمم، فهذه مدرسه الحكمه فى بغداد تراث مدارس السريان فتنظم عمليه الترجمه و التماذج التراثى برعايه المأمون يقابلها مدرسه طليطله و أشبيليه التى رعاها الفونسو الحكيم، و تمت عن طريقها ترجمات عديده فى كثير من الميادين و من بينها ترجمه ما أسميناه بالنسخه الأندلسيه للمعراج ترجمه كامله إلى لغات ثلاث هى الوسائط الأساسيه فى عمليات التماذج العلمى و الثقافى و الفكرى بين أوروبا و العرب.

و يهمنى أن نؤكد هنا أن ولاده الآداب الأورويه كولاده فنون عصر النهضه و حركات اكتشافه الجغرافى و العلمى و الفلسفى لا يمكن أن تفهم فهما كاملا إن هى عزلت عن مؤثراتها العربيه و الإسلاميه و ان حركه بحث منظم فى الآداب يقود إلى ما قادت إليه حركه البحث المنظم فى الفلسفه و العلوم و هى أن فنون أوروبا و آدابها فى عصر النهضه و التكوين تنفست الحياه فى رحم الإنجازات الحضاريه العربيه و الإسلاميه.

و هذه ملحمة رولان (Chamon de Rollan) كتبها الشاعر استجاب له حركه الفتوح الإسلاميه بين جيوش شارل مارتل و الجيوش الإسلاميه، ثم هذه حركه شعراء "التروبادور" و بزوغ الشعر الغنائى فى اللغات الأورويه و خاصه شعر الحرب لا يمكن عزلهما عن حركه الموشحات و شعر الغزل و وصف الطبيعه و هو أمر لم يغفله المختصون من المستشرقين فى دراساتهم

المسئولة المنزله.

و ملحمه الكوميديا الالهيه لدانتى التى تعتبر منعطفًا مهمًا فى نشاه الآداب الأوروبيه لم تكن لتشد عن عمليه التماذج الثقافى هذه بل أن نشاتها لتتصل اتصالًا مباشرًا بمؤثرات المعراج و تصوراته الفكرية و الغيبية و بنيتة الفنية.

أحمد بن يزيد القشيبى:

كان أبرز شعراء اليمن فى مطلع القرن الثالث وجاهه و فروسيه، و قد قال الهمدانى فى "إكليه" أنه و محمد بن أبان و علقمه بن ذى جدن و آل المفرغ أشعر شعراء بنى "الهميسع".

و أحمد بن يزيد بن عبد الرحمن هذا قد مثل فى زمنه أيضا دور الفارس اليمنى المتعصب إلا أنه كان قد انفعل باحداث شمال الجزيرة، و العراق و الشام، و الخصومه الدينيه و السياسيه و الفكرية بين البيتين القرشيين "أميه" و "هاشم"، فذهب كما قال الهمدانى "مذهب الكميت و السيد الحميرى فى التشيع"، و امتزجت نعراته العرقية و القبليه بعقيده حب أهل البيت، و قاسى صراعا نفسيا مريرا عند ما فتك بقومه و أهله الداعية "العلوى" إبراهيم بن موسى "الجزار" و هو الذى ألب عليه أهل اليمن، و قلب عليه البلد سنه ٢٠١/٨١٧ م بعد مجزره "ريده".

و قد ضاع الكثير من أشعار القشيبى هذا، و أبادته تعصبات ذوى النعرات العرقية، و التشنجات المذهبية عبر العصور فحجب عنا شعر بديع، و ذهب الشاعر و شعره ضحية مواقفه المتضاربه حين لم يمنعه "تشيعه" من أن يؤلب على قاتل قومه، و هو علوى الدعوه و النسب، و لم يطق فى نفس الوقت و فى تاليه و ثورته على ذلك الداعية النزق السيف، أن يكتم هواه الشيعى فانفجر فى أصوات شجيه فحيح حقدًا و غضبها ينصهر فى تمتات و د جريح! و مما قاله فى ذلك:

و لله عينا من رأى مثل عصبه أبيروا على خلق و ليس لهم ذنب

سوى أنهم جاءوا بسمع و طاعه على أنهم حيث انتهت بهم صحب

فاركتهم حد السيوف تبذخا فافنتهم منك القساسيه الشهب

بلا تره كانت لديهم طلبتها فاعجبني ما جئت و ازداد بي العجب

تشافى بك الأعداء منهم فأصبحت مغادر كم فيهم يسير بها الراكب

و أنت رفيع البيت من "آل هاشم" و صلبك خير الناس إن ذكر الصلب

فهلا بعفو منك كنت انتقدتهم فكان لك العفو المغمد و الذنب؟

فليس بعيدا منك ما فيك يرتجى لأنك ذو الإفضال و السيد الندب

وإنه لعتاب صادر عن مراره تذيب الضلوع، كيف لا ينسى الشاعر أو يتناسى و هو في عنفوان غضبه أن هذا السفاح، رفيع البيت
و من ذريه خير

ص: ٣٤

١ - ١٩٧٧ Dorthee Metlitski ,The Matter of Araby In Medieval England,Yale وصف مخطوطه
اكسفورد المعراج و أغفلت ذكر سندنو.

البشر، بل أنه لا- يتحاشى من أن يصف قاتل ذويه و أهله بأنه ذو الإفضال و السيد الندب، و ان منه كانت ترتجى السماح و العفو، ثم يود أن يغالط نفسه فيذهب ملتصقا له الأعذار ليخفف من صدمته و خيبه أمله فيقول:

سمعت بهم قول الأعادى فأصبحوا و كلهم فى شخب أوداجه يحبو

و تتجسم المأساه و تكبر و تستنزف عبراته الداميه، و يتذكر بطولتهم و هم الصيد الغطارف، و يذكر "إبراهيم" بمواقف قومه و تشيعهم و مؤازرتهم للرسول و آل بيته:

فيا أسفا من بعد صيد غطارف جسام المعالى ليس زندهم يكبو

بكل غداه تستفاض جيادهم من الماء قرنا بعد قرن له سكب

و يمججن من علك الشكيم بها دما فذو شكله منه، و معتبط غضب

و لو أنهم خافوا التى نلت منهم لضاقت بك الأرض العريضة و الرحب!

و لكنهم قالوا شريف و سيد و ذو ثقه محض أبوته طب

فمهلا لك الخيرات لا تبر عظمها فشعبكم من يوم كان لنا شعب

و نحن لكم كف على كل ملحد و نضرب من يخفى الحقيقه أو يصبو

و نحن لكم حصن حصين و شيعه فأصغيت أذنا للوشاه و قد دبوا

ثم يلتفت التفاتة رهيبه إلى تلك الأفعى التى دبت ماكره تنفث سمومها، إلى يعلى بن عمرو بن يزيد الذى وشى بقومه إلى إبراهيم بن موسى و حرضه على قتلهم:

فمن مبلغ يعلى بن عمرو رساله تخب بها نوق مخيسه صهب

بان دمانا طوقتها رقابكم و ان لنا نجما يلوح و لا يخبو

هنيئا بما طوقت من دم ثائر جسور على الغارات ما سيفه ينبو

و لو لا ابن موسى ما ظفرت بطائل و لا نيل منهم ويك هضم و لا عصب

و لكن إبراهيم ملنا لعدله و قد نيربت منه الخيانه و الكذب

إلى آخرها و له قصيده عينيه رائعه فى نفس الموضوع، و يقول الهمداني أن شاعرنا هو الذى خلف "ابن أبان" فى الرئاسة و أنه

كان مكينا عند "يعفر بن عبد الرحيم الحوالي" (٢٥٩ هـ / ٨٧٣ م) وله فيه شعر يعاتبه على ما صنع بعباد بن محمد من تنكيل و سجن (١).

ميرزا تقى خان، أو ميرزا محمد تقى خان، ابن مشهدى قربان الهزوى

الفراهانى ابن طهماسب بيك

خادم ميرزا حسين وفا. المعروف بالأمرير الكبير (٢) كان "مشهدى قربان" فى أول أمره طاهيا يتردد إلى بيوت الممولين و الأشراف يعمل فى مطابخهم. ثم اختص بمطبخ "ميرزا عيسى" المعروف بـ "الميرزا الكبير القائم مقام". ثم حج إلى مكة فعرف باسم "الحاج قربان بك أشيزباشى" (آشيزباشى: رئيس الطهاه).

و كان ابنه "تقى" أو "محمد تقى" يلازمه فى بيت القائم مقام و يساعده فى عمله و يتعلم منه أصول مهنته. و لكن ذكاءه و استعداده الفطريين لم يلبثا أن رفعا من منزله أجير لأبيه إلى منزله زميل دراسه لأبناء مخدومه القائم مقام، فتعلم القراءه و الكتابه. و كان شديد التيقظ فى خدمه "الميرزا أبو القاسم" القائم مقام الثانى. و لذلك ما إن بلغ سن الرشده حتى دخل فى خدمه الحكومه من هذا المحيط الذى نشأ فيه، بين حاشيه القائم مقام و حاشيه "محمد خان زنگنه" أمير العسكر.

فقد تبين القائم مقام فى حالات الميرزا تقى خان دلائل الرشاد و شمائل الشهامه فجعله فى عداد كتبه. ثم أصبح من كتبه "محمد خان زنگنه" أمير العسكر، فلم يلبث أن تفوق على أقرانه بمواهبه و خبرته، و وصل إلى المناصب العاليه. فأصبح من كتاب العسكر مده من الزمن. و فى سنه ١٢٥١ هـ عين محاسبا عسكريا فى جيش أذربيجان. فقام بعمله بصدق و إخلاص فرفعه أمير العسكر إلى منصب "وزير العسكر" و لقبه بهذا اللقب. و هو منصب كان يعهد إلى صاحبه يومئذ برئاسه تنظيم المخصصات العسكريه لجيش أذربيجان، و تهيتها، و محاسبه، و تنظيم أمور المواصلات و النقلات للعسكر.

و فى سنه ١٢٥٣ هـ (١٨٣٧ م) سافر إلى تفليس و إيروان بامر محمد شاه بمعيه ولى العهد "ناصر الدين ميرزا" لملاقاه أميراطور الروس "نيقولا الأول"، و كان قد جاء إلى القفقاس، و رافق ولى العهد فى هذا السفر أيضا "محمد خان" أمير العسكر و "الحاج ملا محمود نظام العلماء" و "عيسى خان" خال "ناصر الدين شاه".

و سال الإمبراطور "محمد خان" عن أحوال الميرزا "تقى خان" فأجابته: كان فى السابق محاسب العسكر، و بعد قليل وزير العسكر، و ها هو حين سفاره صاحب السمو الملكى، فى حضره الإمبراطور، فقال الإمبراطور: الحمد لله على أنى التقيت صديقى مره أخرى. ثم أهداه الإمبراطور مسعطا من ذهب مرصع.

و فى سنه ١٢٦٠ هـ سافر من تبريز إلى "أرزنه" الروم، بدلا من "الميرزا جعفر خان مشير الدوله"، لتعيين الحدود بين إيران و بلاد العثمانيين و رفع ما بين الدولتين من اختلافات، و نجح فى مسعاه و عقدت معاهده بين الدولتين فى جمادى الثانيه سنه ١٢٦٢ هـ، بعد صعوبات كثيره قاساها و ثبت لها، و منها ثوره قامت عليه و كاد يقتل فيها.

بعد وفاه "محمد خان زنگنه" أمير العسكر فى سنه ١٢٥٧ هـ لم يعط هذا اللقب و المنصب أحدا، إلى أن كانت سنه ١٢٦٤، و هى

السنة التي توفي فيها محمد شاه و خلفه على العرش ابنه ولي عهده ناصر الدين شاه. في تلك السنة.

أراد الشاه الجديد السفر من تبريز إلى طهران العاصمة ليتولى منصبه.

و كانت الخزانه خاليه لا مال فيها لسد نفقات هذا السفر، و عجز وزير أذربيجان عن تهيئه المبلغ اللازم. فقام "الميرزا تقى خان" بتهيئه المال بالجهد من هنا و هناك حتى استطاع توفير ما يلزم منه لسفر لائق بالشاه.

و سار ناصر الدين شاه من تبريز قاصدا طهران، و فى معيته "الميرزا تقى خان". فلما بلغوا بلده "أوجان" من محافظه تبريز أنعم عليه ناصر الدين شاه بلقب "أمير العسكر" و عهد إليه بعمل صاحب هذا اللقب.

و بعد جلوس ناصر الدين على العرش أضاف إلى ذلك اللقب و ذلك العمل إنعاما آخر أيضا. فلقبه ليله ٢٢ ذى القعدة سنه ١٢٦٤ هـ بلقب

ص: ٣٥

١- تاريخ اليمن الفكرى.

٢- يعرف فى إيران باسم (أمير كبير)، لأن (ألف لام) التعريف غير موجوده فى اللغه الفارسىه.

"الأمير الكبير" وهو اللقب الذي اشتهر به، كما لقبه بلقب "الأتابك الأعظم" وعهد إليه بمنصب الصدر الأعظم (رئيس الوزراء). فنشر العدل والنظام وإطاعة القانون، ونظم الضرائب وشؤون الجيش.

و كان الطامعون في منصب الصدارة العظمى كثيرين ممن يرون أنفسهم أولى به منه لاعتبارات كثيرة، فكادوا له كثيرا، قبل حصوله على هذا المنصب وبعد حصوله عليه، حتى أنهم أثاروا عليه بعض الأفواج العسكرية من الفرسان في سنة ١٢٦٥ هـ، و اشترك في هذه المؤامره "الميرزا آقا خان" و "مهدي عليا" أم ناصر الدين شاه و فريق من الأجانب، و طالبوا بعزله من هذا المنصب و لكن الشاه رفض طلبهم. و استطاع "الميرزا تقى خان" بما له من خبره و لياقه أن يقهر منافسيه و يخمد الثوره فوراً.

و الظاهر أن "إسماعيل خان" رئيس الفراهين في البلاط كان المحرك لهذه الثوره. و كان العسكر الثائر يقصد احتلال منزل (الأمير الكبير) و قتله. و لكنهم لم يجرؤوا على ذلك إذ كان الأمير صهر الشاه على أخته "عزه الدوله". و أمر الشاه "الميرزا آقا خان اعتماد الدوله" وزير الجيش بتدبير الأمر فصرفهم عن متابعه الثوره.

و كان لقب "أتابك" يطلق على مربى أبناء الملوك، و لكنه كان قد ترك استعماله فلم يطلق على أحد تقريبا بعد عهد السلاجقه. و أعيد استعماله في عهد ناصر الدين شاه إذ أطلق على "الميرزا تقى خان". و كان هذا الأمير هو الذي أحياه مره ثانيه و تسمى به ملاحظا بذلك أمرين: معنى الرعايه الأبويه للشاه الحدث و معنى أهليته للاستقلال.

و أصبح مطمئن الخاطر بعد زواجه بأخت الشاه، فانصرف إلى إصلاح ما خرب في أواخر عهد محمد شاه و صداره "الحاج ميرزا آقاسى"، بسبب من ضعفهما و عدم كفاءتهما. أخضع ملوك الطوائف المتمردين و أعاد الأمور في مجاريها القانونيه و جمع الحكم في حكومه مركزيه واحده، بعد أن كانت ممزقه منقسمه، و رتب ميزانيه الدوله. و حصل له توفيق يناسب ما بذله من جهود في هذا السبيل.

كان يرى أن زواجه بأخت الشاه يجعله مرتاح البال من كل جهه، فيتابع أعماله الاصلاحيه. إلا أنه لما استحكمت أموره إلى حد ما بعد هذا الزواج بدأ الكيد له بشده من الداخل و الخارج.

و أول عمل أقدم عليه "الأمير الكبير" كان إصلاح أمر خراسان و إخماد فتنه "حسن خان سالار" ابن "الله يار خان آصف الدوله القاجارى" و ذلك أنه حين وعك محمد شاه بعث الصدر الأعظم "الحاج ميرزا آقاسى" بالسالار "حمزه ميرزا حشمه الدوله" أخى الشاه إلى خراسان واليا عليها لابعاده.

و لكن "حسن خان سالار" و أمراء خراسان عصوا على الوالى الجديد، و عجز هذا عن تطويعهم. فلم يجد بدا من الذهاب إلى "هرات" مع حاكمها "محمد خان الكوزائى"، و كان هذا قد جاء إلى مشهد مددا له، و أن ينتظر هناك مترقبا الفرصه. و بقى في "هرات" إلى أن توفي محمد شاه و تولى الملك بعده ناصر الدين شاه.

عندئذ بعث "الأمير الكبير الميرزا تقى خان" ب "سليمان خان" رئيس عشيره "أفشار" و قائد فرسانها إلى خراسان و معه جماعه من الفرسان. و أمره بمفاوضه "حسن خان سالار" لارجاعه عن هذا العصيان الذى لا مسوغ له و لا فائده منه. و التقى الرجلان و دارت بينهما مفاوضه سلميه لم تؤد إلى النتيجة المطلوبه إذ رفض "حسن خان" الصلح و الدخول فى الطاعه رفضا باتا، و ازداد

عنادا و تمردا.

عندئذ بعث "الأمير الكبير" ب "سلطان مراد ميرزا"، و هو ابن "عباس ميرزا نائب السلطنة" الثالث عشر و عم الشاه إلى خراسان لمحاربه "حسن خان" و إخضاعه. و وقعت بين الجيشين حرب شديده كثر فيها القتلى من الطرفين. و انتهت بتفرق الرؤساء المحليين عن "حسن خان سالار" و استسلامه مع ابنه و أخيه إلى "سلطان مراد ميرزا" فبادر هذا إلى قتلهم فورا لا ينتظر بهم أمرا، و دفنوا في محله "خواجه ربيع"، و كان ذلك في سنة ١٢٦٦ هـ. و في هذه السنه لقب "سلطان مراد ميرزا" بحق بلقب "حسام السلطنة".

و العمل الثانى الذى أقدم عليه "الأمير الكبير" بعد الفراغ من إخماد ثوره "حسن خان سالار" هو قمع البايين أتباع "على محمد الشيرازى" فى "مازندران - نيريز" و "زنجان". يقول البهائيون، و هم إحدى الفرق الباييه، فى هذا الموضوع فى كتاب منسوب إليهم اسمه "ظهور الحق":

"اشتغل (أى الأمير الكبير) بإطفاء أنوار هذا الأمر و قتل البايين بكل أشكال القهر".

ففى السنه الثانيه من توليه منصب الصداره العظمى حسم غائله "قلعه الطبرسى" فى مازندران، حصن البايين و ملاذهم، و رئيسهم فيها "الملا حسين البشرويهى" و "الملا محمد على قدوس". و فى تلك السنه نفسها أخدم أيضا فتنه "الآخوند الملا محمد على حجت" فى زنجان. و فى السنه الثالثه من صدارته أخدم فتنه "نيريز" التى قام بها "السيد يحيى دارابى". و فى هذه الأثناء كان "الميرزا على محمد الشيرازى" قد هلك.

و تلخص أعمال "الأمير الكبير" فى صدارته على هذا النحو:

١ - إدخال ناصر الدين شاه إلى طهران على وضع لائق آمن.

٢ - إصلاح شئون الضرائب و الجيش و الميزانيه، و المعادله بين واردات المملكه و نفقاتها.

٣ - قمع "حسن خان سالار" فى خراسان.

٤ - إخماد ثوره البايين.

٥ - رفع الرايه الإيرانيه فى الدول الأجنبيه، مع التهديد بالمعامله بالمثل لمن لا يستجيب.

٦ - تأسيس دار الفنون و إقامه بنائها.

٧ - إصدار جريده "وقائع اتفاقيه" فى سنه ١٢٦٧ هـ. و قد فرض على موظفى الدوله أن كل من بلغ راتبه السنوى ألفى ريال يؤدى منها عشرين ريالا فى السنه إلى ميزانيه الجريده. و صدر العدد الأول منها فى الخامس من ربيع الثانى سنه ١٢٦٧ هـ. ثم غير اسمها إلى "جريده إيران الرسميه" ثم "جريده دوله إيران العليه" ثم "جريده إيران" و ظلت تصدر بهذا الاسم إلى عهد مظفر الدين

شاه.

٨ - تعميم التطعيم ضد الجدري في إيران كلها.

٩ - إيجاد إدارة بريد منظمه.

ص: ٣٦

١٠ - منع رشوه الموظفين و التشدد فى محاربتها.

١١ - إقامه بناء للمدفعيه. و هو بعض خدماته للجيش. فقد كانت شئون الجيش الايرانى قبل عهده مشوشه متفككه، فنظمها و جمعها فى كيان عسكرى صحيح البناء و المظهر.

١٢ - من جمله أعمال "الأمير الكبير": تأسيس مصانع للسكر و الغزل و الزجاج و النسيج و السلاح. و استخدم المعلمين الأجانب لتدريس الطب و الجراحه و الصيدله و الطبيعيات و الهندسه و علم التعدين و الفنون العسكريه.

و كان يختارهم من إيطاليا و فرنسا و النمسا، و أكثرهم من النمسا، إذ هى دول ليست لها مطامع سياسيه فى إيران.

و قد أجمع المؤرخون من الايرانيين و من الأجانب على أن "الميرزا تقى خان الأمير الكبير" كان من نوادر عصره فى الوطنيه و النزاهه و بعد النظر و السعى إلى كل ما فيه الخير لا-إيران. و لكن هذه الطريق، طريق الصلاح و الإصلاح، التى سلكها كانت تعاكس الاتجاه العام إلى الخيانه و الرشوه و الفساد و الإفساد و الانتهازيه و الوصوليه، فقامت عليه الدسائس و نصبت له المكاييد من الداخل و الخارج. فنقم عليه الإنكليز اختياره الخبراء و المعلمين الأجانب من دول محايدته لا تقع فى نفوذهم، فأشاعوا عنه، بواسطه عملائهم، أنه يطمع فى عرش إيران و عزل الشاه. و كان فى مقدمه هؤلاء العملاء منافسه "الميرزا آقا خان نورى" و "مهد عليا" أم ناصر الدين شاه.

و أثمرت الدسائس و المكاييد. و كان لنفوذ الوزير الانكليزى المفوض الدور الأول فى إنجاحها. فتغير ناصر الدين شاه على "الميرزا تقى خان" و عزله من وظائفه كلها و نفاه إلى قريه "فين" بالقرب من مدينه "كاشان"، و عهد بمنصب الصداره العظمى إلى عدوه و منافسه "الميرزا آقا خان نورى".

ثم أمر "حاجى على خان فراش باشى" - و يلقب أيضا "حاجب الدوله" - بقتله فذهب إليه إلى "فين" فقتله و هو فى الحمام يفصده فى عضده سنه ١٢٦٨ هـ الموافق سنه ١٨٥٢ م. و يروى مؤرخ إيرانى أن "الميرزا آقا خان نورى" جعل قتل "الأمير الكبير" شرطا لقبوله منصب الصداره الأعظم.

و تبعت قتله رده كبرى إلى الفساد فعمت الرشوه و اختلت أمور الجيش و فتحت أبواب الدوله للتدخلات الأجنبية. و ندم ناصر الدين شاه على قتله. و كان يذكره بالأسف و الحسره. و يردد هذين البيتين من الشعر إذا ذكره:

المرء الذكى الكيس يحتاج إلى عمرين اثنين فى هذه الحياه

يقضى أحدهما فى التجربه ثم يقضى الآخر فى الاتعاظ بالتجربه

(١)

تيمور لنك

إشارة

مرت ترجمته فى مكانها، و نلحق هنا بترجمته ما يلى:

الملحق الأول من هذه الملاحق منقول من كتاب "ظفرنامه" تأليف صلاح المؤرخ الفارسى شرف الدين على يزدى (ح ١: ص ٦٤٢ - ص ٦٤٣) و هذا الملحق كتاب باللغه الفارسى من تيمور لنك إلى السلطان برقوق و تاريخه سنه ٧٩٥هـ. و يبدو منه أنه أول خطاب بعثه إلى السلطان برقوق يدعوه فيه إلى مراعاة حسن الجوار، و إقامة العلاقات الطيبه لتأمين طرق المواصلات و التجاره.

و الملحق الثانى منقول من المؤرخ المصرى أحمد بن على المقرىزى:

"السلوك لمعرفة دول الملوك" (صوره شمسيه بدار الكتب المصريه رقم ٤٦٤ تاريخ ح ٣ ص ٢٣٧ - ص ٢٣٨) و هذا الملحق الثانى كتاب ثان من عند تيمور لنك إلى السلطان برقوق و يرجع تاريخه إلى ٧٩٦هـ و هو يختلف عن الكتاب الأول من حيث اللهجه و التطويل اللفظى، و يحتوى على تهديد بالحرب من تيمور لنك إلى السلطان برقوق إذا هو لم يعلن طاعته له.

أما الملحق الثالث فهو جواب السلطان برقوق على الكتاب الثانى من تيمور لنك و هو منقول كذلك عن أحمد بن على المقرىزى: "السلوك لمعرفة دول الملوك" (صور شمسيه بدار الكتب المصريه ح ٣ ص ٢٣٧ - ص ٢٣٨) و تاريخه سنه ٧٩٦هـ، و فى هذا الجواب حرص السلطان برقوق على الظهور بعدم الاكتراث لتهديدات تيمور لنك.

و الملحق الرابع كتاب باللغه الفارسى من تيمور لنك إلى السلطان فرج بن برقوق و تاريخه ٨٠٣هـ، و هو منقول من كتاب "ظفرنامه" تأليف شرف الدين على يزدى (ح ٢ ص ٢٦٧)، و اشتمل هذا الكتاب على تهديد من تيمور لنك إلى السلطان فرج إذا هو لم يطلق أسيرا تتريا كبيرا من أسره تيمور لنك، هو القائد أطلمش الذى وقع فى يد السلطان برقوق سنه ٧٩٥هـ.

و يشتمل الملحق الخامس على تهديد ثان من تيمور لنك للسلطان فرج، و مطالبته بإعلان الطاعه، و الدعاء له فى خطبه الجمعة بالقاهره. و هذا الكتاب مكتوب بالفارسى، و هو منقول كذلك من كتاب "ظفرنامه" تأليف شرف الدين على يزدى (ح ٢ ص ٣١٥ - ص ٣١٦) و تاريخه سنه ٨٠٣هـ و هو خطاب جاف مختصر، و يبدو أن تيمور لنك أمر بكتابه، و هو فى الطريق إلى دمشق ليلحق بها كارثته المروع.

و يشتمل الملحق السادس على جواب السلطان فرج على هذا الكتاب التيمورى الجاف و هو منقول من كتاب "ظفرنامه" (ح ٢ - ص ٣١٧) و تاريخه سنه ٨٠٣هـ، و يتضح من هذا الكتاب استعداد السلطان فرج لإعلان الطاعه لتيمور لنك بشرط قيام تيمور لنك من جانبه بالاعتذار عما قام به من هجوم على دمشق.

و الملحق السابع كتاب ثان باللغه الفارسى من السلطان فرج إلى تيمور لنك، و هو منقول من كتاب "ظفرنامه" (ح ٢ ص ٣٢٧)، و تاريخه سنه ٨٠٣هـ و يبدو أن السلطان فرج أمر بكتابه هذا الكتاب و هو فى داخل دمشق و تيمور لنك محيط بأسوارها، و فيه يؤكد السلطان فرج وعده السابق و يطلب وقف القتال.

و الملحق الثامن منقول من مخطوط، "كتاب روضه الصفا فى سيره الأنبياء و الملوك و الخلفاء" (مكتبه جامعه القاهره رقم ٩٧٨

فا ح ٦ ص ٢٤٦)، و هو من تأليف محمد بن خواند شاه مير خواند، و هذا الكتاب بالفارسيه كذلك، و تاريخه سنه ٨٠٥هـ، و هو خطاب من تيمور لنك إلى السلطان فرج بعد انتصار تيمور لنك على السلطان بايزيد العثماني في واقعه أنقره، و فيه طلب تيمور لنك من السلطان فرج سكك نقود مصر و الشام باسمه

ص: ٣٧

١- مهدي بامداد.

و الدعاء له فى خطبه الجمعة.

أما الملحق التاسع والأخير فهو كتاب منقول من ذيل كتاب "برلام و يواصف"، و هو مخطوط بمكتبه بطبريركيه الأقباط الأرثوذكس بالقاهره (رقم ٤٢ تاريخ ص ٣٣١-٣٣٩)، و هو كتاب من النجاشى داود ملك الحبشه إلى السلطان برقوق يشرح ما عليه المسلمون فى الحبشه من رغد العيش و رعايه ملكيه، و ينفى النجاشى ما نقله بعض الرسل إلى السلطان برقوق من أخبار عن سوء معامله النجاشى للرعايا المسلمين فى بلاده، ثم يدعو السلطان برقوق إلى رعايه النصارى فى بلاده و يهدد بقطع مياه النيل، و إساءه معامله المسلمين الذين تحت حكمه إذا حدثت إساءه من جانب السلطان للنصارى فى مصر.

و يود كاتب هذه السطور أن يختتم هذه المقدمه القصيره بكلمه شكر كبيره للسيد الدكتور عبد النعيم حسنين أستاذ الأدب الفارسى بكلية الآداب بجامعة عين شمس لتفضله بالقيام بترجمه النصوص الفارسيه المتقدمه إلى اللغه العربيه، و هى نصوص أضافت إلى قيمه هذا الكتاب معلومات جديده بصدد مراحل العلاقات بين السلطانيين برقوق و ابنا [ابنه] فرج و تيمور لنك.

و أرجو أن يجد القارئ الكريم فى هذه الملاحق بعض ما ينشده من معرفه لأحوال الشرق الأوسط فى أوائل القرن الخامس عشر الميلادى.

كتاب من تيمور لنك إلى السلطان برقوق سنه ٧٩٥ هجرية (شرف الدين على يزدى: ظفرنامه، ح ١، ص ٦٤٢-٦٤٣).

النص الفارسى:

"مضمون رسالت آنکه پیش آزين پادشاهان کامکار که از نسل چنگيز خان بودند با ملوک آن ممالک مناظرت داشتند و بدان واسطه بسى زحمت و تشویش باهالی شام و سکان آن نواحى مبرسيد [مى رسيد] و در آخر مبان [ميان] [ایشان] [ایشان] رسل و رسایل متواتر شد و قضيه به مصالحت انجاميد و آن معنى موجب امن و أمان عالم و علميان [عالميان] گشت و چون پادشاه سعيد أبو سعيد بهادر خان أنار الله برهانه بجوار رحمت حق پیوست و از نسل چنگيز خان پادشاهى صاحب شوکت نافذ فرمان در ايران نماند و ملوک طوائف پديد آمدند هرج و مرج بحال عالم راه يافت ابن [این] [زمان] چون سابقه عنایت بی غایت مالک الملوک جل و علا- تمام ممالک ايران تا عراق کمدر [که در] جوار آن مملکت واقع است مسخر فرمان ما کودانيد [گردانيد] خيراندیشى و نیکوخواهى خلايق اقتضای آن مى کند که حق همسايگى رعايت كوده [کرده] [أبواب] مراسله و مکاتبه مفتوح گردد و ایلجیان [ایلجیان] از هر دو جانب در آمد و شد باشند تا راه ها ایمن شود و تجار جانبین بأمن و حضور تردد توانند نمود و ابن [این] معانى هر ابنه [آينه] مستلزم معمورمى [معمورى] بلاد و آسایش عباد تواند بود و السلام على من اتبع الهدى و الحمد لله رب العالمين".

ترجمه الكتاب:

"لما كان بيت جنكيز خان فى حروب مع أسلافكم السلاطين الذين ظلموا شعب الشام، و أن هذه الحروب أنهت بسلام اختلاق الرسل، عاد الأمن و التعاون بين الدولتين، غير أنه منذ وفاه الايلخان العظيم سعيد أبو سعيد بهادر لم يحكم فى بلاد فارس حاكم من نسل جنكيز خان الذى نظم أمور الناس، و لكن على العكس قام حكام فى كل الأمارات فى هذه الإمبراطوريه الكبيره مكان

ملوكها، و سبوا متاعب لا نهايه لها لشعوب هذه الإمبراطوريه. أما و قد اختارنا الإله الواحد بفضل من عنده لاصلاح ما فسد، و أدان لسيفنا المظفر كل بلاد فارس و العراق العربى الذى تتاخم حدوده حدود بلادكم، فان المحبه التى ندين بها لشعبنا تتطلب بحكم الجوار أن نتبادل الكتب، و أن ياتى الرسل، و يعودوا فى يسر بين بلدينا، و أن ينتقل تجار البلدين فى أمن حتى تنتعش البلاد، و يكثر السكان، و يعيشوا فى سلام. و لهذا السبب أرسلنا رسولنا إليكم ضارعين إلى الله أن يكالكم بعنايته إن سلكتم حسب هذا. و السلام على من اتبع الهدى و الحمد لله رب العالمين "

الملحق ٢

كتاب تيمور لنك (الكتاب الثانى) إلى السلطان برقوق فى سنه ٧٩٦ هـ (المقريزى، أحمد بن على: السلوك صور شمسيه ح ٣ ص ٢٣٧ - ٢٣٨).

"قل اللهم مالك الملك" (١) (فاطر السموات و الأرض عالم الغيب و الشهاده أنت تحكم بين عبادك فى ما كانوا فيه يختلفون) (٢) اعلموا أنا جند الله مخلوقون من سخطه، و مسلطون على من حل عليه غضبه، لا نفرق لشاكي (٣) ، و لا نرحم لباكي (٤) ، قد نزع الله رحمه من قلوبنا فالويل ثم الويل لمن لم يكن من حزبنا و من جهتنا. قد خربنا البلاد و أيتمنا الأولاد، و أظهرنا فى الأرض الفساد، و ذلت لنا أعزتها، و ملكنا بالشوكه أزمته، فان خيل ذلك على السامع و أشكل و قال إن فيه عليه مشكل (٥) فقل له:

(إن الملوكة إذا دخلوا قريه أفسدوها و جعلوا أعزه أهلها أذله) (٦) ، و ذلك بكثرة عددنا و شدة بأسنا، فخيولنا سوابق و رماحنا خوارق و أستتنا بوارق، و سيوفنا صواعق، و قلوبنا كالجبال، و جيوشنا كعدد الرمال، و نحن أبطال و أقيال، و ملكنا لا يرام، و جارنا لا يضام - و عزنا أبدا لسؤدد منقام، فمن سالمنا سلم، و من رام حربنا ندم، و من تكلم فينا بما لا يعلم جهل.

و أنتم فان أطعتم أمرنا و قبلتم شرطنا فلکم ما لنا و عليكم ما علينا، و إن خالفتم و على بغيكم تماديتهم، فلا تلوموا (٧) إلا أنفسكم، فالحصون منا مع تشديدها لا تمنع، و المدائن بشدتها لقتالنا لا ترد و لا تنفع، و دعاؤكم علينا لا يستجاب فينا و لا يسمع، فكيف يسمع الله دعاءكم، و قد أكلتم الحرام، و ظلمتم جميع الأنام، و أخذتم أموال الأيتام، و قبلتم الرشوه من الحكام، و أعددتكم لكم النار و بئس المصير: (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا و سيصلون سعيرا) (٨) ، فلما فعلتم ذلك أوردتم أنفسكم موارد المهالك، و قد قتلتم العلماء و عصيتم رب الأرض و السماء، و أرقتم دم الأشراف، و هذا و الله هو البغى و الإسراف، فأنتم بذلك فى النار خالدون، و فى غد ينادى عليكم: (فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق و بما كنتم تفسقون) (٩) ، فأبشروا بالمذله

ص: ٣٨

١- ما بين الحاصرتين من ابن تغرى بردى: النجوم الزاهره ج ١٢، ص ٥٠ (طبعه القايرهسنه ١٩٥٦).

٢- القرآن الكريم: سوره الزمر: ٤٦.

٣- كذا فى الأصل.

- ٤- كذا فى الأصل.
- ٥- كذا فى الأصل.
- ٦- القرآن الكريم: سورة النمل: ٣٤.
- ٧- كذا فى الأصل.
- ٨- القرآن الكريم سورة النساء: ١٠.
- ٩- القرآن الكريم سورة الأحقاف: ٢٠.

و الهوان، يا أهل البغى و العدوان، و قد غلب عندكم أننا كفره، و ثبت عندنا أنكم و الله الكفره الفجره، و قد سلطنا عليكم الإله. له أمور مقدره و أحكام محرره، فعزيزكم عندنا ذليل و كثيركم لدينا قليل، لأننا ملكنا الأرض شرقا و غربا، و أخذنا منكم كل سفينه غضبا، و قد أوضحنا لكم الخطاب، فأسرعوا برد الجواب، قبل أن ينكشف الغطاء، و تضرم الحرب نارها، و تضع أوزارها، و تصير كل عين عليكم باكيه، و ينادى منادى الفراق:

(فهل ترى لهم من باقيه) (١)، و يسمعكم صارخ الفناء بعد أن يهزكم هزا، (هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا) (٢).

و قد أنصفناكم إذ راسلناكم فلا تقتلوا المرسلين كما فعلتم بالأولين، فتخالفوا كعادتكم سنن الماضين و تعصوا رب العالمين، (و ما على الرسول إلا البلاغ المبين) (٣)، و قد أوضحنا لكم الكلام فأرسلوا برد الجواب و السلام.

الملحق ٣

جواب السلطان برقوق على هذا الكتاب و تاريخه سنه ٧٩٦ هـ:

(المقريزي، أحمد بن علي: السلوك، صور شمسيه، ح ٣ ص ٢٣٨).

" بسم الله الرحمن الرحيم (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء و تنزع الملك ممن تشاء و تعز من تشاء و تذل من تشاء) (٤) حصل الوقوف على ألفاظكم الكفريه و نزعاتكم الشيطانيه، و كتابكم يخبرنا عن الحضرة الجنائيه و سيره الكفره الملائكيه، و أنكم مخلوقون من سخط الله، و مسلطون على من حل عليه غضب الله، و أنكم لا ترقون لشاك و لا ترحمون عبره باك، و قد نزع الله الرحمه من قلوبكم، فذلك أكبر عيوبكم، و هذه من صفات الشياطين لا من صفات السلاطين، و تكفيكم هذه الشهاده الكافيه، و بما أوقفتم به أنفسكم ناهيه، (قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون. و لا أنتم عابدون ما أعبد. و لا أنا عابد ما عبدتم، و لا أنتم عابدون ما أعبد، لكم دينكم و لى دين) (٥) القرآن الكريم: سوره الكافرون.

، ففى كل كتاب لعنتم، و على لسان كل مرسل نعمت، و بكل قبيح و صفتكم، و عندنا خبركم من حين خرجتم، أنكم كفره، ألا لعنه الله على الكافرين، من تمسك بالأصول فلا يبالى بالفروع. نحن المؤمنون حقا لا يدخل علينا عيب، و لا يضرنا ريب، القرآن علينا نزل، و هو سبحانه بنا رحيم لم يزل، فتحققنا نزوله، و علمنا بركه تأويله، فالنار لكم خلقت، و لجلودكم أضرمت، (إذا السماء انفطرت) (٥)، و من أعجب العجب تهديد الرتوت (٦) بالرتوت (٧)، و السباع بالضباع، و الكماه بالكرام، نحن خيولنا برقيه و سهامنا عربيه، و سيوفنا يمانيه، و ليوثنا مضريه، و أكفنا شديده المضارب، و صفتنا مذكوره فى المشارق و المغرب، إن قتلناكم فنعم البضاعه، و إن قتل منا أحد فبينه و بين الجنه ساعه، (و لا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون. فرحين بما آتاهم الله من فضله و يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم و لا هم يحزنون. يستبشرون بنعمه من الله و فضل و أن الله لا يضيع أجر المؤمنين) (٨).

و أما قولكم: قلوبنا كالجبال، و عددنا كالرمال، فالقصاب لا يبالى بكثرة الغنم، و كثير الحطب يفنيه القليل من الضرم، (كم من فئه قليلة غلبت فئه كثيره باذن الله و الله مع الصابرين) (٩).

الفرارا الفرار من الرزايا، و طول البلايا، و اعلموا أن هجوم المنيه عندنا غايه الأمنيه، إن عشنا عشنا سعادة، و إن قتلنا قتلنا شهداء، (فان حزب الله هم الغالبون)(١٠).

أ بعد أمير المؤمنين و خليفه رب العالمين، تطلبون منا طاعه، لا- سمع لكم و لا- طاعه، و طلبتم أن نوضح لكم أمرنا قبل أن ينكشف الغطاء، ففي نظمه تركيك، و في سلكه تلييك، لو كشف الغطاء لبان القصد بعد بيان، أ كفر بعد إيمان، أم اتخذتم إلها ثان، و طلبتم من معلوم رأيكم أن تتبع ربكم،(لقد جئتم شيئاً إدا. تكاد السموات يتفطرن منه و تشق الأرض و تحز الجبال هذا)(١١)، قل لكاتبك الذي وضع رسالته و وصف مقالته، وصل كتابك كضرب رباب أو كطين ذباب،(كلا سنكتب ما يقول و نمده من العذاب مدا، و نرثه ما يقول)(١٢)، إن شاء الله تعالى (لقد خلطتم في الأمر في الذي أرسلتم)(١٣) (و سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون)(١٤) و السلام " .

الملحق ٤

كتاب تيمور لنك إلى السلطان فرج كتيه من ملطيه في شهر المحرم سنه ٨٠٣ هـ (شرف الدين على يزدى: ظفرنامه ح ٢، ص ٢٧٦).

النص الفارسي:

"از پدردت أنواع حرکات ناپسندیده بظهور آمد از آن جمله بقتل ابلجیان [ایلچیان] ابن [این] جانب بی موجبی فرمان داد و اتمش را که از بندگان درگاه ماست محبوس گردانید و باز نفرستاد و چون او لباس حبات [حیات] عاریتی باز سپرده، پرسش و جزای او بدیوان قیامت افتاد و تو می باید که بر خود و اهالی مملکت رحم کنی و اتمش را دو [در] زمان روانه ابن [این] طرف سازی تا از ظلام قهر و انتقام سپاه خون آشام ما روز سلامت أهل مصر و شام بشام نرسد و اگر به وسوسه شیطان لجاج و عناد خلاف ابن [این] معنی بخاطر راه دهی جمیع آن دیار و بلاد از مرور و عبور عساكر منصور ویران هد [خواهد] شد و وزر و وبال خون و مال مسلمانان به گردن تو خواهد بود".

ترجمه الكتاب:

"لقد بدرت من والدك حرکات مستهجنه من جملتها قتله رسلنا دون سبب، و حبسه أظلمش الذي كان من رجال بلاطنا و عدم إرجاعه. و لما أسلم والدك وديعه الحياه فان سؤاله و جزاءه قد أوكل إلى الباري يوم القيامة.

و ينبغي عليك أنت أن ترحم نفسك و أهل مملكتك، و أن تعيد أظلمش إلينا

ص: ٣٩

١- القرآن الكريم سورة الحاقه: ٨.

٢- القرآن الكريم سورة مريم: ٩٨.

- ٣- القرآن الكريم سورة النور: ٥٤.
- ٤- القرآن الكريم سورة آل عمران: ٢٥.
- ٥- القرآن الكريم: سورة الانفطار: ١.
- ٦- الرتوت جمع رت و هو الرئيس و السيد (المعجم الوسيط).
- ٧- كذا فى الأصل.
- ٨- القرآن الكريم: سورة آل عمران: ١٦٩-١٧١.
- ٩- القرآن الكريم: سورة البقره: ٢٤٩.
- ١٠- القرآن الكريم: سورة المائده: ٥٦.
- ١١- القرآن الكريم: سورة مريم: ٨٩-٩٠.
- ١٢- القرآن الكريم: سورة مريم: ٧٩-٨٠.
- ١٣- ما بين الحاصرتين من ابن تغرى بردى النجوم الزاهره ج ١٢ ص ٥٢ (طبعه القايره سنه ١٩٥٦).
- ١٤- القرآن الكريم: سورة الشعراء: ٢٢٧.

حتى تنجى أهل مصر و الشام من انتقام جيشنا الذى يتحرق إلى الثار. و إذا سلكت غير هذا الطريق بدافع من وسوسه شيطان اللجاج و عناد الخلاف، فان جميع تلك الديار و البلاد سوف تصير خرابا بمجرد مرور عساكرنا المنصوره و عبورها فيها. و سيكون وزر و وبال دماء المسلمين و أموالهم فى عنقك".

الملحق ٥

كتاب تیمور لنکک إلى السلطان فرج فى جمادى الأولى سنة ٨٠٣ هـ حين تقدم تیمور لنکک لحصار دمشق (شرف الدين على يزدى: ظفرنامه، ج ٢ ص ٣١٥-٣١٦) النص الفارسى:

" آثار حزم و عزم ما در کارها دانسته اید و علو همت ما در تحصیل مطالب و إتمام ما قصد و مارب شناخته و عاقلان دانند که دامن کبر مردان در أمور غیرت است و حمیت اگر پادشاه است و اگر رعیت و مقصود اصلی پادشاهان از کشیدن لشگر و گشادن کشور با آن همه خوف و خطر رعایت ناموس است در حال و بقاء ذکر جمیل در مال نه مجرد جمع مال و تکثیر منال "بیت".

" همه کار جهان ناموس و نام است " و گر نه نیم نان روزی تمام است "

بکرات أتلمش را طلب داشتیم و نفرستادید و در ان جزئی قضیه چندان تعلق و تأخیر کردید که دست حمیت عنان عزیمت ما به اینجانب تافت و بسی خرابی و خلل بأحوال و أوضاع مردم این مملکت راه یافت "بیت".

گر از کوه پرسى بیابى جواب که شاخ خطا میوه ندهد صواب

با ابن [این] همه اگر أتلمش را إرسال نمایید و سکه و خطبه بألقاب ما بیارایید تا بساط نزاع در نور دیده شود و بر خود رحم کرده باشید و بر اهالی ابن [این] دیار و گر نه لشگر جرار خونخوار ما را قتل مخالف و قهر دشمن و شهر گرفتن و کندن رسم معهود [] است و غایت مقصود "نظم":

" طریق مدارا و راه ستیز " " کران امن خیزد و زین و ستخیز [رستخیز]"

" نمودم به تو عقل را کار بند " " وزین هر دوره کن یکی را پسند "

ترجمه الكتاب:

" لقد علمت آثار حزمنا و عزمنا فى الأمور، و علو همتنا فى تحصیل المطالب، و إتمام المقاصد و المآرب، و إن العقلاء ليعلمون أن تشبث الرجال بالأمور هو نزع من الغيره و الحميه، سواء كان الرجال ملوكا أو من أفراد الشعب. و إن الهدف الأصلي للملوك من قياده الجيوش و فتح الممالك مع كل هذا الرعب و الخطر هو رعايه الناموس فى الحال و بقاء الذكر الجميل فى المال، و ليس هو مجرد جمع المال و تكثير المنال.

إن أهم الأعمال فى الدنيا رعايه الناموس و إبقاء الذكر الطيب، و إلا فان المرء يكفيه نصف رغيف من الخبز.

و قد طلبت أطلمش مرات، و لكنكم لم ترسلوه و تعلتم بعلل واهيه لتأخير إرساله، حتى ثارت فينا النخوه لنسير إلى بلادكم، و نزل أنواع الخراب و الدمار بالناس و الأحوال في دياركم. "إذا نطق الصخر، فسيجيب بان شجره الخطا لا تعطى ثمرا".

و برغم هذا كله فانك إذا أرسلت أطلمش، و زينت السكه و الخطبه باسمنا و ألقابنا، و طويت بساط النزاع بيننا، و رحمت نفسك و أهل ديارك، لانتهى كل شىء، و إلا فان جيشنا الجرار المتعطش إلى احتساء الدماء سوف يعصف بالمخالفين، و يقهر المعاندين، و يستولى على الديار و يقتلع الرسم المعهود و يبلغ غايه المقصود.

"هناك طريقان طريق المداراه و طريق اللجاج" "الأول يؤدي إلى الأمن و الثانى يؤدي إلى الحرب" "و قد أظهرت لك العقل فانتصح" "و اختر طريقا من الطريقين"

الملحق ٦

جواب السلطان فرج على كتاب تيمور لنك السابق و تاريخه جمادى الأولى سنة ٨٠٣ هـ (شرف الدين على يزدى: ظفرنامه ج ٢ ص ٣١٧).

النص الفارسى:

"ما بندگان در مقام اطاعت و انقياديم و اتمش را تا اينج [پنج] روز ديگر بفرستيم و اگر آن حضرت از سر جرائم ما درگذرد بعد اين [از اين] در اقامت و ظايف فرمان بردارى و طاعت گذارى تقصير و إهمال جايز نداريم و به آنچه در مكنت و توان ما گنجد رضای شريف بندگان ايشان بدست آريم عواطف پادشاهانه".

ترجمه الكتاب:

"نحن عبید فی مقام الطاعة و الانقياد. و سنرسل أطلمش فی خلال خمسة أيام. فإذا تجاوز السلطان الأعظم عن جرائمنا فاننا لن نهمل أو نقصر فی أداء وظائفنا و إطاعة الأوامر، و إظهار الخضوع و سنفعل كل ما فی مكنتنا و مقدورنا لارضاء خاطرکم الشريف و مشاعرکم السلطانيه".

الملحق ٧

كتاب من السلطان فرج إلى تيمور لنك كتبه من دمشق وقت حصار تيمور لنك لها و تاريخه جمادى الأولى ٨٠٣ هـ (شرف الدين على يزدى:

ظفرنامه، ج ٢ ص ٣٢٧).

النص الفارسى:

"آنچه ديروز واقع شد غوغای عام بود بی اختيار ما جمعی جهال و أوباش از نادانی جسارت نمودند و سزای خود دیدند ما بر

همان عهدیم که عرضه داشت کرده ایم اگر لشکر امروز مصاف موقوف دارند و سلامت فرود آیند فردا هر چه فرمان آن حضرت باشد کاریند [کاربند] شویم و بعدر تقصیرات گذشته حسب المقدرو [المقدور] قیام نماییم."

ترجمه الكتاب:

"إن ما حدث أمس كان من فعل بعض الغوغاء دون رغبة منا، إذ أن جمعا من الجهال و الأوباش قد تجرءوا عن جهل للهجوم فلقوا جزاءهم.

و نحن باقون على العهد الذى عرضناه، فإذا أوقف الجيش القتال اليوم،

ص: ۴۰

فاننا سوف ننفذ غدا كل ما تأمرون به، و نقوم بتقديم العذر عن التقصيرات السابقه حسب المقدور "

الملحق ٨

كتاب من تيمور لنك بعد واقعه أنقره إلى السلطان فرج و تاريخه ٨٠٥ هـ (مير خواند: روضه الصفا، ج ٦، ص ٢٤٦).

النص الفارسي:

" به نصرت الهی و عنایت پادشاهی تمام مملکت روم در تحت تصرف و تسخیر بندگان در گاه ما قدار [قرار] گرفت باید که سکه و خطبه ولایت شام و مصر به و [] لقب همایون زیت ما و [] زینت دهد و اتلمش را در زما [زمانه] بدر گاه عالمیناه [عالمیناه] روان سازد و اگر دسین [در این] أبواب تغافل جایز داند یقین داند که رایت نصرت مال بعد اذ [از] مراجعت از دیار روم متوجه مصر و آن مرزوبوم خواهد شد هر چه در دل داشتیم گفتیم تو دانی بعد از این و قد أعذر من أنذر "

ترجمه الكتاب: " أصبح ملك جميع بلاد الروم بنصره الله، و عنایه السلطان تحت حكم أتباعنا فینبغی أن تزین سکه بلاد الشام و مصر و خطبتها باسمنا و لقبنا العظیم، و أن تطلقوا سراح اطمش فی الحال، و ترسلوه إلى بلاطنا الذی هو ملجا للعالم، و إذا تغافلتم فی هذا الأمر أدنی تغافل فیتقنوا أن رایتنا المظفره ستتجه بعد عودتها من بلاد الروم إلى مصر و ترفرف علی ربوعها. و قد قلت كل ما فی نفسی و أنت تعرف ما بعد ذلك. و قد أعذر من أنذر "

میرزا جانی عزتی.

من شعراء القرن الحادی عشر الهجری.

كان ممن عملوا للشاه عباس فی فارس، ثم عمل له فی دار الإنشاء الملكیه فی أصفهان عده سنین. ثم ترك عمله و سافر إلى مشهد الرضا و سكنها منشغلا بالعباده و الزهد إلى حین وفاته فیها.

و یصفه نصر آبادی بأنه كان ملاكا فی لباس البشیر.

له عده دواوین شعریه منها دیوان فی المكتبه الوطنیه بباریس یحتوی علی مائه و ألف بیت من الشعر، فیها الغزل و الرباعیات و المفردات و المقطعات.

كان عرفانی المشرب جمیل البیان سلس الشعر (١)

السید جعفر الرضوی العالمی:

ولد فی جبل عامل حدود سنه ١١٠٠ و توفي بقزوین حدود سنه ١١٨٥.

من أعیان العلماء مجتهد نحیر مشارک فی أنواع العلوم متبحر فی الفقه محقق بالأصول شاعر أذیب حسن البدیة شدید التقوی

كثير الورع.

ولد في جبل عامل و نما هناك و أخذ العلم و فنون الأدب على علمائه ثم هاجر إلى العراق فاتفق وروده إلى كربلاء و النجف مع زياره نادر شاه الأفشارى للعبات المقدسه فى العراق، فاجتمع المترجم مع نادر شاه المتوج فى سنة ١١٤٨ و المقتول سنة ١١٦٠ فاحترمه نادر شاه و أعجب به و دعاه إلى إيران فأجاب الدعوه و حل فى مدينه قزوین و لقبه الشاه بلقب صدر الصدور، و هو أبو الأسره المعروفه بال صدر الصدور فى قزوین. قال شيخنا الأستاذ الامام الرازى: (... السيد جعفر من سادات جبل عامل و أشرفها الأجلء هاجر إلى إيران و سكن قزوین فى عصر السلطان نادر شاه فاحترمه و بجله و أحله مكانه ساميه و أنعم عليه بلقب صدر الصدور...) (٢) و أصبح لقبه صدر الصدور عنوان هذا البيت الجليل و نبغ من ذريته و أحفاده علماء أعلام و شعراء أفذاذ منهم نجله السيد الحسن بن السيد جعفر العاملى آل الصدر الصدور و حفيده السيد أحمد بن السيد الحسن بن المترجم له و السيد عبد الكريم بن السيد أحمد بن السيد الحسن بن السيد جعفر المتوفى سنة ١٣٠٣ الآتى الذكر و السيد جمال الدين بن السيد عبد الكريم المتوفى سنة ١٣٣٣ الآتى الذكر و غيرهم ممن ستذكر كلاً- منهم فى محله إن شاء الله، تصدر المترجم له كرسى التدريس و الفتوى فى قزوین و بث الأحكام الشرعيه، و كانت قزوین منقسمه على نفسها بين الأصوليين و الأخباريين (٣) و كان المترجم له من أكابر علماء الأصوليين و أئمه الفتوى و التقليد و لا تزال داره موجوده حتى اليوم فى شارع سپه خلف مدرسه شيخ الإسلام يتوارثها أحفاده. له مؤلفات منها ديوان شعر، و كتاب فى الفقه، و رساله الزينبيه، و كلها موجوده فى مكتبه أحفاده بقزوین (٤)

الشيخ جعفر النقدي ابن الحاج محمد.

ولد فى العماره (العراق) سنة ١٣٠٣ و توفى سنة ١٣٦٩ فى الكاظميه و دفن فى النجف الأشرف درس فى العماره ثم انتقل إلى النجف لمتابعه الدراسه فكان من اساتذته فيها كل من السيد كاظم اليزدى و الشيخ كاظم الخراسانى و السيد هبه الدين الشهرستانى. ثم عاد إلى العماره سنة ١٣٣٢. و فى سنة ١٣٣٧ عين قاضيا شرعيا فى العماره. و فى سنة ١٣٤٣ نقل إلى بغداد، ثم إلى البصره ثم إلى كربلاء ثم إلى الحله.

ثم طلب احالته على التقاعد فعاد إلى العماره. و فى سنة ١٣٦٤ أعيد إلى القضاء فى البصره ثم صار عضوا فى مجلس التمييز الشرعى فى بغداد. ثم انتهى إلى التقاعد.

له عدده مؤلفات منها: ١ - أحوال الأئمه الاثنى عشر.

٢ - تاريخ الكاظميين. ٣ - أباه الضيم فى الإسلام. ٤ - ضبط التاريخ بالأحرف. ٥ - من الرحمن فى شرح القصيده الموسومه بالفوز و الأمان فى مجلدين. ٦ - مواهب الواهب فى إيمان أبى طالب. و غير ذلك من كتبه المطبوعه.

و من كتبه التى لم تطبع كتاب: (الروض النضير) فى شعراء و علماء القرن المتأخر و الأخير. و كتاب (خزائن الدرر).

و كان إلى ذلك شاعرا فمن شعره قوله يصف طياره طارت ليلا:

زهت بجمالها بنت الفضاء مجليبه بجلباب البهاء

على الغبراء قد درجت و طارت باجنحه البخار مع الهواء

يضاء بها ظلام الجو ليلا فتسرى و هى ساطعه الضياء

ص: ٤١

١- تاريخ أدبيات إيران.

٢- انظر نقباء البشر فى القرن الرابع عشر ج ٣ ص ١١٥٧.

٣- انظر مستدركات أعيان الشيعة ج ٢ ص ٣٠٤ و دائره المعارف الإسلاميه الشيعيه م ٤ ص ٥٤٦.

٤- الشيخ عبد الحسين الصالحى.

كان أشعه الأنوار فيها شمس و هي تسطع في المساء
لها لما في الفضا يعنو صغارا و قد سحبت رداء الكبرياء
ترد الريح عنها و هي حسرى و يهفو البرق منخمد السناء
سفين و النجوم لها شراع تسير على الهواء بغير ماء
إلى العلوى طورا باستواء و للسفلى طورا بانحناء
بها ابن الأرض حلق مطمئنا يريح ببطشه طير السماء
أ هذا ابن الثرى قصد الثريا من الغبراء يصعد بارتقاء
تضلله الكواكب و هو يعلو إلى الجوزاء منشور اللواء
أم الأقمار طار بها عقاب ترينا فى الظلام سنا ذكاء
تشق بضوئها ستر الدياتجى فيا عجبا لفعل الكهرباء
لقد نورتنا يا علم فيما كشفت عن العيون من الغطاء
فكم من غامض بك قد تجلى و كم أظهرت سرا ذا خفاء
و قد حيرتنا يا علم فيما يراه من العجائب كل ردائى
بنى الغرب افخروا بذوى المساعى الذين سعوا لكم لا بالذكاء
فان مفاخرا حصلتموها لقد كانت بسعى الأولياء
و له يصف السياره:

طفقت تنتهب الأرض انتهابا و غدت تطوى الفيافى و الشعابا
و على لوح الثرى آثارها بيراع السير قد خطت كتابا
كلما الغايه عنها ابتعدت أخذت منها دنوا و اقترابا
هى صرح حين تبدو و إذا ما جرت تحسبها ليثا مهابا

صوتها الرعد إذا ما زمجرت و هي كالثعبان تنساب انسيابا

أدهشت وحش الفلا هيبتها فانثنى للبيد عنها مسترابا

و تولى لافتا منذعرا يقطع الأغوار جريا و الهضابا

و إذا ما صرخت ليث الشرى فر ينحو فزعا غابا فغابا

راعه وسط البرارى هيكل لا يضاهى الأسد شكلا و الذنابا

يا لها سياره أبدى بها قلم الفن لنا أمرا عجابا

جمعت فى جوفها ماء و نارا فهى ريا و الحشى يشكو التهابا

و لها عينان مهما حدقت بهما شقت من الليل حجابا

و دوى يملأ الكون صدى و به يضطرب الدو اضطرابا

يقف الوهم لديها حاسرا كلما تجرى انخفاضا و انتصابا

و يظل الطير فى الجو على حيره يهفو ذهابا و إيابا

فعلى الغايه تنقض عقابا و على الظلماء تمتد شهابا

و قال متشوقا إلى النجف الأشرف:

خفقت على ذكرى الغرى ضلوعه فغدت تسيل على الخدود دموعه

و إلى ربوع العلم بات فؤاده يشكو الغرام و أين عنه ربوعه

بعدت و دون ربوعها بيد الفلا و الركب شق على المشوق نسوعه

لله برق لاح من وادى الحما ليلا فأثر فى حشاي لموعه

هتكت حجاب الأفق ومضه نوره ومضت و صبرى لم تصنه دروعه

يا منزلا قد أبعدته يد النوى حياك من غيث السماء مريعه

بين الضلوع هواك سر كامن لو لا الدموع الجاريات تذيعه

إني لينعشني بربعك صيفه و شتاؤه و خريفه و ربيعہ
يا حبذا شمس السماء غروبها بحماك و البدر المنير طلوعه
أدرت مهاد العلم أن وليدها بلغ الفطام من السلو رضيعه
يا جيره الذكوات أذكى بعدكم قلبا لقربكم شجاه ولوعه
ما أطيب النثر الذى من حيكم ریح الخزامى فى الفضاء تضييعه
و حمام أيك أرقته نوائحى فغدا ينوح فراقنى تسجيعة
نح يا حمام كما تشاء فكلنا من دهره مضنى الفؤاد وجيعه
عيناك ما هجعت و عيني لم تنم من كان ذا قلق فكيف هجوعه
هيهات أن يدنو الرقاد لناظر جفت مدامعه و سال نجيعه
ما هذه الدنيا بدار مسره فيها الفتى يهنى و يسكن روعه
لكنها دار الهوان و كلما فيها يؤول إلى الشتات جميعه

السيد جمال الدين بن السيد عبد الكريم بن السيد أحمد بن السيد الحسن بن

السيد جعفر الرضوى العاملى الأصل القزوينى

المولد و المسكن و المدفن.

ولد فى قزوین سنه ١٢٦٦ و توفى بها سنه ١٣٣٣ و دفن فى ايوان الشاه زاده حسين بن الامام الرضاع.

من أعيان العلماء و أئمه الفتوى و التدريس جامع المعقول و المنقول.

و آل صدر الصدور: من أعرق الأسر العلميه العلويه العامليه القزوينيه التى بزغ نجمها فى أفق قزوین فى القرن الثانى عشر للهجره منذ عهد جدهم السيد جعفر الرضوى العاملى الذى هاجر من جبل عامل فى عصر السلطان نادر شاه الافشارى المتوج فى سنه ١١٤٨ و المقتول فى سنه ١١٦٠ و أنعم عليه السلطان نادر الشاه بلقب صدر الصدور و أصبح هذا اللقب عنوان هذا البيت الجليل. و هم غير أسره آل شيخ الإسلام العلويه العامليه الحسينيه فى قزوین الذين هاجروا من جبل عامل فى أوائل الحكم الصفوى إلى قزوین الآتى ذكرهم. نبغ من هذا البيت الجليل جمع من العلماء الأعلام و الشعراء الأفذاذ منهم والد المترجم له السيد عبد الكريم آل صدر الصدور القزوينى المتوفى سنه ١٣٠٣ الآتى ذكره و الشاعر العارف السيد محمد آل صدر الصدور القزوينى المتخلص

ب "خاك" و غيرهم و ياتى ذكر كل منهم فى محله إن شاء الله.

قال شيخنا الأستاذ آغا بزرگ الطهرانى فى وصف هذه الأسره: (...)

السيد جعفر من سادات جبل عامل و أشرافها الأجلاء هاجر إلى إيران و سكن قزوین فى عصر السلطان نادر شاه فاحترمه و بجله و أحله مكانه ساميه و أنعم عليه بلقب صدر الصدور(١) ولد المترجم له فى قزوین فى بيت علم و رئاسه و أخذ المقدمات و المنطق و الصرف و النحو و العلوم العربيه و الفنون الأدب على رجال أسرته منهم والده السيد عبد الكريم و غيرهم ثم حضر فى الفقه و الأصول و الحكمة و الفلسفه على الشيخ الميرزا عبد الوهاب البرغانى المتوفى سنه ١٢٩٤ و الشيخ محمد على بن الشيخ محمد صالح البرغانى القزوینى و غيرهم من قزوین ثم هاجر إلى أصفهان و التحق بحوزه الشيخ محمد باقر الفشاركى و الشيخ محمد باقر الأصفهانى و صدرت له الإجازة من مشايخه المذكورين فتوجه إلى العراق قاصدا الحوزه العلميه الكبرى فى العتبات المقدسه فحضر فى كربلاء على الشيخ زين العابدين المازندرانى الحائرى و مدرس الطف الشيخ ميرزا على تقى البرغانى آل الصالحى و أخذ الفلسفه و العلوم العقلية عن حوزه الشيخ الميرزا علامه البرغانى الحائرى آل الصالحى ثم استقر فى النجف الأشرف و التحق

ص: ٤٢

١- انظر نقباء البشر فى القرن الرابع عشر ج ٣ ص ١١٥٧.

بحوزه الميرزا حبيب الله الرشتي و الشيخ لطف الله المازندراني النجفي و منها هاجر إلى سامراء مستفيدا من بحث الامام الشيرازي السيد محمد حسن حتى برع و كان ذو حافظه غريبه و استحضر لرءوس المسائل الفقهيه مما أهله لأن يعد في مصاف فحول العلماء الأعلام فعاد إلى قزوین في سنه ۱۳۰۴ فاستقبلته كافه الطبقات استقبالا شعيبا قل نظيره و أخذ يشتهر يوما فيوما حتى أصبح من علماء قزوین الأكابر و أساطين الدين و تصدر للتدريس و الفتوى و رجع إليه جمع من المؤمنين في أمر التقليد و ذكره شيخنا الأستاذ الامام الطهراني في طبقات أعلام الشيعة و قال: (السيد جمال الدين بن السيد عبد الكريم بن السيد أحمد بن الحسن بن جعفر الرضوي العاملي الأصل القزويني المولد و المسكن و المدفن عالم جامع و فقيه متبحر هاجر جده الأعلى السيد جعفر من جبل عامل و سكن قزوین أيام السلطان نادر شاه و تعاقب فيها أولاده و أحفاده إلى اليوم ولد المترجم حدود سنه ۱۲۷۰ هجريه و نشأ في قزوین ثم هاجر إلى أصفهان... ثم ذكر مشايخه و قال و رجع من العراق إلى قزوین في سنه ۱۳۰۴ هجريه مقيما بها للوظائف الشرعيه إلى أن توفي حدود سنه ۱۳۳۰ و له تصانيف منها كتاب المصاييح في الفقه و رساله في القراءه خلف الامام...)(۱) أقول: و ان نجله السيد محيي الدين كان من أبرز علماء قزوین و ذوی الرئاسة فيها، وصفه السيد محمد علي گلريز قائلا: و السيد محيي الدين بن السيد جمال الدين من العلماء البارزين و وجهاء قزوین(۲) ترك المترجم له مؤلفات و رسائل منها: ۱ - كتاب المصاييح في الفقه من الطهاره إلى الديات في أربع مجلدات، رساله في حدوث العالم، رساله عرفانيه، رساله في القراءه خلف الامام، تقارير درس استاذه الشيرازي في الأصول مجلدين، تقارير درس الشيرازي في الفقه في مجلد واحد، ديوان شعر صغير(۳)

السيد جواد بن السيد جمال الدين حسن بن السيد محمد باقر بن السيد

عبد المطلب الحسيني العلوي العريضي البشروي الحائري.

توفي في كربلاء حدود سنه ۱۲۶۰ و دفن في الروضه الحسينيه.

كان من كبار العلماء و أهل الفضل و المحققين ولد و نشأ في كربلاء و أخذ المقدمات و العلوم الإسلاميه على أفاضل الحائر الشريف ثم تخرج في الفقه و الأصول على الشيخ محمد صالح البرغانى الحائري المتوفى سنه ۱۲۷۱ و شريف العلماء المازندراني الحائري المتوفى سنه ۱۲۴۶ و شغل كرسى التدريس و الفتوى و الامامه في الحائر الشريف و هو نجل السيد جمال الدين حسن البشروي الخراساني الحائري الذي ذكر في أعيان الشيعة (الجزء الخامس صفحه ۲۴۱).

من مؤلفات المترجم له حواشى على كتاب الكافيه في الأصول لوالده و النسخه الأصلية بخط المؤلف في المكتبه الرضويه في خراسان(۴)

حسن علي ميرزا شجاع السلطنه ابن فتح علي شاه القاجارى

السادس و أخو حسين علي ميرزا فرمان فرما الأصغر.

عين حاكما على طهران سنه ۱۲۱۸ هـ و هو في الخامسة عشره من عمره. و هذا أول عمل تولاه من الأعمال الحكوميه. و في سنه ۱۲۲۴ هـ كان يحكم، مع طهران، بسطام و جاجرم، و يتولى تدبير شئون القبائل التركمانيه.

و فى تلك السنه خطب أبوه لنفسه "طاوس خانم" الأصفهانيه الكرجيه الأصل الملقبه بـ "تاج الدوله"، و أمره بتهيئه أمور الاحتفال بالعرس.

و أهدي، لهذه المناسبه، "الحاج محمد حسين خان صدر" الأصفهاني إلى فتح على شاه عرشا سماه "تخت خورشيد" (تخت الشمس) إذ كان على متكئه صورته للشمس. و فى ليله العرس جلس "فتح على شاه" على هذا التخت إلى جانب عروسه، و غير اسمه إلى "تخت طاوس" (٥) باسم العروس.

و فى سنه ١٢٢٩ هـ كان "محمد ولى ميرزا" ابن فتح على شاه الرابع واليا على خراسان. فوقع بينه و بين خاناتها و أمرائها خلاف شديد فاستدعى إلى طهران، و فى النيه إرسال "حسن على ميرزا" واليا على خراسان بدلا منه. و لكن صرف النظر عن هذا التدبير بالنظر إلى بعض المصالح الملكيه.

و أعيد "محمد ولى ميرزا" نفسه إلى عمله فى خراسان، و أرسلوا معه "الميرزا عبد الوهاب خان نشاط معتمد الدوله" و "فرج الله خان نسقجى باشى".

و فى مقابل ذلك ضمت يزد أيضا إلى حكم "حسن على ميرزا" على تهران و بسطام. فأرسل من قبله "الميرزا موسى منجم باشى" الرشتى حاكما على يزد. فقد كانت العاده فى عهد القاجاريين، و فى عهد غيرهم أيضا، أن يكون فى عهده أبناء الشاه، و مثلهم بعض الوزراء، أكثر من عمل واحد.

فإذا خلت يد أحدهم من عمل كان لديه عمل آخر بمنزله "الاحتياطى".

و فى أواخر سنه ١٢٣١ هـ عزل محافظ خراسان الأمير محمد ولى ميرزا عن حكومه خراسان و عهد بها إلى حسن على ميرزا و لقب (شجاع السلطنه). و كان سبب هذا التدبير وقوع فتنه فى خراسان (٤)، و مقتل إسحاق خان قرائى و ابنه حسن على خان (٧) بامر محمد ولى ميرزا. و كانت نتيجة هذا العزل و التعيين أن قر خانات خراسان فى أماكنهم، و نشر شجاع السلطنه الأمن فى ربوع خراسان، و أطلق حاجى فيروز الدين ميرزا (٨) حاكم "هرات" سراح مبعوث الحكومه المركزيه المؤرخ محمد صادق المروزي (٩) بعد أن حبسه فى سجن "هرات" تسعه أشهر، و جلا عن "غوريان" (١٠)، و كان ابنه "الملك قاسم ميرزا" قد سبق أن احتلها، فعادت إلى حكم مامورين من قبل والى خراسان.

بعد شهرين من وصول شجاع السلطنه إلى مشهد عزم على غزو

ص: ٤٣

١- انظر نقباء البشر فى القرن الرابع عشر ج ١ ص ٣١٤.

٢- انظر مينودر ج ١ ص ٣٤٠ الطبعة الأولى طهران منشورات جامعه طهران.

٣- الشيخ عبد الحسين الصالحى.

٤- الشيخ عبد الحسين الصالحى.

- ٥- هو غير "تخت طاوس" الشهير الذى حمله نادر شاه إلى إيران من الهند لما فتحها.
- ٦- هى فتنه عظيمه اشترك فيها فريق من خانات خراسان و أسره "سدوزائى" الحاكمه يومئذ فى أفغانستان. بدأت الفتنه فى سنه ١٩٢٩هـ.
- ٧- هما من كبار خانات خراسان. و كانا يخالفان الأمير محمد ولى ميرزا و يكيدان له و لا يعتنيان به. و كلماه مره فى مجلس بكلام غير لائق، فأمر بقتلهما فقتلا.
- ٨- هو أخو الشاه محمود السدوزائى ملك أفغانستان يومئذ.
- ٩- من موظفى وزاره المالیه، بعثت به الحكومه المركزيه من طهران إلى "هرات" للتحقيق فى شكاوى رفعت إليها.
- ١٠- كان من وقائع تلك الفتنه أن هاجم فيروز الدين ميرزا "غوريان" فاحتلها و طرد حاكمها المعين من قبل والى خراسان.

"هرات" (١) و احتلالها. فخرج من مشهد يقصدها. فاحتل قلعه "محمود آباد جم" حربا. ثم تابع سيره إلى "هرات" فالتقى جيش "حاجي فيروز الدين" عند نهر "إنجيل" فهزمه و ضرب الحصار على "هرات". و انتهى الأمر إلى دخول "حاجي فيروز الدين" في طاعته و ضرب السكة باسم فتح على شاه و خطب باسمه. و ظل "حسن على ميرزا" في تلك النواحي قريبا من ثلاثه شهور يحارب المتمردين فاخضع أكثرهم. ثم عاد إلى مشهد في شهر رمضان من تلك السنه.

و في سنه ١٢٣٢ هـ، إذ كان "حسن على ميرزا شجاع السلطنه" قد احتل "هرات" و نصب حاجي فيروز الدين ميرزا حاكما عليها بشرط أن يكون تابعاً لـ إيران في كل شيء، ثم عاد إلى مشهد، أرسل حاجي فيروز الدين ميرزا ابنه الملك حسين ميرزا إلى "قندهار" إلى أخيه شاه محمود و أرسل معه أحد رجاله، يطلب من أخيه مساعدته على استرجاع "غوريان". و كان "شاه محمود" يتربح سنوح مثل هذه الفرصه فاغتمها، و أرسل إليه وزيره "فتح خان"، و كان رجلا مغامرا مدبرا، و أرسل معه بعض إخوته و ثلاثين ألف فارس.

و كان الظاهر من هذه البعثه هو مساعده أخيه حاجي فيروز الدين ميرزا بناء على طلبه، و لكنه كان ينوي في الباطن احتلال "هرات" و اعتقال أخيه. و لما وصل "فتح خان" بجيشه إلى "فراه"، قال حاجي آقا خان وزير فيروز الدين ميرزا، و كان امراء محنكا بصيرا بالعواقب، لفيروز الدين: لا أرى صلاحا في أن تسمح لفتح خان بدخول المدينه بهذا الجيش الذي معه. و الصلاح في أن يعسكر خارج المدينه.

و بعد ذلك خف حاجي آقا خان بنفسه إلى استقبال فتح خان و أنزله في مكان خارج المدينه، و أبلغه عن لسان فيروز الدين ميرزا أن الغايه من مجيئه إلى "هرات" إنما هي استرداد "غوريان". و على هذا يترتب عليه أن يبدأ أولا بالسير إليها، فإذا استردها جاء إلى "هرات" فيستقبل فيها بما يجب من إكرام و إجلال.

و أراد الوزير "فتح خان" أن يبعد فيروز الدين ميرزا و رجاله عن كل سوء ظن به و أنه مطيع لأوامره و سيمضى عن "هرات" إلى استرداد "غوريان". فأظهر الانصياع لطلب فيروز الدين ميرزا، و مكث في خارج "هرات" بضعه أيام بدعوى التهيؤ للحرب. ثم دعا بعدها فيروز الدين ميرزا إلى معسكره لمشاورته و توديعه قبل الذهاب. فأجاب دعوته مطمئنا إلى قوله. و بعد التشاور و التوديع، أمر "فتح خان" باعتقاله ثم أرسله مخفورا إلى "قندهار" إلى "شاه محمود"، و قتل وزيره حاجي آقا خان و مستشاره عبد الرشيد خان. ثم دخل مدينه "هرات" سنه ١٢٣٣ هـ و نهب أمواله و أموال ابنه "الملك قاسم ميرزا" و خزائنها. و ظل مقيما في المدينه. ثم شرع يرسل رسلا و كتبا إلى خانات خراسان و رؤسائها و "محمد رحيم خان الخوارزمي" خان "خيوه" فحالفهم. ثم بعث بأخيه "كهندل خان" لاحتلال "غوريان"، و سار هو في تلك السنه من "هرات" بثلاثين ألفا إلى خراسان يقصد احتلالها. و سار محمد رحيم خان أمير خوارزم برجاله حتى بلغ أراضي "سرخس". و سار "شجاع السلطنه" من مشهد في ٨ رجب من تلك السنه في طريق "هرات" إذ رأى أن الأنسب البدء بدفع الأفاغنه. و التقى الجمعان، عسكر "فتح خان" و عدته ثلاثون ألفا و عسكر "حسن على ميرزا" و عدته عشره آلاف، في أراضي "كوسويه" (كوهستان). فأرسل "فتح خان" رسولا إلى "شجاع السلطنه" يقترح عليه الصلح و الانصراف عن الحرب و سفك الدماء في مقابل شروط مجحفه بحق إيران. فلم يلتفت إليه "شجاع السلطنه". و وقعت حرب شديده استبسل فيها الإيرانيون، و بلغ أحد قوادهم "ذو الفقار خان" السمناني الغايه من الشجاعه و الثبات حتى انتصروا، يقول المؤرخ الانكليزي "آر. جي. واتسون" في كتابه "تاريخ القاجاريين":

" في هذه المعركة رأى ذو الفقار خان قائد الفوج السمناني أن جنوده أخذوا يفرون إذ رأوا كثره عدوهم. فترجل عن حصانه و عقره، و صاح بجنده: أ تفرون و تتركونني وحيدا! فاخذتهم النخوه و ثبتوا معه حتى تم لهم النصر "اه.

و في هذه المعركة أصيب "فتح خان" برصاصه في فمه. إصابه شديده، فكان ذلك باعثا على انكسار معنويات جنوده، فتفرقوا عنه منهزمين. و لو لم ينتصر الايرانيون في هذه الحرب لوقعت إيران في صعوبات عظيمه.

و كان "كامران ميرزا" ابن "الشاه محمود" حاكما على "هرات". فلما بلغه نبا هذه الحرب و ما حدث فيها أراد الاعتذار إلى دولته [دولت] إيران فتبرأ مما فعله "فتح خان" و أعلن أنه إنما أقدم على محاوله غزو مشهد من تلقاء نفسه بدون علم منه و من أبيه. و من أجل أن يثبت ذلك أمر بسمل عيني "فتح خان" و كان ذلك في سنه ١٢٣٣ هـ. و في سنه ١٢٣٤ هـ قتله (٢) و انصرف "شجاع السلطنه"، بعد هذا النصر، إلى قمع المتمردين من خانات خراسان. فما حلت سنه ١٢٣٥ هـ حتى كان قد أحمده فتنهم، و عزم على غزو "هرات" لقمع "الشاه محمود السدوزائي". و إذ كان هذا على علم سابق بذلك فقد بادر إلى تدارك أمره بان أرسل من قبله رسولا إلى طهران إلى "فتح علي شاه". فذهب الرسول أولا إلى "تربت حيدريه" حيث كان "شجاع السلطنه"، فاجتمع به و قدم إليه مقدارا كبيرا من الهدايا و المال و صرفه بهذه الرشوه عن السير إلى "هرات". ثم تابع سيره إلى طهران، فدخل على "فتح علي شاه" و رشاه كما رشاه ابنه "شجاع السلطنه" بوافر من الهدايا و المال، و بذلك سلم "الشاه محمود" من الغزو و الحرب.

و عاد "شجاع السلطنه" إلى مشهد.

و في سنه ١٢٣٨ عزل "شجاع السلطنه" عن ولايه خراسان و استدعى إلى طهران. و كان السبب في ذلك أن خانات خراسان تواطؤوا على الوشايه به إلى أبيه "فتح علي شاه". فحذروه سرايا من أن من الممكن أن يتمرد ابنهن.

ص: ٤٤

١- إحدى مدن خراسان الأربع.

٢- أغضب إعماء هذا الوزير ثم قتله إخوته، و عدتهم تسعه عشر، فثاروا على "الشاه محمود"، و أدت ثورتهم إلى زوال أسرته، أسره "سدوزائي"، بعد أن حكمت أفغانستان ٩٤ عاما، من سنه ١١٦٠ هـ إلى سنه ١٢٥٤ هـ، و حلت محلها في الحكم أسره "محمدزائي"، و مؤسسها "دوست محمد خان" أخو الوزير "فتح خان" المذكور. و هي الأسره التي ظلت تحكم أفغانستان إلى يوم الانقلاب الجمهوري الذي وقع في سنه ١٩٧٣ م. و الأسرتان كلتاهما من طائفه الأبداليين.

و يخرج عليه. فلما سمع "شجاع السلطنة" بهذا الخبر ذهب إلى طهران و استقال من الولاية على خراسان. و عين "فتح على شاه" ابنه الثامن "على نقى ميرزا" فى مكانه و لقبه ب "حجه السلطان"، و كان قبلها حاكما على قزوین.

و لكن "على نقى ميرزا" عجز عن تطويع خانات خراسان فعاد إلى طهران فى سنة ١٢٣٩ هـ و استعفى من ولاية خراسان. فأعاد الشاه "شجاع السلطنة" إليها مره ثانيه فى تلك السنه.

و فى سنة ١٢٤٠ هـ، و كان "رحمان قلى توره" والى خوارزم الأزبكي قد هاجم خراسان و وصل إلى قرب مشهد، خرج "شجاع السلطنة" إلى حرب هذا الوالى فهزمه هزيمة شديده و رد الأزابكه عن خراسان.

و فى سنة ١٢٤١ هـ كان "الشاه محمود" الأفغانى حاكما على "هرات". و كان يخشى أن يعتقله ابنه "كامران ميرزا" و يحبسه. فخرج من "هرات" و هيا جيشا من البلدان التى فى نواحيها، و هاجم به "هرات" و أوشك أن يحتلها و يقبض على ابنه. فأرسل الابن إلى "شجاع السلطنة" يستنجد به. فقدم "شجاع السلطنة" من مشهد إلى إنجاده بجيش كامل التجهيز فى شهر ذى الحجه من تلك السنه. و كان قدومه بنفسه إلى "هرات" سببا فى انكسار "الشاه محمود" و دفعه عنها، و تغلب الابن على أبيه.

و أقام "شجاع السلطنة" فى "هرات" شهرا و بعض الشهر، ثم عاد إلى مشهد و ترك فى "هرات" ابنه الثالث "أرغون ميرزا" مع خمسه آلاف فارس.

و ظل "شجاع السلطنة" واليا على خراسان إلى سنه ١٢٤٣ هـ، و هى السنه التى أوقع الروس فيها بايران هزيمة شديده فى الحرب الثانيه التى وقعت بين الدولتين، و انتهت إلى عقد معاهده "تركمان شای"، و احتلال الروس "إيروان" و تبريز.

فى ذلك الحين أمر "فتح على شاه" جميع الولاة بتهيئه الجيوش و الحضور بها إلى العاصمه لمتابعه محاربه الروس. و جاء "شجاع السلطنة" بجيش عظيم من خراسان متهيئا للحرب. و لكن وقع خلاف بينه و بين أخيه ولى العهد "عباس ميرزا"، فقد كان هذا يرى الصلح و "شجاع السلطنة" يرى الحرب. و شاع فى أوساط العسكريين و البلاطيين يومئذ أن "فتح على شاه" أخذ يرتاب فى "عباس ميرزا" و يظن به الخيانه، و أنه ينوى عزله من ولاية العهد و توليه "شجاع السلطنة" مكانه. و شاع أيضا أن "شجاع السلطنة" اقترح على أبيه أن نح "عباس ميرزا" و أقمى فى مكانه أمرا على الجيش فاسير إلى أذربيجان و أتابع محاربه الروس. و لكن السياسه الايجابيه التى اتبعها "عباس ميرزا" فى معامله الروس قربته منهم و أوجدت بينه و بينهم رابطة صداقه و ثقه، فايدوه. و إذ كانت كلمتهم مسموعه لأن الغلبه كانت لهم، فقد رد اقتراح "شجاع السلطنة"، و مضى "عباس ميرزا" فى إنقاذ رأيه حتى تم الصلح و عقدت معاهده "تركمان شای". و أوقع هذا الخلاف عداا شديدا بين الأخوين.

و مع أنه شاع شيوعا و اسعا أن "عباس ميرزا" قد خان بلاده باتباعه هذه السياسه، فان فريقا من كبار المؤرخين يرى أن الحق كان فى جانبه و أن "شجاع السلطنة" كان مخطئا فى سياسته، لأن إيران كانت يومئذ عاجزه عن متابعه الحرب بسبب تفوق الروس عليها تفوقا عظيما، فهى لا قبل لها بمقاومتهم. و لن تجنى من متابعه الحرب غير متابعه الروس احتلال أقسام أخرى من أرضها. و سبب آخر هو أن رضوخ إيران لمعاهده هى المغلوبه فيها لن يدفع الروس إلى إثارة حرب أخرى فى المستقبل على إيران. لأن انكلترا، و هى حليفه روسيا، لن تسمح لهم بالتقدم أكثر مما تقدموا لأمن خطتها فى المحافظه على طريقها إلى الهند تقتضيها

ذلك، و أن إيران قد ضعفت و تمزقت بيد الروس إلى الحد الذي تريده إنكلترا. و هنا يجب أن تتوقف روسيا. و من ثم لم يبق وجه لأن تتابع إيران محاربه روسيا، فعقدت معاهده "تركمان شای".

استمرت الحرب الثانيه بين روسيا و إيران من سنه ١٢٤١ هـ إلى سنه ١٢٤٣ هـ، و انتهت إلى انكسار إيران انكسارا تاما، و الإضرار بها إضرارا عظيما، حتى يمكن القول إن إيران أصبحت بعد هذه الحرب و عقد تلك المعاهده بلا حول و لا قوه.

في سنه ١٢٤٣ هـ، إذ كان أبناء الشاه و حكام الولايات في طهران بدعوه من "فتح على شاه" للتشاور في أمر الحرب تمرد "عباس قلى خان" حاكم كرمان و بلوشستان و خرج على الدوله بتحريض من وزيره "محمد قاسم خان" الدامغانى. و كان "محمد ولى ميرزا" ابن "فتح على شاه" يومئذ حاكما على يزد. فلما بلغه نبا الثوره في كرمان ذهب إلى طهران لتقديم تقرير عنها و تدبر أمرها، و أناب عنه على حكومه يزد وزيره "عبد الرضا خان" ابن "تقى خان" حاكم يزد السابق.

فلما وصل "محمد ولى ميرزا" إلى طهران صادر نائبه "عبد الرضا خان" كل أمواله لنفسه، و أخرج نساءه و أبناءه و أقرباءه، و عدتهم ثلاثمائه، من يزد و بعث بهم إلى طهران و أعطاهم مبلغا من المال نفقه الطريق. و فيما "محمد ولى ميرزا" عائد من طهران إلى يزد التقى بهم في "نايين" فاضطر أن يقطع سفره و يعود معهم إلى طهران.

و كان والى خراسان "حسن على ميرزا شجاع السلطنه" حينئذ في طهران مشغولا بالمشاورات القائمه في موضوع الحرب الروسيه الإيرانيه.

فأمر "فتح على شاه" بتعيينه حاكما على يزد و كرمان، و بعث به مع جيشه إليهما لاقرار النظام فيهما. و بعث معه بأحد رجاله اسمه "آقا إسماعيل" ليسترد من حاكم يزد المتمرد أموال "محمد ولى ميرزا". فلما وصل "شجاع السلطنه" إلى يزد قاومه حاكمها المتمرد، و توسل بالعلماء ليكونوا واسطه بينه و بين الشاه فالتمسوا من الشاه إقرار "عبد الرضا" في حاكميه يزد و إرجاع "شجاع السلطنه" عن محاصره يزد. و قدم "عبد الرضا" إلى الشاه هدايا كثيره، فأجابهم إلى طلبهم، و سار "شجاع السلطنه" من يزد إلى كرمان.

و هناك قوبل أيضا بمقاومه شديده انتهت بعد اثني عشر يوما من الجدال و المنازعه و الحرب إلى انتصاره بحسن تدبير "آقا محمد حسن" المازندراني أحد رجال خاصته. و بعد مده قليله ثار أهالى المدينه مره ثانيه على "شجاع السلطنه" فاحمد ثورتهم و أخضع رؤساءهم.

و في سنه ١٢٤٥ هـ اضطر "فتح على شاه" إلى السفر إلى فارس، لقمع بعض حركات التمرد. فاستدعى إليه "شجاع السلطنه" من كرمان فصحبه إلى شيراز، ثم عاد منها إلى كرمان و في خدمته "محمد زكى خان".

و في سنه ١٢٤٦ هـ اتصل "شفيع خان" حاكم نواحى كرمان ب "عبد

الرضا خان " حاكم يزد فحرضه هذا على الخروج على "شجاع السلطنة".

و بلغ ذلك إلى "شجاع السلطنة" فغضب غضبا شديدا و قام بمحاصره يزد يريد اعتقال "عبد الرضا خان". و إذ كان قد قام بهذا العمل على خلاف ميل أبيه و بدون إجازة منه، فقد عين "فتح على شاه" حفيده "سيف الدوله ميرزا" حاكما على يزد. إلا أن "شجاع السلطنة" شدد حصاره عليها مندفا بما فى نفسه من حقد و نقمه. فلما رأى "فتح على شاه" ذلك منه أمر نائبه ولى عهده "عباس ميرزا" بالمسير إلى يزد لاستخلاصها و إخماد الثورة فيها. فلما علم "شجاع السلطنة" بذلك عاد عن يزد إلى كرمان. و احتل "عباس ميرزا" يزد و اعتقل "عبد الرضا خان" ثم سار إلى كرمان. فلما علم "شجاع السلطنة" بقدمه إليها أرسل ابنه الأكبر "هلا-كو ميرزا" الملقب بـ "بهادر خان" إلى استقباله، و دخل "عباس ميرزا" نائب السلطنة إلى كرمان سلما بلا مقاومه. و دخلها أيضا حين دخوله "آقا محمد كريم" أحد رجال "فتح على شاه" مرسلا من قبل الشاه لاحضار "حسن على ميرزا" إلى طهران.

و فى أواخر سنه ١٢٤٦ هـ أرسل نائب السلطنة "شجاع السلطنة" إلى طهران، و معه مائتا فارس، و عليه "محمد زمان خان قاجار دولو" رقبيا.

و فى تلك السنه ذهب "فتح على شاه" إلى أصفهان، و أحضر إليه أبناء "شجاع السلطنة" و أحضر أيضا "حسين على ميرزا" الملقب بـ "فرمان فرما" (الحاكم) و هو ابنه الخامس من شيراز قاعده و لايه فارس، و كان واليا عليها، فحقق فى أمور كان قد أقدم عليها، ثم أذن له بالعوده إلى شيراز و سلم إليه أبناء "شجاع السلطنة" يصحبهم معه إلى فارس و يحتفظ بهم عنده هناك.

و فى أواخر سنه ١٢٤٨ هـ أرسل الشاه "شجاع السلطنة" إلى شيراز إلى أخيه "حسين على ميرزا" لاختماد فتنه وقعت فى أراضى "كوه كيلويه" و "دشتستان"، و منها يذهب إلى كرمان حاكما عليها.

و فى أوائل سنه ١٢٤٩ هـ توفى ولى العهد "عباس ميرزا" فى مشهد و نصب ابنه "محمد ميرزا" وليا للعهد خلفا له، إذ كانت معاهده "ترکمان شای" التى عقدت بين إيران و روسيا سنه ١٢٤٣ هـ قد نصت على أن يكون الملك له و لأعقابه من بعده. و لم تمنع إنكلترا كذلك تعيينه لهذا المنصب.

و فى سنه ١٢٥٠ هـ توفى "فتح على شاه" فى أصفهان، فأصبح حفيده هذا خلفا له على العرش. و كان الصدر الأعظم "عبد الله خان أمين الدوله، يريد أن يكون منصب الشاه لـ "حسين على ميرزا فرمان فرما" خامس أبناء "فتح على شاه". و قد ترك الشاه المتوفى من بعده ستين من الأبناء، كان كثيرون منهم يشغلون مناصب الحكام و الولاه فى مختلف الايالات و الولايات. و منهم "حسن على ميرزا شجاع السلطنة" كان حاكما على كرمان. فلما سمع بنيا وفاه أبيه "فتح على شاه" و تولى ابن أخيه "محمد ميرزا" منصب جده استاء أشد الاستياء. فذهب إلى فارس إلى أخيه "حسين على ميرزا فرمان فرما". و نادى هذا بنفسه شاهها و عين "شجاع السلطنة" قائدا لجيشه.

أما "محمد شاه" فقد عمل بمشوره وزيره الكفاء القائم مقام "الميرزا أبو القاسم" فبعث بأخيه "فيروز ميرزا" و معه أحد خاصه "منوچهر خان معتمد الدوله" و بعض الضباط الإنكليز بجيش إلى فارس لاختضاع الأخوين العاصيين.

والتقى الجيشان، جيش "حسين على شاه" بقيادة "شجاع السلطنة" وجيش "محمد شاه" بقيادة الضابط الانكليزي "ليندزي"، و وقعت بينهما معركة في ناحيه تدعى "شولكستان"، انهزم فيها "شجاع السلطنة" هزيمة مروعه، فراجع، بل فر، إلى شيراز.

وانتهى أمر الأخوين إلى التسليم، فاسرهما "معتد الدوله" و بعث بهما مع "منصور خان الفراهانى" إلى طهران. وقبل وصولهم إلى العاصمه سمل "محمد باقر خان قاجار دولو" محافظ طهران عينى "شجاع السلطنة" فى قريه "كنار كرد" بالقرب من طهران بامر من "محمد شاه". و سجن الأخ الأكبر "حسين على ميرزا فرمان فرما" فى عماره "برج نوش". و بعد بضعه أشهر توفى بالكوليرا فى أوائل سنه ١٢٥١ هـ.

و أوقف "حسن على ميرزا شجاع السلطنة" الأعمى مده فى طهران.

ثم سجنوه مع عشره من أبناء "فتح على شاه" فى قلعه أردبيل. و ظل مسجوناً فيها إلى سنه ١٢٥٣ هـ، إذ استطاع أربعة من المسجونين الفرار من القلعه من ثغره فتحتها لهم فى أحد جدران القلعه رجل من حافرى الأقبنيه، بعد أن هيئت لهم جميع وسائل الفرار اللازمه، و لجئوا إلى روسيا. و بعد هذه الحادثه نقل بقيه الأمراء المسجونين إلى تبريز لكيلا يتمكنوا من الفرار، و أقيمت عليهم حراسه دقيقه.

ولد "شجاع السلطنة" سنه ١٢٠٤ هـ و توفى سنه ١٢٧٠ هـ فى طهران و له من العمر ٦٧ عاماً. و كان ينظم الشعر، مثل كثير من أبناء "فتح على شاه". و اسمه الشعرى المستعار "شكسته" أى: الضعيف (١).

الحاج حسين بن على قصفه

ولد فى قريه السلطانيه التى كانت تسمى (اليهوديه) بجبل عامل سنه ١٣٠٥ و توفى فيها سنه ١٣٨٥.

نشا فى قريته و تتلمذ على أحد شيوخها فتعلم مبادئ القراءه.

و كان ذا ولع بالشعر العامى و مارسه فى صغره حتى مالت نفسه إلى العلم و لكن وسائل التعليم كانت مفقوده ببلدته فى ذلك الزمن فتتبع الكتب و الشيوخ إلى أن أصبح له إمام باللغه العربيه.

سافر مرتين إلى الولايات المتحده الأمريكيه الأولى من سنه ١٣٣٠ هـ إلى سنه ١٣٣٧ هـ. و الثانيه من سنه ١٣٣٨ هـ إلى سنه ١٣٤٨ هـ. و نظم فى المهجر قسماً كبيراً من شعره أكثره فى الحنين إلى وطنه، ثم عاد إلى قريته و استقر فيها حتى أدركته الوفاه.

من مؤلفاته: تصحيح نخبه المحدثين فى كتاب صنفين لنصر بن مزاحم مع إضافات هامه طبع فى مدينه "ديترويت" الولايات المتحده عام ١٩٢٥ و من مؤلفاته التى لم تطبع:

١ - شرح القصيده الافريقيه التى مطلعها:

مهلاً على رسلك حادى الايتق و لا تكلفها بما لا تطق

٢ - شرح القصيده البائيه للسيد حسن محمود الأمين في مديح أمير المؤمنين ع التي مطلعها:

فرقان مدحك يجلو ظلمه الريب و آيه الصدق تمحو آيه الكذب

٣ - منتخبات من الشعر العربي.

فمن شعره مراسلا أحد أصدقائه المهاجرين:

ذهبت بصفو حياتنا الأيام و مضت بعاطر ذكرنا الأعوام

فمن الزمان و حادثات صروفه لا الكر ينقذنا و لا الأحجام

أعمارنا مرت سراعاً و انقضت فكأنها بمرورها أحلام

فعلى الحياه و ما مضى من عيشنا و الذكريات و ما تضم سلام

بالأمس كنت إذا مرت بربعها لا العين تصيبني و لا الآرام

أمشى كما شاء الغرام و لم أقل هذا الحمام إلى النفوس حمام

يا نازحا عن داره منذ الصبي الدار يحيى ذكرها الإلمام

لا الدار دار فى الربوع و لا الحمى هو ما عهدت و لا الخيام خيام

السيد حسين فخر الدين ابن السيد على

ولد سنة ١٨٨٠ م فى قريه (اليهوديه) بجبل عامل التي استبدل باسمها هذا أخيرا اسم (السلطانيه) و توفى فيها سنة ١٩٦٤ م.

درس قواعد اللغة العربيه فى مدرسه شقراء تمهيدا لإكمال الدراسه بعد ذلك فى النجف الأشرف، و لكن حالت الظروف دون ذلك، فأقام فى بلدته ملتزما بعض الأعمال الدينيه كاجراء عقود الزواج و قراءه مجالس التعزیه بصوته الشجى الرقيق.

و كان ينظم شعرا فمن ذلك قوله فى مطلع قصيده مدحيه:

جاءتك ترفل فى قبا و برود عذراء تهزأ بالعذارى الرود

تختال تيهها فى غلاله دلها و تميل شبه البانه الأملود

و جبينها كالبدرد ليله تمه يبدو و يخفى فى ظلام جعود

و سناء لو نظرت إليك لخلتها نشوانه أو كحلت بهجود

و بقرطها شاد حكت نغماته عند التردد نغمتى داود

هيفاء ترشق من نبال لحاظها و تصيد أفئده الكماه الصيد

و بوجنتيها جمره و بثغرها شهد، فيسكر كابنه العنقود

و تريك برقا إن تبسم ثغرها فكأنه عن لؤلؤ منضود

تهتز مثل الخيزرانه إن مشت تمشى الهوينا مشيه المصفود

و يقول فى قصيده رثاء:

هوى اليوم ركن المجد و الجو أظلما و طرف المعالى يمزج الدمع و الدما

و سمر العوالى بالمنون تقصفت و ذا الصارم البتار بات مثلما

لقد خسف البدر الذى يهتدى به و قد كسفت شمس الظهيره فى السما

و فى قصيده أخرى:

فظوبى لأرض قد حللت بتربها لقد سعدت، لكن لنا الهم و الخسر

مضيت و خلفت العيون بواكيا تسيل من الآفاق أدمعها الحمر

و أضرمت فى الأحشاء نارا توقدت و فى كل قلب من توقدها جمر

و من شعره قوله:

هجرت الكرى لما علمت بأنها، على غير جرم قد صفت للعواذل

و قد لامنى الواشون فيها سفاهه و أنى لها بين الورى من مماثل

تصيد قلوب العاشقين بنظره إذا ما رنت فى طرف أحور ذابل

و ما البيض إلا من سواجى جفونها و من قدها المياس سمر العوامل

و ما الشعر إلا كوثر فيه لؤلؤ فذاك لأهل العشق عذب المناهل

و جيد كجيد الريم ليس بعاطل و لون كلون الورد وسط الخمائل
فان لامنى العذال فيها فانى مدى الدهر، لن أصغى إلى قول عاذل
و قوله:

و لقد ذكرتك عند آخر نظره كانت ختام الزاد للمترو
و سواك لم أقصد - سلمت - بدعوه منى لقومى و الحمام مهدى
فبكى الجميع و كنت أ بسم بينهم جذلا كانى منه فى روض ندى
و ذهلت عن يومى و ما ألقى به أملا بانك حول نعشى فى الغد
خالستك النظر الأخير و معشرى حولى وجوم و الحمام مهدى
يبكون من حزن على و إننى فرح بانك بينهم من عودى
و قوله مادحا:

أهل أنت فى ربع الأحبه سائل فتنيك أطلال لهم و منازل
فان بذاك الحى عذراء ناهد لها من سواجى الطرف بيض قوائل
و فرع كجرح الليل أسود فاحم و وجه كبدر التم فى الأفق كامل
و جيد تحلى لا بعقد و إنما بحسن تلالاً نوره و هو عاطل
إذا خطرت فالقرط أصبح ناطقا و تخرس غند [عند] الخطو منه الخلاخل
تمشت إلى نحوى تجر وراءها عقائص شعر ما نمتها الغلائل
تقول لقد أصبحت بالهجر متلفى ممالك عن وصل الأحبه ذاهل
فقلت لها كفى الملامه و اقصرى فلى شغل فى نعت غيرك شاغل
همام نمته للمعالى أكارم و ليث عرين أنجبته بواسل
تسلسل من أعراق قوم نداهم بحور عطاء ما لها قط ساحل

بلى أنت فى ذا العصر سيد عامل و ما لك فى ذا الدهر ند مماثل

فأنت عماد الفخر و العز و العلا و فى الجذب للعافين عون و كافل

و أنت بأفق المجد بدر سنائه مقيما على أن البدور أوافل

و يا من له فوق الأثير مضارب تسامت على متن النهى و منازل

نبت على الجوزاء مجدا مشيدا دعائمه بيض و سمر عواسل

تعاليت أن يحصى صفاتك مادح فكيف و قد شدت إليك الرواحل

لعمرك ما فى الكون غيرك سيد و لا خلقت إلا إليك الفضائل

الوزير المغربى أبو القاسم الحسين بن على:

إشاره

مرت ترجمته فى المجلد السادس. و ننشر هنا عنه هذه الدراسه بقلم الدكتور إحسان عباس:

للوزير المغربى أبى القاسم الحسين بن على دور كبير فى العلم و الأدب و السياسه: فى العلم بما خلفه من مؤلفات مثل أدب الخواص و الإيناس و غيرهما من مؤلفات لم تصلنا، و فى الأدب بديوان شعر رآه ابن العديم بخطه كما رآه ابن خلكان، و ديوان رسائل، و فى السياسه بمحاولته الثوره لأن الحاكم بامر الله الفاطمى قتل أباه و عمه و أخويه، و فى التنقل من وزاره إلى أخرى فى المناطق العراقيه، حتى ليوصف بأنه أحد دهاه العالم. و إنك لتعجب بهذا العالم الذى بلغ حدا متميزا فى الدقه العلميه و سعه الاطلاع، كما تعجب بالشاعر الرقيق و الناثر اللبق، و لكنك قد تتردد فى الاعجاب بذلك

ص: ٤٧

الرجل المغامر الذى خاص دنيا السياسة و المكاييد و الحروب بذكاء فذ. و قد تحس أن ذلك كله كان ذا جور على دوره العلمى و الأدبى، و مع ذلك فإنه كان مدفوعا إلى ذلك بقوه الظروف التى عاش فى ظلها.

و منذ أن تعرفت إلى علاقته بأبى العلاء أثناء عملى المستمر فى بعض آثار أبى العلاء، حاولت أن أكتشف طبيعه تلك العلاقة، و ذلك التقدير الذى كان المعرى يحمله للوزير. لقد وحدت بينهما المعره - و حلب - فى النشأه، و لكن ذلك لا يكفى لتفسير علاقته ظلت مستمره طوال العمر. و قد أدهشنى حقا أن يرثيه أبو العلاء فى اللزوميات، و هو كتاب متميز بالتأملات الفكرية، جاء بعد عهد المدح و الرثاء اللذين يمثلهما سقط الزند. و قد طال بى العهد و أنا أعائش ما أجده فى المصادر من شعره و نثره، و فى أثناء ذلك صدر كتاباه أدب الخواص و الإيناس، و كان الأول منهما مصدرا بدراسه قيمه للشيخ حمد الجاسر، كما أن الأستاذ إبراهيم الأبيارى نشر الإيناس و قدم له بدراسه فى المؤلف، و قبل ذلك بكثير أصدر الدكتور سامى الدهان رساله الوزير فى السياسة، و كتب لها مقدمه عرف فيها بالمؤلف باسهاب، كما جمع التراجم التى وردت فى ما اطلع عليه من مصادر. و قد قرأت كل هذه المقدمات و أفدت منها، حتى لقام فى و همى أننى لا أستطيع أن أتجاوز ما قدمه هؤلاء العلماء الأجلاء. و قد أدرت المسأله فى نفسى طويلا، ثم قر العزم على كتابه دراسه عن الوزير المغربى، فمن يدرى لعلنى أستطيع أن أقول فيها أشياء لم يقلها الذين سبقونى إلى دراسته.

و قد كتبت كتابى فى دراسه عبد الحميد الكاتب، و حين درست الوزير المغربى و جدتني أدرس علما كبيرا من أعلام النثر، ذا علاقته معنويه و ماديه بعبد الحميد، فالعلاقه المعنويه هى إعجاب به بشيخ الكتاب و مقدمهم، حتى سمى ابنه عبد الحميد و كناه أبا يحيى، و العلاقه الماديه هى أنه حلقه فى السلسله النضره فى تاريخ النثر الفنى، تلك السلسله التى بدأت أولى حلقاتها بعبد الحميد.

هذا هو الوزير المغربى "صانع" الملوك و الدول، أقدمه دون تزيد، و قد كان همى الأكبر رسم سيرته حسب مراحلها الزمنيه، مع تقديم لمححه عن نشاطاته فى حقول المعرفه.

١ - نسبه - جده و أبوه

الحسين بن على بن الحسين بن على بن محمد المغربى لم يكن من أهل المغرب، و إن أوحث هذه النسبه بذلك، بل كان مشرقيا بعيد الجذور فى الانتماء المشرقى، يرفع نسبه إلى الملك الفارسى بهرام جور(١)، و يتناقل المؤرخون هذا النسب عنه دون شك أو إثارة لشك، فالناس مصدقون فى أنسابهم. و إنما نسب إلى المغرب لأن أحد أجداده (و هو على بن محمد فى سلسله النسب) كان مسؤولا فى بغداد عما يعرف بديوان المغرب، و قد تردد ابن خلكان فى قبول هذه الروايه لأن الوزير المغربى قال فى كتابه "أدب الخواص" حين ذكر المتنبى "و إخواننا المغاربه يسمونه المتنبه...". و من ثم استنتج ابن خلكان لقوله "إخواننا" أنه مغربى حقيقه(٢) و لم يكن لهذا التردد أية ضروره، فان ابن خلكان لو اطلع على إحدى رسائل الوزير لدفع الشك باليقين، فالرجل صريح فى تفسير هذه النسبه إذ يقول "و كان جد أبى و هو أبو الحسن على بن محمد يخلف على ديوان المغرب فنسب به إلى المغربى" (٣) و قد ظل الجد الأعلى أبو الحسن على بن محمد يعيش فى البصره إلى أن قام آل البريدى - وهم من إقطاعى البصره و ممن شغل مناصب عاليه فى الدوله - بثوره سيطروا من خلالها على البصره و الأهواز و واسط (٤)، و ذلك فى حدود العام (٣٢٤ - ٣٢٥) فانتقل على إلى بغداد. و قد كان له بعض مشاركه فى الأدب إذ روى له البيتان التاليان(٥):

و أنى على الإقتار أحمل همه لها مسلك بين المجره و النسر

أؤمل نفسى لا أؤمل غيرها من الناس أو ياتى الغنى و هو ذو صغر

و فى حى سوق العطش رزق بابنه الحسين - الجد الأذنى لمن أصبح يعرف من بعد باسم الوزير المغربى - و قد نشا الجد ببغداد، و تقلد فيها أعمالا متنوعه، و تزوج امرأه من بنى الأوارجى كانت أخت هارون بن عبد العزيز الذى مدحه المتنبى باحدى قصائده المبكره(٤٤)، أنجبت له ممن نعرف ولدین هما على و محمد.

و تحول الحسين الجد من بغداد يصحبه ختنه الأوارجى إلى حلب، فاستكتبه (أى الحسين) سيف الدوله ابن حمدان، و لم يصطحب ابنه معه، بل تركهما فى بغداد، و فيها كبرا و ترعرعا، و استولى الجد - حسبما يقوله حفيده - على سيف الدوله استيلاء "تشهد به مدائح أبى نصر ابن نباته فيه". فهو يتحدث عن "مدائح" - بصيغه الجمع - و عند الرجوع إلى ديوان ابن نباته لم أجد له إلا قصيده واحده فى مدحه هى القصيده السابعه - حسب ترتيب الديوان(٧٧) - و قد جاءت فى سته و خمسين بيتا، و هى مصدره بالعباره الآتیه: "و قال و كتب بها إلى أبى القاسم الحسين بن على بن المغربى الكاتب و كان له صديقا، و سأل أن يعمل له قصيده يشرح بها حاله مع سيف الدوله لينشده إياها، و ذلك قبل إفضاء الوزاره إلى أبى القاسم". و قد كشفت هذه المقدمه أن القصيده لم يكن هدفها الحقيقى بان تكون مدحا فى ابن المغربى، و لم تكن وليده مبادره من ابن نباته، بل نظمت بطلب من ابن المغربى لتكون وسيله تلفت إليه انتباه سيف الدوله، و أن رابطه الصداقه - لا المنزله التى بلغها ابن المغربى - هى التى سوغت نظمها، و لكن هذه المقدمه أفادت أن ابن المغربى الجد لم يبق كاتبا لدى سيف الدوله بل ترقى إلى منزله الوزاره.

و من المستغرب ألا نجد لابن نباته مدائح أخرى فيه، بعد أن اجتمعت الصداقه و علو المنزله فى قرن. نعم إنها تحتوى على مدح ابن المغربى فى قوله:

فعاش لها ابن المغربى فإنه نداه إلى حمد الرجال ذرائع

أخى و خليلى و الحبيب و جتنى و سيفى و رمحى و الفؤاد المشايخ

أكل ظباه للمنون مناصب و أدنى نداه للسحاب طبائع ٨.

ص: ٤٨

١- الحسين بن على بن الحسين بن على بن محمد بن يوسف بن بحر بن بهرام بن المرزبان بن ماهان بن باذان بن ساسان بن الحرون (و قيل ساسان هو المعروف بالحرون) بن بلاش بن جاماسب بن فيروز بن يزدجرد بن بهرام جور (ابن خلكان ١٧٢:٢ نقلنا عن ابن الصيرفى المصرى، و قد نقله غير ابن خلكان، انظر بغيه الطلب ١٤:٥).

٢- ابن خلكان ١٧٧:٢.

٣- بغيه الطلب ١٦:٥، و انظر أيضا ١٢٤:٥.

٤- تجارب الأمم ١:٣٦٦.

٥- أدب الخواص: ١٠٢.

٦- هى القصيده التى مطلعها: أ من ازديارك فى الدجى الرقباء إذ حيث أنت من الظلام ضياء

٧- ديوان ابن نباته ١: ٢١١-٢١٨.

فتى تأنس الدنيا به و هو موحش و تدنو إلى أهوائه و هو شاسع

و لكن المقصود فيها هو سيف الدوله:

أعدنى بسيف الدوله اليوم أن أرى أخادع أعدائى به و أصانع

على أنا و إن لم نجد قصائد أخرى لابن نباته فى مدح ابن المغربى الجد، فذلك لا يعنى أن حديث الحفيد عن جده، كان مباهاه و تكثرا، لأن بلوغه منزله الوزاره يؤكد ما أحرزه من رفعة المكانه فى مملكه حلب، و هذا من شأنه أيضا أن يطمئنا إلى أن ما نسبته الحفيد إليه من أنه "كان كاتباً مجيداً شاعراً، حسن النظم و النثر" (١) ليس محمولاً كذلك على الإسراف فى المبالغه، و إن كنا لا نملك القدر الكافى من شعره و نثره للحكم على مدى جودته، و قد روى له حفيده هذه الأبيات (٢):

إن شكوى المرء فيما نابه خور فى نفسه مما نزل

و اطراح الفكر فى رفع الأذى خور فى عقل من عنه عدل

فانف عنك الهم بالعزم و دع عقلك الجم معدا للحيل

و هى أبيات ذهنيه خالصة ليس فيها رهافه شعر الكتاب. فاما نثره فقد احتفظ منه حفيده برسالة فى وصف النخله يقول فى أولها (٣): "فاما ذوات الطول المديد، و القوام بغير تاويد، المخصوصات بالطلع النضيد، و المزينات بالسعف و الجريد، الممنوحات عمومها الأنساب (٤)، الباقيات على مرور الأحقاب، المطاعم فى المحل أنواع الرطاب، فبدأ خلقها من التراب...". و يتحدث فى هذه الرسالة - محافظاً على السجع فيها - عن تطور ثمر النخيل فى مراحلها المختلفه حتى يصبح رطباً جنياً، و عن ما تمثله النخله من مكانه معنويه رفيعه بذكرها مراراً فى القرآن الكريم، و تسخيرها لمريم تهزها فيتساقط عنها الرطب. و اختيار ابن المغربى وصف النخله موضوعاً لرساله يدل على أنه لم يكن كاتباً ديوانياً فحسب، بل كان يمارس الكتابه الإنشائية، خارج نطاق الديوان. و خلاصه ما هنالك أن هذا الجد قد رسم لأبنائه و حفدته من بعده طريقاً لم يحددوا عنها و هى طريق ذات شقين متصلين: خدمه الدوله و التمرس بفتون الكتابه. و قد ظل حياً حتى سنه ٣٥٤، ففى ذلك العام عقد سيف الدوله الفداء مع الروم و اشترى أسرى المسلمين بجميع ما كان معه من المال، و لم يف المال بفداء جميع الأسرى فزهن كاتبه ابن المغربى عليهم "بدنته الجوهر المعدومه المثل" (٥)، و لعله توفى فى العام المذكور أيضاً.

و قبل وفاته كان ابناه اللذان تركناهما فى بغداد قد كبرا، و أرسل الإخشيد فى استقدامهما إلى مصر. أما لما ذا يفعل الإخشيد ذلك فأمر يشبه اللغز، نعم كان أبوهما قد تعرف إلى الإخشيد أثناء وجوده فى الشام، أول انتقاله إليها من بغداد، و لكن ما هى المكانه التى بلغها الإخوان فى بغداد حتى تحمل الإخشيد على إرسال فاتك الملقب بالمجنون - ممدوح المتنبى من بعد - ليجىء بهما إلى مصر عن طريق الرحبه؟ (٦) و بما ذا كان ينوى أن يكلفهما؟ أكبر الظن أن استدعاءه لهما إنما كان استجاباً لرغبه الأب الذى نفترض أن معرفته بالإخشيد بلغت حد الصداقه، و لكن يبقى السؤال وارداً، لما ذا لم يضمهما أبوهما إليه فى كنف سيف الدوله و له منه تلك المنزله؟ و من الواضح أن إقامة الأخوين بمصر لم تطل، إذ نرى الابن علياً يخلف أباه فى خدمه سيف الدوله (المتوفى سنه ٣٥٦) بحلب، و يستولى على أمره، كما استولى أبوه من قبل، و من بعد روى لأبى العلاء

المعري - أو لغيره و نقل الروايه أبو العلاء - أنه كان مع سيف الدوله و هما خاليان، فسأله سيف الدوله عن التزويج فقال له على بن الحسين: لى بنت عم و أنا أنتظر قدومها على. فتلفت سيف الدوله يمينا و شمالا هل بقربه من يسمعه ثم قال: لا تفعل، بنت العم ثبت الغم(٧) و يبدو أنه لم يفعل إذ إنه تزوج - أثناء مقامه بديار الشام بنت محمد بن إبراهيم بن جعفر النعماني(٨)، و هى أم الحسين - موضوع هذه الدراسه - و لعلها أيضا أم أخوين آخرين له. و النعماني نسبه إلى النعمانيه، و هى بليده بين واسط و بغداد فى نصف الطريق على ضفه دجله، و أهلها كلهم شيعه(٩)، فأم الحسين عراقيه شيعيه، ورث عنها أبناؤها فى النعمانيه أملاكا(١٠) و بعد وفاه سيف الدوله استمر على فى خدمه ابنه سعد الدوله أبى المعالى و شاركه الرأى فى إداره الدوله، كما شاركه فى مدائح أبى العباس النامى(١١)، و لم يصلنا من مدائحه فيه شىء، كما لم يصلنا شىء من مدائح ابن نباته فيه مع تصريح ابنه بذلك(١٢) و لعله فى هذه الفتره اتصل به عبد المحسن الصورى (٣٣٩ - ٤١٩) و مدحه، و من مدائحه فيه قصيده مطلعها(١٣):

أ ترى بثار أم بدين علقته محاسنها بعينى

و منها فى المدح:

كانت كذلك قبل أن ياتى على بن الحسين

فاليوم حال الشعر ثالثه لحال الشعريين

أغنى و أعفى مدحه العافين عن كذب و مين

و لا- ندرى كم أقام على فى صحبه سعد الدوله، فقد تقلبت الأيام بأبى المعالى كثيرا، بين سيطره على حلب و فقدان لها، و حروب مع الروم، أو شراء للهدنه منهم بالمال، ففارقه على بن الحسين. و يوصف ما جرى بين الرجلين بأنه كان "نبوه أوجبت انفصاله" (١٤) و يقال عن هذا الانفصال فى موضع آخر: "ثم شجر بينهما ما يتفق مثله بين المتصاحبين فى الدنيا" (١٥) و مما يدل على أن "النبوه" بين الرجلين كانت حاده أن سعد الدوله فيما يبدو لم يسمح لعلى أن يصحب أهله معه. و هذا مما يوحى به قول الابن: "فانا كنا بحلب معوقين من بعده"، فان لم يكن هذا هو معنى التعويق، حملنا الأمر على أن عليا بادر إلى مفارقه حلب، فرارا بنفسه دون أن يتمكن من ٥.

ص: ٤٩

١- بغيه الطلب ٥: ١٢٤.

٢- بغيه الطلب ٥: ١٢٤.

٣- بغيه الطلب ٥: ١٢٤.

٤- يشير إلى قول للرسول جاء فيه "عمتكم النخلة".

٥- بغيه الطلب ٥: ١٢٧.

- ٦- بغيه الطلب ٥:١٢٧.
- ٧- الصاهل و الشاحج :٦٦٨.
- ٨- ابن خلكان ٢:١٧٢.
- ٩- معجم البلدان لياقوت ٤:٧٩٦.
- ١٠- بغيه الطلب ٥:١٧.
- ١١- بغيه الطلب ٥:١٧.
- ١٢- أدب الخواص :٧١.
- ١٣- ابن خلكان ٣:٢٣٣.
- ١٤- بغيه الطلب ٥:١٥.
- ١٥- بغيه الطلب ٥:١٧.

اصطحاب أهله معه، فغادر الرحبه إلى الأنبار في طريقه إلى مدينه السلام.

و فى روايه أن سعد الدوله أباح دمه، فلجا إلى مشهد على بالكوفه و من مقامه هنالك كاتب العزيز، فرحب بمقدمه (١) و يبدو أن ذهابه إلى العراق كان فى حدود سنه ٣٧٩ و هى السنه التى توفى فيها شرف الدوله البويهى و خلفه ابنه بهاء الدوله، و شجر الخلاف بينه و بين فخر الدوله البويهى، و غلبت الفوضى و الاضطراب على العراق، و جاء من يحذر عليا بان بقاءه فى العراق محفوف بالخطر، و كان يعلم أيضا أن عودته إلى حلب تغرير بالنفس، غير أن تعرف حال من خلفهم وراءه فيما يشبه الأسر، حملة على ركوب الصعب، فعاد إلى حلب، و لكنه لم يطل الإقامة فى ما يظهر، و لم تبق له وجهه يؤمها - بعد أن أغلقت الشام و العراق بأبيها فى وجهه - إلا أن يؤم مصر، و هكذا كان.

و أغرته الحظوه التى لقيها هنالك باستقدام جميع من تخلفوا فى حلب (٢)، و كان دخوله إلى مصر فى النصف من جمادى الأولى سنه ٣٨١، و فى مصر اتخذته العزيز كاتبا له (٣) و لكى نستطيع أن نتصور ما كان يحدث حينئذ علينا أن نتذكر أن التنافس بين القوى الثلاث: الحمدانيين و الفاطميين و الروم كان يجعل ديار الشام لقمه متنازعه، و يسمح لبعض الطامحين بالاستقلال، و هكذا استطاع غلام اسمه بكجور أن يستقل بدمشق، و يعلن العصيان على سعد الدوله.

ثم إن هذا الغلام أساء التصرف إلى الفاطميين فأخذوا منه دمشق، فذهب إلى الرقه و عاش فيها خاملا، غير أنه لم ينس أن الفرص قد تسنح للمرء إذا هو اهتبلها، فكتب إلى العزيز يذكر له جلاله حلب، و أنها "دهليز العراق" و يحرضه على انتزاعها من يد سعد الدوله، فأجيب بكجور إلى ما أراد، و زود بكل ما طلب، و جعل على بن الحسين ابن المغربى كاتبا له، و زحف بالجيش إلى حلب و نزل فى الموضع المعروف بالنيرب، و بدا أن الفوز محقق لسعد الدوله إذ تخلى عن بكجور من كان يؤمل لديهم نصرته فاستدعى كاتبه ابن المغربى و قال له: "غررتنى و أوهمتنى أن العزيز يجيئنى و يعاوننى، و أن العرب تخلص لى و تناصحنى... و ما كان لشيء من ذلك حقيقه، فما رأى الآن فان بازائنا عسكريا عظيما". فنصح ابن المغربى أن يرجع إلى الرقه و ي كاتب العزيز يخبره بان من بعث لنجدته تخلف عنه. إلا أن بكجور أصاخ إلى نصيحه رجل آخر من رجاله أشار عليه بالثبات، فما كان من ابن المغربى إلا- أن بذل لبدوى من بنى كلاب أن يوصله إلى الرقه مقابل ألف دينار ففعل (٤) و قد كانت نتيجة المعركه بين بكجور و سعد الدوله هزيمه بكجور ثم مقتله، و سار سعد الدوله إلى الرقه و فيها سلامه الرشيقى و أولاد بكجور، ففاوضه سلامه على تسليم البلد شرط الإبقاء على أولاد بكجور و أمواله ما عدا آلات الحرب و العدد. و كان الذى كتب نص اليمين ليردها سعد الدوله هو ابن المغربى نفسه الذى كان قد هرب منه قبل حوالى سنتين، و لم يؤاخذ سعد الدوله بما كان فعل (٥) و بعيد النصر الذى أحرزه سعد الدوله بقليل أدركته منيته، و خلفه ابنه أبو الفضائل، فما كان من ابن المغربى إلا أن كتب إلى العزيز "يعظم أمر حلب عنده، و يكبر فى نفسه أحوالها و يهون عليه حصولها" (٦) فأرسل إليها قائدا اسمه منجوتكين و ضم إليه ابن المغربى ليقوم بالأمر و التدبير، و زحف جيش الفاطميين إلى حلب، فاستنجد أبو الفضائل بالاميراطور بسيل، فأمر بسيل البرجى صاحب أنطاكيه بان يجمع جيشا و يقصد حلب و يدفع جيش المصريين عنها، فنزل البرجى فى الموضع المعروف بجسر الحديد بين أنطاكيه و حلب، فتحول منجوتكين و ابن المغربى عن حلب لمناجزه الروم، و واقفوا الروم، و النهر المعروف بالمقلوب يفصل بين الفريقين، و كان النصر فى المعركه لمنجوتكين و ابن المغربى.

هذه المعركه خلدها أبو العلاء المعرى فى قصيده له مطلعها (٧):

هو الهجر حتى ما يلم خيال و بعض صدود الزائرين وصال

و بذكر أن المعركة كانت عند حارم، و أن البحر جاش على حارم في صورته ككائب، و تساقطت عليها الشهب في صورته نصال،
و يشير إلى النهر الفاصل بين الجيشين بقوله:

وقى الخيل من ماء المخاضه عفه و هن إلى ماء النفوس نهال

يردن دماء الروم و هي غريضة و يتركن ورد الماء و هو زلال

ثم يتوجه إلى ابن المغربي مادحا:

فلا زلت بدرا كاملا في ضيائه على أنه عند النماء هلال

فما لخميس لم تقده عرامه و لا لزمان لست فيه جمال

هاهنا يمكننا أن نتوقف قليلا لنسأل: هل كانت هذه القصيدة أول علاقة بين المعري و آل المغربي، و إذا كانت كذلك فكيف بدأ التعارف، و ما ذا كان يريد أبو العلاء من هذا المدح؟ للجوابه على هذه الأسئلة جميعا علينا أن نتذكر أن أبا العلاء كان في العشرين من عمره يوم نظم القصيدة، و لما لم يكن شاعرا طالب عطاء، فإنه لا تفسير لهذا المدح إلا أن يكون إشادة بعلاقة سابقة بلغت حد الصداقه الممزوجه بالاعجاب، فان لم تكن صداقه شخصيه فلا أقل من أن تكون رعايه للمعره و أهلها يوم كان ابن المغربي وزيرا لسعد الدوله. و لدينا قصيده أخرى يدل مستواها على أنها بقيه من قصيده حذف منها أبو العلاء الكثير، لأنها كانت من ثمرات الصبا، و في هذه القصيده يمدح على بن الحسين المغربي و يشير إلى أصله الفارسي و يمجّد ذلك الأصل ثم يقول(٨):

فهلا تقل بغاه اللجين و نائلك الذهب الأحمر

و من يطلب الدر في لجه و من فيك أشرفه ينثر

إننا إذا قدرنا أن هذه القصيده تم نظمها حين كان أبو العلاء في الخامسة عشره أو قريبا منها، فذلك قد يسمح بتصور فتره نمت فيها علاقته متينه بينه و بين الكاتب الوزير لدى الحمدانيين، و هي صلته تجعله يحمل ذكريات طيبه عن تلك العلاقة. فإذا تذكر على بن الحسين من بعد قال:

"كان ذلك الرجل سيدا، و لمن ضعف من أهل الأدب مؤيدا، و لمن قوى منهم وادا، و دونه للنوب محادا"(٩)٤.

ص: ٥٠

- ٢- ذيل تاريخ دمشق: ٣٨ و نهايه الإرب ١٥٩:٢٦.
- ٣- ذيل تاريخ دمشق: ٢٧-٣٤ و ابن الأثير ٨٩-٨٧:٩.
- ٤- ذيل تاريخ دمشق: ٣٧.
- ٥- ذيل تاريخ دمشق: ٣٨.
- ٦- ذيل تاريخ دمشق: ٣٩.
- ٧- شروح سقط الزند: ١٠٤٦.
- ٨- شروح سقط الزند: ١٨٩.
- ٩- رساله الغفران: ٥٢٤.

و حين أيقن لؤلؤ الكبير الوصى على أبى الفضائل بان مساعده الروم له لم تعد ممكنه، بعد تلك الهزيمه، كاتب ابن المغربى و القشورى (كاتب منجوتكين) لعلهما أن يقنعا منجوتكين بترك حلب و شأنها، و العوده إلى دمشق، و بذل لهما على ذلك مالا، و صادف ذلك قله فى الميره و العلوفات و الأقوات، مما جعل منجوتكين يرحب بالانسحاب و الانكفاء إلى دمشق.

غير أن العزيز لما عرف ذلك استاء، و كان لابن المغربى فى حضرته أعداء يكيدون له، و يقعون فيه، فاوغروا صدره عليه فعزله عن التدبير و ولى رجلا آخر مكانه(١) و لست أعتقد أن هذا الاقصاء قد طال أمده و إن سكتت المصادر عن عوده ابن المغربى إلى سابق حظوته، و لعل ذلك تم أيام العزيز إذ تقول إحدى الروايات إنه بلغ عند العزيز مرتبه عظيمه حتى صار يستشيريه فى عظام الأمور و يأتئنه على الأسرار(٢) ثم نجده فى ظل الحاكم سنه ٣٩٠ أحد المقربين الذين يصاحبون الخليفه حين يبرز للناس، أو يجلس فى العشايا فى قصره، و هم خمسه عن يمينه و خمسه عن يساره، و ابن المغربى و أخوه فى الخمسه الذين يجلسون فى الجهه اليسرى(٣) ثم تسكت المصادر عن ذكر أى نشاط متميز لابنى المغربى، إذ يبدو أن الأمور جرت كالمعتاد و هما فى منصبهما، حتى أمر الحاكم بقتلهما و قتل أبناء على منهما.

٢ - نشأته - بين الشام و مصر

عند هذا الحد يجب أن نعود قليلا إلى الوراء: عند ما كان على بن الحسين المغربى يعيش فى حلب، رزق بابنه حسين، و قد قيد تاريخ مولده بأقصى دقه حين قال: "ولد سلمه الله و بلغه مبلغ الصالحين أول وقت طلوع الفجر من ليله صباحها يوم الأحد الثالث عشر من ذى الحجه سنه سبعين و ثلاثمائه" (٤)، و لا ريب فى أن حلب كانت مسقط رأسه، و أن ما قيل خلاف ذلك فهو خطأ كقول ابن الجوزى إنه ولد بمصر(٥)، و الشواهد على ذلك كثيره منها قوله فى أدب الخواص: "قال بعض عامه بلدنا الحلبيين.." (٦) و حينه إلى بابلا إحدى ضواحي حلب و تسميته إياها ب "الوطن"، و هو بعيد عنها:

ليس من لم يسئل حيننا إلى الأوطان إن شئت النوى بظريف

و حديثه عن هرب أبيه من الشام إلى العراق و بقاء أسرته بحلب، قبل أن يعرف طريقا إلى مصر مره ثانيه، و حديث أبيه إلى سيف الدوله عن إزماعه الزواج و هو بحلب، و اليقين القاطع بان أباه لم يفارق مدينه حلب إلا بعد سنه ٣٧٠، أى العام الذى ولد فيه الحسين، و عدم تردد ابن العديم - و هو المؤرخ المدقق - فى القطع بان مكان مولده هو حلب، و مات ابن القارح الحلبي إليه برابطه البلديه(٧) و قد وصل أبوه إلى مصر فى جمادى الأولى سنه (٨) - كما تقدم - و إذن كان عمر الحسين حين انتقل آل المغربى إلى مصر قرابه إحدى عشره سنه. و أرانى أرجح أنه بدأ تحصيله العلمى فى سن مبكره و هو بحلب، إذ كانت ملكاته تؤهله لذلك حتى أن أكثر الناس بغضا له يصفه بالذكاء(٩)، و أنه بدأه على نحو مكثف. و هذا الفرض وحده هو الذى يفسر كيف استطاع قبل أن يستكمل أربع عشره سنه - بشهاده أبيه نفسه -: "أن يستظهر القرآن و عده من الكتب المجرده(١٠) فى اللغه و النحو و نحو خمسه عشر ألف بيت من مختار الشعر القديم و أن ينظم الشعر و يتصرف فى الشتر و يبلغ من الخط ما يقصر عنه نظراؤه و كذلك من الحساب و الجبر و المقابله ما يزيد عن ما يحتاج إليه الكاتب" (١١) و نظره واحده إلى هذه العلوم التى بدأ بها و أتقنها تدل على أن والده كان يريد أن يقتفى أثره و أثر جده، فيتخرج و هو مزود بكل الثقافه التى تتطلبها مهنة الكتابه. و ليس فى جريده الشيوخ الذين درس عليهم من نعهه أستاذًا له فى الفتره الشاميه سوى والده و محمد بن عيسى النامى. و بعض الذين يحملون النسبه إلى حلب مثل على بن لؤلؤ الحلبي و على بن محمد الحلبي و أحد التلوخين و هو محمد بن

الحسن التنوخي. ولكن الظن يذهب بي إلى أنه تعرف، وهو صغير السن، إلى أبي العلاء و زاره بصحبه أبيه في المعره، و أعجب الصبي بذلك الضرير الذي لا يكبره إلا بسبع سنوات أو ثمان، و يعرف الكثير الكثير، عن ظهر قلب، و أعجب المعري بالصبي (و يرك على رأسه) و تنبأ له بأنه سيبد أقرانه، كل هذه فروض حقا و لكنى لا- أراها بعيده عن الصواب، فقد انتقل إعجاب الأب بالمعري إلى ابنه، و كان ذلك الاعجاب عاملا في إقباله على المعرفه بينهم، و توجهه لاتقان اللغه، ذلك الجانب الذي بلغ فيه تفوق أبي العلاء حدا يبهر كل من عرفه و قاربه. و لنا أن نقول إن هذا الاعجاب بالمعري هو الذي كان له الدور الفعال في نقل الحسين من دائره ثقافه الكتاب - و هى إلمام بالضرورى - إلى ثقافه العلماء، و هى الغوص فى كل علم، و إتقانه على حده. و فى رساله كتبها من مصر إلى أبي العلاء و أخيه ما يؤكد تلك العلاقه، و أنها كانت قبل رحيله عن الشام. إن شخصا يكتب "إنى كتبت و ما لى جارحه إلا و هى جريحه حبهما، و لا جانحه إلا و هى جانحه إلى قريههما" لا يمكن أن يقول مثل هذا القول إلا و لديه معرفه سابقه تسمح له بذلك. و مثل ذلك أيضا قوله: "و لا غرو و إن بعد العهد إذا قرب الود، و لا ضير إن تناءت الأشباح فقد تءانت الأرواح"، و هذا يعنى أن هناك عهدا كان موجودا ثم مضى و تناءى، و أن الأشباح - أى الأجسام - كانت متقاربه فتءانت كذلك. نعم إن الرساله تمرين مبتدئ على حديث عاطفى يراوح بين النثر و الشعر لإظهار قدره إنشائيه نثرا و نظما، و لا تتحدث بشيء عن وجود صله على أرض الواقع و لا تكشف عن شيء مهم إلا إذا صدقنا أن الشكوى التى يبثها تمثل واقع الكاتب النفسى يومئذ. و لكن على ذلك كله فإنها تؤكد علاقه كانت قائمه تسمح بتلك الشكوى نفسها. و تشير رساله من رسائله ضاعت و قصيدتان إحداهما ميميه و الأخرى رائيه إلى أن علاقه كانت و اشجه لا بأبى العلاء و أسرته و حسب بل كانت بالمعره نفسها وثيقه، و هذا ما تصوره رساله المنيح للمعري التى رد بها على الرساله الضائعه و القصيدتين، إذ يقول "إنما

ص: ٥١

- ١- ذيل تاريخ دمشق: ٤٢.
- ٢- نهايه الإرب ١٥٨:٢٦.
- ٣- اتعاظ الحنفا ٣١:٢.
- ٤- بغيه الطلب ١٧:٥ و الوافى ٤٤١:١٢ و البدايه و النهايه ٢٣:١٢.
- ٥- المنتظم ٣٢:٨ و ابن الأثير ٣٣١:٩ و مرآه الزمان ٤٧:١٢ و البدايه و النهايه ٢٣:١٢.
- ٦- أدب الخواص: ٧١.
- ٧- رساله الغفران: ٥٥.
- ٨- الإشاره إلى من نال الوزاره: ٤٧.
- ٩- لسان الميزان ٣٠١:٢.
- ١٠- فى بعض الروايات: "المحرره"، و المجرده هى التى تقتصر على المتون دون الحواشى.
- ١١- بغيه الطلب ١٧:٥-١٨ و الوافى ٤٤١:١٢ و ابن خلكان ١٧٢:٢ و روضات الجنات: ٢٤٠، و أعيان الشيعة ٩:٢٧.

هو في الرحيل عنها كجسم ذي روح، نقل من الغرقى إلى اللوح، وهي بعد كقسيمه الوسيمه ذهب عطرها وبقى نشرها، وإنما شرفت على سواها، وطالت على البلاد دون ما والاها، لاقامته بها في تلك الأيام، و إنامته عن أهلها نواظر أزام، فعرفت به، و نالت خيرها من حسبه... " (١) ثم يحاول اعتماد حسن التعليل في انتقال الحسين عن المعره بقوله: " ولعل المعره قد نظرت أصح النظر، و فكرت فيما لا ينتقض من الفكر، فعلمت أنه عقد لا يصلح لمقلدها، و سوار يرتفع لجلالته عن يدها" (٢) ، لهذا تخلت المعره عن أنانيتها و سمحت بفراقه لها و لكنه " ظعن و أرجه مقيم، و ارتحل و للثناء تخيم" (٣) ، و على الرغم من التواضع الجم الذي يبديه المعري إزاء هذا الشاب الناشئ - و التواضع من سماته الملازمه - (هل أدبى في أدبه إلا كالقطره في المطره) (٤) فإنه صريح في مدى ما يحمله له من حب و تقدير " فيعلم أن الروع و جوانح الضلوع، مفعمه له بالاعظام، مترعه بمحبته إتراع الجام" و هذا الحب غير مستمد من إفضال المغربي الأب على المعري بل من تفوق المغربي الابن و تميزه و نبهه، و قد ذهب المعري في ذلك مذهبا أثار النقد ضده:

" حتى استجهلني الذي لا يعلم، و تكلم في فضيلتي من تكلم، لأنى ما اقتنعت بتفضيله على الأحداث، دون سكان الأجدات" (٥) فإذا كان ابن المغربي حين اختصر إصلاح المنطق لم يطمنن إلى عرضه إلا على أبى العلاء، فذلك يؤكد تلك الثقة و الاعجاب المتبادلين. و قد يقال إنه فعل ذلك بنصيحه من أبيه، و لكن هذه الصله الوثيقه بالمعره و المعري تجعلنا نتأكد من أن تلك النصيحه كانت توكيدا لما في نفس الابن، و لكن هذا الحديث سابق لأوانه و سيجيء في مكانه.

في مصر وجد ابن المغربي بيئه علميه رحبه، فاستكمل ثقافات ابتدأها في الشام، و سلك اتجاهات ثقافيه أخرى جديده: كانت مؤسسات العلم - و في مقدمتها " دار العلم" متنوعه، و كانت المكتبات - و بخاصه مكتبه القصر - حافله بصنوف الكتب في كل علم. فوجد في دار العلم جناده بن محمد الهروي (٦) الذي كان مكثرا من حفظ اللغه و نقلها، و معه الحافظ عبد الغنى بن سعيد المصرى (٧) حافظ مصر في عصره، و المقرئ الأنطاكي أبو على الحسن بن سليمان (٨) أحفظ أهل زمانه للقراءات، و كان هؤلاء الثلاثة يجتمعون في دار العلم و تجرى بينهم المذاكرات و المطارحات، و لسبب لا ندرية نقم عليهم (الحاكم) من بعد كما نقم على آل المغربي، فقتل جناده و الحسن، و اختفى عبد الغنى. و لعل الشيخ حمد الجاسر على صواب حين يقول: " لا أستبعد أن قتل جناده شيخ ابن المغربي له صله بقتل أبى المغربي و عمه و أخويه، و إن كان المؤرخون يفرقون بين زمن الحادثتين" و تلك مسأله لعلنى أعود إليها عند الحديث عن مقتل آل المغربي. و هؤلاء الثلاثة متقاربوا الثقافه و يمكن أن نعددهم في من يحسنون اللغه و النحو، فإذا أضفنا إليهم محمد بن الحسين اليمنى و كان نحويا، و محمد بن عبد الملك التاريخي و كان كذلك، وجدنا أن انصراف الحسين إلى اللغه و النحو استأثر باهتمامه في مطلع حياته الثقافيه. على أنه اتصل في مصر بعلماء آخرين من أهمهم أبو جعفر الطحاوى، و سمع عليه كتاب المزنى (٩) و لعله في هذه الفتره نفسها سمع موطا مالك من جهتين على شيخين، كما سمع صحيحى البخارى و مسلم و جامع سفيان و مسانيد عده عن التابعين (١٠) ، و قد لقي في مصر عددا من الشيوخ، و عد له ابن العديم ثمانيه عشر شيخا، و يمكن إضافه أسماء أخرى إليهم. و تعرف إلى الوزير أبى الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات المعروف بابن حنزابه و حدث عنه و روى عنه كتاب إصلاح المنطق بإسناد يتصل إلى ابن السكيت، كما رواه عن جناده الهروي بإسناد آخر، و يخبرنا أنه كان يحادث ابن حنزابه و يجاريه شعر المتنبي، فكان الوزير يظهر تفضيل المتنبي، بما يتجاوز إحساسه الحقيقي نحوه، إذ كان المتنبي قد عرض به هاجيا في بعض شعره (١١) و لكن الذى صاحبه بعيد الرحيل عن الشام و أقام ملازما له و لأبيه هو على بن منصور الحلبي المعروف بابن القارح و الملقب دوخله، فان أباه استدعاه فيما يقال إلى القاهره ليكون مؤدبا

للحسين (١٢)، غير أن ابن القارح يصرح بان عليا ابن المغربى هو الذى رباه، وأنه هو قام بتربيته إخوه الحسين و لا يذكر شيئا عن تأديبه للحسين نفسه، و ذلك إذ يقول راويا أحد المواقف بينه و بين الحسين: "و قلت له على أنس بينى و بينه لى حرمت ثلاث:

البلديه و تربيته أبيه لى و تربيتى لإخوته". و يذكر ابن القارح أن الحسين قال فى جوابه: "هذه حرم مهتكه: البلديه نسب بين الجدران، و تربيته أبى لك منه لنا عليك، و تربيتك لاختى بالخلع و الدنانير" (١٣) و أنا أستبعد أن يكون ابن القارح قد قام بتأديب الحسين لأسباب منها أن التحصيل الأولى الذى ناله الحسين قبل الرحيل إلى مصر كان يغنيه عن مؤدب، و أنه حين وصل إلى مصر - فيما أقدر - كان يتطلع إلى لقاء علماء يفوقون ابن القارح فى المستوى العلمى. و إذا كان والده هو الذى ربى ابن القارح فى حلب حقا، فان الحسين عرفه فى دور مبكر من حياته، و اطلع عن كذب على مساوئه، و أضمر له كراهيه فى نفسه. و لعل فارق السن بينهما لم يكن كبيرا، بحيث يمكن ابن القارح من أن يصبح لدى الحسين موضع احترام. ثم إن هذا التنافر بين قطبين يتجاوز العلاقة بين المؤدب و تلميذه، لأنه خرج إلى العلن على نحو فاضح، إذ عبر عنه الحسين بالاحتقار، و عبر عنه ابن القارح بمحض الهجاء، و ذلك شىء تجاوز حدود مصر إلى أن تم اللقاء بميفارقين من بعد، و ذاع حتى إن رجلا كأبى العلاء المعرى حين ذكر ابن القارح أمامه ميزه بقوله: "هو الذى هجا أبا القاسم بن على بن الحسين المغربى" (١٤) و تورد المصادر من هجاء ابن القارح للحسين قوله (١٥): ٢.

ص: ٥٢

- ١- رسائل المعرى ١: ١٦٢-١٦٣ و الغرقى: القشر الرقيق حول بياض البيضه، و اللوح: الجوى، و الفسيمه: جونه العطار، و الوسيمه: المرأه الجميله، و أزام: السنه الشديده.
- ٢- رسائل المعرى ١: ١٦٣، ١٦٤.
- ٣- رسائل المعرى ١: ١٧٥.
- ٤- رسائل المعرى ١: ١٧٦.
- ٥- ابن خلكان ١: ٣٧٢.
- ٦- ابن خلكان ٣: ٢٢٣.
- ٧- غايه النهايه ١: ٢١٥.
- ٨- أدب الخواص (المقدمه): ٢٢.
- ٩- بغيه الطلب ٥: ١٧.
- ١٠- المصدر نفسه.
- ١١- ابن خلكان ١: ٣٤٩ (نقلا- عن أدب الخواص، و ذلك من الفقرات الضائعه) و تعريض المتنبي به هو قوله: بها نبطى من أهل السواديدرس أنساب أهل العلا.
- ١٢- ذر [أنظر] الصفدى فى الوافى (٢٢: ٢٣٤) أنه كان مؤدبا له.
- ١٣- رساله الغفران: ٥٥.
- ١٤- رساله الغفران: ٥١.

لقبت بالكامل ستر على نقصك كالباني على الخص

فصرت كالكنف إذا شيدت بيض أعلاهن بالجص

يا عره الدنيا بلا غره و يا طويس الشؤم و الحرص

قتلت أهليكم و أنهبت بيت الله بالموصل تستعصي

و هذا الهجاء صدر بعد مقتل آل المغربي و الهرب من مصر و ما اتصل بذلك من أحداث، أى أن الكراهيه اتصلت و اتصل بها الهجاء، و تجمعت سيئات جديده بين الرجلين تحجب إمكان التقارب، و مع ذلك نجد ابن المغربي يستدعى ابن القارح حين صار فى ميفارقين، و ذلك حديث نرجئه إلى أن يحين أوانه.

و كان قد مضى على إقامه الحسين بمصر أقل من ست سنوات، حين وجد أنه يستطيع مبارحه التلقى إلى العطاء، و التعلم إلى التأليف أو ما يشبه التأليف، فعمد إلى اختصار مؤلف معروف مشهور، لأن الاختصار يتيح له السيطرة على الكتاب، و وقع اختياره أو اختيار والده، على كتاب إصلاح المنطق لابن السكيت. و يحدثنا أبوه بايجاز عن ذلك الاختصار فيقول:

"تناهى باختصاره، و أوفى على جميع فوائده، حتى لم يفته شىء من ألفاظه، و غير من أبوابه ما أوجب التدبير تغييره للحاجه إلى الاختصار و جمع كل نوع إلى ما يليق به" (١) كان كتاب إصلاح المنطق قد خضع للاختصار قبل ذلك مرات، اختصره مؤلفه نفسه، فاسقط منه أبوابا كثيرة لعله وجدها غير ضروريه كثيرا لمن يرجعون إلى الكتاب، ثم اختصره ثان و ثالث، فاخلوا بمعنى الاختصار، و تهتم آخرون باختصاره فنكلوا. أما الحسين فإنه فى رد النظائر إلى بعضها جعله فى ثلاثه أقسام: أمثله الأسماء، و أمثله الأفعال، و الليف. و اضطره هذا التفريع إلى ما يجاوز حد الاختصار و ذلك باضافه أبواب جديده إلى الكتاب، و وضع أسماء لأبواب الكتاب الأصليه مثل باب ليس، و باب المذكر و المؤنث، و باب العدد... و جعل الأبواب الطويله منه مرتبه على حروف المعجم، فجاءت أبواب الكتاب الأصلي ٢١٨ بابا و الأبواب المزيده ١٠٧ أبواب (٢)، و يبدو من هذا الوصف أن الشاب الناشئ اتبع فى تقريب فوائد الكتاب منهجا جديدا، و أنه كان إلى التأليف أقرب، فإذا تذكرنا فى أى سن فعل ذلك أدركنا مدى تضلعه فى اللغه، و ثقته بنفسه فى الاستدراك على عالم كبير مثل ابن السكيت، و ذلك أمر لا يتأتى بسهولة، و لا بد أن الحسين الفتى كان قد ضرب فى حفظ اللغه و أمهات كتبها بسهم وافر.

لهذا لا نستكثر أن يتعاضم إعجاب المعرى به، ذلك أن رغبه الحسين أو رغبه أبيه، شاءت أن يعرض المختصر على أبى العلاء، و كان كل منهما يعلم أنه لا يقدم العمل لتقييم نقدى، فالإحسان الذى واكب العمل ملأ نفس الأب إعجابا و الابن جبورا، و إنما كانا يتطلعان إلى شهاده رجل ثقه، شهاده تكفل للفتى السير على المحجه الواضحه، و تضعه فوق نظرائه و تجعله مساويا لكثير ممن سبقوه فى المضمار، و من يستطيع أن يمنح مثل هذه الشهاده سوى حجه اللغه فى عصره؟ و قد عرف أبو العلاء معنى ذلك التوجه، و استشارته الصداقه القديمه للأب و الاعجاب بالفتى إلى كتابه الرساله الإغريضييه. و إنما سميت بالإغريضييه لأنه ذكر فيها "الإغريض" - و هو الطلع - و تتالف هذه الرساله من ثلاث دورات، فى الأولى ترحيب بما تلقاه المعرى من شعر ابن المغربى و الثانيه احتفاء بمقدم اختصار إصلاح المنطق، و الثالثه فى شئون شتى، و يهمننا منها الدوره الثانيه التى يتحدث فيها

المعري عن تلك المهاره التي استطاعت أن تجرى نهر الفرات في خرت إبره (يعنى جوده الاختصار و دقته) " و دلت على جوامع اللغة بالإيماء، كما دل المضممر على ما طال من الأسماء" فقد أسقط ابن المغربي الشواهد من الكتاب و هي أحد عشر نوعا، و حق له ذلك فان أبا يوسف بن السكيت غلا في التكثر من الشواهد.

و تحدث المعري عن معرفه يقينيه بكتاب إصلاح المنطق، فقد كان من محفوظاته، و كيف أنه بنى على عشرين حرفا (و عد تلك الحروف)، فلو أن أبا يوسف عاش و رأى ما صنعه ابن المغربي لفاظ كمدا، إذ الاختصار كمرآه المنجم شخصها ضئيل ملموم، و تستحضر القمرين و النجوم(٣) و إذا نحن وضعنا تشبيهات المعري و تصوراته جانبا لأنها جزء من طبيعته الأدبيه، وجدنا أن إطراره لعمل ابن المغربي لم يكن مجامله أبدا، و إنما كان وليد قراءه دقيقه لما صنعه ذلك الفتى، و حكم نقدي منصف.

على أنا يجب أن نتذكر شيئا كان في صميم طبيعته المعري، و هو أنه كان في رسائله يبتكر دائما صعيدا جديدا - تعليمي الغايه - يضع فيه ما يريد أن يسوقه من أفكار، و كان ينتحي منحى غير مألوف في اللغة و التصوير و التمثيل، ليرضى ذوقه الفنى، و لم يكن ذلك كله مصحوبا باى شعور بالاستعلاء. و لهذا فإنه في رساله الإغريض (و فى رساله المنيح على حد سواء) كان يوحى لابن المغربي بان أمامه طريقا طويلا لبلوغ درجه الإتقان، و ليس من الضروري أن يكون ذلك بتقليد المعري، بل بالرؤيه الذاتيه الواعيه، و قد فعل ابن المغربي ذلك بتوجيه أكبر أستاذ له، و إن لم يتلق العلم مباشره على يديه.

سمى ابن المغربي اختصاره لاصلاح المنطق باسم "المنخل"، معتمدا فى الاختصار نسخه أستاذه جناده الهروى، و هى مقروءه على الأنزهرى صاحب تهذيب اللغة عن أبى الفضل المنذرى عن أبى شعيب الحرانى عن المؤلف. و قام بقراءه الأصل و الاختصار على أستاذه جناده نحو عشر مرات(٤) و قد عرف "المنخل" لدى معاصريه فرووه عنه، و كان ممن رواه عنه أبو ياسر الفرج بن إبراهيم البغدادي(٥) الكاتب الشاعر. و يبدو أن الأديب الأندلسى أبا القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعى اطلع عليه، و صنع له خطبه(٦) و أثنى عليه ابن بسام فى الذخير بقوله: "فإنه غايه لا يتعاطاها إلا من بهر عتقه و اشتهر سبقه، و طريقه لا يتوخاها إلا من رسخت فى العلم قدمه، و ترامت به إلى معالى الأمور هممه"(٧) و ما كاد يلقى القلم من تحبيره للمنخل حتى اقترح عليه أبوه أن ينظم الكتاب، فابتدأ بذلك و عمل منه عدده أوراق فى ليله(٨) و يبدو أنه لم يتم هذا العمل، إذ لا نسمع عنه شيئا بعد ذلك.٥.

ص: ٥٣

- ١- بغيه الطلب ١٨:٥
- ٢- أدب الخواص: ٢٠ (نقلا عن طره مخطوطه الاسكوريال رقم ٦٠٥).
- ٣- رسائل المعري ١: ١٨٥-١٨٦.
- ٤- أدب الخواص (مقدمه المحقق): ٢٠ (نقلا عن طره نسخه الاسكوريال رقم ٦٠٥).
- ٥- الذيل و التكملة ٨: ٢٥٩.
- ٦- إحكام صنعه الكلام: ٢٨.
- ٧- الذخير ٤: ٤٧٦.

و بعد ذلك النجاح الأول - فى ميدان العلم - ظل ابن المغربى فى مصر حوالى أربعة عشر عاما، فما ذا تراه كان يعمل و فى أى الاتجاهات برز نشاطه؟ هل عمل كاتباً فى الديوان؟ و إذا كان قد فعل فأين كان مقامه من أبيه و عمه فى هذا المجال؟ إن المصادر لا تحدثنا بشيء دقيق فى هذا الصدد، و لهذا علينا أن نكون صوره قريبه الشبه بالواقع اعتمادا على استقراء الظروف و بعض المعلومات القليله المتناثره فى المصادر:

فاستقراء الظروف يقول لنا إن هذه الفتره هى فتره الاستقرار الوحيد فى حياه ابن المغربى، و ما بعدها كله تنقل من بلد إلى بلد، و ملاحظه للفرص حيث لا-حت. و فتره الاستقرار تلك هى أصلح مراحل حياته للازدىاد من العلم و للاقدام على مزيد من التأليف. صحيح أن رحيله و أهله من الشام جعلهم يفقدون الكتب التى جمعها أسلافه حين رحلوا إلى مصر، و لكن مصر استطاعت أن تعوضهم عنها لما كانت تتمتع به من غنى باهر فى الكتب و المكتبات. و لذلك نظنه انصرف إلى تحصيل العلم بكل جد و دأب. و لعله يشير إلى هذه الفتره من حياته حين يقول: "فانى نشأت و غذيت بكتب الحديث و حفظ القرآن، و مشافنه الفقهاء، و مجالسه العلماء، و والله ما رأيت قط بتلك البلاد مادبه و لا وليمه إلا لمقرئين، و لا كنت متشاغلا إلا بعلم أو دين.. و أما الأحاديث المتثوره التى كنت أبكر بكور الغراب لاستماعها و أطرح رتبه الدنيا فى مزاحمه أشياعها، فأكثر من أن تحصى" (١) فمثل هذا الحرص على الطلب يتلاءم و تلك المرحله من حياته، إذ كان البال مهيا لذلك، و العيش فى رعايه الأهل يسعف عليه.

و هو يحدثنا أنه ألف كتابه "أدب الخواص" و سنه خمس و عشرون سنه أو نحوها (٢)، أى فى تلك الفتره نفسها، فى حدود ٣٩٥. و لا ريب فى أن خطته فى هذا الكتاب تدل على تمكن متميز فى معرفه الشعر و النسب و الأخبار و اللغه، و قد كان الباعث على تصنيفه الدلاله على معجز القرآن" إذ كان بتبحر ألفاظ هؤلاء القوم (أى العرب) و المعرفه بمعادن ألفاظهم و بمنازع أغراضهم يعلم معجز القرآن علما حسيا ذاتيا. و أنا أرى أن علم العالم أن القرآن معجز من طريق القياس و الاستدلال و من طريق الحس و الإدراك أشرف و أعلى من علم العالم باعجازه عن طريق القياس بالتقليد لغيره و الاعتبار بالفصحاء الذين تقدموه و كانوا حجه عليه" (٣) و يبدو لنا المدخل للكتاب بسيطا لأول وهله، فهو فى نواته جمع للمختار من أشعار العرب، و لكن هذه النواه لا تلبث أن تتغير فتصبح جمعا للمختار من أشعار الأربعة:

امرئ القيس و النابغه و زهير و الأعشى، و مرتبطا بهذا يجيء المختار لكل من اسمه امرؤ القيس و لكل النوايح و الأنزاهر و العشى. و يجيء تحول آخر فى الخطه إذ إن كل ذلك يتم فى إطار الحديث عن قبيله كل شاعر ثم المختار من أشعار كل قبيله. و ذلك يعنى أن الكتاب يضم الشعر و الأخبار و الأنساب مع قسط من غريب اللغه. و قد كان منهجه فى اختيار الشعر أن ينتقى البارع من أبيات القصيده ثم يليقها جانبا مدته أيام، ثم يعيد فيها النظر برأى مستأنف، ثم يختار من المختار أحسنه. و استكمالا لخطته اقتصر فى شرح الغريب على ما يتطلبه المتوسط فى الأدب، كما اقتصر فى تبيان السرقات الشعريه على ما يفيد فى ذاته لا ما يفيد محض العلم بأنه مسروق. و رغبه فى الإيجاز ألغى الأسانيد إلا فى ثلاثه مواضع: موضع خلاف فى الروايه، و موضع غفل لم يكن إسناده معروفا فايراد الاسناد يقوى منه، و أن يكون راوى الخبر ذا مقام خاص فى نفس المؤلف و كان من أمثال من أدركه فى زمنه. ذلك هو أدب الخواص، فان كان القارئ يحب الشعر عدّه مختار أشعار القبائل، و إن كان يحب الأخبار تمثله مؤلفا فى سير الجاهليه و الإسلام، و ليس كل السير بل السير المستغربه، و إن كان يحب اللغه تصوره معرضا لعقائل اللغه و الشواهد عليها، و إن كان يحب النسب - و هو أصعب علوم العرب - عدّه سياقه لجماهير الأنساب (٤) أحييت تبيان هذا النسق

التصاعدي في خطه الكتاب لأدل بذلك على أن مثل هذا التصور "المركب" ليس وليد تجربته مبتدئه بل وليد نضج عميق يرفده اطلاع واسع وقدره نقدي أصيله، وعكوف على الدقه العلميه في التقييد والضبط، ولذلك قلت إن ابن المغربي لم يكتف بالثقافه الصالحه للكاتب بل تجاوزها إلى ثقافه العالم الضليح في علمه. واختياره للصعوبتين - المتمثلتين في اللغه والنسب - دليل على تمكنه من الأصول، ونظره واحده فيما وصلنا من مؤلفاته وروياته تدلنا على أننا نجد لديه من المرويات، و من الاحاطه بالدقه فيما يرويّه، ما لا نجده عند غيره. حتى ليتمكن أن نلاحظ لديه شغفه بغرائب الأخبار، و محاسن الأشعار التي قلما يلتفت إليها غيره.

و بسبب من هذا التفرد في المعرفه و الدقه و حسن الخط أصبح ابن المغربي لدى الأجيال التاليه حجه فيما يرويّه في اللغه، و ما يقيده من ضبط، و ما يورده من أنساب. و كان يزيد الخالفين اطمئنانا أن يروا ماده مكتوبه بخطه. و إليك نماذج من الأخذ برأيه في اللغه و الضبط للأسماء، و الاعتماد على خطه:

الجرجه - الخرجه: كان الوزير ابن المغربي يسأل عن هذه الكلمه على سبيل الامتحان، و يقول ما الصواب من القولين، و لم يفسر (٥) شلا: و رأيت بخط الوزير ابن المغربي في بعض تصانيفه يذكر أنه قد أجاز الكسائي أشليت الكلب على الصيد، بمعنى أغريته، قال: لأنه يدعى ثم يؤسد فوضع موضعه (٦) النكيته: ذكر الوزير ابن المغربي أن النكيته في البيت هي النفس:

و قربت بالقربى و جدك أننى متى يك عهد بالنكيته أشهد

(٧) النمى: في قول الشاعر:

و لو شئت أبديت نميهم و أدخلت تحت الثياب الابر

قال الوزير المغربي أراد بالنمى هنا العيب، و أصله الرصاص، جعله في العيب بمنزله الرصاص في الفضة (٨).

الدهناء: بخط الوزير ابن المغربي: الدهناء عند البصريين مقصور و عند الكوفيين يقصر و يمد، و الدهان الأمطار اللينه، واحدها دهن، ي.

ص: ٥٤

١- بغيه الطلب ٥: ١٧...

٢- أدب الخواص: ٨٦.

٣- أدب الخواص: ٨٣.

٤- أدب الخواص: ٨٣-٨٥.

٥- التنبيه و الإيضاح ١: ١٩٥ (و اللسان جرج).

٦- ماده (شلا) في اللسان عن ابن برى.

٧- التنبيه و الإيضاح ١: ١٩٠ و اللسان (نكت) و البيت لطفه.

و أرض دهناء مثل الحسن و الحساء، و الدهان: الأديم الأحمر (١).

قسا: بالضم و المد، قرأت بخط ابن مختار اللغوى المصرى مما نقله من خط الوزير المغربى: قسا منون و قساء ممدودا موضع، و قسا موضع غير منون، هذا نص عليه و لم يحتج (٢).

جعفى: ذكر الوزير أبو القاسم المغربى فى جعفى أربع لغات فقال، يقال جعفى منسوب منون مشدد، و جعفى مشدد غير منون، و يقال جعفى غير مشدد، و يقال جعف بوزن فعل ثلاثيا من غير ياء النسبه (٣).

و لو قلنا إن معظم ما ألفه ابن المغربى إنما كان نتاج هذه الفتره المصريه لم نبعد كثيرا عن الحقيقه، و ذلك هو ما يذهب إليه أيضا الشيخ حمد الجاسر (٤)، مستثنا من ذلك أشعاره و رسائله، لأنه لم يقتصر فى كتابه الشعر و الرسائل على هذه الفتره وحدها، بل عاش الشعر و النشر معه حيثما اتجه.

و قد رأينا أن المنخل و أدب الخواص ينتميان إلى تلك المرحله، و نضيف إليهما "الإيناس" و هو كتاب فى الأنساب بناه على كتاب لمحمد بن حبيب عنوانه "مختلف القبائل و مؤتلفها" فالأنساب فيه نتيجة لضبط الأسماء المتشاكله مثل فهم و قهم، و التمييز بين ما تطابق دون اختلاف كبكر بن وائل من عدنان، و بكر بن وائل من قحطان، و أفراد الأسماء التى تتطلب ضبطا مفارقا مثل شمس (بضم الشين)، و قد رتب الكتاب على حروف المعجم، و وجد على ظهر الأصل بخطه: "متى ما نسخ هذا الكتاب ناسخ غير ضابط انعكس الغرض، فصار هداه ضلاله بالحقيقه، و متى ما كتب أيضا باجا (٥) واحدا و لم يفرق بين فصوله مرج و التبس و صعب إخراج ما يراد منه" (٦) كما نضيف كتابا له كبيرا فى الأنساب أشار إليه فى أدب الخواص (٧)، و المأثور فى ملح الخدور، رآه ابن العديم بخطه و أورد منه مقتبسات ألحقتها بهذه الدراسه، و تتميم كتاب الفهرست لابن النديم (٨)، و أرجح أن الزيادات فيه أوصلت الفهرست إلى عصر المغربى، و ذلك يتحمل زياده مع الزمن و ربما لم يكن محدودا بفتره واحده. و يلحق بهذا النوع من الكتب كتاب النساء. أما كتب القبائل مثل كتاب بنى ضبيعه و كتاب بنى أسد و كتاب ذبيان و كتاب تغلب فالأرجح أنها فصول داخله فى كتاب أدب الخواص و لم تكن كتبا منفصله.

و هناك كتب تنسب إليه و لم يكن تأليفها يحتاج إلى اطلاع واسع أو تعدد فى المصادر و هى كتب الاختيارات: اختيار شعر أبى تمام، و اختيار شعر البحرى، و اختيار شعر المتنبى و الطعن عليه، و منتخب كتاب الأغاني (٩) و هى مما يمكن أن ينسب إلى فتره التنقل و الشتات. و هناك كتاب من هذا الصنف نفسه و هو الاختيار من نثر على بن عبيده الريحانى، و إنما أفردته لأن الريحانى كان مكثرا من التأليف، و كان لا بد لمن يريد أن يختار من نثره الاطلاع على عدد كبير من كتبه، و ليس الأمر هنا كالاتماد على كتاب واحد فى الاختيار.

و هنالك عدد من كتبه لا نعرف منها إلا الأسماء، و لم يذكرها إلا المتأخرون ككتاب الإلحاق بالاشتقاق (١٠) و العماد فى النجوم (١١).

و قد عد له الشيخ حمد الجاسر ستة و عشرين مؤلفا (١٢) تكرر منها مختصر إصلاح المنطق، و عدت فيها كتب القبائل (و سقط كتاب تغلب) و هى ليست كتبا مستقله على وجه حاسم. و لحق الوهم ذكر كتب أخرى، فكتاب السيره النبويه ليس سوى كتاب

السيرة لابن هشام (تهذيب سيره ابن إسحاق) مكتوبا بخط ابن المغربي. و يبدو لى أن اختصار الغريب المصنف ليس سوى وهم أيضا، و أن المراد هو اختصار إصلاح المنطق، و ما أرى كتاب المنثور الذى ذكره ابن حجر فى الاصابه و تبصير المنتبه (١٢) إلا كتاب المأثور. و لا ريب فى أن لابن المغربي ديوانا شعريا، لكنه لم يصلنا مجتمعا، و ما يذكره بروكلمان من أن فى الأمبروزيانا (رقم: ١٩ حسب الفهرسه القديمه) قطعه من شعره، فإنه من الأوهام الكبيره، و لقد رحلت إلى الامبروزيانا بميلان سنه ١٩٨٣ بحثا عن تلك القطعه من الديوان، فلم أجد تحت الرقم المذكور إلا كناشه فيها مختارات من الأشعار من بينها سته أبيات - فى ثلاث قطع - لابن المغربي.

و انفراد الداودى بذكر مؤلفات أخرى لم تذكرها سائر المصادر و هى فضائل القبائل، و كتاب أخبار بنى حمدان و أشعارهم، و كتاب الشاهد و الغائب، و هذا الأخير بين فيه أوضاع كلام العرب و المنقول منه و أقسامه تبينا يكاد يكون أصلا لكل ما يسأل عنه من الألفاظ المنقوله عن أصولها إلى استعمال محدث. كما ذكر له المسبجى كتاب "الإماء الشاعرات" و كتابا فى "مقامات الزهاد" و هذا الثانى ينتمى إلى فتره متاخره من حياته.

إلى جانب هذا النشاط فى التأليف هل كان ابن المغربي يعمل عملا آخر، و بعبارة أدق هل كان ذا وظيفه (منصب) فى الدوله، و ما هى تلك الوظيفه على وجه التحديد؟ إن الذهبى حين يتحدث عنه يلقبه بـ "ناظر ديوان الزمان بها" (١٤) (يعنى مصر). دعنا نضع إزاء هذا الخبر خبرين آخرين أحدهما يقول إن أبا القاسم الحسين بن على كان يتولى ديوان السواد فصرف عنه و ولى بدله رجل نصرانى اسمه منصور بن عبدون، و من ثم نشأت البغضاء بين الرجلين (١٥)، و الثانى يذهب إلى أن ابن المغربي الأب لما غضب عليه العزيز عزله و ولى مكانه صالح بن على الروذبارى، و استرجع ابن المغربي إلى مصر فلم يزل بها حتى قام الحاكم فكان هو و ولده أبو القاسم حسين من جلسائه (١٦) هذه ثلاثه أخبار أحدها يجعل ابن المغربي ناظر ديوان ٢.

ص: ٥٥

- ١- معجم البلدان لياقوت ٢: ٦٣٥.
- ٢- معجم البلدان لياقوت ٤: ٩١-٩٢.
- ٣- ابن خلكان ١: ٤٥٢ نقلا عن أدب الخواص.
- ٤- أدب الخواص (مقدمه المحقق): ٢٩ و يجب ألا نغالى فى هذا، فقد استطاع ابن المغربي أن يكون مكتبه و أن يجد بعض الفترات المسعفه على التأليف فى المرحله الأخيره من حياته.
- ٥- الباج: الطريق الواحد و الوجه الواحد، أى إيراده دون فصل بين الجمل.
- ٦- الإيناس: ٣٣ (صوره طره مخطوطه تشتت بيتي).
- ٧- أدب الخواص: ١٣٨.
- ٨- معجم الأدباء ٦: ١٩٧، ٤٦٧ (١٦: ٣١٧-٣١٨).
- ٩- معجم الأدباء ٥: ١٥٠ (١٣: ٩٧).
- ١٠- ذكره الزبيدى فى التاج (أزد) و هدايه العارفين ١: ٣٠٧.
- ١١- هدايه العارفين ١: ٣٠٨.

- ١٢- أدب الخواص (مقدمه المحقق): ٣٠-٣٧.
- ١٣- الاصابه ١: ٣٥٥ و التبصير: ٢٧٠.
- ١٤- تاريخ الذهبى (مخطوطه المتحف البريطانى ٤٩، الورقه ٩/ أ) و بروكلمان، التكملة ١: ٦٠٠.
- ١٥- ذيل تاريخ دمشق: ٦١.
- ١٦- خطط المقرئى ٢: ١٥٧.

الزمان، و الثاني يجعله صاحب ديوان السواد، و الثالث يجعله جليسا للحاكم، فأين تقع الحقيقه من خلال هذه الأخبار؟ لا معنى للخبر الأول في رأيي لأنه ليس هناك ديوان اسمه "ديوان الزمان" و أقرب ما هنالك إلى تصويب هذا النص أن نقرأ "ديوان الزمام" و هو ديوان نشأ في الدوله العباسيه حوالى سنه ١٦٢ في خلافه المهدي إذ يذكر الطبرى أن المهدي وضع في ذلك العام دواوين الأزمه. و كان عمل ديوان الزمام - في أصل نشاته - الاشراف و الرقابه على أعمال الدواوين ذات العلاقه بأمور الأموال من واردات و نفقات (١)، و يبدو أن هذا الديوان بهذا الاسم لم يكن موجودا في العصر الفاطمي بمصر، و أن الذهبي - إن صح التصويب - يستعمل مصطلحا عراقيا للدلاله على شىء مشابه، و أقرب مصطلح إليه "نظر الدواوين" أو "ديوان النظر" (٢)، فان لم يكن الأمر كذلك فلنا أن نعتبر "ناظر ديوان الزمان" لقب تشریف و تعظيم كان نقول في وصف أحدهم "ناظر عين الزمان" أو ما أشبهه.

و أما الخبر الثاني فيتحدث عن ولايه "ديوان السواد" و ديوان السواد يلحق بالعراق، بل هو يعنى ديوان العراق بعد استحداث ثلاثه دواوين هي ديوان المشرق و ديوان المغرب و ديوان السواد تنضوى تحتها فئات الدواوين المختلفه. و ليس من المعقول أن يكون متولى ديوان السواد موجودا بمصر، و على هذا يكون اسم الديوان هنا محرفا أيضا. فان لم يكن كذلك، فهو ترجمه لمصطلح عراقى آخر، و لعله يقابل "ديوان الضياع" أى هو ديوان يتولى أمور الاقطاعات الفاطميه ببلاد الشام، التى يمكن أن يطلق على أجزاء منها "سواد الشام" (٣).

و يتحدث الخبر الثالث عن مجالسه الحاكم دون الارتباط بوظيفه معينه، و هذا شىء لا يتطلب توقفا أو تفسيراً، فقد كانت علاقه أبيه و عمه بالدوله الفاطميه طيبه، و ما كان غضب العزيز على أبيه إلا غضبا عابرا، و بحكم تلك العلاقه كان في إمكان الحسين أن يذهب إلى قصر الخلافه في صحبه أبيه أو عمه، و أن يتعرف إلى الخليفه، و أن تقدمه إليه ثقافته و علمه بالاضافه إلى مكانته الاجتماعيه. و قد احتفظت لنا المصادر بخطبه قام بها بين يدي الحاكم (رقم: ١٥) و أكبر الظن أن هذه الخطبه كانت سنه ٣٩١ لأن فيها إشاره إلى ملك الروم الذى "خرق إزار السلم و هتك حجاب الأمن". و ذلك أن ملك الروم فى أواخر سنه ٣٨٩ نزل على شيزر فأخذها و انتقل إلى حمص فأخذها أيضا و سبى و أحرق (٤) و فى سنه ٣٩١ وصل رسول من ملك الروم، و كان له استقبال حافل، و إلى ذلك تشير الخطبه "فعاد يفتل جبل الهدنه و يمد إليك أمير المؤمنين كف الرغبه"، و فى الخطبه تحريض على الجهاد، و لكن الأهم من ذلك فى الحديث عن سيره الحسين أنه ختم الخطبه بالالتفات إلى نفسه "عبدك و وليك ابن أوليائك" و فيه يؤكد أن الحسين حتى ذلك التاريخ كان يرنو إلى منصب فى الدوله كان يعين مذكرا للجيش، أو خطيبا بحضره الحاكم، إن لم نفترض أنه كان يطمح إلى الترقى من منصب دان إلى منصب أسمى منه.

و مهما يكن من شىء فان الروايات الثلاث أخذت تتقارب، إذ يبدو أنه بعد هذه الخطبه نال منصبا فى أحد الدواوين، أيا كان ذلك الديوان، أ هو ديوان الزمام أو ديوان الضياع أو ديوان الخراج، و أن المنافسه بدأت بينه و بين ابن عبدون و شارك فيها أبوه، و بدأت المكائدت و الوقائع تتصل، و ظل الأمر على ذلك حتى سنه ٣٩٩، ففى أول ذلك العام انفرد ابن عبدون بالنظر فى ديوان الخراج دون شريك (٥)، و معنى ذلك أن ابن المغربى فقد منصبه و لكنه لم يكف عن "الوقيعه فيه (فى ابن عبدون) و الكلام عليه و على الكتاب النصرارى إلى أن قبض على جماعتهم، فلما حصلوا فى القبض أمر الحاكم بان يضرب كل واحد منهم خمسمائه سوط، فان مات رمى به للكلاب و إن عاش أعيد ضربه إلى أن يموت" (٦).

و فى الوقت نفسه لم يكن منصور بن عبدون أقل شراسة و حقدًا فى تحريض الحاكم على بنى المغربى و إغرائه بهم و حثه على قتلهم، فتقدم الحاكم إلى السيف - و هو جعفر الصقلبى - و أمره أن يحضر عليا و محمدا ابنى المغربى و يدخلهما الحجره و يضرب أعناقهما ففعل، ثم أمره بقتل الحسين و أخويه محمد و المحسن، فاستتر الحسين و أخذ أخواه و قتل(٧) ، و كان ذلك ثلاث خلون من ذى القعدة سنه أربعمائ(٨).

هل كانت الخصومه بين آل المغربى و ابن عبدون هى السبب الوحيد الذى أدى إلى هذه النهايه الفاجعه؟ نستطيع أن نفترض عده أسباب كان نقول مثلا إن طول العشره جعل بنى المغربى ذوى إدلال على الخلافه، يرون لهم فضلا عليها، و أن الوشايات ضدهم أصبحت لدى الخليفه سهله التصديق. و قد نقول إن جانبنا من التصريحات التى كان يطلقها الحسين، محمله بطموحه المتصاعد كانت تلقى على أذن الخليفه، و أنها حين تكاثرت ضاق بها ذرعا، و الخبر عن الغلو فى الطموح لدى الحسين قابل للتصديق بسهوله، و إن رواه شخص حاقدا. فقد روى ابن القارح أن الحسين قال له ذات يوم: ما نرضى بالخموم الذى نحن فيه، فقال ابن القارح: و أى خموم هنا، تأخذون من مولانا - خلد الله ملكه - فى كل سنه سته آلاف دينار، و أبوك من شيوخ الدوله، و هو معظم مكرم، فقال الحسين: أريد أن تصار إلى أبوابنا (بغيه الطلب: دواويننا) الكتائب و المواكب و المقانب، و لا أرضى بان يجرى علينا كالولدان و النسوان. و أبلغ ابن القارح هذا الموقف إلى على والد الحسين فقال: ما أخوفنى أن يخضب أبو القاسم هذه من هذه (و قبض على لحيته و هامته). و يبدو أن تفجر نفس الحسين بالتعبير عن هذا الطموح كان ظاهره متكرره، فقد روى ابن القارح أن أباه قال فى مناسبه أخرى. "أنا أخاف همه أبى القاسم أن تنزوبه إلى أن يوردنا وردا لا صدر عنه" (٩) و قد نقول إن هذا الطموح ارتقى - بعد الحرمان من المنصب - إلى درجه الثوره، و لعل هناك إشاره إلى ذلك فى موقف تم بينه و بين ابن القارح، حين استدعاه ليلعنه فى وجهه، فقال ابن القارح: و لم؟ قال: ٥.

ص: ٥٦

- ١- الدكتور مصطفى الحيارى: الدواوين من كتاب الخراج (مقدمه المحقق): ٤٢، ٤٣.
- ٢- الموسوعه الإسلاميه ٣٢٩:٢ (الطبعه الثانيه بالانجليزيه).
- ٣- لنا أن نستانس بقول ابن المغربى يخاطب الجيوش بالرملة: " و الرأى أن تبادروا و تنادوا فى السواد، و تسمعوا الشراه فى الجبال باباحه النهب و الغنيمه " (ذيل تجارب الأمم: ٢٣٥).
- ٤- اتعاظ الحنفا: ٣٢:٢.
- ٥- اتعاظ الحنفا: ٧٦:٢.
- ٦- ذيل تاريخ دمشق: ٦١-٦٢.
- ٧- ذيل تاريخ دمشق: ٦٢.
- ٨- أخبار الدول المنقطعه: ٤٨.
- ٩- رساله الغفران: ٥٣ و بغيه الطلب ١٨:٥.

لمخالفتك إياي فيما تعلم (١) فهل كانت تلك المخالفه تتعلق بشيء من ذلك؟ إن هنا غموضا مقصودا، قد يقوى الظن بان الحسين كان يدبر شيئا ولكن مخالفه ابن القارح له أفسدت عليه خطته. وقد تربط بين مقتل آل المغربي و مقتل جناده الهروي و صديقه المقرئ، لاتصال أسبابهما بأسباب الحسين و أبيه، و نتخيل وجود مؤامره واسعه الأطراف قضى الحاكم على عناصرها تباعا. أو لعلنا أن نردد ما قاله أحد المصادر و هو أن الحاكم إنما غضب من ابن المغربي و أمر بقتله "لأنه كان يضرب بينه و بين وجوه دولته" (٢).

و إذا سلمنا بذلك وجدنا أنه قد يعلل غضبه على الحسين، فلم شمل الغضب سائر أهله؟

٣ - الثورة في الرملة

بقي ابن المغربي مختفيا منذ الثالث من ذي القعدة حتى الثاني عشر منه (٣) (عام ٤٠٠) حين أتيح له أن يخرج متنكرا في زي جمال (٤)، برفقه قافله من الأعراب، مجتازا شبه جزيره سينا إلى فلسطين، و قيل إن الحاكم بعث من يطلبه فلم يدرك (٥) و حين وصل الرملة نزل بحله حسان بن المفرج بن دغفل بن الجراح و استجار به فاجاره، و أنشده قصيده يثنى فيها عليه و على قبيله طيبى بعامه:

يا طيبى الخيرات بين حلالكم أ من الشريد و همه الطلاب

سمكت خيامكم باسمه الربى مرفوعه للطارق المنتاب

ثم يصف الذعر الذى تلبس به حتى ضاق به عليه إهابه، و أنه مذ حل فى ديار بنى الجراح قد عرف معنى النوم و الطمأنينه، فلما سمع حسان منه هذه القصيده هش له و جدد تعهده بحمايته، و سكن من روعه.

كانت قبيله طيبى تؤازر القرامطه فى أول الأمر، و لذلك فان هؤلاء حين استولوا على الرملة سنه ٣٦٠ عينوا لها حاكما منهم و جعلوا معه دغفل بن الجراح جد حسان، و منذ ذلك التاريخ وجدت الاماره الطائيه التى تغلبت على معظم القسم الجنوبى من بلاد الشام، و لهذا عملت الدوله الفاطميه على استماله طيبى و فصلها عن الحركه القرمطيه و على ضمان ولاء طيبى لتساعد الدوله فى تثبيت سلطانها على ما استولت عليه من بلاد الشام، و فى الوقت نفسه بذل الفاطميون كل جهد للحيلولة، دون استقواء طيبى، بحيث تصبح قوه تهدد الوجود الفاطمى فى الشام. و كانت خطه الفاطميين اكتساب تلك القبيله بالأموال و الاقطاعات، و لكن رغبه الدوله الفاطميه فى إبقاء طيبى فى حدود التبعية و الضعف كثيرا ما حفز تلك القبيله إلى مسانده بعض الحركات المناوئه للفاطميين (٦).

لعل صورته هذا الوضع كانت واضحه تماما فى ذهن الحسين، حين وجه وجهه صوب الرملة، كان فى طلبه الجوار يلوذ بقيم عربيه معروفه، و لكن نفسه كانت تنطوى على ما هو أبعد من الاطمئنان الهادئ إلى حمايه شيخ ذى نفوذ واسع، كانت نفسه تجيش بالانتقام، و القضاء على الحاكم.

و بعد أن كفكف من دموعه على إخوته و أبيه و عمه، و أذكرته مصارعهم الطف و كربلاء (المقطوعه: ٩٦) و كيف خلت منهم

محاربي المساجد، بعد هذا أخذ يفتل لأعدائه حبال مؤامره كبيره محكمه. و لعله لم تكن لديه خطه معده مرتبه المراحل، بل كان يستمد من حقهه الشديد على الحاكم ما يستشير ذكاهه لاغتنام كل فرصه تلوح لاحكام المؤامره و توسيع نطاقها. كانت الخطوه الأولى - بطبيعته الحال - أن يسكب ثقته حسان بن المفرج، و هو في الوقت نفسه يكتشف مواطن الضعف فيه، و يتأتى بكل لبقه لإفساد نفسه على الحاكم. و لعله في بادئ الأمر استثار عاطفته ممتزجه باستنكاره و امتعاضه لما ارتكبه الحاكم من فظائع و شرور، لا بقتل آل المغربي و حسب، بل بقتل الكثيرين من الناس، و إذن فهو خليفه لا يؤمن جانبه، و خطره على الاماره الطائيه و على حسان و أهله محقق وشيك.

و تضطرب الروايات بعض اضطراب في تسلسل الأحداث، و في كيفية استغلال ابن المغربي لها إعدادا للثوره و قطعاً لروابط التفاهم بين بنى الجراح و الفاطميين. هل كان الصدام بين بنى الجراح و جيش الفاطميين أولاً- ثم تبع ذلك اللجوء إلى سند جديد و خلافه جديده؟ أم كان الأمر بالعكس، أي بدأ البحث عن خليفه بديل، فاغتاظ الحاكم و أرسل جيشاً لتأديب العصاه؟ إن هذا الاضطراب في الروايات سرعان ما يزول إذا أخذنا بالرأى القائل: إن حملته يارختكين لم تكن موجهه ضد آل الجراح منذ البدايه، و لكن الظروف حولتها كذلك. و هذا يعنى أن تسلسل الأحداث تم على الوجه الآتى:

١ - كانت الجيوش الفاطميه قبل بضع سنوات قد عانت كسره عند باب حلب على يد بسيل ملك الروم. و لهذا جهز الحاكم جيشاً بقياده مملوك كان لأبيه العزيز اسمه يارختكين (يا روخ تكين). فخرج هذا القائد من مصر في عدد قليل إذ كان معوله على الجيش الفاطمي في الرمله و عدده خمسه آلاف. و كان الحاكم قد أوصى وجوه القواد بابداء كل آيات التبجيل و الاحترام ليارختكين و أن يترجلوا في موكبه. و كان من جملة من أمروا بخدمته على و محمود ابنا المفرج بن الجراح و أخوا حسان، فجاءا إلى أبيهما و عرفاه أنهما يرفضان ذلك النوع من الازلال في خدمه يارختكين، و حذراه منه، و أنه إذا عظمت قوته و استفحل أمره أصبح خطراً على بنى الجراح و لم يعد لهم مقام في الرمله. إذن كان بنو الجراح كارهين لقدم يارختكين، متوجسين خيفه من أن يوهن من قوتهم إلى حد طردهم من إمارتهم. فإذا جاءت مشوره ابن المغربي بالتصدي له فمعنى ذلك أنها صادفت هوى كامناً في نفوسهم.

و اقترب ابن المغربي من حسان و همس في أذنه بان التخلص من يارختكين هو الرأى الأمثل، فاخذ بنو الجراح يستعدون لمواجهته، و تسربت الأخبار بذلك إلى يارختكين، و كان قد وصل الجفار من جنوبى فلسطين، فشاور أصحابه، و استقر الرأى على أن يبعث رسولا إلى الجيش المرابط في الرمله، و يستدعى أحد القواد و معه ألف فارس، يلاقونه عند عسقلان، و قدر أن يوافيه القائد في ثلاثه أيام، إلا- أن رسوله لم يصل إلى الرمله، فقد جرى القبض عليه في الطريق. و لما انقضت المهله، سار يارختكين على طريق الساحل ففاجاته جموع حسان عند رفح و الداروم، و دارت معركة غير متكافئه، أسر فيها يارختكين و أخذ ولده و حرمه، و أخذت أموال التجار، و عادت الأعراب إلى الرمله، إذ أصبحت المدينه هدفاً لإطماعهم لأن فيها الجيش الفاطمي، فشنوا الغاره على الرمله و رساتيقها، إلا أن عسكر الرمله

٢- العقد الثمين ٧٠:٤.

٣- فى طبقات الداودى: ١٥٣ للثانى من ذى القعدة سنة أربعمائه، و على هذا يمكن أن تكون الكلمه: للثامن، للثانى عشر، للثانى والعشرين.

٤- هكذا فى طبقات الداودى - بالجيم - و ورد فى اتعاظ الحنفا ١٢:٨٢ فى زى حمال (بالحاء المهمله) و انظر التذييل.

٥- العقد الثمين ٧٠:٤ و أخبار الدوله المنقطعه: ٤٨.

٦- الاماره الطائيه: ٤٤-٤٨ (باختصار).

استطاع صدهم، حتى فكروا فى الارتحال عنها.

٢ - أصيب ابن المغربى بقلق شديد: إن ارتحال الأعراب يعنى التخاذل أمام قوه الحاكم، و فساد الخطه فى أول مراحلها، و لهذا وقف يقول لهم:

"إن رحلتى على هذه الصوره وقع الطمع فىكم، و إن صبرتم حتى تفتحوا البلد خافكم الحاكم و ملكتم الشام، و الرأى أن تبادروا و تنادوا فى السواد و تسمعوا الشراه فى الجبال باباحه النهب و الغنيمه". فاصغوا إلى نصيحته و عمموا النداء فانتالت الجموع المتعطشه إلى النهب من كل صوب، و زحفوا إلى الرمله فاستولوا عليها و نهبوا كل ما قدروا عليه و عاثوا فيها فسادا.

و انزعج الحاكم لما حدث فأرسل رساله إلى المفرج بن دغفل يعاتبه و يحذره و يطالبه بإطلاق يارختكين من يد ابنه حسان و إرجاعه إلى مصر، و لم ينس أن يعده بمكافاه ماليه ضخمه إذا هو فعل ذلك.

٣ - كان يارختكين يلقى على يد حسان أسوأ ما يمكن أن يعامل به أسير، إذ عامله بامتهان شديد و تفنن فى إذلاله، و تتحدث المصادر عن ذلك الاذلال تصرىحا و تعريضا، فتصرح بأنه "سمع غناء جواريه و حظاياها و هو مقيد معه فى المجلس" و تعرض بأنه "ارتكب منه فواحش عظيمه" و تعود إلى الوضوح الكلى حين تصف مصيره. و لكنها تربط ذلك المصير بالحسين بن على المغربى، ففيما كان المفرج يتأمل رساله الحاكم و وعوده، فزع ابن المغربى إلى حسان و قال له: "إن والدك سيركب إليك و لا يبرح من عندك إلا بيارختكين، و متى أفرجتم عنه و عاد إلى الحاكم رده إليكم فى العساكر التى لا قبل لكم بها"، و كان فى رأس حسان نشوه، و لعلها هى إحدى مواطن الضعف التى كان يستغلها ابن المغربى، فانفض حسان، و أمر بإحضار يارختكين، و ذبحه صبورا بين يديه، و أنفذ رأسه إلى المفرج أبيه (١)، و أدرك المفرج أن الأحداث قد قطعت شوطا بعيدا فى تطورها، فلم يفتح ابنه بشىء.

٤ - بلغ بنو الجراح فى علاقتهم بالحاكم نقطه اللارجوع. و كان ابن المغربى يدرك ذلك، فتفتق ذهنه عن خطه بارعه، و هى أن يوجد الخليفه البديل الذى يستند إليه بنو الجراح فى استمداد "غطاء الشرعيه" لسلطانهم، و وجده. فاجتمع بالمفرج و أولاده و قال لهم: "قد كشفتم القناع فى مباينه الحاكم، و لم يبق من بعد للصالح موضع" (٢) و التفت إلى مكه، و لفت إليها انتباههم قائلا: هذا أبو الفتوح الحسن بن جعفر العلوى صاحب مكه لا مطعن و لا مغمز فى نسبه (هذه إحدى فوائد علم الأنساب الذى أتقنه) و هو فى بيته و فضله و كرمه بمكان رفيع، و الصواب أن ننصبه إماما و نقوم معه على الحاكم. فاقنع بنو الجراح بوجهه نظره، و أمره حسان بالتوجه إلى أبى الفتوح بمكه و عرض الأمر عليه. و لما نزل على أبى الفتوح أطمعه فى الرئاسة و الخلافه و ضمن له طاعه حسان و قومه، و كانت العقبه الكبرى هى قله ما فى يد أبى الفتوح من مال، يستميل به الأنصار و المؤيدين، و حين شكك ذلك إلى ابن المغربى أشار عليه بأخذ ما فى خزانه الكعبه من الأموال و انتزاع ما عليها من أطواق الذهب و الفضة و ضربها دراهم و دنانير، ففعل ذلك، و عرفت دراهمه ب "الفتحيه" و قيل ب "الكعبيه" (٣)، و إلى هذا يشير ابن القارح حين يعدد ذنوب ابن المغربى بقوله: "و بغضى له - شهد الله - حيا و ميتا أوجه أخذ محاريب الكعبه، الذهب و الفضة، و ضربها دنانير و دراهم، و سماها "الكعبيه" (٤).

ها هى السيئات تتوالد، و تتكاثر و يعلو بعضها بعضا لتقع جميعها على رأس المدبر". و الروايات تطلب السهوله، إذ ما أسهل نسبه

كل شيء إلى رجل موتور لا هم له إلا تنغيص حياه الخصم أو القضاء عليه. و لم تكتف الروايات بنسبه تجريد الكعبه من ذهبها و فضتها إلى ابن المغربي، بل تشاء المصادفات أن يموت رجل ذو مال طائل بجده، فيوصى بمائه ألف من ثروته لأبى الفتوح ليستغلها فى تدبير أموره(٥)، و لكن ابن المغربى لا- يقنع بذلك بل يحرضه على احتياز الثروه كلها(٦) و هكذا حلت العقده المالىه. و عندئذ جمع أبو الفتوح بنى حسن و شاورهم فى الأمر، فمالت بهم دواعى السياهه و أعطوه البيعه(٧)، فأظهر أبو الفتوح دعوته و بايعه سائر أهل الحرمين، و تلقب الراشد بالله(٨).

٥- لما تم كل ذلك عاد الحسين إلى الرمله و اجتمع بالمفرج و بنيه الثلاثه حسان و محمود و على، و أخذ بيعتهم لأبى الفتوح، و يقال إنه قام خطيبا، و ذلك غير مستعد، و لكن الخطبه التى تنسب إليه فى هذا المقام هى فاتحه خطبه لابن نباته، و سيجىء الحديث عنها فيما بعد. و بعد أن فرغ من أخذ البيعه لأبى الفتوح عاد إلى مكه ليكون فى موكب الخليفه الجديد فى مسيره إلى الرمله. و عجل أبو الفتوح فى سيره و معه نحو ألف فارس من بنى حسن، و نحو ألف عبد من قواده، فلما اقترب الموكب من الرمله تلقاه حسان و أبوه المفرج و سائر وجوه العرب، و قبلوا الأرض بين يديه، و نزل فى دار بنى الجراح، و توافد الناس للتسليم عليه بالخلافه، و كان متقلدا سيفا زعم أنه ذو الفقار، و فى يده قضيب ذكر أنه قضيب الرسول ص، و نادى فى الناس بأمان الخائفين و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر(٩).

٦- ركب أبو الفتوح فى يوم الجمعة، و المفرج و أولاده بين يديه مشاه، حتى دخل المسجد و دعا ابن نباته عبد الرحيم بن محمد الفارقى الخطيب و أمره بالخطبه. فصعد المنبر، و اشرأبت إليه الأعناق، فحمد الله و أثنى عليه و قرأ: (طسم. تلك آيات الكتاب المبين. نتلو عليك من نبا موسى و فرعون بالحق لقوم يؤمنون. إن فرعون علا فى الأرض و جعل أهلها شيعا، يستضعف طائفه منهم يذبح أبناءهم و يستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين. و نريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض و نجعلهم أئمه و نجعلهم الوارثين. و نمكن لهم فى الأرض و نرى فرعون و هامان و جنودهما.

ص: ٥٨

- ١- سياق الأحداث متابع لروايه أبى شجاع فى ذيل تجارب الأمم: ٢٣٣-٢٣٥ و قارن أيضا بالعقد الثمين ٧٠:٤، ٧٣، و أخبار الدول المنقطعه: ٤٩-٥٠ و بغيه الطلب ٨: ١٢٨-١٢٩.
- ٢- ذيل تجارب الأمم: ٢٣٥.
- ٣- رساله الغفران: ٥٨.
- ٤- الاعتماد فى التفصيلات هنا على تاريخ الإسلام للذهبي (حوادث:) و على أخبار الدول المنقطعه: ٤٨ و العقد الثمين ٧٠:٤ و هو يجمع عده روايات و لعل الفتحيه هى الدراهم و الكعبيه هى الدنانير.
- ٥- العقد الثمين ٧٥:٤.
- ٦- ذيل تجارب الأمم: ٢٣٦.
- ٧- ذيل تجارب الأمم: ٢٣٦.
- ٨- العقد الثمين ٧٥:٤ (عن الذهبى) و ابن خلدون ١٠١:٤.
- ٩- العقد الثمين ٧٥:٤ (عن الذهبى) و ذيل تجارب الأمم: ٢٣٦ و بغيه الطلب ٨: ١٢٩ و يختلف المؤرخون فى السنه التى خلع فيها

أبو الفتوح الطاعه للفاطميين، انظر العقد الثمين ٧٥:٤-٧٦ حيث أورد روايات مختلفه.

منهم ما كانوا يحذرون) (القصص: ١-٦). و لعل ابن نباته كان يشير بيده نحو مصر. حيث يقيم "فرعون و هامان و جنودهما" ثم يشير إلى الجماهير و فيها أبو الفتوح و حسان و ابن المغربي "الذين سيرثون الأرض"، فقد وافقت الآيات واقع الحال. و لما انتهت الصلاة عاد أبو الفتوح إلى دار الاماره(١).

٧- و هاهنا وقفه لا بد منها، و إن كانت تقطع تسلسل الأحداث.

لقد ذكر ابن الأزرق الفارقي في تاريخه أن ابن نباته توفي سنة ٣٧٤ و نقل عنه ذلك ابن خلكان(٢) فإذا صح ذلك استحال أن يكون ابن نباته موجودا لدى قدوم أبي الفتوح إلى الرملة، و لم تصح نسبة الخطابه إليه في ذلك الموقف. و الأرجح أن ابن نباته عاش إلى ما بعد هذا التاريخ بكثير، و كان في الرملة حين دخلها أبو الفتوح، فقد جاء في مرآه الزمان أنه هو الذى غسل ابن المغربي حين توفي، و عمل بوصيته حين وضع في تابوته ألف دينار لتكون علامه للنقيب الذى سيدفنه في مشهد على حين يصل جثمانه إلى الكوفه، و تتعارض هذه الروايه مع روايه أخرى جاء فيها أن ابن المغربي رآه في المنام و سأل: ما فعل الله بك؟ (و هو سؤال يدل على أن الخطيب توفي قبل ابن المغربي و لكنه من ناحيه أخرى يدل على علاقته بينهما، كما يدل على اهتمامه بامرهم و يومئ إلى أنه كان قلقا على مصيره) فقال ابن نباته: دفع لى صدقه فيها سطران بالأحمر و هما:

قد كان أمن لك من قبل ذا و اليوم أضحي لك أمنان

و الصفح لا يحسن عن محسن و إنما يحسن عن جاني

قال: فانتبهت من النوم و أنا أكررها(٣): و الشطر الأخير في هذين البيتين حيث ترد لفظه "جاني" يصور سبب ذلك القلق، الذى كان إسقاطا من ابن المغربي على "صديقه" و شريكه فى الثوره، و هو ما يمثل حقيقه حاله هو.

٨- و كان أبو الحسن التهامى شاعر الرمله فى تلك الأحداث قد اتخذ من الرمله دار إقامه، و تزوج بها، و تقلد فيها الخطابه(٤)، و وقف كثيرا من قصائده على المفرج الطائى و بنيه، و أصبحت صلته بابن المغربي وثيقه، ففى ديوانه أربع قصائد تتصل بالمغربي(٥)، و منها واحده أثارها عتاب ابن المغربي له لأنه تأخر فى مدحه. ترى هل كانت هذه القصائد حين كان اللقاء بالرمله، أو كانت بعد ذلك؟ إن اشتراك التهامى فى الثوره على الحاكم مع ابن المغربي أبعد عن الرمله و حكم عليه بالتنقل من بلد إلى بلد، و أغلب الظن أن لقاءهما تم من بعد فى ميفارقين و الموصل إذ نجد التهامى يمدح أبا نصر ابن مروان كما يمدح قرواش ابن المقلد العقيلي بقصائد كثيره. و مما يرجح هذا الفرض أن التهامى يخاطب المغربي بلقب "الوزير" و "الكامل" و هما لقبان حازهما من بعد، و لا أرى أنه حازهما بمصر لأنه لم يكن حينئذ وزيرا.

و تؤكد قصائد الديوان حقائق مهمه منها أن التهامى كان حقا فى الرمله لما وصلها ابن المغربي، و أنه كان يعرف كيف تصرف حسان إزاء الحاكم و قتل يارختكين، و إلى ذلك يشير بقوله(٦):

و ما زلت ذخرا للإمام و عدهلك لإمام عده و ذخائر

فلما جرى ما كان، نفر قلبها لأنك نفاع إذا شئت ضائر

تولى إماما ثم تعزل مثلثفان تدع مأمورا فانك أمر

و مما يؤكده الديوان ذلك الطموح لدى التهامى لنيل المجد، شانه فى ذلك شان ابن المغربى. و فى الديوان قصائد قالها و هو محبوس بخزانة البنود، مما يؤكد النهايه التى تتحدث عنها المصادر التاريخيه، و فى إحدى تلك القصائد يقول و هو مسجون(٧):

لعمرى لقد طوفت فى طلب العلا و حالفتى بر و حالفتى بحر

أروم جسيمات الأمور و إنما قصارى أن أبقى إذا بقى الدهر

و لو كنت أرضى بالقليل وجدته و لكن فى نفسى أمورا لها أمر

و مما يلفت النظر فى إحدى قصائده ما يردده من قاله الناس عنه، و أنهم يقولون إنه سجن لطلبه الملك، مع أنه أديب محارف فى عيشه، و يختم هذا بقوله(٨):

و كل بما قاله آثم سيقرا الذى قال فى صفه

و ليس سوى نكبات الزمان و رأى يضلل من ضعفه

و مدائحه فى ابن المغربى، كسائر قصائد المدح، فى الثناء على الجود و الإشاده بالنسب الرفيع، و غير ذلك من الخصال، و نموذجه قوله فى إحدى قصائده(٩):

طلق المحيا للعفاه و إنما يلقي العبوس به على لوامه

تتقاصر الأفهام دون صفاته و يغض عنه الطرف فى إعظامه

يقظان فى كسب العلاء فان ينم فكأنه يقظان عند منامه

تلقى الوزاره و هى دون محله و يرى المخدم و هو من خدامه

و قد انضم إلى مواليه آل الجراح، و إلى ممدوحه الجديد، فى الثورة على الحاكم، و كان له دور هام فيها، و قد ذكر سبط ابن الجوزى أنه "طلب الخلافه بالشام و خرج معه جماعه، فغدر به آل الجراح الطائيون و تقربوا به إلى الحاكم و حملوه إليه فحبسه فى خزانة البنود إلى أن مات، و قيل إن الحاكم عفا عنه و خلى سبيله"(١٠) و لكن ابن خلدون يورد روايه أخرى، إذ يذكر اثنين آخرين فرا من الرمله حين أخفقت الثورة، أحدهما اسمه سبابه، فر إلى ديار بكر مع ابن المغربى، و الثانى يقال له "التهامى" و قد فر إلى الرى(١١)، فإذا كان هو الشاعر، فان بنى الجراح لم يسلموه إلى الحاكم. و بذلك يصبح مصيره غامضا لأن أشهر الروايات فى الحديث عن نهايته أن بنى الجراح قاموا بثوره أخرى على الفاطميين، و استعانوا بالتهامى، و أرسل معه حسان رسائل كثيره يستنفر فيها بنى قره بيرقه للثوره. فاخذ التهامى، و سئل عن نسبه فانتسب إلى تميم، ثم انكشف أمره فاعتقل بخزانة البنود

-
- ١- ذىل تجارب الأمم: ٢٣٦-٢٣٧ و تنسب هذه الخطبه إلى ابن المغربى فى العقد الثمين ٤: ٧٣ و أنه قالها حين أراد أخذ البيعه لأبى الفتوح.
 - ٢- ابن خلكان ٣: ١٥٧.
 - ٣- ابن خلكان ٣: ١٥٧-١٥٨
 - ٤- الوافى بالوفيات ٢٢: ١١٦.
 - ٥- ديوان التهامى: ١١٦، ١٥١، ٣٣٠، ٥٣٦.
 - ٦- ديوان التهامى: ٢٥٢.
 - ٧- ديوان التهامى: ٤٣٥.
 - ٨- ديوان التهامى: ٤٣٥.
 - ٩- ديوان التهامى: ٤٣٥.
 - ١٠- مرآه الزمان (أحمد الثالث رقم ٢٩٠٧) ١٢: ٣١.
 - ١١- تاريخ ابن خلدون ٤: ١٠٢.

٩ - لم يلجأ الحاكم إلى القوه تجاه آل الجراح، كما تحاول بعض الروايات أن تقول، بل كان عليه أن يستنفذ الوسائل الأخرى قبل ذلك، فقد كان يعلم حق العلم ما بين أفراد بني الجراح من خلاف، كما كان خبيراً بالمغمز الضعيف في نفسياتهم، ولهذا استغل سحر "الأصفر الرنان" - الذي يرقص على الظفر و يدعو إلى الكفر - فأرسل أموالاً طائلة تفرق على الصغير والكبير من آل الجراح. وكانت حصه حسان و كل واحد من إخوته خمسين ألف دينار سوى هدايا و ثياب و حظايا تهدي إليهم. و في الوقت نفسه طمان الحاكم حسان حول مصرع يارختكين و سهله عليه (٢) كأنه يقول له إنه مستعد لنسيان تلك الحادثة إذا هو خذل أبا الفتوح. و تكشف شره حسان الحقيقي حين سمع بالمال و الحظيه، و أرسل أمه إلى مصر و معها تذكره بما يريد من حوائج، و في جملتها أن تهدي إليه جاريه من إماء القصر، و أن ينال إقطاعاً و تقريراً، فتكفل له الحاكم بكل ما طلب، و كتب له أماناً بخطه، و جهز له جاريه تحمل كميته طائله من المال، و لأبيه كذلك (٣) ١٠ - لم يكن أبو الفتوح بحاجة إلى أن يرى حسان يرفل في الخلع التي بعثها الحاكم له حتى يستيقن بان المسرحيه قد قاربت النهايه، فقد كانت نيات آل الجراح نحوه قد أخذت تتغير. فذهب إلى ابن المغربي و قال له:

"أغويتني و أخرجتني من بلدي و نعمتي و إمارتي، و جعلتني في أيدي هؤلاء ينفقون سوقهم بي عند الحاكم، و يبيعوني بيعا بالدرهم، فيجب عليك أن تخلصني كما أوقعتني، و تسهل سبيلي بالعوده إلى الحجاز فاني راض من الغنيمه بالإياب، و متى لم تفعل اضطررت إلى أن أركب فرسي و أركب التغيرير في طلب النجاه" (٤) حاول ابن المغربي تشجيع الخليفه المخذول و تقويه عزيمته لكي لا يتخاذل، فقيل إنه ذهب معه إلى المفرج و الد حسان، و أخبراه بتحول أبنائه عن نصره أبي الفتوح، و قيل إن ابن المغربي لم يجد الحل المناسب الذي يسعف به صاحبه على التو، فلما طال الأمر على أبي الفتوح ذهب وحده لمقابله المفرج سرا و قال له: "إني فارقت نعمتي و كاشفت الحاكم، و ذلك لركوني إلى ذمامكم، و سكوني إلى مقامكم، و لي في عنقك موثيق، و أنت أحق من وفي لمكانك من قومك و رئاستهم. و إن خير ما ورثه الإنسان ولده ما يكون له به الحمد و الشكر و حسن الذكر، و أرى حساناً ولدك قد أصلح نفسه مع الحاكم و اتبعه أكثر أصحابه، و أنا خائف من غدره بي، و ما أريد إلا العود إلى الوطن" (٥).

١١ - و سواء أ أصبح أبو الفتوح العلوي في جوار المفرج فكتب فيه إلى الحاكم بالعفو و المسامحه، و رده إلى مكه، أو كان هو الذي صحبه حتى أوصله إلى مكه، أو بعث معه جماعه من طبيئ ساروا معه حتى أوصلوه إليها (٦)، فالنتيجه في ذلك واحده، و هي: عوده أبي الفتوح إلى حجه بعد انتفاخه، و عوده آل الجراح إلى طاعه الدوله الفاطميه، و خروج ابن المغربي من الوليمه " بغير حمص" كما يقال في المثل العامي و إخفاقه في الشار لنفسه و لأهله من "فرعون" الذي علا في الأرض. و ينقل مؤلف العقد الثمين عن ابن خلدون أن بني الجراح قبضوا على أبي الفتوح و أسلموه إلى الحاكم و أنه راجع الطاعه فعفا عنه (٧)، و هذا خطأ مبني على وهم. فابن خلدون لم يقل إن بني الجراح قبضوا على أبي الفتوح، و إنما يقول أنهم "أسلموه" - و معنى ذلك أنهم خذلوه، و مما يؤكد هذا المعنى قول ابن خلدون في موطن آخر "فرداه (أي أبا الفتوح) إلى مكه، و راجعا طاعه الحاكم و راجع هو كذلك" (٨).

١٢ - لم يكن المال هو العنصر الوحيد الذي أفسد على الشريف أبي الفتوح كل تطلعاته، ثم أفسد تخاذله على ابن المغربي كل

ما كان يعلقه من آمال على الثورة بل كانت خطه الحاكم مركبه محكمه، حاول من خلالها أن يقوض كل ما يمكن أن يمنح الثورة قوه و استمرارا، فعمل على إحباطها في الشام و الحجاز في آن معا، أما في الشام فقد عرفنا كيف تولى تحويل الثورة إلى الإفلاس، و أما في الحجاز، فإنه قطع الميره عن الحرمين (٩) ليمهد بذلك لثوره الرعيه على أبي الفتوح، و دس إلى مولى أبي الفتوح الذى كان ينقل له أخبار الحاكم و اسمه أحمد بن أبي العلاء من قتله بوشايه عطار عليه (١٠) و كتب كتابا إلى ابن أبي الطيب و هو ابن عم أبي الفتوح و قلده الحرمين و أنفذ له و لشيوخ من بنى حسن مالا و ثيابا. و أسرع الرسل إلى أبي الفتوح تخبره بما حدث فازداد قلقا و خاف خروج الحرمين من يده (١١)، و كان ذلك مما عجل في عودته إلى الطاعه و طلب العفو.

٤ - بعد الثورة

و لنترجع إلى ابن المغربى نفسه بعد إخفاق ثورته: تقول بعض المصادر إنه فر من الرمله إلى الموصل، أو إلى ديار بكر، و تتلطف بعض المصادر الأخرى في تصوير ذلك الفرار، فهو لم يجمع عليه ثيابه متخفيا في النهار ساريا في الليل لئلا يكون ملاحقا، بل إن خوفه من إرجاعه إلى الحاكم على يد بنى الجراح جعله يطلب منهم أن يسيروا به - في حمايتهم - إلى العراق، فبعث المفرج معه طائفه من بنى بحتر الطائيين حتى أخرجوه من المناطق التي يشملها نفوذ المغاربه (أى الفاطميين) (١٢)، و لكن كلا الأمرين فرار ناى بابن المغربى عن كل تفكير بالثوره أو الانتقام - بعد ذلك - من الحاكم.

لما ذا لم يفكر ابن المغربى بطلب العفو من الحاكم و إصلاح حال الثرى الذى جف بينهما: أليس حسان الذى قتل يارختكين، و أباح الرمله للأعراب، أكبر منه ذنبا؟ أ لم يكن أبو الفتوح الذى نازع الحاكم الخلافه،

ص: ٦٠

١- الوافى بالوفيات ١١٦:٢٢.

٢- العقد الثمين ٧١:٤.

٣- ذيل تجارب الأمم: ٢٣٨.

٤- العقد الثمين ٧١:٤-٧٢ و اقتصر في أخبار الدول المنقطعه: ٥٠ على قوله: "أنت أوقعتنى فخلصنى" و فى تاريخ أبى شجاع [شجاع]: "إنما فارقت نعمتى و أبديت للحاكم صفحتى سكونا إلى ذمامك، و أنا الآن خائف من غدر حسان، فابلغنى مامنى و سيرنى إلى وطنى".

٥- العقد الثمين ٧٢:٤ و فى أخبار الدول المنقطعه: ٥٠ أن أبا الفتوح و ابن المغربى ذهبا إلى المفرج معا فقال لهما: و ما تريدان منى؟ فقال له العلوى: إن عليك حقا و أود أن تجازينى عليه بان تبعث معى من يوصلنى إلى مكه، و لا- تحوجنى أن أركب فرسى المسن و أهرب بنفسى فتتخطفنى العرب، و فى هذه الروايه فى العقد (٧٤:٤) و لا تحوجنى إلى أن أركب فرسا أملكس.

٦- العقد الثمين ٧٤:٤، ٧٥.

٧- العقد الثمين ٧٦:٤.

٨- تاريخ ابن خلدون ١٠٢:٤.

٩- تاريخ ابن خلدون ٥٧:٤.

١٠- العقد الثمين ٧٦:٤.

١١- ذيل تجارب الأمم: ٢٣٨، وقارن به أعلام النبلاء ١٢٩:١٥.

١٢- أخبار الدول المنقطعه: ٥٠.

و جرد محاريب الكعبه من الذهب و الفضة و سكهها نقودا معلنا بذلك ولاده دوله مستقله فى الحجاز و الشام أشد تورطا منه؟ نعم إنه كان "المعرض الأكبر" على تحقيق ما تم ضد الدوله، ولكنه فى النهايه يظل الإنسان المظلوم الذى فقد أهله و كاد يفقد حياته، و هو لا يعلم لهم و لا لنفسه ذنوبا محده. ألا يمكن أن يفىء الحاكم إلى الهدوء، فيعفو عنه كما عفا عن الآخرين؟ يقول ابن المغربى فى إحدى قصائده مخاطبا الحاكم بعد قتله لأهله(١):

و أنت و حسبى أنت تعلم أن لى لسانا وراء المجد بينى و يهدم

و ليس حليما من تقبل كفه فيرضى، و لكن من تعض فيحلم

و يرى ابن العديم و المقرزى أن ابن المغربى كتب إلى الحاكم رساله و صدرها بالبيتين لما علق بنو الجراح بحبال الإغراء المادى و تخلوا عن أبى الفتوح و انحل ما عقده ابن المغربى من أمره. و هذا قد يفهم منه أنه كان يحاول استدراج الحاكم إلى العفو، فكتب إليه الحاكم أمانا هذا نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم: هذا كتاب كتبه المنصور أبو على الامام الحاكم بامر الله أمير المؤمنين ابن الامام العزيز بالله أمير المؤمنين لحسين بن على بن حسين المغربى: إنك آمن بأمان الله و رسوله محمد المصطفى و أئمتنا على المرتضى و الأئمه من آلهم مصابيح الدجى صلى الله عليهم و سلم، و أمان أئمتنا الأقرب نزار أبى المنصور العزيز بالله أمير المؤمنين قدس الله روحه و صلى عليه، على النفس و الجسم و جميع الحواس و الجوارح و المال و الحال و الأهل و الأقارب و الأسباب أمانا ماضيا لا يتعقب بتأويل و لا يتبع بفسخ و لا تبديل، و إن الامام الحاكم بامر الله أمير المؤمنين آمن حسين بن على بهذا الأمان بعد أن تحقق له ذنوبا كبيره و أجراما عظيمه، فصفح عن علم، و تجاوز عن معرفه و حلم، و جعل هذا الأمان كالاسلام الذى يحو ما قبله، و يمهد الخير لما بعده، فكل سعايه و وشايه و ذنب و جريمه تنسب إلى حسين بن على هذا قد تحقق أمير المؤمنين أكثر منها و صفح عنه، فلا يدلله عليه إلا الإحسان إليه.

و إن الحسين بن على هذا اختياره عند وقوفه على هذا الكتاب فى انكفائه إلى الباب العزيز و التعرض للخدمه، أو التوفر على العباده لا يكره على خدمه يستعفى منها و لا تقبل عليه الأقاويل فى خدمه يتعلق بها. و أقسم أمير المؤمنين الحاكم بامر الله على ذلك بإيمان الله و غليظ موثيقه و بيته الحرام و مشاعره العظام و آياته الكرام و حقوق جميع آبائه ع، فمتى غير أو بدل أو أمر أو أملى أو أسر أو أعلن أو دس أو اغتال فجميع المسلمين فى شرق الأرض و مغاربها و فى الموقان و الرى و جده و أذربيجان و الدينور و همذان و السهل و الجبل و القريب و البعيد و العراق و الشام و ديار ربيعه و ديار بكر و ديار مضر و حلب و مصر و الحجاز و المغرب فى حل و سعه من بيعته، و قد فسح الله لهم و فسح لهم أمير المؤمنين فى النكث لها، و برأ نفسه مما أوجبه عليهم و التزموه فى أعناقهم منها، و قد برئ من الله و رسوله، و الله و رسوله منه بريئان، و برئ إليه من حوله و قوته، و التجأ إلى حول نفسه و قوتها، و أشهد الله و ملائكته و صالحى خلقه على نفسه بذلك كله: أمانا مؤكدا و ذماما مؤبدا، و عهدا مسئولا و ميثاقا محفوظا مرعيا، و كفى بالله شهيدا، و كتب المنصور بيده(٢) هاهنا رجل خائف يخشى أن يسلمه بنو الجراح إلى الحاكم، ثم هو يكاتب الحاكم لعله يستعطف قلبه. هذا شىء قائم على التعارض، و الحقيقه بعد ذلك كله، أن ابن المغربى لم يكتب مستعظفا، و البيتان الشاهدان على الاستعطف ينطويان على التهديد "تعلم أن لى لسانا وراء المجد بينى و يهدم" و فيهما إيماء إلى طيش الحاكم و جهله و عجزه عن إظهار الحلم فى المواطن الضروريه، و سواء أفهم الحاكم ذلك أم لم يفهم فإنه كتب له

أمانا و شحنه بالمواثيق المؤكده و الأيمان المغلظه، و التعهدات المؤيده، و مع ذلك فالأمان شرك الصائد، و لهذا لم ينتظر ابن المغربي أمانا لأنه لم يكن يتوقعه، و غادر الرمله فارا بنفسه - أو فى صحبه البحريين من طيبى - حتى وصل إلى بغداد.

و حين دخل بغداد كان الخليفه هو القادر بالله (- ٤٢٢) الذى تصفه المصادر بالدين و العلم و الوقار و كثره الصدقات، و القائم بخلافته فى بغداد بهاء الدوله و ضياء المله أبو نصر بن عضد الدوله (- ٤٠٣) و قد تزوج القادر بنته سكينه. و تولى بعده ابنه سلطان الدوله (- ٤١٥)، فاستخلف أخاه مشرف الدوله ببغداد و جعل إليه إمره الأتراك خاصه، فحسنوا له العصيان فاستولى على بغداد و واسط و قطع خطبه أخيه سلطان الدوله (٣) فانحاز أخوه إلى أرجان ثم اصطالحا و تقاسما الملك، فبقى مشرف الدوله فى العراق و شيراز و كرمان و لأخيه سلطان الدوله فارس و بخارى. و توفى مشرف الدوله سنه ٣١٦ [٤١٦] و خلفه أخوه جلال الدوله ببغداد. و كانت البطائح تحت إمره مهذب الدوله على بن نصر (- ٤٠٨) كما كانت الموصل و معها أحيانا الكوفه و سقى الفرات تحت حكم قرواش بن المقلد العقيلي (- ٤٤٣) و كانت ديار بكر فى يد بنى مروان، و أعظم رجالهم الملك نصر الدوله أحمد بن مروان الكردي الذى حكم إحدى و خمسين سنه (- ٤٥٣).

فى هذا الجو الجديد زج ابن المغربي بنفسه أو زجت به الأقدار لكى يعيش متنقلا- من مكان إلى آخر طوال البقيه الباقيه من عمره (-)، و كان تنقله من منصب إلى آخر إما بداعى الطموح إلى ما هو أحسن، و إما هربا من وضع جديد لم يعد الركون إليه مأمونا، و من العسير تتبع خطواته بتسلسل دقيق، فما أعرضه هنا ليس إلا صورته مقاربه لا أظنها تسلم من الخطأ:

١ - حين وصل بغداد أم حضره فخر الملك أبى غالب محمد بن على بن خلف (٤)، و كان وزير بهاء الدوله ثم وزر من بعده لابنه سلطان الدوله، فان كان وصل بغداد و بهاء الدوله حى، فمعنى ذلك أنه كان هنالك قبل سنه ٤٠٣ (٥)، و كان فخر الملك من أعظم وزراء آل بويه، واسع النعمه، جزيل العطايا، مقصدا للشعراء من أمثال ابن نباته و مهيار، و أنشا ببغداد بيمارستانا عظيما، و لهذا ليس بغريب أن يقصده ابن المغربي. و أقدر أنه كان وزيرا ذا حول و طول واثقا من نفسه و لم يكن يرى فى ابن المغربي إلا رجلا غريبا لجا إليه ليستعين بجاهه، فهو يبذل له ما يستطيعه من عون. و لكن المشكله - غير المتوقعه - هى أن الخليفه القادر بالله لم يرحب بابن المغربي صدرا، بل رأى أن وجوده فى بغداد خطر على الدوله. كان القادر بالله بين أمرين: إماه.

ص: ٦١

١- القطعه رقم: ٩٢ من الشعر، و انظر بغيه الطلب ٥:٢٥، و خطط المقرئى: ٢: ١٥٨.

٢- بغيه الطلب ٥:٢٥ (و لم يورده المقرئى).

٣- سير أعلام النبلاء ١٧: ٣٤٦.

٤- ابن خلكان ٥: ١٢٤ (و فى الحاشيه ذكر لمصادر أخرى) و سير أعلام النبلاء ١٧: ٢٨٢.

٥- فى بغيه الطلب ٥: ٢٦ فخر الملك "وزير مشرف الدوله" و هذا إن كان دقيقا يعنى أن وصول المغربي تأخر حتى ما بعد، و لكنى لا أظنه يتمتع بدقه كافيته.

أن يرى في ابن المغربي رجلا- موتورا من الحاكم، فمن الخير استقباله و الحفاوه به ليستقوى به و بمعرفته على مقاومه المد الفاطمي، و إما أن يرى فيه دسيسه بعثها الفاطميون لإفساد الدوله العباسيه، و كان أن اختار الفرض الثاني مع أن الشواهد كانت ترجح الفرض الأول. و لم يستطع فخر الملك أن يلين قلب الخليفه نحوه، فخرج إلى واسط، " و كتب فخر الملك بحراسته هناك و معرفه حقه " (١) فأقام في تلك المدينه أياما في درب الواسطيين (٢)، و لم يكن يحضر الصلاه في مسجد الحى، فدخل عليه أبو بكر أحمد بن العباس الدوبنائى و قال: يا شيخ، يا أستاذ، يا وزير، مهما شئت كن، إن كنت تحضر مسجدنا هذا في الصلوات الخمس و إلا فانتقل عنا، فقال: السمع و الطاعه أيها الشيخ، ثم انتقل عنهم من يومه (٣)، و لعله في هذه الفتره بواسط تعرف إلى أبي تغلب أحمد بن عبيد الله العاقولى الذى كان خليفه للسلطان و الحكام على تلك المدينه، و كان معظما مفخما، فأصبح صديقا للمغربي (٤).

و تتصل بالتهمة التى وجهها إليه الخليفه رساله كتبها فى الدفاع عن نفسه و فى دحض أمور ألصقت به. و يفتح هذه الرساله بالتعجب من الدهر و أموره، ثم يثبت أنه بصرى عراقى، و أن النسبه إلى المغرب ليست نسبه إلى بلد أو قطر، و يتحدث عن جده و أبيه، و هو شىء قد أفدنا منه فى بناء سيرته، فيما تقدم. و لكن الاتهام الكبير كان منصبا على أنه قد اعتقد التشيع و تدين به، و لهذا ألح فى رسالته على ثقافته الحديثيه، و على إحاطته بكتب السنه مثل الموطأ و الصحيحين و غير ذلك إحاطه روايه و درايه. و نحن نصدقه و إن كان ما قاله فى معرض الرد على التهم. و لكننا نجده حاول جاهدا أن يخفى كل صله له بالنسب الشيعى - من جهتى الأب و الأم - و بالثقافه الشيعيه، و أظن أن موقف الدفاع لم يكن يسمح بذلك، و إن كان الجو من حوله فى الدويلات المختلفه شيعيا.

هل اقترن وصول ابن المغربي بتلك الحمله الشعواء التى قام بها القادر بالله (سنه ٤٠٢) لكتابه محاضر يوقع فيها الأشراف و القضاء و الفقهاء و المعدولون بالطعن فى نسب الفاطميين و نسبتهم إلى ديسان؟ (٥) يبدو اقتران الأمرين أو على الأقل وقوعهما فى جو واحد، أما أن نقول إن وصول ابن المغربي هو الذى أثار الحمله، فلعله يلحق بالمغلايه، و ذلك أن أحداثا أخرى كانت تستدعى ذلك التجريح فى النسب، و أقربها ما كان فعله قرواش فى العام السابق، إذ أظهر طاعه الحاكم و حمل الخطيب على الدعاء لسيدنا و مولانا "إمام الزمان و حصن الايمان و صاحب الدعوه العلويه و المله النبويه عبدك و وليك المنصور أبى على الحاكم بامر الله" (٦).

كل ذلك من أجل ثلاثين ألف دينار تسلمها من الحاكم.

٢ - قتل الوزير فخر الملك أبو غالب سنه ٤٠٧، و استطاع ابن المغربي أن يصلح حاله و يبرئ ساحته عند الخليفه، فعاد إلى بغداد و أقام فيها أياما. فى هذه الفتره زار البطيحه حيث مهذب الدوله و وزيره أبو القاسم هبه الله بن عيسى (٧).

و يبدو أن وزير البطيحه كان متضايقا من زيارته، و لهذا اتهمه ابن المغربي بأنه بعث إليه رجلا اسمه سليمان بن الربيع ليسأله فى بعض غريب اللغه و حوشيهها. و قد وصف ابن المغربي تلك الألفاظ بأنها " لا يتشاغل بمثلها أهل التحصيل و لا يتوفر على تأملها إلا- كل ذى تأمل عليل " و عجب كيف يسأل عنها رجل غريب عن البطيحه، و فيها " هبه الله بحر الأدب " (يعرض بأنه هو مرسلها الحقيقى). و قد أجاب عن الألفاظ التى سئل عنها، ثم قاىضه بمثل بضاعته و أزيد، فامتحنه فى اللغه و النحو و النسب و السير و القرآن و علومه و صناعه الخراج، فدل بذلك على تعمقه فى كل علم و اطلاعه على مشكلاته و أسرارها.

٣ - لم يقيم في بغداد إلا- أياما، ثم مضى إلى قرواش بن المقلد أمير العرب (و هو بالكوفة) و سار معه إلى الموصل، و كان ابن أبي الوزير و زيرا لقرواش بها، فخاف منافسه ابن المغربي له، فحمل إليه مالا كثيرا، و أوحى له بالرحيل عن الموصل (٨) و سوف يعود إلى الموصل في زياره أو زيارات أخرى، و لكن يبدو أن رسالته تمثل "الانطباع" الأولى لأول وروده إليها:

" فوجدت هواءها يعطل سوق بقراط اعتدالا و طيبه، و ماءها يسلى عن مجاج النحل استمراء و عذوبه، و صقعتها قد "تبغدد" رقه و لطفها، و جوها قد تزندق تنعما و ظرفا... و رأيت أرضها أطيب الأرض خيما، و أزينها أديما، تنسج بالسندس الأخضر، و تفتت عن الأتحوان الأحمر." و أما رجالها فقد " لطفوا عن بدويه الشام و غلظته، و جمدوا عن ذوب العراق و خلاسته " و لعله كان يرجو أن يقيم في الموصل إذ وجد من يتقن الكتابه فيها قليلين على خلاف حال الشعر، و نوى أن يعينهم ببعض ما يستطيع تقديمه لهم، و لكنه وجد المقام فيها متعذرا.

٤ - و كانت فتره إقامته في الموصل مديده يسيره، و حين فارقتها توجه إلى ديار بكر فأقام عند صاحبها نصر الدوله أبي نصر مده على سبيل الضيافه. ثم إن نصر الدوله أراد أن يكل إليه تصريف الأمور برسم الوزاره، فتأبى كثيرا و أظهر تمنعا شديدا، ثم قبل بعد إلحاح كثير، و كان زيه حينئذ زى الصوفيه أو الزهاد، أى المرقعه و الصوف، فلم تمض إلا مده يسيره حتى عاد إلى أبه الوزراء،" و ظهر أمره بعد الالتباس، و انكشفت حاله عند جميع الناس" (٩). و تورد المصادر هنا أبياتا تنسبها إليه و تجدها مصوره لما جرى له تمام التصوير لأنها تتحدث عن طرح المرقعه و لبس الشفوف، و الهيام في حب غزال لا- يرضيه لبس الصوف.

هذه المرحله من حياته في ديار بكر تسمى الدفعه الأولى، لأنه وزر لنصر الدوله مرتين (١٠)، و أقام في كل مره مده طويله نسبيا في أعلى حال و أجل مرتبه و أعظم منزله.

و في تلك الدفعه الأولى توجه الوزير إلى بدليس لانجاز بعض المهمات، فأصابه مرض حاد، فقد معه قوته و انقطعت شهوته إلى الطعام، فعاد من بدليس إلى ميفارقين، لعله إذا وافاه الأجل أن يكون فيها أو قريبا منها، و قد ا.

ص: ٦٢

١- بغيه الطلب ٥: ٢٦.

٢- بغيه الطلب ٥: ٢٧.

٣- المصدر نفسه، و سؤالات الحافظ السلفي: ٩٧-٩٨ و فيه لما نزل الوزير المقرئ و لفظه "المقرئ" هنا تصحيف للفظه "المغربى" - أو هكذا قرأها ابن العديم في الأصل الذى نقل عنه. أما محقق السؤالات فيرى أن الوزير المقرئ هو أبو القاسم عيسى بن على الوزير و يحيل على تذكره الحفاظ: ١٠٢٣.

٤- معجم الأدباء لياقوت ٥: ٢٢٦.

٥- المنتظم ٧: ٢٥٥.

٦- المنتظم ٧: ٢٥٠-٢٥١.

٧- بما أن هبه الله توفى سنه ٤٠٦ فقد جعلنا هذه الحادته في هذه الفتره.

٨- بغيه الطلب ٢٦:٥ و الذخيره ٤:٤٧٧.

٩- خطط المقريزى ٢:١٥٨.

١٠- ابن خلكان ١:١٧٨.

أتعبته الرحله كثيرا و زادت فى انحطاط قوته، مع أنه فى كل يوم كان يقطع مسافه غير طويله، و فى الطريق إلى ميفارقين نزل بدير مارمارى و قد اضمحلت قوته أو كادت، و استبد به الضعف و الإعياء، و استدعى لدى حلوله فى الدير شراب، لكن معدته لم تسعفه بل دفعته خارجا، مما جعل من حوله نهبا للقلق و جعله آيسا من الشفاء. ثم إن الراهب الموكل بالدير جاء له بشيء من الرمان، و سال بعض الغلمان هنالك أن "يفرطوا" بعض حب الرمان له، فقيل له إنه لا يستطيع أن يتكلم و لا أن يسمع الكلام، و أن إقهاءه عن الطعام قد بلغ حد الامتناع الكلى، و أن معدته لا يثبت فيها طعام أو شراب، فالح الراهب على إعطائه شيئا من حب الرمان "لعله ينتفع ببركه الدير" فتناول منه شيئا يسيرا ثبت فى معدته، و جعل يأخذ منه بالتدريج شيئا بعد شيء، حتى عاد إليه بعض قوته و انتعشت نفسه بعض انتعاش. و كان الراهب قد طبخ لغلمان الدير عدسا، فاشتهدى الوزير بعضه، و بعد ما أكل نهض و تمشى على السطح متفرجا، و اعتقد أنه تماثل من مرضه.

و فى الفتره نفسها التقى به الشاعر أبو نصر المنازى (1) و مدحه، و تاريخ مدحته له هو سنه ٤٠٦، و تجمع المصادر على أن المنازى وزير لنصر الدوله و لعل ذلك كان بعد وفاه المغربى. و مطلع قصيدته المشار إليها:

اصفح لطرف الصب عن نظراته إن كنت آخذه بما لم يأت
و منها فى المدح:

و لئن جزت نعم الحسين محامد فليجزين الغيث عن هطلاته

أقنى و أغنى فانقلبت و لى به شغلان بين صفاته و صلته

حاولت عد خلاله فوجدتها تشقى الرواه لها شقاء عداته

أبصرت سبل المجد من لحظاته و أفدت حسن القول من لفظاته

و أرى الفصاحه و السماحه و الغنى و مكارم الأخلاق بعض هباته

ورث المعالى عن على و ابنتى رتبا مشيده إلى رتباته

و كذاك لابن القيل إرث علائه فرضا و لابن القين إرث علاته

(٢) ٥ - توفى الكافى وزير قرواش، و أصبح الجو ممهدا لعوده الوزير المغربى إلى الموصل، فكتب إليه قرواش يعرض عليه الوزاره، و ما كاد يتسلم رساله قرواش حتى وجد فى نفسه نزوعا شديدا إلى مبارحه بلاط نصر الدوله. و قد نظن لأول وهله أن سحر الموصل الخلاب قد ظل يداعب خياله، و هذا إن صح فإنه لا يكفى لتعليل سرعه الاستجابه لديه، و إذن فلا بد أن منزلته العظيمه عند نصر الدوله كانت قد أخذت تنحدر.

و يقص علينا نصر الدوله قصه ما حدث فيقول:

"لما خدمني عند مجيئه من مصر، و ما جرى له مع الحاكم، جاءني يوما و معه سدس كاغد فقال لي: قد أثبت في هذا السدس أسماء أصحابك الذين قد أخذوا أموالك و أدخلوا خزانتك من مال يعد فيها لحاجه أو شده ما قيمته ثلاثمائة و سبعون ألف دينار - شك الوزير في ذلك - و قال: إذا أخذت هذا القدر منهم لم تجحف بأموالهم و كان كل منهم مرتبا في خدمته و مركزه و ولايته، و تكون قد تقضيت من أموالك التي احتجنتها ما جعلته لك خزانه و عده" (٣) عند هذا الحد ذكره نصر الدوله بأنه جعله وزيرا ليعمر البلاد، فإذا عمرت در دخلها و كفته و كفت أصحابه، و لم ينصبه ليقوم بمصادره أصحابه، و هذا شيء سهل لا يحتاج إلى جهود وزير، و يستطيع أن يقوم به على أكمل وجه أدون خادم عنده. عندئذ شعر الوزير المغربي أنه عثر عثره ربما لا تستقال، و أن نصر الدوله إذا سرب الخير إلى أصحابه نعموا على الوزير، و لذلك قال لنصر الدوله: "إذا كان هذا رأيك فاحرسني من أصحابك، و لا تطلعهم على ما قلته في معانهم فيفسد ما بيني و بينهم" (٤) فضمن له نصر الدوله ما أراد. و لكن القلق لم يغادر نفس الوزير، و أخذ يتحين الفرصه لمغادره ديار بكر، و كانت رساله قرواش هي باب النجاه. و لكنه لم يشأ أن يكشف سره لثلا يحول نصر الدوله بينه و بين الرحيل، بل أخذ يعمل الحيله للهرب، فقال لنصر الدوله: "قد جرى في الجزيره خلف بين الضامن لها و بين فلان و تفاقم الأمر فيه إلى أن احتاج إلى مشارفتي له و إصلاحه بنفسي.

فتأذن في الانحدار إلى هناك؟" (٥)، و هذا ما عبر عنه ابن العديم في موطن آخر بقوله: "على سبيل اعتبار الأعمال و تصفح العمال" (٦).

و حدد الوزير المغربي مده الغياب بعشرين يوما، يستطيع أثناءها أن يحسم خلافا ربما استشرى حتى يشغل قلب نصر الدوله، و فهم نصر الدوله أنه يريد مفارقتة، بل يؤكد أنه أدرك أن الوزير يريد المضى إلى قرواش أمير بني عقيل، و لعل عيونه كانت قد أطلعتة على ذلك، فقال له: افعل ما ترى. و انهمك الوزير في إعداد ترتيباته للرحيل.

يكمل نصر الدوله القصه فيقول: "فجاءني موسك خالي و قال لي:

عرفت أن أبا القاسم المغربي على الانحدار إلى الجزيره، و كذب، فإنه بنيه المضى إلى الموصل؟ فقلت: قد عرفت ذلك و علمته، و دعه يمضى إلى اللعنه، فما في مقامه هاهنا لكم فائده. قال: و تدعه يمضى و قد أخذ أموالك و سرقها و حصلها و احتجنتها، و لم تقبض عليه، و تأخذ ما أخذ ثم تصرفه إلى اللعنه و سوء المنقلب؟ فضحكت منه و قلت: ليس كل من يأخذ مالى أرتجعه منه، و لعمري إنه خدمنا و انتفع منا و كسب معنا. و أخذ ذلك منه لؤم، فأمسك" (٧).

و كان موسك خال نصر الدوله أحد الضحايا لخطه المصادره التي رسمها المغربي، لو انها نفذت، و لذلك كان يترصد خطوات الوزير و يكيد له و يحرض عليه.

و سار ابن المغربي إلى الجزيره متوجها نحو الموصل، و ظل يسير حتى شارف تلك المدينه، و حط رحاله على مقربه منها حتى إذا جنه الليل سرى إليها و وصلها مصبحا، و اجتمع بقرواش، و تقلد له الوزاره، و أخذ يسفر في شئون كلفه بها قرواش من وساطه بينه و بين السلطان البويهى، و لم ينس الوزير أن يعمل لمقبل الأيام إذا عاد قرواش فتغير عليه، فاخذ يكثر من لقاءه.

١- ترجمه المنازى أحمد بن يوسف فى وفیات الأعیان ١: ١٤٣ و سیر أعلام النبلاء ١٧: ٥٨٣ و الوافى ٨: ٢٨٥ (و كانت وفاته سنه
(٤٣٧)

٢- بغیه الطلب ٢: ١٥٧-١٥٨ و العلاء: السندان، و القین: الحداد.

٣- بغیه الطلب ٢: ٦٤.

٤- المصدر نفسه.

٥- بغیه الطلب ٢: ٦٤.

٦- بغیه الطلب ٥: ٢٦.

٧- بغیه الطلب ٢: ٦٤.

رؤساء الأتراك و الديلم و يعمل على استمالتهم، و يتصل بمن يستطيع أن يمهد له نيل الوزارة في بغداد(١).

و لا بد أن ذلك كله كان قبل عام ٤١١، ففي هذا [هذا] العام يخبرنا ابن الأثير أن قرواش بن المقلد قبض على وزيره أبي القاسم المغربي و على شخص آخر اسمه سليمان بن فهد(٢)، غير أن سبط ابن الجوزى يجعل حادث القبض عليهما في صفر من السنه التاليه(٣)، و يقص السبط علينا ثقل الحال بسليمان الوزير حتى قبض له أن يلتقى بالمقلد والد قرواش، ثم كيف خدم قرواشا نفسه بالموصل فصادر الناس و وترهم، حتى استوحش منه ابن أبي الوزير وزير قرواش، فهرب من الموصل إلى بغداد، فلما وزر ابن المغربيلقرواش بعد موت ابن أبي الوزير الملقب بالكافي وعد سليمان بخلاص أملاكه. و أقام سليمان في دار ابن المغربي بمنزله الضيف، و لم يفلح ابن المغربي في تخليص الأملاك و لا اليسير منها. و جرت أحداث جعلت ابن المغربي يوجس خيفه من قرواش، و ينتظر الفرصه للخلاص منه، فزين لقرواش مد الأسباب إلى أبي نصر صاحب ديار بكر و مصاهرته، و طلب العون منه، و قال لقرواش: ما يقوم بهذا الأمر غيرى، فاذن له قرواش بالخروج، فخرج و اصطحب معه سليمان بن فهد، و مضيا فتزلا بظاهر الموصل، و فيما هما كذلك مر بهما بدران أخو قرواش و كان يمقتها، فرآهما يعدان للرحيل، فدخل على أخيه و قال له: باى رأى تترك هذين الرجلين يخرجان من يدك، و قد أخذنا مالك؟ فأرسل قرواش فقبض عليهما و اعتقلهما ليطلبهما بالمال، فاما سليمان فمات تحت الضرب، و أما ابن المغربي فإنه أرسل إلى قرواش يقول له: إن كنت تريد نفسى فهى بين يديك، و إن كنت تريد المال فمالى بمصر و الكوفه و بغداد، و تطيب نفسى بتسليمه إليك، فان حفظت نفسى أعطيتك المال. ثم بذل له ما حضره من مال، و خدعه بالقول اللطيف و بالوعود، فانخدع له، و أخذ ما وجده معه و أطلقه(٤).

٦ - هل بقى الوزير المغربي يعمل عند قرواش بعد أن أطلقه من الاعتقال؟ ذلك مستبعد فيما أرى، لأن بقاءه هنالك سيظل يذكر قرواشا بوعود لم تحقق، و لهذا أقدر أنه غادر الموصل إلى بغداد، لعل التغييرات فى الحضرة البويهيه تجيء فى صالحه.

و من الصعب أن نحدد مدى تنقله بقيه عام ٤١٢ و الذى يليه، و لعله فى هذه الفتره دخل الأنبار، و كان منذ هاجمه المرض فى بدليس قد أصبح عرضه لهجمات، و للمرض صله بالمعده و الأمعاء. و فى الأنبار عرض له قولنج صعب، أقام لأجله فى الحمام و احتقن عده حقن، و شرب عده شربات، و لكن ذلك كله كان غير ذى جدوى. عندئذ أرسل ابنه أبو يحيى إلى الطبيب أبى منصور صاعد بن بشر بن عبدوس (و هو أول من نبه إلى تدبير الأمراض التى كانت تعالج بالأدويه الحاره باستعمال التدبير المبرد) فجاء صاعد فوجد الوزير و جسمه شديد الحاره من المكث فى الحمام و من استعمال المعاجين الحاره و الحقن الحاده، و عندئذ استدعى الطبيب كوز ماء مثلوج و أعطاه للوزير، فشربه بعد توقف، و أخذت نفسه تقوى، ثم استدعى فاصدا أخرج له دما كثيرا، و سقاه أدويه مبرده، و نقله من الحمام إلى غرفه مبرده بالخيش، و نبهه إلى أنه سينام و يعرق و يستيقظ و يعاود المرحاض مرات. و حدث ما توقعه صاعد إذ نام الوزير حوالى خمس ساعات، ثم صحا من نومه و أخذ يصيح بالفراش، و كان الطبيب قد أوصى الفراش أن يجعله يستأنف النوم كى يستمر نضح العرق، و لما خرج الفراش من غرفته ذكر أن ثيابه كانت كأنما صبغت بماء الزعفران، و تردد إلى المرحاض بعد إفاقته ثمانى مرات، و أوصى له الطبيب بمزوره، و سقاه ماء الشعير مده ثلاثه أيام حتى اكتمل برؤه، و كان الوزير يقول: طوبى لمن سكن بغداد دارا شاطئه، و كان طبيبه أبو منصور، و كاتبه أبو على ابن موصلايا، فبلغه الله أمانيه فيما طلب(٥).

٧ - بين سنتى - كان وزير مشرف الدوله البويهى ببغداد ذا السعادتين أبا غالب الحسن بن منصور، و بينه و بين الوزير المغربى

مراسلات، و هي توري حيناً وتصرح حيناً بما في نفس الوزير المغربي من ميل إلى خدمه ذى السعادتين. ولا يقل عنه ذو السعادتين مهاره في استعمال التعابير الغائمه التي لا يستطيع المرء فيها أن يقبض على حقيقه، وكلاهما يتباريان في سوق الثناء على ما أحرزه هذا أو ذاك من بلاغه و فصاحه. و في إحدى الرسائل ذكر ذو السعادتين شيئاً يتصل ب "التفويض و التعويض" فارتاح الوزير المغربي إلى هذا الوعد، و علق على ذلك بقوله: "و جمله ما اقترحه أن يتصور في ما يتصور في بعض الأقربين من خادم يصطنع فيجری من الحنو عليه مجرى خواص الأهل و أدانى الأصحاب..."^(٤)، غير أن مقتل ذى السعادتین حال دون نیل أى شىء من جهته. و مع أن الوزاره أصبحت تتطلب كفتاً يخلف ذا السعادتین فان مشرف الدوله لم يتجه بنظره نحو المغربي و لم يفكر فيه بل استوزر سنة ٤١٣ أبا الحسين الرخجى و لقب مؤيد الملك^(٧)، و بقى هذا فى الوزاره سنتين و بضعه أيام. و فى السنه التاليه استوزر مشرف الدوله أبا القاسم المغربي^(٨)، و كان ذلك بعون من الأثير أبى المسك عنتر الذى كان على صله بالوزير المغربي من خلال المراسلات، و من خلال سفير بينهما هو أبو الحسين ابن وصيف^(٩).

و لما تربح على دست الوزاره البغداديه، و كان ذلك حلماً طالما هجست به نفسه، أصبح مقصدا للشعراء، فمدحه عدد منهم من أشهرهم مھيار الديلمى، و من مدائحه فيه قصيده له مطلعها:

عسى معرض وجهه يقبل فيوھب للآخر الأول

و منها فى المدح:

فداك و تفعل ما لا تقول ممن يقول و لا يفعل

سللت على المال سيف العطاء فلاحيك فى الجود مستقتل

فلما انتهى من الإنشاد أبدى الوزير استحسانه للقصيده و أشار إلى الناحيه التى فيها الدنانير و الدراهم، فجلس مھيار إليها و ملأ كميہ منها تباعاً، حتى لم يبق شيئاً و نهض فقبل الأرض و انصرف، و كان مجموع ما ٥.

ص: ٦٤

١- بغيه الطلب ٥:٢٦.

٢- تاريخ ابن الأثير ٩:٣٢١.

٣- مرآه الزمان (أحمد الثالث) ١٢:٣٣.

٤- مرآه الزمان ١٢:٣٣ (و هو موجز جدا عند ابن الأثير ٩:٣٢١) و جاء فى مرآه الزمان ١٢:٤٧ أن قرواشا لم يقتل سليمان بل خرج مع المغربي إلى نصر الدوله و أقام فى ضيافته حتى أصلح حاله مع قرواش و عاد إليه.

٥- ابن أبى أصيبعة ١:٢٣٢ و الوافى بالوفيات ١٦:٢٣٧.

٦- انظر الرساله رقم: ٧.

٧- ابن الأثير ٩:٣٢٩.

٨- ابن الأثير ٩: ٣٣١.

٩- بغية الطلب ٥: ٢٦.

حصل عليه - بإقراره - ألفا و نيفا و عشرين ديناراً و سبعة آلاف و ثلاثمائة درهم، و ذلك مبلغ كبير جداً إذا قيس بما كان يناله الشاعر حينئذ (١).

و يؤرخ ابن بسام هذه القصة بعام ٤١٨ و أن أبا القاسم كان فى داره فى ذلك العام، و هو إذ ذاك وزير بغداد، و هذا وهم فان أبا القاسم فى ذلك العام كان وزيراً لنصر الدولة بديار بكر و ميافارقين. و لدى ابن بسام بعض تفصيلات فإنه يذكر أن ذلك كان فى يوم نوروز، و دخل عليه وجوه أمراء الديلم و الاسفهلاريه من الأتراك، و وضعت الهدايا بين يديه على رسم الفرس، و أن مهيار الديلمي استأذن عليه لما تعالى النهار، فاذن له، فلما مثل بين يديه قال: أيدك الله، هذه البضاعة التى معنا كانت كاسده و قد وجدنا لها نفاقاً عندك، فأنشده القصيده اللاميه، و كان ابن المغربى لدى الإنشاد يستعيد الأبيات النادره فيها و يكثر إعجابها و يجمع كفيه و يبسطهما و يقول:

أحسنت و الله، أجدت و الله، ثم أباح له جميع ما كان على الأرض من دراهم و دنائير (٢).

و على الرغم من هذا العطاء الجرم فان مهيار يحكى أن الوزير المغربى لما تولى وزاره بغداد شمخ بأنفه و أظهر العسف و التجبر و الاستعلاء، و رهبه الناس، فاحجم مهيار عن لقائه - هذا يتعين أن يكون قبل الحادته السابقه - ثم إنه عمل فيه قصيده بائيه يقول فيها:

جاء بك الله على فتره بآيه من يرها يعجب

لم تألف الأبصار من قبلها أن تطلع الشمس من المغرب

فاستحسن الوزير ذلك و أعطاه مائتى دينار (٣).

و لكن الوزير الذى أصبح قبله الشعراء المادحين لم يسلم من السخرية و الهجاء، فقد استكثر عليه أحدهم أن يصبح "النحوى" وزيراً، فقال فيه:

ويلى و ويحى و ويهى على ملوك بويه

يا ضيعه الملك جدا و يا بكائى عليه

يا مغربى رويدا كيف اهتديت إليه

سلبته كل حلى فى صدره و يديه

سياسه الملك ليست ما جاء عن سيبويه

(٤) ثم إن هذا الشاعر، و يقال إنه هو أبو عبد الله الخيمى، لقيه من بعد عند قرواش بالموصل، أو عند نصر الدولة بميافارقين، فدخل عليه فى جملة الشعراء مادحاً، فقال له الوزير: باى وجه تلقانى؟ فقال: جوابى لك جواب أبى الهول الحميرى للفضل بن

يحيى و قد ساله مثل هذه المسأله فقال:

بالوجه الذى ألقى به ربي، و ذنوبى إليه أكثر من ذنوبى إليك. و قال يمدحه:

يا معجز الله الذى قد حل فى أعلى محل

لما رأيت الملك فى هون و مضيعه و قل

أكبرت نفسك أن تدبر أمر ملك مضمحل

(٥) و مره أخرى تفيد المصادر أنه تولى الوزاره ببغداد "بغير خلع و لا لقب و لا مفارقه للدراعه" (٦).

و تاريخ توليه الوزاره عند ابن الأثير هو شهر رمضان سنه ٤١٤ (٧) ، و عند ابن العديم هو الشهر نفسه من السنه التاليه (٨) ، و دامت وزارته هذه المره عشره أشهر و خمسه أيام (٩).

و حدثت وحشه بين الأثير أبى المسك عنبر الخادم و معه الوزير المغربى و بين الأتراك، فاستأذن الأثير و صاحبه مشرف الدوله فى أن يهاجرا إلى بلد يامنان فيه على نفسيهما، فقال لهما مشرف الدوله: أنا أسير معكما، و هكذا كان، فتوجه جميعهم إلى السنديه و فيها قرواش، فاستقبلهم فيها، ثم ساروا جميعا إلى أوانا و نزلوا على أبى سنان غريب بن محمد بن مقن (١٠) هنالك. فلما علم الأتراك بذلك انزعجوا و أرسلوا وفدا يقدم الاعتذار، فكتب إليهم الوزير المغربى: "إننى تأملت ما لكم من الجامكيات، فإذا هى ستمائه ألف دينار، و عملت دخل بغداد، فإذا هو أربعمائه ألف دينار فان أسقطتم مائه ألف دينار تحملت الباقى" فوافقوا على ذلك (١١) و عاد مشرف الدوله و الأثير إلى بغداد، و لم يعد معهما الوزير المغربى.

و لدى ابن بسام روايه تختلف فى بعض تفصيلاتها عن هذه الروايه السابقه إذ تذهب هذه الروايه إلى أن مشرف الدوله أوقع ببعض الأتراك على الرغم من نهى الوزير له عن ذلك، فأبى مشرف الدوله إلا أن يركب رأسه، فاضطرب العسكر اضطرابا اضطربا إلى الهرب، و أفضى بهما إلى استجاره أمير العرب. و لدى استعداد الوزير للهرب لبس ثيابا رثه و وضع على وجهه منديلا، و استقبل غلامه نحرير فى الدهليز و هو يقول (١٢):

تمرست منى العلا بامرئ قد علق المجد بامراسه

يستنجد النجده من رأيه و يستقل الكثر من بأسه

أروع لا يرجع عن تيهه و السيف مسلول على رأسه

و قيل أيضا إن مشرف الدوله لم يقترح مصاحبه الوزير و الأثير بل إن ابن المغربى دبر إخراجه "لحاجه فى نفسه قضاها، و خطه من مكره ألزمه إياها، إبقاء على جلاله المقدار، و أنفه من الانفراد بعبب الفرار" (١٣).

توجه الوزير المغربى إلى قرواش، إذ يبدو أنه لم يطمئن للجند الأتراك، أو لم يستطع أن يفى لهم بالجامكيات المطلوبه، و

حدث ما أبعداه عن بغداد جملة، إذ نشبت فتنه فى الكوفه بين العلويين و العباسيين و كان الذى جر إليها خلاف بين أبى على الزكى النهى سابسى صديق الوزير المغربى و على بن أبى طالب صهر الوزير المغربى من جهه، و بين المختار أبى على بن عبيد الله العلوى. و استعان المختار بالعباسيين لنصرته، و سار بهم إلى بغداده.

ص: ٤٥

- ١- بغيه الطلب ١٩:٥ (و النقل عن جزء فيه شىء من أحوال ابن المغربى جمعه القاضى الجليس ابن الحباب).
- ٢- الذخيره ٥١٤:٤-٥١٥.
- ٣- سير أعلام النبلاء ٣٩٥:١٧.
- ٤- بغيه الطلب ١٩:٥ (و باختصار فى مرآه الزمان ٣٨:١٢).
- ٥- المصدر نفسه.
- ٦- بغيه الطلب ٢٤:٥.
- ٧- تاريخ ابن الأثير ٣٣١:٩.
- ٨- بغيه الطلب ٢٤:٥.
- ٩- تاريخ ابن الأثير ٣٣٥:٩.
- ١٠- ابن خلكان ١٧٤:٢ و الوافى ٤٤٣:١٢ و غير المحقق "مقن" إلى "معن" و ذلك من تحكيمات المحققين.
- ١١- تاريخ ابن الأثير ٣٣٥:٩.
- ١٢- الذخيره ٤٧٨:٤ و المقطوعه رقم: ٤٠.
- ١٣- المصدر نفسه.

و شكوا ما يفعله بهم النهر سابسى، فرأى الخليفة القادر بالله أن يقوم بالإصلاح بينهم مراعاة للوزير المغربى لأن النهر سابسى كان صديقه و ابن أبى طالب كان صهره، و لكنهم حين عادوا استعان كل فريق منهم ببنى خفاجه، و نشب بينهم قتال ظهر فيه العلويون و قتل من العباسيين سته نفر و أحرقت دورهم. عندئذ أمر الخليفة بتنحيه ابن أبى طالب عن نقابه الكوفه و ولاها المختار، فغضب الوزير المغربى لما حل بصهره و استنكره، و كان عندئذ بسر من رأى عند قرواش، و حاول أن يتعدى على أرجاء كانت للخليفة، فأرسل الخليفة رسولا إلى قرواش يأمره بإبعاد المغربى، ففعل (١) ٨ - إلى أين توجه هذا الوزير الذى يثير المشكلات أينما حل؟ لعل من أغرب الأمور أن وجد نفسه يعود إلى ديار بكر و إلى صحبه نصر الدوله.

و موضع الغرابه لا أنه احتجن أموالا كثيره كما ذكر موسك، فذلك أمر قد تسامح فيه نصر الدوله، و إنما موطن الغرابه أن نصر الدوله كان يؤمن أن الوزير بارع فى الشر بل إنه لا يحسن غيره (٢)، و أنه كذب عليه ليؤمن لنفسه الهرب من عنده، فباى وجه يلقاه الوزير و باى وجه يتلقاه الأمير؟ إن عودته إلى ديار بكر - إن كان قد عاد لتسلم وزاره - لتؤكد شيئا واحدا و هو أنه على الرغم مما كان يؤخذ عليه من تحيل كان يتمتع بكفايه تؤهله لمنصب الوزاره، و كان من يعمل معهم يتجاوزون عن سيئاته بشفاعه فضائله. و لكن يبدو أنه فى بادئ الأمر طرح نفسه على نصر الدوله لاجئا أو ضيفا و قد تلقاه هذا بالإكرام و أقطعه ضياعا جليله تكفيه و تكفى من وصل معه من الحاشيه و الاتباع (٣)، و لكن لم يلبث إلا قليلا حتى تأكدت الحاجه إليه. ففى سنه ٤١٦ توفى وزير نصر الدوله أبو القاسم خواجا صاحب أرزن، فاستوزر نصر الدوله أبا القاسم المغربى و رد الأمور إليه (٤)، و على الرغم من أنه أقام فى هذه المره قرابه ثلاث سنوات، فان أخباره بالنسبه للفترة التى أقامها تعد ضئيله.

و أوضح هذه الأخبار تردده على نصيين، و الفضل فى ذلك الوضوح يعود إلى تلك المحاورات بينه و بين مطران ذلك البلد.

و قد دخل الوزير المغربى إلى نصيين لأول مره يوم الجمعه ٢٦ جمادى الأولى (٤١٧/حزيران ١٠٢٦) فزاره مطران نصيين إيليا المعروف بابن السنى للتهنئه، فاستبقاه حين أراد أن ينصرف و أنسه، و ساله عن أحواله، ثم جرت محاورات بينهما فى سبعة مجالس بين السبت ٢٧ جمادى الأولى ٤١٧، و حتى ١٠ جمادى الآخره من السنه نفسها، سال فيها الوزير عن عقيدته النصرارى فى الأقاليم الثلاثه و كيف يمكن وصف ذلك بالتوحيد، و كيف يمكن للنصارى أن يدفعا قول الله فيهم (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة) و عن عله الناس فى محبه أديانهم، و هل يتحقق المرء صحه دينه أو مذهبه من جهه العقل أو من جهه المعجزه. و يدور المجلسان السادس و السابع حول أسئله عن المقارنه بين نحو السريان و نحو العرب و علم اللغه عند الفريقين و استعمال المجاز عندهما، و المفاضله بين الخط السريانى و الخط العربى، و بين علم الكلام هنا و هنالك، و عن اعتقاد النصرارى فى أحكام النجوم، و عن اعتقاد النصرارى فى المسلمين، و عن اعتقاد النصرارى فى النفس. و بما أن مطران نصيين هو الذى كان يتولى الاجابه فإنه أعطى نفسه دورا كبيرا فى الشرح و التوضيح مما يجعل الوزير يسلم له معجبا، فاما ما يتعلق بالأقاليم الثلاثه و ما يتصل بها فمن الواضح أنه يشرح عقيدته النساطره، و هى قريبه الشبه بما عند المسلمين، و أما فى الأسئلة التى قد ينجم عن الاجابه عليها التورط فيما يمس السيادة الإسلاميه فان أجوبه المطران تنهج نهجا بارعا فى حسن التأويل و التخلص من المأزق، غير أنه واضح العصبيه لكل ما هو سريانى من نحو و لغه و خط و علم كلام.

و قد شمل الحوار أمورا لا تتصل بالدين، كذلك تحدث معه فى آخر ثلاثه أيام قضاها فى نصيين فى الزياره الأولى فى مسائل تتعلق بأخلاق النفس و آداب الرهبان و الزهاد و العلوم العقلية، و ليت المطران دونها إذ كان جل الفائده فيها، لا فى الأمور

ثم عاد الوزير إلى نصيبين دفعتين آخرين كانت الأولى منهما يوم الخميس الثامن من ذى القعدة، و في هذه الزيارة أقام خمسه و عشرين يوماً (٥)، و كان في صحبه أبى نصر صاحب ديار بكر، و لقي صاحبه المطران إيليا و باحثه في مسائل عدّه تناول اعتقاد اليهود و تاريخ آدم و غيره من التواريخ و تغيير اليهود لها و الآثار العلويه. و كانت الزيارة الثالثه يوم الأحد ١٧ جمادى الأولى من العام ٤١٨.

و قد أقام الوزير في زورته الثالثه لنصيبين عشره أيام ثم عاد إلى ميفارقين و جاءته دعوه من بغداد للعوده إليها و تولى الوزاره فيها، فاستأذن نصر الدوله في ذلك فاذن له. و هذه الروايه تبطل الروايه التى أوردها ابن الجوزى و كررها السبط و خلاصتها أن الوزير اعتزل السلطان و انقطع للعباده فقيل له: لو تركت المناصب في عنفوان شبابك فقال: "كنت في سفره البطاله و الغى.. الأبيات" و لعل هذه الروايه نشأت بعد أن ذهب إلى ميفارقين و قضى مده و هو دون عمل.

غير أن اشتداد المرض عليه حال دون ذهابه لبغداد، و وافته منيته في اليوم الحادى عشر من رمضان سنه ٤١٨ عن عمر بلغ سته و أربعين عاماً.

و يقال إنه حين أحس بالموت كتب كتباً عن نفسه إلى كل من يعرفه من الأمراء و الرؤساء الذين بينه و بين الكوفه يعرفهم أن حظيه له توفيت، و أنه قد أرسل تابوتها إلى مشهد الامام على، و أنه يسألهم مراعاة من مشوا في صحبه التابوت. و لما توفى سار به أصحابه، و سار من بلغ الرسائل إلى أصحابها، فلم يعرض أحد لتابوته و دفن بالمشهد كما طلب (٦) في ترابه مجاوره للإمام على، و أوصى أن يكتب على قبره (٧):

كنت في سفره الغوايه و الجهل مقيماً فحان منى قدوم

تبت من كل ماثم فعسى يمحي بهذا الحديث ذاك القديم

بعد خمس و أربعين لقد ما طلت إلا أن الغريم كريم

و ذكر صاحب تاريخ ميفارقين أنه كتب إلى النقيب بالكوفه ليدفنه في عتبه باب المشهد و قال للنقيب: قد أوصيت أن يجعل في التابوت ألف دينار (٨) ٨.

١- تاريخ ابن الأثير ٣٣٦:٩.

٢- بغية الطلب ٦٤:٢.

٣- بغية الطلب ٢٦:٥.

٤- مرآه الزمان ٤٧:١٢.

- ٥- فى النسخه الخطبه: خمسه و خمسين يوما.
- ٦- و عند ابن خلكان ١٧٦:٢ فى الثالث عشر من رمضان.
- ٧- تاريخ ابن الأثير ٣٦٢:٩ و مرآه الزمان ٤٧:١٢ و المنتظم ٣٣:٨.
- ٨- ابن خلكان ١٧٦:٢ و انظر المقطوعه رقم: ٩٥ و المنتظم ٣٣:٨.

فى كىس؁ فإذا وصل إلك التابوت فافتحه فهى العلامه. و كان الذى عهد إله بوضع الكىس؁ هو ابن نباته الخطىب فعمل بما أوصاه به بعد أن قام بغسله؁ فلما وصل التابوت إلك الكوفه قال النقىب: من هذا؟ فقيل له:

الوزىر المغربى؁ فقال: أىن العلامه؟ إن لى فله علامه؁ ففتح التابوت و وجد الكىس؁ فأخذه و دفنه تحت العتبه و كتب عند رأسه: "يا جامع الناس لمىقات يوم معلوم اجعل الحسىن بن على من الفائزىن" (١).

و فى روايه أخرى أنه أوصى أن ىحمل إلك مشهد الحسىن و ىدفن تحت رلكى الحسىن؁ و ىكتب عند رأسه هذان البىتان (٢) (و المصادر تكاد تجمع على الرواه الأولى):

سقى الإله الأزلى من السحاب الهطل

قبر الحسىن بن على عند الحسىن بن على

و لقد شاع أنه سم (٣)؁ و أن ذلك تم حىن فصل من مىفارقىن ذاهبا إلك بغداد (٤)؁ و الاقتران بىن موته و بىن رغبته فى مفارقه مىفارقىن إلك بغداد هو الذى ىوحى بذلك التقدير و الظن. و قد وجدنا أن المرض لم ىكن ىغب الوزىر إلا لىعود إلك؁ و أنه كان ىلم ب "أحشائه". فإذا كان للسم دور فى إثارته فله أن ىكون سما بطىئا. و ىصف ابن بسام هذا كله بقوله: "و استاذن نصر الدوله فخلقى بىنه و بىن مراده؁ و لم ىجد بدا من إسعاده و وفاء بىنجاز مىعاده؁ فلما برزت قبايه؁ و كادت تستقل ركابه؁ خوف نصر الدوله عاقبه مكره؁ و أشىر علیه بالرأى فى أمره؁ فسقاه شربه كانت آخر زاده" (٥).

و مهما ىكن سبب وفاته؁ فقد سكن ذلك القلق الطولى؁ و همدت تلك الحىويه المتفجره. و ذهب الوزىر الكامل ذو الجلالتىن بعد أن شغل الناس؁ و أصبحوا فى النظر إلك شىعا.

و فىما كان الوزىر المغربى ىعالج سكرات الموت كان أبو العلاء ىملى على كاتبه تأملاته فى الحىاه و الموت و القدر و المذاهب فى شكل لزومىات؁ و لما وصله النبا توقف عن التأمل الخالص لىذرف دمعه على صدىق. و لا أعرف شخضا آخر رثى فى اللزومىات؁ فان ىكن الأمر كذلك؁ فهذا وحده دلىل على عظم المنزله لصدىقه الوزىر فى نفسه. و بما أن الوزىر كان إنسانا غربىبا؁ و بما أنه عاش غربىبا ىتسلمه بلد بعد آخر فقد نظم فله أبو العلاء لزومىه غربىبه (٦):

لىس بىقى الضرب الطولى على الدهر و لا ذو العباله الدرعاىه

(٧) يا أبا القاسم الوزىر ترحلت و خلقتنى ثفال رعاىه

(٨) و تركت الكتب الثمىنه للناس و ما رحى عنهم بسعاىه

(٩) لىتنى كنت قبل أن تشرب الموت أصىلا شربته بضعاىه

إن نحتك المنون قبلى فانى منتحاها و إنها منتحاىه

أم دفر تقول بعدك للذائق لا طعم لي فأين فحايه

(١٠) إن يخط الذنب اليسير حفيظاك فكم من فضيله محايه

هي سبعة أبيات لكنها جامع له لسيره إنسان: فيها تأكيد بإيراد الكنيه و اللقب على الشهره، و فيها إشاره إلى الكتب الثمينه التي خلفها الوزير و هي إما أن تكون مؤلفاته القيمه، و ذلك اعتراف بتميز ما كتبه، و إما أن تكون الكتب التي وقفها بميافارقين و ظلت تعرف من بعده بمكتبه المغربى. و فيها اعتراف بذنوب اقترفها الوزير إلا أنها ذنوب صغيره و سوف يمحوها ما يوازىها لديه أو يفوقها من حسنات و فضائل. و لكن القصيده (أو المقطوعه) تقيم منذ أول بيت الموازاه بين إنسانين، كما أقامت المساواه بين الطويل و القصير أمام الموت. و إذا كان الوزير طويلا و المعرى قصيرا و ذهب أحدهما فان الآخر لاحق به. و لكن لما ذا يترحل الوزير و يترك صديقه وراءه، محطما مبتذلا كجلده الرحي؟ ليته و قد شرب صديقه كاس الموت قبل أن يبلغ مساء العمر شرب هو تلك الكأس فى ضحى العمر، و استراح من أم دفر، التي تعلن للناس أن فقد الوزير أفقد الدنيا طعمها كأنها القدر الفقيره إلى الأيزار و التوابل. كان المعرى حين نظم هذه الأبيات قد بلغ الخامسة و الخمسين أو تجاوزها بقليل، و قد أصبحت الحياه على كتفيه عبئا ثقيلا، و زادها ثقلا فقد الوزير و غيره من أصدقائه، و لذلك رثاه بأبيات تعلن قافيتها بسكونها انقطاع النفس أو وشك انقطاعه. و إذا كانت حقا تمثل بعض آخر ما نظمه المعرى فى اللزوميات، فان كل ما قبلها مباشره و ما بعدها يتنفس فى جو واحد هو استطاله الحياه و الدق برفق على باب الموت. و فى آخر لزوميه يقول المعرى(١١):

إن يرحل الناس و لم أرتحل فعن قضاء لم يفوض إلى

خلفت من بعد رجال مضوا و ذاك شر لي و شر على

و هكذا فان المعرى حين رثى الوزير بصدق كان أيضا يرثى نفسه.

شخصيه الوزير المغربى

كل من شاء أن يدرس شخصيه الوزير المغربى لا يستطيع أن يتخلص من أحكام ابن القارح على تلك الشخصيه، فقد أثار ابن القارح من حولها غبارا كثيرا، و أطلق دخانا كثيفا، لا يمكن طردهما. و لهذا ستظل الرؤيه غير دقيقه. و قد كررت بعض المصادر ما قاله ابن القارح دون محاكمه فزادت انبهام الرؤيه إلى حد كبير، و هذا كله مهد لجعل الحسين "محرك النار" فى كثير من أحداث عصره، حتى و إن كان بعيدا، حتى لقد أصبح لدى كثير من المؤرخين "الوسواس الخناس" الذى يحرك إلى الشر، و من السهل أن تصف إنسانا بأنه كان مفرط الذكاء و الدهاء بل أن تعده من دهاه العالم(١٢) ثم أن تربط به أعمالا- قائمه على الحيله و الجراه، و أن تصفه بخبث الباطن و ارتكاب العظائم(١٣)

ص: ٦٧

١- مرآه الزمان ١٢: ٤٨.

٢- مرآه الزمان ١٢: ٤٨ و المقطوعه رقم: ٩٠.

- ٣- لسان الميزان ٣٠٢:٢.
- ٤- خطط المقریزی ١:١٥٨.
- ٥- الذخيره ٤:٤٧٩.
- ٦- اللزوميات ٢:٦٥٢-٦٥٣.
- ٧- العباله: السمنه و الغلظ، و الدرعايه: القصير.
- ٨- الثفال: الجلد الذى يبسط تحت رعى اليد، و الرعايه: الرعى.
- ٩- السعايه: القطعه التى تؤخذ من القرطاس.
- ١٠- الفحا: أزار القدر.
- ١١- اللزوميات ٢:٦٥٦.
- ١٢- ابن خلكان ٢:١٧٤ "من دهاه العارفين"، سير أعلام النبلاء ١٧:٣٩٥-٣٩٦ له رأى و دهاء.. و ذكاء و قاء، و كان من دهاه العالم، لسان الميزان: ٢:٣٠١ له الذكاء المفراط، ذيل تاريخ دمشق: ٦٤ ذا علم و ذكاء، الداودى ١:١٥٣ و إفراط ذكائه و فطنته، الوافى ١٢:٤٤٢ من الدهاه العارفين.
- ١٣- ابن خلكان ٣:١٣٤ خبيث الباطن، لسان الميزان ٢:٣٠٢ الجراه و ارتكاب العظام فى حصول غرضه، الوافى ١٢:٤٤٢ خبيث الباطن، ابن الأثير ٩:٣٣٢ كان خبيثا محتالا.

لقد رسم له ابن القارح صورته حاله مقيته حين حشد فيه الصفات الآتية:

١ - الملل: كان أبو القاسم ملولاً، والملول ربما مل الملل، و كان لا يمل أن يمل.

٢ - الحقد: (كان) يحقد حقد من لا تلين كبده و لا تنحل عقده.

٣ - العقوق: له رأى يزين له العقوق، و يمقت إليه رعايه الحقوق.

٤ - الكبر: كأنه من كبره قد ركب الفلك، و استوى على ذات الحبك.

٥ - الحسد: (حسد ابن القارح لأنه استطاع أن يجمع سبعة أوصاف للشعته فى بيت واحد).

٦ - الجنون: كان جنونه مجنوناً.. و أجن منه لا يكون.

٧ - الجراه على المقدسات: (أخذ محاريب الكعبه الذهب و الفضه و ضربها نقوداً).

٨ - سفك الدماء و انتهاك الحريم و التقتيل و التخريب فى سبيل الحصول على ماره(١) و لم يتوقف موقف التشكيك فى هذه التهم إلا ابن العديم فإنه قال: و كان بين أبى القاسم ابن المغربى و بين على بن منصور ما يوجب ألا يقبل قوله فيه(٢).

و قد بلغ فقدان الثقة بين الرجلين حدا بعيدا حتى إن الوزير المغربى قال فى بعض ما يرويه: أنشدنى على بن منصور (ابن القارح) - إن صدق(٣) - و هذا الإلحاق يدل على أسوأ ضروب الظن.

و قد استنتج كتاب التراجم خبته و إزراءه بالفضلاء و شده حسده على الفضائل التى يتمتع بها الآخرون من أنه كان "إذا دخل عليه الفقيه ساله عن النحو، و النحوى ساله عن الفرائض، و الشاعر ساله عن القرآن قصدا ليسكتهم"(٤)، و لست أرى فى ذلك شيئا مما استنتجوه، إذ هذا التصرف إما أن يكون دعابه فهو يجرج الفقيه إذا ساله فى النحو، و يتلعثم، و يخرج إلى أمور مضحكه. و أشهد أنها دعابه ثقيله غير مستملحه، و إما أن يكون "تعلما" للمسئول و محاوله لجره إلى التواضع كى لا يحسب لاتقانه أحد العلوم أنه قد أحاط علما بكل شىء، فهو يردده إلى التواضع. كما يعبر عن تميزه الشخصى لأنه يتقن علوما جمه، و تلك طريقه أيضا غير ضروريه فليس لأحد أن ينصب من نفسه معلما لغيره، و هى قد توحى بالغرور، و لكنها لا تدل على الخبث و شده الحسد.

غايه ما هنالك أن الرجل كان شديد الذكاء، و أهم من ذلك أن ذكاهه أوصله إلى النضج المبكر، فبدأت تظهر لديه عقده التفوق، و زادها إعجاب أبيه به - و ربما أضفت "و تدليله له" - و لعل المعرى - دون أن يقصد - شارك أيضا فى ترسيخ تلك العقده، بذلك النوع من الخطاب فى رسالتى المنيح و الإغريض. و قد كان ذكاؤه فى أول الأمر موجها إلى هضم كل ما يقرأ و التعمق فى العلم و الأدب، و فى إتقان النظم و النثر، فلما وضح له أنه يبذ معظم أقرانه تحولت عقده التفوق لارضاء طموحه إلى الشهرة، و كفلت له مجالسه الحاكم - بصحبه أبيه و عمه - بدايه التوقل فى سلم المجد، و عرض على الحاكم أن يستغل مواهبه فيما يرفع من ذكره و ينشر صيته، و يعود على الدوله بالخير.

غير أنه الحادته التي لم يعر أثرها المؤرخون اهتماما و إنما اكتفوا بذكرها على أنها محض خبر هي المذبحة التي تعرض لها أهله، و قلبت نفسيته، و وجهت ذكاه في وجهه جديده. فإذا كان الانتقام شرا، فقد أصبح الذكاء موجهها نحو الشر، و إذا كان الحقد سيئا فقد "وظف" في خدمه الانتقام.

و حين استطاع أن يورط آل الجراح بحيث تتطابق مشكلته و مشكلتهم بالنسبه للحاكم لم يكن يستشرف أن يكون الرجل الأول في الدوله المستحدثه، بل كان كل همه أن يتحقق له الانتقام. و في سبيل ذلك استباح لنفسه كل ما يمكن أن يتوقف عنه لو لم تكن سحابه الانتقام قد غشت عينيه، و كان أهون ما هنالك نزع الذهب و الفضه من الكعبه، إذ الكعبه ليست بحاجة إليهما. فاما تيتيم الأطفال و ترميل النساء و قتل الرجال فتلك هي شرعه الحرب.

و هي أمور تتم به و بدونه، و من شاء أن يقوض دوله لم يحسب حساب الخسائر في الأرواح و في بنيه العائله و في ضياع الأموال. لست أسوغ للوزير المغربي أن يفعل ذلك، و لكنه حين فعل ذلك كان واحدا من آلاف - بل ملايين الطامحين - الذين أقاموا ذلك التمثال الأجوفا الذي نسميه تاريخا، و لهذا فلا يجوز أن ينفرد باللوم، و كل من حوله والغون في دماء الأبرياء و غير الأبرياء.

و بعد إخفاق الثوره أصبح يسعى للحصول على مصدر رزق: كان غريبا و الغريب المنافس للطبقه البيروقراطيه يلقي كل أنواع الكيد و الدسائس و التكتل ضده، و كان ذكيا و الذكي مخوف لأنه يفضح الغباء الجماعى الذى يتخذه الآخرون جنه ضد مغاير لهم غريب، و كان مريرا بسبب ما منى به من إخفاقات متواليه، و المرير إذا كان ساخرا يثير الغيظ و الحفيظه و الخصام، و كان تفرده في العلم و الكتابه و الشعر يؤهله لنيل ثقته من يعمل معه بسرعه، و ذلك يثير الحسد، فهو المحسود لا الحاسد، لأن لديه من الفضائل ما يقنعه و يرضيه، أما الحاسد فهو طامح لما عند غيره و لا يعرف الرضى. و كان صارما في الوظيفه دقيقا فيما يجب على الآخريين أن يؤدوه، و هذا النوع من الناس يتهمون بالتكبر و التجبر، لأن معظم من يعملون معهم يميلون إلى التراخى و الارجاء و التسوييف و المماطله. و ليس غريبا إذا جعل من أهم القواعد للسائس في رسالته في السياسه أن يحذر "كل الحذر من تأخر عمل يوم إلى غد، فان لكل وقت شغلا، و هذا الخلق من المدافعات بالمهمات أدهى الدواهى التي تتابع لها الخلل، و انهدمت لها الدول" (٥) و كان سخيا بالمال، و ما أحرى ذلك أن يقربه إلى القلوب، و لكن السخاء أحيانا ياتى بضد ذلك، لأن استشعار علو اليد يثير النقمه بدلا من الشكران، أو يضع المرء في شعور مختلط بين النقمه و الشكران.

و تصفه المصادر بالجرأه و الدهاء معا، و كلتا الخصلتين تشيران إلى دوره في الحياه السياسيه العمليه. و الجراءه تؤدى إلى التهور، و ذلك يعنى عدم حساب النتائج، و إذا حكمنا على المغربى بنتائج أعماله قلنا إنه كان متهورا لا جريئا و حسب، إذ منى كل ما خطظه بالاخفاق. فاما الدهاء فهو موصول لدى من يستعملون هذه الصفه بالحيله القائمه على الذكاء، و إخفاق النتائج ٤.

٣- بغيه الطلب ١٩:٥.

٤- المنتظم ٣٣-٣٢:٨ و ابن الأثير ٢٣٢:٩ و ابن خلكان ١٧٤:٢ و الوافي ٤٤٢:١٢ و لسان الميزان ٣٠١:٢ و مرآه الزمان ٤٧:١٢.

٥- الرساله رقم: ١٦، الفقره: ١٤.

لدى المتهور ينقص حظه من الحيله البارعه، و ذلك فى الأعمال الكبيره، أما فى الأمور اليوميه الصغيره فلعل الوزير المغربى كان سيد من دبر "المقالب" و ضحك على زملائه و ضحك منهم. و من حق من تصدوا لترجمته أن يقولوا إنه كان داهيه لأنه كان دائما يدبر الخطط حتى لم ينس أن يدبر كيف ينتقل إلى مشهد على متخذنا فى ذلك احتياطات أكثر مما يتطلبه الموقف.

و رغم العقل المسيطر فى توجيه خطته نجده امرأ "عاطفيا" بل يمكن أن يقال فيه إنه كان يوقد الشمعه من طرفيها: كان كثير الانقياد لشهوته، حتى إذا أمعن فيها تذكر ثقل الآثام و الذنوب و ما يترتب عليها من حساب، و لذلك فان شعره يتراوح بين هاتين المنطقتين على نحو متكافئ. أعطى ريعان الصبا من المجون ما أحب و لكنه فى قراره نفسه يبغض الإثم. يذهب فنونا هى هوى إلف له ثم يهجره، و يموت الالف و هما متهاجران، فيحس بالندم و يبكى بحرقه ثم يلوذ بكرم البارئ - جل و عز :-

هو المحسن البر فيما قضاه و الحاكم العدل فى ما حكم

و إنى و إن حجبتنى الذنوب فمنى السؤال و منه الكرم

بل تبلغ به التوبه حد التعلق بأستار الكعبه:

أستار بيتك أمن الخوف منك و قد علقته مستجيرا منك يا بارى

و ما أظنك لما أن عقلت بها خوفا من النار تدنبنى من النار

و ها أنا جار بيت أنت قلت لنا حجوا إليه و قد أوصيت بالجار

بل يمكن أن يقال إنه فى هذا التردد ضيع نقطه الوسط، و إن كان بتارجه المستمر يحاول التوسط. و لما قال له المطران إيليا إن الرهبان لا يدعون للإنسان بطول العمر أو زياده المال أو كثره النسل و إنما يسألون الله أن يصنع به ما له فيه الخيره شرح المغربى كيف بارح البحث عن النقطه الوسط.

ذكر أنه يفتش عن غايه العز (ورى بالعز هنا عن أشياء كثيره) أو عن غايه الزهد. أما الزهد فغير ممكن فى حال الوزير، لأن الزاهد يخدم نفسه بنفسه و الوزير يخدمه الكثيرون. و أما العز فهو يتمناه بلهفه، و لكنه واقع بالنسبه له بين طمع فيه و حرمان مؤقت منه "و مع طمعى فانى لست مؤيسا منه" (1)، فكل ما ناله من عز لم يكن مرضيا له، و لذلك فهو يحس أنه لم ينل كل ما يريد، أى هو واقع فى نقطه وسط لا- يريد. لا يريد أن يتجه نحو الزهد، إنه لا يرضى إلا بالطرف الأقصى من العز، و هذا الموقف الذى يمثل آخر مراحل حياته يدحض روايه تنسب إليه أنه تزهد و اعتزل العمل. و تذهب هذه الروايه إلى أنه كان يعابى من يدخل عليه بامتحانه و سؤاله فى غير ميدانه العلمى، و أن شيئا دخل عليه فسأله عن العلم فقال: ما أدرى و لكنى رجل يودعنى الغريب الذى لا- أعرفه الأموال العظيمه و يعود بعد سنين و هى مختومه. (هاهنا تعريض بالوزير)، فخجل و آل الأمر أن زار أحد الصالحين (أو هو الشيخ نفسه) فقال له: لو صحبتنا لنستفيد منك و تستفيد منا، فقال: ردى عن هذا بيت شعر:

إذا شئت أن تحيا غنيا فلا تكن بمنزله إلا رضيت بدونها

فانا أكتفى بعيشى هذا. فقال: يا شيخ ما هذا بيت شعر، هذا بيت مال، ثم قال: اللهم أغننا كما أغنيت هذا الشيخ و اعتزل السلطان (٢) على أنه مهما استبد به استبحاره فى الشهوات، فقد كان ذا غيره على الإسلام، و إيمان عميق به، و لذلك تجده شديد السرور حينما أسلم رئيس اليعاقبة بتكرت، ذلك هو أبو مسلم مشرف بن عبيد الله الذى كان يعرف بالمطران الكبير: "فهنا الله الإسلام ما يزال يتولاه من إيضاح مناره، و تبليج أنواره، و إدامه صبحه ضاحكا تتصدع عنه دياجير الشبهات، و تنجلي منه ملابس الضلالات" و لعل مما زاده سرورا أن المطران رأى الامام عليا بصحبه الرسول (ص) فى المنام.

فقد كان الرجل شيعيا، و كان إذا أمن أفصح عن حقيقه مشاعره، و فى تلك اللحظات كان موقفه من رجالات الإسلام موقفا شيعيا خالصا و لذلك كان على بطبيعة الحال هو خير الصحابه فى نظره:

عرفنا عليا بطيب النجار و فصل الخطاب و حسن المخيله

تطلع كالشمس رآد الضحى بفضل عميم و أيد جزيله

فكان المقدم بعد النبى على كل نفس بكل قبيله

و هو القائل فى على (ع):

صلى عليك الله يا من دنا من قاب قوسين مقام النبيه

أخوك قد خولفت فيه كما خولف فى هارون موسى أخيه

هل برسول الله من أسوه لم يقتد القوم بما سن فيه

و حين فارق ابن المغربى مصر كان قد تجاوز الثلاثين، و هى سن متأخره للزواج فى ذلك العهد، و لذلك فان زواجه و هو بمصر هو المرجح، و حين رزق بابنه الأول سماه عبد الحميد - لإعجابه بإمام الكتابه - و كناه أبا يحيى.

و كان الذى هناه بمولده صاحب ديوان الجيش بمصر أبو عبد الله محمد بن أحمد فقال (٣):

قد أطلع الفال معنى يدركه العالم الذكى

رأيت جد الفتى عليا فقلت جد الفتى على

و قد كبر ابنه و روى عن أبيه، و حدث ببعض أخباره (٤) و يبدو أنه أصهر إلى عائله علويه عراقيه إذ يذكر أن أبا الحسن على بن أبى طالب بن عمر كان صهره (٥)، و قد كانت زوجته هى بنت العرموم، و لا ندرى أ كانت هى أم عبد الحميد، أم لا، و لعلها كانت على جانب غير قليل من الثراء، و كانت لها شخصيتها المستقله أو حاول زوجها أن يمنحها ذلك المظهر، إذ تذكر الروايات أنها أهدت أبا كاليجار البويهى لما طلع قلعه إصطخر "مذاف أحمر بهرمان رمانى ما يعرف قيمته" (٦). و لا ندرى هل كان عبد الحميد الابن الوحيد للوزير المغربى أو أنه رزق بأبناء آخرين.

وقد ظلت الأجيال من بعد تشير إلى الحسين بن علي باسم "الوزير المغربي" حتى أصبح اللقب غير منفصل عن نسبته عند ذكره، ولكنه لم يكن.

ص: ٦٩

-
- ١- مجالس إيليا: ٤٣١.
 - ٢- المنتظم ٣٢:٨-٣٣ و مرآه الزمان ٤٨:١٢ و انظر روايه أخرى من القصة رقم: ٢٦ منقوله عن بغيه الطلب.
 - ٣- ابن خلكان ١٧٤:٢.
 - ٤- ابن أبي أصيبعة ٢٣٢:١.
 - ٥- ابن الأثير ٣٣٦:٩.
 - ٦- الذخائر والتحف: ٧٩، و "المذاف" - هكذا ورد - ولم أتبين ما هو.

"وزيراً فقط، بل كان "الوزير الكامل ذا الجلالتين"، ولا ندري متى أحرز كل هذه الألقاب، و من لقبه بها، والأرجح أن ذلك تم في الفتره العراقيه.

بعض مجالات اهتمامه

١ - شعره و نثره:

لا- تفتتا المصادر تردد أن للوزير المغربي نظماً فائقاً في الذروه، و ترسلاً فائقاً، و أنه سيطر على صناعتى الشعر و النثر، و أن له ديوان شعر و رسائل، لعلهما كانا مجموعين معا. و ينفرد الثعالبي بقوله إنه " كان يجرى فى طريقه ابن المعتز نظماً و نثراً و يجاذبه طرفيهما " (١) و قد وصلنا من أشعاره مائه و خمس [خمس] عشره وحده بين مقطوعه و قصيده، و المقطعات أغلب، كما وصلنا من رسائله و أقواله خمس و عشرون وحده. و ليس فى شعره أو نثره ما يشير من قريب أو بعيد إلى شركه بينه و بين ابن المعتز، و لعل تباينهما فى الشعر أوضح. فابن المعتز شاعر التصوير المتناوب فى جماله بين الأصاله العريقه و الصنعه، بينما ليس من هم الوزير طلب الصوره أبداً، و إذا جاءت فى شعره فإنما تجيء عارضه.

و شعره فى المقطعات يدل على أنه كان يتعمد العبارة الحلوه و المعنى الجديد، فمن العبارة الحلوه قوله:

زعم الفراق دعا به فأجابه و نعم دعاه فلم أراد يجيبه

و من الجده فى المعنى قوله:

محا حسن ياسى شخصه من تذكرى فلو أننى لاقيته ما عرفته

فهذا عكس للمعنى المألوف، و هو أسر لأنه يفاجئك بغير المتوقع.

و فى شعره على الجملة نغمه من لوعه دفينه أسيانه. و إذا صح أن الأبيات التاليه له، فإنها تمثل قمه الوجد فى نضاره تعبير:

أقول لها و العيس تحدج للسرى أعدى لفقدى ما استطعت من الصبر

سانفق ريعان الشيبه آنفا على طلب العلياء أو طلب الأجر

أليس من الخسران أن لياليا تمر بلا شىء و تحسب من عمرى

و من شده تطلبه للمعنى الأخاذ يحمل كثيراً على التعمل الذهنى، و يبعد فى طلب المعنى فلا ياتى بشىء جديد كقوله:

كان لى فى انتظار شيبى حساب غالطنى فيه صروف الدهور

و كذلك لا تعدم اللفطات المستملحه فى مثل قوله:

فقال لى الحبيب و قد رآنى سبوقا للمضمرة العتاق

ركبت على البراق؟ فقلت كلا و لكنى ركبت على اشتياقى

و هذا الاستملاح لائق بالمواقف الغزليه و العاطفيه، و هو يتحول إلى عمق عاطفى فى شعر الرثاء. و لكنه لا يصلح للشعر التعليمى و الحكمى، و لهذا كان هذان اللونان من الشعر يتحملان لديه قسطا من الفجاجة إذا قورنا بشعره العاطفى. و كذلك يمكن أن نقيم المقارنه بين مدائحه و مراثيه، إذ كانت الأولى قائمه على الدعوى و الثانيه على المشاعر الصادقه. و مما يجسم الأمر بين هذين اللونين أنه لم يكن يرى لممدوحيه فضلا عميق الجذور فى نفسه، بل لعله كان يرى نفسه فوق المدح، بينما كان الذين رثاهم يتمتعون بمكانه عاليه لأنهم علويون مثل الشريف الرضى و الشريف أبى الحسن صهر الوزير. و لو قارنت مراثيه فى أمثال هذين بمراثيه فى إلف له فقدته لوجدت درجه العاطفه واحده، و إنما يقع التمايز فى اختلاف العلاقه.

و لعل أحفل نماذج شعره فى التصوير القصيده الأخيره فى هذا المجموع و فيها يصور سابحا:

فكأنه فى الموج قلبى بين أشواقى إليه

فتصوير الأشواق بالموج و فى وسطها القلب و هى تتلاطم من حوله صوره غير مالوفه:

و الماء مثل السيف و هو فرنده فى صفحته

تركيب جديد لمواد مالوفه فى التصوير. أما الصوره البعيده حقا فهى نهيه الناس عن شرب ماء النهر الذى كان يخوضه ذلك السابح لأن الحسن ذاب فيه: أ تراه يعنى أن من شرب منه سحر؟ و على هذا تقوى روايه من روى "قد ذاب فيه السحر" و لكن هذا اللون من الشعر غير كثير لديه.

و جملة القول فى شعره أنه نموذج لشعر الكتاب فى الرقه و الطلب للمعانى.

أما رسائله فيبدو فيها التفاوت بحسب العمر و الموضوع: فرسالته التى كتبها إلى أبى العلاء المعرى و أخيه تراوح بين الشر و الشعر بشكل يكاد يكون متساويا، و هى طريقه تخلى عنها عند ما توفر له النضج. و الموضوع فى الرساله الأولى مثلا هو التحدى بالمعرفه، و لذلك لم يهتم فيها بالنسق الأسلوبى قدر استعراضه لمعارفه المختلفه، أما المطارحات الاخوانيه فقد أصبحت قائمه على أسلوب مسجوع من حيث الشكل و على تفنن فى التعبير عن المشاعر. و خير ما يظهر براعته فى الناحيتين رسالته إلى الشريف أبى طاهر فى باز كان يتصيد به و فر منه. هنا يمثل فرار البازى الغدر من يد من رضع الوفاء، و بعد إقامه هذا التناقض يلتفت الكاتب إلى الدراج التى ارتاحت نفوسها لذلك الفرار، ممن؟ من الكوكب المنقض على مسارحها، و السهم القاصد إلى مذابحها.

و هكذا يفتح الكاتب المجال لتصوير ذلك "الغادر" الذى كان فى الوقت نفسه وفيا لضحاياه من الطيور، ثم يلتفت إلى المغدور الوفى الذى سيعد للطيور الفرحة شماته ذوات ظفر جدد أشد فتكا. ثم يجد الأعذار لفرار ذلك الذى سماه غادرا، و كل أعذاره ترجع إلى علو همه صاحبه، و هكذا ينتقل الكاتب فى رسم المفارقة بين البازى و صاحبه و موقف الطيور الأخرى منهما.

و الحق أن المغربي كان إماما في الكتابه بين كتاب عصره، و لكن ما وصلنا من رسائله قليل، إذ ضاع منها رسائل كثيره. و من رسائله التي ضاعت رساله كلفه الخليفه القادر بالله كتابتها ردا على فئه من اليهود(٢)، و هي رساله تعرض ثقافه و جدلا بأكثر مما تعرض أسلوبا فيما أعتقد.

و لا يقل أسلوبه الذاتى فى كتبه عن رسائله جزاله سبك و روعه عباره، و الفرق بين أسلوبه فى الحالتين هو اعتماد السجع فى الرسائل و عدم اعتماده فى

ص: ٧٠

١- تتمه اليتيمه ١:٢٥.

٢- اعتاب الكتاب: ٢٠٦.

كتبه. و هذه قطعه من مقدمه أدب الخواص تصور مبلغ الأحكام فى ذلك الأسلوب: " و قد عجب المتأملون من عاقل لا يمضى سلطانه على نفسه، و هو يريغ نفاذ أمره فى غيره، و الإنسان يسفه القاصب له، و يثرب على المولع بسبه، و يزنه بالكذب، و يعزوه إلى قول ما لم يعلم، و إلى المؤاخذه على الظن، و إلى إرسال اليد و اللسان قبل اليقين و الثلج، و لا يحس أن الداء الذى أضرع خصمه للملامه، و ألحج عدوه فى التغليظ و المذمه هو و هى سلطان العقل، و انتقاص الجلد عن صرف اللسان و قد اشرب للقول، و عن حسبه و قد تهيأ للث (١)

٢ - النقد الأدبى:

يعد الوزير المغربى ناقدا للشعر و النثر، منذ الجاهليه حتى عصره. فقد حدثنا كيف كان يختار الشعر: "كنت أختار البارع من أبيات القصيده، ثم ألقبها جانباً مده أيام، و أعاود النظر فيها برأى سالم، و باختيار شاب واع، فاختر من ذلك المختار ما أرى إيراده فيكون إبريز نارين" (٢).

و هذا التمهيص الشديد فى الاختيار كان مقياسه الذوق الذاتى، و قد استعمل الوزير المغربى هذا المقياس كثيراً لا فى أدب الخواص [الخواص] و حسب، بل فى ذلك النسق من اختياره شعر أبى تمام و البحترى و المتنبى و اختيار نماذج من نثر على بن عبيده الريحاني، و هو لا يحكم رأيه دائماً بل يعتمد أيضاً آراء أهل النقد، فهو يأخذ ما يستحسنونه مثل قول ابن كناسه:

على حين أن شابت لداتى و لم أشب فمناها لحي مبيضه و قرون

و ناصيت رأس الأربعين و أقبلت قساوه جنى الشباب تلين

أما هو نفسه فيعد ابن كناسه شاعراً محسناً، و أن له شعراً سائراً مثل قوله:

فى انقباض و حشمه فإذا رأيت أهل الوفاء و الكرم

أرسلت نفسى على سجيتها و قلت ما قلت غير محتشم

(٣) على أنه أحياناً يترك المقاييس النقدية جانباً و يحب الشعر لأنه يوافق شجنا فى نفسه، لا لأنه كذلك فى حقيقه النقد، و لعل صراحته فى ذلك هى التى تؤكد الايمان بسلامه ذوقه، فمما أحبه و ليس فى حقيقه النقد مستحقاً للاعجاب قول ابن كناسه فى نكبه أبى أيوب المورىانى:

لا ترى زاجرا لهم القلوب كالرضى بالموكل المكتوب

فاتق الله و ارض بالقصد حظاً لا تسيلن فى سبيل الذنوب

لا يغرنك الذى غر قوما شربوا من حتوفهم بذنوب

طلعت شمسهم عليهم نهارة و أتهم نحوسهم بغروب

قد رأيت الذى أدالت و نالت وقعه الدهر من أبى أيوب

(٤) و من الكلام " الذى يستحق قضيه الحسن عنده " قول الشاعر:

يا سلم لا أقرى التعذر نازلى و الدم ينزل ساحه المتعذر

و لقد علمت إذا الرياح تناوحت أطناب بيتك فى الزمان الأغبر

أنى لأبسط للضيوف تحيتى و أشب ضوء النار للمتور

و تنال بالمال القليل براعتى قحما تضيق بها ذراع المكثر

(٥) و لو شئنا أن نبحت عن الأسباب التى استحق بها هذا الشعر " قضيه الحسن " لوجدناها تبدأ بهذا السبك البدوى الذى يرنو إلى نماذج مالوفه فى الشعر الجاهلى، ثم يتجلى الحسن فى القيم التى يعبر عنها الشعر، لا فى الشعر نفسه، و هذه قيمه أخلاقيه جعلت الناقد لا يستطيع الفصل بين ما هو جميل فى ذاته و ما هو جميل لأنه يوافق " هوى أو شجنا أو " قيمه " ترتاح إليها نفسه. و إنما أحكم هذا الحكم لأن أبيات هذا الشاعر لا تخرج فى مضمونها عن قول الوزير المغربى نفسه:

فلهامتى بالأريحيه سكره تهتز بى فى ثروه و تصعلك

و لعل الوزير كان يرتاح إلى ما يشابه فلسفته فى الحياه، و كانت خلاصه فلسفته قوله:

و لقد بلوت الدهر أعجم صرفه فأطاع لى عصيانه و ليانه

و وجدت عقل المرء قيمه نفسه و بجده جدواه أو حرمانه

فإذا جفاه المجد عيبت نفسه و إذا جفاه الجد عيب زمانه

إننا لا نملك شواهد كثيره على الممارسات النقدية لدى الوزير المغربى، و لكنى أعتقد أنها لو وجدت للاح ناقد يتردد بين ثلاثه مقاييس متفاوتة:

الجمال فى العبارة، و القيمه الأخلاقيه، و الغرابه (أو عدم الذبوع). و حين روى لإمرئ القيس قوله: " اسقيا حجرا على علاته " علق على ذلك بقوله " و إنى لأستقبح أن يقول قائل لأبيه " على علاته " و أظن ذلك هو الذى غاظ حجرا، فلما سمعه أمر الساقى بلطم وجهه و إخراجة... " (٦) إن البحث عن عيون الشعر و النشر قد عود الوزير المغربى أن يكون ناقد البيت الجميل، أو ناقد العبارة الجميله، و لكنه لم يحاول أبدا أن يصر مدى الجمال فى القصيده أو فى الرساله.

٣ - إعجاز القرآن:

قد تقدم القول إن من أهداف تليفه كتاب أدب الخواص الدلاله على معجز القرآن لأن التبحر فى ألفاظ العرب و معرفه معادنها

و أغراضهم فيها يوصل المرء إلى أن يعرف معجز القرآن معرفه حسيه ذاتيه. و هذا فى رأى الوزير المغربى هو المنهج الصحيح للتوصل إلى إدراك الاعجاز لأنه يتم عن طريق القياس و الاستدلال لا عن طريق التقليد لمن يقول ذلك من الفصحاء السابقين. أما الاقتصار على القول بالصرفه - كما يعتقد قليل من الناس يذهبون مذهب المعتزله. فإنه لا يفسر حقيقه الاعجاز، و إن كان مقبولا.

و ينضم الوزير المغربى إلى الفريق الذى يرى أن الاعجاز فى نوعيه النظم، و أن ذلك مؤيد بالصرفه. و قد كان يدور فى ذهن الوزير أن يجرّد كتابا مفردا لقضيه الاعجاز و لكن يبدو أنه لم يحقق ذلك (٧) و كانت قضيه الاعجاز لديه تمثل مدخلا لامتحان مدى الاطلاع و المعرفه، و لذلك نراه يقول لبعضهم على سبيل المعايه، "صف لنا كيف وقع التحدى بهذا المعجز لىتم بوقوعه الاعجاز، و أخبرنا عن صفه التحدى، هل كانت العرب تعرفه أم لا، أم

ص: ٧١

- ١- أدب الخواص: ٦١.
- ٢- أدب الخواص: ٨٤.
- ٣- أدب الخواص: ٧٣.
- ٤- أدب الخواص: ٧٤.
- ٥- أدب الخواص: ٧٩.
- ٦- بغيه الطلب ٣: ٢٩٣.
- ٧- أدب الخواص: ٨٣.

كان شيئاً لم تجر عاداتها به فكان إقصارها عنه، بل لأنه التماس ما لم تجر المعامله بينهم بمثله. ثم يسأل عن التحدى (١): هل لقي بمعارضه بان تقصيرها عنه أو لم تكن بمعارضه، ولكن القوم عدلوا إلى السيف كما عدل المسلمون مع تسليمهم و لم يعارضوه (٢) و لا يمكن أن يلقي مثل هذه الأسئلة إلا و هو يعرف أجوبه دقيقه مقنعه لها، و لعل في ما كتبه في تفسير القرآن ما يجلى هذه النواحي.

٤ - تفسير القرآن:

كان للوزير المغربي إملاءات عده في تفسير القرآن العظيم و تأويله (٣) و ربما جمعت في كتاب مفرد، لقول ابن العديم: " و له كتاب في تفسير القرآن أحسن فيه على اختصاره" (٤)، و قيل إن اسمه "المصباح في تفسير القرآن" (٥) و قيل "خصائص علم القرآن" (٦)، و لعلهما أن يكونا كتابين لا- كتابا واحدا. و لم يصلنا شيء في تفسير القرآن للوزير، و لكننا نستطيع أن نتصور مذهبه فيه من حواراه مع مطران نصيين. فعند ما ذكر المطران له أن المسلمين يقولون إن الله يدين خلق بهما آدم، قال الوزير إن يدى الله تعالى هما نعمته و قدرته، و هذا التأويل شبيه بتأويل أهل الاعتزال. و فى موقف آخر قال الوزير: "العله فى قول المسلمين إن الله عينين و يدين و وجها و ساقين يكشفهما و أنه ياتى فى ظلل من الغمام هى أن القرآن نطق بذلك، و المراد فيه غير ظاهر اللفظ، فكل من يحمل ذلك على ظاهره و يعتقد أن الله عينين و يدين و وجها... إلخ، و أن ذاته تنتقل من مكان إلى مكان و غير ذلك مما يقتضى التجسيم و التشبيه فهم يلعنونه و يكفرونه..." (٧)، فمذهبه واضح فى رفض كل ما يوحى بالتجسيم و التشبيه.

و نقل عنه فى تفسير قوله تعالى: (إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا) إن المعنى: إذا عزمتم على الصلاة و همتم، و استشهد على ذلك بيتى شعر، فالقيام هنا قيام عزم لا قيام جسم (٨).

و أكبر الظن أنه توقف فى تفسيره فى مواضع مختلفه لتوجيه بعض الآيات مثل "و غرابيب سود" و السود هى الغرابيب، فما الغايه من ذكرها؟ و لو قال القائل إن ذلك تأكيد خرج عن المؤلف من مذهب العرب، لأن العرب تقول: أسود غريب، فتقدم ذكر السواد. كذلك ما الحكمه فى قولهم:

"من فوقهم" فى وصف السقف و السقف لا يكون إلا فوق فى قوله تعالى:

(فخر عليهم السقف من فوقهم) و مثل قوله تعالى (إلهين اثنين) و العدد فى إلهين واضح. و ما التناسب بين الأخذ الشديد و الرحمه فى مثل قوله تعالى (أو يأخذهم على تخوف فان ربكم لرءوف رحيم) (٩). و نحن لا نعرف ما موقف المغربى من هذه القضايا و أشباهها و لا- ما هى تفسيراته، و لكننا نعتقد أنه أولى هذا الجانب عنايه خاصه فى تفسيره. و مجمل رأيه فى بلاغه القرآن وضعه على النحو التالى: "رجحان بلاغه القرآن إنما هو بلوغ المعنى الجلى المستوعب إلى النفس باللفظ الوجيز، و إنما يكون الإسهاب البليغ فى كلام البشر الذين لا يتناولون تلك الرتبه العاليه من البلاغه" (١٠) و لو مضينا مع هذا الرأى إلى نهايته لاستنتجنا أن الوزير المغربى ينكر وجود الإسهاب فى القرآن.

٥ - الطب:

فى سىياسه المرء (السائس) لبدنه آراء كثيره حصلها المغربى من ثقافته الطبيه و من تجربته الذاتيه و من نصائح طبيبه "صاعد بن بشر البغدادى" له.

و تتركز هذه الثقافه و التجربه حول الطعام و الشراب، فالاستمراء أساس فى الفائده المرجوه من الطعام. و على هذا لا بد أن يكون الغذاء لونا أو لونين متجانسين، لأن عدم التجانس يؤدى إلى ضعف الاستمراء، و مع ذلك كله يجب عليه أن يحذر الكظه. و هذا هو رأى صاعد الذى يقول "استعمل الرياضه اللائقه بك و لا تكظ المعده، و قد أمنت الأمراض كلها".

أما الشراب فيجب على السلطان أن لا يبلغ فيه حد السكر، بل يشرب فى أول المجلس الكميه التى يتحملها، ثم يتعلل بما يملأ وقت المنادمه و المؤانسه. و يجب ألا يشرب باستمرار، بل يخصص لشربه يوما معيناً. و من الغريب أن المغربى يوصى الملك أو السائس بالسهر، و التعويض عن ذلك بنوم النهار. و يرى أن الحمام أزم للملك منه للرعيه، لأن الرعيه تنفى الفضول عنها بالحركه، و الملك قليل الحركه فكان فى الحمام تعويضا عن ذلك. و عليه أن يدخل البيت الثالث من الحمام بقدر احتماله، ثم يصب على نفسه ماء فاترا، ليجفف المسام، و لا يجوز تناول الأكل و الشرب مباشره بعد الحمام، و إنما يستحسن النوم بعده.

فإذا راعى الوصايا المتعلقة بالطعام و الشراب و الاستحمام كان تويح ذلك اهتمامه بالرياضه، و أصلح أنواعها للملوك اللعب بالصولجان(١١).

و هو يعرف من ثقافته الطبيه رأى جالينوس فى أن قوى النفس تابعه لمزاج البدن، إلا أنه وجد أن مزاج البدن تابع لقوى النفس أحيانا(١٢).

٦ - السياسه:

أراد الوزير المغربى فى رسمه حدود السياسه أن يستمد قواعدها من الحياه الواقعيه، فهو لا يفرض حكما أخلاقيا إلا إذا كان ذلك ممكنا. و أوضح مثل على ذلك تقديره الشرب للملك، فلو أنه نظر إلى الأمر من زاويته المثاليه، لنصح الملك بان لا يشرب، و لكنه كان يعاشر ملوكا يشربون، فهو يضع لهم القواعد التى تضبط سيطره الشراب عليهم. و كذلك هو موقفه من اللذات فهى فى رأيه يمكن أن تسرق من زمان الشغل، و لكن اللذه الحقيقيه للسائس هى: رتبه العز و نفاذ الأمور أو رضى سلطان إن كان فوقه سلطان، فاللذات التى يتصورها فى السياسه، ربما عدت معنويه و لكنها فى الوقت نفسه حصيله التصرف العملى الحصيف.

و فيما عدا ذلك لا يخرج المغربى فى آرائه السياسيه عن مستوى غيره ممن كتبوا فى هذا الموضوع، فهو يوصى بان تكون الطاعه للملك قائمه على المحبه

ص: ٧٢

١- الرساله الأولى من رسائله فى هذا المجموع.

٢- طبقات الداودى ١:١٥٣ و لسان الميزان ٢:٣٠١ "فى تفسير القرآن و الاحتجاج فى التنزيل".

- ٣- بغيه الطلب ١٦:٥.
- ٤- أعيان الشيعة ١٨:٢٧.
- ٥- هدايه العارفين ٣٠٧:١.
- ٦- مجالس إيليا: ٤٢.
- ٧- مجالس إيليا ١١٨-١٢٢.
- ٨- أعيان الشيعة ١٨:٢٧ (نقلا عن القطب الراوندى فى فقه القرآن).
- ٩- الرساله الأولى فى هذا المجموع.
- ١٠- المصدر نفسه.
- ١١- انظر الرساله رقم: ١٦.
- ١٢- أدب الخواص: ٦٩.

لا على الرهبة، ثم يقول إن رأس السياسة إنجاز الوعد و الوعيد، و لو طبقنا القاعده الثانيه إلى نهايتها لتعارضت مع السابقه، فان تطبيق الوعيد - حتى فى حدود العدل - لا يخلق طاعه محبه، و إنما يبعث الرهبه. فاما الفضائل من علم و عفه و حلم و سخاء و شجاعه فهى القواعد الخلقية المألوفه، و لكن اتصال كل منها بالسائس قد يحدد معناها تحديدا ذا خصوصيه متميزه. فكلنا يعرف أن السخاء هو بذل المال و الجاه، و لكن السخاء لدى السائس فى نظر الوزير المغربى هو "أن لا يمتل حقا و لا يخيب آملا، و لا يؤيس قاصدا".

و من اللافت للنظر أن يفرد ابن المغربى السخاء لابن السبيل خاصه، فهذه لفته مستوحاه من التنقل و الضرب فى الأرض. كذلك هو مفهوم الشجاعه لديه فإنه يحمل معنى خاصا غير المعنى الذى يعرفه الناس من الشجاعه، و ذلك أن الشجاعه فى السائس هى "أن يشعر قلبه أن لا يجوز أن يكون الجبان ضابطا لأمره و لا حارسا لرعيته... و أن يجعل و كده كله جمع الرجال و الأسلحه و الخيل و العدد" - و هذه كلها آله الشجاعه و ليست الشجاعه نفسها.

إن قسمه السياسة إلى ثلاثه فروع: سياسه السلطان لنفسه، و سياسه الخاصه، و سياسه العامه، لهى قسمه من باب التسهيل و الإيجاز معا، و إلا- فان الحديث فى السياسه متسع، و الفروع تزيد كثيرا على ثلاثه، فمن ذلك مثلا- سياسه الخاصه للعامه، و سياسه السلطان للثنتين، من غير فصل بينهما حين تشترك المصالح و تتحد. كما أن توصل السلطان إلى تألف الخاصه بالإحسان إليهم و بسط آمالهم بالعفو، و عدم الاستقصاء عليهم، و تأمينهم إسرعه إلى قبول كثير من ثقل الأصحاب، أمور تصلح لهم و لغيرهم.

و قد وضع أن الخاصه فى مفهوم الوزير المغربى هم أصحاب الوظائف فى الدوله كالكاتب و الحاجب و الجابى و قائد الجيش و صاحب الشرطه و الحاكم و المحتسب و السفير، و هذه مؤسسات الدوله، و لا بد أن يبحث فى كل مؤسسه، فاما الاكتفاء بالقول إن الحاجب يجب أن يكون طلق الوجه، و صاحب الشرطه يجب أن يكون مهيب المنظر عبوسا لهُو تبسيط شديد لما من حقه أن يبحث بالتفصيل. و لا- يزال المغربى يرى أننا إذا جعلنا السلطان جانبا فالناس فئتان، موظفون و غير موظفين (أو خاصه و عامه) و لكن ما ذا يحدث حين يتبادل هؤلاء أدوارهم فينتقل الخاصى ليعود من العامه، و ينتقل العامى ليصبح من فئه الخاصه؟ و العامه أقسام أيضا بحسب مهنتهم و أهميتها فى العمران، كما أنهم قسمان كبيران بالنسبه للسلطان، فمنهم من يسمح لهم بالسعى إلى بابه، و منهم من لا يستحب لهم ذلك لأن فيه فسادا قد شرحه أردشير فى عهده.

و من هنا يتبين تاثر الوزير المغربى ببعض آراء السياسه الفارسيه، و هو بشىء من الالتفات حول الموضوع يلمح إلى التثبيت الطبقي و عدم تمكين الفرد من الانتقال من طبقه إلى أخرى، و ذلك هو الأمر الذى جعله أبو الحسن العامرى السمه الفارقه للمفهوم الفارسى بالمقارنه بالنظام الإسلامى الذى ينكر هذه الحتميه الجائره و لا يعترف بها.

و على مقتضى تفكير المغربى يستطيع السلطان أن يصنع خاصه جديده بعد خاصه الموظفين، من ذوى الأخطار و العلماء، أما كيف تكون العلاقات بين الخاصه الجديده و الأخرى التقليديه فلم يعره الوزير اهتماما.

و قد خلط الوزير المغربى عند الحديث عن سياسه العامه بين أمور لا تدخل فى هذا الموضوع، فبدلا من أن يتحدث عن الرشا فى باب فساد الخاصه، تحدث عنها و هو يعالج سياسه العامه. و بدلا من أن يفرد للسياسه الخارجيه و للعلاقات بالدول و الممالك الأخرى بابا مستقلا تحدث عن هذه الناحيه تحت عنوان سياسه العامه. و كذلك فعل فى حديثه عن ضبط المدن و

الطرق و المياه و السيطرة على الأجانب الداخلين إلى مملكته، و ضبط الأخبار عما يجرى فى الداخل و ما يجرى فى الخارج. و بذلك يبين مدى الضيق فى القسمه الثلاثيه التى اعتمدها المغربى.

ما تبقى من شعره

قال:

قال الطبيب و قد تأمل علتى هذا الفتى أودت به الصفراء
ف عجبت منه و قد أصاب و ما درى لفظا و معنى و المراد خطأ

(١) و قال:

إذا ما الأمور اضطربن اعلى سفيه تضام العلا باعتلائه
كذا الماء إن حركته يد (٢) طفا عكر راسب فى إنائه

و قال فى الحاكم:

(أنت) أعطيتنى كتابا إلى رضوان حتى أجزت خير الجزاء
و سقتنى يداك من علل الكوثر كأسا شفت غليل ظمائى

أتمنى لو راسلتك الأعادى ببلغ يوفى على البلغاء

لترى موقفى هناك، و سهل دون شاوى و واصل بن عطاء

و قال:

الليل ميدان الهوى و الكأس مجموع الإرب

يا رب ليل قد قصرنا طوله فيما نحب

لما هززناه تلاقى طرفاه بالطرب

يلعب فى الخسران و الطاعه ساعات اللعب

تحكى ثرياه لمن يرنو إليها من كئيب

خريطه من أبيض الديباج ما فيها عذب

و الدبران خلفها كفتح پرگار ذهب

و هقعه الجو كفسطاط عمود منتصب

و منكب كوجه مبثور للحظ المرتقب

و هنعه كأنها قوس لنداف عطب

(٣) ثم الذراع شمعته تشعل رأسا و ذنب

و زبره كأنها رخان في خشت ذرب

و نثره كوسط مقلاع كبير منتخب

و الطرف طرف أسد في عينه كحل الغضب

و جبهه باديه كمنبر لمختطب

و صرفه تخالها في الجو مسمارا ضرب

و تحسب العواء في آفاقها لا ما كتب

ص: ٧٣

١- معجم: قولا و ظاهر ما أراد خطاء، الأفضليات: لفظا و معنى ما أراد.

٢- التتمه: كذاك إذا الماء حركته.

٣- العطب: القطن.

ثم السماك مفردا كغره الطرف الأقب

(١) كأنه و الغفر ميزان إمام يحتسب

يدنو إليه عرشه يريك تابوتا نصب

ثم الزباني عاشقان ذا إلى هذاك صب

تكالما من بعد و حاذرا من مرتقب

و نظم الإكليل و القلب جوار تقترب

كمشعلين رفعا مختلفين فى النصب

و شوله تخبر عن قرب الصباح بالعجب

كجانب من عقد أرجوحه جبل مضطرب

و بعدها نعائم مختلفات فى الطلب

فهذه صادره و هذه تبغى القرب

كمضجعى غانيتين يلعبان فى الترب

فغادرا من بدد الحلى كجمر ملتهب

و بلده مثل شنان فارغ لما يجب

كأنها صدر سلا من بعد ما كان أحب

و جاء سعد ذابح و بلع على العقب

كان ذا قوس و ذا سهم عن القوس ذهب

و ذو السعود ثابت عن ذابح إذا غرب

و بعد ذو أخيه خنس قصيرات الطنب

كجؤجؤ البطه مع منقارها إذا انتصب

و أسفر الفرغان عن أربعه من الشهب

كأنها أركان قصر عزهن قد خرب

و الحوت يطفو فإذا ما طفح الفجر رسب

و الشرطان الصولجان عند لعاب درب

ثم البطين بعده مثل أثافي اللهب

كأنما الحادى له فى صحه التقدير أب

تجزعها مجره من قطب إلى قطب

كأنها جسر على دجله مبيض الخشب

أعطيت ريعان الصبا من المجون ما أحب

ثم رجعت سائلا لذى المعالى و الحجب

لمن يجيب من دعا فضلا و يعطى من طلب

إذا استنيل لم يهب من الكثير ما يهب

سأله مغفره لما اجتنت في الحقب

و كنت جهدى شر عبد فليكن لى خير رب

و قال:

رأت الغزاله فى السماء غزاله فى الأرض يبهر حسنها الألبابا

فاستحسنتها فى النقاب و قد بدت وقتا فصيرت الكسوف نقابا

و قال:

و طنبور مليح الشكل يحكى بنغمته الفصيحه عندليا

روى لما ذوى نغما فصاحا حواها فى تقلبه قضيبا

كذا من عاشر العلماء طفلا يكون إذا نشأ شيخا أدبيا

و قال:

تمنع أن رأى زغبا بعارضه قد التهبها

و تاه على أن أبدت عقارب صدغه ذنبا

و قدر أنه سبب يقطع بيننا النسبا

و لا و الله لا آلو لحق عنده طلبا

و لا خلّيت في كفيه قلبا طال ما انتهبها

أما عيناه اللتان أباحتا الربيا

و قال في نهر قويق، قال ابن العديم: قرأتها في ديوان شعره:

أما قويق فلا عدته مزنه من خدرها برز الغمام الصيب

نهر لأبناء الصبابه معشوق فيه و للصادى الملوّح مشرب

لا زال يدرم تحت و سق مكلل عمم يقدح منكبيه و ينكب

مما تمناه الربيع لريه أيام ظمء رياضه لا تقرب

فرد الرباب يقول شائم برقه من أين رفع ذا الغريق المهذب

و الغيث في كلل السحاب كأنه ملك بقاصيه الرواق محجب

صخب الرعود و إنما هي ألسن فأمرهن اللوذعى المسهب

راعى الضحى في حين غره أمنه فسناه مخطوف الاضاءه أكهب

جدلان إن هتك اللثام بدا له خد بجادى البوارق مذهب

و الأرض حاسره تود لو آنها مما يحبره الربيع تجلب

و قال:

و لما احتوى بدر الدجى صحن خده تحير حتى ما درى أين يذهب

تبلبل لما أن توسط خده و ما زال من بدر الدجى يتعجب

كان انعطاف الصدغ لام أمالها أديب يجيد الخط أيان يكتب

و قال:

دنف بحمص و بالعراق طيبه يضنيه عنه بعاده و يذيه

(٢) ما ناله إلا الذى هو أهله إذ غاب عن بلد و فيه حبيه

لزم السهاد تحيرا و تلددا و تأسفا إذ أوبقته ذنوبه

زعم الفراق دعا به فأجابه و نعم دعاه فلم أراد يجيبه

(٣) و قال:

الدهر سهل و صعب و العيش مر و عذب

فاكسب بمالك حمدا فليس كالحمد كسب

و ما يدوم سرور فاختم و طينك رطب

(٤) و قال:

ساعرض كل منزله تعرض دونها العطب

فان أسلم رجعت و قد ظفرت و أنجح الطلب

و إن أعطب فلا عجب لكل منيه سبب

و قال:

و لما دعوت الكأس تونس وحشتى لبعذك زادتنى اشتياقا إلى القرب).

ص: ٧٤

٢- الشريشي: دنف بمصر... طول بعاده.

٣- الشريشي: فلا أراه.

٤- ابن عساكر: و طبيك، ياقوت و ابن عساكر: فاغنم و قلبك (ابن عساكر: و طبيك).

و مالت باعطافى لها أريحيه فقربك أحلى من جناها إلى القلب
فأنت مزاج العيش إن كان صافيا و أنت المعير الصفو فى كدر الشرب
و قال:

يا من غدا جبل الجودى يحجبه ليس التذكر عن قلبى بمحجوب
علمتنى الحزم لكن بعد موجه إن المصائب أثمان التجارب
و قال يتشوق إلى حلب:

يا صاحبى إذا أعياكما سقى فلقيانى نسيم الريح من حلب
من الديار التى كان الصبا وطرى فيها و كان الهوى العذرى من أربى
و قال فى حسان بن المفرج بن دغفل بن الجراح:

أما و قد خيمت وسط الغاب فليقسون على الزمان عتابى
يترنم الفولاذ دون مخيمى و تزعزع الخرصان دون قبابى
و إذا بنيت على الثنيه خيمه شدت إلى كسر القنا أطنابى
و تقوم دونى فتية من طيئ لم تلتبس أثوابهم بالعباب
يتناثرون على الصريح كأنهم يدعون نحو غنائم و نهاب
من كل أهرت يرتضى حملاقه بالجمر يوم تسايف و ضراب
يهديهم حسان يحمل بزه جرداء تعليه جناح عقاب
يجرى الحياء على أسره وجهه جرى الفرند بصارم قضاب
كرم يشق على التلاد و عزمه يغتال بادرها الهزبر الضابى
و لقد نظرت إليك يا ابن مفرج فى منظر ملء الزمان عجاب
و الموت ملتف الذوائب بالقنا و الحرب سافره بغير نقاب

فرأيت وجهك مثل سيفك ضاحكا و الذعر يلبس أوجها بتراب
و رأيت بيتك للضيوف ممهدا فسح الظلال مرفع الأبواب
يا طيئ الخيرات بين خلالكم أ من الشريد و همه الطلاب
سمكت خيامكم باسمه الربى مرفوعه للطارق المنتاب
و تدل ضيفكم عليكم أنور شبت باجدال قهرن صعب
متبرجات باليفاع و بعضهم بالجزع يكفر ضوءه بحجاب
كلاؤتكم ممن يعادى هيبه أغنتكم عن رقبه و جناب
فيسير جيشكم بغير طليعه و يبيت حيكم بغير كلاب
تتهيبون و ليس فيكم هائب و توثبون على الردى الوثاب
و لكم إذا اختصم الشيخ لباقه بالطعن فوق لباقه الكتاب
فالرمح ما لم ترسلوه أخطل و السيف ما لم تعملوه ناب
يا معن قد أقررتم عين العلا بى مذ وصلت بحبلكم أسبابى
جاورتكم فملاؤتم عيني الكرى و جوانحى بغرائب الإطراب
من بعد دعر كان أحفز أضلعى حتى لضاق به على إهابى
و وجدت جار أبى الندى متحكما حكم العزيز على الذليل الكابى
فليهنه منن على متنزه لسوى مواهب ذى المعارج أبى
قد كان من حكم الصنائع شامسا فاقتاداه بصنيعه من عاب
فلأنظمن له عقود محامد تبقى جواهرها على الأحقاب
لا جاد غيركم الربيع و لا مرت غزر اللقاح لغيركم بحلاب
أنا ذاكر الرجل المندد ذكره كالطود حلى جیده بشهاب

و لقد رجوت و لليالى دوله أنى أجازيكم بخير ثواب

و قال و قد لسبت العقرب جاريه كان يهواها:

كم تستحم العين فيك بمائها حتى كان بها جنون المذهب

إن كان نالك مؤلم من عقرب فالبدر ممتحن ببرج العقرب

و قال:

كتب المشيب سجل أمن للعيون و للرقيب

فليعرفن به الأحبه حسن عهدك بالمغيب

أفليس أول وصله من يوم هجران الحبيب

يا ويح مسكه عارض خضبت بكافور المشيب

و أحال برد مزاجه نار الصبا بعد اللهب

و قال فى المروحه:

ما فيك من دفع كرب عن هائم القلب صب

فمنك روحه روحى فمن يروح قلبى

و قال فى كسوف الشمس:

قالوا كسوف الشمس مقرب قلت ادخرت لدفع نائبها

ثقتى بكاسفها و كاشفها و بفضل ماحيها و كاسبها

من لو يشاء أعاد مشرقها متبسما لك من مغاربها

هى شعله من نوره فإذا ما شاء أظلم أو أضاء بها

و قال:

حبيب ملكت الصبر بعد فراقه على أننى علقته و ألفتة

محا حسن ياسى شخصه من تذكري (١) فلو أننى لاقيته ما عرفته

و قال:

رغبت فى مله عيسى و ما يخيب من يرغب فى ملته

رغبنى فى دينه شادن رأيته يخطر من بيعته

صنع حكيم ما أرى أنه يسلط النار على حكمته

إن كان ذا من ساكنى ناره فناره أطيب من جنته

و قال فى غلام حلق شعره:

حلقوا شعره ليكسوه قبحا غيره منهم عليه و شحا

كان صباحا عليه ليل بهيم (٢) فمحووا ليله و أبقوه صباحا

و قال:

لو لم أسمعك الوصل إلا لأنه أمين على سر المحب شحيح

يسر قلوب العاشقين فلا ترى عليهم أمارات الفراق تلوح

و لم أر مثل الهجر للسر هاتكا يعلم جفن العين كيف ينوح

و قال فى إلفه أيضا يرثيه، و قد كتب إليه قبل وفاته رقعته يستودعه فيها العهد و أنفذ معها إزارا كان كثير الالتحاف به:

تركت بشط النيل لى سكتنا فردا حبست عليه الدمع أن يظأ الخدا

غزال طواه الموت من بعد هجره أطعنا فلا كنا بها الأسد الورداء.

ص: ٧٥

١- الذخيره و التتمه: من تفكرى.

٢- الروضات و الكناش: كان قبل الحلاق (الجلاء) ليلا و صباحا.

فسقيا لمهجور الفناء كأننى أعد له ذنبا و أطوى له حقدا
أسميه من فرط الصبا به مضجعا و لو طاوعت نفسى لسميته لحددا
و آخر عهدى من حبيبي أنه مضى يحسب الاعراض عن هجره قصدا
و زودنى يوم الحمام صحيفه و ثنى شعار لا جديدا و لا جردا
أداوى به تخفاق قلبى كأننى أضم إليه صاحب البرد لا البردا
و قد كنت بالتقيل أمحو رقاعه فصرت بماء الدمع أغسلها وجدا
عدمت فؤادى كم أرجى انصداعه و يبقى على غدر الزمان صفا جلدا
بكيت دفينا ليته كان باكيا على فقاسى دونى الشكل و الفقدا
مضى و التقى و النسك حشو ثيابه و رحل عنها الحسن و الظرف و الحمدا
حرام على أيدي الحرام ممنع و إن كان أندى الحب يشعله و قددا
فيا ليت شعرى عنك و الترب بيننا و ذاك و إن قربته نازح جدا
منحت الثرى تلك المحاسن أم ترى غصبت عليها أم سمحت بها عمدا
أبحت الرضاب العذب بعد تمنع و أبرزت ذاك الجيد و الفاحم الجعدا
طوت بعدك الدنيا رداء جمالها فلا روضها يجلى و لا تربها يندى
و قال:

حبيب سرى يستقبل الليل وحده و يسبق آرام الصريم و أسده
فلا الأنس من أمثاله الأدم عاقه و لا الذعر من أعدائه الغلب صده
يخوض إلى الليل ما بل عطفه و يفرج غيل الدوح ما حل عقده
و قد طلعت فى الرأس منى رايه ثكلت بها هزل النعيم وجده
كلوح مشيب لو يكون تبسما كما زعموا ما إن بكى القلب عنده

و ما زهرات الشيب فيه ظوالم كذا العشب ياتى يانع الزهر بعده
أخذت من الدهر التجاريب جمله و قبل أشدى ما بلغت أشده
و قال يرثى الشريف الرضى من قصيده أولها

" رزء أغار به النعى و أنجدا "

أذكرتنا يا ابن النبى محمديوما طوى عنا أباك محمدا
و لقد عرفت الدهر قبلك ساليا إلا عليك فما أطاق تجلدا
ما زلت نصل الدهر تأكل غمدهحتى رأيتك فى حشاه مغمدا
و قال فى المشوره:

لا تشاور من ليس يصفيك ودا إنه غير سالك بك قصدا
و استشر فى الأمور كل لبيب ليس يألوك فى النصيحة جهدا
و قال فى غلام تركى وسيم:

غزال لم ألبس قبله التبريح و الكمدا
أظن عراه جانيه لعشقى مولدا رصدا
و قال:

أطعت العلى فى هجر ليلى و إننى لأضمم فيها مثل ما يضمم الزند
صريمه عزم لم يكن من رجالها سوى من العشاق قبل و لا بعد
رأيت فراق النفس أهون ضيره على من الفعل الذى يكره المجد
و قال(١):

مرض بقلبك لا يعاد و قتيل حب ما يقاد
يا آخر العشاق ما أبصرت أولها يقاد

يقضى المتيّم منهم نجبا و لو ردوا لعادوا
ملكوا النفوس فهل لها من بعدها ما يستعاد
ما خلت غزلان اللوى كظباء مكه لا تصاد
بالعدل يوقد لوعتى و بقدحه يورى الزناد
لم يستطع إطفاءها دمع كما انخرق المزاد
لا أشكون جرحى فللعذال ألسنه حداد
طمع و أنت برامه فى من تضمنه النجاد
و الحى قد هبطت خيامهم و قعقت العماد
و الورد من زهر الخدود كمامه الكلل الورد
لو يسمعون بوقعه أتت المطايا و الجياد
و لأجلها غبط الغبيط حجاب قلبى و السواد
تعفو المنازل إن ناوا عنها و تغبر البلاد
و الحى أولى بالبلى شوقا إذا بلى الجماد
أو ما رأّت قلبى قريش و هو للجلى عماد
و له المعانى (و المبانى) و الكلام المستفاد
فكأنه قس و هاشم حول منطقه إباد
يا مصعبا جرته فى أرسائها اللمم الجواد
و لمن رضاب النحل يشهد أن ريقته شهاد
قد كان قبلك فى سبيل الحب لى أبدا جهاد
حتى عفا ذاك الغرام و غايه النار الرماد

فإذا رأيت الكون فاعلم أن سيتبعه فساد

و أعجب لقوم فى الزمان على السفاهه كيف سادوا

لا عندهم كلم يعز و لا نضار يستفاد

أستغفر الله العلى لقد تذأبت النقاد

و قال و قد لجا إلى مشهد الحسين بن على (ع):

تحصنت من كيد العدو و آله بمجنبه من حب آل محمد

و دون يد الجبار من أن تنالنى جواشن أمن صنتها بالتهجد

ألح على مولى كريم كأنما بياكر منى بالغریم الیلند

(٢) أ یسلمنى من بعد من أنا جاره و قد علقت إحدى حباله یدی

و قال:

لو خطر ف الشیب عقدا كنت أعذره لكنما سهوه بالضعف فى العدد

أعطى الثلاثین فى ریعان شرتها ما لابن ستین من شیب و من كمد

و قال:

ما للمطیع هواه من الملام ملاذ

فاختر لنفسك إما عرض و إما التذاذ

و قال مفتخرا:

فیا أمتا(٣) إن غالنى غائل الردى فلا تجزعى بل أحسنى بعدى الصبرا

فما مت حتى شید المجد و العلا فعالى و استوفت مناقبى الفخراا.

ص: ٧٦

٢- اليلندد: الشديد اللمومه.

٣- الوافى: أيا أمتا.

و حتى شفيت النفس من كل حاسد و أبقيت في أعقاب أولادك الذكر

و قال:

تأمل من أهواه صفره خاتمي فقال بلطف: لم تجنبت أحمره

(١) فقلت لعمرى كان أحمر لونه و لكن سقامى حل فيه فغيره

(٢) و قال:

خاف المشيب تعبى فجاره طل الهموم و عز ذاك مجيرا

فمضى الشباب مظلما متعسفا و أتى المشيب مجاملا معذورا

و قال:

يا رب ظبى قد طرقت وساده فى الليل سرا

ففششت قفلا من عقيق أحمر و سرقت درا

و قال لما تغيرت عليه الوزاره و تغرب، و كان معه غلام اسمه داهر:

كفى حزنا أنى مقيم ببلده يعللنى بعد الأحبه داهر

يحدثنى مما يجمع عقله أحاديث منها مستقيم و جائر

و قال:

من بعد ملكى رمتم أن تغدروا ما بعد فرقه بائعين تخير

(٣) ردوا الفؤاد كما عهدتم للحشا و لطرفى الساهى الكرى ثم اهجروا

(٤)

و زعمتم أن الليالى غيرت عهد الهوى لا كان من يتغير

و قال:

قمر ببغداد وقفت له فرجعت عنه و مذهبي الجبر

قالوا ضللت فقلت ويحكم أ يضل سار قاده البدر

و قال:

و غردت فى الأيكة قمرية نواحه أقلقها الفجر

تقول ستي أنت قومي ارقدى من لى بان يمثّل الأمر

كأنها قد حذرت فهى لا تأمن (من) أن يرجع الحذر

و قال:(٥)

أقول لها و العيس تحدج للسرى أعدى لفقدى ما استطعت من الصبر

سانفق ريعان الشيبه أنفا على طلب العلياء أو طلب الأجر

أليس من الخسران(٦) أن لياليا تمر بلا نفع و تحسب من عمرى

و قال يصف الشمعه:

و صفر كاطراف العوالى قدودها قيام على أعلى كراس من التبر

تلبسن من شمس الأصيل غلائلا و أشرقن فى الظلماء فى الخلع الصفر

عرائس يجلوها الدجى لمماتها و تحيا إذا أذرت دموعا من الجمر

إذا ضربت أعناقها فى رضى الدجى أعارته من أنوارها خلع الفجر

و تبكى على أجسامها بجسومها فادمعها أجسامها أبدا تجرى

عليها ضياء عامل فى حياتها كما تعمل الأيام فى قصر العمر

و اعتل إلفه بعد هجره بينهما و مات فقال يرثيه:

لقد بؤت من دين المروءه بالكفر و أصبحت أغشى صفحة الغدر بالغدر

عصيت الهوى العذرى فى هجر شادن أضعت بهجرانى له فرصه الدهر

نمى فى حجور الملك ثم ملكته بظل شباب حازه لى و ما أدرى

فقد فتكى في هواه إنا به إلى الله خلت دمه و اكفا يجرى
يهون عليه أن تساعفه المنى و أرجم يوم البعث في لهب الجمر
و ما زال هجرانيه حتى تركته حديثا برغمى مودعا أضلع القبر
لقد كاد ذاك القبر يوم أزوره يعلق ثوبى شاكيا ألم الهجر
بنفسى من خوفى من الإثم قادنى إلى الإثم فاستوفيت من قتله وزرى
مضى و التقى و الحسن حشو ثيابه و أورثنى منه الأسى آخر العمر
و قال فى طول الليل:

عهدى به و رداء الوصل يجمعنا و الليل أطوله كاللمح بالبصر

(٧)

فالآن ليلي مذ غابوا فديتهم ليل الضرير و صبحى غير منتظر

و قال:

أستار بيتك أمن الخوف منك و قد علقته مستجيرا منك يا بارى

و ما أظنك لما أن علقته بها خوفا من النار تدنيتني من النار

و ها أنا جار بيت أنت قلت لنا حجوا إليه و قد أوصيت بالجار

و قال:

إذا ما الفتى ضاقت عليه بلاده و أيقن أن الأرض واسعة القطر

و دام على ضيق المعيشه صابرا على الذل و الحال الدنيه و الفقر

و لم يجترم للنفس عزا يصونها فلا فرق بين العبد و الرجل الحر

و قال:

الله يعلم ما إثم هممت به إلا و بغضه (٨) خوفى من النار

- ١- البغيه و ابن عساكر: فقال حبيبي.
- ٢- البغيه و ابن عساكر: فقلت له من أحمر كان لونه. البغيه: و لكن غرامى.
- ٣- ياقوت و ابن عساكر: فرقه ما ملكت. و الإشاره إلى الحديث: البيعان بالخيار ما لم يتفرقا.
- ٤- البغيه و المرآه: ردوا الهدو (الفؤاد) كما عهدت إلى الحشا، و المقلتين إلى الكرى، ابن عساكر: و المقلتين إلى الكرى.
- ٥- روايه الذخيره: و محجوبه فى الخدر عن كل ناظرو لو برزت بالليل ما ضل من يسرى أقول لها..... سانفق ريعان.... أ ليس من الخسران.... و أنا لفى الدنيا كواكب لجه نظن قعودا و الزمان بنا يجرى.
- ٦- الشريشى: الحرمان.
- ٧- قال ابن العديم: قرأت فى بعض الفوائد أن الوزير أبا القاسم الحسين بن على بن المغربى أرق ذات ليله أرقا شديدا فكان لا يزداد إلا قلقا، و لا يزداد الليل إلا طولا، فقال لبعض ندمائه: أى شىء تعرف من الشعر فى طول الليل و السهر و القلق؟ فقال: قول بشار بن برد: جفت عينى عن التغميض حتى كان جفونها عنها قصار أقول و ليلتى تزداد طولاً أما لليل عندكم نهار فقال صدقت و أحسنت ثم قال على البديه: "عهدى به.. إلخ" و ورد البيتان فى ديوان المعانى ١: ٣٤٨ و الذخيره ٣: ٦٩٦ و سرور النفس: ٢٣ (دون نسبه) و فى حلبه الكميت: ٣٠٤ لسيدوك الواسطى و فى لطائف اللطف: ١٢٨ لكشاجم، و انظر من غاب عنه المطرب: ٥٤-٥٥ و رساله الطيف: ١١٢، ١٥٨.
- ٨- الشريشى: إلا و نغصه.
- ٩- الشريشى: همت... غائب.

و قال يتعصب للأنصار على المهاجرين، قال ابن أبي الحديد:

"و قد أوردت هاهنا بعضها، لأنى لم أستجز و لم أستحل إيرادها على وجهها:

نحن الذين بنا استجار فلم يضع فينا، و أصبح فى أعز جوار

بسيوفنا أمست سخينه بركا فى بدرها كنعائر الجزار

و لنحن فى أحد سمحنا دونه بنفوسنا للموت خوف العار

فنجأ بمهجته، فلو لا ذبنا عنه تنشب فى مخالبا ضار

و حميه السعدين بل بحمايه السدين يوم الجحفل الجرار

فى الخندق المشهور إذ ألقى بها بيد، و رام دفاعها بشار

قالا: معاذ الله إن هضمه لم نعطيها فى سالف الأعصار

ما عندنا إلا السيوف، و أقبلا نحو الحتوف بها بدار بدار

و لنا بيوم حنين آثار متى تذكر فهن كرائم الآثار

لما تصدع جمعه فغدا بنا مستصرخا بعقيره و جوار

عطفت عليه كماننا، فتحصنت منا جموع هوازن بفرار

و فده من أبناء قبيله عصبه شروى النقيير و جنه البقار

ما الأمر إلا أمرنا و بسعدنا زفت عروس الملك غير نوار

لكنما حسد النفوس و شحها و تذكر الأذحال و الأوتار

أفضى إلى هرج و مرج فانبرت عشواء خابطه بغير نهار

ثم ارتدى المحروم فضل رداها فغلت مراجل إحنه و نفار

فتاكت تلك الجدى، و تلمظت تلك الظبا، و رقى أجيح النار

تالله لو ألقوا إليه زمامها لمشى بهم سجحا بغير عثار

و لو انها حلت بساحه مجده بادی بدا سكنت بدار قرار

هو كالنبي فضيله، لكن ذا من حظه كاس، و هذا عار

و الفضل ليس بنافع أربابه إلا بمسعده من الأقدار

ثم امتطها عبد شمس فاغتدت هزءوا، و بدل ربحها بخسار

و تنقلت فى عصبه أمويه ليسوا باطهار و لا أبرار

ما بين مافون إلى متزندق و مداهن و مضاعف و حمار

و قال:

كن حاقدا ما دمت لست بقادر فإذا قدرت فخل حقدك و اغفر

و اعذر أخاك إذا أساء فربما لجت إساءته إذا لم تعذر

و قال:

سيان عندي ميت فى قبره يجنى عليه و نائم فى سكره

و قال:

قلبي أسير فى يدي مقله ضيقه ضاق لها صبرى

كأنها فى ضيقها عروه ليس لها زر سوى السحر

و قال:

ما لى أرى قلبى تنازعه و طنای من حلب و من مصر

لا عيش إلا كور ناجيه لا ظل غير ذوائب السمير

و قال فى الشيب:

عجبت هند من تسرع شيبى قلت هذا عقبى فطام السرور

عوضتنى يد الثلاثين من مسك عذارى رشا من الكافور

كان لى فى انتظار شيبى حساب غالطتنى فىه صروف الدهور

و قال فى غلام مجوسى:

صادنى ظبى مجوسى بطرف و احوراره

وجهه قبله بيتى و فؤادى بيت ناره

و قال:

يا رب خصم قد تركت ذمائه و كأنما شقت له أرماسه

من بعد ما قد كان يطفح قوله بددا و ينغص فى المقادم رأسه

بجدال ذى غرب ألد كأنما يذكى بشعله قوله نبراسه

فى موقف كالحرب تهتضم الفتى فيه جبانته و ينفع بأسه

و قال:

يوم الكسوف جلا على بصرى قمرا أحرار الجن و الإنسا

قامت فأرخت من ذوائبها و تجللت من شعرها لبسا

فسألتها لم قد لبست دجى قالت أساعد أختى الشمسا

و قال:

لمثل ذا اليوم يا معذبتى كانت ترجيك أختك الشمس

قومى اخلفيها فى ذا الكسوف ففى وجهك إن أوحشت (لها أنس)

و غالطى حاسب النجوم فان لحت و غابت أصابه لبس

و قال مفتخرا:

قارعت الأيام منى امرأ قد أعلق المجد بامراسه

(1) تستنزل النجده من رأيه و يستدر العز من بأسه

أروع لا ينحط عن تيهه و السيف مسلول على رأسه

(٣) و قال فى غلام ملاح:

و مصعد سفنه قلبى و منحدر بالماء و الريح من دمعى و أنفاسى

إذا انحنى حث قلبى نحوه طربا أو مد مد إليه أعين الناس

وافت ملاحظته فيها ملاحظته فافتن الناس فى قلس و مقلاس

لأشكون إلى سكانه و إلى خنيه إن خان عهدى قلبه القاسى

و قال:

و ما ظييه أدماء تحنو على طلا ترى الإنس وحشا و هى تأنس بالوحش

غدت فارتعت ثم انثت لرضاعه فلم تلق (٤) شيئا من قوائمه الحمش

فظافت بذاك القاع ولهى فصادفت سباع الفلا ينهشنه أيما نهش

بأوجع منى يوم ظلت أنامل تودعنى بالدر من شبك النقش

و أجمالهم تحدى و قد خيل الهوى كان مطاياهم على ناظرى تمشى

و أعجب ما فى الأمر أن عشت بعدهم على أنهم ما خلفوا فى من بطش

(٥)ى.

ص: ٧٨

١- الذخيره: تمرست منى العلا بامرئ، الذخيره و المعاهد: قد علق المجد.

٢- الدميه و المعاهد و الوافى: يستنزل الرزق باقدامه، الذخيره: يستنجد النجده من رأيه، و يستقل الكثر.

٣- الذخيره: لا يرجع، هامش أدب الخواص: عن كبره.

٤- ابن الأثير و بغيه الطلب: تلف.

٥- جاء فى مرآه الزمان بعد هذه الأبيات: أيا وطنى إن فاتنى بك فائتمن الدهر فلينعم لساكنك البال فان أستطع فى الحشر آتتك

زائرا و هيهات لى يوم القيامه أشغال و قد نسبا له سهوا، و هما لأبى العلاء المعرى.

و قال:

خف الله و استدفع سطاها و سخطه و سائله فيما تسأل الله تعطه

فما تقبض الأيام فى نيل حاجه بنان فتى أبدى إلى الله بسطه

و كن بالذى قد خط باللوح راضيا فلا مهرب مما قضاه و خطه

و إن مع الرزق اشتراط التماسه و قد يتعدى إن تعديت شرطه

و لو شاء ألقى فى فم الطير قوته و لكنه أوحى إلى الطير لقطه

إذا ما احتملت العبء فانظر قبيل أن تنوء به ألا تروم محطه

و أفضل أخلاق الفتى العلم و الحجى إذا ما صروف الدهر أخلقن مرطه (١).

فما رفع الدهر امرأ عن محله بغير التقى و العلم إلا و حطه

و قال:

نم عن معاده الرجال فإنها حسك المضاجع

و إذا أذيت فحام عند الضيم مجتهدا و مانع

و قال:

و لقد يميل بناظرى عن مسجد غصن من الرمان أكمل ينعه

متبرج نهدها يكتم حسنه خفرا فطبعهما يخالف طبعه

أبدا يشق صداره بنهوده و لو أننى صيرت درعى درعه

و قال:

أرى الناس فى الدنيا كراع تنكرت مراعيه حتى ليس فيهن مرتع

فماء بلا مرعى و مرعى بغير ما و حيث ترى ماء و مرعى فمسيح

و قال:

و لو سلوت لنفسي عن طلاب غني لما سلوت لأتباعي و أشياعي

من كل سام بعينه يؤملني تأميل ضرار أعداء و نفاع

و لو جنيت لأعوانى سلامتهم حتى يرانى رحبا بالندى باعى

و قال فى بابلا:

حن قلبى إلى معالم بابلا حنين الموله المشغوف

مطلب اللهو و الهوى و كناس الخرد العين و الظباء الهيف

حيث شطا قويق مسرح طرفى و الأسامى مؤانسى و أليفى

ليس من لم يسلم حنيننا إلى الأوطان إن شئت النوى بظريف

ذاك من شيمه الكرام و من عهد الوفاء المحبب الموصوف

و قال(٢):

تبدل من مرقعه و نسك بأنواع الممسك و الشفوف

و عن له غزال ليس يحوى هواه و لا رضاه بلبس صوف

(٣)

فعاد أشد ما كان انتهاكا كذاك الدهر مختلف الصروف

و قال:

كان قلبى إذا عن ادكاركم ظل اللواء عليه الريح تخترق

و قال:

غزال حبه للصبر غرب و لكن وجهه للحسن شرق

رددت و قد تبسم عنه طرفى و قلت له ترى لى فيك رزق

سارجو الوصل لا أنى جدير و لا قدرى لقدرك فيه وفق

و لكن لست أول من تمنى من الدنيا الذى لا يستحق

و قال و قد اجتاز بهيت و زار قبر عبد الله بن المبارك:

مررت بقبر ابن المبارك زائرا فإوسعنى وعظا و ليس بناطق

و قد كنت بالعلم الذى فى جوانحي غنيا و بالشيب الذى فى مفارقي

و لكن أرى الذكري تنبه عبره إذا هى جاءت من رجال الحقائق

و كتب إلى إلف له كانت بينه و بينه محالفه على مذهب التصوف:

يا من لقلب هائم لم يستطع ذكر اسم من يهواه من إشفاقه

و لعاشق غلبت عليه خجله فكأنه المعشوق فى إطراقه

ينهى عن البث المريح لسانه فيموت مطويا على أشواقه

سمع الغناء فرد سيل دموعه من بعد ما ذابت على آماقه

عبث من الأشواق لو هزت به أعطاف غصن سل من أوراقه

كتم الهوى من بعد ما نمت به ريا كنشر الروض من أخلاقه

و لدى الهوى العذرى طيب شمائل ما مثلها يخفى على ذواقه

و أرى اللقاء مع الحياء مقابلا منى و منه مثل بعد فراقه

أو يجمع الشوق المبرح طالبا ما بين مركز دملجيه و ساقه

و قال(٤):

قطعت الأرض فى شهرى ربيع إلى مصر و عدت إلى العراق

فقال لى الحبيب و قد رآنى سبوقا للمضمرة العتاق

ركبت على البراق فقلت كلا و لكنى ركبت على اشتياقي

و قال:

ويح روحى من ذا يدل عليها مهجتي يوم روعت بالفراق

فاطلبوها بحيث كنا افترقنا فلعلى نسيتهما فى العناق

وقال(٥):

الله يعلم أننى ألتذ فيكم باشتياقى

و أكاد من أنس التذكر لا أذم يد الفراق

و أغض طرفى بعد ما ملأته غزلان العراق

و أفر من خجل العتاب إلى مغالطه العناق

وقال:

طيف أ لم ثنى عزيزم النسك و جلا صواب الحب بعد تشكك

أكرم به يجفو و حشو و سائدى و رد و يعطف إذ و سادى موركى

عجبت أنيسه بيتنا إذ أبصرت طغيان جود للثناء مملك

قالت فهبك بمصر كنت مغازلا وجهها من الدنيا أنيق المضحكى.

ص: ٧٩

١- ابن عساكر: أنهجن

٢- قال الشريشى: و كان أبو القاسم قد نسك زمانا و لبس الصوف و ترهب و حج، فعشق غلاما تركيا و هام به، و تقلد الوزاره ببغداد و غيرها، و انتهى فى الجاه إلى الغايه، و تملك الأحرار، و اشترى الغلام التركى فقال: تبدل... الأبيات.

٣- المسبحى: رضاه و لا هواه.

٤- ورد قبل الأبيات الثلاثه فى طبعه التوبجى من الدميه (١:١١٨) بيت هو: ألا حيت يا يوم التلاقيو لا حيت يا يوم الفراق.

٥- ارتجلها عند ما أنشده صاحب البدائع قول شداد بن إبراهيم المعروف بالظاهر: يا منكر شغفى بهو مكذبا طول اشتياقى.

فالآن قد أصبحت جار أباعر حديبا شوائلها خفاف المبرك
قلت اربعى فضمين رزقى واحد فى يوم إقتار و يوم تملك
فلهامتى بالأريحيه سكره تهتز بى فى ثروره و تصعلك
و قال:

أوحى لوجنته العذار فما أبقى على ورعى و لا نسكى
و كان نملا قد دببن بها غمست أكارعهن فى مسك
و قال:

يا أهل مصر قد عاد ناسكم بالكرخ بعد التقى إلى الفتك
جمش قلبى مقرطق غنج بدا لقلبى فيه من النسك
رمى فؤادى بسهم مقلته و كيف يخطى مولد الترك

و من أحسن ما وقع إلى فى وصفها (أى المعره) أبيات قالها الوزير أبو القاسم الحسين بن على بن الحسين بن المغربى:

ما على ساكنى المعره لو أن ديارا نبت بهم أو طولوا
يسكنون العلا معاقل شما و يرون الآداب ظلا ظليلا
منزل شاقنى أنيس و ما كان رسوما نواحلا و طولوا
حيث يدعى النسيم فظا و يلفى سبل الغاديات شكسا بخيلا
أينما تلتفت تجد ظل طوبى و تجد كوثرأ أغر صقيلا
تربها طيب الشباب فما يصحب إلا السرور فيها خليلا
فترى اللهو إن أردت طليقا و التقى إن أردته مغلولا
و إذا ما اعتزى بها الأدب العذرى جاءوا عماره و قبيلا
ليت لا يعنف السحاب عليها ليته جادها عليلا كليلا

و سلام على بنيتها و لا زال نعيم الحياه فيهم نزيلا

و قال فى الامام على (ع):

أيا غامضين المزايا الجليله من المرتضى و السجايا الجميله

و يا غامضين عن الواضحات كان العيون لديها كليله

إذا كان لا يعرف الفاضلين إلا شبيههم فى الفضيله

فمن أين للأمه الاختيار عفا لعقولكم المستحيله

عرفنا عليا بطيب النجار و فصل الخطاب و حسن المخيله

تطلع كالشمس رآد الضحى بفضل عميم و أيد جزيله

فكان المقدم بعد النبى على كل نفس بكل قبيله

و قال:

يا ابن الذى بلسانه و بيانه هدى الأنام و نزل التنزيل

عن فضله نطق الكتاب و بشرت بقدمه التوراه و الإنجيل

لو لا انقطاع الوحى بعد محمد قلنا محمد من أبيه بديل

هو مثله فى الفضل إلا أنه لم يأت به رساله جبريل

و قال:

بعدوا فلا مستخبر عن حالهم غيرى و لا مستخبر مسؤل

لم يبق غير العذل من أسبابهم فأحب من يدنو إلى عدول

الليل عندى و النهار كادهم لا غره فيه و لا تحجيل

و قال:

ترنم جارى و المدام تهزه ترنم قمرى بفرعه ضال

فجاوبته من زفرتى بمغرد و ناوبته من أدمعى بسجال
و قلت له يا جار هل أنت آمن تفرق أحباب و حرب ليال
يهيج لى الذكري هزاجك كلما هزجت فيشقى فى نعيمك بالى
لئن جمعت بينى و بينك حلتي لقد فرقت بينى و بينك حالى
تذكرت دار الحى إذ أنا باسط ظلالى و مجموع لدى رجالى
و إذ أنا بين الناس متزع آمل لبث نوال أو بناء معالى
لعمري لقد أسهلت فى الأرض بعد ما تزحزح عن ريب الزمان جبالى
و قال:

أدر كاس المدام فان قلبى أتيح له عن التقوى ارتحال

حللت ببابل و أردت ألا أهيم بسحرهم، هذا محال

(1) و له من قصيده فى حسان بن مفرج الطائى:

فانى أتيت ابن الكريم مفرج فأطلق من أسر الهموم عقالى

و قال:

و اعتسف الخصم الألد بمنطقى فيبلغ ما لا يبلغ الحق باطلى

بحيث جفانى الأقربون و كلهم شهيد و أضحى ناصرى مثل خاذلى

لدى ملك يكمى لخصمى نصره و أعياء عليه ختل ثبت مماحل

إذا أنصلت آراؤه سهم حجه تمهل أو يرمى به فى المقاتل

فلا عند إكتاب الرمية صامت و لا فى ضجاج اللغو أول قائل

و قال مادحا:

حتى إذا ما أراد الله يسعدنى رأيته فرأيت الناس فى رجل

وقال:

كساني الهجر ثوبا من نحول مسبل الذيل

(٢) و ما يعلم ما أخفى من الدمع سوى ليلي (٣)

وقد أرجف بالبين فان صح فوا ويلى

وأوصى أن يحمل إلى مشهد الحسين بن على (ع) و يدفن تحت رجلي الحسين و أن يكتب عند رأسه هذان البيتان، و هما له:

سقى الإله الأزلى من السحاب الهطل

قبر الحسين بن على عند الحسين بن على

وقال:

و لى جاره لا يلم الكرى باجفانها الدعج فيما يلم

ترد فضول أحاديثها إلى ضحكك لم يعوقه هم

و آوى بوجدى إلى زفره تكاد تبل لهاتى بدم

فيا جارتى بعد ما بيننا و ما كان بيتك منى أمم

فأقسم لو فى يدي مهجتي لأعفيتها من مطال الألم

و لكنها فى يدي مالك إليه الشفاء و منه السقم

هو المحسن البر فى ما قضاة و الحاكم العدل فى ما حكم

و إنى و إن حجبتنى الذنوب فمنى السؤال و منه الكرم).

ص: ٨٠

١- المسيحي: و طمعت ألا.

٢- الوافى: كساني الحب.

٣- المسيحي: و ما يعلم إلا الدمع ما أحببت من ليلي (اقرأ: ما أخفيت فى ليلي).

و قال مادحا:

و يعدل فى شرق البلاد و غربها على أنه للسيف و المال ظالم
و كتب إلى الحاكم يقول - بعد أن قتل الحاكم أباه عليا و عمه محمدا:

و أنت، و حسبى أنت، تعلم أن لى لسانا وراء المجد بينى و يهدم

(١) و ليس حليما من تقبل كفه فيرضى و لكن من تعض فيحلم

(٢) و قال فى سوداء:

يا رب سوداء تيمتنى يحسن فى مثلها الغرام

كالليل تستسهل المعاصى فيه و يستعذب الحرام

و قال فى التوبه:

كنت فى سفره البطاله و الغيبى زمانا فحان منى قدوم

(٣) تبت عن كل مآثم فعسى يمحي بهذا الحديث ذاك القديم

بعد خمس و أربعين لقد ما طلت إلا أن الغريم كريم

(٤) و قال يرثى أباه و عمه و أخاه:

تركت على رغبى كراما أعزه بقلبي و إن كانوا بسفح المقطم

أراقوا دماهم ظالمين و قد دروا و ما قتلوا غير العلاء و التكرم

فكم تركوا محراب آى معطلا و كم تركوا من ختمه لم تتمم

و قال فى مقتل أبيه و إخوته:

إذا كنت مشتاقا إلى الطف تائقا إلى كربلاء فانظر عراض المقطم

تجد من رجال المغربى عصابه مضرجه الأوداج تقطر بالدم

(٥) فكم خلفوا محراب آى معطلا و كم تركوا من ختمه لم تتمم

و قال:

و لقد بلوت الدهر أعجم صرفه فأطاع لى عصيانه و ليانه
و وجدت عقل المرء قيمه نفسه و بجده جدواه أو حرمانه
فإذا جفاه المجد عيبت نفسه و إذا جفاه الجد عيب زمانه

و قال:

لى كلما ابتسم النهار تعله بمحدث ما شان قلبى شانه
فإذا الدجى وافى و أقبل جنحه فهناك يدرى الهم أين مكانه

كان بين سليمان بن فهد و بين أبى القاسم المغربى عداوه، و قتل سليمان نفسه فى نكبه و مصادره طلب بها فقال المغربى
يرثيه (٤):

يا ابن الكرام أرى الغمام تمر بى و لها حنين

و لهى فتلتدم الرعود لها و تسود الدجون

أ ترى لها بالموصل الغراء مفقود دفين

قبر جفاه الأقبون و باع خلته القرين

عجبا له ضم البلاغه و هو أخرس ما يبين

نصر المنون و لو يشاء لما تجاسرت المنون

و تحكمت فيه يمين لا يجاريها يمين

لو غير كفك ساورتك لردها كيد زبون

و عزائم يعيا اللبيب بها أعقل أم جنون

و هواجس كانت طلائعها على الغيب الظنون

تبكى عليك و لو تعيش إذن بكت منك العيون

ثم أثارته العداوه فقال:

إيها سليمان بن فهد و الحديث له شجون

أفمالك لك مالك أم أنت موقوف رهين

أم أنت منتظر فأنت لناره نعم الزبون

و قال فى أول ليله فى القبر:

إنى أبثك من حديثى و الحديث له شجون

فارتت موضع مرقدى ليلا ففارقنى السكون

(٧) قل لى فأول ليله فى القبر كيف ترى أكون

(٨) و قال فى قله الأصدقاء:

أنست بوحدتى حتى لو أنى رأيت الإنس لاستوحشت منه

و لم تدع التجارب لى صديقا أميل إليه إلا ملت عنه

و ما ظفرت يدى بصديق صدق أخاف عليه إلا خفت منه

و قال:

لو كنت أعرف فوق الشكر منزله أعلى من الشكر عند الله فى الثمن

إذا منحتكما منى مهذبته حذوا على حذو ما واليت من حسن

و مما وجد بخطه و كان شديد العصبية للأنصار و لقطحان قاطبه على عدنان، و كان ينتمى إلى الأزدي - أزد شنوءه:

إن الذى أرسى دعائم أحمد و علا بدعوته على كيوان

أبناء قبيله وارثوا شرف العلا و عراعر الأقبال من قحطان

بسيوفهم يوم الوغى و أكفهم ضربت مصاعب ملكه بجران

(٩) لولا مصارعهم و صدق قراعهم خرت عروش الدين للأذقان

و قال فى الصديق ذى الوجهين:

أى شىء يكون أقبح مرأى من صديق يكون ذا وجهينك.

ص: ٨١

- ١- البغية (٢٥): أمام المجد.
- ٢- البغية (٢٥): من تبأس يمينه.
- ٣- ياقوت و ابن خلكان و الوافى و الداودى: كنت فى سفره الغوايه و الجهل مقيما، المنتظم: البطاله و الجهل.
- ٤- الذخير و البدايه: بعد سبع، ورام: لولا أن.
- ٥- ياقوت: مضرجه الأوساط و الصدر.
- ٦- قد تقدم الحديث عن سليمان بن فهد و كيف طالبه قرواش بالمال، و فى إحدى الروايات أنه مات تحت الضرب، و فى أخرى أنه هرب إلى نصر الدوله ثم أصلح حاله مع قرواش. و لم يكن فيما أخبرت به الروايات عدوا للوزير أبى القاسم.
- ٧- ابن عساكر و المرآه و المستطرف: غيرت، طراز و ابن عساكر و المرآه و التتمه: فنافرنى السكون، المستطرف: يوما، البغية: موضع موطنى.
- ٨- المستطرف: فى حفرتى أنى أكون.
- ٩- المصعب: الفحل من الجمال يعنى من الركوب، و ضرب البعير بجرانه: برك.

من ورائى يكون مثل عدوى و إذا يلقنى يقبل عيني

و قال:

ديون المكارم لا تقتضى كما تقتضى واجبات الديون
و لكنها فى صدور الكرام تجول مجال القذى فى العيون

و قال:

صلى عليك الله يا من دنا من قاب قوسين مقام النبىه
أخوك قد خولفت فيه كما خولف فى هارون موسى أخيه
هل برسول الله فى أسوه لم يقتد القوم بما سن فيه

و قال فى الخمر:

كاس مدام صدت عنها لله، و النفس تشتهيها
قال على و كان عدلا قد طبخت قلت فاسقنيها
فالآن إذ عذبت قليلا فدت من النار شاريها

و قال:

و كل امرئ يدري مواقع رشده و لكنه أعمى أسير هواه
هوى نفسه يعميه عن قبح عيبه و ينظر عن حذق عيوب سواه

و قال:

و لاعب بالهوى يؤمل أن يظهر لى جفوه و أهواه
قلت لقلبي و قد تتبعه يا قلب إما أنا و إما هو
و له من مرثيه فى صهره الشريف أبى الحسن:

يا ناعى الدين و الدنيا أشد بهما من حيث سال بال الله واديه

هذى معالى قریش غاض آخرها و مجد هاشم زار الترب باقيه
قل يا ابا حسن و القول ذو سعه لو لا حجاب من الثرياء يثنيه
أ آخر الدهر أم تحيى عواطفه و فيصل البين أم يرجى تلافيه
كلا لقد فات منك الوصل آمله مذ شيد الجدث المأمول بانيه
هنيت ربعا برغم المجد تسكنه تلقى أباك عليا فى مغانيه
إن أخل بعدك بالدنيا أروضها فقد خلا بضمير النبع باريه
هل كنت تعلم إذ عودتنى أبدا حسن التصبر أنى فيك أفنيه
و قال:

عجبا لقلبي و هو نار كيف لا يؤذيك مع طول الإقامه فيه
و له فى دولاب:

عبدك يا عبدون فى نعمه صافيه أذيالها ضافيه
نديمتى جاريه ساقيه و نزهتى ساقيه جاريه
و قال:

صيرنى حبك يا غزال أهل الجابيه
أبا نواس بعد ما كنت أبا العتاهيه
و قال متغزلا:

علمت منطق حاجيه و البين ينشر رايتيه
و عرفت آلات النعيم بقبله فى عارضيه

(١) فكأنه فى الموج قلبى بين أشواق إليه

(٢) و لقد أراه فى الخليج يشقه من جانبيه

(٣) و الماء مثل السيف و هو فرنده فى صفحته

(٤) لا تشربوا من مائه أبدا و لا تردوا عليه

قد ذاب فيه الحسن من حر كاته أو مقلته

(٥) و السلم أسلم فاحذروا من فتره فى ناظره

صبغت بياض النيل حمرة وردة فى وجنته

(٦) ها قد رضيت من الحياه بنظره منى إليه (٧)

رساله له فى الرد على من تحداه

فى معانى بعض الألفاظ الغريبه

(٨) قال ابن بسام: لما دخل البطيحه و بها أبو القاسم هبه الله بن عيسى (٩) (وزير) مهذب الدوله، و كان من أفاضل أهل وقته، فدخل إلى ابن المغربى رجل يعرف بسليمان بن الربيع، و سلم إليه قصيده قد بنيت على السؤال عن ألفاظ من اللغه على جهه الامتحان لمعرفته، فلما وقف عليها امتعض فى الحال، و أحفظه ما لقى من التعدى و السؤال، و نسب ذلك إلى فعل أبى القاسم وزير مهذب الدوله البطيحي، فكتب عقب الوقوف (١٠) لوقته جوابا أثبت بعض فصوله، لطوله، بعد هذه الأبيات المذكوره:

يا أفضل الأدباء قولاً لا تعارضه الشكوك

لا العلم ناء من حجاك إذا نطقت و لا فرك

عرضت مسائل أنت للفتوى بمشاكلها دروك

ما الحى و الحيات أم ما جلبح نضو بروك

أم ما ترى فى برقع رقشاء مجهدا حبيك

أم ما الصرنقح و الزرير و ما الملمعه النهوك

و لك الدرايه و البصيره [البصيره] فى مداحيها السهوك

و ابن لنا ما خمطط أبدا بامرغه معيك

أو ما اعتنانه فرهد فيه الملامه لا تحيك

أم ما ترفل (هبرج) ترتب مرسنه هلوک
و لرب أفاظ أتنک و فی مطاویها حلوک
فارفق بنشرك طیها و انظر بذوقک ما تلوک
هذا و قد لذمت فؤادی خرمل هرط ضحوک
دعکنه نظرته فی خیس غانظها شکوک
تغدو و خرفعها المذیل فی طوائفه سدوک
و أراک ما لک مشبه فی ما علمت و لا شریک
ص: ۸۲

-
- ۱- الريحانه: أسباب النعيم.
 - ۲- الريحانه: فی الماء.
 - ۳- الشريشى: فی الغدير.
 - ۴- الدمیه و الوافی: و النهر مثل السيف.
 - ۵- الدمیه و الوافی: قد دب فيه السحر من أجفانه، الريحانه: ذاب فيه السحر.
 - ۶- الريحانه: بياض الماء صبغه حمره.
 - ۷- الريحانه: إني رضيت... بأسرها نظري إليه.
 - ۸- الذخيره لابن بسام ۴: ۴۷۹-۴۹۶.
 - ۹- ذکر ابن الأثير (۲۵۲:۹) أنه توفي سنة ۴۰۶ و قال فيه "كان من الكتاب المفلقين، و مكاتباته مشهوره. و كان ممدحا، و ممن مدحه ابن الحجاج".
 - ۱۰- ص: عقب الدوله. على ذلك

حقا لقد حزت العلوم حيازه العلم الضريك

فأجابه ابن المغربي برقعته قال فيها: وقفت على ما ذكرت أن بعض أهل الأدب كلفك المسأله عن شعر وجدته، لا أحب أن أقول فى صناعته شيئا، مشتتلا على ألفاظ من حوشى اللغة لا يتشاغل بمثلها أهل التحصيل، و لا يتوفر على تأملها إلا كل ذى تأمل عليل، لخروجها عما ينفع فى الأديان، و يعترض فى القرآن، و لمبايتها ما يجرى فى المذاكره، و تستخدم فيه المحاوره. و زاد فى عجبى منها صدرها عن البطيحه و فيها الأستاذ(١)الفاضل هبه الله بحر الأدب الذى عذبت موارد و مصادره، و رى العقول الظماء، و طب الجهل المستغمر الداء(٢)، و الباب الذى يفتح عن الدهر تجربته و علما، و المرآه التى تتصفح بها أوجه الأيام إحاطه و فهما.

و فى فصل: فان كان العرض فى هذه الأبيات الخراب، المقفره من الصواب، طلب الفائدة، فقد كان يجب أن يناخ عليه بمقفلها، و يقصد إليه بمعضلها، فعنده مفتاح كل مسأله مقفله، و مصباح كل داجيه مشكله، بل لست أشك أن هذا السائل لو جاوره صامتا عن استخباره، و عكف على ذلك الجنب كأنما لجا فى طى إضماره، لأعداه رقه نسيم أرضه، و هذب(٣) خاطره التقاط لفظه، حتى يغنيه الجوار عن الحوار، و الاقتراب عن رجع الجواب، و إن كان قصد الامتحان للمسئول، و تعرض لهذا الموقف الزحول، فذلك أعجب: كيف لم يتأدب بآدابه الصالحه، و يعتشى إلى هدايته الواضحه.

و فى فصل: و كيف لم يعلم هذا العريض المكلف - بما أعطى من سعادته مكائده، و سيق(٤) إليه من بركه صحبته - أن هذا التعريض كما قال المخزومى لعبد الملك بن مروان و قد(٥) لقيه فى طريق الحجاز: بثت تحيه الغريب من القاطنين، و لؤمت هديه الوافد من المقيمين، و قد كان حق الغريب بينكم أن يكثر قليله، و يسد ذريعه، و يعار من معالى الصفات ما يؤنس غربته، و يصدق مخيلته. و على أنه لو كان قد احتبى للجدال، و ركب للنزال، لما كان فى غروب(٦) كلمات من حوشى اللغة عن ذكره، ما يدل على قصر باعه، و قله اطلاعه، و يا عجباً للفراغ كيف يسوغ لهذا المغتر أن يجارى بخلو ذرعه تقسم أفكارى، و كيف أنساه اجتماع شمله بعد ديارى، و كيف أذهله حضور أحبته عن مغيب أفلاذ كبدى، و كيف طرفت نواظره سكره الحظ عن تصور ما يجن خلدى، و كيف لم يدر ما لى من ألاحظ مقسمه، و ظنون مرجمه، و قد تكلفت الإجابته لما تضمنته الأبيات انقيادا لمرادك، و مقتصر الرأى على إسعادك، أجز أقلامى جرا و هن نواكل، و أنبه قرائحى و هن فى غمرات الهموم ذو أهل:

قال السائل: "إن المسئول دروك لتلك الفتوى، و مستحق بها للرتبه العليا" و دروك لا يجوز هنا لأن فعولا يكون من أفعل، و لو جاز ذلك لجاز "حسن" من "أحسن" و "جمول" من "أجمل". و ما نحب استيفاء القول فى هذا الزلل، و لا نستفتح كلامنا بالمناقشه فى السهو و الخطل، و لعل القائل أوهم حملا على قراءه حفص (فى الدرر الأسفل من النار)(النساء: ١٤٥) فظن أن الدرر بوزن فعل، و أن فعلا- مصدر فعل يفعل، و لم يجعله من الدرر، لأن الفتح عندهم لا يخفف، لا يقولون فى جمل "جمل"، و ذهب عنه أن يكون اسما مبنيا مثله و إن لم يكن مخففا منه كما قالوا: "درر و درر" فى حلقه الوتر التى تقع فى فرضه(٧) القوس، فخففوا و حركوا، و على أنهما لو كانا مصدرين لجاز أن يبنيا على الشذوذ و لا- يحمل عليهما ما يبنى من الفعل، لأن الشذوذ ليس بأصل يقاس عليه. و لعله اغتر بقولهم: "دراك" - بالشذوذ - و هو شاذ لأنهم قد (بنوا) أفعل من فعل، و هو قليل، قالوا فطرته فأفطر، و بشرته فأبشر، فجاز على هذا دررته فأدرر، قال سيويه: و هذا النحو قليل فى كلامهم. و لعله ذهب إلى قولهم:

"دراك" مثل "نزال" فظن أنه يقال منه "درك" كما يقال من "مناع" و "نزال": منع و نزل. و ذهب عنه (أنه) قد جاء الرباعي في هذا الباب، قالوا: قرقار و عرعار، في معنى قرقر و عرعر. فاما الفرق بين الرباعي و الثلاثي، فسيبويه يرى إجازة "فعال" في موضع فعل الأمر الثلاثي كله، و يمنعه في الرباعي إلا مسموعا، و قال غيره من النحويين: بل هما ممنوعان إلا مسموعين، و اعتمد سيبويه في الفرق على كثرة الثلاثي، و قلده ما جاء في الرباعي. أو لعله أصغى إلى قول الآخر (٨):

إن يكشف الله قناع الشك فهو أحق منزل بدرك

فذهب إلى أن "دركا" مصدر، و لم يعتقد أنه كما قرأ حفص بالإسكان. أو لعله علق سمعه (قول) العتبي:

إذا قلت أوفى أدركته دروكه فيا موزع الخيرات بالعدر أقصر

و ما أعرف له حجة أقوى منه. أو لعله أراد بقوله: دروك من الدرک مثل: لغوب، و هي لغة تكلمت بها العرب.

ثم بدأ السائل فسأل عن "الحي"، و لم أقف على صحه سؤاله لأني وجدت الأبيات مكتوبه بخط عليل، و إن كان سال عن "الحي" - بكسر الحاء - فقد أنشد أهل العلم قول العجاج (٩):

و قد نرى إذ الحياه حي و إذ زمان الناس دغفلى

فقال الحي من الحياه، و الحي جمع حي، و أما كونه على معنى الحياه فوزنه على فعل باختلاف.

قال ابن بسام: و مد أبو القاسم في هذا الجواب أطناب الاصناب ثم قال: "و الحيوت" الحيه وزنه فعلوت، و التاء فيه زائده، و كثيرا ما تزداد خامسه مثل عفريت، و إنما هو عفري.

و "الجلبح" العجوز الكبيره، و أنشدوا:

"إنى لأقلى الجلبح العجوزا"

و "برقع": السماء الدنيا، قال أميه بن أبي الصلت (١٠):ه.

ص: ٨٣

١- ص: من الأستاذ، و لعلها "مثل الأستاذ".

٢- ص: المستعمل اللاآء.

٣- ص: و هذبت.

٤- ص: و ساق.

٥- ص: و لقد.

٦- ص: غروب.

٧- ص: فرض.

٨- ورد فى اللسان (درك): بظفر من حاجتى و دركفندا أحق منزل بترك و فى التاج: ان يكشف الله فناع الشكبظفر من حاجتى و درك فلا أحق منزل (بترك)

٩- ديوان العجاج: ٤٨٦ و اللسان و التاج (دغل): و الدغفلى من العيش: المخصب الواسع

١٠- ديوان أميه: ٣٥٨ و اللسان (سدر) و تجىء قافيه البيت أحيانا "أجرد" و "أجرب" و قال ابن برى: صوابه "أجرد" و القصيده داليه. و الجرد: الملاسه.

و كان برقع و الملائك حولها سدر تواكله قوائم أربع

(١) و "الصرنقح": الشديد الخالص و لا يكون فعنل إلا و صفا لا اسما، قال جران العود(٢):

و منهن غل مقل لا يفكه من القوم إلا الشحشان الصرنقح

و "الزير" الذكي و المتحدر(٣)، و كان شيخنا أبو أسامه(٤) يخالف جميع اللغويين فيه و يقول: هو الزير، و منه اشتق اسم "زراره"، و قول أبي أسامه أصح.

و "الملمعه" الفلاه التي يلمع فيها الآل، و في مثل: "أكذب من يلمع"(٥) و هو السراب، و منه الألمعي، كأنه يلمع العواقب بدقه فطنته، و أما اللوذعي فهو الذي يتلذع من شده ذكائه: و يقال ألمعت الوحشيه و غيرها إذا بان لضرعها سقال و بريق بالبن، قال الأعشى(٦):

لملع لاعه الفؤاد إلى جحش فلاه عنها فبئس الفالي

و يقال إن "لاعه" فعله و مذكرها لاع، و

في الحديث: هاع لاع، و قيل بل لاعه بوزن فاعله، كان الأصل "لاعيه" من اللعوى، و هو أشد الحرص، و بين الخليل و أهل النحو فيه خلاف يشق إحصاؤه.

و "النهوك" و "النهيك" و "النهاكه" معروفه.

و "البصيره" الترس، قال الأسعر الجعفي(٧) و ليس بالأسعر(٨) المازني:

راحوا بصائرهم على أكتافهم و بصيرتي يعدو بها عتد و أي

(٩) و البصيره: الدم، (و البصيره: الديه) و معنى البيت على هذا أنهم أخذوا الديات و لم آخذ، فركبت يعدو بي فرس لطلب الثار، و يكون هذا مشبها لقولهم:

.....(١٠)

و رحا أجر ثوبي أرجوانكلانا اختار فانظر كيف تبقى

أحاديث الرجال على الزمان

و البصيره في هذا الموضوع: الحق.

و "المداحي" مفاعل من الدحو و هو البسط، و الدحو أيضا النكاح.

و "السهوك" من السهك و هو السحق، و يقال: ریح سیهوك و سیهوج، إذا كانت شديده المرور و الهبوب.

و "الخمط" (١١) هو الكحك، و هو الشيخ الكبير.

و "المرغ" الریق، يقال أحمق ما يجافى مرغه، أى ما يمسك ريقه، و المرغ: التراب، فى غير هذا.

و "معيك" فعيل بمعنى مفعول من المعك، و هو كالكنى.

و سال عن الفوهد، و الفوهد و التوهد: الغلام الممتلى شبابا، و أنشدوا (١٢):

تحب منا مطرهما فوهدا عجزه شيخين غلاما أمردا

ينشد بالثناء و الفاء.

و "القلع" (١٣) الطين الذى يتقلع عن الكماه، و فيها خلاف.

و "الهبرج" من صفه بقر الوحش.

و "يرتب" يفتعل، من رب الأمر، أصلحه.

و "المرسن" موضع الرسن.

و "الهلوک" الفاجره لأنها تتهاكك فى مشيتها أى تتمايل و تتهادى.

و "الذم" بالمكان و الدم، مثل لزم و ألزم.

و "الخرمل" المرأه الفاجره، و قيل الحمقاء، قال مزرد (١٤):

إلى خرمل شر النساء الخرامل

و "الهرط" النعجه المسنه و (اللحم المهزول) فى غير هذا، و الهرد:

الشق.

و "دعكنه" أصله السمن و الفتوه، و هو ما لا يسال عنه، لأن كل ما زیدت فيه النون فى هذا الموضع يدل لفظه على اشتقاقه كما

تدل سمعنه و نظرنه على السمع و النظر، و دعكنه من الجلاده، كأنه من الدعاك (١٥).

و "الخييس" الغابه، و فى غير هذا الموضع اللحيه.

و "الغانظ" فاعل من الغنظ و هو الكرب، قال عمر بن عبد العزيز:

فى الموت غنظ ليس كالغنظ و كظ ليس كالكظ، و هما الكرب.

و "الخرفع" (١٦) القليل من كل شىء.ر.

ص: ٨٤

١- السدر: البحر. و لم يسمع به إلا فى شعر أميه. توأكلته: تركته، و القوائم هنا: الرياح.

٢- ديوان جران العود: ٨.

٣- فى اللسان و التاج أن الزرير هو الذكى الخفيف.

٤- هو جناده بن محمد بن الحسين الأزدي الهوى - (٣٩٩) كان مكثرا من حفظ اللغة. أخذ عن الأزهرى و غيره، و قتله الحاكم العبيدى (انظر ابن خلكان ١: ٣٧٢ و معجم الأدباء: ٧: ٢٠٩ و بغيه الوعاة ٢: ٤٨٨).

٥- انظر المثل فى الدرر الفاخرة: ٣٦٢ (و فيها تخريجه).

٦- بيت الأعشى فى اللسان و التاج (لوع) و ديوانه: ٨.

٧- قال الأصمعى: الملمع التى قد استبان حملها فى ضرعها فأشرق ضرعها باللين، و قال أبو عبيده: ملمع: نتوج مقرب، لاعة الفؤاد أراد لائعه الفؤاد أى مستخفه من الحزن، و رجل هاع لواع و هائع لائع مشتاق إلى الشىء. و الفالى: الطارد.

٨- فى ص: الأعسر، و الأسعر الجعفى - ضبطه الآمدى بالسین المهملة - هو مرثد بن أبى حمران، و أورد له بيتين من قصيدته التى منها هذا البيت التالى و هى قصيده أصمعيه (الأصمعيات: ١٥٦) و انظر اللسان (عتد. وأى) و المعانى الكبير: ١٠١٣ و الوحشيات رقم: ٥٧.

٩- العتد: الفرس الحاضر المعد للركوب، الوأى: السريع المشدد الخلق، و قال ابن قتيبه فى شرح البيت: البصيره، الدفعه من الدم أى دماؤهم قد خرجت فصارت على أكتافهم و بصيرتى فى جوفى يعدو بها فرسى، يريد أنهم جرحوا. و يقال ل أراد أن الذى طلبوه من الذحول على أكتافهم لم يدركوه بعد، فهو ثقل عليهم، و بصيرتى أى ذحلى قد أدركت به.

١٠- لم أستطع قراءه هذا الشطر، و صورته فى ص: عدا دل داء لهن حجه.

١١- لم أجد هذه اللفظه و أقرب الصور إليها "لطلط" و هى بمعنى الكحكح.

١٢- اللسان (طرهف. فهد) و المطرهف: الحسن التام، و الفوهده و الثوهده و الفلهده: الغلام السمين الذى قد راهق اللحم.

١٣- لم ترد فى الأبيات، فلعل فيها سقطا.

١٤- روايته فى ديوان مزرد: ٤٨: إلى صبيه مثل المغالى و خرملرواء و من شر النساء الخرامل.

١٥- ص: الدعاء.

١٦- الخرفع: القطن و قيل ثمر العشر.

و "المذيل" المكمل.

و "الطوائف" الأيدي والأرجل.

و "السدوك" لا أو من به لأنه يقال سدك سدكا و سدكا، فان جاء فيه سدوكا فهو شاذ قليل، و هو الزوم.

قال ابن المغربي: هذا ما حضرنا من القول، و لو لا أننا لا نود أن ننهي عن خلق و ناتى مثله (١) لسألنا مستفيدين، نثرا لما فيه من شفاء البيان، لا نظما لما فيه من التعاطى و الطغيان، فسألناه عن اللغة إن كان عنى بها: عن العلاق بالعين، فهو بالغين معروف (٢)، و عن المصممه بكسر الميم، فهو بفتحها مشهور، و عن هند لا تضاف إلى الأحامس (٣) فان ذلك معروف، و سكرى بضم السين فهو بفتحها معروف. و عن الدون بالواو فهو بالياء معروف، و عن القرن بالفاء فهو بالعين مذكور، و كم فى الكلام أفعله أسماء فهو فى الصفات معروف، و ما النديم فى الناس فإنه فى الجماد معروف، و ما الشاهد على جواز أفلح بالجيم فإنه بالحاء معروف.

هذا إن كانت اللغة عنده مهمه، فان قال إن النحو هو المهم عنده قلنا: فما جمع على أفعله أغفله سيبويه فلم يلحقه بكتابه أحد من النحويين، و هل ذلك الجمع إن كنت عارفا به مطرد أو محمول على مكانه فى اللفظ؟ و على أى شىء خفض (وقيله يارب) فى قراءه حفص، لا على ما أورده أبو على الفارسي، فإنه لم يسلك مذهبه فى التدقيق عليه؟ و لم منع سيبويه من العطف على (ع) ملين، و هو فى سورة الجاثية بنصب (آيات)، و رفعه لا يتجه إلا عطفًا على عاملين، فان كان أخطأ الأخصش فمن أين زل؟ و إن كان أصاب فكيف تجوز له مخالفه الكتاب؟ و هل قول سيبويه فى النسبه إلى أميه أموى - بفتح الهمزه - صواب أو سهو استمر عليه و على جميع النحويين بعده؟ و لم قيل معديكرب، و لم تحمل الياء فى لغه من أضاف و لا من جعلها اسما واحدا إلا على ما أورده النحويون، فلهم فيه أقاويل غير متجهه. و هل مذهبهم فى أن سدى و هدى مصدران صحيح أم لا؟ و هل بيض فى قولهم:

حمزه بن بيض اسم أم جمع، و ما معناه فى اللغة و وزنه فى النحو مسموعا لا- مقيسا على ما ذكرناه نحن فى هذه الرساله؟ و لم اختاروا "أن" مع عسى و كرهوه مع كاد؟ فان قال: لست أتشغل بعلوم المؤدبين، و إنما آخذ بمذهب الحافظ، إذ يقول: علم النسب و الخبر علم الملوك، قلنا له: فمن أبو خلدته (٤) فان أبا جلدته (٥) معروف، و من العاض و ما اشتقاقه (٦) فان العاص معروف، و من حبشيه - مفتوح الأول مخفف - فإنه بالتشديد و ضم أوله معروف؟ (٧) و من عمرو بن معديكرب غير صاحب:

"أ من ريحانه الداعى السميع"

(٨) فان هذا معروف؟ و ما اسم امرئ القيس على الصحه لا على هذا الظاهر و على أن فى اشتقاقه كلاما طويلا فان هذا معروف؟ و من الزبير غير الأسدى و اليهودى فكلاهما معروفان؟ و من الزبير بفتح الزاى فإنه بضمها معروف؟ (٩) و من القائل:

و قابله لجلجتها فرددتها لدى الفرش لو نهنتها قطرت دما

أ رجل أو امرأه؟ و هل صفيه الباهليه قلب أم مولاه؟ و هل المستشهد بشعره فى "غريب المصنف" أبو كعب بالباء أو التاء، و فى أى زمان كان، و أيهما كان اسمه و من أى شىء اشتقاقه؟ و من النطف الذى يضرب به المثل فيقال: كثر النطف؟ (١٠) و من

العكمص، لا- أسأل عن تفسيره فإنه في اللغة معروف؟(١١) و كذلك ذو طلال(١٢)، و ما خوعى فان جوعى معروف، و هل أخطأ ابن دريد في هذه اللفظة أم أصاب(١٣) و ما تقول في عدنان غير الذى ذكره محمد مولى بنى هاشم فإنه معروف(١٤)، و هل يخالف فيه أم لا؟ و حبيب والد ابن حبيب العالم رجل أو امرأه، و هل هو لغيه أم لرشده؟(١٥) و من أجمد بالجيم فهو بالحاء كثير؟(١٦) و من زبد بالباء فهو بالنون معروف؟(١٧) و من

روى عنه ع: " لا يمنع الجار جاره أن يجعل خشبه فى حائطه " (١٨) و قال " خشبه واحده " و قالوا كلهم: خشبه مضافا؟ و من يكثر ذكر الحضرمى فى شعره من العرب؟(١٩) و النبيذ المشروب: هل كان معروف الاسم أم لا عند..

ص: ٨٥

- ١- فيه إشارة إلى قول الشاعر: لا تنه عن خلق و تأتي مثلهمار عليك إذا فعلت عظيم.
- ٢- ذكر ابن دريد فى الجمهره (٣: ٣٩٦) الغلافق و قال إنه اسم موضع، و لم يذكر العلافق.
- ٣- يقال لقى هند الأحامس إذا مات أو وقع فى الداهيه، و إضافتها إلى غير الأحامس مثل هند الهنود، و هند بنى سعد و ما إلى ذلك، و لكنى أعتقد أن ابن المغربى يشير إلى ما هو أدق من ذلك.
- ٤- الخاء غير معجمه فى ص، و خلده هى بنت طلق اليمامى، حدثت عن أبيها، و خلده بنت العرباض بن كلاب، روت عن عمها (الإكمال ٣: ١٨٢).
- ٥- أبو جلده بكسر الجيم مسهر بن النعمان، و شاعر يشكرى و آخر عجلى (الإكمال ٣: ١٨٢).
- ٦- العاض بن ثعلبه بن سليم الدوسى، و قال الوزير المغربى هو بلا تشديد (تبصير المنتبه: ٨٩٠) و هو من عضا يعضو الجرح أى كان بصيرا بالجراح.
- ٧- هنالك حبشيه بن كعب بن ثور من مزينه (تبصير: ٤٨٦) و حبشيه بن سلول، و هذا الثانى يقرأ أيضا بفتح الحاء و تخفيف الياء (تبصير: ٤٠١).
- ٨- صدر بيت لعمر بن معديكرب الزبيدى، و عجزه: " يؤرقنى و أصحابى هجوع " (ديوانه: ١٣٦)، و هناك رجل آخر بهذا الاسم و هو عمرو بن معديكرب الزبيدى الأكبر جاهلى قديم (المؤتلف: ٢٣٣).
- ٩- الأسدى هو الزبير بن العوام، و اليهودى هو الزبير بن باطا من بنى قريظه أسلم ابنه عبد الرحمن (الإكمال ٤: ١٦٦) و هناك الزبير بن عبد الله الكلابى و قد عاش آخر خلافه عمر (الاستيعاب: ٥١٠)، و أما الزبير - بفتح الزاى - فهو ابن عبد الله بن الزبير شاعر ابن شاعر (الإكمال ٤: ١٦٥-١٦٦).
- ١٠- هو النطف بن خيبرى أحد بنى سليط بن الحارث (انظر قصه احتيازه الكنز فى ثمار القلوب: ١٣٩ و سرح العيون: ٥٤-٥٥).
- ١١- العكمص: الحادر من كل شىء أو الكثير أو الشديد الغليظ و به كنى أبو العكمص التميمى (التاج: عكمص).
- ١٢- ص: ذو أطلال، و لم يبين ما يريده هنا، و ذو طلال: ماء قريب من الربذه و قيل هو واد لغطفان (معجم البكرى: ٨٩٢).
- ١٣- جوعى المعروف هو مؤنث جائع و قال ابن دريد فى الجمهره (٢: ١٠٥) إن جوعى موضع و أثبتها البكرى عنه، و ذكر أنها خوعى بالحاء المعجمه فى شعر امرئ القيس (معجم البكرى: ٤٠٤).
- ١٤- محمد مولى بنى هاشم هو محمد بن حبيب نفسه و هو يذكر أن فى الأزدي عدنان بن عبد الله بن الأزدي و قال غيره إنه عدنان

(الإكمال ٦: ١٥٣-١٥٥).

١٥- حبيب اسم أمه و يقال إن أباه غير معروف.

١٦- أجمد بن عجيان شهد فتح مصر (تبصير ١: ٣).

١٧- زبد بن سنان بفتح الزاى، و زبد بن الجون أبو دلأمة و زبد فى نسب عدنان (الإكمال ٤: ١٦٨-١٦٩).

١٨- ورد الحديث فى البخارى (مظالم: ٢٠ و أشربه: ٢٤) و مسلم (مساقات: ١٣٦) و سنن أبى داود (أفضيه: ٣١) و ابن ماجه

(أحكام: ١٥) و الموطأ (أفضيه: ٣٢) و مسند أحمد ١: ٣١٣، ٣: ٤٨٠، قلت: خشبه (بالإفراد) هى روايه أبى ذر و رواه غيره (خشبه)

بالهاء - بصيغه الجمع، و قال عبد الغنى بن سعيد: كل الناس يقولونه بالجمع إلا الطحاوى (و انظر مزيدا من التفصيلات فى إرشاد

السارى ٤: ٢٦٦).

١٩- الحضرمى: النعل المصنوعه بحضرموت، و أراها ترد كثيرا فى شعر كثير "إلى مرهفات الحضرمى المعقرب" (ديوانه: ٢٦٥)،

و "باقدامهم فى الحضرمى الملسن" (ديوانه: ٢٥٢) إلخ...

العرب؟(١) و من روى عن ظئر رسول الله (ص) و أنها قالت فى شارفها:

" و كانت لا تغذى أحدا " و ما معناه؟(٢) و من تفرد من أهل العلم بنصر ذى الرمه و تغليط الأصمعى فى قوله: إيه عن أم سالم، لا- على ما قاله النحويون من التعريف و التنكير، فان ذلك معروف؟(٣) و من قال عن المتنبيه إنها سجاح مثل قطام و من قال سجاح مثل غمام غير مبنى؟(٤) و لم سمى خليلد الشاعر: خليلد عينين؟(٥) و من عمى التى تنسب إليها الصكه فيقال " صكه صكه عمى "، و هل ذكر فى شعر و من ذكره؟(٦) و من هو الذى تنسب إليه العرب الصلال و من ذكره من أصحاب رسول الله (ص)؟ و من كرب المنسوب إليه معديكرب؟(٧) و هل أصاب المبرد فى نسبة الأبيات الجيميه:

لما دعا الدعوه الأولى فاسمعنى أخذت بردى و استمررت أدراجى

أم أخطأ؟(٨) فان قال إنه صاحب سير و آثار و أحكام، قلنا: أرشدك الله، و ما معنى

قوله ع: "من سعادته المرء خفه عارضيه" و هو ع لم يكن خفيف العارضين، لا على ما فسر المبرد فإنه لم يأت فيه بشيء؟(٩) و معنى

قوله ع: "تسحروا فان فى السحور بركه" (١٠) و نحن نرى (أنه) ربما أهاض و أتخم، و أضر و أبشم؟ و معنى

قوله ع: "اتقوا النار و لو بشق تمره" (١١) و لو سارق (كيلجه) تمر فتصدق بنصفها كان مستحقا للنار عند أكثر المسلمين؟ و ما معنى

قوله ع: "لا يزال الأنصار يقلون و يكثر الناس" (١٢)، و لو شئنا لعددنا أشخاصهم أكثر مما كان فى البادية و الحاضره؟ و معنى

قوله "إن امرأ القيس حامل لواء الشعراء إلى النار" (١٣) و هل يثبت الخبر أم لا؟ و لم

قال: "إن من الشعر لحكمه" (١٤)، ثم

قال ع: "أوتيت جوامع الكلم" (١٥) و هل تخرج الحكمه من جوامع الكلم؟ فان قال: إنما أفنيت عمرى فى القرآن و علومه، و فى التأويل و فنونه قلنا: إذن يكون التوفيق دليلك، و الرشاد سبيلك: صف لنا كيف وقع التحدى بهذا المعجز ليم بوقوعه الاعجاز، و أخبرنا عن صفه التحدى: هل كانت العرب تعرفه أم لا، أم كان شيئاً لم تجر عاداتها به فكان إقصارها عنه، بل لأنه التماس ما لم تجر المعامله بينهم بمثله، ثم يسأل عن التحدى هل لقي بمعارضه بان تقصيرها عنه أو لم تكن بمعارضه، و لكن القوم عدلوا إلى السيف كما عدل المسلمون مع تسليمهم و لم يعارضوه، ثم يسأل عن قوله تعالى (لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) (النساء: ٨٢) و فيه من الناسخ و المنسوخ و المحكم و المتشابه ما لا- يكون أشد اختلافا منه (١٦)، و يسأل عن قوله تعالى (و غرايب سود) (فاطر: ٢٧) و ما معنى الزيادة فى الكلام، و الغرايب السود هى الغريب، فان قال تأكيداً فقد زل، لأن رجحان بلاغه القرآن إنما هو إبلاغ المعنى الجلى المستوعب إلى النفس باللفظ الوجيز، و إنما يكون الإسهاب البليغ فى كلام البشر الذين لا يتناولون تلك الرتب العاليه من البلاغه، على أنه لو قال تأكيداً لخرج عن مذهب العرب، لأن العرب تقول: أسود غريب، و أسود حالك و حلكوك، فتقدم السواد الأشهر ثم تؤكد، و هذه الآيه تخالف ذلك، فإذا بطل التأكيد فى المعنى (١٧)، و ما معنى

(فخر عليهم السقف من فوقهم) (النحل: ٢٦) و هل يكون سقف من تحتهم فيقع لبس يحتاج إلى إيضاحه بذكر فوق و تحت؟ (١٨) و نحو منه قوله تعالى).

ص: ٨٦

- ١- التسميه معروفه و لكن الدلاله مختلفه، إذ كانت اللفظه تدل على كل ما نبذ في الدباء و المزفت فاشتد، و لكنه كان شيئا غير الخمر و لهذا نجد القلمس يقول في الخمر: أروى بها نفسى فتحيا بشرها و لا أشتهى شرب النبيذ من التمر
- ٢- ذلك هو حديث عبد الله بن جعفر عن حليمه السعديه و كانت قدمت المدينه تطلب ولدا ترضعه و معها شارف - و هى ناقيه مسنه: فلما قدر لها أن تكون مرضعه للرسول در ثدياها و درت الشارف " و قام صاحبى إلى شارفى تلك فإذا بها حافل فحلب ما شرب و شربت حتى روينا " و ذلك بعد أن قالت: " ما يجد فى ثدى ما يغنيه و لا فى شارفنا ما يغذيه " (أسد الغابه ٥: ٤٢٧).
- ٣- قال ذو الرمه " وقفنا فقلنا إيه عن أم سالم " - بكسر الهاء - قال الأصمعى: أخطأ ذو الرمه إنما كلام العرب إيه (بالتنوين) و قال يعقوب بن السكيت أراد إيه (بالتنوين) فأجراه فى الوصل مجراه فى الوقف و كذلك قال ثعلب، كما قال الزجاج إنه ترك التنوين للضرورة و لكن أبا على الفارسى انتصر لذى الرمه و قال: أما هذا فالأصمعى مخطئ فيه.. ديوان ذى الرمه: ٧٧٩ و اللسان و التاج (إيه).
- ٤- يقول الأزهرى و ابن دريد و الجوهرى و غيرهم من اللغويين أنها "سجاح" مثل قطام، و لم أعر على من أجاز أن تكون مثل "غمام".
- ٥- قيل سمي بذلك لأنه كان يسكن أرضا بالبحرين تعرف بعينين (الشعر و الشعراء: ٣٧٣).
- ٦- الصكه: شده الهاجره، يقال: لقيته صكه عمى و صكه أعمى و هو أشد الهاجره حرا. و قال بعضهم: عمى اسم رجل من العماليق أغار على قوم فى وقت الظهيره فاجتاحهم. و يقال هو تصغير أعمى مرخما. و أنشد ابن الأعرابى: صك بها عين الظهيره غائرا عمى و لم يعلن إلا ظلالها.
- ٧- معديكرب اسم يمنى يرد فى النقوش، و هو سبأ محض. و لا تنطبق عليه التفسيرات التى يوردها لغويو عرب الشمال.
- ٨- نسب المبرد هذه الأبيات للرعى (الكامل ١: ٢٨١) و فى ظنه أنها للرعى النميرى، و بين الآمدى الأمر فى المؤلف: ١٧٧ إذ قال إنها للرعى الكلبى و اسمه خليفه بن بشير بن عمير بن الأحوص.
- ٩- أورد المبرد هذا الحديث فى الكامل (١٢٩: ٢) و قال: ليس هذا بناقض لما جاء فى إعفاء اللحى و إخفاء الشاربين.
- ١٠- ورد الحديث فى النسائى (صيام: ١٨) و ابن ماجه (صيام: ٢٢) و الدارمى (صيام: ٩) و مواضع متعددة من مسند أحمد، منها: ٣٧٧: ٢، ٤٧٧، ٣: ٣٢، ٩٩ (انظر معجم ألفاظ الحديث).
- ١١- ورد فى البخارى (أدب: ٣٤، زكاه: ١٠، رفاق: ٥١، توحيد: ٣٦) و مسلم (زكاه: ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٨٠) و الترمذى (قيامه: ١، زهد: ٣٧) و النسائى (زكاه: ٦٣، ٦٤) و ابن ماجه (مقدمه: ١٣، زكاه: ٢٨) و الدارمى (زكاه: ٢٤) و مسند أحمد ١: ٣٣٨، ٤٤٦، ٤: ٢٥٦، ٢٥٨، ٢٥٩، ٣٧٧، ٦: ٧٩، ١٣٨.
- ١٢- الحديث فى البخارى (الجمعه: ٢٩ و مناقب: ٢٥ و مناقب الأنصار: ١١).
- ١٣- تورده الكتب الأدبيه، انظر مثلا الشعر و الشعراء: ٦٧ و ليس فى الأحاديث المتعلقة بامرئ القيس ما هو قوى مقبول منها.
- ١٤- ورد فى البخارى (أدب: ٩٠) و الترمذى (أدب: ٦٩) و ابن ماجه (أدب: ٤١) و الدارمى (استئذان: ٦٨) و مواضع كثيره من

مسند أحمد منها ١: ٢٦٩، ٢٧٣، ٣٠٣، ٣٠٩... إلخ.

١٥- حديث "أعطيت جوامع الكلم" في مسلم (مساجد: ٥-٨ و أشربه: ٧٢) و البخارى (تعبير: ١١) و الترمذى (سير: ٥) و مسند أحمد ٢: ١٧٢، ٢١٢، ٢٥٠، ٢٦٤... إلخ و حديث "بعثت بجوامع الكلم، في البخارى (جهاد: ١٢٢ و تعبير: ٢٢ و اعتصام: ١) و النسائى (جهاد: ١).

١٦- يرى الزمخشري أن عدم الاختلاف هنا معناه عدم التناقض و التفاوت في مستوى النظم و البلاغه و المعانى، و صدق الخبر.. (الكشاف ١: ٥٤٦-٥٤٧).

١٧- قال الزمخشري: فان قلت: الغريب تأكيد للأسود، يقال أسود غريب و أسود حلكوك.. و من حق التأكيد أن يتبع المؤكد كقولك أصفر فأقع و أبيض يقق و ما أشبه ذلك قلت: وجهه أن يضمر المؤكد قبله و يكون الذى بعده تفسيراً لما أضمر كقول النابغه "و المؤمن العائذات الطير" و إنما يفعل ذلك لزياده التوكيد حيث يدل على المعنى الواحد من طريقى الإضمار و الإظهار جميعاً (الكشاف ٣: ٣٠٧).

١٨- الوجه فى "فوق" هنا فى قوله "و هو القاهر فوق عباده" أى أنهم يخافون ربهم عالياً قاهراً لهم (انظر الكشاف ٢: ٤١٣)، و قوله "كلمح البصر أو هو أقرب، أى كما تبالغون أنتم حين تستقربون شيئاً (نفسه: ٤٢١)، و قوله "إليه اثنين" الوجه فيه: أن الاسم الحامل لمعنى الافراد و التشبيه دال على شيئين على الجنسيه و العدد المخصوص فإذا أريد التأكيد على أن المقصود هو العدد شفع بما يؤكده فقيل إليه اثنين أو رجل واحد.. إلخ (نفسه: ٤١٣) و يأخذهم على تخوف أى و هم متوقعون و قيل هو أن يأخذهم على أن ينتقصهم شيئاً بعد شىء فى أنفسهم و أموالهم و بذلك تكون الرأفة و الرحمه حيث يحلم عنهم و لا يعاجلهم مع استحقاقهم (نفسه: ٤١١).

(يخافون ربهم من فوقهم) (النحل: ٥٠) و هل لهم رب من تحتهم؟ و ما معنى فوق هاهنا، و هل تدل على اختصاص مكان؟ و ما معنى قوله (كلمح البصر أو هو أقرب) (النحل: ٧٧) و ما هذا الأقرب؟ و ما معنى قوله (فهى كالحجاره أو أشد قسوه) (البقره: ٧٤) و هل شىء أشد قسوه من الحجاره؟ (١) و ما معنى قوله (إلهين اثنين) (النحل: ٥١) و هل بعد قوله (إلهين) إشكال بأنهم أربعة فيستفيد بقوله اثنين ثبات المعنى؟ و ما معنى قوله (أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى) (البقره: ٢٨٢) هلا كان أوجز و أشبه بالمذهب الأشرف فى العرييه؟ و ما معنى قوله (أو يأخذهم على تخوف فان ربكم لرءوف رحيم) (النحل: ٤٧) و من أين تناسب الرأفه و الرحمه هذا الأخذ الشديد على الخوف الذى يقتضى العفو و الغفران؟ و على أن هذا السائل لو علم لسال عن الصناعه التى أنا بها مرتسم، و بشروطها ملتزم، لا فى الترسل فانى ما صحبت به ملكا، و لكن فى صناعه الخراج، فكان يجب أن يقول: ما الباب المسمى المجموع من الجماعه (٢) و أين موضعه منها، و أى شىء قد يكون فيه و لا يحسن ذكره فى غيره؟ و أن يقول: ما الفائده فى إيراد المستخرج فى الجماعه و من كم وجه يتطرق الامتثال عليها بالغايه منها؟ و أن يقول: ما الحكم فى متعجل الضمان قبل دخول يد الضامن، و أى شىء يجب أن يوضع منه إذا أراد الكاتب الاحتساب به للضامن من النفقات، و خاصه من جارى العامل، و فيه أقوال تحتاج إلى بحث و نظر؟ و أن يقول: إن عاملا ضمن أن يرفع عمله بارتفاع مال إلا أنه لم يضمن استخراج جميعه، و ضمن استخراج ما يريد على ما استخراج منه خمس سنين إلى سنته بالقسط، كيف يصح اعتبار ذلك. فيه كمين يحتاج إلى تقصيه و تأمله؟ و أن يقول: لم يقدم المبيع على المستخرج، و المبيع إنما هو من المستخرج، و كيف يصح ذلك؟ و أن يقول: أى غلط يلزم الكتاب و أى غلط لا يلزمه؟ و أن يقول: متى يجب الاستظهار للسلطان فى صناعه الخراج و متى لا يجوز الاستظهار له؟ و أن يقول: متى يكون النقص فى مال السلطان أسد فى صناعه الكتابه من الزياده، و لست أعنى نقص الارتفاع مع العدل، و عادل زياده مع الجور، فذلك ما لا يسال عنه، و أن يقول: ما باب من الارتفاع إذا كثر دل على قله الارتفاع، و إذا قل دل على جمام الارتفاع و وفوره؟ و أن يقول: متى تكون مشاهده الغلط أحسن فى صناعه الكتابه من عديمه؟ و أن يقول: كم نسبه جارى العمل من مبلغ الارتفاع و أول من قرره و رتبته؟ و أن يقول: ما رتبتان من رتب الكتابه إذا اجتمعنا لكاتب بطلت أكثر حججه فى احتساباته؟ و أن يقول: هل يطرد فى أحكام الكتابه حملها على مناصبه أحكام الفقه أم لا، و هل يذهب (إلى ذلك) أحد من متقدمى الكتاب، و ما الحججه فيه، و بالله التوفيق.

فصل له من رقعہ

فى الرد على كتاب وصله

(٣) وقفت على كتابك و لم أزل أثلّمه، كانى قد ظفرت باليد التى بعثته، و أضمه كانى أضم الجوانح التى نفثته، و كانى كلما أدنيتة إلى الكبد المعذبه ببعدهك، و أمررتة على العين المطروفه بفقدك، سحبت على النار ذيل السحاب، و سقيت عطش الحب كاس الرضاب، و أعرت أخوا سبعين ظل الشباب، فأرخت يوم قدومه لأجعله موسما للسرور، و عيدا باقيا على الدهور، أرتقب السعد عنده كل عام، و أنتظر الفرج منه من كل غرام، و اتفق وروده فى أشرف فصول الدهر حسبا، و أكرم مفاخر الأيام نسبا، حين ابتدأ (٤) الربيع يزخرف بروده، و الروض ينظم عقوده، و كنت أعرف هذا الفصل باعتدال منهاجه، و صححه مزاجه، و أنه لو كان الزمن شخصا لكان له مقبلا، و لو أن الأيام غوان لكان لها حليا و حللا، لأن الشمس تخلص فيه من ظلمات حوت السماء، خلاص يونس من ظلمات حوت الماء، فإذا وردت الحمل وافت أحب أوطانها إليها، و أعز مساكنها عليها.

و فى فصل منها: فىا حسن تلك الصخفه و مدادها ينتهب بالأفواه، و يزىد بالتقيل لعسا فى الشفاه، و فىا عجا كيف حفظ مع بعد العهد نشر عرفك، و كيف علق مع تراخى الأيام طيب كفك، و كيف جاء كأنك كتبتة من أمم، و أنفذته و بيننا خطوه قدم، و كيف لم يغيره ما قطع من مهاول قفار، و ليل و نهار، و عدو كاشح، و رقيب لامح، فأنعم به من ريحانه ألفاظ دامت لدونتها، و باكوره وصال سلمت غوضتها(٥)، و مسحه يد بقى أثرها أرجا، و روضه كلم دام على الصيف بهجتها(٦).

و فى فصل منها: فاما سؤالك عنى فما يشبه سيرتك الحسنى، و لا يليق بطريقتك المثلى، كيف تسالنى و الاجابه معك؟ و كيف تستخبرنى و محل الخبر و الاستخبار عندك؟ و متى سمعت بجواب جسد رهينه؟ و أين رأيت طماح عين لواحظها مقيده كليله؟ ألم أفارقك و قلبى عندك أعشار، و أضلعى منه قفار؟

و من فصل له يصف الموصل حين ورودها

وردت الموصل التى خالف اسمها معناها، و كانت مقطعا بيننا لو لا خدع الأمانى، و فضلا لو لا المرجو من عفو الليالى، فوجدت هواءها يعطل سوق بقراط اعتدالا و طيبه، و ماءها يسلى عن مجاج النحل استمراء و عذوبه، و صقعها قد تبغدد رقه و لطفها، و جوها قد تزندق تنعما و ظرفا، تكاد تثقله عقود الغانيات، و يخجله تتابع اللحظات، كل شماله نسيم، و كل جنوبه حيا عميم، و رأيت أرضها أطيب الأرض خيما، و أزينها

ص: ٨٧

١- إن قلت لم قيل أشد قسوه و فعل القسوه مما يخرج منه أفعل التفضيل و فعل التعجب قلت: لكونه أئين و أدل على فرط القسوه، و وجه آخر و هو أن لا يقصد معنى الأقسى و لكن قصد وصف القسوه بالشده كأنه قيل اشتدت قسوه الحجاره و قلوبهم أشد قسوه (الكشاف ١: ٢٩٠) و لم يورد الزمخشري توجيها لتكرير كلمه "إحداهما" فى الآيه ٢٨٢ من سوره البقره. و ذهب أبو حيان إلى أنه أبهم الفاعل فى أن تضل بقوله "إحداهما" و لهذا أبهم الفاعل فى "فتذكر" فكرر إحداهما. إذ كل من المرأتين يجوز عليها الضلال و الأذكار فلم يرد بأحدهما معينه (البحر المحيط ٢: ٣٤٩).

٢- الموافقه و الجماعه حساب جامع يرفعه العامل عند فراغه من العمل. و لا- يسمى موافقه ما لم يرفع باتفاق ما بين الرافع و المرفوع إليه، فان انفرد به أحدهما سمي محاسبه (مفاتيح العلوم: ٣٨).

٣- الذخيره: ٤٩٦.

٤- ابتداء: مكرره فى ص.

٥- ص: غضاضتها، و هو عند بعض اللغويين جائز، و أنكره على بن حمزه، و الالتزام به هنا غير ذاهب مع السجع.

٦- كذا وردت العبارة فى ص، و لعلها "دام على الصيف زهرها بهجا" أو ما أشبه.

أديما(١)، تنسج بالسندس الأخضر، و تفتقر عن الأقحوان الأحمر، و ألفيت بنيانها هو الذى حمده الله فى تنزيله(٢)، و أحبه لنا أن نكون مثله جهادا فى سبيله، مرصوفا بوقاح الجلمد، ملاء ما بينه بالشيد الممرد، قد حصن ظاهره على باطنه عن تداخل الابر، و مساكن الذر، يزل عنه ظفر الطائر، و تسدحرج عليه أحداق(٣) الناظر، و تغنى به العروس عن الماوى المنير(٤)، و تستبين به الجفون منابت الشكير من أهدابها و الغمير، متلاقيه أقطارها على رجال كأنهم أنسلاء عاد وثاقه أجسام، و صلابه أحلام، و بعد مرام، لطفوا عن بدويه الشام و غلظته، و جمدوا عن ذوب العراق و خلايته، قد عقدت ألسنتهم بالصدق فما ينتثر الباطل من عذباتها. و صحت غرائسهم فى الموده فما يجتنى الغدر من ثمراتها، إن سلما فسلما و إن حربا فحربا، لا يعرفون تدليس الأخلاق، و لا تمويه النفاق، و شعراؤهم(٥) ملء اليمين، و كتابهم أثر بعد عين، أدبهم (حسن)(٦) على قله الملوكى فيه، و علمهم متقن لمن تأمل أدق مسرب(٧) فى فتن معانيه، قد محص تهذيب المحن شرارهم و أوهن خيارهم، بلدهم أطلال، و أحوالهم آل، قويهم يثن ضعفا، و ضعيفهم يماطل حتفا، بقيت عليهم أسمال النعم و ذهب الدهر باجسامها، و انجلت عنهم ظلل المحن و هم يتأوهون من غير آلامها، إلا أن فيهم بقيه نقيه، و فيهم موضع تدارك إن رزقوا سيره مرضيه، فلولا ما أرجوه من مداواه أسقامهم، و إعاده صالح أيامهم، لقضانى الانتماء بمعاشيتهم قبل معاناتهم، و بملاحظتهم قبل مقاساتهم، لكنى أعلم أن من يحيى العظام و هى رميم، و يبعث(٨) الروض و هو هشيم، و ينشئ (... بعد ما كانت قفارا، و يجعل من الشجر الأخضر نارا، قادر على أن يجعل ثواب نيتى فيهم معونتى على ما أنويه لهم، و جزاء تأملى بهم بلوغ الغرض فى تدارك رمقهم.

و فى فصل من رساله له

(٩) لو أطقت تفصيل المجمل، و إيضاح المشكل، لجرت لك به يدى طلق الجموح، و لأغنتك أسماره عن الوتر الصدوح، إلا أن القلب عليل، و خاطر كليل، و الزمان ببلوغ الأمل بخيل.

فصل من رساله بعث بها إلى ذى السعدين

(١٠) للرئاسه كلف لا يستقل بها إلا المهذب الكامل، و لا يخطو تحت أنقالها إلا الأوحى الفاضل، و لا يبلغ ذوائب أعاليها، إلا من شرب الأجاج من ماء واديهها، و لا- يلذ بملكها إلا من أعلى المهر من كريم مساعيه، و لا يفض ختامها إلا من جعل منزله الخطوب سلكا لعقود أيامه و لياليه، و لذلك قيل ما أنشدته استبصارا، و أنا إلى إيراده أبين إصرارا:

لا تحسب المجد تمرا أنت آكلهلن تبلغ المجد حتى تعلق الصبرا

(١١)

و إن سياسه الأقوام فاعلملها صعداً مطلعها طويل

(١٢)

و يظلموا فترى الألوان مسفرهلا خوف ذل و لكن فضل أحلام

و يحتاج الرئيس إلى أعوان يظهر بهم كمين مكارمه، و يمضى فيهم و بهم ماضى عزائمهم، فلولا الطالب لعاش الكريم مطويا على

حسرات أوطاره، و لو لا الخاطئ لما وجد الحليم لهذه حلمه و وقاره، و كلما كان التابع أبعد مذهبا فى معناه، كان المتبوع أشد جذلا بظهور مناقبه و علاه.

و فى فصل: و قد كانت منى كبائر تكنفتها معاذير لا أشين وجه العفو بإيرادها، و لا أنتقص جملة الصنف و الغفران بتعدادها، فى أن لم أفتح مناسكى بالسعى إلى حضرته، و لم أبدأ من مطالب شرعى بالتوفر على خدمته، و قد علم الله أن ذلك ليس من اعتلال بصيره بشرف الانتماء إليه.

و لا انخفاض همه عن سعادته المثل بين يديه، و لا إمعان فى البدويه - و إن كنت من أهلها - حتى أذهل عن مطلع النير الأعظم من الأفق الذى سكنت ظله، و مفيض الفرات الأعذب من البلد الذى استوطنت محله، و لا أن ذكره لم يكن فى تلك الأوطان زينه الأعياد، و حليه البلاد، و أنس الحاضر و البادى، و بلغه المسافر و الحادى، و لا أنى لم أكن ذكى الخاطر بتلاوه ماثر آلائه، و مستشفيا بنسيم الريح من أرضه و سمائه، و معجبا بما جمع الله فيه لعفاه أهل الأدب، بل السراه أهل الرتب، و معنى قول القائل:

يأتيك عن فهم الثناء عطاؤه عفوا و تلك عطيه المستبصر

كرم تكشف عن حلى آدابه كالبحر يكشف غمره عن جوهر

كتابه إلى رئيس اعتنق الإسلام

(١٣) و كان فى ذلك الأوان بمدينة (تكريت، رئيس) (١٤) ممن يشار إليه، و يعول قومه عليه، فرأى فى منامه (١٥) النبى ع مع على بن أبى طالب، و حضاه على الإسلام، و وجد فى الإنجيل ما دلّه على البشاره بمحمد ع، فاستدعى إلى الحضرة ببغداد، و طيف به فى سائر البلاد، فكتب إليه ابن المغربى رقعته قال فيها:

و يعلم الله ما ورد على و على كفاه من حضر من المسلمين من السرور بما أبان الله (١٦) من آيه قطعت عذر الجاحدين، و (حجه) (١٧) استهلكت شبه

ص: ٨٨

١- ص: ديما.

٢- يعنى أنه بنيان مرصوص يشد بعضه بعضا (انظر الآيه ٤ من سوره الصف).

٣- ص: أكداه.

٤- الماوى: حجر البلور أو المرآه.

٥- ص: و سفراؤهم.

٦- ليس فى موضعها بياض فى ص.

٧- ص: متقن من... مسربا.

٨- ص: و يبلى (دون إعجام).

٩- الذخيره ٤:٤٩٨.

١٠- الذخيره ٤:٤٩٩ و ذو السعادتين هو الحسن بن منصور أبو غالب و كان وزيراً للسلطان البويهى بهاء الدوله ثم وزير بعده لسلطان الدوله (٤٠٩) ثم ثالثه لمشرف الدوله (سنه ٤١٢) و توفي فى هذه السنه نفسها.

١١- من أبيات تنسب لرجل من بنى أسد (شرح المضمون: ٤٧٣).

١٢- ورد البيت غير منسوب فى اللسان و التاج (صعد)، و أكمه ذات صعداً: يشتد صعودها على الراقى.

١٣- الذخيره ٤:٥٠٥.

١٤- بياض فى ص، و زدته من تاريخ المسيحي: ٢٣٥ ب و الرئيس المشار إليه هو أبو مسلم مشرف بن عبيد الله، و كان يعرف بالمطران الكبير، رئيس اليعاقبه، و يذكر المسيحي أن إسلام الرجل تم يوم الخميس السابع من جمادى الأولى سنه سبع (...). و أربعمائه و أن الوزير المغربى أرسل إليه هذه الرساله من ميفارقين، و قد أورد المسيحي جانباً من الرساله لم يورده ابن بسام، و انقطع فيها بضياع الأوراق ما أورده صاحب الذخيره ما عدا سطرين منها.

١٥- ص: منها.

١٦- المسيحي: سرورا بما أتى الله جلت قدرته.

١٧- زياده من المسيحي.

العاندين الجاهلين، لا أن هذا الدين - بحمد الله - مفتقر من بعض حواشيه، إلى بينه تزيد فيه، و لا أن الاستدلال الصادق كان ترك شبهه إلا فضحها، و لا معجزه إلا أوضحها، و زائغا إلا قومه، و جاهلا إلا علمه، و ركنا للباطل إلا خفضه، و عقدا للشرك إلا نقضه، إلا أن المخالفين قد شغلت الدنيا أكثرهم عن التأمل، و حجبت العادات خواطرهم عن التأول، فبعد بالحجج السالفه ذكرهم، و اشتد إلى البراهين المستحدثه فقرهم، فكان أبلغ (برهان) إقبال مثله إلى المحججه عن غير رغبه استفزته، و لا- رهبه هزته، و لا- محاسده أغرته، و لا- مناظره عزته، بل أطلق عنان عقله و مد به راشدا حتى وقفه على الصراط المستقيم، و استتلاه قاصدا حتى أوردته إلى المنهج السليم، فوردت النعمه بتخير صافيه غير مكدره، و المنحه فى استثمائه و افيه غير مقصره، فهنا الله الإسلام ما لا يزال يتولاه به من إيضاح مناره، و تبلج أنواره، و إدامه صبحه ضاحكا تتصدع عنه دياجير الشبهات، و تنجلي منه ملابس الضلالات، و هنا الله الشيخ ما رآه له أهلا من هذا السناء الذى تقف دونه همم المعالى، و تضىء به ظلم الليالى، و غرس عنده التوفيق الذى يسترهن لواء النعمه، و يضمن بقاء العصمه.

رسالته إلى أبي العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعرى وأخيه

(١) بسم الله الرحمن الرحيم و به توفيقى هذه أطال الله لسيدى الشيخين فى سبوغ النعمه البقاء، و أدام لهما فى ذروه المجد الارتقاء، و جعلنى لهما من كل سوء الفداء و الوقاء، نفثه مصدور، و ضجره مأسور، بعثتهما صبابه هوى تذكيها نار الغرام، فى صبابه لقاء تفلها أيدى السلام:

بقية شلو كسر البين عظمه و مزق جلدا كان يستر ما بقى

أقام فلا تلك الخوافى تطيعه نهوضا و لا تلك القوادم ترتقى

و لا- بد للمصدور أن ينفث، و لا- غرو للماسور أن يتلث، و جملتها أنى كتبت و ما لى جارحه إلا و هى جريحه جبهما، و لا جانحه إلا- و هى جانحه إلى قربهما، و لا قلب إلا و هو كيفما تردد و تقلب ففى مرضاتهما، و لا نفس إلا و هو كيفما تصعد و تصوب ففى موالاتهما، فالله يحرس على موقدى جزل الغضا بين جنبى، و موفدى جيش الصبابه كل يوم إلى، اللذين إن واجهت بهما المروءه أسفر مربدها، و سر مكدها، و إن قابلت بهما الفتوه طلع سعدها و أورى زندها:

أردد فيهما فكرى فترجع حسرا فكرى

كذاك الشمس تثنى العين معشاه عن النظر

فإذا هاجت بلابلى ذكراهما، و إن كنت لا أنساهما، و اشتقت أن أراهما، و لم أجد عوضا ممن سواهما:

أروم بالذكر شفاء الذى يقلقنى من لوعه الذكر

و لست بالحاصل إلا على إطفاء جمر بلظى جمر

و عله الكون إذا طولبت بالجرى فى الإفساد لم تجر

مثلت نفسى لديهما، وقررت مكانها بين أيديهما:

وخلوت أجتلب الرقاد لعلى ألقى خيالا منهما فاراهما

فإذا عدمت النوم لذت بفكرتى فانجاب لى من ليلتى فجراهما

وإذا سئلت بمن تهيم صباحه قلت اللذان هما اللذان هما هما

الموفيان بعهدى بالغيب، و الساتران لما فى من عيب، و المحسنان إلى إذا أسات، و المصيبان فى أمرى إذا أخطات:

دليلى إن جار بى مهتد و عونى إن خذل الناصر

و لو لا تردد فكريهما لما كان لى فى الدجى سامر

من أجتلى غرر محاسنهما من جهات الدهر، و أقرأ فضائلهما فى صحائف العصر و أطلع طلعتيهما فى مرآه التخيل و أشاهد سميتيهما بعين التفكير و التأمل، و لا غرو و إن بعد العهد، إذا قرب الود، و لا ضير إن تناءت الأشباح، فقد تدانت الأرواح:

و لكن إذا حاسبت نفسى تأملت فلم تر إلا فكره قل ما تجدى

فلا العين ترعى غير ما كان من نوى و لا القلب يلقي غير ما كان من وجد

و إنى لجانى البعد و البعد قاتلى و شاحذ حد البين و البين لى مردى

فوا أسفا من ذا ألوم على النوى و من قبلى كان الفراق و من عندى

و كم قد أقلت الدهر من خطأ ثنى فهلا أقال الدهر من خطأ فرد

فنفس من كرب و فرج من أسى و جمع من شت و قرب من بعد

و هيهات هو الدهر الذى يسر نادرا و يسوء مبادرا، و يحسن مبتدئا و يسوء آخرأ:

و وجود ثم يجيد أخذ صلواته مستدركا خطأ الجميل فمدركا

فإلى الزمان أذم ما ألقاه من غير الزمان و أستنيم إلى البكاء

و إذا شكوت إلى سواه صنيعه لم يشكنى فإليه منه المشتكى

فلعله أن يغلط باجتماع، لا يكدره انصداع، أو تلاق لا ينغصه افتراق، و هو المرجو من طول الله تعالى. و لو لا ما أرجوه من عوده إلى ما عود من جمع الفريقين، و لم ذات البين، لمت كمدا، و لم أجد على ما أقاسيه جلدا. فاما حالى و ما أنا عليه، فجملتها أنى

أصبح و أمسى فى غل التدبير، و أروح و أغدو فى سجن المقادير، هدفا لسهام الليالى و الأيام، و غرضا لأسنه الأحوال و الأعوام،
أجد ما لا أريد، و أريد ما لا أجد:

و ليتنى من زمانى خرجت رأسا برأس

فلم ينلنى بخير و لم يصبنى بياس

و كنت أصبح حرا بين ارتجاء و يأس

و هما يريان ذلك فى اضطراب خطى، و رجوع أفاضلى شيئا فشيئا إلى حطى، فإذا هما صرفا التأمل إلى، و أقبلا بكلية فهمهما
على، وجدانى:

و قد استحال الهم بى فتخالنى من طول ما أجد الجوى مسرورا

و قد انطوت منى الضلوع على أسى لو كان محسوسا لكان سعيرا

و أخلق بمن كانت هذه صفته، أن تتساوى عنده الصحة و السقم، و أحر بمن كان هذا نعتة أن يتمثل لديه الراحة و الألم:

باى فؤاد أفاسى الهموم و فى أى جفن أحس السهادا

و ما ترك الدمع لى مقله و لا خلف البين عندى فؤادا

و أنا مع كمال هذه الأحوال أخاشن الحجر، و أحاسن القمر و أفاضل الهجان بالهجن، و أفضل الغثانه على السمن:

أتعاطى نرح الركى و قد قصر عن أن ينال ماء رشاء

ص: ٨٩

و لعهدى بفكرتى و هى تنجاب بها عن صباحها الظلماء

غير أنى و إن تعاورنى الهم و شاء الزمان ما لا أشاء

و رمانى مستيقنا أن قلبا بين جنبى صخره صماء

لا أبالى بالليل طال أم اليوم، كلا الربتين عندى سواء

و المغادى هو المراوح من همى فهذا الصباح ذاك المساء

و إذا العين لم تعاین سوى السوء فسيان ظلمه و ضياء

و ابنى الهم لا ابنه أنا إذ كل ابن هم بليه عمياء

و بعد فهذا - أدام الله عز سيدى الشيخين - قول أستغفر الله منه، و أساله التجاوز عنه، و أسلم للمحتوم فى أمره، و أرضى بقدره فى خيريه و شره، و أساله الجمع بينى و بينهما على حال تسر الولى و تسوء العدو بحوله و طوله، إنه ولى الاجابه و القادر عليها، إن شاء الله تعالى.

خطبه له بين يدى الحاكم

وقف أبو القاسم الحسين بن على المغربى خطيبا بين يدى الحاكم فقال (1): السلام على أمير المؤمنين بقدر استحقاقه من ربه، لا بقدر مقال عبده، و لا زالت الدنيا بعزه حاله الأجياد، و الأعوام بسناء دولته مصقوله الأطراف، حتى تعود الأعياد بين أيامه فى عموم المسره و إشراق نور الخلافة، و حتى أقف بين يديه خطيبا بنعمه الله جل و عز فى إنجاز ما وعده من ملك المشرقين و المغربين، و حتى أرى سيوف انتقامه تشكو الظماء و تتعلل بالأمانى، لا عدوا أبقت بتلهلها علقا (؟) و لا عن باغ ذهلت، رويت برويها دما صبيبا. (كذا).

هذا الطاغى ملك الروم بقسطنطينيه قد كان خرق إزار السلم، و هتك حجاب الأمن، و أطلق مقال الحرب، و ظن ما أجرى من الحديد، و صوب من مجارى الجنود، عاصما له من جند الله و ملائكته المسومين، و ستر على ما أنزله الله من الفتح المبين، حتى ضعضعه زلزال الحروب، و أذابته نار الوقائع، فعاد يفتل جبل الهدنه، و يمد إليك أمير المؤمنين كف الرغبه، فلما أفرشته مرآقد الإمهال، و أسكنته تحت ظل القرار، عاد يسترى و يمترى، فهب يشغب قصد القنا، و يستن فلول القضب، فكيف بنبش الرسم و إحياء الموتى، ألا و إنى أقول لكم يا قومنا معشر أنصار أمير المؤمنين، كما قال أخو خزاعه:

قاتلوا القوم يا خزاع و لا يدخلكم من قتالهم فشل

القوم أمثالكم لهم شعر فى الرأس لا ينشرون إن قتلوا

(قاتلوهم حتى لا تكون فتنه و يكون الدين كله لله) (البقره):

(و لا- تهنوا فى ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون و ترجون من الله ما لا يرجون) (النساء: ١٠٤) و (عسى أن يكون ردف بكم بعض الذى تستعجلون) (النمل: ٧٢).

هلموا رحمكم الله، هلموا نصركم الله، هذا باب الزلقى مفتوح، هذا رواق الجنه ممدود، هذا أمير المؤمنين لكم أمير، هذا جبريل و فتنه لكم ظهير و نصير، (و لينصرن الله من ينصره) (الحج: ٤٠) (فان حزب الله هم الغالبون) (المائدة: ٥٦) و ايم الله يا أمير المؤمنين، لو لم يكن لك إلا هيبتك جند، و إلا فرسك معقل، و إلا ذا الفقار سله، و إلا عذبتى لوائك ظلال، لدمغهم سلطان الحق، و رشقتهم سهام النصر، و التقت عليهم خيل الله بالظفر، و لكان الرعب فى القلوب خليفه سيفك فى قصر الهامات (و إن لك موعدا لن تخلفه) (طه: ٩٧) و (إن نصر الله قريب) (البقره: ٢١٤).

ثم إنى يا أمير المؤمنين عبدك و وليك ابن أوليائك، إن شئت كنت جمره تسعر فى صدورهم، أو سحابه تفيض على القتال، فاجلو عن بصائرهم بالمواعظ، و أحلل عقد صدورهم بسحر البيان، و إن شئت فاقمنى بحضره سرير عزك خطيبا بنعم الله عليك، و ناظما بسيره أيامك، و سنانا تدرأ به نحر كل خطيب أشرق فى ملكك غير ملكك، فو الذى أقامك بالحق إماما، ما سرنى بنظره نظرتها إليك ملء الأرض ذهبا، و لئن كنت نعم الامام و نعم الراعى، لأنا بنس المؤتم و بنس الرعيه، و إنى لأصدق الناس قولا حيث أقول فيك يا أمير المؤمنين:

(أنت) أعطيتنى كتابا إلى رضوان حتى أجزت خير الجزاء

رساله فى السياسه

١ - حق على من رسم رسما فى السياسه أن يجعله فى غايه الاختصار، لأن المقصود بفائدته العظماء، و هم مخصوصون بكثره الأشغال، و التسرع إلى الملل. على أن أفضل ما فى الناس عموما، و فى السلطان خصوصا، محبه العلم و التشوق إلى استماعه و التقريب لحمته، فان ذلك دليل على قوه الإنسانيه و من أعظم ما يتحجب به إلى الرعيه. ثم فيه مع ذلك، استعراض للتجارب، و استعداد للنوائب، إذ كانت أخبار الأولين تدل على آراء تجلت لهم أوائلها، و احتجبت عنهم عواقبها. و نحن بتاملنا ما آلت إليه أمورهم، و أثمر لهم تديبيرهم، نعلم من آرائهم الأول و الآخر، و الهوادى و الصدور.

٢ - و السياسات ثلاث: سياسه السلطان لنفسه، و سياسه لخاصته، و الثالثه لرعيته. فالسائس الفاضل إنما يصلح نفسه أولا. ثم يصلح بسياستها رعيته، و ما يحملها عليه من الآداب الصالحه لرعيته، فينشأ الصلاح على تدريج و تسود الاستقامه على تدريج.

باب

إصلاح السائس نفسه

٣ - فمن إصلاح نفسه: إصلاح بدنه، لأنه كالعقاب لنفسه، و الوعاء لجنسه: و أول ما يلزمه من إصلاح جسمه تمرينه على أذى القر و الحر، فان الإنسان فى هذه الدنيا على جناح سفر، و بإزاء غرر و غير. و الرئيس متى اتصل نعيمه، و رق أديمه، بان أثر

المشقه عليه، و ظهر الجور و العجز منه.

٤- و من مصالح الجسم تجويد صنعه الطعام، فان استطابه المأكل تقوى الطبيعه على الاستمراء و الهضم، و بالضد أن لا يتناول منه شيئاً إلا بعد استمراء ما أكله قبله، و نقاء المعده منه.

و قال لنا "صاعد": استعمل الرياضه اللائقه بك، و لا تكظ المعده، و قد أمنت الأمراض كلها.

٥- و من الحكمه فى الغذاء أن يكون لونا أو لونين متجانسين فان

ص: ٩٠

١- الدوادارى: الدرہ المضيه فى أخبار الدوله الفاطميه (الجزء السادس من كنز الدرر) تحقيق صلاح الدين المنجد (القاهره ١٩٦١) ص ٣٠٩-٣١٢، و قال المؤلف: و هذه الخطبه لم تثبت فى رسائل أبى القاسم إلا أنها ثابتة فى سيره الحاكم. قلت: و النص فيه اضطراب و تصحيف كثير.

اختلاف الألوان يؤدي إلى سوء الاستمرار، و يجب أن يعتمد الحكيم على ذلك، و يوفر غيره مما تزين به الموائد على ندمائه و جلسائه.

و من الحكمة فيه أن لا- يستوفى نهمته كلها منه حتى يملأ-المعدة، لأن الطعام إذا بدأ بالنضج ربا و انتفخ، فان لم يجد في تجويف المعدة متسعا أعقب الكظه.

٦- و من الحكمة في الشراب أن لا يبلغ الحكيم منه مبلغا يزيل العقل و يصدئ الذهن، بل ما يكسب هزه و أريحيه. و أقبح ما بالسلطان أن يبلغ آخر أمد السكر، فيبقى سلطانه في ذلك الوقت مهملا، بل يجعل لنفسه وظيفه يتعلل يشربها و لا يتعدها، و يتناول منها في أول مجلسه كثوسا وافر، توقد نار الطبيعه و تذكيها. ثم يتعلل بعدها بما يستديم المؤانسه إلى أن ينقضى وقت الشراب، و هو ثمل طيب النفس، غير زائل العقل. و ليحذر النهوض عن مجلسه و قد انتهك الستر بينه و بين خدمه و حاشيته.

٧- و من الحكمة في الشرب إغبابه، و أفراد يوم له ليتناوله على جمام له و نشاط إليه، فتتوفر لذته و يكون أكثر زمانه لما يهيمه.

٨- و من الحكمة فيه إخلاء المجلس له إلا من أخص الندماء (و) قد اطرح الحشمة معه، و أن لا يحضر خدمته إلا العدد اليسير الذي لا يستغنى عن خدمتهم.

٩- و الصبر على السهر من أشرف صفات الملوك، و غلبه النوم من أدونها، و يجب أن يسهر ربع الليل الأول، و يستيقظ و قد بقيت منه بقيه صالحه، و أن يستعين بنوم النهار، لأنه لا يخاف من طروق حوادثه و فوت تلافياها. (و) مما يخاف من حوادث الليل جلب الحوادث الهائله، و لذلك وجد في الحيوان المخلوق للحراسه كالكلاب و الأوز طبيعه السهر.

١٠- و من حفظ الصحه الحمام، و فيها استفراغ فضول الأطمعه و الأشربه. و الملوك إلى ذلك أحوج من الرعيه، لأن الرعيه تنفى ذلك عنها بالحركات و الصنائع الشاقه. و من احتاج إلى تنقيه بدنه من الفضول بالحمام، فليدخل البيت الثالث، بمقدار ما تحتمله طبيعته. ثم يصب على جسده بعده ماء فاترا، ليجفف المسام، و يرد الحراره إلى قعر البدن و يمنع من كثره التحلل. و إذا خرج منه فليحذر كل الحذر، مبادره الأكل و الشرب، إلا- بعد استراحه و نومه يسكن بها ما عرض في بدنه من التموج و الاضطراب، فان ذلك خطر و جالب لكثير من العلل.

١١- و الرياضه من أعون الأمور على حفظ الصحه، فلتكن أمرا قصدا، و بحسب العاده و الاحتمال. و من أصلحها للملوك اللعب بالصولجان، لأنه مع الرياضه تخفيف للحركات، و تعود للمثاقفات.

١٢- و أول سياسه الملك لنفسه: استعمال تقوى الله تعالى، و أن لا يخلى وقته من ذخيره يدخرها بينه و بين ربه. ثم الإكثار من تذكر نعمه الله عليه في أن رفعه و خفضهم، و ملكه تدبيرهم، و فضله عليهم. فليواصل حمد الله تعالى عليه، و يجعل من مجازاه نعمه الله عليه العدل فيما و لاه، و الإحسان إلى من استرعاه، و السهر لنومهم، و التعب لحراستهم، و أن لا يظن أن غرض الوالى تحصيل الراحة و الدعه، بل هو أحق الناس بالتعب، و أولاهم بالنصب.

١٣- و اللذات إما مباشره للأعمال ببدنه، أو تفكر فيها بقلبه، و السائس الفاضل لا راحه له بالحقيقه، و لا طريق له إلى اللذه، إلا

بمقدار ما يجم نفسه فى أوقات يسرقها من زمان شغله. فيجب أن يوازن بها ما يتعوضه عنه من جميل الذكر، و جليل الذخر، ثم رضى سلطان له إن كان فوqe. و لا رتبه أبهى من رتبه العز، و لا زينه أجل من زينه المقتدر النافذ الأمر، و لا حليه أحسن من حليه الشناء و الشكر.

فهذه لذات الساسه الحكماء، و أعواضهم من الكد و العناء، و إن هم حفظوا الأصول فقد ينالون الفروع، التى هى اللذات، فى أوقات لا تخل باشغالهم، فيجتمع لهم الأمران.

١٤ - ثم ليحذر كل الحذر من تأخر عمل يوم إلى غد، فان لكل وقت شغلا. و هذا الخلق من المدافعات بالمهمات أدهى الدواهى، التى تتابع لها الخلل، و انهدمت لها الدول.

١٥ - ثم ليجتهد أن يجعل طاعه الخاصه و العامه له طاعه محبه لا طاعه رهبه. فإذا أطاعوه محبه حرسوه، و إذا أطاعوه رهبه احتاج إلى الاحتراس منهم. و شتان بين حالين: إحداهما تجعل الناس حراسا، و الأخرى تحوجه إلى الاحتراس منهم. و لسنا نعى بزوال الرهبه خلو قلوب الرعيه منها بالموجده و إنما نعى أن يكونوا فى حال رهبتهم له، واثقين بعدله آمنين من تعسفه و ظلمه، فتكون الرهبه حينئذ كمخافه الولد الوالده، بفرق أو بأدب، و هو يعلم أنه لا يريد إلا خيرا له.

١٦ - و رأس السياسه إنجاز الوعد و الوعيد، و مكافاه المحسن و المسىء، و الوفاء فى الجد و الهزل، و الاستخدام بالكفايه لا بالغايه، و التيقظ للأخبار فى القرب و البعد. فمن أحرز هذا الفصل، و أحاط بمعانيه أحاط بالسياسه كلها، و بالله تعالى الثقه.

١٧ - و ليجتهد فى إحراز الحظ الجزيل من فضائل النفس و هى: العلم و العفه و الحلم و السخاء و الشجاعه:

فمن العلم معرفته بما ياتى و يذر، و شده بحثه عن كل ما جل و دق.

و من العفه تنزهه عن المكاسب التى فضلتها الرعيه، و يجتهد أن تكون وجوه دخله مناسبه لجلاله قدره و علو منزلته، لا يهتك فيها للدين و لا للمروءه ستر، و لا يبعث بها على أحد من الرعيه انتقاصا و ظلما.

و من الحلم تأخير عقاب المقصر إلا بعد تكرير تنبيهه، و الأعضاء عن أول و ثان من جرمه، فإذا انقطع العذر أوقع العقوبه بموقع السياسه لا الشفى، و العدل لا التعدى.

و أما السخاء فان لا يمطل حقا، و لا يخيب أملا، و لا يؤيس قاصدا، فإنه يستعوض بعز الولايه و جاه القدره خلفا من كل ما ينفقه. و ليعلم كل وال أنه و كيل الله على ماله، و أن عليه حقا واجبا لكل ابن سبيل، و منقطع به. فليخرج إلى موكله مما يلزمه له، و إلا لا يأمن من استبداله به و حفظه عليه.

و من الشجاعه أن يشعر قلبه أنه لا يجوز أن يكون الجبان ضابطا لأمره، و لا حارسا لرعيته، و أنه إذا استشعر أعداؤه و أولياؤه ذلك طمعوا فى عطفه، و تدرجوا إلى اطراح مراقبته، و أن يجعل وكده كله جمع الرجال و الأسلحه و الخيل و العدد.

١٨ - و إن وثق السائس بتحصيله فليدرس أخبار الماضين، ليجنب

أقبحها و يعتمد أصلحها، فإنه باب عظيم من أبواب السياسة.

باب

سياسته الخاصة

١٩ - اعلم أن سياسته الخاصة ليست كسياسته العامه، لأن سياسته العامه استحفاظ طاعتها، وإقامه الرغبه و الرهبه فيها، وإفاضه المعدله عليها، من غير أن يحدث نفسه إلزامها الآداب الصالحه، فان ذلك عسير لا يرام. لكن الخاصه يجب أن يعتنى بإصلاح أخلاقها، و تهذيب آدابها، لتقوى على حقوق الخدمه التى تلزمها. و إذ كانت للرئيس، فهى كالأعضاء للبدن، فمتى لم تكن الأعضاء على الهيئه الفاضله، أو عرض لها أمر يثنى كلها أو بعضها عن فعله الأسمى الموظف له، وقع الاضطراب فى جملة البدن.

٢٠ - و أول ما يجب اعتقاده فى هذا الباب أن السائس لا يستغنى عن تثقيف خاصته، و تفقد أحوالهم، و تقويم زيفهم، و إن كانوا حصفاء أسدادا. مثله فى ذلك كالصانع الذى يحتاج فى صنعه إلى آلات، و تلك الآلات لا يجوز أن تبقى على حالها مستقيمه بل منها ما يكل فيشحذه، و يعوج فيقومه، و يفسد فيصلحه. و كذلك السائس يجب أن تكون له عين راعيه، تتفقد أصحابه ليتلطف فى تثبيت صلاحهم و نفى فسادهم بما يتهيا.

و مما يحتاج إليه فى هذا المعنى أن لا يعتقد أنه إن استغنى أو استكفى كافيا أمرا يهمله، فقد استغنى عن تفقده و تعهده، بل يجب أن يتصور أنه مضطر إلى مراعاته، و ملاحظته بنفسه، كالأستاذ فى الصنعه، الذى يكل إلى تلاميذه ما يصنعونه، إلا أنه يراعيهم ليأمن خلاا يجرى فيه.

و هذا أصل عظيم ينبغى أن يوقف الفكر عليه و الاهتمام به.

٢١ - و يجب أن يستخدم خواصه على المخالسه و المحبه الصرف بلا مزاج، و طريقه أن يستعمل معهم أربع خصال.

أولها: الإحسان إليهم، فقد "جبلت القلوب على حب من أحسن إليها"، و أن يتفقد أحوالهم فيلم شعثها ابتداء قبل المسأله، ليدل على خلوص الاهتمام و لطف العنايه. فان قليل الابتداء أهنا و أحسن موقعا من كثير العطاء بعد السؤال.

و ثانيها: بسط آمالهم بالعفو عن الزلل.

و الثالث: أن لا يستقصى عليهم فى أزمته خدمتهم، حتى لا يجدد ترحه لراحه نفوسهم و لذاتهم. و لكل إنسان وطر يجب أن يقضيه، و يتنصص عيشهم بمناقشته فيه، و يلحقهم بالاستقصاء ضجر و ملال، يفسد الخدمه.

فإذا ساهلهم الرئيس بعض المساهله كانوا فى خدمته أنشط، و محبته أبدا فى قلوبهم تنمى و تتجدد.

و الرابع: أن يؤمنهم إسراعه إلى قبول كثير من ثقل الأصحاب.

و أقل ما يوجد فى الناس الكافى الأمين، فإذا اجتمعا فهو الجواهر الثمين:

١ - فاما كاتب الرسائل فمن يوثق بكتمانه، بليغ في بيانه، فان العبارة الحسنه تؤثر آثارا عجيبه في القلوب، و يكون متفننا في العلوم، و أن يطالب فيوجد عنده علم كل ما ورد إليه و صدر عنه، في أوقاته.

٢ - و أما الحاجب فطلق الوجه مقبول الشمائل محبب، ليوصل من يصل بإكرام، و يصرف من لا يؤذن له برفق و لطف كلام. و يجب أن يعرف طبقات الناس كلها، لينزلهم منازلهم، و يطالب بانهاء كل من يحضر في وقته.

٣ - و أما جابى الأموال فحسن المعامله للرعيه، منصف منتصف، مع طلق نفس، و طبيعه في التمشيه و الرفق، و أن يعتبر في كل وقت بمسأله عن دخله و خرجه.

٤ - و أما قائد الجيش فيكون شجاعا فارسا عارفا بآلات الجنديه، ذا حظ من الرأى، و يطالب بمعرفه أحوال الجند المضمومين إليه، ليعرف الحاضر من الغائب، و يلزمهم الباب، في أكثر الأوقات، بالعدد التامه، ليرهب بذلك رسل الملوك، و جواسيس الأعداء.

٥ - و صاحب الشرطه مهيب المنظر عبوس، جليل في العيون، غير ذى دعابه معروفه، و يؤخذ بالاشتداد على أهل الريب، و يتبعهم في مكامنهم، صاحب ثقه معروف بالصدق، ناصح أمين، معتدل الطباع، قليل العلق في المعاملات، و لا يقبل عثره من كذب بنهيه، فان التدبير كله على قوله:

٦ - و الحاكم يجب أن يكون عالما عاقلا مأمون الباطن غنى النفس.

٧ - و المحتسب أمين ثقه حميد السيره عارف بوجوه المكاسب و الغشوش و مصالح الرعيه.

و مظالم الناس صنفاً: صنف ظاهر كالفسق المجاهر به و نحوه، و صاحب الشرطه يتولاه. و صنف مكتوم، و المحتسب يتولاه. و ربما كانت مظالم هذا النوع أعظم ضرراً من النوع الآخر لأنها خافيه لا يهتدى إليها.

٨ - و المختار المتوجه في الرسائل حسن الرواء، مقبول ناصع اللسان حافظ لما يقوله و لما يقال له، يؤمن في التحريف و التمويه.

باب

سياسه العامه

٢٢ - العامه هي الموضوع الذى بكثرتة يتسع الملك، و كلما كثروا كان الملك أوسع. و إصلاح العامه عسير لكثرتهم، و قله التمكن من مداواه الفساد العارض فيهم. فان الملك، عند اضطرابهم، إن رام شفاء غيظه منهم لم يتم له ذلك، إلا بخراب بعض العماره، و بلوغ ما زعزع من أركان السياسه. فليجتهد في حفظ نظامهم، و أن لا يحوجوا إلى بلوغ هذه الغايه فيهم.

٢٣ - و يستدل على حزم الملك بحسن سياسه الرعيه، و جمع كلمتهم على طاعته، للتباين الموجود في أهوائهم. و إن الشده و العنف لا تصلحهم، و اللين و المساهله لا تجوز في معاملتهم، فمنهم من تفسده الكرامه، و منهم من تفسده الاهان.

٢٤ - و أول ما يجب في سياستهم: معرفه طبقاتهم، و تمييز سرواتهم، فيطالبهم بالخدمه له، و السعى إلى بابه، إلا من ظهر عذره و بان عجزه. و لا يجوز للزهاد و العلماء الانقطاع عنه، إلا من وقعت اليمين الخالصه بانقطاعه إلى الله تعالى بالكلية و اعتزال الكافه. و يترك ما تختلط به الرعيه، كأبي على ابن أبي الهيش على شأنهم، و التبرك بدعائهم و الحذر من الإثم فيهم.

و أما من دونهم، من المتشبهه بهم، فليوسعوا عدلا و استخداما، و لا- يكونوا من التصون عن مجالس الملوك، و السعى إلى أبوابهم، فان في ذلك

ص: ٩٢

فسادا، قد شرحة "أردشير" فى "عهده"، يغنينا عن ذكره.

و هؤلاء الذين يطالبهم الملك بقصد بابه، فلهم عليه حق يقتضى تعرف أخبارهم، و صيانه جاههم، و ترتيبهم فى مراتبهم، و اختصاص كل واحد منهم من ذلك، بما يقتضيه طبعه فى الخير و الشر و النفع به و الضر.

ثم يبالى فى إكرام الأخيار من الطبقات التى دون ذلك و قمع الأشرار، و قصد من يتحقق بطاعته بمجازاه تزيد فى بصيرته، و الإنحاء على من ينحرف عن موالته بما ينكله و ينكل غيره عن مثل طريقته، ثم إفاضه العدل العام الذى ينال كل منهم نصيبه الموفور منه. ثم تسهيل الأذن بقلع الظلم من أصوله، و غرس محبه الوالى فى قلوب الرعية. ثم حفظ أطرافهم و أمان سبيلهم، لتتوفر معاشهم، و تدر متاجرهم، و استعمال العقوبه الناهكه بأهل الدعاره و اللصوص من القتل المبير و الحبس الطويل، فهم كالشوك بين الزرع، لا ينمى و لا يصلح إلا بتنقيته منه. ثم التعطف على الضعفاء و ترفيهم عن الكلف السلطانيه، من تسخير لهم أو استعانه بهم.

٢٥ - و ليعلم أن كثيرا من الفتن تهيج بشكايه الضعفاء، و حقد الأغنياء. و يجب أن يتناول ما بعد منهم من السياسه و العدل بمثل ما يتناول به القريب أو أكثر، و ليس بسائس من خص بحزمه بعض ملكه. و مثل العارض البعيد، إذا لم يستدرك عاجلا، كمثل العضو يسقم من البدن، فان تلوفى و إلا سرى فساده فى الجسد.

٢٦ - و لا يكون الملك لشيء أنكر منه لرشا العمال و الأصحاب، فإنها رأس الجور و الفساد، و صلاح الأطراف البعيده بشيئين: رفع الحجاب للمتظلمين، و بعثه فى كل وقت الأمناء الثقات المتعرفين.

٢٧ - و مما يحتاج إليه - و قد مر نبذ منه -: تعهد ذوى الأخطار و العلماء و أهل الأبواب بالتقريب، و اختصاص الواحد منهم بعد الواحد بالتانيس و الإكرام و المؤاكلة و المنادمه. و لا- يجعل أنسه كله مقصورا على خاصته، و ليكن ما يفعله من أمر هؤلاء الأمائل بددا غير محصور، و الغرض فيه الإيناس و إزالة النفور.

٢٨ - ثم إحسان مجاوره جيرانه فى الممالك التى تلى مملكته، فحاله معهم كحال الواد من السوقه مع جيرانه، لما أسست عليه الدنيا من الحاجه إلى التعاضد. و أن يبالى فى بر الواردين عليه من رسلهم، و أن يتصنع لهم بتفخيم مجلسه، و إظهار جماله و زينته، و مظاهره بره لهم و تكرمته. و الله الله أن يطيل حبسهم عنده، ففى ذلك من الفساد ما يطول شرحه، و المده التى يقيمونها، فليكونوا محروسين ملحوظين من مخالطه أحد من الخاصه و العامه إلا من عرفه الملك.

٢٩ - ثم يتفقد مدينته بل مدنه كلها بضبط طرقها، و معرفه من يدخلها و يخرج منها، و الوقوف على الكتب المختلفه إلى أهلها من التجار و غيرهم، و ليضبط مدينته ضبط الرجل من الرعيه داره، و لا يخرج عنها أحد إلا بجواز، و لا يدخلها إلا باذن.

٣٠ - ثم يوكل فكره بالأخبار، و البحث عن الأسرار فيما قرب منه و بعد عنه، و جاوره من ولى و عدو، و مبلغ ما عندهم من عده، و ما يتجدد لهم من عزيمة. و هذا أمر يجب أن يسمح به بكل نفيس، و لا- يظن عنه بمال و لو كثر، فربما دهمه من مجاوريه، على غفله، ما يود لو سبق به علمه و لو أنفق الأموال الجزيله عليه، و بالله التوفيق. و كتب إلى بعض الرؤساء: ثقتى بكرمك تمنع من اقتضائك، و علمى باشغالك يبعث على إذكارك.

و كان يقول: لا تعتذر إلى من لا يحب أن لا يجد لك عذرا، و لا تستعن إلا بمن يجب أن تظفر حاجتك.

و مر بمكتب و المعلم يضرب صبيا ضربا مبرحا، فالتفت إلى من معه و قال: إن الله تعالى أعان على عرامه الصبيان برقاعه المعلمين.

و من كلامه: العمر علق نفيس لا ينفقه العاقل إلا في ما هو أنفس منه.

قال الحسن بن أسد أبو نصر الفارقي: مر بي الوزير المغربي فوقف على و قال: نحن بالأشواق إلى لقاءك، لما ينتهي إلينا من تلقائك، فلو زرتنا لأنسا بك، فقلت له: قد كفت ذيل مطامعي بيت قلته، فقال: و ما هو؟ فأنشدته:

إذا شئت أن تحيا عزيزا فلا تكن على حاله إلا رضيت بدونها

قال: فصفق المغربي و قال: أيها الشيخ هذا بيت تبر لا بيت شعر.

قلت (ابن العديم): وجدت هذا البيت في بعض الكتب منسوبا إلى شاعر قديم (1).

نصوص من أدب الخواص

أنشد (2) يوما سيف الدولة أبو الحسن بن حمدان في مجلسه القافيه التي أولها:

"إن الخليط أجد البين فانفرقا"

يعنى من شعر زهير بن أبي سلمى، فأبدى استحسانا لها، فقال النامي المصيصى أبو العباس أحمد بن محمد الدارمي: أراك كلفا بها أفتحب أن أمدحك بخير منها؟ قال: نعم أشد الحب، فلما كان بعد أيام لقيه راكبا على نهر حلب المسمى قويق، قال:

فترجل و وقف عليه سيف الدولة، و أخذ ينشد قصيده في غايه الحسن أولها:

ما أنت منى و لا الطيف الذى طرقا ردا الكرى و استردا منى الأرقا

فأراد سيف الدولة كياهه و العبث به، فاعرض عنه و أظهر استنقاضا لشعره، فقطع الإنشاد فى وسط القصيده و ركب و مضى، و سيف الدوله يراه، إلى شاطئ النهر، فخرقها و غسلها، فاحتمله سيف الدوله و لم ينكر ما كان منه، و درست آثار هذه القصيده فليس توجد فى ديوانه.

امرؤ القيس (3) بن السمط بن امرئ القيس بن عمرو بن معاويه بن الحارث، و هو الولاده، سمي بذلك لكثرة ولده، ابن معاويه بن ثور بن مرقع الكندي، و فيه يقول امرؤ القيس بن حجر:

ألا هل أتاها و الحوادث جمه بان امرأ القيس بن تملك بيقرا

و ذلك أنه كان قد صحبه حين خرج من عند المعلى يريد قيصر فلم يزل

ص: ٩٣

١- فيما رواه الحميدى (جذوه المقتبس: ١١٨) عن ابن حزم أنه قال، أنشدنى الوزير أبى فى بعض وصاياه لى: إذا شئت أن تحيا غنيا فلا- تكنعلى حاله إلا- رضيت بدونها و والد ابن حزم توفى قريبا من أربعمائى، و حوار الحسن بن أسد الفارقى و الوزير المغربى تم فى ميفارقين و ذلك بعد سنه ٤١٥، فمن المستبعد أن يكون هذا البيت للفارقى، بل هو أقدم عصرًا منه، و وصل الأندلس قبل الأربعمائى.

٢- بغيه الطلب ٣٦:٢.

٣- بغيه الطلب ٣١١:٣.

معه إلى أن فارقه بأرض الروم، فلذلك قال: "بيقر" أى سافر، وقيل أتى أرض العراق، و تملك: والده السمط، وقال آخرون من أهل النسب ثقات: الذى عناه امرؤ القيس هو امرؤ القيس بن المنذر بن امرئ القيس بن السمط والله أعلم (ذكر هذا كله أبو القاسم المغربى فى كتاب أدب الخواص).

أول(١) ما سمع حجر من شعر ابنه امرئ القيس قوله:

اسقيا حجرا على علاته من كميت لونها لون العلق

و إنى لأستقبح أن يقول قائل لأبيه: "على علاته" و أظن ذلك هو الذى غاظ حجرا، فلما سمعه أمر الساقى بلطم وجهه و إخراجة و نهاء عن قول الشعر، ثم سمعه يوما و هو يشرب من فضله أبية و هو يقول:

و هو [هر] تصيد قلوب الرجال و أفلت منها ابن عمرو حجر

يعنى هر بنت سلامه بن عبد الله بن عليم من بنى كلب، و ابنها الحارث، و هو الملقب بالخرساء، و قيل إن هرا جاريه كانت لأبيه، و الأول أصح، فوثب إليه أبوه فضربه، و أمر مولى له أن يقتله فلم يقتله، و أظهر قتله، ثم ندم على ذلك...

و قيل إنه لما قتل حجر تنازع امرؤ القيس ابنه و ثعلبه بن مالك أحد بنى عمرو بن معاوية بن الحارث بن معاوية بن كنده فى الملك بعده، فاجمعا للحرب، فاکمن امرؤ القيس أصحابه و برز إلى ثعلبه وحده و طعن فيهم فحملوا عليه فولى هاربا و هم فى طلبه، فخرج عليهم أصحاب امرئ القيس فكسروهم و أسر ثعلبه و قتله صبورا و قال:

لا و أبيك ابنه العامرى لا يدعى القوم أنى أفر

(٢) ...

(و) بعض الناس يظن أن وفاده امرئ القيس إلى الروم كانت للاستجاشه على بنى أسد و ليس كذلك، و إنما سببها أن المنذر بن ماء السماء اللخمى لما عاد إلى الملك أيام أنوشروان أنفذ فى طلب بنى آكل المرار جيشا من بكر و تغلب، فأسر منهم ستة عشر رجلا و قيل اثنى عشر فضرب أعناقهم بالحيره فى دور بنى مرينا، و هى تسمى لذلك تل الأملاك، و لذلك قال عمرو بن كلثوم:

فأبوا بالنهاب و بالسبايا و أبنا بالملوك مصفدينا

و نجا امرؤ القيس بالهرب و لجأ إلى هانىء بن مسعود بن عامر بن عمرو بن أبى ربيعة بن ذهل بن شيبان فاستجاره فلم يجره، فاتى سعد الضباب الأيادى و كان سيد قومه فى وقته فاجاره زمنا فمدحه و هجا هانىء و قيل إن أم سعد كانت تحت حجر فطلقها و هى حامل فتزوجها الضباب فولدت عنده سعدا فنسب إليه. ثم تنقل فى الأحياء فى طيبى (و ذكر الوزير كثيرا ممن نزل عليه ثم قال): إنه نزل على المعلى بن تيم بن ثعلبه بن جدعان بن مقصور و اسمه لوذان بن ذهل بن رومان بن جندب بن خارجه بن سعد بن فطره بن طيبى، فلما تغيب المعلى عن بيته اغتتمها المنذر و قصد بيته و فتشه فادخل ابنه امرأ القيس إلى نسائه فلم يجده

عندهم، و عاد فمدحهم امرؤ القيس:

كانى إذ نزلت على المعلى نزلت على البواذخ من شمام

فما ملك العراق على المعلى بمقتدر و لا الملك الشامى

أصد نشاص ذى القرنين حتى تولى عارض الملك الهمام

أقر حشا امرئ القيس بن حجر بنو تيم مصاييح الظلام

فسموا مصاييح الظلام لهذا القول. ثم خرج امرؤ القيس من فوره يريد قيصر.

[و ذكر أبو عمرو عثمان بن بحر الجاحظ فى تقدير ما بين رسول الله (ص) و بين امرئ القيس أنه نحو مائتى سنه أو مائه و خمسين سنه و أورده فى الحيوان] و قال الوزير ابن المغربى: و الصحيح الذى يوجه التقريب فى التقدير أن بين مولد النبى (ص) و بين موت امرئ القيس خمسا و خمسين سنه، و بين مولد النبى (ص) و بين هجرته ثلاثا و خمسين سنه.

و قيل إن امرأ القيس لما حصل عند الملك مستغيثا به على من قتل أباه من العرب زوجه الملك بابنته و أعطاه الرجال و خرج من عند الملك، فتخلفه الطماح قبيحا و أوغر عليه قلب الملك و قلب ابنته فأعطاه خلعه مسمومه و قال:

الحق امرأ القيس و ادفع إليه هذه الخلعه و قل له: إن الملك أكرمك بهذه الخلعه من جسده، ففعل، فأعطاه الحله فلبسها، و علم أنها مسمومه فقال:

و قد طمح الطماح بى من بلاده فلبسنى من دائه ما تلبسا

و بدلت قرحا داميا بعد نعمه فىا لك من نعمى تبدلن ابؤسا

(و) إن امرأ القيس بن حمام الكلبي تبع امرأ القيس بن حجر حين قصد ملك الروم حين خرج من عند المعلى يريد قيصر و مر بكلب، فتبعه منهم امرؤ القيس بن حمام الشاعر، و كان من المعمرين و عاش مائتى سنه فيما قالوا:

نصوص من كتابه

المأثور فى ملح الخدود - ١ - حدثت (٣) عن أبى على أحمد بن نصر المعروف بابن البازيار الأديب الكاتب الظريف، و كان قد صحب سيف الدوله رحمه الله دهرا فذكر الحكايه (حكايه أعرابى قدم على غير و شككا إليه أنه أفقر عشيرته فقال له عليك بالاستغفار).

- ٢ - (بعد أن ذكر الحسين بن سعيد بن حمدان قال) (٤): و أخواه أبو الهيجاء حرب ابن سعيد كان بالعراق و تلك الديار، و كان جليلا ممدحا، و فيه يقول سرى بن أحمد بن السرى الكندى:

و لو لم أكن جار الأمير لكان لى أديم بظفر النائبات ممزق

بجود أبى الهيجاء ألست نعمه مجدده تضافو على و تشرق

ص: ٩٤

١- بغيه الطلب ٣:٢٩٣، ٣٠٩، ٣١٠.

٢- علق ابن العديم عند هذا الموضع بما موجهه أن هذا البيت قاله بعد مقتل أبيه، مع أنه من القصيده التي جاء منها " و هر تصيد
قلوب الرجال " و قد أفاد أنه قاله و أبوه حى، و هذا تناقض.

٣- بغيه الطلب ٢:٨٨.

٤- بغيه الطلب ٤:٩٥.

و فيها يقول:

إذا ما اعتنقنا خلت أن قلوبنا تناجى بأفعال النوى و هى تخفق

و له فيه:

أنت سعد الكفاه يا ابن سعيد و كفاهم بان تراءوك سعدا

أنا حر إذا انتسبت و لكن جعلتني لك الصنائع عبدا

- ٣ - و من (١) ولد أبى الهيجاء أبو محمد الحسن و أبو الحسن على: ناصر الدوله و سيفها رحمهما الله، المتجاذبان ملاءه المجد، و الجاريان على ساقه الكرم و الفضل، و فى مدحهما يقول أبو العباس أحمد بن محمد الدارمى النامى المصيصى رحمه الله:

بجبلى وائل ركنى عزها و عارضى أفق نداها المنهمل

توازن القسمان فى المجد اعتلا تساوى العينين فى اللحظ اتصل

يا حسن ابن المحسنين دعوه للمجد تدعاها و أخرى للوهل

و يا على كم دعاء بك من ثغر مخوف و رجاء مبتهل

هذا مقامى بين بحرین فلا ثمدا منحت ظماى و لا وشل

- ٤ - قال الوزير (٢): و حدثنى أبى قال: سألت الحسين بن بكر الكلابى النسابه قال: و كان أحفظ خلق الله لأنساب العرب و أخبارها و مثالبها و مناقبها عن السبب فى استردال العرب غنيا و باهله فقال: و الله إن فيهما لفضلا غزيرا و فخرا كثيرا، غير أنه غمرهما فضل أخويهما فزاره و ذبيان من غطفان بن سعد بن قيس عيلان، و كذلك أصغر من فى ولد حمدان أكبر من كبراء غيرهم.

- ٥ - سعيد بن حمدان (٣) بن حمدون بن الحارث بن لقمان بن الرشيد بن المثنى بن رافع بن الحارث بن غطيف بن محربه بن حارث بن مالك بن عبيد ابن (٤) بن عدى بن أسامه بن مالك بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب، و اسم تغلب دثار، و بعض حساد هؤلاء القوم يرميهم بالدعوه و يقول إنهم موالى إسحاق بن أيوب التغلبى، و ذلك باطل، و أصله أن كثيرا منهم أسلموا على يد إسحاق هذا، فتطرق القول عليهم لأجل ذلك، و قد قال الشاعر:

إن العرائن تلقاها محسده و لن ترى للناس حسادا...

كان أبو العلاء سعيد بن حمدان ملازما بغداد و خاصا بحضرة المقتدر، قالوا: فكانت أكثر مواقفه على بابہ (و كان أمر الرجاله قد عظم) و كانوا فى بعض الأوقات ساروا إلى قصر المقتدر مشغبين عليه فهزموا محمد بن ياقوت و الحجريه و الساجيه، و كان أبو

العلاء فى دار المقتدر على غير أهبه، فأمره بالخروج إليهم و دفع إليه جوشن المعتضد بالله و درع و صيف الخادم، فظاهر بينهما و خرج مع من حضر من غلمانة، فضرب فيهم بالسيف و غشوه من كل باب و أثخنوه بالجراح فثبت حتى هزمهم، فقال فيه هوبر الكنانى من ولد هوبر صاحب تغلب فى حرب قيس و تغلب قصيده يمدحه فيها، منها:

يبرزون الوجوه تحت ظلال الموت و الموت منهم يستظل

كرماء إذا الظبا واجهتهم منعتهم أحسابهم أن يزلوا...

و كان أبو العلاء شاعرا يعد من شعراء بنى حمدان، و كان أوقع بينى عقيل بموضع يقال له شرح من أرض العالیه، وراء نجد، فظفر بهم بعد قتال شديد و قال:

نبئتها تسأل عن موقفى بأرض شرح و القنا شرح

و عن عقيل إذ صبحناهم و قد تلاقى الحسر و الدرع

و قد أتانا منهم فيلق حام حماه ما له مدفع

شدت فيهم شد ذى صوله قد جربته الحرب لا يخذع

إذ فلتت هام أسود الوغى و قطت الأسواق و الأذرع

(و وجدت فى هذه الأبيات زياده قرأتها بخط الوزير أبى غالب عبد الواحد بن مسعود بن الحصين و هى بعد البيت الثالث):

حتى إذا ما كشرت نابها و عيف كاس الموت لا يكرع

تجنى نفوسا بين سمر القنا فهى ككر الطرف أو أسرع

و بعد بقيه الأبيات ختمها بقوله:

لا تزجرينى عن طلاب العلاما إن ينال العز من يضرع

أنا سعيد و أبى أحمد بالسيف ضرى و به أنفع

أراد بقوله: و أبى أحمد "حمدان" لأن اشتقاقهما واحد.

و غزا أبو العلاء سنه تسع عشره و ثلاثمائه فأوغل فى بلاد الروم و قتل و سبى و غنم، و كان معه خمسة آلاف فارس من العرب، كل ألف بلون من الرايات و العذب على أرماعهم، و هذا منظر عجب إذا تصورته، و أبو العلاء فيما قالوا ضمن عن بنى البريدى ستمائه ألف دينار ثم أمرهم بالهرب، و دارى السلطان عنهم حتى أصلح أمرهم و أقرهم على أعمالهم فما دخلوا مدينه السلام إلا

مالكيها، و أهدوا إلى أبي العلاء هديه بالف ألف درهم فلم يقبل منها إلا عمامه خز.

٦- خالد بن الحارث بن أبي خالد قيس بن خلده بن مخلد، و قد قيل مخلد بن عامر بن روييل بن عبد حارثه بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج بن حارثه بن ثعلبه بن عمرو مزيقيا بن عامر ماء السماء بن حارثه بن امرئ القيس بن ثعلبه بن مازن بن الأزد و اسمه دراء بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان الأنصاري (هكذا نقلت نسبه من خط الوزير أبي القاسم الحسين بن علي المغربي، قال: و في صله نسب قحطان كلام ليس هذا موضعه)(٥).

قرأت بخط الوزير أبي القاسم المغربي، قال أبو محمد عبد الله بن محمد بن عماره النسابه المعروف بابن القداح مولى بني ظفر من الأوس في كتابه الذي صنفه لنسب الأوس و الخزرج: كان أبو خالد الحسن بن قيس هذا٦١.

ص: ٩٥

١- بغية الطلب ٤: ٢٦٠.

٢- بغية الطلب ٥: ٢٧٤.

٣- بغية الطلب ٥: ٢٧٤، ٨: ٢٩٣، ٢٩٤.

٤- قال ابن العديم (٥: ٢٧٤) و نقلت نسبه (أى حمدان) هكذا من خط الوزير أبي القاسم الحسين بن علي المغربي، و بيض ما بين عبيد و بين عدى و ضيب عليه، إما لأنه لم يعرف اسم من بينهما، و إما لأنه شك في ذلك.

٥- بغية الطلب ٦: ٣.

بدريا عقيبا و ابنه خالد و مخلد صحبا النبي (ص) و حضرا صفيين فقتلا يومئذ، و أمهما أميمه امرأه من بنى زريق من قومهما
فقال:

أعيني جودا بدمع سرب على فتيه من خيار العرب

و ما ضرهم غير حين النفوس أي أميري قريش غلب

تذييل

١ - أنفذ الوزير إلى أبي العلاء المعري قصيده فعلق عليها أبو العلاء بقوله:

" و الله لو لا أن يقال غاليت، لكتبت تحت كل بيت، فليعبدوا رب هذا البيت "

٢ - الرجل الذي توفي بجده و صادر أبو الفتوح أمواله يدعى: المطوعى و هو من الفرس، و كان عنده أموال الهند و الصين
(أي كان تاجرا يتعامل مع الشرق الأقصى) و خلف مالا عظيما و أوصى لأبي الفتوح بمائه ألف دينار ليصون بها تركته و الودائع
التي عنده.

٣ - كان للوزير المغربي مملوك، و كان شديد المحبه له، و كان روميا، و كان أحد أولاد بطارقه الروم، فبلغ خبره أباه، فسأل
ذلك البطريق ملك الروم أن يرسل من يستخلص ولده ففعل، و أنفذ رسولا إلى ابن مروان صاحب ديار بكر، فلما وصل الرسول
استدعاه الوزير المغربي و سقاه الخمر عنده تكرمه له، فلما عملت الخمر فى الوزير قال ذلك الرسول: أريد من إنعام الوزير
يبيعنى هذا الغلام، فقال: هو لك هبه، فأخذه من ساعته، و نفذه على خيل قد أعدت فى كل فرسخ فرس، فلما أصبح الوزير
استدعى الغلام، فقيل له: إنك قد وهبته من رسول ملك الروم، فاستدعاه من ساعته و طلب منه الغلام فقال: أيها الوزير، ذلك
قد قارب بلاد أبيه، بلى، مهما أردت من الثمن أعطيتك، فقال الوزير: ما كنت لأذهب محبوبى و مروءتى، قد وهبته منك
خالصا، ثم قال:

يا من غدا جبل الريان يحجبه ليس التصبر عن قلبى بمحجوب

أفلت قلبى من صدرى و أطلبه من بعد ما صار فى الشم الشناخيب

فاشمت و لا ترث لى مما أكابده يدي لعمر ك كانت أصل تعذيبى

علمتنى الحزم لكن بعد مؤلمه إن المصائب أثمان التجاريب

(قلت: انظر المقطوعه رقم: ١٤).

٤ - حدث العطوى الشاعر قال: دخلت يوما على الوزير المغربي بالموصل و هو جالس على ضفه نهر يخرق عرصه داره، و بين
يديه جاريه كأنها فلقه قمر تسقيه و تنادمه و هو يقول:

(1) فحكيت هذه الحكايه لأبى العلاء المعرى و أنشدته البيت فقال: هذا هو الطبع لا ما ينعه ذلك الرجل الذى يقول:

أبى ريقه أباريقه، أو كارها أو كارها

يعنى البستى.

- ٥ - حدث صاحب الوزير جمال الدين الأكرم، و ناهيك به معرفه لأخبار الأيام، خصوصا ما يتعلق بحوادث مصر قال: لما قدم أبو الحسن على بن الحسين و ولده أبو القاسم إلى مصر و بها الحاكم تلقاهما و أنزلهما و أكرمهما، و عرف لهما حق الكفايه و البيت و الأدب، و عين لأبى الحسن على بن الحسين خدمه. و اتفق أن دخل أبو القاسم يوما إلى الحاكم و كان أبو القاسم ذا هيئه و رواء و جسم و شاره مستحسنه، فأعجب الحاكم ما رآه من فخامه منظره، فخاطبه فوجده لسنا حسن المحاوره أديب الألفاظ، فخف على قلبه و نفق عليه و أمره بملازمه مجلسه، فتكلم أبو القاسم يوما بشيء استحسسه الحاكم فقال له: يا أبا القاسم احتكم فيما شئت حتى أبلغك، فقال: نعم يا مولانا، أحب أن تهب لى نفسى و لا تقتلنى، فتبسم الحاكم و قال: ما موجب هذا الاقتراح؟ فقال: يعلم مولانا أن العصمه تفرد بها الأنبياء و أنا فبشر أخطئى و أصيب، فأخاف بادره خطاء يكون فيها حتفى، و قد رأيت ذلك فى جماعه من أولياء مولانا، و السعيد من وعظ بغيره، فقال: لك ذلك، فقال أبو القاسم: أحب أن يكتب مولانا خطه بذلك، و يعطينى توثقه من نفسه به، فقد أوجب هذا الانبساط سوء الأدب فى لحظات تحكيم مولانا إياى.

فوجد من الحاكم وقفه فى ذلك، فقال له: لا بأس، نحن عبيد و المولى مالك، و أرجو أن لا آتى بما يكره مولانا، و أعيش فى نعمته على رضاه و ما يهواه، و لكن لى أخت لها من قلبى منزله أخاف عليها من الريح إذا هبت، إن رأى أمير المؤمنين أن يكتب لها أمانا على نفسها، و موثقا على بقاء مهجتها و صيانتها، فعل. فقال له لك ذلك على أن تعطينى موثقا أن لا تفارق حضرته إلا باذننى، فقال له: لك ذلك، و كتب كل واحد منهما بذلك خطه و أيده بيمين حلقها.

و خرج أبو القاسم من مجلسه و تهيأ من وقته للاستتار، فاحضر عجوزا ممن يوثق بعقلها و ديانتها، و أمرها أن تكترى دارا فى بعض المحال النائيه و تتردد إليها و تبيت فيها تاره و تنقطع أخرى، و لا تخالط أحدا من الجيران، و رتب ذلك مده سنتين أو ثلاث. فاتفق أنه استدعى يوما إلى القصر، فدخل و الحاكم جالس فى مستشرف الدار لم يره أبو القاسم، و كان فى اجتيازه قد وطئ نواه ثمره، فلما صار بجانب الحاكم جعل ينفذ نعله عده نوب حتى سقطت النواه، ثم التفت فرأى الحاكم، فقبل الأرض بين يديه، فوجد التغير فى وجهه، و الإنكار باد فى نطقه، و إن أظهر التجمل و الانبساط، فعلم أبو القاسم أن الحاكم قد ظن أن نفض نعله كان استهان به و احتقارا له، و علم أن الحاكم لا يقبل المعذره، فلما خرج من حضرته مضى إلى الدار التى أعدتها تلك المرأه و استتر فيها. و طلبه الحاكم فلم يوجد، و (استفسر) من أبيه فأنكر أن يكون عرف له خبرا أو وقف منه على أثر، فاعتقل أباه و جميع أهله و أوقع بهم، و جاء بأخته المذكوره فعلقها و طلب منها أخاها و ضربها ضربا موجعا، و نادى فى البلد بالتماسه فلم يوقف له على خبر، فاخرج أباه و أخاه و جماعه من أهله إلى المقطم - جبل مطل على القاهره - و ضرب أعناقهم صبرا، ثم خرج بنفسه حتى وقف عليهم و أمر برفعهم

١- انظر المقطوعه رقم: ١٣

و غسلهم و تكفينهم و دفنهم، و رجع إلى داره بالقصر، و جلس للعزاء بهم، و حضرهم الناس و عليهم ثياب الحزن. و هذا من أعجب تلون هذا الرجل - يعنى الحاكم - فإنه كان متناقض الأحوال متباين الأقوال و الأفعال.

و اتفق أن حضر بمصر جماعه من شرفاء الحجاز على عاده لهم كانت لهم بالحضور بمصر للاستجداء و طلب الصلح، فوصلهم الحاكم بما جرت عادتهم، و خرجوا إلى ظاهر القاهره مبرزين قصدا للعود إلى بلادهم، و بلغ ذلك أبا القاسم فسير من اشترى له مهرية مثل جمالهم، و لبس لبسهم، و خرج حتى اختلط بهم و هو متلثم، و خرج الحاكم لوداعهم، فتقدموا إليه و خدموه و استأذنه في الرحيل، فقال لهم: امضوا على بركة الله. و كان في من تقدم إليه أبو القاسم، فلما رأى مشيته قال لواحد من جانبه: ما أشبه مشيه هذا الشريف بمشيه ابن المغربي، و رحلوا و رحل معهم.

قال الصاحب: فبلغني أن ابن المغربي فارق الجماعه و جلس في جبل المقطم بموضع يقال له الجبل الأحمر، حتى ركب الحاكم على عاده كانت له منفردا مع غلامين له إلى ذلك الجبل، فلقية أبو القاسم في جماعه ممن كان يثق إليهم، و قد خرجوا إليه معدين، فلما رأهم الحاكم خاف و استشعر، و عرف أبا القاسم المغربي فقال له: يا أبا القاسم، غدرت بك، فقال: لا بأس عليك، و إنما أحببت أن لا أفارقك حتى أواقعك على غدرك، ما أعطيتني موثقا من الله أن لا تسيء إلى تلك الحرمه المسكينه؟! فقال: حملني الغضب عليك لكونك فارقتني بغير إذن، و قد حلفت ألا تفعل إلا بامري و إرادتي:

فقال له: أما أنا فما فارقتك حتى استأذنتك، فقال له: و متى استأذنتني؟ قال: في يوم كذا لما أذنت للشرفاء، فاني تقدمت حتى سمعت خطابك و أنت تقول: امضوا مصاحبين على بركة الله، فدخلت في العموم، فقال له الحاكم: إذا كنت قد خرجت من هذه بحجه، فلنك على عهد الله أن أطلق أختك و ألحقها بك، فتركه المغربي و توجه إلى العراق، و رجع الحاكم إلى القاهره، و جهز خلفه من يرده فلم يظفر به حتى لحق بيني الجراح و أغراهم بخلع الحاكم...

(قلت: و هذه قصه تنطوي على عجائب و غرائب، و لعل للخيال نصيبا و افيا فيها).

- ٦ - يستفاد مما ذكره ياقوت أن ابن المغربي تسلم الأمان من الحاكم فكان أن أخذ رقعته و كتب فيها:

أ أنشب كفى في الرحي ثم أرتجى خلاصا لها إنني إذن لرقيع

- ٧ - أنشد أبو القاسم المغربي حال خروجه من مصر:

و نفسك فز بها إن خفت ضيما و خل الدار تندب من بكاهها

فانك و اجد أرضا بأرض و لست بواجد نفسا سواها

(قلت: و لعله تمثل بهما، فلم أجد من نسبهما إليه).

- ب - سقط من الرساله التي كتبها إلى رئيس اليعاقبه حين أسلم، و هذا نصها: بسم الله الرحمن الرحيم: كتبت إلى الشيخ الجليل - أطال الله بقاءه - و هذا دعاء من حقق الله رجاءه إذ كان من سبقت له الحسنى، و أدرك من شرف الآخرة المنى، فكل يوم من

أيامه دهر سعيد، و كل وقت من أوقاته أمد بعيد، و لأن من كان اهتداؤه تذكره للمهتدين فهو شريك في أجور أعمالهم و قسيم في ثواب أفعالهم، و كان عمره قد اتسع لعباده طالت أيامها و لياليها، و كان أمده قد انفسح لطاعه أنجحت أسبابها و دواعيها، فهو لذلك مكتهل في أول فتائه، و مذكور بالتعمير منذ ابتداء زمانه، حتى إذا تهادت به خطى المهل المعلوم، إلى غايه الأجل المحتوم، كان الحى المرزوق عند بارئه، المخلد المحبو بما قدم من مساعيه، و كان: حبل حياته مبرم، و سلك بقائه منظوم لم ينتثر، و أثره جديد لم تعفه الأيام، و خيره قريب لم تنسه الأفهام، و شخصه ملموح بأعين البصائر، و حديثه ملتقط باسماع الضمائر، و عهده دان و إن بعد ميقاته، و زمنه مستقبل و إن مضت أوقاته، و الصالحات عنه باقيه نورا في وجه الزمان، و سرورا في قلب الايمان، و تلك صفات الشيخ الجليل - أطال الله بقاءه - إذ كان من لزمه حق رام قضاءه، و تعين عليه فرض حاول أداءه، و حدثت له منه - أدام الله تأييده - اخوه لطيفه بادر إلى وصالها، و نشأت بينه و بينه رحم سريعه قابلها ببالها، و جمعته و إياه أنساب لا يجمل عقوقها و لا تضاع حقوقها، و أدنته إليه أواصر أحكمت يد الإسلام عقودها، و أكرمت ذمه الايمان عهودها، فأسكن بها التقى روحيهما جسما، و استودع الهدى قلوبهما صدرا، و صارت كلمتهما متفتتين و إن بعدت الديار، و دعوتاهما مؤتلفتين و إن اختلف النجار، و سقياهما من ماء واحد و إن تباين المحتدان، و مصدرهما عن نمير واحد و إن تشعب الموردان، و رتوعهما في رياض الملكوت، و رجوعهما إلى موعد الجزاء الموقوت. و على أنى لو وفيت هذه الأواخي حقها، و أعطيت هذه الوسائل وفقها، لكان السفر أقل ما يقتضيه الدين لمشاهده نعمه الله تعالى على الإسلام و أهله بمكانه، و أدله الحق على الكرم و ذويه ببرهانه، فان التكرمه في ذلك لو وفرت عليه لكان لها موضعا، و لما يزيد عليها مجمعا، فكيف و هى مقسومه بين أهل المله، و موزعه على أعيان هذه النحله، إذ كان مكانه - أدام الله تأييده - من عموم الشرف عليهم، و انتشار الفضيله فيهم موضع الدليل من إطلاق لسان المستدل، و البرهان من إعلاء كلمه الخصم المدل. و يعلم الله ما ورد على و على كافه من حضرنى من المسلمين... إلى آخره(1)

الشيخ حميد السماوى ابن الشيخ أحمد.

إشارة

ولد فى السماوه (العراق) سنة ١٣١٥ و نشا فيها، ثم هاجر إلى النجف الأشرف [الأشرف] للدراسة ثم عاد إلى السماوه مرجعيا دينيا فيها، فكان ذا أثر محمود فى سيرته و توجيهه. و من هنا غلبت عليه الصفة الدينيه و توارت شاعريته وراء مسلكه فى التعامل مع الناس فى شئونهم اليوميه و مشاكلهم الحياتيه، فلم يشتهر شاعرا مع أنه كان فى الطليعه من شعراء العراق المبدعين فى عصره. توفى سنة ١٣٨٤.

شعره

قال بعنوان الطائره:

قيثاره العلم الصريح و دميّه الفن الصراح

١- تتمه ذلك قد ورد قبلا، انظر الرساله رقم: ٩.

هوجى على متن الأثير و هيمنى فوق الرياح
شق الطريق فلا جناح عليك يا ذات الجناح
و تدافعى فوق الفضاء الرحب مطلق السراح
فإلى النطاح قد انبرى متكافئا كبش النطاح
جلى فاما للضريح غدا و أما للضراح
يشدو و قد بدرت على شفتيه بادره الطماح
من ليس يطربه غناى فسوف يزعجه صياحى
شحوا عليه بالعبور ضحى و ليسوا بالشحاح
حتى تقصفت القنا و تحطمت بيض الصفاح
و لطالما سمحوا فلم يتفيثوا حلل السماح
فيما التلاحى و السما مرصوده فيما التلاحى
تلك ابنه الأفلاك ترسل وحيها لابن البطاح
عبرت عبور الفكر راح تروضه ذات الجماح
و سمت سمو الفن فى دنيا التقدم و النجاح
و تكتلت باسم الصلاح على مناوأة الصلاح
هبطت فحى على البلاء و سمت فحى على الفلاح
تنقض من كبد السما باشاوس ربد كلاح
فتصب أنواع البلاء على الحواضر و الضواحى
فيكل آن تنجلى الضوضاء عن حرم مباح
و مجزرين على الرمال تخالهم مثل الأضحى

طبلت يا بنت البخار ضحى فعربرد كل صاحى
و صدحت فى الست الجهات و كان يطربها صداحى
ليست لغاتك كاللغات و لا اصطلاحك كاصطلاحى
لا بد من يوم أغر به تنوحى أو تناحى
تاسى جروح المصلحين و أنت داميه الجراح
أ تغالب القدر المتاح فريسه القدر المتاح
يا أجدل الأفق المطل على الروابى و البطاح
انى تدوى فى الغدو كما تدوى فى الرواح
أ تحن للفتح المؤمل أم تثن من الرزاح
أم فى ضميرك حاجه تحنو بها شتى المناحى
أفصح فما برح القوى مثار ألسنه الفصاح
و أرو عن الست الجهات صداك لا الست الصحاح
فلقد يحدث عن جهينه من يندد عن سجاج
فلدى الصباح سينجلى ما دبروا قبل الصباح
أرسلت ليثا للصرع و ألف كلب للنباح
عصرت أحلامى على جاماتكم و سكبت راحى
أ يغص من مص البحار بنهله الماء القراح
إن لم يكن قلبى لكم فلکم يدي و لكم سلاحى
فإليك يا أخت الملاح تعج من شطط الملاح
أودت بجائله القنا فتكات جايله الوشاح

باتت مشعشعه الرجا فى ظل مظلمه النواحي

قلبان قلب للخداع لها و قلب للكفاح

كتبوا لها صك الطلاق فوقعت عقد النكاح

فغدت تعلل نفسها بنتاجها قبل اللقاح

أنا لست ممن يشرب لطلعه الخود الرдах

أما سفرن عن الشقائق أو بسمن عن الاقاح

هل تحت برقعك المدبج غير الحاظ وقاح

أمن الخيال حقايق لكم وجد من مزاح

فلقد علمتم و المخادع عرضه للافتضاح

إننا إذا أزف اللقا و تراقصت سمر الرماح

نبنى على هام القرون دعامه المجد المطاح

أو ليس عن دور الختام يشف دور الافتتاح

و قال عام الفيضان :

عربدت و الطاغى المدل يعربد و نهدت و الأمواج فوقك تنهد

و هدرت و اللجج الزواحف كلما تزداد فى استعصافها تنمرد

و علوت متن الرافدين مزمجرا و السحب تهطل و العواصف ترعد

فقضمت نائته الحقول فهل على شديك من تيار موجك مبرد

و شدوت و النفس الطروبه كلما ضربوا على وتر الحياه تغرد

و غذوت جرف الشاطئين برشحه من فيض صدرك فهو بحر مزبد

متحدرا و الموج يضرب بعضه بعضا فتحسبه يحل و يعقد

مهلا أبا الأمواج مهلا إنها شعل على أمثالها تتوقد
جاشت بمعناك اللغات فهذه تشنى و تلك بما فعلت تندد
لا تذهبن بك الظنون فان من أخنى عليه اليوم يسعده غد
يقسو فؤادك و هو ماء سائل و يسيل جرفك و هو صخر جامد
بسطت لموكبك الشواطئ ظهرها فشاوت منصلتا تغور و تنجد
فترى العروش إذا غشاها تنحنى لجلاله و إذا علاها تسجد
فلئن أتاها بالخوارق فهي لا تنفك فى أيامها تتصمد
أملت ما يملى المدل بنفسه و فعلت ما لا يفعل المستبعد
و نفخت أورده الحياه فأصبحت خطرا به قلب الحياه مهدد
و طفقت تحدو للمنون قوافلا تاه الدليل بها و ضل المرشد
لم تدر أيان المصير و نفسها بين الحناجر و اللهى تتردد
مستنجدات ما هنالك من صدى أصواتهن و ما هنالك منجد
يحسبن اثباج الحياه زوارقا جاءت تصوب نحوها و تصعد
شهدتك فارتاعت و لم يك راعها من قبل ذلك فى الحوادث مشهد
شهدتك جبار الإراده طامحا ترهو لك الدنيا و وجهك مزبد
و لرب مرضعه جرفت رضيعها فتركتها هلعى تقوم و تقعد
وقفت و نبراس الرجاء أمامها يبدو لها طورا و طورا يجمد

متضائل الأنوار رامت قصده فنأى بها التيار عما تقصد
ترنو لمرضعها يعوم بجنبها و الموت جاث حوله يترصد
أغفى فما انطبقت له عين و لا امتدت له ممن تؤمله يد
تدنو به الأمواج من رشقاتها حتى إذا حدثت عليه يبعد
فتحت له الأهوال ثغرا موصدا فهوى و ما ثغر المنيه موصد
أ يعوم تحت الماء جسم كلما يغليه تيار الحوادث يبرد
و تذوب فى الأمواج نفس حيثما يطفو مذاب الموج فيها يجمد
و تموت باديه الشحوب يظلمها من رائع الأيام يوم أسود
و يروح هذا الكون يبسم هازئا منها و شحور القضاء يغرد
كم دوله للموج أم كم جوله يشقى بها قطر و قطر يسعد
خضدت حقول الرافدين و كم على الأمواج من كف هنالك تخضد
تربت يد الفلاح منها إنه ما أنفك يبذر فى الحقول و يحصد
أ بساعد الفلاح تهزأ أم على ما أعوج من مسحاته يتجدد
تثرى بطون الأرض من ثمرات ما غرست يداه و هو ضاح أجرد
متوسلا يدعو و هل يغنى الدعا و الماء فى بقراته يترأد
فكلا به تعوى أسا و شيا هه تثغو شجا و بناته تستنجد
و كأنما الأرض السما و كأنما فى كل أفق من بنيه فرقد
لماعه الجنيين لكن افقها بالرغم من لمعانه متلبد
فلقد هوى من نجمه ما قد هوى و أضاع من أحلامه ما ينشد
ذهبت سدى تحت الظلام جهوده و القوم ما بين الأسره هجد

حيران تجهش نفسه فيصدها و تخونه فى الحادثات فيسعد

رباه أن يدى غدت مشلوله جزا و كفك بالعطيه أجود

ما للغيوم تبددت عن افقها و سحاب هذا الأفق لا يتبدد

فالقوم بين أكله و أسره متنعمون و طرفه المتشهد

هل أن لون الصبح لون حالك أم أن هذا الليل ليل أسود

و له يرثى الحسين (ع):

لمن النواهد لا برحن نواهدا يفنى الزمان و لا تزال رواكدا

طفقت تصعد فى الفضاء كأنها اتخذت بآفاق السماء قواعدا

نتت على هام القرون فخلتها فى مبسم الدهر الجديد نواجدا

و مشت تحيى الفرقدين فاطلعت بالرغم من وضح النهار فراقدا

نطحت بصخرتها الوجود و أصحرت لتظل من بعد الحدوث أو ابدا

ركدت كرابعه الكرات على الثرى فهوت لها الست الجهات سواجدا

تستشرف العهدين فى لفتاتها عهدا تعشاها و عهدا بئادا

و تساجل الجيلين فى همساتها لتشد بالمجد الطريف التالدا

نهضت شواهد كالعروش فأصبحت منها عروش الفاتحين هو أمددا

لم تحو و هى الشامخات أنوفها نحو السماء إلا ملاكا صاعدا

كحلت بها عين الزمان و لم أخل من قبل أن من الصخور مراودا

ضربت لابعاد الفضاء مقاييسا و بنت بجوزاء السماء مراصدا

أ مواقد الأنوار فى الحجب التى كانت لأنوار الإله مواقدا

و معاهد الأسرار فى الكون الذى لا زال للمجد المنيف معاقدا

و أريكه الوحى التى من حولها للسمع تتخذ العقول مقاعدا
جبلتك أطفاف المشيئه هيكلأ أضحي ملاك العقل فيه ساجدا
وافى ليرتاد الرواء ميمما حفلا باقطاب الهواشم حاشدا
رقدت به السفراء من عمرو العلى و كفى سموا أن يكون مراقدا
قيثاره المجد القديم ترنمى فطلما نبهت جيلا راقدا
و تدافعى فوق العقول و ركزى فوق المدارك للمدارك عاقدا
ما قدس القوم الدمى و لو أنهم رفعوا لهن هياكلا و معابدا
لكنما انجفلوا مع الزمن الذى استجلى من الصخر الأصم خرائدا
جلى و ما جلى الشعور وراءه متكافئا إلا ليرجع جاهدا
فلو استويننا فى المدارك لاستوت هذى الشعوب مبادئا و عقائدا
أ و ليس جبار العقول هو الذى حشد الطريق كنائسا و مساجدا
قد كنت أحسبه شهابا ثاقبا فانقض شيطاننا و حلق ماردا
فهلم يا بن الرافدين و ان همى جفن أفاض لك الشعور روافدا
لا زلت مضطرب الهواجس صامت الأعضاء تستوحى خيالا شاردا
خفض عليك فلا أراك بحاجة حتى تقيم على نبوغك شاهدا
أ تعج خلف المدلجين و طالما ابتعثتك جاليه العوالم رائدا
كم صرخه صعدهتها فتقاطرت خطبا يرن بها الصدى و قصائدا
و كم استفزت نائرا منا و كم خلقت من الجو الملبد قائدا
خفت فخف العلم يتبع خطوها فمشت به متضامنا متضامدا
فتصفحته جوامعا و مجامعا و تخللته مدارسا و معاهدا

فأحبس يراعك ما استطعت فإنه أضحى يسيل لها شعورا جامدا
و يروح يبسطها يدا مشلوله و يظل يوقدها سراجا خامدا
لم لا نسير كما تشاء لنا العلى صفا يشق طريقه متساندا
ما ضرنا و المجد مجد واحد لو كان هذا الشعب شعبا واحدا
قد وزعوه عوائلا و قبائلا و تجاذبوه أزمه و مقاودا
عقمت مساويهم و يا لك أمه أضحى الطريق أمامها متباعدة
فطفقت أنضجها حصاه لم تزل صما و أضربها حديدا باردا
جذاء تدفعها الخطوب و طالما احتيلت فكانت أذرعا و سواعدا
أودى بها جشع الطباع فقدمت للدهر أشلاء الكرام موائدا
فكم استحلّت من دم زاك و كم جزرت بمادبه الطفوف أما جدا
هذا أبى الضيم أصحر مرقلا يطأ الطريق جنادلا و جلامدا
جلى فاما أن يعيش مهيمنا فوق الحوادث أو يموت مجاهدا
فاقتادهن أعنه و أسنه و اجتازهن سياسبا و فدا فدا
حتى تغشته الصوارم فانحنت تردى عليه بوارقا و رواعدا
إبها أبا الشهداء لست مرزء فأقول صبيرا أو أقوم مجالدا
وقفت بموكبك الحياه و سجلت لك فى جبين الدهر رمزا خالدا
و تنهدت لك عن غرام صامت لما رأتك إلى المنيه ناهدا
ضلت مقاييس العقول و لم تزل ما بين أمواج الحقيقه صامدا
بسمت لمطلعها فكنت لها فما و هوت لمصرعها فكنت لها فدا
و له يرثى الحسين (ع):

سيرى بموكبك المنضد سيرى فلقد غلا بالنور أفق النور

و لقد تجلى الله فوق شعاعك الهادى فكلمنا بغير سفير

فالدهر بين يدي ركابك جاثم و الكون تحت لوائك المنشور

سجدت لمطلعك العوالم و انحنت لجلال هيبتك ابنه الديجور

سيرى فما يدريك ما يلد القضا و تجول فيه يراعه التقدير

فالمرء للإرماس مهما استعصمت أدواره و الشمس للتكوير

فلقد تداعى عرش طاغيه الدجى و هوت دعامه بيته المعمور

و محا صحيفته الزمان فلم يدع إلا بقايا أحرف و سطور

أ سليله الأحقاب قد طفحت على قسما و جهك دهشه المذعور

اعراك ما يعرف الوجود من الأسى و شجاك ما يشجى من التغيير

مجت عناصرك الخلو و إنما تتدحرجين إلى فنى و دثور

فقفى إذا اسطعت الوقوف و حدثى ما فى خلايا كونك المغمور

ما أروع الصور التى تطفو على وجه الأثير و أبرع التصوير

فلقد ترامى العقل نحوك فانثنى متخاذل الهمسات كالمسحور

و تكادمت فيك الظنون فراعها ما راع من صنع و من تدبير

تقف الحوادث نصب عينك برهه و تخب نحو الصور بنت الصور

حتى إذا انصلت القضاء بحادث كالسيف وصلته يد الموتور

جلى ابن طه فوق كاهل طرفه فأراك فوق الطور نار الطور

و أراك كيف يثور عاهل هاشم غضبا لوجه العدل و الدستور

حتى إذا أدى رسالته هوى جذلان ملتحفا بكل وثير

ما ذا تريد به المنون و إنما هي نهله من بارد مقرر

و لرب قائله و قد مسح الأسي وجهي برائعه من المقدور

ما لي أراك أبا البيان مقطبا و بني أبيك بغطه و سرور

فأجبتها و قد استفز حديثها فحوى حديث غامض التفسير

إيها أميم فان بين صوامت الآلام ما يغنى عن التعبير

أنا مثل قومي لو حبست مشاعري و خدعت في معنى الحياه ضميري

قد كنت مبتهجا كما شاء الهوى فجنت على مداركي و شعوري

ما راق لي التفكير لكن لم أطق إرجاءه إلا إلى تفكيري

ما كنت اختار الشقاء بنظره فيها تراحم مصدرى و مصيري

قطعت مجاهيل الحياه و جهجهت لترود مطلع عالم مستور

سلخت عن اللب القشور و أصحرت للعقل عاربه بغير قشور

و تالقت لي في الظلام و هل ترى غير الظلام يشق أفق النور؟

ما أسعد الرجل الذى ازدلفت له صور الحياه تخب فوق الكور

لم يله عن ذكر المربع و الحمى إلا بذكر شويبه و بعير

نشوان طول الدهر يسمع نفسه مدح الفرزدق من هجاء جرير

تهب الطبيعه ما يشاء فتتجلى خضراؤها عن سندس و حرير

فيرى الوجود كما يشاء خياله ما بين مهبط روضه و غدیر

و يرى رعاه الحى خلف بيوتهم جاثين بين جلامد و صخور

يتهامسون فلا يشق حديثهم بعد الصدى إلا رغاء العير

أ حمامه العقل المقدس حلقى فوق الأثير بنا لخير أثير

فلقد خلا الوادى فتلك سماؤه جرداء من صقر و من عصفور

كم تسجين أمام جيل لم تزل تجنى عليه عوامل التأثير

لك رعشه المقرور فى الكون الذى طفحت عليه نفثه المصدور

طيرى فقد أزف الصباح و ربما بسط الصباح جناحه لتطيرى

و لربما وقف الطليق معبرا عما يجول بخاطر المأسور

كم حره للوحى شق حجابها بغى الأمير و قسوه المأمور

ضربت عليها الحادثات رواقها فبدت وراء أكله و ستور

تملى على الأجيال ما يملى لها الحدثان من ذل و من تحقيق

أ تبات آل الله فى ذل السبا و تبات آل أميه بحبور

ذهبت تطبل بالبشائر بعد أن ذهب الحسين ضحيه التبشير

و قال:

هلا اتقيت و فى الأنباء مزدجر خطب تراحم فيه الرأى و القدر

فظلت تغرس آمالا و تحصدتها جرداء لا ورق فيها و لا ثمر

أنى يصيخ إلى الأرجاز متعظا من وقرت سمعه الآيات و السور

فراح ينبش مرموسا قد انجرفت به السنون فلا عين و لا أثر

انى أعيدك و الأيام فاغره فاها و جنح ظلام الخطب معتكر

و أستميحك و الأقلام ساغبه تلوك ما تنضح الآراء و الفكر

من كل ساحره الألفاظ تحسبها عصى ابن عمران لا تبقى و لا تذر

فللسياسه أبطال تنادمها و النظم و النشر أبطال له آخر

حسيننا الله مسحورين تدفعنا أغراضهم فكانا بينهم اكر

مسخرون تزجينا مطامعهم بحيث لا ماء يروينا ولا شجر
تخدرت حسبما شاءوا مشاعرنا حتى تساوى لديها النفع و الضرر
أنعمت جامك بالعتبي على فئه فازوا بمعترك الأيام و انتصروا
و استشعروا الصمت حتى لا تحس لهم ركزا كأنهم فى دورهم قبروا
شقوا طريقا على ضوء الهدى يبسا فلتكسف الشمس أو فليخسف القمر
همو همو مثلما قد كنت تعهدهم ما رنقت صفوهم من بعدك الغير
و ما برحت ولوجا فى ضمائرهم و ان تثقلت الأشباح و الصور
لا تظمئن إلى السلوى قلوبهم أنى و قلبك بالآهات منذر
لكن بالرغم قد بتت علائقهم كف السياسه لما أهدق الخطر
كيف اذكرك و الأنفاس شاهده و الحاكم العدل فينا الصارم الذكر
و كم رقيب على قولى و كم رصد فالسمع يهتز بالتهويل و البصر
لا تضجرن إذا مستك نائبه من يوقد النار قد ينتاشه الشرر
و من يهدم ذرى صرح بمعلوله تلقى الغبار على عطفيه ينتثر
فكم تصليت و الأيام قاسيه كأننى تحت أسنان الردى حجر
كن حيث أنت و دع من آزروك و من أزرى فسيان إن لاموا و ان عذروا
حسبتهم صبيرا فى كل حادثه حتى إذا امتد خرطوم القضا جاروا
و قال فى عيد الغدير:

بلبل الوحى فى ضفاف الغدير صادح باسم موكب التأمير

يتحدى الأجيال مهما ترامت فى مجاهيل عالم مستور

هيكل من تعطف و حنان مائل فوق هيكل من شعور

جوهرى الوجود لم تتفاعل فيه شتى عوامل التغيير

ص: ١٠٠

عدسات التصوير تجلوه لو لم تنعكس فيه جامه التصوير

أنجبتة عوامل القدس لما لفتحها أشعه التأثير

يفطع النص فى على بنص و يشد الدستور بالدستور

ما تلاشى صوت الحقيقه حتى ارتعش الحق فى فم الجمهور

حيث ساد الصموت لولا هناه طبلت للقفول قبل المسير

همسات تذوب فى همسات و سطور تنحل فوق سطور

رقمته يراعه الكون رمزا فوق أثباج بيتها المعمور

عبرت حين عبرت عنه لو لم يتسامى عن حيز التعبير

فسرته كما تشاء و لكن تشكل الواضحات بالتفسير

هيمنت فوق مستوى الحس لما أن تخطت عوالم التفكير

فهى برهان صوره الفتح إن لم تك عنوان آيه التطهير

فسماء الوجود تعزف فيها نغمات التهليل و التكبير

و رياض الخلود تعقد فيها حفلات الإكبار و التقدير

و على منبر الجلاله يملى بلبل الوحي لوحه التأمير

منبر إن يكن كما قيل عنه إنه كور ناقه أو بعير

فهو رمز المجد الذى سجلته فوق أرقامها يد التحرير

و تراث العرب الذى حملته بين أكتافها ثوان الدهور

وقفت عندها المشاعر خرسا و مشى العقل مشيه المخمور

فاستفاضت عواطفى و تناجت بعد لأى هواجسى و ضميرى

قطعت شوطها إلى الحق لما مخرت غمره الغنا و الدثور

فلتجل حله الظلام و تغدو حيث شاءت طلائع الديجور
فستشوق عن ضواحي شمس آمنه من طوارق التكوير
عارضت موجه الأثير بوجه يتلاشى له ظلام الأثير
كلما راد مارده الوهم افقا رجمته ببارق مستنير
يا أخا المصطفى تعاليت شانا عن مقام التمثيل و التنظير
أنا لم أدر كيف اثني فحسبى من ثنائى الشعور بالتقصير
(أنت فى منتهى الظهور خفى) و لدى منتهى الخفا فى ظهور
ليس بدعا إن أخروك و جاشت نزعات النفوس بالتأخير
و تعاملوا عن مظهر النور لما أغدق الكون جامه بالنور
فعلى الشمس برقع من قتام و على اللب حاجب من قشور
زعم القوم و المزاعم شتى و انتحال الألقاب غير عسير
إنما قدمت سواك أمور قبح الله شأنها من أمور
كذبتهم أحلامهم فليسدوا مطلع الشمس عن جبين البصير
و ليردوا موج الأنير و يمحوها له البدر عن جبين العصور
ان تعالت إلى الحضيض أمى و استطالت بمجدها المبتور
فلقد سجلت على كل دور من علاها صحيفه من فجور
عبرت كونها إلى حيث شاءت لكن الخطب فى طريق العبور
زقزقى فى الفضاء جوبى فليست ترهب الصقر ثوره العصفور
و قال:

خذى فى ضروب اللحن يا ورق أودع فسيان أن رجعت أو لم ترجع

أصم رنين الخطب سمعى فكيف لا تحس به آذان قومی و لا تعی
ترامت بنا الأيام و هی حوائل زمانا فعادت بین حبلی و مرضع
و طاف علينا الدهر و هو موكل بجامین منزوف و آخر مترع
حنانك لا تجحف بحكمك بیننا فلیس کریم الطبع كالمطبع
سرینا و ساروا فابتدرنا و أحجموا فاودی خفیف العدو بالمتضلع
أ تدرک شاو المدلجات ضلیعه إذا نهضت قال الحداه لها قع
و تبلغ أسرار الحیاه ولیده إذا برزت قال الحیاه لها ارجعی
اطارح قومی بالأهازیج علما یهز طروب الحی صوت مرجع
هتفت بهم مستنجدا فی سراتهم و ما استنجد المشلول إلا باقطع
هلموا بنافا لخطب قد صرنا به فحاتم حتام الأناه معی معی
نبث الأسی فی حفله بعد حفله و ندعوهم فی مجمع بعد مجمع
و له قصیده عنوانها (النفس):

لا بقا حتی أمنیک البقاء فاغدقی جامک فیمن أغدقا

کیف استبقی حیاتی و علی ضفتیها عدمان استبقا

عارضی موج المنايا تجدی أسعد الساعات ساعات الشقا

ما وجوم الأرض إلا صرخه أفعمت کل وجود رهقا

فاحلبی شطریه درا و دما لبنا ضرعا و ضرعا علقا

أیها النفس و فیک اتسقت نظم العالم حتی اتسقا

ما تشائین فقد شاء الهوی للخلیطین بان یفترقا

هل ترجین ربیعا قادما فلقد حت الخریف الورقا

سرت و العالم يسرى أ فهل شاءت الأكوان أن نتفقا
ليت شعرى و الدجى يسمعى زجل الوهم إذا الوهم رقى
إن بعد ما كان لا شىء كما كان قبلا فلما ذا خلقا
حلقات كلما فصمها ثاقب الرأى استدارت حلقا
طفقت تستصرخ العقل فلم يعل صوت العقل حتى اختنقا
فوجودى ليس إلا لحظه و حياتى ليس إلا رمقا
فارتقى حيث وجدت سلما أو توارى أن وجدت نفقا
كبرياء الدهر يندك لدى كبرياء الحق مهما بسقا
و ثبات النفس قد أودت به و ثبات الموت لما اعتنقا
فتحت لى فمها فاذحمت حوله الآهات حتى انطبقا
فهى لا تقبض من مشفرها شدقا إلا و مدت شدقا
لست أدرى و وجودى لم يزل تتحاماه نواميس البقاء
هل أنا أمس أنا اليوم و هل عهدنا الراهن عهد سبقا
عزفت نفسى من مرقدها و استفزت لكراها الأرقا
و ترامت بى إلى مشرقها فاللقا قبل تنائنا اللقا
احتبكت موجا ففى تيارها قد طفى نجم و نجم غرقا
سمعت درياقتها و استسلمت للرقى لو كان فى الكون رقا
طالما قد خلعت أعراضها فاستقلت جوهرها فاتلقا
و تعرت كيف شاءت بعد أن تركت للأرض ثوبا خلقا
و تسامت بى إلى مبدئها و أنا ما بين أطمارى لقا

لاكها الموت و كم لاكت له بين لحيها لسانا ذلقا

فهوت تحسبها صامته و هي بعد الموت أجلى منطلقا

حملت قلبين قلبا موثقا بين جنبيها و قلبا مطلقا

و شات يومين يوما تتقى شطط الوهم و يوما تتقى

هبطت إذ هبط الجسم و قد حلقت عنه فهلا حلقتا

ص: ١٠١

ارتفعت كالروح عيسى فهوى بعدها الجسم كموسى صعقا

كيف و الإنسان من جوهره كان صدر الكون صدرا نزقا

وسعته الأرض فيمن وسعت و سقاه حتفه فيمن سقى

فهوى فيه إلى حيث هوى و ارتقى منه إلى حيث ارتقى

كم شئون قد أمطنا سجنها و تجاذبنا حتى انخرقا

طرق و الدهر من رقدته كاد لا يشعر فيما طرقا

فتجاهلت و كم طارقه قد رأيت الحلم فيها حمقا

و جنون المرء عقل عند ما يصبح العقل جنونا مطبقا

و قال:

ثابت و ملء كلوم المصلحين دم مهزوله الرأى لا شحم و لا ورم

خرقاء ثاويه حيث الهوان فلا هم يزاحم مثاها و لا همم

وسيمه الوجه تستصبيك غرتها لو كان فى ذلك الوجه الوسيم فم

كم أصحرت و اشأبت غير آبهه أ هى الحقيقه كانت أم هى الحلم

تموج زاخره بالترهات فما يجيش تيارها إلا و يحتدم

أنى تطيق دفاعا بعد ما وقفت بين الحوادث لا قرن و لا قدم

و قد تمر مع الأكوان هادنه غداه تعلق فى أشداقها اللجم

طاقت على الملاء الأعلى فما برحت طورا تئن و طورا منه تبتسم

نامت و نور جبين الحق منطلق و استيقظت و ظلام الجهل منسجم

مغلولة الساق ما دب و لا درجت و الكون ترفل فى أعماقه الأمم

حنت إلى هر مى مصر فقلت لها هناك مصر و لكن ها هنا الهرم

فى كل زاويه عجل تؤلهه و كل دست لها فى صدره صنم
فأصبحت كلما قامت دعامتها على شفا جرف الآمال تنهدم
تساقطت فوقها آطامها فإذا ما قومت أطما منها هوى أطم
أفى تصيخ إلى وعظ القضا أمم فى مسمع الدهر من ضوضائها صمم
فهل تلييك أشلاء مبعثره أم هل تحييك من أرماسها الرمم
تطوى السنين و لا تنفك حائله كان من أولدوها المجد قد عقموا
هذى صفائهم لو أنها انصلت و ذى صحائفهم لو أنهم رقموا
أقول و النفس قد جاشت زوابعها خفض فان لذا ذات الهوى ألم
كم ماثل نصب عيني لا وجود له أن الوجود على علاته عدم
توحدت حولنا الأقطار و ازدوجت و لم يكن بينها قربي و لا رحم
شدت بحاضرها الماضى فراح على متن الهواء يقوم الهيكل الضخم
يا بن الفضيله قد وافيت مضطلعا بحمل ما عنه بعض النابهين عموا
هل نظره بعد طول الفحص ترسلها مع الشعاع فقد أودت بنا الظلم
و خطره تتخطاها بحاضرنا إلى الامام كما شاءت لنا الأزم
ألم تر الحق مدحوضا بحجته المثلى و عاصفه الأهواء تحتكم
فالنجم يشرق إذ تخشاه داجيه و الجزم يشتد إما اشتدت الحزم
أسل يراعك لا جفت محابره فقد تدفق من تياره الكلم
يوحى فينبعث الجيش اللهام فما يقعع السيف حتى يهمس القلم
فالحكم للسيف أما اهتر منصلتا و لليراع الكاتب الحكم
مستنزفا صفوه الآراء مرتضعا در العواطف فهو الساغب النهم

يلهو كما بين لحييه فليلفظها فظل يريزح جوعا و هو يلتهم
حدث فان حديث اليوم عن وطن سيعلم الغد عنه غير ما علموا
و أنت أنت لسان الدار إن وجمت و أنت أنت خطيب القوم إن وجموا
ما أوصدت دونك العليا مناهجها و لا تغشاك في مضمارها السام
فالوقت أضيق من أن تستبين به حقايق القوم إن قالوا و ان وجموا
هل أنهم ساده رغم استكانتهم أم أنهم رغم ما اعتزوا به خدم
ما كان أغناك عن ايغار صدر بنى أبيك و المرء مهما احتج يتهم
فللحقيقه مهما همهمت لغه في فهمها يستوى الخصمان و الحكم
و النفس مهما استفزت من عناصرها أمام عاصفه الآراء تنهزم
دعها تنير طريقا طالما ارتعشت قوائم العقل و اندكت به القمم
جم المزالق ما انفكت بجانبه طلائع الكفر و الايمان تزدهم
فهل يشوقك أن تلقى أساورها عنها فتصحر لا قلب و لا خدم
هم أنت إن فاضت الدنيا بنائلهم ذكرى و ان كانت الأخرى فأنت هم
فالدار دارك ان شحت و ان منحت و القوم قومك أن بروا و ان أثموا
أغلوا مراجل صدر الدولتين أسي هم و ملء فمى لما أقول همو
هم دعامة قحطان و ساستها و مجدها الناصع الجنيين مجدهم
ما بالها في حضيض الذل خاضعه و كان يخضع جبارا لها العلم
فان تيجان مجد العرب تعوزها مفارق الغر من عدنان و القمم
حيث الشجاعه في مجرى أواصرها تجرى و يضرب في أعياصها الكرم
و له قصيده و عنوانها - بغداد - نظمها عام ١٩٤١:

ساد الوجوم فساد كل متمم فتكلمى ان شئت ان تتكلمى
و ترنمى فعسى يجس بك الهوى أوتار قلب الشاعر المترنم
فيروح يعرب عن مثار شعوره بقم أمام الجور لم يتلعثم
قد أعجمت عنك اللغات و فى الهوى لا يحسن الإفصاح غير الأعجم
وجمت و كم من شاعر فى جنبها ختمت على فمه و كم من ملهم
خطت له فى صدر كل صحيفه من فوق سطر النور سطرًا من دم
فقرأت منه كل سفر غامض فمترجم منها و غير مترجم
حم القضاء و هل ترانى ناقضا ما أبرمته يد القضاء المبرم
كم رحت أبحث عن شئون أسدلت من دونها حجب الزمان المظلم
فلمستها فى جنب قلب بائس و سمعتها فى أنه المتظلم
و رجعت لا صول و لا قول فهل شدت يدى بالعدل أو سدت فمى
و لظالما استهدفت منها جانبا فجعلت أهداب الحوادث سلمى
ما فى الوجوم عن الحقيقه من عنا ان العناء خطاب من لم يفهم
كم مدلج رصد الصباح بطرفه حتى إذا لاح الصباح له عمى
و معوه كره الزمان حديثه فاشاح عنه بوجهه المتجهم
ما راح يدغم لفظه إلا لكى منا يفكك كل حرف مدغم

و معظم فى نفسه انجرفت به الأهواء حتى عاد غير معظم
قد أرغمته على الرضوخ و أیما حر على علاتها لم یرغم
ذهبت متاعبه سدى فكأنه یقظ أهاب من الغواه بنوم
و لقد هممت بما یهم بمثله مثلى و عدت إلیك غير مذمم
و صرخت فى وجه الحوادث صرخه یندك منها كل صرح محكم
و شقت اثباج الخطوب إلیك فى قلب بأنوار الحقیقه مفعم
كالت لى الدنيا مواعيدا فما انطبقت یدى إلا على متوهم
رعناء ما كادت تصیخ لواعظ حتى ضربنا عرسها بالماتم
طفقت تجشمنى المسیر بها و قد حمل الزمان على سنامى منسمى
إن ساءنى عنت الطريق فطالما قد ساء هو جاء العواصم مقدمى
ذهبت بواحدته تنوء و أقبلت من سوء طالعتها تنوء بتوأم
طفحت على وجه الردى و تجردت لتقوم فى صدر السنین القوم
لم تبق رائعه الخطوب لها سوى شلو بأظفار الزمان مخدم
أنت كما أن السليم و لم تكن وضعت یدیها بین لحيى أرقم
و لقد وقفت أمامها متبرما لو كان یجدینى هناك تبرمى
فوجدت دست الحكم أجوف فارغا لا ابن الفرات به و لا ابن العلقى
رامتك یا أم الحواضر صرخه تسمو إلیك من السواد الأعظم
دوت باقطار البلاد و جلبت للرافدین بكل معنى مبهم
فاضت شوارعك الفسیحه بالثرى فاستنزفت قلب الشقى المعدم
و جرت رصابك بالأشعه فامتلت حتى النوافذ بالشعاع المظلم

و لقد وجدت بكل صرح قائم انقاض قلب من بنيك مهدم
و سمعت فيك بكل جوف أنه قطعت أو اصر مجدك المتصرم
كم زحت تسمعنى الأغانى فى الدجى صوت الضعيف و أنه المسترحم
صوت له ارتجف الفضا و اهتر من نبراته سمع الزمان الأبكم
صوت الضعيف و لا أخوا لك هامسا إلا ليعلو صوت كل مهمهم
لا تبتئس بالحداثات أو أبتئس فربما منى الظلوم باظلم
ما يطرب المظلوم من قيثاره صدحت بجنب الظالم المتلثم
ذابت على أنغامها حسراته فتشاءمت بالطارق المتشام
و لقد جهلتك إذ جهلت و طالما قد كنت أعلم منك ما لم تعلمى
ما كنت لما كنت حاضره الألى حلم الزمان لهم بما لم تحلمى
إلا شعار سوابغ و نوابغ و مثار ذكرى سابق و مطهم
و لقد نسجت لك القوافى حله موشيه بالدم لا بالعندم
و فرشت قلبى دون جنبك واثقا أنى فرشت له حشاشه ضيغم
و وقفت فيك كما يكيفنى القضا ما بين معوج و بين مقوم
فإذا انتصبت يميل هذا أكثرى و إذا انحنيت يقيم هذا معظمى
أ تميمه النهيرين قد جد القضا و الدهر بين معوذ و متمم
أودى فصيلك فار أميه فما عسى يجدى حنان الأم ما لم ترأم
أ و كلما اقترفت يداك خطيئه كبرى يؤاخذ فيك غير المجرم
نقى يديك من الخضاب فإنه قد راح يزعم عنك ما لم تزعمى
إن الجميله كيف كيفها الشقا لجميله تبدو بغير موشم

خادعت فيك صبايتى فتناحرت شططا على مع الليالى لومى
و وهبت قلبى للجمال و طالما ملكك الجمال فؤاد غير المغرم
هل بين جسرك و الرصافه تعبر الأملاك أم بين الحطيم و زمزم
ملئت شواطى دجله و رحابها و تبعثرت فى الهيكل المنتظم
فتمر ضاحيه كما شاء الضحى و تناط داجيه مناط الأنجم
لم أدر ما سر اندحارك بعد ما دوى صدى الأجيال فيك ألا أقدمى
أحجيه بفم الزمان تعقدت و طلاس رمقت بغير مطلسم
ما فى كتاب الأرض من وحى السما إن السماء كتاب كل منجم
لم يبق من معناك سر غامض إلا فحصناه بالفى معجم
شقى بأفاق السعاده مطلقا إن الشقاء عليك غير محتم
ما ذا وقوفك فى طريق لم يزل بالركب يضرب معرقا فى مشم
لا بد من إحدى اثنتين ففى الغد الآتى ستنهزمين إن لم تهزمى
فالأفق أما وجه صبح مفعم بشعاعه أو جنح ليل مسدم
لا تحجمى أن الطريق معبد و لربما ردم الطريق التحجمى
سيرى مع الأمم البعيده و امسحى ببنانها وجه الشعاع المعلم
ان وزعتك الحادثات فطالما جمعت شظايا قلبك المتقسم
و لربما بلت أوامك قطره تنهل من ضرع السحاب المرزم
فتجشمى البيداء و اعتسفى الدجى إن الظلام مطيه المتجشم
لا تدفع الجلى سوى الجلى و لا يخشى مناجاه الكمى سوى الكمى
ستهابك الأهوال و حشا ضاريا عرك الأسنه لهذما فى لهذم

لم يدر من قد ذاق من أرى الجنا ما الشهد حتى ذاق طعم العلقم
أو يحتفى الغربى فيك و ما رأى من وجهك الشرقى غير المبسم
فلها على شفتيك بسمه خائف و على لسانك لهجه المستسلم
عضت على كلتا يديك و لم تزل من قبل تبسم عن ثنايا الأهم
و استدرجتك إلى الشقاء و ما الذى يرضى من العصفور أم القشعم
لا مرهف صافى الفرند تهزه فى وجه قادتها و لا أنف حمى
و لأن تكن قد قلمت أظفارنا منها فظفر الدهر لم تتقلم
أنى تجود لها البلاد بدرها و رضيعها فى حجرها لم يفطم
هلا نظرت إلى ملامح هذه الدنيا الجديده نظره المتوسم
جاشت و ما شقت سماك بمطلع زاه و لا وسمت ثراك بميسم
فكان جنب الأفق غير مكوكب و كان وجه الروض غير منمنم
ما فاتها القلب الجرىء و إنما قد فاتها القلب الذى لم يرحم
عبثا تمنىها الثواب و انها لتبيع كلتا الجنتين بدرهم
هرمت و شابت فيك كل فضيله و الدهر فى ريعانه لم يهرم
لم يبق من ربع لديك و لا حمى فلمن تمنين العوالم فى حمى
محجوجه بلسان عدل صامت ماخوذه بوجوب شكر المنعم
فعلام رحمت أقول باكر ك الحيا و إلى م أنشد فيك يا دار اسلمى
لا فى الظعون هوادج منا و لا فى الظاعنين ربيع بن مكدم
إيها عباقره البيان و قاده الشعب المهان إلى المقام الأكرم
من يمتطى ظهر الخطوب و يرتضى فيه إلى حيث المكارم ترتضى

هل منجد منكم يثور لشعبه فيرد عاديه الزمان المتهم

أو مصلح يهب البلاد شعوره فيحل عقده وضعه المتازم

نضت القيود و لم تزل مكتوفه و سرت مهروله فلم تتقدم

قد أدركت عهد البلوغ و لم تزل بالرغم خاضعه لأمر القيم

طافت على عهد المغول و لم تكن غسلت يديها من دم المستعصم

نشرت بنى سلجوق نشر مؤمل و طوت بنى العباس طى مؤلم

أنى يجيش لها القضاء (بمالك) و الدهر يسمعها رثاء (متمم)

ص: ١٠٣

سدوا فراغاً لا يسد بغيركم و أملوا خلاء سوارها بالمعصم

فالسيف تعوزه اليمين و ما عسى يجدى المهند فى يمين الأجدم

و الصرح لا يرسو على وجه الفضا العادى و لا يسمو إذا لم يدعم

و النفس مهما حلقت آمالها و استعصمت فى حيز مستعصم

لا يزال يعوزها الطموح بقصدها فالنفس عند القصد ما لم تسأم

خديجه سلطان خانم بنت الشيخ محمد صالح بن الشيخ محمد الملائكة ابن

الشيخ محمد تقى بن الشيخ محمد جعفر بن الشيخ الملا محمد كاظم البرغانى

القزوينى آل الصالحى.

توفيت حدود سنه ١٣٢١ فقيهه محدثه بصيره بالكلام، حافظه للقرآن الكريم عالمه بتفسيره زاهده عابده أخذت المقدمات و العربيه و فنون الأدب على أختها الشهيره قره العين و سائر رجال أسرتها و تخرجت فى الفقه و الأصول و التفسير و الحديث على والدها الشيخ محمد صالح البرغانى الحائرى المتوفى سنه ١٢٧١ و عمها الشهيد الثالث المستشهد سنه ١٢٦٣ و أخذت العرفان عن عمها الملا على البرغانى الفيلسوف عن الآخوند الملا آغا الحكيمى القزوينى و لما بلغت سن الرشد زفوها إلى الميرزا مفيد بن السيد الميرزا حسن القزوينى و رزقت منه خمس أولاد ذكورا أشهرهم السيد الميرزا مسعود القزوينى المعروف بشيخ الإسلام. و أسرته شيخ الإسلام فى قزوین من أسباط المحقق الكركى العاملى و كان ولدها السيد الميرزا مسعود شيخ الإسلام المقتول على يد المطالبين بالمشروطه (الحكم الدستورى) سنه ١٣٢٧ من فحول علماء عصره و من آثاره فى قزوین مدرسه دينيه كبيره و مسجد ضخم يعرف كلاهما حتى اليوم باسمه (المدرسه المسعوديه و يقال مدرسه شيخ الإسلام) و ساهمت المترجم لها بقسم من نفقات بناء المدرسه و الجامع من مالها الخاص (١) و تصدرت كرسى التدريس فى قسم النساء فى المدرسه الصالحيه و كانت من ربات الإحسان و الكرم و ملجا للأرامل و اليتامى و المنقطعين و تفتى فى المسائل الفقيهيه و العلميه. لها مؤلفات منها مجموعه المسائل، رسائل فى الفقه، بعض الرسائل العرفانيه الموجوده كلها فى مكتبه احفادها آل شيخ الإسلام بقزوین. و من آثارها جامع ضخم و المدرسه الدينيه المعروفه باسم ولدها الميرزا مسعود شيخ الإسلام (٢)

الدكتور داود العطار

ولد فى الكاظميه (العراق) سنه ١٣٤٩ و توفى فى طهران سنه ١٤٠٣.

أتم دراسته الابتدائيه و الثانويه فى الكاظميه ثم نال إجازته الحقوق من جامعه بغداد و الماجستير فى الشريعه الإسلاميه ثم دبلوم الدراسات العليا فالدكتوراه فى الحقوق من جامعه القاهره.

تولى التدريس فى كليه أصول الدين فى بغداد، و الاشراف على مدارس الجواد الأهليه التابعه لجمعيه الصندوق الخيرى فى

بغداد. و بعد قيام حكم الطغيان التكريتي في العراق قبض عليه ثلاث مرات. و عند ما شعر أنه ملاحق اضطر للهجرة أولا إلى مصر ثم إلى الكويت ثم إلى إيران حيث استقر فيها حتى وفاته مشرفا على دار للنشر سماها دار البلاغ. و كان السيد محمد حسين الطباطبائي صاحب كتاب (الميزان) في تفسير القرآن قد عهد إليه بتلخيص هذا الكتاب بحيث لا يتجاوز ١٤ جزءا و لكن المرض العضال الذي أصابه حتى أودى به لم يمهله لأداء هذه المهمة.

ترك عدده دراسات منها: (١) موقف الفقه الإسلامي من مبدأ الرضائية و سلطان الاداره في العقود مقارنة بالفقه الغربي. (٢) مبدأ قانونية الجرائم و العقوبات في الشريعة الإسلامية و القانون. (٣) الدفاع الشرعي في الشريعة الإسلامية، و هو بحث مقارنة بين الشيعة و القوانين العربية و الأجنبية (٤) تجاوز الدفاع الشرعي في القانون المقارن، و هور [هو] الرسالة التي نال بها شهادة الدكتوراه من جامعه القاهرة بدرجه جيد جدا، مع تبادل الرسالة مع الجامعات الأجنبية.

و له دراسات قرآنية منها: (١) تفسير سورة النساء. و هي دروس ألقىت على طلاب الليسانس في كلية أصول الدين في النظام الاجتماعي و الاقتصادي و السياسي و الدولي في الإسلام. (٢) التجويد و آداب التلاوة.

(٣) موجز علوم القرآن، و قد ترجم إلى الفارسيه.

كما إن دراسته في علم الأصول بعنوان (وظيفه المجتهد عند تعارض الأدله). كما نشر مقالات و أبحاثا في الأدب و التاريخ الإسلامي.

و كان إلى ذلك شاعرا فمن شعره قوله من قصيده في ذكرى علي بن أبي طالب ع:

عذرا ولي الله إن أنشدت عن قلب حميد [حميد]

طافت بنا ذكران عابقه بتاريخ مجيد [مجيد]

ذكرى العدالة و التقى ذكرى البطولة و الخلود

ناشدت قلبي ان يطيب بها و يهزج بالنشيد

السيد راحه حسين بن طاهر الحسنى الرضوى القمى البيكپورى الهندى

ولد في سنة ١٣٠٦ و توفي بعد سنة ١٣٨٠.

أخذ المقدمات و العلوم الإسلامية على جماعه من الأفاضل، ثم حضر الفقه و الأصول على علماء مدينه لكهنو و تولى كرسى التدريس و الفتوى و له مؤلفات منها المطبوعه لكهنو ذكره شيخنا الأستاذ آغا بزرگ الطهرانى في موسوعه الذريعة إلى تصانيف الشيعة، منها كتاب پروانه جنت في الأدعية و أعمال السنه و الزيارات، كتاب تاريخ أبى الخليل في سير و تواريخ و فضائل أهل البيت ع، كتاب جهارده معصوم، في سوانحهم ع باللغة الأردويه، رساله الإسلام و التمدن، رساله انتخاب الراحه في الأخلاقيات،

و غيرهما (٣)

ربابه خانم بنت الشيخ محمد صالح ابن الشيخ الملا محمد الملائكة ابن الشيخ

محمد تقى ابن الشيخ محمد جعفر ابن الشيخ محمد كاظم البرغانى القزوينى.

توفيت حدود سنه ١٢٩٧.

عالمه فاضله محدثه واعظه خطيبه متكلمه فصيحجه من ربوات الدهاء و الفطنه و فواضل نساء عصرها. قرأت المقدمات و العرييه و فنون الأدب على رجال أسرتها و أختها قره العين و أخذت الفقه و الأصول و التفسير و الحديث عن

ص: ١٠٤

١- انظر تفصيل تاريخ المدرسه و الجامع فى كتاب مينودر ص ٥٧٢-٥٧٤ طبعه طهران منشورات جامعه طهران.

٢- الشيخ عبد الحسين الصالحى.

٣- الشيخ عبد الحسين الصالحى.

والدها المفسر الشهير الشيخ محمد صالح البرغاني الحائري المتوفى سنة ١٢٧١ و عمها الشهيد الثالث المستشهد سنة ١٢٦٣ و تخرجت في الحكمة و الفلسفه على الآخوند الشيخ الملا آغا الحكمي القزويني و تلمذت في العرفان على عمها الشيخ ملا علي البرغاني و أخيها الشيخ الميرزا عبد الوهاب البرغاني القزويني لما بلغت سن الرشد زفوها إلى الميرزا هبه الله الرفيعي القزويني.

تصدرت للتدريس و الإفاده و الوعظ و الإرشاد و كانت تستنبط الأحكام الشرعيه و تتباحث مع العلماء و تجادلهم و تفتي في المسائل الفقهيه و علميه و يأخذ برأيها و أحكامها، كما كانت ملجا للفقراء و المنقطعين و في خطاباتها و مجالسها كانت كثيره التشنيع على السلطان ناصر الدين شاه القاجاري و مظالم البلاط الايراني و الأمراء و لم يتعرض لها الشاه القاجاري بشيء(١).

الشيخ رشيد بن الشيخ طالب البلاغي

توفى بعد سنة ١٢٨٠ عالم شاعر متفنن له تضيع في النحو و اللغه و التاريخ عظيم خبره في فنون الأدب أخذ العلم و فنون الأدب على أفاضل علماء جبل عامل و نبغ في النحو و الشعر و اشتهر في العلوم العربيه ذكره شيخنا الأستاذ آغا بزرك الطهراني في طبقات أعلام الشيعة فقال: (كان عالما جامعا و أدبيا فذا تفنن في العلوم و حصل على كثير منها إلا أنه اشتهر بالبراعه في العلوم العربيه و التضيع في النحو و اللغه و التاريخ...) (٢) ذكره السيد حسن الصدر في تكمله أمل الأمل فقال: (أديب أريب شاعر لبيب عالم فاضل بالعربيه حسن الإنشاء جيد الخط حسن التحرير عارف بالنحو و اللغه و سائر العلوم الأدبيه و التاريخ جاء للزياره في سنة ١٢٨٠ تقريبا و رجع إلى بلاده و توفى هناك.

و كان أبوه من وجوه تلك البلاد و اجلاء العلماء في الفصاحه و البلاغه و التكلم و سائر المحاضرات الأدبيه حسبما سمعته من بعض أهل تلك البلاد) (٣) ذكره أيضا الشيخ جعفر محبوبه في ماضي النجف و حاضرها (٤) نقلا عن تكمله السيد حسن الصدر ثم أضاف نقلا عن كشكول السيد محمد الهندي مع اختلاف في اسم الأدب و النسب ثم استدرك قائلا و لعله غير المترجم له.

أقول و المترجم له من ذريه الشيخ إبراهيم البلاغي النجفي في جبل عامل المترجم في أعيان الشيعة الجزء الثاني ص ١٣٤ و سكن جبل عامل راجعا من الحج عن طريق الشام و مكث في جبل عامل بطلب من أهلها و له ذريه باقيه هناك حتى اليوم (٥).

الشيخ سالار و يقال سالار تخفيفا ابن حبيش البغدادي.

لم أقف على تاريخ ولادته و وفاته أخذ العلم من فضلاء عصره و يروي عنه السيد أبو طالب محمد بن الحسن بن محمد بن معيه الدياجي الحسن الحلي و يروي عنه السيد فخار بن معد الموسوي الحائري المتوفى سنة ٦٣٠ بواسطه السيد أبو طالب محمد الدياجي المذكور كما جاء في كتابه (حجه الذهاب إلى إيمان أبي طالب) و يقول السيد فخار بن معد الموسوي الحائري في كتابه المذكور: حدثني الشريف النقيب أبو طالب محمد بن الحسن بن محمد بن معيه في سنة ٥٩٩ قال: حدثني الشيخ سالار بن حبيش البغدادي، و قد رأيت سالار هذا و كان رجلا صالحا قال حدثني الأمير أبو الفوارس بن الصيفي الشاعر المعروف بالحبيص بيص، قال حضرت مجلس الوزير يحيى بن هبيرة... و قال في طبقات أعلام الشيعة: (... توفى فخار بن معد في ٦٣٠ و ألف كتابه بعد الستمائيه و يظهر منه أنه رآه قبل تاريخ الروايه و من توصيفه بالشيخ أولا ثم الرجل الصالح أنه من فضلاء الخاصه. و الحبيص بيص توفى ٥٧٤...) (٦).

سيده بيگم فخر النساء الخراسانيه

توفيت قبل سنه ١١٠٢ فاضله أديبه من شاعرات خراسان لها نظم رائع لم أقف على تاريخ ولادتها ووفاتها إلا أنها كانت من بلده نسا من توابع خراسان ذكرها المير شير علي خان اللودي في كتابه مرآه الخيال الذي ألفه في سنه ١١٠٢ و الذي ذكر فيها شعراء عصره و وصفها قائلاً ما هو تعريبه: (سيده بيگم من الأسر العلويه في خراسان ولدت في بلده نسا المحروسه كانت تتخلص في شعرها ب (نسائي) و كانت لها اليد الطولى في النظم و علو الفكر في بيانها...)(٧) ثم أورد نموذجاً من شعرها و نقل عنه شيخنا الأستاذ في موسوعته الذريعه إلى تصانيف الشيعة القسم الرابع من الجزء التاسع صحيفه ١١٨٤، كما ذكرها جماعه من المحققين منهم السيد علي حسن خان الحسيني البخارى في صبح گلش [گلشن] صفحه ٥١٦ و الأستاذ علي أكبر المشير سليمي في زنان سخنور ج ٢ ص ٣٢٢ و قال صاحب جواهر العجائب أن اسمها فخر النساء(٨)

أبو النجيب شداد بن إبراهيم بن حسن

الملقب بالطاهر الجزرى.

توفى سنه ٤٠٠ أو ٤٠١.

من شعراء الشيعة و نوابغ أدباء عصره مر ذكره في أعيان الشيعة الجزء السابع صفحه ٣٣٣ نقلاً عن الطليعه للشيخ محمد السماوى و نزيد على ذلك ما يلى: ذكره ابن شهر آشوب المازندراني في معالم العلماء من شعراء أهل البيت المجاهرين (٩) و قال ياقوت الحموى في معجم الأدباء: (أبو النجيب الملقب بالطاهر الجزرى شاعر من شعراء عضد الدوله بن بويه و مدح الوزير المهلبى. كان دقيق الشعر لطيف الأسلوب مات سنه إحدى و أربعمائه...)(١٠).

و قال الثعالبي: (عالى السن أدرك سيف الدوله...)(١١) و من شعره:

ص: ١٠٥

- ١- الشيخ عبد الحسين الصالحى.
- ٢- انظر الكرام البرره: ج ٢ ص ٥٤٠-٥٤١..
- ٣- السيد حسن الصدر: تكمله أمل الآمل ص ٢٠٦..
- ٤- الشيخ جعفر آل محبوبه: ماضى النجف و حاضرها ج ٢ ص ٧١ نجف المطبعه العلميه ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥ م.
- ٥- الصالحى.
- ٦- الشيخ عبد الحسين الصالحى.
- ٧- المير شير علي خان اللودي: تذكره مرآه الخيال ص ٣٣٨ الطبعة الحجرية الأولى بمبئى.
- ٨- الشيخ عبد الحسين الصالحى عن كتابه المخطوط (رياحين الشيعة).
- ٩- انظر معالم العلماء الطبعة النجفيه ص ١٤٩ عام ١٣٨٠ هـ - ١٩٦١ م.
- ١٠- ياقوت الحموى: معجم الأدباء ج ١١ ص ٢٧٠ مصر مطبوعات دار المأمون الطبعة الأولى

١١- أبو منصور عبد الملك الثعالبي: تتمه اليتيمه تحقيق عباس إقبال ص ٤٦ طهران سنه ١٣٥٣ هجرية.

و حاجه قيل لى نيه لها عمرا و نم فقلت على قد تنبه لى

حسبى عليان أن ناب الزمان و ان جاء المعاد بما فى القول و العمل

فلى على بن عبد الله منتجع و لى على أمير المؤمنين على

و له فى فتى تادب بادبه:

هذا على بالمشاكله التى ما بيننا لى مالك مستأثر

قالوا صديقك قلت بل ولدى و قد أعداه طبعى فهو مثلى شاعر

و قوله فى قوس قزح:

أ لست ترى الجو مستعبرا يضاحكه برقه الخلب

و قد لاح من قزح قوسه بعيدا و تحسبه يقرب

كطاقى عقيق و فيروزج و بينهما آخر مذهب

و من شعره:

إذا المرء لم يرض ما أمكنه و لم يأت من أمره أحسنه

فدعه فقد ساء تدبيره سيضحك يوما و يبكى سنه

و له:

أيا جيل التصوف شرحيل لقد جئتم بامر مستحيل

أ فى القرآن قال لكم إلهى كلوا مثل البهائم و ارقصوا لى

و له:

قلت للقلب ما دهاك ابن لى قال لى بائع الفرانى(1) فرانى

ناظراه فيما جنت ناظراه أودعانى أمت بما أودعانى

و له:

بلاد الله واسعه فضاها و رزق الله فى الدنيا فسيح

فقل للقاعدىن على هوان إذا ضاقت بكم أرض فسيحوا

و له:

أفسدتم نظرى على فما أرى مذ غبتم حسنا إلى أن تقدموا

فدعوا غرامى ليس يمكن أن ترى عين الرضا و السخط أحسن منكم

و له:

انظر إلى حظ ابن شبل فى الهوى إذ لا يزال لكل قلب شائقا

شغل النساء عن الرجال و طالما شغل الرجال عن النساء مراهقا

عشقوه أمرد و التحى فعشقنه الله أكبر ليس يعدم عاشقا

حدث أبو النجيب قال: كنت كثير الملازمه للوزير: أبى محمد المهلبى المتوفى سنه ٣٥٢. فاتفق أن غسلى ثيابى و أنفذ إلى من يدعونى فاعتذرت بعذر فلم يقبله و ألح فى استدعائه فكتب إليه:

عبدك تحت الجبل عربان كان لا كان شيطان

يغسل أثوابا كان البلا فيها خليط و هى أوطان

أرق من دينى ان كان لى دين كما للناس أديان

كأنها حالى من قبل أن يصبح عندى لك إحسان

يقول من يبصرنى معرضا فيها و للأقوال برهان

: هذا الذى قد نسجت فوقه عناكب الحيطان إنسان

فأنفذ لى جبه و عمامه و سراويل، و كيسا فيه خمسمائه درهم.

و ذكره ديوانه شيخنا فى الذريعة ج ٩ القسم الثانى ص ٦٤١ و الشيخ عبد الحسين الأمينى مع شعراء الغدير و له ترجمه فى أكثر كتب المتراجم منها فوات الوفيات للكتبى ص ١٦٧ و دميه القصر ص ٥٠ و ذكره أيضا ابن شهر آشوب فى كتابه المناقب ج ١

ص ٥٢٨ و غيرهم (٢)

السيد عز الدين شرف شاه بن محمد الحسينى الأقطسى النيسابورى المعروف

بزباره.

توفى بعد سنه ٥٧٣ فى النجف الأشرف.

ذكر فى الجزء السابع من (الأعيان) الصفحه ٣٣٧ و نزيد هنا ما يلى:

من أكابر علماء عصره و أعلام المحدثين فى النجف الأشرف أخذ العلم عن رجال أسرته و أفاضل علماء نيسابور ثم هاجر إلى النجف الأشرف فكان من كبار المدرسين و فيها ذكره منتجب الدين فى الفهرست صفحه ٧٠ و نقل عنه الحر العاملى فى أمل الآمل ج ٢ ص ١٣١ و قال شيخنا فى طبقات أعلام الشيعة: و قد قرأ الشيخ محمد بن جعفر المشهدى على صاحب الترجمة كتاب "المفيد فى التكليف" فى رمضان سنه ٥٧٣ و قد قرأ عليه أيضا فى هذا التاريخ الشيخ أبو الحسن على بن أبى طالب بن محمد بن أبى طالب التميمى المجاور كتاب "عيون الأخبار" كما فى صدر سند بعض نسخه. قال التميمى:

حدثنى الأمير السيد الأوحى الفقيه العالم عز الدين شرف السادات أبو محمد شرف شاه بن أبى الفتوح محمد بن الحسين بن زباره العلوى الحسينى الأقطسى النيسابورى أدام الله رفعة فى شهور مجاورته بمشهد الأمير ع سنه ٥٧٣ قال شرف شاه: حدثنى الشيخ الفقيه العالم أبو الحسن على بن أبى الحسن على بن عبد الصمد التميمى فى داره بنيسابور فى سنه ٥٤١ و هو يروى عن والده الفقيه و عن الشيخ أبى على الطوسى.

و أشار إلى المترجم له جماعه من أصحابنا منهم الشيخ محمد الأردبيلى الحائرى فى جامع الرواه ج ١ ص ٣٩٩ و شيخنا الممقانى فى تنقيح المقال ج ٢ ص ٨٣ و غيرهم (٣).

الشيخ شريف البهشتى القزوينى.

توفى سنه ١٣٠٨ فى قزوین و دفن فيها.

من كبار الفقهاء و أساتذه العلم و الأدب شاعر نحوى من أكابر المدرسين المعروفين فى قزوین و آل البهشتى: من الأسر العلميه التى بزغ بدرها فى أفق قزوین فى أواخر القرن الثالث عشر للهجره، مؤسس كيان هذا البيت الاخوان المترجم له و أخوه الشيخ عبد الوهاب البهشتى المتوفى سنه ١٣٠٠ و هى غير الأسره الأخرى آل البهشتى العلويه فى قزوین.

ولد المترجم له فى قزوین و نشأ بها نشأه علميه و اتجه إلى طلب العلم و نال منه قسطا وافرا، و قد أخذ الفقه و الأصول و الحديث عن الشيخ محمد صالح البرغانى الحائرى المتوفى سنه ١٢٧١ و شقيقه الشهيد البرغانى المستشهد فى سنه ١٢٦٣ ثم حضر فى الفلسفه و العرفان على الشيخ الميرزا عبد الوهاب

ص: ١٠٦

١- الفرانى: مفرده فرنى: و هو نوع من الخبز يروى لبنا و سمنا و سكرًا.

٢- الشيخ عبد الحسين الصالحى..

٣- الشيخ عبد الحسين الصالحى.

البرغانى الصالحى ثم توجه إلى العراق قاصدا الحوزه العلميه الكبرى فحضر على الشيخ حسن البرغانى الصالحى وغيره من علماء كربلاء و النجف الأشرف ثم رجع إلى موطنه قزوین و تصدر كرسى التدريس و الفتوى و الامامه و كان قوى البيان حلو التعبير فكثر الإقبال عليه و التف حوله طلاب العلوم و كان من أشهر المدرسين فى المدرسه الصالحيه، يدرس المقدمات و السطوح و اشتهر فى قزوین ب (مطول گو) لمهارته فى تدريس المطول. ذكره شيخنا الأستاذ الامام الطهرانى فى طبقات اعلام الشيعة ضمن ترجمه شقيقه الشيخ عبد الوهاب البهشتى (١) و أشار إليه السيد محمد على كلريز فى كتابه مينودر (٢) فى ترجمه مختصره. له مؤلفات منها ديوان شعر، حواشى على كتاب المطول، حواشى على حاشيه ملا عبد الله فى المنطق، حواشى على شرح اللمعه للشهيد الثانى و غيرها (٣)

الشيخ شكر بن أحمد بن شكر البغدادى.

ولد فى كرخ بغداد سنه ١٢٧٢ و توفى أواخر شهر صفر سنه ١٣٥٧ فى داره ببغداد و نقل جثمانه إلى النجف الأشرف و دفن فى الميدان فى مقبره خاصه أعدها لنفسه و هى مشهوره فى النجف.

نشا على حب العلم فقرأ المبادئ و العلوم العربيه و فنون الأدب على جماعه من أفاضل علماء بغداد ثم هاجر إلى النجف الأشرف حدود سنه ١٢٩٠ فأتى السطوح ثم حضر على الشيخ محمد طه نجف و الشيخ محمد حسين الكاظمى و السيد محمد بحر العلوم و السيد مهدي بن السيد صالح الحكيم المعروف بالتنجى و غيرهم حتى برع فى المعقول و المنقول و الحكمه و الكلام و الأدب و غيرها و اشتغل بتدريس السطوح مده فى النجف الأشرف و تخرج عليه جماعه من أهل الفضل منهم السيد محمد صادق آل بحر العلوم وغيره، و كان من أخص أصدقائه السيد محمد سعيد الحبوبى. و كان يؤم الناس فى مقبره الحبوبى أيام غياب الشيخ باقر القاموسى و هو الذى رشحه للامامه عند غيابه و كان يصلى خلفه جمع كثير من الناس فى المقبره و الإيوان.

ذكره شيخنا الأستاذ شيخ الذريعه فى كتابه طبقات اعلام الشيعة و ترجم له تلميذ الأستاذ توفيق الفكيكى فى مجله (الغرى) النجفيه فى جمادى الثانيه عام ١٣٦٥ صفحه ١٠-١١ ترجمه مفصله اثنى عليه فيها ثناء بليغا منه قوله (... كان من أئمه أهل اللغه و ججه [حجه] المناطقه و قدوه المتكلمين بلا ريب و من اعلام الأصوليين و الفقهاء و سندهم الوحيد فى دار السلام و ذخيره الأدباء و الشعراء... يحل لك الغوامض العويصه من المسائل العلميه و المشكلات المعضلات فى أى ناحيه من نواحي الحكمه أو علم البرهان و هو يسير معك على قارعه الطريق و يكشف لك القناع عن وجه أدق القضايا الأصوليه أو الفقهيه بكل سرعه و سهوله مع الدليل الواضح و البرهان الساطع فى كل مذهب من المذاهب الإسلاميه مع بيان المراجع و الموسوعات التى تناولت تلك الآراء الخلاف على اختلاف طبقات فقهاء التشريع الإسلامى...).

و من آثاره تأسيس (المدرسه الجعفريه) فى بغداد على عهد الدوله العثمانيه و ترغيب أبناء الشيعة على الدراسه الحديثه و قد عارضه الولاه العثمانيون، و قد كافح كفاح المصلحين الغيارى حتى أثمرت جهوده و كانت من أحسن المعاهد العلميه قائمه بتثقيف الشباب فى بغداد و قد تولى إدارتها بنفسه فتخرج عليه المئات من الشباب الذى أشغل بعضهم مناصب رفيعه و وظائف عاليه فى عهد تأسيس الحكومه العراقيه بعد خروج العثمانيين من العراق.

و من خدماته الجليله اقناع الحكومه العثمانيه بالغاء رسوم ضرائب الدفن عن جنائز العراقيين التي تدفن في العتبات المقدسه و منها أيضا ترغيه للحكومه العثمانيه بصرف الأموال الطائله على تعمير المساجد و المعاهد الدينيه التي كانت خربه و عند ما تأسست المحاكم الشرعيه الجعفريه بعد جلاء الأتراك عن العراق أشغل منصب القضاء الجعفري و هو أول من أقدم على ذلك من علماء الشيعه و في عهد الحكومه الوطنيه رفع إلى رئاسه مجلس التمييز الشرعي الجعفري.

و من آثاره تجديد بناء عماره (مسجد الزركشى) في محله الشواكه بجانب الكرخ و كان يقيم فيه صلاه الجماعه و حلقات للتدريس و كانت مجمعا لأهل الفضل و الأدب و الشعراء و كان له مكتبه نفيسه تفرقت بعده أيدي سبا(٤).

مير شمس الدين شاه جهان آبادي

المشهور بفقير.

ولد في دهلي بالهند سنه ١١١٥ و توفي سنه ١١٨٣ يقال أن نسبه يتصل بالعباس بن عبد المطلب، و لكون والدته علويه النسب لقب نفسه بلقب مير الداله على النسب العلوي.

درس في دهلي و سافر إلى الدكن و بقي في أورنگ آباد خمس سنين و فيها تعرف على ميرزا محمد رضا الهمداني ثم رجع معه إلى شاه جهان آباد دهلي، و كانت له صداقات مع ملوك و أمراء الوقت كعماد الملك فيروز ابن نظام الملك آصف جاه، و علي قلي خان ظفر، و كانوا يحترمونه و يقدرونه. ثم أثر العزله في أكبرآباد منصرفا عن الدنيا. و في أواخر أيام حياته سافر إلى الحج و رجع عن طريق البصره و منها ركب البحر قاصدا الهند سنه ١١٨٣ فمات غرقا في البحر.

من آثاره كتاب في العلوم البلاغيه الفارسيه و ديوان في القصائد الغزليه و منظومه (الواله و السلطان) طبعت سنه ١٩٧١ في لاهور.

و هو من صانعي القصيده في ذلك القصر. و قد سجل السيد خان آرزو في (مجمع النفائس) جميع قصائده المصنوعه، و هي بطرق متعدده.

أما مثنوى (الواله و السلطان) فهي قصيده حب أبوي، إذ كان علي واله الداغستاني مؤلف كتاب التذكره المشهور قد تعلق بابنته الحزينه خديجه سلطان بعد أن افترقا أثر الاضطرابات التي قامت في انتهاء الحكم الصفوي و اضطراب الأب (واله) للافتراق عن ابنته و الاغتراب في الهند، بينما كانت ابنته تعيش ماساتها في وطنها، و أبوها يعاني الفقر بعيدا عن الوطن.

و قد كان المترجم يصغى لأحاديث (واله) المؤثره خلال لقاءاتهما في الهند، فأوحى له ذلك بمثنوى (الواله و السلطان) التي استغرق نظمها سنه

ص: ١٠٧

١- انظر الكرام البرره: ج ٢ ص ٨٠٥.

٢- السيد محمد علي گلريز: مينودر أو باب الجنه قزوين ص ٣٤٠ طهران من منشورات جامعه طهران الطبعة الأولى.

٣- الشيخ عبد الحسين الصالحى.

٤- الشيخ عبد الحسين الصالحى.

كامله هي سنة ١١٦٠ و المحتوى على ٣٢٣٠ بيتا من الشعر باللغه الفارسيه، و قد تضمن هذا المثنوى مدحا للنبي (ص) و للإمام على (ع) مع مقدمه موجزه، ثم ذكر المأساه الأبويه النبويه، متطرفا إلى الحديث عن ابتداء الأحداث مما يجعل منه تاريخا لتلك الفتره بما فيها من هجوم الأفغانيين على إيران، و ما تعرض له الناس على أيديهم من فجاجع، واصفا عهد الدوله الصفويه و مآثرها، و ما قام فيه من عمران و رفاه.

الشيخ الميرزا ضياء الدين بن الشيخ أسد الله بن عبد الله البروجردى.

توفى حدود سنة ١٣٠٠.

من أعلام الشريعه و أئمه الدين و أفاضل علماء بروجرد أخذ المقدمات على علماء بروجرد ثم حضر فى الفقه و الأصول على والده المتوفى سنة ١٢٧١ ثم توجه إلى العتبات المقدسه فى العراق فسكن كربلاء و التحق بحوزه السيد محمد المجاهد المتوفى سنة ١٢٤٢ و عند ما هاجم الروس حدود إيران أفتى أستاذه المذكور بالجهاد و حضر مع استاذه الجهاد و عند رجوعه من الجهاد سكن قزوین و أخذ الفقه و الأصول و الحديث و التفسير عن الشيخ محمد صالح البرغانى الحائرى المتوفى سنة ١٢٧١. و شقيقه الشهيد المستشهد سنة ٢٤٣ [١٢٤٣] و تلمذ فى الحكمة و الفلسفه و العرفان على الشيخ ملا آغا الحكمى القزوينى و الميرزا عبد الوهاب البرغانى آل الصالحى و رجع إلى موطنه بروجرد. ذكره الميرزا محمد حسن خان اعتماد السلطنه فى كتابه المآثر و الآثار من كبار علماء عصر ناصر الدين شاه القاجارى (١) و هو أصغر من شقيقه الشيخ الميرزا داود المار الذكر و أمهم غير بنت الميرزا أبو القاسم القمى صاحب القوانين المتوفى سنة ١٢٣١. و هم من زوجته الأولى ذكر المترجم له الشيخ ملا أسد الله البروجردى فى أعيان الشيعه المجلد الثالث صفحه ٢٨٦ و قال عن والده الشيخ أسد الله البروجردى تزوج ابنه صاحب القوانين و خلف ثلاثه أولاد ذكور من ابنه الميرزا القمى صاحب القوانين و هم المحمدون [المحمدون] الثلاثه الميرزا محمد فخر الدين و جمال الدين محمد و نور الدين محمد و أجازهم أبوهم باجازه واحده و صرح باجتهدهم...

يقول عبد الحسين الصالحى و قد خلف الشيخ أسد الله البروجردى سته أولاد ذكور ثانيهم المترجم له و هو من زوجته الأولى غير ابنه الميرزا أبو القاسم القمى صاحب القوانين (٢)

طالب الأملى المشتهر ب طالباً.

توفى سنة ١٠٣٥ أو ١٠٣٦.

من مشاهير الشعراء الايرانيين فى القرن الحادى عشر الهجرى، اشتهر كثيرا فى الهند و صار فى عصره من أوائل الشعراء.

ولد فى آمل و درس فيها، و نظم الشعر فى مطالع شبابه، و مدح حاكم مازندران و هو فى العشرين من عمره.

خرج من آمل سنة ١٠١٠ و بقى فتره فى أصفهان ثم انتقل إلى كاشان و ظل فيها ما يقارب الأربع أو الخمس سنوات، و فيها تزوج، و كان له هناك أقرباء من جهه أمه، فالحكيم نظام الدين على كاشى طبيب ديوان كل من الشاه طهماسب و خدابنده كان زوج خالته، و الحكيم ركنای مسيح الشاعر المشهور كان ابن خالته.

و من كاشان عاد إلى آمل ثم انتقل إلى خراسان، و في مرو الشاه جهان لازم كنهش خان استاجلو حاكم المنطقه، و نظم المثنوى (خسرو شيرين) باسمه. ثم استاذن الحاكم في العود إلى موطنه لزياره أهله و أقربائه، و لكنه بدلا من السفر إلى آمل أخذ طريق الهند (سنه ١٠١٧). و بعد فتره من الضياع في الهند استقر في قندهار و لازم فيها غازي خان ترخان سنه ١٠٢١ و عاش فيها ينظم الشعر في مدحه مشيرا إلى ضياعه في الهند بين اكره و لاهور و مولتان و دهلي إلى أن حمله الحظ الحسن إلى قندهار.

و بعد وفاه ميرزا غازي ترخان عاود المترجم السفر إلى الهند، و كان ذلك في عهد جهانگير (١٠١٤ - ١٠٣٧)، فمن قندهار مضى إلى اكره، و فيها زار فخر الزمان مؤلف (ميخانه) الذي أعجب به، و من اكره مضى إلى سورات قاصدا الملك چين قليچ خان فمدحه بشعره، و بقي فتره عاد بعدها إلى اكره و فيها اتصل بمحمد حسين دبانت [ديانت] خان دشت بياضى و أخذ منه رساله توصيه لحاكم گجرات عبد الله خان فيروز جنك (١٠٥٤)، فاستقبله الحاكم بحراره و عطف عليه، و لكن الشاعر لم يطل المكث عند القائد السفاك، بل عاد إلى اكره و منها إلى لاهور، و فيها التقى الشاعر آقا شاپور الطهراني ابن عم اعتماد الدوله غياث الدين محمد الطهراني، فعرفه هذا بابن عمه اعتماد الدوله الوزير الأديب الذي أوصله إلى قصر جهانگير. و من ذلك الحين أخذ نجمه يسطع، و في سنه ١٠٢٨ أصبح بمنزله أمير الشعراء بالغا كمال العزه، و ظل كذلك سبع سنوات أو ثمانية، ثم تعب و تملكه النسيان حتى وفاته.

و قد ترك بنتين يبدو أن أهمهما كانت قد ماتت قبله لذا تكفلهما ابن خالته الحكيم ركنای مسيح و نقلهما إلى بيته معتنيا بتربيتهما و تنشئتهما، كما أنه رثاه بقصيده من الشعر.

يتضمن ديوان طالب ما بين تسعه آلاف إلى خمسة عشر ألف بيت من الشعر على ما قاله كتاب السير. و هناك نسخه من الديوان مطبوعه في طهران سنه ١٣٤٦ تشتمل على ٢٢٩٦٨ بيت شعر، ما بين القصيده و التركيب و الترجمات و المثنوى و الغزل و الرباعيات و المفردات و معظمها في مدح الحكام المازندرانيين، و ميرزا غازي خان ترخان، و ديانت خان، و عبد الله خان فيروز جنك، و اعتماد الدوله، و جهانگير، و قسم منها في مدح الأئمه ع، و قسم في مختلف المناسبات. و من مثنوياته: القضاء و القدر. و له: الحرف و الأنين، و مثنوى باسم جهانگير (٣)

السيد أبو منصور ظفر بن أبي الحسين محمد

الذي ادعى الخلافة بنيسابور و بويج له أربعة أشهر و توفي سنه ٣٣٩ ابن أبي جعفر أحمد الملقب بزباره "لأنه إذا غضب يقال قد زبر الأسد" ابن محمد الأ-كبر ابن عبد الله المفقود ابن الحسن المكفوف ابن الحسن الأفطس بن علي الأصغر ابن الامام زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ع البيهقي النيسابوري و أمه طاهره بنت الأمير علي بن الأمير طاهر ابن الأمير عبيد الله بن طاهر بن الحسين (٤)

ص: ١٠٨

١- الوزير ميرزا محمد حسن خان اعتماد السلطنه: المآثر و الآثار ص ١٧٣ طهران الطبعة الحجرية الأولى.

٢- الشيخ عبد الحسين الصالحى.

٣- تاريخ أدبيات إيران.

٤- انظر عمده الطالب الطبعه النجفيه ص ٣٤٧.

من علماء الشيعة و أكابر المحدثين، أخذ العلم و المعارف الإسلاميه فى نيشابور و بيهق ثم هاجر إلى الكوفه و منها إلى بغداد و سمع الحديث من أكابر مشايخه حتى بلغ فيه درجه عاليه.

و تصدر كرسى الحديث فى بغداد و حدث بها: ذكره ابن الفندق البيهقى فى تاريخ بيهق و قال (السيد أبو منصور ظفر بن محمد بن أحمد الزباره العلوى من أكابر السادات حسبا و نسبا و ذكرته فى كتابنا لباب الأنساب و ألقاب الأعتاب و كان من أكابر علماء العلويين محدث غازى و هو شقيق السيد الأجل شيخ العتره نقيب النقباء بخراسان أبو محمد الزباره و حج و سكن الكوفه و أخذ الحديث و يروى الكثير سمعا من مشايخه فى الكوفه و بغداد..(١) ثم ذكر أحاديثه مسندا إلى رسول الله (ص). و ذكره شيخنا فى طبقات أعلام الشيعة فى ترجمه مختصره نقلا عن تاريخ بيهق و قال (... و قد فات ذكره الخطيب البغدادي)(٢) يقول عبد الحسين الصالحى ليس ذلك بالغريب من الخطيب البغدادي لقد تجاهله عمدا لتشيعة لأن الخطيب البغدادي كان منحرفا عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب و عن أهل بيته ع و كثير التعصب على الشيعة و تجاهل الكثيرين من علماء الشيعة البغداديين و لم يذكرهم فى كتابه تاريخ بغداد أمثال أبى جعفر محمد الطوسى المتوفى سنه ٤٦٠ هجرية مع أنه كان معاصره و عاش معه فى بلده واحده بغداد و شاهد مقامه الشامخ و عظمته العلميه و كان تاريخ وفاه الخطيب البغدادي سنه ٤٦٣ أى بعد وفاه الشيخ الطوسى بثلاث سنوات.(٣)

الشيخ أبو منصور ظفر بن حمدون البادراني.

من علماء الشيعة فى القرن الرابع للهجره و أكابر المحدثين فى عصره.

لم أقف على تاريخ ولادته و وفاته أخذ العلم و الفنون الإسلاميه على فطاحل عصره و تصدر للتدريس و الإفاده و من تلامذته الشيخ أبو القاسم على بن شبل بن أسد الذى كان من مشايخ أبى العباس النجاشى و الشيخ الطوسى المتوفى سنه ٤٦٠ و قرأ عليه الطوسى سنه ٤١٠ و ذكره أبو العباس النجاشى فى رجاله قال: (ظفر بن حمدون أبو منصور البادراني من أصحابنا له كتب منها أخبار أبى ذر قرأته على أبى القاسم على بن شبل بن أسد قال أخبرنى به أبو منصور ظفر بن حمدون البادراني)(٤) ذكره شيخنا فى طبقات أعلام الشيعة و له مؤلفات لم أقف على غير كتاب أخبار أبى ذر(٥)

الشيخ عباس بن الشيخ إبراهيم بن الشيخ حسين بن الشيخ عباس بن

الشيخ حسن بن الشيخ عباس بن الشيخ محمد على بن محمد البلاغى.

توفى فى عام الطاعون سنه ١٢٤٦.

ذكر فى أعيان الشيعة المجلد السابع صفحه ٤١٠ بما يلى: (كان من أهل العلم و الفضل و لم يصل إلينا شىء من أحواله).

يقول عبد الحسين الصالحى: أخذ المقدمات على أفاضل علماء النجف الأشرف و تخرج فى الفقه و الأصول على الشيخ جعفر صاحب كشف الغطاء المتوفى سنه ١٢٢٨، ذكره السيد حسن الصدر فى تكمله أمل الآمل فقال:

(الشيخ عباس بن الشيخ إبراهيم بن الشيخ حسين البلاغى العالم عامل فاضل فقيه كامل والد الشيخ طالب المتقدم ذكره

كان من تلامذه الشيخ جعفر صاحب كشف الغطاء و أظن أن وفاته سنه ست و أربعين و مائتين بعد الألف (٤) و ذكره شيخنا الأستاذ في طبقات أعلام الشيعة و وصفه بقوله: عالم جليل كان من الفقهاء الأبرار و الأعلام الأفاضل و من أهل الصلاح و التقوى و أهل الشأن و المكانه... (٧) و نقل عنهما الشيخ جعفر محبوبه في ماضى النجف و حاضرها الجزء الثانى صفحه ٧٥ و المترجم له و والد الشيخ حسن و الشيخ طالب و الشيخ عبد الله كلهم من العلماء الأبرار و كان الشيخ طالب من أشهر شعراء العراق و هو جد الشيخ محمد جواد البلاغى النجفى المتوفى سنه ١٣٥٢ (٨)

الشيخ عباس بن الشيخ محمد على بن محمد البلاغى الحائرى.

توفى فى أصفهان سنه ١٠٨٥ و نقلت رفاتة بعد سنوات حسب وصيته إلى النجف الأشرف. ذكر فى أعيان الشيعة المجلد السابع صفحه ٤٣٢ و نضيف على ما هنالك ما يلى:

أخذ المقدمات و العلوم الأوليه و فنون الأدب على أفاضل علماء كربلاء المقدسه ثم تخرج فى الفقه و الأصول على والده الشيخ محمد على البلاغى الحائرى و الشيخ جواد الكاظمى ثم انتهى إليه كرسى الفتوى و التدريس فى كربلاء و منها هاجر إلى أصفهان و التف حوله فضلاء تلك البلاد مستفيدين منه حتى توفى بهائم نقلت رفاتة بعد سنوات إلى النجف الأشرف.

ذكره السيد حسن الصدر فى تكمله أمل الآمل فقال: (الشيخ عباس بن محمد على بن محمد البلاغى هو والد الشيخ حسن بن عباس بن محمد على صاحب (تنقيح المقال فى علم الرجال) المتقدم ذكره.

عالم فاضل ابن عالم فاضل أبو علماء أفاضل قرأ على أبيه الآتى ذكره و صنفا، و مات بعد الألف من الهجره (٩) يقول عبد الحسين الصالحى: ذكره ولده الشيخ حسن فى تنقيح المقال و أثبت تاريخ وفاته فى أصفهان سنه ١٠٨٥ ثم نقلت رفاتة إلى النجف الأشرف، و نقل عن تنقيح المقال الشيخ جعفر محبوبه فى كتابه ماضى النجف و حاضرها الجزء الثانى صفحه ٧٧ و قال فى تنقيح المقال: (والدى و أستاذى و من عليه فى أكثر العلوم الشرعيه استنادى ثقه عين صحيح الحديث مستحضر لأكثر العلوم له فى العربية و الفقه و أصوله يد طولى و له على أغلب الكتب التى فى تلك العلوم حواشى جيده حسنه نقيه و له حاشيه حسنه جيده مدونه على تهذيب الحديث من أوله إلى آخر كتاب الحج) (١٠)

ص: ١٠٩

- ١- أبو الحسن على البيهقى: تاريخ بيهقى: تحقيق أحمد بهمنيار. ص ١٦٨ طهران الطبعة الأولى.
- ٢- انظر نوابغ الرواه فى رابعه المئات.
- ٣- الصالحى.
- ٤- أبو العباس أحمد النجاشى: رجال النجاشى ص ١٤٧ الطبعة الحجرية الأولى بمبئى سنه ١٣١٧ هجرية.
- ٥- الشيخ عبد الحسين الصالحى.
- ٦- السيد حسن الصدر تكمله أمل الآمل ص ٢٥٠ تحقيق السيد أحمد الحسينى قم المكتبة المرعشيه.
- ٧- الشيخ آغا بزرگ الطهرانى الكرام البرره ج ٢ ص ٦٨٦.

٨- الشيخ عبد الحسين الصالحى.

٩- السيد حسن الصدر الكاظمى: تكمله أمل الآمل ص ٢٥٢-٢٥٣ تحقيق السيد أحمد الحسينى قم مكتبه المرعشيه.

١٠- الشيخ عبد الحسين الصالحى.

الميرزا عباس الايروانى

"الحاج الميرزا، أو الملا عباس الايروانى". اسمه المستعار "فخرى" و اشتهر باسم "الحاج ميرزا آقاسى" ابن "حاجى ميرزا مسلم الايروانى"، و قيل اسم أبيه "الميرزا قاسم" و قيل "الميرزا سليم".

كان الصدر الأعظم ل "محمد شاه قاجار" مده أربعة عشر عاما.

و يذكره الناس فى غيابه باسم "حاجى" أو "حاجى آقا".

هاجر أبوه مع عشيرته و أقاربه من "إيروان" إلى مدينه "ماكو" و سكن فيها. و كان يتعاطى مهنة الزراعة. و ولد "الحاج ميرزا آقاسى" فى "ماكو" سنه ١١٩٨ هـ. فلما بلغ سن الرشد سافر إلى "خوى" و أقام فيها. و قضى هناك بضع سنوات فى طلب العلم. فتعلم القراءة و الكتابه الفارسيه و درس العلوم المرسومه فى ذلك الزمان.

و سافر من "ماكو" إلى بلدان أخرى من أذربيجان و غيرها، حتى انتهى به المطاف إلى همدان. و فيها اتصل ب "الآخوند ملا عبد الصمد" الهمداني صاحب كتاب "بحر المعارف"، و كان يعد من كبار شيوخ التصوف. فتعلم له و اختص به.

و كان أحد مریدی "الآخوند" قد استطاع حج البيت و لكنه مات قبل أن يتهيأ له سفر الحج. فتاب عنه "الملا عباس" فى أداء هذه الفريضة.

و أصبح "حاجى ملا عباس". و عاد إلى همدان و اشتغل بتحصيل علوم التصوف و أسرارها، يقضى أوقاته ملازما خدمه أستاذه و مرشده المذكور.

و سافر الآخوند "الملا- عبد الصمد" إلى كربلاء للمجاوره فيها. فتبعه الحاج "ملا عباس" و لازمه فيها، إلى أن قتل الأستاذ المرشد سنه ١٢١٦ هـ فى فتنه الوهابيين يوم إغارتهم على كربلاء. فعاد الحاج "ملا عباس" من العراق إلى إيران و أعاد معه عائله مرشده و أوصلهم إلى همدان، ثم سافر إلى أذربيجان و سكن فى تبريز، و أخذ يعلم طريقه أستاذه و يرشد إليها، و اشتهر باسم "الحاج ميرزا آقاسى" و "الحاج ملا آقاسى".

و بعد مده قليله عهد إليه بتعليم أبناء "عباس ميرزا نائب السلطنه" ولى عهد "فتح على شاه"، و كان منهم "محمد ميرزا" الذى توج فيما بعد شاهها على إيران.

و أخذ الأستاذ المرتاض الايروانى فى أثناء التعليم و التدريس يؤثر فى تلميذه الأمير شيئا فشيئا حتى رسخت مكانته فى نفسه و أصبح قدوه له، و الشيخ يوجهه و يريه على طريقته الخاصه، و تحامت بينهما خصوصيه و وحده حال تامه. و قيل إن الشيخ بشره يوما، كما اعتاد المرشدون أن يكشفوا لمريديهم عن مصائرهم، بأنه سينال منصب السلطان على إيران.

و كانت هذه النبوءه يومئذ أمرا لا يصدق لأنه غير معقول. فقد كان ل "فتح على شاه" ستون ولدا، فكيف يصل حفيده من دونهم إلى عرش الملك. و كانت جماعه من أبنائه قد بلغوا من المقام و العظمه بحيث أن "محمد ميرزا" لم يكن يحق له

الجلوس في محضر أعمامه هؤلاء ما لم ياذنوا له، فضلا عن أن يتخطاهم إلى أريكه الملك. و لكن "محمد ميرزا"، مع ذلك صدق نبوءته لاعتقاده به أنه من أهل الكرامات و المقامات. و اشتهر بين العامه أن "محمد ميرزا" أعطاه وثيقه مهوره بخاتمه و توقيعه بأنه إذا جلس على العرش الشاهاني اختاره لمنصب عظيم الدوله و جعل أمور الحل و العقد في يده. و لعل "حاجي ميرزا آقاسي" بنى نبوءته هذه على مفاد المادة السابعه من معاهده "تركمان شاي" التي عقدت بين روسيا و إيران سنه ١٢٤٣ هـ بعد حرب وقعت بينهما و انهزمت فيها إيران.

و في تلك المادة أجبر الروس إيران على أن تكون ولايه العهد في إيران منحصره في "عباس ميرزا" و أعقابه. و كان "حاجي ميرزا آقاسي" مطلعاً على مضمون هذه المعاهده اطلاعا كاملا، على حين كان اطلاع "محمد ميرزا" و أعمامه على تفاصيلها قليلا، فكانوا غافلين عن مضمون المادة السابعه هذا. و قد اشترطت روسيا هذا الشرط لأن "عباس ميرزا" ولي العهد خالف يومئذ غيره من إخوته و غير إخوته فكان من القائلين بمصالحه روسيا و مسالمتها و التوقف عن متابعه محاربتها(١). أيد الإنكليز الروس أيضا باشتراط هذا الشرط. و ظلت المادة السابعه هذه معمولاً بها، مع سائر مواد تلك المعاهده، إلى آخر عهد الأسره القاجاريه.

و توفي "عباس ميرزا" في سنه ٢٤٩ هـ. فأراد أبوه "فتح علي شاه" نصب أحد أبنائه وليا للعهد في مكانه. و لكن الروس ذكروه بمضمون المادة السابعه من معاهده "تركمان شاي" و أجبروه على صرف النظر عن أبنائه و نصب حفيده "محمد ميرزا" ابن "عباس ميرزا" الأكبر و تلميذ "حاجي ميرزا آقاسي" وليا للعهد. و في سنه ١٢٥٠ هـ توفي "فتح علي شاه" في أصفهان، فخلفه "محمد ميرزا" هذا على العرش متخطيا أعمامه الستين أبناء "فتح علي شاه" على خلاف السنه المتبعه.

و اختار "محمد شاه" في مطلع حكمه لمنصب الصداره العظمى "الميرزا أبو القاسم" المعروف بـ "القائم مقام الثاني"، رجل من أعظم رجال إيران و أقدرهم. و لم يطل به المقام في هذا المنصب أكثر من ثمانية أشهر، من رجب سنه ١٢٥٠ هـ إلى آخر صفر سنه ١٢٥١ هـ. و مع ذلك استطاع أن يؤدي خدمات عظيمه لتثبيت "محمد شاه" و استقراره على العرش، إذ كان كثير من أبناء "فتح علي شاه" يرون أنهم أحق بهذا المنصب منه و يسعون إليه بقوى يحسب حسابها، و أقر أمور البلاد الداخليه و نظمها. فلم تعجب هذه السيره سياسه الأجانب و مطامع المنافسين في الداخل. فقامت عليه الدسائس و المؤامرات، و ما زالوا بـ "محمد شاه" يغرونه بهذا الرجل العظيم و يحرضونه على قتله حتى قتله.

و بعد قتله تنافس للحصول على منصب الصداره العظمى كثيرون من الكبار، و منهم "حاجي ميرزا آقاسي". و كانت النتيجة أن اختار "محمد شاه" لهذا المنصب معلمه و مرشده هذا، و هو يجهل كل شيء عن السياسه و الاداره. فكان اختيارا سيئا، أدى به "محمد شاه" أكثر أهل المرتبه الأولى من رجال الدوله و أغضبهم، خصوصا أن هذا الرجل الذي لا درايه له و لا خبره عنده جاء خليفه لذلك الصدر الأعظم الخبير الماهر المحنك. و لكن الشاه كان يعده قطب الفلك و مدار الشريعة و الطريقه و مصدر الكشف و الكرامه و يعايشه بعقيدته حسنه و نيه صافيه! و من ثم اختلت أمور المملكه و انقطعت رواتب الموظفين.

و لم يلبث أن نفر منه الخاص و العام. نفروا من صورته و من سيرته، و كلتاها عجيبيه غريبه. فقد كان شكل وجهه منفرا و كان طبعه حادا، دائم

١- راجع ترجمه "حسن على ميرزا شجاع السلطنه" و ترجمه "عباس ميرزا" نائب السلطنه.

الهياج، وفيه وقاحه و تلون و شراسه، و له لسان جاف شتام يستعمل ألفاظا قبيحه وقحه. و قد يغضب في مجلس يجمع أعظم الدوله و الأمه على أحد الرؤساء أو العلماء فيأمر بنزع قلنسوته أو عمامته عن رأسه و إلقائه في الخارج، و هو يتفوه بألفاظ بذيئه. و عين أكثر الولاه و من بيدهم إداره شئون المملكه من أقاربه و أتباعه.

و ظل الحاج "ميرزا آقاسى" مده صدارته، و هى أربعه عشر عاما، مطلق اليد يفعل ما يشاء مسيطرا على عقيدته الشاه و إرادته، و يتلقب بلقب "الرجل الأول" إذ كان يرى أن الصداره العظمى دون شأنه و مرتبته. و من ثم كان يكسره، بل كان يمنع، أن يخاطبه أحد بلقب الصدر الأعظم، و لا يرضى لقباً غير لقب "الرجل الأول".

و نبه رجال الدوله "محمد شاه" أكثر من مره إلى أن وضع هذا الرجل فى منصب الصداره و إطلاق يده على هذا النحو يجر إلى الخراب و البوار.

و لكن الشاه لم يصغ إليهم. و كانوا أحيانا يكتبون إليه مجتمعين بهذا الشأن، فيطلع "حاجى آقا" على رسائلهم مخالفا بذلك ما يقتضيه منصب الملك فى مثل هذه الحالات. و من ثم كان الصدر الأعظم يعرف خصومه معرفه تامه.

و فى سنه ١٢٦١ هـ تامر جماعه من كبراء الدوله، كان بينهم "ملك قاسم ميرزا" ابن "فتح على شاه".

و هو أيضا زوج أخت القائم مقام "الميرزا أبو القاسم" الصدر الأعظم القتيل، و "الميرزا آقا خان نورى" وزير الشئون العسكريه و "الميرزا نظر على حكيم باشى" القزوينى طيب "محمد شاه" القديم و أحد ندمائه من يوم كان أميراً قبل جلوسه على العرش و زوج إحدى بنات "فتح على شاه"، هؤلاء و غيرهم تأمروا على أن يجيئوا ب "منوجهر خان معتمد الدوله" والى أصفهان و ينصبوه فى منصب الصدر الأعظم بدلا من "الحاج ميرزا آقاسى".

و عرف هذا بالمؤامره فاستصدر أمرا من الشاه بإبعاد "ملك قاسم ميرزا" إلى أذربيجان، و تغريم "الميرزا نظر على حكيم باشى" ألف تومان و إبعاده إلى قم، و وضع رجلى "الميرزا آقا خان" فى الفلق و ضربهما و تغريم عشره آلاف تومان و إبعاده مع أخيه "الميرزا فضل الله" أمير الديوان إلى "كاشاف [كاشان]".

فنفذت هذه الأوامر و طال إبعادهم أربع سنوات. و مع أن "الحاج ميرزا آقاسى" لم يكن على صلته حسنه ب "منوجهر" المذكور فإنه عجز عن أن يناله بسوء، إذ كان هذا قويا مقتدرا فظل، على رغم الصدر الأعظم، حاكما على أصفهان و "لورستان" و خوزستان.

لما وصل "الحاج ميرزا آقاسى" إلى منصب الصدر الأعظم، أو منصب "الرجل الأول" حسب ما كان يهوى أن يقال له، اقترح عليه الشاه أن يتزوج بعمه له إحدى بنات "فتح على شاه" و اسمها "عزت النساء خانم"، و صادف هذا الاقتراح هوى فى نفسه فتزوجها. و كانت أرملة.

و زوجها الأول ابن عمها "موس خان" ابن "حسين قلى خان" أخى "فتح على شاه".

و بعد وفاه زوجها هذا ذهبت إلى مكه لأداء فريضه الحج. و اتفق أن كان فى قافلته "الحاج ميرزا آقاسى"، و ذلك قبل أن

يعرف بهذا الاسم إذ كان اسمه لا يزال "الحاج ملا عباس"، و هو فى لباس الفقر و الدروشه.

فسمع أن هذه الأميره خاليه لا زوج لها فخطبها لنفسه. فما كان من الأميره إلا أن أمرت خدمها بتأديبه بالعصا، فانهالوا عليه ضربا موجعا حتى أنهكوه، ثم أمرت بإخراجه من القافله فأخرجوه.

و دار الزمان دوره من دوراته فأصبح "الحاج ملا عباس" الصدر الأعظم لايران و أصبح يعرف باسم "الحاج ميرزا آقاسى" و زوجه "محمد شاه" بعمته "عزت النساء خانم" هذه نفسها. و يقال إنه لما خلا بها فى ليله الزفاف قال لها هل عرفتني قط؟ و هل رأيتني قبل أن تصبحى اليوم زوجة لى؟ فقالت: لا. لم أعرفك قط و هذه أول مره أراك. فذكرها بقصه الدرويش الذى كان فى قافلته فى سفر الحج و خطبته لها و ضربه بالعصا و طرده من القافله. ثم قال: أنا هو ذلك الدرويش المسافر إلى مكه الذى اتفق أن كان رفيق قافلته. و ها أنت ترين أنك، مع ما زجرتنى و أدبتنى به من ذلك العقاب القاسى، قد انتهيت إلى الزواج بى! و اشتهرت "عزت النساء خانم" هذه بقوه الساعد. قال أخوها "أحمد ميرزا عضد الدوله" فى تاريخه: اشتهرت الحاجه الأميره عزت النساء خانم بقوه القبضه. و كانت تبارى أكثر إخوتها فى الحضور الخاقانى بقوه القبضه فتغلبهم. و يقال إنها راهنت مره أخاها الأمير سليمان ميرزا، و كان معروفا بان له قبضه فائقه القوه، فأخذت صينيه قهوه من الفضه فقطعتها بيديها قطعه قطعه كما تمزق الورق.

و لم تلد "الحاجه عزت النساء خانم" من "الحاج" الميرزا آقاسى".

و كان لها من زوجها السابق ثلاثه أولاد، صبى و بنتان.

و أصبح الدرويش المعدم الصوفى المنعق العالم العارف الزاهد فى الدنيا الحاج "ميرزا آقاسى" فى مده صدارته المتماديه صاحب ملك وافر حتى صار فى زمانه أول ملاك فى إيران. و قدروا ما حصل عليه من أملاك بثمانيه و ثلاثين و أربعمائه ألف قريه و مزرعه فى مختلف نواحي إيران. و ذكروا أنه تخلى عن هذه الأملاك فى أواخر حياه الشاه، أى فى أواخر عهد صدارته قبل وفاته بستين تقريبا، و جعلها هديه للشاه سنه ١٢٦٣ هـ.

قبل وفاه "محمد شاه" ببضعه أيام أرسل الحاج "ميرزا آقاسى" رسولا إلى تبريز إلى ولى العهد "ناصر الدين ميرزا" يخبره بسوء حاله الشاه و يدعوه إلى الحضور إلى طهران.

و حين اشتد المرض ب "محمد شاه" لم يعده الحاج "ميرزا آقاسى" و لا حضر احتضاره و تجهيزه و تكفينه، بل أخذ يقلب فى ذهنه مخططات مختلفه، و لجا إلى الوزير المفوض الروسى و الوزير المفوض الإنكليزى يستشيرهما.

فى أول الأمر أراد أن يقيم فى قلعه "عباس آباد" الواقعه فى شمال طهران يرعى شئون المملكه إلى أن يحضر الشاه الجديد. و لكنه انصرف عن هذه الفكره و أقام فى مسكنه الرسمى الخاص فى طهران، و أرسل إليه أنصاره، و منهم صنيعه له كان آمر المدفيعه و كان من أخلص أنصاره و فى عهده حراسه مسكنه، رساله قالوا له فيها إنهم عاجزون عن حمايته بسبب نغمه الأكثرية من الناس عليه، و أن عليه أن يتدبر أمره بنفسه.

فغزم على ترك منزله الخاص و الذهاب فى طريق أذربيجان لاستقبال الشاه الجديد. فلما وصل إلى "يافت آباد" الواقعه على بعد بضعه كيلومترات فى الجنوب الغربى من طهران، و هى من أملاكه المستحدثه، أراد أن يبيت فيها. و لكن أهل القرية رفضوا أن يفتحوا له أبواب القلعه حيث أراد أن ينزل و أهانوه. فهمه ذلك هما شديدا و عدل عن المضى إلى أذربيجان

ص: ١١١

و لجا إلى مقام عبد العظيم الحسنى (رض) ذليلا منكسرا. و نزل فى حجره من مدرسه تقوم إلى جانبه. و يقال إن "الحاج ميرزا آقاسى" لما دخل الحجره و وقع نظره على الحصر البسيط المفروش فى أرضها عاودته ذكرى من أيام صدارته الماضيه فقال: "وى! ما أعجب حلما طويلا رأيتة!".

و خشى جماعه من عظماء الدوله و مشاهيرها أن يعود "الحاج ميرزا آقاسى" مره ثانيه فى العهد الجديد إلى مكانته من الحكم و السيطره. فتعاهدوا على أن يرفضوا صدارته رفضا باتا، و أن لا-يحجموا عن بذل الأرواح و الأموال إذا اقتضى الأمر ذلك، للوصول إلى مرادهم. و كانت "مهد عليا" أم ناصر الدين شاه، يومئذ، من العوامل المهمه فى توجيه أمور الدوله، فجلبوا إلى جانبهم و أصبحت حليفه لهم فى هذه القضيه.

و بعد وفاه "محمد شاه" وقعت ثورات و فتن فى كثير من الايلات و الولايات كخراسان و فارس و كرمانشاه و لورستان، إذ ثار الناس على حكاهم من أتباع الحاج "ميرزا آقاسى" و طردوهم شر طرده من بلادهم.

و قام الحاج "ميرزا آقاسى" أيام صدارته ببعض الأعمال الزراعيه المهمه. منها شق نهر من نهر "كرج" أوصل الماء إلى عدّه مزارع و قرى فازدهرت و عمرت و لا تزال ترتوى من هذا النهر إلى اليوم. و قد سخر الحاج "ميرزا آقاسى" لشقه جند فوج من أفواج الجيش.

و أقام الحاج "ميرزا آقاسى" ذليلا فى تلك الحجره من تلك المدرسه إلى أن وصل ناصر الدين شاه من تبريز إلى طهران، و أذن له بالسفر إلى العراق و بعد سنه من إقامته فى العراق توفى فى شهر رمضان سنه ١٢٦٥ هـ و هو فى الثامنه و الستين من عمره.

عباس قلى آغا

المشهور بباقى خانای، و فى الروسيه بباقى خانوف. و كان يوقع كتاباته بتوقيع: قدسى.

ولد فى ١٠ حزيران سنه ١٧٩٤ م فى قريه أمير حاجيان بخانيه باكو.

و توفى سنه ١٨٤٧ م فى قوبا مؤرخ و شاعر و فيلسوف آذربيجانى. و هو ابن محمد خان حاكم باكو الذى أطاح به عن عرشه أخوه محمد قلى خان. تلقى دراسته بالعريه و الفارسيه. و فى سنه ١٨٢٠ عين ضابطا مترجما فى تفليس بمركز قياده الجنرال إرمولوف Ermolov القائد العام للجيش الروسيه فى القوقاز، و هناك تعلم الروسيه، و بفضلها أصبح على معرفه جيده بالأدب الغربى. و لم يلبث أن خرج فى رحله طويله أدت به إلى شيروان و أرمينيه و داغستان و بلاد الكرج و تركيا و إيران.

و فى الحربين اللتين نشبتا بين الروس و الترك، و بين الروس و الايرانيين، كان عباس ضابط أركان حرب فى مركز قياده الجنرال باسكيفج Paskievich. و فى سنه ١٨٣٣ خرج فى رحله أخرى زار فيها شمال القوقاز و روسيا و دول البلطيق و بولنده.

و منذ سنه ١٨٣٤ انقطع للأدب و نشر عددا كبيرا من آثاره بالأذريه و الفارسيه و العريه. و أهم آثاره: گلستان إرم (١٨٤١ م) يتبع فيه تاريخ داغستان و شيروان من أقدم الأزمنه حتى معاهده گلستا [گلستان]. و فى سنه ١٩٢٩ م نشرت جمعيه دراسه آذربيجان فى باكو ترجمه روسيه لهذا الكتاب القيم مع مقدمه بقلم سيسويف Sisoiev و سيره للمؤلف بقلم باخرنى. و قد

ظهرت النسخة الآذرية منه سنة ١٩٥١ م في باكو (طبعه أكاديميه العلوم بآذربيجان SSR).

و آثاره الأخرى هي: (رياض القدس) بالآذرية، و هو كتاب في التراجم، و (قانون قدسى) و هو في نحو اللغة الفارسيه و (كشف الغرائب)، و هو بالفارسيه يشمل وصفا لاكتشاف امريكا و (تهذيب الأخلاق) بالفارسيه، و هو رساله في الأخلاق و الفلسفه الأخلاقيه مستقاه من الكتاب العرب و اليونانيين و الأوربيين، و (عين الميزان)، و هي رساله في الكلام و المنطق بالعربيه و (أسرار الملكوت) بالفارسيه و العربيه، و هي رساله في علم الفلك نشرت في تفليس، و (نصيحت نامه) بالفارسيه، و هي مجموعه من المبادئ الأخلاقيه.

و قد كان شاعرا نظم بالعربيه و الفارسيه و الآذرية، و نشر بعض قصائده في جريده (فيوضات) بباكو (العدد ٢٨ الصادر سنة ١٩٠٧ م)، و ترجمه بالآذرية لخرافات كريلوف.

عباس ميرزا ملك آرا

"عباس ميرزا" لقبه "نائب السلطنه" و "ملك آرا" (مزين الملك) هو ثانى أبناء "محمد شاه قاجار". ولد في رجب سنة ١٢٥٥ هـ. و قد اشتهر أن أباه أراد في أواخر أيامه تنحيه ولى عهده "ناصر الدين ميرزا" عن منصبه و نصب أخيه "عباس ميرزا" هزا في مكانه و ليا للعهد. و لكن العمر لم يمهلته لتحقيق هذا الأمر. فقد كان "عباس ميرزا" أحب إليه من أخيه "ناصر الدين ميرزا"، و من ثم جباه بلقب "نائب السلطنه".

و كان "ناصر الدين ميرزا" يلاحظ بدقه إهمال أبيه له و انصراف عطفه إلى أخيه من دونه. و بعد وفاه "محمد شاه" و تولى "ناصر الدين ميرزا" منصبه عزم على قتل أخيه "عباس ميرزا" إذ كان حاقدا عليه من زمن أبيه و كانت "مهد عليا" أم "ناصر الدين" لا تنفك توغر صدره عليه من ذلك الزمن. و لكن "عباس ميرزا" نجا من القتل بوساطه الإنكليز و حمايتهم له.

و اكتفى الشاه الجديد بنفيه إلى العراق في شهر ذى الحجه سنة ١٢٦٨ هـ، و خصص له راتبا سنويا مقداره ثلاثه آلاف تومان، فسافر إلى العراق و سكن في بغداد. و أقام أيضا مده قليله في إسلامبول. و طال نفيه مده سبعة و عشرين عاما أذن له بعدها "ناصر الدين شاه" بالعوده إلى طهران فعاد في شهر المحرم سنة ١٢٩٥ هـ. و أنعم عليه الشاه بلقب "ملك آرا" و خصص له راتبا سنويا مبلغ سته آلاف تومان و خصص لابنه "محمد ميرزا" خمسمائه و ألف تومان.

ثم توسط له قائد الجيش "الحاج ميرزا حسين خان" فعينه الشاه حاكما على زنجان. و لكنه لم يمكث طويلا في هذا المنصب، إذ أوقعه الوهم في الخوف على نفسه ففر إلى القفقاس. و عاد قائد الجيش إليه فطمانه و ضمن له الأمان فرجع إلى طهران سنة ١٢٩٦ هـ. و في سنة ١٢٩٨ هـ عين حاكما على قزوین.

كان الإنكليز يناصرون "عباس ميرزا" و يرغبون في تقويه مكانته و معاونته على أخيه و لكنه لم يستجب لهم. و شاع أنهم طلبوا إليه أن يسافر إلى لندن فرفض. و في الحرب التي وقعت بين إنكلترا و إيران سنة ١٢٧٣ هـ وصل الإنكليز إلى "برازجان" من طريق "بوشهر" و إلى "الأهواز" من طريق "خرمشهر". و أرادوا إخافه "ناصر الدين شاه" و تهديده فاصروا على

نقل "عباس ميرزا" من بغداد إلى جنوب إيران. و لكن هذا لم يستجب لهم. فاعتنم الصدر الأعظم "الميرزا آقا خان نوري" هذه الفرصة لايقاع الصلح بين الشاه و أخيه. و كان "ناصر الدين شاه" قد قطع عنه راتبه، فأراد أن يتحبب إليه و يكافئه فأعاد إليه راتبه و زاد فيه خمسمائه تومان، و عفا عنه. و بهذا يكون "عباس ميرزا" قد جرد الإنكليز من سلاح قوى كانوا يشهرونه على "ناصر الدين شاه".

أما الأمراء الآخرون فلا يهتم الإنكليز باستمالتهم إليهم إذ لم يكن فيهم من له مؤهلات "عباس ميرزا" فيستطيعوا أن يسخروه للوصول إلى ماربهم.

و بعد عوده "عباس ميرزا" إلى إيران سعى الإنكليز كثيرا إلى حمل "ناصر الدين شاه" على تعيينه وليا للعهد، خصوصا بعد وفاه اثنين من أبنائه كانا قد عينا لولايه العهد واحدا بعد آخر، فلم يحصلوا على نتيجة.

و في سنة ١٢٩٧ هـ ثار في كردستان "الشيخ عبيد الله النقش بندي" أحد رؤساء الصوفيين و جماعه من رؤساء العشائر الكرديه على الحكومه المركزيه. و إذ كان "عباس ميرزا" أحسن وسيله يتقوى بها خصوم "ناصر الدين شاه" عليه، فقد أراد النقش بندي هذا استغلاله، كما أراد الإنكليز استغلاله قبلا، خصوصا أنه كانت بينهما أيضا صلح و معرفه. فكتب إليه "الشيخ عبيد الله" رساله أرسلها مع اثنين من رجاله يدعوه فيها إلى الحضور إلى "ساوجبلاغ مكرى" لمشاركتهم في محاربه القوات الحكوميه، و بعدها يرفعونه إلى عرش الملك. فما كان من "عباس ميرزا" إلا أن بادر إلى اطلاع "ناصر الدين شاه" على أمر هذه الرساله. فكافأه الشاه على هذه الخدمه بنصبه حاكما على قزوین. و في سنة ١٣٠٣ هـ عين وزيرا للتجاره و رئيسا فخريا لمجلس شورى الدوله.

و في الرابع عشر من ذى القعدة سنة ١٣١٤ هـ توفى بسكته قلبيه في أثناء سباق للخيل في طهران، و هو في التاسعه و الخمسين، بعد مقتل "ناصر الدين شاه" بسنه واحده. و كان جثمان "ناصر الدين شاه" قد أودع قبرا موقتا في طهران ريثما ينتهى بناء قبر له بالقرب من مقام عبد العظيم الحسنی (رض). و اتفق أن كان نقل جنازه "ناصر الدين شاه" من القبر الموقت في نفس الوقت الذى شيعت فيه جنازه "عباس ميرزا". و لذلك لم يشيع هذا التشيع اللائق به. و فى أواخر السنه التى توفى فيها أنعم "مظفر الدين شاه" على ابنه "محمد ميرزا" بلقب "ملك آرا".

الشيخ أبو محمد عبد الباقي بن محمد بن عثمان الخطيب البصرى.

من علماء الشيعة و أكابر المتكلمين فيهم فى القرن الخامس للهجره، خطيب محقق لم أقف على تاريخ ولادته و وفاته إلا أنه يستفاد من ذكر تلاميذه أنه كان من طبقه السيد المرتضى المتوفى سنة ٤٠٦ [٤٣٦] و الشيخ أبى جعفر محمد الطوسى المولود ٣٨٥ و المتوفى سنة ٤٦٠ و الخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣ صاحب تاريخ بغداد.

أصله من البصره و قدم إلى الرى ثم تصدر للتدريس و الفتوى و تخرج عليه الشيخ المفيد عبد الرحمن النيسابورى الذى كان من تلاميذ شيخ الطائفة الشيخ أبى جعفر الطوسى و السيدين الشريف الرضى و المرتضى فيستفاد من ذلك أن المترجم له من طبقتهم. ذكره الشيخ منتجب الدين بن بابويه الرازى و لم يذكر تاريخ وصله إلى الرى و قال فى وصفه: (الشيخ أبو محمد عبد الباقي بن محمد بن عثمان الخطيب البصرى شيخ من وجوه أصحابنا ثقة ورد الرى و قرأ عليه المفيد عبد الرحمن النيسابورى. تصانيفه منها الحجج و البراهين فى إمامه أمير المؤمنين ع و أولاده الأحد عشر أئمه الدين صلوات الله و سلامه عليهم أجمعين و

المذهب فى المذهب و رسائل البصره و كتاب الدلائل(١) و ذكره الشيخ الحر العاملى فى أمل الأمل(٢) و نقل ما ذكره الشيخ منتجب الدين بن بابويه فى الفهرست و ميرزا عبد الله الأصفهاني فى رياض العلماء ج ٣ ص ٦٤ و ذكره شيخنا فى طبقات أعلام الشيعة و أشار إلى مؤلفاته عن منتجب الدين فى الذريعة(٣)

الشيخ الآغا عبد الحسين بن الشيخ الآغا محمد باقر بن الشيخ محمد أكمل

البهبهاني الحائري.

توفى فى همدان سنة ١٢٤٥.

من أكابر علماء الشيعة و مفاخر فقهاءهم و أئمة التقليد و الفتوى أصولى محقق عابد زاهد قال فى المجلد التاسع صفحه ١٨٢ من أعيان الشيعة فى ترجمه والده الآغا محمد باقر البهبهاني ما نصه (خلف ولدين عالمين فاضلين ورعين تقيين أكبرهما الآقا محمد على الذى سكن كرمانشاه و الثانى الآقا عبد الحسين ذكرنا فى أبيهما). يقول عبد الحسين الصالحى لقد جاء ذكر الشيخ الآغا محمد على فى المجلد العاشر صفحه ٢٥ من أعيان الشيعة و لم أجد ذكرا للشيخ الآقا عبد الحسين فى محله من طبعه دار التعارف لذا نذكره كما يلى: ولد و نشأ فى كربلاء و أخذ المقدمات و العلوم الإسلاميه و فنون الأدب على أفاضل علماء الحائر الشريف و تخرج فى الفقه و الأصول على والده المؤسس المجدد الآغا باقر البهبهاني المتوفى سنة ١٢٠٥ و أجازته والده إجازته مفصله و عامه و أمر الناس بالرجوع إليه و تصدر كرسى التدريس و الفتوى بامر من والده فى كربلاء و بعد وفاه والده ألح عليه السيد ميرزا مهدي الشهرستاني المتوفى سنة ١٢١٦ و جمع غفير من العلماء و تلامذته والده بالصلاه فى مقام والده فأجاب و صلى لمدته قصيره ثم ترك الامامه و بعد حمله الوهابيين على كربلاء فى عام ١٢١٦ ترك الحائر الشريف متوجها إلى إيران و استقر مده فى كرمانشاه ثم توجه إلى همدان و منها إلى أصفهان ثم استقر فى خراسان و ظهر فى تلك الأيام على مسرح النزاع فى يزد الشيخ أحمد الاحسائي المتوفى سنة ١٢٤١ مؤسس الفرقة الشيخيه فبطلب من علماء المشرعه فى يزد توجه إلى هذه المدينه لنصرتهم ضد الشيخيه حيث كانت مدينه يزد كسائر المدن الإيرانيه و العراقيه منقسمه على نفسها بين شيخيه أنصار الشيخ أحمد الاحسائي و مشرعه خصوم الاحسائي فوقف المترجم له قبالهم موقفا باسلا و أبدى معارضته للشيخيه و أعلن ضلالهم ما اضطر البلاط الايرانى لاستدعاء الشيخ أحمد الاحسائي من يزد إلى طهران خشيه مغبه النزاع. ثم سكن الاحسائي فى كرمانشاه بناء لدعوه ولى العهد محمد على ميرزا دولت شاه المتوفى سنة ١٢٣٧ و فى حدود سنة ١٢٣٠ توجه المترجم له إلى همدان و تصدر كرسى التدريس و الفتوى و الزعامه و كان من مراجع التقليد فى همدان و أئمه الدين و تحول العلماء حتى توفى بها.

ذكره ابن أخيه الشيخ أحمد فى كتابه (مرآه الأحوال) الذى ألفه فى سنة ٢٢٣ [١٢٢٣]

ص: ١١٣

١- الشيخ منتجب الدين الرازى: الفهرست تحقيق الدكتور سيد جلال الدين المحدث ص ٧٦ قم منشورات مكتبه المرعشيه.

٢- انظر أمل الأمل تحقيق السيد أحمد الحسينى ج ٢ ص ١٤١-١٤٢ النجف الطبعة المحقق الأولى ١٣٨٥ هـ.

٣- الشيخ عبد الحسين الصالحى.

و أثنى عليه ثناء كثيرا و ترجم له صاحب روضات الجنات فى ذيل ترجمه والده و قال (... و أما أخوه الأصغر الذى هو الولد الآخر لصاحب الترجمة - أعلى الله مقامه - فهو أيضا من أعظم العلماء و المجتهدين و أفأخم الفقهاء و الأصوليين يسمى بالآقا عبد الحسين و هو الذى كتب لأجله والده المعظم حاشيه أصول المعالم و له أيضا شرح على المعالم مبسوط مشتمل على تحقيقات أنيقه فلما توجد فى شىء من كتب الأصول بلغ فيه إلى مباحث الاستصحاب و كان - ره - متوطنا ببلده همذان العجم طول حياته مجتنبًا عن العشره التامه و السلوك مع قاطبه الخلق بحسن الخلق و قد أدركناه برهه من زمانه و توفى بعد نيف و أربعين و مائتين فوق الألف - أفاض الله على روحه المطهره شآبيب الغفران(١) تزوج المترجم له بنت الميرزا محمد جعفر الذى كان صهر الميرزا الشيروانى و خلفه ثلاثه أولاد، هم: ١ - الشيخ الآقا عبد العلى والد الشيخ الآقا محمد البهشتى و الشيخ الآقا أحمد البهشتى. ٢ - الشيخ الآقا محمد مهدى الذى كان له ولد باسم الشيخ الآقا عبد الحسين عميد أسرهم آل الآقا فى طهران. ٣ - الشيخ الآقا محمد تقى البهبهانى والد الشيخ الآقا محمد باقر عميد أسرهم آل الاقائى فى همذان و جميع الأولاد و الأحفاد ثم من العلماء الاعلام و الفقهاء فى إيران و هم منتشرون اليوم فى كل من طهران و همذان و كرمانشاه.

ترك المترجم له مؤلفات فى الفقه و الأصول و منها كتاب شرح المعالم فى مجلدين كبيرين، و له أيضا حاشيه المعالم، و كتاب الفقه.

و ترجم له مفصلا الميرزا محمد على الكشميرى فى نجوم السماء ص ٣٣٧ و السيد مصلح الدين المهدوى فى الجزء الأول من كتاب العلامة المجلسى صفحه ٣٣٤(٢)

السيد عبد الحسين بن السيد محمد بن السيد عبد الحسين بن السيد أحمد بن

السيد الحسن بن السيد جعفر العاملى

الأصل القزوينى المولد و المنشأ و المدفن المعروف بصدر الصدور.

ولد فى قزوین سنه ١٣١٠ و توفى سنه ١٣٧٥ و دفن عند والده فى الخانقاه الذى أسسه والده عند " دروازه راکش [راه کوشک] " فى قزوین.

حكيم عالم عارف متصوف أديب شاعر أخذ المقدمات و فنون الأدب و العريه على والده السيد محمد صدر الصدور القزوينى و تخرج فى الفقه و الأصول على الشيخ فتح الله الشهيدى و الشيخ ميرزا هدايه الله الشهيدى و السيد هبه الله التلاترى ثم توجه إلى قم و حضر سنين على الشيخ عبد الكريم الحائرى اليزدى و أجازه مشايخه المذكورون ثم عاد إلى قزوین و هو من آل صدر الصدور العاملين الذين هاجر جدهم الأعلى السيد جعفر العاملى فى عصر نادر شاه إلى قزوین و لقبه الشاه بصدر الصدور.

له مؤلفات منها ديوان شعر و كتاب سير و سلوك فى التصوف و تقاريرات درس استاذه الحائرى فى الأصول و تقاريراته فى الفقه و غير ذلك (٣)

عبد الرحمن الخازن أو الخازنى:

توفى حوالى سنه ٥٥٠هـ.

حكيم فلكى مهندس، قال البيهقى: كان غلاما روميا لعلى الخازن المروزي فنسب إليه. من مؤلفاته: (الزيج) المسمى بالمعتمر السنجرى نسبة إلى السلطان سنجر. و (ميزان الحكمة).

كان زاهدا بالدنيا متقشفا، بعث إليه السلطان سنجر ألف دينار فاخذ منها عشرة و رد بقيتها و قال: يكفينى كل سنه ثلاثه دنانير و ليس معى فى الدار الا سنور.

و قال القفطى فى أخبار العلماء بأخبار الحكماء / ٢٥٩ (مطبعة السعادة ١٣٢٦ هـ): أبو جعفر الخازن كنيته هذه أشهر من اسمه... خبير بالحساب و الهندسه و التيسير، عالم بالأرصاد و العمل بها، مذكور بهذا النوع فى زمانه و له تصانيف منها: كتاب زيح الصفائح و هو من أجل و أجمل كتاب صنف فى هذا النوع. و كتاب المسائل العدديه.

و قالت مجله الموسم فى العدد (١-٢) من السنه الأولى ما يلى:

بين أيدينا مخطوط عربى علمى نادر كتب بموضع على ساحل بحر عمان، يرتقى عمر المخطوط إلى أكثر من ثمانيه قرون و نصف القرن، و قد دون الناسخ اسم المخطوط و مؤلفه على وجه غلافه الأول و قد جاء فيه:

" كتاب ميزان الحكمة و هو الجامع للموازن و وجوه الوزن بها و ما يتعلق به، تولى جمعه و تدوينه الشيخ الأجل السيد عبد الرحمن الخازنى مولى الشيخ العميد الماضى أبى الحسن على بن محمد الخازن رحمهما الله مما أشار إليه الحكماء المتقدمون و بسطه المتأخرون فى شهور سنه خمس عشره و خمسمائه هجرية "

و فى آخر الكتاب جاء ما يلى:....

تمت المقاله الثامنه و تم بها الكتاب و لله الحمد و الشكر و به الحول و المنه و الصلاه على خير خليقته محمد النبى و عترته الطاهرين الأبرار. و قد فرغ من تحريره أبو نصر أحمد بن محمد الطرقى صبيحه يوم الجمعة غره ربيع الآخر سنه خمس و ثمانين و خمسمائه و هو اليوم الثانى و العشرون من تير ماه القديم سنه خمسمائه و ثمانيه و خمسين يزدجرديه بساحل بحر عمان فى موضع يقال له... هرمن حامدا لله تعالى و مصليا على نبيه المصطفى و آله.

لهذا الأثر النفيس أهميه كبيره لكونه من الكتب العربيه النادره فى الموضوع العلمى الهام الذى طرقه مؤلفه و تلخص نتائج البحث التى توصل إليها بما يلى:

لقد وجد علماء العرب فى البحث فى إيجاد الثقل النوعى للمعادن المخطوطه من نوع أو أكثر من نوع، و توصلوا إلى إيجاد كم مقدر من كل نوع فى ذلك المعدن المخلوط.

و لقد تقدم فلاسفه العرب الطبيعويون فى القرن الحادى عشر و الثانى عشر إلى حد بعيد فى فكره التجاذب، و لو أنهم لم يعرفوا تجاذب الأجسام المتبادل كما عرفه كيلو و نيوتن، و لكنهم قالوا أن جميع الأجسام تنجذب إلى مركز العالم - و يعنون بذلك

الأرض - لأن الفكره السائده آتئذ هي أن الأرض مركز الكون. و لقد عرفوا أن القوه الجاذبه هي بنسبه بعد الجسم عن مركز

ص: ١١٤

١- ميرزا محمد باقر الموسوي الخوانساري: روضات الجنات ج ٢ ص ٩٨ طبع مكتبه اسماعيليان (طهران).

٢- الشيخ عبد الحسين الصالحى.

٣- الشيخ عبد الحسين الصالحى.

الجذب و قدروا أن القوه الجاذبه هي بنسبه طرده للمسافه.

و قد عرف العرب قوانين و وسائل مضبوته فيما يخص القوانين الميكانيكيه، فهم عرفوا المعادله التي تربط بين السرعه و المسافه المقطوعه مع الزمن الذي في أثناءه قطعت تلك المسافه، كما عرفوا قوانين مراكز الثقل، و الروافع و غيرهما.

و عرفوا أن للهواء وزنا و ذلك بالتأثير الذي يحدثه الهواء على وزن الأجسام.

و فهموا فعل الشرقه و سببها، و وضع الماء في أنابيب شعريه لها فتحة واحده.

و استعمل العرب الأريوميتر **Areometer** الذي ورثوه عن اليونانيين فحسنوه و قدروا بواسطته قياس حراره الماء و ذلك عند تقدير الكثافه التي هي بنسبه عكسيه للحراره.

و وضعوا جدولا للأثقال النوعيه لجميع الأجسام الصلبه و المائعه التي كانت معروفه لديهم.

و عرفوا أيضا أن هنالك قوه جاذبه على جميع جزئيات الأجسام و هذه القوه هي التي تبين لنا صفه الأجسام، و هذه نظريه جد مفيده في التحليل الكيميائي و هي مفتاح لعديد من خفايا الطبيعه.

يبرهن الكتاب على مقدار ما توصل إليه العلماء العرب من الدقه في صنع الموازين لقياس كثافه الأجسام حيث عرفوا بواسطتها الأحجار الكريمة و ميزوها عن أشباهها و ملوناتها مما يعجز عنه اليوم كثير من العلماء.

السيد عبد الرحمن الكواكبي.

مرت ترجمته في المجلد الثالث من (المستدركات)، و قلنا هناك أن صاحب (طبقات الاعلام) يؤكد أن تشيع والده كان معروفا، و أن من الطبيعي أن يرث التشيع عن والده.

و ذكرنا هناك أيضا أنه سليل أسره شيعيه معروفه التشيع منذ القدم، و قد أصابها بسبب ذلك ما أصابها من النكبات، و ذكرنا تفاصيل إحدى تلك النكبات، و قلنا أن الكواكبي كان كجمال الدين الأفغاني حكيما في كتمان تشيعه في عصر التعصبات الذهبيه العمياء، و لو أظهر تشيعه لاستغل ذلك في محاربه في دعوته الاصلاحيه التحريري.

و قد عثرنا بعد ذلك على ما لا يدع شكا في تشيع السيد عبد الرحمن الكواكبي تشيعا عريقا أصيلا يربى عليه من يختصه من تلاميذه و مرديه الذين يطمئن إليهم، و هذا الذي عثرنا عليه هو مقال للكاتب الحلبي سامي الكيالي نشره في الصفحه ١١٨ من العدد ١٠٣ من مجله العربي الصادر في (يونيو ١٩٦٧)، و فيه عدا ذلك ما يحل لنا لغزا عجزنا كما عجز غيرنا عن حله و هو أن الشاعر عبد المسيح الأنطاكي كان - على نصرانيته - مولعا ولعا عجيبا بالبيت و معجبا أعظم الاعجاب بأمير المؤمنين علي بن أبي طالب ع، حتى لقد نظم فيه ملحمة شعريه فريده، تتدفق حبا بأبي الحسن و تفيض حماسه له و إشاده به. و لقد كنا نعجب من ذلك و نتساءل من أين استقى هذا الشاعر معلوماته الغزيره عن آل البيت لا سيما عن أمير المؤمنين، هذه المعلومات التي جعلته يتفانى في حبه و يندفع هذا الاندفاع بالاشاده بالإمام العظيم حتى ليقضى شطرا من حياته في نظم ملحمة التي بلغ عدد أبياتها

٥٥٩٥ بيتا بقافيه واحده، فإذا بمقال الكيالى يثبتنا بان مصدر ذلك كله كان السيد عبد الرحمن الكواكبي الذى تتلمذ عليه الأنطاكي فى حلب و فى مصر. و إليك الجزء المتعلق بهذا الموضوع من مقال الكيالى:

قال سامى الكيالى متحدثا عن عبد المسيح الأنطاكي (١٨٧٥ - ١٩٢٢ م):

أديب شاعر ليس له شهره كبار الأدباء و لا فحول الشعراء و ان حذا حذوهم و سار على نهجهم.

تتلمذ على الرائد العربى الحر عبد الرحمن الكواكبي فاخذ عنه الكثير من مبادئه و نزعتة العربيه.

نشا فى حلب، ثم هجرها إلى مصر، و قام برحلات إلى الجزيره العربيه يتصل بامرائها و شيوخها فيمدحهم و يلقى منهم الرعايه و المال.

و كلما ازدادوا عطاء ازداد مدحا و ثناء.

و فى سيرته الكثير من المفارقات لعل أظهرها تعلق هذا الأديب المسيحي بال البيت تعلقا حفزه أن ينظم ملحمة فى الامام على رضوان الله عليه، قاربت أبياتها الستة آلاف بيت مما لم يبلغه كبار الشعراء من غلاه التشيع.

و قد عبر تعبيرا صادقا عن حبه لآل البيت، و إيمانه العميق برسالة العرب التى نستمد عناصرها الأصيله من مبادئ الإسلام.

أدينا الحلبي هذا يمت إلى الإيغريق بنسب عريق، فقد نرح أجداده من اليونان إلى أنطاكيه فسكنوها مددا طويله. ثم انتقلت عائلته إلى حلب سنة ١١٦٣ هـ، و ما يزال أحفادها يعيشون إلى اليوم بين دمشق و حلب و بينهم الأساتذه و المحامون و التجار.

ولد عبد المسيح سنة ١٨٧٥ م فلم يكد يترعرع و يأخذ حظه من القراءه و الكتابه حتى تعلق بالأدب العربى و أخذ يحفظ دواوين الشعر، و قد وصف لنا نشاته بتجرد مطلق فقال:

نشأت فى حلب الشهباء فى وسط كله تعصب و جهل، و من حسن حظى أن بيتنا فى حلب كان فى شارع أكثر أهله عرب مسلمون يدعى "قسطل المشط"، فكنت أجد من حسن معامله العرب المسلمين لأهلى و رعايتهم لجوارنا غير ما كنت أسمع من النفرة منهم من أفواه عشرائى المسيحيين، فشبيت و أنا على غير رأيهم فى هذه الأمه الكريمه.

ثم عند ما اتسعت مداركى، صرت أعرف و أعتقد أن هؤلاء المسلمين العرب الذين يجاورونا و نجاورهم هم شركاؤنا فى الوطن، و مشتركون معنا فى منافعهم و مضارهم، و فوق هذا أن بيننا و بينهم صله قريه بلحم و دم. لأن المسلمين عند ما دخلوا سوريه كان أهلها مسيحيين و يهودا و مجوسا فأسلم منهم من أسلم و بقى على دينه من بقى. و ربما انقسمت العائله الواحده إلى مسلمين و غير مسلمين..

و هكذا أصبحت متعصبا للعرب أعد نفسي واحدا منهم، يسرنى ما يسرهم، و يسيئنى ما يسيئهم، و بصفتى واحدا منهم بات همى أن أعتنى بمصلحتهم، و توفقت إلى أصدقاء منهم أهل علم و ساسه متعصبين للعرب، يرمون إلى استعادته مجددهم فتربيت على

أيديهم و على رأسهم أستاذى المرحوم السيد عبد الرحمن الكواكبي الشهير.

ص: ١١٥

و لخدمه العرب أنشأت مجلتي "الشدور" في حلب سنه ١٨٩٧ - ١٨٩٨ م، فحاربتنى الحكومه، فهجرت وطنى و أتيت مصر و أنشأت جريدتى "الشهباء"، ثم حولتها إلى اسم "العمران".

و تبعنى إلى دار هجرتى أستاذى الفيلسوف الكواكبى سنه ١٨٩٩ م، فلذت به، و قضيت فى صحبته كل المده التى أقامها فى مصر إلى أن استأثرت رحمه الله تعالى بنفسه الطاهره فى سنه ١٩٠٢ فأخذت على عاتقى الضعيف استئناف الجهاد فى سبيل العرب الذى كان يجاهده و أنا فى خدمته(١) و فى مصر تفتحت مواهبه و رأى عالما ينعم بالحرية خلافا لما كان عليه وطنه الذى كان يئن من الجور الحميدى.

و لا شك أن لاتصاله الوثيق باستاذه الكواكبى و بالشيخ كامل الغزى، و من عرفهم من زعماء التفكير الحر فى القاهره - أثره فى هذه الوجهه التى اتجه إليها - اتجاه عربى إسلامى يعيد للأمة العربيه مكانتها و يؤددها بين الأمم و يختلف عن النهج العثمانى الذى كانت تسير عليه بعض صحف مصر الكبرى التى كانت تجد فى "الخلافه العثمانيه" سندا لمصر ضد الاحتلال الانكليزى.

و رأى فى الجزيره العربيه التى لم تخضع لحكم أجنبى - رآها بينه صالحه لتلعب نفس الدور الذى لعبه الأجداد الميامين فى صدر الإسلام، و كانت بعض المناطق لم ترتبط بمعاهدات فعلق على شيوخها و أمرائها و سلاطينها كبريات الآمال..

و من أقواله بهذا الصدد:

"كان للمسلمين ملك واسع امتد ظلاله على الثقيلين، و كانوا سادات الدنيا بغير جدال بهمم الأسلاف الأبطال و ذكاء من نبغ منهم من أعظم الرجال".

"و كان ذلك من معجزات الرسول و القرآن".

و بعد أن أشار إلى مراحل المجد و الفتوحات و وضع المسلمين الذين فقدوا الملك الواسع و أضاعوا المجد و العلم قال:

"و طمع الأوربيون باملاك المسلمين طمع القوى بالضعيف، و توجهوا باساليهم السياسيه و استعداداتهم القويه لمحاربه المسلمين حربا صليبيه، فملكوا أكثر بلاد المسلمين بالوسائل السلميه، بين ملك صراح أو استعمار، حتى لا يكاد يقع نظرك على بلد إسلامى الا- و للأجنبى فيه نصيب، إلا- البلاد العربيه، سكن آل الرسول ص و أصحابه و أنصاره و قومه، فهم وحدهم لم يخضعوا للذل الأجنبى، و لم يجازفوا باستقلالهم، و لا يجازف بالاستقلال إلا صغار النفوس الأندال".

رحلته إلى جزيره العرب

حبه للعرب دفعه أن يقوم برحله إلى جزيره العرب، فترك مصر و فيها أهله و مكتبه و أشغاله، و سار متجولا فى الأقطار العربيه فزار عدن و لحج و حضرموت و مسقط و لينجه و البحرين و المحمره و الكويت و وقف على أبواب نجد و البصره و بغداد، و قد دون الشىء الكثير عن هذه الرحله التى تركت فى نفسه الكثير من الانطباعات و هزته الشمائل العربيه فوصفها وصفا دقيقا بقصيده طويله منها قوله:

و أمه خير ما تسمى به عريان رام تمجيدها يوما مسميها

و أنفس حره ما استعبدت و أبتأن تستدل لغير الله باريها

و همه تنشد العليا و تطلبهما الدهر يقعدهما عنها و يثنيها

و يقول فى الجزيره العربيه:

مهامه أمحلت محلا و ما خصبت الابدان قد أقاموا فى مواميها

ما أنبتت شجرا، ما أثمرت ثمرا لكن عقولا تناهت فى تساميها

هى الجزيره لا أرض تحاكيها إذ كان مجد الأراضى فى أهاليها

سادت و صالت و أبتت من مفاخرها أو ابدا ليس كر الدهر ماحيها

كانت لعمر ك تأبى أن تعيش على هون و أن تتصافى مع مهينيها

يثور نائرها ان نال واحدها سوء و كان الذى يؤذيه يؤذيها

فان يصح "وا نصيراه" رأى أسدا سلت لقهر أعاديه مواضيها

تضامن بين أفراد القبيله لا يبقى على الضيم فردا من مواليها

رحلته إلى الجزيره العربيه تركت فى نفسه، كما قلت، الكثير من الانطباعات و هزت مشاعره نظما و نثرا، فدون الكثير عنها.

هذا و قد ترك الأنطاكي عده آثار منها كتاب "نيل الأمانى فى الدستور العثمانى" و "النهضة الشرقيه" و ديوان "عرف الخزام"

و "رحله السلطان حسين فى رياض البحرين" و "الرياض المزهره بين الكويت و المحمره" عدا مجلدات من مجلتيه "الشدور" و

"العمران".

على أن أهم آثاره فى نظرنا "القصيد العلوويه المباركه" و هى فى ٥٥٩٥ بيتا تناولت سيره الامام على و ما جرى له مع الخلفاء

الراشدين و ملامح من الفتنة الكبرى، و قد اعتبرها أولى القصائد التى ظهرت فى الشعر العربى فكانت، كما قال، نسيجا وحده ما

عرفت قصيده عربيه مثلها تناولت تاريخا أو قصه فجاءت عليها من أولها إلى آخرها بقافيه واحده و وزن واحد، كما أنها أطول

قصيده فى لغه العرب على الإطلاق.

و قد قسمها إلى فصول جعل لكل فصل عنوانا يعين المطلع على إدراك مراميها و استقراء معانيها. و هى تقسم إلى قسمين

أولهما تاريخ أمير المؤمنين منذ ولادته إلى أن امتدت إليه يد الشقى ابن ملجم، و الثانى خصه بمناقبه و فضائله و حكم أمير

المؤمنين.

و قد دعاها ملحمة، و هي أقرب الأسماء إليها. و ذيلها بحواش كانت تاريخاً صميماً لصدر الإسلام. و بلغت مع شروحها ستمائة صفحة من كتاب متوسط الحجم.

و هي و أن لم تبلغ مبلغ الشعر الجيد إلا- أنها تنم عن قريحه وقاده و لا سيما و الموضوع إسلامي تاريخي معضل أقحم الناظم نفسه فيه حتى جاءت فريده في بابها تصور البطولات في أروع مظاهرها...

و حين أطلق على قصيدته "ملحمه" أراد المعنى اللغوي و قال:

"أما لفظه "ملحمه" التي أطلقها على هذه القصيدة المباركة أتباعاً للمغاربة، فمعناها اللغوي "الوقعة العظيمة" و لعلها ماخوذة من قولهم التحم القوم للقتال، أي اشتبك بعضهم ببعض، أو ربما قصد المغاربة باسم "الملحمه" الذي أطلقوه على القصائد التي لا ذكر فيها للقتال أيضاً "الأحكام" من قولهم لحم الأمر أي أحكمه. و يصح أن نقول أن لفظه "الملحمه" مشتقه من قولهم ألحم فلان الشعر و حاكه، أي نظمه، و ذلك ٧.

ص: ١١٦

لتشبيهم بيت الشعر أو بالثوب المحوك، و من هذا اشتقت لفظه "الملحمت" التي أطلقوها على القصائد المعروفة المشهوره للفرزدق و جرير و الأخطل و ذى الرمه و الكميت و الطرماح و أرادوا بها الإشاره إلى أن هذه القصائد كانت محكمه النظم متالفه الأجزاء، حسنه السبك".

عبد الرزاق اللاهيجي القمي

المشهور بالفياض.

مرت ترجمته في المجلد السابع و نزيد عليها هنا: أن له ديوان شعر في اثني عشر ألف بيت محفوظ في المكتبه الأهليه بباريس، و فيه التوحيد و مناقب النبي (ص) و الأئمه (ع) لا سيما على (ع) و رثاء الحسين (ع). و عدا ذلك ففيه الغزل العرفاني الاشراقي، كما تبدو فيه الظاهره الكلاميه و الفلسفيه(١).

أبو أحمد عبد السلام بن الحسين بن محمد بن عبد الله البصري

إشارة

و يقال عبد السلام الأديب أو أبو أحمد عبد السلام البصري.

ولد سنة ٣٢٩ و توفي يوم الثلاثاء ١٩ محرم الحرام سنة ٤٠٥ و دفن في مقبره الشونيزي عند قبر استاذه أبي على الفارسي ببغداد.

ذكره في أعيان الشيعة ج ٨ ص ١٢ بترجمه مختصره و لم يذكر تاريخ ولادته و وفاته و سائر خصوصياته و نضيف على ما هنالك ما يلي:

كان من أكابر محدثي الشيعة و أئمه النحويين، أديب متبحر لغوي متضلع قارئ للقرآن، عارف بالقراءات. أخذ العلم و الفنون الإسلاميه على جماعه من علماء عصره منهم محمد بن عمران و أحمد بن عبد الله بن أحمد بن جلين الوراق الدوري و محمد بن إسحاق بن عباد التمار و جماعه من البصريين، و هو من مشايخ أبي العباس النجاشي المتوفى سنة ٤٥٠ كما يستفاد من ترجمه جعفر بن محمد المؤدب و غيرها. و قال النجاشي في ترجمه أحمد بن عبد الله بن أحمد بن جلين الوراق الدوري (دفع إلى شيخ الأدب أبو أحمد عبد السلام بن الحسين البصري رحمه الله كتابا بخطه قد أجاز له فيه جميع روايته)(٢) و المترجم له أيضا من مشايخ أحمد بن عبدون المعروف بابن الحاشر المتوفى سنة ٤٢٣.

أقوال العلماء فيه

ذكره الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد فقال (عبد السلام بن الحسين بن محمد، أبو أحمد البصري اللغوي سكن بغداد و حدث بها عن محمد إسحاق بن عباد التمار و جماعه من البصريين، حدثني عنه عبد العزيز الأزجي و غيره و كان صدوقا عالما أدبيا قارئنا للقرآن عارفا بالقراءات و كان يتولى ببغداد النظر في دار الكتب و اليه حفظها و الاشراف عليها سمعت أبا القاسم عبيد الله بن علي الرقي الأديب يقول: كان عبد السلام البصري من أحسن الناس تلاوه للقرآن و انشادا للشعر و كان سمحا سخيا و ربما

جاءه السائل و ليس معه شيء يعطيه فيدفع إليه بعض كتبه التي لها قيمه كثيره و خطر كبير.

حدثني علي بن المحسن التنوخي أن عبد السلام البصرى توفى فى يوم الثلاثاء التاسع عشر من المحرم سنة خمس و أربعمائه. قال غيره: و دفن فى مقبره الشونيزى عند قبر أبى على الفارس [الفارسى]، و كان مولده فى سنة تسع و عشرين و ثلاثمائه(٣) و قال ابن القفطى المتوفى سنة ٦٤٦: (عبد السلام بن الحسين بن محمد أبو أحمد البصرى اللغوى سكن بغداد و حدث بها عن محمد بن إسحاق بن عباد التمار و جماعه من البصريين حدث عنه عبد العزيز الأزجى و غيره و كان صدوقا عالما دينا قارئا للقرآن عارفا بالقراءات و كان يتولى ببغداد النظر فى دار الكتب و اليه حفظها و الاشراف عليها ذكره أبو العلاء بن سليمان فى كتاب شرحه للحماسه فقال: كان يلقب بالوجكا(٤) و قال أبو القاسم عبيد الله بن على الرقى الأديب: كان عبد السلام البصرى من أحسن الناس تلاوه للقرآن و انشادا للشعر. قال و كان سخيا ربما جاءه السائل و ليس معه شيء يعطيه فيدفع إليه بعض كتبه التي لها قيمه كبيره و خطر كبير.

قال علي بن المحسن التنوخي أن عبد السلام البصرى توفى فى يوم الثلاثاء التاسع عشر من المحرم سنة خمس و أربعمائه. قال غيره: و دفن فى مقبره الشونيزى عند قبر أبى على الفارسى و كان مولده فى سنة تسع و عشرين و ثلاثمائه(٥) قال ابن مکتوم: (لما وصل أبو العلاء المعرى إلى بغداد اجتمع بعبد السلام البصرى بدار الكتب و استعار منه (ديوان تيم اللات) و نسى أن يعيده إليه و لم يذكره حتى عاد إلى المعره فاعاده إليه و معه قصيده مدحه بها و هى مشهوره من شعره مطلعها:

هات الحديث عن الزوراء أو هيتا و موقد النار لا تكرى بتكريتا

و منها:

أقر السلام على عبد السلام فلى جيد إلى نحوه ما زال ملفوتا

و وصفه ابن تغرى فى النجوم الزاهره فى حوادث سنة ٤٠٥ و قال (و فيها توفى عبد السلام بن الحسين بن محمد أبو أحمد اللغوى كان رجلا فاضلا عارفا بالقرآن سمحا جوادا)(٦).

و قال السيوطى بعد ذكر اسمه: (... و يلقب بالوجكا كان عالما باللغه و الأدب و القرآن صدوقا أديبا سخيا قرأ على الفارسى و السيرافى و سمع محمد بن إسحاق التمار و غيره و منه عبد العزيز بن على الأزجى و غيره و مات فى المحرم سنة تسع و عشرين و ثلاثمائه أسندنا حديثه فى الطبقات الكبرى)(٧) يقول عبد الحسين الصالحى: أن ما ذكره السيوطى من أن عام وفاته كان سنة ٣٢٩ هو خطأ قطعاً و ربما من سهو الناسخ لأن هذا العام هو سنة ولادته لا وفاته بإجماع المؤرخين كان عام وفاته سنة ٤٠٥ كما أثبتناه و ضبطه ابن الأثير فى كتابه الكامل فى التاريخ ج ٩ ص ٢٥٢ فى حوادث سنة ٤٠٥

ص: ١١٧

١- تاريخ أدبيات إيران.

٢- الشيخ أبو العباس أحمد النجاشى: رجال النجاشى ص ٦٢ الطبعة الحجرية الأولى بمبئيسنه ١٣١٧ هجرية.

٣- أبي بكر أحمد الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ١١ ص ٥٧-٥٨ بيروت دار الكتاب العربي.

٤- الوجكا: لفظه فارسيه و هي (أوج كاه) يعنى السيد.

٥- الوزير ابن الحسن على القفطى: أنباء الرواه على أنباء النحاه تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ج ٢ ص ١٧٥-١٧٦ الطبعه الأولى القاهره دار الكتب المصريه ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م.

٦- أبي المحاسن يوسف بن تغرى الأتابكى: النجوم الزاهره فى ملوك مصر و القاهره ج ٤ ص ٢٣٨ الطبعه الأولى ١٣٥٢ هـ -

١٩٣٣ م

٧- عبد الرحمن السيوطى: بغيه الوعاه من طبقات اللغويين و النحاه ص ٣٠٥-٣٠٦ بيروت دار المعرفه.

و غيره. و كان المترجم له من مشايخ أبى العباس النجاشى المولود سنة ٣٧٢ و المتوفى سنة ٤٥٠ و ينقل عنه بدون واسطه كما صرح فى غير موضع من رجاله، منها فى ترجمه الشيخ أبو هفان عبد الله بن أحمد بن حرب بن مهزم بن خالد بن الفزر العبدى من شعراء أصحابنا فى البصره فقال: (أخبرنا أبو أحمد عبد السلام بن الحسين الأديب البصرى عن محمد بن عمران قال حدثنا يحيى بن على بن يحيى بن أبى منصور...) إلى آخر الحديث (١) و يروى عنه شيخ الطائفة الشيخ أبو جعفر محمد الطوسى المتوفى سنة ٤٦٠ بواسط [بواسطه] الشيخ أبى عبد الله أحمد بن عبد الواحد بن أحمد اليزاز المعروف بابن عبدون و ابن الحاشى المتوفى سنة ٤٢٣ المذكور فى الفهرست فى ترجمه محمد بن جرير العامى حيث كان ورود شيخ الطائفة الشيخ الطوسى إلى بغداد فى عام ٤٠٨ بعد وفاه المترجم له بثلاث سنوات و لم يدركه.

و ذكر المترجم له جمع من المحققين و المؤرخين منهم فى تلخيص ابن مكتوم ص ١٠٨ و طبقات ابن قاضى شهبه ج ٢ ص ٨٣-٨٤ و طبقات القراء ج ١ ص ٣٨٥ و نزهه الألباء ص ٤١٢-٤١٣ و طبقات أعلام الشيعة و غيرهم و وصفوه بنفس العبارات و الأوصاف (٢)

عبد العزيز الجواهرى ابن الشيخ عبد الحسين.

مرت ترجمته فى المجلد الثالث من المستدركات، و لم نشر هناك شيئا من شعره مما نأخذ منه هنا ما يلى:

قال يرثى أخاه عليا:

بزغ الهلال فأين عهد وفائه أن لا يخون بوده و إخائه

أ ترى أخاه مغيبا تحت الثرى قمرا و يشرق زاهرا بسمائه

هلا توارى بالصعيد جماله حتى يشارك أهله بعزائه

قمر بدا ليل المحاق هلاله رسما فقارن خسفه بجلائه

ثكلت به زهر النجوم فخرقت بالنور ثوب الحزن من ظلمائه

سيف جلاه أبوه أبيض ناصعا قد فل جوهر حده بمضائه

برزت نواجذه فقلت بشاره لليل قد كشرت نجوم سمائه

أواه غصنى لفه شوك الردى و ذوت خميلته أوان رواه

لم يذوه لثم الشفاه و إنما ذبلت اقاحه ثغره فى مائه

انى خضبت أناملى بمدامعى و طلبت طوق الحزن فى ورقائه

و عكفت حول أزاهر من قبره نبتت تسبح فى ضريح ثوائه

نذر على لئن زها ريحانه لأروين الورد فى أندائه

يا لهف أيار تفرط ورده بيد المنون و جف قبل نمائه

يا بلبلأ قد حل فى قفص الثرى طربت له الأيام قبل غنائه

جاء الكنار مبشرا بقدمه فرحا و عاد مصوتا بنعائه

فشربت منه سرابتى حين الظما و رعيت ياسى فيه بعد رجائه

أ هلال عيذى أين غيبك الردى فحرمتنى من بشره و هنائه

أغنته عن جدد الحلأ أكفانه و كفاه صبغ الدمع عن حنائه

و تركت قلبى حول قبرك حائما شبه الفراش يحوم حول ضيائه

إن شع لى قبس الحياه فإنه لهب السراج يلوح فى إطفائه

لو يترك الموت استناره بحمه زما لكان البدر فى إهدائه

و لأصبح الطل السقيط على الربى غيثا يرش الورد فى أنوائه

أ أذى يا قوسى و نبل كنانتى و مدير جيشى بل أمير لوائه

أبقيت قلبى للزمان دريئه و نصبتنى غرضا إلى أنبائه

أرسلت جفنى فى ضريحك آملا أن يصحبن الطيف فى أعضائه

حملته فى نعش الغماء و أنشدت سفر الظلام قصيده لرتائه

خفقت باجنحه الفراشه روحه لكنها احترقت بجمر ذكائه

فكست رقيمه قبره و بودها لو انها نثرت على حصبائه

نزعتك من كفى المنيه صارما لمعت بروق الموت فى أنضائه

حلم فرشت له الجفون فزارها ليلا و متع ناظرى بلبقائه

فصل الورود كثيره أثوابه و يخص أيار بثوب بهائه

و رسمت شخصك فوق مرآه المنى حتى طمعت اليوم فى أحيائه

رضوان يا ملك الجنان تنح عن ملك طيور الخلد من وزراءه

و قال:

تطلب فى شبابك للصعب فما عمر الفتى غير الشباب

و سل حسام عزمك للمعالى فان السيف يصدأ بالقراب

و دع طلب الهوان لمبتغيه فان المجد أجدر بالطلاب

و كرر لو خطات المجد يوما فكم خطأ يؤول إلى الصواب

إذا ما الجهل ارتج منه بابا فان الجد مقلد كل باب

و لا تجدى الشجاعه فى غبى تقاعس عزمه عند الغلاب

إذا انعكس السنان لدى طعان فليس يفيد مطرد الكعاب

و إن غصن الشيبه راق حسنا فما للشيب فرع للشباب

و لا ينقصك قولهم فتى فان السيف يقطع بالذباب

و كم قمر تولد من هلال و كم شهر توقد فى شهاب

و إن الدهر كالميزان يعلو إذا يخلو و ينزل و هو رابى

(و لو لم يعل إلا ذو محل لما شمخت على الروض الروابى)

و لو معنى الجهاله صيغ طوقا تبرأت النفوس من الرقاب

و لو رهن البطاله حاز فخرا لما افتخر الحسام على القراب

و ليس ابن النقيبه فى هوان أعز على من بنت النقاب

فاصل أرومه الأخلاق منها يمت بكل فرع مستطاب

و ينمو من عوائدها ريبا كما تنمو الرياض من الرباب
إذا روح الحياه بها تسرت فما تلد العقاب سوى عقاب
لأنت أجل مدرسه تسامت لدرس بنيك يا صدر الكعاب
و انك للحياه أجل بيت منبع الركن مرعى الجناب
و إنك للوليد أجل سفر يطالع فيه شاكله الصواب
و انك فى ارتجافك خير درس تردد فيه ألسنه الخطاب
و ما ضرب النوايض فيك إلا لتحريض الصبى على الطلاب
أيا من ضلهم صبح التراقى و شع لديهم ليل التغابى
سكنتم فوق مهد من خمول يهز حراكه شم الهضاب
بليل مغداف الأرجاء داج أحم الوجه غريب الإهاب
تشع لغيركم شمس المعالى و شمسكم توارت بالحجاب
ألا فلتغنموا فرصا إليها تمر عليكم مر السحاب

ص: ١١٨

-
- ١- الشيخ أبو العباس أحمد النجاشى: رجال النجاشى ص ١٥١ الطبعه الحجريه الأولى بمبئسنه ١٣١٧ هجريه.
 - ٢- الشيخ عبد الحسين الصالحى.

فمن طلب الفضيله فى هوان كمن طلب الفريسه تحت ناب
و ما معنى الكمال سوى رموز تزين برسمها صدر الكتاب
تطلس جذر مفخرنا و أبقي لنا شبه الأضم من الحساب
و ما اندرست معارفنا و لكن خفى حسن السبيكه بالتراب
و قال:

أرى عمر الحياه شواظ نار من الأجسام تكمن فى زناد
و ما ليل الشباب سوى دخان و ما صبح المشيب سوى رماد
و قال:

حياتى و إن أضحت رمادا على جلدى بها شرر الآمال يلهب كالوقد
و نفسى و إن طارت شعاعا من الأسى لها من خيالى جذوه سعرت زندى
و انى إذا ما الدهر فل تميمتى أكرر آمالى فتوثق بالشد
لئن أصلتوا للحرب سيفا فانى أصول بسيف لا يسلم من الغمد
جزى الله مرآه الأمانى فإنها جليه سبك الوجه مصقوله الخد
أرى فوقها شخص المحال مصورا لدى الطرف و الأوهام معكوسه الطرد
تبيت معى إن ضاف أجفانى الكرى و تؤنسنى إن شفها ألم السهد
وضعنا أمانينا بحجر من الصبا و عشنا سواء نمرث الوعد فى المهد
و ما عاطفات المرء إلا حديقه بها زهر الآمال تنبت كالورد
إذا لمحت عينى سرايا من المنى رويت و لم أظما إلى ترع الورد
و انى إذا ما الرأس جنح نمله و أودع جسمى فى ضريح من اللحد
نعم تصبح الآمال عنى بعيدة و لكننى أفنى و لى أمل العود

أراني و قد رمت الحقائق طالبا طليقا من الآمال أرسف في قيد
تقرت سفر الكون درسا فلم ابن حقايق ما أن زلن مخفيه عندي
أصورها فوق الخيال فلا أرى سوى شبح يغوى المناظر من بعد
أرى شيعا شتى و طرقا كثيره بها غدت الأعلام و افره العد
يزمجر كل نادبا لطريقه و يهتف كل طالبا واضح القصد
حنانكم رفقا لينتشر الهدى و نعرف في أى الأدلاء نستهدى
خذوا بيدي عن ذا الضجيج فإنه مغبه جهل ضيعت مذهب الرشد
فما كل برق ضاحك بارق الحيا و لا كل صوت فى السما زجل الرعد
هلموا لنستجلي الحقيقه علنا تراها و إن أمست مشققه البرد
فمن عرف العتقاء أين محلها يهون له لو رامها شرك الصيد
ألا ليت عقبى الموت ترجع للدنا بجمله أعمالى فأبصر ما تسدى
فاما الشقا كيما أزوده الشقا و أما إلى رشد فارغب للرشد
هرمت و لم تقطع ركابى تهامه و ما طرقت عيسى المفاوز من نجد
و لم أستلم ركن الحطيم و زمزم و لم أتضرع فى منى خاشعا وحدى
عبدت إلهى لست راهب ناره و لا رغبت نفسى إلى جنه الخلد
و لكن نور الحق جلى بصيرتى فأيقنت أن الحكم للواحد الفرد
و قال:

إن كنت تأمل نيل العز و الظفر فاصدع بعزمك جنب الحادث الخطر

فايه الحمد تمحو كل منقصه عن العيون و تخفيها عن النظر

و الفضل كالصبح لا تخفى أشعته و لا تضر سناه غضه البصر

و المرء يذهب فيه حد عزمته كالسهم تذهب فيه سوره الوتر
و ربما عميت أبصار مطلع فيشتري الصدف الوضاح بالدرر
يا من يريد العلى صفوا بلا كدر الورد يزحم دون المورد الخصر
بادر إلى الأمر و استقبل بوادره بعزم حر إلى العلياء مبتدر
و كرر الجدل لو أخطات صائبه و لو تكرر على جيش من الغير
فإنما المرء من تشتد سورته على الخطوب و تسليه يد الضرر
مثل السبيكه تسرى فى نضارتها يد التراب و تحليها يد السعر
فاحزم الناس من ينظر عواقبه بناظرين سواد القلب و البصر
و أتعب الناس من يسعى على قدم تردد الجرى بين الورد و الصدر
و السهد يعذب فى جفن غدا قلقا معلق الطرف بين النوم و السهر
و لا يردك أن تمضى على صغر فالنار مبدؤها قدح من الشرر
لو لا التقدم لم ينجح لذى صغر لما تقدم ذكر (الحمد) فى السور
قد يعرف الشىء فيما لا يلابسه و ثمر النفع يوما دوحه الضرر
و ربما تمنح الآمال قدرتها فينبت الروض فى صلد من الحجر
قل للذين أضعوا العمر فى كسل ناموا عن الأمر تفويضا إلى القدر
حتى كان المعالى فى ملاعبهم عنقا بغير جناح الذل لم تطر
فأصبح الفرد منهم حيثما ظهرت له التقيه يرخى كف مستتر
فراح يخبط فى تيهاء قائمه عشو المذاهب ضاهت جنح معتكر
بميسم الجهل يفى كل ناصيه من العمايه تاهت فى دجى الخطر
أ لستم أسره العرب الألى ندبوا حياتهم لحياء الكتب و السير

تلك التي انعكست فيها ماثرهم مثل انعكاس شعاع الشمس في القمر

زانت مناقبهم زاهى صحائفها كما يزان بياض العين بالبحور

لا ينزل الحمد إلا فى منازلهم كالروح ليس لها مأوى سوى الصور

ما إن روى الذكر عن علياهم خبرا كفى العيان دليلا شاهد الخبر

كم قد نطيل الأمالى كى نلم بها و منتهى الطول فيها مبدأ القصر

أدعوكم لمراح العز منتدبا دعوى الفريسه بين الناب و الظفر

إذا تقصف عود النبع من وهن فليس ينفع جبر غير منكسر

و ليس كل سحاب أثره لمعت صوالج البرق يهدى صيب المطر

و قال عند خلع السلطان العثماني عبد الحميد من قصيده:

بعيشك كم تحن إلى السرير و كم ترنو بطرفك للقصور

هالليا أراك نحتل جسما أ ما تشفيك آفله البدور

طواك الرعب قبل الموت ميتا و أحتك المنى قبل النشور

أهانتك القصور و كنت ملكا تهيب منه سكان القبور

قرت الوحش من جث البرايا و رويت الربا بدم النحور

بكت منك الثغور دما مرقا و تضحك عند باسمه الثغور

فأقسم أن عود الدست لو لم يكن من حر بأسك فى سعيير

لأثمر فى رؤوس الجند روضا و أزهر من دماها فى غددير

نوح عليك إقفار الموامى و تهتف فيك ساغبه النسور

و تندبك العذارى حاليات بموشى الدمقس مع الحرير

بكتك الغانيات بدر دمع بكاء الورد بالطل النشير

أٲاك نذير يلدز مستطيرا و كنت تظنه وجه البشير

يخاف الطفل من رؤيا أبيه و تخشى المرضعات من الحجور

ص: ١١٩

لقد عبر النجوم إليك جيش بغير سراه فى الشعرى العبور

لقد ذعرت به الأنفاس حتى كان الجسم يرصد بالضمير

يسد الجو منه غبار نقع و يقذى دونه طرف البصير

أراك أسير أحزان و قيد و كنت أراك ترسف فى السرور

و قد كنت الأمير على السرايا فكيف رسفت فى قيد الأسير

غريب لو جزيت الخير لكن جزيت الشرايا شر الدهور

لقد أوغرت صدر الجند حتى أراك الدهر عاقبه الغرور

و له يرثى الشيخ كاظم الخراسانى من قصيده:

أ ناصر دين الله هل لك نهضة تجند للأعداء جندا مظفرا

تحوك لهم ثوب الوقيعه أسودا و تلبسهم ثوب المنيه أحمر

بفتيه صدق أن توازر جمعها تردى ثياب الموت فى الحرب مئزرا

إذا أوقدوا فى الحرب نار كريبه تموج بها البيض الصفايح أبحرا

تهيبك الموت المقدر يقظه فزادك تحت الليل فى سنه الكرى

و إن خطيبا فوق كفك ناطقا قد اتخذ الخمس الأنامل منبرا

رضيع بمهد الكف ينشى حديثه و رق لوجه الرق أمسى محررا

يشع كوجه الصبح كافور طرسه فتجرى به من حالك الحبر عنبرا

يصد جميع الجيش بالنصر سالما و يرجع جمع المال جمعا مكسرا

عجبت له كيف استزارك طارقا حماك و لما يثنى متحيرا

بلى كنت للإسلام و الدين ناظرا فجاءتك فى شخص الرقاد مصورا

و أخرس إن حل السؤال بسمعه جزى بفصيح اللفظ ينطق مخبرا

أصم لأسرار البريه سامع و أعمى بليل المشكلات تبصرا
إذا ارتجفت أسلاكه داخل الحشا أتاك مقيما يسبق البرق فى الثرى
أتاك بصدر الليل ينشد حاسرا عجيج نساء تستشيط تزفرا
أعارته أحشناها فأوقد جمره و أهدته صبغ الدمع فانصاع أحمرأ
يحدث عن قول يحرره الأسى و ينطق عن لفظ له الوجد عبرأ
فيا من غدت للناظرين صفاته أشع من الشمس المنيره منظرا
حديقه ورد كلما جف ناضر بروضتها أهدت إلى الطرف أنضرا
و شهب سماء كلما غاب زاهر أتى آخر منهن أزهى و أزهرأ
أ ريحانه الوادى التى فاح طيبها و عقب رياها الرياض و عطرا
لقد كنت للداجى سراجا منورا سناه و للمرتاد روضا منورا
و ان صعيدا قمت فيه مجاورا جدير بان يمسى بنعماك أخضرا
سقاك الحيا أو صوب كفك لا الحيا فقد كان أوفى منه جودا و أكثرا
و قال يصف ثوار طرابلس الغرب على الغزو الايطالى لبلادهم:
سد الثغور بعزمه الإسكندر جيش يقاد من النهى فى جوهر
لبس الحديد مضاعفا من عزمه و مشى على حسك الوشيج الأسمر
زرع القنا فوق العداه فأورقت زهرا بغير نفوسها لم ثمر
يسقيه من حمر الدماء و يجتنى ثمر المنون من الحديد الأخضر
فكان سيف النصر فوق يمينه برق يشع بعارض متعنجر
و كان أعواد الوشيج بنقعه روض عليه سحابه من عنبر
و كأنما البيض الصفاح جداول زهرت بريحان القنا المتعطر

يجرى بشهباء يصك رنينها وجه الكتيبه بالياب المقفر
أمن السماك به فباع قناته طربا و حن إليه قلب المشتري
تروى بضحضاح المجره خيله و تروود فى أس السماء المزهر
ضاق الفضاء بعزمه من بعد ما سد البسيطه بالعديد الأكثر
من كل أبلج ذى عذار أخضر يسقى مجنه صدغه من كوثر
يغزو بسوره عزمه و جفونه فى بأس ضرغام و فتكه جؤذر
قوم إذا ما الشر أسدف مظلما طلعا نجوما فى سماء العثير
أو أجذب الوادى و صوح نبته زهرت حدائق جودهم فى مرمر
و إذا السماء تزلزلت أفلاكها دعموا الكواكب بالقنا المتكسر
برقت مواضيهم و سحب أكنفهم تجرى بمنهل الغمام الممطر
أبناء رامة إن مشوا نحو الردى دفنوا التمام فى الكتيب الأعر
تبنى على حسك الرماح قصورهم و قبورهم فوق الجياد الضمر
لبسوا الصباح مفاضه محبوبه و تسربلوا ليل العجاج الأكر
بعدت تمائمهم و هن صفائح ففشت برقراق النجيع الأحمر
خطت بأطراف الرماح حروفها و بغير أشلاء العدى لم تسطر
ذعروا الفضاء فلاذ فى أرواحهم و ثوت جسومهم لحفظ العسكر
فتيات رومه نظمى درر البكاء سمطا يزان بلؤلؤ متنثر
و صغى القلائد للرجال مدامعا و ذرى تمائمهم مكان الجوهر
و دعى الخدور لهم فقد نهبتهم بيض السيوف بكل ليث مخدر
قد فاجات غاب الليوث فأصبحت مثل الفريسه تحت ناب غضنفر

رصد المحيط جسومها فسلوانها نزعت لتفحص فى الثرى لم تقدر
تترصد الأجفان سطوه هذبها و تخاف مقلتها عداء المحجر
ترنو الصباح مقلدا بصوارم و ترى الظلام مجندا فى عسكر
و تكاد تهرب أرضها من تحتها لو كان تبصر مامنا فى مقفر
و قال:

خلىلى ما معنى الشعور فاننى أرى كل شىء شاعرا مترنما
أرى الكون فى لوح الوجود قصيده تخط عليها الخلق شعرا منظما
هو الشعر باق ليس تفنى حياته نقيم احتفالا أو نشيد ماتما
تصوره روح الخيال فلو بدا إذا لرآه الطرف شخصا مجسما
و تنشر أسفار الطبيعه شعرها رموزا فيمليها الهزار مترجما
هل النجم إلا روضه حسيه أرى البدر فيها شاعرا متبسما
فدا لدموع العاشقين فإنها قصيده شعر بينها الحب نظما
عرائس حب إن تجلت بدورها لدى الصب ليلا زفها الوجد أنجما
تقبل خد الجلناره و جنه و تلثم تغر الأخوانه مبسما
و زاهره ما روض الحفل مثلها عليها خيال البدر شعرا مجسما
فرشت بيوت الشعر فوق رياضها بساطا و سامرت الخيال المسلما
لقد نسجت أيدي الفراقده فوقها من الليل وشيا بالنجوم منمنما
نظرت به طوق الهلال مفضضا ك نصف سوار زان لليل معصما
و لم أر مثل الروض فى الأرض شاعرا ولوعا باشعار الطبيعه مغرما
و ما الشعر تمليه الرياض حقائقا لكالشعر يمليه الخيال توهما

تقرت أسفار الخلائق فى الثرى و فتشت أسرار العوالم فى السما

فلم أر فيها روضه أو خريده و لم ألف إلا شاعرا أو متيما

ألا كل صوت طارق صوت شاعر و بيان فينا من بكى أو ترنما

وقال:

ص: ١٢٠

هذى المجره بارتجاف نجومها تحكى الصفيحه فى يمين جبان
فكأنها و النجم روضه نرجس غرست بفيض العارض الهتان
و قال:

أخو الحزم من يستقبل الأمر ماضيا فاما مناياه و أما الأمانيا
يهم فلم تنن الأمور عنانه بان لا يرى فى أول المجد ثانيا
و يعلقه عزم بهيج ضرامه إباء أبى إلا العلى و المعاليا
فيرسلها عيديه قد تعودت متى تنشر الأخفاف تطوى الفيافيا
يقرطس قلب البيد منها بأسهم و إن كن أمثال القسى حوانيا
و يخترق الخرق المخوف كأنما أعد هواديهها دليلا و هاديا
و يدرع الظلماء سار بجنحها و لم يعتمد حتى النجوم السواريا
و يكتمه الليل البهيم و لم يكن ليظهر سرا فى حشا البيد خافيا
إذا ما اعتلى يعلو الهضاب ممثلها أو انحط قلت السيل صادف واديا
و يستوقف ابن المزن يخفق قلبه و إن كان سباقا إذا كان وانيا
يرى العار أن يكسى الرياش ملابسا إذا لم يكن فيها من العار عاريا
يميل عن المرعى الوخيم و ينثنى عن الماء مطروقا و إن كان ظاميا
إلى حيث ظل المجد يخلص ضافيا عليه و ماء الجود يغدر صافيا
إذا ما الليالى الخاليات اغتضبتة حقوقا له استبقى الليالى البواقيا
لينفع علما أو لينقع غله ليعتق رقا أو ليطلق عانيا

فذاك ابن عزم كم تمثل قائلا (أخو الحزم من يستقبل الأمر ماضيا)

و يقال المير فتاح الموسوى المراغى التبريزى.

توفى فى مراغه سنه ١١٧٥ و دفن بها.

من فحول شعراء الشيعة فى عصره عارف متصوف.

أخذ المقدمات و فنون الأدب فى مسقط رأسه مراغه و حضر على أعلامها ثم هاجر إلى المشهد الرضوى و التحق بحوزه المير محمد تقى المشهدى المعروف بالشاهى. ثم رجع إلى موطنه مراغه و عين شيخ الإسلام بها و كان من أكابر علماء تلك البلاد. كان ينظم الشعر باللغه الفارسى و يتخلص بأشراق، و باللغه التركى باسمه (فتاح) ترجمه الأستاذ محمد على تربيت فى كتابه دانشمندان آذربايجان ص ٤١-٤٢ عن رياض الجنه للزنوزى، و ترجمه فى مطلع الشمس. له مؤلفات أشار إلى بعضها فى الذريعه منها ديوان فارسى، ديوان تركى قيامت نامه منظوم بالتركى فى رحله النبى (ص) و شهاده الحسين (ع)، رياض الفتوح منظوم فارسى منه نسخه فى مكتبه الروضه الرضويه فى خراسان، ساقى نامه و ديوان فى مدح أمير المؤمنين على بن أبى طالب (ع).

أشعاره التركى معروفه فى آذربيجان و يتناولها خطباء المنبر الحسينى فى تلك البلاد(١)

السيد عبد القاهر بن السيد كاظم بن السيد حسين بن السيد عبد القاهر بن

الحسين التوبلى البلادى البحرانى.

توفى سنه ١٣٣٥ فى بندر لنجه و دفن بها.

فقيه أديب شاعر من بيت علم و زعامه و كان جده السيد الحسين بن السيد عبد القاهر من أفاضل علماء عصره فى البصره و جده الأعلى السيد عبد القاهر بن السيد الحسين كان من أجلاء تلاميذ الشيخ حسين العصفور البحرانى ذكره الشيخ على البحرانى فى أنوار البدرين صفحه ٢٤٨ و قال (السيد التقى الفاخر المعاصر السيد عبد القاهر بن السيد كاظم التوبلى البحرانى المقابى كان (قدس سره) من العلماء الأخيار و النجباء الأبرار خرج من البحرين و سكن بلاد القطيف ثم مسقط ثم لنجه و بها توفى (قدس الله سره و نور قبره) رأيت له رساله فى شرح أسماء الله الحسنى و خواصها و منافعها حسنه، و لا أدرى هل له غيره أم لا. من المعاصرين و لم أره و سمعت له بعض المراثى على الحسين بن على ع جيده بليغه و لم يحضر [يحضرنى] فى تاريخ وفاته ضاعف الله حسناته) ذكر شيخنا الأستاذ كتابه فى موسوعته الذريعه إلى تصانيف الشيعة الجزء ١٣ ص ٨٩ و ترجم له فى طبقات أعلام الشيعة نقلا عن الشيخ على البحرانى(٢)

السيد عبد الكريم بن السيد أحمد بن السيد الحسن بن السيد جعفر الرضوى

العاملى الأصل القزوينى المولد و المنشأ آل صدر الصدور القزوينى.

ولد فى قزوین سنه ١٢٢٠ و توفى بها سنه ١٣٠٣.

من العلماء البارزين و أئمة الفتوى و التقليد و له اليد الطولى فى العلوم العقلية و النقلية و الخطابه و هو أديب شاعر.

آل صدر الصدور القزوينى: من الأسر العلميه العلويه العامليه الرضويه نبغ منها علماء أعلام و شعراء أفذاذ و هى غير أسره آل شيخ الإسلام العلويه العامليه الحسينيه فى قزوین هاجر جد هذا البيت الجليل السيد جعفر الذى كان من سادات جبل عامل و أشرفه الأجلاء إلى قزوین فى عهد نادر شاه الافشارى المولود فى سنه ۱۱۰۰ الذى تسلم السلطنه فى إيران سنه ۱۱۴۸ ثم قتل فى سنه ۱۱۶۰ مؤسس السلسله الافشاريه فاحترمه احتراماً سامياً و أنعم عليه بلقب صدر الصدور و قد مر تاريخ هذه الأسره فى ترجمه نجل المترجم له السيد جمال الدين آل صدر الصدور القزوينى.

ولد المترجم له فى قزوین و نشأ بها نشأه صالحه و أخذ المقدمات و فنون الأدب و العرييه على أعلام أسرته منهم والده السيد أحمد آل صدر الصدور وغيرهم ثم تخرج فى الفقه و الأصول و الحديث و التفسير على الشيخ محمد صالح البرغانى الحائرى المتوفى سنه ۱۲۷۱ و شقيقه الشهيد الثالث المستشهد سنه ۱۲۶۳ و أخذ الفلسفه و العرفان عن الشيخ ملا آغا الحكيمى القزوينى و الشيخ ملا على البرغانى و الشيخ الميرزا عبد الوهاب البرغانى القزوينى. و كان من أساطين الدين و متكلمى الشيعه و زعيما دينيا كبيرا فى قزوین و تصدر للتدريس و الفتوى و نبغ فى الخطابه. ذكره شيخنا الأستاذ آغا بزرك الطهرانى فى كتابه طبقات أعلام الشيعه و وصفه بقوله: (كان جد أبیه السيد جعفر من سادات جبل عامل و أشرفها الأجلاء هاجر إلى إيران و سكن قزوین فى عصر السلطان نادر شاه فاحترمه و بجله و أحله مكانه ساميه، و أنعم عليه بلقب صدر الصدور.

و المترجم له أحد أساطين الفضل و رجال العلم الأجلاء كان فقيها بارعا و متكلماً خبيراً و حكيماً كاملاً و من المنبريين الكبار و الوعاظ المشاهير توفى فى نيف و ثلاثمائه و ألف للهجره و له تصانيف لا تحصرنى اسمائها و هو والد العلامه

ص: ۱۲۱

۱- الشيخ عبد الحسين الصالحى.

۲- الشيخ عبد الحسين الصالحى.

السيد جمال الدين القزويني(١) أقول: و له ولد آخر من العلماء الأعلام و هو السيد رضا آل صدر الصدور القزويني العاملي. و من مؤلفات المترجم له رساله في المبدأ و المعاد، مراتب الوجود، ديوان شعر يحتوى على مجموعه مرثي و مدائح بالعرييه و الفارسيه، تقريرات في الأصول لأستاذه الشيخ محمد صالح البرغاني، تقريرات في الفقه(٢)

الشيخ عبد الله بن أبي بكر بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أحمد بن أبي

بكر الفضاىى البلسى الأندلسى:

ولد بأنده من بلاد الأندلس فى سنة ٥٧١ هـ - ١١٧٥ م و توفى ببلنسىه عند الظهر من يوم الثلاثاء الخامس من شهر ربيع الأول سنة ٦١٩ (٢١ مارس سنة ١٢٢٢ م) و دفن بعد صلاه العصر من يوم الأربعاء بمقبره باب بيطاله فى بلنسىه من بلاد الأندلس. هو من أعيان علماء الشيعة فى الأندلس و أكابر المحدثين فى عصره أخذ العلم عن أجلاء أهل الفضل فى الأندلس منهم الشيخ أبو عبد الله بن نوح الأندلسى و غيرهم. و المترجم له هو والد ابن الابار الأندلسى الشهير. و كتب ابن الأبار عن تاريخ حياه والده و هو أدق تحديد وجدناه عن تاريخ المترجم له قال:

(كان من أهل العلم و الدين، درس على أجلاء أهل العلم فى عصره و أجاز له الكثيرون منهم روايه كتبهم و رواياتهم و كتب إليه القاضى أبو بكر بن أبى حمزه يميز له و لى معه جميع روايته مرتين إحداهما فى غره رجب سنة ٥٩٧ و الثانيه فى منتصف ذى القعدة من العام المذكور و أنا إذ ذاك ابن عامين و أشهر مولدى عند صلاه الغداه من يوم الجمعة فى أحد شهرى ربيع سنة ٥٩٥ و كان رحمه الله - و لا أزكيه - مقبلا على ما يعنيه شديد الانقباض بعيدا عن التصنع حريصا على التخلص مقدا فى حملة القرآن كثير التلاوه له و التهجد به، صاحب ورد لا يكاد يهمله ذاكرا للقراءات مشاركا فى حفظ المسائل آخذا فيما يستحسن من الأدب معدلا عند الحكام و كان القاضى أبو الحسن بن واجب يستخلفه على الصلاه بمسجد السيده من داخل بلنسىه. قرأت عليه القرآن بقراءه نافع مرارا و سمعت منه أخبارا و أشعارا و استظهرت عليه مرارا أيام أخذى على الشيوخ، يمتحن بذلك حفظى، و ناولنى جميع كتبه و شاركته فى أكثر من روى عنه و سمعته يقول: حضرت شيخنا أبا عبد الله بن نوح، و قد زاره بعض معارفه فسأله عن أحواله و بالغ فى سؤاله فجعل يحمد الله و يردد ذلك عليه ثم أنشد متمثلا:

جرت عادة الناس أن يسألوا عن الحال فى كل خير و شر

فكل يقول بخير أنا و عند الحقيقه ضد الخبر

حدثنى أبى رحمه الله غير مره أنه ولد بأنده سنة ٥٧١ و توفى ببلنسىه و أنا حينئذ بثر بطليوس عند الظهر من يوم الثلاثاء الخامس لشهر ربيع الأول سنة ٦١٩ و دفن لصلاه العصر من يوم الأربعاء بعده بمقبره باب بيطاله و هو ابن ثمان و أربعون سنة، و حضر غسله أبو الحسن بن واجب و جماعه معه، و كانت جنازته مشهوده و الثناء عليه جميلا، نفعه الله بذلك).

و مرت ترجمه ولده ابن الأبار فى أعيان الشيعة ج ٩ ص ٣٨٤ و ان أسرته من البيوت العلميه الشيعيه المعروفه فى بلنسىه و كان لها الدور الخطير ضد الحروب الصليبيه فى الأندلس و نشاط ولده أبى عبد الله محمد المعروف بابن الأبار و تحركاته فى تحريض المسلمين ضد الجيوش الإسبانيه معروف(٣)

الشيخ أبو محمد عبد الله بن أحمد بن أحمد بن عبد الله بن نصر

إشاره

البغدادي

المعروف بابن الخشاب.

ولد في بغداد سنة ٤٩٢ و توفي بها عشيه الجمعه ٣ رمضان سنة ٥٦٧ ببياب الأزج بدار أبي القاسم بن الفتراء و صلى عليه يوم السبت أبو النجم بن القابله في مسجد السلطان و دفن بمقبره باب حرب ببغداد.

من أكابر العلماء، مشارك في الحكمه و الفلسفه و المنطق و الحساب و الهندسه و التفسير و الفقه و النسب و من أعلم معاصريه بالعريه نحوى، لغوى، أديب، شاعر، محدث، فقيه.

ذكره في أعيان الشيعة ج ٨ ص ٤٦ في ترجمه مختصره نقلها عن رياض العلماء (٤) دون أن يذكر تاريخ ولادته و وفاته و سائر خصوصياته و نزيد على ذلك ما يلي:

أخذ النحو عن أبي بكر بن جوامرد القطان و قرأ اللغه على أبي علي الحسن بن علي المحولى و على أبي منصور موهوب الجواليقى و تلمذ في علم الحساب و الهندسه على أبي بكر بن عبد الباقي الأنصارى و فى الفرائض على أبي بكر المرزوقى و سمع الحديث من أبي الغنائم النرسى و أبي القاسم بن الحصين و أبي العز بن كادش و غيرهم من مشايخ عصره.

أقوال العلماء فيه

ذكره الوزير جمال الدين على القفطى المتوفى سنة ٦٤٦ فى كتاب أنباء الرواه و وصفه قائلاً: (كان أديبا فاضلا عالما له معرفه جيده بالنحو و اللغه و العريه و الشعر و الفرائض و الحساب و الحديث، حافظا لكتاب الله عز و جل، قد قرأه بالقراءات الكثيره.

أخذ النحو عن أبي بكر بن جوامرد القطان، ثم عن أبي الحسن على بن أبي زيد الفصيحي الأسترآبادى ثم عن الشريف أبي السعادات الشجرى، و قاطعه و رد عليه فى أماليه. و قرأ اللغه على أبي علي الحسن بن علي المحولى و على أبي منصور الجواليقى و غيرهما.

و سمع الحديث من مشايخ وقته و أكثر، و كان حريصا على السماع، مداوما بالقراءه على المشايخ فى علق سنه أقرأ الناس مده، و تخرج به جماعه فى علم النحو و حدث الكثير، و وصف بالفضل و العلم و المعرفه و كان مطرحا للتكلف فى مأكله و ملبسه و حركاته فيه بذاده و كان يكثر لعب الشطرنج و يقعد لذلك أين وجدته و لا يراعى خسه اللاعب و الموضع و يقف على حلق الطرق و المشعوذين و غير ذلك و كان كلامه فى حلق الإفاده أجود من قلمه. و كان ضيق العطن ضجورا ما صنف تصنيفا فكملة...

و كانت له دار عتيقه و لأخ له و من شاركهما فى ورثه أبيه و له منها صفه كبيره منفرده و بها بوارى قصب مفروشه و فى صدرها

ألواح من الخشب مرصوص عليها كتب له أقامت عدة سنين ما أزيل عنها الغبار، و كانت تلك

ص: ١٢٢

١- انظر نقباء البشر فى القرن الرابع عشر ج ٣ ص ١١٥٧.

٢- الشيخ عبد الحسين الصالحى.

٣- الشيخ عبد الحسين الصالحى.

٤- الميرزا عبد الله أفندى الأصفهانى: رياض العلماء ج ٣ ص ١٨٤ قم المكتبه المرعشيه سنه ١٤٠١ هجرية.

البوارى قد اشترت بما عليها من التراب يقعد فى جانب منها و الباقي على تلك الحاله و قيل أن الطيور عششت فوق الكتب و فى أثنائها، و كان إذا تكلم على مسأله فى النحو منفرده ربما أجاد فى بعض الأوقات إذا خلا من ضجره، و كان لا يقتنى من الكتب إلا- أردأها صوره و أرخصها ثمنًا و له وظيفه فى بعض الأماكن ببغداد و تدل كتبه على صحه ما ذكرته. و له شعر كشرع النحاء...)(١) ثم قال: (قال عبد الكريم بن محمد المروزى: عبد الله بن أحمد بن أحمد بن الخشاب أبو محمد من ساكنى باب المراتب الشريفه شاب كامل فاضل له معرفه تامه بالأدب و اللغه و النحو و الحديث و يقرأ الحديث قراءه سريعه حسنه صحيحه مفهومه سمع الكثير بنفسه و جمع الأصول الحسان)(٢) قال الامام أبو شجاع عمر بن أبى الحسن البسطامى ببخارى: لما دخلت بغداد قرأ على أبو محمد الخشاب كتاب غريب الحديث لأبى محمد القتيبى قراءه ما سمعت قبلها مثلها فى الصحه و السرعه و حضر جماعه من الفضلاء سماعها و كانوا يريدون أن يأخذوا عليه فلتة لسانه فلم يقدروا على ذلك)(٣).

(أبانا محمد بن محمد بن حامد فى كتابه خريده القصر ص ٨٢ قال:

عبد الله بن أحمد بن أحمد بن عبد الله الخشاب من أهل بغداد شيخنا فى علم الأدب أعلم الناس بكلام العرب و أعرفهم بعلوم شتى من النحو و اللغه و التفسير و الحديث و النسب، الطور السامى، و البحر الطامى كان فضله على أفاضل الزمان كفضل الشمس على النجوم و البحر على الغدراك و له المؤلفات العزيره و المصنفات الحريزه و الكتب المفيده و الفكر المجيده و إذا كتب كتابا بخطه يشترى بالمئين و تتنافس عليه بواعث المستفيدين و هو ألين سجيته من الماء العذب و أخشن حميه من الغرار العضب و ما أظن أن الزمان يسمح بمثله و أن الدهر العقيم ينتج أحدا فى فضله كان كثير الإفاده غزير الاجاده غير أنه ينبو عن جواب سؤال الممتحنين نبوه المستحق المهيمن و يعز على المتكبر و يذل للمتكرم متواضع عند العامه مرتفع عند الملوك و الخاصه توفى ببغداد سنه ثمان و ستين و خمسمائه فرأيته ليله فى المنام كانى أقول له: ما فعل الله بك فقال خيرا فقلت و هل يرحم الله الأدباء؟ قال: نعم، قلت: و ان كانوا مقصرين قال: يجرى عتاب كثير ثم يكون النعيم.

و وصفه ياقوت الحموى فى معجم الأدباء فقال: (... كان أعلم أهل زمانه بالنحو حتى يقال أنه كان فى درجه أبى على الفارسى و كانت له معرفه بالحديث و التفسير و اللغه و المنطق و الفلسفه و الحساب و الهندسه و ما من علم من العلوم إلا و كانت له فيه يد حسنه و قرأ الأدب على أبى منصور موهوب الجواليقى و غيره و الحساب و الهندسه على أبى بكر بن عبد الباقي الأنصارى... و لم يزل يقرأ حتى علا- على أقرانه و قرأ العالى و النازل و كان يكتب خطا مليحا و جمع كتبا كثيره جدا و قرأ عليه الناس و انتفعوا به و تخرج به جماعه و روى كثيرا من الحديث.

سمع منه الحافظ أبو سعد السمعانى و أبو أحمد بن سكينه و أبو محمد بن الأخضر و كان ثقه فى الحديث صدوقا نبيلًا حجه إلا أنه لم يكن فى دينه بذاك و كان بخيلا متبدلا فى ملبسه و عيشه قليل المبالاه بحفظ ناموس العلم يلعب بالشطرنج مع العوام على قارعه الطريق و يقف فى الشوارع على حلق المشعبدين و اللاعبين بالقرود و الدباب كثير المزاح و اللعب طيب الأخلاق ساله شخص و عنده جماعه من الحنابله أ عندك كتاب الجبال فقال له: يا أبله أ ما تراهم حولى...)(٤) و ذكره صاحب النجوم الزاهره فقال: (و فيها توفى عبد الله بن أحمد بن أحمد بن أحمد العلامة أبو محمد المعروف بابن الخشاب النحوى اللغوى حجه العرب يرع فى فنون العلوم و انفرد بعلم النحو و العربيه حتى فاق أهل عصره)(٥) و ذكره السيوطى(٦) و نقل ما قاله ياقوت الحموى فى معجم الأدباء و ذكره أيضا شيخنا الطهرانى فى طبقات أعلام الشيعه(٧) و موسوعه الذريعه إلى تصانيف الشيعه(٨) و له شعر كثير

و من شعره ملغزا فى كتاب:

و ذى أوجه لكنه غير بائح بسر و ذو الوجهين للسر مظهر

تناجيك بالأسرار أسرار وجهه ففتحهما ما دمت بالعين تنظر

وله:

لذ خمولى و حلامه إذ صاننى عن كل مخلوق

نفسى معشوقى و لى غيره تمنعنى من بذل معشوقى

وله فى شمعته:

صفراء لا من سقم مسها كيف و كانت أمها الشافيه

عريانه باطنها مكتس فأعجب لها كاسيه عاريه

وله أيضا:

إذا عن أمر فاستشر فيه صاحباً و إن كنت ذا رأى يشير على الصحب

فانى رأيت العين تجهل نفسها و تدرك ما قد حل فى موضع الشهب

يقول عبد الحسين الصالحى: كان معلم أولاد الخلفاء العباسيين و يتقاضى راتبا شهريا من البلاط العباسى و كان يصرف جميع وارداته على شراء الكتب لذا أسس مكتبه ضخمة ثم أوقفها على طلاب العلوم و كانت من أهم مكاتب الشيعة فى بغداد و وصف حاله ياقوت الحموى فقال: (... كان يتعمم بالعمامة فتبقى مده على حالها حتى تسود مما يلى رأسه و تتقطع من الوسخ و ترمى عليها الطيور ذرقها و لم يتزوج قط و لا تسرى و كان إذا حضر سوق الكتب و أراد شراء كتاب غافل الناس و قطع منه ورقه و قال: انه مقطوع ليأخذه بثمان بخس و إذا استعار من أحد كتابا و طالبه به قال: دخل بين الكتب فلا أقدر عليه...).

ص: ١٢٣

١- جمال الدين أبى الحسن على الفقفى: أنباء الرواه على أنباء النجاه تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ج ٢ ص ٩٩-١٠١ مصر القاهره سنه ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م.

٢- نفس المصدر ج ٢ ص ١٠١-١٠٢.

٣- نفس المصدر ج ٢ ص ١٠٢.

٤- ياقوت الحموى: معجم الأدباء ج ١٢ ص ٤٧-٥١ قاهره مطبوعات دار المأمون.

- ٥- جمال الدين أبى المحاسن يوسف بردى الأتابكى: النجوم الزاهره فى ملوك مصر و القاهره ج ٦ ص ٦٥ الطبعه الأولى سنه ١٣٥٥ هـ - ١٩٣٦ م.
- ٦- جلال الدين عبد الرحمن السوطى [السيوطى]: بغيه الوعاه فى طبقات اللغويين و النحاه ص ٢٧٦ بيروت دار المعرفه.
- ٧- الشيخ آغا بزرك الطهرانى الثقات العيون فى سادس القرون ص ١٦١ بيروت دار الكتب العربى.
- ٨- الشيخ آغا بزرك الطهرانى الذريعه إلى تصانيف الشيعة ج ٢٣ ص ٢٣٣ بيروت دار الأضواء.

ترك مؤلفات منها: كتاب مواليد أهل البيت ع و هو من مصادر كتاب كشف الغمه و كتاب بحار الأنوار للمجلسي و كتاب حاشيه على دره الغواص للحريري، الرد على بابشاذ في شرح الجمل، كتاب الرد على تهذيب الإصلاح للتبريزي، كتاب الرد على الحريري في مقاماته و كتاب شرح مقامات الحريري، كتاب شرح مقدمه النحو لابن هبيرة، كتاب اللامع في النحو، كتاب المجمل في شرح الجمل الصغيره، كتاب المرتجل في شرح الجمل الكبيره(١)

وجيه الدين عبد الله لساني ابن محمد مشك فروش الشيرازي.

توفي سنه ٩٤٢ كما جاء في ديوانه المطبوع. و في كتاب أحسن التواريخ أن وفاته كانت سنه ٩٤٠. و قيل ٩٤١ و دفن في مقبره سرخاب في تبريز.

من شعراء النصف الأول من القرن العاشر الهجري، و بدايه حكم الصفويين. و كان مولده في شيراز و عاش معظم حياته بين بغداد و تبريز. و في تبريز كان موضع احترام كبار و لاه الشاه إسماعيل الصفوي و منهم ابنه العالم سام ميرزا و وزيره المعروف أمير نجم ثاني. و لأنه شاعر أهل البيت كان مهابا محترما.

كتب القاضي نور الله الشوشتری في كتابه (مجالس المؤمنين) في أحوال لساني أنه نظم مائه ألف بيت من الشعر في مدح أئمه أهل البيت ع. و الظاهر أن نظمه القصيده المشهوره في مدح أمير المؤمنين على ع جعل القاضي الشوشتری يبالغ في هذا القول معتقدا ذلك.

لم يقتصر لساني في شعره على مدح الأئمه (ع)، بل نظم القصائد و الرباعيات في مناسبات و قضايا متنوعه، و كانا أشعاره مثلا يحتذى لشعراء آخرين مثل: الهجري و وحشى و غيرهما من قلدوه و نظموا على طريقته في الشعر.

له رباعيات في وصف تبريز و بيته و ران، و وصف الحب. و من ذلك رباعياته في ٥٤٠ بيتا المسماه (مجمع الأصناف).

له ديوان شعري يحتوي على ثمانيه آلاف بيت غزلي موجود في مكتبه المتحف البريطاني. كما أن له ديوانا فيه اثنا عشر ألف بيت رآه و تحدث عنه آذر بيگلي [بيگدلي]. و له أيضا ألف بيت مع ديوان الشاعر أهلي خراساني موجود في مكتبه سپهسالار.

و من تلاميذه المشهورين شريف التبريزي الذي جمع بعض أشعار استاذه و زاد عليها من عنده و سمى المجموع (سهو اللسان).

و تلميذه الثاني حيدري نظم أشعارا جمعها في ديوان سماه (لسان الغيب) يحامى بها عن استاذه(٢)

الشيخ عبد المنعم الفرطوسي ابن الشيخ حسين.

إشارة

ولد سنه ١٩١٥ م في النجف الأشرف و توفي سنه ١٩٨٣ في أبو ظبي بالأمارات العربيه المتحده.

نشا في النجف و درس فيها، و اختلف على حلقة الشيخ محمد على الخراساني كما لازم حلقة السيد أبو القاسم الخوئي.

وقد تحدث عنه الشيخ جعفر محبوبه قائلاً: هو أشهر رجال أسرته في عصرنا و من الشعراء المجيدين و الأدباء النابغين سريع البديهة كثير الحفظ ينشد القصيده بنفسه على ظهر القلب و تعاد مرات و يعيدها و يرجع إلى محل الاعاده، و شعره قوى السبك حسن الأسلوب طرى الديداجه، تهش لاستماعه النفوس، و تقبل عليه القلوب، و هو من أهل الفضل و النبوغ في الأدب و قد طرق في شعره كثيرا من أنواعه و فنونه و بالاضافه إلى ذلك فهو من أهل التقى و الصلاح و يكاد يكون المثل الأول من الشباب النجفى في إيمانه و أخلاقه.

أسرته

تحدثت عنها مجله الموسم قائله:

آل فرطوس فصيله عريبه كثيره العدد منتشرة في دجله و الفرات ترجع بنسبها إلى آل غزى القبيله المعروفه و جل آل فرطوس يقطنون في العماره و منها نزحوا إلى الناصريه و الشنافية و غيرها، و لهم بيت مشهور في النجف يعرف بهذه النسبه (آل الفرطوسى) نزحوا إلى النجف من العماره في أواخر القرن الثانى عشر و هم من البيوت العريبه المحتفظه بمكانتها العلميه، و المحافظه على سمعتها و اعتبارها، و أول من هاجر من هذه الأسره إلى النجف جدها الأعلى الشيخ حسن على عهد الشيخ صاحب كاشف الغطاء.

و ورد في بعض التواريخ أن الفرطوسيين ينتسبون إلى الظوالم (عشيره من فزاره) و ان من فروعهم فيهم: العكش، و الحسان، و الهزى، و الهديان، و المحايطه، و الحمود، و الشمود، و الشنشول، و كان زعيمهم يعرف بالشيخ عذافه الشاهر.

و قال الغزوى في كتابه (عشائر العراق): آل فرطوس فخذ من آل خزيم من آل شبل بالعراق، و عد بعضهم أصله من خفاجه و آخرون من غزى و هو الأشبه بالصواب و سكن معهم، و قسم كبير منه عاش بين ربيعه و المياح.

و من فروعهم في آل شبل: آل حمد، آل حمود، آل شتيوى، و منه مع ربيعه: آل بو جابر و منه الرؤساء، و آل بو خليفه، و الحجيه، و الجروخ، و آل بو حسين، و آل بو ملوح، و بيت وريد، و آل بو مويجز، و آل بو حامد، و البديرات، و آل بو شكه، و الكوامات (القومات)، و السمران و هم تبع السراى و يسكنون (على الغربى) و (الكوت) و (العماره) و يزرعون في الشلب و الدجن (الحنطه و الشعير) و هم غنامه و مجموعتهم كبيره.

و ذكر الغزوى في موضع آخر أن آل فرطوس فخذ من الغزى من بنى لام بالعراق يسكن في أراضي العبد الجبايش، و منه في لواء العماره، و فروعهم: آل عطاس، و آل بو زباره، و آل بو راسى، و العباده، و آل سلمه.

و على كل حال فان الثابت من نسب العشيره انها تنتسب إلى آل غزى حسبما أكده المترجم له في حياته و انه من الفرع الذى يسكن العماره و قد نزح جدهم الأعلى من العماره إلى النجف في القرن الثالث عشر الهجرى.

شعره

قال في ذكرى مولد الامام على ع من قصيده ألقيت في احتفال في مدينه كربلاء:

١- الشيخ عبد الحسين الصالحي.

٢- تاريخ أدبيات إيران.

لمولد الحق شق البيت فالتها نجم بأفق الهدى قد أخذ الشها
و هزت الآيه الكبرى بمعجزها دنيا قريش و قد عجت بها لجبا
فماج بالنور من أم القرى أفق طلق الضحى سال بالأضواء منسكبا
و كبر المجد إعلاما بمولده فى حين أبصر من آياته العجبا
و أقبلت فيه و القرآن طلعتة أم العلا و هداه يخرق الحجبا
وافت مبشره و الطهر بردتها شيخ الأباطح بالنور الذى وهبا
قد شرف الله منها القدر إذ وضعت فى بيته بعلى فارتقت رتبا
يا مصدر الحكم فصلا فى عزائمه و مورد العلم نهلا سائغا عذبا
و روعه الحق تجلى كل غاشيه من نورها ييقين يمحق الربيا
و نفحه القدس تطغى من شمائله بعابق هو روح يخمد اللهبيا
أكبرت عقلا تبني كل ناشئه من المعارف أوحاها فكان أبا
فيض من الذهن عذب النبع ما نضبا تقرى مواهبه الأجيال و الحقبا
و شعله من شعاع الفكر مشرقه تمشى العقول على أنوارها خبيا
و روضه من حقول العلم مخصبه من أصغريه بما أوحى و ما كتبيا
صنو العقيدة غذاها فكان لها أصلا و كانت له من بعده عقبا
يا منطق الحق فى التاريخ قص لنا روائعا عجت الدنيا بها طربيا
حدث فأنت لسان قد روى العجبا و مسمع قد وعى الأسفار و الكتبا
عن سيره القائد الأعلى و سيرته قد أحرز المجد فى مضممارها القصبيا
و خطها فى جبين المجد حين جرى دم الشهاده فى محرابه ذهبيا
أوحى بها ألف باب من معارفه (مدينه العلم) أوحتها له نخبا

و شيد العدل إذ أرسى قواعده على ضفاف قضاء عادل نصبا
فاقصص على مسمع الأجيال ملحمة للعلم ضجت بها ساحاتها صخباً
عن منشآت صدور تحمل الكتب و ألسن تثمر العرفان و الأدبا
و مشرقات عقول بالهدى كشفت عن كل سر بقلب الغيب قد حجبا
فمسجد الكوفة الغراء مدرسه و منبر (لعلى) قد روى الخطبا
مدينه السبط يا مهذا به ولدت من العواطف دنيا رفرفت حدبا
و تربه خط قلب المجد من دمه مثنوى البطوله فيها عزه و إبا
و مصرعا من أبى الضيم فيه هوى جسم مقطعه أوصالها إربا
أحيا الحسين به الإسلام حين رأى أبناء حرب و قد أودت به حربا
أبو الأئمه أو فى نجمه صعدا حتى هوى كل نجم دونه صببا
غرس أرومته الزهراء فاطمه و المرتضى حيدر أعظم به نسبا
من أهل بيت كتاب الله طهرهم و أذهب الرجس أما عنهم و أبا
و قال من قصيده ألقيت فى البصره فى احتفال بذكرى مولد الحسين ع:
قرآن فضلك فيه يفتح الفم حمدا و بالإخلاص ذكرك يختم
و بأفق مهدك من جهادك أشرقت للفتح آيات بوجهك ترسم
فلقد ولدت مطهرا فى برده من طهر فاطمه تحاك و تلحم
و لقد قتلت بمصرع يسمو به مجد الممات على الحياه و يعظم
و الحق من عينيك ينبع نوره و الصدق فى شفتيك جمر مضمم
و ضحى جبينك و هو فرقان الهدى بدم الشهاده و السعاده يوسم
يا قبله الزهراء مشرقه على قسما و وجه الحق يرسمها الفم

يا مصحفًا بفم النبي محمد ما زال في آياته يترنم
يا ثوره الحق الجريء تحدرت من قلب حيدرہ فاغرقها الدم
يا مولد الأنوار مهدك للهدى أفق تموج بصفحتيه الأنجم
مثلت شخصك صورہ قدسيه في القلب يطبعها الولاء فترسم
و جلوت طلعتها و أنت خواطر في مهدها برأى الامامه تحلم
فتحرقت شفتاى و قدا من دم حر على شفتيك قبله الفم
و لمحت في شفق الجبين غمامه منها على عينيك ظل معتم
و لمست من روح البطوله و الإبا شمما يثور و عزه تتقحم
و قرأت للفتح المبارك سورہ بالسهم في صفحات قلبك ترقم
فخضبت ناصيتي بمذبح جثه في نحرها الدامى يحز المخذم
بنت الضحى احتجى بأفق كآبه منها يمد عليك ظل مقتم
و سماؤك الزرقاء صونى وجهها بغلائل سود بها تتلثم
فشعاع شمس الحق أختك قد خبا و الفجر من شفق الدماء مجهم
و أخوك بدر المجد و هو مضرج بدم الوريد و بالسيوف معمم
أخفى لجين جبينه ذهب الوغى و أغام منه الصبح و هو المبسم
و الفرقدان تعانقا فوق الثرى جيدا إلى جيد يضرجه الدم
و الطائر المذبوح و هو مرفرف بيديه من دمه سقته الأسهم
و مباسم الشهداء تنثر كالندى منها اللالكى في الصعيد و تنظم
أكبرت في الإسلام مثلك فاتحا من عزم هاتيك الأضاحى يغنم
و يزيد و هو يهز في أعطافه للنصر مغلوب بفتحك يهزم

بعدا يزيد لراحل قد أثكلت أم الفجور عليه فهى الأيم
أيتمت أقداح الخمور فأعولت نغم القيان و كل طبل يلطم
و مواكب الشهوات لف لواؤها مذ غاب قائدها الجرىء المعلم
فالمغريات الثاكلات نوائح و الموبقات بها يقام المأتم
تعست خلافتك التى قد أبرمت بيد العمى و هى البلاء المبرم
أعوام شؤم جلجلت أحداثها بالمسلمين و نحسها المتجهم
أكدى على غرس النبوه جذبها فغدا باشداق المظالم يخضم
و الحره السوداء كم هتكت بها من حره و كم استحل محرم
و البيت قد حرقت بها أستاره فبكى المقام لها و ضجت زمزم
يا ساسه الوطن المفدى أصلحوا وضع البلاد فوضعها متازم
وطن هو الثكلى فكل مفوه فيه ينوح و كل حفل ماتم
ما أبقت الأحداث فيه ذباله تزهو و لا قيثاره تترنم
حكمت عليه فارهفته سياسه بالعنف من أرهاها تتحكم
و عدت عليه فمزقته طرائقا أحزابه و هى البلاء المبرم
و استنزفت منه القوى و قضت على ثرواته الشهوات فهو المعدم
لا القرض أشبعها و لا وفى بها ذهب المنابع و هو سيل مفعم

ما ذا أبث من الشجون و بعض ما فى القلب من ألم يضيق به الفم
ما ذا أخط و ألف لون للأسى فى لوحه النفس الحزينه يرسم
فاستعرضوا وضع البلاد فوضعها من كل ناحيه يسىء و يؤلم
حريه الأفكار رهن رقابہ سوداء يفرضها نظام مظلم
و الحكم بالإرهاب يوصد بابه فإذا تنفس فهو صل أرقم
و أماتت الفوضى النظام بمهده فالأمن للعنقاء فيها توأم
أن المناصب غايه منشوده و طريقها هذا الصراع المؤلم
وطن يباع و أمه منكوبه فيه تراعى و فىء شعب يقسم
صونوا الحقوق فكل حق ضائع للشعب و هو وراؤه لا يهضم
و قال مفتتحا ملحمته الشعرية:

هاك قلبى مضرجا بدمائى قطعاً فى سلاسل من ولائى
هى من منبع العقيدہ و حى لم يكدر منه معين الصفاء
و هى أغلى من كل عقد نفيس ذهبى مهما ارتقى فى الغلاء
جوهر من معادن القدس باق أين منه أعراض دار الفناء
نفحات من الهدايه تذكو عبقا من شمائل الأزكياء
بدئت بالتوحيد و هو أساس و استطالت بالعدل خير بناء
و تجلت فيها نبوه حق شفعت فى إمامه الأوصياء
و تلاها المعاد فهى أصول خمسه فى شريعہ الحنفاء
و دليل الاعجاز فى ذكر طه يفتنيها و عصمه الأنبياء
و بأثر التفويض و الجبر أمر بين بين ياتى و معنى البداء

و سواها من التواضع مما تقتفى نهجها بخير اقتفاء
و جميع الأركان و هى فروع الدين فيها بانت بغير خفاء
و تراءت كبائر الإثم فيها و سواها صغائر الأخطاء
و عليها باليمن رفرق أمانا من حياه النبي خير لواء
و حياه السبطين بعد على و البتول الصديقه الزهراء
و على و باقر العلم و الصادق قولاً و كاظم الصلحاء
و الرضا و الجواد ثم على و ابنه ثم قائم الأماناء
قد تبعت منها النجوم اهتداء و أمانا لنا بخير سماء
أهل بيت الهدى أئمه حق ألسن الصدق خيره الأولياء
و الأدلاء لا يحدون زيغا بالبرايا عن منهج الاهتداء
و مصابيح حكمه قد أضاءت بسناها مدارك الحكماء
كل نجم للخلق منهم إمام يقتدى فيه أحسن الاقتداء
أذهب الله عنهم الرجس طهرا و اصطفاهم بأكرم الاصطفاء
أنا مولى لهم محب و هدى آيه الحب من كتاب ولائى
و هى تهدى لفاطم و على و بنيتها و خاتم الأصفياء

مؤلفاته

- ١ - ديوانه الشعرى فى جزءين مطبوعين.
- ٢ - روايه الفضيله للمنفلوطى، نظمها شعرا.
- ٣ - منظومه فى الأشكال و الضابطه من علم المنطق فى حاشيه الملا عبد الله.
- ٤ - شرح شواهد المطول توسع به على طراز معاهد التنصيص و شرح الآيات الكريمه التى وقعت فيه و اعرابها و الشاهد منها يقع

فى ٥٠ صفحه بالقطع الكبير.

٥ - شرح مقدمه المكاسب وصل به إلى كتاب المعاطاه.

٦ - شرح الجزء الأول من كفايه الأصول (فى علم أصول الفقه الإسلامى) ٨٠٠ صفحه.

٧ - شرح الاستصحاب من رسائل الشيخ مرتضى الأنصارى يقع فى ألف صفحه.

٨ - شرح مجموعه الرسائل و هو نتيجة المده التى قضاهها تحت إشراف استاذه لراحل [الراحل] السيد محمد باقر الشخص.

٩ - الوجدانيات: ديوان شعر يحتوى على ألوان وصفيه و غزليه من شعره.

١٠ - ملحمة أهل البيت: ملحمة شعرية.

عبد مناف أبو طالب بن عبد المطلب.

مرت ترجمته فى المجلد الثامن من (الأعيان). و ننشر هنا بحثا عن إسلامه بقلم وجيه بيضون:

أبو طالب، و اسمه عبد مناف، و هو ابن عبد المطلب جد النبى (ص)، و فرع من الأرومه التى طالما ملكت السيادة على الناس إلى جانب سيادتها فى الأخلاق و المكارم، فكانت سماء على الأرض لا يغيب فيها نجم إلا أعقبه نجم، فيتصل ضياؤها متعاقبا ممتدا، و يتصل معه تفردا متميزا متجددا، كأنما خص بها من دون أهل الجزيره طرا.

و هو الذى جرت فى عهد أبيه واقعه الحبشه و عرفت بعام الفيل، فكان قريبا منها و من معجزتها حيث انهال الأحباش على الحجاز بجيشهم المتراس المتماسك كالقلعه جارفا ممتدا كالسيل، يحملهم شوق الغزو و الفتح و الغنم، و يزدهيهم هوى النصر و الغلبه، و قد جعلوا فى مقدمتهم أفواج الفيله الجباره كالقلاع المتحركة لا- عهد بمثلها للعرب، و لها من أصواتها المنكره و خراطيمها المتطاولة المهتره و أنيابها من تحتها كرهوس الرماح، و أقدامها كأنها الركاثر من الصخر أو الحديد، ما يبعث الرعب، و يتعظم به الخطب، و يذهب بشجاعه الفرسان مهما أوتوا قوه بأس و ثبات جنان. و كانت المعجزه، معجزه الطبيعه فى نواميسها - بشخير الله -، كان لها من خفى بصيرتها و حسها ما استثارت كوامن غضبها و حفيظتها حتى جن جنونها، فراحت ترعد و تبرق فى سمائها، و تنوح و تعصف بريحتها، و تمطر العداه الغزاه بسجيل من الحجاره كأنها القنابل قذفت بها أفواه المدافع، ثم ما هو إلا القليل حتى اندحر الأحباش مولين الأدبار يبتون بالخزى و العار، و كان فيلتهم و قد ارتدت عليهم تطاردهم و تدوسهم، لم يأتوا بها إلا لتأتى عليهم، و لم يلحقوها إلا لتلحقهم بكل مهلكه و هزيمه.

و كما تميز عهد عبد المطلب بهذه الواقعة التى كان من خطرها فى أثرها أن راح القوم يؤرخون بها وقائعهم و أحداثهم، فقد تميز عهد ابنه أبى طالب بان انبثقت فيه تباشير الدعوه الإسلاميه بظهور الرسول الكريم محمد (ص) و بتجديد الكعبه بعد الذى أصابها من هدم و حريق. و كما أن عبد المطلب كان أول من كفل حفيده محمدا بعد يتمه من والده، و هو ما برح حدثا فى

مطلع أيامه، لكذلك كفله أبو طالب بعد وفاته و لما يمض على كفالتة غير العامين، و ما زال لابن أخيه راعيا، و لدعوته مناصرا و داعيا، يلف عليه و يحوفه، و يتحمل المكاره فى سبيله و خصومه الناس من حوله، واقفا منه كالمجن يحميه من كل أذى يصل إليه، إلى أن فارق دنياه و هو فى الخامسة و الثمانين أحوج ما تكون الدعوه الإسلاميه إلى عونته، و أشجى ما يكون الرسول لفقده و فقد زوجه خديجه من بعده، و قد لحقت به لأيام معدوده، أى قبل أن يهاجر ص إلى المدينه بثلاثه أعوام و أربعه أشهر.

و كان فى خلقه أبلج اللون، متين الكاهل، قوى الشكيمه، غضب المهز. و من خلانقه السخاء و الوفاء و العفه و النخوه و الشجاعه. و من خصائصه أيضا أنه كان شاعرا حكيما مدح النبى (ص) بقصائد عده، و كانت له السقايه فى مكه، كما أن له و لقومه فى الكعبه الباب و للناس الجدران و الظهور. ولد له من الذكور أربعه هم: طالب و عقيل و جعفر و على. و كانت زوجه فاطمه بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف القرشى، و قد أسلمت بعد عشر من المسلمين.

بيد أن الروايات فى إسلامه متضاربه، ففريق على أنه مات غير مسلم، و فريق على أنه لم يلفظ أنفاسه الأخيره إلا و الشهاده ملء فيه إيمانا بالله و رسوله، و هو ما عليه الشيعة قاطبه، لا تأخذهم فيه أى شبهه أو ريبه.

و للفريقين قبائل من الرأى بين التأييد و الإنكار، و التذليل و التعليل، بما لا يرتجع بغير الغموض و الإبهام، ثم الشك و الحيره، و البعد عن مطلب الصواب فى حقيقته، و الحقيقه فى صوابها. و ما أقبح العصبية إذ تنتهى من تعنتها و الإصرار على عنادها إلى أن يغلب الهوى على العقل، فإذا الممتحن بها كالأعمى، إذا أفادته عصاه منعا من التسكع فما تفيده تبصرا بالطريق اللاحب القويم.

و الذى عندنا هو أن البحث فى إسلام أبى طالب أو عدم إسلامه، ما كان يستلزم ما استفرغ من مداد فى سبيله، و لا انهماك الأفكار فيه فى مثل حرب مستعره الأوار، ثم قطع الوقت فى غير مرتجع و توسيع شقه الخلف فى غير طائل، فقد كان من سداد الرأى تعلقه من وجهته العامه حيث تكمن حقيقته و يستبين مقطع الحق، لا-أخذه بأضعف ما فيه فيؤدى إلى الحكم ضعيفا لا يخيل بالصواب إلا مثل ما يخيل إشراق الشمس حجبت عليها السحب، فهى فى مثل الغسق الفاحم.

و ان من شروط البحث فى صحته أن تقدر النتائج بمساقها من سابقها، فيحكم عليها بروح مما لابسها و أثر فيها، لا أن تجعل هى الحكم الجزم، ثم تعتف الأسباب إليها اعتناقا لتورد غير موردها، و تحمل كل معنى إلا معناها، و يهول بأنها محط الصواب و هى الخطا الذى لا صواب فيه.

فان أخذنا بهذه الخطه القويمه و إليها التجرد الفكرى السليم، لا يميل مع العاطفه المذهبيه حيث تميل، فما شك فى أننا نقف من قضيه إسلام أبى طالب الموقف الذى يدنينا من الصواب فى واجب حكمه و حكم يقينه، و ينأى بنا عن مواطن الشبهات لا دليل يقطع فيها بالرأى الجازم، حتى إذا بقى ثمه شىء من الشك مسحنا عليه بما يفرضه العقل ترجيحا هو الأصوب و الأوجب.

إننا نقطع بإسلام أبى طالب إذ كانت الأدله على ذلك أقوى و أبين منها على خلافه. و هاك بادئ بدء الحججه التى يستمسك بها المنكرون و هى عدم إعلان إسلامه و إيمانه، و هى أكبر حججهم، تجدها أو هن من أن تنهض دليلا على أنه لم يكن مؤمنا، إذ كان من شان الايمان أن يصح فيه الكتمان و الإعلان على سواء، و بخاصه فيما يتخرج به الدين و يستلزم التقيه ضروره من ضرر. و ما أكثر ما نعتقده جزما و نؤمن به قطعا ثم نتعمد فيه الخفيه و الأسرار من غير أن يكون ثمه معنى للإنكار، و ما أكثر ما نصدر

عن مات و أحوال لو أخذت على علاتها من ظاهرها لما ترجمت بمكنونها من مغيبها، و لا حقيقتها من سببها، فالمظاهر لا تنم أبدا عن الحقائق، و الحقائق تتلبس غير صورها حتى كأنها صورته هي بعينها. و ليست العبره إلا- فى الأثر يترجم عن الأصل كالكهرباء إذا لم نكتننها بدليلها فان آثارها تدلنا عليها. و آثار أبى طالب فى جملتها شاهد على إيمانه و صدق إسلامه، تنفى عنه كل النفى أى تهمة بالشرك أو الكفر بدعوة الرسول و الإسلام. و أنى له غير ذلك و هو الذى طالما اشتهر بالصدق فى حياته لم يجرب عليه الكذب، و عرف كذلك فى ابن أخيه الصدق آمن ما يكون على قول الحق، لا تأخذه فيه لومه لائم، و ليس فى كل ما تقع عليه عينه و يصفح سمعه إلا ما يشير أبلغ إشاره إلى تمخص الزمن عن الحديث الجديد، يظهر أرض الحجاز من أرجاس الجاهليه التى بلغت غايتها من الوثنيه و العادات المستوخمه، بعد إذ آن ليلها الطويل أن يفرج عن الفجر المرتقب المبين.

و إذا فسر عدم إعلانه الإسلام بظاهره من معناه دون معانيه الأخرى من حمى ابن أخيه و نصرته و الأخذ بيده و محاسنه قريش فى ذلك باعتبار أن الدعوه غرضه أول عهدا و أن الأعداء و المناوئين ألب ضدها، فكيف نفسر سماح أبى طالب لزوجه فاطمه بنت أسد بان تسارع إلى الإسلام، ثم لابنه على بان يسلم و هو ما يزال حدثا غض العود، ثم لابنه جعفر بان يصل جناح ابن عمه فى الصلاه على يساره، ثم لبنيه و إخوته و بنى عمه بان يرقدوا و هم فى (الشعب) على فراش محمد تعميه على المشركين أن يصيبوه إذا ما حاولوا أذاه؟!.. فهل تراه فيما فعل غير الصادق فى طويته على الايمان، و الصادق فى إيمانه فى الدعوه، و الصادق فى عقيدته يترجمها ماثله فى عمله؟!... و هل لمثله و هو شيخ قريش و سيدها و صاحب الرأى فيها أن ينحرف مخالفا أو ينفرد متعسفا و أنه ليرى حمزه يسارع إلى الانصواء تحت لواء النبى، و كذلك عماته، و إليهم آل عبد المطلب جميعا، و من ورائهم عبد مناف، أ يخرج على مثل هذه الإراده المجتمعه و الخطه الجامعه ليعود من نهايه الشوط الذى قطعه رفا و عوناً و تضحيه إلى حيث يكذب نفسه، و يكذب عشيرته، و يكذب من أحبه و آثره حتى على بنيه؟ و إذا نحن تدبرنا موقف أبى طالب حين جاءه سادات قريش و أشرافها ساخطين متوعدين يستعدونه على ربيبه و حبيبه بقولهم: "أنا و الله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا و تسفيه أحلامنا و عيب آلهتنا حتى تكفه عنا، أو ننازله و إياك حتى يهلك أحد الفريقين"، ثم خطابه لابن أخيه بقوله: "أى بنى، أبق على و على نفسك، و لا تحملنى من الأمر ما لا أطيق"، ثم ما

أجاب به النبى ساعتئذ مستعبرا: "يا عم! و الله لو وضعوا الشمس فى يمينى و القمر فى يسارى، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته"، ثم قول أبى طالب: "و الله لن أسلمك أبدا"...قلنا إذا نحن تدبرنا هذا الموقف بحق معانيه و أبعدنا النظر فى مطاويه، إذن لخلصنا منه إلى حديث مبطن خفى قد استتر لشده ما ظهر، حديث بلفظه لا يستوى صحيحا بغير

معناه من غايته، و لا يدرك بغايته إلا بأنه مزيج عقل و قلب ألف بينهما الحب، فجاء امتحانا للمحنة فى أوجها، و استطلاعاً للقوه بلغت النهايه من طاقتها، لم يبق إلا- أن تتول معجزه. فليس هو الحرص على الحياه لا- و لا- العجز عن تحمل المشاق ما حدا أبا طالب إلى قول ما قال، بدءاً و استدراكه آخراً، ثم ما هو تخذيل لابن أخيه وقت فى عضده لتحويله عن مقصده، و إنما هى الأبوه الحاديه، مع العصبية الغالبه، فى الشيخوخه المتقدمه تريغ الطمأنينه على المعجزه المرتقبه لا طاقه بحمل رسالتها لبشر إلا أن يكون فوق البشر، و لا بد فيها من العون و ان كانت ممتده بأسباب من السماء.

ان من يتدبر مواقف أبى طالب من الدعوه و ما بذل من ذات نفسه و ماله فى سبيلها، لا يسعه إلا أن يعترف له بجميل الفضل و رجاحه العقل، فقد أبلى خير بلاء فى المنافحه عن الرسول (ص)، و لطالما كان سنده و عماده يرد عنه عوادى قريش، و يابى أن يسلم به و لو كانت فى ذلك حياته، و يعينه و ينصره و يشد من أزره حتى كأنه أمينه فى تحقيق دعوته كما كان هو رسول ربه فى أداء رسالته. و ما هو بالبدع بعد هذا إذا بكاه النبى (ص) بالثخين من عبراته عند وفاته، و استشعر من حوله الفراغ لفقده، ثم أجمع العزم على الهجره إلى المدينه فى عامه من حزنه. و ما كان به ذلك لو لا أن فقد من كان يصل جناحه و يؤثره بعطفه و عونته. و ان أمرا هذا شأنه، و تلك مآتيه و ماثره، لحرى و الله بالمحمد كفاء إحسانه، لا بالغض من كرامته و تغليب الشبهات فى حقه، ثم هو حرى بالا يعرف إلا بإسلامه وفاق ما عرف الإسلام من كريم بلائه فى الذب عن حوزته، و عظيم ولائه فى نصرته.

و من يدري ما قد عسى يعترض الرسول (ص) لو عجل أبو طالب كغيره فى كشف اللثام عن إسلامه و الانضمام إلى القله التى لاذت به مؤمنه بدعوته؟... أما كان من منطلق الحوادث و طبيعه الحال أن يتورد النبى من البلاء فوق ما تورده، و ينزل به ما يباعد بينه و بين غايته؟ فان قيل ما للدين ربا يحميه فعلا م لا تقول أن الله جلت حكمته هو الذى خص أبا طالب بهذه الحمايه؟ و ان قيل أن أبا طالب ما كان له مثل موقفه من الدفاع عن ابن أخيه لو لا عصبية القربى و طول الزمن فى تبنيه حتى كأنه أحد بنيه، فما بالنا لا نعكس الآيه لنقول أن عوامل العصبية و التبنى خليفه بان تجعله أول المؤمنين؟ هذا و مما فات الباحثين أن ينتبهوا إليه من أدله إسلام أبى طالب أن الحرب الكلاميه كانت سجالات بين الامام على ع و معاويه، و قد نثل كلاهما ما فى كنانته مما يغتمض الآخر و يغض منه، و لقي ابن أبى سفيان من خصمه مثل المطارق تنديدا و تعريضا، سواء بآبيه الذى أسلم و السيف فى محز عنقه، أو بامه آكله الأكباد و مشوهه الأجساد، و على ذلك لم نعثر فيما أورده معاويه من الردود ذودا عن نفسه و خفضا من شان خصمه على أى تعريض، بل أى إشاره، بل أى إيماءه و لو خفيه مما يتصل بأبى طالب والد على، فلو صح أنه كان على غير الإسلام لما فات مثل معاويه أن يعرض لذكره و يعرض بكفره، و يسقط عن نفسه اللائمه تبكيها بآبيه بمثلها عدلا عند أبى عاذله، فيستوى حسابهما واحدا، و تستوى به الضربه عند أحدهما مرتده على الآخر.

و هنا نحب أن نسأل: ترى ما الذى يضير مثل على (ع) و هو هو فى كرامته و فخره من جلال قدره، - تنقص آبيه بعدم إسلامه؟ ما ذا يضيره و كل من اعتنق الإسلام كان إلى آباء و أجداد غارقين فى سبات الجاهليه و الوثنيه؟ أما أن الخطر لأقل مما يتصور، و فضل على لأ- كبر من أن يستصغر، إذ كان المرء بهتمته لا برمته، كالورد هو من الشوك و لكنه باريجه و نصرته، و كالسيف ينظر إلى مضائه و صليله لا إلى أنه من الحديد، و كل امرئ بما كسب رهين.

و نردف بسؤال آخر: فليس منا من لا يؤمن بصدق الرسول الأمين (ص)، و لا يقطع بامرّه حجه هى برهان نفسها، فلو استوحيناها بروحه سؤالا عن عمه الذى حضنه و رباه، و كفله و رعاه و ذاد عنه و حماه:

أترانا نستلهم الجواب إلا مؤيدا إسلامه، موثقا إيمانه، شاهدا بفضلته و مكرما مثواه؟... أما و هو كذلك عند نبي المرسلين و أصدق الصادقين فهل من الرأى و حكمه القول أن نتكذبه نحن؟... ثم ما ذا نقول أيضا بمثل على (ع) و قد اشتهر بالحق يدور معه حيثما دار، لا يصانع و لا يوارب حتى فى أخرج المواقف و المطالب حيث تقتضيه السياسه بعض الملاينه و المداهنه، ما ذا نقول فى شهادته و قد شهد لأبيه بأنه لفظ الشهاده و كان من المؤمنين.

الشيخ عبد المولى الطريحي ابن الشيخ عبد الرسول.

إشاره

ولد فى النجف سنه ١٣١٧ و توفى فيها سنه ١٣٩٥.

هو من أسره عريبه استوطن أجدادها الحله، و النجف. اشتهرت بالعلم، و الأدب، و الفضل. و التقوى. ترجع فى نسبها إلى قبيله بنى أسد.

و عرف من هذه الأسره أمله العلماء و الأدباء و الشعراء و الباحثين، خلال العصور القديمه و الحديثه. و كان من أبرزهم فى القرن الحادى عشر الهجرى الشيخ (فخر الدين الطريحي) (٩٧٩ هـ - ١٠٨٥ هـ) صاحب كتاب (مجمع البحرين) فى اللغه و قد ترجمه أحد النجفيين فى مجله (لغه العرب) عام ١٩٢٨ م. و أشار إلى أن الأسره استوطنت (النجف الأشرف) فى القرن السادس الهجرى. و كانت لهم سدانه المشهد العلوى، و الولايه العامه فى القرن الثامن الهجرى، و سكن جدهم الأقدم الشيخ (داود الأسدى) النجف الأشرف، بعد نزوحه من (الحله)، فى الجانب الشرقى من مرقد الامام على بن أبى طالب ع و هى محله من (جبل النور) و تدعى اليوم (محله البراق)، و شيد فيها جامعا يسمى حتى الآن باسم (جامع الطريحي) ".

درس المترجم على والده، و جماعه بارزين من أهل العلم، و اللغه، و الفقه، و الأدب. فى مدينته النجف.

و حضر مجالس الثقافه و الأدب فى بلده. و ساهم فى أنديه النجف الثقافيه. و لما قامت (جمعيه الرابطه العلميه الأديبه)، التى تأسست سنه ١٣٥١ هـ (١٩٣٢ م). كان من أعضائها النشيطين. كما أنه دخل معترك الصحافه، فاصدر مجله تراثيه، أديبه تاريخيه، فى النجف، أسماها (الحيره) سنه ١٩٢٧ م. و لم تدم طويلا، دخل بعدها مهنة التعليم، و استمر يخدم طلاب العلم بثقافته، و سعه اطلاعه، و حسن معاشرته، حتى أحيل على التقاعد.

و لم ينقطع عن صلاته الفكرية الصحفيه بالمراسله و الكتابه، لأمهات المجالات العراقيه و العريه. أمثال (لغه العرب) و (الهاتف) و (الاعتدال) و (المرشد) و (النجف) و (الغرى) فى العراق. و (العرفان) فى لبنان.

كما كانت له ملاحظات تاريخيه و أديبه و شعريه، لما كان يكتبه كبار المستشرقين فى مجله (لغه العرب).

آثاره المخطوطة و المطبوعه

ترك مجموعته من المؤلفات المخطوطة، ولا بد أنها لدى أولاده، أو أقاربه من أفاضل الطريحيين في النجف - والكوفه. و هذا بعض ما وقفت عليه من أسماء كتبه:

- ١ - تاريخ آداب اللغة العامية الدارجه: " أو كنوز العرب الخفيه، في تاريخ آداب اللغة العاميه " في مجلد واحد.
- ٢ - شرح مواليه ابن الخلفه الحلبي.
- ٣ - كتاب الأنساب. جمع فيه أنساب القبائل و العشائر العراقيه.
- ٤ - نوادر النساء. (أو الأدب النسائي).
- ٥ - تاريخ الخيول العربيه و أوصافها.
- ٦ - الأمثال الشعبيه، حسب الحروف الهجائيه.
- ٧ - كتاب (القوارير) عن النساء العربيات.
- ٨ - اللؤلؤ و الصدف في مشاهير علماء الحله و الكاظميه و الحائر و النجف.
- ٩ - شعراء الثوره العراقيه.
- ١٠ - الرياض الأزهرية في تاريخ أنساب الأسر العلويه (مجلدان) نشر منه في مجله المرشد البغداديه.
- ١١ - تاريخ الأقمار الصناعيه.
- ١٢ - تاريخ الصواريخ و الحوادث الكونيه ٣ أجزاء.
- ١٣ - تاريخ الاكتشافات الأثريه في البلاد العراقيه (جزءان).
- ١٤ - المآخذ الشعريه (في النقد الأدبي).
- ١٥ - الغرويات في تراجم شعراء النجف نشر منه في مجله العدل الإسلامي النجفيه و مجله الفرزدق العماريه و اعتمد عليه الخاقاني في شعراء الغرى.
- ١٦ - الحائريات في شعراء كربلاء. اعتمد عليه سلمان هادي الطعمه في (شعراء من كربلاء).
- ١٧ - الحليات في شعراء الحله.

١٨ - وفيات الأعلام ثلاث مجلدات كبيره سجل فيه وفيات طائفه كبيره من العلماء و الأدباء و الشيوخ و وجوه الناس أكثرهم من النجفيين.

١٩ - بعض العقائد الفاسده نشر تباعا في جريده الهاتف.

٢٠ - التربه الحيدريه و ما نظم فيها من الشعر.

٢١ - مجموع كبير في تاريخ آل الطريحي.

٢٢ - مباحث عن الأقطار العرييه.

٢٣ - النوادر و الفكاهات.

٢٤ - كتاب الأوائل (مجلدان).

٢٥ - وحي الفكر في المطبوعات الحديثه و القديمه (نشر منه في مجله لغه العرب البغداديه).

٢٦ - تاريخ البنود الشعريه.

٢٧ - الأدب الحديث و القديم.

عبد الواحد بن أحمد بن محمد الثقفى الكوفى

نزىل بغداد:

كان حيا سنه ٥٥٤.

من فحول محدثين الشيعة و أكابر فقهاهم فى القرن السادس للهجره أخذ العلم عن جماعه من أفاضل عصره منهم الشيخ العدل أبو سعيد عبد الجليل بن محمد الساوى الذى سمع عنه فى المسجد الأعظم بالكوفه سنه ٤٩٢ ثم هاجر المترجم له إلى بغداد و كان من أكابر الفقهاء و تصدر للتدريس و الفتوى و القضاء و كان قاضى القضاة بها و تخرج عليه جماعه منهم عميد الرؤساء أبو منصور هبه الله بن حامد اللغوى الحلى المتوفى سنه ٦١٠ الذى سمع عنه بمنزله فى بغداد سنه ٥٥٤ كما يظهر من صدر سند نسخته من (غريب القرآن) للسجستاني ذكره شيخنا الطهراني فى طبقات أعلام الشيعة(١)

الشيخ عبد الوهاب البهشتى القزوينى.

توفى سنه ١٣٠٠ فى قزوين و دفن بها.

من أكابر الفقهاء المدرسين فى قزوين، أديب نحوى.

ولد في قزوین و نشا بها علی حب العلم فاشتغل بدرس العلوم العربیه و المقدمات ثم تلمذ فی الفقه و الأصول و الحدیث علی الشیخ محمد صالح البرغانی الحائری المتوفی سنه ۱۲۷۱ و الشہید البرغانی المستشهد فی سنه ۱۲۶۳ و أخذ الفلسفہ و العرفان عن الشیخ المیرزا عبد الوهاب البرغانی آل الصالحی حتی نال درجه عالیہ فی العلوم العقلیہ و النقلیہ ثم تصدر کرسی التدریس فی المدرسه الصالحیہ و کان من أشهر المدرسین فی قزوین و تخرج علیہ جماعه کثیره من العلماء و أهل الفضل. ذکره الوزير الايرانی المیرزا محمد حسن خان اعتماد السلطنه بین فحول علماء عصر ناصر الدین شاه القاجاری(۲) و ذکره شیخنا الأستاذ آغا بزرك الطهرانی فی موسوعته طبقات اعلام الشیعه فی ترجمه مختصره فقال (کان من الفقهاء المدرسین فی قزوین و هو من الأدباء الأفاضل و العلماء المحترمین و أئمه الجماعه الموثقین...) (۳) و المترجم له شقیق الشیخ شریف البهشتی القزوینی المار الذکر.

ترك المترجم له مؤلفات لم أقف علیها بل سمعت عنها و إنما رأیت له بعض الحواشی منها حواشی علی مقامات الحریری، و حواشی علی الشرائع، و حواشی علی شرح اللمعه للشهید الثاني(۴)

ملا عظیما النیسابوری ابن ملا قیدی

و أخو ملا فقیها الفوجی.

عند ما عین الشاه سلیمان الصفوی میرزا سعد الدین راقم وزیرا لخراسان اصطحب المترجم معه فكان من المبرزین هناك، و ظل حتی توفی سنه ۱۱۱۱.

یحتوی شعره علی مدائح فی الشاه عباس الثاني و میرزا سعد الدین و صفی قلی خان و بعض الحكام و کبراء کشمیر، و فیہ الغزل و المراثی. هذا عدا ما احتواه من مديح فی الأئمه ع.

ص: ۱۲۹

۱- الصالحی.

۲- المیرزا حسن خان اعتماد السلطنه: المآثر و الآثار ص ۱۶۵ طهران الطبعة الحجریه الأولى.

۳- الشیخ آغا بزرك الطهرانی: الکرام البرره ج ۲ ص ۸۰۵ الطبعة الثانيه مشهد سنه ۱۴۰۴ هـ.

۴- الشیخ عبد الحسین الصالحی.

و أكثر شعره غزلى فى العرفان و الحكمة(١)

على نقى كمره اى المشهور بنقى:

ولد سنة ٩٥٣ فى كمره بايران و توفى سنة ١٠٢٩ أو ٣٠ [١٠٣٠] أو ٣١ [١٠٣١].

كان فاضلا مدققا له فى التصوف و العرفان تحقيقات و بحوث.

نشا و تعلم فى كاشان و عاش فيها الشعراء المرموقين مثل محتشم و وحشى ثم سافر إلى أصفهان و التقى فيها باوحدى صاحب التذكرة و كثير ما تناقشا و تناطرا أدبيا و شعريا و صارا صديقين حميمين، و عاش المترجم فى أصفهان عيش الشعراء، كما يقول بعض مترجميه، و تعرف على حاتم بيك اعتماد الدوله صافى الأردوبادى الذى كان من كبار رجال البلاط الصفوى فى عهد الشاه عباس، و كان فى أول أمره حاكما لكرمان، ثم تقلب فى عدده مناصب ثم أصبح وزيرا(٢) و كان كثير من الشعراء يعيشون فى كنفه كالمترجم و ميرزا ملك المشرقى.

و فى سنة ١٠١٥ فجع المترجم بوفاه ابنه أبو الحسن فرثاه بشعر كثير، و كان لهذه الفاجعه أثر بالغ على حياته، و كما يقول صديقه تقى أوحدى: لم يرفع ظهره بعد تلك المصيبه. و انتقل على أثر ذلك إلى كمره حيث قضى فيها أكثر حياته، و فيها توفى.

و جميع من كتبوا عنه و صفوه بالسيره الحميده و الصفاء و الإنصاف، و اثنوا على شعره و أنه سلس بعيد عن العقد و الإبهامات اللفظيه و المعنويه.

له قصائد و غزليات، و مدائح فى النبى (ص) و الأئمه (ع) و الشاه عباس الأول و حاتم بيك و المرشد قلى خان و إمام قلى خان و آخرين من بارزى عهد الشاه عباس.

ترك ديوانا فيه القصائد و التركيبات و الغزليات و الرباعيات، و يحتوى على خمسه آلاف بيت.

و قد اشتبه بعض من ألفوا فى التراجم كصاحب (روضات الجنات)، و صاحب (الذريعه)، و صاحب (ريحانه الأدب)، فخلطوا بين المترجم و بين عز الدين على النقى المشهور بالشيخ على ابن الشيخ أبو العلاء محمد هاشم الطغائى الكمره إى فى حين أن هذا توفى سنة ١٠٦٠ أى بعد وفاه المترجم بثلاثين سنة، و كان من كبار العلماء فى عهد الشاه صفى، و بطلب من قلى خان حاكم فارس سافر إلى شيراز و صار فيها قاضيا و فى عهد الشاه عباس الثانى رجع إلى أصفهان، و له مؤلفات فى الكلام و الحكمة و الدراسات المذهبيه. و نسب له فى روضات الجنات أشعارا، و ربما كانت للمترجم لاله.

و ديوان المترجم توجد منه عدده نسخ فى إيران، و منه نسخه فى المكتبه البريطانىه، و فيه مقدمه ثريه يخاطب بها إمام قلى خان والى فارس بأنه لكبر سنه لا يستطيع أن يكون قريبا منه لذلك يبعث إليه بديوانه.

و فى هذا دليل آخر على اختلاف الرجلين: المترجم، و عز الدين على النقى لأن الثانى كان قاضيا فى شيراز و قريبا من إمام قلى

الميرزا على أصغر خان:

الميرزا "على أصغر خان" صاحب ألقاب "صاحب جمع" (٤) و "أمين الملك" و "أمين السلطان" و "الأتابك الأعظم". هو الابن الثاني ل "آقا إبراهيم أمين السلطان". كان الصدر الأعظم ل "ناصر الدين شاه" و "مظفر الدين شاه" و "محمد علي شاه" القاجاريين. ولد سنة ١٢٧٥ هـ. و قتل يوم السبت ٢١ رجب سنة ١٣٢٥ هـ بعد الغروب، و هو في سن الخمسين، إذ كان خارجا من المجلس النيابي. قتله رجل من أذربيجان اسمه "عباس آقا".

كان "الميرزا على أصغر خان" من أذكي حكام إيران و من أقدرهم على التمكن من السيطرة و النفوذ و من أبرعهم في الاداره و تصريف الأمور. له دور كبير في الأحداث العظيمة التي وقعت في أيام أولئك الشاهات الثلاثة.

و حصل في أثناء تقلبه بين مختلف المناصب على ثروه ضخمة و أصبح من كبار المتحولين.

حصل "على أصغر خان" على لقب "صاحب جمع" في حياه أبيه.

و في سنة ١٢٩٩ هـ حصل رئيس دار الشورى العليا (٥) "الميرزا على خان أمين الملك" على لقب "أمين الدوله" فانتقل لقبه السابق (أمين الملك) إلى "على أصغر خان". و كان ساعد أبيه الأيمن في أعماله الحكوميه المتعدده حتى أصبح على درجه فائقه من البراعه و الخبره في العمل.

و في رمضان من سنة ١٣٠٠ هـ توفي أبوه فعهد "ناصر الدين شاه" بكل مهامه إلى ابنه "الميرزا على أصغر خان" هذا. و هي مهام كثيره تدر دخلا ضخما و ضم إليها وزاره البلاط و لقبه بلقب "أمين السلطان". و بلغ عدد المناصب التي أسندت إليه ٤٤ منصبا كبيرا. و كان عمره يومئذ ٢٤ سنة.

يوم كان يساعد أباه في أعماله و يحمل لقب "صاحب جمع" كان يخاطب باسم "آقا على أصغر". و بعد سنة ١٢٩٩ هـ، إذ لقب ب "أمين الملك" أصبح يخاطب باسم "آقا على أصغر خان". و بعد وفاه أبيه في سنة ١٣٠٠ هـ، إذ انتقل إليه لقبه و جميع أعماله، أصبح "الميرزا على أصغر خان أمين السلطان".

لم يحصل "أمين السلطان" هذا في طفولته و لا في شبابه على ثقافه عميقه، إذ كان يلازم و يساعد أبا أميا. و لكن كان، لقوه حافظته و ذكائه، أهلا لأن يتعلم كل ما يمر به من معارف و تجارب. و عند اللزوم كان يستفيد من معارفه و تجاربه في معالجه الأمور كما يجب أن يستفاد. و كانت تكفيه نظره واحده يلقها على عريضه، مهما كانت رديئه الخط، ليتبين فورا مدار الأمر الذي يدور عليه موضوع العريضه. ثم يعين بوضع كلمات قليله يخطها على حاشيتها ما يترتب على العريضه من قبول أو رد فلا يعدو الصواب.

و أصبح و هو في الخامسة و العشرين من عمره من أقرب المقربين إلى

١- تاريخ أدبيات إيران.

٢- توفي سنه ١٠١٩ قرب مدينه أروميه.

٣- تاريخ أدبيات إيران.

٤- "صاحب جمع" لقب كان يطلق على من فى عهدته إداره بيوت دواب النقل من جمال و بغال خاصه بالدوله. و كان هذا المنصب من الأعمال البلاطيه المهمه. و صاحبه يعد من أعيان الحكم، يحسب حسابه.

٥- أو "دار شورى الدوله" أو "مجلس شورى الدوله". هو مجلس للشورى أنشاه "ناصر الدين شاه" سنه ١٢٧٥ هـ، و كان الشاه هو الذى يعين أعضاءه.

الشاه و موضع عنايته حتى تنبأ القرييون من البلاط أنه سيخلف الصدر الأعظم "الميرزا يوسف أمين السلطان" (١) بعد وفاته و قد صحت نبؤاتهم.

فقد توفي هذا الصدر الأعظم سنة ١٣٠٣ هـ فتولى "الميرزا على أصغر خان" مهامه كلها من غير أن يعين رسميا لمنصب الصدر الأعظم. و ظل يقوم بها إلى سنة ١٣٠٦ هـ إذ أصدر الشاه مرسوما بتعيينه فى منصب "الوزير الأعظم" (٢) (رئيس الوزراء)، و كان عمره يومئذ ٣١ سنة. و فى سنة ١٣١٠ هـ عين صدرا أعظم. و فى سنة ١٣١٨ هـ فى عهد مظفر الدين شاه حصل على لقب "الأتابك الأعظم". و كان السبب فى هذا التأخير هو أن "ناصر الدين شاه" كان مترددا فى اختيار واحد من ثلاثة لهذا المنصب أحدهم "الميرزا على أصغر خان" هذا. فاستخار و جاءت نتيجة الاستخاره نهيا عن تعيين "الميرزا على أصغر خان" و موافقه على تعيين أحد الرجلين الآخرين. و لكن هذه النتيجة كانت مخالفه لرأى الروس و الإنكليز. إذ كانوا يرغبون فى تعيين "الميرزا على أصغر خان" دون ذتيك [ذينك] الرجلين، و الشاه لا يستطيع مخالفه رغبتها و يخشى مخالفه الاستخاره.

عرف "الميرزا على أصغر خان" من حين اتصاله ب "ناصر الدين شاه"، كما عرف أبوه من قبله، موضع الضعف فى هذا الشاه، و هو حبه للمال، فكان لا ينفك يوالى إرسال المال و التحف إليه باسم الهدية. و ذلك بتحويل الأموال و الهدايا إلى "أمين أقدس" إحدى زوجات الشاه الأثيرات و منها إلى الشاه. و من ثم أطلق عليها اسم "أمين" أو "أمينه" إذ كانت الأموال التى ترسل إلى الشاه تحول إليه بواسطتها.

جمع "الميرزا على أصغر خان" زمام الأمور فى يده فى عهد "ناصر الدين شاه" و عهد "مظفر الدين شاه"، قبل حصوله على منصب الصدر الأعظم و بعد حصوله عليه، حتى أصبح يحسب حسابه فى أمور الحل و الربط أكثر مما يحسب حساب الشاه نفسه، إذ كان الشاه طوع رغبته ينفذ مطالبه بلا تردد. و خص إخوته و أقاربه بالمراكز و الوظائف الكثيره المختلفه التى يقتضيها ما فى عهده من المناصب و المسئوليات المتعدده، حتى إنه عين أخاله فى منصب "صاحب جمع" و هو فى العاشره من عمره. و كان يتعالى على الجميع فلا يرى أحدا فوقه و لا يبالى أن يذكر علنا على رؤوس الأشهاد رجال الدوله بالاھانه و السوء، بل بلغ به الأمر إلى التمرد أحيانا على أوامر "ناصر الدين شاه" نفسه و إساءه الأدب فى حضوره. و فعل شيئا من هذا مره ثم أراد أن يسترخى الشاه فاهدى إليه مبلغا من المال و عليه سعوط مرصعه بالماس.

كان من أول مره يؤثر الإنكليز، و كان لذلك أثر فى تقديمه و ترقيه فى المناصب. و يوم كان فى منصب "الوزير الأعظم" (رئيس الوزراء) فى عهد "ناصر الدين شاه" أعطى الإنكليز فى سنة ١٣٠٦ هـ امتيازاً بحق الملاحة فى نهر "قارون" (٣)، و امتيازاً بإنشاء بنك فى إيران و امتيازاً باستخراج المعادن من أرضها. و فى سنة ١٣٠٧ هـ أعطاهم امتياز حصر التبغ و التباك، ذلك الامتياز الذى أثار الايرانيين و حمل "الميرزا حسن الشيرازى" مرجع الشيعه الدينى الأكبر يومئذ (٤) على إصدار فتوى بتحريم تدخين التبغ و التباك و أطاع الناس فتواه فاضطرت الحكومه الإيرانيه إلى إلغاء الامتياز سنة ١٣٠٩ هـ.

و إذ كان بين الروس و الإنكليز تنافس شديد على النفوذ فى إيران فقد أغضبت هذه الامتيازات الحكومه الروسيه و اعتبرت "أمين السلطان" معاديا لها مناقضا لمصالحها. و قامت مظاهره كبيره فى طهران اعتراضا على هذه الامتيازات، و طوق المتظاهرون مقر "أمين السلطان" و دخلت مئات منهم إلى المقر، و هم يشتمون الشاه و يصيحون: أخرج إلينا أمين السلطان لنقتله!

ظل "أمين السلطان" يمالي الإنكليز و هم يدعمونه في البلاط إلى سنة ١٣٠٨ هـ. و كذلك كان "ناصر الدين شاه" يساير سياستهم و يمائلهم. و في تلك السنة بدأت فتنه امتياز التبغ و التباك إلى أن اضطر الشاه و "أمين السلطان" إلى إلغائه سنة ١٣٠٩ هـ، و اضطرت إيران إلى التعويض على الشركة الإنكليزية صاحبه الامتياز بغرامه ماليه ضخمة. و كان إلغاؤه يعد انتصارا للروس على الإنكليز. و عندئذ نفض "أمين السلطان" يده من الإنكليز و انحاز إلى الروس و اقتدى به "ناصر الدين شاه" أيضا. و زاد "أمين السلطان" السفاره الروسيه مصالحا و عاهد الروس و أقسم لهم أنه لن يخالفهم بعد اليوم. و ضمن الشاه للسفير صدق قول "أمين السلطان".

و أصبح "أمين السلطان" بعدها العامل الأول في تفوق السياسه الروسيه على السياسه الإنكليزيه في إيران يومئذ. و الظاهر أن هذه المصالحه هي التي أدت ب "ناصر الدين شاه" و "أمين السلطان"، فيما بعد إلى القتل، واحدا بعد الآخر.

و في سنة ١٣١٤ هـ، في عهد "مظفر الدين شاه" اضطر الإنكليز الشاه إلى عزل "على أصغر خان أمين السلطان" من منصب الصداره العظمى و نصب آخر من المواليين لهم في مكانه. فعزله و أبعده محترما إلى مدينه قم فأقام فيها منزويا. و ضايق الصدر الأعظم الجديد إخوه الصدر الأعظم المعزول و أقاربه الذين كان قد عينهم في مناصب مختلفه، فسجن بعضهم و صادر أموال بعضهم.

و لم يرض تعيين هذا الصدر الأعظم الروس إذ كان مخالفا لهم موافقا لمنافسيهم الإنكليز. فألحوا على الشاه مطالبين بعزله و إعادته "أمين السلطان" إلى منصبه. فرضخ لهم و عزله في سنة ١٣١٦ هـ و لما يمض على صدارته غير سنة و بعض السنه. و كان السبب في انصياع الشاه لهم و مخالفته بذلك للإنكليز أنه احتاج إلى قرض ليسافر إلى أوروبا للسياحه و المعالجه و الخزينه خاليه. فطلب القرض من الإنكليز فرفضوا إقراضه و عجز الصدر الأعظم الجديد عن تدبير الأمر. فعزله ليعيد "أمين السلطان" إلى منصبه على أمل أن يستطيع هذا الاستقراض من الروس. و أحضر "أمين السلطان" من قم إلى طهران سنة ١٣١٦ هـ و عين صدرا أعظم.

و سعى "أمين السلطان" إلى الحصول على القرض من الروس فاستجابوا له و أقرضوه في سنة ١٣١٧ هـ (١٩٠٠ م) اثنين و عشرين مليوناً.

ص: ١٣١

- ١- من كبار رجال السياسه و الحكم في عهد "محمد شاه قاجار" و عهد ابنه "ناصر الدين قاجار".
- ٢- في سنة ١٢٧٥ هـ أنشأ "ناصر الدين شاه" هيئه وزاريه باسم "مجلس شورى الوزراء" تتالف من ستة وزراء [وزراء] لست وزارات. و أنشأ مجلسا آخر باسم "مجلس شورى الدوله" مؤلفا من أحد عشر عضوا. و ينظر المجلسان في مختلف شئون المملكه ثم تعرض قراراتهما على الشاه للموافقه عليها. و منصب "الوزير الأعظم" غير منصب "الصدر الأعظم".
- ٣- يقع في جنوب إيران و يصب في شط العرب.
- ٤- كان يقيم في العراق في سامراء.

و نصف المليون من الروبيلات بفائده خمسه بالمائه، بشرط أن تكون عائدات الجمارك الإيرانيه، ما عدا جمارك الجنوب، رهنا فى يد الحكومه الروسيه إلى مده ٧٥ عاما فى مقابل هذا القرض. و استخدمت روسيا جماعه من البلجيكين لاداره جمارك إيران. و فى سنه ١٣١٨ هـ أنعم "مظفر الدين شاه" على "أمين السلطان" بلقب "الأتابك الأعظم".

و فى سنه ١٣٢٠ هـ (١٩٠٢ م) أراد "مظفر الدين شاه" أن يقوم بسفر آخر إلى أوروبا، فاحتاج إلى قرض آخر فحصل له "أمين السلطان" على قرض من روسيا مقداره عشره ملايين روبل بفائده أربعه بالمائه.

و إعطائها امتيازاً بمد سكه الحديد فى بعض الطرق من إيران.

و مع أن "أمين السلطان" انحاز كلياً إلى الروس بعد فتنة امتياز التبغ و التباك فقد كان يحاول التقرب إلى الإنكليز أيضاً. من ذلك أنه هيا لهم امتياز نبط الجنوب سنه ١٣١٩ هـ (١٩٠١ م) فى عهد "مظفر الدين شاه" إلى مده ستين عاما بالمجان تقريبا. إلا أن ذلك لم ينفعه و ظلوا على حذرهم منه لا يطمنون إليه و يطلبون من "مظفر الدين شاه" عزله. و صدرت أيضا فى هذه الأثناء فتوى بتكفيره من علماء النجف بسبب إهداره مصالح إيران للأجانب، فلم يجد "مظفر الدين شاه" بدا من عزله فعزله سنه ١٣٢١ هـ، و عين أحد الموالين للإنكليز فى مكانه و هو "عبد المجيد ميرزا عين الدوله" أحد أحفاد "فتح على شاه قاجار". و لم يكن على شىء من مقدره "أمين السلطان" و نفوذه.

و أراد الإنكليز أن يرتاحوا كلياً من شر "أمين السلطان" فحملوا الشاه على أن يوعز إليه بالسفر إلى خارج إيران ففعل. و سافر "أمين السلطان" إلى مكه للحج. ثم أقام فى خارج إيران أربع سنوات تقريبا قضاها فى السياحه فى أوروبا و الشرق الأقصى و أميركا.

و فى ٢٤ ذى القعدة سنه ١٣٢٤ هـ خلف محمد على شاه أباه "مظفر الدين شاه" على العرش. و اقتضت مصلحته إحضار "أمين السلطان" إلى إيران. فعاد إليها، بعد امتناع و أخذ و رد بينه و بين الشاه، فى ٥ ربيع الأول سنه ١٣٢٥ هـ.

عاد "أمين السلطان" إلى إيران من طريق روسيا. و فيها حملة الروس على سفينه حربيه فى بحر الخزر بين مظاهر الاحترام و التشرىفات الرسميه الفائقه إلى مرفا "أنزلى". فلما وطئ اليابسه أطلقت السفينه مدافعها تحيه له و الأعلام ترفرف عليها.

و لما قارب طهران أرسل "محمد على شاه" أحد رجال البلاط يستقبله.

يقول هذا الرجل: لما رآنى همس فى أذنى: لقد أحضرتمونى لتقتلونى! و قوبلت عودته إلى إيران بالسخط من الناس، و ظهرت منهم حركات تمرد. فتدخل السيد عبد الله البهبهانى فأصلح الأمور و هدأ الناس. و فى أواسط شهر ربيع الأول سنه ١٣٢٥ هـ عين "أمين السلطان" رئيساً للوزاره و وزير دوله.

و كانت أوضاع إيران يومئذ قد بلغت غايه بعيده من الفساد و الوهن.

فبدأ بعمل ذكى ناشط للإمساك بزمام الأمور. و أثار خصومه، من محليين و أجانب، عليه الناس فى مختلف الولايات. و كان أهم هذه الثورات ثوره "أبو الفتح ميرزا سالار الدوله" أحد أبناء "مظفر الدين شاه". فقد خرج على أخيه "محمد على شاه"

يطالب بالعرش لنفسه. و لكن "أمين السلطان" أحمد هذه الثورة بعد ثلاثة أيام من قيامها و أوشك أن يعتقل الأمير الخارج لو لا أنه لجأ إلى القنصلية الإنكليزية في كرمانشاه. ثم أمنوه فاستسلم إلى حاكم كرمانشاه.

و كان "محمد على شاه" على نهج "أمين السلطان" في موالاته الروس.

فلما عاد "أمين السلطان" إلى كرسى الحكم فى عهده و أخذ يدير أمور المملكة بحنكته و دهائه و صبره و اقتداره و يجمع أزمه الأمور فى يده شيئاً فشيئاً علا شأن سياسته الروسيه و وقع الإنكليز فى الحرج و الخيبه. و الظاهر أن هذا الأمر كان سبباً فى تقرير الإنكليز التخلّص منه بقتله. و اتفق أن توصل الإنكليز و الروس فى ٣١ آب سنة ١٩٠٧ م الموافق ٢١ رجب سنة ١٣٢٥ هـ إلى اتفاق بينهما على تقاسم النفوذ فى إيران، و إنهاء عهد التنافس على السيطرة على إيران بينهما. فقلت، من ثم، حاجه الروس إلى وجود أمثال "أمين السلطان" من الأنصار و العملاء فى الحكم.

و فى يوم السبت ٢١ رجب سنة ١٣٢٥ هـ، أى فى نفس اليوم الذى وقعت فيه روسيا و انكلترا على تلك المعاهده، حضر "أمين السلطان" جلسه لمجلس النواب ليبلغ المجلس مرسوما بتعيين وزير للحريه و وزير للعدليه.

و بعد جلسه عقد "أمين السلطان" و بعض النواب جلسه خاصه للمذاكره فى بعض الأمور. و طالت جلسه إلى الساعه الثامنه و النصف مساء. و بعد انتهاء جلسه توجه "أمين السلطان" و معه "السيد عبد الله البهبهاني"، و كان من أشد أنصاره، إلى باب المجلس الخارجى للانصراف، و فى أثناء الطريق دنا سيد من "السيد عبد الله البهبهاني" و ناوله رساله و طلب منه قراءتها، فتوقف السيد عبد الله ليقراً الرساله و تابع "الأتابك" طريقه.

و كانت العاده أن تقف عربه "الأتابك" فى حذاء الباب. و لكنهم أوقفوها فى هذه المره بعيداً عنه. فوقف "الأتابك" عند باب المجلس ينتظر جلب العربه إليه. و كان رجل تبريزى اسمه "عباس آقا" يتعاطى مهنة الصرافه فى طهران، و قبلها كان صانع بنادق، يكمن له قريباً بقصد اغتياله فتمكن فى هذه المهله من تسديد سلاحه تسديداً دقيقاً إلى "الأتابك" و أطلق عليه ثلاث رصاصات فأصابته و خر صريعاً. فبادر الحاضرون إليه و لفوه بعباءته و حملوه إلى منزله. و بعد نصف ساعه من وصوله توفى. و دفن فى مدينه قم فى مقبره خاصه. أما القاتل ففر و تبعه جندى و رجل سيد ليقبضاً عليه، فقتل السيد و جرح الجندى. و حوضر القاتل فانتحر بإطلاق رصاصه فى فمه. و قيل قتله الارهابى القفقاسى "حيدر عمو أوغلى" إذ كان هو المخطط و المدافع إلى اغتيال "الأتابك" فى رأى بعضهم.

كان "على أصغر خان أمين السلطان" شديد الحيويه خارق الذكاء قوى الذاكره بعيد النظر متسامحاً سخياً جذاب الشخصية جريئاً. و كان إذا غضب لا يبالي بان يقول ما يحضره من بداءه و جساره و أن يوقع ما يخطر بباله من ظلم و قسوه، سواء فى ذلك عنده الكبير و الصغير و الأمير و الوزير، حتى الشاه نفسه، فلا يجسر أحد على معارضته. رويت عنه بعض الوقائع شتم فيها "ناصر الدين شاه" (فى غيبته بالطبع) شتماً مقدعاً بحضور بعض الكبار من رجال الدوله و البلاط.

كان فى أوقات العمل ينكب عليه بصوره متواصله مده خمس عشره ساعه أو عشرين ساعه لا يلتفت إلى شىء غير العمل. فإذا انصرف إلى لهوه

أقبل عليه أيضا يواصل الليل بالنهار لا يبالي لشيء ولا يلتفت إلى شيء غير اللهو، حتى أوامر الشاه كان يلقي بها جانبا لا يعتنى بها في أوقات لهوه.

و كثر عليه العمل حتى عجز عن النظر في جميع الرسائل الواردة و الصادره لكثرتها فسلم خاتمه إلى كتابه يتداولونه كلا في نوبه عمله و يوقعون به نيابه عنه على العرائض و الرسائل على هواهم. و كانوا أحيانا يناقض بعضهم بعضا في التوقيع على الأوراق.

و روى بعض معاصريه أنه كان أكولا أكل بحضوره مره سبعين خياره، و أكل مره مائه خياره.

أما سبب اغتياله فاختلفت الأقوال فيه. قيل إن مستندات وقعت في يد "اللجان الشعييه" (١)، و هي رسائل كانت تكتب بامر منه إلى معارضى النظام البرلمانى فى مختلف الايالات يدعوهم فيها إلى العمل للقضاء على هذا النظام، فكان ذلك سببا فى إقدام أنصار النظام البرلمانى على اغتياله. و قيل أيضا إن هذه المستندات زورها على لسانه بعض أعدائه ثم وشوا به إلى اللجان الشعييه. بل قيل إن "محمد على شاه" نفسه هو الذى زورها ثم تعمد، من وراء ستار، إيصال أمرها إلى هذه اللجان ليستفزهم إلى التخلص من "أمين السلطان" بالقتل، إذ كان الشاه قد أصبح يحسده على نفوذه المتزايد يوما بعد يوم. فبعض رجال الدوله من المتصلين بالبلاط يعتقدون أن "محمد على شاه" هو الذى أمر بقتله لهذا السبب. و قيل إن المخطط المقتل "أمين السلطان" إنما هو الارهابى "حيدر خان عمو أوغلى" (٢).

الشريف المرتضى على بن الحسين.

إشاره

مرت ترجمته فى مكانها من (أعيان الشيعة) و نشر عنه هنا الدراستين الآتيتين:

قال الشيخ محمد رضا الشيبى:

حسب المؤرخ الذى يعنيه الوقوف على سيره المرتضى معولا على النظر فى كتب التاريخ أن يرجع إلى ما كتب عنه قديما فى المصنفات الآتية:

١ - تاريخ بغداد: للخطيب البغدادى.

٢ - تتمه اليتيمه: لأبى منصور الثعالبى.

٣ - التاريخ المعروف بالمنتظم: لأبى الفرج ابن الجوزى.

٤ - معجم الأدباء: لياقوت الحموى.

٥ - وفيات الأعيان: لابن خلكان و غير ذلك.

و يبدو لمن يتصفح تاريخ المنتظم أن مؤلفه ابن الجوزى أو بعض مشايخه نظر مليا فى كتب المرتضى، و خصوصا ما صنفه فى

الفقه والأصولين، فعنى بنقل بعض آراء الشريف عن كتبه المذكوره، ثم عقب بالرد على بعضها، لذلك جاءت ترجمته فى تاريخ ابن الجوزى منصبه على هذه الناحيه حسب.

وقد قال فى آخر الترجمة: "لو لا أن هذا الكتاب لا يصلح للتطويل فيه الرد لبنت عوار كلامه". وقال قبل ذلك: "كان يقول الشعر الحسن و يميل لى [إلى] الاعتزال و يناظر فى كل المذاهب".

هذا و لا بد لنا من القول أن هناك جانباً لا يستهان به من سيره هذا لإمام لم يتطرق إليه هؤلاء المؤرخون و لا غيرهم حتى اليوم، لأن هذه الناحيه من سيرته كما تبدو لنا من خلال ديوان شعره تحتاج إلى تصفح هذا الديوان بأسره و قراءه كل قصيده من قصائده و كل بيت من تلك القصائد و الإكباب على تفهمها بدقه.

و ديوان المرتضى - كما لا يخفى - من أكبر الدواوين الشعرية حجماً، و الوقت أضيق من استيعابه، أو استبطان أغراض صاحبه و مطالبه، و الغور على معانيه و مقاصده، و هى كثيره و متنوعه، هذا من جهه، و الشريف المرتضى من جهه أخرى كان إماماً فى علوم الشريعة و فنون الأدب، له مكانته و منزلته الرفيعه فى عصره، و بالخاصه لدى خلفاء بنى العباس و ملوك الديالمة من البهويهيين.

و كان له أصدقاؤه و رفاقه و أصحابه الكثر من أمراء الدوله و وجهاء البلاد و الصدور و الأعيان و الأئمه فى مختلف العلوم و الفنون.

و لا حاجة إلى القول بان الشريف المرتضى الشاعر فى غنى عن الاسترفاد أو الاستجداء بشعره.

و لا شك أنه نظم بعض القصائد فى المديح و الرثاء، مديح الخلفاء و السلاطين و رثائهم، و كان الباعث له على طرق هذه الأبواب من النظم، و فئاؤه و صداقته لكثير من القوم، لذا جرد الشريف المرتضى كثيرا من شعره فى معان إخوانيه يذكّر فيها الصديق و الصداقه، أو فى مقاصد اجتماعيه، أو خوالج نفسه، أو مشاعرات أو منافثات أدبيه.

و يلاحظ أن جل أصحابه، حتى من طبقه الأمراء و السلاطين و الخلفاء كانوا على منزله عاليه من المشاركه فى فنون الأدب و الشعر و اللغه، فكانوا يثيرون قريحته، و ينبهون عاطفته، فيجود بما تجود به من الشعر.

من ذلك أن الوزير أبا على الحسن بن حمد، رغب إلى المرتضى أن يعمل أبياتا تتضمن نقض المعنى الذى قصده جرير بقوله:

تقول العاذلات علاك شيب أ هذا الشيب يمنعنى مراحى؟

فجادت قريحته بمقطوعه مطبوعه يقول فى أولها:

و ما مرح الفتى تزور عنه حدود البيض بالحدق الملاح

منها:

و قالوا: لا جناح، فقلت كلا مشيبي وحده فيكم جناحي
مشيب شن في شعر سليم كشن العر في الإبل الصباح
كاني بعد زورته مهيض أدف على الوظيف بلا جناح
سقى الله الشباب الغض راحا عتيقا أو زلالا مثل راح
ليالى ليس لى خلق معيب فلا جدى يذم ولا مزاحى
و إذ أنا من بطالات التصابي و نشوات الغواني غير صاح
و إذ أسماعهن إلى ميل يصخن إلى اختارى و اقتراحي
فدونكها ابن حمد ناقضات لقول فتى تجلد للواحي
فقال و ليس حقا كل قول "أ هذا الشيب يمنعى مراحي"؟

ص: ١٣٣

-
- ١- فى أوائل قيام النظام البرلمانى فى إيران ظل هذا النظام مترجرا بين أنصاره و خصومه. و كان فى حمله وقائع هذا الصراع أن تشكلت فى مختلف الولايات لجان باسم "اللجان الشعبيه" لمواصله الدعم لهذا النظام و مكافحه خصومه.
 - ٢- راجع ترجمته.

هكذا نزل المرتضى عند اقتراح الوزير المذكور، و من ذلك يستفاد أن الوزير يشارك مشاركة حسنه فى الأدب، و يروى شعر الطبقة الأولى من الشعراء الإسلاميين، و أكثر من ذلك أن هذا الوزير خبير بمزاج الشريف المرتضى و بفنون الأدب و الشعر التى يحسنها.

و المعروف أن الشريف يحسن القول فى الشيب و الشباب و له فى ذلك مجموعه معروفه، و يحسن النظم فى طيف الخيال، و له فى ذلك أيضا مجموعه متداوله.

و قد تعاطى النظم فى هذه المعانى بعض فحول الشعراء قبل الشريفين المرتضى و الرضى، و من أشهرهم أبو عباده البحترى، و قد بلغت هذه الصله الأدبيه بين الوزير أبى الحسن على بن حمد و المرتضى حدا من الوثاقه جعلته "أعنى الوزير" يقترح على الشريف نظم قصيده على لسانه يبعث بها إلى بهاء الدوله(١) فهى قصيده قيلت على لسان وزير مرسله إلى ملك، و الاثنان من أصدقائه فلا مناص من التجويد فيها، و قد جاءت من محاسن شعره لفظا و معنى يقترحان.

و يلاحظ أن مقترحات هذا الوزير على المرتضى غير قليله كما يبدو لمن بتصفح ديوان المرتضى، و قد ساله مره إجازة قول أبى دهبيل الجمحى(٢):

و أبرزها من بطن مكه بعد ما أصوات المنادى بالصلاه و أعتما

و أن يجعل الوصف الذى قصد به أبو دهبيل إلى ناقه مصروفا إلى امرأه، فقال مرتجلا فى الحال:

فطيب "ريها" المقام و ضوأت باسراقها بين الحطيم و زمزما

(٣) فىا رب إن لقيت وجهها تحيه فحى وجوها فى المدينه سهما

تجافين عن مس الدهان و طالما عصمن عن الحناء كفا و معصما

و كم من جليد لا يخامر الهوى شنن عليه الوجد حتى تتيما

أهان لهن النفس و هى كريمه و ألقى إليهن الحديث المكتما

تسفهت لما أن مررت بدارها و عوجلت دون الحلم أن تتحلما

فعبجت تقرى دارسا متنكرا و تسأل مصروفا عن النطق أعجما

و يوم وقفنا للوداع و كلنا يعد مطيع الشوق من كان أحزما

نصرت بقلب لا يعنف فى الهوى و عين متى استظمرتها مطرت دما

(٤) كما يلاحظ أيضا كثره المقترحات التى ترد عليه من هذا القبيل و من غير هذا الوزير، فطورا يسأل إجازة أبيات على وزن

مخصوص و قافيه، و تاره يطلب إليه إجازة قول النوح المرادى(٥):

يا إبلى روحى على الأضياف إن لم يكن فيك غبوق كاف

فأبشرى بالقدر و الأثافي و غارف و مغرف جراف

فأجابه المرتضى بالقصيده التى أولها:

يا إبلى كوني قرى الأضياف فليس عند الجود بالانصاف

أو غيره، إلى هذا و أمثاله. و لا غرو، فان الدوله البويهيه كانت دوله الأدب و الشعر، و كان شعر المرتضى كشعر أخيه الرضى يعرض بديوان بهاء الدوله و يقرأ فى مجلسه.

و من الخلفاء الذين ورد ذكرهم فى شعره أكثر من مره، القادر بالله العباسى. و له فيه قصيده بمناسبة إفضاء الخلافه إليه(٤) ، و فى هذه القصيده يتمدح المرتضى بأنه من عشيره الخليفه، و يقصد بذلك أن الأرومه الهاشميه تجمع بينهما، و أنه لا غرض له إلا بقاءه و دوام صلته به.

و فى هذه القصيده أشار إلى تعذر الوصول إلى سده هذا الخليفه بعد البيعه، فمن ذلك قوله:

و أنا الذى ينمى إليك ولاؤه أبدا كما ينمى إليكم مولدى

أثنى عليك و بيننا متمنع صعب المرام على الرجال القصد

و لئن تحجب نور وجهك برهه عنى فهاتيك المناقب شهدى

ما حاجتى إلا بقاءك سالما تعالى مقاماتى و تدنى مشهدى

و الظاهر أن المرتضى كان قبيل البيعه وثيق الصله به كثير الاجتماع معه.

و لم يكن الشريف المرتضى وحده قريبا من هذا الخليفه ينوه به فى عده من قصائده، بل كان أخوه الرضى مثله فى الاتصال بالقادر و له فى بيعته و صيروره الخلافه إليه "سنه ٣٨١هـ" قصيده مشهوره نذكر منها قوله:

شرف الخلافه يا بنى العباس اليوم جدده أبو العباس

هذا الذى رفعت يديه بناءها العالى و ذاك موطن الأساس

و الطود أبقاه الزمان ذخيره من ذلك الجبل الأشم الراسى

و فى هذا الشعر ما فىه من الصناعات البديعية، فابو العباس الوارد ذكره فى مطلع القصيده هو القادر بالله، و أبو العباس هى أيضا كنيه السفاح مؤسس دوله بنى العباس المشار إليه فى البيت الثانى.

هذا ولأبى شجاع صاحب كتاب "ذيل تجارب الأمم" تعليق لطيف على أبيات الرضى أكد فيها رأى الرضى بالقادر بالله فى تجديد معالم الخلافه - على ما يقول -، و كشف الغمه و إزاحه العلل و الفتن عن البلاد، و يعده أبو شجاع رابع أربعة من بنى العباس هم: السفاح، و المنصور، و المعتضد، و رابعهم القادر، و وصفه بالورع و الزهد و أنه راهب بنى العباس (٧) و لا تخلو هذه المقاله و غيرها من مقالات بعض المؤرخين فى هذا الصدد من مبالغه.

و الخلاصه كان أفراد هذه الأسره - أسره السيدين المرتضى و الرضى - من أكثر أعيان عصرهم فى العراق اتصالا بدار الخلافه العباسيه، و دار السلطنه البويهيه، و حسبنا أن الشريف أبا أحمد الموسوى ولى عقد الأميره سكينه ابنه بهاء الدوله على القادر بالله "سنه ٣٨٤هـ"، جاء فى حوادث هذه السنه من .

ص: ١٣٤

- ١- مطلع القصيده: "إياها أيها المولى إياها فبعد إن أساء فقد أناها".
- ٢- أبو دهبل: اسمه وهب بن زمعه بن أسيد بن أحيحة بن خلف بن وهب بن حذافه بن جمح، و كان اسم جمح تيما و اسم أخيه زيدا، و هما ابنا عمرو بن هصيص فاستبقا إلى غايه، فمضى تيم عن الغايه فقييل: جمح تيم، و وقف عليها زيد فقييل: سهم زيد فسمى سهما، فاما كنيته فهى مشتقه من الدهبله، و هى المشى الثقيل، و الجمحى من شعراء قريش المطبوعين المجودين. راجع "ج ١ ص ١١٦" من كتاب أمالى السيد المرتضى ط. مصر سنه ١٣٧٣ هـ
- ٣- فى الأمالى: "مسراها" بدل "ريها".
- ٤- فى الأمالى: "قطرت" بدل "مطرت".
- ٥- و هذه الأبيات للنواح المرادى الوارده فى الديوان
- ٦- مطلع القصيده: قرت عيون بنى النبى محمد بالقادر الماضى العزيزه أحمد
- ٧- ذيل تجارب الأمم لأبى شجاع ط. مصر سنه ١٣٣٤ هـ "ص ٢٠٧".

ذيل تجارب الأمم ما ياتى:

و فيها عقد القادر على ابنه بهاء الدوله بصداق مائه ألف دينار بحضرتة، و الولى الشريف أبو أحمد بن موسى الموسوى، و توفيت قبل النقلة^(١) هذا ما ذكره أبو شجاع فى ذيل تاريخ مسكويه، و الشريف المذكور أبو أحمد هو والد الشريفين المرتضى و الرضى كما لا يخفى، و كانت لهذا الشريف مساع مشكوره فى الإصلاح بين رجال الدوله فى ذلك العصر، و الأمثله على ذلك غير قليله فى كتب التاريخ خصوصا فى التاريخ المسمى بتجارب الأمم مسكويه، فلما شجر الخلاف بين أبى القاسم على بن أحمد و بين السلطان بهاء الدوله و ترددت الرسائل بينهما فى العوده إلى الوزاره كان السفير بينهما الشريف أبو أحمد الموسوى. جاء فى التاريخ المذكور نقلا- عن الأستاذ أبى نصر "جاءنى فى أثناء ذلك الشريف أبو أحمد الموسوى و كان يتهمنى بالميل إلى الشريف أبى الحسن محمد بن عمر و يستوحش منى لأجله فقال: بلغنى أنك تصعد الليله إلى بغداد، و ما كنت أوتر البعد عن سلطانك، و لو وقفت و تركتني أتوصف ما بينك و بين الوزير الوارد و أتوثق بكل واحد من صاحبه لكان أولى، فقلت:

قد كنت على العزم الذى بلغ الشريف و إذ قد رأى الصواب لى فى المقام أقمت يومين، أو ثلاثه، معولا على تفضله فيما يقرره، و أردت بهذا القول كتمان حقيقه أمرى إشفاقا من أن يعرف الوزير خبرى، فراسله بهاء الدوله فيما يعرفنى به و انصرف الشريف أبو أحمد و لم تقلنى الأرض حتى مضيت إلى المضرب و دعت بهاء الدوله فبكيه و بكى بيكائى و قال: لا تشغل قلبك فانى لك على أجمل نيه، و ما أنفذتك إلا- إلى مملكتى، و أين كنت فانك على بال من مراعاتى و ملاحظتى" ^(٢) و يلى ذلك تفصيل هذه القضيه، و جاء فى آخرها، أن الأمر فسد بينهم بعد ذلك، و عول بهاء الدوله على اعتقال وزيره، فذكره الشريف أبو أحمد العهد الذى استقر مع مهذب الدوله فعند ذلك فسح فى عوده مع الشريف أبى أحمد إلى بغداد.

و من الخلفاء الذين ورد لهم ذكر [فى] ديوان المرتضى، الطائع و هو من الخلفاء الذين توثقت بينهم و بين الشريف المرتضى أسباب الموده، و نفس الشريف المرتضى فى القصائد التى قيلت فيه طويل منها القصيده التى مطلعها:

ما الحب إلا موئل المتعلل و براعه اللاهى و طول العذل

و فى هذه القصيده الطويله يشير المرتضى إلى الترفع عن الاسترفاد بالشعر و يذم الانتجاع به:

أثنى و ما هذا الثناء لمجتد فلذاك أبعد عن مقال المبطل

على أنه يذكر فيها إحسانا للطائع أسداه إليه، و هناك أبيات فى هذا الخليفه التمس فيها زيارته و استاذنه فى ذلك، و لا يخفى أن الوصول إلى الخليفه فى عصر الشريف و ما إليه كان صعب المنال.

ماساه الطائع

و للطائع ماساه معروفه فى تاريخ بنى العباس فى القبض عليه على صورته فيها شىء كثير من الهوان و الصغار، و خلعه و أخذ خطه بالتنازل عن الخلافه "سنه ٣٨١" و استخلاف القادر بالله و قد تم ذلك فى أيام الملك بهاء الدوله الديلمى، و فى هذه الحادته

أفاض رشاش من ذلك الهوان و الصغار من شهد الحادثه فى دار الخلافه، و كان بحضره الخليفه المخلوع، و الحاضرون الذين أصيبوا من أعيان بغداد و وجهائها، و القصه مشروحه فى كتب التاريخ، و مهما تفنن المؤرخون و المنشئون فى وصف هذا الحادث فإنهم لا يلحقون شاو الشريف الرضى شقيق المرتضى الذى بزهم جميعا فى وصف ما حدث يوم الدار، أو يوم خلع الطائع، و كان الرضى حاضرا ذلك اليوم فخلد الحادث بنونيته البليغه السائره، و يقول صاحب ذيل تجارب الأمم (٣) ليس فى قضيه الطائع ما هو خليق بالروايه إلا أبياتا للرضى أبى الحسن الموسوى - رحمه الله - فإنه كان من جمله من حضر، فلما أحس بالفتنه أخذ بالحزم و بادر الخروج من الدار، و تلوم من تلوم من الأمثال، فامتهنوا و سلبت ثيابهم و سلم هو فقال:

أعجب لمسكه نفسى بعد ما رميت من النوائب بالأبكار و العون
و من نجاتى يوم الدار حين هوى غيرى و لم أخل من حزم ينجينى
مرقت منها مروق النجم منكذرا و قد تلاقت مصاريع الردى دونى
و كنت أول طلاع ثنتها و من ورائى شر غير مأمون
من بعد ما كان رب الملك مبتسما إلى أدنيه للنجوى و يدنينى
أمسيت أرحم من أصبحت أغبطه لقد تقارب بين العز و الهون
و منظر كان للسراء يضحكنى يا قرب ما عاد للضراء يبكينى
هيهات أعتز بالسلطان ثانيه قد ضل و لاج أبواب السلاطين
و من المفيد أن نقول إن للشريف الرضى مرثيه يرثى بها الطائع المذكور عند وفاته سنة ٣٩٣ هـ.

و للشريف المرتضى مدائح كثيره و مرث فى ذويه و أهله و بالأخص منهم والده و خاله، و قصائده من هذا القبيل لا تخلو من حماسه و فخر، و لكن هذا الباب أعنى الفخر و الحماسه فى شعره قليل بالنسبه إلى ما جاء فى شعر أخيه الرضى.
و من قصائده السائره فى مدح خاله الشريف أبى الحسين أحمد بن الحسن الناصر، القصيده التى نذكر منها هذه الأبيات المفعمه بالرقه و العذوبه (٤):

يا خليلى من ذؤابه قيس فى التصابى رياضه الأخلاق
غنيانى بذكرهم تطربانى و اسقيانى دمعى بكأس دهاق
و خذا النوم من جفونى فانى قد خلعت الكرى على العشاق

و هناك غير هؤلاء عدد من الطالبين و العلويين توثقت رابطة الصداقه و الموده بينه و بينهم، منهم من مدحهم غير مره أو رثاهم،

منهم النقيب أبو الحسن محمد بن علي الزينبي المتوفى "سنة ٤٢٧" فله فيه مرثيه عصماء طويله نذكر منها:

ألا بكها أم الأسي و المصائب بدمعك سحا بين سار و ساربي.

ص: ١٣٥

١- ذيل التجارب " ص ٢٥٤".

٢- ذيل التجارب " حوادث سنة ٣٨٥".

٣- ذيل تجارب الأمم: (ص ٢٠١-٢٠٢).

٤- مطلع القصيده: ما رأتنى عيناك يوم الفراقأخدع القلب بادكار التلاقي.

و عاص الذى لم يههم ماء جفونه على فقد ماض أو على إثر ذاهب

و لا تغرنى بالصبر، فالصبر ما له طريق إلى ما فى الحشا و الترائب

منها:

مصاب هوى بالشم من آل هاشم و ضعضع ركنا من لوى بن غالب

و لم يمض إلا بالشواه عن الشوى و لم يرض إلا بالطللى و الذوائب

و ناع نعى نفسى و لم يدر أنه نعاها فاغراها بدم ترائبى

منها:

تمنيت لما أن أتى و هو صادقى على الرغم منى أنه كان كاذبى

منها:

و لما توفى الزينبى "محمد" و سارت بما لاقاه أيدى الركائب

نفضت من الخلان كفى بعده و لويت عن دار الأخوه جانبى

و غاضت دموعى فى الشئون فلم تسل على الذاهبين بعده و الذواهب

و آل الزينبى أسره كبيره يتردد ذكرهم كثيرا فى تلك الحقبه من الزمن، كما ورد ذكرهم فى ديوان كل من الشريفين المرتضى

و الرضى و هم بيت من بيوت العراق فى أواسط الدوله العباسيه، نعتوا على لسان المؤرخين بالنبل و الشرف و الاماره و أسندت

إلى غير واحد منهم نقابه النقباء.

فمن هم آل الزينبى؟ و ما معنى هذه النسبه؟ و هل هى نسبه إلى مكان، أم إلى شخص؟ و هل هؤلاء النقباء عباسيون أم علويون؟

سكت جل المؤرخين عن التفصيل و اكتفوا بالإجمال، و لم يزيّدوا على قولهم: فلان الزينبى، أو الشريف الزينبى، و هكذا عاد

الباحثون بخفى حنين من مسائله غير واحد من المؤلفين و المؤرخين و مناشدتهم أيضا فى إيضاح ما غمض من نواحي هذه

المسأله حتى خامرهم شىء من الياس.

بقى علينا أن نستطلع رأى السمعانى مصنف كتاب الأنساب، و قصدنا هذا المؤرخ الكبير فلم يخيب لنا آملا و الواقع أن

السمعانى حقق رغبتنا بل أجابنا جوابا شافيا و لم يكتف ببيان حقيقه هذه النسبه و لا بتعيين أصل آل الزينبى، بل أوضح لنا

جوانب غير قليله من سيره القوم و أحوالهم و قال لنا إن له فى أهل هذا البيت أصحابا و أصدقاء و مشايخ أخذ عنهم لما دخل

بغداد، فله در محدثنا السمعانى، ما أبرعه و أكثر فوائد كتابه فى الأنساب: و دونك ما ورد عن آل الزينبى فى الكتاب المذكور

و هذا نصه (١):

الزینبی هذه النسبه إلى زینب بنت سلیمان بن علی، و ظنی أنها زوجه إبراهيم الامام أم محمد بن إبراهيم بن محمد بن علی و المنتسب إليها بيت قديم ببغداد، منهم أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن سليمان بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم الهاشمي الزينبي يروى عن أبي طاهر المخلص و ابن زنبور الوراق، روى لنا عنه أبو نصر الغازي بأصبهان و إسماعيل بن أبي سعد ببغداد، و شيب بن الحسين القاضي بروجرد، و أبو القاسم (فسلى) (٢) بمكة، و جماعه و توفى سنه نيف و سبعين و أربعمائه، و أخوهما (٣) أبو الفوارس طراد بن محمد بن علی الزينبي يلقب بالكامل، يروى عن هلال بن محمد الحفار (٤)، و أبي الحسن بشران و غيرهما. روى لنا عنه أبو الحسن محمد بن طراد الزينبي و أبو القاسم علی بن طراد الزينبي الوزير و سمعت منهما ببغداد.

و كان مولده بشوال " سنه ٣٩٨ " و توفى في ذى القعدة " سنه ٤٩١ "، و أخوهم الرابع نور الهدى أبو طالب الحسين بن محمد بن علی الزينبي، يروى عن ابن المقتدر بالله، و أبي علی الشافعي، روى لنا عنه جماعه بالشام و العراق و خراسان، و أبو العباس أحمد بن الهاشم الزينبي من أهل باب البصره، يروى عن أبي نصر الزينبي، كتبت عنه ببغداد، و مات بالبصره " سنه ٤٢٤ " (٥) و جماعه بهذه النسبه لا أدرى نسبوا لأى الزيانب، منهم علی بن هارون الزينبي، يروى عن مسلم بن خالد (الريحي) (٦)، روى عنه عبد الله بن محمد بن موسى، و يوسف بن سعيد بن مسلم، و أبو العباس بن الوليد... الزينبي، روى عن عده و هو آخر من حدث عنه و عن عوده بن خليفه، روى عنه عبد الله بن محمد بن موسى الكعبي النيسابوري، و ذكر عنه أنه سمع منه بمكة محمد بن موسى الزينبي.

فلا عجب أن تتوثق مثل هذه الصلاه بينه و بين هؤلاء النقباء العلويين. فإنه أمر يقتضيه مركزه من القابله الذى تقلده أكثر من مره.

علی أن المرتضى منى بعدد غير قليل من الخصوم و الحساد، و بعضهم من أسرته، و من أشهر قصائده التى يعرض فيها بخصومه و حساده قصيده معروفه استهلها بقوله:

عل البخيله أن تجود لعاشق ما زال يقنع بالخيال الطارق

و له قصيده أخرى تعد من عيون شعره الجزل قالها فى هذا المعنى أيضا التى مطلعها:

(خليلي أ لا عجتما بالقلائص)

و التى يقول فيها:

بنى عمنا كم نكظم الغيظ منكم على لاذعات بيننا و قوارص

وددت بان المجد أصبح شاردا و ليس لنا فيه اقتناص لقانص

الشاعر العالم

و يابى شعر المرتضى و أدبه إلا أن ينم على خلقه و مسلكه فى الحياه، و هو كما لا يخفى مسلک أحد أئمه العلم و الديانه، و هو

صاحب مدرسه تخرج فيها كثير من الفقهاء و المتكلمين، و نلاحظ أن شعره من بعض النواحي مرآه تنطبع على صفحتها أخلاق العالم الخبير بأمور الدنيا، المرشد المبصر بأمور الآخرة، و من المعاني التي تطرق إليها في قصائده، ذم الدنيا، و شكوى الزمان، و ذكر المصائب التي تعرض لكثير من ذوى الأقدار و الفضيله فيها،

ص: ١٣٦

- ١- أنساب السمعاني " ص ٢٨٤ و ٢٨٥"، و تجد ترجمه لزينب بنت سليمان العباسيه في قسم تراجم النساء للخطيب البغدادي " ج ١٣ ص ٤٣٤".
- ٢- كذا في الأنساب.
- ٣- جاء في مختصر الأنساب " لبعض الأفاضل " أن هنا نقصا في كتاب أنساب السمعاني. فإنه لم يذكر إلا زينبيا واحدا هو إبراهيم بن محمد بن سليمان، فلا يصح قوله: " و أخوهما " ثم إن الثاني هو طراد بن محمد بن علي، فجدده علي لا سليمان.
- ٤- هو أبو الفتح هلال بن محمد الحفار، قال الخطيب البغدادي: كتبنا عنه، و كان صدوقا ينزل بالجانب الشرقي قريبا من الحطابين، و سألته عن مولده. فقال: ولد في شهر ربيع الآخر من سنه اثنتين و عشرين و ثلاثمائه، بعد قتل المقتدر بسنه و نصف، لأن المقتدر قتل في سنه عشرين (و ثلاثمائه)، مات هلال الحفار في يوم الجمعة الثالث من صفر " سنه ٤١٤ " الخطيب البغدادي - تاريخ بغداد - ج ١٤ ص ٧٥.
- ٥- في المختصر المذكور " سنه ٥٣٣".
- ٦- كذا في الأنساب للسمعاني " ورقه ٢٨٤".

و يأخذ عليها تنكرها، و تقلب أحوالها من مكاشفه إلى صداقه، و من رفاهيه إلى إضافه، و من فرج إلى إعسار، و ما إلى ذلك.

و يستوحى معانيه الشعريه من هذا الباب من نظره إلى القبور الدوارس، و قد أثارت شعوره مره مرأى المقبره العتيقه المجاوره لمسجد براثا فاستوحى خشوعها و دثورها، و مظهر العبره فيها بقصيده حسنه فإذا هو فى هذا الموقف ذلك الامام الذى يأبى إلا أن ينم عليه شعره، فكم من شاعر يا ترى مر بهذه المقبره - مقبره مسجد براثا - قبل الشريف المرتضى و بعده فلم يستوحها و لو بيت واحد من الشعر، و فى هذه القصيده يقول:

إنى مررت على جنادل فوق أرماس دروس

فكأنهن من البلى آثار نفس فى طروس

كم ضمنت من ضيغم قرم إلى قنص النفوس

و غرير ماء الوجنتين كريم ناحيه الجليس

و كأنهم لخفوتهم شرب تساقوا بالكئوس

تخذوا الثرى فرشاً لهم و توسدوا قلل الرءوس

يا للثرى كم فيه من علق يضمن به نفيس!

و شعره من هذا القبيل يذكرنا ببعض خطب الامام على عند ما كان يزور المقابر، و لا شك أن الشريف المرتضى ورث هذه النظره إلى الحياه فيما ورث عن أجداده عليهم أفضل الصلاه و السلام.

مدفن المرتضى

قال الدكتور مصطفى جواد:

ذكر أبو العباس أحمد بن على بن العباس المعروف بالنجاشى فى كتابه "رجال الشيعة" - ص ١٩٣ - أن الشريف المرتضى صلى عليه ابنه فى داره و دفن فيها، قال: " و توليت غسله و معى الشريف أبو يعلى محمد بن الحسن الجعفرى و سلار بن عبد العزيز".

و قال ابن عنبه فى "عمده الطالب" - ص ١٨٢ -: "و دفن المرتضى فى داره ثم نقل إلى كربلاء فدفن عند أبيه و أخيه و قبورهم ظاهره مشهوره".

و نقل أبو على فى كتابه "منتهى المقال فى أحوال الرجال" - ص ٢٢٤ - ما ذكره النجاشى فى كتابه من دفن المرتضى فى داره قول صاحب "تنزيه ذوى العقول": "ثم نقل إلى جوار جده الحسين - ع -".

وقد أظهرت في العصر الأخير في الكاظمية خارج سور المشهد الكاظمي تربه كتب عليها أنها تربه الشريف المرتضى ثم أظهرت بالقرب منها تربه سميت تربه الشريف الرضى، مع أن أكثر المؤرخين الذين ترجموهما ذكروا نقلهما من داريهما إلى المشهد الحسيني بكربلاء. ولا تخلو تسميه التربه في الكاظمية بتربه المرتضى من أمرين أحدهما أنه كان هناك في التربه ضريح غير معروف دفينه، فانبرى لها أحد البعدين عن التحقيق والتدقيق فنسبها إلى المرتضى، والآخر أن التربه كانت تسمى "تربه المرتضى" أو "تربه ابن المرتضى" فحذفت لفظه "ابن" من التسميه.

فان كان اسمها "تربه المرتضى" فليس دفينها الشريف المرتضى بل "إبراهيم المرتضى" قال مؤلف غايه الاختصار "٥٤-٥٠" في ترجمه موسى بن إبراهيم الموسوي: "كان صالحا متعبدا ورعا فاضلا يروى الحديث... توفى ببغداد و قبره بمقابر قريش" يعنى الكاظميه أو المشهد الكاظمي) مجاورا لأبيه وجده - ع - فحصدت عن قبره فدلت عليه و إذا موضعه في دهليز حجره صغيره ملك مبارك الجوهري الهندي(١) و أبوه "إبراهيم المرتضى" كان سيدا جليلا عالما فاضلا روى الحديث عن آبائه - ع - و مضى إلى اليمن و تغلب عليها في أيام أبي السرايا، و يقال إنه ظهر داعيا لأخيه الرضا - ع - فبلغ المأمون ذلك فشفعه فيه و تركه.

توفى في بغداد و قبره بمقابر قريش عند أبيه - ع - في تربه مفرده معروفه - قدس الله روحه و نور ضريحه -".

و على هذا تكون تربه المرتضى القائمه اليوم عند المشهد الكاظمي خارج السور للسيد إبراهيم المرتضى بن الامام موسى بن جعفر - ع - و لا يخفى على اللبيب قول مؤلف الغايه " و قبره في تربه مفرده معروفه".

و على القول الثانى أعنى أن تسميه التربه كانت "تربه ابن المرتضى" تكون للسيد على بن المرتضى الحسنى المعروف بالأمير السيد، قال مجد الدين محمد بن محمود المعروف بابن النجار المؤرخ المحدث المشهور:

"على بن المرتضى بن على بن محمد ابن الداعي زيد بن حمزه بن على بن عبيد الله بن الحسن بن على بن محمد السيلقى بن الحسن بن الحسن بن جعفر بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب أبو الحسن بن أبى الحسين بن أبى تغلب العلوى الحسنى المعروف بالأمير السيد. ولد جده بنيسابور و كذلك والده المرتضى و نشأ بأصبهان ثم قدم بغداد، و ولد له على هذا بها و قرأ الفقه على مذهب أبى حنيفه حتى برع فيه و فى الخلاف، و قرأ الأدب و حصل منه طرفا صالحا، و سمع الحديث، ثم ولى التدريس بجامع السلطان(٢) و انتهت إليه رئاسه أصحاب الرأى. و كان عالما بالمذهب متدينا زاهدا فى الرتب و الولايات المنيفه كريم النفس، كانت داره مجمعا لأهل العلم و الأدب و كان يكتب خطا مليحا و له كتب كثيره أصول بخطوط العلماء سمع... و حدث باليسير، سمع منه القاضى أبو المحاسن عمر بن على القرشى و عمر حتى أدركناه و لم يتفق لنا منه سماع. قرأت فى الخريده لأبى عبد الله الكاتب (الاصبهانى) بخطه للأمير السيد على بن المرتضى:

صن حاضر الوقت عن تضييعه ثقه أن لا بقاء لمخلوق على الدوم

و هبك أنك باق بعده أبدا (فلن يعود علينا عين ذا اليوم)

و له أيضا:

١- اسم جده "هندي" لا- أنه من الهنود، قال مؤلف الغايه المذكور في ص ٩٠: "و بيت هندي منهم نجم الدين أبو جعفر النقيب الطاهر تولى النقابه بمقابر قرش [قريش] زمن ابن الجويني ثم رتب كاتب السيب ثم عزل و كان يقيم بالحله، و للفقر عليه أثر ظاهر، يكتب خطأ و يقول شعرا لا بأس بهما". و مبارك الهندي ورد ذكره في حوادث سنه "٦٧٤" من التاريخ الذي سميناه الحوادث الجامعه، قال مؤلفه - ص ٣٨٥:- "و فيها عزل أمين الدين مبارك الهندي الجوهري من نقابه مشهد موسى بن جعفر - ع - و عين في النقابه نجم الدين علي بن الموسوي. و لما كان مبارك المذكور نقيبا قال فيه بعض الشعراء. رأيت في النوم إمام الهديموسى حليف الهم و الوجد يقول ما تنكبني نكبها لا من الهند أو السند تحكم السندي في مهجتيو حكم الهندي في ولدي فلعهن الله على من بهت حكم السندي و الهندي.

٢- هو جامع السلطان ملك شاه بن ألب أرسلان السلجوقي و كان في محله درب السلطنه السلجوقيه بالمخرم أى محله العلوازيه الحاليه، و قد ذهب و لم يبق من آثاره و أطلاله شيء، و كان مدرسه للفقه الحنفي، و كان مدرسه ذا رتبه ساميه.

و اغنم لنفسك حظها في البين من قبل الفوات (كذا)

(١) قرأت بخط القاضي أبي المحاسن (عمر) القرشي قال: سألته - يعنى الأمير السيد على بن المرتضى - عن مولده فقال: فى ليله الثلاثاء ثانى عشر ربيع الآخر سنة إحدى و عشرين و خمسمائه ببغداد بدارب الشاكرية. توفى الأمير السيد على بن المرتضى فى ليله الجمعة لثانى عشره ليله خلت من رجب سنة ثمان و ثمانين و خمسمائه و دفن من الغد بمقابر قريش (٢) و قال جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد المعروف بابن الديبى:

"على بن المرتضى... العلوى الحسنى أصبهانى الأصل، بغدادى المولد و الدار، يعرف بالأمر السيد، كانت له معرفه بالفقه على مذهب أبى حنيفة. درس بجامع السلطان مده، و كان من أعيان الناس و أمثالهم.

سمع شيئاً من الحديث... سمع منه القاضي عمر القرشى و روى عنه فى معجمه... سألت الأمير السيد أبا الحسن العلوى عن مولده فقال: فى ليله الثلاثاء ثانى عشر ربيع الآخر سنة إحدى و عشرين و خمسمائه ببغداد. قلت:

و توفى ليله الجمعة ثانى عشر رجب سنة ثمان و ثمانين و خمسمائه و دفن يوم الجمعة بمقابر قريش (٣) و قال كمال الدين بن الفوطى فى تلخيص معجم الألقاب: "أبو الحسن على بن المرتضى بن محمد العلوى الاصفهانى البغدادى، يعرف بالأمر السيد المدرس بجامع السلطان، ذكره عماد الدين الكاتب فى كتاب الخريده. و قال: كان والده من أصفهان فى خدمه الخاتون جهه المقتضى، و تفقه ولده هنا على مذهب أبى حنيفة، و وجد الكرامه الكليه من الخليفه، و أهل للرتب الشريفه، و المناصب المنيفه، فلم يمل إلا إلى العلم و نشره، و لم يرغب إلا فى الفقه المؤذن برفع قدره، و من شعره:

صن حاضر الوقت عن تضييعه ثقه أن لا بقاء لمخلوق على الدوم

و هبك أنك باق بعده أبدا فلن يعود إلينا عين ذا اليوم

درس بجامع السلطان مده، و توفى ليله الجمعة ثانى عشر رجب سنة ثمان و ثمانين و خمسمائه و دفن بمقابر قريش (٤) و قال شمس الدين الذهبى فى تاريخ الإسلام فى وفيات سنة ٥٨٨:

"على بن مرتضى بن على بن محمد بن الداعى الشريف الأجل أبو الحسن بن الشريف أبى الحسين المرتضى الحسنى الأصبهانى الأصل، البغدادى، الفقيه الحنفى المعروف بالأمر السيد. ولد سنة ٥٢١ و تفقه و حدث... و درس مده، و كان من سراة الناس و أعيانهم، روى عنه عمر بن على القرشى و غيره..."

و ذكره ابن الأثير فى وفيات السنه المذكوره من الكامل، و غير مستبعد أن تكون له ترابه مفرده لو ثبتت نسبتها إليه، لجلالته فى العلم و النسب و لأن ابنه هاشم بن على بن المرتضى المعروف بابن الأمير السيد تصدر فى مناصب الدوله العباسيه فولى صدرية المخزن - و هى كوزاره المالیه الحالیه - "سنة ٦٣٤" من خلافه المستنصر بالله و رتب صدر البلاد الواسطيه، و لما كان فى صدريتها صنف له أبو طالب عبد الرحمن بن عبد السميع الهاشمى كتاب "المنتخب من مناقب الدوله العباسيه و مآثر أئمتها المهديه".

و لما عزل عن صدرية واسط جعل عارضا للجيش العباسيه أى مديرا لأموورها، ثم أنفذ رسولا إلى الملك الصالح ابن الملك الكامل بمصر، فتوفى هناك فى شهر ربيع الأول سنة ٦٤٠هـ (٥) و خلاصه القول أن التربه المجاوره لمشهد الامام موسى بن جعفر -ع- المعزوه إلى الشريف المرتضى ليست له البته و أنها إما تربه السيد إبراهيم المرتضى بن موسى بن جعفر -ع-، و إما تربه على بن المرتضى المعروف بالأمير السيد.

دار المرتضى

و أما دار المرتضى بدرب جميل فكانت فى محله الكرخ (٤)، و كانت محله الكرخ فى غربى محله الجعيفر الحاليه، و بينهما و بين مقابر قریش التى هى الكاظميه الحاليه محله العتيقه و محله باب البصره و محله باب محول و محله دار القز و محله العتابين و محله الحربيه، فضلا عن مدينه المنصور التى اتصلت باباب البصره فصارتا محله واحده.

و أما داره على نهر الصراه (٧) فيكون تقديرها فوق أرض المنطقه المعروفه قديما بالعتيقه و هى سونايا القديمه الزمان، قال ابن عبد الحق البغدادي فى "مراصد الاطلاع على الأمكنه و البقاع": "سونايا... قريه قديمه كانت ببغداد، ينسب العنب الأسود إليها، الذى يبكر على سائر العنب مجناه، و لما عمرت بغداد دخلت فى العماره و صارت محله من محالها، و هى "العتيقه" و بها مشهد لعلى بن أبى طالب - رضى الله عنه - يعرف بمشهد المنطقه".

فان كانت الدار على مصب الصراه، فهى على دجله أيضا من الجانب الآخر الشرقى. قال ابن حزم فى نسب "إبراهيم بن موسى الكاظم":

" و من ولده كان المرتضى و الرضى النقيبان ببغداد، و اسم الرضى (محمد) و اسم المرتضى منهما على ابنا الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن إبراهيم بن موسى المذكور، و كان المرتضى رئيس الاماميه و يقول مع ذلك بالاعتزال، و كان متكلمًا و كانا جميعا شاعرين. مات المرتضى سنة ٤٣٧ (كذا) و له نيف و سبعون سنه، و كان يسكن على الصراه إلى أن هدمت الحنبلية داره فى يوم كان لهم فيه الظفر على الشيعة، فرحل إلى الكرخ. و كان على هذا يكنى أبا القاسم"

الشيخ فضل الله نورى

اشاره

مرت ترجمته فى موضعها من (الأعيان) و نعيدها هنا بتفاصيل أوسع:

و مصادرنا فيها: نهضت روحانيون ايران، و رهبران مشروطه، و شرح حال رجال [رجال] ايران.

الشيخ "فضل الله الكجورى" (٨) ابن "الملا عباس الكجورى".

و إذ كان شاعرا و اتخذ اسم "نورى" اسما مستعارا لشعره فقد اشتهر بهذا الاسم. ولد فى الثانى من ذى الحجه سنة ١٢٥٩.

من كبار العلماء الايرانيين، بل أجمع الناس، حتى خصومه، على أنه

- ١- البين هنا: الوصل، و الفوات: موت الفجأه (الصفار).
- ٢- أصول التاريخ و الأدب " ج ٢٢ ص ٤٩ "نقلا من تاريخ ابن النجار.
- ٣- أصول التاريخ و الأدب " ج ٢٢ ص ٣٠ "نقلا من تاريخ ابن الديبى.
- ٤- أصول التاريخ و الأدب " ج ٢٧ ص ٢٧".
- ٥- أصول التاريخ و الأدب " ج ٢٧ ص ١٧٥".
- ٦- المنتظم لابن الجوزى " ج ٨ ص ٧٣-٧٤".
- ٧- جهه أنساب العرب لابن حزم " ص ٧٥ " و قد تصحف فيها الصراه إلى "الفرات".
- ٨- نسبه إلى "كجور" من بلدان إيران.

كان أعلم و أتقى علماء زمانه فى إيران. درس المقدمات فى إيران ثم سافر إلى العراق فأتم الدراسه العالیه على الميرزا "محمد حسن الشيرازى" المرجع الدينى الأول. و كان فى الطبقة الأولى بين تلاميذه.

و لما عاد إلى إيران أهلته معارفه الواسعه و تبخره فى العلم و جمعه لشرائط الاجتهاد و تقواه لبلوغ مكانه عالىه من النفوذ و الشهرة، و أصبح من أعظم المراجع فى الأمور الشرعيه. و ظل على هذه المكانه الساميه مده من الزمن إلى أن نسبت إليه أمور أنزلت من مقامه.

ففى سنه ١٣٠٨ (١٨٩٠ م) فى عهد "ناصر الدين شاه" أعطت الحكومه الإيرانيه اثنين من الروس، أحدهما اسمه "رافلوفيتش" و الآخر "بالياكوف" امتيازاً بإنشاء بنك لهما فى إيران. و أراد الروس إقامه بناء للبنك فى أرض موقوفه فيها مدرسه خربه و مقبره دارسه. و لكنهم لم يحصلوا على إذن باستئجارها من أحد ممن راجعوهم بهذا الشأن من المراجع الدينيه. إلا أن الشيخ "فضل الله نورى" أذن لهم بإقامه بناء للبنك فيها، باعتبار التبدیل بالأحسن، و فى مقابل ذلك دفعوا تعويضا من المال (١) و قيل إن الشيخ نفسه و بعض حاشيته خصهم أصحاب الامتياز بشىء من المال لأنفسهم فوق التعويض. فحظ ذلك من شأنه.

و أمر آخر هو أنه نسب إليه أنه طلق إحدى بنات "مظفر الدين شاه" من زوجها فى غياب الزوج و بدون موافقته.

و تفصيل هذا الأمر هو أن "موقر السلطنه" (٢) كان متزوجاً من "شكوه الدوله" بنت "مظفر الدين شاه" السادسه. و كان زوجها هذا مسجوناً.

و أراد أبوها، أو أخوها "محمد على ميرزا" ولى العهد، تطبيقها منه، فراجع بهذا الشأن اثنين من المراجع الدينيه هما السيد "على أكبر تفرشى" و السيد "عبد الله البهبهانى" فجاباه بان لا بد من إطلاق سراح الزوج و سماع موافقته على الطلاق منه، و إلا فالطلاق غير ممكن بوجه من الوجوه. فقيل إن البلاط راجع الشيخ "فضل الله نورى" بهذا الشأن فقبل أن يطلقها، و طلقها من زوجها و هو فى السجن بدون الحصول على موافقته. ثم أجبروها على الزواج من السيد "أبو القاسم" إمام الجمعه فى طهران، فعقد لها الشيخ "فضل الله" عليه. و زاد بعضهم أن العقد جرى فى جلسه الطلاق نفسها من غير عده، فزاد هذا العمل فى انحطاط شأنه.

هذا ما نسب إليه. و لكن إذا نظرنا فى ملابسات حياه الشيخ "فضل الله" السياسه و الاجتماعيه، و هى ملابسات عيفه عاتيه قامت على منعطفات تاريخيه حاسمه، و إذا نظرنا فى انعقاد إجماع الناس، حتى خصومه، إلى يومنا هذا على تفوقه العلمى و ورعه و تقواه و غيرته على الإسلام، لا نتردد فى الجزم ببراءه سيرته من كل شائبه دينيه و أخلاقيه، و أن نحكم بان خصومه رموه بمخالفات شرعيه و أشاعوها بين الناس افتراءً للحط من شأنه. و الاشاعه الكاذبه سلاح قديم بيد المبطلين.

لقد شهر هذا الرجل العظيم حرباً بلا- هواده على خصوم عتاه جبابره كحزب "الطاشناق" الأرمنى و البايين و الماسونيين و الاستعمار و الهراطقه و غيرهم. فهل يستكثر على مثل هؤلاء الخصوم نسج إشاعه كاذبه عنه؟! فيوم هب أحرار إيران يطلبون الخلاص من الحكم الاستبدادى الفردى و إقامه النظام الدستورى النيابى فى بلادهم - و كان الشيخ فضل الله نورى من رواده الأوائل - هاله أن رأى أولئك الخصوم يندسون فى هذه الحركه المباركه لينحرفوا بها عن غايتها النبيله إلى غاياتهم الخاصه، و

من ثم إيقاع إيران في بلاء شر من الحكم الاستبدادى الفردى. فهب ناهيا عن المنكر آمرا بالمعروف بيتغى صيانته الحركة الدستورية النيابية من التخريب و الانحراف.

و هب خصومه هؤلاء يتغون كسر شكوكته [شوكته] و إخماد صوته. و كان من ذلك تشويه سمعته بنشر مثل هذه الإشاعات عنه.

و كيف يرتكب مخالفه شرعيه فى مثل هذه الأمور من اختار الموت على الحياه إذ كانت نجاته من الموت متوقفه على قبوله الحمايه من أعداء دينه أو أعداء بلاده؟! فقد أرسلت إليه السفاره الروسيه فى طهران، ساعه كان ينتظر الجلادين ليقودوه إلى المشنقه، رايه روسيه، و اقترحت عليه، بالالتماس و الإصرار، أن يلجا إليها أو أن يرفع الرايه الروسيه فوق منزله فيصبح فى الأمان، فرفض و قال ما معناه: لا أستظل برايه أعداء دينى.

و مهما تكن الحقيقه فى قضيه الوقف فان فتوى يفتيها "الشيخ فضل الله نورى" بشأن وقف من الأوقاف لا- يمكن أن تكون مخالفه للشرع. هذا مع العلم أيضا بان السلطات لم تكن بحاجه إلى فتاوى شرعيه للاستيلاء على مدرسه خربه و مقبره دارسه. و مثل هذه القضيه قضيه طلاق بنت "مظفر الدين شاه".

و ما أشيع عنه من مخالفات فى هاتين القضيتين كان القصد منه الاساءه إلى سمعته بين الناس و إسقاط منزلته فيهم. و يبدو أن مروجى هذه الشائعات قد نجحوا فى ذلك.

و نحن حين نلظر بعين الإنصاف إلى هاتين التهمتين، مضافا إليهما التهمه الثالثه الفظيعة، و هى عقد زواج المطلقه قبل انقضاء عدتها، بل فى مجلس الطلاق نفسه، ندرك حالا أنها تهم باطله، و أن الشيخ النورى فى علمه و ورعه لا يمكن أن يقدم على ارتكاب أمور محرمة.

و الذى يفضح مطلقى التهم هو تهمتهم الثالثه التى تزعم أنه زوج المطلقه قبل انقضاء عدتها، بل فى مجلس الطلاق نفسه. و هو أمر لا- يمكن أن يقدم عليه حتى الفاسق المتجاهر بالفسق، فضلا عن مجتهد ورع تقى كالشيخ فضل الله. و ذلك أن الفاسق المجاهر بالفسق إنما يستحل المحرمات إذا كان له فائده من استحلالها. فإى فائده تناله من مثل هذا العمل و هو غير محتاج إلى تعجيل الزواج، بل يستطيع الانتظار إلى ما بعد انقضاء العده و تجنب نفسه سوء القاله من ارتكاب محرّم لا يستطيع له اصطناع تخريج و لا تكلفه.

ص: ١٣٩

١- فى رجب سنه ١٣٢١ هـ، فى عهد "مظفر الدين شاه"، عزل هذا الشاه الأتابك "على أصغر خان" (أمين السلطان) من منصب الصداره العظمى و عين فى مكانه "سلطان عبد المجيد ميرزا" الملقب ب "عين الدوله"، و هو من الأمراء القاجاريين. و فى عهد هذا الصدر الأعظم هاجم الناس فى شهر رمضان بنايه هذا البنك و هدموها.

٢- هو "حبيب الله خان قاجار" موقر السلطنه "من موظفى البلاط فى عهد "ناصر الدين شاه" و عهد "مظفر الدين شاه".

صهر "مظفر الدين شاه" على ابنته "شكوه الدوله". كان على صلة سريه بطلاب النظام البرلماني الديمقراطي. و كان هؤلاء يكتبون رسائل يدعون فيها إلى إقامه هذا النظام و يرهبون بها الشاه و رجال البلاط، و ذلك بان يسلموها إلى "موقر السلطنه" هذا في الخفاء فيلقى بها سرا على سرير نوم "مظفر الدين شاه" أو مكتبه. و اتفق أن رآه الشاه مره من المرات يفعل ذلك، فأمر بالقبض عليه، و ضرب حتى أقر على رفاقه فاعتقلوا و نفوا من طهران. و ألقى بموقر السلطنه في السجن، و ظل فيه مده ثم أطلق سراحه. و انتهى أمره إلى أن حكم عليه طلاب النظام البرلماني، بعد انتصارهم، بالموت فقتل، إذ كان متلونا وصوليا لا يثبت على خطه. و قد انقلب عليهم بعد أن كان معهم طلبا لمنفعته الخاصه.

تأويل؟! فهل فى الدنيا من يصدق أن الشيخ النورى يمكن أن يفعل ذلك، إذا استثنينا العامه العمياء التى تنعق مع كل ناعق؟ ثم من تزوج المرأه المطلقه؟ لقد تزوجها رجل دين يشغل منصبا دينيا رفيعا هو إمامه الجمعة فى طهران!..

و نحن على بعد الزمان و المكان نحكم بان طلاقا يجريه "الشيخ فضل الله نورى" و يتزوج المطلقه به إمام جمعه طهران السيد "أبو القاسم" هو طلاق و زواج فوق الشبهات.

ثم إنه مهما كان رأينا سيئا فى "مظفر الدين شاه" و فى ابنه "محمد على ميرزا" فاننا لا يمكن أن نعتقد بان الأول يقبل بان تعيش ابنته و لا الثانى بان تعيش أخته زانيه طول حياتها..

فى أوائل حركة المطالبه بالنظام النيابى الدستورى كان الشيخ "فضل الله نورى" رفيق السيد عبد الله البهبهانى(1) فى العمل على إقامه هذا النظام فى إيران. و لكن سبق أن تخالفا يوم أعطى "ناصر الدين شاه" شركه إنكليزيه امتياز حصر التبغ و التباك فى إيران و أفتى الميرزا "حسن الشيرازى" تلك الفتوى الشهيره بتحريم التدخين و أدت فتواه إلى إلغاء الامتياز. فقد خالف السيد "عبد الله البهبهانى" فتوى الميرزا الشيرازى و أيد الامتياز و ظل يدخن علنا. فلما سئل عن ذلك أجاب: أنا أيضا مجتهد و لى رأى. أما الشيخ "فضل الله نورى" فقد أيد فتوى الميرزا الشيرازى و حرم التدخين و شارك معارضى الامتياز فى المقاومه.

كان الشيخ "فضل الله نورى" أحد ثلاثة من المجتهدين كانوا من كبار القاده لحركه المطالبه بالنظام النيابى فى إيران. و الآخران هما السيد "عبد الله البهبهانى" و السيد "محمد الطباطبائى". إلا أن الشيخ "فضل الله" كان أرجح منهما بمراتب فى العلم و المعرفه. و يعد من أركان هذا النظام و مؤسسيه. و قد أدى خدمات جليله فى النهضه التى انتهت إلى صدور مرسوم بإقامته فى ١٤ جمادى الآخره سنه ١٣٢٤ هـ فى عهد "مظفر الدين شاه".

و لكن الشيخ "فضل الله" انفصل عن رفيقيه فى سنه ١٣٢٥ هـ، فى عهد "محمد على شاه"، و اعتزلها فى ناحيه "شاه عبد العظيم" (الرى) و انحاز إلى معارضى المجلس النيابى، و أعد هناك مطبعه و أصدر جريده و اجتمع حوله جماعه كبيره من الطلاب و غيرهم و أكثره الخطباء و المنبريين، و أصبح عائقا كبيرا فى وجه أنصار هذا المجلس.

و يعزو بعضهم هذا الانشقاق إلى أن الشيخ "فضل الله" حسد صاحبيه على أن نفوذهما فاق نفوذه، و هو الأعلم و الأفضل، و هما دونه علما و فضلا. و يدعى آخرون أنه تناول رشوه من الشاه. و يذكرون أن الحكومه أرسلت، قبيل تحصنه فى "شاه عبد العظيم" قطعه عسكريه إلى هناك ظاهرها المحافظه على الأمن العام و حقيقتها تهيئه محيط آمن له و لجماعته.

و يذكرون أنه زور هو و اثنان من أعوانه العلماء و ثائق تحتوى على عبارات كفريه و مخالفات للشرع الإسلامى و نسبوها إلى لجان أذربيجان و القفقاس الشعبيه(٢) لتشويه سمعه هذه اللجان، و زوروا كذلك رسائل على لسان رؤساء البايين فيها تمجيد و ثناء على مشاهير أعضاء المجلس النيابى ليضعوهم فى موضع الشبهه بأنهم على صلته بالبايين.

و يذكرون أن السيد "عبد الله البهبهانى" و السيد "محمد الطباطبائى" بعثا برسالة إلى النجف شكوا فيها الشيخ "فضل الله نورى" إلى المرجع الدينى "الآخوند الملا- محمد كاظم الخراسانى" و المرجعين الآخرين "الآخوند الملا عبد الله المازندرانى" و "الميرزا حسين ابن الميرزا خليل الطهرانى"، و كانوا ثلاثتهم من مؤيدى النظام الدستورى النيابى. فجاء الجواب منهم برفقه بان

الشيخ فضل الله مفسد يحرم الرجوع إليه.

و لكن هذه التهم والاستنتاجات والتحليلات مردوده كلها. فالشيخ "فضل الله نوري" ظل ثابتا على رأيه في وجوب قيام النظام النيابي إلى آخر لحظه من حياته. و الذي نهض إلى معارضته إنما هو انحراف المجلس عن غايته النبيله و صيرورته أداءه تخريب بيد الإنكليز و عملائهم و أهل البدع و الهراطقه و الاباحيين. و كان أهم مطالبه هو إضافة بعض المواد إلى القانون الأساسي لحفظ المجلس من الانحراف. و إذ امتنعت الصحف - و كلها كانت مخالفه له - عن نشر بياناته و دأبت على تشويه مقاصده، و أصم المسيطرون على المجلس آذانهم عن سماع نداءاته و أهملوا مطالبه و تعذر عليه إيصال صوته إلى الرأي العام و دفع الإشاعات الكاذبه التي كان ينشرها خصومه عنه، فقد اضطر إلى التحصن في ناحيه "شاه عبد العظيم" قريبا من طهران و إصدار نشره يجلو بها الحقيقه و يوصل صوته إلى الرأي العام. و هذا بعض التفصيل:

في ٢٢ جمادى الآخره سنه ١٣٢١ عزل "مظفر الدين شاه" الميرزا "على أصغر خان أمين السلطان" (٣) من منصب المصدر الأعظم رضوخا منه لاصرار السفاره الإنكليزيه على طلب عزله. و في جمادى الآخره سنه ١٣٢٢. نصب "سلطان عبد المجيد ميرزا عين الدوله"، و هو من الأمراء القاجاريين، صدرا أعظم في مكانه.

و كان هذا على قدر كبير من الصلف و الكبرياء و حب الاستبداد و سوء التدبير. و كان الفساد السابق لا ينفك يتمادي حتى بلغ في عهده غايه بعيده من شيوع الرشوه و الظلم و الفقر.

و أبعد "عين الدوله" أنصار سلفه "أمين السلطان" و أصدقاءه الذين كانوا من أصحاب النفوذ في عهده، و منهم السيد "عبد الله البهبهاني"، فقد كان من أقرب المقربين إلى "أمين السلطان"، و كان يحول إليه الدعاوى المتعلقة بالدوله ليفصل فيها. و لكن "عين الدوله" أهمله و أوقف إرسال الدعاوى إليه، و أخذ يرد طلباته و توسطاته بجفاء و احتقار حتى قطعه عن كل نفوذ في شئون الدوله.

و صرف "عين الدوله" عنايته إلى من كانوا يخالفون "أمين السلطان". فإذا احتاج إلى مراجعه أحد من رجال الدين في أمر من الأمور رجع إلى الشيخ "فضل الله نوري" إذ كان أعلم من البهبهاني و سبق أن كان مخالفا ل "أمين السلطان". و كان "عين الدوله" يرجع أيضا إلى عالم آخر هو السيد "على أكبر تفرشى" أحد كبار رجال الدين.

و هكذا وقعت الخصومه بين السيد "عبد الله البهبهاني" و "عينه.

ص: ١٤٠

١- مجتهد من تلاميذ الميرزا "حسن الشيرازي" أيضا. كان من كبار زعماء المطالبين بالنظام النيابي. و أصبح نائبا في أول مجلس نيابي انتخب بعد إقرار هذا النظام.

٢- في أثناء حركه المطالبه بالنظام الدستوري النيابي و بعد إقامته تألفت في مختلف نواحي إيران لجان باسم "اللجان الشعبيه" بعنوان العمل على إقامه هذا النظام و المحافظه عليه.

الدوله". و تمادى هذا فى جبروته و طغيانه. و تحرك خصومه بزعامه البهبهانى لمقاومته.

و وقعت حوادث أخرى زادت فى نقمه الناس على "عين الدوله".

منها وقوع عراك بين طلاب مدرستين من المدارس الدينيه، كان أصله اختلافا بين إمام الجمععه و البهبهانى. و جرح فى هذا العراك بعض الطلاب فأمر "عين الدوله" باعتقال بعض الطلاب (1) فاعتقلوا و نفوا مصفدين إلى أردبيل. و رد "عين الدوله" شفاعه البهبهانى بهم على نحو مهين. و أحدث هذا العمل استياء عاما فى نفوس الناس. و هكذا أعلن "عين الدوله" بعدائه لرجال الدين. و كانت هذه الحادته ابتداء تصرفاته التى أثارت عليه الخواطر. و اعتصم جماعه من التجار فى مقام "عبد العظيم الحسنى" (رض) مده قليله، تعبيرا عن استيائهم منه.

و فى شهر شعبان سنه ١٣٢٣. راجع السيد "عبد الله البهبهانى" فريقا من العلماء رجال الدين و اقترح عليهم التعاون فى القيام بحركه معارضه قويه للحكومه. و كان أكثرهم استجاب له "السيد محمد الطباطبائى"، أحد مجتهدى طهران"، و كان شديد التحمس فى طلب الحريه و رفع الاستبداد.

و لكنه نبه السيد البهبهانى إلى أن القضيه ليست قضيه استبدال أشخاص بأشخاص، بل يجب أن يكون الطلب أبعد من هذا، و هو إنشاء "دار العدل" من ممثلين لمختلف الطبقات، لتقوم بتحقيق الإنصاف و دفع الظلم و الاستبداد. و تعاهد الرجلان على هذا الأمر على أن يكون الشعار المطالبه بعزل "عين الدوله" و إنشاء دار العدل. و من ذلك الحين أعلن البهبهانى و الطباطبائى، و معهما جماعه كبيره من العلماء و الخطباء بمعارضتهم للسلطه.

و كثر الحديث على المنابر و فى المجالس عن الحريه و العدالة و القانون.

و تحرك أنصار "أمين السلطان" كما اغتتمت السفاره الإنكليزيه و السفاره العثمانيه الفرصه، يناصرون حركه المعارضه هذه و يؤيدونها بكل ما يقدرون عليه من مناصره. فاما الإنكليز فلأن نفوذهم الاقتصادى و السياسى فى إيران كان قد أخذ فى التقلص من أواسط عهد "ناصر الدين شاه" إلى أن تلاشى تقريبا فى عهد "مظفر الدين شاه". و حل محله النفوذ الروسى. فأراد الإنكليز إضعاف الجهاز الحاكم و الأسره القاجاريه إذ تمادوا فى الاستسلام إلى الروس، و اكتساب موده زعماء حركه المطالبه بالنظام النيابى و من ورائهم أكثرية الايرانيين الغالبه، و من ثم توجيه الحكم فى إيران بما فيه مصلحتهم.

و أما العثمانيون فناصروا الحركه للحط من قدره الدوله الايرانيه باستهلاك هذه القدره فى المنازعات و الانشقاقات الداخليه فيسهل على العثمانيين الاستيلاء على الأقاليم الحدوديه المختلف عليها بين الدولتين. و كان تدخل الإنكليز و مساعدتهم بالقول و بالمال أمرا علينا صريحا.

و كان رئيس الجمارك فى إيران بلجيكيا اسمه "نوز" استخدم فى هذا العمل سنه ١٣١٦. و معه معاونون من البلجيكيين. و كان عميلا للروس، أفاد اقتصادهم كثيرا فى تعيين مقدار التعريفات الجمركيه و العمل على تهيئه قروض منهم لايران فى مقابل امتيازات، و أضر بالانكليز. و عثر السيد "عبد الله البهبهانى" على صورته ل "نوز" هذا و أحد معاونيه و هما فى لباس رجال الدين الايرانيين، و كانا قد ارتديا هذا الزي فى حفله رقص تنكريه.

فجعل السيد البهبهاني يعرض هذه الصورة من على المنابر على أنظار الناس فيهيح خواطرهم استنكارا لاهانه الدين و رجاله بهذا العمل، و يذكر ما ألحقه "نوز" بالاقتصاد و الايراني من أضرار، فكان لبياناته أثر كبير في نفوس الناس، و قامت مظاهرات مضاده ل "نوز" تطالب بعزله (٢) في شهر المحرم سنة ١٣٢٣.

و أرسل "السيد محمد الطباطبائي" رسائل إلى "مظفر الدين شاه" بين له فيها ما يحل بالناس من ظلم و فقر و انحطاط، و ناشده إنقاذ بلاده من هذا الشر. و لكن "عين الدوله" كان يمنع وصول هذه الرسائل إلى الشاه.

و اتفق أن غلا سعر السكر في تلك الأيام و انقطع وروده من روسيا بسبب حربها و اليابان و احتكر التجار ما عندهم منه و وقع الناس في ضيق و شكوا أمرهم إلى "علاء الدوله" حاكم طهران. فأمر هذا بجلد ثلاثة من تجار السكر جلدا شديدا و أمر موظفيه بمصادره ما عند التجار من السكر.

فاستغل أيضا هذا الحادث و استياء التجار منه مخالفو الدوله. و أضرب السوق في اليوم الثاني، يوم ١٤ شوال سنة ١٣٢٣. و تقاطر التجار إلى "مسجد الشاه"، و هو من أكبر مساجد طهران، و انضم إليهم فريق من العلماء، و أعلنوا بصوت واحد مطالبتهم بعزل "علاء الدوله" حاكم طهران. و لكن الحكومه ازدادت عتوا و تمسكا بخطتها. فذهب "السيد عبد الله البهبهاني" و جماعه من العلماء إلى مقام "عبد العظيم الحسنی" (رض) القائم في بلده "الري" بظاهر طهران فتحصنوا فيه، و صحبهم جمع كبير من الطلاب.

و قام التجار بمظاهرات متصله تأييدا لهم. و أضرب السوق. و ما زال عدد المتحصنين يزداد يوما بعد يوم بمن يلحق بهم. و هناك دأبوا على مهاجمه السلطان الحكوميه بخطب ناريه و إثارة الخواطر بذكر أعمال "نوز" البلجيكي و مظالم موظفي الدوله. و كانوا يطلبون عزل حاكم طهران "علاء الدوله" و طرد "نوز" و إنشاء "دار العدل" (٣) و ثبت "عين الدوله" في موقفه لا يهادن و لا ينفك يهدد و يتوعد و أحيانا يعد و يطمع، و لكن ذلك لم ينفعه بشيء.

و أرسل إليهم "مظفر الدين شاه" مندوبا عنه يفاوضهم على المصالحة فلم يحصل على نتيجة (٤). و بعد انقضاء شهر على تحصنهم حصلوا من الشاه على جواب إيجابي فعادوا إلى طهران في ١٦ ذى القعدة سنة ١٣٢٣. و كانت عودتهم في العربات الملكيه الخاصه بالشاه. و اجتمعوا بالشاه و "عين الدوله" في أحد القصور الملكيه. و زينت طهران لهذه المناسبه. و بادر الشاه إلى عزل "علاء الدوله" من حكومه طهران. و لم يلبث "نوز" أن استقال و عاد إلى بلاده...

ص: ١٤١

١- كان عدد الذين صدر الأمر باعتقالهم ثلاثة عشر طالبا. و قد تشاءم الجنود المأمورون باعتقالهم من هذا الرقم فاضافوا إليهم طالبا آخر بريئا لا ذنب له ليتخلصوا من الرقم المنحوس.

٢- لا بد هنا من ذكر ما نبه إليه أحد المؤرخين، و هو أن "نوز" مضى عليه ست سنوات في هذا المنصب، إذ تولاه في أوائل صدره "أمين السلطان" الثالثه. و في كل هذه المده كان يضر بالاقتصاد الايراني و ينفع الاقتصاد الروسي، و مع ذلك لم يحرك أحد ممن ثاروا عليه اليوم ساكنا للاعتراض عليه! هذا و قد استقال "نوز" من عمله بعد مده قليله من هذه الحوادث و عاد إلى

بلاده.

٣- عدالت خانه.

٤- لما سمع "مظفر الدين شاه" أن ذلك الفريق من رجال الدين يطلب إنشاء "دار العدل" قال: السيد محمد و السيد عبد الله و رفاقهم الروحانيون يطلبون إنشاء دار العدل. و لكن دار العدل إذا أنشئت فسيكون أول أعمالها إلزامهم بيوتهم و إغلاق أبوابها عليهم..

و لكن الشاه و "عين الدوله" سكتا عن موضوع "دار العدل" و مضت شهور و هما يتجاهلان هذا الموضوع. فبعث العلماء برسالة إلى الشاه يطلبون الوفاء لهم بوعده فلم يجبههم. فبعث "السيد عبد الله البهبهاني" برسالة إلى السفارة الإنكليزية يستنجد بها.

و في يوم ١٨ جمادى الأولى سنة ١٣٢٤ تكلم على منبر أحد المساجد خطيب شهير محمود السيره اسمه "الشيخ محمد سلطان المحققين" فانتقد "عين الدوله" انتقادا شديدا، فاعتقل و أوقف في إحدى الثكنات، فهاجم الطلاب و غيرهم من الأهالي الثكنه، و أطلق الجند عليهم الرصاص فقتل اثنان من الطلاب أحدهما اسمه "السيد عبد الحميد" و الآخر "الشيخ محمد" و جرح آخر اسمه "أديب المجاهدين". فضجت المدينة بالثوره و أغلقت الأسواق و تقاطر التجار و غيرهم أفواجا إلى المسجد الجامع. و حضر "السيد محمد الطباطبائي" و "السيد عبد الله البهبهاني" و "الشيخ فضل الله نوري" و غيرهم من العلماء و قرروا التمسك بمطلب إنشاء "دار العدل" و عزل "عين الدوله".

و في العشرين من جمادى الأولى من تلك السنه كانت طهران مجلله بمظاهر الحداد على الطالبين القتيلين و مواكب العزاء تتوالى طائفه في أنحاء المدينة تلطم الصدور. و العسكر الحكومى منتشر فيها يراقب الأوضاع. ثم تصادم الأهالي و العسكر في عراقك شديد قتل و جرح فيه أكثر من مائه و عشرين رجلا. فعم المدينة غضب عظيم. و قرر "السيد محمد الطباطبائي" و "السيد عبد الله البهبهاني" و غيرهم من كبار العلماء المهاجره إلى قم فغادروا طهران في ٢٤ جمادى الأولى من تلك السنه. و بعد يومين لحق بهم "الشيخ فضل الله نوري". و كان لالتحاقه بهم أثر كبير في تقويتهم و إضعاف موقف الحكومه. و أرسل السيد البهبهاني ساعه سفره رساله أخرى إلى السفارة الإنكليزية طلب فيها إدامه المساعدة منها لهم. فأرسلت إليه السفارة جوابا إيجابيا مطمئنا. و أمر مشيعيه من الطلاب و التجار بالتحصن في السفارة الإنكليزية. فابتدءوا التحصن يوم ٢٣ جمادى الآخرة سنة ١٣٢٤. مساء، و هم تسعه نفر. و لكنهم أخذوا يزدادون شيئا فشيئا من جميع الطبقات حتى بلغ عدد المتحصنين خمسه آلاف في خلال بضعة أيام، يطلبون كلهم عزل "عين الدوله".

و في أثناء هذه الأحداث كان الاضراب العام و التظاهرات تشمل المدينة يوميا، مطالبه بعزل الصدر الأعظم. و كان فريق كبير من العلماء قد لحق بالمهاجرين إلى قم من النجف و أصفهان و نواحي أخرى من إيران. فاضطر "عين الدوله" إلى الرضوخ و نشر مرسوم ملكيا بإنشاء "دار العدل" التي يطالب بها الرأى العام. و لكن المعارضين كانوا قد بلغوا من القوه بحيث تجاوزوا هذا الطلب إلى أبعد منه، إلى طلب النظم النيابي الدستوري، فلم يقنعوا بهذا المرسوم و استمروا في المعارضه حتى حصلوا على طلبهم الأبعد.

و كان لتأييد السفارة الإنكليزية لهم أثر كبير في تثبيتهم و إصرارهم. من ذلك برقيه أرسلت باسم المتحصنين في السفارة إلى ملك إنكلترا و جاءهم الجواب عليها بتأييد الملك لهم و عطفه على حركتهم و أن السفارة أمرت بمساندتهم و تشجيعهم.

و كذلك رأى فريق من أصحاب النفوذ و رجال البلاط أن مصلحة الشاه في عزل "عين الملك". منهم "محمد علي ميرزا" ولى العهد و "كامران ميرزا" أخو الشاه و "حضرت عليا" زوجة الشاه. و أرسل الأول من تبريز برقيه إلى أبيه نصحه فيها بالاستجابة لمطالب العلماء. و قال فيها: لا يجوز القضاء على أمه إكراما لرجل واحد! و أطلعت زوجته على ما أخفاه عنه "عين الدوله" من وقائع. و أقدم أخوه "كامران ميرزا"، بدون علم الشاه، على إرغام "عين الدوله" بالتهديد و الخشونه على الاستقالة فاستقال في التاسع من جمادى الآخرة سنة ١٣٢٤ و نصب الشاه "الميرزا نصر الله خان مشير الدوله" صدرا أعظم في مكانه. و أذاع هذا نبا

موافقه الشاه على إنشاء المجلس النيابي. و عاد المهاجرون من قم و خرج المتحصنون من السفاره الإنكليزيه.

ثم أقيم النظام النيابي و استمر قائما إلى يوم الثلاثاء ٢٤ جمادى الأولى سنة ١٣٢٦. إذ ألغاه "محمد على شاه" و ضرب المجلس بالمدافع. ثم انتصر طلاب النظام النيابي و دخلوا طهران بالحرب يوم الثلاثاء ٢٤ جمادى الآخرة.

سنة ١٣٢٧. و عادت الحياه النيابيه مره أخرى.

فى أثناء هذه الأحداث العامه انفسح المجال للمنظمات الارهابيه و الحركات السريه المشبوهه و عملاء الاستعمار الانكليزى و الهراطقه و أهل البدع لاستغلال حركه المطالبه بالنظام النيابي و الانحراف بها عن غايتها إلى غاياتهم. فاندس فى أوساط الحركه البايون و الأزليون (فرقه من البابين) و الماسونيون و أنشئت جمعيات سريه تناصر الحركه بعناوين مختلفه. و تطوع فيها مسلحون من حزب "الطاشناق"، الحزب الأرمنى الارهابى الشهير، و مسلحون من اليساريين الارهابيين الروس و القفقاسيين و الكرج. و ناصرها خانات البختاريين، لا حبا بالدستور و النظام النيابي فمثل هؤلاء أبعث الناس عن الديمقراطيه و مفاهيمها، بل انسياقا مع الإراده الإنكليزيه، إذ كان الإنكليز قد رشوهم بمنحهم أسهما فى شركه النفط الإنكليزيه التى حصلت فى زمن "مظفر الدين شاه" على امتياز باستنباط النفط فى جنوب إيران و غربها، فجعل البختاريون يغيرون على منشاتها و معداتها، و هى قائمه فى أرضهم، يسرقون و يخربون. فرشتهم الشركه بمنحهم أسهما فيها لتأمن شرهم. و من ثم انقادوا فى طريق الإنكليز. يضاف إلى هذا حقد البختاريين على القاجاريين و اعتقادهم أنهم أحق بالملك منهم.

و حسبك دليلا- على انحراف حركه المطالبه بالنظام النيابي هذه أن كان "يفرم" (١) الأرمنى من أكبر قادتها و فى رأس الموجهين لها، و مثله الارهابى "رستم" ممثل حزب الطاشناق الأرمنى أيضا، و الجاسوس الانكليزى "بانف" (٢) و الارهابى القفقاسى "حيدر عمو أوغلى".

و "يفرم" الأرمنى هذا ظل مدة ثلاث عشره سنه (من قدومه إلى إيرانسنه ١٣١٧ إلى مقتله سنه ١٣٣٠) دأبا على تمكين حزب الطاشناق فى إيران و صنع الأسلحه و المتفجرات سرا و تدبير أعمال الاغتيال و القتل و الإرهاب.

و فى سنه ١٣٢٧، حين بدأت حركه الثوره على "محمد على شاه" بعد ضربه المجلس النيابي سنه ١٣٢٦، قام "يفرم" باعمال فظيحه من القتل و النهب و السلب و الحريق، بدأها من رشت. و أوقع باهالى قزوین مذبحه.

ص: ١٤٢

١- أحد زعماء حزب الطاشناق. جاء إلى تبريز سنه ١٣١٧ بامر من حزبه و أقام فيها، و أسس فروعاً لحزبه فى نواحى مختلفه من إيران. قتل فى ٢٤ جمادى الأولى سنه ١٣٣٠ و هو يقوم باحدى المجازر التى كان يوقعها بالأبرياء.

٢- "بانف" بلغارى الأصل روسى الجنس، عضو "الحزب الاشتراكى الديمقراطى" الروسى الثورى. و كان أيضا جاسوسا للانكليز. كان يقيم فى "بترسبورغ". فلما بدأت حركه الثوره على "محمد على شاه"، بعد ضربه المجلس النيابي، غادر "بترسبورغ" مسرعا إلى "جیلان"، و شارك "يفرم" فى حركات الإرهاب.

عظيمه و أحرق و نهب و خرب شيئا كثيرا من الدور و الأموال فيها. و هو الذى أمر بقتل المجتهد السيد مسعود شيخ الإسلام فى قزوین. و بعد استشهاد "الشيخ فضل الله النورى" ببضعه أشهر سار "يفرم" إلى زنجان لاختضاع أنصار الشاه المخلوع، قائدا لجيش يتألف من خمسمائه فارس من البختياريين و مائتين من عسكر القوزاق و مائتين من الأرمن و القفقاسيين و الكرج، و معه أيضا ضابطان ألمانيان. فلما تغلب على المعارضين أراد أن يقتل عالم زنجان المجتهد "الملا قربان على" و لكن الحكومه، و قد أحست بالنقمه العامه التى أحدثها مقتل "الشيخ فضل الله النورى"، منعتة من قتله و أمرت بإرساله إلى طهران. إلا أن "يفرم"، مع ذلك، قتل جماعه من رجال "الملا قربان على" و قتل معهم بضعه رجال آخرين بتهمه معارضه النظام النيابى.

و بعد خلع "محمد على شاه" و سيطره "المجاهدين" (١) على طهران عين "يفرم" رئيسا لشرطه طهران. فجمع فيها أتباعه و رجاله و تجبر و طغى فى التنكيل بمخالفى المجلس النيابى فسجن فريقا منهم و قتل فريقا آخر.

و أصر على قتل "الشيخ فضل الله نورى" أعلم و أتقى علماء المسلمين الايرانيين يومئذ. فقتل بحكم محكمة تشكلت من جماعه من المستهترين و الإمعات و الجبناء، حكمت عليه بأنه "واجب القتل مفسد فى الأرض"، انصياعا منها لاصرار "يفرم".

و لو كان قتل "الشيخ فضل الله" غيره من رئيس شرطه طهران "يفرم" و رفاقه على النظام النيابى، لما أطلق سراح الارهابى المأجور "حيدر عمو أوغلى" بعد أن اعتقل لقتله "السيد عبد الله البهبهانى"، و البهبهانى لم يكن "واجب القتل" و لا "مفسدا" فى الأرض بحسب مقاييس "المجاهد" "يفرم" و أعضاء محكمته، بل كان أبرز شخصيه بين مؤيدى النظام النيابى و فى رأس المكافحين لتحقيق هذا النظام؟!.. و هو، إلى ذلك، نائب فى المجلس (٢) و هنا يتضح جانب من حالات التشويش و التشتت فى حركه المطالبه بالنظام النيابى، تلك الحالات التى أدركها "الشيخ فضل الله النورى" و استنكرها ثم بذل حياته من أجل تفاديها. فالبهبهانى، مع كل أخطائه، يظهر أنه كان يسعى إلى قيام نظام نيابى صحيح. و من الأدله على ذلك قيام حركه مناهضه له من النواب المشبوهين فى داخل المجلس. و لكنه بقوه بيانه و حيويه نشاطه و ماضيه الحافل كان يقدر غالبا على اكتساب الأكثريه إلى جانبه و إلزام معارضيه حدودهم و صدهم عن غاياتهم التخريبية. فالمؤامره على البهبهانى لم تبدأ من "حيدر عمو أوغلى" بل بدأت من المجلس نفسه، و كان "يفرم" شريكا فيها، أو، على الأقل، عالما بها. و قد قيل هذا القول صراحه فى المظاهرات التى قامت استنكارا لحادث الاغتيال. و وقعت حوادث انتقام قتل فيها بعض أنصار النائب "السيد حسن تقى زاده"، و هو المتهم الأول بتدبير المؤامره. و كان هذا قبل عشرين يوما من حادث الاغتيال قد طلب من المجلس إجازته بالتغيب ثلاثه أشهر، و بعد ذلك لم يجرؤ على الظهور و اختبأ فى منزل أحد أصدقائه بضعه أسابيع ثم سافر إلى تركيا و منها إلى أوروبا.

إن "حيدر عمو أوغلى" و حاميه "يفرم" الأرمنى كانا معدودين من رؤساء "المجاهدين" و قادتهم و أبطالهم. و "السيد حسن تقى زاده" نائب مرموق فى المجلس. و "السيد عبد الله البهبهانى" ركن شامخ من أركان الحياه النيابيه، و رائد شجاع من روادها. فما عدا مما بدا حتى تامر أولئك عليه و قتلوه؟! أصبح "يفرم" فى رئاسه الشرطه دكتاتور طهران يفعل ما يشاء. و كان من جمله أعماله أنه ألغى بضع إدارات من دوائر الشرطه و أغلق أبوابها و طرد موظفيها منها بالركل و الصفع. فعل ذلك من نفسه من غير أن يراجع رؤساءه.

و أمر أحد الوزراء الشرطه باغلاق بعض مؤسسات العدليه. فأرسل "يفرم" جماعه من رجال الشرطه لاغلاقها. و طلب قضاء المؤسسه اطلاعهم على الأمر الرسمى بالاغلاق. فغضب "يفرم" و عد طلبهم وقاحه و أمر بتوقيفهم و أغلق المؤسسه بالقوه.

و في أثناء هذه الأعمال و أمثالها كان "يفرم" لا- ينفك مهتما بتشكيلات حزب "الطاشناق" (٣) و جلب أعضاء جدد إليه يختارهم من رفاقه المجريين في مجال الإرهاب و الطاعه العمياء.

و جاء إلى دائره الشرطه مفتش من وزاره الماليه يوما و معه أمر رسمي خطى من الوزير بالتفتيش في حساب صندوق الشرطه. فاخذ "يفرم" ورقه الأمر فمزقها و ضرب المفتش و طرده فخرج و قد أصيب بجروح و رضوض في جسمه.

و أخذت صحف و نشرات مختلفه تهين صراحه المقدسات الدينيه و تسخر بالإسلام، و كلها تدعى لنفسها نسبا يتصل بالنظام النيابي و المطالبه بالنظام النيابي.

لم تقتصر الحركه الدستوريه النيابيه على طلاب الإصلاح و الشبان البريئين المتعطشين إلى الحريه و العداله بل شارك فيها جماعات من المغرضين و ممتهني الإرهاب و عملاء الأجانب و الماسونيين و البابين و الأزليين. و كان في جملة أغراض البابين الانتقام من الأسره القاجاريه لسابقه مقاومتها لهم و انتقام "ناصر الدين شاه" منهم بعد أن حاولوا اغتياله. و كانوا أيضا يتلهفون متطلعين إلى أن تحقق هذه الحركه ما وعدهم به مؤسس بدعتهم "على محمد الباب" في كتابه المسمى "البيان"، و هو كتابهم المقدس. و هو أن أعداء "البيان" سيصيرون إلى الذل و ينتصر أتباع الباب و يتحقق سلطان "البيان" قبل انقضاء خمس و ستين سنه على ظهور "البيان" (ظهر سنه ١٢٦٣ هـ. ق).

هذه هي، بالإجمال، الملابس التي جعلت "الشيخ فضل الله نوري" ينفصل في سنه ١٣٢٥. في عهد "محمد علي شاه" عن رفيقه "السيد عبد الله البهبهاني" و "السيد محمد الطباطبائي" و الاعتزال في ناحيتها.

ص: ١٤٣

١- أطلق المسلحون من طلاب النظام النيابي على أنفسهم اسم "المجاهدون". حتى الأرمن و الكرج كانوا يسمونهم و يتسمون بهذا الاسم، فيقال "المجاهدون الأرامنه" و "المجاهدون الكرج" إلخ.. و نحن نستعمل هذا الاسم حكاية.

٢- السيد عبد الله البهبهاني اغتاله الارهابي القفقاسي "حيدر عمو أوغلي" و ثلاثه آخرون من رفاقه، في منزله بين صلاه المغرب و العشاء، يوم الجمعه ٨ رجب سنه ١٣٢٨ و اعتقل "حيدر" هذا و لكن "يفرم" سعى في إطلاقه و منع محاكمته فاخلى سبيله!

٣- بعد مقتل "يفرم" لم يلبث حزب "الطاشناق" أن انحل و تلاشى و أخذ رجال "يفرم" يغادرون إيران شيئا فشيئا حتى لم يبق منهم أحد فيها.

"شاه عبد العظيم" (الرى) .و لم تكن حركته هذه ارتدادا عن المطالبه بالنظام الدستورى النيابى، بل خطه تصحيح لهذه الحركه و صيانه لها من الانحراف بها إلى ما يخالف غايتها النبيله.

و لم يكن هو وحده من رأى هذا الرأى بل تابعه عليه آخرون من كبار المجتهدين المؤيدين للنظام النيابى العاملين على تحقيقه، منهم "السيد ريحان الله البروجردى" و "السيد على آقا اليزدى" من علماء طهران. و تابعه أيضا عالم شهير آخر عرف بالشجاعه و الاقدام، اسمه "مير هاشم شتربانى" من علماء آذربيجان، و كان من السابقين إلى المطالبه بالنظام النيابى و العمل على إقامته و أصبح نائبا عن تبريز. و لكن هؤلاء الثلاثة و غيرهم من كبار العلماء لم يلبثوا أن تبينوا ما خالط هذه الحركه من انحرافات منكره فاتخذوا سبيل الشيخ النورى لوقايتها و صيانتها.

بل إن مراجع التقليد الثلاثة فى النجف، و قد كان لهم السهم الأوفى فى إقامة النظام الدستورى النيابى فى إيران، و هم "الآخوند الملا محمد كاظم الخراسانى" و "الملا عبد الله المازندرانى" و "الميرزا حسين الطهرانى"، عادوا فاستدركوا تأييدهم لهذا النظام بالتنبيه إلى ما نبه إليه "الشيخ فضل الله النورى" و استنكار ما استنكره، و أبدوا تخوفهم من مستقبل النظام النيابى فى إيران. و يظهر هذا الأمر جليا من بيان أرسلوه من النجف إلى إيران، و هذا نصه:

"إذ أن بعض فرق المملكه الفاسده اغتتمت الفرصه فأظهرت مقاصدها الفاسده فى لباس دستورى نيابى بدعوى أنها من طلاب النظام الدستورى النيابى، فنحن نعلن، توضيحا للواضح، أن حقيقه النظام الدستورى النيابى هى عدم تجاوز الحكومه و الشعب للقوانين المنطبقه على الأحكام العامه و الخاصه المستفاده من الكتاب و الأحكام الالهيه، و تقييد الإراده الفرديه، و المنع من المنكرات التى بينها الإسلام، و صيانه حوزة المسلمين، و إنفاق الضرائب فى سبيل مصالح المسلمين".

و جاء فى هذا البيان أيضا تأكيد بان "نواب الأئمه يجب أن يكونوا ممن عرفتهم الأئمه، بالاختبار الطويل، بالأمانه و الديانه و الوثاقه و الدرايه".

و فى الرساله التى أصدرها "الشيخ فضل الله النورى" فى هذا الموضوع نبه صراحه إلى ما نبه إليه بيان المراجع الثلاثة من مداخلات أهل البدع الدينيه و تحريكات السياسه الأجنبيه فى شئون حركه المطالبه بالنظام الدستورى النيابى.

و يتصل بهذا الموضوع أن "السيد محمد الطباطبائى" نفسه لما بلغه، و هو مهاجر فى قم، نبا تحصن التجار فى السفاره الإنكليزيه بامر من السيد عبد الله البهبهانى، استنكر هذا التحصن و لم يكن راضيا به.

اعتزل "الشيخ فضل الله نورى" و أنصاره فى "شاه عبد العظيم" و أخذ يوزع نشرته و يلقي خطبه ليدفع عن الحركه الدستوريه النيابيه دسائس عملاء الأجانب و المخربين من أهل البدع و الحركات السريه المشبوهه و يوضح... و مقاصده ما طمسه هؤلاء الخصوم. و هذا نص أحد البيانات التى صدرت فى نشرته منقولاً عن كتاب "تاريخ مشروطه" تأليف "أحمد كسروى" (1)، و هو من أشد خصوم الشيخ "فضل الله نورى" عداوه له: باسمه تعالى شأنه "ليكن معلوما ظاهرا عند عموم أهل الإسلام أن لا أحد اليوم يرفض المجلس النيابى، لا- من المجتهدين و لا من غيرهم من سائر الطبقات. و ما يقوله و يكتبه و ينشره أرباب الحسد و أصحاب الغرض من أن جناب حجه الإسلام و المسلمين الحاج الشيخ فضل الله سلمه الله تعالى يرفض المجلس النيابى هو

كذب. كذب. و قد كرر الجهر و الإعلان بمراده من على المنبر فى أيام إقامته هذه فى الزاويه المقدسه، و أخرج القرآن و أقسم بالآيمان الغلاظ الشداد. و قال:

"أيها الناس لست أرفض المجلس النيابى بوجه من الوجوه. بل أرى أن سعى فى تأسيس هذا الأساس قد فاق سعى الجميع. فقد كان علماؤنا الكبار الذين يجاورون العتبات العاليات و المقيمون فى ممالك أخرى بمعزل عنا. ثم انضموا إلينا كلهم بما أقمته لهم من الدلائل و البراهين. و يمكنكم التحقق من هذا الأمر بسؤال أولئك الساده العظام أنفسهم. و الآن لا أزال ذلك الرجل الذى كتته قبلا. لم أغير و لم أبدل.

"أقولها صريحا: ألا فاسمعوا و ليبلغ الحاضر الغائب، أن المجلس النيابى الذى أريده هو المجلس الذى يريده عموم المسلمين. و المسلمون يريدون مجلسا أساسه الإسلام، لا يخالف القرآن و لا الشريعه المحمديه."

و هذا مقطع من أحد بياناته فى تلك النشره منقولاً أيضا عن كتاب عدوه اللدود "أحمد كسروى":

"لا رضى الله تعالى عن امرئ أراد بالمجلس النيابى شيئا غير التصحيح و التكميل و التنقيح. و لينزل السخط و الغضب الالهى بكل من أذاع مرادى على غير واقعه، فدلس على المسلمين و ضللهم، و سد علينا من كل الجهات الطريق إلى رفع الشبهه، ليحول دون إيصال كلامنا إلى أسماع المسلمين، و ليحمل الناس على التصديق بانى و سائر المهاجرين قد رفضنا أصل المجلس النيابى."

و الذى رمى الشيخ "فضل الله نورى" بالرجعيه و الارتداد عن تأييد الحياه النيابيه الدستوريه إنما هو المستشرق الانكليزى "إدوار براون"^(٢) مؤلف كتاب "ثوره إيران". و قد ظل الشيخ "فضل الله نورى" فى خطبه و تصريحاته و بياناته التى كان ينشرها فى جريدته، دائبا على الجهر بتأييده للحياه النيابيه الدستوريه و الافتخار و التذكير بأنه كان من أوائل المنادين بها العاملين على إقامتها. و قد ذكر "أحمد كسروى" فى كتابه نصوص تلك الخطب و التصريحات و البيانات.

و أما قضيه تزوير الرسائل على ألسنه أعضاء اللجان الشعيه و البابين.

ص: ١٤٤

١- من مشاهير الشخصيات الفكرية و السياسيه فى إيران و من مؤرخى تلك الحقبه، كان شديد التعصب لقوميته، حربا على الإسلام و رجال الدين المسلمين و لا سيما الشيخ "فضل الله نورى". و كان (كسروى) قبل رده يوقع ما يكتبه باسم (سيد أحمد تبريزى). و قد نشر بهذا التوقيع عدده مقالات باللغه العربيه فى مجله (العرفان) و هى مجله إسلاميه كانت تصدر فى صيدا (لبنان). ثم انقلب من (تبريزى) إلى (كسروى) و من سيد مسلم إلى ملحد هدام. و كانت رده هذه من عوامل دفع نواب صفوى إلى تكوين حركه (فدائيان إسلام) التى عزم مؤسسها (نواب صفوى) على اغتياله، ثم نفذ هذا العزم.

٢- أنشا "إدوار براون" هذا فى لندن "جمعيه أصدقاء إيران" و كان رئيسا لها. و كان لهذه الجمعيه نشاط سياسى واسع فى تحقيق مارب إنكلترا الاستعماريه فى إيران.

فقد انفرد بذكرها أيضا "إدوار براون" في كتابه "ثوره إيران". و الشيخ "فضل الله" في عزه نفسه و شموخه و شجاعته و عرفانه و سمو مكانته أجل من أن يتذرع إلى غايه بمثل هذه الوسيله التي لا يتذرع بها غير الدسائين العاجزين الجبناء.

و انفرد "براون" أيضا بالقول إن الشيخ "فضل الله" انفصل عن السيد "عبد الله البهبهاني" و السيد "محمد الطباطبائي" حسدا منه لهما. و هو قول مردود بقول "براون" نفسه. فهو يعترف بان الشيخ النورى كان أعلى منهما مرتبه و أسمى مكانه، و سابقته فى الكفاح من أجل إقامه الحياه الدستوريه النيابيه لا تقصر عن سابقتهما. فان يكن للحسد حساب فى هذه القضيه فالعكس هو الأقرب إلى الاحتمال. و لو كانت تطلعات الشيخ "فضل الله" إلى مغنم دنويه و غايات وصوليه انتهائيه لما داناه أحد فى الوصول إليها.

لا- شك فى أن ما ذكره "براون" كان شائعا على ألسن الناس. بل لعل ما ذكره "براون" إنما أخذه من ألسن الناس بدليل نقله فى كتابه شيئا من هذا القبيل عن إحدى الصحف المحليه، و بدليل أن البيانات التي كان الشيخ "فضل الله" يصدرها فى نشرته لا ينفك يتدمر فيها من نشر خصومه إشاعات كاذبه عنه بين الناس. و لكن ما ذكره "أحمد كسروى" عدو الشيخ "فضل الله" اللدود فى كتابه "تاريخ مشروطه" من وقائع تلك الأيام يثبت، بما لا يدع مجالا لشك، أن نضال الشيخ "فضل الله" إنما كان يتوخى غايه واحده هى تنزيه المجلس النيابى من الانحراف و صيانته الإسلام من شر أعدائه.

و أما الفتوى بان الشيخ "فضل الله" مفسد يحرم الرجوع إليه التي نسبوها إلى مراجع الدين النجفيين فالعكس هو الصحيح. فقد كان هؤلاء المراجع يطلبون ما يطلبه الشيخ "فضل الله" من صيانته المجلس النيابى من الانحراف. و قد ذكرنا آنفا بيانهم الذى أرسلوه من النجف إلى إيران فى هذا الموضوع. و قد أرسلوا أيضا برقيه إلى المجلس ذكروا فيها مطلبهم هذا، و اختاروا الشيخ "فضل الله" نفسه واسطه لإيصالها إلى المجلس. و ذلك قبل مهاجرته إلى "شاه عبد العظيم". و قد استهلوها بهذه العبارة:

"من النجف الأشرف - بواسطة جناب حجه الإسلام نورى، دامت بركاته - المجلس النيابى المحترم شيد الله أركانه".

و أرسل الشيخ "فضل الله" هذه البرقيه إلى رئيس المجلس. و لكنه أهملها و لم يعتن بها. و على أثر ذلك اضطر الشيخ "فضل الله" إلى التحصن فى "شاه عبد العظيم". و هذه الواقعة ذكرها أيضا "أحمد كسروى" خصم الشيخ النورى اللدود فى كتابه. و ذكر معها نص البرقيه.

و لو صح أن المراجع النجفيين أرسلوا برقيه حكموا فيها بان الشيخ "فضل الله" مفسد يحرم الرجوع إليه لما أغفل ذكرها قضاته الذين حاكموه و حكموا عليه بالموت. و لكنت أقوى سلاح بيدهم عليه. فلما ذا أغفلوها و لم يأتوا لها على ذكر؟!.

و كانت أمثال هذه الافتراءات تسبب لهذا الرجل الطاهر ألما شديدا تجلى فى صرخه أطلقها فى بيان من بياناته التي كان يطبعها فى نشرته، و ذكرها عدوه اللدود "أحمد كسروى" فى كتابه. قال مخاطبا خصومه مؤنبا لهم على زورهم: "يا أتباع الهوى و الهوس لما ذا تحرفون صوت العلماء، صوت الحق، و تلقونه إلى العوام باطلا؟! و تدخلون بين الناس السذج كالشياطين؟! و لا تنفكون تخفون برقيات سادات النجف و حجج إسلامها أو تغيرونها و تطبعونها مزوره؟! الخ.

و فى هذه الكلمه تصريح واضح بالشكوى من افتراء خصومه عليه، و تصريح بان تلك البرقيه التي نسبوها إلى علماء النجف و

فيها فتوى بأنه مفسد يحرم الرجوع إليه هي برقيه مزوره.

أقام "الشيخ فضل الله نوري" و أتباعه معتصمين في "شاه عبد العظيم" بضعه أشهر. فلما قتل رئيس الوزراء الأتابك "على أصغر خان أمين السلطان" في ٢١ رجب سنة ١٣٢٥. عند باب المجلس النيابي، عاد "الشيخ فضل الله" فوراً إلى منزله في طهران، و كذلك عاد أتباعه، إذ كان لمقتل الأتابك تأثير سلبي في معارضي المجلس النيابي خفف كثيرا من اندفاعهم في المعارضه، فقد كان الأتابك متهما عند مؤيدي المجلس بأنه معارض له، حتى أن أهله لم يجرءوا على إقامه فاتحه عامه له، على حين قام فريق من طلاب بعض المدارس و فريق من أعضاء اللجان الشعبيه بإظهار التعظيم و التقدير لقاتله و نشروا الزهور على قبره. و شاع أن الأتابك كان يمد الشيخ "فضل الله" بالمال اللازم لنفقاته حين كان معتصما في "شاه عبد العظيم".

في الحقبه التي انفصل فيها الشيخ "فضل الله نوري" عن أنصار المجلس النيابي كان وضع المجلس نفسه و ما يلابسه من حركات المعارضه للنظام النيابي و حركات التأييد له قد بلغت حدا بعيدا من البلبله و التشعب، ما بين تنافس كبار النواب على الاستئثار بالسلطه، و دسائس الأمراء و تنافسهم على العرش، و غفله العامه و تخلفهم الفكري، و من اندس في أوساط هذا الصراع العنيف الدامي من أهل البدع الدينيه كالبايين و الأزليين و الحركات السريه الأجنبيه كالماسونيين و أصحاب الغايات الشخصيه. كل أولئك قد استغل موضوع النظام النيابي لانفاذ ماره الخاصه. و كان فريق من المفكرين يرى، مخلصا، أن النظام النيابي ثمره اقتطفت قبل نضجها، و أنه أقيم في إيران قبل أوانه و قبل تهيئه مقدماته، و أن قله ضئيله من النواب كانت على درايه بمقتضيات هذا النظام، و علم بمجرى الوقائع من السياسه العالميه. و أكثرتهم لا تفقه من ذلك شيئا.

و فوق هذا كانت دسائس الإنكليز و الروس و العثمانيين تزيد الفتنه شده و امتدادا. و من ثم انحرف المجلس القائم كليا عن غايته الأصلية.

كانت المنافسه القديمه بين الإنكليز و الروس على النفوذ في إيران يومئذ على أشدها. و كان هوى الشاه "محمد على قاجار" و هوى الأتابك رئيس الوزراء "على أصغر خان" مع الروس. و كان الإنكليز يؤيدون أنصار النظام النيابي، و الروس يؤيدون معارضيه. و كان الشاه غير راض عن سلوك المجلس النيابي أما رئيس وزرائه فكان يدارى موضوع هذا النظام بتحركات دبلوماسيه بين مؤيدي المجلس و معارضه لعله يجد مخرجا من هذه الأزمه يوفق بين الطرفين (١) و لكنه كان متهما، منذ القديم، عند مؤيدي المجلس.

ص: ١٤٥

١- أنهت إنكلترا و روسيا ما بينهما من خلاف على إيران بمعاهده و قعتها في ٣١ آب سنة ١٩٠٧ م الموافق ٢١ رجب سنة ١٣٢٥ هـ و تقاسمتا فيها إيران، لكل منهما قسم تستقل بالنفوذ عا [عاش من] غير تنافس بينهما. و من عجب أن توقيع هذه المعاهده حدث في نفس اليوم الذي اغتيل فيه الأتابك "على أصغر خان" رئيس الوزراء الإيرانيه صديق روسيا.. و في يوم الثلاثاء ٢٣ جمادى الأولى سنة ١٣٢٦ هـ وافق "محمد على شاه" على ضرب المجلس النيابي بالقنابل و تعطيل الحياه النيابيه و قام بهذا العمل بتحريض من السفارتين الإنكليزيه و الروسيه كليهما و إصرار وزير الحربيه "أمير بهادر" أحد رجال حاشيته و الروسي "ليخوف" آمر فرقه "القوزاق" الإيرانيه، و بعد أن رفض متطرفو المجلس النيابي تجريد الملشيات الأهليه من السلاح و وقف

النيابي بأنه معارض له، حتى أنه يوم استدعاه "محمد على شاه" من أوروبا ليتولى رئاسه الوزاره، و وصل فى الخامس من ربيع الأول سنة ١٣٢٥ إلى مرفا "أنزلى" الايرانى الواقع على بحر الخزر، أراد مجاهدو "أنزلى" المجاهدون المؤيدون للنظام النيابى، منعه من النزول إلى أرض إيران لو لا أنه عاهدهم على المحافظه على هذا النظام.

و فى قلب تلك البلبله و التداخل و التشعب بين مختلف الغايات و الاتجاهات أنشئت جمعيات سرية بتدبير من الماسونيين و غيرهم و أبدى البايون نشاطا فائقا فى تأييد المجلس و تشكلت لجان، بعناوين ظاهريه مختلفه، فى طول البلاد و عرضها.

و كان "الشيخ فضل الله نورى" يخشى عاقبه تدخل الإنكليز فى قضيه النظام النيابى و يعلم أن وراء مناصرتهم لهذا النظام غايه أخرى لهم غير إقامه الحياه النيابيه فى إيران. و يخشى كذلك من أن نفوذ أهل البدع آخذ فى التزايد عن طريق استغلالهم لهذا النظام. و من ثم كان يهاجم الإنكليز و يقول:

الإسلام دين الشورى و المساواه. فما حاجتنا إلى الإنكليز يصنعون لنا النظام الشورى و عندنا الآيه الكريمة (و أمرهم شورى بينهم)! و طرح شعار "المجلس النيابى الشرعى" مطلباً له لمعارضه أهل البدع و الجمعيات السريه المشبوهه.

و هذا الموقف لم يكن موقف "الشيخ فضل الله نورى" وحده - كما ذكرنا ذلك من قبل - بل وقفه أيضا جماعه أخرى غيره من العلماء و المجتهدين كانوا من أشد أنصار النظام النيابى و من السباقين إلى العمل من أجل إقامته، و دعوا إلى مقاومه الاستبداد الملكى. و لكنهم لما رأوا ما آل إليه أمر المجلس من انحراف و اتجاهات غير سليمه عادوا يتحفظون و يدعون إلى الاستقامه.

منهم "السيد ريحان الله البروجردى" و "السيد على آقا اليزدى" من علماء طهران. و منهم العالم الروحانى التبريزى الشجاع "مير هاشم شتربانى" أحد رواد النظام النيابى و نائب تبريز و عضو لجنتها الشعيه. فإنه لما رأى تدخل الأجانب فى شئون الحركه النيابيه الدستوريه و نشاط أهل البدع فى استغلالها اتخذ الطريق "الشيخ فضل الله" فى المعارضه، و انفصل عن لجنه تبريز و الجمعيات المرتبطه بها و أنشا لجنه تعارضها باسم "اللجنه الإسلاميه". و آل أمره إلى أن حكمت عليه محكمه "يفرم" الأرمنى بعد اقتحام الثوار طهران بالموت، فقتل فى الثانى من رجب سنة ١٣٢٧ أى قبل قتل "الشيخ فضل الله نورى" بأحد عشر يوما.

و منهم عالم قزوین "السيد مسعود شيخ الإسلام" فقد حدث أن مر "يفرم" الأرمنى بقزوین فى طريقه إلى مدينه رشت. فخرج المطالبون بالدستور من أهالى قزوین لاستقباله و هم يهتفون "زنده باد حامى إسلاميفرم خان أرمنى" أى "عاش حامى الإسلام يفرم خان الأرمنى". فعارض "السيد مسعود شيخ الإسلام" مثل هذه الهتافات، و قال: كيف يمكن للأرمن (١) أن يكونوا حماه الإسلام! و اشتد النزاع فكان أن انشق "السيد مسعود" عن الدستوريين.

و فى ربيع الثانى من سنة ١٣٢٧. زحف الثوار من نواحى مختلفه من إيران لاقتحام العاصمه طهران و القبض على "محمد على شاه". و زحف الثوار من رشت، بقياده "يفرم"، و هم من الأرمن و الكرج و القفقاسيين و البختياريين، و بدءوا بقزوین ففتحوها بالحرب، و أوقعوا بها القتل و الحريق و الهدم و النهب بلا حساب. و اعتقلوا "السيد مسعود شيخ الإسلام" فأمر "يفرم" بقتله فقتل قتله يصفها المؤرخ "إبراهيم صفائى" بأنها كانت من أفظع و أقسى أشكال القتل.

بل إن "محمد علي شاه" نفسه، وقد كان لتدخله أثر أساسي في حمل أبيه على إقاله الصدر الأعظم "عين الدوله" عدو الديمقراطية و النظام النيابي الأكبر، و التمهد لاقامه الحياه النيابيه - إن "محمد علي شاه" نفسه لم يعارض المجلس النيابي، و كل ما كان يريده من المجلس هو جمع السلاح من أيدي (الميليشيات) و حصر حمله بقوى الأمن الشرعيه. و هذا هو أصل الخلاف بينه و بين المجلس، إذ رفض المجلس طلبه لهيمنه النواب المشبوهين عليه.

بل بلغ الأمر برجال (الميليشيات)، و على قيادتهم الزعيم الطاشناقى الأرمنى "يفرم" و الجاسوس البلغارى الروسى "بانف" و أمثالهما من أعضاء الطاشناق و الكرجيين و القفقاسيين و البختياريين، أن أبلغوا المجلس النيابي أنهم لا يباليون بما يتخذه هذا المجلس بشأنهم من قرارات، و سيستمرون فى حمل السلاح شاء أم أبى! و أما موقف "الشيخ فضل الله نورى" من الروس فيتبين من عمله حين انتصر الثوار فى سنه ١٣٢٧، و اقتحموا طهران و أصبح الحكم عليه بالموت أمرا محققا. فقد اقترح عليه الروس يومئذ أن يرفع العلم الروسى على بيته أو يلجا إلى سفارتهم فيصبح فى حمايتهم آمنا من كل سوء، فرفض، و عد ذلك جبنا و عارا عليه. و لو أنه فعل لنجا من الموت. و لكنه فضل الموت و تقبله بكل شجاعه على أن ينجو منه بيد أعداء بلاده.

حقا لقد أیده "محمد علي شاه" و الأتابك، بل أیده الروس أيضا، فى معارضته للمجلس النيابي، و لكنه طرح شعار "المجلس الإسلامى" و "البرلمانیه الشرعيه" بدافع واحد هو عقيدته الإسلاميه لا غير.

و فى الخامس من ذى القعدة سنه ١٣٢٥. تظاهرت فى ساحه "الطوبخانه" فى طهران جماعه من القوزاق و الجنود مع جماعه من الأهالى، و انضم إليهم فريق من الأوباش و المشاغبين، يعلنون بمعارضتهم لأنصار المجلس النيابي. و كان يقود المتظاهرين جماعه من رجال البلاط. و كان مظهرهم ينذر بالشر. و صدرت عنهم حركات و هتافات منكره. و قتلوا شابا من أنصار النظام النيابي ضربا بالسيوف و الحراب و السكاكين و كل ما وصلت إليه أيديهم.

و فى الثامن من ذى القعدة ذهبوا إلى منزل الشيخ "فضل الله نورى" و أخرجوه بالالتماس و الرجاء و التشديد حتى جاءوا به إلى ساحه "الطوبخانه". و خطب هناك جماعه من رجال الدين فهاجموا البابين و حذروا).

ص: ١٤٦

١- فى إيران جاليه أرمنيه كبيره يعود تاريخ نزوحها إلى إيران إلى عهد الشاه عباس الكبير (٩٩٦ - ١٠٣٨ هـ).

من اندساسهم فى أوساط الحركة النيابيه. و خطب الشيخ "فضل الله نورى"، و دار خطابه على موضوع "المجلس النيابى الشرعى"، فزاد هذا الخطاب فى حقد خصومه عليه.

و فى التاسع من ذى القعدة سارت جماعات هذه المظاهره إلى المجلس النيابى، و أطلقوا عليه الرصاص و قاموا بحوادث شغب. و بعد بضعة أسابيع أبعد رؤساء هذه المظاهرات إلى "كلات" بأمر من المجلس النيابى و موافقه "محمد على شاه".

و تفاقمت أعمال الإرهاب و الشغب من كلا الطرفين، أنصار المجلس النيابى و معارضيه، و اشتد انقسام النواب حتى اتهم "علا مير احتشام السلطنه"، و هو رئيس المجلس النيابى، بعض النواب بالخيانة و الارتشاء.

و طلبت "اللجان الشعبيه" من المجلس إصدار قانون يسمح للجانب بتشكيل جيش لها، فان لم يفعل أقدمت على تشكيله بلا إذن منه. و ثارت خصومه عنيفه بين النواب المؤيدين لطلب اللجان و النواب المخالفين.

و ظلت البلاد تتخبط فى قلب هذه الفتن، و عجز المصلحون عن إيجاد مخرج منها حتى أقدم "محمد على شاه" على ضرب المجلس بالمدافع فى ٢٣ جمادى الأولى سنة ١٣٢٦، فانهمز أنصار المجلس و تفرقوا و تواروا عن الأنظار، و استقر الحكم فى يد الشاه و رجاله، و أصبح الشيخ "فضل الله نورى" الرجل الأول تقريبا فى المملكه.

و لكن أنصار المجلس النيابى ثاروا فى نواحى مختلفه من إيران و استولوا على الحكم فى بعض المدن منها، ثم كروا على طهران العاصمه ففتحوها فى ٢٤ جمادى الثانيه سنة ١٣٢٧ و خلعوا "محمد على شاه" عن العرش. ثم عينوا هيئه إداريه من اثنى عشر رجلا- من العسكريين و المدنيين و الروحانيين تتولى الحكم فى غياب المجلس النيابى. و عينت هذه الهيئه محكمه باسم "المحكمه الثوريه العليا" مؤلفه من عشره.

و اعتقلوا جماعه من معارضى المجلس النيابى و أعوان الشاه، فحاكموهم و حكموا عليهم بالموت و قتلوهم. أما الشيخ "فضل الله نورى"، و هو المعارض الأكبر، فقد سبق أن أشير عليه باللجوء إلى إحدى السفارات الأجنبيه. و ألحت عليه السفاره الروسيه خاصه أن يلجا إليها فيقيم فيها عزيزا مكرما مصاننا، فأبى أن يفعل و ظل مقيما فى منزله. فبعثت إليه المحكمه الثوريه بضعه رجال من الميليشيات فاعتقلوه و جاءوا به إلى ساحه "الطوبخانه"، حيث أوقف فى أحد المنازل. ثم قدم إلى المحاكمه فحكمت عليه المحكمه، بإجماع الآراء، بالموت شنقا. و أيدت الهيئه الاداريه حكمها. فشنق فى ١٣ رجب سنة ١٣٢٧ فى ساحه "الطوبخانه" و هو فى التاسعه و الستين من عمره.

و حين محاكمته قال: "يا ترى أيقوم هؤلاء - يعنى قضاته - يوم القيامه بجوابى إذا سألتهم؟ لا أنا كنت رجعيًا و لا السيد عبد الله و السيد محمد(١) كانا من أنصار النظام النيابى. و كل ما فى الأمر أنهما يريدان إذلالى و تنجيتى.

و القضيه بينى و بينهم ليست قضيه رجعيه و أصول نياييه دستوريه". ثم أشار إلى الجلادين غير هياب و لا- و جل قائلا "إلى عملكم!".

و ظل معلقا مده عشر دقائق فقط. ثم أنزلت جثته فسلمت إلى ذويه.

فيكون عدد من قتلهم "يفرم" الأرمني الطاشناقى من كبار علماء المسلمين المجتهدين أربعه هم: السيد مسعود شيخ الإسلام و السيد مير هاشم شتربانى و الشيخ فضل الله النورى و السيد عبد الله البهبهانى. و كلهم من رواد النظام النيابى الدستورى و مؤسسيه فى إيران. قتلهم بما هو "حامى" النظام النيابى الدستورى!..

و يقول مؤرخ إيرانى عن إعدام النورى:

"لقد كان قتل هذا العالم الجليل المجتهد الجامع للشرائط الشجاع خطا كبيرا".

و لكننا نقول: لقد كان قتله جريمه كبرى.

إن الأيام أعادت للشيخ فضل الله النورى اعتباره، و نزهه التاريخ الصحيح عن كل ما ألصق به من افتراءات، و اسمه اليوم يتصدر شارعاً من أكبر شوارع طهران.

و كان مما رثى به من الشعر العربى الذى نظمته فقهاء إيرانيون قول السيد أحمد الرضوى من قصيده:

لا زال من فضل الاله و جوده جود يفيض على تراك همولا

روى عظامك و إبل من سيبه يعتاد لحدك بكره و أصيلا

آمنت إذ حادوا برب محمد و صبرت فى ذات الاله جميلا

أمسكت بالدين القويم و لم يمل بك زيفه كالمارقين مميلا

كالمشرفى مجردا من غمده يهتر فى أيدى الكماه صقيلا

هل ينفع البر التقى بيانه فى معشر نطقوا السفاهه قيلا

و قال الشيخ محمد على الأردوبادى من قصيده:

خسرنا منه مشهور المواضى يرف عليه منشور اللواء

أبا (الهادى) بكاك الدين شجوا بماساه تجل عن البكاء

بيوم به شاهت وجوه و وجهك فيه مؤتلق البهاء

و حيا العارض الوسمى قبرا يقل محط علم الأنبياء و عاهده ب (فضل الله) سحا

عهاد منه ممدود الرخاء

كما رثاه شعرا بالفارسيه كل من الشيخ أسد الله حكيم قمشه اى، و ميرزا الطف [اللطف] على صدر الأفاضل، و ميرزا حبيب الله نيرى.

ص: ١٤٧

١- يقصد رفيقيه القديمين السيد عبد الله البهبهاني و السيد محمد الطباطبائي. و قد أصبحا كلاهما نائبين فى المجلس الأول و الثانى. فاما البهبهاني فبلغ من السيطرة و النفوذ شئرا بعيدا حتى أصبح يسمى "الشاه عبد الله" و "الشاه الأسود" إذ كان اسمه شيد السمره. و انتهى أمره إلى أن اغتاله الارهابى القفقاس "حيدر عمو أوغلى و ثلاثه من رفاقه الارهابيين فى منزله، مدفوعين من منافسيه على النفوذ من النواب و شاركهم فى المؤامره "يغرم [يفرم]"، ثم أطلق سراحه و منع محاكمته بعد أن اعتقل. و كان "يفرم" يومئذ رئيسا لشرطه طهران. و أما الطباطبائي فقد ندم فى أواخر عمره على ما كان منه من مناصره للنظام النيابى الدستورى، إذ جاءت النتيجة مخيبه لآماله. فكان يقول "سكبناه خلا- فصار خمرا" و يقول: لم نفعل شيئا سوى أننا استبدلنا استبدادا باستبدادا! و يجدر بالذكر أن البهبهاني و الطباطبائي كانا فى المنفى يوم حوكم "الشيخ فضل الله النورى" و قتل. سبق أن تفاهما "محمد على شاه" بعد ضربه المجلس بالمدافع و إلغائه النظام النيابى.

١ - تذكره العاقل و إرشاد الجاهل. ٢ - تقارير درس السيد الشيرازي. ٣ - الدعوه الإسلاميه، و هي الجريده التي أصدرها عند تحصنه في مقام عبد العظيم (رض). ٤ - ديوان شعره بالعرييه و الفارسيه، و كان يتخلص في شعره ب (نوري) و منه اكتسب لقبه. ٥ - الصحيفه المهدويه.

٦ - رساله عمليه بالفارسيه.

حركه المشروطه

و بما أن سيره المترجم تدور حول أحداث الحركه الدستوريه التي عرفت في تركيا باسم (مشروطيت)، و في إيران باسم (مشروطه) فاننا ننشر فيما يلي بحثا عن تلك الحركه و امتداد آثارها من إيران إلى العراق. و هذا البحث مكتوب بقلم الدكتور علي الوردى:

المشروطه هي حركه المطالبه بالدستور التي ظهرت في تركيا و إيران، و هي إنما سميت بهذا الاسم لأن القائمين بها اعتبروا مواد الدستور بمثابة "الشروط" التي يجب أن يتقيد بها الملك في حكم رعيته، و هذه فكره مستمده من نظريه "العقد الاجتماعي" التي شاعت في أوروبا بعد قيام الثورة الفرنسيه و منها جاءت إلى تركيا و إيران.

إن المشروطيه ظهرت في تركيا قبل ظهورها في إيران بما يزيد على ثلاثين سنه، و يعود سبب ذلك إلى قرب تركيا من أوروبا و شدة تأثيرها بالحضاره الأوروبيه. يجب أن لا ننسى أن الصراع بين القديم و الجديد بدأ في تركيا منذ منتصف القرن الثامن عشر، أما في إيران فقد بدأ هذا الصراع منذ منتصف القرن التاسع عشر و ذلك من جراء دخول بعض المخترعات و النظم الحديثه إلى إيران على عهد الشاه ناصر الدين.

المعروف عن الشاه ناصر الدين أنه كان معجبا بالحضاره الأوروبيه ميالا للتعرف عليها و مشاهدتها عيانا، و قد سافر إلى أوروبا ثلاث مرات فقبل فيها بحفاوه بالغه، غير أنه كان يخشى تأثير الأفكار الأوروبيه على رعاياه و يكره أن تنتشر بينهم فكره المشروطيه على منوال ما انتشرت في تركيا. و قد صرح ذات مره: أنه يود أن يكون محاطا بحاشيه من الأغبياء لا يعرفون عن بروكسل هل هي مدينه أم نوع من الخس.

يمكن القول أن ناصر الدين كانت له يد كبرى في إدخال معالم الحضاره الحديثه إلى إيران، و كان في الوقت نفسه شديدا تجاه كل من يتحدث عن القانون أو الدستور أو أيه فكره تحرريه أخرى. و بعبارة أخرى أنه كان كمن يقدم الطعام اللذيذ للجائع و يمنعه من تناوله، و قد أحدث في المجتمع الايراني من جراء ذلك نوعا من التوتر، و بقي هذا التوتر كامنا يتحفز للظهور عند أول فرصه متاح له. فلما مات ناصر الدين و تبوأ العرش من بعده ابنه الضعيف مظفر الدين، انطلق التوتر الكامن و كأنه كان مستعدا للانطلاق.

لا بد لنا لكي نفهم جذور المشروطية في إيران أن ندرس كيف بدأت النظم و المخترعات الحديثه فى الدخول إلى إيران فى عهد الشاه ناصر الدين.

و الواقع أن ذلك جرى تدريجا خطوه وراء خطوه على النمط التالى.

أولاً: فى عام ١٨٥١ أسست فى طهران كليه حديثه باسم "دار الفنون"، و كان الغرض من تأسيسها تخريج موظفين أكفاء للدوله و دبلوماسيين. و جىء باساتذه من أوروبا للتدريس فيها، و قد ألفت هؤلاء عدده كتب فى العلوم التى كانوا يقومون بتدريسها، فكانت تلك الكتب بذره النهضه الفكرية الحديثه فى إيران. و فى عام ١٨٥٨ أرسلت الحكومه الإيرانيه اثنين و أربعين من متخرجى "دار الفنون" إلى أوروبا لإكمال دراستهم.

ثانياً: فى عام ١٨٥٨ بدأ نصب أول خط للتلغراف فى إيران، ثم أخذت الخطوط التلغرافيه تنمو مع الزمن، حتى وصل عدد المحطات التلغرافيه فى إيران عام ١٨٨٤ إلى أربعة عشر، و كانت هذه المحطات تدار من قبل فنيين بريطانيين يسكنون فى دور بالقرب منها، و قد جلب بعض هؤلاء الفنيين زوجاتهم معهم أو تزوجوا من فتيات أرمنيات، و كان معهم أطباؤهم. و بدأ كانت المحطات التلغرافيه بمثابة مراكز إشعاع للقيم الحضاريه فى الكثير من أنحاء إيران القاصيه.

ثالثاً: لم تظهر فى عهد الشاه ناصر الدين سوى صحف أسبوعيه تسيطر عليها الحكومه، و لكن بعض الايرانيين استطاعوا أن يصدروا صحفا معارضه فى خارج البلاد و يرسلوها إلى إيران بشتى الوسائل. و كان أهم تلك الصحف: صحيفه "اختر" التى كانت تصدر فى اسطنبول، و صحيفه "جبل المتين" فى كلكتا، و صحيفه "ثريا" فى القاهره، و صحيفه "القانون" التى كان يصدرها الميرزا ملكم خان فى لندن. و كان لهذه الصحف تأثير بالغ فى الشعب الايرانى، و كثيرا ما كانت تهرب إلى إيران ضمن بالآيت البضائع المستورده، و قد اتخذت الحكومه اجراءات شديده لمنع تسللها إلى إيران فكان ذلك سببا فى ازدياد تهافت الناس عليها سرا.

عوامل مساعده

عند ما قتل الشاه ناصر الدين فى عام ١٨٩٦ تبوأ العرش مكانه ابنه مظفر الدين، و كان هذا الشاه الجديد على النقيض من أبيه متهافت الشخصيه لا يخلو من غباء و فطاره، و كان بالاضافه إلى ذلك عليل البدن، و لم يكده يتولى الحكم حتى حفت به جموع من المتزلفين الذين كانوا يطمحون أن ينالوا فى عهده الثروات بكل وسيله تقع فى أيديهم.

كان الشاه مظفر الدين مولعا كايه بالسفر إلى البلاد الأوربيه غير أن الخزينه كانت فى أيامه فارغه فاضطر إلى الالتجاء إلى القروض الأجنبيه، و قد انتهزت روسيا الفرصه فصارت تمدد بالقروض و تحصل منه على بعض المنافع و الامتيازات الكمركيه مما أدى إلى انتشار التذمر بين التجار و أهل "البازار" أى الحرفيين و أصحاب الدكاكين.

كان أهل "البازار" - و ما زالوا - يؤلفون فى إيران طبقه ذات أهميه غير قليله فى الحياه الاجتماعيه و السياسيه إذ أن لهم رؤساءهم و تقاليدهم النقابيه التى تسمى "قواعد الصنف"، و إذا قرروا إغلاق دكاكينهم احتجاجا على أمر من الأمور كان ذلك بمثابة نوع من الاضراب العام و أصابوا الحياه الاقتصاديه بالشلل. أضف إلى ذلك ما كان لأهل "البازار" من تأثير فى رجال

الدين و صلته معاشيه بهم، فإذا اشتكوا من شىء فسرعان ما تسرى شكواهم إلى رجال الدين.

و مما زاد فى الطين بله أن الشاه مظفر الدين كان قد ترك شئون الدوله بيد صهره الأمير "عين الدوله" و كان هذا جاهلا صلفا و مكروها من قبل

ص: ١٤٨

الشعب الايراني فكانت أعماله التعسفيه من عوامل زياده التذمر بين أهل "البازار".

و فى عام ١٩٠٥ حدثت ثوره فى روسيا ضد القيصر و قمعت بشده، فهرب بعض زعمائها القفقاسيين إلى إيران حيث أنشئوا الصحف و أخذوا يوجهون الشعب الايراني نحو الأفكار الديمقراطيه الحره فكان ذلك عاملا آخر فى نشر التذمر بين الناس تجاه كل عمل تقوم به الحكومه و لو كان حسنا.

و من الجدير بالذكر فى هذا الصدد أن التنافس بين روسيا و بريطانيا كان فى تلك الآونه شديدا، و كان الكل من هاتين الدولتين دعاه و عملاء يسعون لها بين أفراد الشعب الايراني. و لا- ننسى كيف اغتنمت روسيا قضيه "التنباك" لكى تثير الايرانيين على بريطانيا، فكان ذلك سببا فى انهيار النفوذ البريطانى فى إيران و ارتفاع النفوذ الروسى. و الظاهر أن البريطانيين أرادوا الانتقام من الروس فأخذوا يشجعون حركه المشروطيه فى إيران نكايه بهم - حسب المثل القائل: "دقه بدقه".

بدايه الحرکه

بدأت حركه المشروطيه فى إيران من جراء حادثه بسيطه حدثت فى عام ١٩٠٥، و خلاصتها: أن نفرا من أهل "البازار" خالفوا بعض الأوامر الحكوميه فأمرت الحكومه بشد أقدامهم فى "الفلقه" و جلدتهم بالسياط، و كانت تلك عاده متبعه تقع بين حين و آخر فى عهد الشاه السابق دون أن يعيرها الناس اهتماما كبيرا، أما الآن فقد اهتم الناس لها، و تجمع عدد كبير منهم بينهم جماعه من رجال الدين فذهبوا إلى مسجد الشاه القريب من سوق "البازار" الكبير بغيه "الالتجاء" فيه.

إن "الالتجاء" من التقاليد التى اعتاد الايرانيون عليها منذ العهد الصفوى، و هم يسمونه "البست"، و معناه أن يذهب الناس إلى أماكن معينه كالمساجد أو الأضرحة أو بيوت المجتهدين أو السفارات الأجنبيه أو الاسطبلات الملكيه أو ميادين المدفعيه أو محطات التلغراف، و هناك لا تستطيع الحكومه أن تلتقى القبض عليهم.

استطاع الامام فى مسجد الشاه أن يطرد الملتجئين إليه بايعاز من الحكومه و بمعونه جماعه من أعوانه، فخرج الملتجئون من المسجد و هم أكثر حماسه من قبل، و انضم إليهم أناس آخرون، و توجهوا إلى بلده "الشاه عبد العظيم" على بعد بضعه أميال من طهران فالتجئوا إلى المرقد المقدس الموجود فيها، و هناك أعلنوا أنهم لا يخرجون من مكانهم إلا بعد إجابته مطالبهم، و كان من بين مطالبهم عزل "عين الدوله" من منصبه و تأسيس دار للعداله أطلقوا عليها اسم "عدالت خانه".

أخذ عدد الملتجئين فى بلده "الشاه عبد العظيم" يتكاثر يوما بعد يوم، و كان الناس وجدوا فى ذلك فرصه لشفاء غليلهم من الحكومه، و صار الوعاظ و الروضخونيه - أى قراء التعزیه - يصعدون المنابر لينددوا بالحكومه و يشجبوا أعمالها. و مما زاد فى أهميه هذا "الالتجاء" أن اثنين من أكبر علماء طهران كانا من بين الملتجئين و هما: السيد محمد الطباطبائي و السيد عبد الله البهبهاني، كما كان بينهم الواعظ المشهور آغا سيد جمال الدين.

أرسل الشاه إليهم رسوله الخاص ليسترضيهم، فقبلوا الرسول بجفاء و أرجعوه خائبا. و اضطر الشاه أخيرا أن يرسل إليهم كتابا مسجلا بخط يده يتعهد لهم فيه باجابته مطالبهم. و عند هذا وافقوا على العوده إلى طهران، و قد جهزهم الشاه بعربات ملكيه فركب كبراؤهم فيها، و استقبلتهم الجماهير فى طهران استقبال الفاتحين. و لا- حاجه بنا إلى القول بان مكانه الطباطبائي و

البهبهاني قد ارتفعت ارتفاعا هائلا في نظر الجماهير يوم ذاك.

تفانم الحركه

يبدو أن الشاه لم يستطع تحقيق وعده حيث أخذ على يده صهره "عين الدوله". و في منتصف أيار ١٩٠٦ أصيب الشاه بالشلل فانتهم "عين الدوله" الفرصه ليضرب ضربته، فقد أصدر أمره بإلقاء القبض على السيد محمد الطباطبائي، و حين جاء الجنود للقبض على هذا المجتهد الكبير تجمع الناس لتخليصه من أيديهم، فوقع من جراء ذلك اصطدام بين الجنود و الأهالي سقط فيه واحد من الأهالي قتيلًا. و شاء القدر أن يكون هذا القتل من طلبه العلم و سيدا من ذريه الرسول. و لما جرى تشييع السيد القتل وقع اصطدام آخر سقط فيه خمسة عشر قتيلًا.

توتر الوضع في طهران إلى الدرجه القصوى. و غادر طهران كثير من المجتهدين حيث ذهبوا إلى بلده قم المقدسه للالتجاء فيها، ثم أصدرنا بيانا هددوا الشاه فيه أنهم سيغادرون إيران جميعا إلى العراق ما لم يف بوعده لهم في تحقيق المطالب الشعبيه. و أغلق أهل "البازار" دكاينهم تأييدا للمجتهدين، فاصدرت الحكومه أمرا بنهب كل دكان يغلقه صاحبه.

و هنا حدث حادث له مغزاه العميق، فقد ذهب فريق من أهل "البازار" إلى المفوضيه البريطانيه ينشدون معونتها، و حين وجدوا منها تشجيجا التجئوا إليها فخيما في حديقتها الواسعه الواقعه في ضاحيه قولهك، و هناك أخذ عددهم يزداد يوما بعد يوم، و أعلنوا أنهم لن يرجعوا إلى فتح دكاينهم حتى تجاب مطالب المجتهدين.

يقول السيد هبه الدين الشهرستاني في مذكراته التي سجل فيها بعض أحداث المشروطيه: أن التجاء التجار إلى المفوضيه البريطانيه أحدث فيهم تطورا فكريا و وعيا سياسيا جديدا، فهم كانوا قبلئذ يطالبون بتأسيس مجلس "العدالت خانه" و لكن زوجه المفوض البريطاني أخذت تفهمهم بان طلبهم هذا لا- قيمه له و أن هدفهم يجب أن يكون أوسع من ذلك و أهم و هو الحريه و المساواه و الشورى. و قد كانت تلك السيده مثقفه فاستطاعت أن تحدث فيهم التأثير المطلوب...^(١)

مهما يكن الحال فان التجاء أهل "البازار" إلى المفوضيه البريطانيه كان حدثا مثيرا تحدثت عنه صحف العالم و أخذت تفسره تفسيرات شتى، و نشرت جريده التايمز اللندنيه في عددها الصادر في ١٤ أيلول من عام ١٩٠٦ وصفا للحادثة أرسله إليها مراسلها في طهران نذكر فيما يلي نبذه منه: (أن الالتجاء إلى المفوضيه بدأ في شهر تموز و أخذ عدد الملتجئين يتضخم بسرعه حتى بلغ في شهر آب اثني عشر ألفا و أصبحت الأسواق كلها مغلقة، و كانت حديقه المفوضيه مليئه بالخيام و هي مزدحمه بشتى الفئات، تجارا و علماء و حرفيين و غيرهم، و أخذوا يضبطون أنفسهم ضبطا دقيقا فلم ينتج عنهم على الرغم

ص: ١٤٩

من كثره عددهم شىء كثير من الأذى، و كانت مطابخهم و تحضير طعامهم فى غاية النظام، و كان منظرهم فى الليل رائعا حيث كان لكل خيمه روضه خوان خاص بها، فيجتمع سكان الخيمه حوله ليستمعوا إلى قصه المقتل حيث يكون على طريقتهم العجيبه و يضربون رءوسهم من شده الحزن...).

اضطر الشاه أخيرا إلى الرضوخ لاراده الشعب، فعزل "عين الدوله" من منصبه و نصب فى مكانه رجلا من أنصار المشروطيه هو نصر الله خان، ثم أصدر أمره بإجراء الانتخابات للمجلس النيابى الذى سمي بـ "المجلس الشورى الملى".

التجاء فى كربلاء

لم يمض على حادثه التجاء أهل "البازار" فى طهران إلى المفوضيه البريطانيه سوى مده قصيره حتى جرت فى كربلاء حادثه مماثله خلاصتها: أن الحكومه المحليه فى كربلاء فرضت على الايرانيين الساكنين فيها ضرائب خاصه، فأعلن الايرانيون احتجاجهم على تلك الضرائب و تدمرهم منها، و كان يشجعهم على هذا الاحتجاج و التدمر محمد حسن خان القندهارى الذى كان يتولى وظيفه نائب القنصل البريطانى فى كربلاء. فكان هذا الرجل يغريهم و يمنيهم. و قد وثقوا بوعوده فتجمعوا قريبا من دار القنصليه البريطانيه الواقعه فى محله "الخيمگاه" و هم فى حاله "الالتجاء" على الطريقه الايرانيه، ففرشوا البسط فى الشارع و علقوا خياما على الجدران ليستظلوا بها من وهج الشمس، و استمروا على ذلك أكثر من خمسين يوما يأكلون و ينامون فى مكانهم لا يتحولون عنه حتى سدوا الطريق على الماره.

كان المتصرف فى كربلاء يوم ذاك رشيد الزهاوى، و قد حاول اقناعهم بالتفرق دون جدوى ثم وسط بعض رجال الدين فى ذلك فلم يابها لهم.

و قد بعث الميرزا حسين الخليلي و السيد كاظم اليزدى إليهم من النجف رسلا ينصحونهم فلم يستمع أحد منهم للنصح، و اضطر المتصرف أخيرا أن يرسل إليهم مدير الشرطه لينذرهم فقابلوا المدير بالاستهزاء و كأنهم كانوا واثقين أن الحكومه فى العراق كحكومه إيران لا تستطيع أن تنتهك حرمة "الالتجاء"، أو لعلهم ظنوا أن بريطانيا العظمى كلها تقف إلى جانبهم.

وجهت الحكومه إليهم ثلاثه إنذارات متعاقبه كان الأول منها لمدته أسبوع، و الثانى لمدته أربع و عشرين ساعه، و الثالث لمدته ست ساعات. و قد حلت نهايه الإنذار الثالث من منتصف ليله القدر من شهر رمضان ١٣٢٤ هـ - الموافق ١٠ تشرين الثانى ١٩٠٦ - فأحاط الجنود بالملتجئين و وجهوا عليهم رصاص بنادقهم من كل ناحيه. إن الملتجئين لم يكونوا يتصورون أن الأمر سيصل إلى هذا الحد، و قال قائل منهم: "لا تخافوا أنه ليس رصاصا حقيقيا"، غير أنهم صاروا يتساقطون صرعى على الأرض، فأسرعوا يستغيثون بالقنصليه يدقون بابها لتسمح لهم بالدخول فلم يجدوا منها غوثا. و عند هذا أطلقوا سيقانهم للريح بعد أن سقط منهم سبعون قتيلًا و عدد كبير من الجرحى.

استطاع السيد على الشهرستانى من علماء كربلاء أن يذهب إلى بغداد و أن يتصل بالقنصل الايرانى ليخبره بما جرى، و أبرق القنصل بتفاصيل الواقعه إلى طهران و اسطنبول. ثم وصل إلى كربلاء خبراء أرسلهم القنصل البريطانى من بغداد للتحقيق فى الأمر، فشهدوا محل الواقعه و أثر الرصاص فى جدران القنصليه. و كان من نتيجه ذلك أن عزلت الحكومه العثمانيه والى بغداد مجيد بك و عينت فى مكانه أبو بكر حازم.

ان السؤال الذى يواجها هنا: هل كان هناك ارتباط سببى بين واقعه كربلاء و أحداث المشروطيه فى طهران؟ و هل أن محمد حسن خان حرص الايرانيين على "الالتجاء" من تلقاء نفسه أم هو فعل ذلك بايعاز من الحكومه البريطانیه؟ إن فى هذا سرا لا نعرفه، و ربما كشفت عنه الوثائق فيما بعد.

صياغه الدستور الايرانى

افتتح المجلس الملى فى طهران فى ٧ تشرين الأول من عام ١٩٠٦، و قد حضر الشاه مظفر الدين حفله الاحتفال على الرغم من مرضه، و كان أول عمل اهتم به المجلس الملى هو تأليف لجنة لصياغه مواد الدستور، و قد تمت صياغه الدستور و صادق عليه الشاه فى شهر كانون الثانى من عام ١٩٠٧، ثم مات الشاه بعد ذلك بأيام معدوده.

كان الدستور الايرانى فى كثير من نصوصه عباره عن ترجمه حرفيه للدستور البلجيكى الصادر فى عام ١٨٣٠، فهو يقوم على أساس المبادئ الديمقراطيه التى كانت شائعه فى أوروبا من حيث الاعتقاد بالقانون الطبيعى و حقوق الإنسان، و لكن لجنة صياغه الدستور حرصت على أن يكون موافقا للشريعه الإسلاميه لا يخالفها فى شىء. نجد هذا واضحا فى المادتين الأولى و الثانيه منه. و فيما يلى نصهما المترجم:

الماده الأولى: الدين الرسمى للدولة هو المذهب الجعفرى الاثنى عشرى الحق من الإسلام، و يجب على الشاه أن يقر بهذا المذهب و يحميه.

الماده الثانيه: إن المجلس، الذى تم تشكيله ببركه أمام العصر عجل الله فرجه، و تفضل جلاله الشاه، و سعى العلماء كثر الله أمثالهم، و الأمه الإيرانيه، لا يجوز له أبدا أن يسن أى قانون مناقض لشرائع الإسلام المقدسه... و من الواضح أن العلماء هم الذين يقررون ذلك. و لهذا فالواجب رسميا فى كل دوره من دورات المجلس أن تكون فيه لجنة مؤلفه من خمسة أشخاص هم من المجتهدين و الفقهاء الورعين، و العارفين أيضا لحاجات العصر و مقتضياته... و على المجلس أن يعتبر هؤلاء أعضاء فيه.

و وظيفتهم هى أن يدرسوا جميع اللوائح التشريعيه فإذا وجدوا فيها ما يخالف الشرائع الإسلاميه المقدسه رفضوه. و أن قراراتهم فى هذا الصدد واجبه التنفيذ و نهائيه. و ان هذا الشرط من الدستور لا يمكن تغييره إلى حين ظهور إمام العصر عجل الله فرجه.

الشاه محمد على

بعد موت الشاه مظفر الدين تولى الحكم ابنه محمد على، و كان هذا طاغيه سبب السيره، و أخذ منذ بدايه حكمه يكيد للمجلس النيابى و الحركه الدستوريه، و لهذا تميز عهده القصير بالصراع العنيف بين أنصار "الاستبداد" و أنصار "المشروطيه".

و مما زاد فى شدة الصراع عقد المعاهده الروسيه البريطانیه فى ٣١ آب ١٩٠٧. ففى هذه المعاهده اقتسمت الدولتان النفوذ فى إيران حيث حصلت روسيا على القسم الشمالى منها بينما حصلت بريطانيا على القسم الجنوبى، فكان ذلك بمثابة ضربه قاسيه على أنصار المشروطيه إذ أصبحت طهران

و مناطق إيران الشماليه تحت النفوذ الروسى مما شجع الشاه محمد على على التمدادى فى نزعتة الاستبداديه، و صار حرا يعمل ما يشاء دون أن يخشى من تدخل بريطانيا فى دعم أنصار المشروطيه.

كان الشاه محمد على يحيط به مستشارون روس، و هو يتأثر بآرائهم تأثرا كبيرا و لا سيما برأى رجل منهم يهودى اسمه شبشال. يقول المؤرخ لشوفسكى: أن الروس كانوا يعتقدون بان حركة المشروطيه هى من تدبير بريطانيا و يعتبرونها مهدده لسلطوتهم و نفوذهم فى إيران، فاستغلوا تقربهم من بريطانيا فى عام ١٩٠٧ و شجعوا الشاه محمد على على تعطيل الدستور.

صار الشاه محمد على على أى حال يبذل الأموال و يحشد الأنصار فى سبيل القضاء على حركة المشروطيه فى بلاده، و كان الشعاع الذى رفعه فى ذلك هو أن الدستور بدعه مخالفه للشريعة الإسلاميه. أما أنصار المشروطيه فكان يتزعمهم السيد محمد الطباطبائى و السيد عبد الله البهبهانى. و بهذا انقسم الشعب الايرانى إلى حزبين متطاحنين، و صار كل حزب منهم يكفر الحزب الآخر و يدعو إلى محاربتة.

تألفت فى طهران و أكثر المدن الإيرانية نواد أو مجالس محليه تشبه تلك التى ظهرت فى فرنسا إبان ثورتها الكبرى، و قد أطلق عليها اسم "الأنجمن". فكانت هذه النوادى تجمع التبرعات و تحشد الأنصار و تدربهم على السلاح بغية الدفاع عن المشروطيه. و كثيرا ما شوهد رجال الدين بعمائمهم و هم يتدربون على استعمال البنادق معتقدين أنهم يقومون بواجب الجهاد فى سبيل الله.

و بعد صراع عنيف بين الشاه و المجلس النيابى استطاع الشاه فى حزيران ١٩٠٨ أن يوجه للمشروطيه ضربه قاصمه، فأعلن الأحكام العرفيه و وجه جنود "القوزاق" بقياده لياخوف الروسى لتطويق المجلس، ثم أمر بإطلاق المدافع عليه. و انتشر الرعب فى طهران، و أخذ أنصار المشروطيه يلوذون بالفرار، فاستطاع بعضهم أن يلتجئ إلى المفوضيه البريطانيه و ينجو بنفسه بينما وقع البعض الآخر فى قبضه القوات الحكوميه. و قد شق من المقبوض عليهم اثنان أحدهما الميرزا جهانكير خان صاحب جريده "صور إسرافيل" الثوريه، و الثانى هو الميرزا نصر الله الأصفهانى الذى كان من أشد وعاظ المشروطيه تأثيرا فى الجماهير حتى كان يلقب بـ "ملك المتكلمين" و هو الذى لا يزال تمثاله قائما فى أحد شوارع طهران.

و بعد أن انتصر الشاه فى طهران أبرق إلى ولاته فى أنحاء إيران يأمرهم بالغاء المشروطيه و تشتيت شمل أنصارها و سد نواديههم. و أخذ الولاة ينتقمون من أنصار المشروطيه، فكانوا يجلدون من يقع فى أيديهم منهم أو يبعدون أو يحبسونه...

لم يهنأ الشاه بانتصاره طويلا، فقد هبت الثورات عليه فى بعض المدن، و كان أهم هذه الثورات تلك التى نشبت فى تبريز إذ استطاع أنصار المشروطيه فيها أن ينظموا أنفسهم تنظيما جيدا و تمكنوا من السيطرة على المدينه فتره غير قصيره من الزمن، و قد شجعت هذه الثورة أهل رشت لأن يقوموا بثوره مماثله، و تحركت القوات الرشتيه نحو مدينه قزوین فاحتلتها ثم توجهت نحو طهران. و جاءت الضربه القاصمه أخيرا على يد الحاج على قلى خان رئيس قبائل البخترية فى منطقه أصفهان و هو المعروف بلقب "السرदार أسعد"، فقد حشد هذا الرجل قوات مقاتله بلغ عدد أفرادها ألفين و معها عدة مدافع. و فى حزيران من عام ١٩٠٩ توجه السرदार أسعد بقواته نحو طهران، و التقى على مقربة منها بالقوات القادمه من رشت، و فى ١٢ تموز دخل طهران فاتحا. و عند هذا أدرك الشاه حواجه موقفه فالتجأ إلى المفوضيه الروسيه طلبا للسلامه، و أعلن الثوار عزله عن الملك و تتويج ابنه أحمد الذى كان فى الثانيه عشره من عمره.

إن هذه الأحداث الصاخبة التي حدثت في إيران لا يمكن أن تمر دون أن يكون لها صداها في المجتمع العراقي. و الواقع أن الرسائل و الاستفتاءات أخذت تنهال من إيران على كبار المجتهدين في النجف تسألهم عن المشروطية هل هي حلال أم حرام. و كان جواب المجتهدين في أول الأمر أن المشروطية موافقه للشريعة الإسلامية، غير أنهم انقسموا بعدئذ على منوال ما انقسم علماء إيران، فادى ذلك إلى ظهور الجدل و التنازع في أوساط العامه مما كان له أثره البالغ في المجتمع العراقي و تطور وعيه السياسي.

من أوائل الرسائل التي وردت إلى علماء النجف تستفتيهم في أمر المشروطية كانت هذه الرسالة نقلها بعد ترجمتها إلى العربية:

" إلى حضرات المجتهدين و حفظه الحكمة الالهيه - لا بد و انكم سمعتم بمجلس الشورى الشعبى و أنتم تعرفون جيدا أن هذا المجلس الذى يعمل على حفظ القوانين المستمدة من الطريقه الاثنى عشرية المقدسه لمحو الظالمين و الخائنين و نشر العدل على جميع البلاد و إعلاء شان الرايه الإيرانيه، و يؤسفنا أن عددا من الأنانيين المفسدين أخذوا ينشرون الافتراءات و الأكاذيب من أجل محو المجلس. فنحن ننتظر فتواكم فى بيان تكليف المسلمين فى هذا الشأن".

و على أثر وصول هذا الاستفتاء إلى النجف اجتمع كبار علمائها للجواب عليه، و كانت فتواهم التي اتفقوا عليها هي كما يلي:

" بسم الله الرحمن الرحيم و صلى الله على محمد و آله الطاهرين، و لعنه الله على القوم الظالمين إلى يوم القيامه. أما بعد فبالتأييدات الالهيه و المراحم السماويه و تحت توجيهات الهادى العالى الشأن حضره صاحب الزمان روحنا فداه: إن قوانين المجلس المذكور على الشكل الذى ذكرتموه هي قوانين مقدسه و محترمه و هي فرض على جميع المسلمين أن يقبلوا هذه القوانين و ينفذوها. و عليه نكرر قولنا: إن الاقدام على مقاومه المجلس العالى بمنزله الاقدام على مقاومه أحكام الدين الحنيف، فواجب المسلمين أن يقفوا دون أى حركه ضد المجلس(١) و قد وقع على هذه الفتوى الملا كاظم الخراسانى بالنيابه عن زملائه المجتهدين، و لم يشذ عنهم فى ذلك سوى مجتهد واحد هو السيد كاظم اليزدى إذ امتنع عن التوقيع. و كان امتناع هذا المجتهد بدايه الانقسام بين المجتهدين، ثم أخذ الانقسام يشتد و يستفحل بمرور الأيام.

انقسم أهل النجف إلى فريقين متعادين: أحدهما يدعو إلى المشروطية

بزعامه الملا كاظم الخراساني، و الآخر يدعو إلى الاستبداد بزعامه السيد كاظم اليزدي. و يجب أن لا ننسى في هذا الصدد ما في المجتمع النجفي من ميل مفرط إلى الجدل بوجه عام، فلما جاءت قضيه المشروطيه كانت حافزا جديدا فيه حيث انثال الناس يتجادلون حولها بعنف شديد إلى درجه لم يسبق لها مثيل من قبل. و قد أشار أحد الشعراء إلى ذلك حيث قال:

تغيرت الدنيا و أصبح شرها يروح بافراط و يغدو بتفريط

إلى أين يمضى من يروم سلامه و ما الناس إلا مستبد و مشروطي

حدثني الكتبي النجفي عبد الحميد زاهد: أنه كان في تلك الأيام صبيا يلعب مع أقرانه في الأزقه، فكان الصبيان عند اللعب يقسمون أنفسهم إلى فريقين: مستبده و مشروطه، ثم تشب المعارك بينهم تقليدا لما يقع بين الكبار.

و مما زاد في الطين بله أن الروس أسسوا في النجف قنصليه و عينوا لها رجلا واسع الحليه شديد الدأب في مقاومه المشروطيه هو أبو القاسم الشيرواني، فتم التعاون بينه و بين اليزدي. و استطاع اليزدي أن يستميل إليه الكثير من العامه و مغاوير المحلات من رجال "الزقرت" و "الشمرت"، فكان إذا خرج إلى الصلاه حف به المسلحون من أعوانه و هم يهتفون بالصلاه على محمد و آل محمد - تحديا لأنصار المشروطيه. و صارت الإشاعات تروج في أوساط العامه حول المشروطيه بان المقصود منها هو هدم الدين و إفساد الأخلاق.

و في أحد الأيام ظهر على بعض الجدران في النجف إعلان فيه صورته يد تمسك مسدسا و فيه تهديد لليزدي بأنه سيقتل إذا لم ينزل على إرادته أنصار المشروطيه، فهاج العوام لذلك و صار أنصار المشروطيه عرضه للاعتداء و الضرب في الأسواق و الطرقات بحجه أنهم زنادقه مارقين عن الدين.

الواقع أن الجدل حول المشروطيه لم يقتصر على النجف وحدها بل سرى إلى كربلاء و الكاظميه و بعض المدن الشيعيه الأخرى. حدثني أحد المسنين من أهل الكاظميه عما جرى في هذه البلده من نزاع شديد و جدال حول المشروطيه، فقد كان أكثر العامه من دعاه الاستبداد و يعدون الملا- كاظم الخراساني هو و اتباعه كفارا و لا يكادون يسمعون عن أحد العلماء أنه "مشروطه" حتى ينفضوا عنه و يلعنوه و يتركوا الصلاه خلفه. حاول أحد دعاه المشروطيه، و كان شابا شديد الحماسه أن يجمع التواقيع في تأييدها، فذهب إلى أحد العلماء في الصحن الكاظمي يطلب منه توقيعه و لما وجده يرفض إعطاء خاتمه للتوقيع سحب السجاده من تحته و منعه من الصلاه، و قد حدثت في الكاظميه ضجه من جراء ذلك و هب نفر من مغاوير المحلات فطاردوا الشاب ثم أمسكوا به في أحد الأزقه و اعتدوا عليه اعتداء منكرا، و حين علمت الحكومه بالأمر أرسلت قوه من الجنود لحمايه الاستبداديين، فادى ذلك إلى انكماش المشروطيين و تضاؤل نفوذهم في البلده، و ظل الوضع كذلك فيها حتى يوم إعلان الدستور في البلاد العثمانيه حيث انقلب الوضع إلى عكسه.

من النوادر الأديبه التي تروى عن تلك الفتره أن أحد علماء الكاظميه و هو السيد محمد مهدي الصدر نظم بيتين من الشعر في ذم الاستبداديين، فانبرى الشيخ عبد الحسين الأسدي يرد عليه حيث قام بتشطير البيتين مما أدى إلى قلب معناهما إلى النقيض منه. ننقل فيما يلي البيتين مع تشطيرهما، و قد وضعنا التشطير بين قوسين تمييزا له عن الأصل:

المستبدون قد تاهوا بغيهم (بذاك قد قال قوم و افتروا زورا)

(صم و بكم فهم لا يعقلون كما) لم يجعل الله فى أبصارهم نورا

لو كان يمكنهم أن ينسخوا نسخوا (ما كان فى لوحه المحفوظ مسطورا)

(مالوا لشورى الأولى قد حرفوا علنا) من الكتاب عنادا آيه الشورى

عند إعلان الدستور العثماني

أعلن الدستور فى البلاد العثمانية فى ٢٣ تموز من عام ١٩٠٨، و انتشرت مظاهر الزينه و الابتهاج فى العراق بتلك المناسبه، فكان هذا التحول الفجائى فى موقف الحكومه العثمانية من المشروطيه عاملا مهما فى تدعيم موقف الملا كاظم الخراسانى و أعوانه و انخزال أعوان السيد كاظم اليزدى.

من طبيعه العامه أنهم يستاسدون فى حاله الأيمن من الخطر، فإذا حل بهم الخطر انكمشوا فى بيوتهم و أخذ كل منهم يتبرأ من عمل آخر و يزعم أنه لا دخل له فى الأمور. و هذا هو ما حدث فى النجف عند إعلان الدستور العثماني، فقد انكمش العوام أتباع اليزدى و أصبح الجو ملائما لأتباع الخراسانى يصلون فيه و يجولون. و نظم الشيخ على الشرقى قصيده يهجو بها اليزدى و يتشفى به، كما نظم السيد صالح الحلى بعض الأبيات اللادعه من الشعر قارن فى أحدها بين اليزدى و يزيد.

كان قائم مقام النجف يوم ذاك ناجى السويدي، و هو بغدادى أديب له صلوات حسنه مع أنصار المشروطيه، و قد بذل جهده فى تأييدهم. ثم زار النجف ثريا بك من زعماء الاتحاديين فاجتمع بالخراسانى فى إحدى المدارس الدينيه، فكان يوما حافلا فى النجف ابتهج له الأنصار و ابتاس الخصوم.

و يمكن القول أن بعض الذين كانوا من أنصار اليزدى تحولوا عنه و أخذوا يتملقون للحكومه و يهتفون بأعلى أصواتهم "يعيش الدستور!" - و ليس هذا بالأمر الغريب!

إنذار الخراسانى إلى الشاه

عند ما اشتد الصراع بين الشاه محمد على و أنصار المشروطيه فى إيران وضع الملا كاظم الخراسانى كل ثقله إلى جانبهم، و بذل جهودا كبيره لتدعيم موقفهم ضد الشاه.

كان للخراسانى كاتب نشيط اسمه الشيخ على المحلاتى، فكان هذا الكاتب يأخذ الفتاوى و المقالات التى يصدرها الخراسانى ضد الشاه فيطبع منها آلاف النسخ ثم يرسلها تهريبا عبر الحدود إلى إيران لكى توزع هناك سرا.

و كان لهذه المنشورات أثر لا يستهان به فى تحريض الايرانيين على الشاه و فى عزله أخيرا. نقل فيما يلى ترجمه جزء من أحد تلك المنشورات حيث يخاطب الخراسانى فيه الشاه بشده و يندره و يتوعده:

"يا منكر الدين و يا أيها الضال الذى لا نستطيع مخاطبتك بلقب شاه.

كان المرحوم أبوك أعطى الدستور ليرفع الظلم و التصرفات غير القانونيه عن الشعب الذى كان فى ظلام دامس قرونا عديده حيث أنه لا يوجد فى المشروطيه شىء يخالف الدين... و لكنك من اليوم الأول الذى تبوأته فيه

ص: ١٥٢

عرش السلطه وضعت تحت أقدامك جميع الوعود و الايمان و عملت بجميع الحيل ضد المشروطيه. و قد تجلى لنا خطانا فيك حيث سعت أن تجعلنا آله بيدك ضد المجلس... و الآن سمعنا أنك أرسلت إلينا أحد رجالك المقربين لشراء ذمنا بالذهب، و لست تعلم أن سعادته الشعب أثمن كثيرا من ذهبك... إن ذكرك للدين و الشريعه كذب و هراء أردت بكذبك هذا إغفال البسطاء المتمسكين بالدين لتمنع الدستور و تجعل الناس في ذل و فقر. و على هذا أنت عدو للدين المقدس و خائن للوطن و تشبه السارق الذى يسرق الناس باسم الدين و الشريعه... إنك أنت و المجتهدون المرتزقه الذى يدعون بمخالفه المشروطيه للشرع يتجاهلون حقيقه الدين بان العداله شرط حتى فى الأمور الجزئيه... و إذا حصل تأخر منك عما قلنا فاننا سوف نحضر جميعا فى إيران و نعلن الجهاد ضدك. و لنا فى إيران اتباع كثيرون، و المسلمون كثيرون أيضا. فاننا أقسمنا على ذلك(١).

الوضع فى كربلاء

كان الوضع فى كربلاء يختلف عن الوضع فى النجف من بعض الوجوه، فقد كان فى كربلاء حين ذاك واعظ إيراني من أنصار الاستبداد اسمه السيد أكبر شاه، و كان خطيبا مصقعا له لحيه طويله و تأثير قوى على العامه.

إنه كان يعظ ضد المشروطيه قبل إعلان الدستور العثماني، و ظل يخطب بعد إعلانه من غير أن يخشى أحدا.

و فى شهر آذار من عام ١٩٠٩ وصل إلى كربلاء واعظ إيراني من المشروطيين اسمه الشيخ جواد، و بدأ منذ ذلك الحين نزاع شديد بين الرجلين من على المنابر. و انقسم أهل كربلاء إلى فريقين، كل فريق التزم واعظا، و صار يكفر بعضهم بعضا.

كان قتل الحسين (ع) من المواضيع التى اتخذها الفريقان مستندا لهما فى الجدل. فانصار المشروطيه يعتقدون أن الحسين إنما قتل بسيف الاستبداد و أنه لو كان نظام المشروطيه سائدا فى زمانه لاختاره المسلمون خليفه عليهم بدلا من يزيد. أما أنصار الاستبداد فرأيهم أن المشروطيه تعنى الشورى و أن الشورى هى التى أدت إلى ضياع الخلافه من أهل البيت و وصولها إلى رجل مثل يزيد.

نشرت جريده الرقيب البغداديه فى ١ نيسان ١٩٠٩ وصفا لما كان يحدث فى كربلاء من جدال بين الشيخ جواد و السيد أكبر شاه، و مضمون ما ذكرته الجريده هو: أن الأحرار الايرانيين و العثمانيين استبشروا بوصول الشيخ جواد إلى كربلاء، فغص الجامع بالناس لسماع خطبه المؤثره، و قد ذكر الشيخ ما أمر به النبى من إجراء العدل و المساواه، ثم أشار إلى أن الحسين لم يقتل إلا بسيف الاستبداد، و عند هذا قام أحد أركان "المستبدين" يرد على الشيخ و يثلبه، و هو لم يجرؤ على ذلك من تلقاء نفسه " لأنه أحقر من ذلك " بل كان مدفوعا من قبل حزبه الذين " يريدون ليطفئوا نور الله " و لو لا حضور وكيل المتصرف لحصل ما لا يحمد عقباه، و فى اليوم التالى حضر الشيخ جواد " رغما عن أركان حزب التقهقر " يحيط به الأحرار " إحاطه الهاله بالقمر... فرمى الله بالذل و الخزى أولئك الأضداد لكل فضيله، و عند ذلك تهللت وجوه الأحرار... و تكلم الخطيب بما خطر له من مدح العدل و قدح الظلم، و الثناء على الأحرار و الطعن فى المستبدين الأشرار، فلم يستطع من أولئك الظلمه أحد أن يفوه بكلمه... (٢)

أمرت الحكومه السيد أكبر شاه أن يغادر كربلاء إلى الكاظميه، و قد علقت جريده الرقيب على ذلك فى ٥ نيسان حيث تساءلت عن الفائده من نقل هذا الواعظ من مدينه إلى أخرى داخل العراق و هل أن ذلك سيرفع الضرر الناتج عن خطبه المثيره الداعيه إلى مبادئ الاستبداد و الظلم؟! يبدو أن الجريده كانت تريد من الحكومه أن تبعد الواعظ إلى إيران و تنقذ العراقيين من شره.

كان الايرانيون يعتقدون أن المشروطيه عند تطبيقها فى بلادهم ستكون علاجا ناجعا لجميع مشاكلهم فلا يشكون بعد ذلك من شىء، و لكنهم وجدوا بعد انتصار حركه المشروطيه و عزل الشاه محمد على أنهم وقعوا فى حاله هى أسوأ مما كانوا فيها.

أصبح كل من ساهم فى الحركه طامحا أن ينال أعظم المناصب مكافاه له على جهاده فى سبيل "المله"، و ظهرت عصابات اللصوص فى كثير من الأنحاء يعشون بالأمن و يقطعون الطرق، و امتنع حكام الأقاليم عن إرسال ما عليهم من مبالغ للخزينه المركزيه، و انقسم الناس شيعا و أحزابا كل حزب يعتقد أن رأيه هو الذى يجب أن يتبع فى إصلاح البلاد.

إن قبائل البختياريه حصلت من تلك الفوضى على حصه الأسد، فقد احتلت مدينه أصفهان بحجه حمايه الثوره، و استحصلت من الخزينه المركزيه مبلغا شهريا قدره عشرون ألف تومان بدعوى حراسه الطريق، و ذلك علاوه على ما كانت تجبى من الناس من ضرائب مباشره. و من الطرائف التى رويت فى هذا الصدد أن لصا من قطاع الطرق اسمه نائب حسين الكاشانى نهب ذات مره أحد البختاريين و قال: إن هذه هى حصتى من الغنائم.

و كانت جلسات المجلس الملى تمثل أعجب المشاهد و أدعاها للسخرية، فقد كان الجدل بين النواب عنيفا و الشتائم متبادله، و كثيرا ما شارك المستمعون فيها، و كان كل نائب يريد أن يخطب بحماسة لينال إعجاب الغوغاء، حتى إذا خرج من المجلس توقع أن ينال من أهل الأسواق حمدا و تقديرا. و إذا كان النائب شديد التعصب جهورى الصوت استطاع أن يغلب الآخرين، فى الجدل، ثم يدعى بعدئذ أن الحكومه لم تأخذ برأيه و لو كانت قد أخذت به لا رتقت إيران إلى مصاف الدول العظمى.

كتب الوزير المفوض البريطانى إلى حكومته يقول ما مضمونه. إن الايرانيين سيقون إلى مدى جيلين غير جديرين بالنظام الدستورى. و قد علق أحد البريطانيين الذى كانوا يسكنون فى طهران يوم ذاك على هذا القول إذ وضع اللوم على بريطانيا و اعتبرها مسئوله عن نشر الديمقراطيه فى البلاد التى لا تصلح لها...

من الأعمال التى تورط بها أنصار المشروطيه عند انتصارهم أنهم شنقوا المجتهد الكبير الشيخ فضل الله النورى، و كان شيخا وقورا كبير السن، و قد قام بشنقه على ملاء من الناس رجل أرمنى اسمه يفرم كان مديرا للشرطه

ص: ١٥٣

١- ن م ص ٢٦-٢٧.

٢- عبد الله الفياض (الثوره العراقيه الكبرى ص ٩٩-١٠٠).

حين ذاك، فادى ذلك إلى شيوع التدمير فى أوساط الكثيرين من الناس.

و انتهب الخصوم الفرصه فجعلوا شق الشيخ بمثابة "قميص عثمان" و أقاموا له مجالس الفاتحه و حفلات التابين فى كل مكان، و أخذوا يبالبغون فى تمجيد الشيخ بغيه التشهير بالمشروطيه و أنصارها. و لم يقتصر ذلك على إيران بل سرت عدواه إلى العراق فاخذ خصوم المشروطيه فيه يكثرون من إقامة مجالس الفاتحه على روح الشيخ و ينادون: "أويلاخ، قتل شيخنا مظلوما".

إعلان الجهاد على روسيا

فى عام ١٩١١ حصل اختلاف حول بعض الأمور المالىه بين روسيا و الحكومه الإيرانيه، فزحفت القوات الروسيه نحو مدينه تبريز فاحتلتها، ثم عمدت إلى شق بعض رجال الدين فيها من أجل إرهاب غيرهم، فادى ذلك إلى الهياج العام فى إيران فأعلن رجال الدين الجهاد و أمروا الناس بالتدريب على السلاح. و من طريف ما يروى فى هذا الصدد أن سكان كرمان، و هى بلده تقع فى الجنوب من إيران، تحمسوا للجهاد أكثر من غيرهم و أخذوا يتدربون على السلاح تحت إشراف رجال الدين و هم عازمون عزما أكيدا على غزو روسيا و عزل القيصر. و لم يمر على ذلك سوى مده قصيره حتى ظهرت بالقرب من البلده عصابه من اللصوص و أخذت تقطع الطرق و تنهب القوافل حتى وصل مجال فسادها إلى أبواب البلده. فاستنجد المسئولون فى البلده بالقنصل البريطانى و طلبوا منه قوه لمحاربه العصابه، و قد اعتذر القنصل لهم ثم سألهم متعجبا: لما ذا لا يستطيع المجاهدون أن يحاربوا عصابه صغيره من اللصوص بينما هم يستعدون لمحاربه روسيا كلها. فكان جواب المسئولين: أن المجاهدين إنما يستعدون لمحاربه روسيا لأنها بعيده عنهم، و لكن اللصوص قريبون.

و كانت حركه الجهاد قد انتشرت فى العراق أيضا، فقد أوعز الملا- كاظم الخراسانى بنصب الخيام فى ظاهر النجف و تعبئه المجاهدين فيها استعدادا للزحف على روسيا. و قد نصبت الخيام فعلا و تهيأ الناس للسفر، و امتلأ الجو باهازيج العشائر و الخطب الرنانه.

و فى ليله ١٢ كانون الأول من عام ١٩١١ بينما كان الخراسانى على أهبه السفر شعر بتوعك مفاجئ فى صحته، فاصفر وجهه و اتبته العرق الغزير، و قبل أن تشرق شمس الصباح التالى أدركته الوفاه. فاستدعى إليه طبيب الحكومه، و قد قرر هذا بعد فحصه أنه مات بالسكته القلبيه. و لكن الناس لم يصدقوا ذلك و أخذت الإشاعات تروج بينهم فى أنه مات مسموما بايدى الجواسيس، و انتشرت بينهم قصه مفادها أن رجلا- كان قد أهدى إليه قبيل وفاته تفاحه صفراء و هى التى جرت عليه البلاء(١) تفرق المجاهدون على أثر موت الخراسانى، و طويت الخيام، و انشغل الناس بالنوح على الفقيه و إقامة مجالس الفاتحه و إلقاء القصائد الشعريه فى تابينه.

و فى أواخر آذار ١٩١٢ وصل إلى العراق خبر مفاده أن الجيوش الروسيه قصفت بالمدافع مشهد الرضا (ع) فى خراسان فانهدم جزء من القبه و السقف و أدى ذلك إلى قتل و جرح عدد من الزوار الذين كانوا يتعهدون فيه. و عند هذا ساد الهياج فى مختلف أنحاء إيران و العراق، و وجد المجتهدون فى العراق أن من الضرورى استئناف حركه الجهاد من جديد.

اجتمع فى الكاظميه لفييف من المجتهدين كان فيهم: السيد مهدي الحيدري، و الشيخ مهدي الخالصي، و السيد إسماعيل الصدر، و الشيخ عبد الله المازندراني، و الشيخ فتح الله الأصفهاني، و الشيخ محمد حسين القمشه إي، و السيد على الداماد، و السيد

مصطفى الكاشاني، و قرروا إعلان الجهاد على روسيا على منوال ما فعل الخراساني الراحل.

امتنع مجتهدان كبيران عن الحضور إلى مؤتمر الكاظميه و عن الانضمام إلى حركة الجهاد و هما: الميرزا محمد تقى الشيرازى فى سامراء. و السيد كاظم اليزدى فى النجف. فقرر الشيخ مهدي الخالصى أن يسافر بنفسه إليهما بغية اقناعهما بالانضمام إلى الحركة، و لم يجد الخالصى صعوبه فى اقناع الشيرازى عند ما ذهب إليه فى سامراء، غير أنه عند ذهابه إلى النجف لم يتمكن من الاجتماع باليزدى لمحادثة فى الموضوع إذ كان هذا يتهرب من لقيه المره بعد المره.

و فى أحد الأيام بينما كان الخالصى فى النجف يواصل مساعيه للاجتماع باليزدى وقع عليه اعتداء من قبل بعض العامه، و قد أسرع الخالصى إلى مغادره النجف و العوده إلى الكاظميه درءاً للفتنه. و حين سمع أهل الكاظميه بالحادث تحفزوا لأخذ الثار إذ لم يهن عليهم أن يعتدى أهل النجف على عالمهم دون أن ينتقموا له. و قد بذل الخالصى جهده لتهدئتهم.

كان والى بغداد يوم ذاك جمال بك، و كان على صله وثيقه بالخالصى، فلما سمع بحادث الاعتداء عليه أمر بإلقاء القبض على المعتدين و بسوقهم مكبلين إلى بغداد. و انبرى الخالصى يتشفع لهم عند والى حتى جعله يأمر بإطلاق سراحهم. و فى زحمه هذه الأحداث نسى الناس جهاد الروس و انشغلوا بجهاد بعضهم بعضاً!

نظرة عامه

إننا حين ننظر إلى حركة المشروطيه بوجه عام نستطيع أن نقول إنها على علاقتها كانت ذات أثر اجتماعى و فكرى لا يستهان به فى تطوير المجتمع.

ينبغى أن لا ننسى أن أنصار المشروطيه كانوا فى ذلك الحين يمثلون "الجبهه التقدميه" بالنسبه للمرحله الاجتماعيه التى عاشوا فيها.

فقير الله اللاهورى،

المشهور بأفرين.

توفى سنة ١١٥٤.

من شعراء الهند، له ديوان و هو محفوظ فى مكتبه المتحف البريطانى و تاريخ كتابته سنة ١١٤٧ و هو يضم أربعة آلاف بيت من الشعر فيها الغزل و المخمس و قصائد فى مدح النبى (ص) و رثاء الحسين (ع). و من آثاره منظومه قصصيه باسم (ناز و نياز) تروى حب هير لبارانجها.

و هناك شاعران آخران مشهوران بأفرين، أحدهما شمس الدين المشهدى و مير زين العابدين الأصفهاني (١١٢٥).

الشيخ قاسم حرج ابن الشيخ محمد

الشهير بحرج الوائلى.

ولد فى النجف سنة ١٣١٩.

درس فى النجف علوم اللغة العربيه و الأصول و الفقه، ثم ترك النجف متنقلا بين البصره و الشطره مترددا أحيانا إلى النجف. أراد أن يؤلف (مختصر الأغاني) و لكنه لم يكمله، كما لم يكمل منظومه فى المنطق.

له شعر منه قصيده فى رثاء الشيخ جواد الجواهرى يقول فيها:

لسنا إذا اكتظ الندى وعى فيه لداته

ثبتا إذا رجفت بساحات النضال كماته

لم أنس نهضته غداه أتى العراق غزاته

بفيالق من لندن غصت بها فلواته

عاثت كان لم تدر ان الغاب فيه حماته

حتى إذا انتهكت بفعل طغاتهم حرماته

مطرت فيالقهم حماما فى الوغى عزماته

فى معرك شوك الحديد مصايدها حافاته

و الجوق قد رصدت بسرب الطائرات جهاته

و الشمس فيه تنقبت و نقابها هبواته

لله فصل ملاحم قد مثلت ماساته

زرع بذرنا بذره و لغيرنا ثمراته

دع ذكر معترك به ذهبت سدى حركاته

للآن مائله أمام عيوننا و يلاته

بقيت و تبقى فى النفوس تحزها و خزاته

و قال:

خسر الغرى مشايخا لوجوههم نور أضاء الخافقين تمامه
فى رحمه البارى انطوت ارواحهم فعليهم من ذاهبين سلامه
عبث الردى بنفوسهم فتبددت كالماء مسكوبا تكسر جامه
و بغفله العلم الجليل تعطلت عرصاته فتعطلت أحكامه
كان الندى يفيض روحانيه منهم و يطفح بالجلال نظامه
و الجو من نشر الفقاهه منعش كسمااء ورد فتحت أكامه
من بعدهم للشرع ينشر فقهه؟ و بمن يبين حاله و حرامه؟
الله يحفظ من زمان مقبل سور علينا بعدهم أيامه
بلد تعظمه الشعوب كأنه تاج تالق فى الشعوب و سامه
ضم النهى و اللوذعيه و الابا و تقدست ذكواته و إكامه
من كل قطر بعته فى ربه لجب بنشاء الطالبين زحامه
و حلیمه يدعى لكل عظيمه و تغيث إن خطب عرا أحلامه
الله آثره بمجد خالد رأس على رغم الخطوب شمامه
قدر الخليفه فيه شرف قدره و ييمنه لا يستباح ذمامه
إن دام فيه سلوكم فى أمره قحط الرجال يطول فيه دوامه
نشء يبذ بفظنه و نباهه لو كان فى يد مخلصين زمامه
ويح له قد شتته عصابه نفعيه أعياء عليه وئامه
بيد الضياع و حسبنا من قد بقى فإذا أضيع على الرئيس أثامه

الشيخ كاتب الطريحي ابن الشيخ راضي.

ولد في النجف سنة ١٣٠٣ و فيها درس علوم اللغة العربية و الأصول و الفقه. أقام في الكوفة و ساهم في حرب الإنكليز في أول احتلالهم للعراق في جبهه القرنه و جبهه الكون.

من شعره قوله يرثى الحسين ع من قصيده:

بنفسى ظمآن الحشاشه طاويا قضى ظما و الماء يطفح طاميا

بنفسى وحيدا و العدى عدد الحصا و لو لا القضا الجارى لأفنى الأعدايا

بنفسى بنات الوحى أصحت حواسرا تجوب بها عجف النياق الفيايا

بنفسى رأس السبط من فوق أسمر بصبح محياه يحيل الدياتيا

بنفسى جسما رملته يد العدى فأصبح فى وجه البسيطة عاريا

و قال يرثى مسلم بن عقيل من قصيده:

قفا نسأل الربيع الذى قد تهدما متى آب من نور الامامه مظلما

أما كان مثوى للعفاف و ملجا أ شطت أهاليه فأمسى مهدهما

لقد كان للهلاك كعبه أنعم فهل يا ترى من كفه بعد أنعما

هلما معى نسكب هنالك أدمعا من القلب مجراها و نندب مسلما

رسول ابن خير المرسلين و سيدا به شيد الرحمن للدين أرسما

و نجعتها من آل غالب أصيدا يعد الوغى عيدا إذا الجيش صمما

يصول عليهم مصلتا سيف عزمه فيوردهم بحر المنيه مفعما

هزبر بصدر الجمع يركز رمحه و من دمهم يروى الحسام المخدما

كمى يرى الأعداء سطوه حيدر بيوم به ليث العرينه أحجما

فما كنت أدرى كيف سلم مسلم و لكن قضى الرحمن أمرا فسلما

فشلت يدا بكر بن حمران إنه أطاح عماد الدين مذ جسمه رمى

باسواقهم أضحى يجر و هانيا فيا قلب ذب وجدا و حزنا عليهما

كمال الدين سحابى الأسترآبادى

المشتهر بسحابى شوشترى أو سحابى نجفى.

توفى فى النجف سنه ١٠١٠.

من شعراء القرن العاشر و عرفائه. أبوه من أسترآباد و ولد هو فى شوشتر، و عاش أربعينيات آخر عمره فى النجف حتى وفاته. و كانت دراسته فى النجف معروفا من فقهاء زمانه.

جعل من نفسه كناسا لمرقد أمير المؤمنين ع، و كان لا يملك من حطام الدنيا إلا حصيره و إبريقا، و كان أكثر خدمه المرقد يحبونه و يحترمونه و يقولون إن له كرامات.

له: كليات سحابى. و رساله العروه الوثقى المشتمله على النثر و الشعر، و فيها أربعة فصول: ١ - البصره. ٢ - اللابصيره. ٣ - كيفيه طهور الشراب. ٤ - الرجوع إلى الله.

و له: ديوان غزل فيه ٢٨٠٠ بيت من الشعر. و له مجموعيه رباعيات.

الشيخ لطف الله بن عطاء الله الحويزى:

ذكره الحر العاملى فى أمل الآمل، فقال: عالم فاضل متبحر معاصر، له كتاب (شرح الشرائع) و غير ذلك. اه.

أقول و للشيخ الحويزى هذا كتاب اسمه (منتهى الوصول فى شرح زبده الأصول) مرقم ب (١١١٨) فى مكتبه السيد شهاب الدين النجفى المرعشى فى مدينه قم.

ص: ١٥٥

و نقل صاحب (أنوار البدرين) عن (تتمه أمل الآمل) للسيد محمد بن علي بن أبي شبانه البحراني، ترجمه للشيخ لطف الله بن عطاء الله بن علي بن لطف الله البحراني، أثنى عليه بما لا مزيد عليه و قال له شعر يقرأ في المجالس الحسينيه و الظاهر أنه من قريه جد حفص.

و قال العلامة الطهراني في الذريعه قسم الديوان، صفحه ٩٤٤:

(ديوان الشيخ لطف الله) بن محمد بن عبد المهدي بن لطف الله بن علي البحراني، الذي صحح بعض أجزاء شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد سنه ١١٦٤ هـ. و له رثاء في الامام الحسين (ع) نقله حفيده و سميّه الشيخ لطف الله بن علي بن لطف الله الجد حفصي البحراني المذكور آنفا في مجموعته كتبها سنه ١٢٠١ هـ و للحفيد هذا أيضا ديوان و مراثي في الامام الحسين (ع).

أقول و يظهر من المقارنات الزمنيه أن الشيخ لطف الله بن عطاء الله الحويزي متحد مع الشيخ لطف الله بن عطاء الله بن علي بن لطف الله البحراني و ان الذين ذكرهما صاحب الذريعه هما من أقارب المترجم لأنه متقدم عليهما، إذ أنه من معاصري صاحب الأمل فهو من رجال القرن الحادي عشر الهجري.

فمن شعر الشيخ لطف الله المترجم قوله من قصيده:

وصلنا السرى بالسير نقطعها قفزا مهامه لا تهدي إليها القطا أثرا

يضل بها الخريت أن حل أرضها و ترصدها الجربا فتقذفها سعرا

على يعملات كالقسي تفاوضت أحاديث من تهوى فطاب لها المسرى

تسابق أيديها على السير أرجل قدحن من الصلد الصفاه لها جمرا

و ما إن زجرناها و لكنها متى تلهف ملهوف توهمه زجرا

و ما اتخذت مناد ليلا و إنما تخب و تستقرى إذا انتشقت عطرا

إلى أن أجازت ساحه الحى و انتهت إلى دار من تهوى و قد أقفرت دهرا

فلما عرفن الدار حنت و انهرمت فلم تنبعث في السير أرجلها شبرا

فملنا عن الأكوار للأرض سجدا فسابقت الأجفان أفواها فخرا

وعدنا فسلمنا سلاما فسلمت ثلاثا فسلمنا عليها بها عشرا

الشيخ محسن الجواهري ابن الشيخ شريف.

ولد فى النجف سنة ١٢٩٥ و توفى سنة ١٣٥٥.

درس فى النجف ثم قام برحلات إلى البحرين ثم خوزستان حيث استقر فى مدينه الفلاحيه. و لما قاد السيد محمد سعيد الجبوبي المجاهدين العراقيين فى معارك الشعبيه خلال الحرب العالميه الأولى انضم إليه على رأس من ساروا معه من خوزستان. و بعد الهزيمه فى الشعبيه عاد إلى النجف. و لما تم احتلال الإنكليز للعراق عاد إلى الفلاحيه، ثم انتقل إلى الأهواز سنة ١٣٤٨ فبقى فيها مرشدا دينيا حوالى سبع سنين. ثم مرض و لما اشتد عليه المرض قرر العوده إلى النجف، فلما وصل البصره توفى فيها، فنقل جثمانه إلى النجف الأشرف فدفن فيه.

ترك عده مؤلفات منها: الفرائد الغوالى فى شرح شواهد الأمالى للسيد المرتضى فى أربعة أجزاء. و شرح ديوان ابن الخياط (طبع). و الرد على ابن أبى الحديد، لم يتمه. و من شعره قوله مديلا:

(أما و الله لو تجدين وجدى لما وسعتك فى بغداد دار)

و لا استعذبت بعدى صفو عيش و عيشى قد أديف به المرار

و لا أبقت لك الأفكار قلبا و قلبى لا يقر له قرار

أبيت مسهدا أرعى الدرارى يؤرقنى لمن أهوى اذكار

و يقلقنى الأسى جزعا كانى أسير عض ساقيه الأسار

عجيب منك أن تحيى سعيدا و جسمى قد أذابته القفار

و تنعم وادعا بمراح أنس و طى حشاي من ذكراك نار

و كيف هناء ذى ود صحيح و من أحبابه شط المزار

و قوله:

قفى يا نفس وقفه ذى اعتبار فحتم انقيادك للصغار

إلى م و أنت شمس ذوى المعالى خفاؤك تحت ابراد السرار

يغرك من ذوى القربى ابتسام و قد طبعوا على الحقد المثار

إذا سمعوا جميل الذكر عنى حسبت وجوههم طليت بقار

أصافح منهم طلق المحيا يود بان أرى رهن الأسار

أروم علوه فيروم خفضى و أجبره و يجهد فى انكسارى

لئن غطيتم فضلى فانى ساكشف عنكم فضل الإزار

فدونك فاطرح قوما بقوم كرام و اتخذ دارا بدار

فكل مقام ذى شرف مقامى و كل جوار ذى عز جوارى

أيرقد فى مهاده الضيم هونا كريم ماجد زاكى النجار

تردى ثوب مكرمه و عز غداه الفخر ليس بمستعار

يرد بعزمه صرف الليالى و ابيض تحت ليل النقع وارى

و له مشيدا بفضل أبى طالب و ذريته:

إلى كم أمنى النفس بالعز و النصر و أفزع من جور الليالى إلى الصبر

و ألقى خطوط الدهر فردا و لا أرى كريما يذود الخطب بالأسل السمر

و أطوى حنايا أضلعى من حوادث تهاوت على قلبى كصاليه الجمر

و كم ذا أرى فىء النبى مقسما برغم حماه الدين بين ذوى الغدر

فلا تكفرى النعم لوى بن غالب فان رسول الله أجدر بالشكر

أليس الذى أدنى إلى الظل غالبا و أسكنها دون البريه فى الصدر

و سن لها نهج الهدى و أحلها محل على أربى على هامه النسر

به سلكت سبل المعالى فأصبحت تهادى بفضل الدين فى حلل الفخر

فكم خالفت دين النبى و ضيعت حقوقا رعاها الله فى محكم الذكر

فسل من حمى المختار كهلا و يافعا و من رد عند البيت عاديه الكفر

و من ذا أباب المرتضى فى مكانه مخافه بغى الكاشحين أولى الغدر

و من ذا دعى للدين و النصر جعفرًا و حمزه و الهادى من الكفر فى حصر

و ما زال يدعو للهدى و يحوطه إلى أن قضى مستوجب الشكر و الأجر

و لما قضى قامت بنوه مقامه لرد الأعدى عنه بالبيض و السمير

فسل من فدى الهادى بمكه و العدى ترقب فى أوتارها مطلع الفجر

و من فرق الأحزاب يوم تجمعت قريش و طارت أنفس القوم من عمرو

محمد إبراهيم القزوينى.

ولد فى قزوين سنه ١٠٢١ و توفى فيها سنه ١٠٩٠.

ساح أيام شبابه فى كثير من البلاد ثم عاد إلى قزوين، و بعد فتره تركها

ص: ١٥٦

١- السيد هادى باليل الموسوى.

إلى أصفهان و خالط هناك الميرزا جلال الأسير، ثم سافر إلى الهند و صاحب هناك كلا من كلیم كاشانی و الحاج محمد جان القدسی المشهدی، و أثرى فى الهند فعاد إلى قزوین فتوزعت ثروته بين الأقارب و الأشراف، فعاد إلى الهند ثم رجع إلى قزوین. و فى موضع الذى توفى به أرسل له الشاه مبلغا من المال فرفضه.

قدر قلبى ببيك مجموع أشعاره و هو فى السادسة و الخمسين من عمره بعشرين ألف بيت، و يقول خوش گو فيما دونه أنها ثلاثون ألف بيت. و له ديوان مخطوط فى مكتبته مجلس الشورى الايرانى يحتوى على ١٠٨٠٠ بيت.

و له المثنوى:(محيط الكونين) فيه ثلاثة آلاف بيت.

و وصف شعره بأنه سلسل مفهوم غير معقد لا سيما فى المثنوى (محيط الكونين).

و فى محيط الكونين مذكراته عن أسفاره من قزوین إلى تبريز ثم إلى بغداد فالعنتبات المقدسه فى العراق، ثم رجوعه إلى قزوین عن طريق همذان، ثم سفره إلى الهند بطريق أصفهان و شیراز. و وصف معالم البلاد و لقاء العلماء و الأدباء و الشعراء، و ذكر العرفاء. و قد انتهى من نظمه سنة ١٠٦١.

و يعتبر فى مجموع شعره من شعراء عصره المتوسطين، على أنه فى غزلياته لا سيما منها ما فى محيط الكونين كان غزليا بارزا يساق شعراء الغزل فى القرن العاشر.

و لا بد كذلك من الإشارة إلى شعره فى العرفان و الأخلاق(١)

الشيخ أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن أبي الثلج عبد الله بن إسماعيل

إشارة

الكاتب البغدادي

المعروف بابن أبي الثلج.

ولد سنة ٢٣٧ و توفى سنة ٣٢٢ أو ٣٢٣ أو ٣٢٥.

ذكره فى أعيان الشيعة الجزء التاسع صفحة ١٠١ من الطبعة الأخيرة فى ترجمه مختصره فبعد ذكر اسمه قال: (فى طبقه سعد بن عبد الله له كتاب ذكر من قال بالتفضيل من الصحابه)(٢) و دون عام وفاته سنة ٣٠١ و هو خطأ جزما حيث أرخ سنة وفاته الشيخ أبو جعفر الطوسى فى رجاله سنة ٣٢٥(٣) و كذلك غيره من المتقدمين، كما سمع منه التلعكبرى من عام ٣٢٢ إلى ٣٢٥ كان المترجم له من أئمة الحديث و علماء الشيعة الميرزين، مفسر متكلم مؤلف مكثر أدرك فى شبابه الامام على الهادى و الامام الحسن العسكري ع و أخذ العلم و الفنون الإسلاميه عن أكابر علماء الفريقين و حضر فى الحديث و الفقه على جده محمد بن أبى الثلج عبد الله، و أبى عبد الله جعفر بن محمد بن جعفر الحسينى المتوفى سنة ٣٠٨ صاحب كتاب (التاريخ العلوى)، و أبو زيد

عمر بن شبة، وقاسم بن محمد المرزى و محمد بن همام الإسكافى وغيرهم.

تصدر المترجم له كرسى التدريس و تخرج عليه جماعه منهم أبو المفضل الشيبانى و الشيخ أبو محمد هارون بن موسى التلعكبرى المتوفى سنة ٣٨٥ و سمع منه من سنة ٣٢٢ إلى سنة ٣٢٥ و فيها مات المترجم له و الشيخ أبو نصر محمد بن الحسين المقرئ من مشايخ الشيخ المفيد المتوفى سنة ٤١٣ و القاضى أبو الفرج معافى بن زكريا و أبو الحسن الدارقطنى و أبو حفص بن شاهين و أبو بكر الدورى وغيرهم.

أقوال العلماء فيه:

ذكره ابن النديم فى أكثر من موضع من كتابه الفهرست و وصفه بعد ذكر اسمه و شهرته قائلا: (... خاصى عامى و التشيع أغلب عليه. و له روايه كثيره من روايات العامه و تصنيفات فى هذا المعنى و كان دينا فاضلا ورعا و نحن قد ذكرناه قبل هذا و توفى... و له من الكتب، كتاب السنن و الآداب على مذاهب العامه. كتاب (الفضائل) فضائل الصحابه، كتاب الاختيار من الأسانيد(٤) قال أبو العباس النجاشى فى رجاله (محمد بن أحمد بن عبد الله بن إسماعيل الكاتب أبو بكر يعرف بابن أبى الثلج و أبو الثلج هو عبد الله بن إسماعيل ثقه عين كثير الحديث له كتب... قال أبو المفضل الشيبانى حدثنا أبو بكر بن أبى الثلج و أخبرنا ابن نوح قال حدثنا أبو الحسن بن داود قال حدثنا سلامه بن محمد الأرزنى قال حدثنا أبو بكر بن أبى الثلج بجميع كتبه(٥) و نقل عنه الشيخ محمد الأردبيلى الحائرى فى كتابه جامع الرواه ج ٢ ص ٦٣ كما وثقه العلامة الحلى المتوفى سنة ٧٢٦ فى رجاله ص ١٦١ الطبعه النجفيه و قال شيخ الطائفة الشيخ أبو جعفر محمد الطوسى المتوفى سنة ٤٦٠ فى رجاله (محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبى الثلج الكاتب بغدادى خاصى يكنى أبا بكر سمع منه التلعكبرى سنة اثنتين و عشرين و ثلاثمائه و ما بعدها إلى سنة خمس و عشرين و فيها مات و له منه إجازة(٦) و ذكره فى الفهرست أيضا(٧) و ترجمه شيخنا الأستاذ آغا بزرك الطهرانى فى طبقات أعلام الشيعة و أشار إلى مؤلفاته فى موسوعته الذريعه إلى تصانيف الشيعة و قال فى مصفى المقال: (الشيخ الجليل أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن إسماعيل الكاتب المعروف بابن أبى ثلج المتوفى سنة ٣٢٥ هجرية يروى عنه أبو محمد هارون التلعكبرى إلى التاريخ، و يروى عنه أيضا أبو المفضل الشيبانى، قال النجاشى: هو عين ثقه كثير لحديث [الحديث] و عد من تصانيفه كتاب تاريخ الأئمة و أخبار النساء المحمودات و أخبار فاطمه و الحسن و الحسين (ع) و كتاب من قال بالتفضيل من الصحابه و غيرهم و أبو الثلج كنيه جده الأعلى عبد الله بن إسماعيل كما صرح النجاشى و غيره(٨) ذكره سيدنا الأستاذ السيد شهاب الدين المرعشى النجفى فى مقدمه مجموعه نفيسه فى تاريخ الأئمة و لم يتطرق إلى تاريخ حياته و طبع كتابه المذكور (تاريخ أهل البيت (ع) بتحقيق السيد محمد رضا الحسينى الجلالى و لم يتطرق إلى حياه المؤلف و قال: (و نسب الكتاب إلى ابن أبى الثلج البغدادي جزم بذلك جمع من الاعلام منهم شيخنا

ص: ١٥٧

١- تاريخ أدبيات إيران.

٢- انظر أعيان الشيعة ج ٩ ص ١٠١ بيروت دار التعارف سنة ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.

٣- انظر رجال الطوسى تحقيق السيد محمد صادق آل بحر العلوم ص ٥٠٢ الطبعة النجفيه الأولى سنة ١٣٨٠ [١٣٨٠] هـ - ١٩٦١ م.

- ٤- ابن النديم: الفهرست تحقيق رضا تجدد ص ٢٨٩ طهران الطبعة الأولى مطبعة جامعه طهران.
- ٥- أبو العباس أحمد النجاشي: رجال النجاشي ص ٢٧٠ الطبعة الحجرية الأولى بيئي [بمبئي] سنة ١٣١٧ هجرية.
- ٦- الشيخ أبي جعفر محمد الطوسي: رجال الطوسي تحقيق السيد صادق بحر العلوم ص ٥٠٢ الطبعة النجفيه الأولى/١٣٨٠ هـ.
- ٧- انظر الفهرست لشيخ الطائفة الشيخ الطوسي: ص ٦٣ مشهد جامعه مشهد.
- ٨- انظر مصفى المقال فى مصنفى علم الرجال ص ٣٩١ طهران الطبعة الأولى ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٩ م.

الطهراني استنادا إلى الجهد البالغ الذي بذله في الكتاب و هو الظاهر من تكرار ذكره فيه فإنه كثيرا ما يستدرك على الفريابي و غيره ما فاتهم و كذلك جزم السيد الشهيد القاضى الطباطبائي بان المؤلف هو ابن أبى الثلج فطبعه منسوبا إليه و كذلك جاءت هذه النسبه من غير ترديد فى ما كتبه السيد المرعى فى مقدمه طبعته للكتاب لكن: أولا: أن كثيرا من الطرق لم يرد فيها ذكر لابن أبى الثلج أصلا و هى الطرق التاليه...

و ثانيا: أن الكتاب يحتوى على ما يتأخر عن عهد ابن أبى الثلج كما فى فصل الأبواب و الكلام عن وفاه السمرى و سد باب النيايه فى سنه ٣٢٩ بينما ابن أبى الثلج قد توفى سنه ٣٢٥ هجرىه على أبعد تقدير... (١) يقول عبد الحسين الصالحى: أن الشواهد التى ذكرها السيد الجلالى هذا لا تعنى أن الكتاب لم يكن من مؤلفات ابن أبى الثلج و هناك احتمال ثانى و هو أن بعض علماء الشيعة أضاف إليه حواشى ثم أدرجه بعض الكتاب فى متن الكتب و هذا ما حدث كثيرا فى مؤلفات أصحابنا الاماميه و ذكرته فى كتابى طبقات مفسرى الشيعة الذى نقلت عنه هنا و المترجم له والد خديجه البغداديه المحدثه التى روت عن أبيها ابن أبى الثلج و ذكرها الخطيب البغدادى فى كتابه تاريخ بغداد ج ١٤ ص ٤٤٢.

و مما يجدر ذكره هنا أن ابن أبى الثلج كان يعيش فى عصر كانت فيه بغداد تمر فى فتره تعصب أعمى لذا نرى أن ابن النديم يقول: (خاصيعامى و التشيع أغلب عليه...). و هو من أسره شيعيه معروفه فى بغداد.

ترك المترجم له مؤلفات منها: ١ - كتاب ما نزل من القرآن فى أمير المؤمنين ع. ٢ - كتاب البشرى و الزلفى فى فضائل الشيعة. ٣ - كتاب تاريخ الأئمه ع. ٤ - كتاب أخبار النساء الممدوحات.

٥ - كتاب أخبار فاطمه و الحسن و الحسين ع، ٦ - كتاب من قال بالتنزيل من الصحابه، ٧ - كتاب السنن و الآداب على مذاهب العامه، ٨ - كتاب الفضائل، ٩ - كتاب الاختيار من الأسانيد. ١٠ - التفسير (٢)

خواجه محمد بن إسحاق البخارى،

المشتهر ب (شوكت).

من شعراء أواخر القرن الحادى عشر و أوائل القرن الثانى عشر الهجريين. و هو من أعقاب ملوك بخارا، كان أبوه صرافا فى بخارا و قد عمل هو نفسه فى أيام شبابه بالصرافه، ثم بعد أن سرق الأوزبكيون أمواله سنه ١٠٨٨ سافر إلى مدينه هرات، و بعد الإقامه فيها فتره تركها إلى خراسان، ثم إلى العراق، ثم إلى أصفهان. و فى أصفهان استقر و عاش فى مقابر خارج المدينه منسوبه إلى الشيخ الكبير على بن سهل بن أزره الأصفهانى، و كان قليلا ما يخرج من غرفته إلى المدينه، فإذا خرج فلكى يتصل بالشعراء و ببعض أصدقائه. على أنه بعد فتره ابتعد عن الناس جميعا.

توفى سنه ١١١٧ له دواوين و قصائد فى مدح الامام الرضا ع، و كذلك فى مدح سعد الدين محمد راقم (٣)

الشيخ فخر الدين محمد بن الشيخ الملا أسد الله بن عبد الله البروجردى.

توفى حدود سنه ١٣٠٦.

من أكابر الفقهاء وأئمة الدين و مراجع التقليد فى بروجرد أديب متفنى شاعر متقن أخذ المقدمات و العلوم العربيه على أفاضل علماء عصره فى بروجرد و حضر فى الفقه و الأصول على والده ملا أسد الله البروجردى المتوفى سنة ١٢٧١ ثم توجه إلى قزوین فحضر فى الفلسفه على الملا آغا الحكمی و ميرزا عبد الوهاب البرغانى الصالحى حيث كانت فى قزوین آنذاك أهم المدارس الفلسفيه. و حضر فى الفقه و الأصول على الشيخ محمد صالح البرغانى الحائرى المتوفى سنة ١٢٧١ و شقيقه الشهيد البرغانى المستشهد فى سنة ١٢٦٣ ثم رجع إلى موطنه بروجرد و أصبح من مراجع الأمور الشرعيه قائما بالوظائف الإسلاميه ذكره فى المجلد الثالث ص ٢٨٦ من أعيان الشيعه مع ترجمه والده الشيخ أسد الله و قال (... و خلف ثلاثة أولاد ذكور من ابنه الميرزا القمى صاحب القوانين و هم المحمدون الثلاثة الميرزا فخر الدين محمد (و هو المترجم له) و جمال الدين محمد و نور الدين محمد أجازهم أبوهم باجازه واحده و صرح باجتهدهم...)(٤) و ذكره الوزير الايرانى الميرزا محمد حسن خان اعتماد السلطنه فى كتاب المآثر و الآثار على أنه من أكابر علماء العصر القاجارى و وصفه (... من أكابر المجتهدين و من أهل الذوق و العرفان و كانت له رئاسه تامه فى بروجرد و ضواحيها و له أشعار. رأيت له ديوان شعر مثنوى و له ذريه و أولاد كثيرون...)(٥) من آثاره ديوان شعر، و ديوان مثنوى(٦)

مير محمد أفضل الله آبادى

المشهور ب (ثابت).

توفى سنة ١١٥١ فى دهلى و كان مولده فى الله آباد بالهند، و فيها درس، و ما أسرع أن اشتهر بالشعر.

سافر إلى جهان آباد دهلى و التحق بقصر الملك، و لم يطل الأمر حتى اعتزل هذه الحياه و بدأ بإرشاد الأصحاب.

له ديوان يحتوى على ثلاثة آلاف بيت من الشعر و هو محفوظ فى المكتبه البريطانيه، يتضمن قصائد فى التوحيد و مدح النبى (ص) و الأئمه ع و بعض معاصريه، و فى أوله مثنوى فى رثاء شهداء كربلاء، و غزليات و رباعيات و مخمسات.

و فى سنة ١٢٢٨ طبع له ديوان فى الهند، لكن الظاهر أنه ليس له لأن فيه أشعارا ركيكه، و يبدو أنه وقع اشتباه بينه و بين شاعر هندى اسمه ثابت، استنتج مير غلام على آزاد.

للمترجم المطولات فى استشهاد أبطال كربلاء، و أيام شهر الحرم(٧)

الشيخ أبو الفضل محمد بن الحسين الكاتب البيهقى.

توفى فى صفر سنة ٤٧٠.

من أعيان علماء الشيعه فى بيهق مؤرخ كبير مؤلف محقق زعيم أخذ

- ١- مقدمه تاريخ أهل البيت ع بقلم السيد محمد رضا الحسيني ص ٥٤-٥٥ قم مؤسسه آل البيت ع.
- ٢- الشيخ عبد الحسين الصالحى.
- ٣- تاريخ أدبيات إيران.
- ٤- انظر أعيان الشيعة ج ٣ ص ٢٨٦ بيروت دار التعارف للمطبوعات.
- ٥- الميرزا حسن خان اعتماد السلطنه: المآثر و الآثار ص ١٦١ الطبعة الحجرية الأولى طهران.
- ٦- الشيخ عبد الحسين الصالحى.
- ٧- تاريخ أدبيات إيران.

العلم عن جماعه من أفاضل بيهق ثم انخرط فى سلك بلاط السلطان محمود حتى بلغ منصباً كبيراً فى البلاط الملكى. كتب عنه أبو الحسن على بن زيد البيهقى فى كتابه تاريخ بيهق بما هذا تلخيصه و تعريبه: (الشيخ أبو الفضل محمد بن الحسين الكاتب البيهقى تزعم فى بلاط السلطان محمود نيايه عن أبى نصر بن مشكان ثم ترأس فى منصب كبير أيام السلطان محمد بن محمود و ظل فى البلاط السلطانى رئيساً للبلاط فى عهد كل من السلطان مسعود و السلطان مودود و السلطان فرخ زاد و بعد وفاه السلطان فرخ زاد انعزل و انقطع إلى التأليف و التصنيف. و من مؤلفاته كتاب (تاريخ ناصرى) لأنه شرع بتأليفه من أيام السلطان ناصر الدين سبكتكين إلى أول عهد السلطان إبراهيم الغزنوى و هو يزيد على ثلاثين مجلداً رأيتها متفرقه فى المكتبات و عند الأشخاص و لم أجد لها مجتمعه فى مكان واحد...) (١) ذكره شيخنا فى موسوعته طبقات أعلام الشيعة و قال (... و رأيت له التاريخ العام المرتب على السنين من إلى فى نسخته عتيقه فى مدرسه فاضل خان بمشهد خراسان جاء فى خطبته: الصلاة على محمد و آله أجمعين...) (٢) طبع منه قسم من شوال عام ١٢١١ إلى آخر شوال عام ١٢٢٦ هجرية الطبعه الأولى الحجرية فى عام ١٨٦٢ م فى كلكتا بالهند فى ٨٦٨ صفحه و الطبعه الثانيه فى طهران عام ١٣٠٧ هـ - ١٨٨٩ م بتصحيح الأديب النيشابورى ثم أعيد طبعه فى عام ١٩٤٤ م بتصحيح الدكتور غنى و الدكتور فياض ثم أعيد طبعه عام ١٩٣٩ م و عام ١٩٥٣ م بتصحيح الدكتور سعيد نفيسى (٣)

الشيخ محمد كاظم بن الشيخ محمد شفيح الهزارجربى الأسترآبادى

الحائرى.

توفى فى كربلاء سنة ١٢٣٧ و دفن فى الرواق الشرقى من الحرم الحسينى المطهر عند قبر استاذه آقا باقر بهبهانى.

مر ذكره فى أعيان الشيعة فى الجزء العاشر صفحه ٤٢ نقلاً عن كتاب دار السلام و نزيد على ما هنالك ما يلى:

كان من أئمه التقليد و الفتوى متبحراً مؤلفاً مكثرًا. ولد فى أسترآباد و أخذ المقدمات و السطوح فى موطنه على أفاضل علمائها و منهم والده الشيخ محمد شفيح و منها هاجر إلى قزوین و كانت قزوین آنذاك منقسمه إلى شطرين بين الاخباريه و الأصوليه و يجرى فيها بينهما صراع عنيف و التحق المترجم له بحوزه الأصوليين و أخذ الفقه و الأصول و العلوم العقلية عن الشيخ محمد الملائكة البرغانى المتوفى سنة ١٢٠٠ زعيم الأصوليين فى قزوین ثم توجه إلى أصفهان و حضر على الآخوند آغا محمد البيدآبادى المتوفى سنة ١١٩٧ و منها توجه إلى العراق قاصداً الحوزه العلمية الكبرى و سكن كربلاء و حضر على الآغا باقر البهبهانى الحائرى المتوفى سنة ١٢٠٥ و السيد على الطباطبائى الحائرى المتوفى سنة ١٢٣١ و السيد الميرزا مهدى الشهرستانى المتوفى سنة ١٢١٦ و أجزى منهم. كما صرح بذلك فى كتابه تحفه المجاورين و بعد وفاه استاذه البهبهانى جلس للتدريس و الفتوى و انتهت إليه المرجعية إلا أن أيامه لم تطل و كانت داره فى محله النقيب جنوب باب القبلة الحسينى ثم وقعت فى الشارع التى أحدث حول الصحن الشريف عام ١٣٦٨ و ترك مؤلفات علميه تربو على ستين كتاباً و رساله و يقع بعضها فى عدده مجلدات ضخمة و أشار إلى معظمها شيخنا فى موسوعته الخالده الذريعه إلى تصانيف الشيعة، و من مؤلفاته آداب الصلاه فارسيه، إرشاد المنصفين و إلزام الملحدين فى الرد على الصوفيه، الأربعون حديثاً، الافلاكية فى النجوم، الاقناعيه فى أصول العقائد، البراهين الجليله فى تفضيل آل محمد على جميع البريه، البرهانيه الكبرى فى الامامه، تحفه الأخيار، تحفه المجاورين و ينقل فيه عن مشايخه و هو من مصادر كتاب دار السلام للنورى، تنبيه الغافلين، الجبر و الاختيار و هو مرتب على أربعة فصول فى

تحقيق الجبر و الاختيار، و القضاء و القدر و الخير و الشر و الهدايه و الضلاله، جواهر الأخبار و معتقد الأخيار فارسي، حاشيه المعالم، حاشيه على الحاشيه الشيروانيه على المعالم، خواص القرآن فارسي في بيان خواص جمله من السور القرآنيه، الدرر الصافيه في ترجمه و شرح بعض الكلمات القاصر لأمير المؤمنين علي ع، دعائم الإسلام يبيح في الايمان و الإسلام و الشرك و الكفر، الرساله الاحتجاجيه، السلمانيه في فضائل سلمان الفارسي و أبي ذر و عمار و المقداد، عقائد حيدريه و معارف دينيه فارسي في المبدأ و المعاد، كاشف الغلو و هادي أهل الغلو و هو رد على الشيخ أحمد الاحسائي المتوفى سنه ١٢٤١، كنز الفوائد في الامامه، مجمع الدرر في كرامات أمير المؤمنين ع، محك إيمان فارسي في أخلاق المؤمنين و أوصافهم، مسائل العدل الأربعة الجبر و الاختيار و القضاء و القدر و الخير و الشر و الهدايه و الضلاله، معارف الأئمه في عده مجلدات، معارف الأنوار في مجلدات عديده، منه الجهال على وصف رئيس أهل الضلال في رد بعض العرفاء، رسائل في الوضوء و الصلاه و غيرها من كتب و رسائل عندنا أكثرها بعضها بخط المؤلف.

و كان والده الشيخ محمد شفيح المار الذكر من علماء عصره و توفي بعد المترجم له عن عمر طويل في سنه ١٢٣٨ (٤).

السيد النقيب تاج الشرف محمد بن محمد بن أبي الغنائم المعروف بابن

السخطه العلوي الحسيني البصري.

نقيب العلويين خلال القرن السادس للهجره.

لم أقف على تاريخ ولادته و وفاته. أخذ العلم عن جماعه من فحول علماء عصره و يروى عن أبي الحسن علي بن محمد العمري النسابه صاحب كتاب (المجدي) المتوفى بعد سنه ٤٤٣ و يروى عن المترجم له جماعه منهم النقيب محمد بن محمد بن أبي زيد الحسن العلوي الحسن البصري كما جاء في أسانيد كتاب (حجه الذهاب) للسيد فخار بن معد الحائري ذكره في طبقات أعلام الشيعة (٥).

السيد النقيب أبو طالب محمد بن محمد بن أبي زيد الحسن الحسني البصري

نقيب الطالبين في البصره و من أكابر علماء الشيعة في القرن السادس للهجره.

ص: ١٥٩

١- أبو الحسن علي بن زيد البيهقي: تاريخ بيهق تحقيق أحمد بهمنيار ص ١٧٥ طهران منشورات دانش.

٢- الشيخ آغا بزرك الطهراني: النابس في القرن الخامس ص ١٦٣ بيروت دار الكتاب العربي.

٣- الشيخ عبد الحسين الصالحى.

٤- الشيخ عبد الحسين الصالحى.

٥- الشيخ عبد الحسين الصالحى.

لم أقف على تاريخ ولادته ووفاته. أخذ العلم عن أكابر علماء عصره منهم السيد النقيب تاج الشرف محمد بن محمد بن أبي الغنائم الحسيني العلوي البصري المعروف بابن السخطة المار الذكر و المترجم له والد النقيب أبي جعفر يحيى بن محمد الحسيني البصري و ولده هذا هو أستاذ ابن أبي الحديد الذي نقل عنه الكثير في شرحه على نهج البلاغه و قد ترجمه مفصلا في أعيان الشيعة (١) و يروى ولده المذكور يحيى عن والده المترجم له كما جاء في إجازته إلى النسابة السيد فخار بن معد الموسوي الحائري المؤرخه سنه ٦٠٤ هجرية و المذكوره في (حجه الذاهب) ذكره في طبقات أعلام الشيعة و لم أجد ذكرا للمترجم له في أعيان الشيعة.

الشيخ محمد باقر الهجرى.

ولد فى الإحساء عام ١٣٣٦ و نشأ و تعلم دروسه الأولى فيها، ثم هاجر إلى النجف سنه ١٣٤٨ و درس على علمائها.

من شعره قوله من قصيده بعنوان فى الطياره:

خطرت فأرسلها اللسان خطابا و بدت فسجلها اليراع كتابا

توحى إلى الذهن الشرود فينثى و تجوب فيه فداغدا و يببا

و رنت إلى جو الأثير بنظره لبت به هام السماك إهابا

و مشت إلى الأفق البعيد و قصدها أ تزيل عن دنيا الملاك حجابا

و سمت إلى خدر يعز مناله و العلم قر به فأصبح بابا

نصبت لها المحراب فيه فأرسلت نغمات آلهه الجمال عذابا

قرأت به سفر الوجود مرتلا عرفت به صنع الجميل مثابا

مزجت بها دنيا الطيور و راقها دنيا الأنام غزت عليها الغابا

يتعاطيان من الأثير شرابه يتبادلان من المنى أكوابا

دنيا الطيور و للجمال مسارح فيها الجمال قد استحال و ذابا

دنيا الطيور و للخيال معارض توحى من الفن الجميل لبابا

دنيا من الآمال أثقل حملها روح تمنى أن تنال طلابا

و روى من الآمال شع بها الفضاضة أرسلت نورا أضياء شهابا

لعبت بها دنيا الجنون فقلصت روحا طموحا للعلی و ثابا

لولا بقايا من أمانی عبقر بقیة ثماله كاسه تتصابی

رقصت له الآمال باعته المنی فتحت لعینیه المنی أبوابا

و صغی لصوت الروح يدوی فی السما فطغی به موج الأثیر عبابا

دنیا الأمانی و السدود تطلعت لتنال من دنیا الزهور خضابا

فإذا بها فی عمر لحظه عابر تستاف من أرض الغری ترابا

بلد به الفن استطال ظلالة قد مد أعضانا له و أنسابا

مهد العلوم ترف فوق سمائه روح من القدس استنار و طابا

مهد الفنون و شع فی مصباحه نور أضواء العالمین شهابا

بلد من الروح المقدس یرتوی ما شاء علما أو أراد جوابا

تهفو لذكره النفوس فتنشى كالفجر نسمة تجس مصابا

و الساكنیه و ان هم شحطت بهم و القلب بعدهم یقطر صابا

أ أبا الحسین و أنت نور لامع ضاء الطریق لمن أراد صوابا

أ أبا البلاغه و البیان قد ارتوی من نهجك السامی البیان شرابا

أ أبا الشجاعة و الفروسه و الندی قد كان سیفك للعداء عذابا

أبا الهداه الطیبین و من هم كانوا لهذا العالم الأقطابا

هذى الملائك حوله قد رفرفت زرفا تود تقبل الأعتابا

و القبه الزرقاء و دت أنها كانت لمثواه الکریم ترابا

و قوله:

ربه الفن و الخيال العتید ابعثی الفن ملهما فی نشیدی

أنت آمالي العذاب و وحى لحنته روح الهوى من جديد
أنت أحلامي اللذيذات فيه بسمه القلب و الخيال المديد
أنت أغنيه مع الفجر تسرى من هتافات عاليات البنود
فابعثى ربه البيان شعورا و اسكبيه منورا فى قصيدى
أين فكر عهدى به يرسل النور شعورا بملء صدر الوجود
و يطوف الحقول يسترق الحسن من الغصن ناعم الأملود
يتخطى على الغدير ليقراً فى ضفافيه ناضرات الخدود
و بشيم الورود يقرأ فيها بدعه الفن و الجمال البديد
و إذا رف للبلابل ثغر لعبت فيه نغمه الغريد
و إذا شم للزهور عطورا ضمخ الكون فى أريج الورود
و إذا مادت الغصون و ماست لطف الحقل فى بهاء البرود
ضحج باللحن يرسل الشعر داو جاوبته الطيور بالترديد
فإذا الكون فرحه و الهتافات تعالت لدى حداه البيد
همست ورده تقول لأخرى أنه قلب شاعر مكدود
أين فكر عهدى به يرسل النور شعاعا مذوبا فى نشيدى
يرسل الفكره الطليقه خلوا من أسار التقييد و التعقيد
ليرى الناس أن فى القفر ماء و سلافا أحلى من العنقود
و يرى الناس إن فى الصمت نطقا يملأ الكون بالشعور العتيد
أخذ الناس بالقشور فتاهوا وسط ثغر من العنا المنكود
نبذوا الدين فاستهانوا قواه و استمالوا لبرقه و رعود

نسجت غشوه الظلام عليهم و خبا النور مؤذنا بالشroud

صور ضاعت الحقائق فيها فترامت وراء أفق بعيد

مذ رأى الشاعر المقاييس ضاعت هجر الناس طالبا للنجود

مذ رأته الزهور فى الحقل فردا و هو يوحى بحسنها المعهود

همست زهره تقول لأخرى أنه قلب شاعر مكدود

وله:

قلب يرف هوى إلى إخوانه كالورد رف هوى على أغصانه

ص: ١٦٠

١- انظر أعيان الشيعة ج ١٠ ص ٢٩٣-٣٩٥ بيروت دار التعارف للمطبوعات عام ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م. و هناك بعض الاضطراب فى اسم والد يحيى و نسبه فى أعيان الشيعة و الصحيح هو (النقيب أبو جعفر يحيى بن السيد النقيب أبو طالب محمد بن محمد بن أبى زيد الحسن الحسنى العلوى البصرى نقيب النقباء فى البصره أستاذ ابن أبى الحديد و الراوى عنه فى شرحه على نهج البلاغه و المعبر عنه (... كان النقيب أبو جعفر غزير العلم صحيح العقل منصفاً بالجدل غير متعصب فإنه كان علويًا و كان يعترف بفضائل الصحابه و كان لا يجحد الفاضل فضله...) يقول عبد الحسين الصالحى: و هو من مشايخ السيد فخار بن معد الموسوى الحائرى كما نص فى (حجه الذاهب) قال حدثنى صاحب الترجمة بمدينه السلام سنه ٦٠٤ قال: أخبرنى والدى، قال: أخبرنى تاج الشرف محمد بن محمد بن محمد بن أبى الغنائم المعروف بابن السخظه النقيب العلوى البصرى، قال أخبرنى الشيخ الشريف الامام العالم على بن محمد بن الصوفى العلوى العمري النسابه (يعنى صاحب كتاب المجدى).

هم جل منيته و مطمح بعثه كالطير منيته لقي أخذانه
تحلو الحياه بهم فتبعث بسمه كالزهر بسمته ربيع زمانه
و هم الحياه سرورها و سعودها و هم الزمان الحلو فى نيسانه
و إذا الحياه وفت لهم بوعودها طفح السرور ففاض فى تبيانه
يا شعر إذ الحفل عنى نفثه من مكتو و لظاه من استجانه
و قل السلام عليكم من شيق بخلائق كالغيث فى تهتانه
قل للشباب زمانكم متحرك هل تأخذون القسط من دورانه
نادى الشباب و من بهم يرجى غدا و الخير موقوف على بنيانه
و نهضتم بالحى يسبق طيره طير السماء الحر فى طيرانه
فاض النبوغ على المدائن و القرى كجداول الفردوس فى جريانه
قم و انظر الجارات تجرى سرعا و تسابق النسرین فى كيوانه
سترى المعارف آهلات تزدهى بالنابعين تنعموا بجنانه
الساهرين على العلوم تشوقا مزقوا أحجاب الجهل من أرسانه
من كل غرس للفضيله و النهى بعلمه و بنانه و بيانه
و أشاد للأخلاق أعظم منبر سجدت له الدنيا على عيدانه
ركن من الأخلاق يدعمه النهى باق بقاء الدهر فى دورانه
يا نخبه الأدب الرفيع تشوفوا للنجم يشرق فى على لمعانه
و تطلعوا للصبح فجرا صادقا فى الجو و انتشقوا شذا ريحانه
ما قيمه الأدب الذى لا يبتنى إلا على ذكر الغضا أو بأنه
ليس الزمان زمان ذكرى دمنه أو ذكر ناعمه العقيق و أنه

النشء أن النشء أعظم ثروه فألقوا دروس العز في آذانه

آذانه تهفو لمقول (جرول) و فؤاده يهفو على (سحبانه)

يهفو إلى الأفق البعيد لعله يجد الذي يحنو على أوطانه

و يود لو طلع الهلال بافقه يمحو ظلام الجهل من شطانه

يا وحى إلهام الشعور تحيه من مخلص قد زف ود جناه

محمد حسن شهريار.

ولد في تبريز سنة ١٩٠٤ م و توفي سنة ١٩٨٨ م.

أتم دراسته في مدرسه دار الفنون، و انتسب إلى معهد الطب و ظل يتابع دراسته فيه حتى السنه الأخيره التي لم يتمها بعد أن تغلب عليه الاتجاه الشعري.

و قد اكتشف شاعريته شاعر إيران الشهير بهار. و عند ما طبع باكورته الشعريه سنة ١٩٣١ م قدم لها بهار نفسه و اعتبره مفخره إيران في المستقبل.

و حين بلغ الثانيه و العشرين من عمره نظم مثنويا بعنوان (روح بروانه) أي: روح الفراشه، و عند ما طبع و انتشر كان موضع الاعجاب و التقدير في الأوساط الشعريه الإيرانيه، على أنه انساق مع شعراء المديح الذين طالما كان يصغى إلى أشعارهم. و قد ترجم إلى اللغه الإنكليزيه بعض أشعاره، و كذلك إلى اللغه الفرنسيه.

و عند إلقاء القنبله الذريه على هيروشيما أرسل رساله شعريه إلى (انشتاين) أسماها صوت الله دعا فيها إلى السلام و نبذ الحرب.

و كان يتقن اللغه الآذريه فنظم بها منظومتين هما: (حيدر باب يه [بابا]) و (سلام و ساولان) كان لهما الأثر البالغ لدى الآذربايجانيين و انتشرا في أوساطهم انتشارا واسعا.

و عند ما قامت الحرب العراقيه الإيرانيه الأخيره شارك فيها بشعره الحماسي الذي كان يذاع في الاذاعه و التلفزيون و يلقى في المجتمعات العامه.

نظم شهريار قرابه خمسه عشر ألف بيت من الشعر، و كان شديد التعلق ببلدته تبريز، و تقديرا له أقامت جامعه تبريز حفلا لتكريمه سنة ١٩٨٤ م ساهم فيه صفوه من العلماء و الأدباء.

و يمكن تلخيص خصائصه بأنه يعد شاعر الغزل مع أنه نظم في معظم الأغراض الشعريه، و أنه يبدع في عرض الصور الفنيه الجميله فمن مثلا قصائده (مولانا في منتجع شمس التبريزي) (تخت جمشيد) و (قيداتا الفردوس) و غير ذلك مما يعد نموذجا

فائقاً لمنظوماته الإنشادية التي ابتعد بها عن التقليد و الابتدال.

كان شهريار عتيق المعرفه بالموسيقا الإيرانيه، و كان أيام شبابه يعزف على القيثاره، كما كان على صله بالفنانين أمثال (صبا) و (بنان) و غيرهما، و ربما كان تعمقه بالموسيقا و صلاته بالموسيقيين أثر في اختياره أرق التعابير في شعره، حتى غدت كلماته ذات جرس موسيقي جذاب، و كثيرا ما كان يترنم باشعاره بمرافقه مجموعه موسيقيه كان يتقن اللغه العربيه و ذا ثقافه فرنسيه واسعه.

الشيخ محمد حسن بن الشيخ ملا صفر على البارفروشي اللاهيجاني القزويني

المعروف بالشيخ الكبير.

ولد في قزوین حدود سنه ١٢٤٠ هـ و توفي في شهر شوال سنه ١٣٤٥ في بارفروش عن عمر طويل و دفن بمقبره بارفروش.

من أكابر العلماء و أئمه التقليد و الفتوى في عصره. مؤلف محقق من زعماء الدين المشاهير، ولد في بيت علم و فلسفه و نشأ على حب العلم و كان والده من أكابر فلاسفه قزوین المشاهير و مر ذكره في الجزء الثالث من مستدرکات أعيان الشيعة ص ١٠٥.

أخذ الأوليات و العلوم العربيه على أفاضل علماء قزوین ثم حضر في الفقه و الأصول على الشيخ محمد صالح البرغانی الحائري المتوفى سنه ١٢٧١ و شقيقه الشهيد البرغانی المستشهد في سنه ١٢٦٣ و أخذ الفلسفه و العرفان الالهی على والده الفيلسوف الشهير في عصره، ثم هاجر إلى العتبات المقدسه في العراق و وطن كربلاء و أخذ العلم عن العلمين الشيخ حسن البرغانی الحائري الصالحی و الشيخ محمد تقی الهروي الحائري المتوفى سنه ١٢٩٩.

ثم رجع إلى موطنه قزوین و بعد مده هاجر منها إلى مدينه بارفروش و تصدر هناك كرسى التدريس و الفتوى و كان مرجع الأمور الشرعيه في بارفروش و الزعيم الروحي بها حتى وفاته. ذكره الوزير الايراني الميرزا محمد حسن خان اعتماد السلطنه في مصاق أكابر علماء عصر ناصر الدين شاه القاجارى في كتابه المآثر و الآثار بما هذا تعريبه (الشيخ محمد حسن من أكابر العلماء في ناحيه بارفروش و المشهور هناك بعنوان الشيخ الكبير و في سنه ١٢٩٢ قابل السلطان ناصر الدين شاه القاجارى...)(١).

ص: ١٦١

١- الميرزا محمد حسن خان اعتماد السلطنه: المآثر و الآثار ص ١٧٧ طهران الطبعة الحجرية الأولى سنه ١٣٠٦ هجرية.

ترك المترجم له مؤلفات كثيره بين مخطوط و مطبوع من مؤلفاته المطبوعه: ١ - نتیجه المقال فى علم الرجال طبع فى طهران سنه ١٢٨٤ طبعه حجریه. ٢ - حديقته الشيعه طبع فى طهران. ٣ - حديقته العارفين طبعته الترجمة الفارسيه فى طهران سنه ١٣٢٣. ٤ - سراج الأمه فى شرح اللمعه طبع فى طهران سنه ١٣٢٦. ٥ - تعليقه على شرح التصريف للتفتازانى طبع فى طهران سنه ١٣١٣. ٦ - حاشيه على فرائد الأصول للشيخ مرتضى الأنصارى طبعته فى طهران فى مجلدين سنه ١٣٣٢ طبعه حجریه. ٧ - الرساله العمليه باسم صراط النجاه و غيرها.

و المترجم له هو شقيق الشيخ الميرزا أحمد اللاهيجانى القزوينى و الشيخ الميرزا حسين اللاهيجانى القزوينى المذكورين فى المآثر و الآثار أيضا(١).

الشيخ الميرزا محمد حسن بن محمد ولي بيك الافشار البكشلولى الأرومى.

توفى بعد سنه ١٢٦٠.

من أئمه الدين و الفتوى و أعلام عصره أديب متضلع و شاعر متكلم أخذ المقدمات و علوم العربية على أفضل علماء تبريز و منها هاجر إلى قزوین و تتلمذ فى الفقه و الأصول و الحديث على الشيخ محمد صالح البرغانى الحائرى المتوفى سنه ١٢٧١ و شقيقه المستشهد سنه ١٢٦٣ و فى حدود سنه ١٢٤٣ هاجر إلى كربلاء و التحق بحوزه شريف العلماء المازندرانى الحائرى المتوفى سنه ١٢٤٦ و بعد وفاه أستاذه المازندرانى رجع إلى إيران و كان من المعاصرين للسلطان محمد شاه القاجارى المتوفى سنه ١٢٦٤ و قد ترجم باسمه المجلد الثالث عشر من بحار الأنوار للمجلس [للمجلسى] إلى الفارسيه فى حدود سنه ١٢٦٠(٢) و قد طبع مكررا فى سنه ١٣٢٩.

و له مؤلفات و آثار منها ديوان شعر فى مدح و رثاء الأئمه ع، عقد الفرائد فى شرح القصائد: قال عنه فى الذريعه: (عقد الفرائد فى شرح القصائد: و هى قصائد خمس نظمها المولى محمد حسن بن محمد ولي الأرومى... كلها فى مدائح أهل البيت ع) و كلها خاليه من الحروف المنقطه فعمد إليها المولى على بن على رضا الخوئى الخاكردانى من قرى خوى المولد فى ١٢٩٢ - و المتوفى فى ١٣٥٠ فخمس تلك القصائد أولا- ثم شرح الخمسات الخمس جمعا فالأولى من الخمسات فى مدح النبى و الوصى...

و عناوين الشرح: اللغة، الاعراب، البلاغه، العروض، المعنى، الترجمة الفارسيه... (٣) و للمترجم له شرح قصيده البرده للبوصيرى المتوفى سنه ٦٥٦ هجرية شرحها باسم السلطان محمد شاه القاجارى(٤).

محمد رضا ابن الخواجه ظهير الدين عبد الله الأصفهاني

المشهور ب (شكيبى) من أعقاب خواجه عبد الله الامامى العارف، لذلك اشتهر بالامامى.

ولد سنه ٩٦٤ فى أصفهان و توفى سنه ١٠٢٣ بدهلى فى الهند.

سافر إلى العراق و آذربايجان و خراسان، و قضى معظم حياته على سفر، و بقى مده فى مشهد الرضا ع. و فى مدينه هرات

درس فنون الأدب و الشعر و المطالب العلميه، و من هناك سافر إلى شیراز و درس عند مير تقى الدين النسابة الشيرازى، ثم تركها إلى أصفهان.

و فى سنة ٩٩٨ سافر إلى الهند بطريق البحر فوصل إلى ميناء جيول و ذهب إلى كجرات للقاء الميرزا عبد الرحيم خان خانان، و عند ما وصلها بلغه أنه سافر إلى العاصمه فتبعه إليها، فكان موضع احترامه، ثم سافر معه إلى السند و الدكن. ثم تركه و سافر إلى ولايه مالوه، و هناك اشتد عليه المرض فنذر أن شافاه الله أن يزور الحرمين، فلما شفى وفى نذره، و ظل ثلاث سنوات بين مكه و المدينه، ثم عاد إلى الهند. و فى مدينه برهان پور پور لازم خان خانان، و لم تطل إقامته هناك إذ سافر إلى دأگره [أگره]، و عن طريق مهابت خان تعرف على الملك نور الدين محمد جهانگیر سنة ١٠١٩ فقربه إليه كثيرا بحيث عين لولايه دهلى.

كان شاعرا متميزا، نظم (ساقى نامه) باسم عبد الرحيم خان خانان فأجازه بعشره آلاف ربيه. و كانت له مجالس ممتعه، و تركه عده دواوين (٥)

محمد بن هانى الأندلسى

إشارة

مرت ترجمته فى المجلد العاشر، و مرت كلمه عنه فى المجلد الأول من (المستدرکات) و نشر هنا هذه الدارسه المكتوبه بقلم الدكتور منير ناجى:

لا- يعرف السبب الذى من أجله أهمل مؤرخو الأدب الأندلسى القدماء هذا الشاعر، و نحن لو تصفحنا كتب التاريخ الأدبى القديمه لا نكاد نظفر منها بما يغنى، لقد أهملوه فى الأندلس، و أهملوه بعيدا عن الأندلس، و نتساءل عن سبب هذا الإهمال فلا نجد لهم عذرا (٤) مع اعترافهم بأنه من أحسن شعراء الأندلس ديباجه شعريه، و أجودهم قريحه، و أعجب من هذا أنهم لم يتفقوا على مكان ولادته، و تاريخها فابن الأبار يؤرخ له على أنه محمد بن هانى بن محمد بن سعدون الأزدي الأندلسى، غلب ذلك عليه من أهل البيره و نشا بقرطبه، يكنى أبا القاسم، و هو من ولد المهلب بن أبى صفره..

و أبوه من قريه من قرى المهديه، دخل الأندلس، و ولد له ابنه أبو القاسم بها، و كان أكثر تادبه بقرطبه (٧) و واضح من هذا الكلام، أن الشاعر ولد بالبيره و تادب فى قرطبه، و لكن متى ولد؟ أمر لم يكن ليهم المؤرخ فلم يحقق به و ذكر مؤلفو المغرب فى حلى المغرب أن أصله بنى المهلب الذين ملكوا إفريقيا و انتقل أبوه منها إلى جزيره الأندلس و سكن البيره فولد له بها محمد بن هانى المذكور (٨) و صاحب بغيه الملتمس لا يكلف نفسه عناء التحقيق، فيكتفى بان يذكر أنه محمد بن هانى شاعر أندلسى، خرج عن الأندلسى، فشهر شعره فى الغربه.. إلخ (٩)، دون أن يشير إلى تاريخ ولادته، و كيفيه نشاته، بيد أن ابن خلكان، يحدثنا شيئا عنه و عن أبيه فهو كما يقول أبو القاسم و أبو الحسن بن هانى الأزدي الأندلسى الشاعر المشهور قيل: أنه من ولد يزيد بن حاتم بن قبيصه بن المهلب بن أبى صفره، و قيل بل هو من ولد أخيه روح بن

- ١- الشيخ عبد الحسين الصالحى.
- ٢- انظر الكرام البرره: ج ١ ص ٣٦٠ و مؤلفين كتب چاپى ج ٢ ص ٦٦٤ الطبعه الأولى.
- ٣- انظر الذريعه إلى تصانيف الشيعة: ج ١٥ ص ٢٩٣ بيروت دار الأضواء.
- ٤- الشيخ عبد الحسين الصالحى.
- ٥- تاريخ أدبيات إيران.
- ٦- أن تشيع ابن هانى هو الذى دعا إلى إهمالهم هذا الشاعر العظيم، و هكذا فعلت و ستظل تفعل العصبيات السوداء (ح).
- ٧- ابن الأبار: تكمله ج ١-٩ ص ١٠٣ رقم ٣٥٠. قال الحجارى: البيره كانت قاعده المملكه فى القديم.
- ٨- ابن سعيد المغرب فى حلى المغرب ج ٢ ص ٩٧٠.
- ٩- الضبى: بغيه الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس ص ١٣٠ رقم ٣٠١. ابن سعيدالمغرب فى حلى المغرب ج ٢ - ص ٩٣.

حاتم، و كان أبوه من قريه من قرى المهديه بإفريقيه، و كان شاعرا أديبا، فانتقل إلى الأندلس فولد محمد المذكور بمدينه أشبيلية، و نشا بها و اشتغل و حصل له حظ وافر من الأدب(١) و أما بالنسبه لياقوت الحموى فهو أبو القاسم الأزدي الأندلسى من ولد روح بن حاتم بن قبيصه بن المهلب: شاعر مفلق، و أشعر المتقدمين و المتأخرين من المغاربه، و هو عندهم كالمتمنى عند أهل المشرق، ولد بأشبيلية و نشا بها و نال حظا واسعا من علوم الأدب و فنونه... إلخ(٢) و صاحب الاحاطه يؤرخ له على أنه "محمد بن هانى بن محمد بن سعدون الأزدى الغرناطى، من أهل قريه سكون يكنى أبا القاسم و يعرف بالأندلسى، و كأنها تعرفه بينه و بين الحكم أبى نواس. قال غير واحد من المؤرخين و هو من ذريه يزيد بن حاتم بن المهلب بن أبى صفره و قيل من ولد روح بن حاتم... إلخ(٣) و أما صاحب المطمح فيكتفى بجمل مسجعه منمقه، يقرظ فيها الشاعر، دون أن يشير إلى ما يتعلق بولادته و نشاته، فهو الأديب أبو القاسم محمد بن هانى، ذخر خطير، و روض أدب مطير، غاص فى طلب الغريب حتى أخرج دره المكنون، و بهرج بافتائه فيه كل الفنون.. إلخ(٤) نقل المقرئ قول ابن خلكان فى المطمح نقلا- حرفيا دون زياده و لا نقصان(٥) كما نقل صاحب شذرات الذهب ما جاء فى وفيات الأعيان عن ابن هانى(٦) و ينفرد عن بقية هذه المصادر بذكر قصه لا تتركز على واقع تحدث فيها عن اجتماع ابن هانى بالمتنبى سنعرض لها فيما بعد.

هذا مجمل ما ذكره القدماء عن ابن هانى فما ذا نستخلص منه؟ أما أنه عربى فهذا لا شك فيه إذ أنه يقول:

فانى من العرب الأكرمين و فى أول الدهر ضاع الكرم

(٧) و هو أيضا أزدى، و الأزد من القبائل اليمانيه.

تسير القوافى المذهبات أحوكها فتمضى و ان كانت على مجدكم وقفا

يمانيه فى نجرها أزدية أفصلها نظما و أحكمها رصفا

(٨) و أما أن اسمه محمد بن هانى، و كنيته أبو القاسم، فعلى هذا كل المؤرخين، و لكن أين ولد؟ و متى؟ فلنا فى هذا رأى نميل إليه و لا نقطع به و ذلك بالنسبه لهذا التضارب فى الأقوال و الاختلاف فى الروايات.

ذكر أكثر المؤرخين أن ابن هانى ولد فى أشبيلية إلا أن ابن الأبار فى التكملة و ابن الخطيب فى الاحاطه فهو عند الأول من أهل البيره Elvira و نشا فى قرطبه، هو عند الثانى، من أهل قريه سكون، و نشا فى غرناطه و نحن بين هذا و ذاك و غيرهما، فى حيره من الأمر نحاول الاهتداء إلى نقطه ارتكاز نبني عليها آراءنا فلا نوفق، بيد أنه إذا ما عدنا إلى هانى و والد الشاعر، هذا الذى جاء من قريه من قرى المهديه فى إفريقيا إلى الأندلس و هو شاعر أديب نجيز لأنفسنا أن نعتقد بان هانى لا بد و أن يكون قد مر بمدارس المهديه التى تعلم الأصول الشيعيه فقال بما قال به الشيعه و لنا أن نفترض، بأنه ربما يكون قد اختير للدعوه فى أرض الأندلس التى كان الفاطميون يودون الاستيلاء عليها، و طبيعى أن يبحث الداعى عن مكان يجد فيه شيئا من الحرية فى القول و العمل، يساعده على ذلك طبيعه جميله، و من الضرورى أن يتعد هانى عن البلد المتمتت الذى يسيطر فيه المتمتون، و هم فى تزمهم لا- يسمحون بما لا يتفق مع آرائهم، و قرطبه فيها المنذر بن سعيد و أمثاله، لا يستطيع أن يعيش فيه من كان داعيه لغير مذهبهم، و لم تكن غرناطه بأقل حفاظا على ذلك لذا لم يبق أمام هانى بن محمد إلا اللجوء إلى أشبيلية البلد الجميل بطبيعته

الغنى بظرف أهله، الميالين للمرح، حيث يستطيع أن يعمل هناك بهدوء، غير خائف ولا مترقب، في هذا البلد يستطيع هانى بعيدا عن تزمته أهل قرطبه، وجمود أهل غرناطه، و في أحضان طبيعه أشبيليه، أن يعمل آمنا لذا لا استبعد أن يكون هانى هذا اختار هذه المدينه مقرا له، وربما طوف في الأندلس كشان الدعاه في كل زمن، قبل أن يستقر في أشبيليه حيث ألقى عصا الترحال، و هناك أبصر ابنه أبو القاسم النور و نحن لا نعتقد بان هانى هذا، و قد جاء داعيه كما نرجح، يسكن قريه و هم الدعاه أن يكونوا حيث يكتر الناس و تناقش الآراء.

لم يتحدث المؤرخون الذين ذكروا شيئا عن ابن هانى عن تاريخ ولادته، و لكنهم اتفقوا على أنه مات في سنه إحدى و ستين أو اثنتين و ستين و ثلاثمائة(٩) و المؤرخون مع إجماعهم على أن وفاته كانت في حدود هذا التاريخ، اختلفوا في عمره فمنهم من قال: أنه توفي و له من العمر اثنتان و أربعون سنه(١٠) و منهم من لم يستطع البت في ذلك فقال: قيل توفي و هو ابن ست و ثلاثين سنه أو اثنتين و أربعين(١١)، و نحن لا سبيل لنا إلى الشك في تاريخ وفاته - مع أن صاحب كتاب شذرات الذهب نقل عن كتاب العبر القول الآتى: كان منغمسا في اللذات و المحرمات، متهما بدين الفلاسفه، شرب ليله عند ناس فأصبح مخنوقا، و هو في عشر الخمسين (انتهى) و على كل فنحن لا نشك بتاريخ وفاته.

شعر صباه

كنا نستطيع أن نغفر للمؤرخين إهمالهم لابن هانى لو أن الذين جمعوا ديوانه حفظوا لنا شيئا من شعر صباه، أى ما قاله في الأندلس، و لكن ما أن نمسك بالديوان لنقلب صفحاته حتى نعرف أنهم ما جمعوا له إلا ما قاله في إفريقيه مادحا أو راثيا، و هكذا لا نجد في ديوانه قصيده واحده تعود إلى عهده في الأندلس، و لا نقع لأى ذكر لتلك الطبيعه الجميله طبيعه أشبيليه التى نشأ بين أحضانها، و لقد أصاب صاحب بغيه الملمس في قوله عنه، "خرج عن الأندلس فشهريه شهره في الغربه"(١٢) إذن فنحن لا نظفر بطائل فيما يتعلق بشعر صباه مهما بذلنا من جهد، و ما أظننا نظفر بما ينقع الغليل، بيد أنى اعتقد أن شعره في صباه، ما كان يخرج عن الإطار المفروض في شعر أمثاله من الشباب، و لست أبعد إذا قلت أن ابن هانى ككل شاب، يحب الحياه بلهوها و مرحها، و يقبل عليها إقبال ٢.

ص: ١٦٣

- ١- ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٣ ص ٤٩.
- ٢- ياقوت الحموى: معجم الأدباء ج ١٩ ص ٩٢٠.
- ٣- ابن الخطيب: الاحاطه في أخبار غرناطه ج ٢ ص ٢١٢.
- ٤- ابن خاقان: مطمح الأنفس ص ٧٤.
- ٥- المقرئ: نفع الطيب ج ٤ ص ١٨٣.
- ٦- ابن العماد: شذرات الذهب ج ٣ ص ٤١-٤٣.
- ٧- ديوان ص ٧١٥ رقم ٥٠ بيت ٧٥.
- ٨- قصيده ٣١ ص ٤٥١ بيت ٥٨-٦٠.

- ٩- إحاظه ج ٢ ص ٢١٢. وفيات ج ٣ ص ٤٩. تكمله ج ١ ص ١٠٣ ترجمه ٣٥٠. معجم الأدياء ج ١١ ص ٩٢ شذرات الذهب ج ٣ ص ٤١-٤٣ تاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ٤٦.
- ١٠- إحاظه ج ٢ ص ٢١٢. ياقوت ج ١٩ ص ٩٢.
- ١١- وفيات الأعيان ج ٣ ص ٤٩.
- ١٢- الضبى - بغيه الملتمس ص ١٣٠ رقم ٣٠٢.

من يريد أن يروى غليلا من لذائدها.

إن نظره نلقيها على الكتب التي أرخت لابن هانئ ترينا أن الشاعر قد اضطهد فاضطر للهرب. ولكن لم اضطهد؟ هذا ما نريد أن نعرفه.

لو قرأنا ما قاله ابن البار في هذا الصدد لرأيناه لا يعرض للسبب الذي من أجله اضطهد، فهو يقول... ثم استوطن أبوه البيه، و خرج هو منها(1) اما لم خرج ومتى وكيف فلم يهم المؤرخ، لذلك ضرب عنه صفحا.

أما ابن خاقان فيرد سبب اضطهاده، ونزوحه عن الأندلس، إلى ما كان يقول به من غلو، وذلك بجمله منمقه موشاه بالسجع والمحسنات البديعية، فيقول: وأبدى من الغلو، وتعدى الحق المجلو، فمجته الأنفس، و أزعجته عن الأندلس(2) أو ابن خلكان يرى أنه كان كثير الانهماك بالملاذ، متهما بمذهب الفلاسفه، ولما اشتهر ذلك عنه نقم عليه أهل أشبيلية(3) ولكن ياقوت الحموي يؤكد لنا أن ابن هانئ كان متهما بالفلسفه، يسلك في أقواله وأشعاره مسلك المعري، وما زال يغلو في ذلك حتى تعدى الحق، و خرج في غلوه إلى ما لا وجه له في التأويل، فأزعجه أهل الأندلس(4)، و ابن الخطيب لا يزيد على أن يصفه بأنه كان من فحول الشعراء، و أمثال النظم، و برهان البلاغه، لا يدرك شاوه، و لا يشق غباره، مع المشاركة في العلوم، و النفوذ في فك المعنى(5)، و لسنا نرى أن فحوله الشعر، و بلاغه المنطق، و المشاركة في العلوم، تسبب الاضطهاد. أما ما قاله المقرئ في هذا الموضوع فما كان إلا ما قاله ابن خاقان في مطمح الأنفس نقله نقلا حرفيا، لم يزد فيه و لم ينقص(6) هذا مجمل آراء الذين أرخوا له، و هذا ما يجعلنا أكيد من أن الشاعر لم يخرج مختارا من الأندلس، بل فارقها كارها، أزعجه أهلها عنها، لأنه يقول بمقاله الفلاسفه، و ينهمك بملذاته و يغلو في أقواله إلى ما لا وجه له في التأويل، و القول بان الانغماس بالملذات سبب أساسى في حمله أهل الأندلس عليه، قول فيه كثير من المبالغه إذ أن في الأندلس لذلك العهد و ما بعده، أناسا انغمسوا حتى آخر حدود الانغماس في الملذات، فهم يشربون الخمره و يعاشرون النساء، و ربما انغمس بعضهم بحب الذكور، و ما رأينا الناس، و إن كرهوهم و لاكت سمعتهم الألسن، ازعجوهم عن ديارهم.

بقى علينا أن نناقش إذن السببين الأخيرين و هما القول بالفلسفه أو مشايحه الفلاسفه على آرائهم، و الغلو الذى لم يعد يمكن تأويله، فكيف نفهم هذا؟ و أى السببين كان العامل المباشر فى طرده من الأندلس؟ أنا لا-أعتقد أن ابن هانئ كان مشايحا للفلاسفه يقول بمقالتهم و يتبع آراءهم، حتى و لست أرى أنه درس الفلسفه لا متعمقا و لا متصفحاً، و هذا الرأى نستند فى دعمه إلى ديوان الرجل الذى لا- نرى فيه خاطره فلسفيه، و لا تفكيراً يدل على أن صاحبه عرف الفلسفه بمفاهيمها الشائعه فى ذلك الزمن، و لسنا نعتقد أن الإنسان يمكن أن ينسى ما كان قد اطلع عليه فى سنى دراسته من آراء مخالفه لمالوف الأكتريه، ثم إنه لا بد أن يخرج عن لسانه أقوال فيها مظهر فلسفى إذا ما كان قد آمن بالفلسفه فى شبابه، و إذا لم يؤمن فلا بد من أن يلتمح فى بعض الأحيان إلى بعض هذه الآراء التى يمكن أن نعدها من قبيل الفلسفه، أو من قبيل التفكير الحر على الأقل.

و ديوان الشاعر الذى بين أيدينا لو تصفحناه لما وجدنا فيه فكره فلسفيه. ثم إن ابن هانئ لا يذكر فى شعره أى علم من أعلام الفلسفه كما يفعل المتنبى مثلا. بينما نراه يتحدث عن الحوادث و الأحداث التى مرت على الطالبين إلى كل ما يتعلق بالتأريخ الإسلامى كما يذكر بعض شعراء العربيه القدامى كعلقمه الفحل، و امرئ القيس أو بعض فرسانها كعمرو بن معديكرب مثلا، و كثيرا غير هؤلاء.

من كل هذا نستنتج أن ابن هانئ لم يعرف الفلسفه كفن قائم بذاته، دعامته التفكير الحر الطليق من كل قيد، بل رأى أنه عرف التشيع بتعاليمه أما على أيدي رجال متخصصين، أو أنه عرفه على أبيه و هذا ما نرجحه، فقال به مجاهرا و لم يتستر كما كان يفعل أبوه، فاغضب الأمويين، و عمال الأمويين، فكان من نتيجة هذا أن خرج إلى الأندلس ميمما وجهه شطر إفريقيا حيث دعاه المبدأ الفاطمي قويه هناك، و حيث تمارس العقيدة بحريه تامه. و لنستمع إليه يشير إلى ذلك بنفسه:

دعاني لكم ود فلبت عزائمي و عنسي و ليلي و النجوم الشوابك

و مستكبر لم يشعر الذل نفسه أبي، بابكار المهاول فاتك

رلو [و لو] علقته من أميه أحبل لجب سنام من بني الشعر تامك

و لما التقت أسيافها و رماحها شراعا و قد سدت على المسالك

أجزت عليها عابرا و تركتها كان المنيا تحت جنبى آرائك

و ما نقموا إلا قديم تشيعي فنجى هزبرا شده المتدارك

و البيت الأخير إقرار أوضح، بأنه كان شيعيا قبل خروجه، و ان هذا أثار نومه الأمويين و عمالهم و الأندلسيين المعتصمين فهرب الشاعر ناجيا بنفسه.

و هكذا كان ابن هانئ شيعيا، يجاهر بعقيدته فيكرهه اتباع الأمويين، فيغرون به صاحب أشبيلية، و يضطر هذا إلى أن يطلب من الشاعر أن يتوارى عن أنظار الناس في أشبيلية، فيهاجر ابن هانئ و هو موقن أنه لو علقت به حبال بني أميه لجب سنام من بني الشعر تامك.

خروجه من الأندلس – فى عهد من و كم كان عمره

رأينا ابن هانئ ينزح عن مسقط رأسه بناء على رغبه حاكم أشبيلية الذى أشار عليه بالغيبه عن البلد مده ينسى فيها خبره (٧)، أو دراء للفتنه (٨)، بل و ربما تعرض الحاكم نفسه إلى مقت العامه و غضبهم لصحبته ابن هانئ (٩)، فيعم وجهه شطر المغرب الإفريقي، حيث حضره التشيع عامره، و حيث يدعى للعقيدة علانيه.

و يهمننا الآن أن نعرف ففى عهد أى حاكم من حكام أشبيلية خرج ابن هانئ من الأندلس.

لقد رجعنا إلى كتب التاريخ القديمه و التراجم علنا نجد شيئا شافيا بما يتعلق بمعرفه الحاكم الذى صحبه ابن هانئ، و غادر الأندلس فى عهده، فلم نوفق إلى ما يغنى، غير أن ابن الأبار يذكر أن عبد الرحمن بن بدر ولى

- ١- ابن الغرضى - تاريخ علماء الأندلس ج ١، ٣٢٦، ٣٣٧، ١٢٠.
- ٢- ابن الغرضى - تاريخ علماء الأندلس ج ١، ٣٢٦، ٣٣٧، ١٢٠.
- ٣- ابن الغرضى - تاريخ علماء الأندلس ج ١، ٣٢٦، ٣٣٧، ١٢٠.
- ٤- ابن الأبار - التكملة ج ١، ١٠٣.
- ٥- ابن خاقان - مطمح الأنفس ص ٧٤.
- ٦- ابن خلكان - وفيات الأعيان ج ٣، ٤٩.
- ٧- ياقوت الحموى - معجم الأدباء ج ١٩، ٩٢.
- ٨- ابن الخطيب - الاحاطه فى تاريخ غرناطه ج ٢، ٢١٢.
- ٩- المقرئ - نفتح الطيب ج ٥، ١٨٣.

للناصر الوزاره و الكتابه و العروض و الخزانه و صرفه فى عماره كوره أشبيليه (1) و لكن لا نعلم فى آيه سنه و ليها و لا متى أعفى منها، و هل لحق ابن هانىء عهده أم لا. و يذكر المؤلف رجلا آخر كان مولى نعمه لبنى أميه، هو إسماعيل بن بدر بن إسماعيل بن زياد أبو بكر" ولى أشبيليه للناصر عبد الرحمن بن محمد و كان أثيرا لديه و منادما له و عاش إلى دوله ابنه الحكم المستنصر بالله... ذكره ابن الفرضى فى تاريخه و ذكر أن صناعه الشعر غلبت عليه و هو أحد المكثرين و له الناصر:

لو كان يعبد دون الله من أحد ما كان غيرك فى الدنيا بمعبود

قد فات قدرك وصف الواصفين فما ذكراك ألا بتحميد و تمجيد

لما ذكرتك يوما قلت فى جزل يا نعمه الله فى أيامه زبدي

(2) هذا الرجل الذى ولى للناصر أشبيليه، و عاش إلى أيام الحكم، حتى بعد خروج ابن هانىء من الأندلس، و كان شاعرا هل كانت بينه و بين ابن هانىء صداقه تربط بينهما، ثم هل جمعت بينهما صنعه الشعر فتصافيا و تحابا حتى لم يطلب منه إلا أن يتغيب حتى ينسى خبره؟ قد يجوز ذلك و لا أرى مانعا يحول دون هذه المصافاه، فالرجل شاعر و هو أمير، و للشعر و الشعراء عنده مكانه، و ما أرى إلا أنه اصطحب ابن هانىء حتى ساءت مقاله الناس فيه، فطلب الأمير من الشاعر أن يتغيب عن البلاد وقتا ينسى فيه خبره. هذا رأى نميل إليه و إن كنا لا نستطيع الجزم به ثم إن بينهما تشابه فى الاستعمالات الشعريه و المبالغات فايات إسماعيل بن بدر التى مرت معنا، نجد لها شبيها عند ابن هانىء وزنا و قافيه و معنى:

و عند ذى التاج بيض المكرمات و ما عندى له غير تمجيد و تحميد

اتبعتة فكرى حتى إذا بلغت غاياتها بين تصويب و تصعيد

رأيت موضع برهان يبين و ما رأيت موضع تكييف و تحديد

(3) فهل يكون هذا التشابه فى التفكير و التعبير دليلا على صداقتهما و عيشهما زمنا طويلا معا حتى أثر أحدهما فى الآخر؟ قد يكون ذلك و إن كنا لا نستطيع أن نجزم به مع ميلنا إليه.

و ثمه نقطه أخرى نود أن نعرض لها بالتفصيل - كنا قد أشرنا إليها سابقا، و هى كم كان عمر شاعرنا عند خروجه من الأندلس؟ يتفق صاحب الاحاطه فى أخبار غرناطه و صاحب وفيات الأعيان على أن ابن هانىء لما خرج من الأندلس كان عمره سبعا و عشرين سنه (4) و لم أجد غيرهما تعرض إلى ذكر عمره عند خروجه من الأندلس.

بيد أن من يطالع ديوان ابن هانىء يجد فيه إشارات إلى وقائع معينه إذا عرف تاريخ حدوثها أمكن تحديد الزمن الذى قيلت فيه على وجه التقريب، لا سيما و أن بعضها لا يحفل بآيه إشاره شيعيه، أو آيه تعابير عقائديه، فلنأخذ مثلا قصيدته التى مطلعها:

أرياك أم ردع من المسك صائك و لحظك أم حد من السيف باتك

(٥) و قد قالها فى مدح المعز، و نجد أن هذه القصيده خاليه من أيه إشاره إلى معركة حريبه بل فيها دعوه إلى موالاه الفتوحات:

و وال فتوحات البلاد كأنها مباسم ثغر تجتلى و مضاحك

و فيها أيضا تعريض بنى أميه الذين نقموا عليه تشيعه، و حاولوا الفتك به، فانهزم، و مما يؤلف فى المديح أن يعدد الشاعر أعمال الممدوح المجيده، فإذا أغفل ذلك جاز لنا أن نعتقد بان الخليفه لم يكن له بعد من جليل الأعمال ما يستحق الذكر، و فى مثل هذه الحال كان لنا أن نرى أن اتصال ابن هانئ بالمعز كان عند توليه الأمور، و تسلمه زمام الحكم فى البلاد، و لم تكن للمعز بعد غزوه تذكر. و المعروف أن المعز تسلم زمام الخلافه سنه اثنتين و أربعين و ثلاثمائه (٦) و فى قصيده أخرى يشير إلى غزوه لجيوش المعز إلى أحد ثغور بنى أميه بقياده عامل المعز على صيقلية الحسن بن على، حيث نزل فى ساحل المريه، فغنم و عاد منصورا و قد وقعت هذه المعركه سنه ٣٤٤ - و فى هذه القصيده يقول ابن هانئ:

لقيت بنى مروان جانب ثغرهم و حظهم من ذاك خسر و تنبيا

(٧) بينما يشير فى قصيده أخرى إلى فشل بنى أميه فى النزول على ساحل المغرب انتقاما لما أصيبوا به من قبل جيش المعز، و فى هذه المناسبه يقول ابن هانئ:

خابت أميه منه بالذى طلبت كما يخيب برأس الأقرع المشط

و يظهر أن بنى أميه غضبوا لانتهاك حزمه بلادهم، لذلك "أخرج سيد الأندلس... أسطوله مع غالب مولاة إلى ساحل إفريقيه فمنعتهم العساكر" (٨) و قد حصلت هذه الواقعة فى سنه ٣٤٥ إذ أنها كانت ردا على غزوه الفاطميين للأندلس.

و مما نلاحظ هاتين القصيدتين أنهما خلتا من التعابير الشيعيه، و الإشارات العقائديه، إلا من مبالغات مالوفه لدى الشعراء.

كل هذا يحملنا على أن نقول بان اتصال ابن هانئ بالمعز كان حوالى سنه ثلاثمائه و أربع و أربعين، ٣٤٤، أى عند ما كان عمره أربعاً و عشرين سنه على أبعد تقدير، لا كما ذكر ابن الخطيب و ابن خلكان من أنه كان ابن سبع و عشرين سنه لما خرج من الأندلس، ذلك لأننا وضعنا ولادته فى سنه ٣٢٠ (٩٣٢)، ثم إننا نعرف أنه اتصل أولا- بجعفر بن على بن حمدون و أقام زمنا يمدحه قبل أن يتصل بالمعز، غير أننا لا- نرى مانعا من أن يتصل بالمعز فى السنه التى اتصل فيها بجعفر بن على، إذ يقول ابن الخطيب أنه اتصل أولا- بجوهر قائد المعز و مدحه فلم يعجبه عطاؤه، فسأل عمن يفضله، فدل على جعفر بن على، فاتصل به و بقى عنده إلى أن وجهه جعفر إلى المعز (٩)، و هنا نحار أمام التاريخ إذ أن جوهر لم يغزه المعز إلا سنه ثلاثمائه و سبع و أربعين ٣٤٧ كما يقول ابن خلدون (١٠) و أن أول قائد للمعز من غلمانة هو قيصر الصقلى الذى تركه فى العساكر بعد جولته الأولى سنه ٣٤٢ ثلاثمائه و اثنتين و أربعين، ٦.

ص: ١٦٥

- ٢- ابن الأبار - الحله السراء - ص ١٣٨.
- ٣- ديوان ق ١٢-٢١٠.
- ٤- ابن الخطيب، الاحاطه فى أخبار غرناطه ج - ٢-٢١٢. ابن خلكان، وفيات الأعيان - ٣-٤٩.
- ٥- ديوان ق ٣٧.
- ٦- ابن خلدون تاريخ ج ٤-٤٦.
- ٧- ديوان ق ٣-٤٢.
- ٨- ابن خلدون تاريخ ج ٤-٤٦.
- ٩- ابن الخطيب إحاطه ج ٢-٢١٢.
- ١٠- ابن خلدون تاريخ ج ٤-٤٦.

يوم خرج إلى بنى كملان و مليله و هواره، ثم ولاه المعز أعمال باغايه (١) فهل يكون اتصال ابن هاني بقصر لا بجوهر أولا، ذلك أن جوهر كان كاتباً و وزيراً للمعز، ثم إن ابن هاني مدحه و عرض بمدحه في مدحه للمعز، و لو أنه لم يعجبه لا نصرف عنه و لما ذكره.

و هكذا نرى أن خروج ابن هاني من الأندلس، كان قبل أن يتجاوز الرابعه و العشرين من العمر، خرج منها شاباً لم تنضجه الخبره، و لم تعلمه الأيام ما يحتاج إليه في حياته من مداراه للناس، و لين جانب، و تستر على عقيدته، و عمل بالتقيه كما فعل أبوه، فاضطر، و هو الشاب المندفع أمام ضغط العامه و مقت الخاصه إلى الهرب، قبل أن تنضجه خبره السنين، و تفيدته الأيام حسن درايه و معرفه بأصول معاشره الناس.

موت ابن هاني

أكثر المؤرخين الذين تحدثوا عن ابن هاني متفقون على أن وفاته كانت في سنه اثنتين و ستين و ثلاثمائة ٣٦٢ (٩٧٢) (٢)، و في مدينه برقه (٣)، و لكنهم لم يتفقوا على كيفية الموت و لا سببه، فابن خلدون (٤) و أبو الفداء (٥) و ابن الأثير (٦) يقولون بأنه كان مع المعز عند ما توجه إلى مصر و لما وصل إلى برقه قتل ابن هاني غيله، هذا ما لا تذكره كتب التاريخ الأدبي فتخالف هذا الرأي، فيذكر ابن الخطيب أن ابن هاني توجه إلى مصر ليلحق بالمعز الذي كان آنذاك فيها و عند وصوله إلى برقه، سكر و نام عريانا و كان البرد شديدا فالفج و توفي في سنه إحدى و ستين و ثلاثمائة (٧) و يخالف هذه الروايه ياقوت الحموي، إذ يذكر أنه "وجد ملقى في سانيه من سواني البلد مخنوقا بتكه سراويله، و لم يعرف سبب ذلك، و لا فاعله، و كانت وفاته كذلك يوم الأربعاء سنه اثنتين و ستين و ثلاثمائة" (٨) و يجمع ابن خلكان (٩) بين الروايتين دون أن يستطيع أن يرجح إحداهما على الأخرى.

من هذا نرى أن المؤرخين لم يتفقوا على كيفية موت الشاعر و أن اتفقوا على تاريخ هذه الوفاة و أحب أن أشير إلى أن ابن هاني لم يكن في صحبه المعز عند ما قتل، ذلك أن المعز كان قد سبقه إلى مصر و عاد الشاعر ليأخذ عياله و يلحق به و لما كان في برقه قتل غيله فبلغ ذلك المعز فقال - هذا الرجل كنا نود أن نفاخر به شعراء المشرق، فلم يقدر لنا ذلك (١٠) و من الجائز أن يكون جماعه من سكان برقه، من المتعصبين على الفاطميين، اغتتموا فرصه سفره بعيدا عن جيش المعز، فاغتالوه (١١).

شعر ابن هاني و الحياه الاجتماعيه

ابن هاني، ككل شاعر في كل عصر، لا يمكن أن نفصله عن بيئته أو نطلب إليه أن يتناسى أو يتجاهل ما يدور حوله، بل على النقيض من ذلك، نتوقع أن نرى شعره مرآه عصره و محيطه، و سجلا حافلا للأحداث التي مر بها، و العادات التي عرفها.

لقد قضى الشاعر ما يقرب من نصف عمره في بيئته غير البيئه التي أبصر فيها النور، في البيئه الإفريقيه، و في ظل دوله ناشئه هي الدوله الفاطميه، القائمه على الايمان بان الخلافه الإسلاميه حق من حقوق آل البيت من أبناء علي من زوجته فاطمه الزهراء، و كان يؤيد هذه الدعوه أناس اختلفوا جنسا و توحّدوا غايه. هذا المجتمع الإفريقي لم يهمله ابن هاني، بل تحدث عنه و إن لم يسهب في الحديث. إن في شعر ابن هاني ما يدل على أن في هذا المجتمع كان يعيش العربي و البربري و المولى، و نحن إذا ما قرأنا شعره نراه يتحدث عن العرب باعجاب و اعتزاز، و لا- غرابه بذلك فالشاعر عربي، و الخليفه عربي، بل و من خيره قبائل العرب، بل و من خيره هذه القبيله، من هاشم بن عبد المطلب، و إنا لنلاحظ أن الشاعر ما اتصل إلا بالعرب، فقد اتصل بأبناء علي

بن حمدون و هم من جذام و جذام من عرب الجنوب كما اتصل بأبى الفرج الشيباني و هو من قبيله بنى شيان. أما أبناء على بن حمدون فيثب الشاعر أنهم أقرباؤه إذ يفتخر بهم و بهذا يقول:

فمهلا بنى عمى و أعيان معشرى و أملاك قومی و الخضارم من نجرى

و هؤلاء ينتسبون إلى جذام كما يتضح من قوله فى مدح إبراهيم بن جعفر بن على بن حمدون:

و إذا شاء قلده جذام شرف البيت من أواخ و سمك

و أما فى مدحه لأبى الفرج الشيباني فيفخر بالنسب العرب، و يجعل هذا النسب سببا لنيل الشرف:

أبلغ ربيعه عن ذى الحى من يمن أنا نؤلف شملا ليس يفترق

إننا و إياكم فرعان من كرم قد بوركا و زكا الأثمار و الورق

انا لتشرف أيام الفخار بنا حتى يقول عدانا إننا الفلق

و أما الخليفة فالشك لا برقى [يرقى] إلى نسبه لأنه القطب الذى تدور حوله الدعوه الفاطميه.

و هناك طبقه أخرى هى طبقه غير العرب ممن ناصروا الدعوه الفاطميه و أيدوها، و قد كان من بين هؤلاء قبائل عديده أشهرها صنهاجه، و منها زيرى بن مناد، و ابنه يوسف بلكين، و كانا مقدمين عند المعز، و قائدين يعول عليهما فى الأمور الصعبة، و نحن لا نرى أن ابن هانئ يذكر هذين القائدين فى شعره و لم يمتدحهما أبدا، و ربما كان ذلك تعصبا منه للعرب أو لأن هذين كاتلهما من غير العرب، أو المستعربين لم يكونا يفهمان العربيه، لذلك انصرف عنهما الشاعر. و هناك قبائل أخرى كقبيله كتامه و زناته و بنى و أسول، و من هذه القبائل من كان يثور على المعز، فيرسل إليها الجيوش، و قد أشار ابن هانئ إلى هذه المعارك، و خاصه تلك المعارك التى جرت ضد الحروريين - و هم من الخوارج -، فقد حاربهم جعفر بن على، و انتصر عليهم، و استولى على قلعه كتامه التى كانت:

حروريه ما كبر الله خاطب عليها و لا حى بها ملكا وفد

كما أنه لما مدح أبا الفرج الشيباني لم ينس أن يذكر بلاءه فى قتال هذه القبائل

ص: ١٦٦

١- ابن خلدون تاريخ ج ٤-٤٦.

٢- ابن خلكان وفيات الأعيان ج ٣-٤٩.

٣- ديوان ق ٣٢-٤٦٦.

- ٤- ابن خلدون المصدر السابق ص ٤٩.
- ٥- أبو الفداء تاريخ ج ١١٨٢.
- ٦- ابن الأثير الكامل ج ٨-٢٢٣.
- ٧- ابن الخطيب الاحاطه ج ٢-٢١٢.
- ٨- ياقوت معجم الأدباء ج ١٩-٩٢.
- ٩- ابن خلكان وفيات الأعيان ج ٣-٤٩.
- ١٠- المصدر ذاته وفيات الأعيان ج ٣-٤٩.
- ١١- ما ذكره ابن الخطيب عن سبب موته لا يقصد به إلا التشنيع على ابن هاني، فالشاعر اغتيل اغتيالاً لأنه أصبح لسان الدوله الفاطميه (ح).

البربريه الخارجيه على الخلافه الفاطميه:

لم يجهلوا ما تلاقى في التشيع من تحريض شاربه أو بأس شارى

و ما تذلل من أهل العناد لهم و ما تدارى من الدين الأباضى

و هناك طبقه أخرى تسهم فى بناء هذا المجتمع، هى طبقه الموالى و لا- سبيل إلى معرفه الكثير عنها، غير أن من الواضح أن بعض هؤلاء الموالى ممن كانوا فى خدمه الخلفاء، استطاعوا أن يكسبوا ثقه أسيادهم فتوصلوا إلى مراكز مرموقه و ما قيصروا جوهر قائدا المعز إلا- من هؤلاء الموالى، و ابن هانئ عند ما يمدح جوهر - إذ أننا لا نراه يمدح غيره من الموالى -، لا يتعرض لنسب جوهر، بل يتحدث عن شجاعته و كرمه و رزاقته و حسن تصريفه للأمر، و عن اجتهاده فى محاربه الثائرين على المعز:

و أدركت سولا فى ابن وأسول عنوه و زحزحت منه يذبلأ فترحزحا

و هو لا يتحدث عن نسب جوهر، ذلك لأن جوهر مولى، و الموالى لا نسب لهم يفخرون به إلا نسب الولاء.

من كل هذا نستخلص أن ابن هانئ كان متعصبا للعرب، فهو لم يمدح بربريا و لم يذكر فضل هؤلاء على الخلافه الفاطميه، إذ كانوا دعائم وجودها الأول، و كذلك لم يمدح من الموالى إلا جوهر فهل كان ابن هانئ يحتقر الموالى و البربر و يفضل عليهم العرب؟ قد يكون ذلك و قد يجوز أن يكون الموالى و البربر لا يحسنون فهم العرييه، و لذلك انصرف عنهم الشاعر(1)

المدح

المدح هو الفن الشعري الذى قامت عليه شهره ابن هانئ، و أما الفنون الشعريه الأخرى فلم يولها أهميه.

كنا رأينا أن الشاعر خرج من الأندلس مضطرا، و جاء الغرب هاربا - كما يقول هو - من الأمويين و عمالهم الذين نعموا عليه تشيعه، خرج إلى عدوه المغرب حيث اتصل بجوهر قائد المعز و مدحه كما يقولون، بيد أن ابن الأبار لا يذكر أن ابن هانئ اتصل بجوهر عند خروجه إلى عدوه المغرب، بل يقول: و اتصل بجعفر بن على بن حمدون الأندلسى و بأخيه يحيى. أما أنا فأرى أن ابن هانئ لم يتصل أولا بجوهر، لأسباب منها أن جوهر هذا لم يغزه المعز إلا عند ما ثار ابن واسول محمد بن الفتح على المعز و تلقب بأمر المؤمنين(2)، و هو من سلالة ميمون بن مدار بن اليسع من بنى واسول المكناسى، تغلب على سجدماسه و دعا لنفسه، و أرى الناس أنه يدعو لبني العباس، و رفض الخارجيه، و لقب نفسه بأمر المؤمنين الشاكر بالله، و اتخذ السكه باسمه و لقبه، و بقى إلى أن قبض عليه جوهر سنة ٣٤٧ بعد أن تغلب على سجدماسه المدينه التى اتخذها الخوارج مركزا لهم بعد أن اختطوها سنة ١٤٠ هجرية و إلى هذا الحدث يشير ابن هانئ فى قصيدته التى مدح بها جوهر و قد كنا رأينا أن خروجه من الأندلس كان حوالى سنة ٣٤٤، فهل يعقل أن يبقى ثلاث سنوات تائها قبل من الأندلس كان حوالى سنة ٣٤٤، فهل يعقل أن يبقى ثلاث سنوات تائها قبل أن يتصل بجوهر؟ لذلك اعتقد أن اتصاله كان أولا بجعفر بن على بن حمدون و أخيه يحيى قبل أن يتصل بجوهر بل ربما اتصل بقيصر الصقلى الذى خلفه المعز على الجيش بعد جولته الأولى فى سنة ٣٤٢ إلى بنى كملان و مليله و هوارة(3) قبل أن يتصل بجعفر أو يحيى [يحيى] ابنى على بن حمدون، و لكن ليس فى الديوان ما يثبت ذلك، و على

هذا فنحن سنقسم مدحه بالنسبة للممدوحين، و نبتدئ بمدح الشاعر لأبناء علي بن حمدون على اعتبار أنه أول شعر له قاله في المغرب، وربما كان أول مدح عرف و دون له، غير أنه لا- يجب أن نفهم من ذلك أن كل مدحه لهما كان قبل أن يتصل بالمعز، بل أنه مدحهما أيضا بعد اتصاله بالمعز، لخلال أعجب بها كانت بهم، من فهم للعربي، و أريحيه قحطانيه، و أبناء علي بن حمدون هم جعفر و أخوه يحيى و إبراهيم بن جعفر^١ و قد دخل جدهما الأندلس من الشام و سكن بكوره البيره، ثم تنقل حفيده حمدون جد جعفر هذا إلى بجايه، و صحب أبا عبد الله الشيعي الداعي، و دخل في مذهبه، فلما تغلب الشيعي على إفريقيه، ظهر علي بن حمدون... ثم ازداد ظهورا في أيام عبيد الله المهدي... و خرج معه إلى أرض المغرب فأمره ببناء مدينه المسيله و ولاه عليها و تولى ابنه جعفر المسيله من بعده، فلم يزل متوليا لها، رفيع المنزله عند سلطانه إلى أن قتل محمدا ابن خزر الزناتى القائم بدعوه بنى أميه، زيرى بن مناد، فخاف جعفر من صاحب إفريقيه، فبادر إلى الفرار بنفسه مع أخيه يحيى و جميع أهله و ماله سنه ٣٦٠، فصار عند بنى خزر أمراء زناته، فشق جعفر الصحراء معهم قاصدين لزيرى، فالتقوا معهم، و دارت بينهم حرب صعبه انجلت عن قتل زيرى... و لما تم الأمر لأمراء زناته، و جعفر بن علي، بادر جعفر بمراسله الحكم إلى الأندلس ملقيا بنفسه عليه، معتصما بدعوته، ثم أرسل إليه أخاه يحيى ثم سار إليه بنفسه. فحظى عنده(٤) و هنا لا بد لنا من الإشارة إلى خلاف تاريخى بين صاحب البيان المغرب ابن عذارى و ابن خلدون إذ أن الأول يقرب بان الذى قتل محمد بن خزر الزناتى الذى كان جبارا عاتيا طاغيا هو زيرى بن مناد بينما يقول ابن خلدون بان المعز أمر بلكين بن زيرى بن مناد بغزوه فغزاه فى بلاده...

و ذلك سنه ٣٦٠(٥) و زيرى من قبيله إفريقيه تعرف بصنهاجه، استقدمه المعز إلى حضرته سنه ٣٤٣ فأكرمه و استخدمه فى بعض المهام، و نحن لا نستطيع أن نثبت أيهما الذى قتل محمدا بن خزر الزناتى إلا إذا اعتبرنا كتب التاريخ أصدق من كتب الأدب فى النواحي التاريخيه، و نحن يهمننا فقط أن نؤكد أن جعفرا و أخاه يحيى انتقضا على المعز و أيدا بنى أميه و ذلك عند ما بعد المعز عن المغرب و أصبح فى مصر بعيدا عن المغرب و متوجها بكليته إلى الشرق.

هذان الرجلان اتصل بهما ابن هانى فاجزلا صلته و أحلاه منزله طيبه، فمدحهما.

الشاعر و ابنا علي بن حمدون

عرفنا أن جدهما الأعلى جاء إلى الأندلس، و سكن كوره البيره، و أن جدهما حمدون انتقل إلى إفريقيه، و صحب أبا عبد الله الشيعي، و احتل مركزا حسنا، و كذلك ابنه علي من بعده، و حفيده جعفر.

ص: ١٦٧

١- مثل ابن هانى فى إسلامه و كياسته لا يمكن أن يحتقر الشعوب لا سيما منها المناضل المخلص، و لكن الحقيقه أن زعماء تلك الأقوام غير العربيه لم يكونوا يفهمون العربيه فهما صحيحا، فإذا فهموها بعض الفهم، فلم يكن لهم من هذا الفهم ما يجعلهم يتذوقون الشعر العربى و يدركون جمال أسلوبه و بعد مرامى معانيه ينفذ عندهم و يروج، لذلك لم يكن لابن هانى فيهم شىء من الشعر (ح).

٢- ابن خلدون: تاريخ ج ٤-٦٤.

٣- ابن خلدون: تاريخ ج ٤-٤٦.

٤- ابن عذاری: البیان المغرب ج. - ٢٤٢-٢٤٣.

٥- ابن خلدون تاریخ ج ٤-٤٨.

و فى جعفر يقول:

قد كنت قبل رضاك أزجى عارضا فاشيم منه الزبرج المنجبا

آليت أصدر عن بحارك بعد ما قست البحار بها فكن سرابا

و نظرا لشجاعه جعفر و حنكته و قدرته على تسيير الأمور فقد اختاره الامام لسد الثغور.

سد الامام بك الثغور و قبله هزم النبى بقومك الأحزابا

أنتم ذوو التيجان من يمن ذا عد الشريف أرومه و نصابا

و له فى جعفر هذا قصيده جميله، فيها من نفس المتنبي الشىء الكثير و جمالها فى هذه الألفاظ الفخمه و التراكيب الحلوه القويه مع دقه فى الوصف و إصابه فى تاديه المعنى:

القائد الخيل العتاق شوازبا خزرا إلى لحظ السنان الأخر

شعت النواصي حشره آذانها قب الأياطل ظاميات الأنسر

فى فتيه صدأ الدروع عبيرهم و خلوقهم علق النجيع الأحمر

لا يأكل السرحان شلو طعينهم مما عليه من القنا المتكسر

أنسوا بهجران الأنيس كأنهم فى عبقرى البيد جنه عبقر

قوم يبيت على الحشايا غيرهم و مبيتهم فوق الجياد الضمر

حى من الأعراب إلا أنهم يردون ماء الأمن غير مكدر

و كفاك من حب السماحه أنها منه بموضع مقله من محجر

فغمامه من رحمه و عراضه من جنه و يمينه من كوثر

و فى جعفر يقول:

كان لواء الشمس غره جعفر رأى القرن فازدادت طلاقته ضعفا

و قد جاشت الدماء بيضا صوارما و مارنه سمرا و فضفاضه زعفا

و جاءت عتاق الخيل تردى كأنها تخط لها أقلام آذانها صحفا

هنالك تلقى جعفرا غير جعفر و قد بدلت يمانه من رفقه ضعفا

و لم يقتصر ابن هانى فى مدحه على جعفر ككبير أسره آل على بن حمدون، و كامير للزباب، بل راح يتصل بأخيه يحيى كما اتصل بإبراهيم بن جعفر، يمدحهما و هما شابان يقاربانه سنا.

و من جميل ما قاله فى مدح إبراهيم:

متهلل و البدر فوق جبينه يلقاك بشر سماحه من دونه

و الدين و الدنيا جميعا و الندى و البؤس طوع شماله و يمينه

جدلان فالآداب فى حر كاته و الحلم فى أطراقه و سكونه

بادى الرضاء حذار منه معاودا غضبا يريك الموت بين جفونه

لين تساس به الخطوب و شده و النصل شده بأسه فى لينه

و لم يقتصر ابن هانى مدحه على هؤلاء فقط، بل راح يمدح غيرهم من القاده و الأمراء فقد اتصل الشاعر بجوهر، و هو مملوك رومى رباه المعز لدين الله و كناه بأبى الحسين و أعلى قدره و سيره فى رتبه الوزراء و جعله قائد الجيوش و بعثه فى صفر سنه ٣٤٧ - و معه عساكر كثيره إلى المغرب فافتتح مدنها و دوخ بلادها ثم جهزه المعز إلى مصر ففتحها و لما تمكن بمصر سير جعفر بن فلاح الذى كان معه إلى بلاد الشام فى العساكر ففتحها و بقى معززا عند الفاطميين حتى توفى سنه ٣٨١ - ٩٩٢. مدح الشاعر القائد و ذلك بمناسبة انتصاره على ابن واسول الذى ثار على المعز فأرسل هذا له جوهر فانتصر على الثائر و هنا الشاعر فقال:

و ابيض من سر الخلافه واضح تجلى فكان الشمس فى رونق الضحى

أريك به نهج الخلافه مهيعا يبين [يبين] و اعلام الخلافه وضحا

و لما اجتباه و الملائك جنده لمهلكهم درت على قطبها الرحي

فقلدها جم السياسه مدرها إذا شاء رام القصد أو قال أفصحا

و عند ما غادرها القائد القيروان إلى مصر شيعه المعز و مدحه الشاعر بقصيده اعتبره فيها أنه سيف بنى هاشم:

إلى أن تبدى سيف دوله هاشم على وجهه نور من الله يسطع

و ثمه رجل ثان هو محمد بن عمر الشيباني، و كنيته أبو الفرج، اتصل به الشاعر، و كان هذا الرجل صاحب أعمال الصعيد - كما يظهر من قول الشاعر - قبل اتصاله بالمعز، و فى هذا الرجل يقول ابن هانى:

الواهب الألف إلا أنها بدر و الطاعن الألف إلا أنها نسق

و من مواهبه الرايات خافقه و العاديات إلى الهيجاء تستبق

جم الأناه العفو مبتدر المعروف مدرع بالحزم منتطق

و فيه يقول:

ليث الكتيبه و الأبصار ترمقه و بيضه الخدر فى الليل الدجوجى

ثقت منه أديبا شاعرا لسنا شتى الأعاريض محذور الأحاجى

مستطلعا لجوابى من بديهته فما يجاوبه مثل النواسى

قريب عهد باعراب الجزيره لم ينطق بدارا و لم ينسب إلى عى

لا يشرح القوم وحشى الغريب له و لا يسائل عن تلك الأحاجى

و عند ما توجه جيش المعز لفتح مصر بقياده جوهر الصقلى، كان أبو الفرج فى جملة القواد، فمدحه الشاعر فى هذه المناسبه قائلا:

حلفت بالسابغات البيض و اليب و بالأسنه و الهنديه القضب

أنت السبيل إلى مصر و طاعتها و نصره الدين و الإسلام فى حلب

و أين عنك بأرض سستها زمنا و ازدان باسمك فيها منبر الخطب

أ لست صاحب أعمال الصعيد بها قدما و قائد أهل الخيم و الطنب

أن لا تقد عظم ذا الجيش اللهم فقد شاركت قائده فى الدر و الحلب

فالناس غيرك اتباع له خول و أنت ثانيه فى العليا من الرتب

أيدته عضدا فيما يحاوله و كتتما واحدا فى الرأى و الأدب

فليس يسلك إلا ما سلكت و لا يسير إلا على أعلامك اللحب

فقد سرى بسراج منك فى ظلم و قد أعىن بسىل منك فى صىب

جرىتما فى العلى جرى السواء معا فجئتما أولا و الخلق فى الطلب

و أنتما كغراى صارم ذكر قد جردا أو كغرى لهزم ذرب

و قد عرف الشاعر رجلا آخر كان عاملا للمعز على برقه، اسمه أفلىح الناشب، و هو الذى قد وطا البلاد، و استعمل الجهاد، لمن خالف المعز من البربر و غيرهم فمدحه بقصيده واحده يصفه فيها بالعلم و الكرم حتى أن الناس:

ىردون جمه علمه و نواله فكأنهم حىث التقى البحران

ص: ١٦٨

و يذكر إخلاصه للمعز فيقول:

و إذا الذين أعدهم شيعا إذا قيسوا إليه كعبد الأوثان

نضحت حراره قلبه بموده ضربت عليه سراق الايمان

هذا هو مدح ابن هانى لمن كانوا عوناً للمعز، وزراء أو عمالاً أو قادة، و قد بقى علينا أن نرى مدحه للمعز، علنا نستخلص لهذا صورته، و أود أن أشير قبل ذلك إشارة خاطفه إلى أن ابن هانى لا يتوكأ على الآيات القرآنيه فى مدح هؤلاء، مما سيجعلنا نستطيع التمييز بين مدحه للمعز و مدحه لغيره.

الشاعر و المعز لدين الله

اقترن اسم ابن هانى الأندلسى باسم المعز لدين الله الفاطمى، ذلك لأنه كان شاعره الذى أراد أن يفاخر به شعراء المشرق.

و من يتصفح ديوان ابن هانى، يعجب إذ لا يقع فيه إلا على إحدى و عشرين قصيده من أصل ستين قصيده فى الديوان الذى نشره الشاعر، زاهد على، مع بضع قصائد أخرى نسبت إليه و بعض المقاطع فى موضوعات مختلفه فى حين أن الشاعر عاش فى إفريقيا ما يقرب من ثمانى عشره سنه.

لقد مدح ابن هانى المعز بقصيده مطلعها:

أقول دمی و هى الحسان الرعايب و من دون أستار القباب محاريب

و فى هذه القصيده يشير إلى معارك خاضها جيش المعز مع الروم و انكسار بنى أميه أمام جيش المعز الذى أغار على بلادهم:

لقيت بنى مروان جانب ثغرهم و حظهم من ذاك خسر و تيب

و قد وقعت هذه المعركه فى سنه أربع و أربعين و ثلاثمائة ٣٤٤ (٩٥٥) عند ما أغزى المعز عامله على صقلية ساحل المريه:

و لا مدح إلا للمعز حقيقه يفصل درا و المديح أساليب

نجار على البيت الإمامى معتل و حكم إلى العدل الربوبى منسوب

و لم أر زوارا كسيفك للعدى فهل عند هام الروم أهل و ترحيب

إذا ذكروا آثار سيفك فيهم فلا القطر معدود و لا الرمل محسوب

تشب لها حمراء قان أوارها سبوح لها ذيل على الماء مسحوب

و يعيب على بنى أميه تقاعسهم عن الدفاع عن أراضيهم ضد الغزاه و يعيرهم بالتخاذل و يتطرق إلى بنى العباس فى الشرق

فيرميهم بالعودة عن نصره الدين و تخاذلهم أمام جيوش الروم التي تهاجم الثغور في البلاد الإسلاميه و صرفهم أوقاتهم في الشرب و السماع:

و نوم بنى العباس فوق جنوبهم و لا نصر ألاقينه و أكاويب

لذا لا يبقى إلا المعز وحده يدافع عن الدين، و يحفظ حرمة المسلمين، و يرد عاديه المغيرين:

و لا عجب و الثغر ثغرك كله و أنت ولى الثار و الثار مطلوب

و أنت نظام الدين و ابن نبيه و ذو الأمر مدعو إليه فمندوب

و فى قصيده أخرى لاحقه فى التاريخ إلى السابقيه، يشير إلى اخفاق بنى أميه فى النزول على الساحل الإفريقي:

خابت أميه منه بالذى طلبت كما يخيب برأس الأقرع المشط

و حاولوا من حضيض الأرض إذ غضبوا كواكبا عن مرامى شاوها شحطوا

تالله لو كانت الأنواء تشبهه ما مر بؤس على الدنيا و لا قحط

امام عدل و فى فى كل ناحيه كما قضوا فى الامام العدل و اشترطوا

لا يفتدى فرحا بالمال يجمعه و لا يبيت بدنيا و هو مغتبط

يا أفضل الناس من عرب و من عجم و آل أحمد أن شبا و ان شمطوا

ليهنك الفتح لا أنى سمعت به و لا على الله فيما شاء اشترط

و فى المعز يقول:

أفيقوا فما هى إلا اثنتان أما الرشاد و أما العمى

لكل بنى أحمد فضله و لكنك الواحد المجتبى

و ما لا يرى من جنود السماء حولك أكثر ممن يرى

ليعرفك من أنت منجاته إذا ما اتقى الله حق التقى

كان الهدى لم يكن كائنا إلى أن دعيت معز الهدى

و لم يحكك الغيث فى نائل و لكن رأى شيمه فاقتدى

شهدت حقيقه علم الشهيد بانك أكرم من يرتجى

فلو يجد البحر نهجا إليك لجاك مستسقىا من ظما

إلى مثل جدواك تنضى المطى و من مثل كفيك يرجى الغنى

(1) و نحن نلمس حراره الايمان فى مدائح ابن هانى للمعز مما يرتفع بها عن المدح المبذل الذى اعتاده الشعراء، فهى تعبير قوى عن الاعجاب و اليقين و الاعتقاد، و هى صدى لما يعتمل فى نفس الشاعر من تمجيد لمواقف المعز فى كفاح المعز للبيزنطيين و غيرهم من أعداء العربيه و الإسلام.

الهجاء

ليس لابن هانى فى هذا الفن إلا قصيده واحده قائمه بذاتها هجا بها الوهرانى كاتب جعفر بن على بن حمدون، و هناك قصيده أخرى يصف فيها أكلولا بشكل مضحك، و فيما عدا ذلك فقد جاء الهجاء فى معرض المدح، و هذا فى القصائد التى مدح بها المعز لدين الله الفاطمى، إذ أنه كان مضطرا لأن يذكر خصوم الامام، بما يرضى عنه الامام.

و ابن هانى عند ما يعرض للأمويين يهجوهم، و يعتبرهم مغتصبى حق الفاطميين، و يذكر مكانتهم فى الإسلام، و يتحدث عن عجزهم فى حفظ ثغورهم:

إلا أن يوما هاشميا أظلمهم يطير فراش الهام عن كل مجثم

كيوم يزيد و السبايا طريده على كل موار الملاط عثم

و قد غصت البيداء بالعيس فوقها كرائم أبناء النبى المكرم

فما فى حريم بعدها من تخرج و لا هتك ستر بعدها بمحرم

و قد حملهم على هذا الأمر ذلك الحقد الموروث من أيام الجاهليه، و الضغينه التى لم يستطع الإسلام أن يمحوها من صدورهم، بل كتبها إلى زمن، حتى إذا وجدت منفرجا، خرجت قويه، و عملت فاتكه غير راحمه، فهم ينتقمون لقتلهم بيد:

و بالحقد حقد الجاهليه أنه إلى الآن لم يظعن و لم يتصرم

و بالثار فى بدر أريقت دماؤكم و قيد إليكم كل أجرد شيطم

و أما بنو العباس فليسوا أقل إيذاء لأحفاد على فقد كانوا يطالبون

١- مرت مدائح ابن هانئ فى المعز فى ترجمه ابن هانئ فى المجلد العاشر فلا نعيدها هنا (ح).

يارجاع الخلافة إلى أبناء علي، حتى إذا انتصروا، استأثروا بها دونهم، وراحوا يتعقبونهم و ينكلون بهم، فشردوا في الأرض أو استكانوا على مضاضه، و لذا راح الشاعر يطالبهم يارجاع هذا الحق إلى أهله، لأنهم ليسوا أهلا له، و يعيرهم عجزهم عن رد أعدائهم، و تقاعسهم عن نصره الدين، و اكتفائهم بشرب الخمره و سماع الغناء كأنهم بذلك يرجون النصر.

و نوم بنى العباس فوق جنوبهم و لا نصر إلا قينه و أكواب

و فى هذا القول سخرية مره، إذ يطلبون النصر من كوب يشربون به، أو قينه يسمعون إليها، و هذا منتهى العجز، بينما يذكر أن سيده المعز، هو الذى يدافع عن الدين، و يحفظ الشريعة، و يعيرهم كون جدهم العباس من الطلقاء، و ان جدتهم أمه تدعى نثله:

لستم كابناء الطليق المرتدى بالكفر حتى عض فيه أسار

أبناء نثله ما لكم و لمعشرهم دوحه الله الذى يختار

ردوا إليهم حقهم و تنكبوا و تحملوا فقد استحتم بوار

و دعوا الطريق لفضلهم فهم الالى لهم بمجهله الطريق منار

كم تنهضون بعبء عار و اصم و العار يأنف منكم و النار

يلهيهم زمر المثنائى كلما ألهاكم المثنى و المزمار

و ليس لابن هانى فى الهجاء المستقل، إلا قصيده واحده، و هناك أخرى فى وصف أكله يصوره فيها تصويرا ساخرا.

و إذا كان الهجاء وصفا للعيوب من تجسيمها حتى تظهر نافرته تحمل على الاشتمزاز أو الاحتقار، فان قصيده ابن هانى فى هجاء الوهرانى تحوى الشروط التى يقتضيها فن الهجاء. و الوهرانى هو كاتب الأمير جعفر، ممدوح الشاعر، و اسمه أحمد، و يكنى بأبى جعفر، و يعرف بالوهرانى، و يظهر أن أسبابا حدثت، حملت الشاعر على هجاء هذا الرجل، و لكننا لا نستطيع تحديدها و لم يتعرض إلى غير هذا الرجل بهجاء إلا ذلك الأكل، الذى وصفه بشكل مضحك.

يبتدى ابن هانى هجاء الوهرانى بالفخر بنفسه، فيصبغ عليها صفات حميده كأنه يريد بذلك أن يبين الفرق بينه و بين المهجو حتى تظهر عيوب المهجو مجسمه:

طلب المجد من طريق السيوف شرف مؤنس لنفس الشريف

ان ذل العزيز أفضع مرأى بين عينيه من لقاء الحتوف

ليس غير الهيجاء و الضربه الأخدود فيها و الطعنه الأخطيف

أنا من صارم و طرف جواد لست من قبه و قصر منيف

ليس للمجد من يبيت على المجد بسعى وان و نفس عزوف

وعدتني الدنيا كثيرا فلم اظفر بغير المطال و التسويف

كلما قلب المحدد فيها اللحظ ولي بناظر مطروف

علمتني البيداء كيف ركوب الخيل و الليل كيف قطع التنوف

بهذه الأبيات الجميله الجزله يصف نفسه.

و بعد ذلك ينتقل إلى هجاء الوهراني الذي يسميه "أبا الجعر" و الجعر نجو الحيوانات، فيسب الأيام التي ساعدته على أن يصبح كاتباً للأمير، و يدعى أن الأيام إنما تساعد السخفاء الأغبياء، و تحارب الأذكياء، و ينعتة بالخسه و الدناءه، و سخافه الرأي، و الجهل، و العي، و الكذب، و الخنى، إلى ما هنالك من الصفات البذيئه السيئه ثم لا يكتفى بذلك، بل يحاول أن يثير التشاؤم في نفس الأمير جعفر من اصطحابه هذا الكاتب المشؤم، ليقيله من منصبه، بل يحضه على ذلك مخافه أن يلحقه شؤم هذا الكاتب:

إن أيام دهرنا سخفات فهي أعوان كل وغد سخيف

زمن أنت يا أبا الجعر فيه ليس من تالد و لا من طريف

ان دهرنا سموت فيه علوا لوضيع الخطوب وغد الصروف

إن شاوا طلبته في زمان الملك عندي لشاوا بين قذوف

إن رأيا تديره لمعنى بضلال الإمضاء و التوقيف

ان لفظا تلوكه لشبيه بك في منظر الخباء الجليف

كاذب الزعم مستحيل المعانى فاسد النظم فاسد التأليف

أنت لا تغتدى لتدبير ملك إنما تغتدى لرغم الأنوف

نلت ما نلت لا بعقل رصين في المساعى و لا برأى حصيف

أنت في دوله الحبيب إلينا فترقق بالماجد الغطريف

فإذا ما نعت شر نعيب فعلى غير ربه المألوف

لست أخشى إلا عليه فكن بالأريحي الرءوف جد رءوف

كيف صاحبته بأخلاق وغد لا يني في يوسه و جفوف

و خنى حالف بانك ما أصبحت يوما لغيره بحليف

و يفتش عن تهم يلصقها به تقوده إلى الموت، فلا يجد أقوى من اتهامه بمخالفه العقيدة الشيعيه، و مروقه من الدين، و تحالفه مع الأمويين، و كرهه للفاطميين:

إن فيه لشعبه من بنى مروان تنبى عن كل أمر مخوف

متخل من اثنتين برئ من إمام عدل و دين حنيف

و نشعر أن ابن هانى فى هجائه يصدر عن حقد قوى، و يرمى مهجوه بكل عيب، و يلصق به أبشع التهم، و أشدها على الإنسان، و قد تقوده إلى الموت، و على كل ففى القصيده جمال فى البناء، و جمال فى المعنى، إذا ما نظرنا إلى فن الهجاء بمقاييسه الخاصه. و للشاعر قصيده أخرى يصف فيها أكولا، فيعطينا صوره واضحه مضحكه حتى يبدو و كأنه مصور "كاريكاتورى" هزلى يعنى بالنواحي التى تثير الضحك، فيبرزها بشكل مشوه فاسمع إليه يصف هذا الأكل:

انظر إليه و فى التحريك تسكين كأنما التقتت عنه التنانين

تبارك الله ما أمضى اسنته كأنما كل فكك منه طاحون

كان بيت سلاح فيه مختزن مما أعدته للرسل الفراعين

كأنما الحمل المشوى فى يده ذو النون فى الماء لما عضه النون

لف الجداء بأيديها و أرجلها كأنما افترستن السراحين

و غادر البط من مثنى و واحده كأنما اختطفتهن الشواهين

الرثاء

ليس لشاعرنا فى هذا الفن إلا ثلاث مرات فى شخصين لا يمتان إليه بصله قربي، فقد رثى إبراهيم بن جعفر الذى مات صغيرا بقصيده واحده، و رثى أم جعفر فى القصيدتين الباقيتين، و نحن لم نفع له على رثاء قريب، و لذا لا نستطيع الحكم على عاطفته من رثائه لا- باعد عنه، إذ أن رثاء الأبعد لا- يمكن أن يكون قوى العاطفه كرثاء الأقارب، و يغلب على رثائه لابن إبراهيم بن جعفر و أم جعفر الاتزان العقلى، و التأمل الفكرى، و كأنه ينظر

إلى البعيد البعيد من أغوار الحياه و أعماقها، فيستخرج من ذلك حكما جميلا، و كذلك يغلب على رثائه نفحه من زهد فى هذه الحياه التى لا ترعى ذماما لأحد، و لا تحفظ عهدا، و كأنه يعزى بذلك السامعين من أهل الفقيد.

و الواقع أنه فى مثل هذا الموقف يعود الإنسان إلى نفسه ليتأمل الحياه عاربه من زخارف التصنع و بهارجه، و إذا به يرى الراحل مثلا سيحذو حذوه يوما على كره:

لا رجاء فى خلود كلنا وارد الماء الذى كان ورد

و أجمل ما فى رثاء ابن هانى، هو حسن اختياره لهذه الأوزان الخفيفه الصالحه للغناء، يحرك بانشادها أوتار نفسه، و أوتار نفوس السامعين.

مات ابن إبراهيم بن جعفر و له من العمر خمس سنوات، فرثاه ابن هانى قال:

مات من لو عاش فى سرباله غلب النور عليه فاتقد

سيد قوبل فيه معشر ليس فى أبنائهم من لم يسد

نافس الدهر عليه يعربا فرأى موضع حقد فحقد

هاب أن يجرى عليه حكمه فنوى الغدر له يوم ولد

حيث لم ينظر به ريعانه إنما استعجله قبل الأمد

قصده ترب خمس أسهم لو رمته ترب عشر لم تكد

نما [انما] كان شهابا ثاقبا صعق الليل له ثم خمد

جاورت روض ثراه ديمه تحمل اللؤلؤ رطبا لا البرد

ثم يعزى الشاعر الوالد، فيقول:

لا ملوم أنت فى بعض الأسى غير أن الحر أولى بالجلد

إلى أن يقول:

ان تسلنا ففريق ظاعن و ليالينا بنا عيس تخذ

فلقد أسرع ركب لم يعج و لقد أدبر يوم لم يعد

أما قصيدته في رثاء والده جعفر فقد أكثر فيهما من الحكم و فيهما من البلاغه ما يدعو إلى الاعجاب، قال يرثيها:

أ عقيله الملك المشيعها هذا الثناء و هذه الزمر

شهد الغمام و ان سقاك حيا إن الغمام إليك مفتقر

كم من يد لك غير واحده لا الدمع يكفرها و لا المطر

و لقد نزلت بنيه علمت ما قد طوته فهي تفتخر

و بعد أن يعدد أياديها على الناس، يصف بكاء الناس عليها، و تأسفهم على فقدها، فكأنهم يحملون بين ضلوعهم جمرا، و كأنهم بفقدهم هذه المرأه الجميله، فقدروا خبره و الرأي السديد، و الكرم و حسن الأخلاق، فقد كانت يعتفيها الناس، فتغمرهم عطاء:

إذا سمعت بذكر سؤدها ليلا أتاك الفجر ينفجر

و لقد تكون و من بدائعها حكم و من أيامها سير

انا لثؤتي من تجاربها علما بما ناتي و ما نذر

قسمت على ابنيها مكارمها ان التراث المجد لا البدر

و في قصيدته الثانيه يرثيها قائلا:

إذا الودق في مثل هذا الرباب؟ و ذا البرق في مثل هذا السنا؟

إلا انهل هذا بماء القلوب و أوقد هذا بنار الحشا

و في ذى النواويس موج البحار و ما بالبحار إليه ظما

هلموا فذا مصرع العالمين فمن كل قلب عليه أسي

ثم يقول فيها:

فلو جاز حكمي في الغابرين و عدلت أقسام هذا الوري

لسميت بعض النساء الرجال و سميت بعض الرجال النسا

و هكذا نرى أن هذه المراثي الثلاث جميله و حلوه معنى و مبني، فجمال الأسلوب، لا يقل عن هذه المعاني جمالا، بيد أننا لا نحس أن الشاعر قد مس في عاطفته فبكي و ان تباكي.

ليست الحكمة عند ابن هانئ وليده العلم و المعرفة الفلسفيه، و لكنها خلاصه خبره و نتيجته تأمل، و هى بسيطه للغاية، لا يظهر عليها أثر التصنع الفلسفى، و لا التعمل الفكرى العميق، و كانى بهذه الحكمة تساير ثقافه الشاعر العرييه الخالصه، التى لم تعقدها الفلسفه بافكارها المتنوعه، و هى حكمه مستمده من تجارب الحياه، و لا يعنى هذا أن الشاعر قد مر بالضروره فى هذه التجارب كلها فخير الحياه بحلوها و مرها، بل نرى أنه جرب و قرأ و تأمل و أخذ من تجارب غيره ما يحتاج، و من تأملاته ما رآه صوابا، فكانت حكمه لا- تحتاج إلى تفكير عميق لأنها تنبع من صميم الحياه، و لم يكثر منها كما أكثر المتنبي، بل كانت له ومضات قليله، طال بعضها، و قصر بعضها الآخر، و قد ورد فى قصائده أبيات متفرقه، و لكنه تعمد الحكمة تعمدا فى الرثاء و كأنه يود أن ينقل أهل الفقيه من التفكير بهول المصيبه، إلى التفكير فى الحياه ذاتها، فيجدوا فى ذلك عزاء، و يبدو أن هذه التأملات هى التى صرفت ابن هانئ عن الاتجاه العاطفى فى الرثاء، فظهر هادئا رزينا أمام المصيبه، فهو رجل يرى و يفكر و يعلم أن غايه كل حى إلى هذه الحفره من التراب، و يعلم أن البكاء لا يرد ميتا، فما النفع إذن من كل هذا البكاء، و ما ذا تعوضنا مداومه الأحزان غير الهم و الكدر.

و ثقافه ابن هانئ العرييه ثقافه واسعه، فقد أخذت من القرآن و علومه بأوفر نصيب، و ضربت فى علوم اللغه بسهم وافر، و كان له من تفكيره ما يقوده إلى هذه النتائج غير المفلسفه و لا المعقده. و هذه الحكم المتفرقه فى قصائده، و إن كانت قليله، تدل على نضجه الفكرى، و نظرتة الواقعيه للأمر، يرى الأيام فى تقلباتها و تصرفاتها، فإذا هى لا تقر إنسانا على حال، تفرحه اليوم فتبكيه غدا. تمر هذه التأملات فى ذهنه فإذا هى على لسانه أبيات من الشعر جميله، يتغنى بها لسانه، و يحسها فؤاده. نقرأ له:

و ما الناس إلا ظاعن و مودع و ثاو قريح الجفن يبكى لراجل

فهل هذه الأيام إلا كما خلا و هل نحن إلا كالقرون الأوائل

نساق من الدنيا إلى غير دائم و نبكى من الدنيا على غير طائل

فما عاجل ترجوه إلا كآجل و لا آجل تخشاه إلا كعاجل

(١) فنحس روحا تزهد فى الحياه، و تمل البقاء قبل أن تشيع من الحياه، أو تتملى من مباحج الدنيا، و هذه هى عمليه الفكر الواعى، يرى تصرفات الحياه فيعلم أنها لا ترضى إلا إذا مزجت لذائذ الحياه بمراره الصاب:

ص: ١٧١

و ليس ترضى الليالى فى تصرفها إلا إذا مزجت صابا بقنديد

و الأيام لن تغفل عن أذيتنا، و كر الجديدين يبسط لنا الحبل حيناً و يقبضه عنا حيناً آخر:

و للحدادين من طول و من قصر حبلان منقبض عنا و منبسط

يرى بام عينيه تقلبات الأيام، و تغييرات الدهر، و يعرف ما جبل عليه الناس من لؤم الطباع، و نكرانهم للمعروف، و يحز فى نفسه هذا، فيقول:

و يا رب من تعليه و هو منافس و تسدى إليه العرف و هو كنود

و هذه المعانى التى يذكر فيها تقلبات الأيام و تصرفات القدر، تتردد كثيرا فى رثائه فتصبغه بصبغه الزاهد بالحياه، العازف عن ملاميتها و مفاتنها، الضارب فى التقوى بأوفر سهم، و أنت لا شك واجده فى هذه المراثيات الثلاث واعظا زاهدا، و حكيما يغلب عليه التأمل الفكرى ببساطته و بعده عن التعقيد الفلسفى. اسمع إليه يدعو الناس إلى أن لا ينتظروا من هذا الدهر المتقلب، و هذه الأيام التى تحمل معها النكد، خيرا و ذلك حيث يقول:

من يرجو زمانا دائما نعرف البأساء منه و النكد

فإذا ما كدر العيش نما و إذا ما طيب الزاد نفذ

فلقد ذكر من كان سها و لقد نبه من كان رقد

منتض نضلا إذا شاء مضى رائش سهما إذا شاء قصد

و هى الأيام لا يأمنها حازم يأخذ من يوم لغد

أن تسلنا ففريق ظاعن و ليالينا بنا عيس تخذ

فلقد أسرع ركب لم يعج و لقد أدبر يوم لم يعد

و نحن لا- نرى فى هذه الأبيات المصطبغه بالزهد، و المكتسبه حكمه، أى أثر للعمليه العقلية، أو التفكير الفلسفى، إنما هى تجارب شخصيه، و تأملات واعيه، و إدراك لواقع الحياه. و فى مراثيته لأم جعفر كثير من الحكم البسيطة التى تروقنا بأسلوبها و بساطتها، و هى بمجملها تصور لنا الشاعر زاهدا ينصرف عن الحياه و زخارفها، و يعزف عن لذائذها، أو كأنه ذلك الواعظ الذى ينبه الناس لما هم فيه سادرون، حيث يقول:

انا و فى آمال أنفسنا طول و فى أعمارنا قصر

لنرى بأعيننا مصارعنا لو كانت الألباب تعتبر

مما دهانا أن حاضرننا أجفاننا و الغائب الفكر

و جميل به أن يلوم أولئك الذين يرون بأعينهم تصرفات الأيام ثم لا يفكرون، كان على قلوب أفعالها، تبصر أعينهم، و لا تعى أفندتهم:

فإذا تدبرنا جوارحنا فاكلهن العين و النظر

لو كان للألباب ممتحن ما عد منها السمع و البصر

أى الحياه ألد عيشتها من بعد علمى أننا بشر

خرست لعمرى الله ألسننا لما تكلم فوقنا القدر

هل ينفعنى عز ذى يمن و حجوله و اليمن و الغرر

ها أنها كاس بشعت بها لا ملجا منها و لا وزر

فانبدوا شيجا و ارم ذا شطب لا البيض نافعه و لا السمر

دنيا تجمعنا و أنفسنا شذر على أحكامها مذر

و لكل سابق حليه أمد و لكل وارد نهله صدر

و حدود تعمير المعمر أن يسمو صعودا ثم ينحدر

و السيف يبلى و هو صاعقه و تنال منه إلهام و القصر

و المرء كالظل المديد ضحى و الفىء يحسره فينحسر

و لقد حلبت الدهر أشطره فالأعذبان الصاب و الصبر

و فى قصيده أخرى يرثى فيها أم جعفر أيضا حيث تبدو عليه سيماء الزهاد، و وقار الحكماء، و خبره ذوى التجربه، يقول:

إلا كل آت قريب المدى و كل حياه إلى منتهى

و ما غر نفسا سوى نفسها و عمر الفتى من أمانى الفتى

فأقصر فى العين من لفته و أسرع فى السمع من ذا و لا

و لم أر كالمراء و هو اللبيب يرى ملء عينيه ما لا يرى

و ليس النواظر إلا القلوب و أما العيون ففيها العمى

و من لى بمثل سلاح الزمان فاسطو عليه إذا ما سطا

يجد بنا و هو رسل العنان و يدركنا و هو داني الخطى

برى أسهما فبنا ما نبا فلم يبق إلا ارتهاف الظبي

تراش فترمى فتنمى فلا تحيد و تصمى و لا تدرى

و هذه الحكم فى قالبها الجميل، و أسلوبها السلس السهل، و معانيها البسيطة، تبدو متزنه وهينه لأن بها خبره مكتسبه من الحياه، و تجارب ماخوذه من الحياه، و تجارب ماخوذه من الأيام لا أثر فيها لعمل الفكر، و كانى بها و قد خرجت من أعماق أحاسيسه، و صدرت عن قلبه الوجل أمام تقلبات هذه الأيام، فأخذت من جمال الشعور، و جمال الأسلوب، و سمو المعنى مع بساطته، شيئا كثيرا. و هذه الحكمة لا نراها كثيره فى شعره، بل هى قليلة جدا، و لو لا هذه المراثى الثلاث لما ظفرنا بهذا القدر من الحكم الجميله.

الوصف

لم ينصرف ابن هانى لذاته فيصور أحاسيسه، و يتحدث عن وجدانياته، لكنه سلك مسلكا ابتعد به عن نفسه فلم يفكر بها إلا لمحا، و هو كشاعر تطرق إلى فنون شعرية مختلفه بيد أنها لم تكن مستقلة، و من هذه الفنون الوصف، و نحن نعجب كثيرا إذ لا نرى أثرا للطبيعه فى شعره حتى نحس أنه نسى الطبيعه الأندلسيه الجميله أو أنها لم تحرك فيه أوتار نفسه، فلم يكن لها حتى انعكاسات بسيطه فى شعره. و يبدو أن طبيعه إفريقيه لم تتراهتمامه، و لم تستهوه بجمالها، و هو لم يفتش عن الجمال فى الطبيعه، و فيها كل الجمال الذى يشعر به ذو الحساسيه المرهفه، أما إذا أراد أن يصف ما له علاقه بالممدوح، كمجلس أنس، أو زهره مثلا، جاء وصفه متكلفا متعملا.

و قد اضطر بحكم المدح أن يصف عظمه ممدوحه، فيصف جيشه و خيله و أسطوله، و أجاد كل الاجاده فى وصف الخيل، بشكل جعلنا نحس أنه مغرم باصائل الجياد، كثير الاعجاب بجمال خلقها، و حسن منظرها، ذلك أنه اندفع فى وصفها و كأنه يصف شيئا عزيزا عليه، يعجبه منها ألوانها و زينتها، سيرها و ركضها، و كأنها فى كل حركه من حركاتها تحرك و ترا فى نفسه و تلمس شعورا فى قلبه، فتشعر و كأنه عاشق لها، ولوع بها، و هو لا ينسى أن يتحدث عن أولئك الذين امتطوا صهواتها، و جردوا سيوفهم، و اشرعوا رماحهم، و تهيئوا للزحف، و هكذا يصف الجيش. و هو قد رأى أسطول المعز بعدده و عدته، و شاهد سيره فى البحر فوصفه أيضا، و تصور معارك المسلمين مع الروم، فتحدث عن ذلك فكان له وصف المعارك

البحريه، لكنه إذا عرض لغير هذه الموضوعات، جاء قوله متصنعا متكلفا، وقد وصف النجوم فى قصيدته التى مطلعها:

أليلتنا إذ أرسلت واردا و حفا و بتنا نرى الجوزاء فى أذنها شنفا

و لم يسمع فى وصف النجوم أحسن من قصيدته هذه و هذا الشعر و ان جمع من التشبيهات ما لم يجمعه غيره فانك لا تجد فيه من حلاوه اللفظ و سهوله الحفظ (1) ما تجده فى غيره. و هذا مقياس نقدى مقبول إذا ما أردنا أن نعرف جمال القصيده من حيث المعنى و المبنى.

لقد وصف أن هانى الخيل، هذه الأعوجيات التى إذا ما ركضت بدت طائره أو سابحه، و تبقى سابقه فى ركضها، فهى جرد عناجيج، و أجمل ما قال فى وصف الخيل، هى قصيدته التى يمدح فيها الخليفه، و يتحدث عن هديه جوهر له، و فيها الكثير من الخيل التى كأنها الغايات تسير بزهو و كبرياء، ثم هى مكحوله المدامع، تنظر بمقله أحوى و فيها يقول:

ألا هكذا فلتجلب العيس بدنا الا هكذا فلتجنب الخيل ضمرا

مرفله يسحب أذيال يمنه و يركض ديباجا و وشيا محبرا

نراهن أمثال الظباء عواطيا لبسن ببيرين الربيع المنورا

يمشين مشى الغايات تهاديا عليهن زى الغايات مشهرا

و جرن أذيال الحسان سوابغا فعلمن فيهن الحسان تبخترا

ترى كل مكحول المدامع ناظرا بمقله أخرى ينفض الضال أحورا

و يتحدث بعد ذلك عن ألوانها المختلفه، إذ أن منها ما هو أبلق أو ورد أو أشقر، و منها الكميت و الأدهم، إلى غير ذلك من ألوان، و يتحدث بعد هذا عن شعوره أمام هذه الجياد الجميله، الحسنه الخلق، التامه التكوين، و إذا به يعترف قائلا:

يقر بعينى أن أرى من صفاتها و لا عجب أن يعجب العين ما ترى

أرى صوراً يستعبد النفس مثلها إذا وجدته أو رأته مصورا

أفكه منها الطرف فى كل شاهد بان دليل الله فى كل ما برا

فاجلس منها اللحظ كل مطهم ألد إلى عين المسهد من كرى

و يعجبه منظر الخيل و قد أعدت للركوب و هيئت للقتال فتطرب نفسه و تتفاعل مشاعره و إذا بلسانه يقول:

و الخيل تمرح فى الشكيم كأنها عقبان صاره شاقها الأوكار

من كل يعبوب سبوح سلهب حص السياط عنانه الطيار

لا يطبيه غير كبه معرك أو هبوه من ماقط و مغار

سلط السنابك باللجين مخدم و أذيب منه على الأديم نضار

و يتطلع إلى وفرته فإذا هي غدائر غاده جميله لم تهمل شعرها، و لم يمسهها بؤس و لا إقتار:

و كان وفرته غدائر غاده لم يلقتها بؤس و لا إقتار

و يراها تركض، فيتساءل عن هذا الركض و نوعه لأنه يظن أنها تطير،

مرت لغايتها فلا و الله ماعلقت بها في عدوها الأبصار

و جرت فقلت أ سابع أم طائرهما استثار لوقعهن غبار

و هل من غرابه في ذلك و هي:

من آل أعوج و الصريح و داحس فيهن منها ميسم و نجار

و نقرأ له هذه الأبيات فنحس كأنه متمم بهذه الجياد:

من كل يعبوب يحيد فلا ترى الا قذالا ساميا و تليلا

و كان بين عنانه و لبانه رشا يريع إلى الكناس خذولا

لو تشرئب له عقيله ربرب ظنته جؤذر رملها المكحولا

تتنزل الأروى على صهواته و بيت في وكر العقاب نزيلا

يهوى بام الخشف بين فروجه و يقيد الإدمانه المطبولا

و كثيرا ما ياتي الشاعر بمبالغات فيها شيء من الإغراق القوى في القول، كقوله:

و أجل علم البرق فيها أنها مرت بجانحتيه و هي ظنون

و هو بحكم كونه شاعر المعز، رأى الجيش يعده المعز، و يزجيه كثيفا، حتى كأنه موكل بقضاء الله، و هذه الفتية الشيعيه التي نذرت نفسها لله، و آل بيت رسول الله، تعلقو صهوات هذه الجياد الجميله، و قد تقلدت سيوفها، و أشرعت رماحها، و وطدت نفسها على الحرب و الجهاد، في سبيل العقيده.

يرى ابن هانى كل هذا و يروقه المنظر فيقول:

عليها المغاوير فى السابغات ترفرف مثل متون الأضا

حتوف تلهى بأمثالها و أسد تغذ بأسد الشرى

تبخر فى عصف من دم و تخطر فى لبد من قنا

و يرى الأعادى سيوف هؤلاء فيتوهمونها سرجا أو نارا تصطلى:

و قال الأعادى أ أسيافهم أم النار مضرمه تصطلى

رأوا سرجا ثم لم يعلموا أ هندية قضب أم لظى

و منتقدات تذيب الشليل من فوق لابسه فى الوغى

من اللاء تأكل أغمادها و تلفح منهم جمر الغضا

أو يقول عن هؤلاء الشباب الذين علوا متن خيولهم:

و على مطاها فتيه شيعيه ما أن لها إلا الولاء شعار

من كل أغلب باسل متخبط كالليث فهو لقرنه هصار

قلق إلى يوم الهياج مغامر دم كل قيل فى ظباه جبار

أن تحب نار الحرب فهو بفتكه ميقادها مضرامها المغوار

فاداته فضفاضه و تريكه و مهند و مثقف بتار

أسد إذا زارت و جار ثعالب ما أن لها إلا القلوب و جار

و إذا ما عرض للأسطول وصفه بقطعه الكثيره و قد نشرت أعلامه، و راح يمزج عباب البحر ليلقى العدو:

مؤاخر فى طامى العباب كأنه لعزمك بأس أو لكفكك جود

أنافت بها أعلامها و سما لها بناء على غير العراء مشيد

من الراسيات الشم لولا انتقالها فمنها قنان شمع و ريود

من الطير إلا أنهم جوارح فليس لها إلا النفوس مصيد
من القادحات النار تضرم للصلى فليس لها يوم اللقاء خمود
إذا زفرت غيظا ترامت بمارج كما شب من نار الجحيم وقود
فانفاسهن الحاميات صواعق و أفواههن الزافرات حديد.

ص: ١٧٣

١- ابن سعيد المغربى - رايات المبرزين و أخبار المميزين ص ٥٥.

و هذه الأبيات تعطينا فكره واضحه عن كيفيه تجهيز هذه المراكب الحريه، بمدافع تبصق اللهب، صنعت من حديد، وربما كانت تشبه المجانيق.

و تزين هذه المراكب بنقوش مختلفه، و أستار مفوفه، كتياب الخرد الكواعب، مما يدل على العناية الزائده بها:

لها من شفوف العبقري ملابس مفوفه فيها النضار جسيد

كما اشتملت فوق الأرائك خرد أو التفعت فوق المنابر صيد

و قد صفحت بالحديد لتصد الأمواج:

لبوس تكف الموج و هو غطامط و تدرأ بأس أليم و هو شديد

فمنها دروع فوقها و جواشن و منها خفاتين لها و برود

و قد كانوا يطلون هذه السفن بالقار لحفظها، فتبدوا سوداء:

و سفن إذا ما خاضت أليم زاخرا جلت عن بياض النصر و هي غرايب

تشب لها حمراء قان أوارها سبوح لها ذيل على الماء مسحوب

و قد وصف النجوم فى قصيده أعجب بها القدماء، و لكنهم لاحظوا أن لا حلاوه فى لفظها، و لا سهوله فى حفظها، و مما قاله فى

وصفه لاقبال الصباح و أفول النجوم:

و قد ولت الظلماء تقفو نجومها و قد قام جيش الفجر لليل و اصطفأ

و ولت نجوم للثريا كأنها خواتيم تبدو فى بنان يد تخفى

ثم يتحدث عن النجوم، فيدهشنا بسعه معرفته لما كان يعرف فى زمانه من أسماء النجوم، من الشعرى العبور، إلى الدبران،

فالسماكين و بنات نعش و سهيل و السهى و النسر، و غير ذلك من أسماء.

و أما الحصرى فأريه فى هذه القصيده واضح من قوله: و قد احتذى طريقه - الضمير عائد إلى على بن محمد الكوفى - أبو

القاسم محمد بن هانى(1) و هذا يعنى أن ابن هانى توكا فى معانى قصيدته على المعانى التى وردت فى قصيده على بن محمد

الكوفى التى مدح فيها على بن داود حتى فى وصف النجوم حيث ينتقل من الوصف إلى المدح قائلا:

كان نذير الشمس يحكى ببشره على بن داود أخى و نسيبى

(2) و هذا يشبه تماما انتقال ابن هانى فى قصيدته تلك حيث يقول:

كان لواء الشمس غره جعفر رأى القرن فازدادت طلاقته ضعفا

و قد وصف أيضا قصرا بناه إبراهيم بن جعفر فى قصيده هناه بها فقال:

و القبه البيضاء طائره به تهوى بمنخرق الصبا أعنانها

ضربت باروقه ترفرف فوقها تهوى بفتح قوادم خفقانها

علياء موفيه على عليائه فى حيث أسلم مقله إنسانها

نيطت أكاليل بها منظومه فغدا يضاحك درها مرجانها

و تعرضت دور الستور كأنها عذبات أو شحه يروق جمانها

و كان أفواف الرياض نثرن فى صفحاتها فتفوفت ألوانها

مير عماد الدين محمود بن مير رحمه الله الحسينى الأسدآبادى الهمدانى

المعروف بإلهى أسدآبادى.

توفى سنه ١٠٦٤.

من شعراء القرن الحادى عشر الهجرى المعروفين. درس أيام شبابه فى شيراز ثم سافر إلى العراق، ثم انتقل إلى أصفهان و قضى فيها سنه أو سنتين و اتصل هناك بالشعراء و منهم حكيم شفتائى.

و مما ذكره نصرآبادى فى تذكرته نفهم أنه عمل مع الملا- شكوهى الهمدانى فى مقهى للشاى (قهوه خانه عرب) و ان الشاه عباس دخل عليهما و تكلم معهما، و سال أولا الملا شكوهى ما عملك؟ فأجاب: إنى شاعر، فطلب منه أن ينظم الشعر فنظم بيتا ارتاح له الشاه و استحسنة. ثم سال إلهى عن شهرته، فقال إلهى، فوضع الشاه يده على رأسه و قال: إلهى.

و الظاهر أن عطف الشاه لم يتجاوز الثناء عليه، لذا نراه يضطر لترك أصفهان و السفر إلى الهند، و عرج فى طريقه لمدته قصيره على قندهار و كابلسنه ١٠٢١.

و فى سنه ١٠٢٢ لازم (زمان بيك مهابت خان). و فى سنه ١٠٣٣ لازم (ظفر خان أحسن الله تربتى) فى كابل، و كان هذا حاكما فيها. و نجد فى ديوان المترجم أشعارا فى مدح مهابت خان.

و لم يلبث ظفر خان أن ترك كابل إلى اكره فى الهند، فتركها المترجم إلى الهند أيضا، و كان ذلك فى أواخر حياه جهانگیر (١٠١٤ - ١٠٣٧).

و يقول مير عبد الرزاق فى كتابه (بهارستان سخن) أى: (ربيع الكلام) عن المترجم أنه كان عفيف النفس ذا همه عاليه، و لذلك استقبل من جهانگير بحفاوه بالغه.

عاشر فى الهند الحاجى مهرجان قدسى المشهدى فى عهد ملكيهشاه جهان (١٠٢٧ - ١٠٦٨) و كان من الشعراء البارزين فى بلاط شاه جهان، كما أنه لم يترك ملازمه ظفر خان أحسن، و لما عين هذا لحكومته كشمير، و كان محبا للشعراء مغرما بالشعر سافر معه مير إلهى و عاش هناك من الراتب البسيط الذى كان يتقاضاه من البلاط. ثم اعتزل الناس حتى وفاته.

توجد نسخه من ديوانه فى مكتبه المتحف البريطانى و فيها خمسه آلاف بيت من الشعر فى قصيده بمدح الأئمه ع، و مدح شاه جهان و مهابت خان و بعض الأمراء و الوزراء.

و فيه الغزل و التركيب و الترجيح و القطعه، و رساله الساقى، و عده مثنويات صغيره و بعض الرباعيات.

و له (كنز الخزان) و فيه منتخبات من شعر أربعمائه شاعر من شعراء القرن الثامن و التاسع و العاشر مع تراجم للشعراء.

أجمع الكتاب الذين التقوا به فى الهند على جمال شعره. و من خلال أشعاره ندرك مدى علمه و حبه للعلوم (٣).

الأمير فخر الدين محمود ابن الأمير يمين الدين الطغرأى المستوفى

المشهور و المتخلص ب (ابن يمين).

ص: ١٧٤

١- الحصرى - زهر الآداب و ثمر الألباب ج ٢ - ص ٧٥٥.

٢- الحصرى - زهر الآداب و ثمر الألباب ج ٢ - ص ٧٥٣.

٣- تاريخ أدبيات إيران.

ولد في أواخر القرن السابع في قرية فريومد من قرية سبزوار.

و توفي على ما رواه دولت شاه سنة ٧٤٥ و قبره في صومعه والده بقرية (فريومد).

هو أحد كبار شعراء إيران في القرن الثامن الهجري، و كان والده الأمير يمين الدين الطغرائي - على ما روى دولت شاه - رجلاً فاضلاً، أصله من الترك، استوطن في عهد محمد خدابنده (٧٠٣ - ٧١٦ هـ) قرية فرومد (فريومد) من قرية بيهق (سبزوار) و اشترى فيها عقارات و استقر فيها، و كان علاء الدين محمد فريومدي الذي عاش في عهد السلطان أبي سعيدو بعده في عصر طغا تيمور خان الذي كان صاحب ديوان و وزير خراسان يعطف عليه.

و يتحدث دولت شاه عن أهميه رسائل الأمير يمين الدين إلى ابنه الأمير محمود من الروم إلى خراسان، و أجوبه الابن إلى أبيه الذي توفي سنة ٧٢٢.

و كان المترجم منذ شبابه معدوداً بين الشعراء و الكتاب، و قد عهد إليه، كما كان عهد إلى والده قبله استيفاء و تحرير الطغراء لدى الخواجه علاء الدين محمد الفريومدي وزير خراسان الذي قتل في ٢٧ شعبان سنة ٧٤٢ عند حدود مازندران على أيدي السربداريين.

قضى المترجم أيام شبابه في خراسان، و سافر إلى تبريز [تبريز]، و حضر لدى غياث الدين محمد بن رشيد الدين فضل الله، الوزير الذي كان بيته ملتقى لأرباب الفضل في ذلك الزمان، و لكنه لم يبق هناك طويلاً، و نظم قصيده طلب فيها من الوزير أن يسمح له بالرجوع إلى وطنه. و نفهم من خلال أشعاره أنه عاش فتره في العراق دون أن يستقر فيه، كما نفهم منها أنه لم تطب له الحياه خارج خراسان، فبعد ذهابه إلى مدينه (السلطانيه) لم يطل فيها المقام. و كل ذلك يتجلى لنا من مطالعتنا لأشعاره.

و بعد رجوعه إلى خراسان عاش في قرية (فريومد)، و كانت له اتصالات مع وزراء منطقته خراسان فيمدحهم في أشعاره لا سيما منهم علاء الدين محمد الفريومدي وزير خراسان. و بعد أن قتل السربداريون (١) هذا الوزير في حدود گرگان (جرجان) و طبرستان في حرب بينهم و بين الطغا تيموريين، اتصل بالخواجه غياث الدين هندو الذي أصبح وزيراً بعد مقتل أخيه.

و في سنة ٧٤٣ نشبت الحرب في قرية حيدري بين الملك معز الدين حسين محمد كرت (٢) و الخواجه وجيه الدين مسعود السربداري و الشيخ حسن الجوري، و هرب الخواجه وجيه الدين مسعود. و في معارك هذه الحرب شرق ديوان ابن يمين، و يقول خواند مير إن جنود هرات أسروا ابن يمين، و عند ما أخذوه إلى الملك أراد تدبير أمره بمدح الملك معز الدين حسين كرت شعراً، أملاً باسترداد ديوان شعره، و لكنه لم يغز من ذلك بطائل، و الظاهر أن الديوان ضاع في الحرب. فراح يجمع شعره من هنا و هناك مرتباً ديواناً جديداً احتوى على ١٥ ألف بيت بين الغزل و الرباعيات و المقطعات و الترجيع و القصائد.

و قد قضى الشطر الأخير من حياته بين سبزوار و فريومد بقناعه كامله و اعتقادات أخلاقيه، بحيث تفرد من بين شعراء عصره بقصائده الأخلاقيه و يقول خواند مير أن هذه القصائد كانت تكتب على الألواح و الأبواب و تحفظ في القلوب.

و كان شعره بخلاف شعر معاصريه من الشعراء: سلساً بسيطاً من غير تكلف خالياً من الكلمات المتقعره. و هذا هو سبب رواج

شعره بين الجماهير فى كل زمان.

و قد قام فى هذا العصر الدكتور سعيد نفيسى بجمع شعره و آثاره حسب المستطاع (٣)

المختار بن أبى عبيد بن مسعود بن عمر الثقفى،

إشارة

و كنيته أبو إسحاق:

ولد عام الهجره و قتل سنه ٦٧ فى حربته مع مصعب بن الزبير.

ما هى حقيقته المختار؟ انه هو نفسه خير من يجب على هذا السؤال.

و قد أجاب فعلا و هو فى ساعاته الأخيره من الحياه حين رد على تساؤل رفيقه السائب بن مالك الأشعري فقال: "انما أنا رجل من العرب رأيت ابن الزبير قد وثب بالحجاز، و رأيت ابن نجده وثب باليمامه، و مروان بالشام، و كنت فيها كأحدهم، إلا أنى قد طلبت بثار أهل البيت إذ نامت عنه العرب".

و يقول عنه السيد محسن الأمين: "و الله أعلم بحقيقته أمره و على كل حال فقد شفى النفوس و أدرك الثار و انتقم الله به من الطغاه الفجره".

و إذا كنا نحن لا يمكن أن نزيد شيئا على ما قاله هو عن نفسه و ما قاله عنه السيد محسن الأمين فاننا ننشر هنا قصه أخذه بثار الحسين مما لا يخرج عن موضوع (المستدركات) مهما كان أمره و أمر الناس معه:

لما بعث الحسين مسلم بن عقيل إلى الكوفه نزل فى دار المختار، فبايعه المختار فى جملة من بايعه من أهل الكوفه و ناصحه و دعا الناس إليه، فلما خرج مسلم كان المختار فى قريه له خارج الكوفه، لأن خروج مسلم كان قبل ميعاده بسبب ضرب ابن زياد لهانى بن عروه و حبسه فجاء الخبر إلى المختار عند الظهر بخروج مسلم فاقبل المختار فى مواليه حتى دخل الكوفه و أتى إلى باب الفيل و هو من أبواب المسجد بعد المغرب و كان ابن زياد قد عقد لعمر بن حريث رايه و أمره على الناس و أقعده فى المسجد فمر بالمختار رجل من أصحاب ابن زياد يسمى هانى بن أبى حيه الوداعى فقال للمختار ما وقوفك هاهنا لا أنت مع الناس و لا أنت فى بيتك فقال له المختار أصبح رأيت مرتجى لعظم خطيئتكم فدخل هانى على عمرو بن حريث و أخبره بذلك فأرسل عمرو إلى المختار رجلا يأمره أن لا يجعل على نفسه سيلا فقال زائده ابن قدامه بن مسعود لعمر بن حريث و يأتىك المختار على أنه آمن قال عمرو أما منى فهو آمن و ان بلغ الأمير عبيد الله عنه شىء شهدته عنده ببراءته و شفعت له أحسن الشفاعة فجاء المختار إلى ابن حريث و جلس تحت رايته حتى أصبح، و جاء عماره بن عقبه بن الوليد بن عقبه بن أبى معيط فأخبر ابن زياد بامر المختار فلما أذن ابن زياد للناس دخل عليه المختار فى جملة من دخل فقال له ابن زياد أنت المقبل فى الجموع لتنصر

١- راجع عن السربداريين ترجمه على بن المؤيد فى المجلد الثانى من المستدركات.

٢- آل كرت دوله نشأت أثناء القرنين السابع و الثامن فى الركن الشمالى الشرقى من إيران و كان مقرها فى مدينه هرات و لكن نفوذها كان يمتد إلى الولايات القريبه فيشمل بعض بلاد الغور و إقليم غرجستان و ولايه سجستان. و معز الدين حسين هذا هو

الملك قبل الأخير من ملوكهم، إذ انتهى ملكهم بابنه غياث الدين الذى قتله تيمور لنك سنه ٧٨٥.

٣- تاريخ أدبيات إيران.

ابن عقيل فقال لم أفعل و لكنى أقبلت و قعدت تحت رايه عمرو بن حريث إلى الصباح و شهد له عمرو بن حريث بذلك فضر به ابن زياد بالقضيب على وجهه حتى أصاب عينه فشرها(1) و قال و الله لو لا- شهاده عمرو لك لضربت عنقك و أمر به إلى السجن فلم يزل المختار محبوسا حتى قتل الحسين (ع) فأرسل المختار رسولا إلى عبد الله بن عمر يطلب منه أن يكتب إلى يزيد ليكتب إلى ابن زياد بإطلاق المختار. فلما جاء الرسول إلى عبد الله بن عمر و علمت زوجته صفيه بحبس أخيها بكت و جزعت فرق لها عبد الله و كتب إلى يزيد يطلب منه أن يكتب إلى ابن زياد باطلاقه فكتب يزيد إلى ابن زياد: أما بعد فخل سبيل المختار ابن أبي عبيد حين تنظر في كتابي.

فدعا ابن زياد بالمختار فأخرجه ثم قال له قد اجلتك ثلاثا فان أدركتك بالكوفه بعدها فقد برئت منك الذمه. فلما كان اليوم الثالث خرج المختار إلى الحجاز فلقه ابن العرق مولى ثقيف وراء واقصه فسلم عليه و ساله عن عينه فقال خبطها ابن الزانيه بالقضيب فصارت كما ترى ثم قال: قتلنى الله إن لم اقطع أنامله و أعضائه إربا إربا، ثم قال: إذا سمعت بمكان قد ظهرت به فى عصابه من المسلمين اطلب بدم الشهيد المظلوم المقتول بالطف سيد المسلمين و ابن سيدها و ابن بنت سيد المسلمين الحسين بن على فو ربك لأقتلن بقتله عدو القتلنى التى قتلت على دم يحيى بن زكريا ع فجعل ابن العرق يتعجب من قوله: ثم سار المختار حتى وصل إلى مكه و ابن الزبير يدعو إلى نفسه سرا فكتم أمره عن المختار ففارقه المختار و غاب عنه سنه فسأل عنه ابن الزبير فقيل له انه بالطائف ثم حضر المختار و بايع ابن الزبير على شروط شرطها و أقام عنده و حارب معه أهل الشام و قاتل قتالا شديدا و كان أشد الناس على أهل الشام. فلما هلك يزيد و أطاع أهل العراق ابن الزبير أقام المختار عنده خمسة أشهر و أياما فقدم هانى بن أبى حيه الوداعى إلى مكه يريد العمره فى رمضان فسأله المختار عن أهل الكوفه فأخبره أنهم على طاعه ابن الزبير إلا- أن طائفه من الناس هم عدد أهلها لو كان لهم من يجمعهم على رأيهم أكل بهم الأرض فقال المختار: أنا أبو إسحاق أنا و الله لهم أن أجمعهم على الحق و ألقى بهم ركبان الباطل و أهلك بهم كل جبار عنيد. ثم ركب راحلته و أقبل نحو الكوفه حتى وصل إلى نهر الحيره يوم الجمعه فاغتسل و ادهن و لبس ثيابه و اعتم و تقلد سيفه و ركب راحلته و دخل الكوفه و جعل لا يمر على مجلس إلا سلم على أهله و قال أبشروا بالنصره و الفلح آتاكم ما تحبون و لقيه عبيده بن عمرو البدائى الكندى و كان من أشجع الناس و أشدهم و أشدهم تشيعا و حبا لعلى ع فقال له: أبشر بالنصر و الفلح. و كان سليمان بن صرد و أصحابه فى ذلك الوقت يستعدون للطلب بثار الحسين ع فلما خرج سليمان و أصحابه نحو الشام قال عمر بن سعد و شيبث بن ربعى و يزيد بن الحارث بن رويم و هم من قتله الحسين ع لعبد الله بن يزيد الخطمى و هو والى الكوفه من قبل ابن الزبير و إبراهيم بن محمد بن طلحه و هو أمير الخراج: أن المختار أشد عليكم من سليمان بن صرد إن سليمان إنما خرج يقاتل عدوكم و ان المختار يريد أن يثب عليكم فى مصركم فأوثقوه و اسجنوه فأتوا و أخذوه بغته و أراد إبراهيم أن يقيده و يمشيه حافيا فلم يقبل عبد الله و أتى بيغله دهماء فحمل عليها و قيل بل قيده. و لما قدم أصحاب سليمان بن صرد إلى الكوفه كتب إليهم المختار من الحبس: أما بعد فان الله أعظم لكم الأجر و حظ عنكم الوزر بمفارقة القاسطين و جهاد المحلين أنكم لم تنفقوا نفقه و لم تقطعوا عقبه و لم تخطوا خطوه إلا رفع الله لكم بها درجه و كتب لكم حسنه فأبشروا فانى لو خرجت إليكم جردت فيما بين المشرق و المغرب من عدوكم السيف باذن الله فجعلتهم ركاما و قتلتهم فذا و توأما فرحب الله لمن قارب و اهتدى و لا يبعد الله إلا من عصى و أبى و السلام يا أهل الهدى. و أرسل إليهم الكتاب مع رجل يقال له سبحان قد ادخله فى قلنسوته بين الظهاره و البطانه، فلما جاء الكتاب و وقف عليه جماعه من رؤساء القبائل أعادوا إليه الجواب مع عبد الله بن كامل و قالوا: قل له قد قرأنا كتابك و نحن حيث يسرك فان شئت إن نأتيك حتى نخرجك من الحبس فعلنا فأتاه فأخبره فسر لذلك و أرسل إليهم لا تفعلوا هذا فانى

أخرج في أيامى هذه. و كان المختار قد بعث غلاما له إلى عبد الله بن عمر زوج أخته و كتب إليه: أما بعد فانى قد حبست مظلوما و ظن بى الولاة ظنونا كاذبه فاكتب فى يرحمك الله إلى هذين الظالمين يعنى إلى والى الكوفه و أمير خراجها كتابا لطيفا عسى الله أن يخلصنى من أيديهما بلطفك و بركتك و يمنك و السلام.

فكتب إليهما عبد الله بن عمر: أما بعد فقد علمتما الذى بينى و بين المختار من الصهر و الذى بينى و بينكما من الود فأقسمت عليكمما بحق ما بينى و بينكما لما خليتما سبيله حين تنظران فى كتابى هذا و السلام عليكمما و رحمه الله و بركاته.

فلما أتاهما كتاب ابن عمر طلبا من المختار كفلاء فاتى أناس كثير من أشراف الكوفه ليكفلوه فاختر عبد الله ابن يزيد منهم عشره من الأشراف فضمنوه فدعا به عبد الله بن يزيد و إبراهيم بن محمد بن طلحه و حلفاه أن لا يخرج عليهما فان خرج فعليه ألف بدنه ينحرها لدى رتاج الكعبه و مماليكه كلهم أحرار فحلف لهما بذلك و خرج إلى داره. و كان يقول بعد ذلك: قاتلهم الله ما أحمقهم حين يرون أنى أفى لهم بايمانهم هذه، أما حلفى بالله فانى إذا حلفت على يمين فرأيت خيرا منها أكفر عن يمينى و خروجى عليهم خير من كفى عنهم و أما هدى ألف بدنه فهو أهون على من بصقه و أما عتق مماليكى فو الله لوددت أنه تم لى أمرى ثم لم أملك مملوكا أبدا. و لما استقر المختار فى داره أخذت الشيعة تختلف إليه و اتفقوا على الرضا به و كان أكثر من استجاب له همدان و قوم كثير من أبناء العجم الذين كانوا بالكوفه و كانوا يسمون الحمراء لحمرة و جوههم و كان منهم بالكوفه زهاء عشرين ألف رجل. و كان قد بويع للمختار و هو فى السجن و لم يزل أصحابه يكترون و أمره يقوى حتى عزل ابن الزبير عبد الله بن يزيد و إبراهيم بن محمد بن طلحه و بعث عبد الله بن مطيع واليا على الكوفه. فلما قدمها جاءه إياس بن مضارب و قال له: لست آمن المختار أن يخرج عليك و قد بلغنى أن أمره قد تم فابعث إليه فاحبسه، فبعث إليه ابن مطيع زائده بن قدامه و حسين بن عبد الله من همدان فقالا له: أجب الأمير فدعا بثيابه و أمر بأسراج دابته و هم بالذهاب معهما. فلما رأى ذلك زائده قرأ قوله تعالى: (و إذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك و يمكرون و يمكر الله و الله خير الماكرين). ففهمها المختار فجلس ثم نزع ثيابه و قال: ألقوا على القטיפه ما أرانى إلا قد وعكت إنى لأجد قفقه شديده و تمثل بقول الشاعر:

إذا ما معشر تركوا نداهم و لم يأتوا الكريهه لم يهابوا

و قال للرسولين: ارجعا إلى ابن مطيع فأخبراه بحالتى فرجعا فإذا أصحابه على بابيه و فى داره منهم جماعه كثيره، و قال حسين لزائده: انى قد فهمت قولك حين قرأت الآيه، فأنكر زائده أن يكون أراد شيئا. فقال له حسين: لا تخف فما كنت لأبلغ عنك و لا عنه شيئا تكرهانه، فأقبلا إلى ابنن.

ص: ١٧٦

مطيع فأخبراه بعلته فصدقهما و تركه. و قيل ان ابن مطيع بعث إلى المختار ما هذه الجماعات التي تغدو و تروح إليك، فقال المختار: مريض يعاد، و بعث المختار إلى أصحابه فاخذ يجمعهم في الدور حوله و أراد أن يشب بالكوفه في المحرم، فجاء رجل من شباح حى من همدان اسمه عبد الرحمن بن شريح و كان شريفا فاجتمع مع أربعة من الشيعة و قال لهم أن المختار يريد أن يخرج بنا و لا- ندرى أرسله ابن الحنفية أم لا فاتفق رأيهم على أن يأتوا ابن الحنفية فان أمرهم باتباع المختار اتبعوه و ان نهاهم عنه اجتنبوه فأتوا المدينة و أخبروا ابن الحنفية بذلك، فقال لهم: و الله لو ددت أن الله انتصر لنا من عدونا بمن شاء من خلقه فخرجوا من عنده و هم يقولون قد أذن لنا و لو كره لقال لا تفعلوا.

قال ابن نما رحمه الله تعالى: و قد رويت عن والدى أن ابن الحنفية قال لهم:

قوموا بنا إلى إمامي و إمامكم على بن الحسين ع فلما دخلوا عليه و أخبره الخبر قال يا عم لو أن عبدا زنجيا تعصب لنا أهل البيت لوجب على الناس موازرتة و قد وليتك هذا الأمر فاصنع ما شئت فخرجوا و هم يقولون أذن لنا زين العابدين و محمد بن الحنفية اه و روى المسعودي في مروج الذهب أن المختار كتب إلى علي بن الحسين السجاد ع يريد به علي أن يبيع له و يقول بإمامته و يظهر دعوته و انفذ إليه مالا- كثيرا فأبى علي ع أن يقبل ذلك منه أو يجيبه عن كتابه و سبه علي رؤوس الاشهاد فلما يس المختار من علي بن الحسين كتب إلى محمد بن الحنفية بمثل ذلك فأشار عليه علي بن الحسين أن لا يجيبه إلى شيء من ذلك و أن يتبرأ منه كما فعل هو فاستشار ابن عباس فقال لا تفعل لأنك لا تدري ما أنت عليه من ابن الزبير فسكت عن المختار اه. و كان المختار علم بخروج من خرج إلى المدينة فشق ذلك عليه خوفا من أن لا- يجيبهم ابن الحنفية بما يحب فيتفرق عنه الناس فكان يريد النهوض بأصحابه قبل قدومهم من المدينة فلم يتيسر له ذلك فلم يكن إلا شهر أو زيادة حتى قدموا الكوفه فدخلوا على المختار قبل دخولهم إلى بيوتهم فقال لهم ما وراءكم؟ قد فنتتم و ارتبتم. فقالوا له: إنا قد أمرنا بنصرتك فقال: الله أكبر أنا أبو إسحاق أجمعوا لى الشيعة فجمع منهم من كان قريبا إليه فقال لهم أن نفرا قد أحبوا أن يعلموا مصداق ما جئت به فرحلوا إلى إمام الهدى و النجيب المرتضى ابن خير من مشى حاشا النبي المجتبي فأعلمهم انى وزيره و ظهيره و رسوله و أمرهم باتباعى و طاعنى فيما دعوتكم إليه من قتال المحلين و الطلب بدماء أهل بيت نبيكم المصطفين فقال عبد الرحمن بن شريح و أخبرهم أن ابن الحنفية أمرهم بمظاهرتة و مؤازرتة و قال فليبلغ الشاهد الغائب و استعدوا و تأهبوا و قام أصحابه فتكلموا بنحو من كلامه و كان أول من أجاب المختار إلى ذلك عامر الشعبي و أبوه شراحيل. و قال جماعه للمختار أن أشرف أهل الكوفه مجتمعون على قتالك مع ابن مطيع فان أجابنا إلى أمرنا إبراهيم بن مالك الأشتر رجونا القوه على عدونا فإنه فتى رئيس و ابن رجل شريف له عشيره ذات عز و عدد فقال لهم المختار فألقوه فادعوه و اعلموه الذى أمرنا به من الطلب بدم الحسين ع و أهل بيته فخرجوا إليه و معهم الشعبى فأتوه و اعلموه عزمهم على الطلب بدماء أهل البيت ع و سألوه مساعدتهم على ذلك و ذكروا له ما كان أبوه عليه من ولاء على ع و أهل بيته فقال لهم أنى قد أجبتمكم إلى الطلب بدم الحسين ع و أهل بيته على أن تولونى الأمر فقالوا له أنت أهل لذلك و لكن ليس إلى ذلك سبيل هذا المختار و قد جاءنا من قبل إمام الهدى و من نائبه محمد بن الحنفية و هو المأمور بالقتال و قد أمرنا بطاعته فسكت إبراهيم و لم يجيبهم فانصرفوا عنه و أخبروا المختار فمكث المختار ثلاثا ثم دعا جماعه من أصحابه فدخلوا عليه و بيده صحيفه مختومه بالرصاص فدفعها إلى الشعبى و قال لأصحابه انطلقوا بنا إلى إبراهيم بن الأشتر فسار فى بضعة عشر رجلا من وجوه أصحابه و فيهم الشعبى و أبوه فدخلوا على إبراهيم فلقى لهم الوسائد فجلسوا عليها و جلس المختار معه على فراشه، فقال له المختار: إن الله أكرمك و أكرم أباك من قبلك بموالاه بنى هاشم و نصرتهم و معرفه

فضلهم و ما أوجب الله من حقهم و هذا كتاب محمد بن علي أمير المؤمنين و هو خير أهل الأرض اليوم و ابن خير أهل الأرض كلها قبل اليوم بعد أنبياء الله و رسله يأمرك أن تنصرنا و توازرنا فان فعلت اغتبطت و ان امتنعت فهذا الكتاب حجه عليك و سيغني الله محمدا و أهل بيته عنك. ثم قال للشعبي ادفع الكتاب إليه فدفعه إليه الشعبي فدعا بالمصباح و فض خاتمه و قرأه فإذا فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد المهدي إلى إبراهيم بن مالك الأشر سلام عليك فاني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو أما بعد فاني قد بعثت إليكم وزيرى و أمينى الذى أرتضيه لنفسى و قد أمرته بقتال عدوى و الطلب بدماء أهل بيتى فانفض معه بنفسك و عشيرتك و من أطاعك فانك أن نصرتنى و أجت دعوتى كانت لك بذلك عندى فضيله و لك أعنه الخيل و كل جيش غاز و كل مصر و منبر و ثغر ظهرت عليه فيما بين الكوفة و أقصى بلاد الشام. فلما فرغ إبراهيم من قراءة الكتاب قال: قد كتب لى ابن الحنفية قبل اليوم و كتبت إليه فلم يكتب إلى إلا باسمه و اسم أبيه [أبيه] قال المختار ذلك زمان و هذا زمان قال إبراهيم فمن يعلم أن هذا كتابه؟ فشهد جماعه ممن معه بذلك منهم يزيد بن أنس و أحمر بن شमित و عبد الله بن كامل و سكت الشعبي و أبوه فتأخر إبراهيم عند ذلك عن صدر الفراش و أجلس المختار عليه و بايعه إبراهيم.

فقال المختار أ تأتينا أو نأتيك فى أمرنا فقال إبراهيم بل أنا آتيك كل يوم و دعا بفاكهه و شراب من عسل فأكلوا و شربوا و خرجوا فخرج معهم ابن الأشر و ركب مع المختار ثم رجع إبراهيم و معه الشعبي إلى دار إبراهيم، فقال له:

يا شعبي إني قد رأيتك لم تشهد أنت و لا أبوك فترى هؤلاء شهدوا على حق؟ قال له الشعبي: قد شهدوا على ما رأيت و هم ساده القراء و مشيخه المصر و فرسان العرب و لا أرى مثل هؤلاء يقولون إلا حقا. قال الشعبي: قلت له هذه مقاله و أنا و الله لهم على شهادتهم متهم غير أنه يعجبني الخروج و أنا أرى رأى القوم و أحب تمام ذلك الأمر فلم اطلعه على ما فى نفسى. ثم كتب إبراهيم أسماءهم و تركها عنده. و كان إبراهيم ظاهر الشجاعه و ارى زناد الشهامه نافذ حد الصرامه مشمرا فى محبه أهل البيت عن ساقيه متلقيا غايه النصح لهم بكلتا يديه فجمع عشيرته و أخوانه و من أطاعه و أقبل يختلف إلى المختار كل عشيه عند المساء فى نفر من مواليه و خدمه يدبرون أمورهم فيبقون عامه الليل. و كان حميد بن مسلم الأسدى صديقا لإبراهيم بن الأشر فكان يذهب به معه إلى المختار. و اجتمع رأيهم على أن يخرجوا ليله الخميس لأربع عشره بقيت من ربيع الأول و قيل لآخر سنه ست و ستين. فلما كانت ليله الثلاثاء و قيل الأربعاء عند المغرب قام إبراهيم فاذن و صلى المغرب بأصحابه ثم خرج يريد المختار و عليه و على أصحابه السلاح و كان إياس بن مضارب صاحب شرطه عبد الله بن مطيع أمير الكوفه فأتاه فقال له أن المختار خارج عليك فى إحدى هاتين الليلتين فخذ حذرک منه ثم خرج إياس فبعث ابنه راشدا إلى الكناسه و أقبل يسير حول السوق فى الشرط ثم دخل على ابن مطيع فقال له أنى قد بعثت ابني إلى الكناسه فلو بعثت فى كل جبانه عظيمه بالكوفه رجلا- من أصحابك فى جماعه من أهل الطاعه لهاب المختار و أصحابه الخروج عليك فبعث ابن مطيع إلى الجبانات من شحنها بالرجال و أوصى كلا منهم أن

يحفظ الجبهه التي هو فيها، و بعث شبت بن ربيعى إلى السبخه و قال إذا سمعت صوت القوم فوجه نحوهم و كان ذلك يوم الاثنين و خرج إبراهيم بن الأشتر يريد المختار ليله الثلاثاء و قد بلغه أن الجبانات قد ملئت رجلا و أن إياس بن مضارب فى الشرط قد أحاطوا بالسوق و القصر فاخذ معه من أصحابه نحو من مائه رجل عليهم الدروع و قد لبسوا عليها الأقيبه و تقلدوا بالسيوف. و قال له أصحابه: تجنب الطريق فقال و الله لأمرن وسط السوق بجانب القصر و لأرعبن به عدونا و لأرينهم هوانهم علينا فسار على باب الفيل ثم على دار عمرو بن حريث فلقبهم إياس بن مضارب فى الشرط مظهرين السلاح فقال إياس ما هذا الجمع الذى معك و ما تريد و الله أن أمرك لمريب و قد بلغنى أنك تمر كل عشيته من هاهنا و ما أنا بتاركك حتى آتى بك الأمير فيرى فيك رأيه. فقال إبراهيم خل سيلنا، فقال لا أفعل. و كان مع إياس بن مضارب رجل من همدان يقال له أبو قطن و كان يصحب أمراء الشرطه فهم يكرمونه و كان صديقا لابن الأشتر و من عشيرته. فقال له ابن الأشتر: ادن منى يا أبا قطن فظن أنه يريد أن يطلب منه أن يشفع له عند إياس فدنا منه و كان مع أبى قطن رمح طويل فتناوله منه ابن الأشتر و هو يقول: أن رمحك هذا الطويل و حمل به على إياس فطعنه فى ثغره نحره فصرعه و أمر رجلا من قومه فاحتر رأسه و انهزم أصحاب إياس و رجعوا إلى ابن مطيع فأخبروه، فبعث راشد بن إياس مكان أبيه على الشرط و بعث مكان راشد سويدا المنقرى إلى الكناسه، و أقبل ابن الأشتر إلى المختار و قال له انا اتعدنا الخروج فى الليله القابله و قد عرض أمر لا بد معه من الخروج الليله قال ما هو؟ قال: عرض لى إياس فى الطريق فقتلته و هذا رأسه مع أصحابى على الباب فاستبشر المختار بذلك و تفاعل بالنصر و الظفر و قال هذا أول الفتح إن شاء الله تعالى، ثم قال قم يا سعيد بن منقذ و أشعل النار فى القصب ثم ارفعها للمسلمين و أمر مناديه أن ينادى يا لثارات الحسين ثم دعا بدرعه و سلاحه فلبسه و هو يقول:

قد علمت بيضاء حسناء الطلل واضحه الخدين عجزاء الكفل

انى غداه الروع مقدم بطل لا عاجز فيها و لا وغد فشل

ثم قال له إبراهيم إن هؤلاء الذين فى الجباين يمنعون أصحابنا من إتياننا فلو سرت إلى قومى بمن معى فيأتينى كل من بايعنى من قومى و سرت بهم فى نواحي الكوفه و دعوت بشعارنا لخروج إلينا من أراد الخروج فمن أتاك أبقيته عندك فان جاءك عدو كان معك من تمتع به فإذا فرغت انا عجلت الرجوع إليك فقال له المختار افعل و عجل و إياك أن تسير إلى أميرهم تقاتله و لا تقاتل أحدا إذا أمكنك أن لا تقاتله إلا أن يبدأك أحد بقتال، فخرج إبراهيم فى الكتيبه التى جاء بها حتى أتى قومه و اجتمع إليه جل من كان أجابه فسار بهم فى سكك الكوفه طويلا من الليل و هو يتجنب المواضع التى فيها الأمراء الذين بعثهم ابن مطيع فلما وصل إلى مسجد السكون أتاه جماعه من خيل زحر بن قيس ليس عليهم أمير فحمل عليهم إبراهيم فكشفهم حتى أدخلهم جبانه كنده. فقال إبراهيم من صاحب الخيل فى جبانه كنده؟ فليل له زحر بن قيس فشد إبراهيم و أصحابه عليهم و هو يقول، اللهم أنك تعلم انا غضبنا لأهل بيت نبيك و ثرنا لهم فانصرنا على هؤلاء و تتم لنا دعوتنا حتى انتهى إليهم هو و أصحابه فكشفوهم و ركب بعضهم بعضا كلما لقيهم زقاق دخل منهم طائفه. فقال إبراهيم لأصحابه انصرفوا بنا عنهم و سار إبراهيم حتى أتى جبانه أثير فوقف فيها و تنادى أصحابه بشعارهم فأتاه سويد بن عبد الرحمن المنقرى و رجا أن يصيبهم فيحظى بذلك عند ابن مطيع فلم يشعر إبراهيم إلا و هم معه فقال إبراهيم لأصحابه: يا شرطه الله أنزلوا فإنكم أولى بالنصر من هؤلاء الفساق الذين خاضوا فى دماء أهل بيت نبيكم فزولوا ثم حمل عليهم إبراهيم حتى أخرجهم إلى الصحراء و ولوا منهزمين يركب بعضهم بعضا و هم يتلاومون فقال قائل منهم إن هذا الأمر يراد ما يلقون لنا جماعه إلا هزموهم، فلم يزل إبراهيم يهزمهم حتى أدخلهم الكناسه

فقال له أصحابه اتبعهم فاغتنم ما دخلهم من الرعب فقال و لكن ناتي صاحبنا أى المختار يؤمن الله بنا وحشته و يعلم ما كان من نصرنا له فيزداد هو و أصحابه قوه و لا آمن أن يكون جاءه، اعداؤه. فسار إبراهيم حتى أتى باب المختار فسمع الأصوات عاليه و القوم يقتتلون، و كان قد جاء شيبث بن ربيعى من قبل السبخه فعبى له المختار يزيد بن أنس، و جاء حجار بن أبجر فجعل المختار فى وجهه أحمر بن شميظ فينما الناس يقتتلون إذ جاء إبراهيم من قبل القصر فبلغ حجارا و أصحابه أن إبراهيم قد جاءهم من ورائهم فتنفروا فى الأزقه قبل أن يأتهم إبراهيم و جاء رجل من أصحاب المختار اسمه قيس بن طهفه النهدي فى قريب من مائه رجل من بنى نهد فحمل على شيبث و هو يقاتل يزيد بن أنس فخلى لهم شيبث الطريق حتى اجتمعوا جميعا. و جاء عبد الله بن الحر الجعفى فى قومه لنصره المختار، ثم إن شيبثا ترك لهم السكه و أقبل إلى ابن مطيع فقال له أجمع الأمراء الذين فى الجبايين و جميع الناس ثم أخرج إلى هؤلاء القوم فقاتلهم فان أمرهم قد قوى و قد خرج المختار و ظهر و قوى أمره فلما بلغ المختار قوله خرج فى جماعه من أصحابه حتى نزل فى ظهر دير هند فى السبخه و خرج أبو عثمان النهدي من أصحاب المختار فنادى فى بنى شاكر و هم مجتمعون فى دورهم يخافون أن يظهروا لقرب كعب الخثعمى منهم و هو من أصحاب إياس و كان قد أخذ عليهم أفواه السكك فلما أتاهم أبو عثمان فى جماعه من أصحابه نادى با [يا] لثارات الحسين، يا منصور أمت، يا أيها الحى المهتدون إن أمين آل محمد و وزيرهم قد خرج فنزل دير هند و بعثنى إليكم داعيا و مبشرا فاخرجوا رحمكم الله فخرجوا ينادون يا لثارات الحسين و قاتلوا كعبا حتى خلوا لهم الطريق فقبلوا إلى المختار فنزلوا معه و خرج عبد الله بن قتاده الخثعمى فى نحو من مائتين فنزلوا مع المختار و كان قد تعرض لهم كعب فلما عرف أنهم من قومه خلى عنهم و خرجت شبام و هم حى من همدان من آخر ليلتهم فبلغ خبرهم عبد الرحمن بن سعيد الهمداني فأرسل إليهم أن كنتم تريدون المختار فلا تمروا من ناحيتنا فلاحقوا بالمختار حتى اجتمع عنده ثلاثه آلاف و ثمانمائة قبل الفجر و كان قد بايعه اثنا عشر ألفا و كان ممن خرج معه حميد بن مسلم، فأصبح المختار و قد فرغ من تعبته جيشه فصلى بأصحابه فى الغلس (أى الظلمه) و أرسل ابن مطيع إلى من بالجبايين أن يأتوا المسجد.

و أمر راشد بن إياس صاحب شرطته فنادى فى الناس برئت الذمه من رجل لم يأت المسجد الليله، فاجتمعوا فبعث ابن مطيع شيبث بن ربيعى فى نحو ثلاثه آلاف إلى المختار و بعث راشدا أيضا فى أربعة آلاف من الشرط، هكذا ذكر الطبرى و غيره و زاد ابن نما رحمه الله أنه بعث حجار بن أبجر فى ثلاثه آلاف و ثلاثه آخرين فى ثلاثه آلاف و تتابعت العساكر إلى نحو من عشرين ألفا فلما صلى المختار الغداه سمعوا أصواتا مرتفعه فقال المختار من يأتينا بخبر هؤلاء؟ فقال له رجل أنا أصلحك الله، قال المختار فالتق سلاحك و اذهب حتى تدخل فيهم كأنك متفرج و ائتنا بخبرهم قال الرجل فلما دنوت منهم إذا مؤذنه يقيم و إذا شيبث بن ربيعى و معه خيل عظيمه فصلى بهم فقرأ إذا زلزلت الأرض زلزالها فقلت فى نفسى أما و الله أنى لأرجو أن يزلزل الله بكم ثم قرأ

و العاديات ضبحا. فقال له أناس من أصحابه لو كنت قرأت أطول من هاتين السورتين شيئا. فقال ترون الديلم قد نزلت بساحتكم و أنتم تقولون لو قرأت سورة البقره و آل عمران، مما دل على وقوع الرعب فى قلبه. فاقبل الرجل إلى المختار و أخبره بخبر شبت و أصحابه و أتاه أيضا سعر الحنفى يركض و كان ممن بايع المختار فلم يقدر على الخروج معه ليله خرج خوفا من الحرس فلما أصبح أقبل على فرسه فاعترضه راشد بن إياس و أصحابه فركض على فرسه و أفلت منهم حتى أتى المختار فأخبره بخبرهم، فبعث المختار إبراهيم بن الأشتر إلى راشد بن إياس فى تسعمائه و قيل فى ستمائه فارس و ستمائه راجل، و بعث نعيم بن هبيرة أخا مصقله بن هبيرة إلى شبت بن ربيعى فى ثلاثمائة فارس و ستمائه راجل و أمرهما بتعجيل القتال و أن لا يقفا مقابله عدوهما لأنه أكثر منهما و قال لا- ترجعا حتى تظهرا أو تقتلا، فتوجه إبراهيم إلى راشد و توجه نعيم بن هبيرة إلى شبت و قدم المختار أمامه يزيد بن أنس فى تسعمائه، فاما نعيم فجعل سعر الحنفى على الخيل و مشى هو فى الرجاله و قاتل شبتا قتالا شديدا حتى أشرفت الشمس و انبسطت و ضربهم أصحاب نعيم حتى أدخلوهم البيوت منهزمين فناداهم شبت و حرضهم فرجع إليه منهم جماعه فحملوا على أصحاب نعيم و قد تفرقوا فانهم أصحاب نعيم و صبر هو فقتل و أسر سعر و معه رجلان أحدهما مولى فقتله شبت و أطلق الآخرين لأنهما عربيان فأتيا المختار. فاعتم أصحاب المختار لذلك غما شديدا و أخبره أحد الرجلين بما كان من أمره فقال له اسكت فليس هذا بمكان الحديث، و جاء شبت حتى أحاط المختار و يزيد بن أنس و بعث ابن مطيع يزيد بن الحارث بن رويم فى ألفين فوقفوا فى أفواه السكك و ولى المختار يزيد بن أنس على الخيل و خرج هو فى الرجاله فحملت عليهم خيل شبت حملتين فلم يبرحوا من مكانهم، فقال لهم يزيد بن أنس: يا معشر الشيعة قد كنتم تقتلون و تقطع أيديكم و أرجلكم و تسمل أعينكم و ترفعون على جذوع النخل فى حب أهل بيت نبيكم و أنتم مقيمون فى بيوتكم مطيعون لعدوكم فما ظنكم بهؤلاء القوم إن ظهروا عليكم اليوم إذا و الله لا- يدعون منكم عينا تطرف و ليقتلنكم صبيرا و لترون منهم فى أولادكم و أزواجكم و أموالكم ما الموت خير منه و الله لا ينجيكم منهم إلا الصدق و الصبر و الطعن الصائب فى أعينهم و الضرب الدراك على هامهم فتيسروا للشده و تهيئوا للحمله فإذا حركت رايتى مرتين فاحملوا، فتهيئوا و جثوا على الركب و انتظروا أمره. و أما إبراهيم بن الأشتر فإنه أقبل نحو راشد بن إياس فإذا معه أربعة آلاف فقال إبراهيم لأصحابه لا يهولنكم كثره هؤلاء فو الله لرب رجل خير من عشره و لرب فئه قليلة قد غلبت فئه كثيره باذن الله و الله مع الصابرين، ثم قال لخزيمه بن نصر سر إليهم فى الخيل و أخذ هو يمشى فى الرجاله و يقول لصاحب رايته تقدم برايتك امض بها قدما قدما و اقتتل الناس قتالا شديدا و حمل خزيمه بن نصر العبسى على راشد فطعنه فقتله ثم نادى قتلت راشدا و رب الكعبه و انهزم أصحاب راشد و أقبل إبراهيم بن الأشتر و خزيمه بن نصر و من معهما بعد قتل راشد نحو المختار و أرسل البشير إلى المختار بقتل راشد فكبر هو و أصحابه و قويت نفوسهم و دخل أصحاب ابن مطيع الفشل، و أرسل ابن مطيع حسانا العبسى فى نحو من ألفين ليعترض إبراهيم بن الأشتر فتقدم إليهم إبراهيم فانهمزوا من غير قتال و أقبل إبراهيم نحو المختار و شبت بن ربيعى محيط به فلما رآه يزيد بن الحارث الذى كان على أفواه السكك مقبلا نحو شبت أقبل نحوه ليرده عن شبت و أصحابه فبعث إبراهيم إليه طائفه من أصحابه مع خزيمه بن نصر و سار هو نحو شبت فيمن بقى معه فلما أقبل إبراهيم نحو شبت جعل شبت و أصحابه ينكصون إلى الورا قليلا قليلا فلما دنا منهم إبراهيم حمل عليهم و أمر يزيد بن أنس أن يحمل عليهم ففعل فانهمزوا حتى وصلوا إلى بيوت الكوفه و حمل خزيمه بن نصر على يزيد بن الحارث فهزمه و أصحابه و ازدحموا على أفواه السكك و كان يزيد بن الحارث قد وضع الرماه على أفواه السكك فوق البيوت، و أقبل المختار فلما انتهى إلى أفواه السكك رمته الرماه بالنبل فصدوه عن دخول الكوفه من ذلك الوجه، و رجع الناس منهزمين إلى ابن مطيع و جاءه قتل راشد بن إياس فسقط فى يده، فقال له عمرو بن الحجاج أيها الرجل لا تلق بيدك و اخرج إلى الناس و اندبهم إلى عدوك فان الناس كثير و كلهم معك إلا هذه الطائفه التى خرجت و الله يخزيها و أنا أول منتدب

فانتدب معى طائفه و مع غيرى طائفه فخرج ابن مطيع فقام فى الناس و وبخهم على هزيمتهم و أمرهم بالخروج إلى المختار و أصحابه. و أما المختار فإنه لما منعه الرماه من دخول الكوفه عدل إلى بيوت مزينه و احمس و بارق و بيوتهم منفرده فاستقبلوه بالماء فشرب أصحابه و لم يشرب هو لأنه كان صائما، فقال أحمر بن شميظ لابن كامل أ ترى الأمير صائما قال نعم قال لو أفطر كان أقوى له قال هو أعلم بما يصنع قال صدقت استغفر الله، فقال المختار نعم المكان للقتال هذا فقال له إبراهيم قد هزمهم الله و فلهم و ادخل الرعب فى قلوبهم و تنزل هاهنا سر بنا فو الله ما دون القصر مانع فترك المختار هناك كل شيخ ضعيف و كل ذى عله و ثقلهم و استخلف عليهم أبا عثمان النهدى و قدم إبراهيم أمامه و بعث ابن مطيع عمرو بن الحجاج فى ألفين فخرج عليهم فبعث المختار إلى إبراهيم أن اطوه و لا تقم عليه فطواه إبراهيم و أمر المختار يزيد بن أنس أن يصمد لعمرو بن الحجاج فمضى نحوه و سار المختار خلف إبراهيم ثم وقف المختار فى موضع مصلى خالد بن عبد الله و أمر إبراهيم أن يمضى على وجهه حتى يدخل الكوفه من جهه الكناسه فمضى فخرج إليه شمر ابن ذى الجوشن فى ألفين فسرح إليه المختار سعيد بن منقذ الهمدانى فواقعه و أرسل إلى إبراهيم أن اطوه و امض على وجهك فمضى حتى انتهى إلى سكه شبت فإذا نوفل بن مساحق فى ألفين و قيل خمسه آلاف قال الطبرى و هو الصحيح و كان ابن مطيع أمر مناديا فنادى فى الناس أن الحقوا باين مساحق و خرج ابن مطيع فوقف بالكناسه و استخلف شبت بن ربعى على القصر فدنا ابن الأشر من ابن مطيع فأمر أصحابه بالنزول فنزلوا فقال قربوا خيولكم بعضها من بعض ثم امشوا إليهم مصلتين بالسيوف و لا يهولنكم أن يقال جاء آل فلان و آل فلان و سمى بيوتات أهل الكوفه، ثم قال إن هؤلاء لو وجدوا حر السيوف لانهمزوا عن ابن مطيع انهزام المعزى من الذئب ففعلوا ذلك و أخذ ابن الأشر أسفل قبائه فادخله فى منطقتة و كان قد لبس القباء فوق الدرع ثم قال لأصحابه شدوا عليهم فدى لكم عمى و خالى فلم يلبثوا أن انهزموا يركب بعضهم بعضا على أفواه السكك و ازدحموا و انتهى ابن الأشر إلى ابن مساحق فاخذ بلجام دابته و رفع السيف ليقتله فسأله أن يعفو عنه فخلى سبيله و قال اذكرها لى فكان يذكرها له و دخلوا الكناسه فى آثارهم حتى دخلوا السوق و المسجد و حصروا ابن مطيع و معه الأشراف غير عمرو بن حريث فإنه خرج إلى البر و جاء المختار حتى نزل جانب السوق و ولى إبراهيم ابن الأشر حصار القصر و معه يزيد بن أنس و أحمر بن شميظ فحصروا القصر من ثلاث جهات ثلاثه أيام، و أشرف رجل من أصحاب ابن مطيع عشيه على أصحاب المختار فجعل يشتمهم فرماه رجل منهم بسهم فأصاب حلقه فقطع الجلد فوقه ثم برأ بعد ذلك و جعل ابن مطيع يفرق على أصحابه الدقيق و هو محصور و اشتد عليهم الحصار و أقبلت همدان

حتى تسلقوا القصر بالحبال فلما رأى ابن مطيع و أصحابه ذلك أشار عليه شيبث أن يأخذ لنفسه أمانا فكره ذلك فأشار عليه أن يخرج خفيه إلى دار من دور الكوفة ثم يلحق بابن الزبير فقبل و خرج ليلا فدخل دار أبي موسى و خلى القصر ففتح أصحابه الباب، و جاء ابن الأشر فطلب من بالقصر الأمان فامنهم فخرجوا فبايعوا المختار و جاء المختار حتى دخل القصر فبات فيه و أصبح الأشرف فى المسجد و على باب القصر. و خرج المختار فصعد المنبر و خطب الناس و قال: انا المسلط على المحلين الطالب بدم ابن نبى رب العالمين، إلى أن قال ادخلوا فبايعوا بيعة هدى فو الله ما بايعتم بعد بيعة على بن أبى طالب ع و آل على ع أهدي منها ثم نزل فدخل عليه أشرف الكوفة فبايعوه على كتاب الله و سنه رسوله (ص) و الطلب بدماء أهل البيت و جهاد المحلين و الدفع عن الضعفاء و قتال من قاتلنا و سلم من سالمنا، و أحسن المختار سيره جهده و فى ذلك يقول الشاعر:

و لما دعا المختار جئنا لنصره على الخيل تردى من كميته و أشقرا

دعا يا لثارات الحسين فأقبلت تعادى بفرسان الصياح لتثأرا

و بلغه أن ابن مطيع فى دار أبى موسى فأرسل إليه مائة ألف درهم و قال تجهز بها و كان بينهما صداقه فأخذها و مضى إلى البصرة، و وجد المختار فى بيت المال تسعة آلاف درهم. و فرق العمال على أرمينية و آذربايجان و الموصل و المدائن و حلوان و الرى و همدان و أصبهان و غيرها و دانت له البلاد كلها إلا الحجاز و الجزيرة و الشام و مصر و البصرة و استعمل على شرطته عبد الله بن كامل الشاكرى و على حرسه كيسان أبا عمره مولى عرينه و صار يجلس للقضاء بين الناس ثم أقام شريحا للقضاء و كانوا يقولون أنه عثمانى و أنه ممن شهد على حجر بن عدى و أنه لم يبلغ عن هانى بن عروه ما أرسله به و أن عليا ع عزله عن القضاء فأراد المختار عزله فتمارض فعزله و جعل مكانه غيره، و قال عبد الله بن همام يذكر المختار و أصحابه و يمدحهم:

و فى ليله المختار ما يذهل الفتى و يلهيه عن رؤد الشباب شموع

دعا يا لثارات الحسين فأقبلت كتائب من همدان بعد هزيع

و من مدحج جاء الرئيس ابن مالك يقود جموعا أردفت بجموع

و من أسد وافى يزيد لنصره بكل فتى حامى الذمار منيع

و جاء نعيم خير شيبان كلها بامر لدى الهيجا أحد جميع

و ما ابن شميظ إذ يحرض قومه هناك بمخدول و لا بمضيع

و سار أبو النعمان لله سعيه إلى ابن إياس مصحرا لوقوع

بخيل عليها يوم هيجا دروعها و أخرى حسورا غير ذات دروع

فكر الخيول كره ثقفتهم و شد باولاها على ابن مطيع

فولى بضرب يشدخ الهام وقعه و طعن غداه السكتين وجيع

فحوصر فى دار الاماره باثيا بذل و ارغام له و خضوع

فمن وزير ابن الوصى عليهم و كان لهم فى الناس خير شفيح

و آب الهدى حقا إلى مستقره بخير إياب آبه و رجوع

إلى الهاشمى المهتدى المهتدى به فنحن له من سامع و مطيع

قتل المختار قتله الحسين عو المشايعين على قتله

كان مروان بن الحكم بعد أن بويع له بالشام أرسل عبيد الله بن زياد فى جيش إلى الجزيره فإذا فرغ منها سار إلى العراق و جعل له كل ما غلب عليه و أمره أن ينهب الكوفه إن ظفر بأهلها ثلاثا ثم كان من أمره مع التوايين ما كان و كان زفر بن الحارث الكلابى و معه قبيله تسمى قيس عجلان بالجزيره على طاعه ابن الزبير فلم يزل ابن زياد مشتغلا بهم عن العراق نحو سنه فهلك مروان و ولى بعده ابنه عبد الملك فأقر ابن زياد على ما كان أبوه و لاه فلما عجز ابن زياد عن زفر و من معه بالجزيره أقبل إلى الموصل و هى للمختار فتحنى عامل المختار إلى تكريت و كتب إلى المختار يخبره بذلك فكتب إليه المختار يصوب رأيه و يأمره أن لا يفارق مكانه حتى يأتيه أمره و أرسل المختار يزيد بن أنس الأسدى و انتخب معه ثلاثه آلاف فارس و وعده المدد متى احتاج و شيعه و قال إذا لقيت عدوك فلا- تناظرهم و إذا أمكنتك الفرصه فلا تؤخرها و ليكن خبرك كل يوم عندى و كتب إلى عامل الموصل أن يخلى بينه و بين البلاد فسار حتى أتى أرض الموصل فبلغ خبره ابن زياد فقال لأبعثن إلى كل ألف ألفين فأرسل إليه ستة آلاف ثلاثه مع ربيعه الغنوى و ثلاثه مع عبد الله بن جمه الخثعمى فسار ربيعه قبل عبد الله بيوم حتى لقي يزيد بن أنس فخرج يزيد بن أنس و هو مريض شديد المرض راكب على حمار يمسكه الرجال فوقف على أصحابه و عباهم و حثهم على القتال ثم وشع بين الرجال على سرير و قال قاتلوا عن أميركم إن شئتم أو فروا عنه و جعل يأمر الناس بما يفعلونه ثم يغمى عليه ثم يفيق و يقتل الناس عند فلق الصبح يوم عرفه فاشتد القتال إلى ارتفاع الضحى فانهمز أهل الشام و أخذ عسكرهم و وصل أهل العراق إلى أميرهم ربيعه و قد انهزم عنه أصحابه و هو يناديم و يحرضهم على القتال و يقول إنما تقاتلون من خرج من الإسلام فاجتمع إليه جماعه فقاتلوا معه و اشتد القتال و خرج رجل من أهل العراق يعترض الناس بسيفه و هو يقول:

برئت من دين المحكمينا و ذاك فينا شر دين دينا

ثم انهزم أهل الشام و قتل أميرهم ربيعه فسار المنهزمون ساعه فلقهم عبد الله الخثعمى الأمير الثانى لأهل الشام فى ثلاثه آلاف فرد معه المنهزمين و جاء إلى الموضع الذى فيه أصحاب المختار فباتوا ليلتهم يتحارسون فلما أصبحوا يوم عيد الأضحى خرجوا إلى القتال و اقتتلوا قتالا شديدا ثم نزلوا فصلوا الظهر ثم عادوا إلى القتال فانهمز أهل الشام هزيمه قبيحه و قتلوا قتلا ذريعا و حوى أهل العراق عسكرهم حتى انتهوا إلى أميرهم عبد الله فقتلوه و أسروا منهم ثلاثمائه أسير فأمر يزيد بن أنس بقتلهم و هو فى آخر رمق فقتلوا ثم مات آخر النهار فدفنه أصحابه و كسر قلوبهم موته و كان قد استخلف عليهم ورقاء بن عازب الأسدى فقال لأصحابه ما ذا ترون أنه بلغنى أن ابن زياد قد أقبل إليكم فى ثمانين ألفا و إنى لا أرى لنا بأهل الشام طاقه فلو انصرفنا من تلقاء

أنفسنا لقالوا إنما رجعنا عنهم لموت أميرنا و لم يزالوا لنا هائبين فقالوا نعم ما رأيت فانصرفوا فبلغ ذلك المختار و أهل الكوفه فارجف الناس بالمختار و قالوا ان يزيد قتل و لم يصدقوا أنه مات فأرسل المختار إلى عامله بالمدائن يسأله عن ذلك فأخبره بموته و ان العسكر انصرف من غير هزيمه و لا كسره فطاب قلب المختار فدعا إبراهيم بن الأشتر و أرسله و قال إذا لقيت جيش يزيد بن أنس فأنت الأمير عليهم فارددهم معك حتى تلقى ابن زياد و أصحابه فتقاتلهم ثم ودعه و انصرف، فخرج إبراهيم فلما سار اجتمع أشراف الكوفه عند شيبث بن ربيعى و قالوا أن المختار تامر علينا بغير رضا منا و لقد أدنى موالينا أى عبيدنا فحملهم على الدواب و أعطاهم قيانا فقال لهم شيبث دعونى حتى

ألقاه فذهب إليه فلم يدع شيئاً أنكره إلا ذكره له و المختار يقول أنا أرضيهم و أفعل كلما أحبوا و لم يكن أصعب عليهم من مشاركته الموالى أى العبيد المعتقين لهم فى الفىء فقال المختار إن أنا تركت مواليكم و جعلت فينكم لكم تقاتلون معى بنى أميه و ابن الزبير و تعطونى العهد على ذلك فقال شبت حتى أرجع إلى أصحابى فأخبرهم فخرج و لم يرجع إلى المختار فاجمع رأيهم على قتاله و كان بقى مع المختار أربعة آلاف، فقال عبد الرحمن الأسدى لأهل الكوفه لا- تخرجوا على المختار فانى أخاف أن تختلفوا و تفرقوا و مع الرجل شجعانكم و مواليكم و كلمتهم واحده فانظروا قليلا يكفكم ذلك أهل الشام و أهل البصره فلم يقبلوا و خرجوا على المختار بعد مسير إبراهيم بالجبانات كل رئيس بجبانه و جاهروا بالعصيان و لم يبق أحد ممن شرك فى قتل الحسين ع و كان مختفيا إلا- ظهر فلما بلغ ذلك المختار أرسل رسولا مجدا إلى إبراهيم فلحقه و هو بساباط المدائن قريب بغداد و كتب إليه المختار أن لا تضع كتابى من يدك حتى تقبل إلى بجميع من معك و بعث إليهم المختار أن أخبرونى ما تريدون فانى أصنع كلما أحببتم قالوا نريد أن تعتر لنا فانك زعمت أن محمد بن الحنفية بعثك و لم يبعثك قال فأرسلوا إليه وفدا من قبلكم و أرسل إليه أنا وفدا و هو يريد أن يطاولهم حتى يقدم عليه إبراهيم و أمر أصحابه أن يكفوا أيديهم و قد أخذ عليهم أهل الكوفه بأفواه السكك فليس يصل إليهم من الماء إلا القليل، و لما سار رسول المختار وصل إلى ابن الأشتر فى عشيه ذلك اليوم فرجع ابن الأشتر بقيه عشيته تلك ثم نزل عند المساء فتعشى أصحابه و أراحوا دوابهم قليلا ثم سار ليلته كلها و اليوم الثانى حتى وصل إلى الكوفه عند العصر و بات فى المسجد و معه من أصحابه أهل القوه و الجلد، ثم إن المختار عبا أصحابه و أرسل ابن الأشتر إلى مضر و خشى أن يرسله إلى أهل اليمن فلا يبالغ فى قتالهم لأنهم قومه و سار المختار إلى أهل اليمن و قدم بين يديه أحمر بن شميظ و عبد الله بن كامل و أمر كلا- بلزوم طريق مخصوص و أسر إليهما أن شباما قد أرسلوا إليه يخبرونه أنهم يأتون القوم من ورائهم فمضيا إلى أهل اليمن و اقتتلوا أشد قتال رآه الناس ثم انهزم أصحاب أحمر و أصحاب ابن كامل و وصلوا إلى المختار فردهم و أقبل بهم نحو القوم ثم أرسل عبد الله بن قراد الخثعمى فى أربعمائى إلى ابن كامل و قال له إن كان قد هلك فانت مكانه فقاتل القوم و إن كان حيا فاترك عنده ثلاثمائى و امض فى مائه حتى تأتى جبانه السبيح فمضى فوجد ابن كامل يقاتلهم فى جماعه قد صبروا معه فترك عنده ثلاثمائى و سار فى مائه و بعث المختار مالك بن عمرو النهدى و كان شجاعا و عبد الله بن شريك النهدى فى أربعمائى إلى أحمر بن شميظ فوصلوا إليه و قد غلبه القوم فاشتد قتالهم عند ذلك (و أما ابن الأشتر) فإنه مضى إلى مضر فلقى شبت بن ربيعى و من معه فقال لهم ويحكم انصرفوا فما أحب أن يصاب من مضر على يدى أحد فلا تهلكوا أنفسكم فأبوا فقاتلهم إبراهيم فهزمهم و أرسل إلى المختار يبشره بذلك فأرسل المختار إلى أحمر بن شميظ و ابن كامل يبشرهما فاشتد أمرهما، و اجتمعت شبام لياتوا اليمن من ورائهم كما أرسلوا إلى المختار و رأسوا عليهم أبا القلوص فقال بعضهم لو جعلتم جدكم على مضر أو ربيعه لكان أ صوب فقال أبو القلوص قال الله تعالى قاتلوا الذين بلونكم من الكفار فسار نحو أهل اليمن فلقبهم الأعسر الشاكرى فقتلوه و نادوا يا لثارات الحسين فأجابهم أصحاب ابن شميظ يا لثارات الحسين فنادى يزيد بن عمر يا لثارات عثمان فقال لهم رفاعه بن شداد البجلي و كان معهم على المختار لا أقاتل مع قوم ييغون دم عثمان ثم رجع عنهم فقاتل مع المختار و هو يقول:

أنا ابن شداد على دين عليلست لعثمان بن أروى بولى

لأصلين اليوم فيمن يصطليبحر نار الحرب غير مؤتلى

فقاتل حتى قتل.

و انهزم أهل اليمن هزيمة قبيحة و استخرج من دور الوداعيين خمسمائه أسير فانى بهم المختار مكثفين فقال أعرضوهم على و انظروا كل من شهد قتل الحسين ع فاعلمونى به فقتل كل من شهد قتل الحسين ع قتل منهم مائتين و ثمانيه و أربعين رجلا فى مجلس واحد و أطلق الباقي (و نادى) منادى المختار من أغلق بابه فهو آمن إلا رجلا شرك فى دم آل محمد.

هدم دور من شرك فى

قتل الحسين (ع)

و أمر المختار صاحب شرطته أبا عمره أن يجمع ألف رجل من الفعله بالمعاول و يتبع دور من خرج إلى قتال الحسين ع فيهدمها و كان أبو عمره بذلك عارفا فجعل يدور بالكوفه على دورهم فيهدم الدار فى لحظه فمن خرج إليه منها قتله حتى هدم دورا كثيره و قتل المختار أناسا كثيرين من قتله الحسين ع و جعل يطلب و يستقصى فمن ظفر به منهم قتله و جعل ماله و عطاءه لرجل من أبناء العجم الذين كانوا معه (و تجرد) لقتله الحسين ع و قال ما من ديننا أن نترك قتله الحسين ع أحياء بئس ناصر آل محمد (ص) أنا، أنا إذا الكذاب كما سمونى و أنى أستعين بالله عليهم فسموهم لى ثم اتبعوهم حتى تقتلوهم فإنه لا يسوغ لى الطعام و الشراب حتى أظهر الأرض منهم.

قتل الذين رضوا جسد

الحسين ع

فأول من بدء به المختار الذين رضوا جسد الحسين ع بخيولهم فاخذهم و طرحهم على ظهورهم و ضرب سلك الحديد فى أيديهم و أرجلهم و أجرى الخيل عليهم حتى قطعتهم ثم أحرقهم بالنار.

قتل عمرو بن الحجاج

الذى كان موكلا بالمشرعه

و كان عمرو بن الحجاج الزبيدى ممن شهد قتل الحسين ع فركب راحلته و أخذ طريق واقصه فلم يعلم له خبر حتى الساعه و قيل أدركه أصحاب المختار و قد سقط من شدة العطش فذبحوه و أخذوا رأسه و قيل أنه هرب يريد البصره و كان من رؤساء قتله الحسين ع فخاف الشماته فعدل إلى شراف فقال له أهل الماء ارحل عنا فانا لا نأمن المختار فارتحل عنهم فتلاوموا و قالوا قد أسانا فركب جماعه منهم ليردوه فلما رأهم ظن أنهم من أصحاب المختار فسلك الرمل بمكان يدعى البيضه و ذلك فى أشد ما يكون من حراره القيظ فيما بين بلاد كلب و بلاد طيبى فقال فيها فأهلكه و من معه العطش، و عمرو بن الحجاج هذا هو الذى كان على المشرعه يمنع الحسين ع من الماء فأهلكه الله تعالى عطشا فى الدنيا و لعذاب الآخره أشد و أبقي.

قتل خولى بن يزيد الذى جاء

برأس الحسين ع

و بعث المختار أبا عمره فأحاط بدار خولى بن يزيد الأصبحى الذى حمل رأس الحسين ع إلى ابن زياد فاخبا فى بيت الخلاء و وضع على رأسه قوصره و هى ما يصنع من ورق النخل ليوضع فيه التمر فدخلوا الدار ليفتشوا عليه فخرجت امرأته إليهم و هى العيوف بنت مالك و قيل اسمها النوار و كان محبه لأهل البيت ع و كانت قد نصبت له العداوه من يوم جاء برأس الحسين ع فقالت ما تريدون فقالوا لها أين زوجك فقالت لا أدرى أين هو و أشارت بيدها إلى بيت الخلاء فوجدوه و قد وضع على رأسه القوصره فأخرجوه و كان المختار يسير فى الكوفه فجاء فى أثرهم فأرسلوا إليه يخبرونه فرده حتى قتله إلى جانب أهله ثم أحرقه بالنار و لم يبرح من مكانه حتى عاد رمادا.

قتل حكيم بن الطفيل

و بعث المختار عبد الله بن كامل إلى حكيم بن الطفيل و هو الذى سلب العباس ع ثيابه و رمى الحسين ع بسهم فكان يقول تعلق سهمى بسرباله و لم يضره فأتاه ابن كامل فأخذه فذهب أهله إلى عدى بن حاتم ليشفع فيه فلحقهم فى الطريق فقالوا ليس أمره إلينا إنما أمره إلى المختار فمضى إلى المختار و كان المختار قد شفعه فى جماعه من قومه أسروا يوم قتال المختار مع أهل الكوفه لم يكونوا نطقوا بشيء من أمر الحسين عو أهل بيته ع فقال أصحاب ابن كامل له إنا نخاف أن يشفعه الأمير فى هذا الخيىث و له من الذنب ما قد علمت فدعنا نقتله قال نعم فأتوا به و هو مكتوف و قالوا له سلبت ابن على ثيابه و الله لنسلبكنك ثيابك و أنت حتى تنظر فنزعوا ثيابه و قالوا له رميت حسينا و اتخذته غرضا لنبلك و قلت تعلق سهمى بسرباله و لم يضره و الله لرمينك كما رميته بنبال ما تعلق بك منها أجزأك فجعلوه غرضا للنبل و رموه رشقا واحدا حتى صار كالقنفذ فخر ميتا، و دخل عدى على المختار فشفع فيه فقال له المختار أ تستحل أن تشفع فى قتله الحسين ع فقال أنه مكذوب عليه قال إذا ندعه لك فدخل ابن كامل فأخبر المختار بقتله فأظهر لومهم على ذلك و لكنه سر بقتله فقال ابن كامل غلبتني عليه الشيعة فقال عدى كذبت و لكنك ظننت أن من هو خير منك سيشفعني فيه فقتلته فسهب ابن كامل فنهاه المختار.

قتل مالك بن النسر

و رجلين معه

و دل المختار على عبد الله بن أسيد الجهنى و مالك بن النسر البدائى و حمل بن مالك المحاربى فبعث إليهم المختار مالك بن عمرو النهدى و كان من رؤساء أصحابه فأتاهم و هم بالقادسيه فاخذهم و أقبل بهم حتى أدخلهم على المختار عشاء فقال لهم المختار يا أعداء الله و أعداء كتابه و أعداء رسوله و أهل رسوله اين الحسين بن على أدوا إلى الحسين قتلتم من أمرتم بالصلاه عليه فى الصلاه فقالوا بعثنا و نحن كارهون فامنن علينا و استبقنا فقال فهلا منتم على الحسين ابن بنت نبيكم و استبقتموه و سقيتموه، ثم قال لمالك بن النسر أنت صاحب برنس الحسين فقال له ابن كامل نعم هو هو فأمر بقطع يديه و رجله و تركه يضطرب فلم يزل ينزف الدم حتى هلك و أمر بالرجلين الآخرين فقتلا و عجل الله بأرواحهم إلى النار.

و كان شمر لعنه الله قد هرب من الكوفه و معه جماعه ممن شرك في قتل الحسين ع على خيول لهم مضمرة فأرسل إليه المختار عيدا [عبدا] له أسود يقال له زربي و كان شجاعا و قيل أنه مولى بجيله و معه مائه فارس على الخيل العتاق فجعل يجد السير حتى انقطع عن أصحابه إلا عشره فوارس فقال شمر لأصحابه تباعدوا عنى لعل العبد يطمع في فتباعدوا عنه و لحقه العبد حتى إذا انقطع عن أصحابه حمل شمر فقتله و انهزم أصحابه العشره حتى لحق به الباقون ثم مضى شمر و أصحابه حتى نزلوا قريه يقال لها الكلتانيه قريبا من البصره على شاطئ نهر إلى جانب تل ثم أخذ شمر علجا من القريه و دفع إليه كتابا و قال عجل به إلى مصعب بن الزبير بالبصره و كتب عنوانه للأمير مصعب من شمر بن ذى الجوشن فمضى العليج حتى دخل قريه فيها أبو عمره صاحب المختار و كان قد أرسله المختار إلى تلك القريه في خمسمائه فارس ليكون مسلحه بينه و بين أهل البصره فلقى ذلك العليج علجا آخر من تلك القريه فجعل يشكو إليه ما لقي من شمر فيينا هو يكلمه إذ مر به رجل من أصحاب أبي عمره فرأى الكتاب مع العليج و عنوانه إلى مصعب من شمر فسألوا العليج عن مكان شمر فأخبرهم فإذا ليس بينه و بينهم إلا ثلاثه فراسخ فاقبلوا يسرون إليه و كان أصحاب شمر قالوا له تلك الليله لو ارتحلت بنا من هذه القريه فانا نتخوف منها فقال كل هذا فرعا من الكذاب يعنى المختار و الله لا أتحول منها ثلاثه أيام ملاً الله قلوبكم رعبا فيينا شمر و أصحابه نيام إذ سمع رجل من أصحابه كان بين النائم و اليقظان وقع حوافر الخيل فقال فى نفسه هذا صوت الدبى و هو الجراد الصغير و كان بذلك المكان دبى كثير ثم سمعه أشد من ذلك فانتبه و مسح عينيه و قال و الله ما هذا بالدبى و ذهب ليقوم فإذا بالخيول قد أشرفت عليهم من التل فكبروا و أحاطوا بالبيوت فهرب أصحاب شمر و تركوا خيلهم و قام شمر و هو عريان مؤتزر بإزار و كان أبرص و برصه يبدو من تحت الإزار و أعجلوه عن لبس ثيابه و سلاحه فجعل يقاتلهم بالرمح ثم ألقاه و أخذ السيف و جعل يقاتلهم به فلما بعد عنه أصحابه سمعوا التكبير و قائلا يقول قتل الله الخبيث و قتله عبد الرحمن بن أبى الكنود و هو الذى وجد الكتاب مع العليج ذبحه ذبحا كما ذبح الحسين ع و أوطئوا الخيل صدر شمر و ظهره ثم ألقيت جثته للكلاب و باء فى الدنيا قبل الآخره بالذل و سوء العذاب و قطعوا رأسه و أرسلوه إلى المختار فأرسله المختار إلى محمد بن الحنفية بالمدينه و قيل جاءه من أصحاب المختار خمسون فارسا و أمامهم نبطى يدلهم على الطريق و ذلك فى ليله مقمره فلما أحس بهم شمر دعا بفرسه فركبه و ركب من كان معه ليهربوا فأدركهم القوم فقاتلوهم فقتل شمر و جميع من كان معه و احتزوا رءوسهم و أتوا بها أميرهم فأرسلها إلى المختار فنصبها المختار فى رحبه الحدائين حذاء الجامع.

(و فى البحار عن أمالى الشيخ قدس سره) أن المختار لما طلب شمرا هرب إلى الباديه فخرج إليه أبو عمره فى نفر من أصحابه فقاتلهم قتالا شديدا و أثختته الجراحه فأخذه أبو عمره أسيرا و بعث به إلى المختار فضرب عنقه و أغلى له دهنا فى قدر فقفذه فيها فتنفخ و وطئ مولى لآل حارثه بن المضرِب وجهه و رأسه.

قتل حرمله بن كاهل

و

عن المنهال بن عمرو قال دخلت على زين العابدين ع أودعه و أنا أريد الانصراف من مكة فقال يا منهال ما فعل حرمله ابن كاهل و كان معى بشر بن غالب الأسدى فأخبره أنه حى بالكوفه فرفع يديه و قال اللهم أذقه حر الحديد اللهم أذقه حر النار، قال المنهال و قدمت الكوفه و قد ظهر المختار و كان لى صديقا فركبت إليه فلقيته خارجا من داره فقال يا منهال لم تشركنا فى ولايتنا هذه فعرفته أنى كنت بمكة فمشى حتى أتى الكناسه و وقف كأنه ينتظر شيئا فلم يلبث أن جاء قوم فقالوا أبشر أيها الأمير فقد أخذ حرمله فجىء به فقال لعنك الله الحمد لله الذى أمكننى منك ثم قال الجزار الجزار فاتى بجزار فأمره بقطع يديه و رجليه فقطعهما ثم قال النار فاتى بنار و قصب فأحرقه فقلت سبحان الله سبحان الله فقال أن التسيح لحسن لم سبحت فأخبرته بقول زين العابدين ع فقال لى أسمعت على بن الحسين ع يقول هذا فقلت و الله لقد سمعته فنزل عن دابته و صلى ركعتين و أطال السجود و ركب و قد احترق حرمله و سار فحاذى دارى فطلبت منه أن ينزل و يأكل من طعامى فقال تعلمنى أن على بن الحسين ع دعا بأربع دعوات فأجابه الله على يدى ثم تدعونى إلى الطعام هذا يوم صوم شكر الله تعالى فقلت أحسن الله توفيقك.

قتل الذين نهبوا الورس من

رحل الحسين ع

و بعث المختار أصحابه فأتوه بجماعه من الذين كانوا نهبوا من الورس الذى كان مع الحسين ع و هم زياد بن مالك الضبعى و عمر بن خالد العنزى و عبد الرحمن بن أبى خشكاره البجلي و عبد الله بن قيس الخولانى فجاءوه بهم حتى أدخلوهم عليه فقال لهم يا قتله الصالحين و قتله سيد شباب أهل الجنة ألا ترون الله قد أقاد منكم اليوم لقد جاءكم الورس بيوم نحس ثم أمر بهم فاخرجوا إلى السوق و ضربت أعناقهم.

قتل جماعه آخرين ممن شرك

فى قتل الحسين ع

و أرسل المختار خيلا فأتوه بعبد الله و عبد الرحمن ابنى صلخت و حميد بن مسلم و عبد الله بن وهب ابن عم أعشى همدان فقبضوا عليهم إلا حميد بن مسلم فإنه هرب و جىء بهم إلى المختار فأمر بهم فقتلوا فى السوق.

قتل من اشترك فى قتل

عبد الرحمن بن عقيل

و بعث المختار عبد الله بن كامل فى خيل إلى عثمان بن خالد الدهمانى و بشر بن سوط و كانا ممن شهد قتل الحسين ع و اشتركا فى دم عبد الرحمن بن عقيل بن أبى طالب و سلبه فأحاط عبد الله بن كامل عند العصر بمسجد بنى دهمان و أقسم أن

يضرب أعناقهم عن آخرهم أن لم يأتوه بعثمان بن خالد فقالوا أمهلنا حتى نطلبه فخرجوا مع الخيل في طلبه فوجدوه هو و بشر بن سوط جالسين في الجبانه و كانا يريدان أن يهربا إلى الجزيره فاتى بهما عبد الله بن كامل فقال الحمد لله الذى كفى المؤمنين القتال لو لم يجدوا هذا مع هذا لأتعبنا بالذهاب إلى منزله فى طلبه فالحمد لله الذى أمكن منك فخرج بهما و ضرب أعناقهما فى الطريق و رجع فأخبر المختار فأمره أن يرجع إليهما و يحرقهما بالنار و قال لا يدفنان حتى يحرقا فاحرقهما.

قتل عمر بن سعد

و كان عمر قد اختفى حين ظهور أمر المختار و كان عبد الله بن جعده بن هبيرة ابن أخت أمير المؤمنين على ع أكرم الناس على المختار لقربته من أمير المؤمنين على ع فطلب عمر بن سعد من عبد الله بن جعده أن يأخذ له أمانا من المختار ففعل و كتب له المختار أمانا و شرط فيه أن لا يحدث حدثا (قال الطبرى) و غيره فكان أبو جعفر محمد بن على الباقر يقول إنما أراد المختار بقوله إلا أن يحدث حدثا هو أن يدخل بيت الخلاء و يحدث فلما كتب المختار الأمان لابن سعد ظهر ابن سعد فكان المختار يدينه و يكرمه و يجلسه معه على سريره. و أتى يزيد بن شراحيل الأنصارى محمد بن الحنفية رضى الله عنه فجرى ذكر المختار فقال محمد يزعم أنه لنا شيعه و قتله الحسين ع عنده على الكراسى يحدثونه فلما قدم يزيد الكوفه أخبر المختار بذلك فعزم على قتل عمر بن سعد ثم أن المختار قال يوما لأصحابه لأقتلن غدا رجلا عظيم القدمين غائر العينين مشرف الحاجبين يهزم الأرض برجله يسر قتله المؤمنين و الملائكه المقربين و كان عنده الهيشم النخعى فوقع فى نفسه أنه يريد عمر بن سعد فبعث ولده العريان إلى ابن سعد يعرفه ذلك فقال ابن سعد جزى الله أباك خيرا كيف يقتلنى بعد العهود و المواثيق ثم إن عمر بن سعد خرج ليلا فاتى حمامه (1) و أخبر مولى له بما كان من أمانه و بما بلغه عن المختار فقال له مولاه و أى حدث أعظم مما صنعت تركت أهلك و رحلك و أتيت إلى هنا ارجع و لا تجعل للرجل عليك سبيلا فرجع إلى منزله. و جاء الخبر إلى المختار بخروجه فقال كلا أن فى عنقه سلسله سترده و قال المرزبانى أن ابن سعد لما بلغه قول المختار عزم على الخروج من الكوفه فاحضر رجلا من بنى تيم اللات اسمه مالك و كان شجاعا فأعطاه أربعمائى دينار و قال هذه معك لحوائجنا و خرجا فلما كانا عند حمام عمر أو نهر عبد الرحمن وقف عمر و قال أ تدرى لم خرجت قال لا- قال خفت المختار قال هو أذل من أن يقتلك و ان هربت هدم دارك و انتهب عيالك و مالك و خربت ضياعك و أنت أعز العرب فاغتر بكلامه و دخل الكوفه مع الغداه و قيل أن عمر نام على الناقه فرجعت به و هو لا يدرى حتى رده إلى الكوفه فأرسل عمر عند الصبح ابنه حفصا إلى المختار ليجدد له الأمان فقال له المختار أين أبوك فقال فى المنزل و لم يكن عمر بن سعد و ابنه حفص يجتمعان عند المختار فإذا حضر أحدهما غاب الآخر خوفا أن يجتمعا فيقتلها فقال حفص أبى يقول أتفى لنا بالأمان قال أجلس و طلب المختار أبا عمره كيسان فاقبل رجل قصير يتخشخش فى السلاح فأسر إليه المختار أن يقتل عمر بن سعد و بعث معه رجلين آخرين و قال له إذا دخلت و رأيته يقول يا غلام على بطيلسانى فإنه يريد السيف فبادره و اقتله فذهب أبو عمره إلى ابن سعد و قال له أجب الأمير فقام عمر فعثر فى جبه له فضربه أبو عمره بسيفه فقتله و قطع رأسه و حمله فى طرف قبائه حتى وضعه بين يدى المختار. فقال المختار لابنه حفص أ تعرف هذا الرأس فاسترجع و قال

ص: ١٨٣

أن المراد بعمر في قولهم حمام عمر هو عمر بن سعد فأضاف حمام إلى ضميره و لكننا لم نجد مكانا يسمى حمام عمر و يمكن كونه حمام أعين فصحف أعينعمر ففي معجم البلدان حمام أعين بالكوفه ذكره في الأخبار مشهور منسوب إلى أعين مولى سعد بن أبي وقاص اه.

نعم و لا خير فى العيش بعده فقال له المختار صدقت و إنك لا تعيش بعده فأمر به فقتل و إذا رأسه مع رأس أبيه. و قال المختار هذا بالحسين و هذا بعلى بن الحسين و لا سواء و الله لو قتلت به ثلاثه أرباع قريش ما وفوا أنمله من أنامله.

ثم بعث المختار برأسى عمر بن سعد و ابنه إلى محمد بن الحنفية و كتب إليه يعلمه أنه قد قتل من قدر عليه و أنه فى طلب الباقيين ممن حضر قتل الحسين ع فبينما محمد بن الحنفية جالس مع أصحابه و هو يتعتب على المختار فما تم كلامه إلا و الرأسان عنده فخر ساجدا شكرا لله تعالى ثم رفع رأسه و بسط كفيه و قال اللهم لا تنس هذا اليوم للمختار و اجزه عن أهل بيت نبيك محمد خير الجزاء فو الله ما على المختار بعد هذا من عتب.

ما جرى لمره بن منقذ قاتل

على بن الحسين ع

و بعث المختار عبد الله بن كامل إلى مره بن منقذ قاتل على بن الحسين ع و كان شجاعا فأتاه ابن كامل بخيله فأحاط بداره فخرج إليهم و بيده الرمح و هو على فرس جواد فطعن رجلا من أصحاب المختار فصرعه و لم يضره و ضربه ابن كامل بالسيف فاتقاها بيده اليسرى فأسرع السيف فيها و عدا به الفرس فأفلت و هرب إلى البصرة إلى مصعب بن الزبير و شلت يده بعد ذلك.

قتل زيد بن رقاد قاتل

عبد الله بن مسلم

و بعث المختار عبد الله بن كامل إلى زيد بن رقاد قاتل عبد الله بن مسلم بن عقيل الذى رماه بسهم و هو واضح كفه على جبهته فسمرها فلم يستطع تحريكها ثم رماه بسهم فقتله و جاءه و هو ميت فترع السهم من جوفه و جعل ينضنض السهم الذى فى جبهته حتى نزع و بقى النصل فى جبهته لم يقدر على نزع فأحاط ابن كامل بداره و اقتحم الرجال عليه الدار فخرج إليهم بالسيف و كان شجاعا فقال ابن كامل لا تضربوه بسيف و لا تطعنوه برمح و لكن ارموه بالنبل و ارجموه بالحجاره ففعلوا ذلك به فسقط فأحرقوه حيا.

قتل بجدل بن سليم الكلبى الذى

أخذ خاتم الحسين ع

و قطع إصبعه مع الخاتم

و أتى المختار ببجدل بن سليم الكلبى و عرفوه أنه أخذ خاتم الحسين ع و قطع إصبعه فأمر بقطع يديه و رجله فلم يزل ينزف الدم حتى مات.

قتل الذين أكلوا من لحوم

و كان شمر بن ذى الجوشن لعنه الله نهب من الإبل التى كانت مع الحسين ع فلما قدم الكوفه نحرها و قسم لحومها على قوم من أهل الكوفه فأمر المختار فاحصوا كل دار دخلها ذلك اللحم فقتل أهلها و هدمها و لم يزل المختار يتتبع قتله الحسين ع حتى قتل منهم خلقا كثيرا و قتلت العبيد موالىها الذين شركوا فى قتل الحسين ع و جاءوا إلى المختار فأعتقهم و كان العبد يسعى بمولاه أنه ممن شرك فى قتل الحسين ع فقتله المختار حتى أن العبد كان يقول لسيدة احملنى على عنقك فيحمله و يدلى رجله على صدره إهانه له لخوفه من سعائته به إلى المختار بأنه من قتله الحسين ع.

قتل عمرو

ابن صبيح

و طلب المختار عمرو بن صبيح و كان يقول لقد طعنت فيهم يعنى فى أصحاب الحسين ع و جرحت و ما قتلت منهم أحدا فأتوه ليلا و هو على سطحه بعد ما هدأت العيون و سيفه تحت رأسه فأخذوه و أخذوا سيفه فجىء به إلى المختار فحبسه فلما أصبح أذن للناس فدخلوا و جىء به و هو مقيد فقال المختار على بالرماح فأتى بها فقال اطعنوه حتى يموت فطعن بالرماح حتى مات.

قتل قيس بن الأشعث بن قيس الذى

أخذ قطيفه الحسين (ع)

قال أبو حنيفة الدينورى فى كتاب الأخبار الطوال أن قيس بن الأشعث الذى أخذ قطيفه الحسين ع حين قتل فكان يسمى قيس القطيفه أنف من أن يأتى البصره فيشمت به أهلها فاتى الكوفه و استجار بعبد الله بن كامل و هو من أخص أصحاب المختار فأقبل ابن كامل إلى المختار و أخبره بأنه استجار به و أجاره فسكت المختار و شغله بالحديث ثم قال أرنى خاتمك فناوله إياه فجعله فى إصبعه ثم دعا أبا عمره فدفع إليه الخاتم و قال له سرا أن ينطلق إلى امرأه عبد الله بن كامل فيقول لها هذا خاتم بعلك علامه لتدخلينى إلى قيس بن الأشعث فأنى أريد مناظرته فيما فيه خلاصه من المختار فأدخلته إليه فانتضى سيفه فضرب عنقه و أخذ رأسه فاتى به المختار و ألقاه بين يديه فقال المختار هذا بقطيفه الحسين ع فاسترجع ابن كامل و قال للمختار قتلت جارى فقال له المختار لله أبوك اسكت أ تستحل أن تجير قتله ابن بنت نبيك.

قتل سنان بن أنس النخعى

و طلب المختار ابن أنس النخعى فوجده قد هرب إلى البصره فهدم داره ثم خرج من البصره نحو القادسيه و كان عليه عيون فأخبروا المختار فأرسل إليه فأخذه بين العذيب و القادسيه فقطع أنامله ثم قطع يديه و رجله و أغلى له زيتا فى قدر و رماه فيها.

ذكر الذين هربوا من المختار فهدم

دورهم من قتله الحسين (ع)

و كان محمد بن الأشعث بن قيس فى قرية له إلى جنب القادسيه فبعث المختار إليه حوشبا فى مائه فخرج حتى أتى قصره فأحاط به و هرب محمد من القصر و هم لا يعلمون به فلحق بمصعب ثم دخلوا القصر فوجدوه قد هرب فرجعوا إلى المختار فأخبروه فأمر بهدم داره و قصره و أخذ ما فيها و بنى بلبن داره و طينها دار حجر بن عدى الكندى و كان زياد بن سميّه قد هدمها و طلب المختار أيضا عبد الله بن عروه الخثعمى الذى كان يقول رميت فيهم يعنى فى أصحاب الحسين ع باثنى عشر سهما فهرب و لحق بمصعب بن الزبير

ص: ١٨٤

فهدم المختار داره و طلب المختار عبد الله بن عقبه الغنوى قاتل أبى بكر بن الحسن بن على بن أبى طالب ع فوجده قد هرب إلى الجزيره فهدم داره و بلغ المختار أن شبت بن ربيعى فى أناس من أشراف الكوفه قد أخذوا طريق البصره فأرسل خيلا فى طلبهم فقاتلوها ثم انهزموا و كان أسماء بن خارجة الفزارى ممن سعى فى قتل مسلم بن عقيل فقال المختار يوما أما و رب السماء و رب الضياء لتنزلن نار من السماء دهماء حراء سمحاء تحرق دار أسماء فبلغ ذلك أسماء فقال سجع بى أبو إسحاق ليس هاهنا مقام بعد هذا و كان المختار يستعمل السجع فى كلامه يذهب فى ذلك مذهب الكهان و خرج أسماء من داره هاربا إلى البادية فهدم داره و دور بنى عمه (و هرب) أشراف أهل الكوفه و الوجوه فلحقوا بمصعب بن الزبير بالبصره.

قتل عبيد الله بن زياد

و لما فرغ المختار من قتال الذين خالفوه من أهل الكوفه بعد رجوع إبراهيم بن الأشتر بقى إبراهيم بن الأشتر بعد ذلك يومين ثم وجهه المختار لقتال عبيد الله بن زياد و أهل الشام فسار إبراهيم لثمان بقين من ذى الحجه سنه ست و ستين و بعث معه المختار وجوه أصحابه و فرسانهم و ذوى البصائر منهم ممن قد شهدوا الحروب و جربوها قال الشيخ رحمه الله فى الأمالى أنه خرج فى تسعه آلاف و قيل فى اثنى عشر ألفا، و قال ابن نما أنه كان فى أقل من عشرين ألفا و خرج المختار مع إبراهيم يشيعه و أنشا المختار يقول:

أما و رب المرسلات عرفا لقتلن من بعد صف صفا

و بعد ألف قاسطين ألفا أنا و حق المرسلات عرفا

حقا و حق العاصفات عصفا لنعسفن من بغانا عسفا

حتى نسوم القوم منا خسفا زحفا إليهم لأنمل المزحفا

حتى نلاقى بعد صف صفا و بعد ألف قاسطين ألفا

نكشفهم لدى الهيحاء كشفا

ثم إن المختار ودع إبراهيم و قال له خذ عنى ثلاثا خف الله عز و جل فى سر أمرك و علانيتك و عجل السير و إذا لقيت عدوك فعجل القتال ساعه تلقاهم ليلا كان أو نهارا ثم رجع المختار و سار إبراهيم يجد السير ليلقى ابن زياد قبل أن يدخل أرض العراق و كان ابن زياد قد سار فى عسكر عظيم من الشام حتى وصل إلى الموصل و ملكها فسار إبراهيم حتى وصل إلى أرض الموصل و جعل لا- يسير إلا- على تعبیه حتى وصل إلى نهر الخازر فنزل قريه يقال لها باريثا بينها و بين الموصل خمسه فراسخ و جاء ابن زياد حتى نزل قريبا منهم على شاطئ نهر الخازر فى ثلاثين ألفا على روايه سبط ابن الجوزى و على روايه ابن نما أنهم كانوا ثلاثه و ثمانين ألفا و أرسل رجل من رؤساء أصحاب ابن زياد يسمى عمير السلمى إلى ابن الأشتر أنى أريد ملاقاتك الليله و كانت عشيره عمير هذا حاقده على بنى مروان من أجل بعض الوقائع فاتى عمير إلى ابن الأشتر و معه رجل يسمى فرات بن سالم و كانا يمران بمسالح أهل الشام فيقولون لهما ما أنتما فيقولان طليعه للأمير الحصين بن نمير فأتيا إبراهيم و

قد أوقد النيران و هو قائم يعبى أصحابه و عليه قميص أصفر هروى و ملاءه مورده متوشحا بها متقلدا سيفه فدنا منه عمير فصار خلفه و احتضنه من ورائه فلم يعبا به إبراهيم و لا تحلحل عن موضعه غير أنه أمال رأسه و قال من هذا قال أنا عمير فقال أجلس حتى أفرغ فجلس فقال عمير لصاحبه هل رأيت رجلا- أربط جاشا و أشد قلبا منه تراه تحلحل من مكانه أو أكثرت بى و أنا محتضنه من خلفه فقال صاحبه ما رأيت مثله ثم بايعه عمير و أخبره أنه على ميسره ابن زياد و وعده أن ينهزم بالناس عند الحرب بعد أن اختبره إبراهيم و عرف نصحه ثم انصرف عمير، و بث ابن الأشتر الحرس تلك الليلة و لم يدخل عينه النوم فلما كان وقت السحر الأول عبا أصحابه و كتب كتائبه و أمر أمراءه فلما انفجر الفجر صلى بأصحابه صلاه الصبح وقت الغلس ثم خرج بهم فصفهم و الحق كل أمير بمكانه و نزل و هو يمشى و قال للناس ازحفوا فرحفوا و جعل يحرضهم و يمينهم الظفر و سار بهم رويدا حتى أشرف على تل عظيم مشرف على أهل الشام و إذا هم لم يتحرك منهم واحد بعد فأرسل إبراهيم فارسا من أصحابه يأتيه بخبرهم فلم يلبث إلا يسيرا حتى عاد إليه و قال له قد خرج القوم على دهش و فشل لقينى رجل منهم و ليس له كلام إلا يا شيعة أبى تراب يا شيعة المختار الكذاب فقلت ما بيننا و بينكم أجل من الشتم و دعا ابن الأشتر بفرس له فركبه ثم مر بأصحاب الرايات كلها فكلما مر على رايه وقف عليها ثم قال يا أنصار الدين و شيعة الحق هذا عبيد الله بن مرجانه قاتل الحسين بن على، بن [ابن] فاطمه بنت رسول الله ص حال بينه و بين بناته و نسائه و شيعته و بين ماء الفرات أن يشربوا منه و هم ينظرون إليه و منعه من الذهاب فى الأرض العريضة حتى قتله و قتل أهل بيته فو الله ما عمل فرعون بنجباء بنى إسرائيل ما عمل ابن مرجانه بأهل بيت رسول الله (ص) الذين أذهب الله عنهم الرجس و طهرهم تطهيرا فو الله أنى لأرجو أن يشفى الله صدوركم بسفك دمه على أيديكم فقد علم الله أنكم خرجتم غضبا لأهل بيت نبيكم فسار فيما بين الميمنه و الميسره و سار فى الناس كلهم يرغبهم فى الجهاد و يحرضهم على القتال ثم رجع إلى موضعه، و تقابل الجمعان فخرج من عسكر ابن زياد رجل يقال له ابن ضبعان الكلبي و نادى يا شيعة المختار الكذاب يا شيعة ابن الأشتر المرتاب و جعل يرتجز و يقول:

أنا ابن ضبعان الكريم المفضل من عصبه يبرون من دين على

كذاك كانوا فى الزمان الأول

فخرج إليه الأحوص بن شداد الهمداني و هو يقول: (1)

أنا ابن شداد على دين على لست لعثمان بن أروى بولى

لأصلين اليوم فيمن يصطلى بحر نار الحرب حتى تنجلي

فقال للشامى ما أسمك فقال منازل الأبطال قال له الأحوص و أنا مقرب الآجال ثم حمل الأحوص عليه و ضربه فسقط قتيلًا ثم نادى هل من مبارز فخرج إليه داود الدمشقى و هو يقول:

أنا ابن من قاتل فى صفينا قتال قرن لم يكن غيبنا

بل كان فيها بطلا حرونا مجربا لدى الوغى مكينا

فأجابه الأحوص يقول:

يا ابن الذى قاتل فى صفينا و لم يكن فى دينه غبينا

كذبت قد كنت بها مغبونا مذذبنا فى أمره مفتونا

لا يعرف الحق و لا اليقينا بؤسا له لقد قضى ملعونا

ثم التقيا فضربه الأحوص فقتله ثم عاد إلى صفه، و زحف ابن زياد

ص: ١٨٥

١- قد تقدم أن رفاعه بن شداد ارتجز بهذه الأبيات بعينها سوى قوله فى البيت الأخير حتى تنجلي فذكر بدلها غير مؤتلى و الله أعلم لأيهما هى

إلى ابن الأشر فلهما تدانى الصفان حمل الحصين ابن نمير فى ميمنه أهل الشام على ميسره إبراهيم و عليها على ابن مالك الجثمى فثبت له هو بنفسه فقتل فاخذ رايته ولده قره بن على فقتل فى رجال من أهل البأس و انهزمت ميسره إبراهيم فاخذ الرايه عبد الله بن ورقاء فاستقبل أهل الميسره حين انهزموا فقال إلى يا شرطه الله فاقبل إليه أكثرهم فقال هذا أميركم يقا تل ابن زياد ارجعوا بنا إليه فرجعوا فإذا إبراهيم كاشف عن رأسه ينادى إلى يا شرطه الله أنا ابن الأشر أن خير فراركم كراركم ليس مسيئا من اعتب فرجع إليه أصحابه و حملت ميمنه إبراهيم على ميسره ابن زياد و هم يرجون أن ينهزم عمير صاحب ميسره ابن زياد كما وعدهم فقاتلهم عمير قتالا شديدا و انف من الفرار فلما رأى ذلك إبراهيم قال لأصحابه اقصدوا هذا السواد الأعظم فو الله لئن هزمناه لا نجفل من ترونه يمينه و يسره انجفال الطير إذا ذعرتة فمشى أصحابه إليهم فتطاعنوا بالرماح ثم تضاربوا بالسيوف و العمد و كان يسمع ضرب الحديد على الحديد كأصوات القصار و جعل إبراهيم يحمل على عسكر ابن زياد و يضرب فيهم بسيفه و هو يقول:

قد علمت مذحج علما لا خطل أنى إذا القرن لقينى لا و كل

و لا جزوع عندها و لا نكل أروع مقداما إذا النكس فشل

اضرب فى القوم إذا جاء الأجل و اعتلى رأس الطرماع البطل

بالذكر البتار حتى ينجدل

و كان إبراهيم يقول لصاحب رايته انغمس برايتك فيهم فيقول لا أقدر على التقدم فيقول له إبراهيم بلى فيتقدم فإذا تقدم شد إبراهيم عليهم بسيفه فلا يضرب رجلا إلا صرعه و جعل إبراهيم يطرد الرجال بين يديه كالمعزى و حمل أصحابه حملة رجل واحد و اشتد القتال حتى صلوا صلاه الظهر بالتكبير و الإيماء و قتل من الفريقين قتلى كثيره و انهزم أصحاب ابن زياد، و كان أول من أن انهزم عمير الذى وعد إبراهيم أن ينهزم كما تقدم و إنما قاتل أولا حتى يكون معذورا و حمل إبراهيم على عبيد الله بن زياد و هو لا يعرفه فضربه إبراهيم ضربه قده بها نصفين و ذهبت رجلاه فى المشرق و يدها فى المغرب و عجل الله بروحه إلى النار، فلما انهزم أصحاب ابن زياد قال إبراهيم انى قتلت رجلا تحت رايه منفردة على شاطئ نهر الخازر فالتمسوه فانى شممت منه رائحه المسك شرقت يدها و غربت رجلاه فطلبوه فإذا هو ابن زياد قتيلا بضربه إبراهيم فقد قدته نصفين فذهبت رجلاه فى المشرق و يدها فى المغرب كما قال إبراهيم فاحتزوا رأسه و أخذوه و احرقوا جثته.

و كانوا قد احتفظوا بجسده طول الليل فلما أصبحوا عرفه مهران مولى زياد فلما رآه إبراهيم قال الحمد لله الذى أجرى قتله على يدى (و فى روايه) أن إبراهيم رحمه الله صلبه منكوسا، و حمل شريك التغلبى على الحصين بن نمير و هو يظنه عبيد الله بن زياد فاعتق كل واحد منهما صاحبه فنادى التغلبى اقتلوني و ابن الزانية فقتلوا الحصين و كان من قتله الحسين ع، و قيل أن الحصين خرج و هو يقول:

يا قاده الكوفه أهل المنكر و شيعه المختار و ابن الأشر

هل فيكم قرم كريم العنصر مهذب فى قومه بمفخر

يبرز نحوى قاصدا لا يمتري

فخرج إليه شريك التغلبي و هو يقول:

يا قاتل الشيخ الكريم الأزهر بكر بلا يوم التقاء العسكر

أعنى حسينا ذا الثنا و المفخر و ابن النبي الطاهر المطهر

و ابن على البطل المظفر هذا فخذها من هزبر قسور

ضربه قرم ربي مضرى

فالتقيا بضربتين و جدله التغلبي سريعا، و قتل شرحبيل ابن ذى الكلاع الحميرى من رؤساء أهل الشام و لما انهزم أصحاب ابن زياد تبعهم أصحاب إبراهيم فكان من غرق منهم أكثر ممن قتل و انتهبوا عسكرهم و كان فيه من كل شىء، و أرسل إبراهيم البشاره إلى المختار و هو بالمدائن فكاد المختار يطير فرحا، و كانت الوقعه يوم عاشوراء سنه سبع و ستين فى اليوم الذى قتل فيه الحسين ع و لم يقتل من أهل الشام بعد صفين مثلما قتل فى هذه الوقعه (قال ابن نما رحمه الله تعالى) و جعلوا يعدون القتلى بالقصب يضعون عند كل قتيل قصبه فكانوا سبعين ألفا، و فرق إبراهيم عماله على بلاد الموصل و أقام هو بالموصل و قال سراقه بن مرداس البارقى يمدح إبراهيم بن الأشتر و أصحابه فى قتلهم لعبيد الله بن زياد:

أناكم غلام من عرائين مذحج جرى على الأعداء غير نكول

فيا ابن زياد بؤ بأعظم هالكك (1) و ذق حد ماضى الشفرتين صقيل

ضربناك بالعضب الحسام بحده إذا ما أبانا قاتلا بقتيل

جزى الله خيرا شرطه الله أنهم شفوا من عبيد الله أمس غليلي

و قال أبو السفاح الزبيدى فى ذلك أيضا (2):

أناكم غلام من عرائين مذحج جرى على الأعداء غير نكول

أتاه عبيد الله فى شر عصبه من الشام لما أن رضوا بقليل

فلما التقى الجمعان فى حومه الوغى و للموت فيهم ثم جر ذيول

فأصبحت قد ودعت هندا و أصبحت مولهه ما وجدها بقليل

و أخلق بهند أن تساق سبيه لها من أبى إسحاق شر حليل

تولى عبید الله خوفا من الردى و خشیه ماضى الشفرتین صقیل

جزى الله خیرا شرطه الله أنهم شفوا بعبید الله کل غلیل

یعنی بقوله هند بنت أسماء بن خارجة زوجة عبید الله بن زیاد و كانت معه فلما قتل حملها عتبه أخوها إلى الكوفه و أبو إسحاق هو المختار.

و قال عبید الله بن الزبیر الأسدی بفتح الزای و قیل عبد الله بن عمرو الساعدی یمدح إبراهیم أيضا و یندر هذه الوقعه:

الله أعطاک المهابه و التقى و أحل بیتک فی العدید الأكثر

و أقر عینک یوم وقعه خازر و الخیل تعثر بالقنا المتکسر

من ظالمین کفنتهم آثامهم ترکوا لعافیه و طیر حسر

(٣) ما کان اجراًهم جزاهم ربهم شر الجزاء علی ارتکاب المنکرل.

ص: ١٨٦

١- (مالک خ ل).

٢- هكذا ذکره ابن نما رحمه الله تعالى و لا یخفى أن فیها بعض آیات سراقه و لعله توهم من الرواه.

٣- لحاجله و طیرا عشر خ ل.

و قال يزيد بن المفرغ في قتل ابن زياد:

إن المنايا إذا مازرن طاغيه هتكن أستار حجاب و أبواب

(١) أقول بعدا و سحقا عند مصرعه لابن الخبيثه و ابن الكودن(٢) الكابى

لا تقبل الأرض موتاهم إذا قبروا و كيف تقبل رجسا بين أثواب

إن الذى عاش غدارا بذمته و مات هزلا قتيل الله بالزباب

ما شق جيب و لا ناحتك نائحه و لا بكتك جياذ عند أسلاب

و قال عمير السلمى الذى كان على ميسره ابن زياد يذم جيش ابن زياد:

و ما كان جيش يجمع الخمر و الزنا محلا إذا لاقى العدو لينصرا

و أنفذ إبراهيم برأس عبيد الله بن زياد و رؤوس قواده و فيها رأس الحصين بن نمير إلى المختار و فى آذانهم رقاع فيها اسماءهم فقدموا عليه و هو يتغدى فحمد الله على الظفر فلما فرغ من الغداء قام فوطئ وجه ابن زياد بنعله ثم رمى بها إلى غلامه و قال اغسلها فانى وضعتها على وجه نجس كافر، و ألقيت الرؤوس فى القصر بين يديه فألقاها فى المكان الذى وضع فيه رأس الحسين ع و رؤوس أصحابه و نصب المختار رأس ابن زياد فى المكان الذى نصب فيه رأس الحسين ع ثم ألقاه فى اليوم الثانى فى الرحبه من الرؤوس، و لما وضع رأس ابن زياد أمام المختار جاءت حيه دقيقه فتخللت الرؤوس حتى دخلت فى فم عبيد الله بن زياد ثم خرجت من منخره و دخلت فى منخره و خرجت من فيه فعلت هذا مرارا فقال المختار دعوها دعوها.

قال ابن الأثير أخرج هذا الترمذى فى جامعه، و عن أبى الطفيل عامر بن وائله قال وضعت الرؤوس عند السده بالكوفه عليها ثوب أبيض فكشفنا عنها الثوب و حيه تتغلغل فى رأس عبيد الله و نصبت الرؤوس فى الرحبه قال عامر و رأيت الحيه تدخل فى منافذ رأسه و هو مصلوب مرارا، قال سبط ابن الجوزى و فى روايه فعلت ذلك ثلاثه أيام، ثم إن المختار بعث برأس عبيد الله بن زياد و رأس الحصين بن نمير و رأس شراحيل بن ذى الكلاع إلى مكه إلى محمد بن الحنفية و معها ثلاثون ألف دينار و كتب إليه، إنى بعثت أنصاركم و شيعتكم إلى عدوكم فخرجوا محتسبين آسفين فقتلوهم.

فالحمد لله الذى أدرك لكم الثار و أهلكتهم فى كل فج عميق و شفى الله صدور قوم مؤمنين فلما قدمت عليه خر ساجدا لله و دعا للمختار و قال جزاه الله خير الجزاء فقد أدرك لنا ثارنا و وجب حقه على كل من ولده عبد المطلب بن هاشم و دعا لابن الأشر أيضا، و بعث برأس عبيد الله بن زياد و رأس آخر معه إلى على بن الحسين ع و كان يومئذ بمكه فدخل عليه و هو يتغدى فسجد شكرا لله و قال الحمد لله الذى أدرك لى ثارى من عدوى و جزى الله المختار خيرا أدخلت على عبيد الله بن زياد و هو يتغدى و رأس أبى بين يديه فقلت اللهم لا تمتنى حتى ترينى رأس ابن زياد، و

عن الصادق ع أنه قال ما اكتحلت هاشميه و لا اختصبت و لا رثى فى دار هاشمى دخان خمس سنين حتى قتل عبيد الله بن زياد،

و عن فاطمه بنت علي أمير المؤمنين ع أنها قالت ما تحنات امرأه منا و لا أجالت في عينها مرودا و لا امتشطت حتى بعث المختار برأس عبيد الله بن زياد.

نهاية المختار

لما هرب أشراف الكوفة من وقعه السبيع أتى جماعه منهم إلى مصعب فأتاه شبت بن ربيعي على بغله قد قطع ذنبها و طرف أذنها و شق قباؤه و هو ينادى: يا غزوتاه! فرجع خبره إلى مصعب، فقال: هذا شبت بن ربيعي، فادخل عليه، فأتاه أشراف الكوفة فدخلوا عليه و أخبروه بما اجتمعوا عليه و سألوه النصر لهم و المسير إلى المختار معهم.

و قدم عليه محمد بن الأشعث أيضا و استحثه على المسير، فأدناه مصعب و أكرمه لشرفه، و قال لأهل الكوفة حين أكثروا عليه: لا أسير حتى ياتيني المهلب بن أبي صفرة. و كتب إليه، و هو عامله على فارس، يستدعيه ليشهد معهم قتال المختار، فأبطأ المهلب و اعتل بشيء من الخراج لكراهيه الخروج، فأمر مصعب محمد بن الأشعث أن ياتي المهلب يستحثه، فأتاه محمد و معه كتاب مصعب، فلما قرأه قال له: أ ما وجد مصعب بريدا غيرك؟ فقال: ما أنا بريد لأحد، غير أن نساءنا و أبناءنا و حرمانا غلبنا عليهم عبيدنا.

فاقبل المهلب معه بجموع كثيره و أموال عظيمه فقدم البصره، و أمر مصعب بالعسكر عند الجسر الأكبر، و أرسل عبد الرحمن بن مخنف إلى الكوفة فأمره أن يخرج إليه من قدر عليه و أن يثبط الناس عن المختار و يدعوهم إلى بيعه ابن الزبير سرا، ففعل، و دخل بيته مستترا، ثم سار مصعب فقدم أمامه عباد بن الحصين الحطمي التميمي، و بعث عمر بن عبيد الله بن معمر على ميمنته، و المهلب على ميسرته، و جعل مالك بن مسمع على بكر، و مالك بن المنذر على عبد القيس، و الأحنف بن قيس على تميم، و زياد بن عمرو العتكي على الأزدي، و قيس بن الهيثم على أهل العالیه.

و بلغ الخبر المختار فقام في أصحابه فأعلمهم ذلك و ندبهم إلى الخروج مع أحمر بن شميظ، فخرج و عسكر بحمام أعين، و دعا المختار رؤوس الأرباع الذين كانوا مع ابن الأشتر فبعثهم مع أحمر بن شميظ، فسار و على مقدمته ابن كامل الشاكري، فوصلوا إلى المذاو، و أتى مصعب فعسكر قريبا منه، و عبا كل واحد منهما جنده ثم تراحفا، فجعل ابن شميظ ابن كامل على ميمنته، و على الميسره عبد الله بن وهيب الجشمي، و جعل أبا عمره مولى عرينه على الموالي.

فجاء عبد الله بن وهيب الجشمي إلى ابن شميظ فقال له: إن الموالي و العبيد أولو خور(٣) عند المصدوقه، و إن معهم رجالا كثيرا على الخيل و أنت تمشي فمرهم فليمشوا معك فاني أتخوف أن يطيروا(٤) عليها و يسلموك. و كان هذا غشا منه للموالي لما كانوا لقوا منهم بالكوفة، فأحب إن كانت عليهم الهزيمة أن لا ينجو منهم أحد. فلم يتهمه ابن شميظ، ففعل ما أشار به، فنزل الموالي معه.

و جاء مصعب و قد جعل عباد بن الحصين على الخيل، فدنا عباد من أحمر و أصحابه و قال: إنا ندعوكم إلى كتاب الله و سنه رسوله و إلى بيعه المختار

-
- ١- هتكن عنه ستورا بعد أبواب خ ل.
 - ٢- الكودن الفرس الهجين أى غير العتيق.
 - ٣- جور.
 - ٤- يطر دوا.

و إلى أن نجعل هذا الأمر شورى فى آل الرسول. فرجع عباد فأخبر مصعبا، فقال له: ارجع فاحمل عليهم. فرجع و حمل على ابن شميظ و أصحابه، فلم ينزل منهم أحد، ثم انصرف إلى موقفه، و حمل المهلب على ابن كامل، فجال بعضهم فى بعض، فنزل ابن كامل فانصرف عنه المهلب، ثم قال المهلب لأصحابه: كروا عليهم كره صادق، فحملوا عليهم حملة منكره، فولوا، و صبر ابن كامل فى رجال من همدان ساعه ثم انهزم، و حمل عمر بن عبيد الله على عبد الله بن أنس، فصبر ساعه ثم انصرف، و حمل الناس جميعا على ابن شميظ، فقاتل حتى قتل، و نادوا: يا معشر بجيله و خثعم الصبر! فناداهم المهلب: الفرار اليوم أنجى لكم، علام تقتلون أنفسكم مع هذه العبيد؟ ثم قال: و الله ما أرى كثرة القتل اليوم إلا فى قومي.

و مالت الخيل على رجاله ابن شميظ فانهزمت، و بعث مصعب عبادا على الخيل، فقال: أيما أسير أخذته فاضرب عنقه. و سرح محمد بن الأشعث فى خيل عظيمه من أهل الكوفة فقال: دونكم ثاركم. فكانوا أشد على المنهزمين من أهل البصره لا يدركون منهزما إلا قتلوه، و لا يأخذون أسيرا فيعفون عنه، فلم ينج من ذلك الجيش إلا طائفه أصحاب الخيل، و أما الرجال فاييدوا إلا قليلا.

قال معاويه بن قره المزنى: انتهيت إلى رجل منهم فأدخلت السنان فى عينه فأخذت أخضخض عينه به. فقيل له: أ فعلت هذا؟ فقال: نعم، إنهم كانوا عندنا أحل دماء من الترك و الديلم. و كان معاويه هذا قاضى البصره.

فلما فرغ مصعب منهم أقبل حتى قطع من تلقاء واسط، و لم تكن بنيت بعد، فاخذ فى كسكر، ثم حمل الرجال و أثقالهم و الضعفاء فى السفن فأخذوا فى نهر خرشاد ثم خرجوا إلى نهر قوسان ثم خرجوا إلى الفرات.

و أتى المختار خبر الهزيمة و من قتل بها من فرسان أصحابه، فقال: ما من الموت بد، و ما من ميتة أحب إلى من أن أموت ميتة ابن شميظ. فعلموا أنه إن لم يبلغ ما يريد يقاتل حتى يقتل.

و لما بلغه أن مصعبا قد أقبل إليه فى البر و البحر سار حتى وصل السيلحين و نظر إلى مجتمع الأنهار: نهر الحيره و نهر السيلحين و نهر القادسيه و نهر يوسف، فسار الفرات فذهب ماؤها فى هذه الأنهار و بقيت سفن أهل البصره فى الطين، فلما رأوا ذلك خرجوا من السفن إلى ذلك السكر فأصلحوه و قصدوا الكوفه، و سار المختار إليهم فنزل حروراء و حال بينهم و بين الكوفه، و كان قد حصن القصر و المسجد و أدخل إليه عداه الحصار.

و أقبل مصعب و قد جعل على ميمنته المهلب، و على يسرته عمر بن عبيد الله، و على الخيل عباد بن الحصين، و جعل المختار على ميمنته سليم بن يزيد الكندى، و على يسرته سعيد بن منقذ الهمدانى، و على الخيل عمرو بن عبد الله النهدى، و على الرجاله مالك بن عبد الله النهدى. و أقبل محمد بن الأشعث فيمن هرب من أهل الكوفه فنزل بين مصعب و المختار. فلما رأى ذلك المختار بعث إلى كل جيش من أهل البصره رجلا من أصحابه، و تدانى الناس، فحمل سعيد بن منقذ على بكر و عبد القيس و هم فى ميمنه مصعب فاقتلوا قتالا شديدا، فأرسل مصعب إلى المهلب ليحمل على من يازئه، فقال: ما كنت لأجزر الأزد خشيه أهل الكوفه حتى أرى فرصتى. و بعث المختار إلى عبد الله بن جعده بن هبيرة المخزومى، فحمل على من يازئه، و هم أهل العاليه، فكشفهم، فانتهاوا إلى مصعب، فجتا مصعب على ركبته و برك الناس عنده فقاتلوا ساعه و تحاجزوا.

ثم إن المهلب حمل في أصحابه على من بإزائه فحطموا أصحاب المختار حطمه منكره فكشفوهم. وقال عبد الله بن عمرو النهدي، و كان ممن شهد صفين: اللهم إني على ما كنت عليه بصفين، اللهم أبرأ إليك من فعل هؤلاء، لأصحابه (حين انهزموا)، و أبرأ إليك من أنفس هؤلاء، يعنى أصحاب مصعب، ثم جالد بسيفه حين قتل.

و انقصف أصحاب المختار كأنهم أجمه قصب فيها نار، و حمل مالك بن عمرو النهدي، و هو على الرجاله، و معه نحو خمسين رجلا، و ذلك عند المساء، على أصحاب ابن الأشعث حملة منكره، فقتل ابن الأشعث و قتل عامه أصحابه.

و قاتل المختار على فم سكه شبت عامه ليلته و قاتل معه رجال من أهل البأس و قاتلت معه همدان أشد قتال و تفرق الناس عن المختار، فقال له من معه: أيها الأمير اذهب إلى القصر، فجاء حتى دخله.

فلما أصبح مصعب أقبل يسير فيمن معه نحو السبخه، ثم نزل السبخه فقطع عنهم الماء و الماده و قاتلهم المختار و أصحابه قتالا ضعيفا، و اجترأ الناس عليهم فكانوا إذا خرجوا رماهم الناس من فوق البيوت و صبوا عليهم الماء القذر، و كان أكثر معاشهم من النساء، تأتي المرأه متخفيه و معها القليل من الطعام و الشراب إلى أهلها. ففطن مصعب بالنساء فمنعهن، فاشتد على المختار و أصحابه العطش، و كانوا يشربون ماء البئر يعملون فيه العسل فكان ذلك ما يروى بعضهم.

ثم إن مصعبا أمر أصحابه فاقربوا من القصر و اشتد الحصار عليهم، فقال لهم المختار: ويحكم إن الحصار لا يزيدكم إلا ضعفا فانزلوا بنا فنقاتل حتى نقتل كراما إن نحن قتلنا، فو الله ما أنا بآيس إن صدقتموهم أن ينصركم الله. فضعفوا و لم يفعلوا. فقال لهم: أما أنا فو الله لا أعطى بيدي و لا أحكامهم في نفسي، و إذا خرجت فقتلت لم تزدادوا إلا ضعفا و ذلا، فان نزلتم على حكمهم و ثبت أعداؤكم فقتلوكم و بعضكم ينظر إلى بعض فتقولون: يا ليتنا أطعنا المختار، و لو أنكم خرجتم معي كنتم إن أخطاتم الظفر متم كراما.

فلما رأى عبد الله بن جعده بن هبيره ما عزم عليه المختار تدلى من القصر فلحق بناس من إخوانه فاخفى عندهم سرا. ثم إن المختار تطيب و تحنط و خرج من القصر في تسعه عشر رجلا، منهم السائب بن مالك الأشعري.

فلما خرج المختار قال السائب: ما ذا ترى؟ قال: ما ترى أنت، قال: ويحك يا أحمق إنما أنا رجل من العرب رأيت ابن الزبير قد وثب بالحجاز، و رأيت ابن نجده وثب باليمامة، و مروان بالشام، و كنت فيها كأحدهم، إلا أنني قد طلبت بثار أهل البيت إذ نامت عنه العرب، فقاتل على حسبك إن لم يكن لك نيه. فقال: إنا لله و إنا إليه راجعون، ما كنت أصنع أن أقاتل على حسبي. ثم تقدم المختار فقاتل حتى قتل.

فلما كان الغد من قتله دعاهم بحير بن عبد الله المسكى و من معه بالقصر إلى ما دعاهم المختار فأبوا عليه و أمكنوا أصحاب مصعب من أنفسهم و نزلوا على حكمه، فاخرجوهم مكتفين، فأراد إطلاق العرب و قتل الموالى، فأبى أصحابه عليه، فعرضوا عليه فأمر بقتلهم، و عرض عليه بحير المسكى، فقال لمصعب: الحمد لله الذى ابتلانا بالأسر و ابتلاك بان تعفو عنا، هما منزلتان: إحداهما رضاء الله، و الأخرى سخطه، من عفا عفا الله عنه و زاد عزاء، و من عاقب لم يأمن القصاص، يا ابن الزبير نحن أهل قبلكم و على ملتكم و لسنا تركا و لا-ديلما، فان خالفنا إخواننا من أهل مصرنا. فاما أن نكون أصبنا و أخطوا، و إما أن نكون أخطانا و أصابوا، فاقتلنا بيننا كما اقتتل أهل الشام بينهم ثم اجتمعوا، و كما اقتتل أهل البصره و اصطلحوا و اجتمعوا، و قد ملكتم فاسجحوا، و قد قدرتم فاعفوا. فما زال بهذا القول حتى رق لهم الناس و مصعب و أراد أن يخلى سبيلهم.

فقام عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فقال: أتخلى سبيلهم؟ اخترنا أو اخترهم. و قام محمد بن عبد الرحمن بن سعيد الهمداني فقال مثله، و قام أشراف الكوفه فقالوا مثلهما، فأمر بقتلهم، فقالوا له: يا ابن الزبير، لا تقتلنا و اجعلنا على مقدمتك إلى أهل الشام غدا، فما بكم عنا غنى، فان قتلنا لم نقتل حتى نضعفهم لكم، و إن ظفرنا بهم كان ذلك لكم. فأبى عليهم.

فقال بحير المسكى: لا تخلط دمي بدمائهم إذ عصوني. فقتلهم.

و قال مسافر بن سعيد بن نمران الناعطى: ما تقول يا ابن الزبير لربك غدا و قد قتلت أمه من المسلمين حكموك فى أنفسهم صبرا؟ اقتلوا منا بعده من قتلنا منكم، ففينا رجال لم يشهدوا موطننا من حربنا يوما واحدا، كانوا فى السواد و جبايه الخراج و حفظ الطرق. فلم يسمع منه و أمر بقتله.

و لما أراد قتلهم استشار مصعب الأحنف بن قيس، فقال: أرى أن تعفو، فان العفو أقرب للتقوى. فقال أشراف أهل الكوفه: اقتلهم، و ضجوا، فقتلهم، فلما قتلوا قال الأحنف: ما أدركتم بقتلهم ثارا، فليته لا يكون فى الآخره وبالا.

و بعث عائشه بنت طلحه امرأه مصعب إليه فى إطلاقهم، فوجدهم الرسول قد قتلوا.

ثم إن مصعبا دعا أم ثابت بنت سمره بن جندب امرأه المختار و عمره بنت النعمان بن بشير الأنصاريه امرأته الأخرى فأحضرهما و سألهما عن المختار. فقالت أم ثابت: نقول فيه بقولك أنت، فأطلقها، و قالت عمره:

رحمه الله، كان عبدا لله صالحا، فحبسها، و كتب إلى أخيه عبد الله بن الزبير: إنها تزعم أنه نبى، فأمره بقتلها، فقتلت ليلا بين الكوفه و الحيره، قتلها بعض الشرط ضربها ثلاث ضربات بالسيف و هى تقول: يا أبتاه! يا عترتاه! فرفع رجل يده فلطم القاتل و قال: يا ابن الزانيه عذبتنا! ثم تشحطت فماتت. فتعلق الشرطى بالرجل و حمله إلى مصعب، فقال: خلوه فقد رأى أمرا فظيعا.

و لما قتل المختار كان عمره سبعا و ستين سنه، و كان قتله لأربع عشره خلت من رمضان سنه سبع و ستين.

قيل: إن مصعبا لقى ابن عمر فسلم عليه و قال له: أنا ابن أخيك مصعب. فقال له ابن عمر: أنت القاتل سبعة آلاف من أهل القبله فى غداه واحده غير ما بدا لك. فقال مصعب: إنهم كانوا كفره فجره. فقال: و الله لو قتلت عدتهم غنما من تراث أبيك لكان ذلك سرفا.

و قال ابن الزبير لعبد الله بن عباس: أ لم يبلغك قتل الكذاب؟ قال:

و من الكذاب؟ قال: ابن أبي عبيد. قال: قد بلغني قتل المختار. قال:

كأنك أنكرت تسميته كذابا و متوجع له. قال: ذاك رجل قتل قتلنا و طلب ثارنا و شفى غليل صدورنا و ليس جزاؤه منا الشتم و الشماته(١).

نادر شاه الافشارى.

اشاره

بعد انقضاء عهد الشاه عباس الصفوى الكبير ساءت سياسته خلفائه و أهملوا تدبير أمور مملكتهم و إدارتها، و ساروا سيره المستبدين المستكبرين، و بلغ الفساد و الانحلال الروحى فى بلاط الملك إلى حيث أصبح سقوط الصفويين أمرا متوقعا مسلما به.

أخذ المتمردون من كل ناحيه يقومون بحركات انفصاليه. و بلغ الجهل و فساد التريه بالناس إلى طريق الانحطاط و الفناء. و نسيت الفنون الحريه و التنظيم العسكرى و أهمل الجيش، حتى كانت سنه ١١٠٦ هـ (١٦٩٤ م)، و هى السنه التى اعتلى فيها الشاه سلطان حسين ابن الشاه سليمان الصفوى عرش المملكه، سنه إعلان اضمحلال السلالة الصفويه.

فقد عمت الفتن أنحاء الدوله و عدم الناس الأمان و الراحة، إذ كان هذا الشاه عاجزا غير كفء للحكم. و فى عهده استولى الروس على كثير من إيلات الشمال و الشمال الغربى من إيران.

قال "الشوفاليه جان شاردان" السائح الفيلسوف الفرنسى فى مذكراته يصف أوضاع إيران فى تلك الحقبه:

"لن يتقدم الايرانيون خطوه عن مكانهم، لأنهم يرون أن الحياه الناعمه هى قبل كل شىء. لقد خسروا خصالهم الحريه و غرقوا فى اللذائذ و الشهوات، لا يرون لهم فائده فى التحركات العظيمة و اقتحام المصاعب و تجشم المشقات إلى غايه عليا. من أجل ذلك ما إن انقضت مده قليله و حلت سنه ١١١١ هـ حتى كانت قبائل "البلوش" فى "كرمان" و طوائف "الغلجائين" الأفاغنه فى "قندهار" و الملك محمود السيستانى فى خراسان و العثمانيون فى شمال إيران و شمالها الغربى و التركمان فى "جرجان" و شمالي خراسان و الروس فى "جیلان" يثيرون الفتن و يخلون بالأمن و يحكمون حكما مستقلا كل الاستقلال".

و فى تلك الحقبه بعث الإمبراطور الروسى "بطرس الأكبر" بعثه جاسوسيه برئاسه "أرتمى فولنسكى" إلى إيران بصوره تجار. ثم رفعت هذه البعثه إلى الإمبراطور تقريرا جاء فيه أن إيران أصبحت على شفا منحدر السقوط و الاضمحلال. و أخذوا الروس يثيرون عليها القبائل الكرجيه و الداغستانيه و اللزكيه.

كانت قبيله "الغلجائين" تسكن فى "قندهار" و نواحيها و قبيله

"الأبداليين" تسكن في "هرات" و نواحيها. و المدينتان تابعتان يومئذ لايران. و القبيلتان من أصل إيراني. و بينهما خصومات و حروب. و لكن كانتا كلتاهما تشغبان على الحكومه المركزيه و ثوران عليها. و كان "أورنك زيب" أمبراطور الهند المغولي يساعدهما و يساندهما على إيران.

و في تلك السنه بعث الشاه حسين الصفوى حاكما حازما إلى "فندهار". و هو من أصل كرجى اسمه "جرجين خان". يقول المؤرخ الانكليزى العقيد "السير جان مالكم" سفير انكلترا فى بلاط "فتح على شاه" القاجارى: "كان هذا الحاكم من أشجع رؤساء إيران و أحسنهم تدبيرا".

و قد استطاع أن يضبط الأمور فيها، و اعتقل رأس الفتنة "مير ويس" أحد رؤساء "الغلجائين" و بعث به إلى أصفهان العاصمه فسجنه الشاه الصفوى(١). و لكنه استطاع أن يخدع الشاه الأبله فاطلقه، و أذن له بالسفر إلى مكه. و هناك حصل من علمائها على فتاوى و رسائل بان السنين يجوز لهم عند الضروره أن يشهروا السيف على الشيعة دفاعا عن أنفسهم. ثم عاد إلى أصفهان. و استطاع أن يحمل الشاه على الاذن له بالعوده إلى "فندهار".

و هناك دبر مكيدته قتل فيها حاكمها "جرجين خان"، ثم أطلع أهالى "فندهار" على فتوى علماء مكه فآثارهم و هجم فى سنه ١١١٢ هـ على مقر الحاميه الإيرانيه و الكرجيه فقتل فريقا منهم و طرد الباقين من "فندهار" و نصب نفسه حاكما عليها. و قام "الأبداليون" بعمل مشابه فى "هرات" و تسلطوا عليها. و كان أمبراطور الهند يساعد القبيلتين و يساندهما فى هذه الثوره، إذ كان يطمع فى ضم "فندهار" و غيرها إلى أملاكه.

و فى سنه ١١٣١ هـ احتل إمام مسقط جزائر البحرين. و تسلط طوائف "البلوش" على إيالتى "كرمان" و "لار" و هاجموا "بندر عباس" و خربوها. و عمت الفتنة "کردستان" و "لرستان".

و فى سنه ١١٣٤ هـ ثار إقليم "شيروان" (شمال إيران الغربى)، و ساعدت الدوله العثمانيه هذه الثوره. و تهيأت روسيا لتحقيق مطامع قديمه لها فى جنوب بلادها.

و فى ١٢ من المحرم سنه ١١٣٥ هـ كان محمود الأفغانى رئيس قبيله "غلجائى" يحاصر أصفهان عاصمه المملكه الإيرانيه و يضطر الشاه حسين الصفوى الضعيف العاجز إلى التسليم و أن ينزع التاج عن رأسه و يضعه بيده على رأس الغازى الأفغانى. ثم حبسه هذا فى داخل القصر و ظل مسجوناً فيه سبع سنوات، ثم قتله الأفاغنه بعدها.

و روى "السير جان مالكم" أن محمودا الغلجائى هذا ارتكب بعد احتلاله أصفهان، و جلوسه على عرش الصفويين فظائع رهيبه فى أصفهان و غيرها، من قتل و نهب و تخريب. من ذلك قتله مائه و أربعه عشر رجلا من رؤساء القزلباش. و قتل بيده هو و واحد أو اثنين من خواصه أبناء الشاه، و هم واحد و ثلاثون أميرا فى إحدى ساحات القصر الملكى، و غير هؤلاء كثير، بلا ذنب منهم يحملهم على ذلك. بل إنه قبض على مائتى طفل صغير و قتلهم خارج المدينه. و نجا من هذه المذبحه "طهماسب ميرزا" ولى العهد إذ كان فى "قزوین". فلما بلغه خبر خلع أبيه أعلن توليه منصبه فى ١٤ صفر سنه ١١٣٥ هـ. و كان محمود الأفغانى فى أثناء ذلك يواصل احتلال المدن الإيرانيه و يطارد الشاه الجديد.

و فى سنه ١١٣٦ هـ استولت روسيا على مدن القفقاس و "داغستان" و "طوالش" و "قراجه داغ" و "أردبيل" و "دربند" و "أنزلى" (بندر بهلوى) و "كرجستان" و "تفليس" و "باكو" و الايالات الساحليه على بحر قزوين، و هى "جيلان" و "تنكابن" و "مازندران".

و احتل العثمانيون "إيروان" و القسم الغربى من القفقاس و "تبريز" و "أروميه" و "کردستان" و "كرمانشاهان" و "لورستان" و "خوزستان" إلى شاطئ الخليج الفارسى.

و فى سنه ١١٣٨ هـ عقدت الدوله العثمانيه و الدوله الروسيه معاهده بينهما بان تكون ناحيه التركمان و سواحل غربى "مازندران" على بحر الخزر إلى ملتقى نهر "كر" و نهر "أرس" للدوله الروسيه. و تكون "كرجستان" و "كنجه" و "أذربيجان" و "کردستان" و "كرمانشاهان" و العراق و "خوزستان" للدوله العثمانيه.

و فى أوائل سنه ١١٤٢ هـ، فى أيام حكم الشاه "طهماسب" الثانى ابن الشاه حسين، كان العثمانيون قد استولوا على كل "كرجستان" و "أرمينيا" و "أذربيجان" و قسم من إياله "داغستان" و قسم من إياله "شيران" (القسم الآخر من هاتين الايالتين استولى عليه الروس) و أكثر عراق العجم و كل كردستان و "همدان" و "كرمانشاهان".

و فى سنه ١١٤٤ هـ. عقد الشاه "طهماسب" معاهده بينه و بين العثمانيون تقضى بان تكون "كنجه" (جنوب داغستان) و "تفليس" و "إيروان" و "نخجوان" (أذربيجان) و القسم الأكبر من إقليم "داغستان" و إقليم "شيران" (جنوبى داغستان غربى بحر الخزر) للعثمانيين.

و فى سنه ١١٤٥ هـ. عقد الشاه "طهماسب" معاهده بينه و بين روسيا تقضى بان تجلو روسيا عن كل الايالات التى تستولى عليها ما عدا النواحي الواقعه فى شمالى نهر "كر".

و إلى كل هذا كانت دسائس البلاطيين و الحكام لا تنفك تحيط بالشاه حسين ثم بخليفته الشاه "طهماسب" و تتلاعب به من كل جانب و يذهب ضحيتها المخلصون و الناصحون و يطلق العنان للخونه و الفاسدين.

و إلى ذلك كان قطاع الطرق و السلابون يعيشون بالأرض فسادا على هواهم، و غارات الأزابكه و التتر و غيرهم تتوالى على إيران.

مولد نادر شاه و أصله و نشأته

و فى ٢٨ من المحرم سنه ١١٠٠ هـ الموافق ٢٢ نوفمبر سنه ١٦٨٨ م، أى فى أيام تلك الفتن، ولد نادر شاه فى قريه "دستجرد" الواقعه فى الشمال الشرقى من إيران فى سهول "درجز" الخصبه، مشتى قبيله "فرقلو"، قبيله نادر شاه.

قال اللورد "جورج غورزن": "هذا الإقليم كان لا ينفك تستغرقه).

١- على أن بعض المؤرخين الأيرانيين يرى في جرجين خان حاكماً ظالماً، و ان الشاه أخطأ بإرسال حاكم غير مسلم إلى منطقته إسلاميه متشده (ح).

الفتن السياسيه و الحركات العسكريه، و يعد مكانا استراتيجيا مهما تتوالى فيه الأحداث حتى أصبحت حالته المعتاده هي الحرب و الغارات و الخصومات.

و قبيله "فرقلو"، قبيله نادر شاه، هي أحد فرعين كبيرين تنقسم إليها قبيله "أفشار" التركي، و كانت تقيم، مع قبائل أخرى من الأتراك، في الشمال الشرقي من إيران، ثم انتشروا في أكثر من ناحيه من نواحي تلك البلاد. و لكن الأرجح، بناء على قول بعض الثقات من المؤرخين، أن قبيله "أفشار" هذه تنتمي إلى "الأشكانيين" الأشداء الذين حكمت سلالتهم إيران من سنه ٢٥٠ قبل الميلاد إلى سنه ٢٢٦ بعد الميلاد، أي ما يقرب من خمسه قرون. و لكن اضطرار الافشاريين إلى معاشره الأتراك مدته طويله أنساهم لغتهم الأصلية فتكلموا بالتركيه.

و كانت ولاده هذا القائد العبقري في خيمه من خيام قبيله "فرقلو" هذه. و أبوه يدعى "إمام قلى"، رجل مغمور حامل الذكر، فقير شديد الفقر. و كان فراء على ما يظن. و سمى ابنه "ندر قلى" أو "نادر قلى" باسم جده. و لم يلبث الأب أن توفي بعد قليل من ولادته (١)، و عمر نادر أربع سنوات أو ست سنوات.

و كان لقبيله "أفشار" هذه مع غيرها من قبائل الترك الأخرى يد طولى في إقامه ملك الصفويين. انضموا إلى عسكر مؤسسه الشاه إسماعيل الأول الصفوى المعروفين باسم "قزلباش" و حاربوا معه و ساندوه في نشر المذهب الشيعى، و كانوا من أشد أنصار هذا المذهب.

و لما بلغ نادر السابعه عشر من عمره أسره الأزابكه في إحدى غاراتهم على تلك النواحي، و كانوا يغيرون عليها في كل سنه، و أسروا معه أمه، بعد أن أبلى في محاربتهم بلاء حسنا و خاطر بنفسه مظهرًا شجاعه خارقه.

و توفيت أمه في الأسر، و بقى هو فيه أربع سنوات استطاع بعدها أن يفر.

قاسى في مطلع شبابه فقراً كان يضطره إلى الاستدانه ليحصل على قوته الضرورى. و أحس، و هو في هذه السن، أن سلوك طريق أبيه في الحياه لا يتفق و علو همته و طاقاته، فسعى كثيرا إلى الالتحاق بخدمه "بابا على بك كوسه أحمد لو"، أحد رؤساء قبيله "أفشار" و حاكم "أبيورد" (خراسان) حتى تمكن من ذلك هو و أخ له اسمه إبراهيم في سنه ١١٢٢ هـ. فشارك المحاربين في قمع الفتن و المنازعات الكثيره التى كان يثيرها التركمان و الأكراد و الأزابكه و التتر و قبيلته هو، قبيله "أفشار" نفسها. فعرف بالاقدام و الشجاعه و تجلت مواهبه العسكريه الفائقه، و توالى انتصاراته على المغيرين و قطاع الطرق فأحبه "بابا على بك" و أكرمه و قربه إليه حين أنه زوجه بابنته.

و أخذ يوكل إليه مهمات الأمور من عسكريه و غير عسكريه فيقوم بها خير قيام. و بعث به أكثر من مره إلى مشهد إلى والى خراسان ليؤدى إليه رسائل و يقوم بمهمات مختلفه. و بعث به مره إلى العاصمه أصفهان إلى الشاه سلطان حسين الصفوى لمثل هذه الغايه.

و ترقى في خدمه رئيسه حتى وصل إلى درجه حاجب فى حاشيته.

و أعجب به كثير من فتيان القبيله فاحبوه و أخلصوا له الصداقه و النصره، و نظم منهم كتيبه مسلحه بقيادته أخذت تدفع المغيرين و الغزاه و لا سيما التركمان و الأزابكه و تنتصر عليهم فى غالب الأحيان. و ظل أربع سنوات متواليه لا يغتر عن الحرب و المقاومه حتى قطع دابر المعتدين فلم يجرءوا بعدها على غزو الأفشاريين. و انتشر صيته فى كل مكان و أصبح اسمه يبعث الرعب فى قلوب المغيرين من التركستانيين و الأزابكه.

و فى أعقاب هذه السنوات الأربع احتل بلده "كلات"، من بلاد خراسان، و استولى على قلعتها، و هى قلعه منيعه. و قصه ذلك هى أن حاكم تلك البلده كان من حساد نادر يخشى تفوقه و تقدمه فأراد اعتقاله بحيله، فطلب منه أن يلتحق هو و فرسانه بخدمته، ليتوصل بذلك إلى وضع يده عليه ثم اعتقاله. فلم يعتن نادر بطلبه و أمهله. فعاد و دعاه إلى وليمه.

فأجاب نادر دعوته و هو يسىء الظن به. و ذهب مع فرسانه إلى "كلات" و دخل إلى مكان الوليمه مع نفر قليل منهم، و ترك الباقي كميناً فى خارج القلعه. ثم هجم على الحاكم فاعتقله و دخل الذين كانوا فى الخارج وراءهم فهجموا على حاميه القلعه و اعتقلوا رجالها، فتم لهم احتلال "كلات".

و بذلك أقام نادر لنفسه أساس إماره صغيره فى هذه البلده. ثم أخذ يجمع أنصارا له من قبيلته و غيرها حتى اكتملت له عدده منهم اتخذوا من "كلات" مقاما لهم و من قلعتها مقر قيادته العسكريه.

و يروى، فى جملة ما يروى عن هذا العبقري، أنه لما عرف بما نزل بالأمره الإيرانيه من مصائب و ويلات جاءه إلهام بان عليه أن ينجى إيران مما نزل بها نجاه قاطعه، و أن يجعل من قلعه "كلات" مقر قيادته العسكريه.

و لذلك جمع حوله رجال القبائل المقيمه فى تلك النواحي من الأفشاريين و الأكراد و غيرهم، و أقام فى هذه القلعه لىتم مهمته التاريخيه هذه..

و تابع نادر غزواته حتى استولى على جميع البلدان و القرى الواقعه فى السفوح الشماليه من جبال "هزار مسجد".

عند حاكم مشهد

و فى سنه ١١٣٦ توفى "بابا على بك" و ترك أمواله إرثا لنادر. و لكن نادرا لم يستطع أن يخلف حماه فى مقامه لما قام به حساده و منافسوه من دسائس و ما أوجدوه فى القبيله من خلافات، و تعذر عليه البقاء فى "أبيورد".

و وقعت خلافات بين الأفشاريين و الأكراد، و رحل كثير من رؤساء الأفشاريين إلى مشهد و التحقوا بالملك محمود السيستانى حاكم الولاية ليكيدوا عنده لنادر. و كان محمود هذا خارجا على الشاه الصفوى مستقلا بالحكم فى خراسان و يرى نفسه أحق بالتاج من الصفويين لأنه كان يعتقد أنه من سلالة الصفاريين.

و أراد الملك محمود أن يتقوى بنادر و جيشه فاستدعاه إلى مشهد لينضم إليه. و كان نادر عارفا بسعى رؤساء الأفشاريين به عند محمود. و لكنه قبل دعوته غير هياب، و هيا خيلا و ذخائر و ذهب إلى مشهد و انضم إلى عسكريه و قبل بان يلازمه، و هو ينوى إسقاطه. و أخذ يتقرب إليه و يتحين الفرص و يهيا الوسائل إلى ذلك.

١- روى أحد المؤرخين أن نادر شاه لما وصل إلى مقام الملك بنى مسجداً في المكان الذي ولد فيه، وبنى في جوانبه ثلاث مآذن غشاها بصفائح الذهب، ورفع في أعلاه سيفاً من الذهب، يرمز بذلك إلى أن السيف قد ولد في هذا المكان. ولما انتهى بناء المسجد وزيينه قال المعمار الذي بناه لنادر شاه: هذا البناء يناسبه أن يكون تاريخ الكتابه التي تنقش عليه مطابقاً لتاريخ ولاده الشاه. فضحك نادر شاه وقال: لما ولدت لم يكن في "كلات" كلها و"أبيورد" كلها مثل هذا المقدار من الذهب الذي أنفق على هذه التزيينات، فأى شيء كانت ثروته أسرتي! وعليه يجب أن يكون التاريخ هو اليوم الذي اكتمل فيه بناء المسجد "كلات" و"أبيورد" بلدتان من إقليم "درجز" في خراسان. قضى فيهما نادر أيام نشأته وشبابه.

و كان من رؤساء الأفشاريين الذين التحقوا بالملك محمود اثنان من أشد منافسى نادر و حساده هما "قليج خان" و "إمام قلى".
و لكن سعيهما بنادر عند الملك لم ينفعهما إذ كان الملك معجبا به يرى فيه قائدا عسكريا شجاعا عالى الهمه، فلم يصنع إلى
سعاياتهما. و كان نادر على علم كامل بنواياهما و سعاياتهما فترفق و تلتطف فى تصرفاته على نحو جنبه الوقوع فى شرهما و أبعده
عن أذاهما. و مع ذلك اضطر فى نهايه الأمر إلى قتلهما بتدبير بلغ فيه غايه المهاره، ثم فر عائدا إلى "أبيورد" و "كلات".

و قصه ذلك هى أن نادرا تظاهر بأنه لا يعرف شيئا عن نواياهما، و خدعهما بان صادقهما و أراهما من نفسه الإخلاص و الموده.
ثم اقترح عليهما تدبير مؤامره لإسقاط الملك محمود و استخلاص الحكم من يده لأنفسهم.

فطاب لهما هذا الاقتراح و اتفقوا على أن يغتالوا الملك و يوقعوا بعسكره فى احتفال كان مقررا أن يقام فى ميدان سباق الخيل و
أن يتسابق فيه نادر و الملك محمود. و جعلوا علامه الهجوم أن يمسك نادر عنان حصان محمود. و لكن اتفق أن نادرا لم
يستطع أن يمسك العنان حين أراد ذلك فحبطت خطتهم.

و ظل الملك محمود لا يدري شيئا عن هذه المؤامره، و عاد بعد الاحتفال مع حاشيته و عسكره إلى مشهد.

حرب الملك محمود

و لكن نادرا أيقن بان رفيقيه فى المؤامره لن يظلا ساكتين و أنهما سينتهى بهما الأمر إلى إفشائها لمحمود و من ثم يتوصلان إلى
إهلاك نادر لما يبطنان من حقد عليه و حسد له، فسعى هو إلى اهلاكهما قبل أن يتمكننا منه. فدعاهما يوما إلى الصيد فى مكان
قريب من مشهد. و هناك انفرد كل منهم عن الآخر فى مطاردتهم للصيد. فما كان من نادر إلا أن تتبعهما، كلا على حده، و
قتلهما. ثم فر من هناك إلى "كلات" و "أبيورد". و هناك أخذ يجمع الرجال و العتاد لمحاربه الملك محمود، فأجابه جمع
كبير أمروه عليهم.

أما الملك محمود فبلغ به الغضب مبلغا عظيما حين علم بمقتل الزعيمين الأفشاريين و فرار نادر فبدأ محاربه و قتاله. و لكن نادرا
انتصر عليه فى أول معركة خاضها قرب بلده "قوشان"، فهزم حملته، و كانت تعد سته آلاف مقاتل و غنم ذخائرها و عتاها. و
توالت بعد ذلك هجمات الملك محمود عليه فى أماكن متعدده فانتصر فيها نادر كلها، و قضى أيضا على عده من حركات
التمرد قامت فى تلك النواحي، حتى أصبح اسمه يلقى الرعب فى قلوب أعدائه. و بقى عليه القضاء على الملك محمود و
حكومته فى مشهد.

و مما يدل على شهامه نادر حادثه وقعت فى مجرى إحدى المعارك التى خاضها فى قتال المتمردين، إذ كان يحاصر قلعه
تحصن فيها أحد المتمردين من زعماء الأفشاريين. و هى أن قافلته من تجار خوارزم كانت تتجاز تلك النواحي قاصده إلى مشهد
بحراسه رجال موكلين من قبل الملك محمود. فوقع خلاف بينهم و بين رجال القافلته فأغاروا عليها و نهبوا و قتلوا بعض رجالها.
فبعث والى خوارزم إلى نادر التماسا يستنجد فيه على المعتدين لاعتقالهم و استرجاع أموال القافلته منهم. فتلقى نادر طلبه بالعطف
و الأريحيه و تعهد له بقضاء حاجته. ثم قام بمطارده المعتدين حتى اعتقلهم و استرجع أموال القافلته منهم و سلمها إلى أصحابها و
بذل ما فى وسعه لارضائهم.

الاتصال بالشاه طهماسب

و حصل أول اتصال بين الشاه طهماسب الصفوي و نادر في سنة ١١٣٩ فقد بعث الشاه، و كان في مازندران، مندوبا من قبله للتحقق من أوضاع نادر و أحواله، بعد أن انتشر صيته في الآفاق. فتلقاه نادر بالإكرام و الإجلال، و حسن له أن يقوم الشاه بمهاجمه مشهد و احتلالها و اعتقال الملك محمود، و قال له إنه حاضر لمساعدته.

و قد أثرت شخصيه نادر في مندوب الشاه تأثيرا عظيما. و بناء على تقريره الذي رفعه إلى الشاه عين الشاه نادرا حاكما على "أبيورد". فلما أبلغ المندوب مرسوم الشاه إليه طلب من المندوب أن يحمل الشاه على التوجه بقواته إلى خراسان. فعاد المندوب فأبلغه أن الشاه قد تحركت ركابه متوجها إلى مشهد و أنه يرغب في ملاقاته - و كان نادر في طريقه إلى مشهد - فتوقف عن الزحف متهيئا لاستقبال الشاه. فلما وصل التحق به.

و حين أصبح من رجال الشاه أبدى غايه الذكاء و الحنكه و الصبر و التيقظ في إحباط المؤامرات و الدسائس و الفتن التي كان يدبرها الحساد و المنافسون و الانتهازيون لاسقاطه و الحيلولة بينه و بين تطلعاته العظيمه، فنجح نجاحا عجيبا في وقايه نفسه من تلك الشرور التي كان يعج بها ذلك البلاط الفاسد، و إزاحه حساده و منافسيه من طريق تقدمه و تفوقه، حتى أصبح في مده قصيره صاحب المقام الأول بين قواد الجيش و مستشار الشاه الخاص.

و كان هذا الشاه كايه لعبه في أيدي الوزراء و الحاكم، متقلبا ضعيف الرأي، قد يرفع أحدا إلى أعلى المراتب ثم لا يلبث في نزوه من نزواته أن يرمى به جانبا كشيء مهممل. و لم يكن نادر بمنجى من هذا المصير لو لا ما أبداه من دهاء في معاملته هذا الشاه. و آل به الأمر، بعد أن أزاح من طريقه كل منافسيه، إلى أن جمع زمام الأمور في يده و جعل الشاه بمعزل عن شئون الأمر و النهي، و عهد بالمناصب الحساسه إلى أنصاره و حصل لنفسه على منصب وزير التشريفات و لقب "طهماسب قلى" أي "غلام طهماسب" و هو لقب يعنى أنه من أخص خواص الشاه.

انكسار محمود و احتلال مشهد

و بعد أن خاض معارك رهيبه تجلت فيها شجاعته و عبقريته الحربيه على أكمل وجه تمكن من التغلب على الملك محمود و دخل مدينه مشهد مظفرا في ١٦ ربيع الثاني سنة ١١٣٩.

و لما دخل نادر مدينه مشهد أمر بتغشيه إيوان مقام الامام على الرضا (ع) بصفائح الذهب و بناء مناره أخرى تقابل المناره القديمه و تغشيتها بالذهب، و ذلك وفاء بيمين كان قد حلفها.

و التجأ محمود إلى إحدى حجر الامام الرضا (ع). و أبقى عليه نادر لم يقتله.

تغير طهماسب

و لكن طهماسب، في قلبه و ميوعته و نزواته، لم يلبث أن انقلب على نادر و أخذ يصغى إلى وشايات حساده و ينصاع إلى تحريضهم إياه على نادر.

و كان مبدأ ذلك أن نادرا بعث رسولا من قبله إلى بلده "قوشان" ليعقد قرانه على بنت أحد رؤساء الأكراد، و كان قد خطبها باقتراح من الأكراد، قبيل احتلال مشهد، لتكون هذه المصاهرة وسيلة إلى التصالح و رفع اختلافات و ثارات كانت بينه و بينهم. و لكن طهماسب كان يريد لها لنفسه من قبل ذلك، فمنع أهلها من تزويجها بنادر. فلما وصل رسول نادر إلى "قوشان"

ص: ١٩٢

طرده أكراد البلده فعاد إلى مشهد خائباً. فغضب نادر غضبا شديدا إذ فوجئ بسلوك الأكراد على هذا النهج العدائى. فهياً جيشاً و توجه إلى "قوشان" بمعيه الشاه طهماسب لتأديب الأكراد. فلما قارب البلده خرج إليه أخو البنت و أراه الأمر الذى أصدره الشاه إليهم بشأنها. فلما دخل الليل انفصل طهماسب عن المعسكر و ذهب إلى "قوشان". فلما علم نادر بذهاب الشاه تقدم و حاصر البلده. فخرج إليه جماعه من مسلحي الأكراد كانوا من أنصار الشاه فكسروهم و اضطروهم أن يعودوا إلى البلده. ثم فك الحصار عنها احتراماً للشاه و عاد إلى مشهد.

فلما أقام الشاه فى "قوشان" و أقام نادر فى مشهد خلا الجو للبلاطين من حاشيه الشاه و رؤساء العشائر للكيد لنادر. فحرضوا الشاه على أن يأمر الحكام فى مختلف الأقاليم بان ينجدوه على نادر لأنه يريد الفتنة. فانصاع لهم و كتب إلى الحكام و الرؤساء أمراً بالثوره عليه. و كان الملك محمود أحد الذين كتب إليهم الشاه بهذا المعنى. و كان محمود فى معيه نادر فاطلعه على أمر الشاه هذا. و كذلك حرضوا الشاه على أن يعقد قرانه على بنت ذلك الزعيم الكردى التى كانت مخطوبه لنادر.

أما نادر فقد أغضبه عمل الشاه و نفاقه و تقلبه، فتوجه بأقصى ما يستطيع من السرعه بجيشه إلى "قوشان" فحاصرها و أوقع بالأكراد المناصرين للشاه و أتباعه هزيمه منكره، فلم يجد طهماسب حينئذ بدا من مصالحه نادر.

و وعد بان يعود إلى مشهد بعد عوده نادر إليها. و فى عيد النوروز من سنه ١١٣٩ هـ وصل طهماسب إلى مشهد فاستقبله نادر استقبالا لائقا بالملوك و أمر باقامه حفلات الأنايس و السرور مدته أسبوع احتفاء بقدمه.

ثورات و فتن

و لكن الفتن و الثورات لم تلبث أن قامت فى مختلف أنحاء الشمال. فثار عليه الأكراد مره ثانيه و ثار التتر و التركمان و غيرهم، فبعث إليهم نادر بجيش بقياده أخيه إبراهيم خان. ثم اضطروهم هو نفسه إلى التوجه إلى "أبيورد" لنجده أخيه، و قد حاصره الثوار فى مضيق هناك، فنجح فى فك الحصار عنه و فر الثوار فتبعهم إلى مسافه طويله. ثم لم يجد بدا من العوده إلى مشهد ليحول دون قيام ثوره هناك.

ثم ثار التتر فى "مرو" بتحريض من الملك محمود، و ثار الأكراد فى "قوشان" و غيرها. و يرى بعضهم أن ثوره الأكراد هذه كانت بتحريض من الشاه طهماسب نفسه. فبعث نادر بأخيه إبراهيم إلى فريق منهم و توجه هو فى صحبه طهماسب إلى فريق آخر. و لكن طهماسب انفصل عنه فى أثناء الطريق و قصد إلى "نيسابور" للاستجمام. و قد تمكن نادر من قمع تلك الفتن كلها بسرعه فائقه، ثم عاد من فوره إلى مشهد.

و مع أن تمرد الأكراد بدأ بامتناعهم عن تزويج بنت الزعيم الكردى لنادر و تبع ذلك ما تبعه من حرب و سفك دماء فان الأكراد، بعد انتهاء هذه الحرب، حملوا الفتاه إلى مشهد فى موكب فخم و زفوها إلى نادر! و بهذه المصاهره وضع الأكراد يدهم فى يد نادر و أصبحوا حلفاءه.

و لما كان التتر قد ثاروا بتحريض من الملك محمود السيستانى فقد قتله نادر و قتل معه أخويه الملك "إسحاق" و الملك "محمد على" و قامت ثورات فى أماكن أخرى استطاع أن يخمدتها بمثل تلك السرعه و الدرايه بفنون الحرب.

بعد ذلك توجه نادر إلى معاربه الأفغانه. و كانوا يحتلون العاصمة أصفهان كما مر. و كان محمود الأفغانى رئيس طائفه "الغلاجيين" الذى تنازل له الشاه حسين الصفوى عن العرش و توجه بيده بتاجه قد تمادى فى الطغيان حتى اختلت قواه العقلية و اضطر الأفغانه أنفسهم إلى تنحيته عن العرش و تنصيب ابن عمه "أشرف علجائى"، و كان مسجوناً فى سجن محمود هذا، فى مكانه. و فى سنه ١١٣٧ قتله أشرف و استقل بالعرش.

و فى الثانى من صفر سنه ١١٤٠ هـ بدأ نادر حرب الأفغانه. و افتتح حملته هذه بالهجوم على بعض الثائرين المتمردين فى خراسان فهزمهم و احتل مدنهم و قلاعهم. و قتل الناكثين منهم الذين استامنوه فامنهم ثم غدروا به، و استولى على أموالهم. و فى إحدى هذه الوقائع، فى محاصرته بلده "سنجان" كاد نادر يقتل إذ انفجر مدفع على بعد بضعة أقدام منه، فقتل المدفعى و بضعه جنود، و سلم نادر.

و بعد أن احتل "سنجان" جاءه خبر أن جيشاً أفغانياً من "الأبداليين عدته بين سبعة آلاف و ثمانية آلاف جندى قد خرج من "هرات" و وصل إلى "باخرز" و "نيزآباد" فى طريقه إلى إنجاد أهالى "سنجان". فتهيأ لقتالهم.

و كان عسكريه متعباً فرأى أنه لا يستطيع، و هو على هذه الحال، أن يحارب كما يجب أن تكون الحرب. و فوق هذا كان اسم الأفغان يبعث الرعب فى نفوس جنوده بسبب انتصاراتهم المتواليه على الايرانيين. فلم يخرج عسكريه إلى القتال بل أمرهم بالترام خندق "سنجان" لا- يغادرونه. و اختار من بينهم خمسمائه فارس من المجريين، و حمل بهم على الأفغانه حمله ماهره. و بعد أربعة أيام بلياليها من الكر و الفر، لم يأذن فيها لأحد من جنده بالحرب غير هؤلاء الفرسان الخمسمائه، رد المغيرين على أعقابهم ففروا عائدين إلى "هرات". و عاد هو إلى مشهد لم يتبعهم إلى "هرات" إذ رأى أن ظروفه لا تمكنه من ذلك.

بعد هذه الوقعه أخذت العلاقات بين طهماسب و نادر تسير من سيئ إلى أسوأ، و وزراء الشاه يسعون بكل وسيله ممكنه إلى توسيع شقه الخلاف بينهما.

و خالفه طهماسب فى التخطيط لحرب الأفغان، ثم اتفقا على خطه لها.

و لكن حاشيه طهماسب أقنعتة بقطع صلته بنادر و الانصراف عما بينهما من تعاون ففعل. و طلب من نادر أن يتولى هو وحده قياده الحمله على "هرات"، فقبل اقتراحه و لكنه تريت فى السير لعلمه أن خصومه من الوزراء و أصحاب النفوذ يدبرون مؤامره لايقاع الخلاف فى جيشه. أما طهماسب فغادر مشهد إلى "سبزوار".

ثم وصل خبر إلى نادر بان "الأبداليين" الأفغانه قاموا بهجوم آخر و وصلوا إلى مكان يقع على الطريق بين طهران و مشهد، فلم يجد بدا من السير إليهم على الفور. و لكنه عرف، و هو فى طريقه إليهم، أن طهماسب يهاجم أتراك محله "بوجارى" و هم من أنصار نادر. فبعث إليه نادر التماساً يرجوه فيه الانصراف عن معاربه أتباعه هؤلاء، و أن يتعاونوا معاً على حرب الأفغانه. فأجابه طهماسب بان أمره بالحضور إليه لوضع الترتيبات اللازمه لهذا التعاون. إلا أن طهماسب، مع ذلك، ظل يتابع هجومه على أنصار

نادر و احتل إحدى قلاعهم. فعرف نادر أن في الأمر مؤامرة عليه. و يقول محمد حسين قدوسی في كتابه "سيره نادر" إن هذه الساعه كانت أشد أيام نادر حساسيه. و من ثم انصرف عن متابعه السير إلى حرب الأفاغنه، و توجه إلى "سبزوار" حيث يقيم طهماسب، بناء على طلبه. و قبل أن يصل إليها بلغه أن طهماسب عمم على نواحى خراسان أمرا بالامتناع عن إطاعه أوامر نادر و أتباعه. فلما وصل إلى "سبزوار" وجد أبوابها قد أغلقت فى وجهه.

فلم يجد بدا من ضربها بالمدافع ثم احتلالها بالقوه. أما طهماسب فلم يجد لنفسه مخرجا غير مصالحه نادر. ثم حلف له يمينا أن لا يعود إلى مخلصته أبدا. و بعد يومين أرسله نادر إلى مشهد و وكل أحد أتباعه بملازمته باشد المراقبه. ثم عاد هو إلى مشهد منفصلا عنه.

و لكن لم يكد يستقر به المقام فى مشهد حتى ثار التركمان و بعض الأكراد فى نواحى مختلفه. فبعث إليهم بجيش بقيادة أخيه إبراهيم خان و رجل آخر. ثم اضطر هو نفسه إلى أن ينجدهما، فسار إلى الثائرين و أوقع بهم و شردهم. و قد صبر فى هذه الحمله على شدائد مضنيه من وعوره الطرق و شدة البرد و الثلج و الجليد. و علم أن أخاه و رفيقه قد قصرا فى الحرب فسجنهما مده، ثم أطلق سراحهما.

احتلال هرات

ثم بعث سفيرا باسم الشاه "طهماسب" إلى بلاط روسيا يطلب جلاء الروس عن "جیلان". و انصرف إلى تهيئه قواته لاستئناف حرب الأفاغنه.

و اتخذ فى هذا السبيل تخطيطا يدل على ذكاء و تفكير عسكري فائقين. و كان يرى منذ حملته الأولى التى هزم فيها الأفاغنه الأبداليين عند "سنجان"، أن يبدأ بمهاجمه "هرات" و إخضاع الأبداليين قبل مهاجمه أصفهان العاصمه و إنقاذها من الأفاغنه الغلجائيين الذين يحتلونها. و كان طهماسب يرى عكس هذا. فخالفه نادر إذ كان يرى أن ابتعاده هو و طهماسب من مشهد يتيح الفرصه للأبداليين لمهاجمتها و احتلالها. فالصواب البدء بالأبداليين فى "هرات" قبل الغلجائيين فى أصفهان.

و فى الرابع من شوال سنه ١١٤١ هـ تحرك جيش نادر، و عده رجاله ٢٥ ألفا ما بين فارس و راجل، إلى "هرات"، و تحرك من "هرات" إلى ملاقاته جيش الأبداليين، و عده رجاله ١٥ ألفا ما بين فارس و راجل.

و التقى الجمعان عند مدينه "كافر قلعه" - و هى اليوم اسمها "إسلام قلعه" تابعه لأفغانستان - حيث سبق أن التقى قبل عشر سنوات جيشا الصفويين و الأبداليين و دارت بينهما معركة انهزم فيها الصفويون شر هزيمه.

و بعد معارك طاحنه دارت بين جيش نادر و جيش الأبداليين انهزم الأبداليون و طلبوا الصلح. و بعثوا من قبلهم ثلاثه من رؤسائهم يحملون رساله من قائد جيشهم إلى نادر جاء فيها:

"لقد كانت طائفتا الغلجائيين و الأبداليين، و ما زالتا، من رعايا الدوله الإيرانيه الشاهنشاهيه. و قد شرع الغلجائيون الشريريون الخيانه بان تسلطوا أولا على "قندهار" ثم أصفهان. و لكن طائفه الأبداليين كانت دائما تحارب الغلجائيين و تخصمهم، إخلاصا

منها للدولة الشاهنشاهيه. لهذا نلتمس من قائد إيران القادر أن يعفو عما سلف من ذنوبنا و ينزل عقوبته بزعماء الغلجائيين جزاء سلوكهم الفظ بما ارتكبوه من خيانه و نكران للجميل.

و طائفه الأبداليين تضع في عنقها ربقه طاعه العبوديه لهذا القائد الشجاع. و هي حاضره لتكون فداء في سبيل تقدم القوات الإيرانيه المظفره".

فقبل نادر التماسهم و عفا عنهم بشرط أن يسلموه مدفعيتهم. و في اليوم الثاني وفد إلى معسكره ثلاثون رجلا من رؤساء الأبداليين يحملون إليه شيئا كثيرا من التحف و الهدايا. فأكرمهم و خلع عليهم، و جعل قائد جيش الأبداليين "الله يار خان" حاكما على "هرات". و أقام فيها شهرين ثم عاد إلى مشهد.

و مع أن هذه الحمله لم تكن حاسمه في الناحيه العسكريه إلا- أنها كانت بعيده الأثر في الناحيه المعنويه، إذ أنها أعادت إلى الايرانيين ثقتهم بأنفسهم و أبعدت عن أذهانهم أسطوره أن الأفاغنه لا يهزمون.

تحرير أصفهان

بعد هذه المعركه الرائعه استطاع نادر و عسكره أن يفكروا بعمل أعظم منها، و هو طرد الأفاغنه الغلجائيين من أرض إيران و إجلاس طهماسب على عرش المملكه في أصفهان.

و كان "أشرف" الغلجائي المتسلط في أصفهان على وضع سيئ. فقد تورط في محاربه العثمانيين بسبب سوء تصرفه. و أرسل إليه "أحمد باشا" والي بغداد العثماني في سنه ١١٣٩ رساله يهدده فيها و يخبره بأنه قادم إلى حربيه ليخلص الشعب الايراني المتمدن من حكم الأفاغنه المتوحشين، و إعادته الشاه حسين إلى عرش إيران. و في هذه الحرب اضطر "أشرف" إلى التخلي عن قسم من أرض إيران للعثمانيين. و تورط "أشرف" أيضا في محاربه الروس.

و في صيف سنه ١١٤٢ هـ شاع في أصفهان أن "حسين سلطان" ابن عم "أشرف" - و كانت بينهما ثارات - يجمع العسكر في "قندهار" لمحاربه "أشرف". و في هذا الوقت تواترت الأخبار على أصفهان أن نادرا و طهماسب، بعد أن أوقعا بالأبداليين تلك الهزيمه الكاسحه، قد توجهوا إلى أصفهان لمهاجمته. فاضطرب "أشرف" اضطرابا شديدا، و حشد كل ما عنده من قوه و أسرع بها إلى حرب نادر.

و كان نادر، بعد عودته من "هرات" إلى مشهد قد عبا جيشه لمحاربه الأفاغنه. و لكنه قبل مسيره عقد اتفاقا بينه و بين طهماسب تعهد فيه طهماسب بان يعهد إليه، بعد تحرير أصفهان و طرد الأفاغنه من إيران، بالولايه على إيالات خراسان و مازندران و جرجان، مكافاه له على خدماته العظيمة.

و في ١٨ صفر سنه ١١٤٢ هـ غادر نادر و طهماسب مشهد بجيشهما، و عدته ثلاثون ألفا بين فارس و راجل، قاصدين مدينه "سمنان" من ولايه "دامغان" في غرب خراسان، و كان "أشرف" يحاصرها. فترك عندها قسما من جيشه يديم الحصار و سار هو بالقسم الآخر إلى "خاور" و "دامغان" لملاقاه جيش نادر و طهماسب.

والتقى الجمعان عند بلده "بسطام" و دارت هناك أول معركة بينهما.

و قاتل فيها من جيش أشرف مقدمته من الفرسان. فتغلب عليهم نادر و ردهم على أعقابهم، فعادوا إلى "سمنان"، إلى جيش "أشرف".

و تابع نادر تقدمه حتى وصل إلى قرب نهر يعرف باسم "مهمان دوست" في صباح يوم السبت السادس من شهر ربيع الأول سنة ١١٤٢. و هناك دارت معركة بين الفريقين اتبع فيها نادر تكتيكا عسكريا بارعا ضعضع به صفوف الأفاغنه، و قتل فيها حامل لواء "أشرف"، فاضطر الأفاغنه إلى

ص: ١٩٤

الفرار و تركوا ذخائرهم و أسلحتهم غنيمه لنادر. و قدر الكاتب الفرنسى "أوتر" عدد الجيش الأفغانى فى هذه المعركه بخمسين ألفا و قدر "هانوى" (١) عدد الجيش الايرانى بخمسه و عشرين ألفا، و قدر "كوكل" و كيل "شركه الهند الشرقيه" الإنكليزيه فى إيران على عهد نادر، عدد القتلى باثنى عشر ألفا من الأفاغنه و أربعه آلاف من الايرانيين. و أراد الايرانيون تعقب المنهزمين فمنعهم نادر إذ لم تكن لهم فائده فى تعقبهم.

و بعد بضعه أيام بعث طهماسب و نادر برسول إلى القسطنطينيه ليطلب من العثمانيين الجلاء عن الولايات الإيرانيه التى احتلوها. و لكن الرسول توفى فى تبريز قبل وصوله.

ثم تابعا طريقهما إلى "سمنان". و فى مسيرهما هذا ذكر نادر طهماسب بما سلف بينهما من وقائع مره كدرت صفو العلاقه بينهما.

و تراجع "أشرف" عن "سمنان" إلى "ورامين". و فى نواحي "سمنان" دارت معركه بين نادر و جيش أفغانى كان قادما من طهران لنجده "أشرف" نجى فيها نادر جيشه من كمين مخيف. و كان عملا رائعا دل على شده تيقظه و تبصره فى الأمور و براعه تكتيکه العسكري. و انتهت المعركه بفوز الايرانيين و فرار الأفاغنه، و ذلك فى ٢١ ربيع الأول سنه ١١٤٢ هـ.

و تتبع نادر الأفاغنه إلى "ورامين" حيث يقيم "أشرف" فلم يجد هذا بدا من الفرار بقواته إلى أصفهان.

و قبل أن يتابع نادر سيره إلى أصفهان كف يد طهماسب عن العمل و بعث به إلى طهران، و كان الأفاغنه قد جلوا عنها.

أما "أشرف" فإنه، بعد أن وصل إلى أصفهان منهزما، قام فيها باعمال بلغت غايه الوحشيه. فقد قتل حوالى ثلاثه آلاف من العلماء و الأعيان، و أمر رجاله بالاغاره عليها بالسلب و النهب و إحراق الأسواق، و اعتقل موظفى الشركات الإنكليزيه و الهولنديه المقيمين فيها و سجنهم خشيه أن يساعدوا نادرا، و ظلوا مسجونين سبعة عشر يوما إذ سهل لهم الحراس سبيل الفرار.

و كان أحمد باشا والى بغداد العثمانى قد أرسل إلى "أشرف" الغلجائى، بناء على طلب منه، مددا من الرجال و المدافع. ثم غادر "أشرف" أصفهان مع قواته و عسكر فى ناحيه "مورشه خورت" فى الغرب الشمالى من أصفهان.

و أما نادر فتابع سيره إلى أصفهان حتى وصل إلى معسكر الأفاغنه فهاجمه و نشبت معركه رهيبه بلغت إلى القتال بالسلاح الأبيض و قام فيها الأفاغنه بحملات شديده. و لكن الدائره دارت عليهم فى النهايه، ففر "أشرف" بمن بقى من جنوده عائدا إلى أصفهان، و ترك أسلحته و كثيرا من الأسرى فى يد نادر، و كان بين الأسرى جماعه من العثمانيين فعاملهم نادر بالحسنى ثم أطلق سراحهم.

و لما وصل "أشرف" إلى أصفهان سارع إلى تهيئه وسائل الفرار و صادر كل ما فى المدينه من الدواب ليحمل عليها النساء و الأطفال و ذخائره من الجواهر و الأموال. و قبل فراره قتل الشاه حسين الصفوى، و كان سجيناً فى قصره.

و دخل نادر أصفهان ظافرا فى الثانى و العشرين من ربيع الثانى سنه ١١٤٢ هـ. و شرع أول شىء بتطهير المدينه من آثار الأفاغنه. و أمر بهدم البناء الذى أقيم على قبر محمود الغلجائى الأفغانى و جعل مكانه منزله.

ثم أبلغ نبا انتصاره إلى "طهماسب" و دعاه إلى أصفهان، فعاد إليها في الثامن من جمادى الأولى سنة ١١٤٢ هـ، بعد غيبه طالت مدة ثماني سنوات تقريبا، و استعاد لنفسه منصب أبيه و أجداده. و لكنه وجد قصر أبيه خرابا.

و لم يجد أحدا من نساء القصر سوى امرأه واحده تلقتة و احتضنته فرحانه مستبشرة، و إذا به يتبين أن هذه العجوز هي أمه، و كانت قد نجت من الأفاغنه بان جعلت من نفسها خادمه فلم يفتنوا إليها. و بهذا سلمت من الموت. و كانت أصفهان كلها قد أصبحت خرابا و غاب عنها أكثر سكانها ما بين قتييل و هارب. و لما بلغ خبر انكسار أشرف إلى الأفاغنه المقيمين في "كرمان" عمدوا إلى تخريبها ثم فروا منها. إلا- أنه كان لهذه الانتصارات المتواليه أثر معنوى بالغ في نفوس الایرانيين، إذ ارتفعت معنوياتهم و عادت إليهم ثقتهم بأنفسهم.

تحرير شیراز

و بعد أن استراح نادر و جنده و هيا ما يلزم لمتابعه الهجوم سار في أفسى أيام البرد إلى شیراز لتعقب "أشرف" في الثالث من جمادى الثانيه سنة ١١٤٢ هـ. فتلقاه "أشرف" بعشرين ألف مقاتل من خيره المقاتلين.

و دارت بين الفريقين معركة هائله، استبسل فيها "أشرف" و أظهر خبره عسكريه فائقه، و لكن الدائره دارت عليه فعجز عن متابعه المقاومه. و بلغت خسائره من الرجال أكثر من خمسه آلاف بين قتييل و جريح و أسير. عندئذ بعث إلى معسكر نادر بثلاثه سفراء من كبار رجاله يلتمسون منه وقف الحرب، فأجابهم نادر إلى طلبهم بشرط أن يطلق "أشرف" سراح من بقى حيا من أسره الشاه حسين و معهم سائر الأسرى و المعتقلين الإيرانيين. فأجابه "أشرف" إلى طلبه و أرسل إليه جميع هؤلاء و لكنه رفض تسليم نفسه إلى نادر. و حرضه قواده على أن يفر بمن بقى من رجاله إلى "قندهار" ففعل.

و علم نادر بذلك فانطلق إلى تعقبه فأدركه عند جسر "فسا" قريبا من شیراز، فأمر مقدمته من الفرسان و عددهم خمسمائه فارس بالهجوم على مؤخره جيش "أشرف" و عدتهم خمسه آلاف و نيف، و وقعت بينهما معركة أسر الإيرانيون فيها جماعه منهم و غرق آخرون في النهر و قتل "بير محمد خان" شيخ محمود الغلجائي و أشرف و مرشدهما، و سملوا عيون جماعه من قوادهم. فعاد "أشرف" يطلب مصالحه نادر. فقبل بشرط أن يسلم "أشرف" نفسه إليه، فرفض "أشرف" و فر متوجها إلى "لار" في جنوب إيران.

مقتل أشرف و نهايه الأفاغنه

و ظل نادر في شیراز، و منها عمم على جميع النواحي أن تغلق كل المدن الإيرانيه أبوابها في وجه الأفاغنه. و أراد الأفاغنه أن يستعينوا بالعرب المقيمين في موانئ الخليج على الهرب بالبحر إلى بلدان الخليج العربيه، و لكن نادرا أمر موظفي "شركه الهند الشرقيه" بالامتناع عن حمل الهاربين على سفنهم، و أنذر الشيوخ الذين في المرافئ بان يوقعهم هم و عائلاتهم في الأسر و العبوديه إذا ساعدوا الأفاغنه على الهرب. و أراد أخ لأشرف، و كان يحمل كثيرا من

١- ﺗﺎﺟﺮ ﺍﻧﻜﻠﯩﺰﻯ ﺳﻜﻦ ﺇﻳﺮﺍﻥ ﻓﻰ ﻋﻬﺪ ﻧﺎﺩﺭ ﺷﺎﻩ ﻣﻦ ﺳﻨﻪ ١١٥٦ ﻩ ﺇﻟﻰ ﺳﻨﻪ ١١٦١ ﻩ ﻭ ﺃﻟﻒ ﻛﺘﺎﺏﺎ ﻧﻔﻴﺴﺎ ﻓﻰ ﺗﺎﺭﻳﺦ ﻧﺎﺩﺭ.

الجواهر، و رفاق له من الأفاغنه أن يستعينوا بهؤلاء الشيوخ على الهرب إلى بعض البلدان العربيه الواقعه على الخليج فامتنعوا. و لكن أحد الشيوخ، و يدعى أحمد المدنى، قبل أن يعطيهم سفينه تحملهم إلى هناك فانطلقوا بها إلى " رأس الخيمه ". إلا أن عرب عمان قتلوا أكثرهم و استعبدوا من بقى منهم حيا.

و انطلق " أشرف " من " لار " شرقا مع ألفين من رجاله و عدده نساء.

و لكن رجاله أخذوا يتناقصون بالموت من الجوع و التعب حتى لم يبق منهم معه غير ثلاثه. ثم قتل فى صحراء " بلوشستان " الشرقيه. قتله أحد رؤساء " البلوش ". و يقول " مالكم " إن القاتل قطع رأسه و بعث به إلى نادر و معه ماسه كبيره كان يضعها على عضده. و فى روايه أخرى عن " الميرزا مهدي خان " كاتب نادر و عن " مارتين فرنج " و كيل " شركه الهند الشرقيه " و " محمد خان " رئيس تشريفات " أشرف " - و قد رافقه حتى قتل - أن " أشرف " و هو فى حال فراره إلى " فندهار " تلقته فى بعض نواحيها قوه من عسكر ابن عمه عدوه " حسين سلطان " فقتلوه و جماعه من أصحابه.

و بهذا استطاع نادر أن يحقق أعظم انتصاراته و ينتهى إلى هذا النجاح الباهر بالقضاء على الجيش الأفغانى و تحرير إيران من طغيان هذا الغازى الفظيع. و قد استمر احتلال الأفاغنه لايران سبع سنوات ذهب ضحيه فيها مليونان من الايرانيين بين قتيل و أسير و خربت أجمل مدنها و أحلى عماراتها.

معاودة غزو هرات

و انصرف نادر بعد ذلك إلى معالجه أمور العثمانيين فسافر إلى " أذربيجان " لهذه الغايه. و فيما هو يحاول هناك حل تلك المشاكل بالحسنى وصله تقرير من مشهد من ابنه " رضا قلى ميرزا " أن الأبداليين فى " هرات " عادوا فنقضوا عهدهم الذى عاهدوه عليه، و أنهم عازمون على غزو مشهد.

هذا و قد أقدم الأبداليون بالفعل فى الثالث من شوال سنة ١١٤٣ هـ على طرد حاكم " هرات " الذى سبق أن عينه نادر لها. و ساقوا حملة على مشهد و عسكروا قريبا منها. فتوجه فورا من أذربيجان إلى خراسان. و قبل أن يبلغها كان الأفاغنه قد كسروا الجيش الايرانى المدافع، و كان يقوده إبراهيم أخو نادر، و ذلك لخطا فى التكتيك ارتكبه إبراهيم.

إلا أن نادرا تلقى تقريرا آخر من ابنه أن الابداليين انصرفوا عن مشهد عائدين إلى " هرات " لشغب الغلجائين عليهم، فانصرف نادر، موقتا، عن المضى إلى مشهد و توجه إلى قمع حركات بعض المتمردين فى نواحي أخرى.

ثم أعد عدته لمواجهة الأبداليين فى " هرات " نفسها، فتوجه إليها.

فلما علم الغلجائيون بمسيره هبوا إلى مساعده الأبداليين، تاركين خلافاتهم جانبا لمقاومه العدو المشترك.

و بعد معارك رهيبه دارت فى نواحي " هرات " تغلب عليهم و احتل المدينه فى غره رمضان سنة ١١٤٥ هـ، بعد أن حاصرها عشره أشهر و كاد يقتل فى محاصرته لها.

ثم انصرف إلى غزو الأفغانيين في نواحي أخرى فهزمهم واحتل بلده "فراه". و فيما هو مشغول بهذه الحروب جاءته الأخبار بان العثمانيين قد تغلبوا على الشاه "طهماسب" في "كوريجان" بالقرب من "همدان" وأنه وقع على معاهده صلح بينه وبينهم.

و بعد احتلال "هرات" نقل ستين ألفا من الأبداليين إلى نواحي مشهد و "نيسابور" و "دامغان"، و نقل أيضا إلى تلك النواحي ستين ألف عائلة من قبيله "أفشار" قبيلته. و قبل ذلك. يوم كان في "أذربيجان"، نقل ما بين خمسين ألفا و ستين ألفا من أسرها إلى خراسان. منهم اثنا عشر ألف أسره من قبيله "أفشار". و اختار ستة آلاف شاب من الأذربيجانيين فجندهم في جيشه.

احتلال قندهار

كان نادر، منذ أن أجلى الغلجائيين عن وسط إيران و جنوبها ينوى تطهير إياله "قندهار" من الأفاغنه و يتحين الفرصه لذلك. و حانت هذه الفرصه بانشغال العثمانيين و الروس عنه بحرب وقعت بينهما، و تمكنه من القضاء على حركات التمرد. فجهز جيشا من ثمانين ألف مقاتل، و سار به من أصفهان العاصمه قاصدا "قندهار"، في السابع عشر من شهر رجب سنه ١١٤٩ هـ، و صحب معه جماعه كبيره من أمراء البختياريين و الكرج رهائن، و لكن بعنوان متطوعين في الظاهر.

و احتل في مسيره هذا قبل وصوله إلى مدينه "قندهار"، بعض المدن و القلاع و أوقع بحامياتها. فلما وصل إلى "قندهار" أقام معسكره قريبا منها.

و بنى هناك مدينه كبيره أحاطها بأسوار عظيمه و أقام فيها سوقا و مسجدا و حماما، و سماها "نادرآباد".

و بدأ هجومه على "قندهار" في التاسع من شوال سنه ١١٥١ هـ.

و قام بالهجوم الحاسم صباح يوم الجمعه الثاني من ذى الحجه سنه ١١٥١.

و اختار من رجاله نخبه من الشجعان ليكونوا مقدمه الهجوم على أول برج من أبراج المدينه و احتلاله. و قال لهم: من دخل منكم البرج فاتحا فله جائزه ألف "نادري" (نقد) و إن تراجعتم فسأجعلكم طعمه للكلاب. و كان من أشد المتطوعين للهجوم "ملا" (رجل دين) اسمه "الملا آدينه مستوفى".

فاحتار نادر في أمره و قال له: أنت رجل دين فما أنت و الحرب، و هي ليست من شأنك و لا- عادتك؟! فقال الملا: جعلت فداك. سترى إن شاء الله بعينك!.

و بدأ الهجوم بمعركه رهيبه انتهت بتضعف المدافعين الأفغان فلم يجد قائدهم "سلطان حسين" - و هو زعيم الغلجائيين و ابن عم "أشرف" الذي مر ذكره - بدا من التسليم. فبعث بكبرى أخواته و اسمها "زينب" و معها جماعه من رؤساء الغلجائيين إلى نادر يطلبون منه الأمان له. فأكرم نادر وفادتهم و أحسن استقبالهم، و أمن "سلطان حسين" و أفراد عائلته.

ثم أعطى جنده الجوائز الذهبية التي وعدهم بها، و خص "الملا آدينه" بأكبر جائزه منها إذ كان من أشد المهاجمين شجاعه. و أمر بهدم المدينه و أجلى أهلها إلى "نادرآباد" و جعلها مركز الاياله. و أقام فيها مده شهرين بعد الفتح. و بذلك محا لطحه عار

الهزيمة التي أوقعها محمود الغلجائي و جنده قبل ستة عشر عاما بالاييرانيين. و استطاع أن يسترد ما اغتصبوه من أرض إيران، مع تنزيه نفسه عن مثل ما ارتكبه الأفاغنه يومئذ من إيذاء الأبرياء و سفك دمائهم و نهب أموالهم.

و بعد أن تم له فتح "قندهار" هاجرت طوائف الأبدالين القاطنين في

ص: ١٩٦

"نيسابور" و أماكن أخرى من خراسان إلى "قندهار" و هاجر الغلجائيون القاطنون في "قندهار" إلى خراسان، و دخل بضعه آلاف منهم في حرس نادر.

غزو الهند

في ربيع سنة ١١٥١ هـ بدأ نادر بغزو الهند، و كان يحكمها المغول التيموريون. غزاها لتأديب أمبراطورها "محمد شاه" إذ كان يجير المتمردين الفارين من وجه نادر و يؤويهم و يساعدهم و يحرضهم على الثورة، غير مصغ إلى إنذارات متكرره وجهها إليه نادر بان يمتنع عن ذلك، حتى أنه استبقى عنده سفيرا كان قد بعث به إليه نادر في تلك السنه لهذه الغايه، فلم يأذن له بالعوده إلى إيران. و سبق أيضا أن قتل أحد أعوانه من الأفاغنه سفيرا لنادر كان قد أرسله إليه، و في عودته من الهند اعتقله ذلك الأفغانى و قتله. و كانت لنادر أيضا غايه أخرى من غزو الهند، غايه أبعد من هذا، و هى أن يغنم من ثروات الهند الضخمه ما يجبر به خسائر إيران في تلك الحروب المتطاولة الدائمه.

كان الجيش الذى أعده لغزو الهند يتألف من ثلاثه آلاف و مائه ألف جندى، سار به من "نادرآباد" فاحتل أولا "غزنه" سلما ثم "كابل" بعد معارك جزئيه انتصر فيها على الأفاغنه المقاومين، ثم أقبل أعيان المدينه و حكامها يستقبلونه و يستسلمون إليه مرحبين.

و فى أثناء سيره هذا جاءه رسل من الهند يحملون رساله من "محمد شاه" يسأله فيها عن سبب سوقه هذا الجيش نحو الهند. فأجابهم نادر بقوله: سأجيب محمد شاه على هذا السؤال بنفسى فى عاصمه الهند! ثم انطلق حتى عبر حدود الهند من إقليم السند، و أخذ يحتل مدنه مدينه مدينه، بعضها صلحا و بعضها حربا.

و مما يدل على ذكائه و سرعه خاطره أنه لما اعترضه نهر السند، و هو واسع العرض جدا، جمع ما وجدته فى أيدي الناس من سفن و قوارب ليبنى منها جسرا لعبور النهر. و لكن الحبال التى كانت عنده لربط السفن لم تكفه.

فأمر بجز أعراف الخيل و شعر أذناها و قتلها حبالا، و بذلك وجد حاجته من الحبال و بنى الجسر.

و من ماثره أنه كان، بعد انتصاره فى كل معركه، يؤمن أهل المدن المفتوحه، و يمنع جنده من التعدى على أحد، و يعفو عن قوادها العسكريين الذين قاوموه، حتى الذين اشتدوا فى القسوه و الشراسه و هم يقاومونه. بل كان يعيد حكامها إلى مناصبهم التى كانوا فيها.

و بعد أن فتح مدينه "لاهور" نادى نفسه آمرا على كل الهند.

و وصله، و هو فى "لاهور"، أن "محمد شاه" أمبراطور الهند يحشد قواته لملاقاته بالحرب. فبعث إليه نادر برساله أعلن له فيها أنه لا يقصد الهند بسوء. و ذكره بان الهند قاست على يد الأفاغنه أشد مما قاسته إيران من الشر. و ذكره بسوء معاملته للسفراء الايرانيين الذين كان يبعث بهم إليه.

و ختم رسالته بإنذار "محمد شاه" بأنه إذا حارب الجيش الهندى الجيش الايرانى فان الايرانيين سيؤدبونه كما يجب أن يكون

التأديب. و إن سالمهم نجا من العقاب.

و جرت المعركة الأخيرة الفاصله فى ناحيه تعرف باسم "كرنال" فى أواسط ذى القعدة سنه ١١٥١ هـ. و حشد فيها "محمد شاه" ثلاثمائه ألف جندى و ألفى فيل حربى و خمسمائه مدفع.

و روى "هانوى" أن الهنود ربطوا سكاكين بخراطيم الفيله، و قد دربت على أن تضرب بها فى الحرب، هذا و الخيول من شأنها أيضا أن تجفل من رؤيه أجسامها الضخمه. فأمر نادر بتهيئه كيزان تملأ نقطاً و مواد قابله للاشتعال. و حين تدور المعركة توقد هذه الكيزان و يلقي بها فى جيش العدو بين الفيله فتفزع منها و تفر.

و فى هذه المعركة أمر نادر أيضا، حين حميت الحرب، بإشعال النار فى التبن الذى تحشى به رحال الجمال التى تحمل المدافع ثم الدفع بالجمال نحو كتبه الفيله فى جيش العدو. فلما أشعلوا النار فى الرحال و أحست الجمال بحرارتها هبت واقفه مذعوره فطردوها نحو الفيله. ف وقعت بينها و هى تقفز و تتراكم هنا و هناك و تهدر بأصوات مرعبه و النار تنطلق من ظهورها، فارتاعت الفيله و فرت من مكانها المقرر فى المعركة، و انحازت إلى مكان بعيد متجمعه بعضها إلى بعض.

و انتهت تلك المعركة الهائله بانتصار نادر و فرار الهنود. و قدر بعضهم عدد قتلاهم فيها بعشره آلاف و قدره آخرون بثلاثين ألفا. و قدر عدد القتلى من الايرانيين بألفين و خمسمائه، و الجرحى بخمسه آلاف.

و صلى نادر بعد هذا الفتح صلاه شكر و تلا دعاء، و أعطى قواد عسكريه جوائز. و غير اسم ابنه الثانى "مرتضى قلى خان" باسم "نصر الله قلى خان" تذكارا لهذا النصر العظيم.

الصلح

و أراد قواد جيشه متابعه الزحف فرفض و قال لهم: إن محمد شاه لا يلبث أن يستسلم إلينا.

و بالفعل طلب الهنود الهدنه فى مساء ذلك اليوم، و هو السادس عشر من ذى القعدة سنه ١١٥١ هـ، و حضر إلى معسكر نادر مندوبان من قبل "محمد شاه" مفوضين منه بإمضاء شروط الهدنه بما يريان. و تم الاتفاق بين الطرفين على أن يعود نادر إلى إيران بهذه الشروط:

١ - يدفع الإمبراطور إلى إيران مبلغ خمسة ملايين روبينه (نقد هندى) غرامه حريه.

٢ - يدعو نادر محمد شاه إلى وليمه يقيمها له فى معسكره غدا و يوقع فيها على وثيقه الاتفاق ثم يعود إلى معسكره.

٣ - يلقي جنود الجيش الهندى سلاحهم.

٤ - تسلم المدفعية الهنديه و العتاد الحربى الهندى إلى الجيش الايرانى.

٥ - الجيش الايرانى متعب يحتاج إلى الراحة. و لذلك يجب أن يذهب إلى العاصمه الهنديه للاستجمام مده من الزمن.

و بناء على ذلك أمر "محمد شاه" بتسليم كل أسلحه الجيش الهندي إلى الجيش الايراني. و أجاب الدعوه إلى وليمه نادر، فحضر إلى معسكره فى موكب فخم و حاشيه كبيره من رجاله و حرسه، فخرج إلى استقباله جماعه من فرسان الجيش الايراني، و تلقاه "نصر الله ميرزا" ابن نادر شاه، و كان هو المعين للقيام على ضيافته، بكل احترام و تعظيم، و قادوه إلى الخيمه الخاصه

ص: ١٩٧

التي نصبت له، و خرج نادر نفسه إلى خارج الخيمة لاستقباله، و وضع يده في يده و دخل به إلى الخيمة فأجلسه إلى جانبه.

و بعد المجاملات أخذ نادر يوبخه على معاملته السيئه له و لسفرائه، و يلومه على ضعفه و إهماله شئون مملكته، ثم قال له: لن أسلب منك ملك الهند. و لكنك، إذ اضطررتني بلا مبالاةك و أثرتك إلى قطع طريق طويله و بذل نفقه فاحشه، و كان جيشنا منهكا بالسير، يعوزه الطعام و غيره من اللوازم، أرى من الضروري حضوري إلى عاصمه الهند و الإقامة فيها بضعه أيام يرتاح فيها الجيش و نتسلم عوض خسارات الحرب كما تم الاتفاق. ثم أدعك و شانك تتدبر أمورك.

ثم تناولا الطعام معا. و أعطى نادر "محمد شاه" صحفه طعامه بعد أن أكل منها شيئاً و أخذ صحفته ليطمئنه إلى أن الطعام غير مسموم. ثم أعيد إلى معسكره محروسا بحرس نادر.

دخول دهلي

و في غره ذى الحجه سنه ١١٥١ هـ سار نادر شاه و أمبراطور الهند من "كرنال" قاصدين العاصمه "دهلي". و كان موكب نادر يتقدم موكب "محمد شاه" بما يقرب من ثلاثه كيلومترات.

و توقف نادر شاه في ضواحي "دهلي" في "باغ شليمار" حيث فرشت طريقه إليها بالنفيس من المفروشات، و أعد مكان إقامته فيها بتجهيزات بلغت غايه الفخامه و الأبهه. و سبقه "محمد شاه" إلى "دهلي" لاعداد وسائل الضيافه. و في التاسع من ذى الحجه سنه ١١٥١ هـ سار نادر من "باغ شليمار" إلى "دهلي" فدخلها في ذلك اليوم في موكب عظيم من الفرسان و المشاه عليهم الألبسه المزينه الفاخره و مظاهر الخيلاء و الزهو. و دخل نادر من اليباب [الباب] الخاص بالملوك لا يفتح لغيرهم، و أطلقت المدافع تحيه له.

و أنزل في القلعه الخاصه بسكنى "محمد شاه" زياده في تعظيمه و تكريمه.

ثم سلم حاكم المدينه مفاتيح خزائن المملكه و مفاتيح قلاعها و مخازنها إلى موفد نادر شاه، و قدمت إليه هدايا غاليه. و أعلن هو أن يلتزم بكل ما عاهد عليه "محمد شاه" في "كرنال"، و من ذلك إبقاؤه على عرش الهند.

فشكره "محمد شاه" و قدم إليه كل ما في الخزائن الملكيه من جواهر و أثاث و ذخائر أسلافه من السلاطين.

و أمر نادر شاه قواده بان يحسنوا معامله أهالي المدينه، و أنذر من يخالف منهم بعقاب شديد.

و خطب باسمه في المساجد، و ضربت باسمه نقود.

فتنه رهيبه

و لكن حدث في اليوم الثالث من وصوله أن شاع في المدينه أن نادرا قد قتل أو أن "محمد شاه" قد سجنه. و على أثر ذلك ثار فريق من أهالي المدينه و هجموا على جنوده فاقوعوا برجال "قرلباش" مذبحه عظيمه. و تضعضعت معنويات المسلحين الايرانيين لسماهم نبا مقتل نادر فلم يستطيعوا مقاومه.

و قدر عدد من قتل من الايرانيين فى ذلك اليوم بثلاثة آلاف.

أما نادر فلم يصدق الخبر أول الأمر، و اتهم جنوده بأنهم اختلقوه ليجعلوه ذريعه لهم إلى نهب المدينة. فلما تحقق من صحة الخبر أمر قواده بحشد الجنود لاختماد الثورة. و لكنه أوصاهم بان لا يمسوا الأبرياء بسوء، و أن يقتصر عملهم على حفظ النظام و ضبط المدينة.

و فى صباح الغد ارتدى ثوبا أحمر اعتاد أن يجعله علامه على الغضب، و امتطى حصانه و خرج بنفسه مع نخبه من جنده الأشداء و قصد إلى مركز الثائرين. و قيل إنه، و هو فى سيره هذا، أطلقت عليه رصاصه من إيوان أحد المساجد فاخطاته و أصابت أحد ضباطه فقتلته. فاشتد غضب نادر و صعد إلى سطح المسجد و نادى جنده بان لا يبقوا على أحد حيا فى كل مكان قتل فيه جندى من "قزلباش".

و انطلق جنوده فى الأسواق و الأزقه ينفذون أمره فقاموا بمجزره عامه رهيبه. ثم نهبوا الأسواق و البيوت، و هدموا و أحرقوا كثيرا من الأبنيه، و نادر يقف فى المسجد شاهرا سيفه ينظر بنفسه إلى ما يجرى.

و استمرت هذه الغاره الهائله ست ساعات إلى أن أرسل "محمد شاه" أحد وزرائه و آخر من خواصه إلى نادر يتشفعان إليه و يلتمسان منه العفو و المسامحه. فأجابهما إلى طلبهما و استدعى حاكم المدينة و أمره أن يصحب جماعه من الحرس و يطوفوا فى الشوارع يأمرون الجنود بوقف الغاره. و قد امتثل الجنود الأمر فوراً، و هذا يدل على أن نادرا كان مسيطرا سيطره كامله على عسكره. يقول المؤرخ عبد الكريم البخارى: "إن إطاعه الجند لهذا الأمر إطاعه فوريه فى إبان الغاره و الفتنه أمر من الأعاجيب" و أمر أيضا باعاده كل الأسرى إلى أهاليهم. و قدر بعضهم عدد القتلى بأربعين ألفا، و بعضهم بعشرين ألفا، و بعضهم بثمانيه آلاف.

بعد ذلك عقد نادر قران ابنه "نصر الله ميرزا" على إحدى بنات العائله التيموريه المالكه، و أقيم لذلك عرس عظيم بين معالم الزينه، و الأضواء تشمل المدينة كلها، و أهدى "محمد شاه" إلى صهره شيئا كثيرا نفيسا من الجواهر و التحف، و أنعم على الضباط و العسكر الايرانيين بمبالغ كبيره من المال.

و كان من عاده المغول أن يكتبوا فى وثيقه الزواج سلسله نسب العريس إلى سبعة جدود. فطلبوا من العريس "نصر الله ميرزا" أن يذكر أسماء جدوده متسلسلين على هذا النحو. فجاء إلى أبيه و نقل إليه طلبهم هذا.

فقال له نادر: قل لهم إنك ابن السيف و حفيد السيف و نتيجة السيف.

و هكذا سلسل لهم أسلافك سيفا سيفا إلى سبعين جدا لا سبعة! ثم انصرف بعض رجال نادر إلى إحصاء الغنائم. و أمرهم بمعامله الناس بالحسنى و اجتناب كل ما من شأنه أن يؤذى شعورهم. و بلغت الغنائم مبلغا لا يتصور من النفاسه و الكثره، منها مبالغ ضخمه من النقد و منها "تخت طاوس" الشهير و لا يمكن تقديره بثمن، و منها ثلاث ماسات هى ماسه "كوه نور" (جبل النور) الشهيره و تسمى "ملكه الماس"، و هى اليوم فى لندن، و ماسه "درياي نور" (بحر النور) و هى اليوم فى إيران، و ماسه "أورلوف"، و هى اليوم فى موسكو. و من هذه الغنائم ستون ألف مخطوطه ثمينه.

و فى السادس عشر من ذى الحجه سنه ١١٥١ هـ بعث مع حامل بريده إلى إيران أمرا بإعفاء جميع الولايات الإيرانية من دفع الضرائب إلى مده ثلاث سنوات، و جعل ذلك حلوان انتصاره فى الهند. و أنعم على جنوده و خدمه بجوائز ماليه كثيره و خلع عليهم خلعا ثمينه.

ص: ١٩٨

و فى صباح ٢١ ذى الحجه حضر، بامر من نادر شاه. إلى قصر "محمد شاه" فى "باغ شليمار" كل عظماء الدوله و الجيش الايرانيين و الهنود. و حضر "محمد شاه" و وزراؤه مشاه. و هناك أمضى الملكان "معاهده شليمار" المعقوده بينهما، بحضور رؤساء الجيش الايرانى و وزراء الهند و رجال بلاطها و حكام محافظاتهما و علمائها. فلما وقع الملكان على المعاهده صاح الجميع "شاد باش"، ثم انقضى المجلس. و هذا نص المعاهده:

"سبق أن أرسل وزراء صاحب الجلاله، بهرام الصوله، مريخ السطوه، بطل الزمان، سلطان سلاطين الأوان، ملك ملوك العالم، ظل الله ملاذ المسلمين، إسكندر العظمه، سمك السرير، السلطان العادل المنصف و الملك السماوى الفطره، نادر شاه أفشار خلد الله ملكه و سلطانه، سفراء كبارا إلى هذا البلاط لتسويه بعض الأمور. و كنا نحن أيضا نرغب فى الوفاق. و بعد ذلك قدم أيضا محمد خان تركمان من قندهار للتذكير. و لكن وزراءنا و ممثلينا ماطلوا أولئك السفراء و أخروا جواب رساله صاحب الجلاله المعظم. و من هذه الطريق حصل نغار و سار جيشه المظفر إلى حدود الهند و تلاقينا فى نقاط مختلفه و فى صحراء كرنال. فاتقدت حرب عارمه. و من هناك طلعت، بتقدير إلهى، شمس الانتصار و الظفر من مشرق إقباله الذى لا- يزول. و إذ كان صاحب الجلاله جمشيد القدره المعظم منبع الرأفه و الفتوه فقد حصلت مسره الملاقاه بالاعتماد على شهامته و الاتكال على صحبته و حصلت بهجه الحديث فى محفل كالفردوس. و بعد ذلك ترافقنا إليشاه جهان (دهلى). و هناك عرضنا على نظره خزانة سلاطين الهند و جواهرها لنفيسه و أهديناها كما يليق إليه. و قبل صاحب الجلاله المعظم بعضها بالتماس منا، و أبقى عرش الهند و تاجها فى تصرفنا من علو همته و فرط محبته و التفاته إلى عظمه السلالة الجرجانيه و شرف شجره طرخان. و فى إزاء هذه الملاحظه التى لا- تصدر من أب إلى ابنه و لا- من أخ إلى أخيه نضع فى تصرف دوله إيران العليه خمسين و مائه كرور تومان (الكرور: خمسمائه ألف) خسائر الحرب و كل الأملاك الواقعه فى غرب نهر آت تلك [تلك] و ماء السند و نالاسنك و هو شعبه من شعب نهر السند يعنى بيشاور و ملحقاتها و إياله كابل و غزنه و كوهستان و أفغانستان و هزارجات و دربندا مع قلعه بكرسنك و خداداد و أراضي دربندا و مساكن الجوكيين و البلوش و غيرها و إياله تنه قلعه رام و قريه تربين و بلده رشن و سمولى و كتر مع كل الأراضي و القرى و القلاع و البنادر من ابتداء منبع نهر آت تلك إلى نالاسنك حيث مصب النهر فى البحر و كل القلاع و البلدان التى يحيط بها نهر آت تلك و فروعه أى أن كل الأماكن الواقعه فى غربى نهر آت تلك و تلك النواحي و غربى نهر السند و نالاسنك هى جزء من أملاك هذا الملك القوى الشوكه. و من هذا التاريخ فصاعدا يدخل عماله و موظفوه النواحي المذكوره و يتصرفون بها و يتولون الحكومه و الولايه عليها و على أهلها. و على عمالنا و موظفينا إخلاء النواحي المذكوره و أن يعدوها خارجة عن أملاكنا و يعلموا أن كل حقوقهم الحاليه و الماضيه هناك قد سقطت. و قلعه لهرى بندر و كل الأملاك الواقعه فى شرقى نهر آت تلك و نهر السند و نالاسنك هى كما فى السابق جزء من سلطنه الهند. فى باغ شليمار - مؤرخه فى ١١ المحرم الحرام سنه ١١٥٢ هجرية - محمد شاه التيمورى - نادر شاه أفشار".

و فى الثالث من صفر سنه ١١٥٢ هيا نادر شاه مجلسا ملوكيا بالأبئه و الفخامه، و دعا إليه "محمد شاه" و سائر أعيان الهند. فلما استقر بهم المقام أخذ بيده تاج سلطان الهند و وضعه على رأس "محمد شاه" و نطقه بسيف و خنجر مرصعين، و ألبسه، جريا على عاده سلاطين الهند، وشاحا مرصعا بالجواهر. فشكره "محمد شاه" بهذه الكلمه:

" لقد أعطاني شاهنشاه إيران تاج ملك الهند و عرشه، فكان ذلك منه سماحه و علو نفس. و إن إعادتهما إلى يجعل الأسره الجرجانيه ترفع رأسها عاليا. و أنا أيضا أعلن على مشهدكم جميعا أنى لشكر هذا الجميل الذى لا نظير له، أسلم الدوله الإيرانيه الشاهنشاهيه إلى الأبد الأراضى الواقعه على ضفه نهر السند اليمنى، من بحر عمان إلى منبع نالاسنك، مع كل مدن تلك الأرض و قلاعها و سهولها و جبالها".

فرد عليه نادر بكلمه نصحه فيها بالاهتمام بشئون مملكته و تقويه جيشه و ضبط حساباته و الضرب على يد المتلاعبين من الوزراء و رجال البلاط.

و قطع له عهدا بان يسارع إلى نجدته كلما وجد حاجه إلى ذلك. ثم أصدر أمرا بالتوقف عن سك النقده و الخطبه باسمه و جعلهما مجددا باسم "محمد شاه".

عوده نادر إلى إيران

و لما فرغ نادر من أعماله فى الهند عزم على العوده إلى إيران. فبعث بجماعه من النجارين و السفانين إلى كابل و بلخ ليصنعوا له سفنا تحمل جنوده على نهر "جيحون" إلى غزو تركستان و خوارزم. و حمل معه جماعه كبيره من البنائين و النحاتين و الصاغه إذ كان ينوى أن يبنى فى إيران مدينه كدهلى، كما حمل معه جماعه من علماء الهند و أكابرها.

و فى الثامن من شهر صفر سنه ١١٥٢ هـ ترك "دهلى"، و كان قد أقام فيها ثمانيه و خمسين يوما، فى قافله هائله فيها ألوف من الدواب، أفيال و خيل و جمال و بغال. و حملت الذخائر فى ثلاثه عشر ألف صندوق. و امتطى نادر حصانا عراقيا و اعتمر بقلنسوه حمراء مرصعه و لف على عنقه شالا كشميريا أبيض، و اجتاز شوارع "دهلى" مزهوا مختالا، ينثر الروبيات بكلتا يديه على رؤوس الناس.

و قاسى فى عودته شدائد صعابا من الحر و العواصف و الأمطار الغزيره و الفيضانات و مقاومه قطاع الطرق، و مات بهذه العوامل كثير من رجاله. و لما وصل إلى نهر يعرف بنهر "شهناپ" هطلت أمطار غزيره، و كان جيشه يعبر النهر على جسر أقيم عليه من السفن. فلما عبر منهم إلى الضفه الأخرى ما يقرب من نصفهم كانت حواميل المطر السائله فى النهر قد طغيانا عظيما فتضعض الجسر، و هو ينوء بتلك الأحمال الثقيله من الرجال و العتاد، و انشق فهوى فى الماء أكثر من ألفى جندى و غرقوا. و فى اليوم الثانى جرف التيار كل سفن الجسر. و اضطر نادر إلى إقامه جسر آخر جمع سفنه من تلك النواحي، و استغرق ذلك أربعين يوما.

و كان يرافقه حاكم "لاهور"، فسلم هناك من كان معه من الأسرى الهنود و أمره بالعوده بهم إلى بلادهم و مساعدتهم و تسليمهم إلى أهلهم، ثم الذهاب إلى "لاهور" مركز عمله.

و جاءه خبر من خراسان، و هو فى طريق عودته، أن والى خوارزم اغتتم فرصه غيبته فى الهند فاخذ يجمع جيشا من الأزابكه و الأتراك لغزو خراسان، فعزم على مهاجمه تركستان.

و لما وصل إلى " حسن آباد أتك " بعث برسولين أحدهما إلى السلطان العثماني و الآخر إلى القيصر الروسي و حملهما إليهما هدايا نفيسه من الجواهر، ليعلماهما بنيا فتحه بلاد الهند.

و تابع نادر سيره قاصدا "كابل". و اعترضه في طريقه، في بعض الجبال و في مضيق خيبر بعض طوائف الأفاغنه الشجعان بمقاومه شديده أريق فيها كثير من الدماء، فتغلب عليهم و قتل منهم كثيرا، ثم صالحهم، و انضم فريق منهم إلى جيشه.

و وصل إلى "كابل" في غره رمضان سنه ١١٥٢هـ، فخرج إلى استقباله كل أعيانها و رؤساء قبائل الأفاغنه و جمهور كبير من سائر رجالها، و أظهروا له كل مظاهر الإجلال و الاحترام. و تجند في جيشه أكثر من أربعين ألف أفغانى من "بيشاور" و "كابل" و "هزاره" و نواحى أخرى و أرسلوا إلى "هرات" ينتظرونه فيها.

إلا أن نادرا اضطر إلى تأديب أحد العصاه الأقوياء، هو حاكم "المينداور" السند. فجهز حمله كلفته خسائر جسيمه فى الأرواح و الأموال بسبب البرد و وعوره الطريق و نهوض المقاومين إلى محاربتة من كل جانب فى طريقه و منع الناس الأقوات عن جيشه. و لكنه استطاع أن يقهرهم حتى وصل إلى مقر العاصى فظفر به. و يرى "مينورسكى" (١) أن حمله نادر شاه هذه تعد من أروع أعمال حياته. و أسر نادر العاصى و قيده و حمله معه إلى أحد المنازل ثم عفا عنه، إذ أنه أحسن السلوك حتى رضى عنه، و أطلق سراحه، بل إنه أعاده حاكما على قسم من ولايته التى كان واليا عليها، و أخذ عليه عهدا بان يبعث إليه بمبلغ معين من المال و عدد من الجند و استبقى عنده اثنين من أبنائه رهيتين.

و من هناك سار قاصدا " نادرآباد " حيث استهل حملته على الهند، فوصلها فى السابع من صفر سنه ١١٥٣هـ، بعد أن غاب عنها فى تلك الحمله مده سنتين.

و فى العاشر من ربيع الأول سنه ١١٥٣هـ دخل إلى "هرات" قادما من " نادرآباد " فمكث فيها سته عشر يوما.

غزو تركستان

ثم سار إلى تركستان لتأديب المتمردين و الأخذ بثارات سابقه. فلما ابتعد عن "هرات" مسافه أمر ببناء قلعه حصينه هناك. فقال له أحد رجاله: إذا كان الشاه يتسلط على كل إيران و الهند و أفغانستان و كرجستان فما حاجته إلى قلعه حصينه؟! فأجابه نادر: ألترم الحيطه أن يخرج على عدو من الداخل لأن العدو الداخلى أشد خطرا من العدو الخارجى.

و لما وصل إلى نهر " جيحون " كانت السفن التى سبق أن أمر ببناؤها جاهزه لنقل الجند. و بدأ ببخارى بمعركه انتهت إلى انتصاره على جيش ملكها فاستسلم إليه على نحو ما استسلم "محمد شاه" فى الهند. فأحسن نادر معاملته و عفا عنه. و لما دخل بخارى خطب باسمه فى المساجد و ضرب النقد باسمه. و منع نادر جنده من التعدى على الناس و نهبهم، و رتب دوريات من الحرس للقيام على تنفيذ هذا الأمر. و هكذا أصبحت قواته تسيطر على إقليم ما وراء النهر كله، من شرقى بخارى و شمالها الشرقى إلى "سمرقند".

ثم بعث بجيش إلى "سمرقند" لاختضاع إحدى الطوائف المتمرده.

و أمر قائد هذا الجيش أن يذهب، بعد إتمام مهمته، إلى مشهد و أن يحمل معه إليها بلاطه قبر "تيمور" و أبواب مدرسه "سمرقند" المصنوعه من الشبهان. و لكن نادرا لما عاد، بعد ذلك، إلى مشهد ندم على نقل هذه الأشياء إليها، و أمر بردها إلى "سمرقند" و إعادتها إلى أمكنتها التي كانت فيها.

و أدخل في جيشه ثلاثين ألفا من الأزابكه و أمر عليهم أحد أقارب ملك بخارى. ثم خلع على الملك خلعه فاخره، و توجه بيده ملكا على بخارى.

غزو خوارزم

و بعث نادر من بخارى بثلاثه رسل إلى والى خوارزم يستدعيه إليه و يطلب منه ترك الخصومه و الانقياد إلى طاعته، إذ كان هذا الوالى معاندا له شديد المراس. فلما أبلغ الرسل إليه رساله نادر غضب و قتلهم.

فلما علم نادر بقتلهم ذهب إلى مشهد. و منها هيا جيشا سار به إلى خوارزم. و كان عليه أن يعبر جسرا على نهر "جيحون" عند "شير حاجى". و كان والى خوارزم قد بادر إلى تهيئه جيش عظيم أرسله سريعا إلى موضع الجسر ليهدموه قبل وصول نادر إليه. و لكن نادرا أبدى يقظه و همه عجيبين فى إدراكه لخطتهم و سبقهم إلى الجسر، فعبه قبل أن يصلوا إليه.

و كانت القوات التي لاقته فى بلاد خوارزم على درجه عظيمه من الشجاعه و الكثره و التهيؤ. و لكنه استطاع أن يهزمها فى جميع المعارك التي خاضها بحسن تدبيره و دفته فى اختيار الأماكن و الحالات التي تصلح للحرب و التي لا تصلح لها. و قتل والى خوارزم، و لكنه، كعادته، منع جنده من التعدى.

و فى مدينه "خيوه" من ذلك الإقليم حرر من الأسر ما لا يقل عن عشره آلاف خراسانى كانوا أسرى فيها و فى غيرها من بلاد خوارزم، و أحسن إليهم و زودهم بالمال و الخيل و الطعام، و بعث بهم إلى خراسان، و بنى لهم هناك مدينه فى شمال "أبيورد" شبيهه بمدينه "دهلى" عرفت فيما بعد باسم "خيوه آباد" و أسر جماعه كبيره من أهالى "خيوه" و بعث بهم معهم ليكونوا أرقاء فى خدمتهم انتقاما لهم من أسر بهم. و حرر أيضا عشره رجال من الروس كانوا أسرى هناك. و منح كل واحد منهم حصانا و خمسين روبلا روسيا ليتمكنوا من العوده إلى بلادهم، و جعلهم فى رعايه روسى عهد إليه بمرافقتهم إلا بلادهم و أهلهم.

و طلب إحضار جميع الأجانب الموجودين هناك فاحضروا، و كان بينهم اثنان من الإنكليز كتبا بعد ذلك تفاصيل هذا اللقاء. و سال هؤلاء الأجانب من أعمالهم فأجابوا بأنهم تجار. فأبدى لهم كثيرا من العطف و البشاشه و قال لهم: لكم الحريره بان تتاجروا أينما شئتم من البلاد التي أحكمها. و إن مسكم أحد بضر و قصر رجالى فى إنصافكم منه فارجعوا إلى مباشره.

العوده إلى خراسان

ثم غادر "خيوه" قاصدا "مرو" فى الرابع من شوال سنه ١١٥٣ هـ.

و فى "مرو" قام بأعمال عنيفه قاسيه. فعزل واليها و أقام آخر فى مكانه، و قتل جماعه من المعاندين، منهم رئيس اسمه "رحيم خان" اشتهر عنه أنه يحرض

١- فلاديمير مينورسكى مؤلف كتاب "تاريخ نادر شاه". أقام عدده سنوات فى إيران. و كان أستاذ الأدب الفارسى فى جامعه لندن.

"رضا قلى ميرزا" ابن نادر شاه على طلب منصب الملك لنفسه.

ثم انطلق إلى "دستجرد" مسقط رأسه، و كان قد بنى فيها عماره فخمه باسم "مولود خانه" تذكارا لولادته فيها، و نصب فى أعلاها سيفا من الذهب. ثم سار إلى "كلات" فأودع فى خزائنها ما حملة من كنوز الهند و جواهرها، و بنى فيها قبرا لنفسه من مرمر أسود حملة إليها من "مراغه" و كان مقدارا كبيرا، و جمل قلعتها بحديقه أنيقه. ثم زار المدينة الجديده "خيوه آباد" و تفقد سكانها من الأسرى السابقين بمقادير كبيره من اللباس و الطعام و النقود.

و من "كلات" ذهب إلى "أبيورد" و منها إلى مشهد فوصلها فى آخر شوال سنه ١١٥٣ هـ. و كان يعد مشهد بمنزله عاصمه لإمبراطوريته و يفضلها على أصفهان. و أهدى مقام الامام الرضا (ع) هدايا عظيمه، منها فرش كثير من الحرير و أربعة عشر قنديلا من الذهب الخالص، و بنى فى صحن المقام حوضا كبيرا من المرمر الأبيض النفيس جلبه من "هرات"، و شرط على من حملة منها أن يكون المرمر جاهزا للبناء فى مده اثنى عشر يوما.

و كان ملوك إيران يفحصون، حيناً بعد حين، حسابات الولايات.

و لكن هذه الحسابات لم تكن تضبط يومئذ فى دفاتر مخصوصه، بل كان الموظفون يجبون الضرائب على هواهم و يحتفظون بقسم منها لأنفسهم و يوصلون الباقي إلى خزانه الدوله. و هكذا كان الأمر فى زمان نادر. فقام بمحاسبه موظفى الجبايه محاسبه دقيقه. فتبين له أنهم تلاعبوا فيها، فغضب و قتل جماعه من المسئولين عن هذا التلاعب.

حرب نادر و العثمانيين

بدأ نادر بمحاربه العثمانيين سنه ١١٤٢ هـ. فبعد أن طرد الأفاغنه من شيراز فى تلك السنه عزم على إخراج العثمانيين أيضا من أرض إيران، إذ أن مفاوضاتهم لم تأت بنتيجه و ظلوا يحتلون بعض المدن الإيرانية لا يجلبون عنها.

فجند جيشا من خمسة و عشرين ألفا، بين فارس و راجل، و مدفعيه، و سار به من شيراز نحو "همدان" فى ١٨ شعبان سنه ١١٤٢ هـ.

فأغار أولا على "نهاوند" تبيتا فى ٤ رمضان من تلك السنه و أباد حاميتها من العثمانيين و فر قائدهم "عثمان باشا" إلى "همدان". ثم تتبع العثمانيين فهزمهم عند "ملاير"، و كانت عدتهم تسعه و أربعين ألفا، قتل منهم حوالى سبعة آلاف، و فر الباقون إلى "همدان". ففتبعهم إليها و احتلها بلا مقاومه، إذ كان قائدهم "عثمان باشا" كان قد فر بجنده إلى بغداد، و ترك ذخائره و عتاده الحربى غنيمه للجيش الأيرانى. و تتبعهم نادر إلى "كرمانشاهان" فاحتلها. و عزم أن يسير منها إلى إياله "أذربيجان" لطرده العثمانيين منها.

و فى أثناء ذلك وصل خبر حملة نادر على العثمانيين إلى القسطنطينيه فاعلنت الدوله العثمانيه الحرب على الدوله الإيرانية رسميا، و كان ذلك فى السابع من المحرم سنه ١١٤٣ هـ.

و سار نادر إلى محل تمرکز العثمانيين فى "ميان دو آب" فى الجنوب الشرقى من بحيره "أروميه". و كانت عدده جيشه قد

أصبحت مائه ألف مقاتل. فرأى العثمانيون أن لا قبل لهم به ففروا إلى "مراغه" من غير أن يطلقوا رصاصه واحده. فقتلهم نادر و احتل "مراغه" و مدنا أخرى فى تلك النواحي، و غنم كثيرا من المعدات و أسر كثيرا من الجند و فر العثمانيون إلى ناحيه قريبه من تبريز، فقتلهم حتى احتل تبريز فى ٢٨ المحرم سنه ١١٤٣ هـ.

و كان جيش عثمانى آخر بامر قائد اسمه "رستم باشا" قادمًا لنجده العثمانيين فى تبريز، و هو لا يعلم بخروجهم منها و احتلال نادر لها. فخرج إليه الجيش الايرانى و أوقع به هزيمه شديده و أسر قائده و جماعه كبيره من ضباطه. ثم بعث نادر بسفير من قبله إلى القسطنطينيه يقترح على السلطان العثمانى عقد معاهده هدنه بين الدولتين.

و عامل نادر أسيره "رستم باشا" و ضباطه الأسرى بالحسنى ثم أطلق سراحهم. و خف مسرعا إلى خراسان.

و أوقعت انتصارات نادر تشويشا فى العاصمه العثمانيه، إذ أخذ البلاطيون و أصحاب النفوذ يتهم بعضهم بعضا بالتقصير و سوء التدبير فى سوق الجيش إلى إيران. و قتل الصدر الأعظم و خلع السلطان أحمد و بويع السلطان محمود، و قامت ثوره فى ألبانيا فشغل ذلك الدوله العثمانيه عن متابعه محاربتها لايران. كما أن نادرا عدل عن متابعه الحرب، بعد أن كان ينوى تعقب العثمانيين إلى "نخجوان" و "إيروان"، و ذلك لأخبار وصلته من مشهد بان حربا أهليه بين الأبداليين قد نشبت فى "هرات"، و أن الموالين له منهم قد أخرجوا منها. و أن الثائرين على وشك الهجوم على مشهد. و لذلك أسرع عائدا إلى خراسان.

خلع الشاه طهماسب

أسرع نادر إلى خراسان ليقمع ثوره الأبداليين على حين كان الشاه طهماسب يلهو فى أصفهان. ثم تمادى فقام بعمل جنونى إذ عزل نادرا عن قياده الجيش و جعل قيادته فى يده. و قرر أن يقتصر عمل نادر على إداره أمور خراسان فقط، و لا حاجه إليه فى استرجاع النواحي الإيرانيه التى استولى عليها العثمانيون و الروس. ثم جهز جيشا من ثمانيه عشر ألفا، و بدأ محاربه العثمانيين فى جمادى الآخره سنه ١١٤٤ هـ ليخرجهم من أرض إيران الشماليه الشرقيه. و خرج من أصفهان قاصدا "همدان". و منها بعث رسولا إلى القسطنطينيه لتهنئه السلطان محمود، السلطان الجديد، بجلوسه على لعرش [العرش]، و بعث بمندوب آخر إلى أحد اللزكيين من أعوان الدوله العثمانيه فى حدودها الجنوبيه، و لكن اللزكى ضرب عنق المندوب الايرانى و بعث برأسه إلى القسطنطينيه، إذ كان عارفا بنوايا طهماسب.

و ذهب طهماسب إلى تبريز فعزل حاكمها الذى عينه نادر و نصب فى مكانه أحد خواصه. ثم قصد بجيشه إلى "نخجوان" و "إيروان" فحاصرهما. و لكنه اضطر إلى التراجع إذ نفذت مئونه. ثم انتهت محاولاته كلها إلى الهزيمه، و استرد العثمانيون النواحي التى كان نادر قد استخلصها منهم و تابعوا تقدمهم فى أرض إيران، و عاد الشاه طهماسب إلى أصفهان منهزما. و قد قتل من جيشه خمسه آلاف جندى، و اضطر إلى عقد معاهده صلح بينه و بين العثمانيين تقضى بان تكون كل الأراضى الواقعه فى شمالى نهر "أرس" إلى "كرمانشاهان" ملكا للعثمانيين. و عقد معاهده أخرى فى مدينه "رشت" بينه و بين روسيا تقضى بان تتخلى إيران عن ولايه "باكو" و داغستان للروس.

و فى هذه الأثناء وصل إلى أصفهان رجل قال إن اسمه "إسماعيل ميرزا" و أن أخو الشاه طهماسب و أن أحد خدم القصر نجاه من القتل يوم قتل

محمود الغلجائي أبناء الشاه حسين حين احتلاله أصفهان. و بعد تحقيقات قام بها البلاط اعترف الشاه طهماسب بإخوته. و لكن حدث بعد مده وجيزه أن تامر جماعه من الوزراء و الفقهاء و نساء الشاه على أن يخلعوا طهماسب و يولوا "إسماعيل ميرزا" هذا منصبه. إلا أن الشاه طهماسب عرف بالمؤامره فقتل "إسماعيل ميرزا" و كل جماعه المؤامره.

و أما نادر، و كان يومئذ في نواحي "هرات" مشغولا بقمع الثورة، فقد غضب حين بلغ إليه نبا هزيمة الشاه طهماسب، و بعث بواسطة السفير العثماني، رساله شديده اللهجه إلى السلطان العثماني جاء فيها "إن معاهده الشاه طهماسب ليست لها قيمه سياسيه. فاما أن يعيد كل الأرض الإيرانيه أو فليتها للحرب".

و بعث برساله إلى "أحمد باشا" والى بغداد العثماني بأنه قادم إلى بغداد في القريب العاجل. و بعث رسولا إلى أصفهان أبلغ عزمه إلى رجال البلاط. و بعث برساله قاسيه إلى وزراء الشاه و أنبهم تأنيا شديدا على الطريقه التي نظروا بها إلى معاهده الصلح. و أذاع بيانا عاما وجهه إلى رؤساء إيران و أشرافها و شعبيها، و كتب فيه أن سيفه قد سخر، بعون الله المتعالى، مدنا و إيالات كثيره. فاحتلت قلعه هرات، و انكسر الأبداليون، و وضع غلجائيو قندهار في أعناقهم نير العبوديه، و سقنا ستين ألف عائله منهم إلى خراسان. و ندد بمعاهده الصلح و اعتبرها مهينه لشرف إيران و كرامتها مجحفه بحقوقها، و أعلن رفضه لها. و قال إن الحرب ستبدأ بعد عيد الفطر و ستنفذ مرحله مرحله. و أعلن في ختام البيان أن كل من تخلف عنه سيحرم من جميع الامتيازات الدينيه و تقع عليه العقوبه الالهيه و ينفى من جماعه المسلمين و بعد [يعد] من الخوارج.

و كان نادر لا يزال في "هرات". فلما انتهى من قمع الثورة و أقر الأمور هناك في يد أعوانه و أنصاره، عاد إلى مشهد في الخامس عشر من شهر رمضان سنه ١١٤٤ هـ. ثم بعث بوفد من قبله إلى أصفهان إلى الشاه طهماسب، كان من جمله مهمته أن يلتبس من الشاه ملاقاته في قم أو طهران. و أمر من معه من رؤساء الأبداليين بتهيئه جيش منهم يكون مستعدا للاغاره في وقتها، و أمرهم أن يطوفوا بهذا الجيش حول مقام الامام الرضا (ع) للتبرك.

ثم سار إلى طهران مع ستين ألف جندي ليلاقي الشاه طهماسب حسب طلبه السابق. و لكن الشاه رفض الخروج من أصفهان، فسار نادر توا إليها. فلما وصلها أدى مراسم التشريفات اللازمه للشاه ثم دعاه إلى مسكنه إلى وليمه يقيمها على شرفه، و هيا لها على أكمل وجه كل ما يقتضيه هذا المقام من آداب و سنن. ثم أخذ يتحدث إلى الضباط الحاضرين عن الشاه طهماسب و سال مستنكرا: لما ذا خان الشاه وطنه بتوقيعه على معاهدتى بغداد و رشت، معاهدتى العار و الذل؟! و قال أيضا: في هذه المعاهده لم يأتوا على ذكر أحد من الضباط الايرانيين الذين وقعوا أسرى في يد العدو! و من العار أن تتخلى عن إخواننا هؤلاء و نتركهم في يد العدو! فاثار هذا الخطاب غضب الضباط و حميتهم و توجهوا كلهم باللوم و التفرغ إلى الشاه.

ثم حضر الشاه طهماسب و أذن للأعيان و رجال البلاط بالحضور، و أمر باعداد الشراب و إحضار المطربين و تهيئه أسباب الأونس. فقام نادر بإنفاذ الأوامر ملتزما كل الالتزام آداب الضيافه ممثلا بمنتهى التهذيب لكل ما يأمر به الشاه. و ظل الشاه ثلاثه أيام متواصله يلهو و يلعب و يعب الخمر مع رجال البلاط و أمثالهم من الفاسدين. و عرف الجميع، من رؤساء الجيوش و ضباطها أن الشاه طهماسب ظل يشرب الخمر حتى فقد عقله و حينئذ عقد نادر مجلسا من رؤساء الجيش و "قزلباش" بحثوا فيه حاله الشاه و اتفقوا كلهم على أنه عاجز عن الاستمرار في الحكم. و شهدت أيضا جماعه كبيره من أهل أصفهان بأنه غير أهل للملك، و اتفقوا كلهم على وجوب خلعه و إجلاس ابنه "عباس ميرزا" على عرش المملكه الإيرانيه، و كان ابنه هذا لا يزال طفلا رضيعا في

الشهر الثامن من عمره. و أبلغوا قرارهم هذا إلى الشاه فاستعفى من منصبه. فأمر نادر بإرساله و جميع حرمه و خدمه إلى مشهد تحت مراقبه شديده، يرافقه خمسه آلاف جندي.

و فى اليوم السابع من ربيع الأول سنة ١١٤٥ هـ توج الشاه عباس الثالث الصفوى فى قاعه من أحد القصور الملكيه على هذا النحو: وضع مهد الأمير الطفل الرضيع فى القاعه، و وضع نادر على رأسه شاره الملك و إلى جانبه سيف الشاه، ثم أدت له التشريفات المتبعه. و أقيمت فى المدينه احتفالات الفرح و الابتهاج سبعة أيام بلياليها و خلعت الخلع الفاخره على الأمراء و الأعيان.

و كان من الطبيعى أن ينصب نائب عن صاحب العرش الجديد إلى أن يبلغ سن الرشد. و لم يكن أحد أليق من نادر بهذا المنصب. و بهذا استغنى نادر عن لقب "طهماسب قلى" الذى منحه إياه الشاه طهماسب سنة ١١٣٩ هـ، و اتخذ لنفسه لقب "وكيل الدوله و نائب السلطنه". و أبلغ نبا الانقلاب الجديد إلى الدوله العثمانيه و الدوله الروسيه. و جعل إقامة الشاه الجديد فى "دار السلطنه قزوین".

استئناف محاربه العثمانيين

ثم سار نادر إلى قمع ثوره محليه فقضى عليها. و توجه بعدها إلى استئناف محاربه العثمانيين. فسار إلى "كرمانشاه"^(١) و حاصرها فى التاسع من شهر جمادى الآخره سنة ١١٤٥ هـ، فقاومه العثمانيون قليلا ثم اضطروا إلى الجلاء عنها فاحتلها. و منها سار إلى "خانقين" و حدود العثمانيين فى العراق.

و سلك طريقا لم يكن العثمانيون يتوقعون أن يسلكها فلم يلتفتوا إلى تحصينها.

و انحرف عن الطريق المألوفه التى أقام فيها العثمانيون تحصينات قويه، و هاجمهم فى مواقع أخرى غيرها، فانتصر عليهم و قتل منهم كثيرين و أسر كثيرين، منهم أحد الباشوات كان حاكما على إقليم هناك. و بعث بقوه إلى "كر كوك" فحاصرتها.

و تابع سيره إلى بغداد فحاصرها فى الثانى من شهر رمضان سنة ١١٤٥ هـ، و وجه قوه احتلت سامراء و الحله و كربلاء و النجف و مدنا أخرى من العراق.

و وافق حلول عيد النوروز اليوم الثالث من شهر رمضان من تلك السنه، و بغداد فى الحصار. فأقام نادر احتفالا فى معسكره و خلع على رؤساء العسكر خلعا كثيره. و أراد السخرية من "أحمد باشا" والى بغداد العثماني، فبعث إليه ببضع قرب مملوءه بعصير البطيخ، فرد عليه "أحمد باشا" بان أرسل إليه أرغفه من أحسن خبز بغداد. و كان يفصل عن جيشه فى كل

ص: ٢٠٢

١- كرمانشاه، و كرمانشاهان: اسم واحد.

أسبوع أو أسبوعين حوالى عشره آلاف جندى، و يعيدهم فى الخفاء ليلا إلى الورا من حيث جاءوا، فيبتعدون بضعه كيلومترات و يمكنون هناك حتى الصباح، إذ يعودون إلى المعسكر فى جلبه و ضوضاء رافعين رايات كثيره.

يفعل ليوهم العدو أنها نجدات و إمدادات جديده وصلت لمساعده الجيش الايرانى.

و لم يحل آخر المحرم من سنه ١١٤٦ هـ حتى أصبح المحصورون عاجزين عن تحمل الحصار، فبعث "أحمد باشا" رئيس ديوانه و محافظ بغداد سفيرين من قبله إلى نادر لمفاوضته فى موضوع تسليم المدينه.

و لكن حدث فى هذه الأثناء أن جاءت نجده عظيمه من العثمانيين عدتها مائه ألف جندى يقودها "توبال عثمان باشا"، و هو من أعظم العسكريين العثمانيين، لمساعده المحصورين فى بغداد. و كانت هذه النجده، و هى فى طريقها إلى بغداد، قد رفعت الحصار عن "كر كوك" و أرجعت عنها الجيش الايرانى المحاصر الذى كان نادر قد سيره لحصارها، و هو فى طريقه إلى بغداد. و من ثم رجع "أحمد باشا" عن تسليم المدينه و ثبت للحصار.

و لما قرب "توبال عثمان باشا" من بغداد بعث إليه نادر برسالة قال فيها إنه حاضر لمحاربهه أينما شاء. و لكن القائد العثمانى اعتقل الرسول و لم يجب على الرساله. و سار نادر بجيشه، ليله السادس من صفر سنه ١١٤٦ هـ، بعد أن أبقي قوه تديم الحصار، من خط المحاصره نحو الشمال حتى التقى بالجيش العثمانى على بعد ١٨٠ كيلو مترا من بغداد على شاطئ دجله، حيث دارت معركة رهيبه، انتهت بانتصار العثمانيين. و جرح فيها نادر و خسر شيئا كثيرا من العتاد و الرجال. و قدر عدد القتلى من الايرانيين بثلاثين ألفا و الأسرى أكثر من ثلاثه آلاف، و من العثمانيين بأكثر من عشرين ألف قتيل.

و دخلت القوه المنجده بغداد و غيرها من المدن التى احتلها الايرانيون.

و وصلت أنباء هزيمة نادر إلى إيران فجرت خضومه و أنصار الشاه طهماسب على الخروج عليه.

إعادته الكره على العثمانيين

أما نادر فتلقى هذه الهزيمة بثبات و اتران. و كان يقول إن انكسار إيران كان مقدرًا من الله، و لا راد لقدره. و انصرف مره ثانيه إلى جمع قواته و تجديد جيشه، فبعث، و هو فى طريق العوده إلى إيران، بامر إلى حكام الايالات الايرانيه كلها أن يقوموا بتجميع الأسلحه و المهمات الحربيه، و أن تتمركز كل القوى و التجهيزات فى مدينه "همدان". و عزل بعض حكام الولايات.

و فى الثامن و العشرين من صفر سنه ١١٤٦ هـ ذهب إلى همدان ليشرف بنفسه على تفاصيل التجهيزات العسكريه. و أنعم على الجنود الذين شاركوا فى محاربه العثمانيين بمبلغ كبير من المال. و انتهى من مهمته هذه على أحسن وجه فى مده شهرين. و فى الثانى و العشرين من شهر ربيع الثانى سنه ١١٤٦ هـ تحرك نادر بجيشه الجديد من "همدان" قاصدا إلى "كرمانشاه".

و قد تغلب الايرانيون على العثمانيين فى أول معركة جرت فى نواحي "كر كوك". و قتل فى هذه المعركة "توبال عثمان باشا" قائد الحمله. و قطعوا رأسه و رفعوه على رمح و بعثوا به إلى نادر علامه على النصر. فلما رآه نادر غضب غضبا شديدا من إقدام جنده على قطع رأس هذا العسكري الشجاع و القائد المجرب. ثم وضع الرأس مع بدنه فى تابوت بين مظاهر الاحترام و التجليل،

و بعث به في رعايه "عبد الكريم أفندي" قاضي العسكر العثماني - و كان أسيرا عنده - إلى بغداد حيث دفن عند قبر أبي حنيفة.

ثم أمر أحد قواده، و كان يعسكر قريبا من سامراء، باحتلال الحلة و النجف و كربلاء. و سار هو بثلاثين ألف جندي إلى بغداد. و احتل، و هو في طريقه إليها، السليمانية و كركوك و الموصل و كردستان العثمانية. و وصل إلى بغداد في الثامن من جمادى الآخرة سنة ١١٤٦ هـ. ثم انصرف عنها لطرده العثمانيين من قلاع احتلوها في الشمال، و احتل في طريقه "أربيل"، ثم عاد إلى محاصره بغداد.

و بعد بضعة أيام من وصوله إليها بعث إليه الوالي العثماني "أحمد باشا" في الخفاء مندوبا أراه و ثائق رسميه تخول الوالي عقد معاهده صلح بينهما بما يراه الوالي. و عرض عليه أن يعيد العثمانيون إلى إيران كل الأراضي التي استولوا عليها في مقابل انصراف الإيرانيين عن محاربتهم. و تم الاتفاق بينهما على ذلك و وقعا على معاهده به في شتاء سنة ١١٤٦ هـ. و سلم العثمانيون إلى نادر الإيرانيين الذين كانوا في أسرهم، و قدموا إليه هدايا لائقه. و طلب الوالي مهلة مده شهرين للحصول على موافقه دولته على المعاهده.

ثم زار نادر العتبات المقدسه في الكاظمين و كربلاء و النجف و انصرف عائدا إلى إيران.

و لكن تبين لنادر فيما بعد أن العثمانيين لا يريدون الصلح و أنهم ينوون الاحتفاظ بما استولوا عليه من أرض إيران و نقض المعاهده المعقوده بينه و بين والي بغداد. فتابع محاربتهم و محاربه أعوانهم في أذربيجان و كرجستان و القفقاس، و نواحي أخرى، و استولى على مدن و أقاليم هامه مثل "شماخي" عاصمه إقليم "شيران" الواقع في ساحل بحر قزوين الغربي و "إيروان" و "قارص" و "نفليس" و إقليم "داغستان" و غيرها. و في مطلع سنة ١١٤٨ هـ تمكن من عقد معاهده بينه و بين روسيا تعهدت روسيا فيها بالجلء عن "بادكوبا" و "دربند". و جلت عنهما بالفعل، و انتهى بذلك احتلال الروس لشمال إيران بعد أن دام ثلاث عشره سنة. و في الخامس عشر من جمادى الأولى سنة ١١٤٨ هـ كان نادر قد استخلص إقليم القفقاس من أيدي العثمانيين و الروس و سيطر عليه كله. و أخدم ثورات في إيران و أفغانستان و الخليج و احتل جزائر البحرين.

و في التاسع من جمادى الآخرة سنة ١١٤٩ هـ عاد إلى أصفهان، فاستقبل بالزينات و مظاهر الفرح و الإجلال. ثم أخذ يتهيأ لغزو "قندهار" حتى فتحها سنة ١١٥١ هـ كما مر سابقا.

غزو داغستان

و في هذه السنه، سنة فتح "قندهار"، كان أخوه "إبراهيم خان" في إقليم داغستان يغزو متمردين من "اللزكيين" فقتل في هذا الغزو. و قطع نادر على نفسه عهدا بان ينتقم له من "اللزكيين". فأعد جيشا لذلك و خرج به من مشهد في ١٦ ذى الحجه سنة ١١٥٣ هـ، و معه ابنه الأكبر "رضا قلي ميرزا"، قاصدا وادي "جرجان" الواقع في نواحي "مازندران". و في هذا الوادي قاسى مشقات كبيره في عبور نهر "جرجان"، إذ طغى النهر بسيل عظيم، فغرق فيه جماعه كبيره من جنده و مئات من البغال التي تحمل الزاد و الذخائر. و ذهب الماء ببعض خيم الحرس الذين يحرسون خيمه نادر نفسها. فخشى أصحابه أن يصل الماء إلى خيمته، و لكنه رفض أن ينقلها إلى

مكان أرفع. و ظل هادئا متكئا على مسنده فيها ينظر إلى السيل حوله غير مكترث له.

و فى هذه الأثناء وصله تقرير من قائد جيش كان قد سيره إلى داغستان أن "اللكيين" تهيئوا للحرب فى السفوح الجنوبيه و الشماليه من جبال القفقاس. و نشبت معركة شديده انتهت بانهزام "اللكيين" و احتل الايرانيون أماكنهم. فبعث بخلع ثمنيه إلى ضباط الجيش و مكافات ماليه للجنود الأفاغنه، و كانوا يحاربون مع الايرانيين، ثم وصله تقرير آخر أن القوات الإيرانيه حملت على "اللكيين" مره ثانيه فى مكان آخر و انتصرت عليهم.

محاولة اغتيال نادر

و لما انخفض سيل الماء تابع نادر سيره إلى طهران. فلما وصل إلى غابه تعرف بغابه "سواد كوه" على مقربه من قلعه اسمها "أولاد" أطلقت عليه رصاصه من وراء شجره على بعد عشرين قدما منه فأصابته بجرح بسيط فى يده و أصابت حصانه فقتلته. و لم يمكن العثور على مطلق الرصاصه. و كان ذلك فى ٢٨ صفر سنه ١١٥٤ هـ. و لما وصل إلى طهران أبقى فيها ابنه "رضا قلى ميرزا" - و كان قد أصبح يسىء الظن به - ثم تابع سيره إلى قزوین.

و كان منذ مده يشكو اعتلالا فى صحته. و قد صحب معه من الهند طبيا اسمه "علوى خان". و فى قزوین أذن لهذا الطبيب، بناء على وعد سابق منه، بان يتركه و يذهب إلى مكه لأداء فريضه الحج. و أصبح اعتلال صحته يزداد يوما بعد يوم، و يؤثر فى حالاته الروحيه و العصبيه.

متابعه الحمله على داغستان

و من قزوین تابع مسيره إلى إقليم داغستان. و فى أول جمادى الأولى سنه ١١٥٤ هـ كان قد أصبح فى قلب هذا الإقليم. و فى الخامس من شعبان من تلك السنه دخل "دربند" على شاطئ بحر الخزر الغربى.

و لكن حملته هذه منيت بنكبات كثيره من برد و سيول و وعوره طرق و نفاذ مئونه و أصيبت بهزائم عسكريه شديده.

و كان قد أقام معسكره فى نواحي "دربند" فسماه "إيران خراب" (١) لكثرة ما لقى من البلاء. ثم وقع فى عسكره الطاعون. و كاد هو نفسه يقتل و كانت نجاته المعجزه. بل وصل بعض المتمردين إلى خيمته نفسها و خطفوا بعض نساءه و سرقوا بعض الأثاث. و بلغ غضبه من هذه الحادثه إلى أن قتل جماعه من حرسه من ضباط و جنود. و بذل ممثل الدوله الروسيه فى إيران جهدا كبيرا ليثنيه عن متابعه الحمله لأنها ستفضى بايران إلى عواقب وخيمه فلم يصغ إليه.

رجوع نادر من داغستان

ثم بعث بقوه من جيشه لفتح مدينه "آوار" و هى مفتاح الدخول إلى داغستان، فأوقع "اللكيون" بحملته هزيمه شديده و كبدوها خسائر جسيمه. فغضب نادر إلى حد أنه قتل جماعه من ضباط تلك القوه، ثم قاد حملته ثانيه بنفسه، و لكن "اللكيين" اضطروه إلى التراجع أيضا. و رأى أن جميع الظروف غير مؤاتيه، فانصرف عن متابعه الغزو. و قد حصل فى هذه الغزوه على بعض الانتصارات، و احتفظ ببعض القلاع، و لكنها انتصارات جزئيه لا تساوى الخسائر التى تكبدها. و حطت نتائج هذه الغزوه

و كان نادر قد بعث فى السابق برسالة إلى السلطان محمود العثماني يطلب فيها الاعتراف بالمذهب الشيعى الجعفرى و السماح لأتباعه باقامه الجماعة إلى أحد أركان الكعبة أسوه بغيرهم من أهل المذاهب. فجاءه، و هو فى معسكره ذاك، سفير من قبل السلطان العثماني و أبلغ إليه أن السلطان يرفض هذا الطلب. و بلغه أيضا أن الدولة العثمانية بعثت بحشود عسكريه عظيمه إلى حدود إيران. فلم يجد بدا من الانصراف إلى محاربه العثمانيين. فغادر داغستان فى الخامس عشر من ذى الحجه سنه ١١٥٥ هـ متوجها نحو الجنوب.

استئناف محاربه العثمانيين

فلما استقر فى إيران جهز جيشا من ٣٧٥ ألف جندى. و فى سنه ١١٥٦ هـ بعث بقسم منه إلى العراق لاحتلال سامراء و الحله و النجف و مدن أخرى من أمهات المدن فى بلاد ما بين النهرين فاحتلها بلا مقاومه، و بعث قسم آخر إلى البصره فحاصرها. و سار هو بجيش إلى إقليم "شهر زور" (کردستان) فاحتله بلا مقاومه. ثم احتل مدينه "كر كوك"، و لم يتابع زحفه منها، إذ كان قد بعث إلى السلطان العثماني، بواسطه "أحمد باشا" والى بغداد، برسالة يقترح فيها عليه إيقاع الصلح بين الدولتين، و كان يأمل أن يوافق السلطان على هذا الاقتراح، فلا يضطر إلى متابعه الزحف. و لكن خاب أمله. فقد تلقى، و هو فى "كر كوك" جواب رسالته من السلطان بالرفض، و جاء فى هذا الجواب أن شيخ الإسلام العثماني أفتى بان قتل الايرانيين و أسرهم مباح لأن مذهبهم مخالف لدين الإسلام. و فى هذا الوقت بعث السلطان العثماني بامر إلى والى الموصل بان يستميت فى الدفاع عنها.

فلم يجد نادر بدا من الزحف، فسار إلى الموصل، و احتل جميع البلدان الواقعة على طريقه إليها بلا مقاومه تذكر. و كان فى جملة ما احتله محله "كارمليس"، و هى المكان الذى تغلب فيه الإسكندر الكبير على "داریوش" سنه ٣٣١ قبل الميلاد. و اعترضه "اليزيديون" عبده الشيطان بمقاومه شديده انتهت بانهزامهم. فلما وصل إلى الموصل ضرب عليها الحصار. و نشبت معركة هائله ثبت فيها الطرفان ثباتا شديدا. و ذلك فى الثامن من شعبان سنه ١١٥٦ هـ.

معاودة الصلح

و فيما المعركة دائره و وصل إلى معسكر نادر مبعوث من قبل السلطان لعثماني [العثماني] يحمل منه رساله إليه يقول فيها: لا مفاوضه حتى تترك القوات لا-إيرانيه [الإيرانيه] أرض العثمانيين. فقبل نادر بذلك، و توقف فى الثانى من رمضان سنه ١١٥٦ هـ عن التقدم، و فك الحصار عن الموصل و تراجع بجيشه إلى "كر كوك" و "قره تبه". ثم انحدر إلى الجنوب لزياره العتبات المقدسه فى العراق و تهيئه المقدمات لعقد مؤتمر دينى سننى شيعى فى النجف للتوفيق بين الطائفتين. و هناك اجتمع بوالى بغداد و قال إنه مستعد لمفاوضه والى الموصل و إيقاف الحرب منتظرا مقترحاتهم للصلح. و بدأ بين إيران و الدولة العثمانية

١- كلمه "خراب" فى هذا الاسم وضعها فى مقابل كلمه "آباد" التى يجعلونها جزءا من أسماء كثير من البلدان، و معناها "معموره" مثل "نادرآباد" أى "معموره نادر". و إذ كان قد لقي كثيرا من النكبات فى هذه الغزوه سمى هذا المعسكر "إيران"

خراب "لا" ایران آباد".

عهد جديد من المجاملات. و تبع ذلك فك الحصار عن البصره.

عوده إلى الحرب

إلا أن نادرا أيقن بان السلطان العثماني لا ينوى الموافقه على معاهده الصلح، فاستأنف محاربه العثمانيين، و حاصر "قارص" فى سنه ١١٥٧ هـ. و فيما هو يحاصرها عاد العثمانيون فطلبوا الصلح. فانصرف عنها استجابة لهم، و ذهب للاقامه فى نواحي "إيروان"، فوصلها فى الثانى عشر من جمادى الآخره سنه ١١٥٨ هـ. و فى هذا السفر شعر باعراض مرض شخصه الطبيب بأنه مبادئ استسقاء. و اشتد به المرض حتى عجز فى بعض المنازل عن ركوب الخيل فحملوه على المحمل المعروف بالتخت روان.

و لكن العثمانيين عادوا فاصروا على الحرب، فعاد نادر إلى مهاجمه "قارص"، و نشبت معركة شديده عندها، انتهت بانهزام العثمانيين، فتراجعوا إلى المدينه يتحصنون فى داخلها. و فيما هو يدير هذه المعركه تلقى خبرا من ابنه "نصر الله ميرزا" بأنه انتصر على العثمانيين انتصارا باهرا فى نواحي الموصل. فازدادت عزيمته شده. و بلغه أن وقع فى "قارص" شغب فى عسكر العثمانيين على قائده، و أنه قد قتل أو مات غما. و فى ذلك الوقت أمر نادر باقامه احتفال فخم لعقد قران ابنه الثالث "إمام قلى ميرزا" و قران "إبراهيم خان" ابن أخيه القليل "إبراهيم خان ظهير الدوله". ثم احتل المدينه.

و قتل فى معركة "قارص" هذه من العثمانيين اثنا عشر ألفا و أسر سته عشر ألفا. و كان بين القتلى ثلاثه باشوات و جماعه من كبار الضباط. و عامل نادر الأسرى بالحسنى و أوكل العناية بالجرحى إلى أحد رؤساء الجيش العثماني. و بعث بالأسرى إلى طهران و تبريز.

ثم بعث برساله و ديه إلى السلطان محمود العثماني جاء فيها: "يصرف النظر عن الاقتراح الذى سبق بشأن المذهب، إذ أوجد بين الشعبين المسلمين ضعيفه و سفك دماء. و من الآن فصاعدا تبقى صداقه الشعبين المتجاورين صداقه رساخه". ثم ذهب إلى أصفهان العاصمه فى السابع و العشرين من شهر رجب سنه ١١٥٨ هـ.

و فى أثناء حروبه هذه استطاع قواده و حكامه أن يقضوا على عده ثورات عنيفه نشبت فى نواحي بلاد الكرج و الأكراد و القفقاس و شيروان و غيرها.

و استقامت الأمور فيها. و انضم كثير من جنود الثوار إلى جيشه. و كذلك قامت ثورات عنيفه فى إيران نفسها فقضى عليها قواده العسكريون.

عوامل سلبيه

و كان الباعث على هذه الثورات أحيانا تدمر الناس من قسوه طرأت على أخلاق نادر بسبب مرضه و المشقات التى تحملها، فكلف الناس ما لا يطيقون من الضرائب و تعسف جباته فى تحصيلها. و استغل خصومه و حساده من الرؤساء نقمه الناس فخرجوا عليه و نصرهم كثير من الأهالى.

و كان من جمله الخارجين عليه ابن أخيه "على قلى خان" و قد رباه نادر فى حجره و أحسن إليه بعد مقتل أبيه "إبراهيم خان"

في داغستان. أرسله إلى "سيستان" ليقمع ثوره قامت فيها فانضم إلى الثوار. و كان نادر قد صادر أموال أبيه إبراهيم و فرض عليه ضريبه مائه ألف تومان، فنقم عليه لذلك.

و انتشر نبا خروج "على قلى خان" على عمه بسرعه في كل أنحاء إيران و آزره خلق كثير خرج بهم إلى "هرات" فوصلها في أواسط ربيع الثانى سنه ١١٦٠ و انضم إليه كثير من أهل تلك النواحي. و أصبح بعد ذلك يعمل على استخلاص تاج إيران لنفسه.

تتويج نادر

في الثامن من شهر رمضان سنه ١١٤٨ هـ بعث نادر برسائل إلى حكام بلاده و أعيانها و علمائها يقول فيها إن مساعيه لاسترداد الأراضي و المدن المغتصبه كانت تمنعه حتى الآن من إقرار حكومه منظمه في المملكه. و أخبرهم أنه سيحضر قريبا إلى "تبريز" أو "قزوین" و يدعو الحكام و رؤساء قوات الأمن و عمد المدن و سائر المسئولين عن أمور الحكم، إلى الاجتماع هناك لوضع النظام لحكومه تبسط قوانينها على جميع أنحاء البلاد. و هذا ما يعرف اليوم باسم "الجمعيه التأسيسيه". و أعلمهم في تلك الرسائل أنه، بعد إتمام هذا العمل، سيرك الحكم و يعتزل في ركن من خراسان.

كان قد خلع الشاه طهماسب عن العرش، بعد إقدامه على محاربه العثمانيين بدون علم من نادر، و انهزامه في تلك الحرب و اضطرره إلى مصالحتهم بمعاهده جائره سنه ١١٤٤ كما مر، و نصب مكانه ابنه "عباس ميرزا"، و هو طفل رضيع، و أصبح نادر بعد ذلك في منصب "نائب السلطنه و وكيل الدوله" فله الاماره على إيران كلها. ثم أغار على الأراضي التي استولى عليها العثمانيون في غرب إيران فأخرجهم منها، و أضاف إلى أرض إيران قسما من كردستان و العراق العربى. و فى أوائل سنه ١١٤٧ هـ أغار على القفقاس، فما حل شهر رمضان من سنه ١١٤٨ هـ حتى كان قد استخلص أراضي ذلك الإقليم كلها من تسلط الروس و العثمانيين و تسلط الأمراء المحليين، و أخضع المتمردین في مختلف نواحي بلاده، و بذلك استرد كل الأرض الإيرانيه المغتصبه، و بلغ غايه القدره و السيطره في الحكم. فرأى أن الوقت وقت إحراز منصب الملك.

فدعا إلى اجتماع شامل يعقد في "دشت مغان"، سهل في جنوب أذربيجان يقع بين نهر "كر" و نهر "أرس". و أمر بتهيئه مكان واسع للاجتماع و تجهيزه باثني عشر ألف منزل بعضها خيام و بعضها حجر من القصب و الخشب، و بناء حمامات و مساجد و سوق و غيرها من اللوازم، و منزل فخم له و لحاشيته، و جناح خاص لسنائه، و تهيئه ألبسه فاخره له و لحاشيته و جنده.

و فى ٢٩ رمضان سنه ١١٤٨ هـ الموافق ٢٥ كانون الثانى سنه ١٧٣٦ م وصل نادر إلى مكان الاجتماع في "دشت مغان"، و قد بدا المكان في منتهى الأبهه و الزينه و الاتساع. و بدأت التشریفات و استقبال المدعويين من حكام و أمراء جيش و أعيان و علماء و سفراء و روحانيين و وفود من ممالك و دول مختلفه. و كان بين الحضور السفير العثماني و السفير الروسى و الكاثوليكوس [الكاثوليكوس] الأرمنى "أبراهام الكرتى"، و كان نادر قد تعرف عليه في نواحي "فارص" في إحدى حروب و العثمانيين. و قد كتب هذا الكاثوليكوس كتابا في تاريخ نادر شاه و وصف اجتماع "دشت مغان" هذا وصفا مفصلا دقيقا. و قد قدر عدد الحضور بمائه ألف.

و فى الثانى من شوال سنه ١١٤٨ هـ أمر نادر ممثلى الولايات بالاجتماع و التشاور فيما بينهم لاختيار من يرونيه الأنسب لمقام

السلطنة. و قال إنه، وقد أعانه الله فحرر أرض إيران من تسلط الأعداء و استطاع أن يبعد الأجانب إلى

ص: ٢٠٥

خارج حدودها، تجعله الشيخوخه و متاعب الحرب المتتابعه بحاجه إلى الراحة، فهو يرغب فى أن يذهب إلى خراسان و يقيم فى قلعه "كلايت"، و يقضى بقيه عمره فى دعاء الواحد الأحد لنفسه و لهم. فليختاروا "طهماسب ميرزا" (الشاه المخلوع) لمقام الملك. فان لم يريدوه فليختاروا من شاءوا من الأسره الصفويه.

و بعد المشاوره أجمعوا على الجواب بأنهم لا يرون أليق منه بهذا المنصب. و لكنه امتنع عن القبول و امتنعوا هم عن التراجع عن ترشيحه.

و دام الأخذ و الرد بينه و بينهم بضعه أيام، إذ أذعن لطلبهم و قبل بان يملك.

و لكنه اشترط عليهم شروطا أهمها و عمدتها الامتناع عن كل ما يؤذى شعور أهل السنه، و أنذر من يخالف هذا الأمر بالعقوبه الشديده. و نبههم إلى وجوب اعتبار أهل الدوله العثمانيه إخوانا لهم يجمع بين الأمتين جامع الإسلام و يحقن كل منهما دم الأخرى، و أن لا حروب بينهما بعد اليوم و لا سفك دماء و لا عداوه، و ليس إلا الموده و الإخاء، فإلهمم واحد و نبههم واحد و قرآنهم واحد.

فرد عليه ممثلو الايالات بالإيجاب و القبول لجميع شروطه. ثم حرر محضر بهذا الاجتماع وقع عليه المجتمعون كلهم. و تاريخ المحضر هو "٤ شوال المكرم سنه ١١٤٨ هـ". ثم ألبس نادر التاج، و أقيمت معالم الفرح و الاحتفال فى غايه الزينه و الأبهه.

و بعد التتويج بعث نادر بالشاه عباس الصفوى الذى كان قد توج، و هو طفل رضيع بعد خلع أبيه، إلى خراسان عند أبيه طهماسب.

المؤتمر السنى الشيعى

لما عرض السلطان محمود العثمانى على نادر شاه سنه ١١٥٦ هـ، بواسطه "أحمد باشا" والى بغداد، الصلح بشرط رجوعه عن أرض العثمانيين، و قبل نادر بذلك، انصرف عن محاصره البصره، و توقف عن التقدم فى أرض العثمانيين فى الثانى من رمضان سنه ١١٥٦ هـ، و تراجع بجيشه إلى "قره تبه" بالقرب من "كر كوك". ثم ترك جيشه معسكرا فيها، و ذهب إلى العراق لزياره العتبات المقدسه. فلما وصل إلى بغداد استقبله السفير العثمانى و والى العثمانى "أحمد باشا" و سائر رجال الدوله العثمانيه الذين فى بغداد.

ثم زار مقام الامام موسى الكاظم و الامام محمد التقى ع فى "الكاظميه" من ضواحي بغداد. و زار مقام الامام أبى حنيفه فى بغداد، عبر إليه دجله هو و مرافقوه على سفن أعدها لهم والى العثمانى و زينها زينه أنيقه مترفه. و فى أول شوال سنه ١١٥٦ هـ زار العتبات المقدسه فى كربلاء.

و تبرعت زوجته "رضيه بيغوم" بنت الشاه حسين الصفوى بمبلغ كبير لتعمير العتبات و ترميمها.

و بعد مده قصيره ذهب إلى النجف، و فى ركابه علماء من إيران و الأفغان و بلخ و بخارى، و سائر البلاد الإيرانيه. و هناك أمر بتغشيه مقام الامام على بن أبى طالب ع بالذهب.

و كانت له غايه أخرى من هذه الزياره هي القيام بعمل حاسم لتحقيق اتحاد أهل السنه و الشيعه. و هي أمنيه قديمه في نفسه سعى إليها أكثر من مره، و نبه إليها بالتفصيل في خطابه يوم تتويجه في "دشت مغان" سنه ١١٤٨ هـ. و كان يجعلها دائما عمده شروطه لمصالحه العثمانيين. و من أجل ذلك طلب عقد مجلس في النجف يشترك فيه أهل السنه و الشيعه يتالف ممن معه من العلماء و علماء الديار المقدسه من بلاد ما بين النهرين، للنظر في المسائل التي هي موضع الاختلاف و إيجاد حل لها(١).

فاجعه ولي العهد

كان في نفس نادر شاه شيء من ابنه الأكبر ولي عهده "رضا قلي ميرزا"، لسوابق تلكا في بعضها عن إنفاذ أمر أبيه و عانده في بعضها.

و في شهر رجب سنه ١١٥١ هـ اختاره لمنصب نيابه السلطنه و منصب قياده الجيش الايراني.

و في تلك السنه سار نادر إلى غزو الهند و بقى ولي عهده في إيران نائبا عنه. و قبل مسيره أوصاه بأشياء و بين له حدود سلوكه و تصرفاته. و كان مما أوصاه به المحافظه على الشاه طهماسب، و كان في الإقامة الجبريه في مدينه "سبزوار" مع ابنه الشاه عباس الطفل و ابن آخر أصغر منه اسمه إسماعيل، و أن يختار حراسهم من المؤتمنين.

و لكن "رضا قلي ميرزا" سار في غيبه أبيه سيره على خلاف ما أوصاه به. فاستبد استبدادا أوقع الرعب في قلوب الناس. و اتخذ لنفسه من مظاهر الأبهره و الترف شيئا كثيرا. و عزل بعض خواص أبيه عن مناصبهم بتحريض ممن كانوا يتملقونه من خصومهم و خصوم أبيه فينخدع بهم.

و في سنه ١١٥٢ هـ انتشرت شائعه قويه في إيران أن نادرا لقي حتفه في الهند، و أن وباء قاتلا وقع في عسكره. فحسن أحد ندماء ولي العهد، و اسمه "محمد حسين خان القاجارى" له أن يحتاط لنفسه فيقتل الشاه طهماسب و ولديه، خوفا من أن يغتتم أنصار الصفويين فرصه موت نادر فيثوروا عليه ليعيدوا الملك إليهم. فقبل كلام هذا القاجارى و بعث به هو نفسه إلى "سبزوار" فقتلهم ثلاثتهم على نحو فظيع. و كان عمر الشاه عباس يومئذ ثمانى سنوات و أخوه إسماعيل أصغر منه. و كان "رضا قلي ميرزا" متزوجا من "فاطمه سلطان بيغوم" أخت الشاه طهماسب. فلما بلغها نبا مقتل أخيها و ابنه انتحرت. و الظاهر أنهم قتلوا سنه ١١٥٣ هـ.

و لما عاد نادر من الهند و رأى ما اتخذته ابنه من مظاهر البذخ و السلطان على خلاف ما أوصاه به و علم بمقتل الشاه طهماسب و ولديه غضب و ازداد شكه في نوايا ولي عهده و أحزنه مقتل الشاه و الطفلين، فعزله من ولايه العهد و جعلها لابنه "نصر الله ميرزا".

و بعد مضى سنه من إطلاق الرصاصه على نادر في غابه "سواد كوه" سنه ١١٥٤ هـ، و هو في طريقه إلى داغستان، عرف الجاني و قبض عليه و اعترف بذنبه. فلما سئل عن المحرض له على ذلك نفى أن يكون قد حرضه أحد، و أصر على أنه أقدم على محاوله القتل من تلقاء نفسه. فوعده نادر بالعفو عنه إن هو أقر باسم المحرض. عندئذ ذكر اسم "رضا قلي ميرزا".

و لكن الرأى الغالب عند المؤرخين، و منهم الأيب "لويس بازن" و الدكتور "ليرش" و هما من أوسع المؤرخين اطلاعا على تاريخ إيران، أن "رضا قلى ميرزا" برىء من هذه التهمه، و أن الجانى إنما ذكره لينجى نفسه من القتل

ص: ٢٠٦

١- ذكرت التفاصيل فى ترجمه على أكبر ملباشى فى المجلد الثامن من (أعيان الشيعة) فلا نعيدها هنا.

بناء على وعد نادر له. وقد وفى نادر بوعده فلم يقتله وإنما اكتفى باعمائه.

و فى تلك السنه، سنه ١١٥٤ هـ، كان نادر عرضه لازمه نفسيه، بسبب انكساراته فى داغستان و اشتداد مرضه بعد أن تركه طبيبه الهندى، و كان ينتفع به و يعتمد عليه، و توالى المشقات عليه فى حروبه المتصله، و طول مقاساته شدائد الحر و القرو غير ذلك من العوامل الطبيعيه القاسيه، و الحوادث المؤلمه التى وقعت فى إيران فى أثناء غيابه فى الهند و الشيخوخه، كل ذلك جعل مزاجه عكرا عصبيا. فحكم بلاء رويه باعماء عيني ابنه "رضا قلى ميرزا". فاستدعاه من طهران إلى معسكره الذى أقامه فى داغستان على شاطئ بحر قزوين و سماه "إيران خراب" قريبا من مرفأ "در بند".

و الظاهر أن إنفاذ ذلك الحكم المشثوم قد وقع فى ذلك المعسكر. و أعميت عينا الأمير التاسع بحضور أبيه و جماعه من رجاله فى خريف سنه ١١٥٤ هـ الموافق سنه ١٧٤٢ م.

و لكن نادرا عاد فندم ندما شديدا بعد إنفاذ الحكم. فما كان منه إلا أن بادر إلى قتل جماعه من رجاله كانوا حاضرين إجراء الحكم، لأن أحدا منهم لم يلتمس منه العفو عن ابنه و ينبهه إلى عاقبه هذا العمل. و بلغ منه الغم مبلغا شديدا، فاعتزل فى خيمته ثلاثه أيام لا يغادرها.

و كانت عاقبه الأمير الأعمى أن قتله و إخوته و أبناءه ابن عمهم "على قلى خان" سنه ١١٦٠ هـ، بعد مقتل نادر.

مقتل نادر

كان نادر، فى الأساس، جنديا، و أكثر مهارته تجلى فى القيادة العسكريه. و لكنه كان أيضا سياسيا كفا و إداريا حازما مدبرا لا يترك كبيره و لا صغيره من شئون ملكه إلا راقبها. لا يسمح لنفسه بإهمال شىء مهما قل شأنه. لا يمل من كثره العمل و لا يجبن عن اقتحام الصعاب، بل يجد متعه فى معالجته المشاكل و الاجتهاد فى حلها، حتى أصبح موضع الحمد و الثناء من أمته، قادرا على تملك قلوبهم و تصريفهم كيفما شاء. و لكن أكثر اهتمامه كان منصرفا إلى التطلع نحو الفتوحات العسكريه فقل اهتمامه بشئون الاداره.

و مع ذلك كان قد قام بمآثره عظيمه هى إحدى مآثره الكثيره، إذ استطاع أن ييسط النظام و الاستقرار على كل نواحي ملكه، و ضبط أمور الاداره بكل دقه، و عاقب المخالفين و المتلاعبين بلا هواده، و حصن الحدود الشماليه الشرقيه فى وجه حملات الغزو المتتابعه، حملات التركمان و الأنزابكه و قبائل "أفشار" و الأكراد و سائر القبائل المتمرده، و ما زال يضعفها شيئا فشيئا حتى استأصل شافتها.

و من مفاخره ما أقدم عليه من خطط ثوريه جديده. من ذلك سعيه قصارى جهده إلى رفع الاختلاف من بين أهل السنه و الشيعه. و منها نبذه طريقه الصفويين التى كانت متبعه فى تربيه أمراء البيت المالک، و هى أن يظلوا قعيدي القصر يتقبلون فى حياه الرفاه و الراحة إلى يوم تسلمهم زمام الحكم.

و مع أن مهاراته العسكريه قد أوصلت إيران إلى ذروه العظمه و حررتها من حكم الأجانب فان قلوب رعاياه لم تلبث أن أخذت

تبتعد عنه شيئاً فشيئاً لاستقلاله برأيه و فرض الضرائب الثقيله، خصوصاً في أواخر عمره. و زاد في نفور الناس منه إباده ابنه للأسره الصفويه على ذلك النحو الفطيع.

ظل نادر في صحه جيده و مزاج سليم إلى سن الخمسين. ففي هذه السن اعتل جسمه و أثرت العله في روحته تأثيراً سيئاً. و قبل حملته على الهند أصيب بمرض في معدته جعله متشائماً. و لم يفده طب الا-يرانيين فاستدعى أطباء أجنب. و عاينه في الهند طبيب حاذق اسمه "علوى خان" فانتفع به و صحبه معه إلى إيران و أصبح طبيبه الخاص يرافقه أينما ذهب. ثم فارقه سنه ١١٥٤ هـ و سافر إلى مكه لأداء فريضه الحج، فزادته حاله نادر الصحيه سوءاً. فما حلت سنه ١١٥٦ هـ حتى كان قد تغير تغيراً عظيماً، و ظهرت عليه أعراض عصبية شديده. و كان حكمه على ابنه بذلك الحكم المشؤوم ثم ندمه حيث لا ينفع الندم قد جعله في حاله مزاجيه شديده الخطر. فأصبح دائم الغضب، و صدرت منه تصرفات مستغربه، منها أنه، بعد أن كان قد أمر بإعفاء الايرانيين من الضرائب إلى ثلاث سنوات، لم يلبث أن ألغى هذا الأمر.

يقول "هانوى":

"كان رسله إلى تحصيل الضرائب كرسل العذاب و اللعنه في نظر الناس. و إلى هذا كان لا ينفك يضيف إلى الملايين التي كثرها في "كلايت" مبالغ أخرى من النقد و المجوهرات. و يقينا لو أن فتح خزائنه التي في "كلايت" و بذل من ملايين النقود التي حصل عليها من الهند لجعل من عسكره سنداً له. و لم توجد دواع للتذمر. و واصلت إيران فائزه سعيدة عهدده المجيد الذي حققه إلى آخر سلسلته الطويله".

قلما اهتم نادر في أواخر عمره برفاه رعاياه، و لا فكر في توسعه المصادر الماديه لإمبراطوريته. و انصرف إلى جمع المال و العتاد لتجهيز قواته العسكريه العظيمه. و لما استوى على عرش السلطنه كانت إيران تقاسى عجزاً و فقراً شديدين بعد المعارك الطويله التي خاضتها في محاربه الأفاغنه و العثمانيين.

و كان نادر يستطيع، و قد عاد من الهند يحمل الملايين من النقد، أن يعفى الايرانيين من دفع الضرائب إلى مده سنين طويله. و لكنه، بدلاً من ذلك، أخذ ينفق أمواله الضخمه تبذيراً، و ازداد قسوه في فرض الضرائب. و أخذ التجار و الفلاحون يتذمرون من هذه الضرائب الباهظه و تكليفهم سد حاجات القوات العسكريه. و كان أمراً عجيباً أن لا يدرك رجل على مثل هذا الذكاء الحاد أنه باقدامه على مثل هذه الأمور إنما يسعى إلى الخيبه. و كل الدلائل تدل على أن تضعف قواه الفكرية الذي عراه في السنوات الأخيره من ملكه كان السبب في هذا الخبط.

و في سنه ١١٥٧ هـ كان يسير إلى غزو "إيروان" في أذربيجان فأصيب و هو في الطريق إليها بمرض شديد أعجزه عن متابعه السير، حتى أنهم اضطروا إلى حمله في بعض الطريق على محمل "التختران". و عالجه الطبيب حتى تحسنت حاله.

ثم اتصل به الأب "لويس بازن" (١)، و كان طبيباً، فلأزمه إلى آخر أيام حياته، و انتفع به. و لكنه بدا في آخر سنه من عمره منكسر النفس مغموماً. و تمادت به هذه الحال حتى كان في الشهرين الأخيرين من عمره قد خرج عن حالته المعتاده كلياً.

١- الأّب " لويس بازن " فرنسى كان مبشرا، و كان طبيبا أَدْخِله نادر فى خدمته و انتفع بطفه حتى أصبح أول أطبائه. و قد بعث هذا الأّب إلى رئيسه فى فرنسا بتقارير تضمنت معلومات ثمينه عن حياه نادر شاه

كتب كاتب نادر "الميرزا مهدي خان" في كتاب له في تاريخ نادر شاه ما معناه:

"ظل نادر مثال الشهامه في السلطان و السيطره و العداله و الرفق بالعاجزين إلى يوم عاد فاتحا من خوارزم ثم توجه إلى داغستان فلم يكن توفيقه في حروبه في ذلك الإقليم كاملا. و استولت عليه الوسوس و الأوهام فأعمى عيني كبير أبنائه ولى عهده رضا قلى ميرزا ثم ندم. و من شدة الغصه تغيرت أحواله و أصبح ذا مزاج غاضب. و زاد في تغيير أحواله أنه، إذ كان ينوى أن ينصرف من داغستان و دربند إلى احتلال القسطنطينيه، قامت في إيران فتن و ثورات في نواحي مختلفه، قتل فيها فريق من خيره رجاله.

فازدادت انفعلاته العصبية حده و أدى ذلك إلى نفور الناس منه و ابتعادهم عنه. و بلغت به هذه الحال إلى أن أصبحت أفعاله و حر كاته غير طبيعیه.

و أخذ يوقع بموظفي الضرائب عقوبات قاسيه. و زاد في نقمه الناس عليه قسوه التدابير التي كان يتخذها لمنع الثورات، و الظلم الذي كان يرتكبه الجباه.

" و في أوائل الشتاء من سنه ۱۱۵۹ هـ جاء نادر إلى أصفهان فأقام فيها بضعه أسابيع. و ألمت به وعكه، و هو يقاسى تلك المتاعب الروحيه و البدنيه من مشقات العمل الطويل و الحروب المتواليه و ما لقيه من نكران للجميل و من أكاذيب حاشيته، و خروج ابن أخيه "على قلى ميرزا" عليه، و قد رباه بعد مقتل أبيه في حجره و رعايته. و كان قد بعث به إلى سيستان لآخاماد ثوره قامت هناك، فإذا به هو نفسه يثور عليه. فجعل كل ذلك نادرا حاد المزاج سيئ الخلق. و فرض على الأجانب المقيمين في إيران ضرائب ثقيه.

" و في سنه ۱۱۶۰ هـ غادر أصفهان إلى يزد و كرمان. و في طريقه كان يقمع المتمردين بشده. ثم تابع سيره إلى مشهد. فاجتاز صحراء لوت القاحله، و مات كثير من جنده فيها جوعا و عطشا.

" فلما وصل إلى طبس، و هى أول مدن خراسان في الجنوب، دعا إليه أبناءه و أحفاده، و كان قد أحضرهم إليها قبل ذلك. فاستعرضهم و دقق النظر فيهم. ثم عرض عليهم أن يكون التاج و العرش للأرشد منهم.

و كانوا كلهم يخشون أن يكون أبوهم قد نصب لهم فخا ليقع بهم. فامتنعوا كلهم عن القبول محتجين بصغر السن و قله التجربه "اه.

و قال الأب " لويس بازن "الفرنسى طيب نادر في إحدى رسائله التي بعث بها إلى رئيسه، في كلامه عن قدوم نادر إلى مشهد في تلك الرحله:

" لما وصل نادر إلى مشهد عمت خشيته كل الناس، من محليين و أجانب و حكام و ضباط و جنود. و بدئت المؤامرات السريه عليه من كل جانب. حتى أقاربه كانوا ينظلمون. و أخذ هو يشك في حاشيته. و صعب عليه إلى حد بعيد انصراف كثير من الجند عنه. و دعا بعض حكام المدن إلى الحضور عنده، و عاقبهم عقابا شديدا و فرض عليهم أن يجمعوا له مبالغ ثقيه من المال.

" ثم سافر إلى كلات ففقد العمارات التي كان قد أمر ببنائها، و منها خزانات الأموال، فأودع فيها مما غنمه من النقود و الجواهر

و المفروشات الثمينه و ما أشبه ذلك شيئاً لا يقدر ثمنه. و قد استعمل فى إنشاء هذه العمارات حجاره كبيره جلبت من مراغه و بلغ وزن بعضها من سته عشر طناً إلى عشرين طناً". اه. ثم جهز جيشاً ليقمع ثوره قام بها الأكراد فى بلده "قوشان". و كأنما كان يشعر بالخطر الذى يهدده و أسرته، فبعث، قبل أن يغادر مشهد، بأولاده إلى "كلات" ليكونوا فى مأمن إن حدث شىء. و سار حتى وصل إلى "فتح آباد" على بعد اثنى عشر كيلو متراً من "قوشان" فعسكر فيها.

و ذكر الأب "لويس بازن" طبيب نادر، و كان فى صحبته فى "فتح آباد" يومئذ:

" كأنما كان نادر عالماً بالمصير المشئوم الذى كان مقدرًا عليه فى هذا المكان. فقد ربط فى حرمه حصاناً مسرجاً مهياً دائماً للركوب. و عزم أكثر من مره على الفرار إلى كلات. و لكن حراسه حالوا بينه و بين الفرار، و نبهوه إلى ما للفرار من عواقب مشئومه، و عاهدوه على أن يبذلوا دماءهم حتى آخر قطره من أجل المحافظه على حياته. و ما زالوا به يطمئنونه حتى عدل عن الفرار". اه.

و كان فى مقدمه المحرضين عليه قريبه "محمد قلى خان أفشار" قائد حرسه الخاص و "صالح خان قرقلو أفشار" مدير شئون البلاط. و كان حرس معسكره يتألف من أربعة آلاف أفغانى يوالونه كلهم و يبطنون العداوه للإيرانيين. فاحضر عنده رؤساء الأفغانه و اختلى بهم، و قال لهم: أنا غير راض عن حرسى الخاص. أما أنتم فان شجاعتكم و صداقتكم أمر مسلم به عندى. و إنى أمركم بان تقبضوا غداً على ضباط حرسى كلهم و تقيدهم، فمن قاومكم منهم اقتلوه بلا تردد. و أوصاهم بالتيقظ فى المحافظه على حياته، إذ هو لا يعتمد على أحد غيرهم. فأجابوه بالسمع و الطاعه.

و انصرفوا متهيئين لانفاذ أمره.

و بدا نادر فى ذلك اليوم فى منتهى القلق و الاضطراب على خلاف المعهود منه، و كان لا ينفك يتردد بين حرمه و مجلسه لا يستقر به مكان. و لا يجرؤ أحد من جلسائه على سؤاله عن السبب. إلا أن أحد خواصه المقربين من أصحاب الداله عليه تجرأ فسأله عن سبب قلقه و اضطرابه. فاخلى به نادر و قال له:

" لقد رأيت حلماً أقصه عليه فلا تبج به لأحد:

" فى أول أمرى، قبل أن يهبنى الله هذه الدوله، أرسلنى بابا على بيك كوسه أحمد لو حاكم أيبورد إلى أصفهان فى مهمه. فسرت إليها و معى بضعه نفر. فلما وصلنا إلى هذا المنزل، فتح آباد، نصبنا خيمه صغيره فى هذا المكان الذى ينتصب فيه الآن هذا الفسباط الملوكى. فلما نمنا رأيت فى ما يرى النائم أن شخصاً ينادينى أن أحضر إليه. فلما حضرت إليه قال لى: هيا معى فان الحضره تطلبك. فسرت معى حتى بدا لى فى الصحراء مكان مرتفع، يجلس فى أعلاه اثنا عشر رجلاً من الأجلاء، قد أزهرت الصحراء بنور وجوههم. فقدمنى ذلك الشخص و قال: هو حاضر. فقال أحد أولئك الأجلاء، و كان أكثرهم جلالاً، لآخر منهم: أحضر ذلك السيف. فامتلل لأمره و أحضر السيف إليه. فطلب منى أن أتقدم فامتللت. فنطقنى بالسيف و قال: إنا أعطيناك رئاسه إيران، فاسلك بعباد الله مسلك الرويه. ثم أذن لى بالانصراف. فلما أفقت كتمت الرؤيا لم أقصصها على أحد. و ما زلت أتقدم و أعمالى تتم وفق المراد حتى بلغت إلى هذه الدوله الموهوبه من الله.

" و في الليله البارحه رأيت في نومي ذلك الشخص نفسه الذي أخذني

ص: ٢٠٨

إلى مجلس أولئك الاثنى عشر العظام. أقبل إلى و جرنى جرا عنيفا بمنتهى الشده إلى مجلسهم ذاك، و أوقفنى مواجهها لهم. فلما وقع نظر ذلك العظيم الذى نطقنى بالسيف على عبس، و قال: جرد هذا الذى لا كفاءه له من السيف لأنه ليس أهلا له. و عبثا حاولت الاحتفاظ بالسيف، و انتزع منى جيرا، ثم طردونى. فانا لا أستطيع استقرارا و لا طمانينه منذ استيقظت من النوم. فلو أنى ذهبت إلى قلعه كلات و قضيت فيها يومين أو ثلاثة، و لم يحدث شىء، لزال عنى الكدر و عاودنى السرور".

فنصححه صاحبه بان لا يخاف من هذا المنام، و طمانه إلى أن لا مجال للمقارنه بينه و بين أعدائه. فهم مقهورون لا استقرار لهم. و قال: إن قلعه كلات قريبه، و لا بأس عليك من أى طريق سلكتها إليها. فقال له نادر:

ما أعرفه أنا لا تعرفه أنت و لا غيرك.

ثم دخل إلى حرمه لينام فى خيمه إحدى زوجاته، اسمها "جوكى" (شوقى) و هى قاجاريه. و قال لها: إن النعاس غلب على. و لكنى لا أستحسن النوم. فإذا رأيتنى استغرقت فى النوم فايقظينى. ثم أغفى.

و كان رؤساء الأفاغنه على أهبة الاستعداد ينتظرون يوم الغد. و لكن حديث نادر إليهم علم به جاسوس عليه، فنقله إلى عدويه "محمد قلى خان أفشار" قائد الحرس الملكى و "صالح خان" قرقلو أفشار" مدير شئون البلاط. فتعاهدا على أن يقضيا على عدوهم المشترك ليلا، و أن لا يتخلى أحدهما عن الآخر، و كتبا بذلك عهدا خطيا. ثم عرضا الأمر على بعض من يثقون بهم من أصدقائهم فوافقوهم و وقعوا على وثيقه العهد، و فيهم واحد قاجارى و اثنان أفشاريان. ثم عرضوا الوثيقه على ستين رجلا من رفاقهم من رجال البلاط فوقعوا عليها و تهيئوا جميعا لقتل نادر.

و فى تلك الليله، ليله الأحد ١١ جمادى الآخره سنه ١١٦٠ هـ دخلوا بعد منتصف الليل إلى مخيم حرمه. و كان أول الداخلين "صالح خان أفشار" و "محمد خان قاجار". و وجد صالح حارسا هناك فبادر إليه فأطبق بيده على فمه و أمسك به و قال له: إن أنت دلت على الخيمه التى ينام فيها نادر نجوت و إلا خنقتك. فأشار الحارس بعينيه إلى خيمه "جوكى".

عندئذ خنقوا الحارس و تقدموا إلى الخيمه. و لكنهم لم يجرءوا، أول الأمر، على دخولها رهبه و تهيبا. ثم تجرأ "محمد خان قاجار" و "صالح خان" و بضعه رجال آخرين على التقدم، فشقوا الخباء بخنجر و دخلوه. و كانت "جوكى" زوجه نادر مستيقظه. فلما رأت سوادهم أمسكت برجل الشاه و هزته، فهب واقفا. و لما وقع نظره على "صالح خان" شتمه و جرد سيفه و هجم عليهم فقتل اثنين منهم. و لكن قدمه عثرت بطنب الخيمه فوقع على الأرض. و قبل أن يتمكن من النهوض عاجله "صالح خان" بضربه سيف وقعت على كتفه فقطعت يده. و وقف صالح مدهوشا لا يجرؤ على الاجهاز عليه. فتقدم "محمد خان قاجار" إليه و احتز رأسه.

و أمر صالح حملة البنادق من رجاله أن لا يسمحوا لأحد من حرس المعسكر بترك مكان حراسته و لا يجيزوا لأحد الدخول إلى الحرم و لا الخروج منه. فان خالفهم أحد قتلوه، ليبقى الحادث مكتوما إلى الصباح.

و أغار الجناه على حرمه فنهبوا كل ما وقعت عليه أيديهم من الجواهر.

و أسرعوا من الحرم إلى خيام وزرائه، و كانوا ثلاثه، فقتلوا اثنين منهم.

و مع كل الاحتياطات التي اتخذها المتآمرون فان الخبر ذاع فى تلك الليله نفسها، و لكن لم يصدق. و فى الصباح، إذ صح الخبر، أخذ الناس و جنود "قزلباش" و غيرهم ينهبون المعسكر و ينصرفون إلى بلادهم. فما حان وقت الظهر من ذلك اليوم حتى كان المعسكر و ما فيه من أثاث أثرا بعد عين.

أما حرس المعسكر من الأفاغنه فإنهم لما سمعوا بالخبر انطلقوا إلى الخيمه التي قتل فيها نادر فوجدوا سته آلاف جندى من "قزلباش" يسدون عليهم الطريق، ثم انضم إلى "قزلباش" أربعة آلاف جندى آخرين.

و لكن الأفاغنه استطاعوا أن يجدوا لهم طريقا إلى داخل الخيمه. فلما رأوا جثته نادر أخذهم الأسف و الياس، ثم خرجوا فتلقاهم جنود "قزلباش" بالحرب، و دارت معركة سال فيها كثير من الدماء، استطاع الأفاغنه بعدها الخلاص فانطلقوا نحو "قندهار".

و هكذا كانت عاقبه رجل من أعظم الرجال فى تاريخ إيران. يقول "السير جان مالكم":

"لم يبلغ أحد من سلاطين آسيا إلى عظمه هذه الفتوحات. و النصر الذى أحرزه فى الهند جدد عزه إيران و رفعتها القديمين، و أعلى صوت أبنائها. و زاد فتحه بخارى فى قوه الملك و الأمه و أبعث صيتهما. و ما أبداه من كرم فى وهبه التاج لشاه بخارى و سلطان الهند يدل على أنه كان يعتقد أن عماد اقتداره إنما هو فى صيت السيف و حسن التدبير، لا فى سعه الملك و بسط السلطان".

وقائع و عبر

و كان "على قلى خان أفشار" ابن أخى نادر يقيم فى "سيستان" مع المتمردين على عمه. و قد سبق أن طلب التاج لنفسه. فلما بلغ إليه خبر مقتل نادر أعلن نفسه ملكا على إيران و سار إلى مشهد. و انضم إليه عسكر "قزلباش" و الأفشاريون. فلما وصل إلى مشهد جلس على عرش السلطنه فى ٢٧ جمادى الآخره سنه ١١٦٠ هـ، أى بعد مضى ١٦ يوما على مقتل نادر.

ثم بعث بحمله من البختياريين إلى "كلات" حيث يقيم أبناء نادر شاه. فحاصروها ثم احتلوها. و قبضوا على أولاد نادر و أحفاده. فأمر "على قلى خان" بقتلهم. فقتلوا كلهم، و فيهم خمسة أطفال أعمارهم بين الرابعه و الثانيه عشره، و فيهم "رضا قلى ميرزا" ابن نادر شاه الأعمى مع ثمانية عشر شخصا من أبنائه و أحفاده، ما بين طفل و شاب. و لم يبق على أحد منهم سوى "شاه رخ ميرزا" ابن "رضا قلى ميرزا"، و كان فى الرابعه عشره، وضعه سرا فى السجن و أشاع أنه قتل. و قد استحياه ليتدبر عاقبه أمره على هذا النحو: إن استتب له الملك و رضى به الناس قتله. و إن رفضه الناس و لم يستو أمره أخرج شاه رخ من السجن و أجلسه على العرش و نصب نفسه وصيا عليه و نائباً عنه، لظنه أن الناس لن يرفضوا ملكا من سلاله نادر.

و ساير الشاه الجديد "محمد قلى خان أفشار" رئيس حرس نادر الخاص و رأس المؤامره عليه، و تلتطف به مده، ثم اعتقله و سلمه إلى نساء حرم نادر فقطعنه قطعه قطعه! و لكن "على قلى خان أفشار"، و قد أصبح يدعى "على شاه" لم يلبث أن خرج عليه أخ له اسمه "إبراهيم خان" و طالب بالتاج لنفسه، و أعلن الحرب على أخيه، فهزمه و قبض عليه رجال "إبراهيم خان

"فاعموا عينيه و قيدوه و سلموه إلى أخيه.

ثم اتفق أهالي مشهد و رؤساء العسكر في خراسان على مبايعه حفيد

ص: ٢٠٩

نادر "شاه رخ ميرزا" المسجون فأخرجوه من السجن و نصبوه شاهاً على إيران. و قد استطاع هذا الشاه الجديد أن يقبض على "إبراهيم خان" فأعمى عينيه ثم قتله. و سلم "على شاه" و [الأعمى إلى حريم نادر فقطعنه قطعه قطعه! ثم ثار جماعه على "شاه رخ شاه" فخلعوه و أعموا عينيه و سجنوه، و نصبوا في مكانه على العرش سبطاً للشاه سليمان الصفوى. و لم يدم ملك هذا سوى أربعين يوماً، إذ عادوا فخلعوه و قتلوه، و أعادوا "شاه رخ" الضرير إلى العرش! ثم حدثت انقلابات و فجائع أخرى لا مجال لذكرها هنا.

قبر نادر شاه

دفن نادر شاه في مشهد. و كان قد بنى في حياته لنفسه قبرا فيها و قبرا في "كلات". و الظاهر أنه إنما فعل ذلك احتياطا لاحتمال أن لا استطاع دفنه في إحداهما فيدفن في الأخرى.

و قد هدم قبره ابن أخيه "على قلى خان" بعد إعلان نفسه شاهاً على إيران، و سمي نفسه "على شاه". ثم أعيد بناؤه في ملك "شاه رخ شاه" حفيد نادر. فلما ملك القاجاريون هدموه و هدموا أيضا العمارات الفخمة التي بناها نادر في "كلات" و منها ذلك المسجد الأنيق. و هي اليوم أطلال باليه، و ظل قبره منهدما إلى هذا العصر، إذ بنوا له قبرا و رفعوا تمثالا.

نقش خاتمه

و كان نقش خاتمه:

"لا فتى إلا على و لا سيف إلا ذو الفقار".

"نادر العصر أنا و بلطف الحق عبد الثمانيه و الأربعة أنا" (١)

بعض خصائصه و تطلعاته

من أبرز الأمور في سيره نادر شاه حرصه الدائم على تهيئه الأسباب لتوحيد السنيين و الشيعة في مجتمع إسلامي واحد، و تجاوز الحدود القومية و المذهبية و القبليه التي تفرق بين المسلمين، إلى أمبراطوريه إسلاميه موحده تتأخر فيها قومياتهم و قبائلهم و مذاهبهم الدينيه.

و خطابه الذي تلى على الجمهور بعد حفل تتويجه، و رسائله إلى السلطان العثماني، و معاملته الأسرى العثمانيين بالحسنى ثم إطلاق سراحهم، و حسن معاملته للأفغانه السنيين، بعد غزوه لهم و غلبته عليهم في "هرات" و "فندهار" و "كابل" و غيرها، مع كل ما أوقعوه بالإيرانيين من نكبات و ظلم و قتل و تخريب، و حرصه على أن يكون جيشه مزيجا من أهل السنه و الشيعة، و نقله طوائف من الأفشاريين و البخاريين و الأذربيجانيين و الأفغانه و العراقيين إلى خراسان ليحصل تمازج و اختلاط بين أبناء تلك الطوائف، و دأبه على تنبيه الشيعة، بمنتهى الشده، إلى وجوب الامتناع عن كل ما يؤذى شعور أهل السنه، و تهديده المخالفين بالعقاب الشديد، كل ذلك كان توجيها إلى ذلك السبيل.

و المؤتمر السنى الشيعى الذى عقده فى النجف و المحضر الذى حرر بوقائع هذا المؤتمر و وقع عليه ممثلو أهل السنه و ممثلو الشيعة كان يرجو أن يكون الخطوه الحاسمه إلى هذه الغايه.

و من ثم كان فى محاربه العثمانيين يجعل عمدته شروطه عليهم للصلح رفع الاختلاف من بين أهل السنه و الشيعة. و لو استجاب له العثمانيون لوقوا العالم الإسلامى من كثير من الفواجع و الكوارث و رفعوا المسلمين إلى مكانه عزيزه.

و كانت حروب نادر شاه كلها من أجل استرداد أرض بلادته المغتصبه، و حمايه بلاده من دسائس الأجانب الطامعين فيها، و إخضاع الانفصاليين و العصاه. و لكنه كان دائما يفضل أن يحقق ذلك بالصلح و التفاهم، فلا يتوسل إليه بالحرب إلا مضطرا. و ما من مره اقترح فيها العدو عليه الصلح إلا و قبل بلا تردد و لو كان ذلك العدو قد سلف منه نقض لعهود الصلح.

و كان هادئا ثابتا فى مقابله المخاطر. و من مظاهر ذلك أنه لما أطلقت عليه الرصاصه فى غابه "سواد كوه" فجرحته فى يده جرحا بسيطا و قتلت حصانه، تظاهر بالموت ليحمل مطلق الرصاصه على الاكتفاء بها، إذ يكون همه المبادره إلى الفرار، فلا يثنى بغيرها. و لو رآه سالما لثنى.

و من ذلك أنه لما كان فى طريقه إلى غزو داغستان أقام معسكره مره على مقربه من نهر "جرجان". و اتفق أن طفى النهر بسيل عظيم و جرفت حواميل الماء كثيرا من الجند و الدواب و المعدات، بل جرف السيل خيام حرسه من حوله، و أصبحت خيمته نفسها معرضه للسيل، و لكنه رفض أن ينقلها إلى مكان أعلى، و ظل جالسا على متكته ينظر إلى السيل هادئا مطمئنا.

أما نظرتة إلى مهمه السلطان الحاكم فتتضح من هذه الكلمه التى تضمنها أحد مراسيمه. قال:

"ظاهر للعالمين أن وجود أمثالنا، نحن العباد الترابيين الذين وصلوا إلى مقام الرئاسة فى ظل الخالق، إنما هو من أجل إعانه الضعفاء و المرءوسين و مواساتهم، عملا بفحوى "كلكم راع و كلكم مسئول عن رعيته".

شهادات

كتب "نابليون بوناپرت" فى رسالته إلى "فتح على شاه" القاجارى:

كان نادر شاه محاربا عظيما استطاع أن يحصل على قدر كبير من القوه، يخشاه طلاب الفتنة و يدهش منه مريدو السوء من جيرانه. تغلب على أعداء وطنه، و تملك عزيزا.

و قال السائح الفرنسى الفيلسوف "الشوفاليه جان شاردان" فى كتابه له فى رحلاته:

قل نظير نادر فى كفاءته و خبرته. و هو، إلى ذلك، رجل حسن السليفه [السليقه] متقن لعمله. يكافئ العاملين الجادين، شديد فى تنبيهه للمتراخين المقصرين. قد أثبت فى كل مقام قام فيه كفاءه و إتقاننا للعمل كما يجب أن تكون الكفاءه و الإتقان. و لما أصبح مقربا إلى بلاط الشاه دله على ما يجب عمله لتمييز المتملقين المجرمين عن غيرهم، و الطريق التى يجب اتباعها لمجازاتهم و إبعادهم عن البلاط.

وقال المؤرخ الانكليزي "جيمس فريزر" معاصرنا [معاصر] نادر شاه في كتابه "تاريخ نادر شاه أفشار":

ص: ٢١٠

١- لم يقل "الاثنى عشر" لأن الأصل الفارسي منظوم شعرا. و مراعاة الوزن و القافيه قضت بان يقول "الثمانيه و الأربعة".

لما كان نادر في الهند فاتحا أمر جنوده بان لا يأسروا هنديا، عسكريا كان أو غير عسكري، رجلا كان أو امراه، إلا أن يكون أحدهم قد اشترى رقيقا أو تزوج بامرأه بعقد شرعى. فمن اشترى رقيقا فعليه أن يحصل على سند من البائع يشهد بأنه قد باع رقيقه مختارا. و مع هذا لا يجوز لأحد من الايرانيين أن يحمل معه إلى إيران الرقيق و لا الزوجه الشرعيه إلا برضاهما.

و من خالف هذا الأمر فماله و دمه مباحان. و كان بعض رؤساء عسكريه قد تزوجوا بنساء هنديات. فلما تحركت ركابه من دهلى علم أن هؤلاء النساء يرغبن عن مرافقه أزواجهن إلى إيران، فأمر فوراً بردهن إلى أهلهن.

و قال فيه أيضا في كلام له عن وقائع نادر:

عجيب أن يحدث مثل هذه الوقائع الغريبه من رجلا لا مال له و لا نفرا! و قال:

كان نادر متسامحا عظيم التسامح، منطلق اليد و القلب. و فى شبابه بلغ به الاعدام و الفقر بحيث كان يضطر إلى الاقتراض. فلما شوهد ياوى إلى مثنواه الخاص قبل منتصف الليل. و لا يمكث فيه أكثر من خمس ساعات.

و قبل طلوع الشمس يكون قد انكب على العمل. طعامه بسيط قليل. و قد تشغله كثره عمله اليومي عن الطعام بالمره، و يكتفى بقليل من الحمص المحمص - و كان يحمله فى جيبه دائما - و قليل من الماء. و لا يستغرق طعامه من الوقت أكثر من نصف ساعه، ينصر بعده توا إلى العمل.

و قال المؤرخ الانكليزى "إدوار براون لكهارت" فى كتابه "تاريخ نادر":

كان نادر فى التكتيك الحربى أعلى بمراتب من نابليون و الإسكندر و تيمور و فردريك. و جنوده صفوه أكثر تجربه و أشجع من جنود نابليون. و من أعظم أعماله و أظهرها أنه أوجد فى مجال حكمه أمنا و استقرارا لا سابقه لهما.

و زاد عن حدود إيران الشرقيه الغزاه المتوحشين و قطاع الطرق، حتى عادت خراسان مره أخرى موضع اهتمام أهل التجاره و طلاب السلام.

و قال:

كان نادر واحدا من أعظم نوابغ العالم العسكريين بما هو جندى لا نظير له و قائد عسكري عظيم. و إذ كان من أسره مغموره، و هو إلى ذلك، لم يتلق تعليما و لا توجيها تربويا من أحد، فلا شك بان نبوغه العسكري و روحه الحربيه هبه إلهيه.

و قال:

نبوغ نادر فى معركة "مهمان دوست" يبعث على الاعجاب، لا من جهه القياده و الاصابه فقط، بل من جهه دقه المراقبه فى نظم للعسكر و تحقيق انضباطهم بما لا- نظير له أيضا. و يمكن القول بحق إن حنكه قوات نادر، و لا سيما انضباطهم، كان لها آثار كالمعجزه. و ما نفخه هذا النابغه العظيم فى نفوس الجند من روح الشجاعه و الاقدام جعل الايرانيين، و قد كانوا إلى ذلك اليوم

يحسون فى قلوبهم برعب عظيم من قساوه قلوب الأفاغنه و إقدامهم، فى غايه الشجاعه و الثبات، بل أثبتوا أنهم محاربون أكفاء يخشى جانبهم. و مع ما كان عليه نادر من ثقه عجيبه بنفسه بما هو قائد عظيم، كانت له القدره على أن يحمل جنوده على التسليم بخبرته و كفاءته. و كان الأب " لويس بازن " مبشرا، و كان طبيبا يداوى نادرا. و قد بعث إلى رئيسه فى فرنسا بتقريرين مطولين جاء فى أحدهما:

مع أن نادرا ولد فى عائله من العائلات الدنيا فى المجتمع، فكأنما ولد ليكون قائدا. فقد جمعت فيه الطبيعه كل الصفات و الخصوصيات التى تؤهله لأن يكون آمرا و قائدا عسكريا عظيما. تلك الصفات التى تنقص كثيرا من الملوك. و قلما تجد فى التاريخ نابغه أقوى و أنفذ لبا و شجاعه من نادر. كانت كل خطئه واسعه، يهيا للفوز بمقاصده كل الوسائل اللازمه بمنتهى البراعه و الدقه.

و قال اللورد " غرزن ":

ما مضى على سقوط الأسره الصفويه غير عشرين عاما حتى وجدنا أنفسنا نواجه فاتحا إيرانيا متقدرا جعل من آسيا المركزيه ساحه للكر و الفر، و قلب الممالك و الأباطره.

و كتب " وليم كوكل " و كيل " شركه الهند الشرقيه " الإنكليزيه فى إيران أيام نادر شاه:

الموهبه العسكريه العجيبه عند هذا القائد مع حسن الطالع قد جمعا بين محبيه و أولئك الذين كانوا يخشونه، و أوقعا الخوف فى أعدائه و الرعب فى نفس الشاه.

و قال:

من أدل الدلائل على سعه فكر نادر و صحه أحكامه مخالفته سنه من سبقه من الملوك و سائر أمراء الشرق فى حجب أبنائهم داخل الحرم مع النسوان و الخصيان إلى يوم يتولون الحكم.

و قال:

مبلغ مهاره نادر و سرعته فى تشخيص المواضع الضعيفه من عدوه، و تفننه فى حمايه جنده أمر لا يصدق. و كان إذا تراجع أحد قواده بلا مسوغ علاه بالعصا و ظل يضرب على رأسه حتى يقع على الأرض. و حينئذ يوكل القيادة إلى مأموره الذى تحت يده.

و قال الجنرال الروسى " كيشيشوف " فى كتابه " حمله نادر شاه إلى الهند ".

السبب الأول فى انتصارات نادر و تقدمه هو بعد همته و درايته.

و لا شك أن نادرا قد حرر وطنه من نير الأجانب و استعبادهم، و أضعف العثمانيين إلى حد بعيد بجيوشه التى قادها إلى محاربتهم، و أوجد فى الوقائع الأوروبية تحولات عظيمه. و فى الشرق زلزل قواعد الإمبراطوريه المغولييه فى الهند و جعل

سقوطها أمرا مسلما به. و انتهى إلى إعلاء إيران من حضيض الذل إلى أوج الرفعه و العظمه، و حولها من دوله ضعيفه إلى دوله من أقوى الدول. و إذ كان نادر يصرف أكثر أوقاته، بل كل أوقاته، في قياده القوى العسكريه و التفنن في تجهيزها و تسييرها، فقد أوكل أمور الدوله الاداريه إلى معاونيه. كان كلما استتب السلام و الاستقرار عاد إلى الانهماك في تهيئه المقدمات لحرب أخرى، و من ثم ينسى غيرها من شئون الدوله، فلا يهتم بها، إذ كان يشغله عنها حبه الشديد للحرب.

و قال:

ص: ٢١١

إلى ذلك الوقت لم يكن التاريخ قد ذكر أن القائد العام للجيش يحضر ميدان الكر و الفر جنباً إلى جنب مع أفراد العسكر و ينطلق في المعركة متقدماً أوائل الجند.

و نقل الجنرال السير "برسى سايكس" في كتابه "تاريخ إيران" عن "هانوى"، و هو تاجر إنكليزي سكن في إيران في عهد نادر، من سنة ١١٥٦ هـ إلى سنة ١١٦١ هـ:

نرى امرأً ذا أصل و نسب غامضين لا يمكن تبيينهما إلا بصعوبة. و قد قاد أحداثاً بعزم و ثبات، و بنى حياته الحافلة على أساس من البصيره و النظر في العواقب و التفكير الواقعي. و الخطط التي وضعها بالتأمل و التبصر، لتحقيق مستقبل سعيد مقبل له، أنفذها في مجال الفرص السانحة بهممه لا تفتري. من أجل ذلك أصبح، كغيره من الفاتحين قبله، يخيف آسيا. لقد أصبح، و لا شك، الأمر الناهي على الشرق، المتحكم في مصائر أهله.

و قال العقيد السير "جان مالكم" سفير إنكلترا في بلاط "فتح على شاه" القاجاري، في كتابه "تاريخ إيران".

شجاعه نادر و إقدامه في الحروب و مروءته و فتوته في معاملته الأعداء، و أعمال عظيمه أخرى، تستحق الثناء و التقدير.

و كان نادر معروفاً بقوه صوته. و كان صوته كبير التأثير في جنده إذا صاح بهم في الحرب. و روى السير "جان مالكم" عنه هذه الفكاهة قال:

كان السلطان محمود العثماني يعرف أن نادراً معجب بجهاره صوته.

فأرسل إلى بلاط سفيراً اشتهر في البلاد العثمانية بجهاره صوته. فلما استقبله نادر في بلاطه تبارياً في قوه الصوت، فتفوق السفير عليه، و أقر نادر أن منافسه أقوى صوتاً منه و اثنى عليه. فلما أراد السفير الانصراف قال له نادر و هو يودعه: أبلغ السلطان محموداً عن لساني أنني، إذ اكتشفت أن في مجال حكمك رجلاً واحداً فقط، و أنك، مع هذا، اخترت هذا الرجل الواحد لبلاطى، فانا سعيد مسرور للغاية.

و قال السياسي الروسي المعروف "سير جي ديميتروفتش كوليزين" سفير روسيا في بلاط نادر شاه في تقرير رفعه إلى دولته:

إن قائد قوات إيران بلغ به الإعجاب بالنفس و عزه النفس إلى حيث يصعب أن يدعن لتوصيات غيره(١).

القاضي ناصر الدين ناصر بن أبي جعفر الامامي الديلمي الأصل القزويني

من الفقهاء في القرن السادس للهجرة و أكابر علماء الشيعة في عصره.

لم أقف على تاريخ ولادته و وفاته. أخذ العلم من فضلاء قزوين.

ذكره الشيخ عبد الجليل القزويني في كتابه النقض الذي ألفه في حدود سنة ٥٦٠ ضمن أعظم علماء عصره(٢) و ذكره منتجب الدين بن بابويه في الفهرست(٣) و نقل عنه الحر العاملي في أمل الآمل ج ٢ ص ٣٣٣ و ذكره أيضاً صاحب رياض العلماء في ج

٥ ص ٢٣٥ و الحائري الأردبيلى فى جامع الرواه ج ٢ ص ٢٨٨.

يقول عبد الحسين الصالحى: فصل عن تاريخ أسرته العلميه العريقه آل الامامى فى قزوين و الديلم فى ترجمه أبى جعفر محمد بن على الامامى الديلمى و لعل المترجم له نجله.

نركس بنت الشيخ محمد صالح بن الشيخ الملا محمد الملائكه ابن الشيخ محمد

تقى بن الشيخ محمد جعفر بن الشيخ محمد كاظم البرغانى القزوينى الحائرى

آل الصالحى.

ولدت حدود سنه ١٢٤٠ و توفيت فى كربلاء حدود سنه ١٣٢٢.

من ربوات الذكاء و الفطنه و سعه الإدراك، محدثه عالمه متفقه بصيره بالكلام حافظه للقرآن الكريم عالمه بتفسيره و تأويله عابده من الناسكات الزاهدات فى الدنيا.

أخذت النحو و الصرف و المنطق و العلوم العربيه و فنون الأدب عن أختها الشهيره قره العين ثم تخرجت فى الفقه و الأصول و التفسير على والدها الشيخ محمد صالح البرغانى الحائرى المتوفى سنه ١٢٧١ و عمها الشهيد الثالث المستشهد سنه ١٢٦٣ و أخذت العرفان و سائر العلوم عن عمها الآخر الشيخ الملا على البرغانى و الفيلسوفه عن الآخوند الشيخ الملا آغا الحكمى القزوينى و أخيها الشيخ الميرزا عبد الوهاب البرغانى. و لما بلغت سن الرشد زفوها إلى ابن عمها الشيخ جعفر ابن الشهيد الثالث من أعلام عصره (٤) و رزقت منه خديجه و سكينه اللتين كانتا فقيهتين عالمتين، من فواضل نساء عصرهن و لم تخلف أولادا ذكورا. هاجرت مع زوجها إلى كربلاء و تصدرت للتدريس و الوعظ و الإرشاد، و كانت تميل إلى الشيخيه و فى أواخر عمرها انقطعت للرياضه و التبتل و العبادات حتى توفيت فى كربلاء و دفنت فى الرواق الشرقى قريب من قبر السيد كاظم الرشتى (٥)

ميرزا نظام الدين ابن مير أمين الدين حسين دستغيب الشيرازى.

ولد سنه ٩٩٧ و توفى سنه ١٠٢٩ فى شيراز.

هو من السادات الدستغيبيه فى شيراز، اشتهر باسم نظام دست غيب. كان إلى شاعريته من كبار الخطاطين فى خط نستعليق، و على (عزى فيروزآبادى) فى شيراز تلقى المران على الشعر. و كان عزى ملما بالأدب العربى نظما و نثرا، فربى المترجم و نماه فى الشعر و كان موهوبا فاستوعب ما تلقاه و اشتهر و هو لا يزال فى عنفوان شبابه. له ديوان يحتوى على ثلاثه آلاف بيت من الشعر، و يقول صاحب كتاب (ميخانه) انها أربعة آلاف لا ثلاثه، و كان قد نظم ما فى هذا الديوان و هو لم يتجاوز الثمانيه و العشرين من عمره.

و له ديوان محفوظ فى المكتبه البريطانيه يحتوى على ألفى بيت مشتمله على الغزل و الترجيعات و رساله الساقى و التركيبات و قصائد فى مناقب الأئمه ع. و هذا الديوان جمعه (الحيان) سنه ١٠٣٠ أى بعد سنه واحده من وفاه الشاعر (٦)

-
- ١- ملخص عن محمد حسين قدوسى صاحب (نادرنامه).
 - ٢- انظر النقض ص ٢١١: تحقيق الدكتور السيد جلال الدين المحدث طهران منشورات انجمن آثار ملي.
 - ٣- الشيخ منتجب الدين على بن بابويه الرازى الفهرست ص ١٢٧ تحقيق الدكتور السيد جلال الدين المحدث قم منشورات المكتبة المرعشيه.
 - ٤- انظر نقباء البشر فى القرن الرابع عشر: ج ١ ص ٢٨٢.
 - ٥- الشيخ عبد الحسين الصالحى.
 - ٦- تاريخ أدبيات إيران.

مرت ترجمته في المجلد العاشر من (الأعيان). و نشر عنه هنا هذه الدراسة بقلم السيد محمد رضا الجلالى:

لقد تعددت الفرق التى عد هشام بن الحكم منها.

فبينما يصرح الأكثرون بأنه من الشيعة باعتباره واحدا من كبار المتكلمين وفق هذا المذهب، بل من المنظرين لعقائده، و من رواه حديثه، و من حمله فقهه، و الخصوم ينبزونه بأنه "رافضى" على هذا الأساس، نجد من عده فى "الغلامه" و "المجبره" (١) و "الجهميه" (٢) و "المشبهه" (٣) و "الحلوليه" (٤) و "الدهريه" (٥) و "الديصانيه الثنويه" (٦) إلا أن ما أكد عليه أكثر خصومه هو كونه من "المجسمه" (٧) و قد نسبوا إليه - فى مجال التجسيم - أمورا واضحه البطلان، حتى إن بعضهم نسب إليه تجويز "المحال الذى لا يتردد فى بطلانه ذو عقل" (٨) و نقلوا عن النظام قوله: إن هشاما قال فى التشبيه - فى سنه واحده - خمسه أقاويل (٩) و لوضوح بطلان هذه الدعاوى، حيث أن هشاما أرفع شانا من أن يوصم بمثل هذه الترهات، و هو المتصدى لمناظره كبار العلماء، فانا نرجئ التعقيب عليها و على أمثالها إلى مجال آخر.

و على كل، فان (التجسيم) أصبح السمه المشهوره التى تذكر مع هشام، و يحاول خصومه إلصاقها به، أو اتهامه بها، و لقد عبروا عن هذه التهمه بعبارات تقشعر منها جلود المؤمنين الموحدين!! و قد اتفقوا فى النقل عنه أنه قال: البارئ جل ذكره "جسم لا كالأجسام" و كأنهم لخصوا التهمه فى هذه الجمله، و جعلوها دليلا على ما ادعوه عليه من التجسيم! و لذلك، فانا نركز البحث عنها هنا، تحت العناوين التاليه:

١ - مصدر المقوله:

نقلت هذه المقوله عن هشام، فى مصادر عديده لمؤلفين قدماء:

١ - الرجال، للكشى، فقد ذكر بسنده عن عبد الملك بن هشام الحنات، قال: زعم هشام بن الحكم: أن الله "شئ لا كالأشياء" و أن الأشياء بائنه عنه، و هو بائن عن الأشياء.

و زعم: إن إثبات "الشئ" أن يقال: "جسم" فهو "جسم لا- كالأجسام" "شئ لا كالأشياء": ثابت موجود، غير مفقود، و لا معدوم، خارج عن الحدين: حد الابطال، و حد التشبيه (١٠) ٢ -

الكافى، للكلىنى، فقد روى بسنده عن الحسن بن عبد الرحمن الحماتى، قال: قلت لأبى الحسن موسى بن جعفر: إن هشام بن الحكم زعم: أن الله "جسم، ليس كمثله شئ" .. (١١).

فان مؤدى "ليس كمثله شئ" هو نفس مؤدى "لا كالأجسام" من دون أدنى تفاوت، و سيأتى توضيح هذه الجبهه.

٣ - و قال الشيخ المفيد: لم يكن فى سلفنا من تدين بالتشبيه من طريق المعنى، و إنما خالف هشام و أصحابه جماعه أصحاب

أبى عبد الله عقبوله فى "الجسم" فزعم: إن الله تعالى "جسم لا كالأجسام" (١٢) ٤ - وقال السيد الشريف المرتضى: فاما ما رمى به هشام بن الحكم من القول بالتجسيم، فالظاهر من الحكاياه عنه القول ب: "جسم لا كالأجسام" (١٣) و بهذا يثبت صدور هذه المقوله من هشام، لأن كبار أعلام الشيعة نقلوها عنه. و قد نقلها علماء سائر الطوائف، كما يلى:

و قد نقلها علماء سائر الطوائف، كما يلى:

٥ - قال أبو الحسن الأشعري - صاحب المذهب - : حكى عنه (أى):

عن هشام) أنه قال: هو "جسم لا- كالأجسام" و معنى ذلك: أنه شىء موجود (١٤) و فى موضع آخر، عند ذكر الاختلاف فى التجسيم، عد الفرقه الأولى: "الهشاميه" و نقل عن هشام أنه قال: هو "جسم لا كالأجسام".

ثم عنون للفرقه الثانيه بقوله: يزعمون أن ربهم "ليس بصوره، و لا كالأجسام"، و إنما يذهبون فى قولهم: "إنه جسم" إلى: "أنه موجود" و لا- يثبتون البارئ ذا أجزاء مؤتلفه، و أبعاض متلاصقه (١٥) فالملاحظ: أن ما نسبته إلى الفرقه الثانيه لا يختلف عما تحتويه المقوله التى نقلها عن هشام فى ذكر الفرقه الأولى، و لا- عما نقله عنه فى الموضع السابق، و إنما هو هو بعينه، بلا أدنى بتفاوت، عدا التقديم و التأخير، و بعض التوضيح.

٦ - و ابن أبى الحديد المعتزلى - بعد أن نقل أنواع التهم الموجهه إلى هشام - قال: و أصحابه من الشيعة يدفعون - اليوم - هذه الحكايات عنه، و يزعمون: أنه لم يزد على قوله: إنه "جسم لا كالأجسام" و أنه إنما أراد بإطلاق هذا اللفظ عليه: إثباته (١٦)

ص: ٢١٣

١- تأويل مختلف الحديث: ٤٨، و الأنساب - للسمعاني: ظ ٥٩٠. و لسان الميزان ٦ / ١٩٤. و الملل و النحل ١ / ١٨٥.

٢- هامش الفهرست - للنديم -: ٢٢٤.

٣- الملل و النحل / ١٨٤، و الأنساب - للسمعاني -: ظ ٥٩٠.

٤- تاريخ الفرق الإسلاميه - للغرابي -: ٣٠٢.

٥- التنبيه و الرد - للملطي -: ٢٤.

٦- الانتصار - للخياط -: ٤٠-٤١.

٧- مقالات الإسلاميين - للأشعري - ١ / ٢٥٧، و لسان الميزان ٦ / ١٩٤. و لهج بهذه التهمه أكثر المتأخرين!.

٨- لسان الميزان ٦ / ١٩٤.

٩- مقالات الإسلاميين ١ / ١٠٤، و انظر: تليس إبليس - لابن الجوزى: ٨٣.

١٠- اختيار معرفه الرجال: ٢٨٤ الفقره ٥٠٣.

١١- الكافي، كتاب التوحيد، باب ١١ ج ١ ص ٨٢ ح ٧. رواه الصدوق فى التوحيد، باب ٦، ح ٨، ص ١٠٠

١٢- الحكايات: ١٣١، الفصول المختاره: ٢٨٥.

١٣- الشافى - للسيد المرتضى -: ١٢.

١٤- مقالات الإسلاميين ٢٥٧/١.

١٥- مقالات الإسلاميين ١٠٤/١.

١٦- شرح نهج البلاغه ٢٢٤/٣ و ٢٢٨.

و قد نسبت هذه المقوله إلى آخرين غير هشام:

٧ - قال ابن أبي الحديد: و أما من قال: إنه "جسم لا كالأجسام" على معنى أنه بخلاف "العرض" الذى يستحيل أن يتوهم منه فعل، و نفوا عنه معنى الجسميه، و إنما أطلقوا هذه اللفظه لمعنى: أنه "شئ لا كالأجسام" و "ذات لا كالذوات".

فأمرهم سهل، لأن خلافهم فى العبارة، و هم: على بن منصور، و السكاك، و يونس بن عبد الرحمن، و الفضل بن شاذان.

و كل هؤلاء من قدماء رجال الشيعه(١) و نسبت المقوله إلى أشخاص ينتمون إلى فرق أخرى:

٨ - قال ابن أبي الحديد - بعد ذكر ما نقلنا عنه -: و قد قال بهذا القول "ابن كرام" و أصحابه(٢) و نسبت إلى داود الحوارى(٣)

٩ - قال الشهرستانى - فى "مشبهه الحشويه" نقلا عن الكعبى، عن داود الحوارى - رئيس "الحواريه" أنه يقول: إن الله سبحانه "جسم" و لحم، و دم، و له جوارح و أعضاء...

و هو مع هذا "ليس جمسا كالأجسام" و لا لحما كاللحوم... و كذلك جميع صفاته.

و هو سبحانه لا يشبه شيئا من المخلوقات، و لا يشبهه شئ(٤) و مع قطع النظر عن التناقض بين صدر هذا النقل و ذيله، فإنه يدل على وجوده المقوله "جسم لا كالأجسام" فى ما نقل عن داود.

و نقلت المقوله، بالمعنى، منسوبه إلى قائلين لها:

١٠ - ذكر الأشعرى فى اختلافهم فى البارى تعالى هل هو فى مكان أو لا-؟ فقال: و قال قائلون: هو "جسم خارج من جميع صفات الأجسام" ليس بطويل، و لا- عريض، و لا- عميق، و لا- يوصف بلون، و لا- طعم، و لا- مجسه، و لا- شئ من صفات الأجسام(٥) و حكيت المقوله عن غير المعتزله:

١١ - قال صاحب كتاب "فضيحه المعتزله": أيما أشنع؟ القول بان الله "جسم لا يشبه الأجسام" فى معانيها، و لا فى أنفسها، غير متناه القدره، و لا محدود العلم، لا يلحقه نقص، و لا يدخله تغيير، و لا تستحيل منه الأفعال، لا يزال قادرا عليها؟ أم القول... (٦)

و جاءت المقوله غير منسوبه: ١٢ - فيما ذكره الدوانى على العقائد العضديه، قال: و منهم - أى:

من المشبهه - من تستر بالبلكفه، فقال: هو "جسم لا كالأجسام" و له حيز لا كالأحياز، و نسبتبه إلى حيزه ليست كنسبه الأجسام إلى أحيازها، و هكذا "ينفى جميع خواص الجسم" عنه، حتى لا يبقى إلا اسم "الجسم".

و هؤلاء لا يكفرون، بخلاف المصرحين بالجسميه(٧) ١٣ - فيما ذكره القاضى عبد الجبار المعتزلى من إبطال المعتزله لقول من زعم: أن الله تعالى "جسم لا كالأجسام" قياسا على القول بأنه تعالى "شئ لا كالأشياء" (٨) و لكن سنذكر أن مقوله "جسم لا كالأجسام" هى عند هشام بمعنى "شئ لا كالأشياء" و تساويها فى المعنى، فالدليل عليهما - عند هشام - واحد.

و على هذا فيمكن أن تعتبر مصادر "شئ لا كالأشياء" مكمله لمصادر مقوله "جسم لا كالأجسام".

و من الغريب أن البغدادي - صاحب "الفرق بين الفرق" - لم ينقل هذه المقولة عن هشام، مع نقله جملة من أشنع ما نسب إليه في بعض مصادرها السابقة! و أظن أنه إنما عمد إلى ترك ذكر هذه المقولة، لأنها تحتوى على ما ينسف كل تلك الأكاذيب المفتعلة، و الأباطيل المنسوبة إلى هشام، كما سيتضح في هذا البحث.

٢ - مصطلح هشام في كلمة "جسم":

"الجسم": في العرف اللغوي يدل على تجمع الشيء، و تكتله في الوجود الخارجي (٩) و هذا بالطبع يقتضى وجود الأبعاد من الطول و العرض و العمق في ما يطلق عليه هذا اللفظ.

و يراد منه في العرف العام: مجموعه البدن - لإنسان أو حيوان - متكونه من أعضاء و جوارح.

و بعد أن دخلت الفلسفة الأجنبية بلاد الإسلام. استحدثت لكلمه "الجسم" تفسير فلسفي هو: ما شغل حيزا و مكانا.

و قد اختلفت كلمات المتكلمين في معنى "الجسم" اختلافا كبيرا حيث يطلقونه في كتبهم، و تجرى على ألسنتهم.

قال ابن رشيد: الكراميه زعموا: أن معنى "الجسم" هو أنه "قائم بنفسه" (١٠) و الأشاعره ذهبوا إلى أن "الجسم": ما كان مؤلفا.

و رأى المعتزله: أن "الجسم" ما كان طويلا، عريضا، عميقا.

ص: ٢١٤

- ١- شرح نهج البلاغه ٢٢٨/٣.
- ٢- شرح نهج البلاغه ٢٢٨/٣.
- ٣- لقد اختلفت المصادر في إيراد هذا اللقب، و قد ورد "الحواري" في بعض المواضع، و "الجواربي" أو "الجواري" في مواضع أخرى، و الخوارزمي في مواضع ثلثه، فليلاحظ.
- ٤- الملل و النحل ١/١٠٥، و انظر: تاريخ الفرق الإسلاميه - للغرابي -: ٣٠٠-٣٠١.
- ٥- مقالات الإسلاميين ١/٢٦٠.
- ٦- الانتصار - للخياط -: ١٠٧.
- ٧- الشيخ محمد عبده بين الفلاسفه و الكلاميين: ٥٣٢.
- ٨- شرح الأصول الخمسه: ٢٢١، و انظر: في التوحيد - تكمله ديوان الأصول -: ٥٩٦.
- ٩- معجم مقاييس اللغه - لابن فارس - ١/٤٥٧.
- ١٠- ديوان الأصول: ٥٩٥، و لوامع البينات - للرازي -: ٣٥٩.

و هذا هو رأى المجسمه أيضا(1) و قد اصطلح هشام بن الحكم و تلامذته فى "الجسم" معنى خاصا.

قال السيد أبو القاسم الخوئى - معقبا على مقوله "جسم، ليس كمثلته شىء" - : إن نفي المماثلة يدل على أنه لا يريد من كلمه "الجسم" معناها المفهوم، و إلا: لم يصح نفي المماثلة، بل يريد معنى آخر غير ذلك(2) فما هو ذلك المعنى المصطلح؟ و هل يصح لهشام أن يصطلح لنفسه معنى يخالف العرف؟ و ما هو الدليل على صحه هذا التصرف؟ و لا بد - قبل الدخول فى هذه المباحث - من التذكير بان معرفه مصطلح كل مذهب، ضرورى جدا لفهم مقاصده، و إمكان معارضته، لأن أساس ذلك المذهب إنما يدور على محور مصطلحاته، و لا يصح - فى عرف العلماء - أن يحاسب أحد إلا على ما أظهره من مراده على مصطلحه، كما لا يجوز لأحد أن يحاسب الآخرين على أساس ما اتخذه هو مصطلحا لنفسه، بخلاف الآخرين.

و قديما قيل: "لا مشاحه فى الاصطلاح".

أما صحه الاصطلاح الخاص، فيمكن معرفتها من خلال ما يلى:

١ - قال القاضى عبد الجبار المعتزلى: قال شيوخنا: لو أن أهل اللغة بدا لهم فى العريبه على الوجه الذى تواضعوا عليه، و غيرهه حتى يجعلوا "قديما" مكان "محدث" و "عالما" مكان "جاهل" و "طويلا" مكان "قصير" كان لا يمنع(3) ٢ - و قال: قال شيوخنا: لو تواضع قوم على تسميه كل موجود:

"جوهر" أو "جسما" على تسميه "القائم بنفسه" بذلك، لحسن منهم وصف القديم تعالى بأنه "جسم" إلا أن يحصل نهى سمعى عن ذلك(4) أقول: أما مسأله النهى الشرعى، فلا مدخل لها فى صحه التواضع و عدمها، و سيأتى البحث عن توقيفيه أسماء الله تعالى، فى نهايه البحث.

و أما الفرد أو الجماعه الذين يصح منهم الاصطلاح و التواضع الخاص، فهم فى عباره القاضى الأولى "أهل اللغة" و ليس المراد بهم علماء اللغة، اللغويون الذين تخصصوا بمعرفتهم بها بالدراسه و البحث كعلم من العلوم، بل المراد بهم أهل اللسان الذين نشاوا عليها و نطقوا بها كلغه لهم، و منهم انطلقت مفرداتها، و أخذت تراكيبها، و تألفت قواميسها، فقد كان لهؤلاء الحق فى أن يضعوا - من البدايه - لكل معنى لفظا يدل عليه، ينتخبونه على حسب سلائقهم و ما يقارن الوضع من الأمور، باعتبار أنهم آباء اللغة و أولياؤها، و لو كانوا يضعون الأسماء على غير ما يعرف اليوم لها من المعانى، لما كان ممتنعا.

أما بعد ما حصل من التواضع، و ما تم إثباته فى متن اللغة، فليس لأحد من المتخصصين بعلم اللغة تغييره عما وضع عليه، و تبديله عما ثبت سماعه منهم أو قياسه عنهم.

و عباره القاضى الثانیه: تنظر إلى أهل الاختصاص بالعلوم، و لم يذكر الخصوصيات المشترط توقرها فى القائم بوضع الاصطلاح الخاص.

و الذى أراه أن ذلك مشروط بأمرين:

الأول: أن لا يكون التواضع الجديد على نقيض المعنى اللغوى، و لا معارضا له بالتباين.

فلو اشتركا في بعض الأفراد، أو ارتبطا بعلقه مجازيه، صح التواضع على غير المعنى اللغوي، و من هنا يعلم: أن كون القائم بالوضع الجديد عارفا بلغه التواضع، ليحقق هذا الشرط، هو أمر أساسي، كما لا يخفى.

الثاني: أن يكون التواضع الجديد مبتنیا على دليل منطقی، قابل للتصور، بان لا يكون منافيا لضروره العقل، أو قضيه وجدانيه.

قال الشيخ محمد عبده - في توقيفيه أسماء الله -: الألفاظ التي لا- تفهم إلا- الكمال، و لا تشوب ظاهرها شائبه النقص، فيجوز إطلاقها على الله تعالى، بلا حرج.

و أضاف: و لكل قوم أن يصطلحوا في ذلك على ما شاءوا، كيف؟ و لنا أن نستدل على إثبات صفات كماليه للواجب تعالى، ثم نعبّر عنها بمشتق؟ (٥) و من هنا، فان لهشام بن الحكم الحق في أن يصطلح معنى خاصا لكلمه "جسم" فيطلقها، إذا توفر فيه الشرطان، و لا- يمنع منه إلا- موضوع "توقيفيه أسماء الله تعالى". التي ستتحدث عنها في نهاية البحث، أما هنا فيجب أن نعرف "مصطلح هشام" ثم "الدليل على اختياره لهذا المصطلح".

أما مصطلحه:

فقد ذكروا: أن "الشيء" عنده لا يكون إلا "جسما" (٦) و نقلوا عنه:

أنه زعم: أن إثبات "الشيء" أن يقال: "جسم" (٧) و قالت فرقه من المعتزله: لا "شيء" إلا "جسم" (٨) و قال الأشعري - في الاختلاف في الدقيق، و "الجسم" -:

٩ - هشام بن الحكم، و كان يقول: أريد بقولي: "جسم" أنه "موجود" و أنه "شيء" و أنه "قائم بنفسه" (٩) هكذا جمع الأشعري بين هذه التفسيرات الثلاثة، في مصطلح هشام في "الجسم"، و ظاهر ذلك أنها كلها متساويه، و تعطى مفهوما واحدا.

و قد عرفت أن "الشيء" و "الجسم" واحد عند هشام، كما نسب ٤.

ص: ٢١٥

١- ديوان الأصول: ٥٩٥.

٢- معجم رجال الحديث ٣٥٨/١٩.

٣- المغني - لعبد الجبار - ١٧٢/٥.

٤- المغني - لعبد الجبار - ١٧٣/٥.

٥- الشيخ محمد عبده بين الفلاسفه و المتكلمين: ٦٠٤.

٦- الفرق بين الفرق: ٦٧.

٧- اختيار معرفه الرجال: ٢٨٤ رقم ٥٠٣.

٨- مقالات الإسلاميين ١/٢٤٥.

الأشعري ذلك إلى المشبهه(١) و أما تفسير "الجسم" ب "القائم بنفسه":

فقد ذكره عبد الجبار، فقال: و أما أن يكون (التجسيم) عن طريق العبارة، يجوز أن يقول: إن الله تعالى "جسم" ليس بطويل، و لا عريض، و لا عميق، و "لا يجوز عليه ما يجوز على الأجسام" من الصعود، و الهبوط، و الحركة، و السكون، و الانتقال من مكان إلى مكان، و لكن أسميه "جسما" لأنه "قائم بنفسه"(٢) و نسبة الشهرستاني إلى الكراميه، فقال: أطلق أكثرهم لفظ "الجسم" عليه تعالى، و المقاربون منهم قالوا: معنى بكونه "جسما" أنه "قائم بذاته" و هذا هو "الجسم" عندهم(٣) و قال الشهرستاني أيضا: و قد اجتهد محمد بن الهيصم في إمام مقاله أبي عبد الله (ابن كرام) في كل مسأله، حتى ردها من المحال إلى نوع يفهم فيما بين العقلاء، مثل "التجسيم" فإنه قال: أراد ب "الجسم": "القائم بالذات"(٤) و أما تفسير "الجسم" ب "الموجود":

فقد نسبته الأشعري - في موضع - إلى هشام، فقال: زعم هشام بن الحكم أن معنى "موجود" في الباري تعالى أنه "جسم" لأنه "موجود":

"شئ"(٥) و نسب إلى قوم: أن معنى "الجسم"....هو "الشئ الموجود" و أن الباري لما كان "شيئا موجودا" كان "جسما"(٦) و ذكر الجويني ما نصه: معنى "الجسم": "الموجود" و أن المعنى بقولنا: إن الله "جسم" أنه "موجود"(٧) و نقل الإيجي هذا التفسير عن بعض الكراميه، و نقل التفسير السابق عن آخرين منهم، فقال: ذهب بعض الجهال إلى أنه "جسم" فالكراميه قالوا: هو "جسم" أي "موجود" و قوم قالوا: هو "جسم" أي "قائم بنفسه"(٨) و هكذا نجد التفاسير الثلاثة "للجسم" قد جمعها الأشعري في عبارة واحده، و نسبها إلى هشام، و كأنها بمعنى واحد: الشئ، و الموجود، و القائم بنفسه.

هذا، و من ناحيه أخرى نجدهم يفسرون كل واحد من هذه الثلاثة بالمعنى الآخر:

قال ابن حزم - في معنى قولنا "شئ" -: إنه "الموجود" ثم قال: إن قالوا: هو "الموجود" صاروا إلى الحق(٩) و قال الأشعري - في معنى: أنه تعالى "شئ" -: قال قائلون: معنى أن الله "شئ" :معنى أنه "موجود" و هذا مذهب من قال: لا "شئ" إلا "موجود"(١٠) و قال الرازي: من قال: المعدوم ليس بشئ، قال: الموجود شئ، فهما لفظان مترادفان، فإذا كان "موجودا" كان "شيئا"(١١) و ذكر - في معنى: أنه "موجود" أقوالا، منها:

٤ - "موجود" بمعنى: أنه "شئ".

٥ - "موجود" بمعنى: أنه "قائم بنفسه"(١٢) و احتمال القاضي عبد الجبار - في معنى "قائم بنفسه":

١ - أنه "موجود".

٢ - أو "موجود باق".

٣ - أو "لا- يحتاج وجوده إلى محل و مكان"(١٣) و قضيه قياس المساواه أن يقال: إن المعاني الثلاثة: الشئ، الموجود، القائم بنفسه، هي بمعنى "الجسم" كما نسب إلى هشام أولا.

و الحق أن مصداقها - على مصطلح هشام - واحد، و إن اختلف مفهوم كل عن الآخر، و إنما الاختلاف بالاعتبارات الدخيلة:

فباعتبار صحه الخبر عنه، و تعلق العلم به و إثباته، يسمى "شيئا".

و باعتبار تحققه، و اتصافه بالوجود، يسمى "موجودا".

و باعتبار استقلاله في التحقق، يسمى "قائما بنفسه".

و قد اعترف تلامذه هشام بهذا المصطلح، و أن إطلاق "الجسم" على الباري سبحانه بمعنى "الشيء".

قال ابن أبي الحديد: و أما من قال: إنه "جسم لا كالأجسام" على معنى أنه بخلاف "العرض" الذي يستحيل أن يتوهم منه فعل، و نفوا عنه معنى الجسميه، و إنما أطلقوا هذه اللفظه لمعنى أنه "شيء لا كالأشياء" فأمرهم سهل، لأن خلافتهم في العبارة، و هم على بن منصور، و السكاك، و يونس بن عبد الرحمن، و الفضل بن شاذان، و كل هؤلاء من قدماء رجال الشيعة (١٤) و من المعقول - في العاده - أن يمثل التلامذه آراء أستاذهم (١٥) فهشام قد اصطاح للجسم معنى خاصا هو "الشيء".

و أما مناسبة هذا المعنى، للمعنى المفهوم لغه:

فلأن المعنى اللغوى - كما مر - هو: تجمع الشيء و تكتله في الخارج، ٩.

ص: ٢١٦

-
- ١- مقالات الإسلاميين ١٨٠/٢.
 - ٢- شرح الأصول الخمسة: ٢١٨.
 - ٣- الملل و النحل ١٠٩/١، و لوامع البينات - للرازي -: ٣٥٩.
 - ٤- الملل و النحل ١١٢/١.
 - ٥- مقالات الإسلاميين ١٨٢/٢.
 - ٦- الشامل في أصول الدين: ١٦٦ - طبعه ريتز - الإسكندريه، و انظر: مذاهب الإسلاميين ٧٢/١.
 - ٧- مقالات الإسلاميين ١٢٤/١.
 - ٨- المواقف - بشرح السيد الشريف -: ٤٧٣.
 - ٩- الفصل ٤٣/٥.
 - ١٠- مقالات الإسلاميين ١٨٠/٢.
 - ١١- لوامع البينات - للرازي -: ٣٥٧.
 - ١٢- مقالات الإسلاميين ١٨٥/٢.
 - ١٣- المغنى - لعبد الجبار - ١٨٠/٤.
 - ١٤- شرح نهج البلاغه ٢٢٨/٣.

١٥- هشام بن الحكم - لنعمة -: ٦٩.

و هذا يحتوى على طرفين: الأول: أن يكون ذا أجزاء متكثله. الثانى: أن يكون متحققا فى الخارج، فما كان ذا أجزاء و تحقق فى الخارج، اشترك مع معنى الجسم اللغوى فى كلا الأمرين.

و إن لم يكن مادته، و ليس له أجزاء، و إنما له تحقق فى الخارج، فهو "شئ" بحقيقه الشئيه، و هى التحقق و الثبوت فى الخارج، و اشتراكه فى هذا مع "الجسم" يصحح إطلاق "الجسم" عليه فى عباره المقوله، و لا يحتاج إلى مادته، و لا تحيز، و لا غير ذلك من خواص الأجسام.

و قد اعترض الشيخ الصدوق على هذا التواضع، فقال: إن لم يرجع منه (أى من إطلاق "الجسم" على البارئ) إلا على التسميه فقط، كان واضعا للاسم فى غير موضعه، و كان كمن سمي الله عز و جل إنسانا، و لحما، و دما، ثم لم يثبت معناها، و جعل خلافه إيانا على الاسم، دون المعنى (١) أقول: و حاصل اعتراضه فى أمرين:

١ - فى أن هذا من باب وضع اللفظ فى غير موضعه.

فان كان مراده أنه استعمال للفظ فى غير ما وضع له، فلم يرد به المعنى الحقيقى، فهذا مع وضوحه، ليس مخالفا، إذا كان استعمالا مجازيا على أساس علقه مجازيه، كما شرحنا، لصحه المجاز بالوضع العام.

و ليست فيه مخالفه لأصل عقلاى معلوم، و لا معارضه فيه لفرع شرعى مستدل عليه، كما ذكر السيد الشريف المرتضى، حيث قال: فاما ما رمى به هشام بن الحكم من القول بالتجسيم، فالظاهر من الحكايه عنه القول ب "جسم لا كالأجسام" و لا خلاف فى أن هذا القول ليس بتشبيه، و لا ناقض لأصل، و لا معترض على فرع (٢) و ليس محرما على أحد أن يصطلح لنفسه لفظا يضعه على معنى خاص فى نظره.

نعم، بما أن الموضوع يتعلق بأسماء الله تعالى فهو يرتبط بمسأله توقيفه هذه الأسماء و ذلك خارج عن المخالفه الوضعيه، و سيأتى الحديث عن تلك المسأله.

٢ - فى تمثيله بما ذكر من الألفاظ، و استهجان إطلاقها على البارئ.

فالفرق بين تلك الألفاظ و بين لفظ "الجسم" واضح، حيث إن تلك الألفاظ لا تطلق بحقيقتها على الله كما هو واضح، و ليس لها معنى مجازى قابل للإطلاق عليه تعالى، يستحسنه الطبع، فإطلاقها عليه تعالى مستهجن لما فى معانيها الحقيقه من الحقاره و السقوط.

مع أنه يعترض عليه بإطلاق كلمه "شئ" التى وضع هشام لفظ "الجسم" بمعناها، و سيأتى الكلام فيها.

و القاضى عبد الجبار ذكر من أطلق اسم "الجسم" عن طريق عبارته و قال: أسميه "جسما" لأنه "قائم بنفسه". فاعترض عليه بقوله: فان كان خلافه من هذا الوجه، فالكلام عليه ما ذكرناه من أن الجسم إنما يكون طويلا، عريضا، عميقا، فلا يوصف به القديم تعالى (٣) أقول: و هذا خروج عن منهج المعارضه العلميه، لأنه خروج عن مصطلح المعارض، و قد ذكرنا سابقا أن المناقشه لا بد أن تبنى على المصطلح الخاص الذى قصده المعارض، و لا يجوز محاسبه أحد على ما لم يصطلحه و لم يتواضع

عليه، فلا "مشاحه فى الاصطلاح". إلا أن يكون اعتراضه على أصل الاصطلاح، وقد أثبتنا عدم مخالفته لشيء كما سيأتى ذكر الدليل عليه.

٣ - أصل هذه المقولة.

إن هذه المقولة تبنى أساساً على القول بان البارئ تعالى "شيء" و هشام زعم أن إثبات "الشيء" أن يقال: "جسم".
و على ذلك تكون مقوله "جسم لا كالأجسام" مأخوذه من "شيء لا كالأشياء" و بمعناها.
و أقدم نص شيعى احتوى على المقولة نقلاً عن هشام تضمن التسويه بينهما:

عن عبد الملك بن هشام الحنات: قلت لأبى الحسن الرضا: زعم هشام بن الحكم: أن الله "شيء لا كالأشياء" و أنها بئنه عنه، و هو بائن من الأشياء، و زعم أن إثبات "الشيء" أن يقال: "جسم" فهو "جسم لا- كالأجسام": "شيء لا- كالأشياء" ثابت موجود (٤) و كذلك ابن أبى الحديد فرض إطلاق هذه المقولة: "جسم لا كالأجسام" لمعنى أنه "شيء لا كالأشياء" (٥) و من قال بالتساوى بين "شيء" و "جسم" و أجاز إطلاق "شيء" على البارئ تعالى، يقول: إنه تعالى "شيء لا كالأشياء" فلا بد أن يقول بمقوله "جسم لا- كالأجسام" من جهة المعنى، و إن تعبد بالتوقيف فهو ممنوع من جهته لا- من جهة المعنى، و ذلك أمر آخر.

أما إطلاق اسم "الشيء" على البارئ تعالى فقد عنون المتكلمون له، و اختلفوا فيه على مقالتين:

فقال جهم، و بعض الزيديه: إن البارئ تعالى لا يقال له "شيء" لأن الشيء هو المخلوق الذى له مثل (٦) و أورد الرازى احتجاج جهم على مقالته بالقرآن، و المعقول:

أما القرآن، فأيتان:

الأولى: قوله تعالى: (الله خالق كل شيء) (سوره الرعد (١٣) الآيه (١٦)).

فلو كان تعالى يسمى بلفظ "الشيء" لزم بحكم هذا الظاهر كونه خالقاً لنفسه، و هو محال.

ص: ٢١٧

١- التوحيد - للصدوق -: ٣٠٠ رقم ٦.

٢- الشافى - للمرئضى -: ١٢.

٣- شرح الأصول الخمسه: ٢١٨.

٤- اختيار معرفه الرجال: ٢٨٤ رقم ٥٠٣.

٥- شرح نهج البلاغه ٢٢٨/٣.

الثانية: قوله تعالى: (ليس كمثلته شيء) (سوره الشورى (٤٢) الآيه (١١)).

و مثل مثله هو "هو" فلما ذكر أن (ليس كمثلته شيء) لزم أن لا يكون هو مسمى باسم "شيء".

و قول من قال: "الكاف زائده" باطل، لأن هذا ذكر: هذا الكاف خطأ و فاسد، فمعلوم أن هذا لا يليق بكلام الله تعالى.

و أما المعقول:

فهو: أن أسماء الله تعالى داله على صفات الكمال و نعوت الجلال، و قال: (و لله الأسماء الحسنی فادعوه بها) (سوره الأعراف (١))
الآيه (١٨٠).

و اسم "الشيء" لا- يفيد كمالا، و لا جلاله و لا معنى من المعاني الحسنه، فثبت أن كل ما كان من أسماء الله تعالى و جب أن يفيد حسنا، و لفظ "شيء" لا يفيد حسنا، فوجب أن لا يكون لله تعالى. (٢)

و لم يحاول الرازى الاجابه على كلام جهم هذا، فلنذكر - نحن - ما يبدو لنا فيه من المغالطه و الفساد:

أما عن احتجاجه بالآيه الأولى:

فجوابه: أن ذلك الخطاب لا يشمل المتكلم به و هو الله تعالى شأنه، لأن ماده "الخلق" الواردة فيه تقتضى انصراف مؤداه إلى ما سواه جل ذكره، و هذا كما لو قال أحد: "من لبس ردائي عاقبته" حيث أنه لا يشمل المتكلم نفسه، لفرض أن الرداء هو له، و الغرض من إيراد هذا القول منع الأغيار من التصرف فى الرداء.

فكذلك الآيه الكريمه إنما سيقت للدلاله على قدره الله على ما سواه، و استيلائه على كل شيء مما عداه، لأنه خالق كل شيء،
فهى منصرفه عنه هو جل جلاله:

و يدل على هذا المعنى، ما

روى عن الامام أبى جعفر محمد الباقر، و الامام أبى عبد الله جعفر الصادق ع، قالوا: كل ما وقع عليه اسم "شيء" - ما خلا الله عز
و جل - فهو مخلوق، و (الله خالق كل شيء) تبارك الذى (ليس كمثلته شيء) (٣) و الجواب عن احتجاجه بالآيه الثانيه:

إن زياده الحروف ليس من باب الخطأ، و لا فساد فيه، بل "إنما زيدت لتوكيد نفى المثل، لأن زياده الحرف بمنزله إعاده الجملة
ثانيا، قاله ابن جنى (٤) فالزياده أسلوب عربى، يؤدى دورا بلاغيا رائعا هو الأليق بكلامه تعالى.

و أما الجواب عن احتجاجه الذى سماه معقولا، فمن وجهين: الأول: أن المراد بالتسميه، ليس هو تعيين الاسم الخاص عليه تعالى،
بل المراد إطلاق اللفظ عليه، و بهذا يختلف عن الأسماء الحسنى، فلا يسرى حكمها عليه، فإله، بما أنه موجود ثابت، فكما يطلق
على كل ثابت أنه "شيء" فهو - تعالى - كذلك.

الثاني: أن الأسماء الحسنی، تلك، المذكوره لله تعالى، تدل على ما فيها من المعانی الحسنه، باعتبار أنها أوصاف، و أما ما يدل منها على مجرد الذات الربوبیه فلا دليل على دلالتة على ذلك إلا من جهه إضافته إليه جل ذكره.

و إطلاق "شئ" على فرض وروده من قبيل الثاني.

و قد ورد إطلاق اسم "الشئ" على البارئ تعالى:

- ١

فقد سئل الامام الصادق ع عن الله، ما هو؟ فقال: هو "شئ" بخلاف الأشياء " أرجع بقولي "شئ" إلى إثبات معنی، و أنه "شئ" بحقيقه الشئیه، غير أنه لا جسم، و لا صوره (٥) ٢ - و

سئل الامام الجواد ع: أ يجوز أن يقال: إن الله عز و جل "شئ"؟

قال: نعم، يخرجہ عن الحدین: حد التعطيل، و حد التشبيه (٤) و قد استدلل الرازی عليه بأمر من القرآن، و اللغه، و الإجماع:

أما القرآن: فقوله تعالى: (قل أي شئ أكبر شهادة قل الله) (سوره الأنعام (٧) الآية (١٩)).

و قوله تعالى: (كل شئ هالك إلا وجهه) (سوره القصص (٢٨) الآية (٨٨)).

قال: المراد بوجهه: ذاته، فقد استثنى ذاته من لفظ "الشئ" و الاستثناء خلاف الجنس خلاف الأصل.

و أما اللغه: فهي أن من قال: المعدوم ليس بشئ، قال: الموجود هو "الشئ" فهما لفظان مترادفان، فإذا كان "موجودا" كان "شيئا".

و من قال: المعدوم شئ، قال: الشئ: ما يصح أن يعلم و يخبر (٦) عنه، فكان "الموجود" أخص من "الشئ" و إن صدق الخاص صدق العام، فثبت أنه تعالى مسمى بالشئ (٧) و أما الإجماع: فالأولى أن يقال: أجمع الناس - قبل ظهور جهم - على كونه تعالى مسمى بهذا الاسم "الشئ" و الإجماع حجه (٨) و قال الأشعري: قال المسلمون - كلهم - إن البارئ "شئ" لا كالأشياء (٩) ١.

ص: ٢١٨

١- لوامع البينات - للرازی - : ٣٥٧.

٢- لوامع البينات، المطبوع باسم "شرح أسماء الله الحسنی" للرازی: ٧-٣٥٨.

٣- التوحيد - للصدوق -: ١٠٥-١٠٦. ب ٧. ح ٣ و ٤ و ٥.

٤- مغنی اللیب - لابن هشام -: ٢٣٨.

٥- التوحيد - للصدوق :- ١٠٤، ب ٧. ح ٢.

٦- التوحيد - للصدوق :- ١٠٤ ب ٧ ح ١، و ص ١٠٧ ح ٧.

٧- كذا الصواب، و كان فى المصدر: "يعبر" و لا معنى له، لاحظ التعريفات للجرجاني: ٥٧ و انظر: الحكايات: ١٢٢ و ١٤٤.

٨- لوامع البيئات - للرازي :- ٣٥٨.

٩- مقالات الإسلاميين ١/٢٣٨.

وقال الناشئ: إن الباري "شئ" موجود في الحقيقة، وإن الباري "غير الأشياء" والأشياء غيره في الحقيقة (١) و قال عبد الله بن كلاب: إنه تعالى موجود لا بوجود، و "شئ" لا بمعنى له كان شيئاً (٢) و زعم الكعبي في (مقالته): إن المعتزلة اجتمعت على أن الله عز و جل "شئ" لا كالأشياء (٣) و قال أبو الحسين الصالحى - من المعتزلة - فى صفات الله معنى قولى:

"إن الله عالم لا كالعلماء" و "قادر لا كالقادرين" و "حى لا كالأحياء" إنه: "شئ" لا كالأشياء".

و كان يقول: إن معنى "شئ" لا كالأشياء" معنى "عالم لا كالعلماء" (٤) و قال بعضهم: لا أقول: العلم شئ، و لا أقول: الصفات أشياء، لأنى إذا قلت: الباري "شئ" بصفاته، استغنيت عن أن أقول: صفاته أشياء (٥) و قال ابن حزم الظاهرى: إن قالوا لنا: إنكم تقولون: إن الله عز و جل "شئ" لا كالأشياء "؟.

قلنا:.... لفظه "شئ" النص جاء بها، و البرهان أوجبها (٦) و قال الرازى: "الموجود" و "الشئ" هما من صفات الله الذاتيه، المراد منها الألقاب الداله على الذات (٧) و قد استدل الجبائى على ذلك: بان الشئ: سمه لكل معلوم، و لكل ما أمكن ذكره و الاخبار عنه، فلما كان الله عز و جل معلوماً، يمكن ذكره و الاخبار عنه، و جب أنه "شئ" (٨) و

هشام أخذ مقوله "شئ" لا كالأشياء" من كلام الامام الصادق ع الذى نقلناه، حيث أجاب من ساله عن الله تعالى: ما هو؟ فقال: هو "شئ" بخلاف الأشياء".

فان هشاماً هو راوى ذلك الحديث عن الصادق ع (٩) و إذا صح إطلاق "الشئ" على الله جل ذكره، فهو حسب اصطلاح هشام لا يكون إلا "جسماً" (١٠) كما مر مفصلاً.

و إذا ثبت أن الله "شئ" لا كالأشياء" فهو عند هشام، و من قال بمصطلحه: "جسم لا كأجسام".

و لقد جهد المعتزلة الفصل بين المقولتين، و الحكم بعدم الملازمه بينهما:

قال القاضى عبد الجبار: فان قيل: أليس عندكم أنه تعالى: "شئ" لا كالأشياء" و قادر لا كالقادرين، و عالم لا كالعالمين، فهلا جاز أن يكون "جسماً لا كأجسام"؟.

قيل له: إن "الشئ" اسم يقع على ما يصح أن يعلم و يخبر عنه، و يتناول المتماثل و المختلف و المتضاد، لهذا يقال فى السواد و البياض: أنهما "شيئان" متضادان، فإذا قلنا: إنه تعالى "شئ" لا كالأشياء" فلا يتناقض كلامنا، لأننا لم نثبت بأول كلامنا ما نفيناها بآخره، و كذا إذا قلنا: إنه تعالى قادر لا كالقادرين، و عالم لا كالعالمين، فالمراد به أنه قادر لذاته، و عالم لذاته، و غيره قادر لمعنى، و عالم لمعنى.

و ليس كذلك ما ذكرتموه، لأن الجسم هو: ما يكون طويلاً عريضاً عميقاً، فإذا قلتم: إنه "جسم" فقد أثبتتم له الطول و العرض و العمق، ثم إذا قلتم: "لا كأجسام" فكأنكم قلتم: ليس بطويل و لا عريض و لا عميق، فقد نفيتم آخر ما أثبتتموه أولاً، و هذا هو حد المناقضه، ففارق أحدهما الآخر (١١) و قد ذكر الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريده مثل هذا الكلام بعينه، و أضاف: و إذا كان قد قام الدليل على أنه ليس "جسماً" فلا يصح القول:

إنه "جسم لا- كالأجسام" لأن حكم الأجسام واحد (١٢) والجواب: إن "الجسم" عند هشام وفي مصطلحه، وعند من يطلق مقوله "جسم لا- كالأجسام" على البارئ تعالى، هو بمعنى "الشيء" وليس بمعنى "ما له الطول والعرض والعمق" كما فرضه المعتزلة حتى يرد عليه ما ذكره، فكلامهم هذا كله خروج عن مصطلح هشام.

وإذا كان "الجسم" بمعنى "الشيء" فكما يصح إطلاق مقوله: "شيء لا كالأشياء" على البارئ باعتبار أن حقيقة الشئيه مشتركه بين البارئ وسائر الأشياء، وإنما يمتاز البارئ عنها بخاصيه وجوديه لا توجد فيها، فهو تعالى "شيء" بخلافها، ولا تشبهه ولا يشبهها، فمن جهه إثبات الشئيه له، خرج عن حد التعطيل، ومن جهه نفى المثل له تعالى خرج عن حد التشبيه، فثبت له تعالى التنزيه الكامل، من دون تعارض بين صدر المقوله و ذيلها.

فكذلك مقوله "جسم لا- كالأجسام" على مصطلح هشام، فإن الجسميه - بمعنى إثبات الشئيه بحقيقتها - ثابتة للبارئ تعالى، مشتركه بينه وبين غيره من الأجسام، فإثباتها له يخرج عن حد التعطيل، ونفى المماثله بينه وبين الأجسام، يخرج عن حد التشبيه، وهو التنزيه الكامل، من دون معارضه بين صدر المقوله و ذيلها.

فظهر أن ما ذكره غير وارد على هشام، إذ أنهم أوردوا ذلك على مصطلحهم في الجسم، وهو: ما له الطول والعرض والعمق، لا على مصطلحه في "الجسم" وهو: "الشيء". ٦.

ص: ٢١٩

- ١- مقالات الإسلاميين ١/٢٤٠.
- ٢- مقالات الإسلاميين ١/٢٣٠.
- ٣- مقالات الإسلاميين ٢/١٨٠-١٨١، والفرق بين الفرق: ١١٥، ومذاهب الإسلاميين ١/٥٠.
- ٤- مقالات الإسلاميين ١/٢٢٨.
- ٥- مقالات الإسلاميين ١/٢٣١.
- ٦- الفصل ١١٨/٢-١١٩.
- ٧- لوامع البينات - للرازي -: ٤٧.
- ٨- مقالات الإسلاميين ٢/١٨١.
- ٩- التوحيد - للصدوق -: ١٠٤، ب ٧، ح ٢.
- ١٠- الفرق بين الفرق: ٦٧.
- ١١- شرح الأصول الخمسه: ٢٢١.
- ١٢- في التوحيد، تكمله ديوان الأصول: ٥٩٦.

و هذا منهم خروج عن أبسط مناهج البحث و الجدل الصحيح.

و أما قولهم: و إذا كان قد قام الدليل على أنه - تعالى - ليس جسما، فواضح أنه مصادره على المطلوب، إذ أن هذا هو محل البحث و النزاع فكيف يؤخذ شرطا تترتب عليه النتيجة التي ذكروها.

ثم إن الأدلة التي أقامها المتكلمون على نفى الجسميه عن البارئ تعالى، كلها مبتنيه على أن المراد بالجسم هو ذو الأبعاد، و قد ذكروها في كتبهم.

و لهذا، لا يرد شيء منها على المقوله، بل نص كثير منهم على أن المقوله على مصطلح هشام لا تدل على التجسيم المعنوي، و ليس فيه مخالفه لأصل، و لا اعتراض على فرع، سوى مسأله توقيفيه الأسماء التي سنفصل ذكرها في نهايه البحث.

٤ - دليل هشام على اختيار

هذا المصطلح

نقل استدلال هشام على اصطلاحه في الجسم، في روايه يونس بن ظبيان، قال: دخلت على أبي عبد الله ع، فقلت له: إن هشام بن الحكم يقول قولاً عظيماً! إلا أنني أختصر لك منه أحرفاً: يزعم أن الله "جسم" لأن الأشياء شيان: جسم، و فعل الجسم، فلا يجوز أن يكون الصانع بمعنى الفعل، و يجوز أن يكون بمعنى الفاعل (١) و مراده: أن الموجودات على قسمين:

إما أعراض، و قد عبر عنها هشام بكلمه "الفعل" و هو ما لا يستقل في وجوده، بل يحتاج إلى محل يعرض عليه أو يصدر منه.

و إما ذوات، و قد عبر عنه بكلمه "الجسم" و هو ما يستقل في وجوده.

و البارئ جل ذكره، لا يكون إلا من الموجودات المستقله بالوجود، و بما أن الأعراض لا تسمى عند هشام "أشياء" و الذوات عنده هي الأشياء، و قد عرفنا من مصطلحه أن الشيء عنده يسمى بالجسم.

و البارئ ليس عرضاً، بل ذات، و يسمى "شيئاً" فاذن يطلق عليه اسم "جسم"! هذا ما نفهمه من استدلال هشام في هذه الروايه، و هو الذي فهمه تلامذه هشام، و قد نقله ابن أبي الحديد عنهم، فقالوا: إنه "جسم لا كالأجسام" على معنى أنه بخلاف العرض الذي يستحيل أن يتوهم منه فعل، و نفوا عنه "معنى الجسميه" (٢) فنفي معنى الجسميه، يدل على أن المراد بقولهم "جسم" مجرد الاسم، و إذا انتفى عنه معنى الجسميه، و هي التكتل الخارجى المقتضى للأبعاد، كان "الجسم" في مقابل العرض، و بمعنى الذات المتقومه بنفسها، و هذا في مصطلح هشام هو "الشيء" المرادف لكلمه "الجسم".

و هذه الفكره معروفه عن هشام، بكل مقدماتها: فكان يقول: إن الأفعال صفات الفاعلين، و معان لهم، و ليست بأشياء و لا أجسام (٣) لأن الشيء عنده لا يكون إلا جسماً (٤) فهشام لا يرى العرض "شيئاً" بل يرى ما يقابله "شيئاً" و "الشيء" عنده هو "الجسم" و البارئ لا يكون عرضاً، بل هو ذات، فهو "جسم" أى "شيء" مستقل الوجود.

و كذلك كان هشام يرى أن "الحركه" ليست "جسماً" لأنها "فعل" و "الفعل" عرض ليس بشيء.

ذكر ذلك في مناظرته لأبي الهذيل العلاف الذى كان يرى الحركة "جسما" (٥) و قد نقل القاضى عبد الجبار شبيهه للقائلين بالتجسيم، و هى أنهم قالوا: المعقول: إما الجسم، و إما العرض، و القديم تعالى يستحيل أن يكون عرضا، فيجب أن يكون جسما (٦) فنجد فى هذا الاستدلال نفس العناصر التى وجدناها فى الاستدلال المنقول عن هشام، فقد جعل فيه "الجسم" مقابل "العرض" و كان فى استدلال هشام مقابل "الفعل".

و الفعل، و العرض، مشتركان فى أنهما ليس لهما وجود مستقل بل الفعل نوع من العرض، و الذى يقابلهما هو الموجود الذى له استقلال فى التحقق و الوجود، و هو المسمى ب "الذات" و ب "الشىء" و فى اصطلاح هشام ب "الجسم".

و حيث أن القديم تعالى ليس عرضا و ليس فعلا، بل هو موجود مستقل فى الوجود، قائم بذاته، و بنفسه، و لا يحتاج فى وجوده إلى محل يقوم به أو فيه، و هو "شئء فهو مرادف - عند هشام - لكلمه "جسم".

و ليس مفاد ذلك التجسيم المعنوى الذى يدعيه "المجسمه" بل هو إطلاق للفظ "الجسم" بمعنى "الشىء"، و لا محذور فيه سوى موضوع توقيفيه أسماء الله تعالى، و سيجىء.

و من هنا نعرف أن القاضى قد حرف هذا الاستدلال، و صوره استدلالا على التجسيم المعنوى، باعتباره الجسم المفروض فى الاستدلال مقابلا للعرض، قسما من الجوهر، فلهذا فرض فى جوابه عنه وجود قسم ثالث ليس بجسم و لا عرض، و أنه هو ذات معلوم أو يمكن اعتقاده، و هو القديم تعالى (٧) لكن المقابله المفروضه فى الاستدلال بين العرض و الجسم، توحى أن المراد بالجسم هو ما مستقل فى الوجود و إلا لم تصح المقابله، كما لا يصح الحصر، فكيف يصح الاستدلال، و كيف يفرض غفله المستدل عن ذلك؟ مع فرط وضوحه؟ و ليس له وجه صحه إلا ما ذكرنا، و حاصله: أن المعقول - و المراد به

ص: ٢٢٠

١- التوحيد - للصدوق -: ٩٩، ب ٦، ح ٧: و الحكايات - للمفيد -: ١٣٢.

٢- شرح نهج البلاغه ٢٢٨/٣.

٣- مقالات الإسلاميين ١١٣/١، و الفرق بين الفرق: ٦٧.

٤- الفرق بين الفرق: ٦٧.

٥- مروج الذهب: ٢٠/٥ رقم ٢٩١٧.

٦- شرح الأصول الخمسه: ٢٢٥.

٧- شرح الأصول الخمسه: ٢٢٥.

ما يمكن فرضه موجودا - إما أن يكون مستقلا بنفسه في الوجود، أو يكون غير مستقل، و الأول هو الذات، و يسميه المستدل "جسما" و الثاني هو العرض، و الباري تعالى لا يكون عرضا، فهو "الجسم".

و المراد بالعرض عند هشام هو "المعنى" و هو لا يراه "شيئا" كما عرفت (١) لأن العرض هو ما يعرض غيره في الوجود، و لا يجب لبثه كلبث الأجسام (٢) و هذه الحقيقة قد استدلت عليها القاضى نفسه، في بيان استحاله كون الباري تعالى "عرضا" (٣) و ظهر أن مراد هشام من "فعل الجسم" في استدلاله هو العرض، المقابل للجوهر، في اصطلاح الفلاسفه.

و القاضى عبد الجبار استعمل كلمه "فعل الجسم" بمعنى آخر، و استعمله في الاستدلال على أن الله تعالى لا يجوز أن يكون جسما، و قد فسره أبو رشيد بان المقصود من "فعل الجسم": إحداثه و اختراعه (٤) و هذا تفسير للفعل بمعناه اللغوى، و إضافته إلى مفعوله، كما أن مراده بالجسم هو المعنى المتداول، و على هذا فلا يرتبط باستدلال هشام و لا مصطلحه في كلتا الكلمتين: "الجسم" و "فعل الجسم".

و قد التزم بنفس استدلال هشام من علماء عصرنا الشيخ محمد عبده المصرى، فقال: إن أريد من "الجوهر" القائم بذاته، و من "العرض" القائم بغيره، لكان الباري "جوهرًا" و صفاته "عرضا". و لا منع إلا من جهة الإطلاق الشرعى، حينئذ (٥) فان جعله "الجوهر" - المفسر بالذات - في مقابل "العرض" هو مثل مقابله "الجسم" بمعنى الشىء القائم بالذات في مقابل "العرض" في كلام هشام.

و هذا أيضا يبنى على اصطلاح خاص في معنى "الجوهر" كما أن ذاك كان مبتنيا على اصطلاح خاص في معنى "الجسم".

و إلا فالجوهر بمعنى ما له ماهيه، لا يمكن إطلاقه على الباري جل ذكره.

و هشام بقوله "جسم" و إطلاقه على الباري تعالى، لا- يثبت أيه ماده له تعالى، و لا أنه ماهيه، بل - ذكرنا - أراد بهذه اللفظه التعبير عن كونه تعالى "شيئا" بحقيقه الشئيه، و هو "الموجود" و "القائم بنفسه" فلا يصح عنده التعبير عنه تعالى بالجوهر. و يشهد لذلك أن هشاما كان ممن ينكر الجوهر الفرد.

قال الأشعري - و هو يتحدث عن من يزعم -: أن الجزء يتجزأ أبدا، و لا- جزء إلا- و له جزء، و ليس لذلك آخر إلا- من جهة المساحه، و أن لمساحه الجسم آخرا، و ليس لأجزائه آخر من باب التجزى، و القائل بهذا القول هشام بن الحكم و غيره (٦) فكل جوهر - عند هشام - لا بد أن يكون متالفا من أكثر من جزء، و كل متالف متحيز، و كل متحيز لا بد أن يكون يمينه غير يساره، و قدامه غير خلفه، و كل ما يتميز أحد جانبيه عن الآخر، فهو منقسم، و كل منقسم فليس ب "أحد" (٧) و الله جل ذكره يقول: (قل هو الله أحد) (سوره التوحيد (١١٢) الآيه (١)).

و كما أن صدر المقوله "جسم لا كالأجسام" يثبت وجود الباري تعالى، فهو إخراج له عن حد التعطيل، فكذلك ذيلها ينفي عنه تبارك ذكره كل شبه للأجسام، و مماثله بينه و بينها، فهو إخراج له تعالى عن حد التشبيه، كما تدل عليه الآيه الكريمة: (ليس كمثله شىء).

فهذه الآية نفت عن وجوده تعالى المماثلة لغيره من الأشياء. و مما يدل على أن قوله في ذيل المقوله: "لا كالأجسام" هو بمعنى (ليس كمثل شىء) هو وجود هذه الآية مكان ذلك الذيل في مورد نقل كلام هشام، في حديث الحمانى: إن هشام بن الحكم زعم أن الله (جسم ليس كمثل شىء) (٨) و هذا الذيل ضرورى لتكميل التنزيه، كما عرفت، و لذلك قال ابن حزم: لو أتانا نص بتسميته تعالى "جسما" لوجب علينا القول بذلك، و كنا حينئذ نقول: إنه "لا كالأجسام" (٩)

٥ - المقوله لا تدل على التجسيم

قد ثبت أن المقوله حسب مصطلح هشام لا تدل على عقيدة التجسيم، بل تدل على التنزيه الكامل عن حدى التعطيل و التشبيه، و غايه ما تدل عليه أن هشاما كان يطلق اسم "الجسم" على البارئ تعالى، و غرضه إثبات وجوده، و أنه "شىء" قائم بنفسه " و ليس "عرضا".

نعم تبقى المقوله مخالفه لمسأله توقيفيه أسماء الله تعالى، و ذاك أمر آخر سيأتى ذكره فى نهايه البحث.

و قد صرح المحققون من العلماء بعدم دلالة هذه المقوله على اعتقاد التجسيم:

١ - منهم الشيخ المفيد فقد ذكر ما نصه: لم يكن فى سلفنا من تدين بالتشبيه من طريق المعنى، و إنما خالف هشام و أصحابه جماعه أصحاب أبى عبد الله ع بقوله فى "الجسم" فزعم أن الله "جسم لا كالأجسام" (١٠) فنفى التشبيه من طريق المعنى، يشمل هشاما و غيره ممن اتهموا بذلك، و التشبيه من طريق المعنى هو التجسيم الحقيقى، و يقابله تنزيه

ص: ٢٢١

- ١- اللمع - للأشعرى -: ٣-٣٤.
- ٢- مذاهب الإسلاميين ١/٤١٧.
- ٣- شرح الأصول الخمسة: ٢٣١.
- ٤- انظر الاستدلال و توضيحه فى: ديوان الأصول: ٥٩٧.
- ٥- الشيخ محمد عبده: ٥٣١.
- ٦- مقالات الإسلاميين ١/١٢٤.
- ٧- اللوامع الالهيه - للفاضل المقداد -: ٨٧، و انظر: الفصل - لابن حزم - ٦٦/٥.
- ٨- التوحيد - للصدوق -: ١٠٠، ب ٦، ح ٨.
- ٩- الفصل ١١٨/٢-١١٩.
- ١٠- الحكايات: ١٣١.

البارئ تعالى عن كونه جسما كالأجسام، أما التجسيم الذى قال به هشام فهو "التجسيم اللفظى" و من جهة العبارة، و المراد به إطلاق اسم "الجسم" فقط عليه تعالى.

و قد يستفاد ذلك من تعبير الشيخ المفيد: إن هشامًا خالف "بالقول فى الجسم" لا إنه خالف "فى القول بالجسم" الذى هو مذهب المجسمه.

و الحاصل أن المفيد ينسب بهذه العبارة إلى هشام قولاً قاله فى "الجسم" و اصطلاحاً خاصاً به فى تفسير الجسم، أطلقه بذلك على البارئ، مخالفاً لجميع الطائفة فى هذا، لا أنه قال بالجسم.

و إلا لكان كلام المفيد متناقضاً صدرًا و ذيلًا.

و يؤيد ما ذكرناه أن المفيد قال فى مقام آخر: كان هشام بن الحكمشيعياً، و إن خالف الشيعة - كإفهامه - فى أسماء الله تعالى (١) حيث يحصر مخالفه هشام فى موضوع الأسماء، و المعروف هو خلافه فى "الجسم" هل يسمى به البارئ أولاً؟ - ٢ - و قال الشريف المرتضى: فالظاهر من الحكاياه عنه القول بـ "جسم لا- كالأجسام" و لا- خلاف فى أن هذا القول ليس بتشبيه، و لا ناقض لأصل، و لا- معترض على فرع، و أنه غلط فى عبارته، يرجع فى إثباتها و نفيها إلى اللغة (٢) و واضح أن الشريف جعل المقوله من باب إطلاق لفظ "جسم" على البارئ باعتبار تفسيره بغير ما هو فى اللغة، و جعل المسألة لغويه، و هذا كاف فى إخراج البحث فيها عن علم الكلام.

مضافاً إلى أن نفي كونها تشبيهاً، أو ناقضه لأصل، يدل بوضوح على عدم كونها داله على اعتقاد التجسيم، و إلا كانت متناقضه لأصل التوحيد.

٣ - و قال القاضى الإيجى، و السيد الشريف، فى المواقف، و شرحه:

(إنه تعالى ليس بـ "جسم" و هو مذهب أهل الحق (و ذهب بعض الجهال إلى أنه "جسم") ثم اختلفوا:

(فالكلامية) أى بعضهم (قالوا: هو "جسم" أى: موجود).

(و قوم) آخرون منهم (قالوا: هو "جسم" أى: قائم بنفسه، فلا- نزاع معهم) على التفسيرين (إلا- فى التسميه) أى إطلاق لفظ "الجسم" عليه (٣) ٤ - و قال ابن أبى الحديد: من قال: إنه "جسم لا كالأجسام" على معنى أنه بخلاف "العرض" الذى يستحيل أن يتوهم منه فعل و نفوا عنه "معنى الجسميه" و إنما أطلقوا هذه اللفظه لمعنى أنه "شئ لا كالأشياء" و "ذات لا كالذوات" فأمرهم سهل، لأن خلافهم فى العبارة.

و المتعصبون لهشام بن الحكم من الشيعة فى وقتنا هذا يزعمون أنه لم يقل بالتجسيم المعنوى، و إنما قال: إنه "جسم لا كالأجسام" بالمعنى الذى ذكرناه (٤) و كلامه واضح فى إن المقوله أطلق فيها اسم "الجسم" على البارئ على أنه بمعنى "شئ لا" بمعنى ذى الأبعاد، حتى يكون تجسيميا معنوياً.

لكن نسبة هذا التفسير للمقوله إلى خصوص الشيعة في وقته غير صحيح:

لأن هذا التفسير قد نسب إلى تلامذه هشام من قدماء الشيعة، وقد سبق أن قلنا: إن تلامذه الرجل لا يبعد أن يكونوا معبرين عن رأى أستاذهم، وخاصة إذا لاحظنا اتفاقهم على ذلك.

٢ - أن هذا التفسير لمقوله هشام مبتن على مصطلح هشام، وقد مضى نقله عن جمع من العلماء الذين ذكروا آراء هشام، فلا معنى لجعله قولاً - للشيعة في عصره فقط! ٥ - وقال الدواني - في شرحه على العقائد العضديه -: و من المشبهه من تستر "باللکفه" فقال: هو "جسم لا كالأجسام" و له حيز لا كالأحياز، و نسبته إلى حيزه ليست كنسبه الأجسام إلى حيزها، و هكذا ينفي جميع خواص الجسم منه، حتى لا يبقى إلا اسم "الجسم".

و هؤلاء لا يكفرون (٥) أقول: فقد صرح في النهاية بان المراد من "الجسم" هو مجرد الاسم، لا المعنى، و صرح بعدم كفر قائله المقوله، و لو كانت داله على التجسيم المعنوي، لكانوا كفره بلا خلاف.

لكنه قد أدخل في كلامه ما لا يطابق هذا التصريح:

١ - قوله: "و له حيز لا كالأحياز، و نسبته إلى حيزه ليست كنسبه الأجسام إلى حيزها".

و هذه إضافه منه نسبها إلى أصحاب المقوله، و لم نجد لها مضافه إلى المقوله في شيء من مصادرها مطلقاً، و هي غلط تنافي تفسيرهم للمقوله، و ذلك:

لأن مرادهم بالجسم - كما صرح به الدواني أخيراً - هو مجرد الاسم، و معناه - كما مر مفصلاً - هو: الشيء، و قد نفوا بقولهم "لا- كالأجسام" كل خواص الجسم - كما اعترف به الدواني أيضاً - فما معنى قوله "و له حيز" و من أين نسب إليهم إثبات الحيز، إن كانوا قد نفوا عنه كل خواص الأجسام؟ أليس الحيز من خواصها المنفيه؟ فلو كان يقول - نقلاً عنهم -: إنه "جسم لا كالأجسام" ليس له حيز و لا أبعاد و هكذا ينفي جميع خواص الأجسام حتى لا يبقى إلا مجرد اسم "الجسم" لكان تفسيراً جيداً للمقوله حسب تفسيرهم.

و الحاصل أن قوله: "و له حيز... " يناقض تصريحه بكون المقوله تجسيميا لفظياً و عدم كفر قائلها.

٢ - قوله: "من تستر باللکفه" ٢.

ص: ٢٢٢

١- أوائل المقالات: ٤٣، طبع النجف، و ص ٣٧، طبع تبريز.

٢- الشافى - للشريف المرتضى -: ١٢.

٣- شرح المواقف - للسيد الشريف -: ٤٧٣، و ما بين الأقواس هو عبارته المواقف.

٤- شرح نهج البلاغه ٢٢٨/٣.

و هذه الكلمه مصدر جعلى من قولهم: "بلا- كيف" و قد استعمل السلفيون من العامه ذلك، حيث أثبتوا الله - جل و علا- أعضاء، كاليد، و الرجل، و العين، و سائر الجوارح و هكذا الاستواء، و النزول، و ما أشبه.

و خروجا عن تشبيهه تعالى بالخلق، قالوا: إن هذه الأعضاء هي "صفات" خبريه لله تعالى شأنه.

و إذا سئلوا عن حقيقه هذه الصفات؟ قالوا - مثلا -: لله يد بلا كيف.

و قد اشتهر عنهم قولهم: الاستواء معلوم، و الكيف مجهول، و الايمان به واجب و السؤال عنه بدعه(١) فالبلكفه "من مصطلحات الصفاتيه، و قد أصبحت عقيدته الأشاعره من بعدهم، و صار مذهباً لأهل السنه، و انتقلت سمه الصفاتيه إلى الأشعريه(٢) فقد تهربوا من الاجابه بتكميمهم الأفواه، و تستروا عن التشبيه الذى تدل عليه أسماء بادعائهم "اللا كيف".

و لذلك قال الشاعر فيهم:

قد شبهوه بخلقه و تخوفوا خوف الورى فتستروا بالبلكفه

لكن الدوانى غالط، و اعتبر قول القائل: "لا- كالأجسام" بلكفه، مع أن المنفى فى هذه المقوله ليس هو الكيف، و إنما المنفى صريحا هو التشبيه، و مع ذلك فالدوانى يعتبر المقوله "تشبيها".

فما أوضح هذا التهافت؟! و إذا كان لفظ "جسم" بمعنى "شئ" دلت المقوله على ما تدل عليه الآية الكريمه:(ليس كمثله شئ) (سوره الشورى (٤٢) الآية (١١) - كما سبق أن شرحناه - فهل يعتبر الدوانى هذا - أيضا - بلكفه؟! ٦ - و صرح ابن حزم بان المقوله لا- مانع فيها إلا من جهه توقيفيه الأسماء، فقال: و من قال: إن الله تعالى "جسم لا كالأجسام" فليس مشبها(٣) لكنه ألحد(٤) فى أسماء الله تعالى: إذ سماه عز و جل بما لم يسم به نفسه(٥) و قال: إن قالوا لنا: إنكم تقولون: إن الله عز و جل حى لا كالأحياء، و عليم لا كالعلماء، و قادر لا كالقادرين، و "شئ لا كالأشياء" فلم منعتم القول بأنه "جسم لا كالأجسام"؟.

قيل لهم - و بالله التوفيق -: لو لا النص الوارد بتسميته تعالى بأنه حى، و قدير، و عليم، ما سميناه بشئ من ذلك، لكن الوقوف عند النص فرض، و لم يأت نص بتسميته تعالى "جسما" و لا قام البرهان بتسميته "جسما" بل البرهان مانع من تسميته بذلك تعالى. و لو أتانا نص بتسميته تعالى "جسما" لوجب علينا القول بذلك، ركنا - حينئذ - نقول: إنه "... لا كالأجسام" (٦) و هذا صريح فى أن المانع من إطلاق لفظ "جسم" هو التوقيف، لعدم وروده فى النص، و أنه لو أطلق لزم إضافه ذيل المقوله عليه.

و أما قوله: بل البرهان مانع من تسميته بذلك تعالى، فليس بصحيح:

أولا: لو كان هناك مانع غير التوقيف، لما صح إطلاقه عليه تعالى بمجرد ورود النص به، كما فرضه هو.

و ثانيا: إن البرهان لا دخل له فى أمر الألفاظ و التسميات، لأن ذلك من شئون اللغه و الوضع، لا البرهان و العقل، كما سيأتى توضيحه فى مسأله توقيفيه الأسماء، إن شاء الله.

ثم إننا لم نقف على برهان عقلي على عدم صحه إطلاق اسم "الجسم" عليه تعالى! نعم، قد تم البرهان على نفى التجسيم عنه تبارك و تعالى، و أين هذا من التجسيم اللفظي!؟.

و الحاصل: أن المقوله لا تدل على التجسيم، بل تدل على التنزيه عن حد التعطيل، و عن حد التشبيه، فإطلاق النفي في قوله "لا كالأجسام" صريح في نفى كل أشكال التماثل و المشابهه بين البارئ تعالى و بين الخلق، و هذا بنفسه قرينه على صرف معنى "الجسم" عن المفهوم اللغوي و العرفي، إلى مصطلح هشام، و إرادته "الموجود" أو "الشيء" أو "القائم بالذات" فلا تكون المقوله إلا تعبيراً عن إثبات وجود البارئ و نفى كل تشبيه بخلقه عنه.

و قد احتوى أقدم نص نقل فيه كلام هشام هذا، على أنه زعم: أن إثبات "الشيء" أن يقال: "جسم" فهو "جسم لا كالأجسام": "شيء لا كالأشياء".

ثم أضاف: ثابت، موجود، غير مفقود، و لا معدوم، خارج عن الحدين: حد الابطال، و حد التشبيه (٧) و هذا هو الغايه في البعد عن اعتقاد التجسيم، و نهايه التمسك بالتنزيه.

و

قد ورد في الحديث نفى القول بالتجسيم عن هشام، فيما رواه على بن إبراهيم القمي، قال: حدثني أبي، عن أحمد بن محمد بن أبي نصر، عن علي بن موسى الرضا ع، قال: قال: يا أحمد، ما الخلاف بينكم، و بين أصحاب هشام بن الحكم في التوحيد؟ فقلت: جعلت فداك - قلنا نحن ب "الصوره" للحديث الذي روى أن رسول الله ص رأى ربه صوره شاب.

و قال هشام بن الحكم ب "النفي للجسم".

فقال: يا أحمد، إن رسول الله ص لما أسرى به إلى السماء، و بلغ عند صدره المنتهى، خرق له في الحجب مثل سم الابره، ٣.

ص: ٢٢٣

١- الملل و النحل ٩٣/١. و لنا بحث طويل معهم في هذه المصطلحات، و موقف حاسم في عقائدهم هذه، وفقنا الله لنشره.

٢- الملل و النحل: ٩٣/١ و قبلها.

٣- في المصدر: "مشتبها" و هو غلط، كما لا يخفى.

٤- الإلحاد في الشيء: إدخال ما ليس منه فيه.

٥- الفصل ١٢٠/٢.

٦- الفصل ١١٨/٢-١١٩.

٧- اختيار معرفه الرجال: ٢٨ رقم ٥٠٣.

فرأى من نور العظمه ما شاء الله أن يرى، و أردتم - أنتم - التشبيه!؟.

دع هذا، يا أحمد، لا يفتح عليك، هذا أمر عظيم(1) ثم نفى التجسيم، و عدم إرادته المعنى اللغوي من كلمه "الجسم" بل اعتبره - على اصطلاح هشام - بمعنى "الشيء" و "الموجود" مع تكميله بنفى التشبيه فى قوله "...لا كالأجسام" يقتضى نفى "الصورة" عن البارئ، لوضوح أن "الصورة" من لوازم الأجسام و قد نفاه قوله "لا كالأجسام".

كما أن الامام الرضا ع جعل كلام هشام و من تبعه فى مقابل التشبيه فى الروايه التى احتوت على مقولته، و هى أول نص شيعى جاءت فيه، و إليك نصها:

قال عبد الملك بن هشام الحنات: قلت للرضا ع:

زعم هشام بن سالم: أن الله عز و جل صورته، و أن آدم خلق على مثال الرب.

و زعم يونس مولى آل يقطين، و هشام بن الحكم: أن الله "شئ لا كالأشياء"، و أن الأشياء بائنه منه، و هو بائن عن الأشياء، و زعما: أن إثبات "الشيء" أن يقال "جسم" فهو "جسم لا كالأجسام": "شئ لا كالأشياء" ثابت، موجود، غير مفقود، و لا معدوم، خارج عن الحدين:

حد الابطال، و حد التشبيه.

فباى القولين أقول؟! فقال ع: أراد هذا الإثبات.

و هذا شبه ربه تعالى بمخلوق، تعالى الله الذى ليس له شبيهه، و لا عدل، و لا مثل و لا نظير، و لا هو فى صفه المخلوقين.

لا تقل بمثل ما قال هشام بن سالم.

و قل بما قال مولى آل يقطين و صاحبه(2) و كلام الامام الرضا ع - مضافا إلى توضيحه مراد هشام، و تقريره لهذا المراد - يدل على بعد معتقد هشام عن كل تشبيهه، و منافاته لما قاله هشام بن سالم.

و قد ذكر المفهرسون أن لهشام بن الحكم كتاب "الرد على هشام بن سالم"(3) كما أن مقابله هشام، للبرنطى القائل بالصوره - فى روايه القمى - تدل بوضوح على أن هشاما كان لا يقول "بالصوره".

و كذلك "الرؤية" فإنها داخله فى خواص الأجسام، التى نفاه هشام بقوله: "...لا كالأجسام".

و قد صرح هشام بان "الرؤية" من لوازم "الجسميه" فى مناظرته لأبى الهذيل العلاف، فقال له: إذا زعمت: أن الحركة ترى، فلم لا- زعمت أنها تلمس؟ قال العلاف: لأنها ليس بجسم، فيلمس، لأن اللمس إنما يقع على الأجسام! قال هشام: فقل "إنها لا ترى" لأن الرؤية إنما تقع على الأجسام(4) فإذا نفى هشام خواص الأجسام عن البارئ بقوله: "...لا كالأجسام" فهو ينفى رؤيه البارئ تعالى قطعا.

و لذا لم ينقل عنه القول بالرؤية إلا ما حكاه بعض خصومه من المعتزله.

قال الشيخ المفيد: فاما نفى الرؤية عن الله عز و جل بالأبصار، فعليه إجماع الفقهاء و المتكلمين من العصابه كافه، إلا ما حكى عن هشام فى خلافه(٥) و الذى حكى هذا القول الشاذ هو القاضى عبد الجبار، فقال: و أما هشام بن الحكم و غيره من المجسمه فإنهم يجوزون أن يرى فى الحقيقه و يلمس(٦) مع أنا عرفنا مصطلح هشام فى "الجسم" و أنه أطلقه على معنى "الشيء" و "الموجود" و "القائم بنفسه" و نفى عنه خواص الأجسام بقوله "لا كالأجسام" و علمنا أن ذلك يقتضى نفى هشام ل "الصوره" و "الرؤية".

و القاضى - نفسه - اعترف بان معانى "الشيء" و "الموجود" و "القائم بنفسه" لا تؤدى إلى "التجسيم" و لا تلازم القول ب "الرؤية" (٧) و قد اعترف القاضى - أيضا - بأنه: لا أحد يدعى أنه يرى الله سبحانه إلا من يعتقد "جسما" مصورا بصوره مخصوصه "و يعتقد أنه يحل فى الأجسام(٨) فإذا وجدنا هشاما ينفى حقيقه الجسم، و ينفى الصوره، و ينفى كل لوازم الأجسام، فكيف ينسب القاضى إليه القول بالرؤية التى هى من أظهر خواص الأجسام، و ألزم لوازم القول باعتقاد التجسيم؟! و من الغريب أن بعض الكتاب غفل عن كل ما ذكرناه من الحقيقه، فنقل كلام المفيد فى نفى القول بالرؤية عن الطائفه كافه إلا ما حكى عن هشام، و قال: فان صحت الحكايه و النسبه (!) فهى نتيجة لقوله: إن الخالق "جسم لا- كالأجسام" لأن القول بكونه "جسما" يفضى إلى القول بجواز الرؤية.

لكن هذه الحكايه لم تثبت بطريق مقبول(٩) و قد عرفت بان هشاما لم يرد بكلمه "الجسم" ما هو المفهوم الظاهر منه، حتى يكون مفضيا إلى الرؤية، بل أراد "الشيء" و "الموجود" و هذا.

ص: ٢٢٤

١- تفسير القمى ٢٠/١.

٢- اختيار معرفه الرجال: ٢٨٥ رقم ٥٠٣.

٣- لاحظ: رجال النجاشى: ٤٣٣ رقم ١١٦٤ و الفهرست للطوسى: ٢٠٤ رقم ٧٨٢، و الفهرست - للنديم -: ٢٢٤.

٤- مروج الذهب ١٢/٥ رقم ٢٩١٧.

٥- الفصول المختاره ١٢١/٢. و أوائل المقالات: ٥٩.

٦- المغنى ١٣٩/٤.

٧- المغنى ١٨٠/٤.

٨- المغنى ٩٩/٤.

٩- هشام بن الحكم أستاذ القرن الثانى - لعبد الله نعمه -: ١٤٨.

باعتراف القاضي عبد الجبار - صاحب الحكاياه و النسبه - لا يقتضى القول بالرؤيه.

و قد صدر هذا من الكاتب نتيجة عدم وقوفه على مصطلح هشام، و عدم تدقيقه فى أبعاد هذا المصطلح، و لنا لقاء معه فى القسم الآتى من هذا البحث.

ثم إن جميع ما أورده المحققون من الفلاسفه و المتكلمين من البراهين و الأدله على نفى التجسيم عن الله تبارك و تعالى مبتن على نفى التأليف و التركيب و التحيز و الحاجه و الجزء، و ما أشبه ذلك، عن وجود البارئ جل و عز، لأن جميع ما ذكر هو من سمات الممكنات، و الله تعالى واجب الوجود.

و من الواضح أن شيئاً من ذلك لا يرتبط بمسأله اللفظ و إطلاق كلمه "جسم" بمعنى "الشيء" عليه تعالى.

و أما مسأله توقيفيه أسمائه تعالى، فهذا أمر آخر، سيأتى التفصيل فيه، بعون الله.

٦ - مواقف الكلاميين من المقوله:

لقد عرفنا خلال عرضنا لمصطلح هشام مواقف العلماء الناقلين لذلك من المقوله، و رأينا هنا أن نستعرض تلك المواقف فى نظره سريعه:

أما الأشاعره:

فقد صرح رئيس مذهبهم أبو الحسن الأشعري بان هشاما قال: هو "جسم لا كالأجسام" و معنى ذلك: أنه "شيء موجود" (١) و هذا واضح فى تفسيره المصطلح بما لا يدل على التجسيم المعنوى، فان من يعبر عن الله تعالى بأنه "شيء موجود" لم يذكر بكلامه هذا إلا إثبات وجود الله تعالى، دون أن يعبر عن كون الله تعالى له صفه الجسميه أو غيرها، فكذلك المقوله التى تدل على معنى "شيء موجود" كما فسرنا الأشعري.

مضافا إلى أن ذيل المقوله يدل على نفى تشبيهه بالأجسام كلها، فهو أصرح، فى عدم التجسيم المعنوى.

و قد صرح الأشعري فى مورد آخر بان الذى يقول فى البارئ:

"جسم" بمعنى أنه "موجود": لا يثبت البارئ ذا أجزاء مؤتلفه، و لا أبعاد متلاصقه (٢) فهذا - على مصطلح هشام - صريح فى نفى المعنى اللغوى للجسم الدال على الأبعاد و الأجزاء و تالفها فى الوجود.

و أصرح من ذلك قوله: و قال قائلون: هو "جسم خارج من جميع صفات الأجسام" ليس بطويل، و لا عريض، و لا عميق، و لا يوصف بلون، و لا طعم، و لا مجسه، و لا شيء من صفات الأجسام، و أنه ليس فى الأجسام، و لا على العرش (٣)...

و هذا النص، و إن لم يفسر فيه الجسم بما اصطلح عليه هشام، إلا أن قوله: "خارج من جميع صفات الأجسام" إلى آخر العبارة، لازم لذلك، بل هذا هو توضيح لذيل المقوله: "...لا كالأجسام" كما هو واضح مما تقدم ذكره مكررا.

و مع هذا، فالأشعري ينسب إلى هشام القول بان ربه في مكان دون مكان، تعالى الله عن ذلك، و كذلك ينسب إليه أقاويل تنافى هذه المقولة منافاه ظاهره، و يضيف على مقولته أقبح ما يقال في هذا المجال، مما لا يخفى على عاقل، فكيف يخفى ذلك على الأشعري المتغافل؟! هذا، و قد اعترف كبار الأشاعره، المتقدمون و المتأخرون، بعدم دلالة المقولة على التجسيم، كما نقلناه عن الإيجي، و الجويني، و الدواني، و الرازي، و عبده.

و أما الظاهرية:

فقد عرفنا من أشهر شخصيه علميه فيهم، و هو ابن حزم الظاهري تصريحه بان: من قال: "جسم لا كالأجسام" فليس مشبها، لكنه ألحد في أسماء الله تعالى، إذ سماه عز و جل بما لم يسم به نفسه (٤) مع أنه يوافق على مقوله "شئ لا كالأشياء" (٥) و قد عرفنا أن مقوله "جسم لا كالأجسام" هي مرادفه لمقوله "شئ لا كالأشياء" و بمعناها على مصطلح هشام في "الجسم".

و أما المعتزله:

فقد أبدوا معارضه شديده للمقوله، باعتبارهم أكثر الناس عداء لهشام و لما ينسب إليه من آراء.

و ذلك لأنه الرجل القوى الذي كان يقف في وجههم و هم في أوج قدرتهم و عزتهم، فكان الشخصيه القويه الذي ناظرهم و ناظروه " (٦) و هو الوحيد الذي اضطر الخصوم للاعتراف له بأنه "صاحب غور في الأصول" (٧) و بلغ من القوه بحيث قالوا في حقه: "لا- يجوز أن يغفل عن إزماته على المعتزله، فان الرجل وراء ما يلزم به على الخصم" (٨) و قد ذكر الشهرستاني أن هذه المقولة إنما أوردها هشام في إزماء أبي الهذيل العلاف بالذات، و هو من كبار المعتزله المعاصرين لهشام، و له معه مناظرات عديده.

و المعتزله مع إجماعهم على مقوله "شئ لا كالأشياء" (٩) و مع أن بعضهم وافق على كبرى "لا شئ إلا و هو جسم" (١٠)، إلا أنهم أغفلوا مصطلح هشام، و عارضوا المقوله، و غلطوا في حملها على غير مصطلح هشام، و قد أوضحنا سابقا مواقع المغالطه في كلماتهم (١١).

ص: ٢٢٥

١- مقالات الإسلاميين ١/٢٥٧.

٢- مقالات الإسلاميين ١/١٠٤.

٣- مقالات الإسلاميين ١/٢٦٠.

٤- الفصل ٢/١٢٠.

٥- الفصل ٢/١١٩.

٦- ضحى الإسلام - لأحمد أمين - ٣/٢٦٨.

٧- الملل و النحل ١/١٨٥.

٨- الملل و النحل ١/١٨٥.

٩- مقالات الإسلاميين ٢/١٨٠، و انظر موضع التعليقه رقم ٧٩.

١٠- مقالات الإسلاميين ١/٢٤٥.

١١- راجع (ص ٣٩) من هذا البحث.

لكن الجبائي - و هو من كبارهم - كان يزعم: أن العقل إذا دل على أن البارئ "عالم" فواجب أن نسميه "عالما" و إن لم يسم نفسه بذلك، إذا دل العقل على المعنى، و كذلك سائر الأسماء (١). فهو على هذا ملزم بالموافقه على المقوله، على مصطلح هشام، و لكن لم أجد تصريحا له بذلك.

لكن واحدا من المعتزله صرح بالحق في شان المقوله، و هو ابن أبي الحديد، الذي صرح بان المقوله "جسم لا كالأجسام" إذا كانت على معنى: أن الله تعالى بخلاف العرض الذي يستحيل منه الفعل، فهو نفى لمعنى الجسميه، و إنما أطلقوا هذه اللفظه لمعنى أنه "شئ لا كالأشياء" و أمرهم سهل، لأنه خلاف في العبارة (٢). هذه مواقف عمده المذاهب الإسلاميه التي لها رأى في المباحث الكلاميه، من الذين يخالفون هشاما في المعتقد، و خاصه في المذهب، و كما رأينا فإنهم متفقون على عدم منافاه مقوله هشام للحق، و لا اعتراض لهم على المقوله من حيث المعنى.

لكنهم بالرغم من ذلك نسبوا إلى هشام أنواعا من التهم البشعه، و الخرافات المنافيه لأبسط القواعد العقليه، سعيًا في تشويه سمعته بين المسلمين الموحدين، و تضييعا لأثره في الفكر و العقيد، و إخفاء لعظمته في تاريخ العلم و الثقافه الإسلاميه في عصورها المبكره.

و من هنا نعرف السبب في إغفال البغدادي صاحب "الفرق بين الفرق" لهذه المقوله عند ذكره لآراء هشام الكلاميه، فلم يذكرها مطلقا، مع شهرتها عن هشام، بينما أبدى حقدا و بغضا في جمع كل خرافه و باطل و كذب، و نسبه ذلك إلى هذا المفكر الموحد!

٧ - موقف الشيعة من المقوله:

أما الشيعة، الذين ينتمى إليهم هشام، فقد عرفنا اتفاقهم قدماء و متأخرين على أن المقوله لا تدل على التجسيم المعنوي، و إنما أريد من كلمه "الجسم" معنى آخر، غير مدلوله اللغوي المتفاهم، و قد أوضحنا أن المعنى الآخر قد اصطلح عليه هشام و أصحابه و تلاميذه، و أرادوا من كلمه "الجسم" معنى "الشئ" و "الموجود".

و قد صرح الشيخ المفيد، و السيد المرتضى، بان هشاما لم يخالف في مقولته "جسم لا كالأجسام" التوحيد، و لا يرد عليه إلا إطلاقه لفظ "الجسم" على البارئ تعالى و إن كان بمعنى "الشئ" (٣) و قد ذكر ابن أبي الحديد: أن هذا المعنى الآخر قد اصطلح عليه هشام و أتباعه من قدماء الشيعة: علي بن منصور، و السكاك، و يونس بن عبد الرحمن، و الفضل بن شاذان (٤) و كذلك صرح كثير من علماء الطائفة، و آخرهم السيد الخوئي الذي قال في كتاب رجاله بعدم إرادته هشام من كلمه "الجسم" معناها المفهوم، بل أراد معنى آخر (٥) و لكن الذي يحز في النفس أن يتعرض للموضوع من لم يأخذ له أهفته اللازمه، ممن ينتمون إلى مذهب هشام، فغرتهم كثرة الأقاويل التي اختلقها كتاب الفرق و المقالات، و مؤرخو المذاهب و القضايا الاعتقاديه، و ملئوا بها الصحائف، فلم تفسح لهؤلاء مجالا للتأمل في الموضوع بدقه و عمق، من حلال مصادرنا المأمونه لتمييز الصحيح من الفاسد، أولا، و التوصل إلى الحق الذي أرادته هشام، ثانيا، فوقع هؤلاء في الفخاخ التي نصبها أولئك الحاقدون، و ما سطره في صحائفهم السوداء ضد هشام.

و أكثر ما نجد تناقل كتاب العصر لما لفته الخصوم عن معتقدات هشام، مما ينافي أبسط قواعد الايمان و الإسلام.

و ناقل الكفر و إن لم يكن كافرا - كما يقال - إلا أن تمريرها بالنقل، من دون تعرض لها بالنقد أو تزييف نقاط الضعف، أو تبين أوجه المغالطه فيها، جريمه لا- تغتفر، فضلا عن أن يبدى المؤلف رأيا يعارض الحق، و ينسبه إلى هشام! أو يتناقل تلكم الأكاذيب من دون نسبتها إلى مختلقها، و كان الناقل يفرضها من مسلمات التاريخ أو العلم! فيما يعتذر من يعد في المذاهب مذهبا باسم "الهشاميه" ينسب إليه الغلو و التشبيه؟! مع العلم بان مؤلفى الفرق و مؤرخى المذاهب من الشيعة لم يذكروا فرقه بهذا الاسم أصلا، فضلا عن ينسبوا إليها تلكم التهم؟! و لو نقل ذلك عن مصادر المخالفين لهشام في المذهب، لكفانا مئونه هذه الكلمه المؤلمه! أما هشام، فلن تؤثر في عظمته هذه التصرفات، و لم تخفت نور الحق الذى التزم به كثره التشويش عليه، سواء من فعل الخصوم الحاقدين، أو من نقل أبناء طائفته الغافلين أو المتساهلين.

و لقد رأيت من واجبي أن أستعرض ما جاء فى كتاب "هشام بن الحكم أستاذ القرن الثانى فى الكلام و المناظره" مما وجدته مخالفا لما ثبت عن هشام من آراء، و ما توصلت إليه من حقائق.

و مع أن مؤلف هذا الكتاب كان متنبها إلى خطوره الموضوع، و صعوبه البحث فيه، إذ يقول: مع اعترافى بان ذلك محاوله نموذجيه قد لا- تبلغ من العمق و الشمول ما لا- يطلبه حديث رجل كهشام، و لا يتسع كثيرا للإيضاح، ذلك لأنه لم يحظ بعنايه المترجمين (٤) و مع ما يعهد من مؤلفه من معرفه و حسن نيه و جهد علمى. لكنه - مع هذا كله - وقع للأسف فى شباك الأخطبوط المعادى لهشام! و نحن نذكر هنا ما يرتبط بمبحث التجسيم فقط! فى انتخاب المصادر:

فهو ينقل عن مصادر متاخره جدا ما نقلوه عن مصادر قديمه، من دون

ص: ٢٢٤

١- مقالات الإسلاميين ١٨٥/٢، و انظر: مذاهب الإسلاميين ٥٠٠/١.

٢- شرح نهج البلاغه ٢٢٨/٣.

٣- الحكايات: ١٣١، و أوائل المقالات: ٤٣، و الشافى - للمرتضى -: ١٢.

٤- شرح نهج البلاغه ٢٢٨/٣.

٥- معجم رجال الحديث ٣٥٨/١٩.

٦- هشام بن الحكم: ٨-٩.

أن يتابع القضايا، و يراجعها في مصادرها الأصلية.

فمثلا: يعتبر المؤلف هشاما تلميذا لأبي شاعر الديصاني، و قد ذكر مستندا لهذا الاعتبار، و هو أربعة نصوص، أحدها منقول عن البرقي، و الثاني في روايه عن الامام الرضا ع، ثم الثالث عن ابن الخياط المعتزلي، و الرابع عن ابن تيميه الحراني، ثم قال: و بعد هذا، فان جميع النصوص المذكوره متفقه على أن هشاما كان على صله تامه بهذا الديصاني، و علاقته وثيقه به (١) أقول: و ليس شيء من هذه النصوص الأربعة حجه على ما يريد المؤلف إثباته، فالنصان: الثالث و الرابع، هما كلمتان لرجلين من ألد خصوم الشيعة، و ممن شنعوا على هشام بالخصوص، و ممن لم يتقوا الله في نسبه ما هوت نفوسهم إلى هشام و أتباع أهل البيت ع، و يشهد بذلك كتاباهما "الانتصار للخياط، و "المنهاج لابن تيميه! ثم متى صارت أقوال الخصوم حجه في حق خصومهم؟! و كيف صار اتفاق هذين الرجلين دليلا على اتهام هشام؟ (٢) و أما النص الأول: فقد نقله المؤلف عن المامقاني في تنقيح المقال ٣ / ٣٩٥.

و قد نقله المامقاني عن ابن داود الرجالي الحلبي، و لما راجعت "الرجال لابن داود وجدته ناقلا له عن البرقي، فراجعت رجال البرقي، فوجدت فيه: و في كتاب سعد: له كتاب، و كان من غلمان أبي شاعر الزنديق، جسمي، رؤيي.

و قد علق محقق الكتاب على هذه العبارة بان في نسخه تصحيحا (٣) و لم يميز في كتاب البرقي أن قوله: "و كان من غلمان... إلى آخره" منقول عن سعد، أو هو من كلام البرقي نفسه؟ فان كان منقولا عن سعد، فمن هو "سعد" هذا؟ فان كان هو سعد بن عبد الله الأشعري القمي! الذي له كتاب "رجال الشيعة" (٤) فهو في كتابه الآخر المسمى ب "المقالات و الفرق" لم يذكر عن هشام شيئا، إلا أنه عدده في من ذكرهم من "وجوه أصحاب جعفر بن محمد، و أهل العلم منهم و الفقه و النظر، و هم الذين قالوا بامامه موسى بن جعفر عند وفاه أبيه" (٥) ثم إن ابن داود الذي نقل عن البرقي تلك العبارة، ناقش مضمونها في القسمين [القسمين] من رجاله:

فقال في القسم الثاني: هشام بن الحكم: لا وراء في جلالته، لكن البرقي نقل فيه غمزا، لمجرد كونه من تلاميذ أبي شاعر الزنديق، و لا اعتبار بذلك (٦) و قال في القسم الأول - بعد نقل عبارته البرقي المذكوره -: مع أني لا أستثبت ما قاله البرقي قدحا فيه، لأن حال عقيدته معلوم، و ثناء الأصحاب عليه متواتر، و كونه تلميذ الزنديق لا يستلزم اتباعه في ذلك، فان الحكمه تؤخذ حيث وجدت (٧) ثم إن المامقاني - بعد أن نقل ذلك - ذكر في دفع ذلك أمرين:

١ - أن رجال البرقي، الموجود عنده، خال عن ذكر تلميذه هشام لأبي شاعر، أولا.

٢ - أنه قد ورد في أخبار كثيره مناظرته لأبي شاعر، و احتجاجه عليه في التوحيد، على وجه يعلم عدم كونه تلميذا له، ثانيا (٨) و الحق أن المامقاني قد تبرأ من مضمون تلك العبارة.

و المؤلف، كيف يصرف النظر عن كل هذه المناقشات، و ينقل تلك العبارة، و يعتبرها نصا دالا على ما يريد إثباته من تلميذ هشام للديصاني؟! و أما النص الثاني، فهي روايه عن الامام الرضا ع، نقلها عن المامقاني أيضا (٩) لكن المامقاني نقل الروايه تلك عن الكشي، و هي موجوده في رجاله (١٠) و قد ذكر المامقاني: أن الروايه قاصره سندا.

بالنظر إلى أن في السند: "عن بعض أصحابنا" وهم لا يعتبرون بمثله.

هذا، مع أن النص الموجود في رجال الكشي هو:.... من غلمان هشام، و هشام من غلمان أبي شاعر.. وليس في الرواية: "....هشام بن الحكم" و هكذا نقله المامقاني.

و لكن المؤلف أضاف كلمه "ابن الحكم" على متن الروايه، من دون إشاره إلى عدم وجودها في المصدر، و لا- في مصدر المصدر! هذه قيمه النصوص التي اعتمد عليها المؤلف في دعواه الخاطئه، أي كون هشام تلميذا للديصاني، و مع هذا يسلم للدعوى، و يبني على هذه النصوص بناء مهزوزا، هنا و في ما يلي من صفحات كتابه، و يستنتج آراء خاطئه ينسبها إلى هشام، و يقول بملء فيه: إن هذه الآراء وصلت إلى هشام، من أثر الفكر الرواقى، من طريق أبي شاعر الديصاني! و يقول: بل من الجائز أن تكون نزعتة "الحسيه" "الماديه" هي أصداء للنزعه الرواقيه، انعكست في تفكيره بواسطه الديصانيه(١١) و هذا كله مبني على وهم خاطئ، مصدره تلك النصوص التي عرفنا عدم حجيتها، و عدم قابليتها لاثبات تلك الدعوى! و بنفس الأسلوب يدعى أن هشاما اعتنق مذهب جهم بن صفوان،١.

ص: ٢٢٧

- ١- هشام بن الحكم: ٤٨-٤٩.
- ٢- انظر ما ذكره القاسمي في كتاب "تاريخ الجهميه و المعتزله" ص ٣٠ و ما بعدها، حول التساهل في نقل الآراء و المذاهب، و ما يجب أن يعتمد في ذلك.
- ٣- رجال البرقي: ٣٥.
- ٤- لاحظ: رجال النجاشي:....، و الفهرست - للطوسي -.
- ٥- المقالات و الفرق - لسعد -: ٨٨ رقم ١٦٨.
- ٦- رجال ابن داود - القسم الثاني -: ٦٠.
- ٧- رجال ابن داود - القسم الأول -: ٢٠٠ رقم ١٦٧٤.
- ٨- تنقيح المقال ٢٩٥/٣.
- ٩- يلاحظ أنه راجع إلى تنقيح المقال ٢٩٥/٣ بينما الروايه المذكوره في ص ٢٩٩ من المصدر.
- ١٠- اختيار معرفه الرجال: ٢٧٨ رقم ٤٩٧.
- ١١- هشام بن الحكم:.... ٥٠-٥١.

و يستند إلى نصوص، لا- تخلو من مناقشات، و لكن المؤلف لم يلاحظ فيها شيئا، و يقول: فهشام، إذن، من دعاه الجهميه، ناظر على طريقتها، متحمسا لها(1) و يستند أخيرا إلى الشبه الموجود بين بعض آراء هشام و بين آراء الجهميه، التي ذكرها مؤلفو كتب الفرق، و يقول: من البعيد أن يكون ذلك عفوا و اتفاقا(2).

و لا بد أن نسأله هنا: بماذا يفسر الاختلاف بين هشام و بين جهم في آرائه الأخرى؟! هل يعتبرها عفوا أو اتفاقا؟! مع أن الموارد التي ادعى موافقه هشام لجهم فيها، و التي تمثل بها كشاهد على دعواه، ليس الأمر فيها كما زعم، بل هناك مخالفه بين رأييهما لم يدقق فيه المؤلف، فقد ادعى - نقلا عن مقالات الإسلاميين، للأشعري، ص ١٠٨ - أن هشاما نسب إليه القول: "بان الله لا يجوز أن يعلم الشيء قبل خلقه، و أن الأشياء لا تعلم قبل كونها..." ثم يقول: و هذا الرأي نفسه للجهم(3) أقول: هب أن هشاما يوافق الجهم إلى هذا الحد، لكن هل تنتهي المسأله إلى هنا؟ كلا، بل، إن هشاما يخالف جهما في نهايه المسأله نفسها:

فجهم يدعى فيها: "أن علم الله محدث، هو أحدثه، فعلم به، و أنه غير الله"(4) لكن هشاما يقول: إن الله يعلم الأشياء بعلم، و أن العلم صفه له، ليست هي هو، و لا غيره، و لا بعضه، و لا يجوز(5) أن يقال في العلم:

"إنه محدث أو قديم" لأنه صفه، و الصفه عند هشام لا توصف(6) و من الواضح أن من خالف أحدا في جزء دعواه، سواء في جزء الصغرى، أو جزء الكبرى، فهو مخالف له في النتيجة! فكيف تخفى هذه البديهيه على المؤلف.

و الغريب أنه جعل نفس هذا الأمر الذي اختلف فيه هشام و الجهم مثلا آخر لما يدعيه من توافقهما في الرأي! و بعد أن نقل كلام هشام في العلم، و تصريحه بأنه "لا يقال فيه محدث و لا قديم" يقول: و نجد في هذا شبيها بقول الجهم حين يستدل على ذلك فيقول: "إذا ثبت حدوث العلم فليس يخلو: إما أن يحدث في ذاته تعالى، و..."(7) فانظر كيف يكون الشبه بين من ينفي الحدوث و القدم، و بين من يفرض الحدوث و يتكلم على أساسه؟! و الأغرب أن المؤلف لما ينقل قول هشام: ليس يخلو القديم من أن يكون لم يزل عالما لنفسه، كما قالت المعتزله، أو عالما بعلم قديم، كما قالت الزيديه، أو عالما على الوجه الذي أذهب إليه(8) يقول: و يقصد بالوجه الذي يذهب إليه: أن العلم حادث(9) و يقول - بكل جرأه -: فرأى هشام هنا مشتق من رأى جهم بكامله! أقول: لكن عرفت أن القول بحدوث علم الله هو رأى جهم فقط، و أما رأى هشام فهو أن العلم صفه، و هي لا توصف بحدوث و لا- قدم! فهو ينكر حدوث العلم! فكيف يجرؤ المؤلف على هذا التصريح الخطير! لا أجد جوابا لهذا، إلا أن أقول للمؤلف: "ما هكذا تورد يا سعد الإبل".

و لو شاء المؤلف أن يرى بام عينه اختلافات هشام و الجهم، فليقرأ في "مقالات الإسلاميين" للأشعري:

١ - أن الجهم يزعم أن الحركة جسم، و محال أن تكون غير جسم(10) ٢ - أن هشاما يقول: الحركات و أمثالها ليست أشياء و لا أجساما(11) و هذا ما عثرنا عليه في طريق بحثنا، و لم نتصد له، و لعل البحث المقصود يدلنا على الكثير جدا. و كيف كان، فهذا يكفى في تنفيذ مزاعم المؤلف، و دعواه مكررا أن هشاما كان ديصانيا أو جهميا حتى بنى على ذلك كثيرا من اتهاماته الصعبه ضد هشام.

كما يقول عند تعرضه لموضوع "التجسيم" في رأى هشام: فالنزعه الحسيه باديه على شيء من آرائه، فهو يجسم الأعراض، و

الجو، حتى الخالق تعالى و يضيف: و قد رجحنا وصول هذه الفلسفه إلى هشام من طريق الديصانيه... و بخاصه أن هشاما صحب أبا شاكر الديصاني، و لازمه حتى عد من غلمانه، كما سبق(١٢) و يقول بعنوان "ذاته" - بعد نقل الأقوال المتعارضه فى نسبه التجسيم إلى هشام - ما نصه: و إننا إذ نقف بين هذه النصوص المتضاربه، لا يمكننا أن ننزه هشاما عن القول بالتجسيم(١٣) ثم يستدل على ذلك بقوله:

١ - إن حكايه التجسيم عنه مستفيضه.

٢ - إن الصدوق روى فى كتابه "التوحيد" ما يشعر بذلك.

٣ - إن المفيد نسب إليه مقوله "جسم لا كالأجسام".

ثم يؤكد على أن هشاما كان جهميا ديصانيا، و يصل إلى هذه النتيجة:١.

ص: ٢٢٨

-
- ١- هشام بن الحكم...: ٥١.
 - ٢- هشام بن الحكم...: ٥١.
 - ٣- هشام بن الحكم...: ١-٥٢.
 - ٤- مقالات الإسلاميين ١٦٤/٢.
 - ٥- و ذكره فى المصدر - أيضا - فى ١٠٨/١ يلفظ "فيجوز أن يقال: العلم محدث أو قديم، لأنه صفة، و الصفة لا توصف...". و قد طبعها المحقق الألماني (ه، ريتز): "فيجوز" بالنصب، كى يكون منصوبا بان مقدره جوابا للنفي فى "ليست...". و معناه: فلا يجوز، كما جاء فى الموضع التالى من المصدر. لكن المحقق المصرى (عبد الحميد) طبعها: "فيجوز" فناقض معنى الجملة السابقه، و معارضا للموضع الآخر الذى صرح فيه بقوله "لا يجوز" كما أثبتنا فى المتن، فلاحظ.
 - ٦- مقالات الإسلاميين ١٦٣/٢، و الملل و النحل ١٨٥/١.
 - ٧- هشام بن الحكم...: ٥٢.
 - ٨- هشام بن الحكم...: ١٢٨ نقلا عن الانتصار - للخياط -: ١٠٨.
 - ٩- هشام بن الحكم...: ١٢٨.
 - ١٠- مقالات الإسلاميين ٣٢/٢.
 - ١١- مقالات الإسلاميين ١١٣/١.
 - ١٢- هشام بن الحكم...: ٩٩.
 - ١٣- هشام بن الحكم...: ١٢١.

و على ذلك، يمكننا أن نقول: إن هشاما كان يذهب إلى أن الله تعالى "جسم لا كالأجسام" و ذلك قبل أن يدين بمذهب الصادق... و لكنه بعد ذلك رجع.

و اعتبر رأيه هذا جمعا بين الناسيين التجسيم إليه، و بين النافين لتلك النسبه عنه، و يقول: فكلما الفريقين، المتشيع عليه، و المتشيع له، قد يكون على صواب (1) و واضح أن شيئا من أدلته تلك لا تثبت مدعاه، و لا يصح ترتيب هذه النتيجة الخاطئه عليه:

فالحكايات المستفيضه: تنحل إلى أكثره اختلقها أهواء خصوم هشام، و اصطنعتها أغراضهم، و صاغتها أحقادهم، فلا قيمه إثباته لها على التحقيق، و لا تقاوم الجدل و البحث العلمي.

و تنقسم إلى مجموعه أخرى معرضه للاحتتمالات و الترددات، و التفسيرات المبعده لها عن إثبات ما يريد المؤلف.

فهل يسمى مثل هذا استفاضه؟! و هل تكون مثل هذه الاستفاضه حجه على شىء؟! نعم، هي بمجموعها تدل على ثبوت قضيه فى حق هشام، بنحو المعلوم الاجمالي، لكن جزئيات هذه القضيه و مفرداتها غير واضحه من خلال تلك الحكايات المستفيضه، و القدر الثابت الصحه منها هو أن هشاما أطلق تلك المقوله: "جسم لا كالأجسام" على البارئ جل و علا، و قد عرفت أنها - فى مصطلح هشام - لا تدل إلا على التنزيه المحض و التوحيد الكامل.

و أما الروايات التى نقلها الصدوق، فلا دلالة فى شىء منها على التزام هشام بالتجسيم المادى لله تعالى شأنه، و إنما احتوى قسم منها على أن له قولاً فى "الجسم"، و هذا لا يدل على أكثر من إطلاق اسم "الجسم". و قسم آخر بين فيه مصطلح هشام، أو تكرار لمقولته، و لم نجد فيها ما يتضمن نسبه التجسيم المادى إلى هشام (2) و أما كلام المفيد، فليس هو إلا نقلاً للمقوله عن هشام، و هو مدار بحثنا هذا، و قد عرفت أنها لا تدل إلا على التوحيد و التنزيه، فكيف يستدل به المؤلف على مدعاه؟! و يتعرض المؤلف لمسأله التجسيم المنسوب إلى هشام تحت عنوان "الأعراض" و يقول: لكن هشاما خالف ما هو المعروف فى الأعراض، فقد نسب إليه الشهرستانى و الأشعرى و البغدادى و ابن حزم الأندلسى، القول بان الألوان و الطعوم و الرائحة أجسام (3) و أشار فى الهامش إلى مصادر عديده، منها: الفصل - لابن حزم - (42/5)، و قد كان هذا الكتاب أمامى عند مطالعتى لهذا الكلام، و فتحته (فى نفس الجزء، و الصفحه) فعجبت لما لم أجد فى هذا المكان إلا قول ابن حزم - السطر 9 - قال أبو محمد: و قد اختلف الناس فى المعدوم، أ هو شىء أم لا؟ فقال أهل السنه، و طوائف من المرجئه، و الأشعريه، و غيرهم: ليس شيئا، و به يقول "هشام بن عمرو الفوطى" أحد شيوخ المعتزله.

و قال سائر المعتزله: المعدوم شىء، فقال: عبد الرحيم بن محمد بن عثمان الخياط: إن المعدوم جسم فى حال عدمه إلا أنه ليس متحركا و لا ساكنا و لا مخلوقا و لا محدثا فى حال عدمه (4) ثم نظرت فى الصفحه حتى آخرها فلم أجد ذكرا لهشام بن الحكم، و لا فى صفحات سابقه و لا لاحقه عليها! و لو سامحنا المؤلف، فى ذكره اسم هشام بن الحكم بدل هشام بن عمرو، فهل له عذر فى أنه ذكر الحديث عن مطلب الأعراض: اللون، و الطعم، الرائحة، نقلا عن هذا المصدر، فى تلك الصفحه، و لم نجد لها ذكرا فيها؟! فهل اعتمد طبعه أخرى من الكتاب؟! و هو لم يذكر فهرسا لطبعات مصادره؟! ثم ما ذا عن المصادر الأخرى؟ و عن المطالب الأخرى؟ و عن أرقام الصفحات و المجلدات؟ فهل مثل هذا الكتاب يعتمد عليه كمصدر أمين؟! و لو لا أن بعض المغرضين قد استند إلى ما فى هذا الكتاب من آراء حول هشام، و جعله دليلا على نسبه التجسيم المادى إليه!! و لو لا التخوف

من أن يصبح ما جاء في الكتاب - من آراء خاطئه - شاهدا لمن تسول له نفسه اتهام هشام بما لا يليق من أباطيل!! لو لا كل ذلك، لما تعرضنا لما فيه، لبعده المده التي مضت على طبعه، و لعل كلمتنا هذه توقف المؤلف على ما في كتابه، فيحاول أن ينقحه، ليؤدى هدفه - الذى لا- بد أن يكون خيرا - بأفضل مما كان عليه، و يقطع الطريق على من يسىء الاستفاده منه من المغرضين.

و لقد ألجأنا إلى هذا التعرض استشهاد بعض المؤلفين بما جاء فيه على اتهامه لهشام بالتجسيم المادى متبجحا بأنه لم يبق فى ساحه هذا الاتهام وحيدا بعد أن كان مؤلف كتاب "هشام بن الحكم..." يذهب إلى مثل ما ذهب إليه، و يقول بنفس مقالته.

بالرغم من أن هذا المؤلف لم يعتمد فى كتاباته إلا على مصادر ضعيفه، و مقدمات سخيغه، فبنى عليها نتائج موهومه، تصور أنها حقائق ثابتة.

فهذا مؤلف كتاب "الصله بين التشيع و التصوف" مع قربه من مصادر تراث الشيعة و معرفته بعلمائهم، تراه يخطب فى كتابه هذا خبط عشواء لا- يهدى سبيلا! و فى خصوص هشام بن الحكم يحاول أن يتفلسف لاثبات أقبح ما أتهم به من أعداء التشيع و خصومه، ألا و هو "التجسيم المادى".

و لئن عجز أولئك الحاقدون من إثبات هذه التهمه بصراحه و اضطروا - من حيث أرادوا أولا - إلى الاعتراف ببراءه هشام منها، إلا أن هذا حاول أنا.

ص: ٢٢٩

١- هشام بن الحكم...: ١٢٣.

٢- هشام بن الحكم...: ١٢٤، و سنذكر فى نهايه هذا البحث أكثر تلك الروايات و نوضح محاملها.

٣- هشام بن الحكم...: ١٦٢.

٤- الفصل ٤٢/٥ س ٩ فما بعدها.

يصور القضية بشكل معقول! هين! طبيعي! وقد حاول توفيق الفكيكي أن ينبهه إلى الصواب من خلال تصويب بعض أخطائه التي لا يهمننا منها سوى موضوع التجسيم، إلا أنه زاد على أخطائه في كتاب "الصلاح... خطأ أفحش، في رده على الأستاذ الفكيكي فيما نشره في مجله "الايمان" الصادره في النجف.

و لعلاقه ذلك بموضوع البحث رأينا التصدى له، فنقول:

أما ما ذكره في رده على الأستاذ الفكيكي، فهذا نصه:

إن هذا المتكلم (يعنى هشام بن الحكم) فلسف التجسيم قبل ظهور نفى الصفات عند أبى الهذيل العلاف المعتزلى (المتوفى ٢٣٥) (كذا) بحيث حصل منه نظريه هي إلى التجريد أقرب، وذلك دون نقض المعنى المادى، الذى يفهم من آيات التشبيه. و جاء ذلك من استغلال فكره النور التى كانت من تراث الشيعة.

فجعل هشام النور المدى الأقصى الذى يمكن تشبيه الأجسام به، و اعتبره "جسما لطيفا".

ثم جعل ما ليس بماده - كالعلوم، و الحركات - أجساما.

و بذلك (١) المعنى المجرد بالكائن المجرد فى لطافه الجسم.

و انحل الاشكال، و صارت الجسميه لله اعتبارا عقليا، و أمرا ذهنيا.

خالصا، ليس إلى تلمسه سبيل، كما أن العلم و الحركات أجسام لا تلمس.

و ذلك لأن الله تعالى - بقول هشام -: "جسم لا كالأجسام" و "صوره (٢) لا كالصور" تماما كما هو "عالم بعلم، و علمه ذاته" التى يستشهد بها المعتزله، دليلا على التجريد و التنزيه.

فاى ضير بعد فى أن يكون هشام مجسما عقليا؟ يقدم الدليل على أن الماده المعنيه إلهيه لا تدرك بالحواس؟ و أين الاشكال، إذن؟ ثم قال: يبقى شىء مهم جدا، هو أننى لم أنفرد بهذا الرأى فى هشام، و إن عرضت له على عجل فى رسالتى التى فرغت منها سنه (١٩٥٨) فقد توصل إليه الشيخ عبد الله نعمه بعد دراسه و استقصاء فى كتاب برأسه بدور حول "هشام بن الحكم..." طبع لبنان (١٩٥٩).

ثم أخذ بنقل كلام الشيخ نعمه بطوله (٣) أقول: إن الكاتب قد ادعى على هشام دعاوى طويله عريضه، و لم يقدم على واحد منها دليلا أو شاهدا، و هي:

١ - أن هشاما أثبت نظريته على أساس عدم نقض المعنى المادى الذى يفهم من آيات التشبيه.

٢ - استغلال هشام لفكره النور، و جعله النور المدى الأقصى الذى يمكن تشبيه الأجسام به. ٣ - اعتبار هشام للنور جسما لطيفا.

٤ - جعل هشام ما ليس ماده - كالحركه و العلم - جسما لطيفا.

٥ - بدل هشام المعنى المجرد بالكائن المجرد، فى لطفه الجسم.

٦ - صارت الجسميه اعتبارا عقليا خالصا، ليس إلى تلمسه سبيل، كما أن العلم و الحركات أجسام لا تلمس.

٧ - لأن الله تعالى - بقول هشام - "جسم لا- كالأجسام" و "صوره لا- كالصور" تماما كما هو عالم بعلم و علمه ذاته، التى يستعملها المعتزله دليلا على التجريد و التنزيه.

٨ - إقامه الدليل على أن ماده المعينه إلهيه لا تدرك بالحواس.

و إليك تفصيل مناقشتنا لهذه الدعاوى:

١ - إن هشاما بنى نظريته على أساس عدم نقض المعنى المادى المفهوم من آيات التشبيه.

فيه بحثان:

الأول: إن الربط بين مقاله هشام و بين رأيه فى آيات التشبيه، و أن تلك الآيات و المعنى المادى المفهوم منها كانت مؤثره فى نظريته فى التجسيم! و هذا ما لم أجده فى أى مصدر من المصادر التى تعرضت لمقوله هشام، أن ذكر فيه ارتباط نظريه هشام برأيه فى آيات التشبيه، فلم تذكر تلك الآيات فى سياق مقولته، حتى يمكن فرض الربط بينهما. هذا من جهه.

و من جهه أخرى: فان مقوله هشام المحتويه على ذيل: "...لا- كالأجسام" تنفى كل تشبيه - على الإطلاق - بين الخالق و المخلوق - كما سبق أن أوضحناه مفصلا - و هذا وحده يدعو إلى الاعتقاد بان هشاما لا بد أن يكون من أهل تأويل تلك الآيات، و عدم فهم المعنى المادى منها.

و قد يشير إلى هذا أيضا عدم نقلهم خلافا عن هشام، للطائفة الشيعيه التى تلتزم بالتأويل كما هو واضح فى مقامه.

الثانى: إن نظريه هشام فى "الجسم" مبنيه على المعنى المادى، و عدم نقضه! إن مصطلح هشام فى "الجسم" و هو "الشيء" بحقيقه الشئيه التى هى "إثبات الذات" و "الموجود" و "المستقل بالنفس" كما أثبتناه مفصلا، يعنى: أن هشاما ينزه البارئ جل ذكره عن كل ماهيه ماديه موجوده فى أى جسم طبيعى آخر.

فكيف يجوز أن ننسب إليه إدخال "المعنى المادى" فى نظريته حتى على فرض "اللطافه"؟! و فى هذه النقطة بالذات، يختلف ما قصده الكاتب عما ثبت عن هشام فى تفسير مقوله "جسم لا كالأجسام" حيث لم نجد فى كلمات الكاتب - كلها - ذكرا و لا إشاره إلى مصطلح هشام فى "الجسم" ذلك الذى تناقلته كاهه المصادر، و قررته و أكدت نسبتته إلى هشام! و من هذه النقطة يبدأ انحراف الكاتب عن التوجيه الصحيح لمقوله هشام، كما سنثبت فى النقاط التاليه:٤.

- ١- كذا وردت هذه الكلمه فى المصدر، و لعلها تصحيف من " و يدل "فلاحظ.
- ٢- المطبوع فى المصدر: " و صوت " .
- ٣- مجله " الايمان " النجفيه، السنه الأولى، سنه ١٣٨٣ هـ، العدد ٧-٨، ص ٦٠٤.

٢ - استغلال هشام لفكره النور، وجعله النور المدى الأقصى الذى يمكن تشبيه الأجسام به.

إن الكاتب لم يفسر فى كتاب "الصلة..." (فكره النور) ولكنه فى كتاب "الفكر الشيعى" ذكرها بقوله: إن حركة الغلو شرعت للتصوف (فكره النور الالهى) الذى ينتقل عن طريق الأنبياء والأئمة من الله إلى قادتهم(١) و أعاد نفس الجمله فى حديثه عن الشلمغانى(٢) و ذكر أن الحلاج وصف النور الالهى بالشعشعانى(٣) و لم يذكر مصدرا يذكر فيه النور مرتبطا بنظريه هشام فى التجسيم! لكنى وجدت ذكر النور فى عرض حديثهم عن هشام فى المصادر التاليه:

قال الحميرى: قال هشام بن الحكم من القطيعه - و من قال بقوله :-

هو شىء جسيم، لا طويل ولا عريض، نور من الأنوار... (٤)

و قال ابن أبى الحديد: و أصحابه من الشيعة يدفعون - اليوم - هذه الحكايات عنه، و يزعمون أنه لم يزد على قوله: "جسم لا كالأجسام" و أنه إنما أراد باطلاقه هذه اللفظه عليه "إثباته" و صدقوا عنه أنه كان يطلق عليه كونه "نورا" لقول الله سبحانه: "الله نور السموات و الأرض، مثل نوره..." (سوره النور (٢٤) الآيه (٣٥) (٥) و هذا بمجرد، لا يقتضى أن تكون هناك - عند هشام خاصة - فكره النور، و لا أن تكون هذه الفكره من تراث الشيعة، دون باقى المسلمين!! فالفكره - إن صح التعبير - موجوده فى الآيه القرآنيه، و "النور" أطلق على البارئ تعالى بنص القرآن، و أهل السنه و أصحاب الحديث يلتزمون باطلاق "النور" عليه تعالى استنادا إلى نفس الآيه (٦) و كذلك بعض كبار المعتزله (٧) فمن أين أصبحت هذه الفكره شيعيه خاصه؟! ثم من أين جاء الكاتب بدعوى أن هشاما استغل هذه الفكره فى سبيل نظريته فى التجسيم؟! و إذا جاء شىء فى حق الحلاج و الشلمغانى و أمثالهما، فهل يحق لأحد أن ينسبه إلى كل الشيعة؟! نعم، إن ابن أبى الحديد نسب إلى هشام بن سالم - و ليس ابن الحكم - القول بان الله "نور" على صورته الإنسان، مع أنه أنكر أن يكون "جسما" (٨) و نسب الشهرستانى ذلك إلى محمد بن النعمان مؤمن الطاق (٩) فنسبه ما ذكره الكاتب إلى هشام بن الحكم دعوى عريضه، لم تذكر فى أى مصدر.

مع أن هذه النسبه تعنى أن هشاما كان بصدد تشبيه الذات الالهيه بالجسم النورى، بينما مقوله هشام "جسم لا كالأجسام" - كما عرفنا - بصدد تنزيه البارئ - سبحانه - من كل شبه بالأجسام، سواء الأجسام اللطيفه أو غيرها، و نفى عنه كل خواص الأجسام من المواد أو الأعراض، فنسبه الكاتب اللطافه، أو المعنى المادى، إلى هشام ينافى ذلك و يناقضه، و يعارض ما ثبت نسبته إلى هشام.

٣-٥ - اعتبار هشام للنور "جسما لطيفا".

و جعل هشام ما ليس ماده - كالعلوم و الحركات - أجساما.

و بدل المعنى المجرد بالكائن المجرد فى لطافه الجسم.

إن نسبه هذه الأفعال: (الاعتبار) و (الجعل) و (التبديل) إلى هشام، انفرد بها هذا الكاتب حيث لم نجد لها أثرا فى المصادر المتوفره للبحث عن هشام، بل ما وقفنا عليه من المصادر يدل على ضد النسبه الثانيه:

فقد صرحت كتب المقالات بان هشاما نفى أن تكون الحركات أجساما:

قال الأشعري: حكى عنه أنه قال: هي (أى أفعال الفاعلين) معان و ليست بأشياء و لا أجسام، و كذلك قوله فى صفات الأجسام، كالحركات، و السكنات، و الإرادات، و الكراهات، و الكلام، و الطاعة، و المعصية، و الكفر، و الايمان(١٠). بل الذى قال بان الحركة جسم، هم معارضو هشام و خصومه، كجهم(١١) و أقرب إلى ذلك النظام الذى قال: إن الصوت جسم(١٢) و فرقه من المعتزلة التى زعمت: أن كلام الله جسم، و أنه مخلوق(١٣) و من قال منهم برؤيه الأعراض(١٤) و أما ما نسبه إلى هشام من تبديل المعنى المجرد بالكائن المجرد: فلم يذكر الكاتب أنه من أين أخذه؟ هل وجده فى مصدر؟ أو أنه أخذه من آراء أخرى لهشام فاستنبط هذا منها؟ كما أنه لم يذكر وجه هذا التبديل! فان المعنى المجرد هو موجود ذهنى لا يمكن تحقيقه فى الخارج، و الكائن المجرد هو موجود خارجى و إن كان جسما لطيفا، فما معنى تبديل هذا بذاك؟ و ما هو دليله؟! و هكذا يسطر الكاتب مقدمات من نسج خياله، و ينسبها إلى هشام، لىبنى عليه رأيه المنهار، و ينسبه - بكل صلافة - إلى هشام.

٦ - صارت الجسميه اعتبارا عقليا خالصا، ليس إلى تلمسه سبيل، ٢.

ص: ٢٣١

-
- ١- الفكر الشيعى: ٢٦.
 - ٢- الفكر الشيعى: ٢٠٢ نقلا عن معجم الأدباء ٢٣٥/١.
 - ٣- الفكر الشيعى: ٣١٢، نقلا عن الفهرست - للنديم -: ١٩٠.
 - ٤- الحور العين: ١٤٨.
 - ٥- شرح نهج البلاغه ٢٢٤/٣.
 - ٦- مقالات الإسلاميين ٢٦٠/١.
 - ٧- مقالات الإسلاميين ١٩٢/٢.
 - ٨- شرح نهج البلاغه ٢٢٤/٣.
 - ٩- الممل و النحل ١٨٧/١.
 - ١٠- مقالات الإسلاميين ١١٣/١، و الفرق بين الفرق: ٦٧.
 - ١١- مقالات الإسلاميين ٣٢/٢.
 - ١٢- مقالات الإسلاميين ١٠١/٢.
 - ١٣- مقالات الإسلاميين ٢٤٥/١.
 - ١٤- مقالات الإسلاميين ٤٦/٢.

كما أن العلم و الحركات أجسام لا تلمس.

إن الاشكال على التجسيم هو أن مقتضاه العرفى أن تكون للجسم أبعاد ثلاثه على الأقل: الطول و العرض و العمق، أو التأليف و التركيب و التجزى، و هذا هو الجسم باصطلاح المجسمه و المعتزله، على ما عرفت.

و لو اعتبرت الجسميه أمرا عقليا، كان هذا اصطلاحا آخر فى الجسم فلا بد له من دليل اعتبار.

و الكاتب كما أنه لم يذكر دليلا على هذا الاعتبار و الاصطلاح فهو لم يذكر قبل ذلك واحدا من المصادر كان قد ذكر ذلك منسوبا إلى هشام.

و إذا جعل الكاتب هذه النتيجة حتميه على أساس المقدمات السابقه و خاصه أن هشاما يرى أن الحركات أجسام، فقد عرفت عدم صحه نسبه شىء من تلك المقدمات إلى هشام، خاصه هذه المقدمه، فإنه خالفها بالقطع! مضافا إلى أن أساس هذا التفسير لنظريه هشام هو أنه يرى من ذات البارئ "ماده معينه" و هو ما لم يقله هشام، بل ينافى مقولته منافاه قاطعه، كما سيأتى.

و هذا بخلاف ما التزمناه من اصطلاح هشام فى "الجسم" بمعنى "الشىء" فمضافا إلى شهرته عنه، و إقامته الدليل عليه، كما سبق أن فصلناه، فهو بمعنى "شىء لا كالأشياء" المقوله التى التزمها كل المسلمين - عدا الشاذين - و هو يعبر عن مجرد وجود الذات الالهيه، منزها عن كل خواص الأجسام، فهو خارج عن حد التعطيل و حد التشبيه، كما قلنا.

٧- التعليل بان الله تعالى "جسم لا كأجسام" و "صوره لا كالصور" تماما كما هو "عالم بعلم، و علمه ذاته" التى يستشهد بها المعتزله دليلا على التجريد و التنزيه....

أقول: هذا التعليل منقول عن هشام فى إلزام أبى هذيل العلاف، كما نقله الشهرستانى، قال: هشام بن الحكم، صاحب غور(١) فى الأصول، لا- يجوز أن يغفل عن إزماته على المعتزله، فان الرجل وراء ما يلزم به على الخصم، و دون ما يظهره من التشبيه، و ذلك أنه ألزم العلاف، فقال له:

إنك تقول: البارئ تعالى "عالم بعلم، و علمه ذاته" فيشارك المحدثات فى "أنه عالم بعلم" و يبينها فى "أن علمه ذاته" فيكون "عالمًا لا- كالعالمين" فلم لا تقول: "إنه جسم لا كأجسام" و "صوره لا كالصور" و له "قدر لا كأقدار" إلى غير ذلك(٢) بيان الإلزام فى هذا الكلام: أن أبا الهذيل التزم من بين المعتزله، بان الله يعلم الأشياء بعلم هو ذاته(٣) و لكن هشاما يقول: إن الله يعلم الأشياء بعلم، و علمه صفه له، ليست هى هو، و لا غيره، و لا بعضه(٤) فاختلفا فى أن علم الله عين ذاته، كما يقول العلاف، أو صفه للذات، كما يقول هشام.

فإذا كان علم الله عين ذاته، اختلف عن علم المخلوقين لأن علمهم صفه لهم، فإطلاق "عالم" على البارئ يختلف عن إطلاق "عالم" على المخلوقين، لاختلاف "العلم" بالحقيقه فى الموردين، و الحاصل أن كلمه "العالم" عند إطلاقها على البارئ تعالى ليست بمعنى العلم المفهوم عند المخلوقين، بل معناه أمر آخر خاص بالله تعالى، و مع هذا يصح إطلاق "عالم" على البارئ تعالى، إلا أنه لا بد أن يقال: "لا كالعالمين" حتى ينفى عنه أى شبه بالمخلوقين فى علمه و عالميته.

فان كان هذا التغيير فى معنى "العلم" و الاصطلاح على إرادته الذات منه، كافيا لصحة إطلاق اسم "عالم" عليه، فليكن إطلاق "جسم" عليه تعالى كذلك، بصرفه عن معناه اللغوى العرفى، و إرادته أصل "الشيء" و "الموجود" منه صحيحا، فيقال: إنه "جسم لا كالأجسام".

و إن لم يكن هذا التواضع كافيا، فلا بد أن لا يصح "عالم لا كالعالمين"!! فالعلاف إما أن يلتزم بكون علم الله ليس عين ذاته بل هو صفة مثل علم سائر العالمين، فهو تنازل عن رأيه فى العلم! أو يلتزم بإطلاق "جسم لا كالأجسام" على البارئ تعالى من دون حرج، و هذا اعتراف بصحة مقوله هشام فى الجسم! و قد عرف من شرحنا هذا أن هشاما لا يمكن أن يقيس مقولته "جسم لا كالأجسام" على قول العلاف "عالم بعلم، و علمه ذاته" و ذلك:

١ - أن هذا مخالف لرأى هشام فى العلم! ٢ - أن هذا ليس فيه أى إلزام على العلاف، فكيف يذكره الشهرستاني بعنوان أنه إلزام! كما عرف من خلال حديثنا أن قول: "عالم بعلم، و هو ذاته" ليس من كلام المعتزله كلهم بل هو من كلام العلاف فقط! و قد خالفه فيه هشام و جماعه من المعتزله أيضا.

٨ - فإى ضير - بعد - فى أن يكون هشام مجسما عقليا، يقدم الدليل على أن "الماده المعينه" إلهيه، لا تدرك بالحواس؟ و أين الاشكال إذن.

أقول: إن كان المراد من التجسيم العقلى، هو التجسيم المادى، لكون الذات الالهيه عنده ماده معينه لا تدرك بالحواس، كما هو صريح كلامه هنا، و هو الأمر المبني على المقدمات التى ذكرها الكاتب و رتبها للتوصل بها إلى هذه النتيجة! فهذا ما لم يقله هشام، بل هذا معارض لما فى مقولته من التجريد و التنزيه عن كل خواص الأجسام، و منها "الماده".

مع أن تلك المقدمات غير تامه، كما سبق أن قلنا.

و أما الضير فى هذه التهمه، فلا يتجه منه إلى هشام أى سوء، لأن ٢.

ص: ٢٣٢

١- كذا بالغين المعجمه فى طبعه المصدر، الموجوده بهامش الفصل، لكن المطبوع فى المصدر الذى راجعناه "عور" بالعين المهمله، فهل هو خطأ مطبعى؟!

٢- الممل و النحل ١/١٨٥.

٣- مقالات الإسلاميين ١/٢٢٥ و ٢٤٣.

٤- مقالات الإسلاميين ٢/١٦٣.

نسبه باطل هذه التهمة إلى حق هشام بن الحكم كنسبه الحجر إلى البحر في قول الشاعر:

لا يضر البحر أمسى زاخرا أن رمى فيه غلام بحجر

و كفى ما أوردنا دليلا على أن الكاتب لم يفهم مراد هشام، و لا وقف على مصطلحه! و أما: أين الاشكال؟ فيقال له: إنه كامن في عدم قدرتك على الخوض في موضوع كهذا، حساس، لم تخبره أبدا، و لم تعرف كيف تستخدم مصادره، و لا لك قدره على فهم عباراتهم، و كلماتهم، ثم تعتمد أساسا على مصادر الأعداء و تحاول أن تنسب ما فيها إلى هشام من دون مناقشه أو تفنيد.

و لو نظر هذا الرجل في مصادرنا الموثوقة، لوجد أن قضيه "التجسيم" قد انتفت فلم يبق أى أثر للماده في كلمه "الجسم" لما وضعت على غير معناها المفهوم، و أريد منها معنى "الشيء" فليس هناك إلا ذكر للرب بلفظ "الجسم" و هذا هو المفهوم من مقوله "جسم لا كالأجسام" حسب تفسيرنا لها، على مصطلح هشام.

و أما مناقشه الكاتب في كتابه "الصله بين التشيع و التصوف..." فهذا نص عبارته:

أما التجسيم الذى قال به هشام فلا داعى للافاضه فيه، و نكتفى من ذلك بأنه قد بنى على فكره منطقيه تقول: "إن بين معبوده - أى هشام - و بين الأجسام تشابها ما بوجه من الوجوه، و لو لا ذلك لما دلت عليه" (الملل و النحل ٢٠٨/١) و ينتهى إلى أنه "لا يشبه شيئا من المخلوقات و لا يشبهه شيء" (الملل و النحل ٢٠٨/١) يضاف إلى هذا أن أبا الحسن الأشعري، لما ذكر تجسيم هشام بن الحكم لله و أن له طولاً و عرضاً، أردف ذلك بقوله:

"على المجاز دون التحقيق" (مقالات الإسلاميين: ١٠٢). و أدخل من هذا فى بعد هشام بن الحكم عن التجسيم المادى لله ما ذكره على بن إبراهيم القمى من اختلاف هشام و أحمد بن محمد بن أبى نصر، فى كيفية رؤيته (كذا) النبى لله فى المعراج، فقال الآخر: نحن نقول بالصورة للحديث الذى روى أن رسول الله ص رأى ربه فى صورته شاب، و قال هشام بالنفى للجسم... " (تفسير على بن إبراهيم: ١٩). و قد حاول الشيعة، قدماء و محدثين، أن ينفوا عن هشام بن الحكم القول بالجسميه بكل ما أوتوا من قوه، غير أن الحججه أعتيمت، و من هنا اعترف الشيخ المفيد بقوله بالجسميه، و قرن الشيعة ذلك بحكايتهم رجوع هشام عنها، و كان ذلك غايه ما بذلوه من جهد! (نشاه الفكر الفلسفى فى الإسلام، للدكتور على سامى النشار، ط ٢، مصر ١٩٦٤، ص ٢٤١).

و ذكر الشيخ عبد الله نعمه فى هشام أنه " فى آرائه الموجوده بين أيدينا اتجاه مادى، و نزع حسيه قلما تخفى.... ثم هو يغرق فى نزعته الحسيه حتى حكى عنه القول بان الجوهر جسم رقيق... " (هشام بن الحكم، بيروت ١٩٥٩، ص ٩٨-٩٩).

و كذلك فعل الدكتور محمد جواد مشكور فى تحقيقه لكتاب "المقالات و الفرق" لسعد بن عبد الله الأشعري (طهران ١٩٦٣، ص ٣٢١) و قد أخذ توفيق الفكيكى فى شان هشام بن الحكم برأى الشيخ المفيد و أصر على نفى التجسيم عنه دون دليل واضح (انظر نقده للطبعه الأولى من هذا الكتاب فى مجله "الايان" النجفيه، السنه الأولى، العدد الخامس و السادس، ١٩٦٤، ص ٣٩٨، ٤٠٥) و من الغريب أن تهمة التجسيم لم تنف عن هشام على أيدي الشيعة و إنما فعل ذلك أهل السنه، فابو الحسن الأشعري و ابن حزم الظاهري قدما الماده الكلاميه لهذه البراءه، و الدكتور على سامى النشار وضعها على أساس منطقي فلسفى

مؤداه "أن الفعل لا يصح إلا من جسم، والله فاعل، فوجب أنه جسم" و أن "معنى الجسم أنه موجود" و كان هشام يقول: أريد بقولي: "جسم" أنه موجود، و أنه شيء، و أنه قائم بنفسه (نشاه الفكر الفلسفي، ص: ٢٤١، ٢٤٤، ٢٥٦). و يختم الدكتور النشار ذلك بحكمه من "أن الجسم عند هشام بمعنى الموجود، فكل موجود جسم... " و الله موجود، فهو جسم، لكنه لا كالأجسام" (ص ٢٤٦)(١) - قوله: فكره منطقيه تقول إن بين معبوده (أى هشام) و بين الأجسام تشابها ما بوجه من الوجوه، و لو لا ذلك لما دلت عليه.

أقول: إن هذا الكلام نسبة الأشعري(٢) و الشهرستاني(٣) إلى هشام بن الحكم، نقلا عن ابن الراوندى.

و أضاف الشهرستاني فى موضع آخر إليه قوله: الأعراض لا- تصلح أن تكون دلالة (كذا، و الصواب داله) على الله تعالى، لأن منها ما يثبت استدلالا، و ما يستدل به على البارئ تعالى يجب أن يكون ضرورى الوجود لا استدلالا(٤) لكن هذه المقالة - بعين اللفظ - منقوله عن هشام بن عمرو الفوطى، فقد ذكر الشهرستاني فى فرقه "الهشاميه" من المعتزله، ما نصه:

و من بدعه فى الدلالة على البارئ تعالى قوله فى الأعراض لله لا تدل على كونه خالقا و لا تصلح دلالات، بل الأجسام تدل على كونه خالقا(٥) و ليس هذا أول خلط لهم بين الهشامين: ابن الحكم، و ابن عمرو الفوطى.

مع أن نسبه هذه المقالة إلى هشام بن الحكم لا يناسب مقولته المعروفه المذيله بقوله "لا كالأجسام" حيث ينفى فيها كل شبه بين الخالق و المخلوق.

و العجيب أن الكاتب يقول: "و ينتهى إلى أنه لا يشبه شيئا من المخلوقات، و لا يشبهه شيء".

فكيف ينتهى القول بالشبه بينهما إلى القول بعدم الشبه، أ ليس هذا "خلفا" كما يقول المناطقه؟! مع أن هذا ليس هو النهايه فى رأى هشام، بل هو يرى ذلك من ١.

ص: ٢٣٣

١- الصله بين التشيع و التصوف: ١٤٣.

٢- مقالات الإسلاميين ١/١٠٣.

٣- الممل و النحل ١/١٨٤.

٤- الممل و النحل ١/١٨٥.

٥- الممل و النحل ١/٧٢.

البدايه، أليس هو الذى ينفى كل شبه بين الخالق و المخلوق فى مقولته:

"جسم لا- كالأجسام" !التي هى أشهر ما نقل عنه فى هذا المجال؟! ٢ - قوله: و أدخل من هذا فى بعد هشام بن الحكم عن التجسيم المادى لله، ما ذكره على بن إبراهيم القمى...

أقول: فلما ذا لم يعتمد الكاتب و أمثاله على هذه الروايه لتكون أساسا واضحا لرأى هشام فى التجسيم، فينفوا عنه التجسيم المعنوى مطلقا، و هو مدلول مقولته "جسم لا كالأجسام" كما أوضحناه؟! و الكاتب لم يهمل هذه الروايه فقط بل خالفها و نسب إلى هشام القول بان "الماده المعينه إلهيه" لا تدرك بالحواس، كما نقلنا كلامه عن مجله "الايمان" النجفيه.

٣ - قوله: و قد حاول الشيعة - قدماء و محدثين - أن ينفوا عن هشام بن الحكم القول بالجسميه، بكل ما أوتوا من قوه، غير أن الحججه أعيتهم! أقول: إن الكاتب لم يحاول - أولا - إثبات القول بالجسميه على هشام من طريق الشيعة، حتى تصح له مطالبتهم بحججه على النفى. فانا لم نجد عند الشيعة نسبه التجسيم المطلق إلى هشام و أنه قال بالجسميه المعنويه، حتى يحتاجوا فى نفيها عنه إلى حججه، بل غايه ما فى الأمر أن الخصوم - و خاصه المعتزله - اتهموا هشاما باشكال من التجسيم، و قد يتناقضون فى ما نسبوه إليه، و إن كان أقوى و أصرح ما نسبوه هو القول "بجسم لا كالأجسام".

و قد أجمع كافه أهل الفرق على عدم دلالة ذلك على التجسيم المعنوى، بل غايه ما يفيدوه هو التجسيم اللفظى و الاسمى، كما فصلناه.

فمن أين جاء جزم الكاتب و أمثاله بثبوت القول بالتجسيم لهشام، حتى يحتاج لنفيه إلى حججه؟! ٤ - قوله: و من هنا اعترف الشيخ المفيد بقوله بالجسميه.

أقول: هذا من موارد تحريف الكاتب و أستاذه للحقيقه، حيث نقلوا عن الشيخ المفيد هذا الاعتراف، بينما كلامه لا يدل على ذلك، فهو فى هذا الصدد يقول: و إنما خالف هشام بن الحكم كافه أصحاب أبى عبد الله ع بقوله فى الجسم (١) و معناه: أن لهشام قولاً فى "الجسم" مخالفاً به الآخرين، و هذا القول فى الجسم، هو ما اصطلحه فيه من إرادته "الشيء" منه.

فأين هذا من القول بالجسميه؟! و إذا كان النشار - المصرى، أستاذ الكاتب - إلى هذا الحد من الجهل باللغه العربيه، فليس له الحق بالتدخل فى معالجه كلمات العلماء، فهو لا يميز الفرق بين "القول فى الجسم" و "القول بالجسم"! ٥ - قوله: و قرن الشيعة ذلك بحكايتهم رجوع هشام عنها، و كان ذلك غايه ما بذلوه من جهد.

أقول: إن حكايه الشيعة للرجوع ليس لما توهمه الكاتب من ثبوت اعتقاد هشام بالتجسيم، و إنما ذلك من جهه مخالفه هشام للحق فى ما التزمه بالنسبه إلى إطلاق اسم الجسم على البارئ، مع أنه لم يرد ذلك فى الشرع، فأسماء الله تعالى توقيفيه. كما سيأتى بيان ذلك فى الفقره التاليه.

٦ - قوله: و ذكر الشيخ عبد الله نعمه.

أقول: قد ذكرنا ملاحظتنا على أقوال الشيخ، فى كتابه.

٧ - قوله: و كذلك فعل الدكتور...

أقول: لم يكن هذا الدكتور بصدد التحقيق و التدقيق فيما يثبته، بل هو يحاول جمع ما فى المصادر و سردها تباعا من دون نقد لها، فليس ذكرها دليلا على قبول أو رد.

٨ - قوله: و قد أخذ الأستاذ توفيق الفكيكى....

أقول: يكفى فى فضل الأستاذ الفكيكى أنه قد نبهك على بعض أوهامك، و خاصة فى نسبتك إلى الشيخ المفيد الاعتراف بان هشاما قال بالجسميه، و لكنك أبيت التنبه إلى أن المفيد لم يعترف بمثل ذلك، و أنه إنما نسب إلى هشام خلافا فى التجسيم اللفظى فقط.

و لقد تقاعست عن الرجوع إلى المصادر إلى حد أنك تقول: من الغريب أن تهمة التجسيم لم تنف عن هشام على أيدي الشيعة، و إنما فعل ذلك أهل السنه، فابو الحسن الأشعري، و ابن حزم الظاهري، قدما ماده الكلاميه لهذه البراءه! إن تهمة التجسيم، و بالصوره التى نسبتها أنت و سلفك العامه إلى هشام، لم ترد فى شىء من المصادر الموثوقه عند الشيعة، حتى يكونوا بحاجة إلى نفيها، فأنت تغالط بهذه العبارة، و تريد أن تظهر أن الشيعة قد وافقوا على أصل التهمه و لكنهم لم ينفوها! بل تزعم أن الشيخ المفيد اعترف بها! و كأنك قد فرغت من هذا الإثبات و أنت منتظر للنفي منهم.

كلا، فان من أثبت التهمه ضد هشام ليس إلا خصومه، ممن لم يتقوا الله فى شىء، و ليسوا أمناء على شىء، بل كلماتهم متضاربه و متناقضه إلى حد السقوط، و لم يثبت شىء من تلك الاتهامات ضد هشام بطريق واحد من علماء الشيعة، سوى أنه أطلق مقوله "جسم لا كالأجسام" التى لم تدل على ما نسب إليه، بل دلت على التنزيه و التوحيد.

و قد اعترف جميع أهل المقالات بان المقوله لا تدل على التجسيم المعنوى المؤدى إلى الكفر، و فى مقدمتهم كبار الشيعة القدماء، و أعظم الشيعة المتأخرين.

فظهر أن ماده الكلاميه لبراءه هشام موجوده فى مقولته، و فى اصطلاحه فى "الجسم" أنه بمعنى "الشىء" و ليس أول من قدمها هم العامه، بل إنهم هم أول من قدم التهمه ضد هشام و أعلنوها عليه حربا شعواء، مبناها الاتهام الباطل، و التحريف للحقائق.

و إذا وجب أن يحاسب أحد فى هذا المجال، فهم هؤلاء الذين ملئوا صحفهم باتهام هشام، و ذكروا فى حقه خرافات لا يفوه بها ملى فضلا عن مسلم موحد مثل هشام، مع وقوفهم على مصطلح هشام فى "الجسم" الذى يصلح أساسا لبراءته عن وصمه "التجسيم".

و لو كانوا يعتقدون - حقا - ببراءه هشام، لما تناقلوا كل تلك الاتهامات الشنيعه، أو لتراجعوا عنها بكلمه.١.

و العجيب أن الكاتب لا يحاسبهم على تصرفاتهم المشبوهه هذه، و يريد أن يحاسب الشيعة - ظلما - على ما لم يقصروا فيه! ٩ -
قوله: و الدكتور سامى النشار وضعها على أساس منطقي فلسفي مؤداه "إن الفعل لا يصح إلا من جسم، و الله فاعل فوجب أنه
جسم" و أن معنى "الجسم" أنه "موجود" ...إلى آخره.

أقول: ليس الدكتور النشار هو الذى وضع هذا الأساس لنظريه هشام، بل هشام نفسه وضع هذا الأساس و استدل به على
اصطلاحه فى "الجسم" بمعنى "الشيء" و "الموجود"، كما ذكرناه سابقا مفصلا، و قد تناقلته المصادر القديمه.

و هذا دليل آخر على تقصير الكاتب فى تتبعه، و خاصه للمصادر القريبه منه، و اعتماده الأساسى على فكر الغربيين و أعداء
التشيع، و إلا فهذا كتاب الكشى من المصادر الأصليه، و كذلك كتاب "التوحيد" للشيخ الصدوق، و هو فى متناول يده، و
يحتوى على أهم ما يرتبط بالموضوع، فلما ذا يتركه و يلجا إلى كلمات النشار و أمثاله.

و لئن أخفى النشار مصدره الذى استقى منه هذه الفكره الفلسفيه، فان وجود ذلك لا بد أن يكون مدعاه للكاتب إلى أن
ينصرف عن إصراره على أن يجعل من هشام رجلا- يقول بالتجسيم للبارئ، بمعنى اعتبار ماده المعينه إلهيه، لا- تدرک
بالحواس، كما انتهى إليه فى مجله "الايان" النجفيه.

٨ - موقف الأئمه من مقوله هشام:

إن لأئمه أهل البيت ع مواقف حاسمه فى الدفاع عن الحق، و بيان الحقيقه، و فى خصوص مجال التوحيد و التنزيه، و قد أفصحوا
عن ذلك بأقوال صريحه، قاطعه، محكمه، جمعتها صحف أصحابهم، و مؤلفات أوليائهم، و حفظتها صدور قوم مؤمنين، و هم
يتلونها على المنابر، و فى المجالس، على ألسنه المبلغين رسالات الله، فتطمئن بها قلوب رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

فهذا رسول الله ص يقول - و هو يخاطب الذين قالوا: إن الله يحل فى هياكل رجال كانوا على هذه الصور -: أخطاتم الطريق و
ضللتم، أما أنتم فقد وصفتم ربكم بصفه المخلوقات! أ و يحل ربكم فى شيء، حتى يحيط به ذلك الشيء؟! فإى فرق بينه - إذن
- و بين سائر ما يحل فيه من لونه، و طعمه، و رائحته، و لينه، و خشونته، و ثقله، و خفته؟! و لم صار هذا المحلول فيه محدثا، و
ذلك قديما، دون أن يكون ذلك محدثا و هذا قديما؟(١) و هذا أمير المؤمنين الامام على ع قد سبق كل الموحدین فى التوحيد
الكامل، و التنزيه الشامل، فى خطبه و بياناته، و المعتزله - المدعون للسبق فى ذلك - اعترفوا بان خطب الامام ع فى بيان التشبيه
و إثبات العدل أكثر من أن تحصى.

قال يحيى بن حمزه العلوى - من أئمه الزيديه -: و أعظم كلامه ما حواه كتاب "نهج البلاغه" و قد تواتر نقله عنه، و اتفق الكل
على صحته، و قد أورد فيه من الترغيب و الترهيب، و التخويف و التقريب، و المواعظ و الزجر، و خلاص التوحيد، و صريح
التنزيه، و لطائف الحكم، و مغاصات الأفهام، ما يبهر القرائح، و تحار فى إتقانه العقول، و يذهل الفهم(٢) فمن خطبه له:

أول الدين معرفته، و كمال معرفته التصديق به، و كمال تصديقه توحيده، و كمال توحيده الإخلاص له، و كمال الإخلاص له
نفى الصفات عنه لشهاده كل صفه أنها غير الموصوف، و شهاده كل موصوف انه غير الصفه، فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه، و
من قرنه فقد ثناه، و من ثناه فقد جزأه، و من جزأه فقد جهله، و من أشار إليه فقد حده، و من حده فقد عده، و من قال: فيم؟ فقد

ضمنه، و من قال: علام؟ فقد أخلى منه، كائن لا عن حدث، موجود لا عن عدم، مع كل شيء لا بمزايله(٣)و

فى خطبه أخرى: الحمد لله الذى لا يموت، و لا تنقضى عجائبه... و لم تقع عليه الأوهام فتقدره شبها مائلا، و لم تدركه الأبصار فيكون بعد انتقالها حائلا... (٤)

و

فى ثالثه: الحمد لله الذى لا- تدركه الشواهد، و لا- تحويه المشاهد، و لا تراه النواظر، و لا تحيط به السواتر، الدال على قدمه بحدوث خلقه، و بحدوث خلقه على وجوده، و باشتباههم على ألا شبه له (٥)و

قال الامام على بن الحسين زين العابدين ع: من كان ليس كمثلته شيء، و هو السميع البصير، كان نعتة لا يشبه نعت شيء فهو ذاك (٦)و

قال ع: إلهى يدك قدرتك، و التقدير على غير ما به وصفوك، و إنى برىء يا إلهى من الذين بالتشبيه طلبوك، ليس كمثلك شيء إلهى، و لن يدركوك، و ظاهر ما بهم من نعمك دليلهم عليك لو عرفوك، و فى خلقك يا إلهى مندوحة أن يتناولوك، بل سووك بخلقك، و من ثم لم يعرفوك، و اتخذوا بعض آياتك ربا فبذلك وصفوك، تعاليت عما به المشبهون نعتوك (٧)و

قال الامام جعفر بن محمد الصادق ع - فى جواب من قال:

ما هو؟ -: هو شيء بخلاف الأشياء، أرجع بقولى " شيء " إلى إثبات معنى، و أنه " شيء " بحقيقته الشئيه، غير أنه: لا جسم، و لا صوره، و لا- يحس، و لا- يجس، و لا يدرك بالحواس الخمس، لا تدركه الأوهام، و لا تنقصه الدهور، و لا يغيره الزمان... هو سميع بصير، سميع بغير جارحه، و بصير بغير آله.

و قد روى هذا الحديث: هشام بن الحكم (٨)و

فيما قرره الامام على بن محمد الهادى ع من الدين، الذى عرضه عليه عبد العظيم الحسنى: إن الله تبارك و تعالى واحد، ليس كمثلته ٥.

ص: ٢٣٥

١- الاحتجاج - للطبرسى -: ٢٧.

٢- مشكاه الأنوار - للعلوى -: ٥-١٧٦.

٣- نهج البلاغه: ٢٣٩-٤٠، الخطبه ١، و الاحتجاج - للطبرسى -: ١٩٩، و انظر: مشكاه الأنوار: ١٧٧.

٤- التوحيد - للصدوق -: ٣١.

٥- نهج البلاغه: ٢٦٩ الخطبه ١٨٥، مشكاه الأنوار: ١٧٦.

٦- بلاغه الامام على بن الحسين ع: ١٦.

٧- بلاغه الامام على بن الحسين ع: ١٧.

٨- التوحيد - للصدوق -: ٢٤٤-٢٤٥.

شئ، خارج عن الحدين: حد الابطال و حد التشبيه، و إنه ليس بجسم و لا صوره و لا عرض و لا جوهر، بل هو مجسم الأجسام، و مصور الصور، و خالق الأعراض و الجواهر، و رب كل شئ(1)و

قال الامام على بن موسى الرضا ع... لا تضبطه العقول، و لا تبلغه الأوهام، و لا تدركه الأبصار، و لا يحيط به مقدار، عجزت دونه العبارة، و كلت دونه الأبصار، و ضل فيه تصارييف الصفات، احتجب بغير حجاب محجوب، و استتر بغير ستر مستور، عرف بغير رؤيه، و وصف بغير صورته، و نعت بغير جسم، لا إله إلا الله، الكبير المتعال(2)و

قال الامام الصادق ع... تعالى الله عما يصفه الواصفون المشبهون الله تبارك و تعالى بخلقه، المفترون على الله... فانف عن الله البطلان و التشبيه، فلا نفى، و لا تشبيه، هو الله، الثابت الموجود، تعالى الله عما يصفه الواصفون... (3)

و الشيعة استهدوا بهدى أئمتهم ع فى ذلك، فهم يعتقدون بالتوحيد الكامل، و التنزيه الخالص، للخالق تعالى، عن كل تجسيم أو شبه بخلقه.

كما أنهم يقولون بتوقيفيه أسمائه تعالى، فلا يطلقون اسما عليه تعالى إلا ما ورد به الشرع المقدس.

قال الصدوق: أسماء الله تبارك و تعالى لا تؤخذ إلا عنه أو عن رسول الله ص، أو عن الأئمة الهداه ع(4) و قال الشيخ المفيد: لا يجوز تسميه البارئ تعالى إلا بما سمى نفسه فى كتابه، أو على لسان نبيه ص، أو سماه به حججه من خلفاء نبيه ع، و كذلك أقول فى الصفات، و عليه تطابقت الأخبار من آل محمد ص، و هو مذهب جماعه من الاماميه و كثير من الزيديه(5) و قد خالف الجبائى - من المعتزله - فى ذلك، فكان يزعم أن العقل إذا دل على أن البارئ عالم، فواجب أن نسّميه عالما، و إن لم يسم نفسه بذلك، إذا دل على المعنى، و كذلك فى سائر الأسماء.

و خالفه البغداديون - من المعتزله - فزعموا أنه لا يجوز أن نسّمى الله عز و جل باسم قد دل العقل على صحه معناه إلا أن يسمى نفسه بذلك(6) و قد كانت هذه المسأله بالخصوص سببا لانفصال أبى الحسن الأشعري عن المعتزله، حيث ناظر أستاذه الجبائى فيها، فقال الأشعري: إن طريقي فى ماخذ أسماء الله الاذن الشرعى، دون القياس اللغوى(7) و بهذا انضم الأشاعره إلى غيرهم من المسلمين فى توقيفيه الأسماء. و قد ذكر الغزالى فى هذا الباب تفصيلا، و هو يتحدث عن اسم "الجسم" و هذا نصه:

ندعى: أن صانع العالم ليس بجسم، لأن كل جسم فهو متالف من جوهرين متحيزين... و نحن لا نعى بالجسم إلا هذا.

فان سماه "جسما" و لم يرد هذا المعنى، كانت المضايقه معه بحق اللغه، أو بحق الشرع، لا بحق العقل: فان العقل لا يحكم فى إطلاق الألفاظ و نظم الحروف و الأصوات التى هى اصطلاحات(8) و قال فى موضع آخر: العقل عندنا لا يوجب الامتناع من إطلاق الألفاظ، و إنما يمنع عنه: إما لحق اللغه، و إما لحق الشرع:

أما حق اللغه: فذلك إذا ادعى أنه موافق لوضع اللسان، فيبحث عنه، فان ادعى واضعه له أنه اسمه على الحقيقه، أى واضع اللغه وضعه له فهو كاذب على اللسان، و إن زعم أنه استعاره، نظرا إلى المعنى الذى به شارك المستعار منه، فان صلح للاستعاره لم ينكر عليه بحق اللغه، و إن لم يصلح قيل له: أخطأت على اللغه، و لا- يستعظم ذلك إلا- بقدر استعظام صنيع من يبعد فى

الاستعارة، و النظر فى ذلك لا يلىق بمباحث المعقول.

و أما حق الشرع، و جواز ذلك و تحريمه، فهو بحث فقهى يجب طلبه على الفقهاء، إذ لا- فرق بين البحث عن جواز إطلاق الألفاظ من غير إرادته معنى فاسد، و بين البحث عن جواز الأفعال.

و فيه رأيان:

أحدهما: أن يقال: لا يطلق اسم فى حق الله تعالى إلا بالأذن، و هذا لم يرد فيه إذن.

و ثانيهما: أن يقال: لا يحرم إلا بالنهى، و هذا لم يرد فيه نهى.

فينظر: فان كان يوهم خطأ، فيجب الاحتراز منه، لأن إيهام الخطأ فى صفات الله تعالى حرام.

و إن لم يوهم خطأ لم يحكم بتحريمه.

فكلا الطريقتين محتمل.

ثم الإيهام يختلف باللغات و عادات الاستعمال، فرب لفظ يوهم عند قوم، و لا يوهم عند غيرهم (9) و أجمع ما رأيت بهذا الصدد ما ذكره الشيخ الشهيد، و نقله الكفعمى، و هذا نصه: هنا فائده يحسن بهذا المقام أن نسفر قناعها، و نحدر لفاعها، و هى:

أن الأسماء التى ورد بها السمع، و لا شىء منها يوهم نقصا يجوز إطلاقها على الله تعالى إجماعا.

و ما عدا ذلك، فأقسامه ثلاثة:

الأول: ما لم يرد به السمع و يوهم نقصا فيمتنع إطلاقه على الله تعالى إجماعا، كالعارف، و العاقل، و الفطن، و الذكى. لأن المعرفة قد تشعر بسبق فكره، و العقل هو المنع عما لا يلىق، و الفطنة و الذكاء يشعران بسرعه ١.

ص: ٢٣٦

١- التوحيد - للصدوق -: ٨١.

٢- التوحيد - للصدوق -: ٩٨.

٣- التوحيد - للصدوق -: ١٠٢ ح ١٥.

٤- التوحيد - للصدوق -: ٣٠٠ رقم ٦.

٥- أوائل المقالات: ٥٨.

٦- مقالات الإسلاميين ١٨٥/٢.

٧- مذاهب الإسلاميين ٥٠١/١.

٨-الاقتصاد - للغزالي :- ٢١.

٩-الاقتصاد - للغزالي :- ٢٠-٢١.

الإدراك لما غاب عن المدرك.

و كذا المتواضع: لأنه يوهم الذله، و العلامه: لأنه يوهم التأنيث، و الدارى: لأنه يوهم تقدم الشك.

و ما

جاء فى الدعاء من قول الكاظم ع - فى دعاء يوم السبت - "يا من لا يعلم و لا يدرى كيف هو؟ إلا هو" يوهم (1) جواز هذا، فىكون مرادفا للعلم.

الثانى: ما ورد به السمع، و لكن إطلاقه فى غير مورده يوهم النقص، فلا يجوز، كان يقول: يا ماكر، و يا مستهزئ، أو يحلف به. قال الشهيد رحمه الله فى قواعده: و منع بعضهم أن يقول: "اللهم امكر بفلان" و قد ورد فى دعوات المصباح: "اللهم استهزئ به و لا تستهزئ بى".

الثالث: ما خلا عن الإيهام، إلا أنه لم يرد به السمع، كالنجى، و الأريحي.

قال الشهيد رحمه الله: و الأولى التوقف عما لم يثبت التسميه به، و إن جاز أن يطلق معناه عليه (2) إذا عرفت ذلك، فنقول:

قال الشيخ نصير الدين أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسى فى فصوله:

كل اسم يليق بجلاله، و يناسب كماله مما لم يرد به إذن يجوز إطلاقه عليه تعالى، إلا أنه ليس من الأدب، لجواز أن لا يناسبه تعالى من وجه آخر (3) قلت: فعنده يجوز أن يطلق عليه الجوهر، لأن الجوهر قائم بذاته، غير مفتقر إلى الغير، و الله تعالى كذلك.

و قال الشيخ على بن يوسف بن عبد الجليل فى كتابه "منتهى السئول": لا يجوز أن يطلق على الواجب تعالى صفة لم يرد فى الشرع المطهر إطلاقها عليه، و إن صح اتصافه بها معنى، كالجوهر، مثلا، بمعنى القائم بذاته، لجواز أن يكون فى ذلك مفسده خفيه لا- نعلمها، فإنه لا يكفى فى إطلاق الصفة على الموصوف ثبوت معناها له، فان لفظتى: "عز" و "جل" لا يجوز إطلاقهما على النبى ص و إن كان عزيزا جليلا- فى قومه، لأنهما يختصان بالله تعالى، و لو لا- عناية الله و رأفته بعباده، فى إلهام أنبيائه أسماءه، لما جسر أحد من الخلق و لا يهيم، فى إطلاق شىء من هذه الأسماء و الصفات عليه سبحانه.

قلت: هذا القول أولى من قول صاحب "الفصول" المتقدم آنفا، لأنه إذا جاز عدم المناسبه - و لا ضروره داعيه إلى التسميه - و جب الامتناع ما لم يرد به نص شرعى من الأسماء، و هذا معنى قول العلماء: "إن أسماء الله تعالى توقيفيه" أى موقوفه على النص و الاذن الشرعى (4) و أما موقف هشام من مسأله الأسماء: و بعد أن عرفنا أن هشاما لم يخالف الحق فى مسأله التوحيد و التنزيه، و لكنه كان له رأى خاص فى كلمه "الجسم" حيث كان يطلقها على البارئ تعالى على معنى "شىء موجود" فى مقولته: "جسم لا كالأجسام" فهى عنده بمعنى "شىء لا كالأشياء"، فخلافه منحصر فى إطلاق اسم "الجسم" على البارئ من دون إرادته معناه المعروف.

و عرفنا - أيضا - أن أعلام الشيعة و كافة الفرق الإسلاميه اعترفوا بعدم دلاله هذه المقوله على التجسيم المعنوى لله تعالى.

لكن، بما أن الحق فى الأسماء أنها توقيفيه، فلا- يجوز إطلاق أى اسم على البارئ تعالى إلا بتوقيف، و ورود إذن من الشرع بذلك، و قد اتفقت كلمه المسلمين، إلا من شذ، على ذلك كما ذكرنا.

و قد تفرد هشام من بين الطائفة بمخالفته فى كلمه "الجسم" حيث اصطلح لها معنى "الشيء" فأطلقها على البارئ تعالى فى مقولته.

فأصبح لذلك موردا للنقد الشديد من قبل الأئمة ع و العلماء، و تركز نقدهم له على هذه النقطة بالذات، يعنى مخالفته للطائفة فى إطلاق الاسم على البارئ تعالى، كما قال المفيد: كان هشام بن الحكمشيعيا و إن خالف الشيعة كافة فى أسماء الله تعالى (٥).

ففى حديث محمد بن الفرغ الرخجى، قال: كتبت إلى أبى الحسن ع، أسأله عما قال هشام بن الحكم فى "الجسم"؟ و هشام بن سالم فى "الصورة"؟.

فكتب ع: دع عنك حيره الحيران، و استعذ بالله من الشيطان، ليس القول ما قال الهشامان(٦)فالملاحظ أن المنسوب إلى هشام فى كلام الراوى هو "القول فى الجسم" لا- "القول بالجسم" - و معناه: أن له مقاله فى لفظ "الجسم" و أنه يعنى به غير ما هو المفهوم المتعارف منه.

و إلا، فالذى يقول بالتجسيم الاعتقادى، فهو يقول: إنه جسم كالأجسام، بينما هشام يقول: إنه لا كالأجسام.

و الحاصل: أن الفرق واضح بين القول فى الجسم، و بين القول بالجسم، كما أشرنا سابقا.

و يمكن استفاده التركيز على هذه الجهه - أى كون خلاف هشام فى مسأله اللفظ - من قول الامام ع: "ليس القول ما قال الهشامان" حيث جعل التركيز فى النفى على القول، فلاحظ.

و يدل على أن الروايات المتهمجه على هشام، إنما تنظر إلى قضيه مخالفه هشام فى الأسماء و اللفظ، أنها احتوت على المقوله، ثم عقب فيها الامام ع بما ذكره عن التجسيم، كما فى

حديث الحماني قال: قلت لأبى الحسن موسى بن جعفر ع: إن هشام بن الحكم زعم: أن الله "جسم، ليس كمثل شىء" عالم، سميع، بصير، قادر، متكلم، ناطق، و الكلام و القدره و العلم تجرى مجرى واحدا، ليس شىء منها مخلوقا. ٢.

ص: ٢٣٧

١- كلمه "يوهم" ساقطه من نسخه المصباح، و وارده فى قواعد الشهيد.

٢- القواعد و الفوائد: ١٧٦/٢-١٧٨.

٣- الفصول النصيريه: ١٧-١٨.

٤- المصباح - للكفعمى :- ٨-٣٣٩.

٥- أوائل المقالات: ٤٣.

٦- التوحيد - للصدوق :- ٩٧ ح ٢.

فقال: قاتله الله، أما علم أن الجسم محدود، والكلام غير المتكلم، معاذ الله وأبرأ إلى الله من هذا القول، لا جسم، ولا صورته، ولا تحديد، وكل شيء سواه مخلوق، وإنما تكون الأشياء بإرادته ومشيئته من غير كلام، ولا تردد في نفس، ولا نطق بلسان(١).

فإن المقوله على مصطلح هشام لا تدل على التجسيم المعنوي، كما أثبتنا مفصلاً، فلا يكون كلام الامام ع متوجهاً إلى هذه الجهة، بل إلى جهة المخالفه في كلامه، وهي مشكله إطلاقه اسم الجسم على البارئ تعالى.

و كذلك

روايه يونس بن ظبيان، قال: دخلت على أبي عبد الله ع فقلت له: إن هشام بن الحكم يقول قولاً عظيماً، إلا أنني أختصر لك منه أحرفاً، يزعم: أن الله جسم، لأن الأشياء شيان: جسم وفعل الجسم، فلا يجوز أن يكون الصانع بمعنى الفعل، ويجوز أن يكون بمعنى الفاعل.

فقال أبو عبد الله ع: ويله، أما علم أن الجسم محدود متناه، والصوره محدوده متناهيه، فإذا احتمل الحد احتمال الزيادة والنقصان، وإذا احتمل الزيادة والنقصان كان مخلوقاً.

قال: قلت: فما أقول؟ قال: لا جسم، ولا صورته، وهو مجسم الأجسام، ومصور الصور، لم يتجزأ، ولم يتناه، ولم يتزايد، ولم يتناقض(٢) لو كان كما يقول، لم يكن بين الخالق والمخلوق فرق، ولا بين المنشئ والمنشأ، لكن هو المنشئ، فرق بين من جسمه وصوره وأنشاه، إذ كان لا يشبهه شيء، ولا يشبه شيئاً(٣) فكلام الامام ع "ويله... إلى آخره" مذكور بعد دليل مصطلح هشام الذي هو الأساس لمقولته، وقد عرفنا أن المقوله لا تدل إلا على التجسيم اللفظي والاسمي، فمقصود الامام ع الاستنكار على هشام أن يستعمل كلمه الجسم - ولو على مصطلحه - اسماً للبارئ تعالى، مع أن المفهوم العرفي العام للكلمه هو المحدود المتناهي! و

روايه الصقر بن أبي دلف، قال: سألت أبا الحسن (الهادي) على بن محمد بن علي بن موسى الرضاع عن التوحيد، وقلت له: إنني أقول بقول هشام بن الحكم؟ فغضب ع ثم قال: ما لكم ولقول هشام! إنه ليس منا من زعم أن الله عز وجل "جسم" ونحن منه براء في الدنيا والآخرة.

يا بن أبي دلف: إن الجسم محدث، والله محدثه ومجسمه(٤) حيث جعل المدار فيها على "قول هشام" وقد عرفنا أن قوله هو التجسيم الاسمي دون المعنوي.

ولعل ما ورد في الروايات من نسبه القول بالجسم (بنحو مطلق) إلى هشام، من أثر عدم درك بعض الرواه لمقوله هشام بشكلها الدقيق وتصورهم أنه يقول بالتجسيم المنصرف إلى الحقيقي، وعرضهم ذلك على الأئمه ع، فكان ذلك يستدعي هجوم الأئمه على ذلك، وعلى المنقول عنه الذي هو هشام(٥) وكذلك يمكن حمل الروايات المتضمنه لاختلاف الأصحاب في الجسم والصوره، على تنازعهم في إطلاق لفظي "الجسم" أو "الصوره" عليه تعالى لا القول بأنه جسم أو صورته(٦) لوضوح كون هذا القول كفراً مخرجاً عن المله، فكيف يمكن أن يقع في الطائفة نزاع كبير في ذلك، وهو لم ينقل عن أحد من رجال الشيعة، كما

نقل عن بعضهم القول بإطلاق اسم "الجسم".

ثم إن روايه نقلها الكشي، تحدث فيها عن مخاصمه جمع من كبار الأصحاب فيما اختلفوا فيه من التوحيد و صفه الله عز و جل، فكتب أحدهم إلى أبي الحسن موسى الكاظم ع يحكى له مخاطبتهم و كلامهم و يسأله أن يعلمه: ما القول الذى ينبغى أن ندين الله به من صفه الجبار؟ فأجابه فى عرض كتابه: إن الله أجل و أعلى و أعظم من أن يبلغ كنه صفته، فصفوه بما وصف به نفسه، و كفوا عما سوى ذلك (٧) فالظاهر من السؤال و الجواب، هو أن البحث و المناظره و الخلاف الواقع بين الأصحاب إنما كان فى إطلاق الصفات على الله تعالى.

و هذا القدر من تصرف هشام، فى لفظ "جسم" و لو بالتواضع و الاصطلاح لم يكن مستساغاً من شخصيه علميه عظيمه مثل هشام، لأن شخصاً مقتدراً قد تسنم القمه السماء فى علم الكلام، و المناظره، و هو منسوب إلى مذهب الشيعة، مذهب أهل البيت ع لا- بد أن لا- يغفل عن أن الأعداء مترصدون له و لأمثاله من أنصار الحق، لاقتناص أليه كلمه، ليقيموا الدنيا و لا يقعدوها، و يجعلوا من الحبه قبه - كما يقول المثل - و يغروا بنا كلابهم، و يثيروا علينا غوغاءهم، و يتهموا كل الطائفه، من أولها إلى آخرها، حتى الأئمه الأطهار سلام الله عليهم دعائم العدل و التوحيد.

فكان لا بد لهشام أن يتأبى من استعمال هذه الكلمه لأنها مدعاه لاتهامه بالتجسيم، و مغريه للجمله بالهجوم عليه، و على الطائفه التى ينتمى إليها.

فمع أنا عرفنا أن المقوله "جسم لا كالأجسام" ليست إلا دليلاً على التنزيه، نافيه لحد التعطيل و حد التشبيه، و بالرغم من اعتراف كافه الفرق الإسلاميه بأنها لا- تدل على التجسيم الحقيقى، و إن دلت على التجسيم اللفظى الاسمى، فمع كل هذا نجد أن أصحاب الفرق قد حاكوا تلك الحكايات البشعه ضد هشام و نسبوها إليه زورا و بهتاناً، و اختلفوا مذهباً و همياً نسبوه إليه باسم "الهشاميه"، إلى آخر الترهات التى يندى لها الجبين.

فلأجل مثل هذه الغفله من هشام، هذه الغفله التى سببت للأئمه ع هذه المشاكل، و للطائفه هذه العراقيل و الاتهامات، مما كانت فى غنى عنه، لجا الأئمه ع إلى توجيه العتاب الشديد إلى هشام .

ص: ٢٣٨

- ١- التوحيد - للصدوق :- ١٠٠ ح ٨
- ٢- إلى هنا أورد المفيد فى الحكايات: ١٣٢.
- ٣- التوحيد - للصدوق :- ٩٩ ح ٧.
- ٤- التوحيد - للصدوق :- ١٠٤ ح ٨.
- ٥- التوحيد - للصدوق :- ٩٨ ح ٤ و ٩٩ ح ٦.
- ٦- التوحيد - للصدوق :- ١٠٠ ح ٩ و ١٠١ ح ١٢ و ١٣ و ١٤.

٧- اختيار معرفه الرجال: ٢٧٩-٢٨٠ ح ٥٠٠.

و محاسبته على ذلك حسابا عسيرا، دفعا للاتهامات الواردة على الشيعة.

كما أن ما ذكره الأئمة ع فيه توجيه للأئمة إلى الحق في عقيدة التوحيد، و نفي التجسيم عن ساحه عقيدتهم، و في كثير منها توجيه بشكل أو آخر إلى أن فعل هشام إنما كان مصطلحا خاصا به، و أن إطلاقه كلمه "الجسم" كان على خلاف رغبه الشارع و إذنه، دون أن يكون له قول بالتجسيم الحقيقي.

و مهما يكن سبب تصرف هشام هذا، و سبب صدور هذه المقوله منه، فان تسيبها لمشاكل على الطائفة مما لا يرتاب فيه، و هي زله منه بلا ريب.

إلا أن من الأعلام من يعتقد أنه قد رجع حتى عن التجسيم بالاسم.

قال الشيخ المفيد: و قد روى أنه رجع عن القول بعد ذلك (١) و قال الكراجكي: و أما موالاتنا هشاما فهي لما شاع منه و استفاض من تركه القول بالجسم الذي كان ينصره، و رجوعه عنه، و إقراره بخطئه فيه، و توبته منه (٢) و قد يؤيد هذا بما

روى عن هشام بن الحكم أنه سال أبا عبد الله ع عن أسماء الله عز و جل و اشتقاقها؟ فقال له: "الله" مشتق من "إله" و "إله" يقتضى مالوها، و الاسم غير المسمى، فمن عبد الاسم دون المعنى فقد كفر و لم يعبد شيئا، و من عبد الاسم و المعنى فقد أشرك و عبد الاثنين، و من عبد المعنى دون الاسم فذاك "التوحيد".

أفهمت يا هشام.

قال: قلت: زدنى.

قال: لله عز و جل تسعة و تسعون اسما، فلو كان الاسم هو المسمى لكان كل اسم منها هو إلهها، و لكن الله عز و جل معنى يدل عليه بهذه الأسماء و كلها غيره.

يا هشام، الخبز اسم للمأكل، و الماء اسم للمشروب، و الثوب اسم للملبوس، و النار اسم للمحرق.

أفهمت يا هشام فهما تدفع به عنا و تنافر أعداءنا و الملحدين في الله و المشركين مع الله عز و جل غيره.

قلت: نعم.

فقال: نفعك الله به، و ثبتك، يا هشام.

قال هشام: فو الله ما قهرنى أحد فى التوحيد حينئذ حتى قمت مقامى هذا (٣) و لا يظن بهشام: أن يكون بعد هذا الحديث الشريف ممن يصر على القول فى التجسيم بمصطلحه الخاص، أى التجسيم اللفظى الاسمى.

و كذلك دعاء الامام ع له بالثبات، فان ذلك لا- يمكن أن يكون لمن يخالف النصوص و يلتزم بالتجسيم اللفظى المخالف

لمسأله توقيفيه الأسماء، كما شرحناه.

مضافا إلى أن ما ورد في مدح هشام على لسان الأئمة و العلماء حتى المعاصرين يدل على عظمه هشام، و قوته في العلم و العمل، بما لا يصح معه فرض مخالفته في أمر الأسماء إلى حد العتاب! فهذا المدح يكشف عن رجوعه إلى الحق حتى في أمر الأسماء، ذلك الموضوع الذي أدى إلى حرازه استنكرت على هذا المفكر العملاق، فبرأ بالتوبه المنقوله ساحته عن كل تهمة و شبهه.

و قد أفصحت نصوص مادحه له عن أكثر من ذلك:

فقد قال المفيد: هشام بن الحكم كان من أكبر أصحاب أبي عبد الله جعفر بن محمد ع، و كان فقيها، و روى حديثا كثيرا، و صحب أبا عبد الله ع و بعده أبا الحسن موسى ع، و بلغ من مرتبته و علوه عند أبي عبد الله جعفر بن محمد ع، أنه

دخل عليه بمنى، و هو غلام، أول ما اختط عارضاه، و في مجلسه شيوخ الشيعة... فرفعه على جماعتهم، و ليس فيهم إلا من هو أكبر سنا منه، فلما رأى أبو عبد الله ع أن ذلك الفعل قد كبر على أصحابه قال: هذا ناصرنا بقلبه، و لسانه، و يده(٤)و

روى المفيد عن الصادق ع أنه قال لهشام: مثلك من يكلم الناس(٥)و قال المرتضى: و مما يدل على براءة هشام من هذه التهم:.... ما

روى عن الامام الصادق في قوله ع: هشام بن الحكم رائد حقنا، و سابق قولنا، المؤيد لصدقنا، و الدماغ لباطل أعدائنا، من تبعه و تبع أثره تبعنا، و من خالفه، و ألحد فيه فقد عادانا و ألحد فينا(٦)و قال ابن النديم: هشام بن الحكم... من جله أصحاب أبي عبد الله جعفر بن محمد ع، و هو من متكلمي الشيعة الاماميه، و بطائنتهم، و

ممن دعا له الصادق ع، فقال: أقول لك ما قال رسول الله ص لحسان، لا تزال مؤيدا بروح القدس ما نصرتنا بلسانك" (٧)و في هذا الحديث إيماء إلى زله هشام في مسألة اللفظ، التي تبرأ منها برجوعه و يدل على ذلك بوضوح ما قاله زميله علي بن إسماعيل الميثمي - لما بلغه مطارده الخليفة هارون العباسي لهشام -: إنا لله و إنا إليه راجعون، علي ما يمضي من العلم إن قتل، فلقد كان عضدنا و شيخنا، و المنظور إليه بيننا(٨) و لئن استغل الأعداء بعمد، و بعض المغفلين من دون قصد، ظاهر المقوله في التهجم على هشام، فالأمل أن نكون قد وفقنا في هذا البحث لأن نبدي جانبا من عظمه الرجل، و براءته من كل ما اتهموه به، بشرحنا للمقوله، على مصطلحه.٧.

ص: ٢٣٩

١- الحكايات: ١٣١.

٢- كنز الفوائد - للكرجكي -: ١٩٧.

٣- التوحيد - للصدوق -: ٢٢٠ ح ١٣.

٤- الفصول المختاره: ٢٨.

٥- تصحيح الاعتقاد: ٢١٨، و الشافى - للمرتضى -: ١٢.

- ٦- الشافى - للمرتضى :- ١٢، و معالم العلماء: ١٢٨ رقم ٨٤٢.
- ٧- الفهرست - للنديم -:- التكملة :- ٢٢٤، و انظر: الشافى - للمرتضى :- ١٢.
- ٨- اختيار معرفه الرجال: ٢٤٣ رقم ٤٧٧.

الحاج ودای العطيه.

ولد في الشاميه سنه ١٣١٠ (١٨٩٢ م). و توفي سنه ١٩٨٣ م عن ٩٢ سنه.

قال الدكتور حسين علي محفوظ:

سكن كربلاء في مطلع العقد السابع من القرن الماضي، منذ سنه ١٣٦١ هـ (١٩٤٢ م) و نسبه هكذا: "الحاج ودای عطيه آل غضبان آل مشيمش"، و كلمه (آل) و لفظ (آل) و "ابن" بمعنى واحد عند عشائر الفرات و الجنوب في العراق.

هو من رؤساء الحميدات في قضاء الشاميه. و من أهم عشائر هذه البلده الأخرى: بنو حسن، و آل علي، و آل بدير، و آل قتل، و الكرد، و العوابد، و آل شبل، و الخزاعل، و آل زياد، و كعب، جبشه، و آل عياش، و بنو سلامه، و خفاجه. إضافة إلى السادات و هم (٢٩) بطنا و عشيره.

سكنت الحميدات أرض الرغيله و ما يجاورها في الشاميه منذ زمن غير قريب. و هم من بنى مالك القبيله العربية المعروفه في تاريخ العراق و المنتفق المعرفه في الأصاله و النسب و المشيخه. و قد ذكر (بنى مالك) النسابه السيد مهدي القزويني المتوفى سنه ١٣٠٠ هـ في كتابه (أنساب القبائل العراقيه).

و قد ذكر (بنى مالك) أيضا المؤرخ الباحث عباس العزاوي في الجزء الرابع من (عشائر العراق) كما خصص فصلا للحميدات أشار فيه إلى مشيمش من بيوتات الرئاسه، و الإخوه الأربعة الرؤساء من هذا البيت و هم الحاج ودای و أخوانه الحاج رائج، و الحاج سوادى، و أبا ذر، و عبد الكاظم.

كان الحاج ودای نسابه راويا واعيا محيطا بالأخبار و الروايات و النقول و النصوص و القصص و الأنساب و السلاسل و الطبقات و الوفيات.

روى جانباً من الأخبار و الحوادث و المعلومات عن العديد من المعمرين و المطلعين و المتبعين أحصى منهم في آخر تاريخ الديوانيه (٩٥) رجلا. ذكر أسماءهم و أنسابهم و أمكنتهم و أعمارهم و حدد تواريخ وفياتهم. و هو فصل في غايه الأهميه و نهايه الامتاع.

ألف عددا من الكتب عرفت منها تاريخ (الحوادث و الوقائع المهمه في الفرات) و (عشائر الفرات) و (مشجرات العلويين و رؤساء العشائر في الفرات) و (العشائر و رؤساء العشائر في الفرات) و (العشائر و الأسر العلويه في الفرات) و كتاب (وفيات الرؤساء و الزعماء) و مجموعات مشجره في الأنساب في مجلدات و دفاتر كثيره ضخمه، و قد طبع من مؤلفاته كتاب (تاريخ الديوانيه قديما و حديثا) سنه ١٩٤٥ في ٣٩٦ صفحه. و كراسه (علي هامش العراق بين احتلالين) في نقد الجزء الخامس من كتاب (تاريخ العراق بين احتلالين).

اهتم بالفرات، و الفرات يمثل جانباً مهماً جداً من تاريخ الأمه و تاريخ العراق و حضاره العراق. و قد فاز سكانه بمعانقه البادية و الجزيره و الصحراء.

و هو صله العراق بجزيه العرب أم العراق. و قد قامت على ضفتيه عشرات المدن و القرى المباركه و البلدان يعود تاريخ بعضها إلى تاريخ العراق القديم.

و يعود بعضها إلى بدايات الفتح و أيام الدول العربيه و الإسلاميه. تعتبر مؤلفات المترجم له فى تاريخ الفرات مخازن عامره بالمعلومات، و أرشيفا حافلا بصور الوثائق و الأسانيد و التواريخ، و بحورا تطمو بالأخبار و تزدهم بالحوادث و المعارف و النقول يحتاج الباحث و المتتبع إلى كل فقره فيها.

و الحق أن كتاب (تاريخ الديوانيه) يعد نموذجا كاملا للتواريخ المحليه. و قد ملأه المؤلف بسيل من المعلومات لو أن جماعه من الباحثين فرغوا لها ما استطاعوا جمع بعضها فى عشرات السنين.

استوعب الكتاب تاريخ البلد فحقق لفظ (الحسكه) أولا. و هى اسم الموضع الذى تقوم عليه (الديوانيه) الحاليه. و بين أخبار الحسكه هذه فى المصادر و المراجع و أن الكتب و صفت الحسكه بأنها من أحسن ضياع العراق فى سنه ١١١٧ هـ ١٧٠٥ م. و تابع تاريخها اعتبارا من أول القرن الثانى عشر.

و إليها ينسب (الشعر العامى) المعروف الذى يسمى (الحسكه).

يعود تاريخ الديوانيه فى هذا الكتاب إلى زمن حمد آل حمود المتوفى سنه ١١٩٢ هـ. و يرجع تاريخ رئاسته إلى حوالى سنه ١١٦٠ هـ. و (الديوانيه) فى كلام الأعراب هى المضيف المبنى بالآجر و الطين. و المضيف عندهم لا بد أن يتخذ من القصب و الحصر.

و قد بين أن الإشارات إلى الديوانيه فى الكتب و الرحلات من سنه ١١٦٨ هـ ١٧٥٤ م. و كان اسمها الأول (ديوانيه خزاعه) ثم جردت عن الإضافه و اكتفى بلفظ الديوانيه.

و فصل تاريخ الديوانيه فى أيام الدوله العثمانيه. و فى زمن الاحتلال البريطانى، و فى العهد الوطنى.

و لم أر كتابا يقارب هذا الكتاب فى كثره المعلومات و الوثائق و الأنساب و الأخبار. و يمثل فصل الأسر و البيوت نهايه الدقه و الاحاطه و الاستقصاء و التنوع الشامل العميق.

و أثبت المؤلف المصادر فى قائمه مفصله تحتوى على عشرات الكتب المخطوطه و المطبوعه و الوثائق و المجاميع و المجلات و السالنامات و الدواوين و الجرائد القديمه و الألواح و السجلات أثبتها فى (٨٣٥) فقره فضلا عن أسماء الأشخاص الذين سألهم و أخذ عنهم أطرافا من معلومات الكتاب.

ترك خزانه عامره بنخبه من الكتب النادره و المؤلفات و المعبره، و المصادر القيمه، و عددا من المؤلفات النفيسه تحتوى على أصول مهمه جديره بالاعتماد، و وثائق فريده قيمينه بالتوثيق. و قد تحدث المترجم عن نفسه قائلا:

نشأت فى كنف والدى بيت رئاسه معروف لقبيله مشهوره بالفرات و قد أرسلنى والدى الشيخ عطيه إلى الكتاتيب لتعلم القراءه و الكتابه، ثم تتلمذت على الشيخ على أصغر الشيرازى فأخذت على يده العلوم الدينيه و العربيه و زاد إقبالى على معرفه فكنت

أكثر التردد على النجف و اختلف إلى أعلامها و علمائها و كنت منذ صغرى أتتبع حوادث القبائل و أسال عن آثار الأوائل و ذلك عن فطره طبيعیه لا يسوقنى إليها إلا حب الاطلاع.

أبو محمد يحيى بن أبى الحسين محمود الذى ادعى الخلافه فى نيسابور

و بويع له المتوفى سنه ٣٣٩) ابن أبى جعفر أحمد الملقب بزباره (لأنه كان إذا

غضب يقال: زبر الأسد) ابن محمد الأكبر بن عبد الله المفقود ابن الحسن

ص: ٢٤٠

المكفوف ابن الحسن الأفتس ابن على الأصغر ابن الامام زين العابدين بن

على بن أبى طالب ع، البيهقى النيسابورى.

المعروف بشيخ العتره، نقيب النقباء بنيسابور و متكلم الشيعة و فقيهم فى عصره و من مشاهيرهم فى القرن الرابع الهجرى.

أمه طاهره بنت الأمير على ابن الأمير طاهر بن الحسين، كما جاء فى (عمده الطالب ص ٣٤٧).

توفى سنه ٣٧٦.

أخذ العلم و الحديث على جماعه من أعلام أسرته بنى زياره [زباره] المعروفين بالفضل و الفقاهاه و الرئاسة فى نيشابور و بيهق و أفاضل علماء عصره فى تلك النواحي حتى نبغ فى جميع أبواب العلم و انتهى إليه كرسى التدريس و رئاسه المذهب فى خراسان. قال شيخ الطائفه أبى جعفر محمد الطوسى المتوفى سنه ٤٦٠ فى الفهرست: (يحيى العلوى يكنى أبا محمد من بنى زياره من أهل نيشابور جليل القدر عظيم الرئاسة متكلم حاذق زاهد ورع له كتب كثيره فى الامامه و غيرها... لقيت جماعه ممن لقوه و قرءوا عليه) (١) و قال النجاشى بعد ما سرد نسبه إلى الامام على بن أبى طالب ع: (... أبو محمد كان فقيها عالما متكلمًا سكن نيشابور و صنف كتبًا...) ثم ذكر مؤلفاته (٢) و قال النسابة السيد عزيز الدين أبى طالب إسماعيل المروزى المتوفى سنه ٦١٤ هجرية فى كتابه الفخرى: (... يحيى الفقيه المتكلم الكاتب العالم المحدث الأديب الدين الرئيس. و ظفر أبو المنصور الأعرج العالم الفاضل العابد الذكى الجواد الفارس، و عقبه قوم كثير بنيسابور علماء و فضلاء و شعراء... ثم ذكر أمهما و قال طاهره بنت محمد بن الحسين بن طاهر بن عبد الله بن طاهر ذى اليمينين بن طلحه بن الطيب بن طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق مولى أمير المؤمنين على بن أبى طالب ع.

و أمها أسماء بنت عبد الله بن محمد بن الطيب بن طلحه بن الطيب بن طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق) (٣).

و جاء بعض الاختلاف فى ذكر أسماء آباء أمه عما ذكره ابن عنبه. و ما ذكره صاحب كتاب الفخرى أدق.

و ذكره ابن الفندق المتوفى سنه ٥٦٥ فى كتابه تاريخ بيهق (٤) و ذكر ابن عنبه المتوفى سنه ٨٢٨ و ذكر أولاده فقال: (... أبو محمد يحيى نقيب النقباء بنيسابور و كان يلقب شيخ العتره... أمه طاهره بنت الأمير على بن الأمير طاهر بن الأمير عبيد الله بن طاهر بن الحسين...

ثم ذكره أولاده قائلاً: و أعقب أبو محمد يحيى بن أبى الحسين محمد النقيب من أبى الحسين محمد وحده و منه فى أربعه رجال و هم الأجل العالم أبو القاسم على، و أبو الفضل أحمد، و الحسين جوهر ك و أبو على محمد و أمهم أجمع عائشه بنت أبى الفضل البديع الهمدانى الشاعر و لكل منهم جلاله و رئاسه) (٥) و قال الامام فخر الرازى فى الشجره المباركه: (أما محمد أبو الحسن [الحسين] الأديب ابن أحمد زياره فعقبه من ثلاثه يحيى الفقيه المتكلم المحدث الرئيس بجرجان. و ظفر أبو منصور الأعرج العابد الذكى الجواد و الحسين أبو عبد الله قيل انقرض عقبه.

أما يحيى المتكلم فعقبه من رجل واحد: محمد أبو الحسين النقيب بنيسابور و كان عالماً أديباً سخياً) (٦) قال تقى الدين الحسن

الحلى المعروف بابن داود فى رجاله (يحيى أبو محمد العلوى من بنى زباره من أهل نيسابور ثقه جليل القدر عظيم الرئاسة متكلم حاذق زاهد ورع له كتب كثيره فى الامامه و غيرها) (٧) وقال الأوردبيللى الحائرى فى جامع الرواه: (يحيى بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن على بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ع أبو محمد كان فقيها عالما متكلم يسكن نيشابور إلا- أن فيما حضرنى من نسخه يحيى بن أحمد بن محمد و لم يكرر بن على لكن ما أثبتنا هو الموافق لما فى عمده الطالب) (٨) قال شيخنا فى طبقات أعلام الشيعة: (يحيى العلوى أبو محمد من بنى زباره كما فى الفهرست و جاء بقيه نسبه فى النجاشى و الخلاصه و إن اختلفا فى ذكر بعض الأجداد دون بعض و هو متكلم فقيه من أهل نيسابور له كتب كثيره... و فى نسخ النجاشى الموجوده يحيى بن أحمد بن محمد و لكن فى الخلاصه و رجال ابن داود جاء يحيى بن محمد بن أحمد بن محمد فيظهر أنهما أخذاه من النسخ القديمه الصحيحه من النجاشى و وقع إسقاط أبيه محمد من النسخ المتأخره و لذا لم يذكر أخلافا من النجاشى و يكنى أبوه بأبى الحسين كما فى العمده و بأبى على كما فى أسانيد الصدوق...) (٩) و قال العلامة الحلى المتوفى سنه ٧٢٦: (يحيى العلوى المكنى أبا محمد من بنى زباره من أهل نيشابور جليل القدر عظيم الرئاسة متكلم حاذق زاهد ورع له كتب كثيره فى الامامه و غيرها) (١٠) و مر شقيقه السيد أبو منصور ظفر العالم المحدث فى نيشابور.

يقول عبد الحسين الصالحى: لقد أكدت لنا جميع المصادر أن له مؤلفات كثيره أشهرها كتاب مسح الرجلين كبير، كتاب أبطال القياس، كتاب التوحيد و سائر أبوابه، كتاب الأصول، كتاب الامامه كتاب الفرائض، كتاب الإيضاح فى المسح على الخفين.

السيد عماد الدين يحيى بن السيد ركن الدين أبى منصور هبه الله بن أبى

الحسن على بن أبى جعفر محمد الحسينى الزبارى البيهقى

من أحفاد أبى جعفر أحمد بن محمد الزباره بن عبد الله المفقود ابن الحسن المكفوف ابن الحسن الأفضس ابن على الأصغر ابن الامام زين العابدين على بن الحسين بن على بن أبى طالب ع.

ص: ٢٤١

- ١- أبى جعفر محمد الطوسى: الفهرست ص ٢٠٩ تحقيق السيد محمد صادق بحر العلوم الطبعة الثانيه نجف ١٣٨٠ هجرية.
- ٢- أبو العباس النجاشى: رجال النجاشى ص ٣٠٩ بمبئى الطبعة الحجريه الأولى سنه ١٣١٧ هجرية.
- ٣- السيد عزيز الدين إسماعيل: الفخرى فى أنساب الطالبين تحقيق السيد مهدي الرجائى ص ٨٠-٨١ قم منشورات مكتبه المرعشيه
- ٤- أبو الحسن على البيهقى المعروف بابن الفندق: تاريخ بيهق ص ٥٤-٥٥ طهران الطبعة الأولى موسى دانش. و أثنى عليه ثناء كثيرا
- ٥- ابن عنبه: عمده الطالب ص ٣٤٧ الطبعة نجفيه منشورات الحيدريه.
- ٦- الامام فخر الرازى: الشجره المباركه فى أنساب الطالبين تحقيق السيد مهدي الرجائى ص ١٧٣ قم منشورات المرعشيه.
- ٧- تقى الدين الحسن الحلى المعروف بابن داود: رجال ابن داود ص ٣٧٦ تحقيق سيد جلال الدين الحسينى طهران الطبعة الأولى.

- ٨- الشيخ محمد علي الأردبيلي الحائري: جامع الرواه ج ٢ ص ٣٣٩ الطبعه الأولى.
- ٩- الشيخ آغا بزرك الطهراني: نوابغ الرواه فى رابعه المئاث ص ٣٣٢ الطبعه الأولى بيروت ١٣٩٠ هجرية - ١٩٧١ م.
- ١٠- الحسن بن يوسف حلى المعروف بالعلامه الحلى: رجال العلامه الحلى ص ١٨١ الطبعه النجفيه ١٣٨١ هـ - ١٩٦١ م.

ولد ليلة الثلاثاء السادس من رجب سنة ٤٧٧ و توفي يوم الاثنين ١٢ ذى القعدة سنة ٥٣٢.

من أعلام عصره أديب شاعر مشارك في أنواع العلوم فقيه متبحر رئيس أخذ العلم و فنون الأدب على رجال أسرته آل الزبارة المعروفه بالفضل و العلم و الرئاسة في بيهق. ذكره ابن الفندق المتوفى سنة ٥٦٥ في كتابه تاريخ بيهق الذى ألفه سنة ٥٦٣ و قال ينظم باللغتين العربية و الفارسيه و لم يذكر شيئاً من شعره و أثنى عليه بما تعريبه: (... الزاهد الورع و له ثروه علميه كثيره و أشعار بالعريه و الفارسيه و كانت أمه بنت الشيخ الرئيس الزكى على بن أبى نعيم أحمد بن محمد...)(١) و تخلف بابنه جلال الدين محمد المولود فى شوال سنة ٤٦٩ [٤٩٦] و يستفاد من كلام ابن الفندق أن للمترجم له ديوان شعر بالعريه و ديوان شعر بالفارسيه و مر ذكر أخيه السيد عزيز العالم الفاضل الأديب الشاعر(٢).

الشيخ أبو الفرج يعقوب بن إبراهيم البيهقى.

كان حيا فى ذى القعدة سنة ٤٠٣.

من أكابر علماء الشيعة فقيه متبحر أديب متضلع أخذ العلم و فنون الأدب من السيد علم الهدى الشريف المرتضى المتوفى سنة ٤٠٦ [٤٣٦] و أجازه السيد المرتضى إجازة مؤرخه فى ذى القعدة سنة ٤٠٣ هجرية أن ينقل عنه كيف شاء و هذه الشهاده دليل على تبحره فى الأدب و النحو و العلوم العريه و أشار إلى الإجازة شيخنا [فى] الذريعه ضمن الإجازات للسيد علم الهدى الشريف المرتضى فقال: (إجازته للفقيه أبى الفرج يعقوب بن إبراهيم البيهقى بخطه فى سنة ٤٠٣ فى أول الجزء الثانى من ديوان المرتضى نسخته العتيقه عند داعى الإسلام السيد محمد على فى حيدرآباد الدكن كما فى تذكره النوادر)(٣) و نقل صورته الإجازة فى الجزء التاسع من الذريعه عند ذكر ديوان علم الهدى الشريف المرتضى(٤) ثم ترجم للمترجم له فى كتابه طبقات أعلام الشيعة فقال (يعقوب بن إبراهيم أبو الفرج البيهقى المجاز من السيد المرتضى علم الهدى كما وجد بخطه على الجزء الأول من ديوانه بهذه الصوره: (قرأ على الفقيه أبو الفرج يعقوب بن إبراهيم البيهقى أدام الله توفيقه قطعه كبيره من ديوان شعرى و أجزته لروايه جميعه عنى فليروه كيف شاء. و كتب على بن الحسين بن موسى الموسوى بخطه فى ذى القعدة سنة ثلاث و أربعمائ)(٥) و لم أقف على تاريخ ولادته و وفاته كما لم أجد له ترجمه فى كتب التراجم و لم يذكره المؤرخون الذين كتبوا عن تاريخ بيهق(٦).

تنبيه إلى خطأ فى المجلد الثالث

١ - أبو الحسن كوشيار بن لبان جاء اسمه فى آخر الصفحه السابعه ثم جاءت ترجمه السيد إبراهيم بن محسن فى أول الصفحه الثامنه. ثم فى أول الصفحه التاسعه أكملت ترجمه أبو الحسن كوشيار. فما جاء فى آخر الصفحه السابعه يجب وضعه فى أول الصفحه التاسعه.

٢ - فى الصفحه السادسه ورد اسم آمنه بنت فتح على خان. و الصحيح أن الاسم هو: آسيه.

- ١- أبو الحسن علي بن زيد اليبهقي المعروف بابن الفندق: تاريخ بيهق تحقيق أحمد بهمنيار ص ٥٧ طهران الطبعة الأولى منشورات موسى دانش.
- ٢- الشيخ عبد الحسين الصالحي.
- ٣- الشيخ آغا بزرك الطهراني: الذريعة إلى تصانيف الشيعة ج ١ ص ٢١٦ بيروت دار الأضواء.
- ٤- نفس المصدر: ج ٩ القسم الثالث ص ٧٣٥.
- ٥- الشيخ آغا بزرك الطهراني: النابس في القرن الخامس ص ٢٠٧.
- ٦- الشيخ عبد الحسين الصالحي.

قلت فيما ذكرته في ملحق المجلد الثاني من (المستدركات) أن صلاح الدين الأيوبي أنهى الحرب مع الصليبيين بعد معركة حطين و اعترف بوجودهم فيما في أيديهم من بلاد، و زاد على ذلك بان أعاد إليهم حيفا و يافا و قيساريه و نصف الرمله و غير ذلك حتى لقد صار لهم من يافا إلى قيساريه إلى عكا إلى صور، بل صارت لهم فلسطين إلا أقل القليل و لم يكن لهم ذلك من قبل.

يقول ابن شداد في كتابه (الاعلاق الخطيره) و هو يتحدث عن حيفا (ص ١٧٧-١٧٨): "لم تزل في أيدي الفرنج إلى أن فتحها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ثلاثه و ثمانين، فلم تزل في يده إلى أن نزل عنها للفرنج فيما نزل عنه لهم في المهادنه التي وقعت بينه و بينهم، و ذلك سنة ثمان و ثمانين و خمسمائه، ثم لم تزل في أيديهم".

و هكذا قال عن بقيه المدن التي أعادها صلاح الدين إلى الصليبيين مما مر ذكر بعضه في ملحق المجلد الثاني و لا نعيده هنا.

لما ذا فعل صلاح الدين ذلك؟ لما ذا أعاد إلى الصليبيين ما استرده منهم بعد معركة حطين؟!..

ذلك أن الخليفة العباسي الناصر (٥٧٥ - ٦٢٢) كان قد تخلص من السلاجقه و استقل بحكم الخلافه، و أصبح يسيطر على مملكه واسعها قوتها و بأسها، و لها جيشها الضخم المتحضر للقتال، و الذي انتصر على جميع المتمردين في الداخل و قمع ثوراتهم حتى لقد وصفه الشاعر ابن البنيه بشعر يقول فيه:

ملك إذا التظمت صفوف جيوشه أيقنت أن البر بحر مزبد

انفت صوارمه الجفون فأصبحت بالنصر في قمم الخوارج تغمد

و الواقع أنه قد بدأ ببيان هذا الجيش منذ عهد الخليفة المسترشد بالله (٥١٢ [٥٢٢] - ٥٢٩) حتى لقد بلغ تعداد المقيم منه في بغداد في عهد الناصر (١٥٠) ألفاً، و قد خاض ذلك الجيش معارك كثيره في خلال (٤٧) سنة هي مده خلافه الناصر أسقط فيها دولا و أنشا دولا أخرى، و احتل أقطارا و مدنا و أغاث إمارات و ممالك و ولايات.

لم تنه معركة حطين الوجود الصليبي في البلاد، و لا كانت المعركة الفاصله يوم ذاك، بل ظل للصليبيين وجودهم القوي. و هنا رأى الخليفة الناصر أن يجد صلاح الدين بما لديه من قوى كبيره كانت كافيه للقضاء نهائيا على الصليبيين، و قطع دابرهم فأرسل إلى صلاح الدين يخبره باستعداد جيش بغداد للزحف إلى فلسطين و معاونته على استئصال شافه الصليبيين و القضاء النهائي على وجودهم.

و هنا ارتكب صلاح الدين نفس ما ارتكبه حين طلب إليه نور الدين أن يزحف بالجيش من مصر، و يزحف نور الدين بالجيش من الشام فيحصر الصليبيين بين الجيشين، فرفض صلاح الدين ذلك لأنه في حاله النصر على الصليبيين و زوالهم يصبح صلاح

الدين تابعا فعليا لنور الدين و عاملا من عماله. أما في حاله وجود الصليبيين فهو مستقل بحكم مصر، و ليس لنور الدين عليه سلطه فعليه، مما فصلناه فيما تقدم في ملحق المجلد الثاني من (المستدركات) و ذكرناه كذلك في ترجمه طلائع بن رزيك في المجلد الأول، فلا نعيد تفصيله هنا.

لقد رفض صلاح الدين طلب الخليفه الناصر انجاده بالجيس [بالجيش] العراقى القوى لأن انتصار هذا الجيش على الصليبيين و القضاء عليهم سيقوى نفوذ الخلافه فى فلسطين و بلاد الشام كلها، و يصبح صلاح الدين مجرد وال تابع للخليفه فى بغداد، لذلك أسرع لإنهاء حاله الحرب مع الصليبيين و سلم بوجودهم و خضع لشروطهم باعاده فلسطين كلها إليهم - ما عدا القدس - فعل كل ذلك ليتجرد لمقاتله الجيش العراقى إذا أصر الناصر على إرسال هذا الجيش لقتال الصليبيين.

و قصه طلب الناصر إرسال جيشه لقتال الصليبيين و رفض صلاح الدين لذلك ذكرها فيمن ذكرها من المؤرخين: مؤرخ هو أقرب الناس لصلاح الدين، حتى لقد كان بمثابة (سكرتير) شخصى له، هو عماد الدين الأصفهانى صاحب كتاب (الفتح القسى فى الفتح القدسى)، ذكر ذلك فى الصفحه ١٧٦ من طبعه مطبعه الاتحاد بالقاهره.

و قد تعلق صلاح الدين فى رفضه بان قواد جيشه غير موافقين على ذلك لأنهم ملوا الحرب.

و لكن صلاح الدين الذى زعم أن قواده قد ملوا الحرب، كان يعد لحرب جديده و لكن لغير قتال الصليبيين، و لغير تخليص البلاد منهم.

لقد أعاد فلسطين إلى الصليبيين و رفض انجاد الجيش العراقى له لانقاذ

البلاد من الاحتلال الصليبي، وراح يفتش عن مكان آخر يقاتل فيه، لأن إنقاذ الوطن الإسلامي من الصليبيين يحد من نفوذه و يقلل من هيمنته، أما القتال في مناطق أخرى فإنه يزيد من نفوذه و يكثر من هيمنته، فإذا ضمن ذلك فليبق الصليبيون في بلاد الشام.

و لو أن المناطق الأخرى التي عزم على القتال فيها هي مناطق أجنبيه، يريد إدخالها ضمن المناطق الإسلاميه لهان الأمر. و لكن صلاح الدين الذي سالم الصليبيين و أنهى الحرب معهم و اعترف بوجودهم، ثم زاد على ذلك فأعاد لهم ما كان قد أخذه منهم. صلاح الدين هذا عاد يخطط لغزو البلاد الإسلاميه و سفك دماء المسلمين تحقيقا لمطامعه الشخصيه.

ترك الصليبيين في أمان، و اتجه لترويع المسلمين الآمنين، و لكن الله الرحمن الرحيم أنقذهم منه، و نجاهم من السيوف التي أعدّها لذبّحهم توسيعا لملكه، و مدا لسلطانه.

قال ابن الأثير و هو يتحدث عن وفاه صلاح الدين:

"كان قبل مرضه قد أحضر ولده الأفضل عليا و أخاه الملك العادل أبا بكر و استشارهما فيما يفعل، و قال قد تفرغنا من الفرنج و ليس لنا في هذه البلاد شاغل، فأى جهه نقصد، فأشار عليه أخوه العادل بقصد خلاط لأنه كان قد وعده إذا أخذها أن يسلمها إليه. و أشار ولده الأفضل بقصد بلد الروم التي بيد أولاد قلعج ارسلان و قال هي أكثر بلادا و عسكريا و مالا و أسرع مأخذا و هي أيضا طريق الفرنج إذا خرجوا على البر فإذا ملكناها منعناهم من العبور فيها. فقال: كلا كما مقصر ناقص الهمه، بل أقصد أنا بلد الروم، و قال لأخيه تأخذ أنت بعض أولادى و بعض العسكر و تقصد خلاط فإذا فرغت أنا من بلد الروم جئت إليكم و ندخل منها آذربيجان و نتصل ببلاد العجم فما فيها من يمنع عنها، ثم أذن لأخيه العادل فى المضى إلى الكرك و كان له و قال له فجهز و احضر لنسير. فلما سار إلى الكرك مرض صلاح الدين و توفى قبل عوده" اه.

يقول صلاح الدين: لقد تفرغنا من الفرنج. و ليته كان قد تفرغ منهم باستئصالهم مستعينا عليهم بالجيش العراقى، و لكن تفرغ منهم بمصالحتهم و ترك البلاد لهم، و إعاده ما أخذه منها إليهم.

لقد تفرغ منهم بذلك و راح يحاول الانشغال عنهم بالمسلمين، و لكن عزرائيل كان قد تفرغ له، فحال بينه و بين الإيغال فى الآثام.

الذكريات

يرى القارئ بعد تمام هذا المجلد صفحه من حياه المؤلف، لا هي بالسيره الذاتيه و لا هي بالمذكرات، و إنما هي انطباعات عن بعض ما مر به فى هذه الحياه. ففضل أن يطلق عليها اسم (الذكريات).

و قد كان فى النيه أن تتضمن ما يشمل الأيام كلها حتى كتابه هذه السطور، ثم تطبع مع آخر مجلد من (المستدركات). و لما تبين أن نهايه (المستدركات) غير معلومه الأمد، و أنها حتى الآن مستمره، لذلك بادرت إلى إيداع قسم منها مع هذا المجلد، و تركت الباقي - و بعضه لم يدون بعد - إلى الآتى من (المستدركات).

وقد كان التعجيل فى نشر ما ينشر هنا هو أن العمر ماش إلى الغروب، ولا يعلم إلا الله ساعه هذا الغروب الدانيه، فحفظا لهذه (الذكريات) من الضياع بادرت إلى تسجيل ما هو مسجل فى آخر هذا المجلد، و هو ما سيراه القارئ فى الصفحات التاليه. و لعل الله يسمح بتدوين الباقي فى نهايه مجلدات المستدركات.

حسن الأمين

ص: ٢٤٤

ولدت سنه ١٣٢٦ هـ (١٩٠٨ م) فى دمشق و انتقلت مع الأسره سنه ١٩١٤ بعد إعلان الحرب العالميه الأولى إلى بلده شقرا (جبل عامل) حيث ترعرعت و تكامل صباى.

لا أعى من أواخر الحرب العالميه الأولى إلا أشباحا غير مترابطه لا أستطيع أن أوّلف منها حدثا متكاملا. فانا مثلا أذكر انتقالنا من دمشق إلى جبل عامل. و لكننى لا أذكر تفاصيل هذا الانتقال، و لا ما جرى لنا فى الطريق و لا كيف وصلنا إلى شقرا فى جبل عامل ثم أنا أعى أن أختى الأكبر كان فى سن الجنديه و أنه سعى له ليكون معلما فى شقرا و بذلك يعفى من الجنديه، كما أذكر أن رجلا استؤجر ليتولى مكانه أكثر الأوقات إذ كان يضيق ذرعا بتعليم الأطفال، و أذكر أننا تلقينا شيئا من التعليم عند هذا [هذا] المعلم المستأجر و أننا كنا نجلس أمام المعلم على الحصر المؤلف من البردى المعروف فى جبل عامل بالبابير.

كما أذكر نزوحنا أنا و أخ و أخت لى من شقرا إلى مقام صديق "بتشديد الدال" هربا من وباء الكوليرا، و لكن لا أذكر مقامنا هناك و لا عودنا.

على أن الصوره تأخذ فى ذهنى بالوضوح شيئا فشيئا ابتداء من نهايه الحرب. فإنه يصح لى أن أقول، أن أحداثى لا يمكن أن تسجل إلا ابتداء من سنه ١٩٢٠ لتذكرى للكثير من تفاصيل تلك الأحداث مما يمكن تسجيله و الحديث عنه.

فمما لا أنساه أبدا تلك الطلقات الناريه المتتابعه التى أخذت تنبعث من أحد بيوت بنى عمنا و نحن فى شقرا نهارا بصوره مثيره بدون انقطاع، فمضينا إلى مصدر الرصاص المنطلق فوجدنا قريينا يطلق النار من بندقيته مبتهجا مسرورا، مما جمع الناس عليه، ففهمنا أن حدثا ضخما قد وقع فى دمشق، كان من صدها هذه الطلقات، و أن هذا الحدث هو شىء عظيم للبلاد. و لم أكن أدرك فى تلك السن حقيقه الاستقلال و حقيقه الحركات الوطنيه، و لكننى كنت مدركا أن الفرنسيين يحتلون البلاد و أن هذا شىء منكر.

و كان الحدث الضخم هو إعلان الاستقلال السورى فى الثامن من آذار سنه ١٩٢٠ و تتويج الأمير فيصل ملكا على المملكه العربيه السوريه!

بنهايه الحرب العامه الأولى تتضح الصور فى ذهنى و تتكامل خطوطها جليه بارزه، و لعل مما يسجل من تلك الصور هو مشاهد من الحياه الدراسيه القرويه، فقد أقبل فى أوائل الاحتلال معلم حكومى على شقرا، فكان أول معلم يعين لمدرستها بعد انتهاء

الحرب، و كنا - على ما أذكر - جلوسا فيما يسمى في شقرا بساحة المدارس مع بعض كبار بنى عمنا و صغارهم، إذ أقبل رجل غريب معمم بعمامه بيضاء و مرتد بزه خاكيه اللون مفصله على الطراز الذى اعتاده المعممون فى لبس الحلل المدنيه تحت عمائمهم، و هى ذات معطف طويل و بنطال ككل البناتل المعروفه و صدرية ككل الصدارى و لكنها بدون رباط عنق.

أقبل هذا الرجل الغريب على الحلقة فكان طبيعيا أن يقف أهلها لرد تحيته على الطريقه العامليه، متسائلين فى أنفسهم عنم يكون هذا الطارق. و لم يلبث أن أعلن عن نفسه بأنه المعلم المعين لمدرسه شقرا، و أن اسمه محمد على الحومانى.

دخلنا مدرسه الحومانى، و كان هذا الرجل أبعد ما يكون عن العمل الجدى منصرفا إلى ما جبل عليه من النميمه و الدس و الفتته بين الناس و إثارة الضغائن و الأحقاد، لذلك قلت الفائده منه لمن يريد الفائده، و مع أن كونه شاعرا و على اطلاع حسن على اللغه العربيه كان يمكن أن يؤثر فى تلاميذه و يثير مواهبهم و يصقل معارفهم فان الفائده منه كانت ضئيله و لم يخلف فى أى واحد من تلاميذه أثرا محسوسا.

لا أظننا أكملنا السنه فى مدرسه الحومانى التى خرجنا منها بدون طائل سوى تحسين الخط بعض التحسين. و كان سبب ترك المدرسه أننا انتقلنا إلى دمشق و ذلك أن الفرنسيين قرروا أن يسوقوا حملة لاختراع الجبل و تتابعت أبناء استعداداتها و كان الوالد فى دمشق، فقرر الأخ الأكبر انتقالنا جميعا إلى دمشق حيث أن ذلك أدعى إلى الطمأنينه.

إلى القنيطره فدمشق

كان السفر إلى دمشق على الدواب فقد مضينا على ظهورها من شقرا مجتازين وادى السلوقى فى عرضه و صاعدين فى وادى الاصطبل مرورا بالقرب من قريه حولا فهونين، ثم هبوطا إلى الحوله فوصولنا منها إلى بانياس، و لا أذكر إذا كنا قد بتنا فى بانياس أم لا، و أحسب أنه لم يكن ممكنا قطع الطريق فى مرحله واحده فلا بد أن نكون بتنا فى أحد المنازل، و ذلك لا يكون إلا فى

بانياس. و من بانياس وصلنا إلى القنيطرة.

و كانت القنيطرة في ذلك الوقت في حركة جيشه تغص بالجند و الناس، إذ أنها كانت آخر مدينه على الحدود بين المنطقه العربيه المستقله و المنطقه المحتله من الفرنسيين في الساحل و المنطقه المحتله من الإنكليز في فلسطين. فكانت لذلك منطلقا لكثير من التحركات.

و بتنا في القنيطرة في أحد الخانات التي كانت وحدها منازل للمسافرين و من القنيطرة واصلنا السفر إلى دمشق لا على الدواب هذه المره، بل تركنا الدواب في القنيطرة و عاد بها مرافقونا إلى شقرا، و أخذنا نحن إحدى العربات الكبيره المستطيله المتعدده المقاعد، و المجروره بالخيول، و التي كانت هي الوسيله الوحيده للمواصلات السريعه إذ لم تكن السيارات قد انتشرت بعد.

و بعد هذا التاريخ بسنه أو سنتين كانت هذه المركبات لا تزال في هذا الطريق، و إن تكن السيارات قد بدأت تشق سبلها فيه و لكن بقله و ندره.

ذلك أننا عدنا من دمشق إلى القنيطرة مع الوالد و أخى الأصغر و تلميذ الوالد الشيخ على الجمال. عدنا إلى القنيطرة في طريقنا إلى جبل عامل فركبنا نفس المركبه و حللنا القنيطرة، و لكن لا- في الخان هذه المره، بل في منزل امرأه قرويه عامليه كانت تسكن القنيطرة في بيت بسيط، و كانت تؤجر بعض غرفه إما للطائرين أو للمقيمين و هو بيت هزيل قروي بكل ما في القرويه القديمه من معني.

نزلنا في هذا البيت على أمل السفر في الغد على الدواب المتقدمه من شقرا سالكين نفس الطريق السابق و لكن الأمل لم يتحقق و طالت إقامتنا في القنيطرة أسابيع. ذلك أن وسيله إعلام شقراء بإرسال الدواب إلى القنيطرة كانت بإرسال برقيه من دمشق إلى صور و هي آخر مركز يصل إليه خط البرقيات يوم ذاك. و من صور ترسل البرقيه مع بعض الذاهبين إما إلى شقرا أو إلى قريه مجاوره و منها إلى شقرا. و المسافه ما بين صور و شقرا تتراوح بين الثمانى و العشر ساعات ركوبا على الخيل أو غيرها من الدواب أو مشيا على الأقدام. و كانت صور تحفل دائما بالقرويين الذين يعودون إلى بلادهم بعد أن يكونوا قد باعوا منتوجات أرضهم من قمح و شعير و عدس لتجار صور.

هذا في الصيف، و لا تخلو صور خلال السنه من واردين إليها بين الحين و الحين من القرى إما لمراجعته دوائر الحكومه أو لقضاء حاجاتهم. و مع واحد من هؤلاء العائدين من صور كانت ترسل البرقيات الوارده إلى صور و الموجهه إلى القرى.

و كان والدى يعتمد في إرسال برقيات على الشيخ عز الدين على عز الدين الذى يتولى إرسال البرقيه إلى شقرا. و كانت برقيه طلب الدواب من شقرا قد وصلت الشيخ عز الدين فأرسلها مع واحد من عملائه من أهالى مركبا التي تبعد أكثر من ساعتين عن شقرا. و لكن الرجل لم يوصل البرقيه. و وصلنا نحن القنيطرة و لم تصل الدواب و طال الانتظار و الدواب لا تصل و أقبل عيد الأضحى فقضيته في القنيطرة. و فى صبيحه العيد مضينا مع والدى إلى أرض فضاء في طرف القنيطرة حيث ازدحم المصلون من الشراكسه لأداء العيد فشار كناهم الصلاه.

و لما طال الانتظار صدف والدى رجلا من بلده الخيام ذاهبا إلى بلده البعيد عن شقرا فاستأجره الوالد ليمضى من الخيام إلى

شقرا برسالة بطلب الدواب، و لكن هذا الآخر مضى و لم يبلغ ما أوتمن على إبلاغه و طالت إقامتنا فى منزل (أم نمر) و هو منزل لا- تحمد الإقامة فيه. و لما بلغ الياس مداه فتش الوالد عن حل للمشكلة فعلم أن فلاحين من قريه عين فيت القريه من القنيطره يحضرون العنب من قريتهم منقولاً- على الحمير لبيعه فى القنيطره ثم يعودون فارغين إلى قريتهم. فاستأجرنا حميرهم لتقلنا إلى هونين أول بلده فى جبل عامل من الطرف الشرقى المطل على الحوله. و لم يكن لا من اللاثق و لا من المريح ركوب الحمير. و إنما هى الخيل التى تستعمل فى مثل هذا الانتقال، و لكن كان لا بد مما لا بد منه فركبنا حمير أهل عين فيت و بتنا ليله فى بانياس فى خان فيها معد للنزلاء، ثم صعدا إلى هونين.

و الواقع أن دخولنا فى تلك الحال إلى هونين كان شيئاً عجيباً غير متوقع، فلم يكن يخطر لأهل هونين أن هذا الموكب القادم إلى بلدتهم على ظهور الحمير هو موكب السيد محسن الأمين. و أنه نفسه يسير على رأس هذا الركب الهزيل. و قد زاد الأمر غموضاً أن السيد كان يجلب عمامته و رأسه بعباءته السوداء الرقيقه (الخشيه) فلا يبين من ملامحه شىء. حتى إذا اجتاز الركب مداخل القريه و تقدم إلى وسطها نزع الوالد عباءته عن رأسه و ترجل و ترجلنا معه و مضينا، و هنا صاح أحد الناظرين إلى الموكب:

هذا السيد محسن. فترا كض الناس إليه دهشين. و انطلقنا إلى أحد المنازل.

ثم نعود بعد هذا الاستطراد إلى مواصلة الكلام:

فى دمشق

فى هذه الفتره كانت دمشق تغلى كالمرجل، فالفرنسيون طامعون بها يتحينون الفرص للانقضاض عليها و تحطيم الاستقلال الذى قام فيها.

و الوطنيون يحاولون تدعيم الاستقلال و المحافظه عليه و لن أتحدث عن تاريخ تلك الفتره إلا فى القليل منها، و إنما ساعرض فيما ياتى انطباعاتى عنها كطفل كان يرى مشاهدتها عن كذب بقدر ما تسمح له أوضاعه. فمن ذلك مثلاً أن بعض العاملين قد وصلوا دمشق بعد وصولنا بمداه، فرارا من الحمله الفرنسيه التى كانت قد انطلقت إلى الجبل للقضاء على العصبات المتمرده، تلك الحمله التى كانت تأخذ البرىء بجريره العاصى. و سكن بعض هؤلاء العاملين فى نفس حيناً.

كان العرب فى تلك الفتره يعيشون حلمهم الأكبر منتشين بما هم فيه من استقلال و تطلع إلى الوحده ثم بدأت الآمال تنهار و الحقائق المره تتجلى واحده بعد الأخرى!.

ثم جاء إنذار الجنرال غورو للحكومته الاستقلاليه يوضح الصوره و يجلو الواقع المر و يضع حدا لكل الأحلام.

فى اليوم الرابع عشر من تموز سنه ١٩٢٠ تلقى الملك فيصل لا بصفته ملكاً لسوريا بل بوصفه قائد جيش الحجاز المحتل لسوريا إنذاراً يهدم كل الأمانى. و قبل أن نشير إلى نص الإنذار ننشر هذا البيان الذى ألقته الحكومه الاستقلاليه أمام المؤتمر السورى (الذى كان بمثابة المجلس النيابى) و ذلك بعد أن وضحت النيات الاستعماريه. و يتجلى فى هذا البيان ما كانت عليه الأفكار فى

تلك الأيام و ما كان يجول فى نفوس القاده.

و أحسب أن هذا البيان ألقى حوالى منتصف حزيران سنه ١٩٢٠ أى

ص: ٢٤٤

قبل حوالي شهر من إرسال الإنذار (١٤ تموز ١٩٢٠).

"أيها السادة. إننا نعتبر بأنه من واجبنا أن نطلعكم على الحالة في هذه الساعه الحرجه.

إنكم تعلمون أن سياسه الوزاره كانت و ما زالت أساسا لعملنا كما أنكم تعلمون أن هذه السياسه التي وافقتم عليها تتضمن الإبقاء على علاقات الصداقه مع الحلفاء و خاصه مع فرنسا و بريطانيا. و أن عملنا الدائم كان تحقيقا لتلك الرغبات التي أبدتها البلاد بواسطتكم.

لقد بوشر بالمفاوضه، و استمرت على أحسن الشروط. و كما تعلمون تلقينا قرار مؤتمر (سان ريمو) الذي يعترف بان سوريا تؤلف دوله مستقله، كما أعلمتنا بريطانيا - من جهه أخرى - بطريقه شبه رسميه، بأنها زياده على ذلك تعترف بصاحب الجلاله فيصل ملكا على سوريا.

لقد قررنا في هذه الأوقات أن نرسل بعثه إلى أوروبا لإتمام المفاوضات و الحصول على حل نهائي طبقا لرغباتنا الوطنيه، كما أن رغبتنا أيضا أن نثبت للعالم و للدول باننا لا نعادي أحدا، و لا نعارض قرارات مؤتمر الصلح، بعد أن تعهد بالمحافظة على شرفنا و استقلالنا.

لقد أبدى صاحب الجلاله رغبته بان يتوجه بنفسه إلى أوروبا، ليحصل على حل سريع للقضيه، و بفضل الاحترام الذي يتمتع به لدى رجالات الدول المتحده، فاننا على ثقه تامه، و أمل مكين بان نرف قريبا إلى الشعب أخبارا ساره.

و لكن فجاه برزت الحاله الخطره الحاضره التي نبسطها لكم. أراد الجنرال غورو لأسباب نجهلها أن يغتتم مناسبة حشد جيوشه لكي يعارض، أو يمنع سفر صاحب الجلاله. فأبلغ مندوبنا بعض الشروط التي قال أنه يريد أن يطلبها منا و التي لم نتسلم نصها الرسمي حتى الآن و لذلك لم نتمكن من أن نبلغكم إياها و لا أن نعتبرها رسميه ما لم نتبلغ نصها المكتوب رسميا.

إن بعض هذه الشروط هي على كل حال مخالفه ليس فقط لرغبات البلاد و تصميمها الثابت على الاستقلال، و لكنها مخالفه أيضا لروح القرارات المتخذة في (سان ريمو) و للتعهدات الموقعه من فرنسا لأن في قبول هذه الشروط تقويضا لسياده البلاد و استقلالها من أساسه التي اعترفت بها الدول في سان ريمو.

حشد الجنرال غورو جيوشا على حدود المنطقه الشرقيه لجهتي الشمال و الغرب و من المحتمل أن يكون هذ الاجراء دعما للطلبات التي تقدم بها، و التي لم يصلنا نصها الرسمي، كما سبق و قلنا هذا عدا عن أنه أرسل جيوشا فرنسيه إلى رياق. و لقد أبلغ حاكم زحله العسكري قائد قواتنا في رياق:

بأنه احتل عسكريا هذا المركز، كما أن الجنرال غورو أعاد إقامة القوه الفرنسيه التي احتلت معلقه زحله في السنه السابقه ثم من جهه أخرى أبلغنا الكولونال كوس باسم الجنرال غورو بأنه احتل المركزين المذكورين بسبب وجود قواتنا في (مجدل عنجر). و لكن من المعلوم أن مركز مجدل عنجر كان أقيم للمحافظة على الأمن العام في الجوار منذ بدء الاحتلال و أنه عزز أخيرا بعد حشد الجيوش الفرنسيه على حدودنا. و عليه اعترضت حكومتنا على هذه التدابير التي اتخذها الجنرال غورو، و التي لا تتفق مع

التحالف و طالبت بعرض المسأله على الدول أولا- كما أننا نعلن الأمه و العالم أجمع - من على هذا المنبر - باننا لا نريد إلا السلم، و المحافظه على شرفنا و استقلالنا، و أننا لا نقبل بآيه شروط مقيده.

ثانيا - أننا نرفض كل شكوى يظن معها أو يكون فيها مجال للظن، باننا نرغب فى تعكير علاقات الصداقه التى تربطنا بحليفنا أو بحلفائنا.

ثالثا - أننا لا نرفض التفاوض و أننا على استعداد للمباشره به، و أن بعثنا التى يرأسها الملك فيصل هى على أتم الاستعداد للسفر إلى أوروبا لمواصله المفاوضات. و أننا نقبل بكل حل لا يسىء إلى شرفنا و لا إلى حريتنا و على أن يكون قائما على الحق.

رابعا - و أخيرا أننا على أتم الاستعداد و التصميم للدفاع عن شرفنا و حقوقنا بجميع القوى التى أنعم الله علينا بها." انتهى "

اليوم كالأمس

و أننا حين نقرأ هذا البيان و نتدبر ألفاظه و معانيه و مرامييه، لا يسعنا إلا التصفيق للذين تقدموا به و الذين تبوه و أيده. فهو يعلن الموقف الذى يجب أن يقفه أى شعب يهدد فى استقلاله و حريته و يتعرض لغزو استعمارى شرس. و هو الكلمه الفاصله التى يجب أن ترد بها أيه أمه كريمه على المتطاولين إلى النيل من كيانها و الانتقاص من إرادتها. لا سيما إذا كانت هذه الأمه كالأمه العربيه العريقه...

و لكننا و نحن نعيد تلاوه هذا البيان، و ندقق فى كل حرف من حروفه لا نستطيع أن نسترسل فى التصفيق لأصحابه، بل لا نستطيع إلا الوقوف موقف المؤنب الصارخ فى وجوههم: ما ذا أعددتم لتحقيق هذه الأحلام، و ما ذا بيتم للصوص بوجه الغزاه؟. و ما ذا كان عندكم غير الكلام ترسلونه بلا حساب، و غير الحماسه الفارغه من كل قوه و جوهر!..

و أننا و نحن نعيش حاضر أمتنا المنكوبه اليوم بعزتها و كرامتها، المفجوعه بأرضها و ترابها، المرزوه بشعب من شعوبها.

إننا و نحن نعيش اليوم هذا الحاضر المرير، كما عشناه من أوله منذ العام ١٩٤٧ يوم بدت طلّاح الشر الصهيونى الرهيب، و منذ وضحت نيات التهام فلسطين و القضاء على شعبها. و منذ بدأ التنادى لدرس وسائل درء الخطر، و حفظ الوطن!. فعقدت المؤتمرات و زحرت المنتديات، و تدفقت الأقوال الحماسيه و التطمينات الكلاميه.

منذ مؤتمر بلودان و قراراته السريه، ثم منذ التهيؤ للحرب لمنع التقسيم، ثم منذ دخول الحرب و الخروج منها بالعار و الشنار!.

منذ أول يوم، و ما كان يعقب كل ندوه و مجتمع و مؤتمر من تصاريح و أقوال!.

إذا جمعنا الخطب و البيانات و القرارات. و قارناها بهذا البيان البليغ الفصيح الذى ألقته حكومه الأتاسى الاستقلاليه على برلمانها حين ساور الاستقلال الخطر، و أطل على الأمه أبشع ليل فى تاريخها الحديث!..

إذا أجرينا هذه المقارنه، فاننا نرى أنه منذ أكثر من خمسين سنه من

محن و أرزاء و نكبات و تجارب فان كلمات المسئولين هي نفس الكلمات و تعهداتهم هي نفس التعهدات و حماستهم نفس الحماسه!.

ثم النتيجة نفس النتيجة!.

إنك. حين تقرأ هذا البيان و تعيد قراءته و تنسى تاريخ صدوره و موضوع صدوره، إنك لتحسب أنه واحد من هذه البيانات التي اعتدت قراءتها بعد مؤتمرات القمه أو بعد اجتماعات وزراء الخارجيه أو وزراء الدفاع أو رؤساء الأركان.

بل أنك لتحسبه صادرا بعد هزيمة حزيران و ما أسموه بحرب الأيام الستة، و يخيل إليك أنه يتحدث عن قرار مجلس الأمن و التمسك به و الخوف من معارضته!.. و الحرص على كسب الرأى العام العالمى بتبنى السلام! و التشبث بالكلمات اللينه التي تصدر من هنا و هناك!..

أليس البيان يتضمن الإصرار على (الإبقاء على علاقته الصداقه مع الحلفاء و خاصه مع فرنسا و بريطانيا) فى حين أن بريطانيا كانت تحتل العراق و تقاتل أهله، و كانت قد وهبت فلسطين لليهود!.. و فرنسا هي التي تحشد جيوشها للقضاء على الاستقلال!..

تماما: كما ظل يعلن اليوم رجالنا عن حرصهم على صداقه أمريكا، و كما يدعو من يدعو فينا على التشبث بهذه الصداقه!..

ثم أليس يعلن البيان عن التعلق بالأوهام و الاستبشار بكلمه و هميه صدرت من قوى؟..

أليس يقول البيان: (... أعلمتنا بريطانيا بطريقه شبه رسميه، بأنها تعترف بصاحب الجلاله فيصل ملكا على سوريا)!..

فى حين. كانت بريطانيا تتامر مع فرنسا على اقتسام التركة، بعد وأد الاستقلال، فأخذت بريطانيا ما عرف باسم شرق الأردن، و أخذت فرنسا الباقي!..

ثم ألا- يعلن البيان تمسكه بقرارات مؤتمر سان ريمو، تماما كما نعلن اليوم تمسكنا بقرار مجلس الأمن، فى حين أن أس البلاء كان فى قرار مؤتمر سان ريمو!.

ثم ألا يعلن البيان ثقته بان المفاوضات تحل المشكلات!.

أى كما نامل اليوم بما أسميناه (الحل السلمى)! و ألا يعلن البيان تعجبه و استنكاره مخالفه الجنرال غورو لروح القرارات المتخذة فى سان ريمو!.. كما نعلن اليوم تعجبنا و استنكارنا لمخالفات إسرائيل لا- لروح القرارات المتخذة فى هيئه الأمم المتحده و مجلس الأمن، بل لنصوصها الصريحه!..

و أخيرا: ألا تعجبك هذه الحماسه المعبره عن العزه القوميه الواجبه فى الشعوب: إننا على أتم الاستعداد و التصميم للدفاع عن شرفنا و حقوقنا بجميع القوى التي أنعم الله علينا بها!!.

هذا التعبير الذى يبدو أن سياسيينا منذ سنة ١٩٤٧ حتى اليوم قد استعاروه بنصه و روحه!.. لا سيما بعد ٥ حزيران و حرب الأيام

السته!.. فى الوقت الذى كانت حكومه الاستقلال تلقى هذا البيان، كانت البلاد غارقة فى فوضى لا مثيل لها. و لم يكن أحد يفكر فى إعداد خطه المواجهه، و لم يكن أحد يفكر بان فرنسا قد خرجت من الحرب هازمه لألمانيا، و أنها لا تقاوم بالبيانات، بل لا بد من الاعداد و التفتيش عن السلاح لا فى ساعه وقوع المعركه، بل قبلها بسنين!..

و أن كل ذلك يقتضيه إخلاص لا حد له، و عقول كبيره و أنظار بعيده، ترسم و تخطط و تنفذ!..

و هذا ما كان العرب يوم ذاك - كما هو اليوم - بعيدين عنه كل البعد!.

و يظهر أنهم سيظلون بعيدين عنه إلى وقت لا يعلمه إلا الله!.

العاصفه

صبيحه أحد الأيام جالت فى سماء العاصمه طياره فرنسيه و ألقت على المدينه ألوف المنشورات التى لا أزال أذكر تناثرها من الطائره و تهاويها فى الفضاء هابطه إلى الأرض. و كان فى تلك المنشورات تشييط للعزائم ممزوج بالتهديد و الوعيد.

و كنا بعيد وصولنا إلى دمشق قد انتقلنا إلى منزل مؤقت فى أقصى الصالحيه بسفح الجبل لأن إصلاحا كان يجرى فى منزلنا فى حى الخراب.

و كنا مساء كل يوم نمضى إلى الصالحيه للمبيت. و أذكر أننا لم نكد نتجاوز جسر بردى و ننطلق صاعدين إلى الطريق الموصل إلى مداخل الصالحيه ثم نصل إلى المستشفى العسكري حتى رأينا هرجا و مرجا و سمعنا طلقات الرصاص مما استحال معه دوام السير إلى الصالحيه فابنا راجعين. و لم أكن أعى تماما حقيقه ما يجرى. و لما وعيت بعد ذلك بسنين علمت أن الأمر كان ثوره جامحه اضطرت على أثر ما علم الشعب أن الحكومه القائمه اضطرت لقبول الإنذار الفرنسى الموجه إليها من الجنرال غورو و المحتوى على مطالب كثيره منها تسريح الجيش المرابط فى مرتفعات مجدل عنجر، فسرح الجيش و عاد أفراده بسلاحهم إلى دمشق معلنين حقيقه ما يجرى.

فثار الشعب دفاعا عن الاستقلال و انطلقت جموعه تهاجم مستودعات الأسلحه و أهمها داخل القلعه و وقع الاشتباك بين الشعب و حكومته!.

و لكن الفرنسيين ادعوا عدم وصول جواب حكومه دمشق فى الوقت المحدد فواصلوا زحفهم إلى دمشق التى لم يكن احتلالها من بين المطالب الفرنسيه المشتمل عليها الإنذار. لما رأت حكومه دمشق ما يجرى عادت فقررت المقاومه لئلا تتيح للفرنسيين دخول دمشق دخولا سلميا دون دفاع..

نص الإنذار

نشر فيما يلى نص الإنذار الذى وجهه الجنرال غورو باسم فرنسا إلى الملك فيصل لا باعتباره ملكا لسوريا، بل باعتباره أميرا حجازيا يقود جيشا من جيوش الحرب و يحتل جزءا من البلاد المفتوحه، و نلاحظ أن الجنرال يسمى الجيش العربى السورى

بالجيش الشريفى نسه إلى اللقب الأول الذى كان يطلق على الملك حسين و ابنه الملك فيصل، كما يسمى الحكومه بالحكومه الشريفه بهذا الاعتبار نفسه، أى أن فيصلا هو الشريف فيصل ابن الشريف حسين و ليس له إلا هذه الصفه.

ص: ٢٤٨

و قد أرقق الجنرال إنذاره برسالة، يستهل بها الإنذار:

يا صاحب السمو أتشرف بان أرسل مذكرتى المؤرخه ١٤ يوليو، أقدمها إلى سموكم الملكى و أناشد أخلاقكم الساميه و وطنيتكم الصحيحه و شعوركم الودى نحو فرنسا أن تقبلوها.

لقد برهنت فرنسا من جهتها على إخلاصها لسوريا بقبولها لمهمه إرشاد الدوله الجديده و قيادها بنزاهه. و لذلك أريد أن أظن أن سموكم الملكى سيصغى إلى صوت الحكمة فى معالجه هذه القضيه الخطيره فلا يتضامن مع حكومه لا تمثل سوى الأحزاب المتطرفه من الشعب.

و لا- أفكر أننى قادر على أن أعول فى تنفيذ الضمانات التى تشرفت بطلبها على سموكم إذا تولت ذلك الحكومه فبقاؤها فى مناصبها ينطوى على معنى العداة لفرنسا و قد بذلت جهودها لجر بلادكم إلى الحرب و إلقائها فى أتون بلاياها و لن يعصمها سوى تصرف سموكم الملكى وحده.

و هذا نص الإنذار:

"باسم الحكومه الفرنسيه، لى الشرف بان أعرض على سموكم الملكى لآخر مره، موقف هذه الحكومه إزاء السلوك الذى سلكته حكومه دمشق منذ مطلع هذا العام.

" سادت السكينه سوريا إبان الاحتلال الانكليزى و لم يتعكر صفو الأمن و يبدأ الاضطراب فيها إلا لما حلت جنودنا محل الجنود البريطانيين و قد أخذت هذه الاضطرابات تزداد من ذلك الحين.

و لقد أثرت هذه الاضطرابات فى رقى سوريا و نظامها السياسى و الادارى و الاقتصادى أكثر من تأثيرها فى سلامه جنودنا و فى الاحتلال الفرنسى فى المنطقه الغريبه. فحكومه دمشق تحمل كل التبعه إزاء سكان سوريا الذين عهد مؤتمر الصلح إلى فرنسا بان تمتعهم بحسنات إداره مؤسسه على الاستقلال و النظام و التساهل و الثروه، و أن أمانى الولاء و التعاون التى أظهرتها فرنسا لسموكم بتأييدها حقوق السكان الذين يتكلمون الغريبه على اختلاف مذاهبهم و يقطنون القطر السورى بحكم أنفسهم كامه مستقله قد أجاب عليها سموكم معترفا بان لسكان سوريا مصلحه كبيره فى طلب المشوره و المساعدة من دوله كبيره لتحقيق وحدتهم و تنظيم شئون الأمه نظرا للتضعع الذى أصاب البلاد من الارهاق التركى و الأضرار التى نتجت عن الحرب، و تلك المشوره و المساعدة ستسجلها عصبه الأمم عند ما تتحقق بالفعل. و قد دعا سموكم الملكى فرنسا إلى القيام بهذه المهمه باسم الأمه السوريه. و لما كنتم تفاوضون الحكومه الفرنسيه فى شهر يناير الماضى و كانت العصابات الخارجه من دمشق تجتاح المنطقه الغريبه أرسل إلى مسيو كلمنصو البرقيه الآتيه:

"عند ما بلغنى خبر هجوم البدو فى جنوب سوريا و شمالها قلت للأمر فيصل أننى اتفقت معه مؤقتا على بعض المبادئ و أننى أحافظ أتم المحافظه على كلامى و لكن يجب أن يقابل خطتى هذه بمثل ما فيها من الإخلاص و أن يجعل سلطته محترمه على أنصاره فإذا لم ينفذ هذان الشرطان تنفيذًا دقيقًا فالحكومه الفرنسيه تستأنف العمل بحريه و تستعمل القوه لتأييد النظام و احترام الحقوق التى لها من المؤتمر ". و البيان الآتى يوضح جليا كيف أن حكومه دمشق لم تنقطع عن انتهاج خطه معاديه و مخالفه

تمام المخالفه لسياسه التعاون التي رمى إليها الوزراء و تعهدتم بتطبيقها.

١ - عداء جلى على قواتنا:

إن إصرار حكومه دمشق على رفض السماح للسلطه الفرنسيه باستعمال سكه رياق - حلب الحديديه هو عمل عدائى بحت. فالحكومه لا تجهل أن تلك السكه لا بد منها لاعاشه إحدى فرقنا الفرنسيه فى الشمال و تمكينها من القتال و هذه الفرقة تقاتل قوات معاديه تابعه لتركه التي انتزع الحلفاء الظافرون سوريا من ربقتها و دفاعا عن حدود حكومه سوريا الجديده التي يجب أن تربطنا بها روابط المصلحه و عرفان الجميل.

أن حكومه دمشق هي التي وضعت مبدأ تنظيم العصابات و استخدامها ضد جنودنا المحتله. و هذا المبدأ أعلنه قائد الفرقة الثالثه فى حلب صراحه يوم ١٣ ابريل بالقول الآتى:

"لما كنا لا- نستطيع أن نعلن الحرب رسميا على الفرنسيين يجب علينا أن نملاً- البلاد بالعصابات التي تجهز عليهم تدريجيا و سيقود ضباطنا هذه العصابات فإذا استشهد أحدهم تعيل الحكومه عائلته".

و إليك الأدله الآتیه على دقه تنفيذ هذه الخطه:

فى ١٣ كانون الأول ديسمبر سنه ١٩١٩ هوجم موقعنا فى تل كلخ بتحريض السلطه الشريفيه فى حمص و فى أواخر ذاك الشهر ذبح بدو محمود الفاعور الذى قلتم لى يا صاحب السمو الملكى أنه صديقكم الشخصى مسيحي مرجعيون و هجم على جنودنا فى ١٤ يناير رافعا العلم الشريفي.

و فى ٢٥ منه سنه ١٩٢٠ تحقق وجود الجنود الشريفيه بين الذين هاجموا جنودنا تحت قياده ثريا بك (بركات) فى قريق خان ثم فى الحمام. و فى حزيران - يونيه ثبت وجود أمير الامى و يوزباشى و سته ملازمين و ٣١٧ رجلا- من الجيش الشريفي بين العصابات التي كانت تعمل فى ساحه مرجعيون و ثبت استعمال معدات ماخوذه من الجيش نفسه و هي أربعة رشاشات ثقيله و ثلاثه خفيفه و خمسون صندوق ذخيره و ظهر أيضا اشتراك محرضى المنطقه الشريفيه فى الاضطرابات التي امتازت بمذابح (عين إبل) و فتنه الشيعة فى شهر حزيران - يونيو.

ثم أن منظمى العصابات محترمون كل الاحترام فى دمشق لا سيما صبحى بركات الذى لا يجهل أحد إساءته إلينا.

و عند ما لم تكن العصابات ترسل من المنطقه الشريفيه كانت الفتنة تثار فى المنطقه الفرنسيه ذاتها.

و بهذه الأعمال وقعت اعتداءات عديده على المسيحيين لا سيما فى جسر القرعون فى ٢٩ كانون الأول - ديسمبر حيث تقع التبعه على الضابطين الشريفيين واجد بك و تحسين بك..

و قد ساعد الشيخ صالح (العلی) بطل الفوضى و البغضاء لنا مساعده مؤثره مستمره فى جبال النصيريه.

و من الممكن تعداد كثير من هذه الأمثلة و قد عرضناها على سموكم الملكى فى حينها.

ص: ٢٤٩

رأى سموكم الملكى إدخال أشخاص مشهورين بعدائهم لفرنسا فى حكومه دمشق و كان تأثير المحيط شديدا عليكم حتى أنكم لم تتمكنوا من السفر فى الوقت المناسب تليه لدعوه مؤتمر الصلح، و قد تألفت الوزاره من أناس من تلك الفئه التى لا تقتصر خطتها على إهانته فرنسا و رفض مساعدتها بل تتناول المجلس الأعلى الذى منح فرنسا الانتداب لسوريا.

إن رفض انتداب فرنسا رفضا باتا فى ١٨ أيار الماضى هو خطه عمياء تجر نتائجها المصائب على سوريا.

٣ - التدابير الاداريه ضد فرنسا:

إن التمتع الاقتصادى الظاهر فى رفض ورق النقد السورى الجديد الذى أصدره البنك السورى لحساب فرنسا و منع جميع المعاملات الشرقيه هو دليل جديد على عداء مضر بمصلحه البلاد.

و كذلك منع نقل الحبوب إلى المنطقه الفرنسيه مبتدئا من حماه فدمشقفحلب، ثم أن السلطه الشريفيه اجتازت حدود المنطقه الشرقيه و تقدمت تدريجيا داخل المنطقه لتظهر أنها توسعت توسعا يقصد به إخراجنا.

ففى شهر آذار مارس وضع مخفر شريفى فى الخالصه ثم رفع العلم الشريفى على القدموس بعد ذلك بقليل و فى نيسان جعلت حكومه حلب القصير قضاء شريفيا. ثم نصب قائم مقام شريفى فى جسر الشغور.

٤ - أعمال عدائيه موجهه رأسا إلى فرنسا:

إن من كان صديقا لفرنسا أو مواليا لها فى المنطقه الشرقيه يكون مشتبهها به من السلطه و يعامل معامله سيئه فى أغلب الأحيان.

(و بعد أن يذكر الإنذار بعض الأمثله يعود فيقول):

و عدد سكان المنطقه الشرقيه الذين أكسبهم عداؤهم لنا عطف الحكومه عظيم جدا.

إن بث الدعوه ضد فرنسا فى المنطقه الغربيه قد ألبسته حكومه دمشق أشكالا خبيثه أرادت السلطه الفرنسيه أن تغمض عينها عنها لأنها قررت اتباع سياسه التساهل إلى النهايه.

و آخر هذه الأعمال و أظهرها شراء القسم الأعظم من أعضاء مجلس الاداره باثنين و أربعين ألف جنيه مصرى.

و لقد ألفت مخافرنا القبض على هؤلاء الأعضاء فى ١٠ تموز يوليو بينما كانوا ذاهبين إلى دمشق لبيع بلادهم منكرين الأمانى التى أعرب عنها مواطنوهم بالإجماع تقريبا منذ عهد بعيد.

إن صحافه دمشق التى تفرط الحكومه فى شد أزرها تواصل دائما حملاتها على كل ما هو فرنسى و تقبح السلطه المحتله فى المنطقه الغربيه و ترد كل مساعده تعرضها فرنسا على سوريا و تهيننى أقبح إهانته.

بمقتضى هذه الحقوق يجب على قائد جيش الحجاز المحتل قطرا سوريا لا بد أن يظل عثمانيا إلى أن يقتضى تنفيذ المعاهده بتغييره أن لا- يعمل بغير هذه الصفه و أن يحافظ على الحاله الراهنه و هو حارسها. و لكنه تصرف عكس ذلك متخذا صفه السيادة العليا و قد تقرر التجنيد الاجبارى و نفذ منذ كانون الأول سنه ١٩١٩ مع أن البلاد لا تزال بلادا أجنبيه و هذا العبء الثقيل الذى لا يجدى نفعا قد أكره عليه الشعب حتى فى المناطق التى لها شكل خاص كالبقاع. و نفذ فى أناس مستثنين منه كاللبنانيين و المغاربه المقيمين فى المنطقه الشرقيه. و لاقى هذا التجنيد الباطل مقاومه نزيهه أدت فى بعض الأحيان إلى إراقه الدماء.

ثم أن المجلس الملقب بالمؤتمر السورى الذى تألف و اجتمع بصوره غير قانونيه يسن القوانين بل يحكم باسم حكومه و دوله لم يعترف بوجودها.

و فضلا عن ذلك فقد قدم اللقب الملكى لسموكم الملكى بدون حق و لا و كاله مما وضعكم كما عبرتم عن ذلك فى موقف التمرد على مؤتمر الصلح.

و لم تحترم الامتيازات الأجنبيةه فان أحد رعايانا الأمير مختار الذى يمثل أسره كبيره اشتهرت منذ القدم باتصالها بفرنسا قد أوقف إيقافا معيبا.

و ليست الاتفاقات السياسيه محترمه أيضا. فان لواء من الجيش الشريفى أرسل إلى مجدل عنجر رغم الاتفاق الذى تم فى كانون الأول الماضى مع المسيو كليمنصو و الذى يقضى أن لا تحتل فى البقاع قوه شريفيه أو فرنسيه.

٦ - الأضرار التى أصابت فرنسا و سوريا من ذلك:

لم تستطع السلطه الفرنسيه حتى الآن أن تنظم البلاد التنظيم الذى تنتظره منها لأنها اضطرت إلى صرف قواها و جهودها لقمع الفتن المتواليه و مواصله المفاوضات السياسيه الجديه العقيمه مع حكومه دمشق، فهى و الحاله هذه غير مسئوله عن هذا التأخير بل تتحمل العبء العسكرى و المالى الذى تقضى به الحاله التى أوجدتها حكومه دمشق و لا يمكن إلا أن تؤثر على التكاليف فى الميزانيه السوريه سواء بفقد الدخل الذى ينشأ عن استمرار الفوضى أو الاشتراك فى نفقات السياهه التى تلحق بها فى المستقبل.

و لقد بلغت حاله الفوضى التى أوجدها مثيرو الفتن فى البلاد حدا دعا إلى استجلاب قوات كبيره أعظم عددا مما يدعو إليه استبدال جنود إنكليزيه و أن هذه الأسباب تدل دلالة كافيه على أنه لا يمكن بعد الآن أن نعتمد على حكومه جاهره فرنسا إبان السكينه بالعداء كل المجاهره و أخطات نحو بلادها خطأ عظيما بظهورها عاجزه عن تنظيمها و إدارتها.

لذلك ترى فرنسا أنها مضطره لأخذ الضمانات التى تكفل سلامه جنودها و سلامه السكان التى نالت من مؤتمر السلم مهمه الوكاله عليهم فاتشرف بان أبلغ سموكم الملكى أن هذه الضمانات هى كما ياتى:

١ - التصرف بسكه ريباق - حلب الحديديه لإجراء النقليات التى تامر بها السلطه الفرنسيه و يؤمن هذا التصرف بان يراقب

مفوضون عسكريون فرنسيون جميع ما ينقل في محطات رفاق و بعلبك و حمص و حماه و حلب تعضدهم قوه مسلحه مخصصه للمحافظه على المحطه و احتلال مدينه حلب التى هى نقطه مواصلات هامه لا يسعنا أن نتركها تسقط فى يد الترك (1)ك.

ص: ٢٥٠

١- كانت السلطات السوريه قد رفضت أن تسهل للجنرال غورو استعمال السكه الحديديه لارسال القوات و المؤن و الذخائر إلى كيليكيه حيث كانت الجيوش الفرنسيه مشتبهه فى محاربه القوات التركيه الكماليه، و كانت نتيجه ذلك أن شعر الفرنسيون بحرج مركزهم فى كيليكيه فاتفقوا مع مصطفى كمال على الجلاء عنها و استرداد قواتهم منها، و دفعوا بها فجاه إلى سوريا. و يروى بعضهم أن بعض الفئات كانت تدعو إلى تعاون سوريا و تركيا الكماليه لمقاتله الفرنسيين حتى النهايه و حملهم على الاعتراف باستقلال سوريا، و قد سافر يوسف العظمه و سعيد حيدر إلى إعزاز على الحدود التركيه و تباحث كل منهما مع مندوبى الحكومه الكماليه فى إنشاء تعاون عسكري بين الحكومتين، فوعده بان يطلعوا حكومتهم على اقتراحاته و يبلغوه الجواب، و لكن الهدنه التى عقدتها فرنسا مع الأتراك أوقفت المباحثات عند ذلك الحد. و قد كان امتناع الحكومه الوطنيه فى دمشق عن فتح السكه الحديديه أمام الفرنسيين للوصول إلى قتال الأتراك نابعا من الأصاله الوطنيه العربيه التى أبت مساعدته الفرنسيين على الأتراك المقاتلين فى سبيل بلادهم. و تناسى العرب كل ما عانوه من فظائع الاتحاديين الأتراك خلال الحرب و رجعوا إلى ما يمليه عليهم شعورهم الوطنى البحث متجاهلين حتى مصلحتهم فى عدم إغضاب الفرنسيين. على أننى سمعت من رضا الركابى نفسه الذى كان فى ذلك الحين رئيسا للوزاره الاستقلاليه الأولى - سمعت منه بعد ذلك بسنين - أنه كان من رأيه التحالف مع الفرنسيين فى هذا الموقف الذى تجمع فيه المصلحه بين الفرنسيين و العرب، و أن لا مجال للعواطف أمام الحقائق. و أن حكومته استقالت لعدم الأخذ برأيه، فخلفتها وزاره الأتاسى التى يتحدث عنها الجنرال غورو. و يبدو أن الأتراك استغلوا مفاوضه السوريين لهم فاطلعوا الفرنسيين على ذلك، فكان أن تحالف الفريقان و انسحب الفرنسيون من كليكيا موجهين قواهم كلها لقتال السوريين. و لا شك أنه كان للتزاحم الانكليزى الفرنسى أثر فى ذلك، فان الإنكليز كانوا أعوان اليونانيين فى غزوهم للأناضول، فرد الفرنسيون بتأييد الأتراك.

٢ - قبول الانتداب الفرنسي:

إن هذا الانتداب يحترم استقلال أهالي سوريا و لا يناقض مبدأ الحكم بسلطه سوريه تستمد قوتها من إرادته الشعب و لا يتضمن سوى معاونه بشكل مساعده و تعاون مع الدوله المنتدبه دون أن يتخذ مطلقا شكل استعمار أو إلحاق أو إداره تنفذ رأسا.

٣ - قبول الورق السوري:

تصبح هذه العمله وطنيه فى المنطقه الشرقيه فتلغى جميع الأحكام المتعلقه بالبنك السورى فى المنطقه الشرقيه.

٤ - تأديب المجرمين الذين كانوا أشد عداء لفرنسا. (و يعدد الإنذار بعضهم).

و هذه الشروط تقدم جملة و يجب قبولها جملة أيضا بلا أدنى فرق خلال أربعة أيام تبتدى من نصف ليل ١٠ تموز (أى ١٤ منه الساعه ١٢ ليلا) و تنتهى فى ١٧ منه الساعه ٢٤ (أى الساعه ١٢ ليلا).

فإذا جاءنى علم من سموكم قبل هذا الموعد بقبول هذه الشروط فيجب أن تكون قد صدرت أوامركم فى الوقت نفسه إلى المراجع اللازمه لكى لا- تعارض جنودى الزاحفه لاحتلال المواقع المعينه، ثم أن قبول الشرط الثانى و الثالث و الرابع يجب أن يؤيد رسميا قبل ١٨ منه، أما تنفيذها بالتمام فيكون قبل ٣١ منه الساعه ٢٤ (نصف الليل).

و إذا كان سموكم الملكى لا يشعرنى فى الوقت اللازم بقبول هذه الشروط أتشرف بان أبلغه أن الحكومه الفرنسيه تكون مطلقه اليد فى العمل. و فى هذه الحاله لا أستطيع أن أؤكد أن الحكومه الفرنسيه تكتفى بهذه الضمانات المعتدله. و لا تقع على فرنسا تبعه المصائب التى تحل بالبلاد فهى قد برهنت على تساهلها من زمن طويل و فى الآونه الأخيره. فحكومه دمشق هى التى تتحمل جميع أعباء مسئولييه فصل الخطاب الذى لا انظر إليه إلا آسفا و لكنى مستعد له بمتانه لا تترزع.

جماهير الحرب

و أذكر الآن مناظر السناجق(١) مرفوعه أمام الجماهير و دقائق الطبول التى اندفعت فى الأزقه و الشوارع تؤلب الناس ليتجمعوا للقتال. كما أذكر جماهير المتطوعين ذاهبه (بعراضاتها) إلى محطه البرامكه لتركب القطار الحديدى إلى أقرب محطه للجبهه الجديده فى ميسلون و هى (الهامه) حيث يواصلون السير من الهامه إلى ميسلون على أقدامهم. و كان يطيب لى مرافقه الذاهبين إلى المحطه باهازيجهم الحماسيه و هتافاتهم المدويه. و قد ظلت صور بعض الوجوه منطبعه فى ذهنى فكنت أشاهدها بعد مر السنين فى دمشق فاتذكر الزحف إلى محطه البرامكه.

بعد معركة ميسلون

ولا- أعى ما جرى بعد ذلك تمام الوعى، غير أننى أتذكر منظر رجال الشرطه و قد عصبوا زنودهم اليمنى بعصابات بيضاء مكتوب عليها كلمه "بوليس" و هم يتنقلون فى الشوارع. و قد علمت بعد ذلك أنه بعد الهزيمه فى ميسلون و انهيار الحكم الوطنى و ترقب دخول الفرنسيين دمشق كان لا بد من هذا التدبير ليظل رجال الشرطه محافظين على الأمن دون أن يثيروا ريبه

الفرنسيين بلباسهم العسكري و سلاحهم من المسدسات.

و كما شهدت زحف لجماهير إلى محطة البرامكه، فأننى أذكر الاستقبال الفخم الذى أعده بقايا صنائع الأجنبى للجنرال غورو فى دخوله إلى دمشق لأول مره و كيف حشدوا لناس على مدخل دمشق و فى (المنشيه) فدخل الجنرال دمشق دخول الفاتحين حقا تستقبله جماهيرها المكتظه و لم يكتفوا بذلك، بل أن (أبو شكرى الطباع) و رفاقا له فكوا خيول عربيه الجنرال و جروا العربيه بأنفسهم بدل الخيل. و كان الطباع يعتذر بعد ذلك بان قريبا له كان محكوما بالاعدام، و رجا بهذا التصرف إنقاذه!.

كما أذكر منظرا من مناظر تلك الأيام، و هى أننا كنا نسير مع والدى إلى دعوه على العشاء، و أن واحدا سلم على والدى ثم انفرد به ناحيه و أسر له بشيء و لما عاد الوالد كان وجهه يطفح بشرا على غير عادته فى تلك الأيام الكئيبه. و لما انتظم المجلس فى الدار المدعويين إليها أقبل خلال الليل رجل أسر للوالد بكلام أعاد إلى وجهه الكابه.

ثم علمت بان ما بعث البشر فى وجهه أول الأمر هو أن الرجل أسر إليه بان الجنرال غورو قد اغتيل و هو فى طريقه من دمشق إلى القنيطره لزياره محمود الفاعور شيخ عرب الفضل فى الجولان الذى كان قد أعد له

ص: ٢٥١

١- هذه السناجق كانت موجوده فى كل حى و توضع فى أكبر مساجد الحى أو عند قبر ولى مدفون فى الحى. و يبدو أن هذه السناجق تعود إلى العصر الأيوبى. و يتكون (السنجق) من قطعه قماش كبيره جدا ذات بطانه. يحمل الواحد منها الرجل القوى فى الحى من وسطها بعمود و يعينه فى الحمل آخرون من اليمين و اليسار بحبال ربطوها وسط العمود و أطراف (السنجق) ليتنشر السنجق انتشارا كاملا فيقرأ الناس، ما عليه من آيات و أدعيه و استنفارات. و قد سرق معظم هذه (السناجق) و نقلت إلى بلاد الغرب.

احتفالات حاشده و أن ما أعاده إلى الكابه فى الليل هو أن الجنرال قد نجا من محاوله الاغتيال.

فى المدرسه العلويه

بعد يومين أو ثلاثه من وصولنا إلى دمشق دخلت المدرسه العلويه، و أحسب أنى كنت فى الصف الثالث الابتدائى، و كنت على مستوى حسن مع طلاب الصف ما عدا شيئين اثنين هما اللغه الفرنسيه و الحساب. فقد كنت لم أدرس شيئا من الفرنسيه كما أن موهبتى فى الحساب كانت فى منتهى الضعف فضلا عن معلوماتى. و قد كان على أن أدرس أضعاف ما يدرسه التلاميذ فى اللغه لأستطيع مجاراتهم و كان ذلك فوق الطاقه، لذلك بقيت ضعيفا فى اللغه متعبا فى متابعه دراستها. أما الحساب فقد كانت مشكلته أعصى من أن تحل لأن فقدان الموهبه فيه لا يجدى معه أى درس أو تعب.

و لا أزال أذكر أنه خلال بقيه سننى الدراسه الابتدائيه كان يصادف درس الحساب أول ساعه من صباح يوم السبت. فكنت من هم التفكير فى اليوم المقبل لا- أستمتع باى استجمام فى عطله يوم الجمعه، حتى إذا دنا أصيل الجمعه و بدأ النهار يتقلص و ينقضى تراكمت على مناعب التفكير فى الصباح الآتى و ما يحمله من درس الحساب، فلا يكاد الظلام ظلام يوم الجمعه يطبق حتى أحس بأنه قد أطبق على نفسى.

و قد ظللت حتى اليوم أتضايق من جمع عدددين أو طرحهما أو قسمتهما أو ضربهما و لا بد من أن أقع فى الخطا. و قد كان أكثر ما يخجلنى هو أننى إذا دفعت أكثر مما هو المطلوب منى على أن يعاد إلى الباقي ثم حسبت ما أعيد إلى وجدته ناقصا و راجعت الدافع فيعاود العد فيجده صحيحا!..

لذلك أصبحت لا أعد ما يعاد إلى، أو ما يدفع إلى رأسا. و قد استغل هذا الأمر فى نادل فى أحد مطاعم بغداد حين أقمت فيها لفته، فقد لاحظ أنى لا أعد ما يعيده إلى و تكرر ذلك، فإذا بى أكتشف بعد حين أنه ينقص من حقى أشياء يحتفظ بها لنفسه! على أننى إذا كنت مقصرا فى الفرنسيه و الحساب متعبا بهما، فقد كنت متقدما فى اللغه العربيه و التاريخ مستعذبا لهما مرتاحا إليهما. و كذلك فى درس الهندسه.

و قد كان يتولى إداره المدرس العلويه فى أول دخولنا إليها مدير تقليدى من قدامى الرجال، و صدف أن مرض و تغيب، فوافق تغييره حادث حدث للأستاذ أديب التقى. إذ كان مديرا للمدرسه (البحصه) الابتدائيه فى دمشق. و كان الشعور العام معاديا للافرنسيين، فانفجر هذا الشعور بين تلاميذه فى أحد الأيام و ساعد بتصرفاته على هذا الانفجار مما ساء السلطات فاقالته من إداره المدرسه الحكوميه. ثم انتهى الأمر إلى أن عين مديرا للمدرسه العلويه. فكان ذلك حدثا فريدا فى حياه هذه المدرسه كما كان ذا أثر بعيد فى توجيهى الدراسى و الفكرى. فانا مدين لاثنين فى حياتى الثقافيه هما والدى ثم أديب التقى.

كان أديب التقى فذا فى الرجال، ذا خلق مستقيم و إداره حازمه و فكر نير، و كان إلى ذلك أديبا من أقوى أدباء العرب. و إذا كنت أستطيع أن أمسك القلم اليوم و قبل اليوم فان له فى ذلك الفضل الكبير. لقد تولى بنفسه تدريسنا ثلاثه دروس: الإنشاء و المحفوظات و التاريخ. فكان لنا من دروسه الثلاثه هذه خير موجه فى الأدب و الوطنيه و البحث. و قد وعيت بفضلله - على صغر سننى - أمورا ما كان لى أن أعيها لو لا توجيهه..

لقد عرف بدرس الإنشاء كيف يثير فينا الحس الأدبي و كيف يسير بنا في دروب الكتابه، و كيف يقوم أقلامنا و يثقف أسلوبنا. و عرف بنفس الدرس و بدرس المحفوظات و التاريخ كيف يثير فينا إلى جانب هذا كله الحس الوطني و الثوره على الانتداب و النقمه على الغاصبين.

لقد كنت متأثرا بمظاهر الثوره العامليه التي شهدت بعض فصولها خلال الإقامه في شقرا، ثم ازددت تأثرا بمظاهر الاستقلال بدمشق ثم بمظاهر الهزيمه بميسلون و ما تلاها من انهيار الاستقلال. و لكن ذلك لم يؤلف في ذهني صوره كامله لمعاني الوطنيه و الثوره على الاستعمار فلم أكن في مثل تلك السن لأتبين حقيقه ما جرى و ما يجري و لكنني في أعماقي كنت متأثرا بكل ذلك. فإذا بأديب التقى يقده في نفوسنا الشراره الكامنه و يركز الصوره غير المتكامله فتبدوا لنا جليه واضحه!

جاءنا في أحد دروس الإنشاء في يوم مرت فيه في سماء دمشق طيارات فرنسيه، و كان مرور الطيارات في ذلك الحين يعتبر حدثا مثيرا.

و لم تكن العيون و الأفكار قد ألفت رؤيتها، فإذا امتد الدوى المنذر بوصولها اشرابت الأعناق إلى السماء لتتطلع بتعجب عميق إلى هذا الجرم السابح في الفضاء، الراكض في السماء! دخل أديب التقى علينا و طلب إلينا أن نكتب موضوعا عنوانه (عند

مشاهدتى الطياره) و يقصد بذلك أن ندون شعورنا عند ما نشاهد طياره.

و كان شعورنا شعور أطفال لا يتعد عن التصورات الصبانيه، فلا أذكر الآن ما ذا كتبنا.

و بعد أن اطلع أديب التقى على ما كتبنا جميعا، طلب إلينا أن نأخذ أقلامنا و نهى أوراقنا ثم أملى علينا قطعه تعتبر آيه من آيات البيان و مرجلا- من مراجل الوطنيه. و كم آسف أن لم يبق فى ذهنى منها سوى مقطعها الأخير، و كفى به دليلا- عليها، و كان المقطع الآتى...: فما كان أشد خفقان قلبى أسى حين أوحى إلى سميتها أنها أجنبيه... ليت لنا طيارات أيضا.

هذه القطعه كانت الشراره التى أوقدت فى نفسى جذوه الوطنيه، و أثارت فى عقلى العزه القوميه.

و لا أزال حتى الآن أحفظ فى ذاكرتى بعض ما لقننا إياه للاستظهار فمن ذلك مختارات من قصيده الشيبى (دمشق و بغداد) و مطلعها:

ما ذا بنا و يذى الديار يراد فقدت دمشق و قبلها بغداد

و كلها على هذا النسق الوطنى المثير، فضلا عن بلاغه الشعر و قوته.

و كذلك مختارات من قصيده شوقى فى سقوط أدرنه:

يا أخت أندلس عليك سلام هوت الخلافه عنك و الإسلام

إلى غير ذلك من هذا و أشباهه الباعث على شيئين: على تذوق أرقى الشعر، و على التغنى بالوطن.

مصر و السودان

و من التأثير بهذا انطلقت و أنا فى الدراسه الابتدائيه أمام الزعماء المصريين الفارين يوم ذاك من وجه الإنكليز فى مصر، انطلقت بذاك الجواب الذى هزهم هزا.

فإنه على أثر اغتيال لستاك باشا القائد الانكليزى للجيش المصرى أيام رئاسه سعد زغلول للوزاره المصريه اتهم بعض زعماء الوفد و شبانه بأنهم هم المتآمرون على القائد فقبض على من قبض عليهم و فر من استطاع الفرار و لجئوا إلى دمشق.

و لا أدرى الآن سبب زيارتهم للمدرسه العلويه، و ربما كان ذلك ردا لزياره المدير الذى يمكن أن يكون قد زارهم فردوا له الزياره فى المدرسه، و لا أعرف الآن أسماءهم ما عدا واحدا منهم هو الدكتور محجوب ثابت، و سبب حفظى لاسمه، أن منظره كان متميزا فيهم بسبب لحيته الكثه و جسمه الممتلى!.

دخلوا علينا غرفه المدرس يصحبهم المدير و نحن فى درس الجغرافيا فكان من الطبيعى أن تكون أسئلتهم فى هذا المدرس. فاختار أحدهم تلميذا و قال له: عد لى مدن القطر المصرى. فارتبك التلميذ و اضطرب و ظهر عليه العى. فأسرعت أرفع يدي استعدادا

للاجابه فتوجه السائل بالسؤال إلى فانطلقت معددا: القايره، الإسكندريه، الخرطوم!.

و لم أكد أذكر اسم الخرطوم حتى صاح الدكتور محجوب بصوته الجمهورى: إيه... إيه... إيه... إيه... إيه الخرطوم، الخرطوم دى فى السودان.

فبادرته قائلا: نحن نعتبر مصر و السودان بلدا واحدا. و لأجل أن نعرف وقع هذا الجواب على الزعماء المصريين يجب أن نعرف أن الشعار الأول للكفاح المصرى كان يوم ذاك وحده مصر و السودان.

فأثار الزعماء المصريين أن يعى تلميذ صغير السن حقيقتهم الوطنيه و يهتف بشعارهم القومى و هم بعيدون عن بلدهم.

و لا أزال حتى الآن أتمثل فى ذهنى دموع الدكتور محجوب ثابت و قد تحدرت على وجنتيه و لحيته.

الخطاب المرتجل

وعدا عن درسى الإنشاء و المحفوظات فقد خصص أديب التقى بعد ظهر الاثنين من كل أسبوع لتعويدنا الخطابه بعد تمريننا على الكتابه، فكان بعد ظهر الاثنين ميدان للخطباء من التلاميذ يعرضون فيه مواهبهم و ينمونها بتوجيه أديب التقى الذى كان يستمع مع مجموع الأساتيد و التلاميذ إلى ما يلقى على منبر المدرسه، ثم يعلق على ما ألقى مشيرا إلى الحسنات و السيئات لتقويم الخطباء و تثقيفهم.

و قد كان يتخذ من هذا المنبر أيضا وسيله لتنمية الروح الوطنيه، و لا أزال أذكر أن أحد الخطباء من التلاميذ استعمل خلال كلامه كلمه (الشعب السورى)، فهب أديب التقى يعنى على الطالب هذا الإطلاق قائلا: أن لا شعب إلا الشعب العربى.

و من هذا و أمثاله كان إحساس الطلاب بقوميتهم و تأثرهم بوطنيتهم ينمون و يتفاعلان فى الوجدان و النفس.. فى مثل ذاك الجو الارهابى الاستعمارى الذى فرضه الفرنسيون على البلاد بعد معركه ميسلون و ما تلاها من سنين.

و لم يكن فينا من يحاول الارتجال فى مثل تلك السن، و لم نكن نجرؤ على مثل هذه الخطوه ما دمنا مستطيعين كتابه ما نريد أن نقوله.

و لكن فى إحدى الرحلات المدرسيه التى كانت تنظم بين الحين و الحين إلى بعض القرى، دعينا إلى الغداء على أن نتناوله بعد تأديه صلاه الجمعه فى مسجد البلده. و علمنا أن أمام المسجد سيرحب بنا خلال خطبه الجمعه لذلك عهد إلى باعداد كلمه تناسب الرد على ترحيب الخطيب، فكتبت كلمه موجزه و وضعتها فى إحدى جيوبى على ما اعتقدت، و لكن يبدو أننى إما قد أخطأت فتركتها فى مكان آخر أو أنها وقعت بعد ذلك من جيبي دون أن أدرى.

و فى الموعد المعين ذهبنا إلى المسجد المكتظ بالناس و صعد الخطيب المنبر و ألقى خطبته مرحبا بضيوف البلده، و بعد انتهائه مباشره هببت إلى المنبر العالى و وقفت على ذروته، و مددت يدي لآخذ الورقه المعده لهذا الموقف، و كانت الأبصار كلها شاخصه إلى متيئه إلى ما سيقوله هذا التلميذ الصغير.

و لكننى لم أجد الورقه و فى لمحات مددت يدي إلى كل جيوبى عبثاً، فهالنى أول الأمر الموقف. و لكننى ملكت روعى و سيطرت على نفسى و انطلقت فى كلام ارتجالى كان عماده ما لا يزال عالقا فى ذهنى مما هو مكتوب فى الورقه.

ص: ٢٥٣

فشجعني هذا بعد ذلك على الارتجال و استسهلته و مضيت به بعد ذلك في حياتي كلها.

دمشق يوم ذاك

كانت مدينة دمشق في تلك الحقبة من مطالع القرن تعيش فتره انتقاليه، في عاداتها و تقاليدھا الاجتماعيه، ما بين المحدث و القديم الذي كان في أواخر أيامه و كانت وسائل النقل في المدينه تتنوع بين الترامواي و عربات الخيل و السيارات على قلتها و ندرتها، و هي للخاصه من القوم أما سيارات الأجره فكانت معدوده و مخصصه للانتقال بين المدن دمشق - بيروت على الأغلب، لأن طريق دمشق - حلب كانت بالقطار. و دمشق تلك الحقبة كانت في أحيائها و طراز بيوتها من أندر مدن العالم. و كان بعض القديم من بيوتها قائما كما كان منذ عقود كثيره من السنين. و قد زرت دمشق قبل أسبوع و أدهشني بقاء حينا و بعض الأحياء الأخرى على ما كان فيها من أزقه و دخلات، تعادل ما يسمونه في بيروت "الزوارب". أما البيوت فأمرها عجيب إذا رأيتها من الخارج فستظن إنك أمام خرائب لكن عند دخولك إليها ستفاجئك باحاطتها الواسعه بما تحويه من أشجار و نباتات مزهره و أحواض، إلى برکه في وسط الباحة. و حتى بيوت الفقراء كانت تحتوى على بحرہ و أشجار و نباتات مزهره و لا بد في كل بيت من وجود ما يسمونه "ليونان" يقع في وسط المنزل و يفضى إلى أرض الدار أو فسحتها، و هذا الترتيب للبيوت كان يتوخى على الأرجح، تعويض النساء عن عدم التنزه في المنتزهات العامه، إذ بجلوسهن في الليوان يشرفن على البحره و أحواض (الزريعه) و الأشجار. و منذ أواسط الثلاثينات بدأ الناس يخرجون من هذه البيوت، حتى الفخمه منها، إلى بيوت السكن الحديثه ذات الطوابق الكثيره. إلا- أن الفقراء و متوسطو الحال بقوا في تلك البيوت التي لا تزيد طوبقها عن اثنين الأرضى منهما للاقامه في الصيف للرتوبه فيه، لأن المياه تحيط دمشق من كل جانب، إلا أن النوم يكون في الطابق العلوى صيفا و شتاء بسبب شدة الرتوبه. و من أعقد و أغرب ما في دمشق نظام توزيع المياه على أحيائها و بيوتها منذ القديم. و هو نظام دقيق و محكم التنظيم و يستلزم أخصائيين لشرحه. ففي كل زقاق من أزقه دمشق كان يوجد ما يسمى "الطالع" و هو جرن مقفل تنصب فيه المياه الآتية من المركز الأساسى الذى يغذى المدينه. و لهذا الجرن فرضات متساويه على حافته الدائريه، منها تتغذى البيوت بالمياه بالتساوى و إلى مياه "الطوالع"، كان في كل منزل دمشقى قديم بئر تستخرج منه مياه الاستعمال بالمضخه اليدويه. و إلى البحره القائمه في أرض الدار، كانت هناك بحرہ ثانيه تقوم في المطبخ، لا أدرى من أين كانت تترود بالمياه... كان دمشق كانت مدينه للمياه.

أزياء، مقاه و فرنيون

كان الغالب على ملبس الجمهور الدمشقى حتى في أواسط الأثرياء من كبار التجار و زعماء الأحياء، ارتداء "القمباز" و ما يغلب على القنابيز هو حياكتها في دمشق. و لا- بد من شد وسط الرجل بزنا عريض. و في لباس الرأس، و لا سيما بين التجار، كان الطربوش ملفوفه عليه عمامه مطرزه صفراء اللون تعرف ب "الغبانى". على أن الأبناء من طلاب المدارس كانوا يلبسون اللباس المحدث، بينما بقى الأبناء الكبار السن، الذين لم يتسن لهم متابعه الدارسه، على أزياء آبائهم، لكن من غير لف طرابيشهم بالعمامه. و هكذا كان البيت الدمشقى يحتوى ثلاثه أنواع من الملابس. و في عهدنا بدأ التطور يظهر في تخلى الآباء عن العمامه و اكتفائهم بالطربوش، كما تخلى الأبناء الكبار عن القمباز لصالح لباس إخوانهم الصغار المحدث، إلى أن تخلى الآباء عن اللباس التقليدى لصالح الزى الرسمى المعروف الآن.

أما ملابس النساء فكانت واحده موحدہ تلتزمها الجده العجوز كما الفتاه الشابه، أو البنت التي بلغت الست السنوات. و الملاء

السوداء كانت تغطي الجميع، و النقاب الأسود يجب الوجوه، إلا أن ما يختلف بين النساء هو ما تحت الملاءه من ملابس.

و الملاهي لم تكن معروفه فى دمشق، إلا تلك المخصصه للرواد من الفرنسيين و الأجانب و البعض من الدمشقيين ممن تطبعوا بطباعهم.

و بيروت كانت تزدهم بالدمشقيين أيام الجمعه من كل أسبوع، و على الأغلب منذ ما بعد ظهر نهار الخميس حتى صباح السبت الباكر. و كان لانتقال الدمشقيين إلى بيروت سببان: استيراد السلع من التجار، و اللهو و العبث فى ملاهي بيروت التى كانت تستقبلهم ليلتين كاملتين، إذ يجدون فيها ما لا أثر له فى دمشق. أما المقاهى الدمشقيه فكانت كثيره و تزدهم بالرواد فى الآصال و الأماسى، و لا سيما بعد أن شق شارع بغداد و قامت على جانبيه بعض المقاهى الحديثه النظيفه الشبيهه بالمنتزهات. أما قلب الأحياء و أطرافها فكانت تحوى مقاهى الفقراء. و كانت شلل من الطلبة الدمشقيين، ممن تؤثر فى "ميزانيتهم" القروش الخمسه، ترتاد هذه المقاهى و تساوم أصحابها على الجلوس فيها خلال الاستعداد لامتحانات من الصباح حتى المساء للمذاكره لقاء خمسه قروش من دون طلب أى شىء من المقهى.

أما المطاعم الدمشقيه فكانت محدوده و تقدم المآكل الدمشقيه المحليه الفاخره.

و من أشهرها كان "مطعم أسديه" فى قلب سوق الحميديه الذى كانت تكثرفيه محلات بيع (البوظه) غير المعروفه إلا- فى دمشق. و العابر سوق الحميديه كان يرى باعه البوظه ينهالون بمخايطهم الخشبيه الكبيره على ما فى داخل الأوانى النحاسيه. و كانت هذه المحال تمتلئ بالناس، و فيها فقط كنت تشاهد النسوه يتناولن البوظه فى زاويه من المحل من تحت أنقبتهن السوداء. نقول (البوظه) لأنه الاسم المعروف فى لبنان للحليب المجمد.

أما فى دمشق فكان اسمه (القيمق).

و أبناء الجاليه الفرنسيه من ضباط و مستشارين، و من إليهم، كانوا لا يختلطون بالأهالى الذين ينفرون منهم و كانت للفرنسيين حياتهم الخاصه.

و من شده كره الناس لهم كان يتجنبون الظهور فى الشوارع و الأماكن العامه، خصوصا فى الأحياء. أما إقامتهم فكانت على أطراف دمشق، و فى حى الصالحيه على الغالب، و بالقرب مما سمي بالجسر الأبيض كان يقوم بيت المفوض السامى الذى كان مقره الأساسى فى بيروت.

من تقاليد دمشق

من الذكريات الدمشقيه الجميله فى ذلك العهد سهرات الأدوار فى ليالى الشتاء. فقد كان هناك تقليد دمشقى اجتماعى يسمى (الدور) و ذلك أن أرباب كل حرفه من الحرف أو أيه جماعات أخرى يرتبط بعضها ببعض برابط ما. كان يلتقى أفرادها فى ليالى الشتاء فى بيت أحدهم فى ليله معينه من الأسبوع فيظل هؤلاء ينتقلون طوال فصل الشتاء من بيت فى الأسبوع إلى بيت آخر فى الأسبوع التالى حتى ياتى (الدور) على آخر

بيت، ثم يعود فيبتدئ (الدور) من جديد.

كان لكل حي (أدواره) و لكل صنف من الناس (أدواره)، فيكون التلاقى في (الدور) فرصه لمن قد لا يتلاقون إلا في (الدور)، كما يكون وسيله لبحث ما يطرأ من الشئون العامه و الخاصه.

و كانت أدوار حي الخراب ثلاثه أدوار (دور) للكهول و الشيوخ و هم على الأغلب من التجار. و (دور) للشبان و أكثرتهم إما من التجار أو أبناء التجار. و (دور) ثالث لمحبي الثقافه و الأدب الراغبين في الاستزاده من المعرفه.

أما ما يجرى في (الدورين) الأولين فان الدور الأول يغلب عليه طابع الجدد، و كثيرا ما يتعدى الجدد إلى التنكيت و تبحر فيه شئون الحى و أهمها شان المدرسه العلويه و ما تشكو منه أو ما يؤدي إلى تقدمها.

و أما (الدور الثانى) فيغلب عليه طابع التنكيت و القيام ببعض الألعاب المشتركه و التسليات الطريفه، ثم يكون للجد مكانه، و أهم ما يشغل أهله هو أمر المدرسه أيضا. و أطرف شخصيه كانت في هذا الدور هى شخصيه توفيق شمس المنكت البارع الطريف الذى أصبح بعد ذلك مختارا لحي الخراب.

و أما (الدور) الثالث فقد كان معينا له ليله الأربعاء و كان رواده أقل عددا بينهم شبه الأمل و شبه المتعلم و المثقف و العالم. و لكنهم كلهم يشتركون في أنهم أذكاء متفهمون راغبون بالمعرفه.

و كان منهجه أن يتلى فيه كتاب من كتب التاريخ أو الأدب، و يناقش ما يتلى أو يوضح. و كان لا بد من تلاوه شىء من شرح نهج البلاغه لابن أبى الحديد. كما كان ينشد فيه الشعر الجيد من بعض ذوى الأصوات الجيده على الطريقه المعروفه فى جبل عامل و العراق. و أطرف شخصيه فى هذا (الدور) كانت شخصيه إبراهيم اللحام (أبى توفيق).

و كان لا بد فى (الدورين) الأول و الثالث من حضور الوالد، أما (الدور) الثانى فلا يحضره إلا إذا كان حضوره ضروريا للبت فى بعض الأمور.

و قد أنتج (الدور) الثالث الكثير من الشعر الطريف كان ناظموه الوالد و أديب التقى و أحمد صندوق، كما أنتجت ذكراه قصيدتين جميلتين للوالد و لأحمد صندوق إذ أرسل الوالد بعد إقامه طويله فى جبل عامل قصيده يحن فيها إلى دمشق و يذكر ليالى الأربعاء. فأجابه أحمد صندوق بقصيده من رويها و قافيتها كانت تخليدا (ليله الأربعاء) كما أن لأحمد صندوق أكثر من قصيده فى الحديث عن ليله الأربعاء.

و من أطرف ما جرى فى إحدى الليالى أن اقترح أحدهم أن يفرض على كل واحد من الحاضرين أن ينشد شيئا من الشعر على طريقه الإنشاد المعروفه. و كانت معظم الأصوات منكره، مما أدى إلى ضحك طويل.

و كنت أنا صبيا يصطحبنى والدى معه لحضور ما يحضره لا سيما (دور) ليله الأربعاء. و قد أثرت فى ليالى الأربعاء تأثيرا كبيرا و انطبع فى ذهنى منها من المعلومات و من الشعر ما استفدت منه كثيرا. لقد زال (الدور) فيما زال من التقاليد الدمشقيه الشعبيه.

كانت المدرسه العلويه تجاورنا، بل كان أحد جدرانها يلاصق بيتنا، لذلك كنت أتباطأ فى الذهاب إليها صباحا، فلا أمضى حتى أسمع صوت (الصفاره) معلنا التجمع لدخول الصفوف و عند ذلك أهب لأخذ كتيبى و دفاترى فاصل المدرسه فى دقائق تكون كافيه لانتظامى بين التلاميذ الداخلين إلى صفوفهم.

و المدرسه و البيت يقعان فى (دخله الشرفا) و قد يقال لها (دخله السيدا) بتشديد السين المكسوره و فتح الياء، و هى عباره عن ممر ضيق غير نافذ، ينتهى (بدخله) أخرى أكثر ضيقا و أقصر مسافه تكاد تكون مظلمه فى النهار.

و يبدو أن الاسم (الشرفا) قد التصق بها لأن سكانها كانوا من الساده الأشراف، و هم فى أكثريتهم من آل مرتضى و إن كانت منذ عرفناها غير مسكونه إلا من بيتين منهم فقط. أما البقيه فهم من آل اللحام، ثم من آل بيضون و بيت واحد من آل الجمال. و كان ألصق الجيران بنا الحاج مهدي (أبو أحمد اللحام)، الذى كثيرا ما كنت ألقاه بجسمه المربع الممتلى و عمامته (الغبانى) منطلقا فى الصباح بوجه يشع إيمانا و تقى و ابتسامه تفيض سماحه و بشرا فيملاً نفسى حبا له و تعاطفا معه..

و لطالما خرجنا من (دخله الشرفا) و مشينا متجاوزينها و منطلقين إلى يميننا اجتيازاً لزقاق المدار، ثم منحرفين إلى اليمين ماشين فى الشارع الجديد المنشأ خلال الحرب العامه الأولى، ثم منتهين إلى السوق. و هو السوق الذى يبدأ من باب الجاييه ثم ينتهى (باب شرقى) (الباب الشرقى).

و خلال امتداده الطويل هذا يتكيف تكيفات عديده و يتسمى بأسماء مختلفه.

فهو منذ باب الجاييه سوق مسقوف تقوم على جانبيه المتاجر المنوعه و بعد أن يكون اسمه سوق مدحت باشا يصبح اسمه فى امتداده ماذنه الشحم، ثم ينتهى سقفه، و لكنه هنا فى ماذنه الشحم يبدل متاجره، فبعد أن كانت فى سوق مدحت باشا متاجر عامه، تصبح فى أوائل ماذنه الشحم بعد مدخل سوق البزوريه سوقا لاستيراد أبناء الغوطه و المرج، مما يطلق على أصحاب متاجره اسم (الجرادين) (بتشديد الراء) ثم يصبح فيما يلى ذلك سوقا خاصا بحى ماذنه الشحم ينزله اللحامون و العطارون و الخبازون و السمانون و من إليهم، حى ماذنه الشحم: الحى الذى تتفرع أزقته منطلقه على يمين القادم من باب الجاييه، و توغل فى الانطلاق حتى تتصل بحى الشاغور و غيره.

أما عن يسار القادم من باب الجاييه فتتفرع أسواق عديده يصل بعضها بين هذا الشارع الطويل و بين سوق الحميديه فى تعاريج و أزقه و أحيانا (دخلات). و أشهر ما يتفرع عنه هو سوق (البزوريه).

و كل هذه الأسواق و الأزقه الكبير منها و الصغير، و الطويل و القصير ذات طابع دمشقى أصيل يميزها عن غيرها فى كل البلدان، و يسبغ عليها من الروح الدمشقيه العريقه صفاء جميلا و حلاوه طيبه.

فله تلك الدروب ابتداء من دخله الشرفا إلى زقاق المدار إلى الشارع إلى السوق إلى ماذنه الشحم إلى سوق مدحت باشا إلى باب الجاييه. إلى ما تفرع عنها و امتد منها من مسارب و مداخل و مخارج.

لله تلك الدروب التي طالما غصت (بالعراضات) الدمشقيه الحماسيه التي لا يشبهها شىء فى الدنيا بما فيها من حداء (شامى) و فتوه عربيه.

العراضات التي تسير من حى إلى حى حتى إذا قاربت حدود الحى المجاور هتف هاتفها الرفيع الصوت بالتحيه متجاوبه معه جمهره الرفاق.

و يا ما أعذب ذلك الصوت الهادر:

أبلى السلام عليكم: (أى: قبل كل شىء السلام عليكم).

حتى إذا دوى الصوت فى مسامع أبناء الحى المقصود تجمع من أمكن تجمعهم على جانب الشارع و هتف هاتفهم:

يا مرحبا فيجيبه المجتمعون حوله:

بلى جاي (بالذى هو آت) أهلا- و سهلا بلى جاي و لا يلبث أن يهرع على الصوت أكثر أبناء الحى تاركين أعمالهم أو بيوتهم للمشاركة بالترحيب بالقادمين و يكون القادمون نوعين: أما ضيوف عابرون فى طريقهم إلى حى آخر، ففى هذه الحاله إذا قاربوا تجاوز حدود الحى هتف هاتفهم، مودعا، و يتجاوب معه جميع رفاقه:

خاطركم رائحين نروح، استروا ما شفتو منا فيجيب أبناء الحى بصوت واحد:

مع السلامه يا ضيوف و بالله تتمسوا عنا (تقضون المساء عندنا).

و إما أن يكون القادمون مدعويين إلى الحى نفسه و لن يتجاوزوه إلى غيره. و هذا يكون إما إجابته دعوه إلى حفلات المولد النبوى، أو لزياره حجاج الحى العائدين حديثا، أو إجابته دعوه إلى حفله زفاف كبيره مما يعرف فى العرف الشعبى باسم (تليسه). أو للصلح بين متخاصمين.

و فى هذه الحاله لا يكاد القادمون يلجون الحى حتى يتقدم إليهم اثنان من أهل الحى المزور من أبطال (لعبه السيف و الترس) التي كان الدمشقيون يبرعون بها كل البراعه. فيبدأ الاثنان متبارزين بسيفيهما و ترسيهما لدقائق و قد يتقدم معهما ثالث يكون غالبا بسيفين بدون ترس فيقف بينهما ليضاربهما معا، و شرطه أن يكون من أبرع المضاربين، و يعرفونه فى الحى باسم (أبو سيفين)، و فى كل حى من يلقب بأبى سيفين.

و تستمر لعبه أبناء الحى بضع دقائق ثم تنتهى ليتقدم أبرع أبناء الحى بسيفه فينتدب له من أبناء الحى الزائر أبرعهم، فيقدم له المزورون ترسا - لأن العاده جرت أن لا ينقل الضيوف معهم أتراسا - فتبدأ المضاربه بين الحيين و تفتتح بهذا النص:

صحايف الله و الرسول و على بن أبى طالب.

ثم صحايف عالم الحى (و يسمونه باسمه).

ثم صحايف وجهاء الحى و عائلاته المشهوره (و يسمونهم بأسمائهم). ثم صحايف أهل الحى كبير و صغير (و يعبر عن الحى بلفظ "الحاره").

و يختتم ذلك بعباره: (بيض الله وشو) "وجهه" إذا كان المذكور واحدا.

و تستبدل كلمه "وشو" بكلمه "وشهم" إذا كانوا جماعه.

و فى هذه اللحظه ينطلق رصاص المسدسات من الفريقين بغزاره. محاولا- كل من الفريقين أن يكاثر الفريق الآخر برصاصه مما يمكن اعتباره نوعا من (عرض العضلات).

ثم تبدأ المضاربه بالسيف و الترس، و تنتهى على الأغلب بانتصار لـعب الحى المزور، بنوع من التفاهم الضمنى على ذلك لعرف سائد بين الأحياء كلها.

و بعد انتهاء الزياره و عند عزم الضيوف على العوده إلى حيههم يتجمعون و تبدأ (العراضه) من جديد فيهتف هاتفها متجاوبه معه جميع الأصوات الزائره المودعه:

خاطر كم رائحين نروح استروا ما شفتو منا.

فترد أصوات المضيفين الجماعيه: (مع السلامه و الدرب سلطانى) و مدلول عباره (سلطانى) هنا: أن الدرب سهله سليمه مامونه، كالدروب المنسوبه إلى (السلطان).

سقى الله أيام (العراضات) التى أحسب أنها زالت مع ما زال من التقاليد الشعبيه الدمشقيه الجميله.

و لله تلك الدروب التى طالما غصت بالمظاهرات الوطنيه نغمه على المستعمرين و استقبال فيها الشبان الدمشقيون الرصاص بصدورهم، و تهاووا على الصعيد صرعى الكفاح الوطنى.

تلك المظاهرات التى أقضت مضاجع الفرنسيين و حرمتهم لذه الاستقرار.

السيران

من زقاق المدار إلى الشارع إلى السوق إلى ماذنه الشحم إلى باب الجايه إلى شارع النصر إلى شارع الحجاز انطلاقا إلى خارج دمشق، إلى الربوه. طالما مشت بنا المركبات المجروره بالخيل فاجتزنا ذلك الوادى الجميل بين فروع بردى المتدفقه ثم انتهينا إلى مجلس من مجالس الربوه ففرشنا (السجادات) و اشتعل السماور و دارت أكواب الشاى ثم انتظمت المائده المحموله (بالمطبقيات) من البيوت، تلك (المطبقيات) ذات الصحون العميقه التى يوضع بعضها فوق بعض ثم تغطى من أعلاها بغطاء و تشد من جانبيها شدا محكما بما يربطها من أسفلها إلى أعلاها.

تلك (المطبخيات) التي تحمل ألوان الطعام الدمشقي اللذيذ من البيوت الكريمة السخيه فتتنوع المائده فى (السيران) و تكثر ألوانها و قد لا يحمل الطعام فى (المطبخيات) بل يتكفل أحد أصحاب (السيران) بدعوه رفاقه و نقل الطعام إليهم إما من صنع بيته، أو - على الأغلب - بان يكون الطعام من (الصفحه). المصنوعه عند اللحام و المنضجه فى الفرن

ص: ٢٥٦

و المنقوله مع علب اللبن الخشيه الأسطوانيه إلى مكان (السيران) حيث تكون وقعه دمشقيه عريقه تتميز ملاحم دمشق و أفرانها بإتقان صنعها!.

هاتان هما الطريقتان الوحيدتان فى صنع الطعام. أما جمع المال من الجميع بالتساوى للإنفاق على (السيران) فذلك ما ينكر فعله الدمشقيون و يتهمون به أهل حلب و يعيونهم به. و إذا أشاروا إلى شىء من ذلك قالوا: (عشره حلبيه).

و يتنوع أصحاب (السيارين) فاما أن يكونوا أصحابا متجانسين على تباعد ما بين أعمالهم و طبقاتهم. و أما أن يكونوا مجموعه من أصحاب الدكاكين المتجاورين. أو مجموعه من أصحاب حرفه واحده كتجار سوق البزوريه أو تجار سوق العصريه أو السكريه أو الرواسه (بائعى رؤوس اللحم) و الحباله (بائعى الحبال) و غيرهم، هذا فضلا عن (السيارين) العائليه التى تضم البيت كله: رب البيت و ربه و أبناءهما.

و قد يدعو صاحب العمل عماله جميعا إلى (سيران) يضمه و أولاده مع عماله كلهم. و قد تقوم مدرسه كامله بمديرها و معلميها و تلاميذها (بسيران) يجمعهم جميعا.

و قد يحدث أن يقوم أبناء حى باكثرية رجالهم (بسيران) مشترك يضمهم كلهم معا.

و فى هذه الحالات الثلاث و أشباهها لا بد من قضاء نهار كامل فى السيران يمتد من الصباح إلى المساء.

و كان الناس يستزيدون من طعامهم المنقول معهم إلى (السيران) لتوقع ضيف طارئ و ليشركوا فى طعامهم من يجدونه فى البساتين - إذا كان السيران فى بستان - من فلاحين أو ضامين أو مرابعين فى حين يتسابق هؤلاء فى تقديم الألبان و الفواكه و الخضار لتزلائهم.

و كثيرا ما يشتري الضيوف هذه الأشياء من هؤلاء و ينقلونها معهم حبا بمنفعه أصحابها.

على أننا و نحن فى معرض الحديث عن ولائم السيران لا بد لنا من أن نشير إلى الولائم التى كان يولمها صاحب العمل فى بيته لعماله جميعا، و غالبا ما تكون فى الشتاء فيقوم أهل بيته بأعداد الطعام بأنفسهم لضيوفهم و يتولى صاحب البيت مع أولاده خدمه ضيوفهم.

ثم يعد بعض الطعام ليرسل مع فقراء المدعويين إلى بيوتهم.

سيران الربوه

حتى إذا أمسى المساء فى (سيران) الربوه و دخل الليل كانت مشاهد (العربيات) أى المركبات و هى تمضى إما قادمه من المدينه لتعود بأهل (السيران)، أو ذاهبه بهم من الربوه إلى المدينه - كانت مشاهد (العربيات) بفوانيسها الضئيله المتلائنه و أصوات أبواقها المتتابعه و بما تبعته ضربات الحوافر و دوران العجلات من أصوات. كانت بكل ذلك - و نحن نطل عليها من عل - شيئا جميلا عذبا طالما سحرنى فى الربوه و أنا طفل و أنا يافع و أنا شاب!.

لقد زالت (العريبات) فيما زال من الأمور الدمشقيه.

تقاليد السيران

(و السيران) هو من المظاهر الدمشقيه المتميزه و كان الدمشقيون على اختلاف صنوفهم يعتبرونه جزء من حياتهم الرتيبه، و قد يقومون به فى الصباح مبكرين فيجتمعون ذاهبين إلى أحد المتنزهات القريه حيث يحملون معهم طعام الصبوح فيتناولونه هناك تحت الشجر على ضفاف الماء، لا سيما فى أيام الربيع بين زهر المشمش المتفتح، ثم يعودون إلى بيوتهم من (الصبحيه) ثم يمضون إلى أعمالهم. و أكثر ما يكون (السيران) فى الآصال حيث تلتقى المجموعات المتجانسه فتمضى كل مجموعه إلى مكان تقصده إما إلى بساتين الغوطه و ما جاور دمشق من ماء و رياض أو فى الربوه إما على ضفه الماء أو بعيدا حيث تختار مكانا مطلا على الوادى فتبسط على الأرض ما تحمله من مفارش و تمضى فيما يسليها من أحاديث أو ألعاب خفيفه و تظل هكذا حتى الساعات الأولى من الليل حيث تبدأ (العريبات) بنقل العائدين فتصل (العريبه) إلى موقف تحت مكان جلوس جماعه السيران و تطلق (مزمارها) فى طلقات متتابعه يعلم منها الجالسون أن عربيتهم قد وصلت، و يكونون هم قبل ذلك قد هيئوا أنفسهم للعوده، إذ أن مجيء (العريبه) يكون على ميعاد معين. هذا عن الذاهبين فى (العريبات) أما الذاهبون مشيا على الأقدام فيملئون الطريق زرافات و وحدانا. و ليس السير مشيا هو بقصد توفير المال دائما. بل كثيرا ما يكون زياده بالاستمتاع بالطبيعه و إعمالا للرياضه الجسديه.

و كان يتميز (سيران) جماعه الوالد بأنه لا بد فيه من إنشاد الشعر على الطريقه العامليه العراقيه، و كان إنشاد الجماعه محصورا تقريبا باديب التقى و الشيخ على الجمال، و كان لا بد من نقل دواوين الشعر بين ما ينقل من أدوات السيران و لا بد من أن يكون بين هذه الدواوين ديوان الشريف الرضى، و ربما اقتصر عليه وحده.

و أول ما سمعت شعر الشريف الرضى و أنا طفل، إما فى ليالى الأربعاء، أو فى (السيران). و مع أن بين جماعه (السيران) كما فى جماعه ليله الأربعاء من هم شبه أميين، فقد كانوا ذوى قابليات تستوعب ما تسمعه و لطول المران فى ليلتى الأربعاء و فى (السيارين) أصبحوا يستحسنون الحسن من الشعر و يهتزون له و يطربون!.

أما (سيارين) الأعياد فإنها تستمر طيله أيام العيد و تقصد إلى الأماكن البعيده العامره فى الفيجه أو عين الخضرا أو الهامه أو دمر أو حتى الزبدانى و قراها، حيث يمكن المبيت هناك طيله أيام (السيران)..

و فى أحد سيارين عيد الفطر صحبت الوالد و جماعته إلى عين (الخضراء) و كانت لا تزال على طبيعتها. و مضى الوالد فى أحد الأيام مصعدا فى الجبال و تبعه الأكترون ثم بدءوا يتراجعون تعباً و فرقا، و لم يصل إلى أعلى الجبل غيره و كان المساء قد دنا فى العوده فلقى شداًد كثيره.

و حال المرأه فى السيران كان كحالها فى الأماكن العامه الأخرى بملاءتها و برقعها الأسودين. إلا أن حضورها نزهاة السيران كان قليل الحدوث.

و على الرغم من غرام الدمشقيين بسيرانهم فان نساءهم كانت محرومه منه.

و من شده غرامهم بالسيران كانوا لا يكتفون بنزهات العصارى و العطل، بل أن فريقا منهم كان يجتمع للذهاب إلى السيران في
الفجر الباكر قبل الذهاب

ص: ٢٥٧

إلى العمل - كما تقدم - و في أماكن هذه التزهات الصباحيه نذكر اسم (الأحد عشرية).

الشارع و اليهود

من دخله الشرفا كنا نخرج فإذا انتهى طريقنا القصير فيها فاننا في نهايتها ندور إلى اليمين فنفاجا أول ما نفاجا بركان على المبيض القائم على الزاويه تماما في أول زقاق المدار، فنراه واقفا في نقره الدكان و تحت قدميه قدر من قدور النحاس التي يعهد إليه بتبييضها و هو يدور في القدر ضاغطا بقدميه فيه ليعود ناصع البياض! و قد لا يكون الأمر أمر قدر بل أمر مواعين صغيره فعند ذلك يعالجها بيديه!.

على أنه مهما كان الذي يعالجه، و سواء كانت قدماه هما العاملتين أم يدها هما العاملتين، فان شفتيه لا تتعطلان أبدا، بل تشاركان في العمل دائما، تشاركان إما القدمين و إما اليدين، تشاركان لا بتبييض النحاس، بل بالغناء الدائم المستمر!.

لقد انقضى عهد على المبيض فيما أحسب و طوى الزمن قدور النحاس و آنيه النحاس!.

و إذا كانت قدور (الضغط) و غير قدور الضغط قد حلت محل قدور النحاس، و استغنى الناس عن (المبيضين)، فمن ترى حل محل على المبيض في دكانه الصغير في أول زقاق المدار؟. و أيا كان هو الذي حل محله، فلا أحسب أن شيئا قد حل محل أغانيه، أو صوتا يمكن أن يشغل النفس بمثل ما كان يشغلها صوت على المبيض.. و بعد على المبيض نجد أمامنا طريقين: طريقا على اليد اليسرى هو مدخل حاره اليهود، حيث تتشعب هنا الأزقة و الدخلات و الدروب.

أما طريق اليد اليمنى فهو طريق زقاق المدار المنتهى إلى الشارع، و قد مر ذكر هذا الشارع دون تسميه و لم يكن له في تلك الأيام اسم و لم يكن معروفا إلا- باسم الشارع، فيقال مررت في الشارع و جئت من الشارع، و ذلك أنه كان الشارع الوحيد في تلك المنطقه، إذا كان المقصود من الشارع ما شق حديثا و وسع فيه القديم. و أنا لا- أعى شق هذا الشارع إذ أنه شق خلال الحرب و إنما أعى أنه كان لا يزال فيه بيوت متهدمه أطرافها لشق الشارع و كانت لم تبين بعد. و يبدو أنه كان زقاقا ضيقا وسعه الأ-تراك في أواخر عهدهم خلال الحرب، و هو في صميم حى الخراب، و لما كان شقه قد جرى خلال الحرب، و الناس في شاغل بفقرها و غربه شبابها، فقد طال أمد إعادة تعمير ما تهدم من بنيانه، و كان معظم المالكين من المسلمين الفقراء فاغتم اليهود هذه الفرصه و أخذوا يشترى الدور المتهدمه و يعيدون بناءها بشكل حديث حتى عمر الشارع بهم و أصبحوا فيه كثره. و لم يعد المسلمون يملكون إلا النزر القليل. أما ما تفرع عن الشارع، فقد ظل على حاله (دخلات) متداخل بعضها ببعض، و أزقه قديمه و بيوت عتيقه ظلت لأصحابها المسلمين. و كان أهم ما يتفرع عنه في وسطه (القساطليه)، و كان من أبرز سكانها آل صندوق الأسره العريقه بالذكاء و التقوى. و التي خرج منها في عصرنا مؤرخ و كاتب و شاعر مجيد هو الأستاذ أحمد صندوق فقيه المعى أديب هو الشيخ محمد على صندوق.

و تتفرع عن الشارع دخله معظم سكانها فرع من آل مرتضى يعرفون بيت الحنفى كان أبرزهم السيد عباس الحنفى الذى كان على قسط وافر من الشهامه و الذكاء و حسن الخلق و حلاوه الحديث و عدوبه المنطق، و كان من أبرز عناصر ليله الأربعاء و (السيارين).

سيطر اليهود على الشارع، و كان هذا الشارع وسيله الخروج بسكناهم من حارتهم القديمه ذات التعاريح و الأزقه و الدخلات على طريقه أزقه دمشق القديمه، و أصبح يعج بهم فى الأماسى لا-سيما فى ليالى السبت، شبانا و شابات يتزهون فيه. جيئه و ذهابا، بينما يجلس الكهول و الشيوخ نساء و رجالا على أبواب بيوتهم.

و استقووا بالاحتلال الفرنسى، فكان الاحتكاك بينهم و بين أهل حاره الخراب مستمرا.

و حاول مره الحاخام [الخابام] الأكبر أن يتودد لأهل الحاره ففاجأ والدى فى أحد الأعياد برسول يشعر بأنه قادم على أثر الرسول لزياره والدى و تهنئته بالعيد و لم يكذ الرسول ينصرف حتى خرج والدى من البيت، فجاء الحاخام [الخابام] فلم يجد أحدا.

و بالرغم من أن هذا التصرف كان جافا، و كان متنافيا مع أخلاق والدى، فقد كان لا بد منه فى رأى الوالد، لأن معنى قبول زياره الحاخام [الخابام] فى العيد و استقباله فى البيت أن الوالد سيضطر لمبادلته الزياره فى عيدهم، ثم تتكرر الزيارات و الاتصالات. و كان هذا عند والدى أمرا لا يمكن أن يقع، فى الوقت الذى كشفت فيه الصهيونيه قناعها و أسفرت عن حقيقتها و كان اعتقاده أن كل يهودى صهيونى.

و بعكس ذلك فقد كانت الزيارات متبادله بين الوالد و بين بطيريك الأرثوذكس المجاور حيهم أيضا لحاره الخراب، و كان البادئ بالزياره البطيريك الكسندروس طحان مع لفيق من المطارنه و ذلك عند عوده الوالد من إيران و العراق، ثم بأدله الوالد الزياره فى إحدى المناسبات و تكرر ذلك أكثر من مره.

و استمر الاحتكاك و التحدى بين اليهود و أبناء الحى و بلغ أشده حين أراد اليهود إطلاق اسم أحد كبار رجالهم على الشارع بالتفاهم مع الفرنسيين و ألصقوا لوحه فى رأس الشارع تحمل الاسم، فاقتلها ليلا أهل (الحاره) إلى أن جاء الحكم الوطنى العام ١٩٣٧ فتقرر تبديل اسم حى الخراب و إطلاق اسم حى الأمين عليه تكريما من الحكم الوطنى لوالدى، و تبعاً لذلك أصبح اسم الشارع شارع الأمين.

بعد الاحتلال

كان دخول الفرنسيين دمشق و هدمهم الحكم الوطنى الذى قام فيها صدمه رهيبه ناءت بها سوريا وقتا طويلا، و صمت الناس على الاحتلال و مضى الزمن فى مسيرته هينا لينا كان شيئا لم يحدث، و كان الكارثه لم تكن بمثل هذا الروع. و حسب من حسب أن ما يسمى بالانتداب قد ركز دعائمه و أن التجزئه قد ثبتت. و أن سوريا العربيه الباسله قد قررت على الهوان، و أن دوله دمشق و دوله حلب اللتين قامتتا على أنقاض المملكه العربيه السوريه، و دوله العلويين و دوله جبل الدروز قد استقر كيانها!..

لا-سيما و أن دمشق المتمرده قد تطامنت و ألفت بيديها طائعه بعد ميسلون فرأى فيها غورو ما لم يكن يظن إنسان أن غورو سيلقى مثله من

استقبال جماهيري صاحب، إذا كان قد أعدده المتملقون، فإنهم على كل حال قد نجحوا في إعدادة النجاح الذي لم يكونوا يحلمون به.

و لا أستطيع الآن أن أصف حقيقه شعور الجماهير لأننى لم أكن يوم ذاك فى وعى يمكننى معه الاحساس بما يحمله الشعب من إحساس حقيقى.

و لكننى أذكر تماما أن وزاره علاء الدين الدروبي التى تألفت بعد يوم ميسلون، و التى أصبحت تحكم البلاد فى ظل الفرنسيين، أذكر أنها جوبهت بأول ثوره عليها و على الفرنسيين. و لم تكن هذه الثوره من صنع دمشق، و لا- من صنع غيرها من المدن الكبرى!.

لقد كانت تلك الثوره ثوره القرى و الأرياف، و بالتحديد ثوره حوران. فان صدى الاحتلال، و صدى انهيار الاستقلال كان مدويا فى حوران، لا- سيما و أن الملك فيصل كان قد تركز أولا- فى الكسوه على الطريق الموصل إلى حوران ثم فى درعا عاصمه حوران. و ربما لاح له فى ذلك الوقت أن يتخذ من موقعه هذا قاعده لقتال الفرنسيين. و لكن طيارات الفرنسيين أنذرت بمناشيرها الحورانيين بما سينالهم من شر إذ استجابوا لفيصل. و كان أن صمم فيصل على التوجه إلى حيفا ثم أوروبا. و لكن غضبه (الحوارنه) لم تسكن و ثورتهم لم تهدأ، فأرسل الفرنسيون رئيس الوزراء علاء الدين الدروبي و وزراء لاقناع (الحوارنه) بالاستلام فكان الجواب قتل علاء الدين الدروبي و بعض وزرائه و نجاه من نجا بالاختباء فى شر مختبا. و استطاع وزير الداخليه عطا الأيوبي الفرار و لكن إلى حيفا لا إلى دمشق.

كان الوفد مؤلفا من كل من رئيس الوزراء علاء الدين الدروبي و عبد الرحمن باشا اليوسف رئيس مجلس الشورى و عطا الأيوبي وزير الداخليه و الشيخ عبد القادر الخطيب و الشيخ عبد الجليل الدره.

و بوصولهم إلى محطه خربه الغزاله التى تبعد عن درعا خمسه و عشرين كيلو مترا، انقض على القطار جمع تتعالى أهازيجه و يرتفع حداؤه فخيّل للوفد أن الجمع جمع استقبال و تحيه، ثم لم يلبثوا أن أدركوا الحقيقه فحاول الدروبي الاحتماء بين ركاب الدرجه الثالثه و لكنه اكتشف فقتل، و فر عبد الرحمن اليوسف إلى دار المحطه فعرف و قتل أيضا و نجا الآخرون متوارين فارين..

فجردت السلطه حملة على حوران قضت على الثوره بعد التخريب و التقتيل و فرضت غرامه باهظه.

جرى ذلك فى محطه خربه الغزاله التى كانت مقرا لفريق من التجار الدمشقيين الذين يبدو أنه كانت لهم مشاركه فعاله فيما جرى.

و كانت ثوره حوران أول ما جابه الفرنسيين من تمرد و عصيان. و ظلت أصدائها تتجاوب فى أذهاننا و نحن فى تلك السن.

و هذه الثوره هى صورته عن الفوضى التى كانت تتخبط فيها البلاد و انعدام التنظيم و التوجيه و التخريط.

فقد كانت البلاد كلها شعله من الوطنيه الثائره على الفرنسيين و لكنها كانت كسفينه تتلاطمها أمواج المحيط بلا قائد و لا حكيم

و لا مدير. فمنذ حل الفرنسيون فيما أسموه المنطق الغربيه، بدأت الاضطرابات الموضوعيه غير المرتكزه على قاعده ثابتة مدبره فكان يسهل على الافرنسيين إخمادها و تدمير أهلها كما حدث فى حركات الجبل العلوى و جبل عامل و غيرهما، قبل سقوط دمشق و كما حدث فى ثورات الشمال و ثوره الحوارنه بعد سقوطها فلو أن جميع هذه القوى ادخرت للساعه الحاسمه، ساعه الصدام الذى لا بد منه مع المستعمرين لواجه هؤلاء قوى ضاربه منظمه مترابطه تثور عليهم فى وقت واحد يشغلهم فى كل مكان و يريهم ثوره رهيبه لا يستطيعون ضربها بمثل السهوله التى ضربوا بها ما ضربوه.

و يبدو أن أهل الحل و العقد كانوا حتى اللحظات الأخيره يطمعون بنوع من التفاهم و يرون أن الأمور لا تنتهى إلى صدام مسلح، فلم يعدوا للأمر عدته و لا واجهوه بتنظيم دقيق و لا كان لهم نظر بعيد.

فبينما كانت الاضطرابات تعم المنطقه المحتله بلا ترتيب و لا قياده، لم يفكر العسكريون فى دمشق بفقدان السلاح و فقدان الذخيره إلا فى الساعات الأخيره أو بالأحرى فى اللحظات الأخيره!.

فياسين الهاشمى الذى كان العسكري الأول آنذاك و الذى كان معهودا إليه بالإشراف الكامل على شئون الجيش و سلاحه. لم يعرب عن حقيقه تسليح الجيش إلا بعد وصول إنذار الجنرال غورو، ثم انسحب من المسئوليه و آثر الغزله!.

يروى محمد على العجلونى الذى كان شاهد عيان: أن ياسين الهاشمى صارح الملك فيصل فى الساعات الأخيره أن الجيش السورى لا يستطيع الثبات فنيا سوى بضع ساعات.

و يروى يوسف الحكيم الذى كان شاهد عيان أيضا: أن الضباط أركان الجيش أبلغوا مجلس الوزراء أن العتاد الحربى لدى الجيش لا يزيد عن مائتين و سبعين طلقة لكل بنديه حربه و ثمانين قبله لكل مدفع من المدافع السبعين.

و لا أدرى لما ذا لم يكتشف هؤلاء العسكريون هذا قبل آخر لحظه.

و لما ذا لم تكن الحكومه قد درست أمر جيشها و هى فى سعه من الوقت؟!.

منذ الساعات الأولى لقيام الحكم العربى الاستقلالى فى دمشق اتجهت الأنظار إلى العسكري الأول بين العرب فى ذلك الحين ياسين الهاشمى فعهد إليه بالشئون العسكريه كلها. و كان أول ما عمله أن حل جيش الثوره الذى فتح دمشق و سرح ضباطه. دون أن يكون قد اعتمد خطه معينه واثقا من نجاحها لانشاء جيش جديد، فبدأ التخبط العسكري منذ تلك الأيام. ثم اختطف الإنكليز ياسين الهاشمى بعد أن دعوه لتناول الشاى فى مقر القيادة العسكريه فى المزه و أرسلوه معتقلا إلى الرمله بفلسطين.

فعلوا ذلك و هم يتهيئون للجلاء عن دمشق، بل قبل أن يجلوا بساعات. ثم أعادوه بعد بضعه شهور.

و كان قد خلفه فى القيادة العسكريه يوسف العظمه فكان له رأى - على ما قيل - يختلف عن رأى ياسين الهاشمى فى الاعداد العسكريه.

و مهما يكن من شىء فان ياسين الهاشمى لم يتذكر أن يكشف على مستودعات أسلحه الجيش إلا فى الأيام الأخيره التى سبقت

معرکه میسلون، حیث رجعوا إلیه فی تولی القیاده فکشف علی مستودعات السلاح

ص: ۲۵۹

و قال أن لا سلاح يعتد به لدى الجيش. و من العجيب أنه طيله سنتين اثنتين من إلى لم يتنبه أحد إلى حقيقه السلاح الموجود و السعى لإيجاد غير الموجود!.

تماما كما حدث العام ١٩٤٨ حين صمم العرب على قتال الصهيونيين ثم اكتشفوا أنهم بحاجة إلى كل شيء، بعد أن كانت قد سدت في وجوههم مصادر كل شيء!.

و ظلت الأمور في تخطيط بلا تخطيط و لا إعداد حتى جاء اليوم الذي لا يجدى فيه إلا العمل، و كانت وسائل العمل في هباء.

و من العجيب أن أحدا لم يفكر منذ الأيام الأولى لجلاء الأتراك بالمستقبل البعيد و بإمكان الصدام مع الفرنسيين و وجوب الاستعداد لهذا الصدام!. مع أن طلائع الصدام قد أتت منذ أول ساعه حين طرد الفرنسيون الحكام الوطنيين في الساحل و أسفروا عن مطامعهم في الساحل و الداخل!.

و يبدو أن حال القوم يوم ذاك كان كحالنا اليوم، كانوا يأملون بما اصطالحنا على تسميته (بالحل السلمى)، ثم انتهى بهم الأمل إلى ما انتهى. و لا يزال فينا اليوم (١٤ تشرين الأول ١٩٧٢) و بعد خمس سنوات من حدوث ما أسموه (حرب الأيام الستة)، و بعد قيام المستعمرات في كل مكان فيما احتله اليهود بعد تلك الحرب، و بعد تصريحاتهم العلنية الصريحه بأنهم باقون حيث هم، لا يزال فينا من يطمع بالحل السلمى.

اليوم كالأمس

هذا ما وعته ذاكرتى من أحداث تلك الأيام و ما انطبع فيها مما شاهدته بعيني و مما أمكن أن يعيه فكرى الطفل. و قد عرفت بعد ذلك، بعد أن أدركت و وعيت حقيقه ما جرى مما أجمله فيما يلى:

أقبل قاده العرب من كل مكان إلى دمشق بعد الجلاء التركى.

فبعضهم جاء مع فيصل كالضباط العراقيين و البعض الآخر توافد إليها لأنها أصبحت مقر العمل العربى و مطمح آمال العرب و قاعده أول بقعه مستقله في بلاد الشام و غير بلاد الشام بعد الحكم الأجنبى الطويل.

فكان فيها رجال العراق و رجال لبنان و رجال الساحل و رجال فلسطين (١)، كما كان فيها بعض من كان قد نرح إلى مصر من السوريين.

و التقى الجميع بآمال ضخمة و أمانى بعيدة يحسبون أن ساعه الدوله العربيه الكبرى قد دنت، و أنهم مؤسسوها و باعثو رفاتها.

كيف لا و جيشهم العربى الزاحف من قلب الحجاز هو المنتصر حليف المنتصرين، و ملء حقائقهم و عود مؤكده و موثيق وثيقه.

كان العرب يعيشون تلك الأيام التى بدأت عام ١٩١٨ ثم انتهت يوم الرابع و العشرين من تموز ١٩٢٠ أزهى أيامهم و أعذب أحلامهم. و كانوا في غمره هذا الفرح لا ينظرون إلى البعيد و لا يحسبون حسابا للغدر و الختل. ثم بدأت الحقائق تنجلي قليلا قليلا فالحاكم العربى الذى ذهب إلى بيروت و رفع علمه على صروحها عاد مطرودا من الفرنسيين، و أنزل العلم ذليلا!..

و الحاكم الوطنيون الذين عينوا أنفسهم فى مناطقهم الساحليه معلنين الاستقلال لم يلبثوا أياما بل ساعات ثم دحرجوا عن كراسيهم.

و تقلص حجم الرقعه المستقله حتى انحصر فيما عرف بعد ذلك باسم المنطقه الشرقيه و هى لا تعدو دمشق و حمص و حماه و حلب و ما يتبعها و ينضوى إليها!.

و لكننا إذا نظرنا إلى العرب يوم ذاك نراهم فى واقع هو أفضل ألف مره مما صار إليه واقعهم المعنوى بعد ذلك.

كان الحديث يوم ذاك عن العرب و عن القضيه العربيه و التوق كله إلى الوحده الشامله. و لم يكن للاقليميه مكان!.

فهذه بقعه صغيره من بلاد الشام أميرها ثم ملكها حجازى (٢) و رئيس برلمانها مصرى لبنانى الأصل (٣) و قائد جيشها عراقى (٤) و وزير داخليتها لبنانى (٥) و وزير خارجيتها فلسطينى (٦) و حكام مناطقها و ضباط جيشها مزيج من كل أرض عربيه. لا يدور بخلد أحد أن يسأل أحدا عن بلده أو أن يجد فى ذلك موضعا لاستغراب و مكانا لتساؤل!.

أليس الجميع عربا؟. أليسوا كلهم رجال قضيه واحده فهم جميعا فى أرضهم و جزء من وطنهم؟.

ثم هذا الترفع عن الطائفيات و عدم النظر إلى دين الشخص أو مذهبه. فهذه أول حكومه عربيه تقوم فى البلد الإسلامى العريق دمشق و تشمل سيادتها الأرض السوريه الداخليه التى لا يبلغ فيها المسيحيون ١ من ١٢ فتتكون من حاكم عسكري سنى دمشقى هو رضا الركابى و رئيس للشورى الحربيه سنى بغدادى هو ياسين الهاشمى و رئيس للعدليه مارونى من دير القمر هو إسكندر عمون و رئيس للماليه أرثوذكسى من الشويفات هو سعيد شقير و رئيس للأمن العام أرثوذكسى طرابلسى هو جبرائيل حداد و رئيس للخارجيه أرثوذكسى دمشقى هو توفيق شاميه و رئيس للصحه بروتستانتى من مواليد عبيه هو موصلى باشا.

خمس رئاسات أو بالأحرى خمس وزارات من سبع يشغلها مسيحيون، أربعة منهم من لبنان و واحد من دمشق (٧) و محكمه الاستئناف المدنيه التى تطبق مجله الأحكام العدليه المستمده من الشريعه الإسلاميه، محكمه الاستئناف هذه تتالف من ثلاثه قضاة كلهم

ص: ٢٦٠

١- كان الأردن جزء من سوريا.

٢- فيصل.

٣- رشيد رضا.

٤- ياسين الهاشمى.

٥- رضا الصلح.

٦- سعيد الحسينى.

٧- فور انسحاب الأتراك و دخول الجيش العربى بقياده فيصل إلى دمشق تألفت أول حكومه عربيه لم يسم اعضاؤها بالوزراء بل

سموا رؤساء: رئيس العدليه، رئيس الداخليه... إلى آخره. و بعد تتويج فيصل تألفت الحكومه الدستوريه و أطلق على أعضائها اسم الوزراء.

مسيحيون، بينهم اثنان من لبنان هم: نجيب الأميوني من حاصبيا رئيسا و أسعد أبو شعر من دمشق عضوا و فائز الخورى من الكفير (حاصبيا) عضوا.

أما اليوم و بعد أن استقلت البلاد العربيه و قامت فيها دول و حكومات فاننا لا نطمح أن يعامل العربى فى أى قطر عربى بمثل ما يعامل به أبناء ذلك القطر، بل أن أكثر ما نطمح إليه هو أن يسمح العرب للعرب بدخول أقطار العرب بمثل ما يسمح به الأوروبيوت [الأوروبيون] بعضهم لبعض.

و أن تعامل حكومات العرب بعضها بمثل ما يتعامل به الأصدقاء و الجيران فى كل مكان بلا شحناء و لا تباغض و لا تقاتل! إننى و أنا أكتب هذه السطور أقرأ بلاغا لحكومته عربيه تباهى به أنها أسقطت لحكومته عربيه أخرى طياره و عطلت كذا دبابات و قتلت كذا رجالا!.. هذا و الحكومتان تحملان اسما واحدا و لكن تنتمى إحداهما إلى الشمال و الأخرى إلى الجنوب! و أسمع صيحات التثاتم و التشاجر تتعالى من هاهنا و هاهنا!

أقرأ و أسمع و أرى، فى نفس الحين الذى أقرأ فيه كلاما للمرأة العجوز غولدا مايير تهدد و تتوعد و تهزأ و تسخر! و إذا كان من غير المستغرب فى هذا العصر أن ترئس امرأه أية حكومه، و إذا كان فى العالم اليوم إلى جانب (الرئيسه) غولدا مايير رئيستان أخريان فى الهند و سيلان. فان من الإيغال فى الأذلال المعنوى أن يكون المههدد المتوعد الهازئ الساخر بالعرب أجمعين و ملايينهم المائه و العشرين و جلالاتهم و فخاماتهم و سياداتهم هو امرأه عجوز!

و الآن و أنا أكتب هذه الذكريات فى خريف العام ١٩٧٢ أى بعد مرور اثنين و خمسين سنه على تلك الأحداث. و بعد أن شهدت الأمة العربيه ما شهدت و مر بها ما مر.

الآن أقرأ و صفا للضياع الذى كان فيه العرب يوم ذاك و التمزق الذى كانوا يعيشونه و هم يواجهون مرحله من أخطر مراحل وجودهم. أقرأ و صفا كتبه واحد ممن حضروا تلك الفتره و عانوها كل المعاناه.

الآن أقرأ ما كتبه أسعد داغر و هو يتحدث عن واقع العرب فى تلك الفتره الحرجه:

"و لكن زعماء العرب و مفكريهم بعد أن رفعوا شعور الأمه إلى هذا المستوى العالى لم يحسنوا الاستفاده منه. إما لنقص فى التجربه أو ضعف فى العزيمه أو خلاف فى الآراء أو تنافس بين الأفراد أو لكل هذه الأسباب مجتمعه فى وقت واحد. فبدلا من أن توضع خطه سياسيه بعيده المدى تتولى تنفيذها يد حازمه... لجئوا إلى الراحة و قضوا أوقاتهم الثمينه فى بحث النظريات العقيمه غير حاسبين للمستقبل أقل حساب فكانت النتيجة أن انقسموا على أنفسهم شيعا و أحزابا".

و لو أن إنسانا أراد أن يصف حال العرب اليوم بعد اثنين و خمسين سنه و هم يواجهون الصهيونيه، هل كان يمكن أن يكتب غير هذا القول؟!.

ثم همدت سوريا ما عدا معارك إبراهيم هنانو في الشمال و معارك صالح العلي في الجبل العلوي، ثم انتهى كل شيء!!.

و لقد كان عجبيا أن تقر دمشق بعد كل تلك الحماسه و أن تستطيب الدعه بعد كل ذاك الاضطراب، و لكن الحقيقه أن الاحتلال فرق شمل المناضلين، فتفرقوا فرارا من الفرنسيين في كل مكان أو انزوى منهم من انزوى ستر للعيون المترصده.

ثم بدأ الشمل يجتمع، و بدأ بعض الراحلين يعودون، ثم أخذوا يتداولون و يجتمعون و يتهامون، ثم بدءوا يجهرن بعض الجهر.

أصبح الانفجار مؤكدا، و مواد الوقود جاهزه لا تحتاج إلا إلى الشراره التي تذكياها.

و كان قد حدث على أثر الاحتلال و مجيء الجنرال إلى دمشق، ثم عزمه على تلبيه دعوه محمود الفاعور شيخ عرب الفضل في الجولان و اتجاهه بطريق القنيطره إلى مقر محمود الفاعور. حدث أن بضعه شبان من المناضلين قد كمنوا له في الطريق و أطلقوا على موكبه الرصاص محاولين اغتياله بعمل بطولي، و كان يرافقه حقي العظم الذي كان قد نصبه الفرنسيون حاكما لدوله دمشق. فلم يصب غورو و إنما أصيب مرافقه الضابط فقتل و أصيب رفيقه حقي العظم برصاصه فجرح جرحا طفيفا، كما مرت الإشاره إلى ذلك من قبل.

ثم قامت أحداث محدوده لم تلبث أن خمدت أو أخدمت كحادثه مدرسه البحصه التي عبر فيها التلاميذ عن نقيمتهم و أدت إلى إقاله مدير المدرسه أديب التقى. و ذلك أن الطلاب حطموا صوره الجنرال غورو التي أمرت السلطات برفعها في المكاتب الحكوميه و تغاضى أديب التقى عن ذلك فكان ما كان.

و أخيرا انطلقت الشراره التي كان لا بد أن تنطلق و مست البارود الهامد فانفجر انفجارا مدويا.

الصيحه الأولى

كانت المناسبه وصول المستر كراين في زياره لدمشق في شهر نيسان ١٩٢٢، و المستر كراين هو رئيس لجنه الاستفتاء التي جاءت إلى سوريا و لبنان في أعقاب الحرب العالميه الأولى و كان كراين هذا متوددا للعرب مظهرا الصداقه لهم، فجاء في تلك الفتره يزور البلاد التي جاءها في يوم من الأيام مستفتيا و أسبغ عليها من عواطفه ما أرضاها، فرأت دمشق أن تكرمه و تطور التكريم ففجر ما كان هامدا في النفوس من النقمه العارمه و الثوره الجياشه فانطلق الخطباء ينددون بالانتداب و يعلنون نقيمتهم على رجاله و ينادون بالاستقلال و يحيونه، فتجاوب الناس معهم، و دوى في أجواء دمشق لأول مره بعد ميسلون صوت الحريه و تعالى نداء الاستقلال.

ثم كان توديع كراين، فانقلب التوديع إلى مظاهره وطنيه صحابه، كانت الأولى من نوعها في وجه الفرنسيين. و كان المحركون لكل ذلك و المسببون له هم الدكتور عبد الرحمن شهنيدر و سعيد حيدر و حسن الحكيم و من إليهم من شبان و إخوان.

فرأى الفرنسيون أن يأخذوا الأمر بالشده و أن يخمدوا الصوت قبل أن ينتشر في كل الآفاق فاعتقلوا الثلاثة و اعتقلوا معهم من كان من أعوانهم.

فجاءت النتيجة عكس ما أمل الفرنسيون إذ كان اعتقال هؤلاء مثيرا للمظاهرات، مؤليا للجماهير!.

و كلما اتسع الاعتقال اتسع نطاق المظاهرات، و لا أزال أذكر مشهد المصفحات الفرنسيه و قد اخترقت سوق الحميديه ماضيه إلى قرب مدخل المسجد الأموى، حيث كان المتظاهرون يتجمعون أكثر ما يتجمعون هناك.

و انتهى الأمر بمحاكمه الثلاثة و محاكمه آخرين معهم و الحكم عليهم بالسجن مددا مختلفه و إرسالهم إلى جزيره أرواد ليقضوا مده الحكم هناك.

و قد بقوا فى سجون أرواد حتى الثامن عشر من تشرين الأول العام ١٩٢٣ حيث أطلق سراحهم.

و هكذا كان هؤلاء الثلاثة كما عبر عنهم بعد ذلك نجيب الريس الذى كان رفيقهم فى سجون أرواد: أصحاب الصيحه الأولى.

أول مقال

و مضت الأيام و أنا لا- أزال أواصل الدراسه الابتدائيه فى المدرسه العلويه ثم أوشكت على إنهاؤها، و فى الصف الأخير منها (الصف السادس) يوم ذاك كتبت أول مقال نشرته لى مجله العرفان.

فقد طورتنى دروس الإنشاء التى كان يتولاها أديب التقى، و كتبت يوما موضوعا شعرت أنه أراضى الأستاذ، فعدت و بيضته و طلبت إليه أن يرسله إلى مجله العرفان، فاستجاب أديب التقى لذلك، و أرسله لصاحب العرفان كما هو قائلا فى تقديمه ما لا أزال أذكر بعضه: "هذه سانحه من سوانح التلاميذ أرسلها لكم على علاتها".

و كان من فضل الشيخ عارف الزين و تشجيعه أن نشرها (على علاتها) و ما أوضحها من علاات كما تبين لى بعد ذلك!.

و هكذا فتحت لى مجله العرفان باب الكتابه و جعلتنى أو من بانى أستطيع أن أكتب و أنشر. ثم تكرر الأمر أكثر من مره، و كل ما كان ينشر انما ينشر (على علاته)!!.

ذكرى الثامن من آذار

كانت الأحكام التى صدرت على الدكتور شهبندر و سعيد حيدر و حسن الحكيم و رفاقهم أحكاما بالسجن مددا مختلفه أقصاها عشرين سنه و أقلها خمس سنين.

و لم تلبث الحركه أن هدأت و المظاهرات أن انقطعت، و لا- أذكر أنه حدث بعد ذلك أى حادث وطنى، فيما عدا ما كانت تتململ به النفوس دون أن تبرزه أو تبوح به. وراق الفرنسيين هذا الركود و أراضاهم هذا الهمود فأطلقوا سراح مسجونى أرواد بعد حوالى سنه و نصف السنه، فعادوا جميعا إلى دمشق. و لم يعودوا ليستسلموا، فما هى إلا برهه قصيره حتى عاودوا الحركه و

عاد الناس يجهرون بما كانوا يضمرون، وبدأ التملل يتخذ مختلف المظاهر. ثم كان أن بدأ العمل المنظم فاصدر أحد أبرز معتقلي أرواد سعيد حيدر بالاتفاق مع شقيقه يوسف حيدر جريده المفيد. فكانت هذه الجريده الصوت الوطنى المتعالى و التف حولها شيوخ الكفاح و كهوله و شبانه فكانت لسانهم الناطق. بل كانت مدرسه الوطنيه الناجحه!.

و أعترف بانى كنت من أصغر تلاميذها و أنها لقتنى من الدروس ما كان له أعظم الأثر فى حياتى و أنها علمتنى ما لم أنسه و أنضجت فى ذهنى الفكره الوطنيه و أوضحت أمامى طريق الكفاح!.

لقد كانت مقالات سعيد حيدر نبراسا وهاجا ينير السبل أمام التائهين، و كان قلمه المحرك للهمم المثير للغزائم!.

و لم تكن المفيد بمستطيعه أن تقول كل شىء، و لا كانت قادره على أن تصرح بجميع ما يجب التصريح به، و الدعوه إلى كل ما تريد أن تدعو إليه، لأن سيف التعطيل الادارى كان مسلطا فوق رأسها يهددها عند أول بادره!..

لذلك كانت تلجأ إلى الرمز، و ما كان أوضح هذا الرمز عند النفوس المتعطشه إلى كل كلمه وطنيه.

و لن أنسى أبدا ما كتبه سعيد حيدر بتوقيع "س...س" و ما صور به فى المفيد بقلمه فى صباح الثامن من آذار!..

و ما صباح اليوم الثامن من آذار؟ أنه صباح اليوم الذى أعلنت فيه سوريا استقلالها التام الناجز و صرخت بوجه الدنيا متحديه قوى الاستعمار بأنها تريد أن تعيش حره سيده نفسها!..

و لم يلبث الحلم السعيد أن عاش بضعه شهور فقط، و لم يلبث الاستقلال أن هوى فى يوم ميسلون!.

و جاءت ذكرى الثامن من آذار و الاستعمار الفرنسى يجثم بكل شرسته على صدر الوطن الجريح!.

جاءت الذكرى العظيمه فكان لا بد لجريده المفيد و سعيد حيدر من أن يحتفل بها احتفالا يليق بجلالها!. احتفالا يوقظ النفوس و يلمس القلوب، و يوقظ الغافى و يهز الهامد، بل يثير و يستنفر!.

يفعل كل ذلك دون أن يثير ريبه المستعمرين أو يلفت أنظارهم لما يريد فيبطشوا بالمفيد! ولقد كان للمفيد و سعيد حيدر ما أرادوا و خرج مقاله فى صباح ٨ آذار قطعته أديبه رائعه و جذوه وطنيه لاهبه ملهبه!.

و كرمتم دمشق بلسان سعيد حيدر و قلمه، كرمتم ذكرى ٨ آذار أنضر تكريم و أزكاه، أعنف تكريم و أقساه، كرمتم هذه الذكرى لأول مره بعد ثلاث سنين من دخول الفرنسيين دمشق و سيطرتهم على الوطن!. كرمتها بالرمز و التلميح، لأنها لا تستطيع البوح و التصريح!.

و أذكر أن سعيد حيدر ختم مقاله بهذين البيتين لمهيار الديلمى:

اذكرونا مثل ذكرانا لكم رب ذكرى قربت من نزحا

و اذكروا صبا إذا غنى بكم شرب الدمع و عاف القدحا

لم تكن مقالات سعيد حيدر وحده هى التى تضحج بها المفيد، بل كانت كذلك مقالات أخيه يوسف حيدر و مقالات نجيب الرئيس الذى اكتشفته المفيد و قدمته لقراءها محررا ناشئا، و عهدت إليه بان يكتب كل يوم (حديث اليوم). و لا ننسى أن أرواد كانت قد جمعت بين سعيد حيدر و الفتى الناشئ نجيب الرئيس!.

و إذا كانت مجله العرفان أول مجله أكتب فيها، فقد كانت المفيد أول جريده أسطر فيها بعض الكلام، لم يكن ما كتبه فيها مقالا، بل كان تعليقا محدود السطور على بعض تصرفات الجنود الفرنسيين!.

ثم يدور الزمن و تقوم الثورة السورية و يهاجر سعيد حيدر فيمن هاجر من الرجال فرارا من مطارده الفرنسيين بعد أن كان من أكبر المسئولين عن قيام الثورة، ثم تلجئه الأقدار إلى اسطمبول فى حياه من أفسى ما يمكن أن يمر على إنسان. و يصبح نجيب الرئيس يوما من الأيام ألمع صحفى سورى و يستقل بجريده القبس و يطبع كل يوم على القراء بمقاله الافتتاحى مختوما أبدا ببيت من الشعر. و يلاحظ قراء القبس بين فتره و أخرى أنهم يقرءون فيما يقرءون فى مواضع القبس رساله صادرة من اسطمبول متوجه بهذه العبارة: بقلم مكاتب كبير. و لم يكن المكاتب الكبير سوى سعيد حيدر المحكوم من جديد بالاعدام من الفرنسيين، و العائش شريدا فى اسطمبول عيشا لا أمر و لا أنكد و لا أكثر شظفا منه!..(١)

الاتحاد السورى

كان تقسيم سوريا إلى خمس دول مهزله من مهازل الاستعمار أقدم عليها الجنرال غورو إمعانا فى الارهاق و التمزيق و تشتيت القوى. و قد كانت أهزل من أن يقبلها عقل إنسان، أو يقرها مجتمع متحضر!.

و قد أدرك غورو بعد حين الأبعاد الحقيقيه التى تصم فعلته أشنع الوصمات، فحاول أن يتلافى ذلك فاصدر فى الثانى و العشرين من حزيران سنة ١٩٢٢ قرارا بإنشاء اتحاد بين دول ثلاث من دول سوريا، هى دوله دمشق و دوله حلب و دوله العلويين، و كان لواء اسكندرون يدخل ضمنا مع هذا الاتحاد باعتبار ارتباطه بدوله حلب. و استثنى غورو دوله جبل الدروز من الدخول فى الاتحاد.

و ظل الأمر كذلك حتى سافر غورو إلى فرنسا في تشرين الثاني سنة ١٩٢٢ و حدثت في فرنسا أحداث أدت إلى استقالته.

و ظلت المفوضيه الفرنسيه بلا مفوض حتى أوائل نيسان سنة ١٩٢٣ حيث عين الجنرال ويغان مفوضا جديدا، فوصل بيروت في التاسع من أيار ١٩٢٣.

و في الخامس من كانون الأول ١٩٢٤ أصدر ويغان قرارا بالغاء الاتحاد السوري و إعلان الوحده بين دولتي دمشق و حلب و أخرج منها دوله العلويين.

و جاء دمشق و خطب في (المنشيه) في حفل عام معلنا الوحده، متبسطا في خطابه ممنيا، و ملمحا إلى الأمجاد العربيه السالفه.

و يتناول سعيد حيدر الخطاب في جريده المفيد تحليلا و تفنيديا في سلسله مقالات بعنوان: (الجنرال يتكلم) و بتوقيع (س...).

مع الجنرال ويغان

و كان لي حادث طريف مع الجنرال ويغان، ذلك أنه دعى إلى زياره جبل عامل عند ما كنا نقضى الصيف في شقرا. و حشدت لهذه الزياره جماهير الناس مشاه و فرسانا على أن يكون اللقاء على ينايع رأس العين في صور حيث يتناول هناك طعام الغداء.

فذهبت مع الذاهيين فارسا مع فرسان من بني عمنا، حيث قضينا ليلتنا في صور، و كنت قد بيت أمرا أردت أن أكسب فيه هذه المناسبه التي حشر فيها الناس حشرا في حيث لا يصح أن يحشروا، أردت أن أكسبها فيه معنى يزيل ما في هذا الاحتشاد من تزلف و استخذاء!

و كنت خلال متابعتي الدراسه في المدرسه العلويه قد أخذت شيئا من اللغه الفرنسيه. فكتبت كلمه باللغه العربيه ضمنيتها مطالب معينه هي من صميم حاجه البلاد، و أشرت إلى ما تشكوه البلاد من حرمان و جور.

و ذهبنا في الليل إلى صيدلي في صور أو طيب، مما لا- أتحققه الآن، و طلبنا إليه أن يترجم لنا هذه الكلمه الموجه إلى اللغه الفرنسيه. فلما قرأها قال:

أنا أخرج بلغتي الفرنسيه أمام الجنرال، فانا لا أتقن ترجمه الصحيحه الفصيحه، فقلنا له: لن تكون أنت مسئولا عن ترجمه، بل هي ستنسب إلى، فاستجاب لنا. و قضيت الليل في حفظ النص الفرنسي عن ظهر قلب، ثم تابعت ذلك في الصباح.

و مضينا إلى رأس العين مع الماضين، و هناك كان الحشد الكثيف، و قد أعدت مائده للجنرال و حاشيته و بعض الرسميين. و لم يكده يجلس الجنرال على المائده، حتى تقدمت الصفوف إلى أن صرت غير بعيد عن مجلسه، فأثارت هذه الحركه انتباهه و انتباه الناس كلهم، و حاولت أن أتكلم. فإذا بي قد أنسيت النص الفرنسي الذي قضيت الليل و الصباح في استظهاره، و لم يفتح الله على منه بكلمه!.

١- و كانت المره الأولى التي حكم فيها سعيد حيدر بالاعدام هي اتر [اثر] دخول الفرنسيين دمشق فاضطر للفرار، ثم شمله العفو العام الذي أعلنه الفرنسيون. فعاد إلى دمشق فلم يلبث أن حكم بالسجن في أرواد. ثم عاد إلى دمشق فلم يلبث أن كان النافخ في شراره الثورة السوريه لتتاجج ضراما عارما، فيحكم بالاعدام من جديد!..

و كانت الأنظار كلها متجهه إلى هذا الصبي متسائله عما يريد أن يفعل! فلم ارتبك، إذ كان أقل ارتباك أو تضعضع سيحيل الأمر إلى مهزله تنتهى بإبعادى عن مكاني على أسوأ حال. لذلك توكلت على الله و انطلقت بما أعرفه من كلمات فرنسيه محدوده معبرا فيها عن بعض ما أريد قوله "فقلت ما معناه مخاطبا الجنرال:

"إنك لا تستطيع أن تذهب إلى أبعد من صور لأن طريق السيارات ينتهى بصور، و إذا استطعت الوصول باحدى الوسائل إلى ما هو أبعد من صور. فإذا مرضت هناك فلا طبيب يعودك. و إذا كان لك ولد هناك فلا مدرسه تأويه. نريد طرقا و مدارس و أطباء". و الحقيقه أننى كنت أريد المطالبه بأكثر من هذا و لكننى عجزت عن الاسترسال فى المطالب باللغه الفرنسيه فسكت عند هذا الحد.

و قد انفعّل الجنرال و حاشيته لهذا الكلام كل الانفعال و أثر فى نفسه أبعد التأثير، فأشار إلى رئيس غرفته المدينه المسيو (جيسكار) بان يحضرنى إليه، فأسرع آخذا بيدي إلى الجنرال، الذى ربت على كتفى مبتسما و مشجعا، ثم خاطبنى بكلام لم أستطع متابعته و فهمه. و أدرك ذلك بعض من كان فى حاشيته قريبا منه فأسرع يترجم لى كلام الجنرال، فإذا به يقول أيهم تفضل أولا، الطريق أم الطبيب أم المدرسه؟.

فقلت: الطريق لأنها هى ستاتى بالمدرسه و الطبيب. فقال ستاتى الطريق. و لكن أين هى قرينتك؟. قلت يجب أن تنتهى الطريق لا فى قرينتى بل فى بنت جبيل.

و اندفع رئيس غرفته يصورنى صورته فتوغرافيه و لا- أدرى أ كان ذلك منه أم بايعاز من الجنرال. و سألنى عن عنوانى لبعث لى بالصوره. فأعطيته عنوانى فى المدرسه العلويه فى دمشق.

و قد أضاع هذا الذى جرى - أضاع على منظمى الاحتشاد المترلفين به المستغلين للشعب السائقين له سوق الأنعام لتحقيق مآربهم، أضاع عليهم رونق ما قصدوه و أفسد عليهم مخططهم، و ضاعوا فى خضم ما جرى!.

و لم نلبث أن عدنا إلى دمشق، فإذا بى أتلقى الصوره و هى المنشوره مع هذا الكلام، و معها تحيه من رئيس غرفه الجنرال باسم الجنرال و وعد بتحقيق شق الطريق.

و كنت يوما أسير فى سوق الحميديه بدمشق، فإذا بى وجها لوجه أمام المسيو جيسكار الذى عرفنى قبل أن أعرفه مع أننى كنت فى صور أرتدى الكوفيه و العقال، و كنت فى دمشق أرتدى الطربوش، فاقبل على مندفعاً مصافحا، و قال لى أن الجنرال هنا فهلم معى لزيارته، فانطلقنا فى سيارته إلى حيث كان ينزل الجنرال قرب الجسر الأبيض فى الصالحيه، فإذا بالجنرال يعرفنى فيقبل على مرحبا مشجعا.

و يبدو أنه أدرك ضعفى باللغه الفرنسيه فنادى مترجما له قال لى عن لسانه أنه قد أمر بإنفاذ تعبيد الطريق.

و بالفعل بدئ بالتعبيد، و لكن المنفذين كانوا يتباطئون به حتى أوصلوه بعد جهد إلى جويا. و ظل الطريق متوقفا فى جويا زمنا طويلا، على أننا بعد أن كنا نصل بالسيارات إلى صور و نأخذ الدواب منها إلى شقرا. صرنا الآن نصل إلى جويا، و بذلك قربت

شقه الطريق.

و بعد عهود و عهود أكمل الطريق إلى بنت جبيل.

و حشد الناس لاستقبال الجنرال هو مثال لما كان المستغلون المتسلطون يتعاملون به مع الشعب سواء في العهد التركي أو العهد الفرنسي ثم في عهد الاستقلال.

فقد كانت السلطات تطلق يد رجل واحد في المنطقه كلها، فتعطى من يريد إعطاءه و تمنع من يريد منعه. و يقوم في كل قريه من يطلقون عليه اسم (الأفندي) يكون هو يد المتسلط الأكبر في محيط القريه التي يقيم فيها، و تكون أدوات الحكومه من جباه و درك تحت تصرفه، فينال بالضر من يخالفونه و بالنفع من يطيعونه. ثم هو ينفذ أوامر سيده الكبير الذي يعاونه بدوره على تركيز تسلطه. و هكذا يتجمع النفوذ في يد واحده عليا توزع هي النفوذ على يد في كل قريه.

متابعه الحركه الوطنيه

و كنت أتابع الحركه الوطنيه من خلال مطالعاتي لجريده المفيد التي كانت تصلنا بانتظام، و التي كانت تصاب بتعطيل السلطات لها بين حين و آخر، مما كان يبھظها ماليا، و لكنها ظلت صامده مستمره. فكنت أتابع ما يجرى في البلاد و ما يفكر به الوطنيون مما كنت أقرأه يوميا في المفيد.

أول احتفال بذكرى ميسلون

و كما جاءت ذكرى ٨ آذار فاحتفلت بها المفيد احتفالا بيانيا بليغا - كما مر - و كانت تلك هي المره الأولى بعد الاحتلال التي يتعرض فيها متعرض لذكر ٨ آذار. كذلك جاءت الآن ذكرى اليوم الآخر المعاكس ليوم ٨ آذار، اليوم الذي هدم فيه استقلال سوريا في ميسلون يوم ٢٤ تموز. و كان أديب التقى قد نظم بعد معركة ميسلون نشيدا رمزيا لتحيه هذه الذكرى، لم يذكر فيه اسم ميسلون و لا اسم يوسف العظمه، بل جعل عنوانه أمين الشهيد، فيه وصف لمعركه و قتال و استشهاد رجل أطلق عليه اسم أمين، و جاء في ختام النشيد:

وصى رفاقه و حياهم تحيه الحزين

يقول أ ما قدر الله وعدتم سالمين

قولوا لأهلي قد قضى تحت القنابل " أمين "

قضى شهيدا غازيا قد أدرك الفوز المبين

فلتعش الأمه و ليحيى الوطن دوما حصين

و كنا نحن فى المدرسه العلويه نحفظ هذا النشيد و نعلم أن المقصود بامين الشهيد هو يوسف العظمه، و أن ما جاء فيه من الحديث عن المعركه و العساكر كان المقصود به معركه ميسلون.

و لم يكن النشيد يثير ريبه الفرنسيين، لما فيه من غموض المقصد لغير العارف. و كان أديب التقى قد طبع هذا النشيد مع مجموعه أناشيد سماها أغاريد التلاميذ، و من هنا سار النشيد إلى كل مدرسه و الكل يعلم ما هو و من هو المقصود بالنشيد. و لم يكن فى ذلك الوقت الحرج مستطاعا أكثر من هذا.

و جاء يوم ٢٤ تموز سنه ١٩٢٤ بعد ذاك الكبت المرهق، و جاءت الذكرى و قد آن أوان الاحتفال بها علنا على رؤوس الأشهاد بعد مرور أربع سنوات على المعركه.

و لا أدرى الآن بمن كان اتصالى و لا كيف عرفت بأنه تقرر تحدى الفرنسيين و الذهاب إلى ميسلون و الاحتفال بالذكرى على قبر يوسف العظمه نفسه و فى ميسلون نفسها، و لكننى أذكر أننى بعد الظهر كنت فى المرجه ملتقيا باثنين من رواد الاحتفال لا أذكر الآن من هما و أننا كنا نفتش عن اثنين آخرين ليملنا معنا السياره التى ستنقلنا إلى ميسلون.

و بعد لحظات وجدناهما و مضت بنا السياره إلى ميسلون حيث وجدنا غيرنا قد سبقنا، و حيث تتالى وصول السيارات حتى اجتمع بضع مئات من الشبان و الكهول. و كنت أصغر الجميع سنا. و كان أبرز الحاضرين الدكتور خالد الخطيب أحد معتقلى أرواد الذى مر ذكرهم.

و كان الدكتور خالد جمره من الجمرات الوطنيه الذكيه المتلائمه، و قد أعطاه الله بسطه فى الجسم و العقل، و وهبه صوتا جهوريا مؤثرا و أداه خطاييه فاعله.

و تقدم قارئ للقرآن يتلو بصوت رخيم آيا من الذكر الحكيم فيها:

وا أسفا على يوسف!.

ثم برز الدكتور خالد الخطيب يرتجل خطابا استمده من نار ميسلون و دمها، و كفى بذلك..

ثم انبرى الجميع ينشدون بصوت واحد نشيد (أمين الشهيد) و هنا فوجئت بتغلغل النشيد فى جميع الأوساط الوطنيه و أن كل من فى دمشق و ربما فى غير دمشق أيضا يحفظون النشيد و يرددونه!.

و صحيح أن النشيد كان رمزيا ليس فيه اسم يوسف و لا اسم ميسلون و لكن قيمته كانت فى أنه مكتوب بمداد تحس أنه من تراب ميسلون و أنفاس يوسف العظمه!.

و قد كان صغر سننى و ما يبدو على من مظاهر الانفعال و التأثير سببا فى أن الجميع كانوا يحيطوننى بعطف و حنان و يدفوننى

إلى التقدم إلى جانب الضريح أثناء الاحتفال، حيث كان التواحم للوصول إليه ملموسا.

و كان بعض الحاضرين قد أحضروا معهم طاقات الورد و بعض الأكاليل، أما الأكاليل فوضعت على القبر و أما الطاقات فبقيت محموله بأيدي أصحابها. و تاثر أحد حاملي الطاقات بمنظرى فأسرع يقدم لى طاقة الورد التى كانت معه لأحملها بيدي.

و يبدو أنه كان مقررا أن يخطب الدكتور خالد الخطيب وحده، لذلك لم يتكلم أحد فيما عدا نصوح الخرسا الذى استاذن بإلقاء بعض المقترحات..

ثم انتظم الجميع فى موكب واحد عاد فى مجموع سياراته فدخل دمشق دخولا حماسيا أثار تصفيق المشاهدين و ذكرهم باليوم الرهيب!.

هكذا جرى أول احتفال بيوم ميسلون بعد مرور بضع سنين على أحداثه. و هكذا مر أكبر تحد للفرنسيين فى ذلك الوقت.

أما خالد الخطيب فقد التحق بعد ذلك بالثوره السوريه، ثم مات بعيدا عن وطنه، و لم يعد إلى بلده حماه إلا جثه هامده!.

و أما نصوح الخرسا فلم أعد أسمع عنه بعد ذلك شيئا.

كان الاحتفال بيوم ميسلون مؤثرا فى نفسى إلى حد أنطقنى لأول مره بالشعر، فلما عدنا من ميسلون نظمت أبياتا لا أزال أذكر صدر مطلعها و هو:

(سلاما أيها الثاوى سلاما)

أول مظاهره

بلفور صاحب الوعد الذى وهب فيه فلسطين لليهود، و الذى لا يوجد فى تاريخ العرب الحديث و ربما القديم من هو أشد إجراما، و أعظم إيذاء للعرب منه!.

بلفور هذا دعاه اليهود ليشهد احتفالهم بافتتاح جامعتهم العبريه فى القدس، دعوه تكريما له و تقديرا لما أداه لهم. و جاء بلفور فمر بمصر مجتازا إياها إلى فلسطين، و لم يثر وصوله إلى مصر أى شىء و لم يقابل باى تحرك أو احتجاج، إذ كانت مصر إذ ذاك بعيده عن الحس العربى لا يعنىها فى شىء بلفور و وعده و تحركاته. و لو لا أن نفرا من الفلسطينيين و رفاقا لهم مضوا إلى محطه القطار الذهاب إلى فلسطين و المقل لبلفور فهتفوا هتافا ضعيفا ضاع فى زحمه الوداع الرسمى و ضجيج الحياه الصاخبه لو لا هذا لما كان لمرور بلفور فى مصر و نزوله القاهره أى صدى احتجاج أو غضب و شتان بين الأمس و اليوم فى تحسس مصر العربى. و وصل بلفور فلسطين فقابله العرب بالسخط مضرين متظاهرين، و قد كان من حقه أن لا يخرج من فلسطين حيا، ثم ها هو فى دمشق!.

إن مروره في مصر تحدى للشعور العربي أى تحدى، ثم أن تجوله في فلسطين إيغال في التحدى!

و ظل يوغل في التحدى هابطا إلى دمشق، نازلا في العاصمة العربية الباسله، و قبلت دمشق التحدى و خرجت إلى بلفور، خرجت إليه بالقلب العربي المؤمن و الدم الشامى الفائرا!

خرجت إليه بكل عراقتها، و مشت بكل أصالتها، و اندفعت في الليل بمظاهراتها (و عراضاتها) شيبا و شبانا و فتيانا و صبيانا تحاول أن تقتحم عليه فندقه على ضفاف بردى!

و مشى النذير إلى الفرنسيين فاخرجوا بلفور من الفندق قبل وصول المظاهرات و مشوا به في طريق بيروت دالينه على الطريق إليها...

و استمرت دمشق طول الليل تغلى كالمرجل، و تجددت المظاهرات في النهار، و لم يكن لى نصيب في الاشتراك بمظاهرات الليل، و لكننى قمت في الصباح منطلقا مع المنطلقين حتى بلغنا أواسط شارع النصر، و هناك هاجمنا فرسان المغاربه بخيولهم و سيوفهم شاقين بها صفوف المتظاهرين، ضارين بالسيوف على الشمال و اليمين. و تشتت المظاهره بعد أن كادت ضربه سيف تلامس وجهى لو لا إلقائى بنفسى على الشجيرات الممتده في قلب الشارع.

و هكذا لم يستطع بلفور أن ينعم بالقرار في دمشق و لا استطاع أن يتخذ من ثراها مهجعا و لو ليله واحده.

و كانت هذه المره الأولى التى أشارك فيها بالمظاهرات مشاركته عمليه و أسير فيها مع السائرين و كان ذلك في أوائل سنه ١٩٢٥ على ما أذكر. ثم كانت لنا بعد ذلك مع المظاهرات أحاديث و أحاديث!..

قراءات

و لا بد لى أن أشير هنا إلى أنى كنت أتوق إلى مطالعه كل ما هو جديد من الكتب، فعدا الصحف اليوميه التى كانت محصوره على الأغلب بجريده المفيد، و عدا المجلات الشهرية التى كانت هى الأخرى محصوره بمجله العرفان، فقد كنت أدر كل ما أستطيع إدخاره من المال القليل الذى كان يصل إلى لشراء الكتب الحديثه. فمما قرأته في تلك السن.

كتاب مذكرات جمال باشا، و ما رأيت و ما سمعت للزركلى، و ملوك العرب للريحانى. و هذا الكتاب الأخير كان له في توجيهى النثرى أعظم الأثر، و تأثرت به إلى أبعد حدود التأثير، إذ حبب إلى أدب الرحلات و عند ما بدأت أجرب كتابه هذا النوع من الأدب كان أسلوب الريحانى فيه يجذبنى فاحاول احتذائه منفعل بتعاييره و طريقتة. إلى أن أولعت بعد ذلك بالرحلات و كتابه انطباعاتى فيها بأسلوب مستقل.

و قد كان من فضل هذا الكتاب أن حملنى على تسجيل معظم رحلاتى حتى توفر لى من ذلك كتاب كامل نشر كله مقالات متفرقه، و أرجو أن يتاح لى جمعها و طبعها معا(١) و إذا كنت قد أشرت من قبل إلى فضل أديب التقى في تنقيف قلمى و دفعى إلى الكتابه، فاننى أود أن أشير هنا إلى أن الفضل في تحقيق ذلك كان لمجله العرفان التى احتضنت قلمى و كان لا يزال غضا طريا، و شجعتنى ما وسعها التشجيع. و أولى رحلاتى نشرت في العرفان، ثم تتابع نشرها فيها، و ما كان لها أن تنشر في غيرها

لأسباب منها: أنني أنا نفسى لم أكن لأجراً على بعث ما أكتبه لغير العرفان، ثم لنوعيه الرحلات، إذ كانت رحلات محدوده المكان و الزمان، لا تهم غير قارئ العرفان فى الغالب.

و لما توسعت الرحلات و انتشرت فى كل مكان و أصبحت شيئاً مذكوراً، ظللت وفاء للعرفان و صاحبها لا أنشرها إلا فيها على الأكثر.

و من مطالعاتى المبكره تلك الأيام التى كان لها أبعد الأثر فى نفسى.

و وجهتى بعد ذلك إلى التوغل فى دراسه التاريخ الإسلامى، هو ما كنت أطلعه فى كتب والدى التى كان ينشرها فى ذلك الحين و أخص منها كتابه المجالس السنيه الذى كنت أقرأه حين صدوره ملزمه ملزمه، و ربما قابلت معه التجارب التى تأتية من المطبعه (البروقات)، فتنطبع فى نفسى الأحداث و يشوقنى ذلك للشغف فى قراءه أمثالها. و قد بلغ الأمر فى اطمئنان والدى إلى، أن اضطر مره للسفر إلى بيروت بينما كان يطبع الجزء الثانى من كتابه المجالس السنيه فعهد إلى أن أتولى - و أنا فى تلك السن - تصحيح التجارب و إعادتها إلى المطبعه، فقامت بالمهمه أحسن قيام، و عاد والدى بعد أيام و رأى العمل مستمرا لم يتوقف فى غيابه.

و أذكر أن مما أثر فى نفسى خلال قراءتى للمجالس، قصه مصرع حجر بن عدى، و قصه الحضين بن المنذر و ما قاله فيه أمير المؤمنين من الشعر يوم صفين، إذ كانت مع الحضين رايه ربيعه، و كان شابا صغير السن، فزحف بالرأيه فأعجب عليا زحفه فقال فيه هذه الأبيات التى هى من الشعر القليل الثابت أنه لأمر المؤمنين، و التى استظهرتها حين قراءتها:

لمن رايه حمراء يخفق ظلها إذا قيل قدمها حضين تقدما

فيقدمها فى الصف حتى يزيها حياض المنايا تقطر الموت و الدما

تراه إذا ما كان يوم عظيمه أبى فيه إلا عزه و تكرما

جزى الله قوما صابروا فى لقائهم لدى البأس خيرا ما أعف و أكرما

و أحزم صبورا حين يدعى إلى الوغى إذا كان أصوات الرجال تغمغما

ربيعه أعنى أنهم أهل نجده و بأس إذا لاقوا خميسا عرمرما

و كذلك فقد كان لقراءتى كتاب (الامامه و السياسه) يد فى انجذابى إلى التاريخ و انفعلت كل الانفعال لقراءتى فيه قصه وقعه الحره. و ظللت أتابع قراءه كل ما تقع عليه يدي من كتب التاريخ فى مكتبه والدى.

و عدا ذلك فقد شغفت بقراءه الشعر و استظهاره، و بدأت أعد دفاترى لتسجيل ما استحسنته من الشعر، فاستظهرت منه فى تلك السن قدرا صالحا. و إنى لآسف أن كل تلك المجاميع التى دونتها قد ضاعت.

و مما لا يزال عالقا في ذهنى من مستظهرات تلك الأيام قصيده لخير الدين الزركلى الذى كان فيمن اضطروا لهجر البلاد بعد معركة ميسلون و استقر فى مصر، و التقى فيها بعادل أرسلان فتطارحا الشعر الوجدانى الرقيق المعبر عن شوقهما لوطنهما و حينئها إلى بلدهما، و شعورهما بالغربه و الوحشه، و تحسرهما على ما آل إليه أمر أمتها.

فقد نشرت جريده المفيد قصيده الزركلى و جواب أرسلان فمما أحفظه

ص: ٢٦٦

١- طبع الكتاب بعد ذلك باسم: (من بلد إلى بلد).

من قصيده الزركلى منذ ذلك الحين و اكتبه الآن من ذاكرتى هذه الأبيات:

العين بعد فراقها الوطن لا ساكنا ألفت و لا سكنا

ريانه بالدمع أقلقها أن لا تحس كرى و لا وسنا

و القلب لو لا أنه صعدت أنكرته و شككت فيه أنا

يا طائرا غنى على غصن و النيل يسقى ذلك الغصنا

زدنى وهج ما شئت من شجنى إن كنت مثلى تعرف الشجنا

أذكرتنى بردى و واديه و الطير أحادا به وثنا

و احبه أسررت من كلفى و هواى فيهم لاعجا كمنا

ما كنت أحسبني مفارقهم حتى تفارق روحى البدنا

يا موطننا عبث الزمان به من ذا الذى أغرى بك الزمنا

عطفوا عليك فوسعوك أذى و هم يسمون الأذى مننا

و حنوا عليك فجردوا قضا مسنونه و تقدموا بقنا

كم ذا أغالبه و يغلبنى دمع إذا كفكفته هتنا

و من قصيده عادل أرسلان:

يا خير مهلا لا تثر شجنا حسبى و حسبك لوعه و ضنا

النيل ماء الشرق قاطبه لكنهم قد كدروه لنا

و لقد حبت إلى هذه القصيد شعر خير الدين الزركلى، و خير الدين نفسه و صرت أتابع شعره فوقع لى منه قصيدته الدالية التى

نظمها فى أعقاب يوم ميسلون و التى يقول فيها:

غلت المراحل فاستشاطت أمه عرييه غضبى و ثار وقود

و لقد رأيت جموعها وثابه لو كان يدفع بالصدور حديد

على أننا لم نلبث أن فوجئنا بهجوم النجديين على الحجاز و إسقاطهم الملك حسين و إخراجه من بلاده. و قد كان الحسين يمثل فى نظرنا الصمود العربى الأصيل فى وجه المطامع الاستعماريه. و كان عناده و رفضه التسليم بواقع الانتداب الانكليزى فى فلسطين و ما وراءه من وعد بلفور مع ما يهدده من غضب الإنكليز من خسران للملك.

كان هذا الصمود من الحسين مثار إعجابنا و موضع تقديرنا، لذلك كان سقوطه صدمه قويه لنا، فإذا بالزرکلى يشمت بالحسين، و يحمله و زر مغاضبه ولده عبد الله له، فينظم قصيده مطلعها:

صبر العظيم على العظيم جبار زمزم و الحطيم

هذه القصيده التى قالت عنها مجله العرفان يوم ذاك: "...و بمداد التشفى و قله النصف نظمت قصيده الزرکلى".

فكرهنا الزرکلى و أعرضنا عن شعره.

و لكن لم تلبث الثورة السوريه بعد ذلك أن اشتعلت فإذا بالزرکلى شاعرها الغريد. و إذا بى أعود لاستظهار شعر الزرکلى و لحب الزرکلى، و هو حب اتصل بعد ذلك، إلى أن لقيته بعد سنين و سنين فزاد اللقاء الحب حبا.

و تنتهى الثورة السوريه فيلجأ بطلها سلطان الأطرش و عادل أرسلان إلى النبك فى صحراء الجوف. و هناك فى ذلك المتأى الكئيب يفاجأ عادل أرسلان بموت أخيه نسيب فيرثيه بقصيده تصل إلى فاستظهرها، و فيها يقول:

نفى النوم ما هاج الضمير المناجيا أ فى الغيب ما أخشى و إلا فماليا

و ذى تلعات النبك لاقت نواظرى تمثل فيها ضاحك الروض باكيا

على النخلات الخمس يطغين فى الضحى يشرن إلى المشتاق أن لا تلاقيا

تمايل من هوج الرياح كأنها نوادب يحثين التراب بواكيا

بلى قد مضى و القلب يهفو لذكره نسيب و خلى أهل الربع خاليا

فيا نائيا أواه لو أن نظره تزودتها من قبل أن صرت نائيا

و يا جدثا فوق الشويفات مشرفا بروض من الريحان ريان عاليا

طواك على الرمح الردينى خالق و أعمد فيك السيف عضبا يمانيا

و كنت أرجيها رساله واله على أمل اللقيا فكانت مراثيا

فيا لك من شعر سداه مدامع و لحمته نفس تذوب قوافيا

تحول قسرا فى النسب مراثيا و يا ليت لى ألفاظه و المعانبا

شقيقك من يعرفك يعرف مصابه و يرثى له راثيك حالا و آتيا

رأبت صدوع الدهر فى مواسيا و كنت لنفسى بالتعهد آسيا

بدرت لأمر كنت تعرف سره و تجعل منه للرجال مناحيا

و لولاه لم أصبر على البعد ساعه فعفوك عن بعدى سنينا ثمانيا

تطلعت أبغى من ذرى الشوف نظره فاعيت و قد أبعدت فيها المراميا

رمونا بديناميت حتى تقلقت جبال على حوران كانت رواسيا

فما غيروا القلب الذى كان مخلصا و لا أوهنوا العزم الذى كان ماضيا

و دبوا بابرّاج الحديد كأنها سلاحف ما يمشين إلا تهاديا

دوارع يلقاها الفتى و هو حاسر يصادمها بالفأس جذلان حاديا

فبيننا تراها زاحفات أذابها أسافلها صارت عليها أعاليا

توارىخها مسطوره فى متونها متونا بافعال الطبى و حواشيا

أقول لمن يبلو لدى الخطب صبرنا ترى الصبر فينا شيمه و تواسيا

و نركب للغايات قبل خيولنا من العزم و الاقدام جردا مذاكيا

هذا بعض ما لا أزال أتذكره من تلك القصيده الفريده.

و قد نشرتها أول ما نشرتها جريده الجامعه العربيه فى القدس و عنها نقلها جبران التوينى فى جريدته الأحرار و قدم لها بمقدمه طيبه و من الأحرار أخذتها و حفظتها.

و فى صحراء النبك التقى من جديد خير الدين الزركلى و عادل أرسلان. و عاد الزركلى من هناك فأرسل لعادل قصيده يقول فيها:

إلى بطلى فخر العروبه عادل مجير الحمى و الفارس الندب سلطان

إلى عصبه تأبى الغضاضه خيلها و فرسانها أكرم بخيل و فرسان

فأجابه عادل بقصيده يقول فيها:

بقيه أبطال لو أن زمانهم تقدم لم تسمع بعبس و ذبيان

قرأت لهم شعر الزركلى فيهم فهز بهم من نجده أى أغصان

و هموا فلو لا حكمه لا أذيعها سمعت الوغى ما بين حوط و عرمان

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليله و ليس بسوريا مقر "لغملان"

و من المؤسف أن شعر عادل أرسلان قد ضاع فلم يوجد بين أهله و عشيرته من يجمعه و ينشره، كما أن شعر الزركلى مطوى على الرفوف لا ينشر و لا يذاع.

ص: ٢٦٧

الإصطيفاف فى جبل عامل

فى خلال ما مر من الأحداث كانت الأسره تنتقل فى أغلب الأعوام إلى جبل عامل فى الصيف. و إذا كنت قد تحدثت عن انتقالنا فى إحدى المرات من دمشق إلى جبل عامل عن طريق القنيطره و كان هذا الانتقال فى العربات حتى القنيطره، ثم على الدواب من القنيطره إلى شقرا، فانى أقول هنا أننا صرنا فى عهد انتشار السيارات و تكاثرها لذلك أصبحت الرحله من دمشق إلى بيروت تتم فى السياره و أحيانا فى القطار. و بالرغم من بطء قطار دمشق - بيروت فقد كان مألوفاف فى السفر إلى بيروت لأن السيارات لم تبلغ من الكثره حدا يلغى السفر فى القطار.

أما بالنسبه لنا فان تكاثر السيارات قد سهل لنا الانتقال فيها من بيروت حتى صور. و بذلك لم يعد السفر بطريق القنيطره ذى موضوع لأن المسافه منها إلى شقرا على الدواب سفر طويل. و بسلو كنا طريق بيروت - صور كان علينا أن نأخذ الدواب من صور حتى شقرا.

لذلك كنا نأخذ سياره تضم العائله كلها إلى بيروت أو نأخذ القطار بدل السياره. ثم نأخذ السياره من بيروت إلى صور. و فى صور نبيت ليلتنا.

و كان الوالد يختار منزل الشيخ عز الدين على عز الدين. و هو رجل على جانب كبير من الشهامه و الكرم و النبيل. و هو سليل أسره علميه دينيه من أشهر أسر جبل عامل.

و تكون قد وصلته برقيه من الوالد ليرسلها إلى شقرا لتكون الخيل جاهزه فى صور. و فى الصباح نأخذ الخيل مواصلين السير فى الآكام و الجبال و الوهاد ممضين ما لا يقل عن سبع ساعات بين صور و شقرا.

مفوض سام جديد

نقل الفرنسيون مفوضهم السامى الجنرال ويغان. و جاء مفوض جديد هو الجنرال سارافى و وصل فى ٢٢ كانون الأول ١٩٢٤. و كنت أتابع الأحداث أكثر ما أتابعها من خلال جريده المفيد كما مر.

جاء سارافى، و بدت تصريحاته باعته للأمل، كما أعلن عن إجراءات جديده كانت تبدو فيها عقليه جديده تختلف عن السابق. و ظهر بتصرفات فى لبنان جعلت فريقا من الموالين للفرنسيين على حذر منه، ثم على نفره و مقاومه.

و كانت الأوضاع فى دمشق قد أخذت بالتبلور، و بدأ فريق من الوطنيين العاملين يستقربون الرأى العام و يتكثرون و يجتمعون. و شجعت تصريحات سارافى و تصرفاته على التجمع و التذاكر. فكان أن تألف وفد دمشقى للذهاب إلى بيروت و نقل المطالب الوطنيه للمفوض الجديد.

و عاد الوفد متفائلا و كان مما دعاهم إليه المفوض هو تأليف الأحزاب، فكان لهذه الدعوه أثرها البالغ.

و تدارس الوطنيون الوضع فقرروا تأليف حزب سياسى وطنى يقود الحركه الوطنيه و يعمل على تنظيمها.

و كانت حوادث (كراين) التي تقدم ذكرها قد بلورت الزعامه الوطنيه، و كان للذين اعتقلوا في أرواد ثم عفى عنهم و عادوا إلى دمشق مكان الصداره، و كان يتقدمهم ثلاثه عبد الرحمن شهيندر و سعيد حيدر و حسن الحكيم. فكان هؤلاء الثلاثه زعماء الحزب الجديد الذي أطلق عليه اسم (حزب الشعب) و انتخب عبد الرحمن شهيندر رئيسا له و إحسان الشريف أمينا عاما، ثم أصبح حسن الحكيم هو الأمين العام و احتفل الحزب بانشائه احتفالا شعبيا خطب فيه فيمن خطب فارس الخورى الذي كان من أبرز رجال الحزب.

و استقطب الحزب كل المتحمسين بالفكره الوطنيه المتحمسين لها و أصبحت جريده المفيد لسان الحزب دون أن تسمى نفسها بذلك.

و كانت تصل إلينا أبناء لبنان و ما يلاقيه سراى من مقاومه عنيفه من الأكليروس المارونى و من يقول بقوله، حيث امتنع ساراى عن أن يخض البطريرك المارونى بما كان يخصه به أسلافه و امتنع عن ابتدائه بالزياره، و أعلن أن فى لبنان كذا من رجال الدين فلن يقضى وقته فى زيارتهم.

و كان قد عزل حاكم لبنان الفرنسى و عين مكانه حاكما فرنسيا جديدا يقول بقوله و يرى رأيه. و كانت اتجاهات ساراى و معاونيه اتجاهات لا- نقول إنها أقرب إلى تشجيع العمل الوطنى، بل يمكن القول أنها غير شرسه فى مقاومته، و كان أبعد عن الروح الاستعماريه المتغترسه لو لا الظروف الفريده التي انفجرت فجاه كما سيأتى.

و الحمله اللبنانيه على ساراى كان يقودها صنائع الاستعماريين الفرنسيين و بعض المتعصبه الحقودين الذين رأوا فى تصرفات ساراى شيئا لم يالفوه من قبل. و يؤسفنى أن أذكر أن ما ينسب إلى أصحاب بعض الصحف اللبنانيه من مواقف فى مواجهه حاكم لبنان الجديد (كايل)، ليست فى بواعثها مما يشرفهم، فقد كان ميشال زكور يصدر مجله المعرض الأسبوعيه فتصدت للسياسه الجديده التي بدأها ساراى و أخذ يطبقها (كيلا)، و لم يكن تصديها هذا عن دوافع وطنيه، بل عن دوافع إقليميه طائفيه ضيقه لا تشرف أصحابها.

و إلا فأين كان ميشال زكور و أين كانت المعرض فى عهد غورو أو ويغان؟.

كنت أتابع أخبار حزب الشعب بشغف شديد، و أقرأ مقالات نجيب الرئيس اليوميه فى حديث اليوم فى جريده المفيد و مقالات يوسف حيدر التي كان يكتبها كل يوم و مقالات شقيقه سعيد حيدر التي كانت تظهر بين الحين و الحين. و لكن الجريده لم تسلم هذه المره أيضا من التعطيل، و أذكر أنه جاء الصيف صيف سنه ١٩٢٥ و المفيد معطله. و أن موعد سفرنا إلى جبل عامل قد حل و المفيد معطله.

إلى جبل عامل

و تركنا دمشق هذه المره فى سياره مضت فى طريق بيروت ثم انحرفت قبل الوصول إلى بيروت واصله إلى صيدا، و لا أدرى الآن من أين انحرفت السياره، و ما هو الطريق الذى سلكته فأوصلها إلى صيدا و وفر عليها مسافه كان لا بد لها من قطعها لتصل إلى بيروت ثم تخرج منها إلى صيدا. و من صيدا وصلنا إلى صور. و لم نبت هذه المره فيها فى منزل

الشيخ عز الدين بل واصلنا السير على الخيل إلى قرية طيردبا حيث مقر الشيخ حسين مغنيه و هناك حللنا لنعاود السير في صباح الغد إلى شقرا.

و كان والدى و الشيخ حسين مغنيه ألفين متحابين و صديقين متلازمين درسا في بنت جيبيل معا في مدرسه الشيخ موسى شراره، و سافرا إلى النجف معا، و عاشا هناك عشر سنين معا، و عادا من النجف معا، فاستقر الوالد في دمشق، و استقر الشيخ حسين في قرية طيردبا.

و كان الشيخ حسين إنسانا فريدا بعلمه و هديه و استقامته، و أصبح في جبل عامل علما باذخا، و رجل دين يمثل أنبل ما في الدين من فض الخصومات و الترفع عن الدنيا و السعى في الخير و خدمه الناس.

و كنت في كل مر أراه فيها سواء في طيردبا أو شقرا أمتلى من رؤيته شعورا بحبه و احترامه، و أشعر بانعطاف روحى إليه و أستمتع بحديثه و مجلسه أقصى ما يمكن أن يستمتع من هو في مثل سنى.

بتنا في بيت الشيخ حسين مغنيه، و لم تكن هي المره الأولى التى نبيت فيها في بيته و نزل ضيوفا عليه. و قد كان بيته من أكرم البيوت و أنصعها، و هو ككل بيوت الجبل المعروفه لا بد فيه من العدد الوافر من الحشايا و ما إليها من وسائل النوم ليكون على استعداد دائم لاستقبال الضيوف النازلين.

و البيوت المضيافه كانت متهيئه دائما لمثل هذا، و كثيرا ما يتعاون الناس على تسهيل أمور بعضهم البعض في مثل هذه الحالات. فربما نزل عدد من الضيوف كان من الكثره بحيث لا تستوعبه وسائل النوم العتيده. و هنا يكون من المؤلف أن يستعير المضيفون من خلصائهم في القرية ما يرون أنهم بحاجة إليه من الحشايا و توابعها.

و ربما مررت في موضع آخر بشىء من تقاليد الضيافه القرويه الكريمه.

لا تتضح الآن في ذهنى معالم الطريق كلها من صور حتى شقرا، و لا أستطيع تعداد المراحل التى كنا نمر بها طيله الست الساعات أو السبع التى كنا نمضيها على ظهر الخيل فى ذلك الطريق. و قد أنساني الدهر تفاصيلها على كثره ما عبرتها.

غير أننى أذكر أنه كان لا- بد لنا بعد الخروج من قرية طيردبا من المرور بقرية معركه، و لا- أزال أتذكر أنه كان على جانب الطريق قرب معركه بضع شجرات من التين متفرده عن الكروم، كنا لا نحجم عن أن نقطف و نحن عابرون بعض أثمارها اليانعه.

ثم أننى أذكر من مراحل الطريق (عين الراموح) التى كنا نجتازها غير متوقفين. و يخيل إلى أننا كنا نمر قريبا من عين دير كيفا. غير أننى لا- أتحقق إلا- أننا كنا ننتهى إلى وادى السامر مارين قبله بعين الجرانيف قرب قرية خربه سلم، ثم بالزياتيه و هى مكان لعدد من شجر الزيتون.

على أننى أتذكر أننا كثيرا ما صعدا أو هبطنا (عقبه الطباله) الملاصقه لخربه سلم. و لا أدرى الآن هل كنا نصعدها ذاهبين إلى صور، و نهبطها قادمين منها. أم أن مرورنا بها كان فى سفرات أخرى؟ أرجح الرأى الأخير.

و كانوا يعللون لنا اسم (عقبه الطباله)، أنها كانت المكان الذى يستقبل فيه (الطبالون) بطبولهم الحكام الاقطاعيين العائدين إلى مقرهم.

و بعضهم كان يقول أنها ماخوذه من كلمه طبل (بتشديد ألباء) و ذلك أنها لشده ارتفاعها و صعوبه ارتقائها، كانت تحمل العاجزين على التظليل. و فى الاصطلاحات العامليه العاميه، أن يقال (طبل فلان) بتشديد ألباء، أى: أعيا و عجز عن السير. و بعد اجتياز وادى السامر كنا نصعد الثنيه واصلين إلى بير حميد.

و هناك تلوح لنا شقرا. ثم نهبط من بير حميد واصلين إلى الوادى المتصل بوادى نحله، و الذى هو جزء منه، فنقطع الوادى الضيق فى عرضه صاعدين فى العقبه الكاداء. و بمجرد دخولنا إلى الوادى نكون قد صرنا فى أرض شقرا، و يتتالى صعودنا حتى نصل إلى العين الفوقا أو (عين الفوقا) كما يطلق عليها هناك، و يكون المنتزه و عينه إلى يسارنا، ثم نكون بين كروم التين ماشين إلى المنازل.

و هذه البقعه من (عين الفوقا) و المنتزه إلى كروم التين ما قبل حريبه و بعد حريبه إلى ما يليها و ينحدر عنها و يتفرع منها تتصل بالنفس باعذب الذكريات و أحلاها، مما سيطول الحديث عنه فى الآتى من القول فى الذكريات العامليه.

على أنه لا بد هنا من كلمه فى وادى السامر الذى مر ذكره. و يلفظونه هناك بفتح الميم. و أحسب أن أصل الكلمه بدون ألف بعد السين، فيكون: (وادى السمر).

و هذا الوادى يقع بين عدّه قرى بين أهلها تواصل و تواد، فربما كان ملتقى للكثيرين منهم فى ليالى الصيف و الربيع حيث يسرون فيه، فأطلقوا عليه اسم (السمر).

و هو واد يكاد يربط بين (شقرا) و (الصوانه)، و لا يفصله عن الصوانه إلا (خله الداليه) حيث ينتهى الوادى قبلها فى خله السيده و زيتونات الزياتيه، ثم يصل السائر منها إلى (خله الداليه) فيصعدها واصلًا إلى الصوانه.

أما من ناحيه شقرا فينتهى الوادى قبيل (بير حميد)، حيث يصعد الصاعد منه فى الثنيه إلى بير حميد، ثم يهبط إلى الوادى الموصل بأرض شقرا.

فهو إذن الطريق المستقيم الواصل بين القريتين، و لا يوجد بينهما طريق يحمل اسما مستقلا يدانيه بالطول و بعد المسافه، بل أن الأسماء الأخرى تشغل جزءا لا يذكر أمام حيزه. و بذلك كثر ترديده فى شقرا و فى الصوانه على السواء. لما يربط بين أهل القريتين من روابط القربى فى أسره من

الأسر التي تتوزع بين القريتين، و هي الأسره التي ينتمى إليها صاحب هذه الكلمات.

لله تلك العهود التي كان لا- يمضى يوم فيها إلا و اسم وادى السامر مذكور فيه، و لله تلك الرحلات الجميله بين القريتين أيام الربيع و الصيف!. و لله تلك الساعات التي يقال فيها فى شقرا:(سياد الصوانه) هنا فتتعقد الحلقات و تعلق الضحكات و تطول الأحاديث!..

بل ربما كان مجيئهم و مجيء غيرهم من أفراد الأسره من عشرون و مجدل سلم مبعثا لكثير من الشعر الطريف الذى يمثل الحياه العامليه بكل ما فيها من ترف و شطف و جد و لعب!.

و قد ضاع كل ذاك الشعر فيما ضاع من التراث العاملى لأن أحدا لم يعن بتدوينه و إنما تلى بوقته، و سجل فى وريقات، ثم ضاع!.

و أذكر من هذا أبياتا من قصيده قيلت فى بعض من قدموا من عشرون و الصوانه، راكبين على خيل ربطوها، ثم غابوا فلم يعودوا على العشاء عند مضيئهم الذى كان ينتظرهم، فقال فيهم قصيده لا أزال أحفظ منها هذه الأبيات:

خذوا القواديش لا تبقوا القواديشا و لا تخلوا لنا الجرد (المفاليشا)

و فيها يقول:

لو أن (سلعا و باريشا) لنا بلد عفنا لأجلكم سلعا و باريشا

و لو فعلتم كهذا الفعل فى بلد ألقوا عليكم (برايشا برايشا)

و الذى يعرف المصطلحات العامليه و يعرف ما تعنيه كلمه (المفاليش) و (البرايش) يدري ما فى هذا الشعر من طرافه!..

و سلعا و باريش قربتان فى جبل عامل.

شقرا

و وصلنا إلى شقرا على أمل العوده إلى دمشق فى نهايه الصيف دون أن ندري ما كان يخبئه القدر للبلاد كلها، و دون أن نعلم أن مجيئنا هذه المره يختلف فى مصيره عن كل مره.

و كان أشد ما يملأ نفسى هما هو انقطاعى عن تتبع الحركه الوطنيه تبعا كاملا بسبب انقطاع وصول الجرائد إلى و ندره الحصول عليها.

و إذا وقع و حصلت على بعضها كان الحصول متأخرا.

ثم أن الجرائد التي كانت تصل هي جرائد بيروت و لم يكن منها فى ذلك الحين من يمثل الفكره الوطنيه إلا جريده الحقيقه

لصاحبها كمال عباس التي كانت تمثل الدعوه الاستقلاليه العربيه أبلغ تمثيل، و إلا جريده الأحرار التي كان المشرف الفعال عليها جبران تويني. و كانت الأحرار قد أصدرتها شركه مساهمه فيها جبران تويني و ترك تحريرها له. و كان صدور هذه الجريده حدثا صحفيا ضخما، إذ أن التويني كان صحفيا موهوبا فطور الصحف البيروتيه تطورا كبيرا و قفز بها قفزات جعلت منها شيئا جديدا لا سابقه له في البلاد. و فضلا عن التطوير في التحرير و التبويب، فقد كان التويني يتفرد بمماشاه الصف الوطني و الترويج له و الدعوه إليه. و كانت جريدته صدى للحركات الوطنيه في سوريا و لبنان على السواء.

و هو أول من اتخذ للجرائد مراسلين في الخارج، فاختار نجيب الريس مراسلا له في دمشق. و صارت رساله دمشق تحمل أخبار التحركات الوطنيه فتنتشر في الأحرار موزعه في كل مكان. و كنت إذا سافر مسافر من شقرا فان أعظم ما أوصيه عليه هو أن يحضر لي معه في عودته جريده.

على أن ما فاتني من متابعه الاطلاع على الجرائد اليوميه كنت أعوضه بعض التعويض بمتابعه الاطلاع على مجله العرفان [العرفان] التي كانت تصلنا شهريا. فقد كانت تسد جزءا من الفراغ الذي صرنا فيه من انعدام المطالعه اليوميه للصحف...

الثوره

لم نكد نستقر في شقرا، و لم نكد نحصل على بعض الصحف حتى رحنا نطالع فيها طلائع تحرك ضخم في سوريا. و أخذت الأنباء منقوله على الشفاه، و محموله من مكان إلى مكان تصل إلينا، و فيها ما يشعر بان جبل الدروز غاضب على السلطات الحاكمه.

و لم نكن نستطيع أن نعني حقيقه ما يجري لأن الصحف لا تحمل الأنباء الصريحه، كما أن ما تتداوله المجالس التي نحضرها لم يكن واضحا كل الوضوح.

و من ذلك أن رجلين دمشقيين جاء إلى شقرا كنت أعرف أحدهما لأنه كان من صحابه والدى المقربين إليه و لم أكن أعرف الآخر، و لم أكن قد رأيته من قبل، ثم اختلى الرجلان بوالدى خلوه طويله لم ندر ما دار بينهما و بينه فيها من أحداث و بات الرجلان في شقرا و في الصباح الباكر غادراها عائدين إلى دمشق دون أن نعرف شيئا عن مهمتهما. ثم عرفنا بعد ذلك أن مهمتهما كانت إبلاغ والدى عما يجري من إعداد للثوره و التشاور معه في شئون هذا الاعداد.

ثم تابعت الأنباء - شيئا فشيئا فعرفنا أن الثوره الفعلية قد نشبت في جبل الدروز، و أن المعارك مشتعله. و فجاه وصلت إحدى الصحف البيروتيه و فيها النداء البليغ الذي أذاعه سلطان الأطرش داعيا السوريين جميعا إلى حمل السلاح و الثوره على الانتداب.

و قد تكررت فيه كلمه: إلى السلاح...

و علقت الصحف على النداء قائله بما معناه: أن الحقيقه كما هو معلوم أن القوم ثاروا لغير هذا الهدف. و أحسب الآن أن الصحف قالت أنها تنقله عن جريده المقطم المصريه، و أن التعليق كان للمقطم نفسها.

و بت متلهفا على تتبع أنباء الثوره، و لم يكن الفرنسيون قد أعلنوا الرقابه على الصحف بعد، لذلك كانت الصحف تنشر كل يوم

ما يبلغها من أخبار. ثم علمت بما جرى للجنرال ميشو و حملته و ما انتهى إليه أمر جيشه من الهزيمة النكراء.

ثم أخذت أخبار الثورة تتوضح و تنجلي على أبرز حال. و أريد أن

ص: ٢٧٠

أسجل هنا بأنه كان لجبران التويني و لجريده الأحرار الفضل بتعميم أبناء الثورة بشكل صريح. و كان نجيب الريس لا يزال مراسلا في دمشق فكان يمدّها بالأخبار الثوريه فتفتح الأحرار صدرها على أوسع ما يمكن.

و لم تكن تصلني الأحرار بانتظام، و لكن ما كان يصلني منها كان ينعش نفسي و يرضى شعوري!.

ثم علمنا أن الفرنسيين أطبقوا على قاده حزب الشعب في دمشق ففر منهم من فر و قبض على من قبض عليه. و كان إعلان الثورة قد اتفق عليه بين زعماء الجبل و بين وطنيي دمشق بعد أن تعهد هؤلاء بالانضمام إلى الثورة في حاله بدء الزحف، و تواعد الدمشقيون على اللقاء في الغوطه و الوصول إلى الجبل، فخرج من خرج و على رأسهم الدكتور عبد الرحمن شهيندر و سعيد حيدر و حسن الحكيم و قبض الفرنسيون على من بقى و بينهم يوسف حيدر صاحب المفيد و نجيب الريس محررها الأول و مراسل الأحرار في دمشق. كما قبضوا على الوطنيين في غير دمشق و نفى الجميع إلى جزيره أرواد.

و أذكر من أخبار الثورة في تلك الأيام تقدم فرسان الدروز إلى دمشق، ثم إعلان الفرنسيين صدهم بالطائرات و المصفحات بعد اعترافهم بأنهم لم يكونوا بعيدين عن دمشق.

و توالى أحداث الثورة و توالى انتصاراتها، و بدأت تعم البلاد و تمشي من بلد إلى بلد. و كنت حين ذاك أحس بفيض من الزهو يملأ نفسي لما كان ينزل بالفرنسيين من هزائم.

ثم وضحت صورته الثورة أمام أبصارنا و عرفنا من حقيقه معارك الجبل ما لم نكن قد سمعنا عنه إلا القليل. فقد كانت هزيمه الجنرال ميشو هزيمه كبرى ذبح فيها جيشه أو تشرّد و استولى الثوار على المدافع و كل الأسلحة و أضحت فرنسا في البلاد بلا جيش يرد عنها الهزائم.

و مشت الثورة إلى الغوطه و انضم إليها الدمشقيون و الغوطيون، و تالق اسم حسن الخراط الحارس الدمشقي البسيط و أصبح بطل معارك الغوطه و زعيم عصابتها، ينازل الفرنسيين و يربعهم.

و استضعف الثوار قوه الفرنسيين فقرروا اقتحام دمشق، و اقتحموا بالفعل و نفذوا إليها من كل جانب، و قصدوا إلى مقر الجنرال ساراي من قصر العظم قرب البزوريه حيث كان يبيت طيله أيام الثورة و حاولوا أسره و لكنه استطاع النجاه قبيل وصولهم. ثم أمر مدافعه المنصوبه على الفمم المطله على دمشق أن تصب حممها على المدينه الباسله، فانهالت القنابل تحرق و تدمر، قنابل المدافع و قنابل الطائرات.

و وصلتنا الأخبار بتفاصيلها، و علمنا فيما علمناه أن حيناً قد كان عرضه للقنابل، و أن (دخله الشرفا) نفسها أصابتها النار الغاشمه، و أن صحابا لنا من الجيران قد فقدوا أبناءهم و أطفالهم!..

ثم إذا بالثوره تطل علينا نحن، و إذا بها تغدو على مقربه منا، فقد تقدم الثوار بقياده زيد الأطرش و احتلوا وادي التيم و نزلوا حاصبيا و مشوا إلى كوكبا فقاومتهم فضاولوها فنالها ما ينال من يقف مثل موقفها. فاستغل الفرنسيون و أذناهم الحادث و عملوا على تشويه وجه الثورة الناصع، و أثاروها طائفه بشعه!..

و فى يوم كنا فى شقرا نستطلع الأخبار، و نتوقع الحوادث فإذا بنا نشاهد عن بعد دخانا كثيفا يتعالى فى الجو و يمتد ثم يمتد إلى العلاء فحدس الحدسون بان جديده مرجعيون تحترق. و قد صح حدسهم، فان ضابطا لبنانيا أرعن كان يقود قطعه مما سماه الفرنسيون (القناصه اللبنانيه) و هم جنود لبنانيون تطوعوا فى الجيش الفرنسى - إن هذا الضابط أبى إلا المقاومه فى الجديده. و لكنه لم يلبث أن هزم هو و قناصته و دخل الثوار الجديده دخول المنتصرين مما أدى إلى إحداث الحرائق التى شهدنا دخانها من تلك المسافه البعيده.

و قد آلمتنا أحداث كوكبا و الجديده. و أذكر أن شاعرا متفرنسا نظم مقطوعه يحيى بها كوكبا و يحمل على الثوار نشرتها له مجله المعرض، لا أزال أذكر ختامها و هو هذا البيت:

أو شئت تشهد معقل الأبطال فاقصد "كوكبا"

فأثارتنى ذلك فرددت عليه بمقطوعه جعلتها فى تحيه مجدل شمس التى كان أبناؤها فى طليعه الثوار:

إن رمت تظفر بالألى بذلوا النفوس و ما غلا

من كل أروع باسل متن الفخار قد اعتلى

يحمى بصفحته إذا حمى الوطيس المعقلا

يرد الوغى و شعاره إما الممات أو العلى

أو شئت تشهد معقل الأبطال فانح "المجدلا"

و من البديهى أن مقطوعتى لم تظهر إلا لبعض الأصدقاء.

أما مجدل شمس التى سميتها معقل الأبطال، فهى اليوم ترزح تحت الاحتلال الصهيونى!.

ألا: سلام على تلك الأيام التى كانت البلاد تضطرم فيها بنار الثورة:

نار الآباء و الشهامه و البطوله و الشمم.

سلام على تلك العهود التى حمل فيها الشعب الأعزل ما تيسر له من سلاح و مضى يذود عن شرف بلاده و كرامه وطنه و يقاتل فى سبيل حريته و استقلاله مناضلا أعظم قوه عسكريه فى ذلك العصر. القوه التى هزمت قبل بضع سنوات قوه ألمانيا الجباره و عطلت آلتها الحربيه!.

الشعب الذى لم ينتظر مؤتمرات القمه، و لا ثرثره الثرثارين، و لا بيانات الجبناء، و بلاغات المتخاذلين. بل نادى: إلى السلاح!.. و ما كان سلاحه إلا بنادق متباينه و مسدسات متغايره صمد بها فى وجه المدفع و الرشاش و قاتل بها الدبابه و المصفحه. و هزم بها

(الجزرالات).

سلام على تلك الأيام، و البلاد تنوء بالاستعمار، و ترزح تحت الانتداب. و لكنها تقاتل و تحارب!..

و لا سلام على هذه الأيام، و البلاد تنعم بالاستقلال و لكنها تستكين للسلم الذليل!.

و فى هذه الفترة كانت قد بلغت الثورة أوجها و سيطر الثوار على ما يقرب من نصف سوريا، و ها هم الساعه يطلعون على لبنان و يوغلون فيه، حتى لقد كتبت المعرض مقالا عنوانه: هل نحن على بركان؟!.

ص: ٢٧١

و كثرت الإشاعات و توالى الارهاصات، لقد بدت طلّاع تحركات فى الشوف، إذا كانت ذات صبغه فرديه و محاور محدوده، فقد كانت ذات دلالة كبرى. و بدأ أن الخطوه التاليه بعد مرجعون هى النبطيه...

على أنه من ناحيه ثانيه كانت الامدادات الفرنسيه قد وصلت بطريق البحر و انطلقت فى اتجاه جنوب لبنان لصد المد الثورى، و كانت إمدادات قويه يحسب لها كل حساب.

و لكن الموقف الحاسم الذى أوقف تقدم الثوار، ثم ردهم عن مرجعون نفسها، كان الفشل الذى أحاق بهم فى محاولتهم احتلال قلعه راشيا الوادى، حيث كانت تقيم قوه فرنسيه حاصرها الثوار، ثم حاولوا الصعود إلى القلعه على السلالم التى نصبوها، فكانوا كلما احتشدوا على السلم حصدتهم الرشاشات فتهاووا صرعى إلى الأرض. و مع ذلك فقد استطاع فريق منهم الوصول إلى القلعه و دخولها مما أربع الفرنسيين.

و كانت النجدات الفرنسيه تسرع فى الوصول إلى القلعه فتقدمت طائره ألقّت برساله فوق القلعه، و لكن الريح حملتها إلى الخارج فسقطت بعيدا عن القلعه. و كانت راهبه لبنانيه قد رأتها تسقط فالتقطتها و حملتها إلى من فى القلعه. و يبدو أن الثوار ترفعوا عن أن يتصدوا لامرأه تحاول اللجوء إلى القلعه، لا سيما و هى فى ثياب الراهبات، فتركوها.

و كان فى الرساله دعوه للمحصورين إلى الصمود لأن النجدات أصبحت وشيكه الوصول إليهم. و هكذا صمد الفرنسيون بعد أن كادوا يستسلمون، ثم فوجئ الثوار بالجنود ينقض عليهم من الخارج بينما النار تنصب عليهم من الداخل، فكان ذلك كافيا لتشتتهم، بعد أن أبدوا من البطولات ما كان خليقا بنى معروف الأنجاد، و ما هو إلى الأساطير أقرب منه إلى الحقائق لما فيه من البساله المنقطعه النظير، و الاستهانه بالموت استهانه رائعه!..

و كانت معركة راشيا هذه حدا فاصلا فى تاريخ الثوره، أخذت بعده تتراجع تدريجيا. و لو قدر للثوار الفوز بالسيطره على القلعه و اقتحامها لكان للثوره شان أى شان...

و قد جاءت أنباء راشيا تملأ نفسى هما و أسى ظلا يطغيان عليها يوما بعد يوم، لأن أنباء الانتصارات كانت تمتزج بانباء الفشل، حتى عاد الأمر بعد ذلك كله فشلا و تراجعا.

و فى هذه الأثناء شاع شعر الشاعر القروى رشيد سليم الخورى و شعر الياس فرحات الثوريين و حفظنا قصائدهما عن ظهر قلب، بل و يمكن القول أننى سمعت باسم القروى لأول مره مع سماعى لقصيدته العينيه إذ كنت فى صيدا لأمر خاص، و فى إداره مجله العرفان اطلعت على القصيده و نقلتها معى و أذعتها فى جبل عامل، فانتشرت فى كل مكان فيه.

و إليك ما وعته الذاكره من تلك القصيده التى خاطب فيها سلطان الأطرش:

خففت لنجده العانى سريعا غضوبا لو رآك الليث ريعا

و حولك من بنى معروف جمع بهم و بدونهم تفنى الجموعا

كأنك قائد منهم هضابا تبعن إلى الوغى جبلا منيعا

ألم يلبس عداك (التنك) درعا فسلهم هل وقى لهم ضلوعا

و مذ هطل الرصاص عليك سحا كوسمى جلوت به ربيعا

وثبت إلى سنام التنك وثبا عجيبا علم النسر الوقوعا

و كهربت البطاح بحد سيف بهرت به العدى فهووا ركوعا

كان به إلى الافرنج جوعا و سيفك مثل ضيفك لن يجوعا

تكفل للثرى بالخصب لما هفا برقا فامطرهم نجيعا

فخر الجند فوق "التنك" صرعى و خر التنك تحتهم صريعا

فيا لك غاره لو لم يذعها أعادينا لكذبنا المذيعا

و يا لك "أطرشا" لما دعينا لثاثر كنت أسمعنا جميعا

كيف نارت الثورة

الواقع أن نوايا الجنرال ساراي لم تكن من السوء إلى الدرجة الذى أظهرتها الأحداث التى رافقت وجوده فى سوريا و لبنان، و حين نريد أن نصف فان علينا القول بأنه شتان بينه و بين سلفيه غورو و ويغان. و يكفى أنه طلب إلى الوطنيين الذين قابلوه أن ينظموا صفوفهم أولا- و أن يؤلفوا حزبا سياسيا يوحد كلمتهم و يحدد مناهجهم. و يكفى أنه لم يتوقف أبدا فى إجازة حزب الشعب مع علمه بماضى رجاله و أهدافهم الاستقلالية.

و لكن الأمور سارت بعد ذلك بعكس هذا الاتجاه، و تطورت الأحوال إلى الحد الذى جعل من ساراي جزارا من جزارى سوريا، دون أن يقصد ذلك أو يتعمده..

و لا- شك أن لحاشيه السوء التى كانت تحيط بالجنرال و التى لم يكن فى تصوره التخلص منها و لا فى علمه شىء من نواياها، هذه الحاشيه التى صورت له الأمور على غير حقيقتها، و لم تشأ أن توضح له ما يجب إيضاحه، و أن تبين المحاذير التى ستنجم عن بعض التصرفات. بل على العكس، ربما تكون هى التى قادتة إلى المزالق التى وجد نفسه فيها، و التى دهورتة إلى أسوأ مصير..

قلنا فيما تقدم أن غورو أعلن جبل الدروز دوله منفصله عن سوريا، و لارضاء الدروز عين الجنرال حاكما منهم للجبل هو الأمير سليم الأطرش، ثم لم يلبث أن مات، فعين الفرنسيون مكانه ضابطا من ضباطهم الرعناء المهوسين، ممن يبدو أنهم نشاوا و سادوا

فى حكم المستعمرات و ألفوا الغطرسة و الاذلال. فسار فى حكم جبل الدروز سيرا كله شطط و رعونه و شراسه و إرهاق، مما كان له أسوأ الأثر فى نفوس الدروز الأشداء.. و لم تفد الشكاوى بل زادته غطرسه و تجبرا.

و حين جاء ساراي، رأى زعماء الدروز أن الوقت مناسب للمطالب بتنحيه كاربيه، و لكن الأمل فى نفوسهم كان ضعيفا، و كانت الحركة الوطنيه بعد تأليف حزب الشعب قد انتظم أمرها، و بدأت الاتصالات و توسعت المناهج و الخطط، فكان أن عقد اجتماع تمهيدى فى أوائل شهر أيار سنة ١٩٢٥ فى أحد البيوت الدمشقيه حضره فريق من زعماء الجبل مع فريق من قادة الوطنيين فى دمشق بحث فيه بتوحيد جهود العاملين، و أشير فيه لأول مره إلى القيام بثوره مسلحه.

و يبدو أن الفكره لقيت تجاوبا عند زعماء الجبل فتلا هذا الاجتماع اجتماع آخر موسع ضم معظم رجالات الجبل بمن فيهم شيخ مسيحي الجبل

ص: ٢٧٢

(عقله القطامي) تعاهد فيه الجميع على العمل يدا واحده لا من أجل تنجيه كارييه فحسب بل من أجل الوحده و الاستقلال، و اختمرت في النفوس فكره الثوره و تقرر أنها هي الطريق الوحيد للوصول إلى الحق.

و في ١٥ أيار سافر الكابتن كارييه باجازه إلى فرنسا، و قد رأى زعماء الجبل و جوب الاتصال بالسلطات الفرنسيه لوضع حد لطغيان كارييه و الخلاص من الوضع القائم فأمر وفد منهم دمشق و منها أبرقوا للجنرال ساراي طالبين موعدا لمقابلته. ثم قصدوا إلى بيروت و لكن ساراي رفض مقابلتهم، و بعد توسطات أحالهم على الأمين العام، فلم يصنع شيئا فعادوا محنقين.

و تتالت الأحداث فلجا ساراي إلى أمر مشين، إذ بعث بتاريخ ١١ تموز إلى مندوبه في دمشق ليدعو إليه عددا من الزعماء الكبار باسم التفاوض و إنهاء الأمر حتى إذا وصلوا اعتبرهم مسئولين عن كل ما يمكن أن يحدث في الجبل، ثم أبقاهم بيديه رهائن يعتقلهم في أحد المعتقلات..

و هكذا تم له ما أراد فنفي بعضهم إلى تدمر و بعضهم إلى الحسكه..

على أن أخطر الزعماء (سلطان الأطرش) أبي القدوم إلى دمشق و بذلك ظل في منجاة من الاعتقال.

و حسب الفرنسيون أنهم يستطيعون القبض على سلطان فجهزوا حملة صغيره يناهز عددها المائتي جندي و ضابط بقياده النقيب نورمان، فهاجمهم سلطان في الثاني و العشرين من شهر تموز ١٩٢٥ أي بعد خمس سنين من يوم ٢٤ تموز ١٩٢٠ يوم معركة ميسلون. فلم يثبت الفرنسيون لسلطان فاييدوا. ثم جمعوا قواهم كلها في قلعه السويداء و تقدم سلطان إلى السويداء فدخلها و بدأ حصار قلعتها.

و لكن كان على ساراي أن يفك الحصار عن قلعه السويداء فجهز حملة بقياده الجنرال ميشو أيقن أنها كافيه لانتهاء التمرد و التغلب عليه. و من بلده أزرع تقدمت الحملة و عددها سبعة آلاف جندي مجهزه بكل أدوات القتال، و مشت في أول آب ١٩٢٥ متجهه إلى السويداء فلاقها بنو معروف ببسالتهم المعروفه فلم تصمد لهم و كان نصيبها نصيب حملة نورمان على فرق ما بين الحملتين من حيث العدد و العدد.

و غنم الثوار من سلاحها ما كان لهم عتادا يعز مثيله لا سيما من المدافع بذخائرها.

و كان في هذه الحملة جل ما يملك الفرنسيون من قوى فلو واصل الثوار زحفهم إلى دمشق لدخولها منتصرين.

و بالرغم من التكنم الشديد الذي حاول الفرنسيون به إخفاء حقيقه النصر الباهر الذي أحرزه الثائرون فقد تسربت أنباء هذه المعركة إلى كل مكان، و وصلتنا أخبارها.

و بعدها أدرك ساراي أنه كان مخطئا في سوء معاملته لرجال الجبل فحاول مفاوضتهم و استرضاءهم و أطلق المعتقلين منهم في تدمر و الحسكه منذ ١٣ تموز فعادوا إلى الجبل.

ثم أرسل وفدا من دروز لبنان إلى الجبل لوضع حد للأعمال الثوريه و في نفس الوقت [الوقت] طلب من فرنسا تعزيزا عسكريا.

وقد التقى في الجبل نوعان من الوافدين نوع لبناني يمهد للسلام و نوع دمشقى يدعو لاستمرار القتال. و فى الوقت الذى كاد السلم أن يتحقق وصل الدمشقيون فرجحت كفه القتال.

مفوض سام جديد

بعد فاجعه دمشق و قصفها بالطيران و المدافع و تشعب الأمور و امتداد الثوره قررت الحكومه الفرنسيه استدعاء ساراي، و أرسلت بدلا منه لأول مره منذ الاحتلال الفرنسي مفوضا مدنيا ليعالج الأمور و يصلح ما فسد منها، هو دو جوفيل. و فى نفس الوقت كانت الامدادات الفرنسيه يتوالى وصولها قادمه بطريق البحر إلى بيروت و منها مرسله إلى مختلف المناطق.

و قدم جوفيل معرجا على مصر ليقابل من بها من السوريين للتفاهم و التفاوض و لكن لم يكن لذلك من نتيجته. ثم وصل بيروت فى أول كانون الأول ١٩٢٥ و قامت محاولات للتفاوض و التوفيق و مضى وفد لبنانى دمشقى للاتصال بالثائرين فقصد درعا و منها إلى عرى و التقى بالزعماء الذين عرضوا أدنى ما يمكنهم قبوله. و تألف وفد دمشقى للاتصال بالمفوض فى بيروت، و حدد مطالبه، و لكن هذا الاتصال لم يؤد إلى شىء. و هنا أعلن رئيس الاتحاد السورى استقالته فعجز المفوض عن إيجاد خلف له، لذلك أعلن تعيين فرنسى حاكما لسوريا. ثم حاول المفوض أن يفصل بين قضيه جبل الدروز و القضيه السوريه لمخاطبه الدروز رأسا و لكن المحاولة لم تثمر.

و حاول أن يجرى انتخابات فى سوريا ففشل، و كان يبدو متخبطا لا يدرى ما يصنع.

و لستر الاخفاق قرر الاعتماد على العمل اللبناى فقرر إعلان الجمهوريه اللبنايه و استبدال رئيس لبناى لها بالحاكم الفرنسى و إنشاء مجلس شيوخ إلى جانب المجلس النيابى و إعطائها كل بهارج الجمهوريات دون حقائقها.

و اعتقد أنه بهذه المظاهر الجمهوريه يمكن أن يغرى الثائرين. و لكنه لم يصل إلى أيه نتيجته فرأى من الأفضل له أن يعود من حيث أتى. فغادر البلاد فى الثامن و العشرين من شهر نوار ١٩٢٦.

موقف مجلس لبنان من الثوره

عند ما وصل الثوار إلى أطراف لبنان و اشتبكوا مع القوات الفرنسيه ثم تقدموا داخل لبنان اجتمع المجلس التمثيلى اللبناى فى أول كانون الأول ١٩٢٥ و أصدر قرارا باقتراح النائب شبيل دموس خالفه كل من النواب: فؤاد أرسلان و عمر بيهم و عمر الداوق و جميل تلحوق.

و هذا نص القرار:

"لما كانت حوادث العصيان التى ابتدأت فى جبل حوران قد تطاير شررها إلى الأطراف الجنوبيه الشرقيه من لبنان فتناولت حاصبيا و راشيا و ما يتبعهما من القرى المجاوره فألحقت بالبلاد ضررا فادحا بالأموال و الأرواح.

و لما كانت هذه الحوادث فى قرانا التى على الحدود غير مستنده إلى مبدأ يبررها.

و لما كانت حكومه لبنان المحليه غير مجهزه بجيش نظامى يرد غزوات الطامعين و كانت على ثقه تامه من حمايه الدوله المنتدبه للبلاد عند الحاجه قياما يعهدا الذى قطعته مع جمعيه الأمم.

ص: ٢٧٣

و لما كانت قوه الجندرمه المحليه على قله عددها قد قامت بواجبها أثناء مهاجمه الحدود. و لما كان لبنان بانفصاله سياسيا عن جارته سوريا و جبل الدروز يرغب فى البقاء فى عزلته و حياده التأمين. و يعتبر تصدى الخوارج لمهاجمه أطرافه تعديا على استقلاله و افتراء محضا على حريره و مصالحه فان هذا المجلس يقرر ما يلى:

١ - إن هذا المجلس يعتبر هجوم الثوار على حاصبيا و مرجعيون و راشيا تعديا على استقلال لبنان و حريره سكانه.

٢ - يرفع هذا المجلس شكره بالنيابه عن البلاد إلى الدوله المنتدبه الكريمه لما قامت به حتى الساعه من التضحيات بالأرواح و الأموال للذود عن حياض لبنان و العمل على سلامه سكانه و ضمان استقلاله.

٣ - يقدر مفاده الجندرمه اللبانيه حق قدرها و يثنى على ثباتها و شجاعتها.

٤ - يؤكد هذا المجلس للدوله المنتدبه بقاء البلاد على ولائها لها و محبتها التقليديه غير المترعزه.

٥ - يطلب هذا المجلس من دوله الحاكم إبلاغ الدوله المنتدبه هذا القرار بالصوره الرسميه.

الحليشه

وصلنا إلى شقرا فى مطالع الصيف، و للصيف فى القرى العامليه حياه شيقه حلوه. فمنذ تبدأ حقول (القطانه) بالاصفرار، ثم تيبس تلك الأباطح المكسوه بنبات العدس و الباقيه و الكرسنه. يبدأ فى القرية موسم (الحليشه)، و هو أول موسم من مواسم الحصاد، و لكن هذا الحصاد لا يقتضى له مناجل و مقاطع، و لا زنود قويه و سواعد فتيه، بل أن الأيدى الناعمه هى التى تتولى حصاد حقول (القطانه) و ذلك لقصر سيقان العدس و الباقيه و الكرسنه و ضعف تكوينها و سهوله اقتلاعها. لهذا تتولى (الحليشه) فتيات القرية لا فتيانها، و صباياها لا شبانها، و قد يشارك بذلك عجائزها لا شيوخها!..

فانى صعدت فى الذروات، و أنى صوبت فى الوهدات، و أنى أصغيت فى الإسناد و الأصواح و السفوح، فانك ستسمع أبدا أصوات الصبايا منطلقه بالأغانى القرويه الجميله!.

هاهنا تنطلق النفوس المكبوتة التى أضواها الحب فلم تستطع التعبير عنه فى المجالس و الندوات، هاهنا تنطلق معبره عنه تعبيرا شاعريا أخاذا، هاهنا يتنوع الشعر فهو إما رمزى خجول يأخذ بالكنايات و التوريات أو صريح واضح، و لكن صراحه مهذبه خجلى!..

هاهنا تنطلق الأصوات باغانيتها العاطفيه على مداها الواسع لا تحدها الجدران، و لا توقفها السدود، بل أن لها فى البر المديد ما تظل تدوى به ما شاء البر لها أن تدوى! يا لروعه أيام (الحليشه) فى القرية، و قد اصفرت الحقول، و يبست الزروع، و استحالت البرارى الواسعه من مروج خضراء، إلى سهوب صفراء، لتنتقل فيها الأيدى الناعمه باجتثاث سيقان العدس و الباقيه و الكرسنه، راکضه ركضا و متلاحقه تلاحقا و متوثبه توثبا! و يا لبهجه تلك الأرض، و قد علت فيها أغانى الصبايا و صيحات الفتيات، و يا لعظمه القرويه العامله، و قد انقلبت من ناعمه مستكينه، إلى جباره صاحبه تدق بقدميها الأرض و تقتلع بيديها الزرع، و هى فى كل ذلك عاطفيه شائقه مشوقه!..

الأيدى الناعمة! لا- ليست ناعمة تلك الأيدى التى تعمل فى الحقل و فى الغابه و فى الكرم و على البيدر و فى التنور!... إنها قاسيه قسوه الحياه فى هذه القرى، إنها صلبه صلابه العيش فى هذه الجبال!..

و لكننى فى حياتى كلها ما لمست يدا، كانت فى نفسى أرق من تلك اليد القاسيه، و لا احتويت كفا كان فى وجدانى أكثر نعومه من ذلك الكف الصلب!.. و لا- هفوت إلى حسن كان فى عينى أروع من ذلك الحسن العامل المجهد المكدود!.. و لا خفق قلبى بوجد كان أكثر إلهاما من الوجد بتينك العينين الشاردتين فى مدى الحقول، الهائمتين على ذروات الجبال و جنبات الأودية!..

الحصيده

فإذا انطوت (الحليشه) و عادت حقول (القطانه) جرداء إلا- من (أغمار) الزرع اليابس، و صارت صامته خرساء لا تسمع فيها إلا صوت الذكريات!

فان حياه جديده تنتظر جوانب أخرى من جوانب القرية، و إن حقولا أخرى لا تزال خضراء يانعه تتهياً أن تيبس و تصفر. و تكون سواعد الشبان و زنود الفتيان قد تهيأت و هيات مناجلها، ثم لا تبرح أن تمضى مع تالق الفجر و تبلج النور و تراكم الندى إلى الحقول اليابسه الصفراء ممسكه بسيقان القمح اليابس المصفر ملء أيديها اليسرى، معمله فيها بأيديها اليمنى مناجلها، فإذا بالحياه تدب فى ذاك الجماد و ذاك النبات! و إذا بالأرض الصامته الخرساء تنقلب إلى حركه عارمه و صيحات متعالیه و مناجاه متتابعه و أفراح متضحكه!

إنه عرس الحقول يحييه هؤلاء الفتيان بسواعدهم القويه و أكفهم الشديده و أجسامهم المديده!

إنه عرس الحقول يتعالى فيه الشدو و تنفجر الحماسه و تفور القوه و تتجلى الحياه على أشرف مثلها و أنبل أهدافها!..

و هل أشرف من هذا العرق المتجمع حبيبات على هذه الجباه الشامخه و المتساقط ذرات على هذا التراب الطيب!

و هل أنبل من هذه الأكف تجمع من الأرض غذاء أهل الأرض!..

الرجيده

و بعد (الحليشه) و (الحصيده) تجمع الزروع المحصوده كتلا صغيره تسمى كل كتله منها (الغمر) (بضم الغين و تسكين الميم) و تترك إلى حين، إلى الوقت الذى ينتهى فيه موسم الحصاد و تكون جميع الحقول مهياه لنقل الزروع الحصيده منها، و عند ذلك يخرج الفلاحون مع إطلاله الفجر، حيث يكون الندى متراكما فوق كتل الحصيد فتغدو به طريه لا تتساقط سنابلها بالتحريك، فيعود التجميع من جديد تجميعا أكبر و تكتيلا أضخم، و عند ذلك تسمى الكتله اسما جديدا هو (البندك)، فيجمع كل

بندكين متوازيين بحيث يترك بينهما مريض للجمل، ثم تشد (البنادك) بحبال (البابير) المنقوع بالماء ليلين، ثم يؤتى بالجمال ليحمل كل جمل بندكين بعد بندكين، ناقلا (البنادك) إلى البيادر وهذا ما يسمى باصطلاح القرية (بالرجيده).

وقبل ذلك، وقبل إطلاء الصيف تكون تجاره الجمال قد راجت في كل القرى، وتكون قوافل الجمال المعده للبيع قد أصبحت تنتقل من قرية إلى قرية ليشتري الشارون ما يعدونه (لرجد) البنادك...

وهذه القوافل يتاجر بها تجار متخصصون يذهبون كل عام قبيل الصيف إلى دمشق القريه من البادية، حيث ينفذ الأعراب بجمالهم إليها فيقفونها في أسواقها الخاصه في الميدان، فيقبل التجار بأموالهم لشرائها، ثم يعودون إلى الجبل كل بما اشترى فيدورون على القرى للبيع..

وقد كان للجمل شان أى شان في القرية، فصاحب الجمل هو كصاحب الشاحنه اليوم، فعلى جملة (يرجد)، وعلى جملة تنقل الأغلال إلى صور وغير صور لتباع هناك إلى التجار، ثم يعود الجمل محملا بما أعده أصحاب الدكاكين الصغيره في القرية، أو بما أوصى عليه غير أصحاب الدكاكين مما يسد حاجاتهم اليوميه وغير اليوميه.

و صور هي أقرب ما يقصده الجمالون في الرحلات البعيده وإلا فقصدهم صيدا مألوف وكذلك قصدهم بيروت. وحتى بعد شيوع استعمال السيارات ظل للجمل شانه حينما في الوصول إلى صيدا و بيروت!.

و اليوم لا- (رجيده) بين الحقول والبيادر إلا- في النادر النادر، و اليوم لا جمال تقطع الطريق بين شقرا و صور. بل اليوم لا رغاء للجمل يتعالى في دروب القرية وعلى بيادرها و في حقولها!..

بل نكاد نقول أن لا- (حليشه) و لا- (حصيده) إلا في بعض حقول القرية و جزء من أرضها الواسعه. لأن الأرض لم تعد تسد بغلاتها حاجه الناس، بعد أن تطور الناس و تطورت حاجاتهم، ولأن الناس لا يستطيعون تطوير نتائج الأرض بوسائلهم الخاصه تبعا لتطور الحياه والحاجات، ولأن الحكم والمسيطرين على الحكم ليسوا بالمستوى المخلص الواعى الذى ينهض بالأرض و أصحاب الأرض!.

لذلك هجرت الأرض و عادت بورا لا تمتد إليها يد بزرع و لا حصد، و الذين كانوا يعملون فيها ارتحلوا عنها إلى حيث يفتشون عن الرزق الأوسع فنجح بعضهم و لم ينجح أكثرهم!.

و حين ترسل ببصرك من شقرا نفسها فتتطلع اليوم إلى (المناره) التى اشتراها اليهود و كانت بالأمس القريب قطعه من جبل عامل! كانت أرضا جرداء و حقولا- لا تخضر إلا في الشتاء و الربيع، حين تتطلع إليها اليوم فترى العمارات المتلائنه و الغابات النضيره و الأرض الشجيريه و المياه الغزيره، تراها كذلك في الصيف و الشتاء و الربيع و الخريف، تدرك من الحقائق ما يمزق نفسك أسى و أسفا!. و تعلم ما جناه و يجنيه على الأمه من تسلطوا عليها حاكمين، و من وثوا على رزقها متسلطين، و من تركوها للفقر غانمين!.

اليوم لا- أغاني الفتيات تتعالى من بين (أغمار) العدس، و لا شفاهن تتحرك صداحه من خلال (شمائل) (الباقية)، و لا تلك

الأوديه تتجاوب باناشيد الهوى المكبوت مترنحه بارق الألحان!. و اليوم لا أهازيح للفتيان تدوى فى السفح و على القمه و خلال الوادى!.

لقد عاد كل شىء صامتا أخرس، و آبت الحياه إلى الهمود و الركود!.

البيادر

و فى البيادر تتجمع (البنادك) مثنى مثنى و تراكم الواحد إلى جنب الآخر حتى تغص بها تلك البقع التى كانت طوال العام خاليه خاويه، فإذا بها فى الصيف تضج بالحركه و الحيويه، قد نصبت فيها خيام الرند (الغوردل)، فسهر فيها الساهرون و نام النائمون. أما فى النهار فان أصوات الصبيان على نوارجهم تملأ الآذان بترجيعها الحلو، و قد جلس أو وقف كل واحد منهم على النورج و يميناه مقود يوجه به الثورين ساحبى النورج، و يسراه عود يحركه على جلد الثور المتباطئ أو المتحرف، حتى إذا مل رتابه الساعات أرسل فى الجو صوتا رقيقا باهزوجه مخصوصه للبيادر بحيث تصلح للحوار، فإذا سمعها جاره الأقرب رد عليها مقطعا بمقطع!.

حتى إذا أخذ وجه (الطرحه) بالاندراس جاء الرجال يقبلونها بالشواعيب!.

و كانت البيادر فى شقرا يشغل معظمها القسم الشمالى من الأرض المتصله بالعمران، و يشغل بعضها القسم الغربى الجنوبى، و بعضها و هو الأقل القسم الشمالى الشرقى.

و لحكمه عمليه أقيمت (عين الناقه) قريه من البيادر الشماليه و الشماليه الشرقيه لتكون موردا للبقر العامل على البيادر الغربيه أما البقر العامل على البيادر الشرقيه الشماليه فيرد البركه.

و البيادر الشماليه التى تشمل معظم زروع القرية، و تقوم عليها أغلال كبار الفلاحين هى فى الصيف (برلمان) القرية و دار الندوه فيها، فهناك وسط البيادر و تحت الجوزه العريقه يلتقى الشيوخ و بعض الشبان فيتدارسون شئون قريتهم إن كان هناك من شئون، و يتحدثون و يتنادرون إن لم يكن لديهم من شئون. أما فى الليل فحيويه القرية كلها تنتقل إلى البيادر، إذ تعود خيامها مسكن الفلاحين الذين يحرسون فيها غلالهم. و لعل الأصح أن نقول أن حيويه القرية تتقاسمها فى ليالى الصيف كل من البيادر و السحارى و الكروم، و هى فى معظمها متقاربه متصله و من هنا كانت حياه هذه البرارى فى الصيف متشابكه متداخله.

و للبيادر الشرقيه الشماليه هى الأخرى ندوتها و مجالسها و رجالها، أما البيادر الشماليه الشرقيه فلقله من فيها و لقربها من الغربيه فلا ندوه خاصه بها، بل أن رجالها يشاركون الغربيين فى ندواتهم و مجالسهم!.

لقد أدركت شيوخ القرية على البيادر الغربيه و أدركت أمثالهم على البيادر الأخرى.

و جالستهم و أنا صبى و يافع و شاب، فربما نسيت كل المجالس و الأنديه و غابت عنى مع الزمن كل الأصوات فيها و انطوت من ذهنى كل الصور عليها. أما أولئك الشيوخ شيوخ شقرا، و مجالسهم على البيادر و سامرهم فى الحى، فلن أنساهم أبدا!!!.

و لشده تأثرى بحيويه البيادر أيام موسمها، ثم لشده تأثرى بانتهاء موسمها أذكر أننى فى إحدى السنين نظمت قصيده أودع فيها البيادر و أقف على أطلال القمح و آثار الخيام و ذكريات الناس، لا أذكر سوى بيتين منها، و قد أنستنى الأيام سائرهما، و مع أنها من شعر الصبا غير الناضج فما أسفت على شىء كما أسفت على أنى لم أحفظها بين أوراقى لتكون صورته حيه من صور المواقف العاطفيه. أما البيتان فهما:

خلت البيادر بعد طول عجيج و محت بها الأيام كل ضجيج

لا سامر الأحباب ثمه سامر أنسا و لا ليل الهوى ببهيج

أما اليوم فقد خلت البيادر بعد طول عجيج، لا خلوا إلى حين، بل خلوا فى كل حين!.

و عادت تلك البقعه جزءا من عمائر القرية و امتلأت بالمنازل، و اقتلعت الجوزة و انطوت الندوات و غابت المجالس و الأسمار!.

الكروم و السحارى

أما ليالى الصيف فى القرية، الليالى الاضحيانه، فهى ليالى الكروم أولا و ليالى السحارى ثانيا. فمنذ أوائل الصيف ينتقل الكثير من الحياه إلى كروم التين، فتتصب فيها خيام الرند المعروف هناك باسم (الغوردل) أو الملول و السنديان. على أن الرند هو الأصل لاتساع أوراقه و كبرها بالنسبه إلى أوراق الملول و السنديان. و هذه الخيام نوعان منها ما هو طبقه أرضيه تمهد الأرض أمامها لتكون صالحه لنشر التين عليها ليحفظ و يبس فيكون منه مئونه الشتاء. و الخيمه هى المأوى الذى يفتىء إليه أصحاب الكرم أو ضامنوه، ففيها يقيلون و فيها يبيتون. و قد تكون بعض الخيام مرتفعه عن الأرض و مقامه على قواعد عاليه من جذوع الشجر فتسمى عند ذلك (السرير).

فإذا عسعس الليل أشعلت القناديل أمام الخيام و تحلق السامرون فى أفئتها متحاورين متنادين، و انتقل جزء كبير من حياه القرية إلى الكروم حيث الهواء الطلق و النسيم العليل و الأفق الرحيب!.

فإذا تنفس الصبح امتدت الأيدى إلى ثمار التين الناضجه تقطفها لتمتلى بها السلال القصبية الصغيره و الكبيره، فبعضها يحمل إلى البيوت فأكهه شهيه، و بعضها يطرح للتجفيف غذاء لما ياتى من الأيام.

أما السحارى (جمع سحرا) فهى حقول الكوسى و الخيار و القثاء و البطيخ التى تنصب فيها الخيام هى الأخرى مقبلا للقائلين و مييتا للباثين و منزلا للضيوف المستجمعين.

السحارى و كروم التين فى حريبه و وادى الملول و ورده و الدواوير و عقبه عين الحمرا و شواثا و جل زكو... زالت إلا بقايا لا تجمع سامرا، و لا تؤلف مجلسا و لا تلفت انتباها.

فلا- القناديل تنير دجى الليل البهيم، فتجذب ببصيصها الضئيل النفوس قبل العيون، و لا "الشبابات" ترن فى أجواز الغسق فيلج رنينها القلوب قبل الآذان!.

و فى أماسى الصيف يعود الرعاه بقطعانهم إلى القرية. يعود قطع البقر مجتازا بالبركه حيث ترد الأبقار من مائها لترتوى طيله الليل بما شربت فى المساء، ثم يمضى الرعاه على رأس القطيع و على آخر القطيع بعصيم الطويله ذات الشعب مجتازين بمقبره القرية الشرقيه و شاقين الطريق الطويل منها بين البيوت الشماليه، و ما هو أن ينحصر القطيع بين جدران البيوت حتى يغدو لوقع أظلافه ضجيج مسموع بعد أن كان هذا الضجيج يتلاشى فى الفضاء الواسع قبل الولوج بين الجدران التى تحصره بينها فيصل إلى الآذان برتابته المشوشه. و كثيرا ما كنت أكون فى الغرفه اللصيقه بالطريق فاصغى إلى القطيع يدب باظلافه على الأرض فيشير الغبار و يثير الضجيج معا، و ينتهى السير إلى (الصيره) و هى أرض فضاء مسوره بجدران ينحصر بينها القطيع طوال الليل!.

و ما هو أن يصل القطيع إلى (الصيره) حتى تبدأ القرويات بالوصول إليها لتأخذ كل قرويه بقرتها أو بقراتها إلى المنزل حيث تحلبها ثم تعيدها إلى (الصيره) بين أترابها من البقر حيث يبيت الجميع حتى إطلاله الفجر و مع الفجر يعاود الكل الرحله إلى المروج من جديد يتقدمهم و يسوقهم الرعاه بعصيم الطويله ذات الشعب!.

و على خطوات القطيع، و على حفيف وقع أظلافه كنت أستيقظ كل صباح!.

و لعل من أطرف طرائف القرية أن انطلاق القطيع و إياب القطيع هما مما يحدد به الزمن فى القرية، و قطع البقر يطلقون عليه اسم (العجال) (بتشديد الجيم). لذلك يقولون مثلا: وصل فلان تحويله (العجال) و سافر فلان سرحه (العجال)!.. و من العجيب أن (السرحة) (و التحويله) لا يتبدل زمانها و لا يتقدم و لا يتأخر، بالرغم من فقدان الساعات فى أيدي الرعاه لذلك كانت من أصح ما يحدد به الزمن!..

و لتحديد الزمن فى القرية طرفه أخرى: أنهم يحددونه (بمعالاه المجدره) و ذلك أن (المجدره) المؤلفه من العدس و البرغل و الزيت و البصل هى الوقعه الأصيله فى القرية لأن ما تؤلف منه هو من نتاج القرية نفسها و مما يحصل عليه كل بيت، فهى أرخص طعام و أكثر توفرا!.. و هل يطلب الفلاح الفقير فى طعامه إلا الرخص و التوفر؟!.

و لا بد فى معظم البيوت من أن (يعلى) قدر المجدره على الموقد فى المساء لتكون المجدره حاضره على العشاء، و بالتكرار صار ميعاد (معالاتها) محدودا معروفا لا يحتاج تعيينه إلى الساعه، بل صار هو الساعه التى تعين الزمن!.. لذلك يقال مثلا: وصل فلان: معالاه المجدره!.

و تحديد الزمن بسرحة العجال و تحويله العجال و معالاه المجدره دليل على ندره الساعات و افتقادها إلا فى الأقل الأقل من البيوت، أو بالأحرى دليل على الفقر و الفاقه!.

" و لصيره العجال" فى القرية شان آخر، فبعد أن يمضى الليل فى الظلام و تمضى ساعاته الأولى، يكون البقر قد أفرغ ما فى أحشائه من بقايا الحشيش الذى تغذى به طيله النهار. و هنا يقبل على (الصيره) بعض النسوه لجمع الأرواث ثم لتبييسها لتكون وقودا للطبخ أو الاصطلاء.

و يحاول النسوه جهدهن أن لا يثرن البقر لئلا يغضب الرعاه النائمون على ما مهدوه فى جدران الصيره.. و لكن البقر كثيرا ما يثور
من حركات النسوه

ص: ٢٧٤

فيقوم و يجول و يقعد فيستيقظ الرعاه و يدور التلاسن بين الرعاه و النسوه و تقوم المشاجره و يعلو الصياح!.

هذا الذى ذكرته عن "العجال" إنما يكون كذلك خلال الصيف و ربما بعض الخريف. أما حين يبدأ الجو بالاكفهرار و تبدأ نذر المطر، فلا- مكان "للعجال" فى الصيف، و لا- سير له مجتمعاً فى أزقه القرية. إذ أن (الصيره) دائماً مكشوفه كما أن مرآقه الرعاه فيها مكسوه بالأغصان اليابسه وحدها. لذلك فان مكان تجمع (العجال) فى الشتاء هو فى أعلى المقبره الشرقيه قرب زيتونه الفرسي العاديه العمر، حيث يبكر الرعاه بالوقوف فى العراء منتظرين إقبال الناس بابقارهم فيسوق كل إنسان أو إنسانه بقرفته إلى موقف الرعاه حيث تتجمع الأبقار كلها، ثم يسوقها الرعاه إلى المراعى.

و فى المساء يعودون بها حتى مداخل البلده و هناك يتخلون عنها فتنتلق كل بقره إلى بيت صاحبها و هذا كله فى إناى البقر. أما الذكران فمأواها البيت صيفا شتاء لأنها فى الشتاء تعد للحرايه عليها فتعلف ليلاً بالكرسنه و الباقيه فضلاً عن التبن، ثم تساق فى الصباح إلى الحقل للحرايه. و فى الصيف تعد (لتدرس) عليها أكوام الزرع اليابس.

و المكان الذى تبيت فيه الأبقار فى البيوت شتاء هو نفس الغرف الواسعه التى يبيت فيها أهل البيت، و يتميز مكان أهل البيت بأنه يرتفع قليلاً عن مستوى الأرض، و يترك المنخفض للأبقار و غيرها من الدواب.

و هكذا يتعايش الإنسان و الحيوان، أو بالأحرى الفلاح و الحيوان فى القرى فى غرفه واحده و بيت واحد.

و يعلل الفلاحون أنفسهم بان هذه المشاركه من بواعث الدفء فى الغرفه الواسعه التى تضم العائله كلها مع حيواناتها!. و ياله من دفء بائس تبعته أنفاس الأبقار!.

المعزى و الغنم

و فى المساء أيضاً تعود قطعان الماعز و الغنم مع رعاتها، و لكن عودتها لا- تشبه عوده قطع البقر. فبقر القرية كله يجتمع فى (عجال) واحد و يذهب كله معا و يعود كله معا..

أما الماعز و الغنم فقطعان متعدده يكون كل قطع مملوكاً لمالك واحد يشاركه الراعى فى ملكيته. و الذين يملكون عدداً محدوداً يبدأ من واحده فأكثر يضمون ما يملكون إلى القطيع الكبير. و يسمون أصحاب (العره) بتشديد الراء تمييزاً لهم عن أصحاب (الشلعه). إذ كما أطلق القرويون على قطع البقر اسم (العجال) أطلقوا على قطع الماعز أو الغنم اسم (الشلعه). و إذا كانت (صيره العجال) ملك القرية كلها، فان لكل صاحب شلعه (صيره لشلعته) مملوكه منه.

و إذا كانت عوده (العجال) عوده هادئه لا تثير إلا وقع الأظلاف على الأرض، فان عوده (شلعات) المعزى و الغنم عوده شعريه عاطفيه!.

فمنذ تقبل (الشلعه) على القرية و تجد الأمهات ريح السخال يتعالى ثغاؤها جياشا باروع صور الأمومه!.

فما من عنزه أو غنمه لها أولاد تنتظرها إلا و ترسل ذاك الصوت العاطفى الشعري الذى لا تدرى أ هو نداء أو هتاف أو إعلام،

أو هو مزيج من هذا كله!. فتشتبك الأصوات كلها متعاليه من هاهنا و هاهنا فتشكل مجتمعه مظهرا من أجلى مظاهر الشوق و الحنين و الحذب و العطف، تعبر فيه هذه العجاوات أصدق تعبير و تبين فيه أوضح إبانة!..

فإذا دنا القطيع من مقره و أصبح على قيد خطوات من (الصيره) و سمعت السخال ثغاء الأمهات ردت عليها بثغاء أشجى و نداء أرق!.

ألا لله تلك الأماسى الشعاريه العاطفيه التى لم يبق منها اليوم إلا بقايا!..

الصيد فى القرية

كان لحياء الصيد فى القرية الذى تحدثت عنه فيما سبق جانب آخر لا يخصها وحدها بل يعم الجبل كله. فكروم التين فى شقرا كروم محدوده ليست لأكثر من سد حاجه الناس بالتين كفاكهه صيفيه بحته. و هذا لا يمنع أن الكثيرين كانوا يعدون التين لفصل الشتاء بعد تبيسه فى الصيف و لكن لا تين شقرا و لا تين غيرها من القرى البعيده عن الساحل كان يعتبر من التين الجيد القابل للادخار للشتاء. و إنما كان التين الجيد هو تين القرى الساحليه. و منذ أن تبدو طلائع الصيف و يصبح موسم التين قريب الحلول تتهيا صبايا القرية للذهاب إلى (الساحل) حيث يمكن هناك طيله موسم التين. تذهب الصبايا كل إلى القرية الساحليه التى اختارتها حيث يعملن هناك فى كروم التين قطفًا و نشرًا و تبيسا. لذلك تتحول كروم التين فى الساحل إلى مجامع قرويه جياشه حيث لا يخلو بيت من أن يملك شيئا من شجر التين أو يعمل فى شجر التين، و تنصب الخيام فى الكروم و تنتقل إليها أسر بكاملها من بيوت القرية، ينضاف إليها الفتيات العاملات القادمات من القرى الجليله. فتدب فى تلك الكروم حياه زاهيه نضيره متالقه، و تشيع فى تلك السهوب روح من الانشراح و المرح و النشاط.

و فى ظلال التين تنشد أحلى أغانى الغرام، و فى ضوء القمر تتفتح أعذب أمانى القلوب فتموج الدنيا كلها بالبهجه و الحبور.

و لما تأخذ أشجار التين بالاقفار من الثمار، و يأخذ الصيف بالاقلاع من تلك الديار، يأخذ النزلاء بالتهيؤ للرحيل. ثم تقفر الأشجار و ينأى الصيف، و تمضى الفتيات عائدات إلى (الجبل) و فى جيوبهن ما ادخرن من مال و على دوابهن أو على رءوسهن ما جمعن من تين يابس يدخر لأيام الشتاء.

أما اليوم فقد انقضى صيف التين. و استؤصلت أشجاره فى الساحل و عفى الزمن على ذاك اللون من الحياه العامليه لأن التين اليابس بوسائل تحضيره البدائيه لم يعد مجديا و صار لبنان كله يستورد التين اليابس من كل مكان، لأن التين فى كل مكان استحدثت لصنعه الوسائل الحديثه و أصبح صناعه من الصناعات!.

الماء

و كان من أوجع ما تعانيه القرية العامليه خلال الصيف هو أمر الماء.

فالينابيع فى الجبل قليله جدا. و حين توجد فى قرية من القرى - على قله ما توجد - فإنما توجد بماء قليل لا يكاد يفى بحاجه القرية. و كان الناس يعالجون هذا بإنشاء العيون المصطنعه و البرك المفتعله فهم يختارون أماكن

معينه فى ظاهر القرية يحفرون فيها الأرض بشكل دائرى لتكون الحفرة مجمعا لماء المطر يسمى (العين). و لما كان فى كل قرية أكثر من عين واحده لذلك كان لا بد من إطلاق اسم معين على كل عين.

و لا يستفاد من ماء هذه العيون إلا خلال الشتاء، و ربما إلى أوائل الربيع، حيث تفد إليها صبايا القرية و قد حملن الجرار على رءوسهن فيردن العين ناقلات منها الماء بالجرار. و لا بد فى كل عين من درج حجرى تهبط الصبايا درجاته كلما هبط الماء. و هذه العيون عيون قديمه العهد لا يعرفها الناس إلا هكذا و ربما عن لأحدهم أحيانا أن ينشئ عينا جديده يطلق عليها اسمه و هذا قليل الحدوث.

ثم هناك فى كل قرية مجمع كبير للماء يطلق عليه اسم (البركه) تتدفق إليه سيول الشتاء فتملأه ليكون موردا لمواشى القرية و أبقارها و خيولها و حميرها، و لرى مزارع الدخان. ثم هو مكان غسل الأواني، و مكان غسل الثياب.

و إذا كان ماء العيون سائغ المنظر لأنه ينقل جديدا، فان ماء البرك ماء تعاف منظره العيون و هو مملوء بما يتولد فيه لقذارته من أنواع حيه تعيش فيه طوال العام.

و إذا كان ماء العيون يسد بعض الحاجه خلال الشتاء، فقد كان لا بد من سبيل لسد الحاجه كلها خلال بقية فصول السنه. لذلك عمدت معظم البيوت إلى إنشاء آبار فيها ففى كل بيت بئر تتجمع فيها مياه الأمطار خلال الشتاء ليكون مشربا لأهل ذاك البيت خلال السنه.

و هكذا تظل الأمور سائره و الناس راضيه. و لكن المحنه الكبرى حين يتأخر هطول المطر و تأخذ مياه الآبار بالنفاد، ثم تنفد!. فعند ذلك يفتش الناس عن الينابيع فى القرى البعيده فيقصدونها بدوابهم لينقلوا منها ما يسد بعض حاجاتهم!.

و حين تبدأ مياه أقرب الينابيع البعيده بالتضاؤل، لكثره ما ينقل منها، يقيم أهل القرية النواطير لمنع الغرباء من ارتياد العين. و عند ذلك يفتش العطاشى عن ينابيع أكثر بعدا!.

ففى شقرا مثلا كان الأهلون يبدءون بنقل الماء من (عيون الخان) الواقعه فى سهل الخان تحت تبنين إلى شرقها و المملوكه لأهل تبنين. ثم يتقدمون إلى عين المزراب فى غرب تبنين، ثم ينتشرون بعد ذلك فى كل مكان بحثا عن الماء!.

العيون منتزهات القرية

عيون القرية المجموعه من ماء المطر هى فى أيام الصحو منتزهات القرية، فما هو أن ينبت العشب على حوافيها المدوره و يمتد حول تلك الحوافى على مساحات غير واسع، و ما هو أن تخضر تلك الجوانب بما نبت عليها من العشب. ثم ما هو أن ينقطع المطر و يطول انقطاعه أياما ينشف فيها العشب و تجف الأرض حتى تصبح حوافى تلك العيون مقصد رواد الاستجمام و منطلق هواه الاستمتاع بالهدوء و السكون.

و أكثر ما تكون تلك العيون فى مواقع طبيعيه مشرفه على ما انحدر تحتها من سفوح أو ما انبسط أمامها من حقول، مما يزيد من جاذبيتها للمتزهين. و عيون شقرا المشهوره هى ثلاثه: (عين الحمراء، و عين الفوقا، و عين التحتا).

و وصفت الأولى بالحمراء لأنها تقع فى أرض ترابها أحمر. أما الثانيه و الثالثه: فان الأولى و صفت (بالفوقا) لأنها أعلى من الثانيه التى هى أسفل منها، و التى يوصلها بها خط مستقيم يمر عبر الكروم و الحقول يمتد من فوقا إلى التحتا.

و يختلف رواد هذه العيون و المنتزهون فيها: أما الوقورون فأكثر ما يقصدون (عين فوقا) لأنها أبعد عن البلد و لا تقصد من الواردات إلا بعد أن تنضب أو تكاد (عين التحتا) فيبقى أهل الوقار فيها على وقارهم، فلا تخدش هذا الوقار رؤيه أسراب الصبايا متهاديات على طريق العين ثم واصلات إليها بجرارهن الجميله المنبطحه على رءوسهن فارغه فى الورود، و المستقيمه المتعاليه مملوءه على تلك الرءوس فى الصدور. و من لا- يبالون بالوقار، أو من ليس شأنهم الوقار، يقصدون أكثر ما يقصدون (عين التحتا).

و قد يتناول القادمون طعام الغداء إذا ذهبوا ظهرا أو قبل الظهر. و قد يتناولون الشاى إذا ذهبوا عصرا أو أصيلا، و قد لا يتناولون لا هذا و لا ذاك، بل يقتصرون على التحدث و التندر و فى مجالس الوقار لا بد من الشاى، و لا بد من منشد للشعر العربى الأصيل يرتله على الطريقه العامليه العراقيه الأصيله ترتيبا جميلا يكسب الشعر تأثيرا فى النفوس، و يثير فيها الاستمتاع باطياب القول.

و كان أعلى المنشدين صوتا و أنداهم ترتيبا و أعمارهم حنجره، فى عهدنا هو السيد محمد حسين خلف، الذى كان إذا انطلق فى إنشاده الشعر يدوى صوته الدوى المعجب المثير.

و كنا فى تلك السن نتنازع (العينين) (الفوقا و التحتا) فإذا صحبنا أهل الوقار كنا على (الفوقا) و إذا انفردنا كنا على (التحتا).

على أن (لعين الحمرا) شانا آخر فهى أبعد العيون كلها عن القرية، لذلك كان قلما يقصدها المنتزهون، إذا كانوا كلهم من شقرا. و لكنها مكان مناسب لالتقاء منتزهين من أكثر من قرية تتوسط عين الحمرا المسافه بينها جميعا، فيتواعدون على الالتقاء عليها. و هى الأخرى ملتقى أهل الوقار...

و من طرائف لقاءات هذه العين أنها كانت يوما مقصدا للسيد محمد محمود الأمين العالم الزاهد مع رفقه له ذبحوا عليها ديكاً و كان غيرهم من أصحابه قد قصدوا منتزها آخر هو (بركه المرج). و كانوا قد ذبحوا هناك لطعامهم عنزا، فبلغهم ما جرى على (عين الحمرا) فأرسل شاعرهم السيد هاشم عباس إلى السيد محمد أبياتا منها:

أم أين من ذا المرج عين أصبحت " حمراء " ذات قذى لها بجفون

فكأنما القوم الأولى حجوا لها لم يانفوا من موضع التعفين

و عهدتهم شم الأنوف و ما أبوا نتنا أتى من مائها المحقون

فأعجب لهم حلوا بسفح مضيقها يتقاسمون الديك بالسكين

ما كان ديككم كعنز محمد يكفى مئين تتابعت بمئين

و على ذكر السيد محمد محمود الأمين هذا أقول: أنه كان وجهها أصيلا من وجوه هذا الجبل يجمع إلى الزهد حب الاستمتاع
بجمال الطبيعه. و قد

ص: ٢٧٨

حملة ذلك على أن خص أرضا له تناوح (عين الفوقا) فسامها المنتزه و حفر فيها عينا، فكانت ملتقى النخبة فى الأصل الجميله، و على رأسهم هو بالمعيته و طيب مجلسه.

و أحسب أن الذى دعاه إلى إيجاد العين هو الرغبه فى البعد عن رؤيه الواردات إلى العين بجرارهن، مع حب الاستمتاع بالطبيعه...

و بالفعل لم تكن عين المنتزه مقصدا للواردات، بل كن يكتفين بالوصول إلى (عين الفوقا) غير البعيده عن عين المنتزه.

و فى يوم من أيام الربيع أرسل السيد محمد إلى والدى أبياتا يقول فيها:

ما ترى الأرض أينعت بالأقاحى و الأزاهير فى جميع النواحي

و بها العندليب يشدو بلحن مطرب للنفوس و الأرواح

فقد العزم و اقتعده ذلولا - يا زعيم الكرام - سلس الجماح

و تعجل فاننا فى انتظار قبل تشويشها بلفح الرياح

و لك الاختيار فى أى أرض أنت تهواه يا حليف السماح

و صحيح أنه جعل له الاختيار فى المكان، و لكن المكان كان معينا أما (عين التحتا) فهى خارجه من هذا الاختيار حتما، و أما (عين الحمرا) فهى بعيده لا بد فى الوصول إليها من هبوط عقبه ثم صعود هذه العقبه فى الرجوع.

(و عين الفوقا) و عين المنتزه متجاورتان، و لكن الثانيه أخلى، إذن فهى المعينه، لذلك أجابه والدى بأبيات قال فيها:

إننى للدعاء منك ملب و إلى ما طلبته ذو ارتياح

و قد اخترت أرض (منتزه) النفس محلا لنزهه و انشراح

الشتاء فى القرية

يقبل الشتاء على القرية حاملا الرى و الخصب و ممهدا للرزق و العيش، و ما من شىء فى القرية يعدل ذاك المطر المتساقط من السماء نعمه وراء نعمه...

فالإنسان يترقبه ليطمئن أول ما يطمئن على أرواء الأوام، ثم لينبت له الزرع و يحفظ الضرع لذلك عبروا عن المطر بالخير فإذا دعوا الله بان يبعث الخير فإنما يعنون بالخير المطر فإذا تأخر الخير عن مواعده عمت الكابه الوجوه و ملأ الهم النفوس، و التجأ الناس إلى الله يسألونه الرحمه بهم و الإشفاق عليهم.

و الفلاحون يبدأون الزراعة أول ما يبدأون قبل إقبال المطر أملا بان ياتي بعد ذلك هاطلا باموايه الريا. و يسمون الزراعة قبل المطر: الزراعة على (عفير) و هذه الزراعة المبكره التي هي زراعه القمح، هي أكثر الزراعة تأثرا بتأخر المطر، و بتقدمه معا.

فإذا جاء المطر مبكرا كانت مواسم (العفير) أكثر المواسم إقبالا و أعظمها إنتاجا. و إذا تأخر المطر كان نصيبها الادبار، و أحيانا الاندثار..

و من هنا كانت نوعا من المغامر، و لكنها مغامر لا بد منها و لا غنى عنها. و هي نوع من التسليم للقضاء و القدر الذى يفعل ما يشاء. و تأخر المطر فيها نوعان: إما أن يتساقط مبكرا و لكن بكميات غير كافيه ثم ينقطع هطوله أمدا طويلا فيوقع الفلاح بذلك فى الكارثة. لأن المطر القليل المتساقط أول الأمر يكون كافيا لانبات حبات القمح بحيث تظل من تحت التراب خضراء زاهيه، ثم لا تجد ما ترتوى به فتموت فيضطر الفلاح لتجديد الزراعة بعد المطر و بعد خسران ماله و إتعابه.

و النوع الثانى أخف ضررا و أقل خطرا، و ذلك بان تخضر الأرض بزروعها، ثم يتأخر هطول المطر تاخرا لا تكون معه الزروع ماتت و لكن ضعفت، فإذا جاء المطر قبل الموت عادت تستأنف الحياه و لكن ضعيفه كليله، و كان نتاجها بالتالى ضعيفا ممحلا...

أما النعمه الكبرى، فهى أن يهطل المطر مبكرا و ابلا- ثجاجة متتابعا لأ-كث من يوم و ليله، فيحصل بذلك ما يدعونه (الريه) فيقولون: (أروت الدنيا) و يطمئنون عند ذلك لموسم (العفير). (و للريه) عند الفلا-حين حدود يعرفونها هم، و لا أعلم أنا عن تفاصيلها أكثر من اسمها. و يوم (الريه) يصبح تاريخا للسنة، تؤرخ به أحداثها، فيقال: تزوج فلان بعد (الريه) بشهرين مثلا، و توفى فلان بعدها بشهور، إلى غير ذلك من التواريخ المتصله بشئون القرية و أهلها.

و كذلك يقولون: مثلا: تأخرت (ريه) هذه السنه عن (ريه) السنه الماضيه أو تقدمت عليها.

و عند ما يوغل فصل الشتاء فى التقدم توغل السماء بالمطر الغزير مما قد يظل متواصلا أياما متتابعه و ربما أسابيع، تواصلا لا يضعف و لا- يهوى، بل يظل على قوته و عنفه مصحوبا بالرياح و الرعود و البروق و يسمى عند ذلك (العيانه)، فيقال: استمرت (العيانه) كذا يوما أو كذا أسبوعا. و كثيرا ما منعت (العيانه) الناس من الخروج من بيوتهم و حرمتهم من التواصل و التزاور فيقول فى ذلك الشاعر ابن شقرا:

منعتنا عن الوصال جوار نشرت فرعها على الآفاق

لابسات سود البرود حدادا يوم جد المصيف بالانطلاق

مرسلات ودقا إثر ودق من جفون مغرورقات المآقى

أو يقول:

بين جزر من البروق و مد هدرت فى السما شقاشق رعد

و غوادی السحاب و هی ثقال طوت الأفق بین نص و وخذ

ربما یسرع المروع اختشاء و هو فی حالتی عناء و جهد

فارتوی عاطش و أینع روض و ازدهی فی ردائه المستجد

قد قعدنا عن الوصال اضطرارا رب بعد ینكون عن غیر عمد

و أيام (العیانات) أيام مشهوده فی القریه فعند ما تتلبد السماء بالعیوم و تنذر بهطول المطر ثم یبدأ یتساقط، یحاذر الناس، أول ما یحاذرون من تساقط الدلف داخل البیوت لذلك یهرعون جمیعا إلى أسطحه المنازل حیث یعالجونها (بالحدیله)، ذلك أن الأسطحه هی من تراب، و هذا التراب یتشقق بالجفاف فإذا هطل المطر تخلل الماء الشقوق، و بدأت نقاط منه تهبط إلى داخل [داخل] الغرف. و الحدیله تكون بالمحدله و هی حجر أسطوانی الشكل منقور من طرفیه بمقدار ما یدخل فیهِ طرفا (الماعوص). و (الماعوص) عودان من خشب متصلان برأسهما و منفرجان بعد ذلك بحیث یشکلان زاویه

ص: ۲۷۹

حاده تنتهى بطرفين معكوفين يوضعان فى نقرتى (المحدله) فيشدانها من طرفيها بحيث تتماسك فى (الماعوص) فيجرها الرجل أو المرأه أحيانا أو يدفعها أمامه فتتجر أو تندفع بثقلها على التراب و قد بلله المطر مما يساعد على سد الثقوب و تفادى الدلف...

و ساعات (الحديله) ساعات طريفه جدا، إذ يصعد على كل سطح من سطوح القرية إنسان، فتغدو الأسطحه كغابه متحركه من الناس، ثم يتعالى من دوران الحادلين (بالمواعيص) صرير يسمع من الطريق، فلا ترى العينان سوى شخوص تتحرك مسرعه، و لا تسمع الأذنان سوى صرير و رنين. فإذا توالى المطر و عاد الطل وابلًا مغرقًا تراكض الناس هابطين من الأسطحه إلى داخل المنازل.

و لكن هل تغنى (الحديله) فتمنع تساقط الدلف؟.. إنها فى الكثير من الأحيان لا تغنى كل الغناء، فيكون لا بد من تساقط الدلف، و لكن بنسب مختلفه بحسب العنايه بالأسطحه و قله العنايه بها، و قصه الدلف هى الأخرى قصه طريفه: فعند ما تسقط النقطه الأولى يسرع أهل البيت فيضعون تحتها إناء، ثم تتابع النقاط المتساقطه و يتتابع وضع الأوانى، و تبعًا لذلك تضيق الرقعاه السليمه فيبدأ السكان بالانكماش و التجمع فيما لا يزال سليما. و قد يعم الدلف فينطوى الناس على أنفسهم فى الزوايا.

و يصبح لتساقط الدلف على الأوانى التى تمتلئى ثم تفرغ ثم تمتلئى، يصبح تساقط الدلف عليها مصدرا لأصوات رتيبه متتابعه متكائفه كأنها نغم واحد..

و لما كان كل شىء فى جبل عامل محركا لقرائح الشعراء، فقد كان للدلف أثره فى الشعر العاملى فمما قال فيه شاعر من شقرا:

الدلف قد أودى بنا وقعه يا رب خلصنا من الدلف

و سقف بيتى لم يزل و اكفا فهو يبارى السحب بالوكف

كأنما تنور نوح غدا يفور بالماء من السقف

و كلما قلت كفى ما جرى منك علينا قال لا يكفى

كأنما الغيث إذا ما همى يتلو عليه وقعه (الطف)

كأنه و هو بلا صبوه صب بكى من فرقه الألف

قد ملأ البيت جميعا و لم يقنع بثلاث لا و لا نصف

و صرت أحتاج إلى زورق يسوقه الملاح للجرف

منهمر تنقر قطراته فى الأرض كالنقر على الدف

من عن يمينى و شمالى و من فوقى و قدامى و من خلفى

و كلما السقف بكى أصبحت ترقص بين اللهو و القصف

تحسبها أصوات من سبحوا فى عدد يربو على الألف

و كلما قلت انتهى و كفها و انقشعت زادت على الضعف

لست و إن أظنبت فى وصفها أبلغ منها منتهى الوصف

ما زلت مما نابى حائرا أصفق بالكف على الكف

و بت لىلى قلقا ساهرا لا أغمض العين و لا أغفى

و لقد انتهى الدلف و قصص الدلف و مشاكل الدلف، و زالت الأسطحه الترايبه، و حلت محلها أسطحه (الاسمنت)، و انقضى عهد المحادل...

ليالى الشتاء

ليالى (العيانه) فى الشتاء تحبس الناس فى بيوتهم ملتصقين (بالدواخين)، (و الداخون) هو موقد النار الذى يصطلى به الناس فى القر، دافعين البرد عن أنفسهم بما يؤججون فيه من نيران، و ما يوقدون من حطب.

و الداخون يقام دائما فى زاويه الغرفه، حيث يمتد كعلبه مثلثه الجوانب تبدأ من علو حول المتر عن الأرض مرتفعه حتى سقف الغرفه حيث يكون السقف مثقوبا بمقدار سعه الداخون فيندفع الدخان من الثقب الكبير متعاليا فى الجو.

و ما دام (الداخون) محصورا فى الزاويه فحرارته لا تمتد إلى كل جوانب الغرفه، بل لا تكاد تشمل إلا جوانب الزاويه و كل ما تفعله فى سعه الغرفه أن تمتص القليل القليل من البروده المتعاضمه، لذلك تكون السهره هى فى الجلوس حول (الداخون) على شكل قوس ينحنى حتى يلاصق طرفاه جانبى الزاويه و بذلك يصطلى الجميع بالتقرب من النار المضطرمه.

أما من يفوز بالجلوس على أحد جانبى الزاويه تماما (فى القرنه) فهو الفائز الأكبر فى تلك السهرات الشتائيه الباردة، إذ يكون حظه عدا الاصطلاء هو أن يجلس مستندا إلى الجدار و لا يفوز بهذا المغنم إلا اثنان يشكلان نهايه القوس البشرى.

فإذا كانت السهره عائليه بحته، فالجنبان لرب البيت و لربته وحدهما، و إذا غابا عن السهره أو غاب أحدهما، إما لوجوده فى غرفه أخرى أو فى منزل مجاور، تسابق الآخرون على الفوز (بالقرنه)، و من سبق لا يغادرها إلا أن يبلغ اضطاراه حدا لا يقاوم.

و حول (الداخون) تقص الأفاصيص على الأطفال أو تنوع الأحاديث، و تتبادل الآراء...

و إذا كان رواد الغرفه أكثر من أن يتسع لهم قوس (الداخون) يكون لا- بد من وضع (منقل) وسط الغرفه تنتقل إليه بعض (الأحطاب) التى تكون بدأت تشتعل فى (الداخون) و هذا النقل يلزمه تعالى الدخان فى الغرفه تعاليا طاغيا، و عند ما تبدأ

الدموع تتساقط من العيون بفعل الدخان يردد الجالسون المثل القروى العاملى (دخان يعمى و لا برد يضمنى)...

على أنه قد يستعمل الفحم أحيانا وسط الغرفة، و يكون هذا فى البيوت الميسوره...

أما وقود (الداخون) فهو نوعان: إما خشب الزيتون اليابس الذى لم يعد يصلح للحياه فيقطع و يدخر للشتاء، و هذا أفضل أنواع الحطب. و إما الحطب المستورد من بقايا الأحرش. و كانت هذه كلها خارج شقرا. إذ أن أحرش شقرا قد أبيت و لم ندر كئ نحن منها شيئا، و كان الشيوخ يتحدثون عن بقاياها التى أدركوها.

و أقرب مكان كان يقصد للحطب من شقرا هو حرش قريه حولا الممتد فى وادى السلوقى شمالا و جنوبا أو فى وادى الاصطبل شرقا. و حرش وادى الاصطبل هو الحرش الذى مر فيه ابن جبير و وصفه وصفا جميلا.

ص: ٢٨٠

و نقل الحطب من الأحراش يكون على رؤوس صبايا القرية، حيث ينطلقن فى مطالع الصيف سربا وراء سرب إلى الوادى الجميل حيث يفترض فيهن أن يجمعن ما يبس و تساقط أو كاد من الأغصان. و مع أن هذا محظور عليهن لأنهن من قرية غير قرية الحرش فقد يتساهل به نواطير الأحراش.

و لكنهن لا- يتقيدن بذلك إذ كثيرا ما امتدت أيديهن إلى الأغصان الغضة اليانعة فيأخذن يقطعنها، مغتلمات غياب الناطور أو ابتعاده.

و كم من مشاكل تقع بينهن و بين النواطير و كم من متاعب جرها التحطيب من (الوعر). (و الوعر) هو الاسم الذى يطلق فى القرى على الحرش، فإذا قيل ذهبنا إلى (الوعر) فالمقصود هو الحرش.

فمن يمر فى مطالع النهار فى وادى السلوقى سائرا بين تلك القلل الشجيريه و التلالل النضيره. و من يجتاز فى متوع الضحى بهاتييك المربع، تملأ مسامعه أغاريد الصبايا و قد عكفن على الحطب جمعا أو قطفها، حتى إذا اجتمع لكل واحده ما يقوى رأسها على حملها، كتلت ما جمعته كتله أسطوانيه الشكل مديده الحجم، و ربطتها بحبال (البابير) ثم تناولتها بكلتا يديها و رفعتها إلى رأسها و مشت تدق الأرض بقدميها فى خطوات وئيده تتمثل فيها أشرف خطوات يخطوها إنسان.

و هل أشرف من خطوات هذه الفتيات اللواتى يمشين إلى العمل منذ الصباح برءوس مرفوعه و وجوه متعالیه يبسطن الأنامل منقبات عن الأعواد و يطوين السواعد حاملات للأحطاب.

يمشين من الوادى و قد أخذ الصمت يرين عليهن بعد الغناء الطويل، حتى إذا بلغن عقبه (السكيكه) و انطلقن فيها مصعدات، أخذ العرق يتصبب من تلك الوجوه الجميله بما ناءت به الرءوس من حمل، و ما أعت به الأقدام من تصعيد. يمشين صامتات قارات، و لكن فى صمتهن أبلغ بيان...

و فى القرى المحرومه من الأحراش، أو البعيده عنها قد يستعاض عن الحطب بالبلاان، و لكن البلاان لا يستعمل للاصطلاء لسرعه هبويه فسرعه هموده، و لكنه يستعمل لنار المطابخ. و كما أن الصبايا ينقلن الحطب من الوديان ذات الأشجار، كذلك ينقلن البلاان على رءوسهن من الوديان ذات البلاان. و التقى مره شاعر بفتاه تنقل البلاان على رأسها من واد يسمى (وادى عراجا) فى بلده الخيام فأنشد:

ته دلالا بلاان وادى عراجا حيث أصبحت للمليحه تاجا

لقد انقضى عهد الداخون فلا تسابق إلى (القرنه) و لا تحلق حول النار. و انتهى زمن الحطب فلا هبوط إلى الوادى و لا صعود فى عقبه...

لقد حل (المازوت) مشكله البرد و حلت مدافئه محل (الدواخين)...

كان والدى حريصا على اتقاننا اللغة العربية و قواعدها، كما كان حريصا على أن نتابع دراسه الفقه مع متابعه المدارسه الابتدائيه فى الوقت نفسه. فكنت و نحن فى دمشق ألتقى فى الصباح الباكر قبل ابتداء الدروس فى المدرسه العلويه – ألتقى بنفر من التلاميذ الدمشقيين عند والدى حيث نتلقى عليه دروس النحو فى الكتب القديمه. فبعد حفظنا للاجروميه ثم دراستنا كتاب (القطر). صرنا و نحن فى الصف الابتدائى الأخير نتلقى الدروس فى كتاب (الألفيه) شرح ابن الناظم. فنحفظ النص الشعري ثم ندرس الشرح. و ننهى الدرس قبل أن يحين موعد (دوام) المدرسه.

و كان والدى يحرص أثناء ذلك على تلقينا بعض القصائد العربيه القديمه التى يختارها بنفسه لنستظهرها ثم نتلوها أمامه ليتأكد من أننا استظهرناها. فمما استظهرته فى تلك الفتره (لاميه العرب) و أبيات قتيله بنت الحارث التى ترثى بها أخاها النضر بن الحارث بن كلده الذى أسر يوم بدر ثم قتل.

و كنا عند انتقالنا فى الصيف إلى شقرا، يظل والدى حريصا على أن نتابع الدروس خلال إقامتنا فى شقرا. و فى الانتقال الأخير الذى طال و طال بسبب ظروف الثوره السوريه ظللنا ندرس الألفيه و نحفظ شعرها. و كنت أشارك فى هذه الدروس أنا و أخى جعفر. و كان جعفر متبرما بهذه الدروس، يقبل عليها لا عن رضا و رغبه، و يود لو تخلص منها.

و كانت لنا فى شقرا خلال الربيع أيام نقضيها فى التنزه فى البريه جماعه يلتقى فيها كل أتراب الأسره ممن هم فى مثل سننا أو أكبر قليلا أو أصغر قليلا. فنقصد مجتمعين أحد الأماكن البعيده عن القرية حيث نقضى النهار بكامله فى تسليه و لعب. و كثيرا ما كنا نتواعد مع رفاق لنا من أبناء قريه (حوالا) حيث يوافوننا إلى (دوبيه) الواقعه بين شقرا و حولا. فنتخذ من القلعه و جوارها متنزها لنا طول النهار و يصنع الغذاء جماعيا فى المتنزه و هو على الغالب (مجدره) يتولى طبخها بعض العارفين من الرفقه.

و فى يوم التقينا فى (دوبيه) و أمضينا النهار و تغدينا المجدره، و كان يوما أنسنا فيه كل الأنس. و لما عدنا استوحى جعفر من ذلك اليوم قصيده طريفه لا أزال أذكر منها:

يا من يقضى عمره و يضيع منه أكثره

بين الدفاتر و المحابر قل أن لا تنظره

حب القراءه دأبه أقصى مناه (الشحبره)

ما ذا يفيد تعلم الغلم عندى مسخره

لا سيما النحو الذى ما فيه إلا النحوره

أشجى فؤادى درسه و كداك قلبى مرمره

لو جئت إحدى السيدات و قد لظمت القنعره

أدمتك من قبقابها و علتك منها (الكندره)

ريح الذى دوما غدا فى غير أنس لم تره

قل للذى لا يرعوى لنصيحتي ما أحمره

لو كنت تبصرنا و قد سرنا بقصد (الكزدره)

نبغى مكانا لائقا بجنابنا كى نعبره

كان المقام بقلعه مهجوره و مكر كره

فيها أقمنا يومنا من أنسه ما أقصره

إن كنت تسأل ما الطعام أقول كان (مجدره)

لكنها ممتازه محمره (و مذرذره)

و كثيره أيضا و قد ملأت فناء الطنجره

و الكل منا جائع و الحال منه مكدره

ص: ٢٨١

أسناننا مسنونه و كذا الكروش مهيره

حتى إذا نضج الطبخ علت لذاك (الهوبره)

و كذا النفوس استبشرت من بعد (عوف التزكره)

ما كنت تسمع حين نأكل غير صوت الشخوره

حتى حسبنا أنه بلغ الطعام الحنجره

ثم انكفانا راجعين كما أتينا القهقره

هذا حديث ذهابنا أغناك عن أن تحضره

إن كنت فيه مقصرا فإلى الرفاق المعذره

و بلغت القصيده والده فضحك لها طويلا و أعلن إعفاء جعفر من حضور درس الالفيه. و لقد أفادتني هذه الدروس في قابل أيامي سواء منها دروس النحو أو دروس الفقه. على أنني لم أكن أقبل عليها إقبالا كاملا و لم أكن أعطيها ما يجب أن تعطى من عنايه و اهتمام. و إنما كنت أتابعها مساييره منى لوالدى و تنفيذاً لرغباته. ثم أدركت بعد أن وعيت تمام الوعى كم كنت مخطئا بقله عكوفى على تلك الدروس و عدم الانكباب عليها. فان ما ظل عالقا فى ذهنى منها أرانى كم كان يمكن أن تكون فائده الكثير و الأكثر.

الإعلان فى القرية

كان إذا احتيج فى القرية إلى إبلاغ الأهلين جميعا أمرا من الأمور التى تتعلق بهم كلهم من شئونهم العامه أو الخاصه. استخدمت لذلك المناداه العامه من على سطح مسجد القرية أو أى مكان عال آخر و يكون ذلك ليلا حيث يقف ناظر القرية فيبدأ المناداه قائلا:

يا أهل البلد أجمعين أولكم محمد و ثانيكم على

و ثالثكم فاطمه بنت النبى

و يكون هذا القول تمهيدا لما يريد أن يقوله و لفتا للأسماع و اجتذابا للآذان.

ثم يشرع بعد ذلك بإبلاغ ما يراد إبلاغه.

على أن هناك إعلانات خاصه تتعلق بالمعلمين أنفسهم و تجرى لمصلحتهم. و هذا يحصل مثلا بان يكون اليوم يوما مطيرا يتعذر معه المكث خارج البيوت. و يكون أحد القضايين قد أعد ذبيحه لبيع لحمها. و العاده فى الأيام العاديه هى أن يجرى ذلك فى

(الساحه) التى هى سوق القرية و مجتمعها، حيث يلتقى جميع أصحاب الحاجات بما فيهم المفتشون عن اللحم.

و لكن حين يتعذر الخروج و المكث تحت المطر لا يستطيع القصاب تعليق ذبيحته فى الساحه، و لا يدري الناس إذا كان اللحم موجودا أم لا، و لا من هو القصاب الذى ذبح اليوم. فى هذه الحاله، يرسل القصاب ولدا أو ولدين يغتصمون فرصه انقطاع المطر لفترات فيجولون أزقه القرية صارخين:

يا الله على اللحم... عند السيد إبراهيم عاشور... (مثلا).

و عند ما يتعالى النداء يرهف الناس آذانهم ليستوعبوا ما يقال. فحين يفهمون يهرعون للتزود باللحوم و أكثر ما يكون النداء على اللحم، و قد يكون لغير اللحم.

طبقات القرية

الطبقية فى القرية العامليه لها مفهوم غير المفهوم الذى يمكن أن تدل عليه عند إطلاق كلمه طبقية. فهى طبقية و لكنها ليست ذات امتيازات اجتماعيه تتمتع بها طبقه دون طبقه بل هى طبقية تدل على طبيعه العيش و إمكانيه الحياه.

فمعظم القرى مملوكه لمجموع أهلها، و قد تكون فيها ملكيات كبيره لأسره من الأسر، و لكنها ملكيات لا تحول دون تملك الآخرين. و مع ذلك يظل فريق دون تملك للأرض. و من هنا جاء تقسيم الناس فى القرية.

فمعظم القرى يقسم سكانها إلى أربعة أقسام ملاكين، فلاحين، شكريه، فلتيه.

أما الملا-كون فهم الذين يملكون الأرض و لا يعملون فيها و إنما يعمل الفلاحون و يكون لكل فريق نصيب من غله الأرض و يسمى هؤلاء الفلاحون (المرايعون) لأن حصتهم لقاء العمل هى ربع المحصول. و الفلاحون هم نوعان: نوع يملك الأرض و يعمل فيها بنفسه، و نوع لا يملك الأرض فهو يعمل فى أرض الملاكين. و أما (الشكريه) فهم الذين لا يملكون الأرض و يعملون فى مصالح أخرى و لكنهم يستأجرون الفلاحين و أدواتهم ليزرعوا لهم فى أرض الملاكين ما يسمونه (شكاره) يكون من نتاجها أكثر ما يحتاجونه من قمح و برغل. و أما (الفلتيه) فهم الذين لا يملكون الأرض و لا يعملون مرايعين و لا أجراء و لا يزرعون (شكاير).

و من هؤلاء يكون العمال الزراعيون فى الحرث و الحصد، و العمال غير الزراعيين كعمال البناء.

العرس فى القرية

الزواج فى القرية هو على الأعم زواج حب، و ينذر أن يكون زواج مصلحه أو زواج صدفه. فالناس يعرفون بعضهم بعضا و ينشئون متلاقين إما على البركه أو على طريق العين أو فى الحقل أو فى (السهره) و ما دامت القرويه شريكه فى العمل تقوم بسهم وافر من الجهد سواء أيام الزرع بنثرها بذور الفول و الذره فى الحقل وراء زوجها العاكف على محراثه، أو أيام الصيف باجتثاثها سيقان العدس و أشباه العدس عند (الحليشه) أو بالتقاطها ما تساقط من سنابل القمح و جمعها (شمائل) عند (الحصيده).

ما دامت القرويات قسيمات العمل فى الحقول و البيادر و الكروم و (السحارى). فان الاختلاط محتوم و التعارف مفروض، و سفور الوجوه قائم...

و من هنا كان زواج القرية على الأعم زواج حب... و قد يطول و قد يقصر زمن الحب، و قد يلاقى زواج الحب عراقيل يصمد معها الحب حتى يتجاوزها.

و تبدأ الشكليات بايفاد كبير فى القرية للخطبه، فإذا لقى الاستجابه، ذهب من يحدد موعد القران و يسمونه فى القرية (العقد). و ينطلق فريق من أقارب (العريس) على بيوت القرية يدعون الناس لحضور القران و هو إما أن يكون عصرا أو ليلا.

ص: ٢٨٢

و فى الموعد المحدد يلتقى الرجال فى مكان من منزل (العروس).

و يمضى (فقيه) القرية أو عالمها متصدرا المجلس. و إذا كان أهل العريس على شىء من الوجاهه لم يقنعوا بالفقيه أو العالم المحلى و إنما يستدعون المرجع الكبير فى البلاد. و لم تكن (شقرا) تستدعى أحدا لأن المرجع كان فيها دائما و كان يدعى إلى غيرها من المدن و القرى.

و بعد أن يكتمل الجمع يدعى الفقيه من بين الرجال للذهاب إلى الغرفة الموجوده فيها (العروس) مع أهلها و أترابها و المدعوات من نساء القرية، و يرافقه أقرباء العروس كاعمامها و أخوالها أو غيرهم و هناك يجلس وحده مقابل العروس محاطا بالأقرباء و قوفا. ثم يبدأ بالطلب إليها أن توكله بإجراء عقدها. و يكون الطلب بصيغه معينه تنتهى عاده بقوله: (فان كنت راضيه فقولى نعم). و ربما استبدل كلمه: (فقولى أنت و كيلى) بكلمه: (فقولى نعم).

و هنا تبدأ مسرحيه طريفه: فبالرغم من أن الفتاه تكون على أحر من الجمر فى انتظار هذه اللحظات لتصبح قرينه لمن تحب، و بالرغم من أنه لم يعد من كلفه بينها و بين الفتى المنشود، فإنه لا بد من إظهار الدلال و التمتع و التظاهر بالخبجل و عدم التسرع. فيظل السؤال بدون جواب و يرين الصمت على الفتاه. فيعاد السؤال من جديد و لكن لا جواب.. و يعاد السؤال للمره الثالثه. و قبل أن يطرح هذه المره تنبه الفتاه إلى أن هذه هى آخر مره، و أن عليها الآن أن تجيب. و بالفعل فإنها تجيب بنعم، سواء كان السؤال مطروحا عليها بشكل: (فقولى: أنت و كيلى) أو بشكل:

(فقولى: نعم). لأن (نعم) أكثر اختصارا و أقل كلفه.

على أن بعض الفتيات ترفض أحيانا أن تجيب عند طرح السؤال عليها لثالث مره، و تظل مصره على الصمت حتى المره الخامسه...

و عند ما تلفظ كلمه (نعم) يكون على باب المنزل حامل بنديه صيد فما أن يقال له: (وكلت) حتى يطلق البندقيه فى الهواء معلنه لسكان القرية أجمعين أن (التوكيل) قد حصل.

ثم ينتقل (الوكيل) مع صحبه إلى مجلس الرجال. و هنا إما أن يطلب إلى (العريس) أن يوكل أحدا عنه، أو أن يتولى هو الاجابه بنفسه، ردا على صيغه العقد بقوله: (قبلت).

و مع أن لفظ (زوجتك) هو وحده كاف لإتمام الزواج، فان العاقدين يضيفون على هذه الصيغه صيغا عديده بألفاظ مختلفه و لكنها لا تخرج فى الحقيقه عن مفهوم الصيغه الأولى.

و يختم العاقد صيغه الإيجاب و القبول بقوله: (مبارك إن شاء الله).

إيدانا بانهاء كل شىء. و هنا ينطلق البارود للمره الثانيه...

و يقبل العريس يد الفقيه العاقد. ثم يدور على الحاضرين فيقبل أيدي الشيوخ منهم و يصفح غيرهم أو يقبلهم و يقبلونه...

و من طريق ما حدث فى مناسبه من هذه المناسبات أن قرويا ينظم الشعر قد أحب فتاه فلم يوفق للزواج بها فكان مما قاله واصفا حاله هذا البيت:

عشيه أصغت للعدول مطيعه وقالت لشيخ السوء (أنت وكيلى)

و عند ما يقبل الليل تقام الأفراح مستمره ثلاث ليال، تعقد فى كل ليله فيها حفله (الدبكه) صاحبه ضاجه، تضرب الأقدام بها الأرض على نفحات (المجوز) أو (الشبابه) ضربا قويا عنيفا متماديا و يشترك فى الحفله الواحده فتیان القريه و فتياتها معا و لكن لا- مختلطين، بل يشكل الفتیان قوسا فى الحلقه و الفتيات قوسا آخر يرتبطان معا بفتاه بأول قوس الفتيات و بفتى بآخر قوس الفتیان هما وحدهما اللذان تتشابك أصابع يديهما معا فى مسيره الحلقه المتواصله.

أما بقيه الأيدى، فاصابع الفتى تتشابك مع أصابع الفتى و أصابع الفتاه مع أصابع الفتاه...

و أعذب ما فى الدبكه حين تنبرى صاحبه أعذب صوت بين الفتيات فغنى الأغانى القرويه منطلقا معها صوت المجوز أو صوت الشبابه باللحن نفسه. و تبلغ العذوبه ذروتها حين تتولى ذلك لا فتاه واحده بل فتاتان ينبعث صوتاهما معا بغناء واحد...

المطاحن

فى تلك الأيام لم تكن المطاحن الآليه معروفه و كانت المطاحن المداره بالماء هى التى تتولى طحن القمح. و الماء الذى يمكن أن يدير المطاحن لم يكن قريبا من معظم القرى. و كان أقرب ماء إلينا فى شقرا هو ماء وادى الحجير الذى تفور ينايحه أيام الشتاء دفاقه غزيره، و تظل كافيه طيله فصل الربيع بعد أن تكون قد بدأت تغور يوما بعد يوم (1) و بعد نضوب الحجير يبعد أصحاب القمح بقمحهم من وادى الحجير إلى مطاحن الليطانى التى تظل تدور على مدار السنه. لذلك كان (للطن) شىء من الأهميه تقتضى التهيؤ له و إعداد (الدواب)، و كان الأمر عباره عن رحله إلى وادى الحجير يقضى فيها الذاهبون ليله خارج قريتهم، و يؤلفون موكبا مؤلفا من عدده حمير ربما التقى سائقوها على موعد و ربما على غير موعد. و كان فى الحجير عدده مطاحن تحمل كل مطحنه اسما معيننا متداوله على أوسع نطاق فى أوساط القريه، إذ ما من بيت إلا و له فى واحده من هذه المطاحن المنتشره فى الوادى الجميل نصيب.

و عوده موكب (الطحين) له فى البيت لا- سيما عند صغاره شىء من البهجه، إذ أن العائدين يحملون معهم إلى البيت نوعا من الأرغفه لا يصنع إلا هناك، يطلق عليه اسم (المشاطيح) واحدها (مشطاح). و هى من الخبز السميك غير المألوف فى القريه التى لا تعرف إلا الخبز الرقيق (المرقوق) المخبوز على (الصاج). و قد لا تكون (المشاطيح) أفضل من (المرقوق) و لكنه طلب التنوع، و الرغبه فى غير المألوف.

و خبز القريه نوعان: الأعم الأغلب و هو ما يصنع فى البيوت حيث (يرق) العجين و يمدد على الأكف النسائيه بحركات سريعه متعاقبه، ثم يطرح على (الكاره)، و هى غلاف مدور على سعه الرغيف، من نسيج، محشو بقطع النسيج. و من (الكاره) يطرح على (الصاج) المحمى بالنيران الموقده تحته

١- الحجير بلفظ تصغير حجر: واد طويل عميق مبدؤه من آخر وادي السلوقى و منتهاه نهر الليطانى قرب قريه القاعيه يخرج فيه إذا كثر المطر نبع ماء من جانب حجر كبير - و لعله ينسب إليه - من الحول إلى الحول، و قد يجف أو لا- يخرج من قله المطر، عليه أرحيه كثيره (خطط جبل عامل).

و هناك حالات استثنائية يعجن فيها العجين فى البيوت، ثم يرسل إلى (التنور) ممزوجا به سمسم و كمون و زيت مما يجعله متميزا عن الخبز البسيط. و شرط الخبز فى التنور أن يرسل مع العجين كميه من الحطب تكفى لإنضاجه، إذ أن التنور لا- يقدم الحطب و فى هذه الحاله تكون الأرفعه شبيهه (بالمشاطيح) أى سميكه غير رقيقه، و لكنها تختلف عن (المشاطيح) بشيئين اثنين: بالتسميه أولا، لأن الرغيف هنا يسمى (بعقه) لا (مشطاحا) ثم بالشكل إذ أن (المشطاح) طويل ممتد، و أما (البقه) فمدوره غير متسعه.

و التنور الشهير فى شقرا كان تنور (جميله)، فطالما حملت إليه أوعيه العجين من البيت، و طالما عادت نضيجه شهبه، و طالما ترقبنا عودها لتخاطف (البقعات) حاره ثم لنتهمها دون أن نضيف إليها أى شىء.

و التنور يختلف عن الفرن، فى أنه نقره فى الأرض مطليه بالكلس توقد فى قعرها النار حتى تحمى من أسفلها إلى أعلاها، فتتناول (جميله) أو ابتتها (صفيه) قطع العجين الممدد بعض التمديد و تضعها على الكاره ثم تمد يدها بها إلى جانب من جوانب التنور فتلصق عليها العجين، و يظل ملتصقا حتى ينضج...

و عدا عن خبز (البقعات)، فمما يصنع فى التنور (الكعكات) و يتميز عن البقعات بان العجين ممزوج بالحليب و السكر، و توضع كل قطعه منه فى قالب خاص يكسبها خطوطا و تخاريم منوعه و لا يصنع الكعك إلا فى العيد.

البرغل

البرغل فى القرية شىء أساسى و جزء من حياه القروى، بل هو عماد قوته اليومى و ركيزه غذائه على مدار السنه. فمنه تصنع (المجدره) و منه تصنع (الكبه) على اختلاف أنواعها ابتداء من (الكبه النيه) إلى (الكبه بالصينيه) إلى (كبه اللبنيه) إلى الأقراص المقلبه إلى غيرها...

و منه يصنع الطعام الذى يطلق عليه اسم (البقله) و هو صنوف. فإذا أطلق اسم البقله دون أن يضاف إلى اسم آخر عنى به طيبخ البرغل مع مجموعه من الأعشاب البريه الخضراء. و هذا لا يكون إلا شتاء، و ذلك عند ما يبدأ تساقط المطر و تبدأ الزروع و الأعشاب بالاطلال من تحت التراب. فعند ذلك تخرج فتيات القرية و قد أخذت كل واحده منهن سله بيسارها و سكينها، و ينطلقن فى البرارى يفتشن عما نجم من العشب البرى حيث يخترقن الأرض بسكاكينهن على جذور الأعشاب مقتلعات للأعشاب من جذورها و مائتات بها سلالهن. و ليست كل عشبه تصلح لذلك، فبعض الأعشاب لا تؤكل. و الفتيات يعرفن ما يؤكل و ما لا- يؤكل و يحسن انتقاء ذلك. و هذا الخروج إلى البريه و اقتلاع الأعشاب و العوده بها إلى البيت يعرف باسم (السليق) فيقال: خرجت فلانه إلى (السليق) (1) و ذهبت (تسلق) بتشديد اللام (و السليق) المجموع ينظف و يقطع و يطبخ مع البرغل مضافا إليه قطع البصل و زيت الزيتون فيخرج من ذلك طعام (البقله). و قد يضاف اسم (البقله) إلى صنف آخر مطبوخ مع البرغل، فيقال (بقله حمص) أو (بقله فول) إذا كان المطبوخ مع البرغل حمصا أو فولاً.

و سواء أ كان الطعام (بقله) أو بقله فول أو بقله حمص فهو أبدا خال من اللحم. و بذلك يكون نتاجا قرويا محضا مما أنبتته أرض القرية و عملت فى إنباته يد الفلاح. لذلك فهو قليل التكاليف رخيص الثمن.

و البرغل يستعمل أيضا مطبوخا وحده أو مضافا إليه من قطع البصل و هو بذلك يقوم مقام الأرز، و يكثر في هذه الحال أن يطبخ معه نوع من المرق المؤلف من اللحم و بعض الخضار، كما يصنع حين طبخ الأرز.

و يسمى البرغل المطبوخ في هذه الحاله (صايت). و أكثر ما يكون هذا في الولايم. و أدركنا من يطبخون (الصايت) ثم يجللونه بطبقه من الأرز غير كثيفه فإذا أزيلت بدا البرغل تحتها. و يفعلون هذا تجملا..

و أدركنا من روى لنا أن الأرز لسدرته و غلاء ثمنه بالنسبه لثروه الفلاح، كان يعتبر دخوله بيوت الفلاحين نتيجة ضروره مؤذيه. ذلك أنه كان يوصف طعاما للمرضى، و كانت الفلاحه إذا ذكرت الأرز في مجتمع أعقبت ذكره بقولها: (الله لا يدخله بيتكم)...

هكذا نرى أن حياه الفلاح في القرية تدور على البرغل و أنه الطعام اليومي الذي لا مناص منه، على مختلف الأسماء التي تطلق على مطبوخه..

و من هنا كانت مواسم البرغل في القرية مواسم حافله.

أن للبرغل في القرية موسمين: الموسم الأول هو موسم (سلقه)، فبعد أن تنتهي اليبادر و يجمع القمح و ينقل إلى البيوت، يبدأ الاستعداد لإنتاج البرغل. ففي كل قرية من يمتلكون (الخلايق) جمع (خلقينه).

(و الخلقينه) وعاء نحاسي ضخيم كروي الشكل عميق القعر كبير المحيط حتى ليكاد يكون حوضا. و صاحب (الخلقينه) هو الذي يتولى سلق القمح و إعداده ليكون برغلا، لقاء أجر معلوم هو حصه من البرغل نفسه، و عمليه السلق تبدأ بان تركز (الخلقينه) على موقد كبير يتسع لها ثم تثبت عليه تثبيتا محكما، و عند ما يراد سلق القمح تملأ الخلقينه ماء و يوضع فيها القمح و توقد تحتها النيران إلى أن ينضج القمح فيفرغ من الخلقينه، و ينشر في الشمس إما في مكان يعده صاحب الخلقينه نفسه، أو على أسطحه أصحاب البرغل، و يظل في الشمس إلى أن يجف و يبس و عند ذلك يرفع إلى البيوت و يجرد منه اسم القمح، و يصبح اسمه برغلا، و ينتظر فيه الموسم الثاني و هو موسم (الجراشه).

و من الطريف هجوم العصفير على القمح المنشور على الأسطحه فهي فرصه ثمينه للعصفير أن ترى الأسطحه و قد تالأت عليها القمح في نور الشمس فتنادى من كل مكان للانقضاض على السطح و الفوز بالتهام أقصى ما تستطيع التهامة من هذا الغذاء اللذيذ، فتراها و قد أقبلت رفا بعد رف و حطت على السطح مستعده للغميمه التي لا تكون دائما بارده، بل هي على الأغلب حاميه، إذ أن أصحاب الأسطحه لا بد لهم من أن يضعوا على السطح ولدا تكون مهمته مطارده العصفير بما تصل إليه يده، و هنا تبدأ المعركه، فبينما الولد يطارد العصفير من أمام يكون غيرها منقضا من وراء أو من اليمين أو من الشمال...

ص: ٢٨٤

و خلال موسم السلق تكون القرية فى حركة دائمه متصله، فمن ناقلين قمحا إلى الخلاقين بالأكياس على الدواب، و من عاملين فى الخلاقين و من ناقلين القمح مسلوقا من الخلاقين إلى الأسطحه، و هذا يجرى بالأوعيه النحاسيه منقوله على رؤوس الفتيات.

و الذى كان يعيننا نحن الأطفال من موسم (السلق) أننا كنا نحصل فيه على (الإلبه) (بكسر الهمزه و سكون اللام و فتح الباء) (و الإلبه) الاسم الذى يطلق على القمح بعد نضجه بالسلق و قبل أن يجف، فهى الاسم الذى يتوسط القمح و البرغل. و فى هذه الحال يكون القمح ناضجا طريا يسهل مضغه و يعذب طعمه، فيستحضر الأطفال الأوانى الصغيره و يذهبون بها إلى قمع أهلهم المسلوق حيث تملأ لهم من (الإلبه).

و هنا يكتفى بعضهم بأكل (الإلبه) منفرده، و لا يكتفى غيرهم بذلك بل يضيفون إليها السكر الناعم فتصبح (الإلبه) محلاه...

و الموسم الثانى للبرغل هو موسم (الجرشه). و لم تكن المطاحن الآليه قد عرفت بعد و لا يمكن نقل البرغل إلى مطاحن الحجير أو الليطانى، لأن هذه غير معده لمثل هذا الأمر لأن لطحن البرغل طريقه معينه هى غير طريقه طحن القمح، فالثانى يغدو طحينا فى حين أن الأول يظل خشنا و على أنواع من الخشونه.

لذلك كان فى كل بيت (جاروشه) معده لطحن البرغل، و هذا (الجرش) لا يجرى إفراديا و لا يقوم به كل بيت لقضاء حاجته الخاصه، لأن مجموع ما (يجرشه) البيت تضيق به جاروشه واحده لذلك كان لا بد من التعاون فى ذلك بين بيوت القرية كلها، فإذا عزم أحد البيوت على (جرش) برغله بعث يدعو بيوت القرية للمساهمه فى عمليه (الجرش) فتقبل صبايا البيوت و قد حملن (الجواريش) على رءوسهن منقوله إلى بيت الداعى، و حيث أن (الجاروشه) تحتاج لأكثر من يدين لادارتها و لا بد من أن تتعاون أربع أيدي أو ست أيدي، لذلك يقبل من البيت المدعو جميع (صبايا) و يلتقى الجميع ليلا فى أوسع غرف البيت حيث تكون قد فرشت الغرفه فراشا يستطيع تلقى (الجرش). و هناك تصف الجواريش واحده جنب الأخرى حتى تمتلئ بها الغرفه و تضاء السرج و تجلس (الصبايا) متحلقات حول الجواريش، ثم تدير أيديهن الجواريش مترنمات بالأغانى القرويه، و منطلقات بالعمل و الإنشاد أتم انطلاق...

و لا ينتهى الهزيع الأول من الليل حتى يكن قد أنهين ما أعد (للجرشه) و قمن بنفض أذيالهن مما علق بها من آثار البرغل المجروش، ثم تقدم الحلويات و ما أعد للضيافه.

كانت ليالى (الجرشه) من ليالى القرية المشهوده، و القريب من مكان (الجرشه) يتحسسها بجوارحه و هو يصغى إلى ضجيج (الجواريش) ممزوجا بأصوات الفتيات فى تلك الليالى القرويه الماتعه..

بنات آوى الواويه

من الأصوات التى كانت مالوفه فى القرية هى أصوات بنات آوى، فما هو أن يسدف الليل حتى تتجاوب الأوديه و الرحاب بأصوات بنات آوى صارخه فى الظلمه الداجيه، أو الليله الأضحياه لا فرق فى الحاليتين.. و ما هو أن تسمع كلاب القرية أصوات (بنات آوى) حتى تجاوبها راده عليها ردا عنيفا. و إذا كان نباح الكلاب هو تهديد و وعيد و إنذار، فما من أحد يعرف الحكمه التى تتوخاها بنات آوى بالإعلان عن نفسها بهذا الصياح العجيب، و الإشارة إلى وجودها بهذا النداء الغريب. على أن بعض

(فلاسفه) القرية فسر ذلك بأنه نوع من استكشاف قوى العدو و معرفه حقيقه هذه القوى و مدى فعاليتها، و ذلك بما تجيب به الكلاب من نباح يكثر أو يقل بحسب كثرتها أو قلتها...

و عند ما يتعالى هتاف (ابن آوى) الخبيث فان أول ما يتبادر إلى ذهن القروى هو ذكر دجاجاته، ففرائس (بنات آوى) هى دائما الدجاجات.

و مهما حصنها صاحبها، و مهما أحاط (القن) بما يحسب معه أن الاقتحام أصبح متعذرا، و رغما عن وجود الكلب، الحارس الأمين، فسيظل (الواوى) يجد منفذا يصل منه إلى (قن الدجاج) و الفوز بصيد ثمين...

و إذا كانت (بنات آوى) تتصايح فى أول الليل، فهى تسكت حينما تهجع العيون، ففى تلك الساعات تدركها الحكمة و يعود إليها التعقل و تمتلكها الرزانه، فلا- تعود تعلن عن وجودها و تدل على مكانها، بل تأخذ بالتهيؤ و الاستعداد للتسلل إلى (قن الدجاج) محاذره أشد ما تحاذر أن لا تثير انتباه الكلاب، لتمرق إلى غايتها آمنه مطمئنه، و كثير ما نجحت خططها فى استغلال الكلاب و اقتحام الدجاج بلا خوف منها، و لكن الويل لها إذا أحس الكلب (بواو) قريب منه، ثم فاجاه بالهجوم عليه، فان معركة (الواوى) معه خاسره حتما، لا يخرج منها إلا مهشما ممزقا داميا...

أما إذا استطاع الافلات و الركض هاربا من الكلب و عدا الكلب ورائه، فان الكلب لن يدركه أبدا، و سيظل هو أسرع من الكلب، و يظل راکضا حتى يصبح فى الحقول الواسعه المتراميه، فيرجع عنه الكلب خائبا...

و هنا يؤلف القرويون ما يشبه المثل، بان يقولوا: أن سائلا سال (الواوى) لما ذا تستطيع دائما النجاه من براثن الكلب إذا حاول اللحاق بك؟. فأجاب (الواوى): لأننى أركض لنفسى و الكلب يركض لغيره...

و كما كان يسطو (الواوى) ليلا على الدجاج فكذلك كثيرا ما كان يسطو الذئب على الغنم و المعزى فى حظائرها فيفوز بفريسته جارا لها إلى البرارى...

و الكلب هنا لا- يستطيع مقارعه الذئب لذلك لا- يدخل معه فى معركة أما ما يعمله فهو أن يوالى النباح عنيفا صارخا ليوقظ النائمين، فيهبوا لحمايه ماشيتهم...

لقد صممت (بنات آوى)، و لم يعد يسمع لها صياح فى محاجر القرية و حقولها الدانيه، و أمنت الدجاجات فلم تعد تبيت قلقه مروعه، و انعدمت الحاجه إلى الكلاب، فلم يعد لها ذاك المجد باعتبارها الحراس الشجاعه.

فتواتر عن القرى و غابت عن بيوتها.

أشياء كثيره تبدلت فى القرية، و حالات عديده زالت فيها من

الوجود، فلم يترك هذا التبديل و هذا الزوال إلا ذكرى ضئيله خائيه، و إلا خيالات تأخذ في الانمحاء يوما بعد يوم.. و لكن كر الأيام و تعاقب السنين، لا يمكن أن يطمس ذكرى أشياء و حالات أخرى...

لا يمكن أبدا أن يطمس ذكرى الإقبال على القرية في الليالي و قد صمت كل شيء، و هدأت كل حركه، إلا أصواتا لم تصمت، و حركات لم تهدأ، أصواتا تشق أجواز الفضاء إلى الآذان في هدأه الليل ماشيه إلى البعيد البعيد، فتكون إشاره الأمن و شعار الوصول... أصواتا إذا كانت غير مرضيه من قريب فإنها تبعث الرضا كل الرضا في الليل البهيم من بعيد...

تلك هي أصوات كلاب القرية التي طالما سمعناها على ظهور الخيل، ماشين إلى القرية في اعتكار الظلام...

لم ينته وجود الكلاب في القرية كل الانتهاء، بل لا يزال لها وجود محدود. و لكن النوع تبدل و العمل تحول...

و الكلاب الموجوده اليوم في القرية هي كلاب الصيادين، كلاب تنام في الليل مع النائمين، و تهدأ مع الهادئين. و بعد أن كانت مهمه الكلب حمايه الضعفاء و رد المعتدين، صارت كيد الضعيف و عضد المعتدى...

سباق الخيل

كانت الخيول كثيره في القرية، و كانت هي وسيله الانتقال من قرية إلى قرية أخرى، و بعض الخيول كان يعد (لدراسه) سنابل القمح، و لكن هذا النوع قليل، (فدراسه) السنابل على البيادر تتولاها ثيران البقر التي كانت تولت زراعتها. على أن خيول الدراسه حين توجد لا تكون من النوع الأصيل، فالأصائل لا تستعمل لغير الركوب.

و اجتماع عدد من الأصائل في القرية تكون نتائجه أن تقام في القرية ميادين السباق أصيل كل يوم في الكثير من أيام السنه. و أسلوب هذا السباق هو أن ينقسم الفرسان إلى صفيين متقابلين، فيبرز من هذا الصف فارس بفرسه قاصدا الصف الآخر، و لا يكاد يدنو منه حتى يلوى عنان الفرس راجعا بأقصى سرعته، فينتدب له فارس يعدو بفرسه وراه متسابقين، حتى إذا دنا الفارس من صفه انضم إليه، و لوى الآخر عنان الفرس راجعا فيتعقبه فارس من الصف، و هكذا بين كر و فر طوال الوقت.

و قد كان اقتناء الخيول موضع تباه و تنافس بين البارزين في القرية، كل يحاول أن يقتنى الأكثر أصاله و الألف شكلا و الأسرع ركضا، و كان ذلك من دلائل الوجاهه، فلا بد في (التوجه) في القرية من اقتناء الفرس...

على أن أعظم ميادين السباق كانت تعقد في الأيام الحاشده حيث يشترك في السباق فرسان أكثر من قرية واحده، و ذلك أيام الأعراس الكبرى حيث تدعى إلى حضور عقد الزواج قري بكاملها، فتقدم القرية بعلمها و رجالتها و فرسانها و صباياها في موكب واحد و ما أن يطل الموكب على القرية الداعيه حتى يأخذ فرسانه بالتباري على ظهور الخيل جائلين في كل رحبه، و يأخذ الرجاله بإطلاق أصواتهم بحدائهم الجميل الذي كانوا يسمونه (الرويد)، حيث يتقدمهم اثنان من ذوى الأصوات العامره بهتاف يردده الجمهور بصوت واحد و من ورائهم الصبايا بهتافات أخرى... و ما أن تسمع القرية الداعيه صوت (الرويد) يقترب منها، حتى تنطلق بجمهورها لاستقبال القادمين (برويد) مقابل فإذا التقت القرى المدعوه كلها، عقدت كل قرية حلقة للدبكه وحدها، فيما يجتمع فرسان كل القرى منقسمين إلى صفيين متقابلين.

و كثيرا ما كنا نطلق من شقرا في موكب من الفرسان في زياره لقرية اخرى بمناسبة من المناسبات في موكب جميل وقور هادئ. على أنى ما كنت فارسا معدودا، فبالرغم من أننا كنا نقتنى دائما فرسا أصيله و كنت كثير التثقل عليها، فاننى لم أكن أشارك بالميادين و دخول الحلبات، و إذا شاركت كنت بين الضعف، و ذلك لأن الفروسية يقتضى لها مران دائم منذ الصغر. و لم يتيسر لى ذلك بسبب نشوئى فى دمشق، و عدم تفرغى للخيل إلا خلال الصيف. و لما طالت إقامتنا فى شقرا خلال الثورة السورية و بعدها لم أتفرغ لذلك فظلت غير ملم بالأصول غير متمرس بما يجب أن يكون...

لقد انقضت الخيول من القرى انقراضا كاملا. و انقضت الدعوات الجماعية للأعراس الكبرى، و صمت (الرويد)، و إن ظلت الدبكه تطل بين الحين و الحين إطلاالات ضعيفه...

الحركة الوطنية

أخذت الثورة السورية تتلاشى يوما بعد يوم، و إذا كنت لم أنس أن آخر بطل من أبطالها كان عز الدين الجزائرى الذى حاول اقتحام الغوطه من جديد بعصابته التى لا تعدو العشرات فتلقاه الفرنسيون و انجلى القتال عن مصرعه و تشتت رجاله و نزع سلطان الأطرش إلى الأزرق ثم إلى صحراء النبك و تفرق بقيه الزعماء بين مصر و العراق و الأردن و تركيا. و كان أكثرهم فى مصر، و انجلى الأمر عن شقاق مؤلم انشطر فيه القوم إلى فريقين يتشامان و يتبادلان التهم على صفحات الجرائد.

و جاء مفوض فرنسى جديد هو المسيو بونسو و أعلنت فرنسا العفو عن فريق من الثائرين فعادوا إلى الجبل و دمشق و غيرهما. و أعلن بونسو قيام مرحله جديده و دعا إلى انتخاب مجلس تاسيسى يضع دستورا لسوريا تدخل فيه عهدا لا يشبه عهودها السابقه. و تكتل الوطنيون السوريون و جمعوا صفوفهم فكان ذلك ميلاد الكتله الوطنيه التى قادت سوريا بعد ذلك فى نضالها مع الفرنسيين حتى آخر عهودهم.

و رحنا و نحن فى جبل عامل نرقب ما يجرى فى دمشق و سوريا كلها فاسفرت النتائج عن فوز الكتله الوطنيه باغلبه مقاعد المجلس التأسيسى و سيطرتها على قياده المجلس..

و لما بدئ بوضع الدستور و تتالت موادها بعد ماده ثم انتهى وضعه أسفر الفرنسيون عن نواياهم، إذ جاء الدستور دستورا استقلاليا واضحا مما لم يقبله الفرنسيون و طلبوا تعديل بعض موادها و هى ست مواد كانت هى جوهره و روحه و فى تعديلها كما يريد الفرنسيون تكريس للانتداب و اعتراف قانونى بوجوده.

و لما طال الأخذ و الرد و أصر كل فريق على موقفه، راح الفرنسيون يؤجلون جلسات المجلس ثم حلوه حلا نهائيا...

و عادت سوريا إلى الكفاح من جديد و قامت المظاهرات فى جميع المدن

السوريه و اشتبكت بالفرنسيين و اعتقل الشبان و الطلاب و سجنوا و عذبوا.

و كانت الأخبار تصلنا فننفعل بها انفعالا- كاملا- دون أن نستطيع المشاركه العمليه. لأن الرأى العام عندنا لم يكن مهينا لأيه مشاركه من هذا القبيل، و لأن الفرنسيين قد تسلطوا على البلاد عن طريق وجاهات خلقوها أو دعموها و جعلوها تتحكم بمصائر الناس و مضارهم و منافعهم.

فى النباطيه

و فى يوم من الأيام مضيت من شقرا إلى النباطيه - و كثيرا ما مضيت إليها - فركبت الفرس من شقرا مصطحبا معى رجلا ليعود بها، فمررنا بالبركه فى طرف القرية الشرقى لنهبط عقبه السكيكه.

و البركه فى شقرا - كما فى كل القرى - من أطرف ما فى القرى، فهذا الماء الآسن المتجمع خلال الشتاء مما يتدفق سواء من أزقه القرية أو خارج القرية من فيوض المطر، و المتكون حوضا واسعا راكدا، إنما يصلح فى القرية لكل شىء فى حين أنه فى الواقع لا يصلح لشىء.

و لأى شىء يمكن أن يصلح ماء ركذ فى حيز معين فتولد فيه ما لا يعلمه إلا الله من صنوف الأحياء التى يمكن أن تتولد فى الماء الراكد الآسن، مما تراه العين صغيرا و كبيرا أسود و أحمر و من كل لون. أو مما لا تراه العين أصلا...

و لكنه كما قلت يصلح فى القرية العامليه لكل شىء: إنه أولا و قبل كل شىء مورد لكل ما فى القرية من خيول و حمير و بقر و غنم و ماعز، و ما أكثر ما فى القرية من هذه الصنوف.

ثم هو مشرع لشيئين اثنين أساسيين من حاجات القرية اليوميه، فيه تغسل أوانى البيوت جميعا. فى هذا الماء القدر تنظف أوانى القرية...

و منه تغسل ملابس القرية، فمنذ الصباح الباكر تنظّم الأثافى و توقد فيها النيران و توضع عليها القدور فيسخن الماء و يغلى به ما حملته القرويات من منازلهن أثوابا و ملاحف و كل ما حفل به البيت القروى مما يتسخ فيغسل...

فإذا أقبلت صباحا من القرية هابطا إلى الشرق فى اتجاه البركه، أبصرت الدخان يتعالى من جميع أطرافها الدائريه من مواقد الغسيل...

و هذا الماء نفسه هو مسبح القرية يتدرب فيه صبيانها على السباحه ثم يتقنها فيه فتianها و شبانها.

و من هذا الماء تروى مشاتل (الدخان)، ثم أغراس الدخان...

و فيه ينقع البايير الجاف ليلين فيصلح لربط (البنادك) و غير البنادك و لعل له منافع أخرى غابت عن معرفتى، فمن منفعه - فيما أذكر - أنه مغتسل للموسوسين الذين لا يطمثون لصحه الغسل الترتيبى فيقصدون البركه ليغتسلوا ارتماسا، صيفا و شتاء...

و مغتسل لغير الموسوسين ممن تضطروهم قله الماء فى بيوتهم فيغتسلون فى البركه ليوفروا الماء.. أقول: مررنا بالبركه صباحا، و موافدها عامره و قدورها متضمره و تجاوزناها إلى مطلع عقبه السكيكه واصلين إلى وادى السلوقى و منه إلى وادى الحجير حيث ينتهى عند مشارف الليطانى. و من هناك عبرنا جسر القاعقيه على نهر الليطانى حيث يفترق الطريق الموصل إلى النباطيه إلى شعبتين فاما أن يسلك السالك طريق (القاعقيه)، و أما أن يسلك طريق (زوطر) و لا- بد فى كلا- الطريقين من تسلق عقبتين كئودين، فاما العقبه الأولى فأقل مشقه، و لكن طريقها الأطول فى الوصول إلى النباطيه. و أما الثانيه فإنها جبل شامخ متدرج فى الارتفاع تدرجا عاموديا مضنيا، و لكن طريقها فى النهايه هو الأقصر. لذلك كنا فى ذهابنا إلى النباطيه نسلك طريق عقبه زوطر مصعدين على ظهور الخيل تصعيدا بطيئا مقلقا، حتى ننتهى إلى قريه زوطر فنجتازها عابرين فى السبل الموصل إلى النباطيه فلا نصلها إلا بعد حوالى سبع ساعات من خروجنا من شقرا.

و أذكر أننا كنا عند ما نصل إلى مرتفع مشرف على النباطيه حيث تبدو لنا منه البلده فجاءه، ندرك أننا فى المرحله الأخيره من سفرنا هذا و هنا نزل عن الخيل فنبدل ملابسنا أو على الأصح بعض ملابسنا و نترك ما كان علينا، لما كان يمكن أن يكون قد لحقه من أوضار خلال الطريق من عرق الخيل و غير عرق الخيل، ثم نمضى إلى النباطيه واصلين رأسا إلى (الخان) حيث نودع الدواب فيه لنعود عليها بعد يوم أو أيام إذا كانت عودتنا قريبه [قريبه]، أو لنعيدها مع من يكون قد صحبنا من الرجاله، إذا كانت إقامتنا ستطول، أو أننا سنغادر النباطيه إلى صيدا أو بيروت أو غيرها فى غيبه طويله.

و النباطيه كانت مقرا لاثنين من أعلام جبل عامل علما و خلقا و أدبا و وطنيه، هم الشيخ أحمد رضا و الشيخ سليمان ظاهر. و كنا حين نجىء النباطيه فأول شىء نفكر فيه هو حضور مجلس الشيخ أحمد رضا الذى تلتقى فيه نخبه من رجال النباطيه كل يوم إما عصرا و إما ليلا، أو بالأحرى عصرا و ليلا هناك فى منزله الكريم على الجاده قريبا من ساحه البلده العامه. المنزل المحاط ببستان البرتقال الأخضر و المسقوف بقطع (القرميد) الأحمر و الممتد طولا بطبقه واحده تضم غرف المنزل الداخليه، و أولا و قبل كل شىء فى المدخل غرفه (الشيخ) الخاصه بمكتبته و سريره بحيث يغمض عينيه ليلا، فيكون آخر ما يشاهد رفوف الكتب، ثم يفتحها صباحا، فيكون أول ما يشاهد تلك الرفوف، ثم يعيش نهاره محاطا بها و القلم بيده و الورق تحت بصره... إلا أن يفاجاه اثنان اختلفا على حد فى أرضهما، أو تنازعا على شان من شئونهما، فيهب معهما مستجيبا هاشا باشا...

عناك فى منزله تحت أغصان شجره الياسمين النضيره بزهرها الأبيض العابق المتفتح، و أغصانها الخضر الظليله، و حول الحوض المترع بنافورته الصغيره المتشامخه.

و ما هو أكثر نضاره و أفوح أرجا و أروى على الظما: حديث الشيخ أحمد رضا و خلقه و علمه و أدبه.

مجلس الشيخ أحمد رضا تحت شجره الياسمين و حول حوض الماء، كان ندوه من أزهى الندوات العربيه و أكثرها خصبا و أبعدا أثرا. و إذا كان قد قدر لكثير من الندوات فى شتى بلاد العرب أن يشار إليها و يكتب عنها و ينتشر ذكرها فإنه لم يقدر لندوه الشيخ أحمد رضا أن تنال شيئا من هذا الحظ.

بل أن منزل الشيخ أحمد رضا الذى طالما ضم أفضل العلماء و أعذب

الشعراء و ألبق المحذثين، و الذى كان منبعا للوطنية و ملتقى لرجالها. أن هذا المنزل الذى يمثله صفحه من أنقى الصفحات فى تاريخ جبل عامل، بل فى تاريخ لبنان و تاريخ العرب العلمى و الأدبى و النضالى، إن هذا المنزل الذى كتب فيه الشيخ أحمد رضا معجمه (متن اللغة) و أبحاثه فى التاريخ و الفقه و الأدب، إن هذا المنزل قد أزيل من الوجود، و أصبح أثرا بعد عين كما يقول الأقدمون.

و كان من حقه على بلده و على بلاده كلها أن يحفظ أثرا من آثارها التاريخية و متحفا من متاحفها الوطنية.

فسلام على الشيخ أحمد رضا حيا و ميتا، و سلام على منزله صرحا عامرا و ظللا دائرا...

كان أبرز رواد مجلس الشيخ أحمد رضا: تربه و زميله، بل أخوه الذى لم تلده أمه الشيخ سليمان ظاهر، و قد عاش هذان الشيخان منذ وعيا الحياه أخوين فى الله و العلم و الحق. عاشا معا طالبين فعالين فمكافحين.

عاشا معا حياه حافله بأشرف ما تحفل به حياه الرجال من علم و عمل و إخلاص. و كان لا يذكر أحدهما إلا و يذكر الآخر معه، حتى لقد استعيض عن تسميتهما باسميهما عند ذكرهما فكان يقال: جاء المشايخ و ذهب المشايخ، و قال المشايخ و فعل المشايخ. فيفهم السامع أن المقصود هو الشيخ أحمد رضا و الشيخ سليمان ظاهر.

و كانا يكمل أحدهما الآخر، فكلاهما شاعر كاتب مؤرخ لغوى، و لكن الصفه المتفوقه فى الشيخ سليمان ظاهر (الشاعر) و فى الشيخ أحمد رضا (اللغوى).

و على الرغم من أنهما كانا على مزاجين مختلفين فإنهما فى حياتهما الطويله كلها لم يتكدر ما بينهما بذره من التكدر، بل ظللا فى كل لحظه من تلك الحياه المعطاء الجواده على أصفى ما يكون الأصفياء، و أشهى ما يكون المتحابون.

و توفى الشيخ أحمد رضا قبل الشيخ سليمان ظاهر بسنين، فظل الشيخ سليمان ما عاش طويل الكابه عميق الحزن مستشعرا الوحده، مفردا بين الجماهير.

أيها الشيخان، بل أيها المشايخ كما كان يحلو للناس أن يتحدثوا عنكما...

إذا كان لكل منكما عشرات السجايا التى تكفى كل واحده منها لتضع الرجل أكرم موضع فاحسب أن من أجل سجاياكما أن كنتما كما تحدث القرآن عن أهل الجنة:

(و نزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين).

أيها الشيخان:

كم يطيب لى الحديث عنكما و أكتفى اليوم من ذلك بقول شوقى: و هو يرثى صديقا له:

(يا ليت شعرى هل قلت الذى أجد)

جئت النباطيه فى تلك الفتره و كانت قد تألفت فيها جمعيه باسم (جمعيه النهضه العامليه) ضمت عصبه من الشباب النباطى، فكانت أول جمعيه من نوعها بعد (جمعيه المقاصد الخيره) التى أسسها الشيخ أحمد و الشيخ سليمان ظاهر منذ شبابهما فأقامت مدرستين: مدرسه للبنين و مدرسه للبنات، فعاشت الجمعيه طيله حياتهما، ثم بعد وفاتهما و استطاعا بنزاهتهما أن يوجد لها أملاكا جمه ذات موارد غزيره.

و لقد علمت عند وصولى للنباطيه بان جمعيه (النهضه العامليه) تتهيا لاقامه حفل تكريمى لأحد شباب المنطقه لمناسبه نيله (إجازة الحقوق) من معهد دمشق.

و كان نيل إجازة الحقوق يعتبر فى ذلك الوقت فى جبل عامل حدثا يستحق بان يشاد بصاحبه و يدعى الناس للاحتفاء به..

و رآنى الداعون إلى الحفل، فشاءوا أن أكون فى عداد المتكلمين. و لم يكن فى ذهن أحد أن أحدا من الخطباء سيتجاوز فيما يقوله الحديث عن المحتفى به و ما إلى ذلك من شئون. و لكننى قد كنت منفعلا باحداث دمشق، و ما يجرى فى سوريا كلها من صراع بين الوطنيين و الفرنسيين، و متأثرا بالمظاهرات و الاعتقالات، متأسفا على أن لا أكون قد شاركت فى شىء مما يتأجج فى ديار الشام فصممت على أن يكون خطابى مستوحى من صميم الأحداث السوريه، و على أن أجعل منه قبله تنفجر فى ذاك الحفل، فتصيب شظاياها من تصيب...

و قد كان ذلك فألقيت كلمه مكتوبه بدأتها بالحديث عن موضوع الاحتفال فاتخذت من تخرج المحتفى به من معهد حقوق دمشق سبيلا للحديث عن دمشق و ما يجرى فيها...

فران على الجميع صمت رهيب هو مزيج من الدهشه و الخوف و الاستنكار و الاستحسان، و قد كنت أطلع كل ذلك فى وجوه السامعين...

و نزلت عن المنبر و عدت إلى مكاني و اتخذت من الإطراق وسيله للتخلص من العيون الشاخصه إلى بشتى بواعث الشخوص...

و أذكر أن الخطيب الذى تلانى خرج إلى المنبر متعثرا و بدا فى كلامه متلجلجا، و ظهر عليه أنه يخشى أن يؤخذ بجريرتى و يشرك فى مسئوليتى...

و انتهت الحفله و عدت إلى طبيعتى و وقفت مع الواقفين استعدادا للخروج، و من الطبيعى أن يتصافح الخارجون، فرأيت كيف تجنبنى حتى أمس الناس صله بى...

مر الحادث خلافا لما توقع الناس و لما توقعت أنا نفسى، ما خلا العتاب ممن ينتمون إلى منظمى الحفل على أن ورطتهم فى هذا الأمر، و أنهم يتوقعون شرا لا يدرون كيف سيقع.

و لكن الشر لم يقع و حرصت على أن أبقى فى النباطيه أكثر من يوم لأكون ماثلا لكل سؤال. و بدا لنا بعد ذلك أن السلطات لم يكن فى ذهنها حدوث ما حدث، لذلك لم تحرص على إرسال المخبرين المتجسسين، و أن أحدا من الحاضرين لم يتبرع بالابلاغ، لذلك ظل الأمر محصورا ضمن إطار محدود و لم يترك ذيولا...

لم تكن النباطيه وحدها هي المكان البعيد الوحيد الذي نقصده على ظهور الخيل في أسفارنا، فعدا عما يجاورنا من قرى كان أبعد ما نقصده هو صور و جديده مرجعيون. و تكلمت فيما تقدم عن سفرنا بين صور و شقرا.

أما جديده مرجعيون فقد كنا نقصدها في حالتين: إحداهما أنه بعد ما تم شق الطرق الموصلة بين الجديده فبانياس فالقنيطره التي كانت الطريق تصلها بدمشق، فاننا صرنا أحيانا نختار في الذهاب إلى دمشق و المجيء منها طريق الجديده فالقنيطره آخذين السيارات من الجديده حتى القنيطر ثم منتقلين إلى سيارات أخرى تنقلنا من القنيطره إلى دمشق.

و مر فيما تقدم أننا كنا من قبل نركب الدواب حتى القنيطره، و منها نأخذ العربات المجروره بالخيل أولاً، ثم السيارات بعد ذلك. و في غير أسفارنا إلى دمشق كنا نقصد الجديده لأن شقرا كانت في فتره طويله تتبعها إداريا، فكان لا بد لنا من الذهاب إليها أحيانا لمتابعه بعض المهام فتمضى بنا الخيل منحدره في عقبه السكيكه، فوادى السلوقي، ثم منحرفه إلى اليمين في الطريق المؤدى إلى (مركبا) مارين بما يسمى (قدام مشعرون)، ماضين صعدا حتى نصل إلى (مركبا) فنمر في طرف البلده دون أن نخرج عليها. ثم نوغل في السير مضيا إلى بلده (عديسه). و هنا يختلف الأمر.

فاما أن يكون خروجنا من شقرا مبكرين في الصباح، و معنى ذلك أننا سنصل الجديده في مرحله واحده دون التعرّيج على (عديسه)، و إما أن نكون قد تعمدنا الخروج من شقرا عصرا أو أصيلا، و معنى ذلك أننا مصممون على أن نقسم الطريق إلى مرحلتين، تكون إحداهما عديسه، و في هذه الحال فان المنزل الكريم الذي سنحل به هو منزل السيد طعان خليل.

و منزل السيد طعان خليل يقوم على الجاده و كان الشاعر إنما عناه بقوله:

نصبوا بمدرجه الطريق قبابهم يتسابقون على قرى الضيفان

فما هو أن نقبل على المنزل حتى يتلقانا السيد طعان بقامته المديده و وجهه المشرق و ترحيبه الصميمي.

كان السيد طعان يمثل في (عديسه) الصوره التي رسمها العرب في شعرهم و نثرهم للعربي الجواد المضياف الذي يرى إكرام الضيف أجل المزايا. و ما قرأت بيتا من الشعر العربي في الضيافه و أربابها إلا و تمثل أمامي السيد طعان و بيته و أخلاقه.

إنني أحسه مثلا و أنا أقرأ:

بشاشه وجه المرء خير من القرى فكيف بمن ياتي بها و هو ضاحك

فالبشاشه أول ما كان يطالعك به السيد طعان، البشاشه التي تشعرك بمقدار السرور الذي أدخلته عليه و أنت تنزل ضيفا عليه، البشاشه المنبعثه من القلب صورا على الوجه.

ثم بعد ذلك: الذكاء الفطري و الحديث العذب و الخلق الرضى و الود الصافي. كان بيت السيد طعان في (عديسه) ملتقى لضروب شتى من الناس، قد لا يربط بينهم إلا لقاءهم على قصد ذاك البيت في غدوهم و رواحهم، و لطالما التقى فيه على غير

موعد الخصوم المتنافرون، و الأضداد المتنافسون، و الأعداء المتزاحمون.

و الذين لا يجمعهم مكان، و لا يظلمهم سقف واحد، كان المكان الذى يجمعهم، و السقف الواحد الذى يظلمهم هو مكان السيد طعان، و سقف غرف بيت السيد طعان...

فلطالما تشاكس نافذان فى قريه، أو غير نافذين، ثم مضيا إلى (الجديده) يشكو أحدهما الآخر، أو ليستعدى كل منهما السلطه على مشاكسه، ثم إذا بهما يلتقيان مساء ذاهبين أو آئبين على مائده السيد طعان و على ما هيا لهما من أرائك، و بسط لهما من حشايا و وسائل.

كل هذا و السيد طعان رقيق الحال قليل المال...

لقد مضى السيد طعان و خلت منه (عديسه)، و قبل أن يمضى السيد طعان و قبل أن تخلو منه عديسه خلا الطريق من الخيل، و انقضى عهد التنقل على ظهورها، فصرنا نمر بعديسه فى السياره، و لم يعد من حاجه للضيافه، و لا من ضروره للمبيت عند السيد طعان، و لكننى ظللت طول حياه السيد طعان و مروى بعديسه ألزم سائق السياره بالوقوف على باب المنزل الذى طالما وقفنا عليه مجهدين و حللناه متعبين، فكان لنا ملاذا من الجهد، و مراحا من التعب. كنت ألزم سائق السياره بالوقوف على بابه ثم ألج المنزل الكريم محييا صاحبه العزيز جالسا إليه بعض الوقت، فلا يفوتنى أن أحس ملامح المراره على قسماط وجهه، لأن الضيوف اليوم غيرهم بالأمس، لأن كوبا من الشاى أو رشفه من القهوة تكفى لقراهم...

البقاء فى شقرا

كان استمرار الثوره السوريه سنتين و استمرار وقوع المعارك فى قلب دمشق سببا لاستمرار والدى و العائله فى الإقامة فى شقرا، و بعد أن مضى ما يقرب من سنه على قيام الثوره، و بدا أنها ستطول إلى مدى لا يعلمه إلا الله، لم يصبر والدى على البعد عن مكتبته، و هو الذى اعتاد الجلوس إليها ليلا نهارا، لا سيما و قد كانت لديه مخططات لتدوين بعض مؤلفاته، و أهمها فى ذلك الحين كتابه (كشف الارتباب)، لذلك أرسل إلى دمشق يطلب أن يرسلوا إليه إلى شقرا مكتبته كلها، فشخت المكتبه من دمشق إلى بيروت بالقطار، و من بيروت إلى صور بالسياره، و من صور إلى شقرا على ظهور الجمال.

و كان وصول المكتبه إلى شقرا باعثا على استقرار الوالد فيها، فانتهدت الثوره خلال سنتين، فلم يفكر بالعوده إلى دمشق، فما دامت كتبه عنده، و ما دام مطمئنا إلى سير مشاريعه فى دمشق سيرا مطردا بما كان قد أعد لها من جمعيات تشرف عليها، فلم يكن له باعث قوى على ترك شقرا.

و هكذا توالى علينا الأيام فى شقرا، و استفادتى الثقافيه الوحيده فيها هى ما كنت أتلغاه على والدى من دروس اللغه العربيه، و دروس الفقه الإسلامى، و كان المستقبل أمامى مجهولا، بل قاتما، إذ لم يكن لدى ما أتجهز به لهذا المستقبل، و كنت أتوق لترك شقرا باى وسيله، و لم تكن لى أىه وسيله.

و إذا بي أتلقى دون سابق طلب أو رغبة قرارا بتعييني مساعدا قضائيا لمحكمة النباطيه الشرعيه، و ذلك أن أحد النافذين كان قد زارنا في شقرا و عرف تضجری من الإقامة فيها على ذلك الشكل، فاستصدر مرسوما بتعييني في تلك الوظيفه، ففوجئت بذلك، و لم تكن هذه الوظيفه لتحقق شيئا مما أبتغيه في الحياه، بل كانت تبدو و كأنها قد حددت مصيرى بما لا يمكن أن أرتضيه لقبال أيامى.

و قد كانت لى مطامح ثقافيه بعيده فان طول جلوسى إلى جانب والدى سواء فى مكتبته، و رؤيته عاكفا ليلا نهارا على القلم و الورق و الكتاب، و انتشار كتبه فى أنحاء العالم الإسلامى، كل ذلك ركز فى نفسى الطموح الثقافى وحده، و كان أكثر ما يستهوينى الاطلاع [الاطلاع] على التاريخ، و أسس هذا الاستهواء فى نفسى شيئا: قراءه ما قرأته فى مكتبته والدى، ثم الدروس التى كان يلقيها علينا أستاذ التاريخ فى المدارس الابتدائيه فى المدرسه العلويه (أديب التقى) فقد كان إلى جانب إدارته للمدرسه يتولى فيها درس التاريخ و درس الإنشاء - كما تقدم - و كان هو نفسه مؤلفا فى التاريخ المدرسى، مشبعا بالحس التاريخى العميق، بارعا فى إلقائه و ترسيخه فى الذهن، فكان لهذين العاملين الأثر الكبير فى ميولى التاريخيه.

و عند ما انتميت بعد ذلك إلى الجامعه السوريه، لم يكن لى بد من الانتماء إلى معهد الحقوق، لأنه كان هو وحده الموجود - عدا معهد الطب و الصيدله - و لم يكن فى الجامعه معهد للآداب و التاريخ، و لو كان ذلك موجودا لانتميت حتما إلى معهد التاريخ و لما درست الحقوق.

التردد فى قبول الوظيفه

ثم القبول

عند ما فوجئت بقرار تعيينى مساعدا قضائيا لمحكمة النباطيه الشرعيه، صممت لأول وهله على الرفض تصورا منى أن هذه الوظيفه قد حددت مصيرى غير المرضى منى، ثم لم ألبث أن تارجحت بين القبول و الرفض، ذاك أن مجرد تصور الخروج من شقرا و من حياه الضجر و القلق التى أعيشها فيها كان كافيا لرجوعى عن الرفض و ميلى إلى القبول. ثم عاد التردد استقرارا على القبول، مقتنعا أن هذه الوظيفه لن تسد أمامى باب المستقبل، بل يمكن أن أجعل منها مفتاح ذلك المستقبل، و هذا ما كان.

و من هنا أستطيع أن أقول أن تلك الوظيفه الصغيره ذات الراتب القليل القليل، و ذات المركز الاجتماعى الهزيل، و التى كنت أحجل بها أمام المعارف و الأصحاب فاتوارى منهم. إن تلك الوظيفه هى التى أوصلتنى إلى ما وصلت إليه، و هى التى حققت لى المطمح الثقافى الكبير فى إصدار (دائره المعارف الإسلاميه الشيعيه) و (الموسوعه الإسلاميه)، و التحقيقات التاريخيه التى شفيت بها الغليل من مزورى التاريخ و العابثين به.

فلو لم أخرج تلك السنه من شقرا، ثم أسعى لمتابعه الدراسه الثانويه، ثم أؤدى امتحان الجامعه و أدخلها - كما سيأتى -، لما علم غير الله أى مصير سيبى كان يمكن أن أصير إليه. ففى السنه التاليه لدخولى الجامعه ألغى امتحان الجامعه، و صار على كل طالب لدخولها أن يحمل شهاده القسم الثانى من البكالوريا، و هو ما كان من المستحيل أن أحققه.

كان قاضى المحكمه الشيخ محمد رضا الزين، و هو إنسان دمث الأخلاق طيب الذات لطيف المعشر، و كان لنا من قبل صديقا وفيما مخلصا، فلم يكن من صعوبه فى العمل معه، و كان الراتب خمسا و عشرين ليره و رقيه، و هو راتب زهيد لا يسد حتى الحاجات الضروريه، لذلك كان على أن أتكيف مع هذا الراتب، مصمما على عدم الاستمرار فى عملى إلا بمقدار ما أجد سيلا للانطلاق فى الميدان الذى أرغب فيه، و كان هذا الميدان محصورا فى متابعه الدراسه الثانويه للالتحاق بالجامعه. و لم يكن ذلك بالأمر السهل، بل كان يبدو أن دونه خرط القتاد - كما يقول الأقدمون - إذ كان قد مضى على إنهاء دراستى الابتدائيه سنوات انقطعت فيها عن متابعه الدراسه، و لو أننى واصلتها لكنت الآن فى نهايه الدراسه الثانويه، فكيف لى أن أستدرك ما فاتنى، و هل من المعقول فى هذه السن أن أبدأ الدراسه الثانويه فى الصفوف مع الصغار؟!.

ثم أن هناك مشكله كبرى كانت تبدو مستحيله الحل، هى ذات شقين: الأول و هو الأخطر، أن اللغه الفرنسيه صارت أساسا فى نيل شهاده الدراسه الثانويه (البكالوريا)، و ليست اللغه وحدها هى المفروضه بل أدبها أيضا. و كانت كل معرفتى باللغه الفرنسيه هو القليل الذى تلقيناه فى الدراسه الابتدائيه، فكيف أنجح فى نيل الشهاده الثانويه و أنا على هذا الجهل باللغه الفرنسيه، و كيف يتسنى لى دراسه اللغه و آدابها فى فتره وجيزه، و هب أن مدرسه قبلتنى فهل من المعقول أن أستطيع متابعه الدراسه و النجاح فى النهايه؟.

و الشق الثانى هو شق طريف كل الطرافه، و هو أننى لست ذا ذهن رياضى بحيث أنه كان يشق على جمع عددين أو ضربهما أو طرحهما، فإذا كان من الممكن مثلا أن أجد فى دراسه الدروس الأخرى، و هو ما كنت مستعدا له كل الاستعداد، و أن أنال فيها أعلى الدرجات، فلم يكن ذلك ممكنا فى دراسه الحساب و الجبر، لأن هذين الدرسين لا يجدى فيهما الجد، و لا يفيد الانكباب ليلا- نهارا على مطالعتهما، لأنهما شىء لا يخضع للمطالعه و المتابعه، بل للقابليه و الموهبه، و قابليتى و موهبتى فيهما عدم فى عدم!..

و لكن لا بد من تحصيل الشهاده الثانويه و دخول الجامعه [الجامعه]!. فلنعلق الآمال على المجهول و لتتكلم على الله لعله يجد لنا مخرجا.

و الواقع أن كل شىء كان ينفى وجود هذا المخرج، و أن التفكير فيه كان ضربا من الأحلام التى لا يمكن أن يعتمد عليها الواقعيون العمليون!..

و مضت الأيام فى المحكمه الشرعيه رتيبه، و كان العمل فيها قليلا، و الدعاوى لا تشغل إلا حيزا ضيقا من الوقت، و كنت أعمل أنا لا على أساس الاستمرار، بل على أساس أنها أيام معدوده لا بد من تمضيتهما قبل الوصول إلى الطريق المنشود.

لذلك كان غريبا كل الغرابه عند الناس أن ينصرف موظف فى حكومه نخضع للانتداب الفرنسى، أن ينصرف إلى أعمال تتعارض مع هذا الانتداب و تقاومه، فقد استطعنا تكتيل فريق من تلاميذ البلده الذين كانوا يواصلون دراساتهم الثانويه فى بيروت، و كانوا كلهم تلاميذ مدرسه واحده

هي (الكلية الإسلامية)، و كانوا يحضرون أيام العطل إلى النباطيه، فالتقى بهم و ننظم سهرات و لقاءات كان الحديث فيها لا يتعدى الحديث الوطني الحماسي، و لم يلبث الصيف أن جاء و انقطعوا عن الذهاب إلى بيروت، و عادت اللقاءات يومية، و عاد الحديث الوطني أكثر تشعبا و تواسلا، و قد كنا نخرج إلى ظاهر النباطيه، فنشد الأناشيد الحماسيه الثوريه التي توري الهمم و تحفز العزائم. ثم رفعنا علم الاستقلال العربي السوري المربع الألوان ذا النجمه البيضاء وسط لونه الأحمر، و هو العلم الذي كان من قبل علم الثورة العربيه، ثم أضيف إليه عند إعلان استقلال سوريا بملكيه الملك فيصل بن الحسين، نجمه سباعيه، ثم طوى بعد قضاء الفرنسيين على الاستقلال السوري و احتلالهم البلاد، و أصبح رفعه جريمه من الجرائم السياسيه الكبرى.

اقترحت أن نرفع هذا العلم في اجتماعاتنا لا- سيما في ظاهر البلد، فجمع أحد الرفاق ألوانه و شده إلى رمح خشبي طويل، و أحضره إلينا ملفوفا على رمحه، فاحتفلنا بنشره احتفالا- حماسيا صاخبا، و كان قد كثر عددنا، و لم يبق محصورا في التلاميذ و حدهم، بل انضم إلينا بعض الفتيان و اليافعين و شاركونا في اجتماعاتنا و ساهموا في لقاءاتنا.

و هنا لا- بد من الإشارة إلى أمر هام، و هو أن جميع رفاقنا التلاميذ كانوا تلاميذ مدرسه وطنيه واحده، فكانوا متالفين لا تفرق بينهم المناهج المدرسيه المختلفه التوجيه، و كان من أبناء البلده تلميذ واحد يتلقى دراسته في الجامعه الأمريكيه، و لما حاولنا ضمه إلى صفنا لم يستجب إلى ذلك، و بقي وحده منفردا بعيدا عن مجموعته تلاميذ بلده، فأدركت عند ذلك سبب تشعب الاتجاهات و الميول في لبنان، فان انقسام المدارس بين توجيه فرنسي أو إنكليزي أو أمريكي، و بين يسوعي و علماني و إسلامي و كاثوليكي و بروتستنتي كان يقسم التلاميذ و يسير بهم في اتجاهات متباينه متعارضه، في حين أن بلاد الدنيا كلها تسيطر الدوله فيها على التعليم في منهج واحد و توجيه واحد، فيتخرج الرجال و طنيين أولا ذوي ميول واحده، و إذا اختلفوا فإنما يختلفون في كيفيه تنفيذ تلك الميول.

الجهر بعد الإخفات

ظلت اجتماعاتنا و لقاءاتنا في أوائل الصيف محصوره فينا، ثم رأينا بعد أن أصبحنا كتله ذات عدد لا بأس به، أن نجهر بين الناس بما لا- زلنا نخفت به بينهم، و لا- نجهر بها إلا بيننا، و فكرنا في إيجاد المناسبه، فإذا بها تأتينا على رجليها، فقد كان بيننا و بين ذكرى المولد النبوي بضعه أيم فرأينا أن نعلن الاحتفال بمرور هذه الذكرى احتفالا جماهيريا شاملا، فنظمنا أنفسنا في ليله المولد و حشدنا فيها كل من نستطيع حشده من الرفاق و من غيرهم فكنا جمهورا لا- بأس به، و بدأنا مسيرتنا في الليل فانضم إلينا الفضوليون و من راقتهم هذه المسيره، فإذا بنا جمعا كثيفا يخترق شارع النباطيه العام من أول البلده هازجا منشدا متحمسا، و كنا كلما تقدمنا في السير ازداد عددنا حتى اخترقنا البلده و انتهى بنا المسير إلى الطرف الآخر من البلده، ثم عدنا راجعين إلى الساحه العامه حيث تفرقنا متواعدين على اللقاء عصر الغد في الحسينيه في حفله خطايه تمجد هذه الذكرى المجيده، و كنا قبل ذلك قد وزعنا الدعوات لحضور هذه الحفله على الناس.

و قد فكرنا أول الأمر بان نرفع أمام مسيرتنا علم الاستقلال العربي السوري، ثم عدلنا عن هذه الفكره لأنها ستلفت الأنظار إلى غاياتنا، و تنبه عملاء الانتداب الفرنسي إلى أهدافنا، و قررنا أن نؤخر رفعه إلى مناسبه أخرى.

و في عصر اليوم الثاني احتشد الناس في الحسينيه حتى غصت بهم على رجبها، و دعونا إلى الخطابه في الحفله الشيخ أحمد

رضا، و تكلم بعض الشبان، و ختمت أنا الحفله بخطاب حماسى عنيف، فكانت المسيره الليله و الحفله النهاريه شيئا جديدا على البلده لم تالفه فى مرور ذكرى المولد النبوى. و كان من أغرب ما رآه الناس أن موظفا حكوميا يقف هذا الموقف، و لا يخشى على وظيفته غير عالمين أن هذا الموظف يعد الأيام لينهى حياه الوظيفه و ينطلق فى طريقه الجديد الذى لم تتضح له معالمه بعد.

ثم رأينا أن قد آن لنا أن نرفع علم الاستقلال رفعا علنيا، فقد عرفنا أن رياض الصلح كان يزور قريه له من قرى النباطيه هى قريه الشرقيه، و أنه سيمر عائدا فى النباطيه، و كان رياض ممن يعملون يوم ذاك فى الحقل الوطنى، فقررنا أن نشعره بوجودنا، فخرجنا فى أربع سيارات رافعين العلم الاستقلالى على ساريتة العاليه، و انتظرنا رياض فى ظاهر النباطيه، فلما وصل إلينا أوقفنا سيارته فنزل منها و كان يرافقه محمد جابر و هو من المختصين به من رجالات النباطيه، فخطبت أمامه خطابا وطنيا حماسيا، ثم شيعناه بساراتنا [بسياراتنا] رافعين فى السياره الأولى علم الاستقلال يخفق أمام عيون القرويين الذاهبين و الآئيين و المقيمين حتى قريه حبوش. و منها عدنا و معنا محمد جابر الذى لم يخف عنا ذعر رياض من رفع علم الاستقلال، و قال أن رياضا قال له: أن رفع العلم مخاطره، فاخرقنا بسياراتنا شارع النباطيه العام منشدين الأناشيد الحماسيه و العلم فى المقدمه يتماوج عاليا شامخا، و الناس تتجمع على جوانب الشارع لترى ما هذا الذى يحدث.

لم يمر هذا الحادث مرورا سهلا، بل كان له ما بعده، فقد كان وقوفنا فى ظاهر النباطيه على مفترق طريق يؤدى إلى بلده نافذ قوى، و كان وقوفنا

لا يبعد كثيرا عن قريه النافذ الذي كان ككل النافذين فى ذلك الوقت يستند نفوذہ على صداقته للسلطه و مماشاته لها، و كان يعتبر أكبر النافذين و أقربهم إلى السلطه و أوسعهم اتصالا بالناس، و كان على عداوه شخصيه متاصله لرياض الصلح ترجع إلى أيام الحرب العالميه الأولى، فرأى فى فعلتنا تحديا عارما له، أولا لشده عداوته لرياض، ثم لما فى فعلتنا من استهتار بالسلطه و مجاهره فى عداؤها، و هو ما كان هو ضامنا عكسه، فكنا فيما فعلنا دالين على تقلص تأثيره فى الناس، و أن تقرب السلطه له و لأمثاله ليس معناه السيطرة على الشعب و التكفل بعدم رفع صوته فى وجه السلطه.

فقام النافذ و لم يقعد و هاج و ماج و تهدد و توعد، و أرسل إلى أنه يعتبرنى مسئولا عما حصل، و أن أقل ما سينالنى هو الاقتلاع من الوظيفه، و أن تحقيقا سيجرى مع المشاركين، و أن الاعتقال و السجن سيكون جزاءهم الأكيد.

و لكنه لم يستطع أن يفعل شيئا فقد جاءه من ينصحہ بان النباطيه تعتبر من معاقله، و أن جمهورها من أنصاره و فيهم من هم من خلص أصدقائه و أعوانه، و أنه ليس بين هؤلاء أحد إلا و له ابن أو أخ قد اشترك فى مظاهره التحدى هذه، و أنه إنما سيؤذى جماعته إن حرض السلطه على أولادهم و إخوتهم، و بذلك سينقلبون عليه و يؤذى نفسه. أما فيما يتعلق بى فقد أخبروه بان إقاتلى ستثير عليه من تضره إثارتهم - و لم يكن يعلم أنى أنا نفسى ساقيل نفسى بعد أسابيع -، لذلك اضطر إلى السكوت على مضض و كظم غيظه و نقمته، و كل ما فعله أنه أنب المنتمين إليه على ما فعله أبناؤهم و إخوتهم تأنيا عنيفا.

بصيص من النور

أخذت شهور الصيف تضى و أيامه تنقلص، و بدأ العام الدراسى يدنو و أنا لم أهتد بعد إلى الطريق الذى يمكن معه الحصول على شهاده الدراسه الثانويه (البكالوريا)، و كان شيخ اللغه الفرنسيه و الجبر يترأى لى رهيبا حائلا بينى و بين سلوك أى طريق، فقررت الذهاب إلى دمشق، لتلمس ما يمكن أن يزحزح الياس الذى يكاد يسيطر على، فإذا بى أكتشف بصيصا من النور ما لبث أن أصبح شعاعا مضيئا ينير بعض جوانب الطريق.

ذلك أنى عرفت أن الجامعه السوريه لا- تشترط فى غير السوريين الذين يريدون الانتماء إليها أن يكونوا حائزين على شهاده القسم الثانى من (البكالوريا) الحكوميه، بل يكفى أن يكون طالب الدخول حاملا شهاده إنهاء الدراسه الثانويه من أيه مدرسه ثانويه، و أنه فى حال حصوله على هذه الشهاده يمكنه الاشتراك فى امتحان عام تجريه الجامعه لحاملى هذه الشهاده، و هو امتحان لا يختلف فى مواد عن مواد القسم الثانى من (البكالوريا) الحكوميه إلا فى اللغه الفرنسيه حيث تخلو مواد هذا الامتحان من ماده الترجمة من اللغه العربيه إلى اللغه الفرنسيه، و من الفرنسيه إلى العربيه. و أن مدرسه أهليه فى دمشق قد خصصت صفا من صفوفها الثانويه أسمته (صف الجامعه) يقصده غير حاملى الجنسيه السوريه، و حاملو الجنسيه السوريه من الحائزين على شهاده القسم الأول من (البكالوريا) الحكوميه، إذ أن الجامعه تعاملهم معاملة غير الحاملين للجنسيه السوريه فتقبل اشتراكهم فى امتحانها دون حصولهم على القسم الثانى من (البكالوريا) الحكوميه. و هكذا كثر المنتمون إلى (صف الجامعه)، و كان معتبرا أبناء المنطقه التى أسموها منطقہ (العلويين) من غير حاملى الجنسيه السوريه، إذ كانت لهم حكومه مستقله عن الحكومه السورى حكما حكم (لبنان). و من هنا احتشد عدد غفير من التلاميذ فى هذا الصف كان فيهم عراقيون أيضا.

و من حسنات هذا (الصف) أنه يقبل كل طالب انتماء اليه، دون أن يثبت أنه قد تدرج فى دراسته الثانويه من صف إلى صف

حتى وصل إلى الصف النهائي، فكل طالب انتماء يقبل، و هو في النهاية مسئول عن نفسه في الامتحان الذي تقيمه هذه المدرسه في نهاية العام الدراسي، و الذي تمنح الناجحين فيه شهاده إنهاء الدراسه الثانويه.

و قد أغرى هذا التصرف غير الأكفاء، و لكن هؤلاء بدءوا يتسللون منذ الأسابيع الأولى الواحد بعد الآخر، متخليين عن الدراسه، مقتنعين أن الأمر ليس بالسهوله التي تخيلوها.

و قد كان عمل المدرسه عملا تجاريا بحتا تقصد به اجتناء الربح فقط حيث كان يحتشد في قسمها الداخلى العدد الكثير من التلاميذ الذين يعودون عليها بأموال أى أموال. و لكن هذا القصد التجارى قد أفاد الكثيرين من الأكفاء الذين لم تقدر لهم الدراسه الثانويه المنتظمه، فأمكنهم اختصارها بالانتماء إلى هذا الصف الذى كانت مواد الدراسه الثانويه في جميع مراحلها.

لقد كان هذا الحل بصيصا من النور - كما قلت - فإذا أمكن الانتماء إلى (صف الجامعه) و متابعه الدراسه فيه، فكيف تحل عقده اللغه الفرنسيه و عقده (الجبر)؟ صحيح أن المطلوب فيه من اللغه الفرنسيه هو أخف بكثير من المطلوب فى امتحان (البكالوريا) الحكوميه، و لكن الصحيح أيضا أن هذا الأخف هو الأثقل على من لا يعرف من اللغه الفرنسيه إلا القليل القليل، بل أقل من القليل. و يكفي أن يكون فيه أداء امتحان فى الأدب الفرنسى و تاريخه. و لكننى اتكلت على الله و انتميت إلى (صف الجامعه) تاركا للأقدار أن تجد الحلول للعقدتين اللتين تبدوان و كان لا حل لهما.

دراسه ثانويه

(1) و كان من المصادفات الحسنه أن فوجئنا بان أستاذ اللغه العربيه و آدابها هو الشاعر خليل مردم، و كنت أعرف عن شعره الشىء الكثير، و لما التقيته فى الصف و تابعت دروسه الأولى بدا لى رجلا على شىء كثير من طيب الذات و عذوبه الحديث و صفاء النفس فضلا عن الكفاءه، مما يجعله من أقرب الناس إلى القلب و أحبهم إلى طالب العلم، و لقد أفادنا فى الدروس القليله التى حضرناها عليه، ما لو استمر لكانت فائدته كبيره.

و لكنه تخلى عن تدريسننا بعد أقل من شهر من ابتدائه به، و ذلك أن عددنا كان كبيرا جدا، مضافا إلينا طلاب القسم الثانى من البكالوريا، الذين كانوا يتابعون نفس الدرس، و كان يفرض علينا كتابه مواضيع لا بد له من قراءتها و تصحيحها، و كان ذلك فوق طاقته، و فوق طاقه أى أستاذ لكثره عدد التلاميذ، لذلك اعتذر عن تدريس هذه المجموعه الكثيره الأفراد، غير المتجانسه و المختلفه الكفاءات. و اقتصر على تدريس تلاميذ

ص: ٢٩٢

صف القسم الثاني من البكالوريا. و بذلك حررنا من متابعه دروس خليل مردم فحررنا من فوائد كثيره.

و لقد نلت من تشجيعه فى تلك الفتره القليله ما أذكره دائما، ذلك أنه فى أول درس (إنشاء) طلب إلينا أن نكتب عن حياتنا الأدبيه و تفكيرنا فيها و ميولنا، فكتب فيمن كتب، فجاء فى الدرس الثانى و سال من منكم حسن الأمين؟. فوقف و إذا ما كتبتة فى يده، فقال: إن هذا أحسن ما كتب فى هذا الموضوع و إنى أهنتك عليه...

و الواقع أننى لم أغترر بهذا الكلام و لم أزه به، فليس معنى أن ما كتبت كان أحسن ما كتب التلاميذ، أنه شىء جيد، بل ربما كان أقل رداءه مما كتبه الآخرون...

و أذكر أن ما كتبتة كان مطولا بلغ عده صفحات، و إنى ختمته بالاعراب عن سرورى بان يكون أستاذ الأدب العربى عندنا هو شاعر الشام و أديب الفيحاء "الخليل" ثم تمثلت بقول الشاعر:

كانت مسامره الركبان تخبرنا عن جعفر بن فلاح أطيّب الخبر

حتى التقينا فلا و الله ما سمعت أذنى بأحسن مما قد رأى بصرى

و فى الحقيقه ليس هذا الثناء عليه هو الذى حمله على مقابله الثناء بالثناء، و لا أنا كنت متملقا له فيما كتبت، فقد كان ما كتبتة معبرا عن حقيقه شعورى تجاهه.

و لقد جاءنا بعد خليل مردم من لم نحمده و لا استفدنا منه، و كنت أنا معتمدا على نفسى فى دراسه الأدب العربى.

دروس الجبر

و جاء أول درس فى الجبر، و كان أستاذ الدرس معتادا على وجود الجهلاء فى الصف، فأول شىء قاله أن سال عما إذا كان فينا من لم يدرس الجبر قبل الآن، فخرجت من الاعتراف بذلك و ظلمت صامتا، و لا شك أنه كان هناك غيرى ممن خجلوا فصمتوا، و لكنه كان هناك واحد لم يجبن عن الاعتراف بالحقيقه، فرفع يده مقرا بجهله، فكان بذلك على الأستاذ أن يبدأ بتدريس الجبر من أوله. و لكن سواء أبدأه من أوله أم آخره، فلم يكن ذلك شيئا مفهوما لدى و كان على البحث عن حل، فوجدته بتناول درس خصوصى خارج المدرسه، و كنت لا أستطيع احتمال مصاريف جديده تقتضيها أجره المدرس، و لكن كان لى صديق حميم هو من أهل هذا الفن و كان يسره أداء أى شىء يعيننى على النجاح فى مهمتى فتطوع باعطائى دروس الجبر بلا أجر، فعكفت عليها عكوف النهم إليها و تابعتها متابعه الظمان الراكض وراء الماء فإذا بى بعد حين أحل كل معادلاتها، مكتفيا من ذلك بوضع الحل دون الدخول فى التفاصيل من ضرب و طرح و قسمه، ان ذلك مما لا أقوى عليه. و هكذا اطمأنت إلى (الجبر). و لكن لم تحل ساعه الامتحان بعد ذلك و دخلنا القاعه المعده له فى الجامعه، حتى تملكنتى الرهبه المطبقه، فلم أستطع إقناع نفسى بانى يمكن أن أحل معادلات الجبر، و ضاعت منى كل ثقه بالنفس فى هذا الأمر، و عدت إلى حقيقتى التى تعجز عن أى عمل حسابى مهما خف أمره.

فى هذه الزعزعه النفسيه و التضعضع الفكرى جلست على المقعد أنتظر السؤال المطروح، و قد كان فى الحقيقه من أهون ما

كنت قد حللته أيام الدراسة الخاصه، و لكن شتان بين تلك الأيام المفعمه بروح الصمود و الأمل، و بين هذا اليوم الذى واجهت فيه الحقيقه الماثله: حقيقه حل المسأله الجبريه، و التعامل مع الأرقام فى امتحان حكومى يهيبى صاحبه لدخول الجامعه!..

لقد انهار كل شىء و لم يبق إلا ذلك الفتى المشلول الفكر أمام الأعداد الحسابيه!. و لم يكن فى مقدورى أن أخط كلمه أو أن أدون رقما و بقيت هامدا يتمثل لى (الصفير) الذى سيوشح و رقتى الامتحانيه البيضاء التى لن يمسهها اسوداد منقذ...

و فجاه امتدت يد حانيه، كانت تعلم مشاكلى مع الأرقام، و عجزى عن استيعاب أى شان من شئونها، و تعرف أنى لا أتأخر فى هذا المضممار كسلا و قلّه درس، بل فقدانا للموهبه ليس إلا، و كان يعز عليها أن أضيع بسبب عله لا يد لى فى تجنبها، و كانت تحسن الظن فيما يمكن أن يكون منى فى يوم من الأيام.

كانت هذه اليد الحانيه قد أعدت نفسها لمثل هذه الساعه الرهيبه التى أعيشها و حسبت حسابها، فكانت متهيئه للطارئ الصاعق الذى يوشك أن ينقض على، فلم تلبث أن تدخلت فى اللحظه المناسبه، تدخلت إذا كان معدودا فى النظام غير مشروع، فهو فى المدى الإنسانى الرائع مشروع أى مشروع...

و هكذا انطوى شبح (الجبر)، و خرجت من قاعه الامتحان و أنا لا أكاد أصدق أنى قد نجوت من الهول.

اللغه الفرنسيه

قلت أننى لجات فى أمر (الجبر) إلى مدرس خاص، و كان قد بقى أمر اللغه الفرنسيه، و إذا كان من المعقول أن يدرس الجبر فى فتره شهور، فهل من المعقول أن تتقن هذه اللغه، ثم تتقن آدابها و تاريخ شعرائها و مفكرها فى مثل تلك الشهور؟ لم يكن ذلك معقولا أبدا، و حرت فى الوصول إلى المخرج، و لكن تبين أنى لست وحدى الذى أعانى من هذا الهم المقيم المقعد، و أنه قد سبقنى إلى معاناته سابقون و يزامننى فى معاناته الآن آخرون...

و اهتدينا إلى الطريق الذى سلكه من تقدمنا، و هو أن هناك استاذا قديرا متخصصا فى هذا الأمر، فهو بعد ملخصات للشعراء الفرنسيين المطلوب أداء الامتحان فى حياتهم و أدبهم، و يتولى تدريس التلاميذ هذه الملخصات على أن يفهموا معانيها المترجمه إلى العربيه، ثم يفرض عليهم

استظهارها و إتقان إملائها، بعد أن يكون قد قسمها أقساما كل قسم لدرس واحد يتلو فيه التلميذ عليه ما استظهره فيقوم له ما يحتاج إلى التقويم، و يصحح ما يحتاج إلى التصحيح، فلا ياتي وقت دخول امتحان الجامعة حتى يكون التلميذ قد استظهر ذلك كله استظهارا متقنا، فإذا طرح السؤال و هو دائما عن شاعر من الشعراء صب التلميذ على ورقه الامتحان ما كان قد استظهره صبا متلاحقا دون توقف، فيوصله ذلك لا إلى التخلص من (الصفرة) فقط، بل إلى نيل قليل من الدرجات تكون كافيته بضمها إلى درجات ما يتقنه من الموضوعات الأخرى لانجاحه، و قد كنت أنا لا أطلب إلا التخلص من الصفرة، لأنني كنت واثقا بان ما سأناله من موضوع الأدب العربي و من موضوع التاريخ وحده كاف لضمان نجاحي، بشرط أن لا- أنال (صفرا) في موضوع من الموضوعات الأخرى، و لم يكن (الصفرة) متوقعا لي إلا في الجبر و الأدب الفرنسي، و بهذه الطريقة أنجو على الأقل من الصفرة في الأدب الفرنسي.

و تابعا الدرس على هذا النسق، و كنا أربعة، اثنان سوريان من مدينته حماه، و اثنان لبنانيان أحدهما أنا. و لما جاء وقت الامتحان الجامعي لم يكن له في نفسى شىء من الرهبة، و لا كنت مباليا أيه مبالاه، لأن الأمر هنا أمر جد و اجتهاد، لا أمر موهبه لا ينفع في فقدانها أى جد و أى اجتهاد. و لم يكن قد نقصنى شىء من الجد و الاجتهاد طوال العام.

و دخلت القاعة و جلست على المقعد لا أنتظر أيه مفاجاه، و لا أتوقع أيه نازله!

و لم يخطر لي أن الشاعر العربي كان قد قال: (و تقدرتون فتضحك الأقدار)، و هب أن هذا القول قد خطر في بالي فايه أقدار يمكن أن تضحك الآن من تقديري؟.

ليس هنا تقدير، بل هنا واقع راهن: لقد استظهرت كل ما يفيدني في الجواب على أى سؤال يمكن أن يطرح علينا الآن: سيطرح علينا سؤالان، علينا أن نختار الجواب على واحد منهما، و لن يعدو كل من السؤالين الطلب عن كتابه سيره واحد من الشعراء، و التعريف بشعره و أدبه و فكره، و هذا ما أتقنته كل الإتقان حافظا له عن ظهر قلب، و ما على عند طرح السؤال سوى أن أنطلق انطلاقا لا توقف فيه و لا تأمل يعيقه، و لا تفكر يببطه.

صحيح أن ما أستظهره ليس مطولا، و لكنه ليس موجزا إيجازا مخلا، فقد كثف لنا الأستاذ المادة تكثيفا يجعلنا على تخوم الاجاده...

أ تضحك الأقدار الآن و فى هذه الساعه؟ و لما ذا تضحك الأقدار؟. إنه الجد كل الجد، الجد الذى لا مجال معه للضحك، بل لا مجال معه حتى للبسمه الخفيفه!!.

بل أنا الآن الذى أضحك من الأقدار التى حالت بينى و بين إتقان اللغه الفرنسيه فتغلبت عليها بهذا الأسلوب اللطيف: أسلوب استظهار خلاصه للماده المطلوبه!.

كنت أجلس على المقعد غير مشغول الذهن بشىء يكدره، و إذا بالصاعقه تنقض على انقضاضها المروع المدمر. و إذا بي أسمع لاضحك الأقدار، بل قهقهتها الصاخه!. أ تضحك من الأقدار!.

ها هي الأقدار تواجهك الآن فاجرؤ على الضحك منها!.

لقد كان المتعارف في امتحانات الجامعة في الأدب الفرنسي أن يطرح اسم الشاعر المختار و يطلب إلى التلاميذ الكتابه عنه، و درسنا طوال العام على هذا الأساس و استظهرنا ما استظهرناه معتمدين على هذا العرف.

و لكن الأقدار كانت لنا بالمرصاد، فقد شاء المستشار الفرنسي لوزاره المعارف أن يطور امتحانات الجامعة في الأدب الفرنسي ابتداء من هذا العام، و ذلك بان يجعلها تدور لا على الادلاء بما يعرفه التلميذ عن الشاعر و شعره، بل على استنتاجات تحليليه فكريه، لا يقدر عليها إلا المتصلعون بالأدب الفرنسي، و أين أنا من ذلك؟! لقد ألقى السؤال الأول فلم أفهم منه شيئاً حتى و لا كلمه واحده، ثم ألقى السؤال الثاني ففهمت منه ثلاث كلمات يفهمها حتى أشباه الأميين:

لقد فهمت منه كلمه:(روسو) و كلمه (قولتير) و كلمه (فلسفه)!..

لقد كنت قبل اليوم لا أستوعب المدلول الحقيقي لكلمه: (أسقط في يده)، و لا أتفهم وضع من تطلق عليه. أما في هذه الساعه فانا الصوره الواضحه لمن أسقط في يده!...

وضعت كل الضياع و شلت الصدمه كل تفكيرى و بقيت لفته هامدا فوق المقعد همود القانطين، و لم ألبث أن توكلت على الله، و قلت في نفسى ما دام قد ورد في السؤال اسم (روسو) و اسم (قولتير) فلا شك أنه يتعلق بشيء منهما، فلأفرغ هنا كل ما اخترنته في صدرى عنهما، فلا بد أن تجيء جملته لها علاقه بالسؤال تنجيني من نيل الصفر، و هكذا كان فانطلق قلمي دون توقف يملأ الصفحات التى فى يدي كلما فرنسيا، الله وحده يعلم ما ذا سيقول عنه مصحح هذه الأوراق، أظنه سينسبني إلى الغباء حين يقارن بين السؤال و بين هذا الكلام الذى يشبه فى نظره الهديان!.

و لكن أظن فى الوقت نفسه أنه ستاخذه الشفقه على هذا الغبى الذى يهذى و يهذى فلا يجعل نصيبه منه (الصفر). على أنه من يدرى فربما كان قاسى القلب فيغيظه هذا الغباء و هذا الهديان الذين شغلا وقته دون طائل فينتقم ممن أغاظه فيجعل جزاءه: (الصفر)!..

و إذا كنا قد سلمنا للأقدار و اعترفنا بأنها تضحك منا حين نحسب أنها فى صميم الجدد، ثم يعن لها فتجد حين نحسب أنها فى صميم الضحك!.. فلنسلم الأمر لها تلعب بنا كيف تشاء.

و بدا أن الأقدار قد اكتفت بما ضحكت، فألانت قلب المصحح فلم يوش صفحاتنا السوداء بصفره الوضاء!...

و من طريف ما حدث أنه كان يجلس فى المقعد الذى وراء مقعدى أحد خريجي معهد (الفرير) فى بيروت و هم من هم فى اللغة الفرنسيه و آدابها فرآنى أعكف على الورق كتابه متصله دون توقف، فى حين أنه يقتضى للاجابه شيء من التبصر و التركيز و الأناه، فحسب أنى نابغه من النوابع فى الأدب الفرنسي لا-أحتاج إلى ما يحتاج إليه أمثاله من الرويه، بل أن كفاءتى العظيمة تجعلنى أنطلق هذا الانطلاق المتتابع، ثم زاده فى هذا الاعتقاد أنه رآنى أملاً ست صفحات كامله، فى حين أن الجواب لا يمكن أن يعدو

الثلاث الصفحات على أكثر تقدير. فشاقيه أن يتعرف على هذا النابغه فى الأدب الفرنسى و أن يسترشده فى شئونه فانتظرنى فى الخارج عند باب القاعه، فلما خرجت تلقانى و عرفنى بنفسه. ثم سالى: عن أى السؤالين كتبت فقلت: عن السؤال الثانى. فقال: أنه كتب عن نفس السؤال، و أنه لم يستطع أن يملأ أكثر من ثلاث صفحات فى حين ملأت أنا ست صفحات بسرعه فائقه!.

فقلت له: أنه سؤال مهم جدا يجب التوسع فى الاجابه عليه، فقال:

أنه بدأ يشكك بسلامه جوابه، ثم أراد أن يزداد إيضاحا و شرحا فتهربت منه و انطلقت مسرعا.

و عند ما نجحنا و دخلنا الجامعه فتشت عنه لا لأبلغه الحقيقه، فلم أره بين الناجحين، فعرفت أنه لم يكتب له النجاح و أنه فشل و لكن فى غير الأدب [الأدب] الفرنسى طبعا.

رفيقى يقبض على

و مضت الدراسه فى المدرسه الثانويه رتيه مع متابعه درسى الجبر و اللغه الفرنسيه خارجها. و مما حدث فى هذه الأثناء: عزمى على المشاركه العمليه فى نضال الانتداب الفرنسى، و كان سبيل ذلك المساهمه فى إعداد المظاهرات و تنظيمها ثم السير فى صفوفها تحريضا و توجيها، و نزلت إلى الميدان و جاءت أولى المناسبات، و صادف أن كانت فى شهر رمضان، فكان علينا اغتنام فرصه تجمع الناس ليلا فى المسجد الأموى، فخطبنا فيهم و هجناهم للخروج فى مظاهره صاحبه فاستجابوا، و كنت مع من كان فى طليعه المظاهره، و سرنا فى سوق الحميديه لنخرج منه إلى شارع النصر، و كانت هذه أول تجربه لى فى المظاهرات، لذلك كانت خبرتى فيها قليله، و لم أكن أعلم أن عيون الفرنسيين مبنوئه محكمه البث فى صفوف المتظاهرين تراقب المسئولين عن التحريض و التهيج حتى إذا تشتت المظاهره بعد اصطدامها بقوى السلطه انقضوا على المحرضين فقبضوا عليهم و ساقوهم إلى السجن فالمحاكمه.

و كان الذين سبقونا قد وقعوا فى هذه التجارب، لذلك كانوا يحكمون انتقالهم فى صفوف المتظاهرين فلا يلبثون فى مكان واحد سوى دقائق لا- تلفت النظر، و يظنون ينتقلون فهم طورا فى المقدمه و طورا فى الوسط و طورا فى المؤخره. تاره فى هذا الصف و تاره فى صف آخر و بذلك تضع آثارهم فلا- تتعرف عليهم عيون الجواسيس المنتشرين فى كل ناحيه من نواحي المظاهره.

و كنت من بين الأغرار الذين لا خبره لهم فى هذه الشئون، لذلك ثبت فى موقعى فى المقدمه مثيرا مهيجا، مؤلفا للشعارات، ثم ارتايت - و قد بلغت الحماسه أقصاها - أن نأخذ نحن الذين فى الصف الأول بايدى بعضنا البعض فنشكل سلسله متماسكه تثبت عند الاصطدام المترقب بعد الخروج من سوق الحميديه الضيق و الوصول إلى شارع النصر المتسع الذى يستطيع فيه الجنود أن يصولوا و يجولوا مهاجمين المتظاهرين.

و ظللت ممسكا بيد شاب كان يبدو على كثير من الحماسه و الاندفاع، و رحى أتشاور معه على تدبير الصمود عند اشتباكنا بالجنود، و لبثنا كذلك إلى أن خرجنا من سوق الحميديه، و كان الجنود ينتظروننا فى الشارع و بدأت المعركه، و ظللنا نتدافع إلى أن وصلنا إلى نهايه الشارع قريبا من محطه الحجاز، و هناك استطاعوا تفريقنا، و عدنا شراذم مشتته، و انطلقت وحدى، فإذا

بثلاثه يسرعون إلى، و يقول أحدهم: (هذا هو أبو البدله البيضاء)، و كنت أرتدى فى تلك الليله بزه ببيضاء. فانقضوا على و أمسكوا بى، فإذا أحدهم ذلك الشاب الذى كنت أمسك بيده طول الوقت و الذى كان يبدو متحمسا كل التحمس!.

و ساقونى مع من قبضوا عليهم إلى السجن حيث بقينا فيه ليله واحده، حولونا بعدها إلى المحكمه، و كان الذى ينظر فى هذه الأمور قضاه و طنيون، فكانوا يحكمون بتبرئه الموقوفين، بعد أن يوجهوا إليهم النصح بالكف عن هذه التصرفات.

فتنبه الفرنسيون لهذا الأمر، فاصدروا قانونا قاسيا سموه (قانون قمع الجرائم) يحاكم بموجه المتهمون أمام محاكم فرنسيه، و تقضى مواده بان كل من يرى موجودا فى مكان المظاهره حتى و إن لم يثبت أنه كان مشاركا فيها يجب أن يحكم عليه بالسجن، و لا يجوز أن يكون الحكم أقل من سبعة أشهر.

و لو كان هذا القانون موجودا يوم حوكمنا لكننا قضينا فى السجن سبعة أشهر على أقل تقدير.

و من ذلك اليوم صرت حريصا كل الحرص على التخفى بين المتظاهرين فلا يرى مكانى بارزا. و أذكر أننا بعد أن دخلنا معهد الحقوق، و حاول الفرنسيون فرض المعاهده التى عرفت بمعاهده (الشعبانى)، و كان لا بد من تهييج الشعب لمقاومتها. و كان مسكن المفوض السامى الفرنسى عند ما يكون فى دمشق بالصالحيه، كما كانت منازل عملاء الفرنسيين هناك، فصممنا - نحن بضعه طلاب فى معهد الحقوق - على وجوب تسيير مظاهره صاحبه تصل إلى منزل المفوض السامى نفسه و بيوت عملائه، و كان ذلك متعذرا إذا كان مكان انطلاق المظاهره من قلب المدينه، لأن المسافه بعيده بين مكان انطلاقها و بين هدفها، فيمكن تشتيتها قبل وصولها إلى الهدف، لذلك فكرنا بتشكيل مظاهره تنطلق من الصالحيه نفسها لتصل بسرعه إلى منزل المفوض السامى، و كان تشكيل مثل هذه المظاهره صعبا جدا، إن لم نقل أنه مستحيل، لعدم إمكان حشد جمع كثيف تتشكل منه المظاهره فى الصالحيه.

و بعد التفكير رأينا أن تكون المظاهره ليلا و أن تنطلق بعد صلاه العشاء من مسجد (الشيخ محبى الدين) حيث يكون المصلون فيه نواتها، ثم يتجمع عليهم الناس شيئا فشيئا خلال مسير المظاهره. فضلا عن أن هذا المكان بعيد عن تفكير السلطه بحدوث مظاهرات فيه، لذلك سيركبها انطلاق مظاهره منه كانت لا تظن أبدا أن ذلك ممكن الحدوث.

و انطلقنا إلى المسجد قبيل صلاه العشاء، و تقاسمنا الأدوار - و كنا خمس - فعهدنا إلى عبد القادر الميدانى أن يصعد فور انتهاء الصلاه إلى المنبر فيحرض المصلين، و كان سبب اختياره أنه كان ذا صوت رهيب، إذا أطلقه ينطلق كأنه الرعد المدوى. و تقاسمنا نحن الأربعة زوايا المسجد فاخذ كل واحد منا مكانه فى زاويه، فما أن تعالى صوت عبد القادر بالنداء حتى صحننا بأعلى أصواتنا من كل زاويه: الله أكبر، و كررنا الصيحه فنفذت إلى

قلوب المصلين فإذا بكل واحد منهم يصيح: الله أكبر، ثم خرجنا من المسجد بين المجتمعين فيه بين صياح: الله أكبر، و صياح بسقوط المعاهده، و مشينا فى الأنزقه التى كانت تضيق أحيانا و تتسع أحيانا، و كلما خطونا خطوه انضم إلينا جماعه و لم نبغ الشارع العام المؤدى إلى قصر المفوض السامى حتى كانت الحشود قد تكاثفت، و من الطبيعى أننى هذ المره لم أمسك بيد أحد يقودنى بعد ذلك إلى السجن، ثم وجهنا المظاهره فى الاتجاه الموصل إلى القصر، و لما اطماننا إلى ذلك أسرع كل منا ركضا إلى (الترامواى) الهابط إلى المدينه.

و لما رأنا أحد المتظاهرين نصعد مسرعين إلى (الترامواى) صاح بأعلى صوته بحيث سمعناه واضحا: (وين حميتوها و هربتو)!!.

لقد كان هذا الصائح طريفا جدا، و صادقا جدا، فقد (حميناها) و هربنا فعلا!. لأن شبح قانون قمع الجرائم كان يطاردنا، و لأن تخيل سبعة أشهر سجن كان يحث خطانا على الهرب السريع!..

و بعد القبض على فى المظاهره الأولى لم أقع فى أيدي عمال السلطه مره ثانيه لأنه لم يعد يستهوينى تماسك الأيدي فى المظاهرات!.

فى الدراسه الثانويه

و أخذ العام الدراسى يتوالى يوما بعد يوم، و أخذ يوم الحسم يدنو شيئا فشيئا، و من طرائف الدراسه أن مدرس التاريخ كان عجوزا من بقايا ضباط الجيش العثمانى المتقاعدين، و نشأ نشأه تعليميه بعيده عن جو اللغه العربيه، فهو بالرغم من أنه دمشقى عريق كان يتعثر فى النطق خلال الدرس باللغه الفصحى فيأتى بجمل تدعو إلى الضحك، فكان من تعابيره مثلا ما قاله أحد الملوكة الفرنسيين، فقد أورده المدرس بهذا اللفظ. إن تلك التاج يؤلمنى!.

و من طرائف ما جرى لنا معه أنه كان يطلب منا فى كل درس أن نكون مستعدين للاجابه فى الدرس المقبل، و من الأكيد أننا لم نكن كلنا مستعدين للاجابه، فكان متروكا للتلميذ الذى ينادى المدرس اسمه من ورقه أمامه كانت تحتوى أسماء التلاميذ جميعا، كان متروكا للتلميذ إذا كان غير مستعد للجواب، أن يرد على النداء بكلمه: (غير موجود)، فكان المدرس يضع إشاره أمام اسمه ليعلم غيابه. و صدف يوما أن معظمنا، بل ربما كنا كلنا غير مستعدين للجواب، و كان الصف غاصا بالتلاميذ، فكان كلما نودى على اسم يجيب التلميذ بنفسه: غير موجود... إلى أن امتلأت الورقه بأسماء التلاميذ الغائين، بينما كان الصف ممتلئا بهم!..

دخول الجامعه

و أقبل يوم امتحان (الجامعه) و جرى لى فيه فى درسى الجبر و اللغه الفرنسيه ما قصصته على القارئ من قبل، و انتهى الأمر بالنجاح و دخلت الجامعه، و تحقق الأمل الذى كنت أظنه غير ممكن التحقيق! و لم أشعر ببهجه تشبه البهجه التى عرفتها يوم إعلان النتيجة، و إن كانت أيام البهجات أقل من القليل!.

و كان من عوامل التنغيص عقوق العاقين، و جحود الجاحدين، و لؤم اللؤماء! و حسبك أن واحدا من أولئك كنت ملازما له

أيام الاضطهاد و القله، لا- يأنس إلا- بي، حتى إذا انقطعت عنه مضطرا يومين متتابعين أرسل يبحث عني و يتساءل عن سبب انقطاعي. و سعدت و إياه يوما إلى (الترامواي) وسيله النقل الشعبيه الوحيده فى بيروت ثم هبطنا و سرنا مشيا على الأقدام فى أوائل الليل لزياره بعض أقربائه فمررنا تحت قصر عامر كان يشع بأنوار الكهرباء، و يزدحم الطريق المؤدى إليه بسيارات الزائرين، و كان رجلا لا يستطاب مجلسه، فقلت للرفيق السائر معى على قدميه: إنى لأعجب كيف يجد هذا الرجل من يجالسه، فضلا عن أن يزدحم مجلسه! فجانبنى رفيق أيام النضال و الاضطهاد قائلا: أ تعجب من أن يزدحم مجلسه بالناس و قد باع بالأمس أرضه الواسعه لليهود فى فلسطين، فقبض مئات الألوف و امتلأ- و طابه بالمال، و أصبح يرجى و يخشى؟ أ تعجب من ذلك؟ لا، لا تعجب فليس هنا مكان العجب، بل العجب أن أجد أنا القليل المال، أنا الذى لا يرجى و لا يخشى، أن أجدك أنت تمشى إلى جانبي و تصلنى فى منزلى!..

و تدور الأيام فإذا هذا الذى كنت أزامله فى ركوب (الترامواي) و فى السير على الأقدام فى شوارع بيروت، و الذى كان يكبر صلتى له فى منزله حيث لا يرجى و لا يخشى، و الذى طالما استمدنى عند الشدائد، إذا به فى يوم من الأيام لا يسير فى الشوارع على قدميه، بل يسير فى السياره الضخمه الفخمه التى يرف عليها العلم!.. بينما كنت أنا لا أزال أواصل السير على قدمى فى رحله الحياه الطويله الشاقه، و لما جاء يوم كنت فى حاجه لنجدته، كان هو فى عالم آخر يزهو بالأعوان و الأنصار الجدد الذين لا يزاملونه فى السير على الأقدام، و كان إنجاده لى لا يزيد فى سلطانه، و عدم إنجاده لا يقلل من أعوانه فزوى وجهه و تجاهل الأنجاد!.

طالما سرت على قدمى مع رياض الصلح، و طالما زاحمنا الناس معا فى (ترامواي) بيروت، حتى إذا انتقل هو من السير على القدمين و من ركوب الترامواي إلى ركوب (الكاديلاك)، لم يعد يذكر الماضى و من كان فيه و ما كان فيه.

و قد كانت آخر الأيام الشعبيه مع رياض الصلح، يوم تقرررت الانتخابات النيابيه سنه ١٩٤٣ و هى السنه التى تم فيها الاستقلال، و كان يتنازع النفوذ فى لبنان: الإنكليز و الفرنسيون. و من هنا كان لا بد من أن

تكون الانتخابات حرة لأن لا سلطه واحده تستطيع أن تحسم الأمور لمصلحتها. و كان رياض الصلح حائرا لا يدري ما يفعل، أ يرشح نفسه فى بيروت، أم يرشح نفسه فى جبل عامل (أى ما أطلقوا عليه اسم الجنوب)؟..

لقد كان يصده عن الترشيح فى بيروت أنه كان يخشى أن يتالب عليه المسيحيون مع خصومه من المسلمين فيسقطوه، لأن المسيحيين يرون فيه الرجل القوى، و أهم من ذلك فان قريبه سامى الصلح عازم على الترشيح فى بيروت، و لسامى قواعد شعبيه متينه، فلم يكن من المعقول أن يترشح صلحيان فى قائمه واحده و لا أن يتقارعا فى قائمتين متضادتين.

و كان يصده عن الترشيح فى جبل عامل أن لا قاعده شعبيه له فيه حتى و لا فى مدينه صيدا المعتبره مدينه أسرته و مدينه أبيه من قبله و مدينته هو نفسه، و ذلك لأنه هجرها و لم تبق له ركيزه فيها.

و كنت إذ ذاك أعمل فى القضاء فى محكمه (النباطيه)، فأرسل إلى يطلب حضورى إلى بيروت بأسرع ما أستطيع من الوقت، فجيئته فى الحال، فخلا- بى فى منزله و عرض على الموقف و حيرته فيه، فقلت له: هل ستكون الانتخابات حرة، أم هناك مجال لتدخل السلطه؟. فقال ستكون الانتخابات حرة مائه بالمائه فابد رأيك بناء على هذا الأساس.

فقلت له: إذا كنت موقنا بان الانتخابات ستكون حرة فلا تتردد لحظه واحده فى الترشيح فى جبل عامل، فان لك فيه قواعد شعبيه تجهلها أنت، و سنتفانى نحن أصدقاءك فى تأييدك و الدعوه إليك، و سيستجيب الناس و سمعتك و سمعه أسرته و سمعه و ستنجح باذن الله.

و كان المتنافسان الرئيسيان يوم ذاك فى جبل عامل هما أحمد الأسعد و عادل عسيران، و كان أحمد الأسعد مرشح الفرنسيين، و عادل عسيران مرشح الإنكليز، و كانا عدوين لدودين، يسعى كل منهما لتأليف لائحه تنافس لائحه عدوه، فقلت له: أن الأمر سيكون أهون مما تتصور، لأن الموقف فى نظرى هو كالاتى:

إن كلا من أحمد الأسعد و عادل عسيران يتهيب المعركه لأن أحدا منهما لم يجرب بعد قوته الذاتيه، فاحمد الأسعد نجح فى الانتخابات الماضيه لأنه كان واحدا من جماعه ضمتهم السلطه الفرنسيه فى قائمه واحده نجحوا جميعا لأن السلطه فرضتهم. و عادل عسيران سقط فى تلك الانتخابات لأن مزاحمه فى القائمه كان كبير الأسره عمه نجيب.

إن هذا التهيب من المعركه يجعل الاثنين أحمد و عادل قابلين بسهولة للدخول فى قائمه واحده إذا وجد من يعرف كيف يمهد الطريق لذلك، فكل منهما لا يطمح الآن لأكثر من أن يفوز هو نفسه و لا يهمله الآخرون، و انضمامهما فى قائمه واحده ينهى المعركه و يضمن لكل منهما الفوز، و الأمر يحتاج إلى رجل لبق يدخل بينهما، و هل فى الدنيا من هو أكثر لباقة منك، فأقدم و لا تتردد. فتهلل وجهه بشرا و انزاح عن صدره الحمل الثقيل.

و طلب إلى أن أبقى إلى جانبه عصر ذلك اليوم و الليله و النهار القادمين، لعل الأمر يحتاج لأن يستوضحنى فى بعض التفاصيل، و هكذا كان. ثم تم الأمر كما قدرته.

فنجح أحمد و عادل فى قائمه واحده كان فيها رياض.

سنة و بعض السنه مضى على ذلك، كان فيها رياض الصلح قد أصبح رئيسا للوزاره و صار الأمر الناهى، و عاد راكب (الكاديلاك) بعد ركوب الترامواى، و أصبح عشير الرؤساء و رفيق الوزراء و خليط النواب!..

بعد سنة و بعض السنه كان رياض الصلح يشيخ بوجهه و يلوى عنقه و تتمعر طلعتة ثم يدير ظهره أمام الاستنجداد به...

لقد مر فى خاطرى شريط الذكريات منذ اللقاء الأول برياض فى ظاهر النباطيه يوم تحديث السلطات و النافذين فى تكريمه حتى ساعه الاستنجداد هذه.

و لم تكن هذه أولى غدرات رياض الصلح باصدقائه، و لا آخر غدراته، فقد تبين أنه مطبوع على الغدر، و على ما هو شر من الغدر.

يوم الانتخاب فى دمشق

مضت دراسه الحقوق مضيا رتيا، و تالفنا هناك بضعه طلاب لا يزيد عددنا على العشره، متخذين لنا منهجا، فيه أن نلتقى فى المنازل لقاءات أسبوعيه لا- تخلو من التسليه البرئيه، و أهم ما فيها تنظيم الكفاح الوطنى و مقاومه الافرنسيين، فإذا ألم بالبلاد حادث كان علينا أن نحزم أمرنا و نقود فيه جبهه فاعله تقرر و تفتحتم.

و مما يذكر مما كانت مشاركتنا فيه فعاله، هو يوم قرر المفوض الفرنسى (بونسو) إجراء انتخابات عامه فى سوريا فى ٢٠ كانون الأول سنه ١٩٣١ تمهيدا لتصفية القضية الوطنيه بتزوير الانتخابات و إخراج مجلس نيابى مطواع يقر معاهده معده لا تختلف عن الانتداب إلا بالاسم، و هى المعاهده التى عرفت يوم ذاك باسم (معاهده الشعبانى) نسبة لوزير الداخليه شاعر نعمت الشعبانى الذى تبنها و تعهد تصديقها من المجلس.

و جاء يوم الانتخاب و أعد الفرنسيون عدتهم للتزوير فى سوريا كلها، و أعد الطلاب عدتهم للمعركه، و قضينا ليله يوم الانتخاب نجول من حى إلى حى نشحذ الهمم و نستفز النفوس، و فى الصباح كنا نتوزع فى الأحياء حول مراكز الاقتراع، و قد كان كل شىء مهيا للمعركه، و لا تحتاج النار العتيده إلا إلى عود من الكبريت لتضطرم اضطرامها المروع. و قد كان، فبدأ(١) الهجوم على المراكز و أخذ الرصاص يدوى من بنادق الجنود حماه المراكز، و انطلقت الجموع فى شوارع دمشق مهدده متوعده و بدأ الصدام

ص: ٢٩٧

١- عن الإنصاف أن نذكر أن الذى أشعل عود الكبريت هو زكى الخطيب الذى كان يوم ذاك من أركان الكتله الوطنيه و أحد مرشحيها، فقد جاء مبكرا إلى مركز الاقتراع و جلس وراء الصندوق و أبى أن يتزحزح عن مكانه، و لم يفد معه أى جهد، و لما صاولوه قال لهم: لقد كتبت وصيتى قبل أن أخرج من بيتى، ثم خرج إلى المجتمعين فى الخارج و قال لهم: لقد بدأ التزوير فاحموا انتخاباتكم، فاشتعلت النار. ثم انفصل بعد ذلك زكى الخطيب عن الكتله عند ما أحكم جميل مردم قبضته عليها.

عنيفا، و كان مكاني من المعركه بالقرب من محطه الحجاز، و كنا قد وصلنا إليه دون مقاومه تذكر، و كانت قوه الجند تعسكر على جسر بردى الموصل بين آخر شارع الحجاز و أول الشارع الصاعد إلى طريق الصالحيه، و كانوا يقفون هناك متأهين لصد المظاهره الزاحفه منه لتصل إلى (السراي) المقيم فيها وزير الداخليه و الجهاز الحكومى كله، فإذا بهم يفاجئون بنا نزحف من محطه الحجاز هابطين للوصول إلى نفس الهدف. و كان سلاح المتظاهرين الحجاره التي تفرغ لتجميعها و إحضارها فريق من الفتيان لا- تتعدى أعمار أكثرهم الرابعه عشره فما دونها، و كان يدهشنا ما نرى منهم، و نساءل كيف كان يتسنى لهم جمع ما يجمعون من الحجاره، و كيف يتأتى لهم بعد جمعها نقلها و توزيعها على الجبهات المتعدده.

إنها دمشق... دمشق البطله... دمشق التي لا- يعرف حقائقها إلا- من خبرها... دمشق التي أفضت مضاجع الفرنسيين على مدى وجودهم فيها..

لقد كنت من موقفي قرب محطه الحجاز أشاهد المعركه على الجبهه المقابله، فكانت مشاهد لا يمكن أن تمنحني من الذهن بساله و تفننا و كرا و فرا، كان المتظاهرون يكرون على الجند بالحجاره كرا عنيفا، فإذا تقدم الجنود مبهدين لتقدمهم بإطلاق الرصاص، انكفأ المتظاهرون غير منهزمين بل متغلغلين في الأزقه الجانيه المتفرعه من الشارع الكبير، فيخلو هذا الشارع منهم تماما، فلا يجد الجنود أمامهم من يقاتلونه فيعودون إلى موقعهم على شاطئ بردى، فإذا رآهم المتظاهرون قد عادوا و توقفوا عادوا الكر عليهم بالحجاره، فيعود الجنود إلى مهاجمتهم، و يعودون هم إلى إخلاء الشارع و التغلغل في الأزقه الجانيه.

أما عملنا نحن على الجبهه المقابله فكنا إذا رأينا الجنود يتقدمون مهاجمين كرزنا [كررنا] نحن عليهم بالحجاره، فإذا ارتدوا عن رفاقنا إلينا ارتددنا نحن إلى مواقعنا متباعدين عنهم إلى الشوارع الفرعيه.

و ظل الأمر على هذه الحال كرا و فرا إلى أن رأينا من موقفنا منظرا عجبا، ذلك أن ضابطا فرنسيا تقدم منفردا رافعا بيده اليمنى منديلا أبيض أخذ يلوح به ماشيا وحده صوب المتظاهرين الذين لم يتعرضوا له بسوء، و تقدم بعضهم منه و بدا لنا أن الجميع يتحاورون، ثم لم يلبث المتظاهرون أن توقفوا عن كل حركه فمشى الجنود منسحبين، فلم ندر ما ذا جرى و يجري، و أسرعنا بعد انسحاب الجنود إلى أصحابنا فعلمنا منهم أن الضابط أنبأهم بأنه تلقى أوامر بوقف التعرض للمتظاهرين و الانسحاب إلى الشكنات.

و لم تلبث أن انتشرت التفاصيل، فان المفوض الفرنسي (بونسو) المقيم في بيروت عند ما بلغه نبا ما جرى في دمشق تملكه الهلع و أيقن أن ذلك مقدمه ثوره شامله، فأسرع في الحال إلى إعلان إيقاف عمليه الانتخاب و إبطال ما جرى منها، و لم يكن يوم ذاك إذاعه تنقل القرار، فعلقت صور عنه على جدران الشوارع و الأحياء و عرفه الناس جميعا، فانقلبت المظاهرات الحريه إلى مهرجانات سرور و ابتهاج، و كان يوم من أيام دمشق المعدوده في تاريخها النضالي الباسل.

و لا بد من الإشاده برجال الدرك السوريين الذين كانوا عند ما يتلقون الأمر بالهجوم و إطلاق الرصاص، كان رصاصهم ينطلق أكثر ما ينطلق في الهواء متظاهرين بتنفيذ الأوامر، في حين أنهم كانوا يجنبون رصاصهم أجساد الناس، لذلك لم تكثر الإصابات، و كان عدد القتلى دون العشره.

و فى اليوم الثانى خرجت دمشق عن بكره أبيها تشيع الشهداء إلى قبورهم، و كان يسير فى طليعه حاملى نعوش شيخ معمم بعمامه بيضاء يحمل على يديه جثه طفل يبدو أنه فى حوالى الخامسه من سنى حياته، فكان منظره يستنزف الدموع من عيون المشاهدين و يثير عظيم النقمه على الفرنسيين الذين قتلوا فيمن قتلوا: الأطفال.

ثم تبين لنا بعد ذلك أن هذا الطفل كان قد مات فى المستشفى موتا طبيعيا، و أن هذا الشيخ قد تعمد إثارة النفوس على الفرنسيين فاخرج جثه الطفل مع نعوش القتلى فكان له ما أراد.

و كنت فى ذلك الحين أنظم الشعر بين آونه و أخرى فاوحت لى معركة الانتخابات بقصيده ضاع أكثرها و لم يبق فى ذاكرتى منها إلا هذه الأبيات:

بذلوا ليوم الانتخاب جهودا ضمنوا لأنفسهم بها التأيدا

و عدوا فما حفظوا الوعود و لا رعوا فينا بيوم الانتخاب عهدا

قد أوقدوها فتنه ناربه كانوا لها عند اللقاء وقودا

و منها:

باتوا سرورا ناعمين بليهم و دمشق باتت تشتكى التهيدا

ترنو مفعجه إلى فتياها تستنجد الشم الاباه الصيدا

فتدافعوا متواثبين و أقبلوا متسارعين إلى المنون ورودا

لله يومهم غداه تقدموا تتلو الوفود إلى النزال وفودا

من كل أعزل يتقى بنانه و بصدرة يستقبل البارودا

يرمى الحجاره صارخا بجموعهم فيرد جمعهم التنظيم بديدا

و لرب طاويه على أشجانها وارت يداها فى التراب وحيدا

دفعت بفلذتها لمعترك اللظى و أبت عليه أن يعود طريدا

أبنى دافع عن بلادك أنه ليقر عينى أن أراك شهيدا

أحمل على النيران حملة ضيغم و استقبل الخصم الشديد شديدا

وقد أسفت لضياح معظم أبيات القصيده، و أنه لم يبق في ذاكرتى منها إلا هذه الأبيات، فالمناسبه التى نظمت فيها القصيده من أغلى المناسبات فى حياتى.

نتائج الانتخابات

أعلنت نتائج الانتخابات فى بقيه المناطق السوريه فإذا بمرشحي الفرنسيين يفوزون فى كل مكان ما عدا أفرادا محدودين استطاعوا التغلب على التزوير.

يفوزون حتى فى حلب قلعه إبراهيم هنانو و سعد الله الجابرى و عبد الرحمن الكيالى، و استطاع الفرنسيون أن يسقطوا قائمتهم و ينجحوا قائمه العملاء و على رأسها صبحى بركات.

فلم يتصد الشعب فى حلب بمثل ما تصدى فى دمشق، فلم تقم فى الأولى ثوره عارمه كما قامت فى الثانیه، و اقتصر الأمر فيها على الغضب،

ص: ٢٩٨

مجرد الغضب و الاحتجاج، مجرد الاحتجاج، و هما لا يردعان ظالما و لا يكبحان مستعمرا، و الأمر كما قال أبو تمام:

(السيف أصدق أنباء من الكتب)

و إذا لم يكن السيف متيسرا فقد أثبت الحجارة أنها يمكن أن تحل محله، و أن تكون (أصدق أنباء من الغضب و الاحتجاج)!.
.

و حاولت حلب بعد ذلك و بعد أن تم أمر الانتخاب و أعلنت النتائج و انتهى كل شيء، و بعد أن رأيت ما أدت إليه ثوره دمشق، حاولت حلب أن تقتفى أثر دمشق، فقامت فيها المظاهرات الصاخبه و اشتعلت فيها المعارك الداميه، و لكن ما تم قد تم، و لم يكن من الممكن إعادته عقرب الساعه إلى الوراء، فذهبت محاولات حلب سدى، و لو أن ما فعلته حلب بعد الانتخابات فعلت بعضه قبل الانتخابات لتغير الأمر و تباينت النتائج.

و لك أن تتساءل لما إذا ثارت دمشق و لم تثر حلب، مع أن في حلب شعبا لا يقل وطنيه و شجاعه عن في دمشق، و مع أن في حلب قاده أبطال صليبين، و حسبك أن يكون فيهم إبراهيم هنانو و سعد الله الجابري و عبد الرحمن الكيالي، و في حين كان في دمشق رجل مثل جميل مردم!.

كيف قدر لحلب إبراهيم هنانو و سعد الله الجابري و عبد الرحمن الكيالي أن تتأخر عن دمشق جميل مردم؟!.

إنني أجب: كان ذلك لأنه كان في دمشق عصبه من الطلاب نذروا أنفسهم لوطنهم العربي، و نظموا أمورهم تنظيما دقيقا، و تحسبوا لكل شيء، ثم انبثوا في الأوساط الدمشقيه ليله الانتخابات يشرحون و يحرضون و يجمعون، ثم انطلقوا في الصباح في كل مكان يؤلبون و يرتبون، حتى إذا اجتمعت الجماعات قادوا خطواتها قياده واعيه مضحيه فتقدموها في اقتحام الهول فاستجابت لهم، فكان ما كان.

و ربما ساعد على أن يكون في دمشق ما كان، أنه كان فيها (الجامعه السوريه) التي تستطيع أن تكتل الطلاب و تصهرهم معا مما لم يكن مثله في حلب، إذ لم تكن فيها جامعه بعد.

انتخابات جديده

و قد كان لا بد للفرنسيين من أن يحددوا يوما جديدا لإجراء انتخابات دمشق، و قد كان، و تعين يوم الانتخاب و بدأت المداوله بأسماء المرشحين و إداره المعركه المقبله. و هنا يبرز دور جميل مردم.

لم يكن بين رجال الكتله الوطنيه في دمشق رجل قوى، و إن كان فيهم المخلصون.

لذلك خلا الميدان لجميل مردم الداهيه المتناسك الألعبان، المستعد للتلون بالف لون.

و لم يكن من هم جميل مردم التفكير بالنضال و الكفاح، بل كان من همه الوصول بأهون سبيل، و أقل تعب. و قد صار الحال

الآن إلى أن يكون هو المقرر الأقوى لقرارات الكتلة الوطنية في دمشق فعوضاً عن أن يستغل النصر الدمشقي الثوري، فيقود انتخابات دمشق القادمة إلى نصر شعبي كاسح، أخذ يفاوض الفرنسيين على أن يكون لمرشحيهم مكان في القائمة الدمشقيه الوطنيه، لئلا يكون هناك معركه انتخابيه متعبه، فيدخل هو المجلس على رأس القائمه دخولا مريحاً، مع ما في ذلك من كسب ورد الفرنسيين الذين سيحتاج إليه - كما تبين بعد ذلك - في الأيام القادمه، و ليثبت لهم حسن نواياه فيطمئنوا إليه. و هكذا كان!...

فإذا بالقائمه الوطنيه تعلن و بين مرشحيها محمد علي العابد و حقي العظم، نعم حقي العظم!.. و إذا لم يكن للأول السجل الأسود الذي للثاني، مما جعل الناس ينسون اسمه فلا يستفظعون ذكره أمام اسم حقي العظم، فقد كان لوجود اسم هذا الآخر في القائمه الوطنيه وقع الصاعقه في جميع أوساط المخلصين.

فحقي العظم صنيعه الفرنسيين و عميلهم و رجلهم الأول، و الذي أقاموه على أنقاض الحكم الاستقلالي بعد يوم ميسلون حاكماً لدوله دمشق، و الذي كان مجرد ذكر اسمه يثير في النفوس التقزز و القرف و الإنكار،؟ حقي العظم هذا عضو مرشح في القائمه الوطنيه!...

و تساءل الناس هل قامت ثوره دمشق، و سفكت فيها الدماء الزكيه التي سفكت من أجل أن يكون حقي العظم [العظم] نائباً عن دمشق؟! و محمد علي العابد أيضاً؟!

هكذا يريد جميل مردم و كان له ما أراد!..

و جاء يوم الانتخاب و لم يكن للقائمه مزاحمون أشداء ففازت باعضائها جميعاً و فيهم محمد علي العابد و حقي العظم...

و حاول جميل مردم و أعوانه أن يعتبر الناس فوزها فوزاً وطنياً باعتبارها قائمه الكتله الوطنيه و أن يحملهم على الابتهاج الشعبي، و لكن هيهات...

و آن للمجلس النيابي أن يجتمع و كان فيه ثلاث تجمعات: تجمع وطني يبلغ عدد نوابه سبعة عشر نائباً من أصل ثمانية و ستين نائباً هم مجموع نواب المجلس.

و تجمعان يضمان النواب الذين عملت على إنجاحهم السلطه الفرنسيه، على رأس أحدهما صبحي بركات، و هو يضم نواب حلب و أفضيتها، و على رأس الثاني حقي العظم و هو يضم نواب بقيه المناطق و هم خليط يجمعه الخضوع للسلطه الفرنسيه.

و كان أمام المجلس مهمه كبرى هي إبرام المعاهده التي أعدها الفرنسيون، على أن عليه أولاً- أن ينهي أمراً أولياً هو انتخاب رئيس له، ثم انتخاب رئيس للجمهوريه، ثم يلي ذلك اختيار رئيس للوزراء.

و كان للفرنسيين رجلاين هما صبحي بركات و حقي العظم، و كان عليهم أن يختاروا واحدا منهم لرئاسه الجمهوري، و كان يطمح إليها الاثنان معاً، و كان الفرنسيون يريدون أعرق الرجلين في خدمتهم، و بعدهم صيتاً في الخيانه، و هو حقي العظم. و لكن صبحي بركات لم يسلم لهم في ذلك. و أخذ التنافس و التزاحم ماخذهما، فأراد صبحي بركات أن يثبت قوته و سيطرته

على العدد الأكثر من النواب فرشح نفسه لرئاسه المجلس، و عضده فى ذلك النواب الوطنىون ففاز بالرئاسه.

ص: ٢٩٩

و هكذا هزلت الحركة الوطنية حتى أصبحت مساهمه فى ترجيح فوز مرشح للسلطة الفرنسيه على مرشح آخر لها.

و بدا للفرنسيين واضحا أن صبحى بركات سيفوز برئاسة الجمهوريه بتأييد النواب الوطنيين له، و كان الشرخ قد وقع بينه و بين الفرنسيين بترجيحهم حقى العظم عليه، و إن لم ينقطع الأمر بينه و بينهم.

و هنا بدأت المناورات و المداورات فاسفر الحال عن الاتفاق على حل وسط يضمن للفرنسيين رئيسا لهم و يبعد المتنافسين المحسوبين عليهم عن التخاصم و التزاحم، على أن توفر رئاسه الوزراء لحقى العظم، بعد أن توفرت رئاسه المجلس لصبحى بركات. و هكذا قسموا الرئاسات الثلاث بين رجالهم بمعاونه النواب الوطنيين الذين أوصلهم جميل مردم إلى هذه المواقف، و كان ذلك من حظ محمد على العابد الذى جاءته رئاسه الجمهوريه فى ١١ حزيران ١٩٣٢ من حيث لا يحتسب. و تحققت أمنيته جميل مردم فأصبح وزيرا للماليه فى وزاره حقى العظم.

و فى ذلك يقول الشاعر السورى المبعد عن سوريا خير الدين الزركلى مخاطبا النواب الوطنيين الذين كانوا يقولون أن من أهدافهم من المشاركة فى هذه الأمور الحصول على العفو عن المبعدين السوريين، من قصيده لا أزال أستظهر منها: (١)

تبارك الله أحسنتم بفعلتكم كل الرئاسات فى أيدي المرائيس

ما كان أغناكم عن خوض معترك ترأست فيه أذنان الفرنسييس

تالله لا خير يرجى من نيابتكم و إنما هى رزق للمفاليس

و لا رئاسه فى أيدي ثلاثتكم و إنما هى نقش فى القراطيس

أبات (مردم) من أوزار أمته يسعى إلى الغنم سعيا غير معكوس

يرضى بما لاح من صيد و من قنص و الكيس فى الكف غير الكف فى الكيسر [الكيس]

يا طالبى العفو عنا هونوا و قفوا و جنبوا أمرنا من كل تلبيس

إننا لنصبر ما عاش الزمان على غير الهوان فعيشوا فى الفرديس

ثم اضطر جميل مردم بضغط هاشم الأتاسى و إبراهيم هنانو مجتمعين على الاستقاله من وزاره حقى العظم فى ٦ نيسان ١٩٣٣.

يوم المعاهده

و بعد الانتهاء من أمر الرئاسات و أصل المجلس اجتماعاته ليحقق الغايه التى انتخب من أجلها و هى إقرار المعاهده التى أعدها الفرنسيون، و عين يوم عرض المعاهده على المجلس، و كان الفرنسيون واثقين من النتيجة فأكثره نواب المجلس مؤلفه من الأشخاص الذين جاءوا بهم إلى النيايه. و قرر الطلاب إفساد أمر المعاهده، و استطاعوا فى اليوم السابق ليوم عرض المعاهده على

المجلس أن يجمعوا معظم طلاب معهد الحقوق وطلاب معهد الطب في مسيره يمرون بها على النواب فردا فردا للضغط عليهم ضغطا معنويا باستثارة كوامنهم الراكده من بقايا شهامة و وطنيه، و كان النواب موزعين على فنادق المدينه، فمشينا بجمعنا إلى حيث ينزل كل واحد منهم، و كان بعض الفنادق يضم اثنين أو ثلاثة أو أربعة، فنطلب لقاء من نعرف أنه في الفندق فلا يسعه إلا الاستجابة لطلبنا، فينبري الخطاب منا إلى تبيان شروور المعاهد، ثم يناشدون النائب بان لا يلقي الوطن المصير السيئ على يديه، و يذكرونه بلعنه التاريخ التي ستلحقه و بالعار الذي سيصيب أبناءه و أحفاده، فلا ينتهي الخطيب من كلامه حتى تكون كل كوامن الخير قد انطلقت في نفس النائب، و حتى يكون قد نسي أن الفرنسيين هم الذين جاءوا به إلى النيايه، فيعاهدنا بصوت متهدج بأنه لن يوافق على المعاهده، و كان بعضهم لا يستطيع حبس دموعه.

و أذكر اننا التقينا بمجموعه من نواب العشائر في فندق واحد، و كان هؤلاء النواب من أهم الركائز الذي يستند إليها الفرنسيون، فقابلوا مجيئنا أول الأمر بشيء من الاستنكار، و الاستهانه بهؤلاء الأولاد الذين يتناولون إلى ما لا يعينهم، فحاولوا عدم الإصغاء إلينا و الترفع عن الدخول في مناقشات معنا، فلم نزل بهم حتى سمعوا ما نريد أن نقوله، و انتهى الأمر بان وقف أبرز واحد فيهم (مجمحم بن مهيد) و سل سيفه من غمده و قال بلهجتة البدويه ما معناه: و الله يا أولادى أننى لا أستطيع مخاطبتكم بمثل هذه الألفاظ التي تتكلمون بها، و لكنى أقول لكم أن من يجرؤ على الموافقه على المعاهده لن يكون له إلا هذا السيف. فكان بهذا القول أبلغ خطيب...

و قصدنا إلى الفندق الذي ينزل به أحد نواب حلب (هنرى هنديه)، فرفض أول الأمر الخروج من غرفته لمقابلتنا، و أمام إصرارنا و تلويحنا بالتهديد و الوعيد، خرج (بيجامته و روبه) و وقف في أعلى الدرج و نحن في البهو الذي في أول الدرج فقال بلغته العاميه ما معناه: ما أنتم و هذه الشئون. فلم ندعه يتم كلامه بل صعدنا الدرجات راكضين اليه فولى هاربا يملكه الذعر، و اقتحمنا غرفته فلم نجده بها، و لم نعلم أين اختبأ، فاكثفينا بذلك.

و عدا هذا النائب فقد تمرد على طلبنا أربعة نواب آخرين من مجموع النواب، و كان تمرد ثلاثة منهم ممزوجا باللين و الملاطفه و التظاهر بالاحترام، فأخذنا نجادلهم فأبوا أن يعدوا برفض المعاهده. فعند ذلك لوحنا لهم بالانتقام من كل من يوافق على المعاهده و تركناهم.

أما الرابع فقد حاول أن يقف موقف هنرى هنديه فانتهى به الأمر إلى الفرار و التوارى. و يؤسفنى أننى لا أتذكر أسماء هؤلاء الأربعة لأسجل عليهم هذا الموقف.

و انتهت جولتنا و فى يقيننا أننا قد حققنا ما نبيغيه، و قد كان كذلك، فلما عقدت الجلسه فى اليوم الثانى أدرك الفرنسيون بان المجلس سيرفض المعاهده فاصدروا قرارا بفض المجلس و إيقاف جلساته قبل أن تبدأ المناقشه.

ص: ٣٠٠

١- تحدث فارس الخورى عن جميل مردم فقال: "كان جميل مردم يتصرف بالمصاريف المستوره على هواه و ربما يخص نفسه بمعظمها إن لم يكن كلها فقد كان يحب المال حبا جما، و يمد يده إليه عن أى طريق. دخل الحكم سنه ١٩٣٦ يلاحقه الدائنون

فى كل مكان باشعارات الحجز على أمواله و خرج مليونيرا (الصفحه ٤٠١ من كتاب: فارس الخورى و أيام لا تنسى).

و من الذكريات الشعريه فى تلك العهود التى تعبر عما كانت تعتمل به نفوسنا من حماسه و أمل و تطلع أذكر هذه الأبيات التى نظمتها فى ساعه من تلك الساعه المفعمه بالشعور الثورى الوطنى:

سنقلب هذه الدنيا فنجعل بطنها ظهرا

سنملاً من جنود العرب منها السهل و الوعرا

سنملك بعد تشريد و ترويع بها الأمرا

سنخضب من دم الافرنج منها البر و البحرا

سنملؤها بنا عدلا كما ملئت بهم جورا

سنطلع من بريق البيض فى ليل الدجى فجرا

سنشعلها على ظلم الفرنجه ثوره حمرا

مع دى مارتيل

على أثر المظاهرات الداميه التى قام بها العرب فى فلسطين و التى مشى على رأسها زعيم فلسطين موسى كاظم الحسينى احتجاجا على السياسه الصهيونيه. و على أثر مجزره يافا التى سقط فيها نفر من رجال العرب المتظاهرين صرعى برصاص الإنكليز، قامت فى دمشق المظاهرات الاحتجاجيه الصاخبه، فاصطدم المتظاهرون بالشرطه فوقع القتلى و الجرحى. و كان قد خطب بالمتظاهرين زكى الخطيب و أحمد الشهابى و غيرهما. فاصدر المفوض السامى الفرنسى الكونت دى مارتيل و كان حديث عهد بالبلاد، بلاغا كله تهديد و وعيد، و اعتقل زكى الخطيب و رفاقه فى سجن القلعه، فاضربت دمشق أياما، و صدرت البيانات الاحتجاجيه، فاجتمع طلاب الحقوق فى منزل أحدهم و كلفونى بان أرد باسمهم، فوضعت هذا البيان و وزع على الصحف فحذفت بعض مقاطعه عند نشره. و ذلك فى خريف سنه ١٩٣٣:

تابع طلاب الحقوق فى دمشق بدهشه بلاغ فخامتكم المنشور فى الصحف المحليه، و قد استغربوا كل الاستغراب هذه اللهجه الشديده تواجه بها البلاد فى مفتتح عهد يقال أنه عهد جديد يختلف عن العهود السابقه، فإذا كانت فخامتكم تعتقد أن مثل هذه اللهجه يمكن أن توهن عزائم السوريين فتصرفهم عن تطلاب حقهم المنشود فقد ضللتهم فى ذلك السبيل. فالسوريون الذين درسوا وقائع الثوره الفرنسيه دراسه و افيه و تلقنوا تعاليم رجالها بما فيها من صبر و ثبات لن تضعفهم لهجات الوعيد و عبارات التهديد. و الطلاب السوريون و طلاب الحقوق منهم بخاصه، و هم الذين تلقوا على مقاعد الدرس آراء علماء فرنسا فى دحض نظريات (نيتشه) التى لا ترى الحق إلا فى أفواه المدافع و على رؤوس الحراب و فوق أشلاء الضعفاء - لا يسعهم إلا أن يعجبوا كل العجب من هذا التناقض بين آراء علماء فرنسا و بين أعمال سياسيينها الذين يزعمون أنهم إنما هبطوا سوريا لارشادها و

يا فخامه المفوض، إن سوريا العربيه التي قطعت شوطا بعيدا فى الثقافه و التي قدمت على مذابح الاستقلال زهرات شبابها و التي يلوح لها من خلال الأجيال ماضيها اللامع بكل ما فيه من قوه و جلال لن يثنى من أعتها بيان تهديدى و بلاغ إرهابى، بل أن ذلك لينفخ فيها روح الحماسه و الكرامه و يدفعها للعمل الاستقلالى المستمر.

لقد كنا نترقب أن لا- تستند بلاغاتكم إلى أشخاص تدفعهم وظائفهم لاتهام الناس و تشويه الحقائق تبريرا لأعمالهم و زلفى لأسيادهم. فقد جاء فى البلاغ (أن المتظاهرين هاجموا مخفر باب توما بتأثير الخطب التي ألقىت فى المسجد)، فى حين أن المتظاهرين كانوا مسالمين لم يهاجموا أحدا و لم يطلقوا نارا، و فى حين أن الخطب دعت الناس إلى عدم العنف. و قد أثبتت المشاهده و التقارير الطبيه أن الشهداء أصيبوا فى ظهورهم مما يدل على أن رجال الشرطه هم المعتدون.

أما قولكم: " أن اعتداءات كهذه لا يمكن أن تغطى تحت ستار مظاهره تضامن و تأييد بمناسبه حوادث تقع خارج البلاد، بل هو تحد للسلطه ليس فى الوسع احتمالها "، فقد عرف أن ليس هناك اعتداءات، و لم تكن غايه المتظاهرين مهاجمه المخافر و الاستيلاء على الذخائر - كما زعم البلاغ - بل أرادوا الاعراب عن شعورهم بمظاهره سلميه فقبولوا بالنار و الرصاص.

و الحوادث التي تظاهروا لأجلها ليست خارج بلادهم، بل هى فى قلب بلادهم فان فلسطين جزء الشام الذى لا يتجزأ.

و قد ألقىتم فى بلاغكم المسئوليه على أشخاص معينين أمرتم بتعقبهم فى كل حاله. و معنى ذلك أنكم لم تتركوا المجال فسيحا للقضاء ليستلهم من حقيقه الواقع لا من الأوامر الصادره إليه. و قد كان اعتقال الأستاذ زكى الخطيب و إخوانه نتيجته فعلية لهذا الأمر.

فطلاب الحقوق الذين يؤلمهم مخالفه نصوص القوانين و انتهاك الحريات يلفتون نظر فخامتكم إلى جميع ذلك و يؤيدون بيانهم باعلانهم هذا النهار إضرابا يشمل جميع فروع الجامعه السوريه.

زياره أحمد رامى

خلال دراسه الحقوق زار دمشق الشاعر المصرى أحمد رامى فأقيمت له حفلات فيها، و قد حيينه بهذه القصيده:

وطن العروبه لا تلين قناته و بنو القريض الشعرون حداته

هاجوا الغفاه النائمين عن الحمى فاستيقظت لصدى القريض غفاته

و لرب شاعر أمه مهضومه بعثت بأمتة الابا أبياته

يبكى على الحق السليب بعبره شعريه فتشيرها عبراته

يا نازلا و الشعر يعبق نشره من رده فتعزنا نفحاته

السفح مفتر إليك تضاحكت أصواحه و تهللت هضباته

حيتك بالزهر النضير تلاعه و استقبلتك بوردها ربواته

يحنو الخلاف به عليك مرحبا و يؤهل الوادى و منعطفاته

بردى و أى تحيه مسكيه بعثت إليك مع الصبا صفاته

حنت خمائله إليك تشوقا و حنت عليك بطلها دوحاته

غنيته الشعر الطورب فصفقت أمواهه و تارجت نسّماته

سر الجمال تراه حول ضفافه و السحر ما برزت به غاباته

تحنو الغياض على الوفود و تنحنى بظلالها و ثمارها شجراته

ترد الحسان على الضفاف سوافرا عن كل وجه أشرفت قسماته

يحلو لها الوادى و عذب نسيمه و يروقها بردى و مخضلاته

فتمر بالوادى فتاتلق الربى و تطيب من أعرافها جنباته

من كل فاتنه توردد خدها و تالقت في ثغرها بسماته
انزل بصفته و رجع منشدا شعرا تهيج قلوبنا نغماته
حدث عن النيل الشقيق فنيلكم تشتاقه و تحبه أخواته
ما باله يجفو العروبه إنها تدمى قلوب بني أبيه جفاته
لهفى على بردى تكدر ماؤه بعد الصفاء و صوحت جناته
لا الخيل في يوم الرهان خيوله و كلا و لا تلك الظباء ظبائه
سله عن المجد الذي عصفت به غير الزمان فنسكت راياته
و اليوم تغزى أرضه من بعد ما بلغت أقاصى المغربين غزاته
سله عن الميدان أين جنوده يوم النضال و أين عنه حماته
صرح تهاوت للحضيض بنوده و تناثرت فوق الثرى شرفاته
يا ويح قلبى كم يكابد حسره حتى تكاد تذيبه حسراته
بشكو [يشكو] تباريح الزمان و ربما أجت بأطراف اليراع شكاته
أ ترى تعود ليعرب أمجادها و يعود فيها ملكها و بناته

وداع الدروس

و أخيرا أنهينا السنوات الثلاث في معهد الحقوق سنة ١٩٣٤، و خرجنا إلى الحياه العامه نكافح فيها الزمن و صروفه و أحداثه. و
قد ودعت عهد الدراسه بهذه القصيده:

حسبى و حسبك ما لقيت و ما بى فلقد أذبت فتوتى و شبابى
علقت آرابى عليك و لا أرى أنى سأظفر منك بالآراب
و سهرت فيك الليل أجمع دونه مر العذاب و ما سواك عذابى
كم ليله ليلاء بت أجوزها بحشا مروعه و وجه خابى

متلفعا برد الهموم مقلبا بانامل الفزع الممض كتابي
قلق أحاط بيقظتى فاحالها صورا مروعه من الإرهاب
و عدا على نومي فما عقد الكرى إلا على أشباحه أهداي
أرنو لمطلع الصباح بمهجه حرى و قلب بالهموم مشاب
يا أيها الليل الطويل أ تنجلي عن فجر ترويع و صبح عذاب
أم تحمل البشرى فتنعش معشرا ستموك خدن متاعب و صعاب
أوهت جسمهم الدروس و أعملت فى كل قلب مثل حد الناب
وقفوا على الأبواب وقفه هالع يترقبون تفتح الأبواب
يا خيبه الآمال ثم لفاشل جم العناء و ضيعه الأتعاب
فشل تذوب له النفوس مضاضه و تطيش منه رواسخ الألباب
اليوم لا "فحص" نبيت لأجله منقلبين على الغضا للهاب
و اليوم ودعنا الدروس فحسره لمودع لا يرتجى لا ياب
لهفى على تلك العهود و ليتها عادت بما فيها من الأوصاب
إنى لأذكرها فاذا ذكر عندها خير الرفاق و أفضل الأصحاب
أيام تجمعنا على صفو الهوى متالفين شمائل الأحباب
نرتاد (دمر) ضاحكين إلى الربى (و نروح أسرابا إلى أسراب)
و نؤم من بردى الرياض نضيره فواحه الأعراف و الأطياب
يا أيها النهر المرقق لا ذوت فى ضفتيك نواضر الأعشاب
مهوى القلوب على وهادك و الربى و منى النفوس بمائك المنساب
قد كدروك على الاباه فما لهم من وردك الصافى نمير شراب

لا تستطاب لذي الإباء متالع فى ضفتيك و لا تشوق روايى
ولت ليالى "الامتحان" و أففرت تلك الملاعب من جموع صحابى
لا الدار بعدهم تلذ لسامر فيها و لا تحلو الرياض لصابى
من للبشاشه و الكياسه بعدهم من للهوى و البشر و الترحاب
من للحماسه يستشير كمينها من للتظاهر ثم و الاضراب
المسجد الزاهى يحن لفتيه شم الأنوف عطارف انجاب
قاموا بليلهم على أعواده يستنفرون شمائل الأعراب
شدوا بكل مصابر مستبسل و مشوا بكل موائب غلاب
[\(١\)](#)

أول المعارك الوطنيه

كانت أول المعارك الوطنيه بعد التخرج من معهد الحقوق تلك المعركه التى أعدت للصدام لأول مره فى جبل عامل
بالافرنسيين بعد استقرارهم فى البلاد.

ففى الانتخابات اللبنايه سنه ١٩٣٤ و كنت لا أزال طالبا فى معهد

ص: ٣٠٢

١- راجع أخبار المظاهرات و الاضرابات و ما جرى فى المسجد فيما مر من الكلام.

الحقوق قدم الفرنسيون مرشحهم لتلك الانتخابات، و تقدم في كل المناطق مرشحو معارضون سقط أكثرهم و فاز بعضهم، إلا في جبل عامل فإنه لم يترشح معارض واحد، - و كان لجبل عامل نائبان فقط - ففاز مرشحا الفرنسيين بما يسمى (بالتركية).

و كنا و نحن في دمشق نتحرق لأن منطقته جبل عامل هي وحدها التي لم تجر فيها معركة انتخابيه، و لم يجرؤ مرشح فيها على أن يتحدى الفرنسيين.

ثم حدث في السنه التاليه (١٩٣٥) و كنت قد تخرجت من معهد الحقوق أن توفي واحد من نائبي جبل عامل، فإذا بنا وجهنا لوجه أمام المعركه التي كنا بالأمس نتالم لعدم وقوعها، فقبلنا التحدى و صممنا على إشعالها، و كان لا بد لنا من أن نتذكر في الأمر مع بعض العناصر الوطنيه الفاعله في بيروت، أو بالأحرى مع رياض الصلح.

و كان أهم الأمور هو إيجاد المرشح التقليدي الذي يقبل بترشيح نفسه معارضا لمرشح الفرنسيين، و كان ذلك أمرا بالغ الصعوبه، و لم يكن من المستحسن تجاوز المرشحين التقليديين إلى مرشح شاب يفاجا به الناس، لذلك كان لا بد من المرشح التقليدي.

و قد تداولنا أكثر من اسم فتيين أن من يمكن خوض المعركه به هو أحد اثنين: يوسف الزين أو عبد اللطيف الأسعد. و كانت هناك عوامل عديده تحول دون ترشيح الأول، فانحصر الأمر بالثاني.

فتقرر في آخر لقاء لي مع رياض الصلح(١) أن أذهب لمقابله عبد اللطيف الأسعد و أقنعه بالحضور إلى بيروت، و عند حضوره يمكننا إقناعه مثيرين فيه رواسب فروسيه يمكن أن تكون عائقه في نفسه من ماضى بعض رجال أسرته القدامى، فذهبت أول الأمر إلى صيدا لأستفسر عن مكان وجوده، فإذا بي أعلم أنه موجود في صيدا نفسها، فأسعدت إليه في دكان حلاق في بوابه صيدا الفوقا فتلقاني بالترحاب و شكرني على أنني أشدت بجده الأعلى ناصيف النصار في خطاب تاييني كنت قد ألقيته منذ شهر و كان قد حضره و لم يتسن له رؤيتي بعد الخطاب ليشكرني على ما قلت، و ها هو يغتنم فرصه هذا اللقاء ليؤدي هذا الشكر. و بعد تبادل المجاملات، قلت له أراك في صيدا فما ذا تفعل؟ أجب: إنى أريد أن أرشح نفسي للانتخابات و قد جئت استأذن المستشار الفرنسي (بشكوف)(٢) في ذلك لعله يأذن لي، و موعدى معه بعد ساعه. فقلت له فان لم يأذن لك؟ قال: أذهب و أقعد في بيتي. فقلت له: لقد سمعتنى قبل شهر أشيد على المنبر بجذك الشهيد ناصيف النصار بعد موته بأكثر من مائتى سنه، فهل تظن أن جدك هذا لو كانت سيرته أن يذهب فيستأذن طغاه الحكام في تصرفاته فان أذنوا له فعل، و إن لم ياذنوا ذهب فقعد في بيته، هل تظن أنه لو كانت سيرته هذه السيره، أ كان يشاد بذكره على المنابر بعد مائتى سنه من موته؟.

فصمت بعض الصمت ثم قال لي و ما أستطيع أن أفعل إن لم أفعل ذلك؟.

فقلت له: إنك سليل الأسره التي كان لها أكبر الشأن في جبل عامل و أخرجت من أخرجت فيه من الرجال الذي سادوه عشرات السنين، و كيفيك منهم ناصيف النصار و حمد المحمود، و أنت اليوم حامل ميراث تلك الأسره، و من هو بشكوف؟ إنه دعى من أدياء الفرنسيين سلطوه على البلاد، أ يليق بورث ناصيف النصار أن يسمع له و يطيع!؟.

فشعرت أن هذا الكلام قد حرك كوامنه، فقال لي: أشر على.

فقلت له أنك ذاهب بعد قليل لمقابله بشكوف فلا تكلمه مستأذنا، بل قل له: إنى مصمم ترشيح نفسى للانتخابات، و جئت من باب اللياقه أخبرك بذلك.

و ليكن كلامك له بنبره عاليه فيها العزه و الشموخ، و تمثل نفسك و أنت تكلمه بانك خليفه ناصيف النصار.

ثم قلت له: إذا أراد أن يناقشك فافرض مناقشته، و قل له: لم أجيئ لمناقشتك بل جئت لأخبرك بالأمر الواقع و ها أنا منصرف لتنظيم معركتى الانتخابيه. فتحمس عبد اللطيف و قال: سأفعل ذلك.ف.

ص: ٣٠٣

١- كان شبان آل الصلح فى ذلك الوقت الأشقاء عادل و كاظم و تقى الدين و عمادهم المتصدون لنضال الفرنسيين المعرضين أنفسهم لغضبهم و انتقامهم، و قد ورثوا عن والدهم عقارات و مزارع كان يمكن أن تجعل منهم أثرى الأثرياء لو أنهم احتفظوا بها و استكانوا إلى الراحة و الهدوء. و لكن وطنيتهم و إخلاصهم للقضية العربيه كلها أيا عليهم إلا- التجرد للجهاد الوطنى فحاربهم الفرنسيون فى أرزاقهم، فما زالوا يبيعون ما يملكون قطعه وراء قطعه حتى باعوا جميع ما يملكون و أنفقوا أثمانه فى الكفاح الوطنى الطويل، و حسبك أنه كان من أملاكهم فى بيروت منطقه (الروشه) فباعوها بابخس الأثمان، ثم أصبح ثمن الشبر من ترابها يعادل ثروه، كما باعوا مزارعهم فى جبل عامل، و عاشوا عيش الكفاف. و لما تحقق الاستقلال الذى تفتانوا فى سبيل تحقيقه، و افتقروا من أجل إنجازه كان جزاؤهم من أمتهم و ممن وثبوا على مغانمها جزاء سنمار. فإذا ببيشاره الخورى الذى قضى حياته كلها مطيه للفرنسيين يحكم باسمهم و ينفذ أوامرهم، ثم أصبح هو و زمرة من عملاء الاستعمار أصبحوا فى غفله من الزمن و بدعم من الإنكليز يسمون أنفسهم أبطال الاستقلال، إذا ببيشاره الخورى هذا و هو رئيس لجمهوريه الاستقلال!! يحول بسلطانه دون البطل الاستقلالى المناضل كاظم الصلح و بين الوصول إلى النياحه فينجح صلاح البزرى. و يفشل كاظم الصلح، و ينجح بعد ذلك فى بيروت أحد النكرات و يفشل تقى الدين الصلح. و لما اجتمعت بعد زمن عده عوامل ضاغظه كان لا بد معها من تكليف تقى الدين بتولى رئاسه الوزراء كان المسئولون يبدون و كأنهم يمنون عليه بذلك. و قد عمل تقى الدين فى رئاسه الوزاره بذهنيه رجل الدوله لا- بذهنيه المتسلط، فكان من أول ما فكر فيه إنشاء مجلس أعلى للثقافه، و قد نفذ فكرته فألف المجلس من نخبه من رجال الفكر، و إبعادا للفكره عن كل الاستغلال، فقد جعل أعضاء المجلس متطوعين فى عملهم لا يتناولون أى راتب أو تعويض مما لم يعهد له مثل فيما سسمى بالجمهوريه اللبنانيه، إذ كانت تتخذ مثل هذه الأمور و سيله لاثرء الأتباع و الأنصار كما جرى من قبل فيما سسمى بالمجلس الأعلى للسياحه. و لكن الأمر لم يطل فوضعت العراقيل فى وجه تقى الدين فأثر الاستقاله، و انتهى باستقالته أمر مجلس الثقافه.

٢- هو الطاغيه الفرنسى الذى كان أول أمره مستشارا فى صور، ترقى فصار مستشارا فى صيدا فطغى و بغى و فيه أقول: وا لهفتاه لأوطان ممزقهينهى و يأمر فيها العالج بشكوف انظر إليه تراه بينهم ضبعاظا و هم بين أيديه خواريف يا للرجال أما فى القوم ذو وشمياًبى الهوان أما فى القوم غطريف.

و كان وقت مقابلته لبشكوف قد دنا فأسرع ذاهبا إليه و انتظرته في دكان الحلاق.

فما هو غير قليل حتى عاد بمثل ما ذهب به من الحماسه، و قال لى: لقد طبقت تعليماتك حرفيا و تركت بشكوف يغلى غليانا من الغيظ، فما هو العمل الآن؟ و كيف لى بتحمل غيظ المستشار و غضب الافرنسيين؟..

فقلت له: و هل أنت أول من غاظ المستشار و أغضب فرنسا؟ ألا- ترى ما يجرى في سوريا؟ ألا- ترى زعماءها يجاهرون الفرنسيين بالعصيان و التمرد، فما ذا استطاعت فرنسا بكل جيروتها أن تفعل بهم؟ لقد نفت بعضهم لبعض الوقت ثم اضطرت إلى إعادتهم، فعادوا معززين مكرمين من مواطنيهم. و أنت لست دونهم و مواطنوك ليسوا دون مواطنيهم...

فقال: و كيف نتصرف الآن؟ فقلت له: الرأى أن نذهب الآن إلى بيروت، و هناك سنلتقى بدوى الرأى و نستمع إلى آرائهم، و نتكل على الله و نبدأ بإشعال المعركة. فشعرت أن الأمر قد هاله، فصمت صمتا طويلا، ثم قال امهلنى إلى ما بعد الظهر.

فخشيت أن تهمد حماسته و يتردد، و أن يقابل بعض الانهزاميين الخانعين فيثنوه عن عزمه. فقلت له: لا مجال للامهال، و علينا أن نغتنم كل ساعه للعمل الجدى، فهلم بنا إلى بيروت، فاستجاب و مشى معى بخطوات بطيئه و همه فاتره مستهولا ما هو مقدم عليه.

و أخيرا كنا فى السياره متجهين إلى بيروت، و كنت قد اتفقت مع أحد الأصدقاء أنه بمجرد أن يرانا نصعد السياره، يتصل بالهاتف بمنزل رياض الصلح ببيروت و يخبره بتوجهنا إليها.

و كان لعبد اللطيف فى بيروت ابن أخت هو فى الوقت نفسه صهره يسكن بيتا متواضعا فى محله البسطه فذهبنا إليه رأسا. و لما استقر بنا المقام و قبل أن يسالنى عن الخطوه التاليه قلت له: أن فتى من آل الصلح قد توفى، و يصادف هذا المساء يوم أربعينه، فالرأى أن نذهب إلى منزلهم معزين مشاركين فى ذكرى الأربعين.

و كنت أعلم سلفا بالصعوبه التى تنتظرنى فى إقناعه بتنفيذ هذا الاقتراح، لأن عداء مستحكما كان بين كامل الأسعد شقيق عبد اللطيف و بين رضا الصلح عميد آل الصلح، و مع أن الاثنين كانا قد انتقلا إلى رحمه الله منذ سنين، فان من المفروض أن تكون العداوه موروثه.

و صح ما توقعته فاستنكر هذا الاقتراح استنكارا صارما، و قال كيف يمكن أن أبدأ آل الصلح بالزياره! و لا سيما رياض ابن رضا و بيننا و بينهم ما تعلم!..

فلم أزل فى محاورته و تقريب الأمور إليه و تذكيره بان الدنيا تغيرت و أن لنا كل المصلحه فى هذه الزياره فيما نحن مقدمون عليه. فلان و قال لى ضاحكا: لقد هورتنى منذ مقابله بشكوف و لا بد لى من السير معك فى هذا التهور إلى النهايه لنرى إلى أين ستوصلنى فى النتيجة...

و كان من المتفق عليه أن يستقبل فى المنزل بحفاوه و أن يكون جماعه من وجهاء أحياء بيروت و فريق من الشبان حاضرين و أن يرحب الجميع به.

و فى أوائل الليل ذهبنا إلى منزل رياض الصلح فلقى هناك من التكریم و الترحیب ما أرضى كبرياءه، و آثار سروره فبدا منشرحا كل الانشراح.

و بعد أن أقمنا حوالى الساعه، التفت إلى مشيرا بان قد آن لنا أن نغادر المنزل، و كان الناس قد أخذوا بالانصراف، فهمست فى أذنه بضروره البقاء لأن اجتماعا سيضمنا مع بعض النخبه بعد انصراف الجمهور لندرس الخطوات التاليه. و هكذا كان، فلما لم يبق سوى المطلوب بقاؤهم التف حوله الحاضرون و ذاكروه فيما هو مقدم عليه و شجعوه و وضعوا أنفسهم فى تصرفه.

و قد كان لا- بد من جمع بعض أقربائه حوله لئلا يشعر فى نفسه فى أنه وحيد، و كان من يمكن جمعهم هم ابنه أحمد و ابنا أخته أحمد الناصيف و رياض التامر. و كان ابنه أحمد فى ذلك الحين شيئا مهملا لا يحس أحد بوجوده، و كان يسكن فى بيروت فى مكان على سطح فندق السترتال، فصار يحضر اجتماعاتنا و يرافق أباه فى تنقلاته، ثم تبين بعد ذلك أن الافرنسيين اتصلوا به و جعلوا منه جاسوسا على أبيه و علينا فكان ينقل إليهم أخبار كل تحركاتنا. و الذى كشف المسأله، أنه تقرر إقامه حفله لعبد اللطيف الأسعد فى منزل محمد مطر و هو أحد العاملين الساكنين فى بيروت. و لم يعلم بهذا القرار سوى رياض الصلح و عبد اللطيف و ابنه أحمد و أنا، و تفرقنا ليلا كل إلى منزله على أن يتم الاتصال بصاحب المنزل غدا.

و فى الساعه الثامنه صباحا كان صاحب المنزل يستدعى إلى مديره الأمن العام الفرنسى و يقال له أن حفله ستقام فى منزله لعبد اللطيف الأسعد، و أن هذا يثير عليه غضب السلطات، و أنه إذا وافق على إقامه الحفله فلا يلومن إلا نفسه.

فأبدى لهم استغرابه و أنه لا علم له بشيء من هذا. فقالوا له: اسال رياض الصلح أو حسن الأمين فعندهما الخبر اليقين.

و حوالى الساعه التاسعه و النصف كان يوافينا إلى منزل رياض الصلح و يقص علينا ما جرى مبديا استعداداه لتحمل مسئوليته الحفله فاعفينا من إقامه الحفله، و بقينا حائرين فيمن أوصل الخبر إلى إداره الأمن العام بهذه السرعة، و من هو المطلع على كل خطواتنا.

فإذا بنا أمام الحقيقه المره، و إذا بأحمد بن عبد اللطيف يتجسس على أبيه، مضافا إلى مهمته الأخرى و هى العمل على تثييط عزمه أبيه و محاوله تثنيه عن خوض المعركه.

و قبل ذلك عند ما قررنا أن ينتقل عبد اللطيف إلى جبل عامل ليعلم هناك عزمه على ما عزم عليه، و أن ينقل الخبر بنفسه إلى العاملين و أن يكون طريقه على النباطيه، و هناك يوافيه ولده أحمد و ابن أخته رياض التامر بمجموعه من الفرسان تنتقل معه من النباطيه مارا بها على أكبر عدد من القرى، فيدخلون القرية بخيولهم المطههه و حدائهم الفروسى الحماسى، فيثيرون العزائم و يستفزون النفوس.

و قسمت منطقته (بلاد بشاره)⁽¹⁾ أى ما يقع جنوب نهر الليطاني إلى قسمين: قسم يقصده رياض و قسم يقصده أحمد فيجمع كل منهما ما يستطيع جمعه من الفرسان - و كانت القرى يوم ذاك مملوءه بالخيل - ثم يسلكد.

١- هى المنطقه التى يكشر فىها أصدقاء آل الأسعد.

رياض طريق وادى السلوقى فوادى الحجير ففسر القاعيه فعقبه زوطر وصولا إلى النباطيه.

و يسلك أحمد طريق تل النحاس ففسر الخردله ثم صعودا إلى كفر تبنيت فالنباطيه. ثم يدخل الاثنان النباطيه كل من ناحيته بالأهازيج الحماسيه المثيره المتحديه، ثم يصطحبون جميعا عبد اللطيف منطلقين معه بموكبهم الفروسى إلى الطيبه. و يوم ذاك أطلقنا الحداء الذى اشتهر بعد ذلك فى جبل عامل، و الذى كان على الفرسان أن يرددوه و فيه ما فيه من التحدى العنيف لبشكوف بخاصه، و لفرنسا كلها بعامه.

و لقد اعتبره بعض الناس تحديا جزافيا مضحكا، و لكنه كان يوم ذاك أفضل ما ينشد و خير ما يهتف به فى مثل الظروف التى كنا فيها، و إذا كانت البلاغه - كما قالوا - مطابقه الكلام لمقتضى الحال، فلم يكن فى تلك الفتره أبلغ من ذلك الشيد:

بشكوف خبر دولتك سلطاننا عبد اللطيف

باريس مربوط خيلنا و رصاصنا يوصل جنيف

و لكن أحمد الأسعد أفسد الخطه كلها، فما أن وصل بفرسانه إلى تل النحاس، و كان فيه مخفر للدرك حتى استوقفه رقيب المخفر و قال أنه مكلف بان يرجوه بان يتصل هاتفيا بصيدا. و دخل أحمد إلى الهاتف. و روى الرقيب بعد ذلك ما سمعه: بأنه كان يسمع صوت أحمد و هو يقول:

أمرك... أمرك... و يكررها بين فتره و فتره.

و أخيرا قال: لا يكون إلا ما يرضيك.

و خرج أحمد إلى فرسانه و قال لهم: لقد تبدلت الخطه و عليكم التفرق إلى قراكم.

ثم اختار اثنين منهم و طلب إلى أحدهم أن يسرع فيلاقى رياض التامر قبل وصوله إلى النباطيه و يطلب إليه و إلى فرسانه العوده من حيث أتوا.

و يقصد الثانى أباه عبد اللطيف فى النباطيه ليطلب إليه العوده إلى بيروت.

و لما لقيت رياضا بعد ذلك و لمته على عودته، قال لى أنه فهم أن ذلك تقرر باتفاق الجميع، و أنه لو لم يستنتج هذا الاستنتاج و علم أن المصدر هو أحمد لواصل سيره إلى النباطيه.

ثم تبين بعد ذلك أن الذى كلم أحمد هو محافظ صيدا أسعد عقل، و لم يدر أحد بتفصيل الحديث الذى كان طويلا بينهما، و لم يظهر منه سوى كلمه: أمرك، و لا يكون إلا ما يرضيك التى سمعها رقيب الدرك.

و من ذلك اليوم بدأ أحمد يتجسس على والده و علينا، و يثبط عزائم والده و يحاول أن يثنيه عن إكمال الطريق.

قلت فيما تقدم أنه كان لا بد من جمع بعض أقرباء عبد اللطيف حوله، وأنه كان ممن يمكن جمعه هم ابنه أحمد و ابنا شقيقته أحمد الناصيف و رياض التامر. و بالفعل فقد رافق هؤلاء الثلاثة في أول الأمر عبد اللطيف.

أما ابنه أحمد فقد رأينا ما كان موقفه، و أما ابن شقيقته أحمد الناصيف فلم يلبث أن نكص على عقبيه و تخلى عن خاله. و بقى ابن شقيقته الآخر رياض التامر صامدا مع خاله لم يثته وعد و لا وعيد، ملازما له في حله و ترحاله. و كان مثل هذا الموقف في تلك الأيام التي كان فيها مجرد ذكر اسم (بشكوف) كافيا لدب الذعر فيمن يعتبرون أنفسهم من الشجعان - كان مثل هذا الموقف من رياض التامر نوعا من البطولة.

رحم الله رياض التامر ما كان أطيب شمائله و أصفى حديثه و أشجع قلبه و أسمى وفاءه و أعذب مجلسه.

رحمه الله بقدر ما كان نائيا عن الصغائر مولعا بالفضائل...

و نحن لم نتوقع أن ينجح عبد اللطيف في الانتخاب، لأن في يد السلطه كل الوسائل لاسقاطه مهما نال من أصوات الناخبين، و كان كل همنا أن لا يفوز مرشح السلطه بالتركيه، و كل خوفنا أن لا ترى السلطه معارضا يقف في وجهها.

على أن النتيجة فاقت ما توقعنا فقد لقي عبد اللطيف من الإقبال عليه و من التحمس له في أوساط الشعب ما لم يكن منتظرا. و لأول مره لا يبالي الجمهور غضب السلطه فيخرج على إرادتها.

و هكذا نجحت الحركه كل النجاح، و انكسرت حده بشكوف.

على أن بشكوف لم يسكت فعول على الانتقام من القرى التي تحمست لعبد اللطيف، فسلط عليها رجال الدرك ينكلون بأهلها، و راحوا يتفتنون بذلك فمن غرامات ماليه تفرض على الناس، و من سجن و اضطهاد و إذلال.

و وصلتنا أخبار ذلك إلى بيروت، فكتبت نص برقيه و عرضتها على عبد اللطيف ليوقعها، و كانت بهذا النص:

فخامه المفوض السامي.

لم يكف بشكوف أن زور الانتخابات لانجاح مرشحه حتى عمد اليوم إلى التكيل بالناس و إرهابهم و حجز حرياتهم و الانتقام منهم سالكا في كل ذلك مسلك كاربييه [كاربييه] في جبل الدروز.

فسألني عبد اللطيف من هو كاربييه [كاربييه] هذا؟ فقلت: هو الضابط الفرنسي الذي كان حاكما لجبل الدروز فطغى فيه مما كان السبب في الثوره الدرزيه الشهير على الفرنسيين سنة ١٩٢٥. فأعجبه ذلك و وقع البرقيه في الحال.

و عملت نسحا من البرقيه تصل إلى الصحف البيروتيه كلها لعل واحده تجرؤ فتنشرها، فلم تنشرها إلا جريده واحده، و ذلك أنها كانت قد عزمت على التوقف نهائيا بعد أيام. فأقدمت على نشر البرقيه مما أمكن إيصالها إلى الناس في جبل عامل.

و أذكر أننا زرنا في اليوم الثاني لارسال البرقيه أحد الصحفيين في إداره جريدته فقال: لما وصلتني البرقيه كادت يدي ترتجف و

أنا أمسك بها.

إذ أن البرقيه كانت تهديدا بالشوره المسلحه.

ثم كنت مضطرا لترك بيروت و الذهاب إلى دمشق لأنى كنت أتابع التدرج فى المحامات الذى لا بد منه بعد نيل إجازة الحقوق. و بعد شهر من وصولى إلى دمشق علمت أن الخانعين المتزلفين و فى طليعتهم أحمد

ص: ٣٠٥

الأسعد ابن عبد اللطيف نفسه حملوا عبد اللطيف على زياره بشكوف مما كان يعتبر توبه عما جرى!..

و لكن كان المقصود من الحركة قد حصل و اهتزت هيبه بشكوف و أمكن إيجاد معارضه مناهضه للفرنسيين.

مره أخرى مع عبد اللطيف الأسعد

تلقيت و أنا فى دمشق رساله من عبد اللطيف الأسعد يرجونى فيها أن أحضر إلى بيروت لمقابلته لأمر هام، و قد أكد هذا الرجاء كل التأكيد.

و عين لى المكان و الزمان الذين ألقاه فيهما. فكان لا بد لى من الذهاب إلى بيروت لأرى ما ذا يريد عبد اللطيف.

و وصلت فى الوقت المحدد، فوجدت عبد اللطيف الأسعد و ابنه أحمد و معهما رجلان آخران إخوان هما (ر.ب) و (م.ب)، فتعجبت من التقاء هؤلاء الأربعة فى مكان واحد مع أن لا رابطه بين الرجلين الأخوين و بين عبد اللطيف و ابنه، و لكن عجبى زال حين بادرنى عبد اللطيف بقوله: أنه لا ينسى الأيام التى صحبته فيها و التى كانت مشرفه له، و أنه لا ينسى ما بذلته من جهد فى سبيله لذلك فقد عزم على أن أكون و كيله و وكيل شركائه فيما يريدون بيعه من أراض شاسعه واسع، ثم شرح الأمر قائلا:

لقد عزمنا على بيع المناره و هونين و ما يلى ذلك من مساحات ممتده من قمه الجبل حتى سهل الحوله إلى شركة صهيونيه و أن هذين الحاضرين هما السمساران. و لما كان مالكو الأرض هم عديد من الشركات ورثوها عن جدهم خليل الأسعد، كما يشاركهم فى بعضها آل الخورى، لذلك طلبت الشركه أن يوكل الجميع و كيلا عنهم يجرى معاملات البيع باسمهم و يقبض باسمهم و يسجل باسمهم. و أنه (أى عبد اللطيف) قد طلب من جميع الشركاء أن أكون الوكيل لاثمانه إباى، و وفاء لى على ما عملته من أجله، و أنه أصر على أن لا تكون أجره هذا التوكيل هى ما تعرف عليه، بل تكون مبلغا كبيرا، و أن السمسارين قد قبضا عربونا لهذا البيع و سيدفع لى حالا هذا المبلغ من أصل العربون المقبوض.

و هنا قال أحد السمسارين أن المبلغ عنده و إنى أستطيع أن أقبضه متى شئت. و كنت فى ذلك الوقت فى ضيق مالى شديد اضطررت معه لأن أستدين نفقات السفر إلى بيروت من أحد أصدقائى الدمشقيين. و لكننى لم أكد أسمع هذا القول من عبد اللطيف الأسعد و من السمسار حتى انتفضت غاضبا و صحت فى الحاضرين: إنى لا أسمح لنفسى بان أقيم لحظه واحده فى هذا المجلس الدنس. ثم خرجت.

و بسبب رفضى قبول التوكيل تردد عبد اللطيف فى اختيار وكيل آخر و ظل فى تردده أكثر من شهر، ثم إذا به يصاب بشلل فى جنبه فينقل إلى المستشفى و لا يلبث أن يموت.

و بعد موته أفنع ابنه أحمد الورثه بان يكون هو الوكيل عن الجميع، و هكذا كان، فباع باسمه و اسم موكله تلك الأراضى للصهاينه⁽¹⁾ و بعد استقلال لبنان سنة ١٩٤٣ و خروج الفرنسيين منه أصبح أحمد بائع الأرض للصهاينه وزيرا فى الوزارات التى كان يؤلفها رياض الصلح و غيره، ثم أصبح رئيسا للمجلس النيابى. كما أصبح أحد السمسارين الأخوين وزيرا عده مرات، ينادى باسمه بين الزعماء.

كما كان أحمد الأسعد نفسه في إحدى المرات عضوا في الوفد اللبناني الذي ذهب برئاسة رياض الصلح لحضور أحد اجتماعات الجامعة العربية التي كانت تعقد في القاهرة للبحث في شؤون فلسطين المغتصبة من الصهاينة.

في العراق

العام ١٩٣٨ كان الشيخ محمد رضا الشيبى وزيرا للمعارف العراقيه في وزاره جميل المدفعى التي ألفها بعد اغتيال بكر صدقى و سقوط وزاره حكمت سليمان. و قد كان وجود الشيبى في وزاره المعارف عاملا في انتقالى إلى العراق للتدريس في معاهده. و كان لا- بد من هذه الخطوه. فاننا عند ما دخلت معهد الحقوق في الجامعه السوريه لم يكن في ذهنى العمل في المحاماه بعد التخرج لعدة عوامل منها: أن المحامات يقتضى التفرغ لها تفرغا كاملا مما كان سيشغل كل أوقاتي فيصرفنى عن تنفيذ ما كنت أشغل به ذهنى من البحث التاريخى بعد أن استهوانى هذا البحث كل الاستهواء. و منها أن التفوق في المحاماه في لبنان كان لا يمكن لمن لا- يجيد اللغه الفرنسيه، فان كثيرا من الأحداث كان أمر الفصل بها يعود إلى ما سسمى بالمحاكم المختلطه، و هى المحاكم التي تتالف من قضاة فرنسيين و لبنانيين و يرئسها الفرنسيون و منها محكمه التمييز، و المرافعات في هذه المحاكم باللغه الفرنسيه التي كانت معتبره لغه رسميه في جميع دوائر الحكومه حتى في مجلس النواب.

و معنى ذلك أن المحامى الذى لا- يجيد اللغه الفرنسيه لن يكون في الصفوف الأولى من المحامين، و أن ذلك محصور بخريجي معهد الحقوق في الجامعه اليسوعيه في بيروت، و لم يكن بإمكانى التسليم بالقيام بعمل لا يكون باب التفوق فيه مفتوحا أمامى.

و منها أن طبعى بعيد عن الانغماس في مشاكل الناس و خلافاتهم و الانشغال بخصوصاتهم، و هى خصومات يبعثها التكالب المادى، و أنه إن صح أن المحامى يستطيع أحيانا أن ينقذ بريئا أو يرد حقا سلبيا فإنه في كثير من الأحيان سيدافع عن مجرم و سيناظر ظالما و يدعم مغتصبا. و لم أكن أحتمل أن يكون عماد حياتى قائما على هذا الأساس.

و كنت أتذكر دائما ما رواه (اتلى) أحد رؤساء حزب العمال البريطانى و مترئس وزاراته من أن الذى صرفه عن المحاماه بعد أن كان قد بدأ العمل فيها ناجحا، أنه فى أوائل عهده فى المحاماه دافع عن متهم بجنايه كان قد أقنعه بأنه برىء و استطاع تبرئته مما اتهم به، ثم تبين له أن صاحبه مجرم عريق فى الاجرام.

لهذا كله لم يكن فى ذهنى أن أعمل محاميا، و فى الوقت نفسه كانت الأبواب الأخرى مسدوده أمام أمثالنا فى عهد الانتداب الفرنسى، و لم يكن فى إمكانى الانصراف إلى ما يستهوينى من الدراسات و البحوث لا سيما

ص: ٣٠٦

١- كان معظم هذه الأراضى داخلا ضمن فلسطين، و مساحه منه ضمن لبنان، و كانت إسرائيل لم تقسم بعد، و كان هم الصهاينه شراء أقصى ما يستطيعون شراءه من الأرض العربيه. و لما قامت إسرائيل بعد ذلك و أريد تحديد حدودها مع لبنان أصر اليهود على أن تكون حدود دولتهم على مستوى الأرض التي اشتروها مما هو داخل فى لبنان و بذلك استولوا على ما يقرب من ثلث أراضى قرى: عديسه، و مركبا، و حولا، و ميس، و بليدا، و عيترون، استولوا عليه اغتصابا بحجه تسويه الحدود. كل ذلك بسبب

التاريخيه منها، فرأيت في التدريس في معاهد العراق ما يقربني مما أحاوله.

لذلك ذهبت إلى العراق مرتاحا منشرحاً، فكان أن عهد إلى التدريس في ثانويه مدينه الحله المنشأه في نفس العام.

في الحله

و كان العراق يستقدم معظم مدرسيه من مصر إذ كانت حكوماته تنشئ في كل عام مدارس جديده، لذلك كانت محتاجه في كل عام إلى مدرسين جدد، فكانت تواصل استدعاء المدرسين من الخارج و كان اعتمادها في ذلك على مصر.

و من طريف ما كان يجري أحيانا أن المدرسه كان يصلها من المدرسين العدد الذي تحتاجه دون أن يراعى الاختصاص فيجد مدير المدرسه أمامه مثلا مدرسا للغه الإنكليزيه في حين أنه يحتاج إلى مدرس للتاريخ فيضطر إلى أن يسد فراغ التاريخ بغير المختص بالتاريخ.

و هناك قصه تروى عن مدرس لبناني عهد إليه بتدريس التاريخ و هو لا صل له بهذا العلم، فكان من مواضع تدريسه موضوع الدوله البويهيه فكان يلفظ كلمه (بويه) المضمومه ألباء المفتوحه الواو الساكنه الياء، كان يلفظها مضمومه ألباء و يجعل الواو حرف مد، و الياء مفتوحه و الهاء ساكنه (بويه). و كذلك يلفظ كلمه (المغول) المفتوحه الميم، المضمومه الغين، و التي واوها واو مد، كان يلفظها مكسوره الميم ساكنه الغين مفتوحه الواو ساكنه اللام (مغول).

و لما جئت مدينه الحله كان مدير الثانويه عبد الوهاب الركابي و هو من أكفأ رجال المعارف، إدارى حازم جيد الثقافه على جانب من طيب الذات و حسن الخلق و إنصاف الناس.

جئت أنا على أساس أنى مدرس للأدب العربى، و لكن المدير وجد أن لديه شواغر في الأدب العربى و فى التاريخ الحديث و فى الاقتصاد، فقسم دروسى بين هذه الثلاثه.

و قد وقع اختيارى لمدينه الحله موقعا حسنا فى نفسى، فاسرتنا فى الأصل عراقيه من الحله نفسها أو من ضواحيها جاء جدنا الأعلى منها إلى جبل عامل و استقر فى شقرا.

و إلى الحله ينتمى العلامه الحلى و المحقق الحلى و صفى الدين الحلى و السيد حيدر الحلى و السيد جعفر الحلى و غيرهم، و هى أسماء تتردد كثيرا فى بيوتنا و مجالسنا، لذلك وجدتني مسرورا بان أكون فى منابت أولئك الرجال و فى الأرض التى خرجت منها أسرتنا.

و لم تخيب الحله اغتباطى بوجودى فيها، فقد كان يغلب على سكانها الاتصاف بالصفات الحسنه، و كان كل من اتصل بهم يبعث الاتصال به الثناء عليه، فضلا عن وجود مجموعه طيبه المعشر أنيسه المجلس نيره الفكر.

لذلك كانت أيامى فى الحله و تلك السنه الدراسيه التى أمضيتها فيها من أمتع أيامى و أعذبها.

و الحله فضلا عن ذلك من أجمل المدن بفراحتها و نخيلها و رياضها و بساكنها، مما كان مبعثا للشعر و النثر فى نفسى فكان مما

قلته فيها قصيده فقدت منى و أتذكر منها هذه الأبيات:

ظل على شط الفرات ظليل و مرايع فتانه و حقول

ليست تمل العين رائح حسنها إذ كل حسن غيرها مملول

و زها الفرات لرائديه و أمرعت فى صفتيه تناؤف و سهول

تحلو على الأجراف ثمه بكره و يطيب فى ظل النخيل أصيل

يا صاحبى قفا فثمه موقف فى الجسر فواح الأريج ظليل

تترقق الأمواه فيه دوافقا فيروق مجرى دافق و مسيل

و يلذ للوارد عذب نسيمه و تشوقهم فيه صبا و قبول

مناظر الشط الجميله كم حلا فى جانبيك لرائديك مقيل

كم وقفه فى الجسر عاطه الشذى و الماء رهو و النسيم عليل

طال الوقوف بنا عليك عشيه إن الوقوف على الجمال يطول

يا نازلين على لشام و إنكم بين الجوانح فى الفؤاد نزول

ما لذ ورد للمشوق و لا ارتوى من بعدكم للمستهام غليل

يهتاجه الزهر النضير إليكم و يهزه فى الرافدين نخيل

أ و ما تزال على كروم (حريبه) ترد الملاح عشيه و تقيل

و هل العيون الدافقات كعهدنا تجرى على خضر الربى و تسيل

إنى ليصينى الخزام على النوى و يشوقنى الزيتون و الملول

و جد على شحط المزار مبرح و شجى بطيات الضلوع دخيل

و الواقع أن الفتره التى قضيتها بين التخرج من معهد الحقوقسنة ١٩٣٤ و بين وصولى إلى الحله سنه ١٩٣٨ كانت فتره ركود فى إنتاجى الكتابى و لا أستطيع أن أعد منها شيئا يذكر.

و كان عهدى الجديد خصبا فى هذا الإنتاج افتتحته بمقال فى وصف الرحله من دمشق إلى بغداد، و كان هذا أول مقال لى فى أدب الرحلات الذى كنت مولعا به مطالعه و طامحا إلى الكتابه فيه، ثم تتابعت بعده مقالات الرحلات التى كنت أقوم بها داخل العراق مما يؤلف جزءا كبيرا فى

ص: ٣٠٧

كتاب رحلاتي الذي أصدرته بعد ذلك و سميته (من بلد إلى بلد).

و كانت ثانی المقالات فی وصف رحله قمت بها مع الطلاب من الحله إلى سامراء.

و عدا القصيده اللاميه التي مر ذكرها نظمت قبلها قصيده كانت من وحى أول عيد يمر على و أنا بعيد عن الوطن و الأهل و منها:

أطل علينا كالح الوجه خابيا يثير شجوننا في الضمير سواجيا

أطل فلا القلب الطروب كعهده طروب و لا غر الليالي كما هيا

يهيم بحوراء اللحاظ و يجتلي على طلعه العيد الحسان الروانیا

لقد حال ذاك البشر غما و بدلت ضواحك نفسي في الحياه بواكيا

فلا العيد بساما يهيج صبايتي و لا الحسن وضاء يثير غراميا

تلقت للعيد المطل فلم أجد على جنبات العيد إلا ماسيا

ورائي من الأشواق ثم مفاوز و بحر من الأشجان طام أماميا

تلقت من شط الفرات فراغني على جنبات الشط ألا لا تلاقيا

لئن لذ للوراد عذب فراتهم فان فؤادي فيه ما زال ظاميا

يحن لماء البركتين و يشتهي مشارع في تلك الذرى و مساقيا

له الله خفاقا على غارب النوى يصارع أياما و يشكو لياليا

لقد شفه بعد المزار و هاجه إلى شجرات الرند إن ليس دانيا

فيا شجرات الرند في سامق الذرى سقيت على البعد الغمام الغواديا

فما راقني بعد (الدواوير) مربع و لا اعتضت عن (وادي السلوقي) واديا

و لا شاقني من بعد (غره) مبسم يشوق و لا هاج الغرام فؤاديا

سقى (الحومه) الخضراء صوب سحائب و روى هطول المزن ثم (الدغاليا)

مرايع يطلعن (السكوكع) أبيضاً و يزهين (بالدحنون) أحمر قانيا

نناجى مغانيها النصيره لوعت على متاى الدار المشوق المناجيا

و نسال عنها الركب هل كان زاهرا ربيع الحمى فيها و هل كان زاهيا

و الدواوير، و وادى السلوقى و الحومه، و الدغالى: أماكن فى شقرا، و السكوكع و الدحنون من أزاهيره البريه.

و للمقايسه بين هذا الإنتاج الشعري فى الحله و بينه بعد التخرج من معهد الحقوق يكفى أن تعلم أن آخر قصيده كنت قد نظمتها كانت وداعا للدروس عند التخرج ثم انقطعت بعدها عن الشعر إلى أن كانت القصيده اللاميه - ثم اليائيه فى الحله.

و كذلك الحال فى النثر. و لا يزال من أحب ما كتبه من النثر إلى نفسى، قطعه عاطفيه كتبتها فى الحله عند سماعى فى المذيع زجلا لعلى الحاج مذاعا من بيروت يقول فيه:

عطشان و قلبى محروق اسقيني من إبريقك ميا

و قد ضمنت هذه مقاله إلى كتاب (من بلد إلى بلد)، و هى و إن لم تكن من أدب الرحلات و لكنها لصيقه به.

و صرت بعد ذلك لا يصدر جزء من أجزاء مجله العرفان الشهريه إلا و لى فيه مقال، أما فى الأدب العربى أو فى أدب الرحلات، و مما نشرته فيها فى تلك الفتره دراسات عن الشاعر ابن هانى الأندلسى، و هى فيما أحسب أول دراسات تنشر عن هذا الشاعر المظلوم. و كذلك دراسات عن الشاعر ابن زيدون نشرت فى بعض المجلات البيروتية.

و ممن عرفتهم فى الحله متصرفها السيد سعد صالح، و هو من رجال الأمه العربيه المعدودين، فقد نشا عصاميا و كون نفسه بنفسه، و كان يجمع الذكاء الوقاد و الموهبه الأديبه و الخطايه و الحنكه السياسيه و الرأى الراجح و الوطنيه الصادقه. و كان كل ما فيه يؤهله للزعامه الشعبيه النافذه. و لما احتيج إليه ليكون وزيرا للدخليه رفض قبول الوزاره ما لم تطلق حريه تشكيل الأحزاب فكان له ما أراد. و لما استقال من الوزاره و انصرف إلى المعارضه المنظمه كانت قد تهيأت له كل وسائل القياده الشعبيه الراسخه و أصبح ينظر إليه نظره الزعيم الذى أخذت تتجمع حوله القلوب، و بينما هو يخطو خطواته المتتابعه انقض عليه داء عضال بدأ يهدده طيله سنتين هدا بطيئا و لكن متمكنا، و لم تنجح فى مقاومته علاجات العراق و أوروبا، حتى انظفا سراج سعد فى غير أوانه! فانطفات بانطفائه شعله مروءات و نخوات و أريحيات و ألمعيات.

و من الطرائف فى الحله أن الحى الذى سكناه أنا و زميلان مصريان كان اسمه حى (التعيس)، و لا أدرى من هو هذا التعيس الذى أطلق الحليون لقبه على هذا الحى، و لا ما هو نوع تعاسته و لا ما هى أسبابها.

و لو كنا ممن يتشاءمون من الأسماء و المناظر على الصوره التى يتهمون ابن الرومى بها لرفضنا أن يكون منزلنا فى حى (التعيس)، و لكننا لم نكن كذلك و رضينا بان نقيم فى المكان الذى كان يوما مصدرا لتعاسه الناس.

و إنصافا لهذا الحى فاننا نشهد أن النعاسه لم تطرقنا فيه، بل كنا على الكثير من السعاده و البشر، و هو الجو العام الذى كانت تضيفه علينا الحله سواء من حيث جمالها الطبيعى الناضر، أو من حيث أصاله أهلها فى خلال الخير.

و من ذكريات الحله أننا فوجئنا فى صباح ٤ نيسان سنه ١٩٣٩ بنبأ مصرع الملك غازى مصرعا مروعا، و كان لغازى حب فى نفوس الناس و كانوا يعقدون عليه آمالا كبيره، لذلك كان لموته فى عنفوان شبابه صدى حزن عميق أثار الجماهير أى إثارة.

و بعد مرور ثلاثه أيام على وفاته أقيمت له فى الحله حفله حافله دعيت إلى الخطابه فيها، فألقيت كلمه أنقلها هنا ليرى القارئ كيف كنا نفكر فى تلك الأيام. و قبيل وفاه غازى كانت الاضطرابات فى سوريا قائمه على الفرنسيين، و قد انتصر العراقيون لإخوانهم فى بلاد الشام فعقدوا الاجتماعات و قدموا الاحتجاجات و أقاموا المظاهرات.

و كانت للملك غازى محطه إذاعه خاصه فى قصره (قصر الزهور) كان يشرف عليها بنفسه و كانت صدى لكفاح السوريين تنشر أخبارهم و تثير همهم. و فى يوم من الأيام ألقى منها أحد المدرسين السوريين خطابا حماسيا أستصرخ فيه الملك غازى، فكان يكرر فى خطابته نداء: يا غازى... يا غازى... مستنصرًا به على الفرنسيين، مستنجدًا به للسوريين. و فى اللحظه التى أنهى فيها الخطيب خطابته تعالى صوت فى المذياع: لبيك... لبيك.

و كانت مواقف غازى الوطنيه و مجاهرته بالعداء للانكليز و للفرنسيين معا، هذه المجاهره التى كانت تتجلى أكثر ما تتجلى فى إذاعه (قصر الزهور) تخرج الحكومه العراقيه و تثير غضب الإنكليز. لذلك شاع يوم ذاك أن موت غازى لم يكن طبيعيا و أن أمرا دبر للتخلص منه.

و هذه هى كلمتى فى حفله تأبين الملك غازى:

إننى يا ساده باسم تلك العصب من الفتیان النضر الذين يهونون تحت الرصاص فى بلاد الشام أنحنى أمام هول الفاجعه فى العراق، و أننى باسم ذاك الدم الموار على سهول الغوطتين و فى محافى النيربين أخشع أمام دم الغازى.

و إننى من أعماق القلب أحيى هذا الجمع الكريم و أحيى هذه الأرض الطيبه و أشكر الظرف الذى ساقنى إليها فتعرفت إلى هذه الوجوه النيره و الطلعات المشرقه.

بالأمس هب العراق يواسى الشام فى فجيعتها، و تدافع بنوه غضبا للظلم النازل بها، فما أدرى إن كان فى موقفى هذا بعض المقابله بالمثل.

و لكن كلا- يا ساده: فان غازى لم يكن للعراق فحسب، فابن الشام شريك ابن العراق فى هذا المصاب، و غازى قبل أن يكون ولى عهد العراق فى حياه أبيه كان ولى عهد الشام. و فيصل قبل أن يكون ملك العراق كان ملك الشام، فموقفى بينكم ليس إلا موقف المفجوع بمليكه لا موقف المعزى لإخوانه.

إنكم لتسمعون تلك الصيحات الناريه التى تدوى بها بطاح الشام، و ترون ذاك الصراع الدموى فوق ثرى بردى.

إنها صيحات الشعب الأنوف يأبى أن يمد يديه للأغلال و رجليه للأصفاد. إنها أصوات فتیان العرب الغطاريف يأنفون ذله الاستعباد و عار الهوان، قد أجمعوا أمرهم على الوثبه، فإذا فاتهم الحياه الشريفه فلن يفوتهم الموت الشريف.

لقد قيل قديما:

لا يعرف الشوق إلا من يكابده و لا الصبابه إلا من يعانيتها

فإذا ما حدثتكم حديث الجهاد فقد كابدتم هذا الجهاد و عانيتموه و برزتم فيه، فإخوانكم اليوم لا يزالون من حيث ابتداءوا يناضلون المستعمر بالدم و المال، و لقد كان لهم من أبى الغازى ثم من الغازى بعده حصنا حصينا و سندا معيننا، و لقد تعالى صياحهم بالأمس: وا غزياه مستصرخين، ثم تلفتوا فصاحوا: وا غزياه... و لكن متفجعين، فشتان بين الصيحتين!...

يا فتیان العراق: إن أمتين كبيرتين هما اليوم حديث العالم، كانتا حيننا من الدهر و كل واحده منهما قبائل و شعوب، فهبت فى إحداهما (بروسيا) و هبت فى الثانيه (بيدمنت) فقادت الأولى ألمانيا إلى وحدتها الجباره، و قادت الثانيه إيطاليا.

و إننا نحن العرب الطامحين إلى مملكتنا الكبرى نتلفت إلى القطر العربى الذى يستطيع أن يمثل فى العرب دور بروسيا فى ألمانيا

و بيدمنت فى إيطاليا فلا نجده إلا فى العراق.

لقد كانت سوريا تستطيع أن تكونه، و لكن سوريا الشهيدة رماها الله بعدو جاهل ظل على حربها طوال عشرين عاما حربا لا تهدأ. فسوريا لا تستطيع ذلك ما دامت و فى كل واد منها دم مظلوم و ثار مطلوب.

فليس فى الميدان اليوم إلا-العراق. إن حدودكم ليست فى قلب الصحراء على أبواب الرطبه، إن حدودكم على ساحل البحر المتوسط، و ليس مرفا بغداد هو البصره: إن مرفا بغداد هو بيروت و حيفا.

يا فتیان العراق: ليست المملكه المؤلفه من خمس ملايين هى المملكه التى تروى الظما القومى و ترضى الطموح الوطنى، بل هى المملكه التى تضم العشره الملايين ثم عشرات الملايين، هى المملكه التى تضم العراق و سوريا و فلسطين أولا، ثم البلاد العربيه جميعا ثانيا.

فهذه كانت أمنيه فيصل و أمنيه الغازى. و إذا كان فيصل الأول و شبل فيصل الأول قد ماتا قبل أن يراها، فان فيصلا الثانى سيرها إن شاء الله (انتهى الخطاب).

تعيين الوصى

و لما كان ولى العهد فيصل قاصرا كان لا بد من تعيين وصى له يتولى شئون الملك. و كانت أنظار الناس كلها متجهه إلى الأمير زيد عم غازى باعتباره أكبر رجل فى الأسره سنا و تجربه و قرابه، و لكن فوجئ الناس بتعيين عبد الإله خال فيصل.

و قد تبين أن الأمير جرى على هذه الصوره: كان رئيس الوزراء يوم ذاك هو نورى السعيد و له بحكم منصبه و بحكم أشياء أخرى القول الفصل فى هذا الموضوع و كان هواه مع عبد الإله لا حبا بعد [بعبد] الإله، بل لأنه كان يرى فى الأمير زيد رجلا متمرسا بالحياه لا يسلس القيادة، بينما يرى فى عبد الإله شابا غرا من السهل تطويعه، و لنورى السعيد مطامعه فى السيطرة على حكم العراق، و هذه السيطرة لا تتم بوجود رجل قوى الشكيمه مجرب كالأمير زيد.

و قيل يوم ذاك أن لنورى السعيد تجاربه مع الأمير زيد أيام كانا يعملان معا فى دمشق بعد انتهاء الحرب العالميه الأولى.

و لما كان نورى السعيد لا يستطيع التظاهر بالانفراد فى اختيار الوصى لذلك دعا رؤساء الوزراء السابقين و بعض من إليهم من غيرهم و طرح عليهم أمر اختيار الوصى، فكان الجميع مع اختيار الأمير زيد، ما عدا طه الهاشمى الذى اعترض بشده على هذا الاختيار محتجا لذلك بان الأمير زيد أيام كان وزيرا مفوضا فى أنقره أحب زوجه موظف تركى و بادلته الحب فسعى لتطليقها من زوجها و تزوجها، فلا يجوز أن يكون الوصى على عرش العراق زوجا لمثل هذه المرأه...

فاقتنص نورى السعيد هذا الرأى و أعلن ميله إليه، ثم دعم رأيه بان للملكه عاليه أم فيصل رأيا الذى يجب احترامه فى هذا الاختيار، و أنها أبلغت إليه بان غازى كان قد أسر إليها بأنه إذا طرأ عليه طارئ فإنه يختار عبد الإله للوصايه على فيصل.

و سواء أصح ما زعمه نورى السعيد من رأى غازى أم لا يصح، فمن

الطبيعى أن يكون ميل الملكة عاليه إلى أخيها أكثر من ميلها إلى عمها، فاجتمع رأى نورى و رأى عاليه إلى حجه طه الهاشمى، و أيقن الحاضرون بان نورى مصمم على اختيار عبد الإله فكان أن طلبوا إلى نورى أن يبقى أمر آرائهم سرا لئلا يغضبوا عبد الإله عليهم و كل منهم يطمح بالتقرب إلى من ستؤول إليه الوصايه على عرش العراق، و بالرغم من أن نورى وعدهم بذلك فان الأمر لم يبق سرا.

و من تصارييف القدر العجيبه أن الأمر انتهى بين عبد الإله و نورى السعيد إلى التنافر و التخاصم، و صار لهذا جماعته و لهذا جماعته، حتى أن مرشحي السلطه للانتخابات النيابيه - حين يكون نورى رئيسا للوزراء - كانوا قسمين: مرشحي البلاط، كما كانوا يسمونهم و مرشحي الحكومه.

كما أن الأمر انتهى بين طه الهاشمى و عبد الإله إلى الشر، و يكفى أن نشير هنا إلى ما ذكره كامل الجادرجى فى مذكراته عن الاجتماع الذى دعى إلى حضوره رؤساء الوزراء السابقون و رئيس الوزراء العامل مصطفى العمرى مساء الثالث من تشرين سنه ١٩٥٢ و الذى حضره أيضا رؤساء الأحزاب المعارضه: طه الهاشمى رئيس الجبهه الشعبيه، و مهدي كبه رئيس حزب الاستقلال، و كامل الجادرجى رئيس الحزب الوطنى الديموقراطى.

قال كامل الجادرجى فى الصفحه ٥٥١ من مذكراته:

"اجتمعت بطه الهاشمى و مهدي كبه فاتفقنا على أن نكون مستمعين أكثر منا متكلمين و أن يقتصر بحثنا فيما إذا اضطررنا إلى الاجابه المسهبه على شرح المذكرات التى قدمناها".

و بعد أن يستعرض الجادرجى أقوال الآخرين فى الاجتماع المذكور يقول:

"و تكلمت أنا و شرحت وجهه نظر الحزب التى جاءت فى المذكرة شرحا مسهبا نوعا ما كما مهدي كبه... ثم تكلم طه الهاشمى فقال: من منكم أو منا كان حرا فى تأليف وزارته؟ و من منا كان حرا فى الكثير من أعماله؟. إن الحكم يجب أن يكون بعيدا عن الاستغلال، ثم استدرك بقوله: إننا جميعا لم نبتعد عن استغلال النفوذ فيجب أن ينتهى هذا الدور...

و كان قد تكرر خروج الأمير من الاجتماع و عودته إليه، فلما عاد أخيرا إليه قال: كلكم تكذبون متى أنا تدخلت فى أمور الدوله؟ متى أبديتم النصح لى و لم أسمع؟. متى استغليت نفوذى؟.

ثم وجه الخطاب إلى طه الهاشمى قائلا: أنت تتهمنى باستغلال النفوذ. أنت كذاب، أنت استغليت ضعفى فى الوثبه و كتبت فى الجرائد ذلك المقال ضدى كان كله كذبا. أنت كذاب. تقول أنه سيقع فى العراق مثل ما وقع فى مصر. أنا لا أخاف ذلك. أنا لا أهتم بهذه الأمور...

ثم دخل الأمير مع طه بمشاجره حول أمور وقعت سنه ١٩٤١ فأنكرها طه فقال الأمير: ما أقوله هو الصحيح أنت تكذب. أنت كذاب...

و قد أراد طه أن يترك القاعه - عند ما بدأ الأمير بتوجيه الاهانات إليه - و لكن الأمير صرخ بوجهه قائلا: اجلس اجلس... لا

تخرج... تحمل ما سأقوله لك، فأطاع الهاشمي الأمير طاعه عسكريه و جلس".

و كذلك فان الملكة عاليه نفسها بدت و كأنها نادمه على ما ورطت به أخواها في وصايه العرش بعد أن ساءت الحاله العراقيه و ما عرض لعبد الإله من مشاكل و متاعب و اتهامات و نقمه لا سيما بعد الحركه التي عرفت بحركه رشيد عالي الكيلاني و اضطرار عبد الإله إلى اللجوء إلى قاعده الحبانيه و انتقاله بعد ذلك إلى الأردن، ثم عودته إلى بغداد إثر فشل الحركه، و ما بدا به من أنه عاد في ظل الجيش الانكليزي. ثم ما توالى بعد ذلك من انتفاضات شعبيه لم تهدأ، مما جعل عبد الإله و كأنه المسئول عن كل ذلك.

و كانت عميده معهدنا (أمت السعيد) على صله وثيقه بالملكه عاليه و بعبد الإله و بقيه الأميرات إذ أنه كان قد عهد إليها بتعليمهم و الاشراف على تربيتهم أيام طفولتهم فظلت لصيقه بهم بعد ذلك تقضى أوقاتا كثيره في مجالسه الملكه عاليه و الأمير عبد الإله.

و كنت موضع ثقه العميده و اعتمادها في المعهد، فكانت تحدثني في جلسات خاصه عن كثير من شئون الأسره المالكه. و مما قصته على: أن الملكه عاليه كانت تتألم لأخيها موقعه اللوم على نفسها بأنها كانت السبب في تحمله مسئوليه الوصايه و ما جرته عليه.

و مما حدثتني به العميده: أن عبد الإله كان شديد التألم من مواقف عمه الأمير ثم الملك عبد الله، و أنه كان يقول: أن عمي يورطنا في تصرفاته فيتصرف هو و نحمل نحن جميعا تبعه تصرفاته، و أن عبد الإله كان أحيانا يضرب جبهته بيده غيظا من عمه عبد الله و يصرخ مستنكرا، و لكنه يكتم ذلك عن الناس.

و كان سبب خلاف عبد الإله مع نوري السعيد، إنكاره على نوري الاستسلام الكامل للانكليز، و عند ما كان يهيم باقضاء نوري - و قد أقصاه في بعض الحالات - كان الإنكليز يفرضونه عليه فرضا.

و أذكر أنه عند ما دخلت الجيوش العربيه فلسطين سنه ١٩٤٨ كان الملك فيصل مع والدته في لندن يتابع دراسته، و كانت ترافقهم هناك العميده أمت السعيد، و كانت تراسلني من لندن إلى بغداد، و مما فهمته من رسائلها أن عاليه كانت مغتبطه كل الاغتباط من حماسه أخيها عبد الإله لدخول الجيش العراقي إلى فلسطين و من خطابه في قطعات الجيش العراقي الزاحقه خطابا عاطفيا حماسيا مؤثرا.

كما كانت مغتبطه من قبل من ذهب أخيها إلى القاهره و مساهمته في إقناع المصريين في المشاركه في الحرب مساهمه كانت فعاله، بما في ذلك من تضحيه شخصيه منه بقاء الحاج أمين الحسيني في حين أن عبد الإله يعتقد - عن صواب - أن مصائبه في اضطراره للجوء إلى قاعده الحبانيه ثم الذهاب إلى الأردن، ثم الظهور في العوده إلى بغداد كمن هو عائد بفضل الحراب البريطانيه، إن مصائبه هذه كان سببها الرئيسي الحاج أمين.

و كان اغتباط الملكه عاليه بمواقف أخيها هذه يرجع إلى أنها ستكون عاملا في تقريبه من الشعب.

وقد كتبت إلى العميد أمّ السعيد فيما كتبت من لندن أن أبعث

ص: ٣١٠

إليها بقصاصات من الصحف التي تتحدث عن مواقف عبد الإله لا سيما الصحف غير العراقية، كما سالتني في بعض رسائلها أن أكتب لها عما أتصوره عن موقف الرأي العام العربي من عبد الإله في هذه الظروف.

و لم أكن أشك في أن كل ما كتبه العميده كان بطلب من الملكة عاليه، و أن الملكة كانت تطلع على رسائلها لي و على أجوبتي لها.

و لعدم شكى بذلك كنت أتعمد مصارحتها بالحقائق، فكان في بعض ما كتبت إليها: أن مواقف الأمير تلقى صدى حسنا و لكن ليس من السهوله و لا بهذه السرعه يمكن أن يزول من النفوس ما كان عالقا بها - سواء بالحق أو بالباطل - من تأثير الدعايات القويه المؤثره. و أن ثقه الناس و اكتساب حبههم و عطفهم تحتاج إلى أعمال بطوليه متتابعه...

و كان من حسن حظ الملكة عاليه أنها ماتت قبل أن تشهد ما حل بابنها و أخيها بعد ذلك.

استطراد لا بد منه

و ما دمنا في الحديث عن حرب سنه ١٩٤٨ و دخول الجيوش العربيه إلى فلسطين فلا بد من إشاره موجزه إلى بعض الأضاليل التي نشرت فانتشرت عن تلك الحرب و التي تريك أن التاريخ زيف في زيف و أن الناس كتبوه حسب أهوائهم، و يكتبونه الآن حسب أهوائهم و سيظلون يكتبونه حسب أهوائهم...

و أنه إذا قيل من قبل أن التاريخ يكتبه المنتصرون، فاننا نستطيع أن نقول اليوم بان التاريخ يكتبه لا المنتصرون فحسب. بل يكتبه الأبرع في الادعاء و الأقوى في البث و الأنشطة في النشر و الأوسع حيله في التضليل و الأمهر في الاستهواء.

لقد كتب يوم ذاك عن موقف الجيش العراقي ما كتب من الشر المريع و اتهم قاداته بما اتهموا به، و انتشرت كلمه (ما كو أوامر) التي نسبت إلى أولئك القاده زاعما من اخترعها أن القاده العراقيين كانوا يجيئون بها من يطلب إليهم التقدم.

إن ما فعله الجيش العراقي و ما أنكر على ذلك الجيش ما فعله، و ما أشاعه المشيعون عنه، و ما سجله المسجلون و أذاعه المذيعون و كتبه الكتاتيون مما لا يزال منتشرًا بين الناس حتى اليوم و سيظل هو الحقيقه بين الناس حتى آخر يوم.

أن هذا وحده هو الدليل على زيف كل ما كتبه كتب التاريخ عند من عرفوا حقائق ما جرى للجيش العراقي في ذلك الوقت.

و قد كنت بحكم اتصالي الوثيق بالسفاره اللبنانيه يوم ذاك - إذ كان سفيرها المناضل الوطني و المفكر العربي كاظم الصلح - مطلعًا على كثير من الحقائق و المفاوضات، و إنى لآسف كل الأسف إنى لم أسجل في تلك الفتره الأحداث اليوميه حدثًا حدثًا. و لم أكتب وقائعها واقعه واقعه، و بذلك ضاع كثر من الأمور التي لو سجلت يومها لكان فيها جلاء ما لم يجل من الحقائق و نقض ما برز من الأضاليل.

و قبل الدخول في هذا الموضوع لا بد لي من الإشاره العابره إلى موضوع آخر هو وثيق الصله بموضوعنا، و هو الحقيقه في تحول مصر من الابتعاد عن العروبه إلى الاقتراب منها ثم الدخول في صميمها و المشاركه في حروبها، فقد تجوهل الرجال الذين

حققوا ذلك و نسى مدونوا التاريخ ما فعله أولئك الرجال، لأن التدوين كان فى أيدى من يكرهونهم و يريدون الغض منهم...

و من حقى هنا أن أقول إنى لم أكن أحب أكثر أولئك الرجال، و إنى كنت فى عواطفى من خصومهم، لا لشيء سوى إنكارى عليهم تصرفاتهم الأخرى، و لقد سرنى سقوط من سقط منهم.

و لكن ذلك لا يمكن أن يحولنى عن تسجيل ما لهم من فضل و حفظ ما لهم من حق. و إذا كنت قد عاديتهم فى الحق، فانى أنصفهم فى الحق...

فانا مثلا كنت و لا أزال معجبا (بالوفد) و رئيسه مصطفى النحاس، مقدرًا كل التقدير لنضاله الوطنى و قيادته الشعب المصرى فى الحرب على الإنكليز و على استبداد الملك فاروق.

فانا وفدى متحمس للوفد مناضل عنه فى حين أن لا صله عمليه لى بنجاحه أو فشله، و لا صله شخصيه بأحد من رجاله. و لكن متابعتى لمسيره الوفد و رئيسه مصطفى النحاس جعلتنى (وفديا) و أنا فى لبنان ككل الوفديين فى مصر.

و بهذه الروح وحدها، و بهذا الخط وحده أنصفت و ساظلت أنصف أعداء الوفد الألداء فيما فعلوه من خير.

فانا أكره على ماهر، و هذا الكره متسبب عن عداته للوفد و رئيسه مصطفى النحاس و دسه الدسائس عليه، و لما كان هذا هو مصدر الكره، فإذا فعل على ماهر فعلا حسنا فانى أسجله له و أحياه من أجله.

و كذلك الملك فاروق، و لكن هذا لا يمنعنى من أن أنصف فاروقا حيث يجب إنصافه.

لقد نسب الناسون إلى من نسبوا إدخال مصر فى الحظيره العربيه و مشاركتها فى معارك العرب و إعلانها أنها جزء من الأمه العربيه، و مع أن فضل هؤلاء فى هذا الموضوع لا ينكر أبدا بل هو موضع تقدير كبير، فان من الحق أن نقول أنهم ليسوا هم من فعل ذلك، بل جاءواهم [جاءوهم] و وجدوا مصر فى قلب الأمه العربيه و فى صميم معاركها، فاستمروا فى هذا المسار و أكسبوه كثيرا من البريق.

إن أول من تبنى قضيه فلسطين من المصريين و اعتبرها جزءا من همهم و موضوعا أصيلا من مواضعه الكفاحيه هو مصطفى النحاس عند ما كان رئيسا للوزاره المصريه سنة ١٩٣٧. و كانت مصر قد عقدت معاهدتها مع بريطانيا و دخلت عصبه الأمم، فأوعز النحاس لمندوب مصر فى العصبه أن يتبنى قضيه فلسطين فى جلسات العصبه و يدافع عنها.

و لأجل أن نقايس بين موقف مصطفى النحاس و بين وقف من جاءوا بعده يكفى أن نقول أنه بعد انتهاء الحرب العالميه الثانيه أخذ الإنكليز يصفون مخلفات الحرب و يتخلصون منها ببيعها بابخس الأثمان. و كان من ذلك فرقه مدرعات كامله عرضوا على إسماعيل صدقى رئيس الوزاره المصريه يوم ذاك

أن تشتريها الحكومة المصريه. و كان من أسموا أنفسهم (السعديين) مشاركين فى تلك الوزاره و كان رئيسهم محمود فهمى النقراشى عضوا فيها، فرفض إسماعيل صدقى هذا الطلب، و قال لما ذا نشترى فرقه مدرعات فنحن لن نحارب أحدا. قال هذا لأن فلسطين لم تكن فى ذهنه أبدا.

و هكذا ضاعت الصفقه البخسه الثمن من العرب لأن إسماعيل صدقى و حكومته لا يرون لهم علاقه بفلسطين. و يقدر بعض العسكريين العرب ما كان يمكن أن يكون لهذه الفرقة المدرعه من نتائج حاسمه لو أنها دخلت مع الجيش المصرى فى معاركه فى فلسطين مع اليهود.

هكذا كانت نظره بعض المصريين و الحكم المصرى الفلسطين، و هكذا رأوا أن الجيش المصرى لا يحتاج إلى فرقه مدرعات بخسه الثمن لأنه لن يحارب أحدا.

و لكن النحاس كان يرى عكس ذلك فى تبنيه قضيه فلسطين.

و إذا كانت خطوه النحاس هى الخطوه الأولى، فقد خطت مصر فى عهد الحكم المسيطر عليه فاروق الخطوه الكبرى نحو عروبه مصر و اعتبار شعب مصر جزءا من الأمه العربيه التى تعتبر قضيه فلسطين قضيتها.

ففى أوائل سنه ١٩٣٩ و قد بدت طلائع الحرب العالميه الثانيه و بدا أن لا-بد من وقوعها، أراد الإنكليز أن لا يدخلوا تلك الحرب، و هم فى عدااء مستحكم مع العرب، بسبب قضيه فلسطين، فدعوا إلى مؤتمر فى لندن يتمثل فيه جميع العرب ليكون الحل - إذا وقع الحل - حلا عربيا جماعيا.

و لما كان النحاس قد أدخل قضيه فلسطين فى صلب القضايا المصريه و أصبحت مصر من العرب المسئولين عنها، فقد دعيت مصر إلى حضور هذا المؤتمر مثلما دعيت كل الحكومات العربيه. و كان فاروق هو المسيطر على الحكم المصرى فى تلك الفتره، و قد كانت هذه السيطره تتم له حين يستطيع إقصاء الوفد عن الحكم و الإتيان بوزاره منتميه إلى (أحزاب الأقلية) كما كان يعبر عنها يوم ذاك و هى حزب الأحرار الدستوريين و حزب السعديين و من إليهم التى تصل إلى الحكم باراده فاروق بعد تزوير الانتخابات و التلاعب باراده الشعب.

و لكى بيدى فاروق اهتمامه بهذا المؤتمر و تبنيه له انتدب له فيمن انتدب اثنين ينتميان إليه شخصيا و يمثلانه هو بالذات أكثر مما يمثلان الحكومه، و هما الأمير محمد عبد المنعم أحد أمراء العائله المالكة و ابن الخديوى السابق عباس حلمى و جعله رئيسا للوفد، و كان سبب اختياره له أن وفدين عربيين آخرين هما الوفد اليمنى و الوفد السعودى كان يرئس كلا منهما أمير من أمراء العائله المالكة فأراد أن يبيهما فى تبني القضيه الفلسطينيه و أن يدل بأنها من اهتمام أسرته المالكة بالذات.

و الرجل الثانى الذى اختاره هو رئيس الديوان الملكى على ماهر، و بذلك كان حضور فاروق الشخصى فى الوفد حضورا بارزا.

و إذا كان الأمير محمد عبد المنعم هو رئيس الوفد فان المحرك الفعلى له هو على ماهر، و قد كانت مواقف على ماهر فى إداره الوفد مواقف عربيه أصيله بارعه.

و من موافقه يوم ذاك أن الإنكليز عرضوا على العرب أن يسمحوا بدخول ٧٥ ألف يهودى إلى فلسطين خلال خمس سنوات و بعد ذلك تمنع الهجرة.

و كانت قضيه هجره اليهود إلى فلسطين هى أهم شىء فى نظر العرب، فرفض الوفد الفلسطينى هذا العرض بشده فسأيرته الوفود العربيه كلها فى هذا الرفض، و الوحيد الذى قبل العرض و لم يسأير الوفد الفلسطينى كان على ماهر، و أدى الأمر إلى حصول تشاد بينه و بين الوفود العربيه، و لكنه ما زال بهم حتى وافقوه.

و يقول على ماهر فيما تحدث به بعد فشل المؤتمر و انفضاضه: "كنت أريد أخذ إمضاء بريطانيا على صك رسمى يحدد الهجرة و يغلق أبواب فلسطين، و لا- خوف بعد ذلك على البلاد.. فلما قلنا للإنكليز أننا نوافق على اقتراحكم و نقبل هجره العدد الذى تطلبونه، إذا بهم ينكلون و يعلنون فض المؤتمر، و بذلك صحت نظيرتى فى الإنكليز".

و الحقيقه أن الإنكليز كانوا يريدون أن ينسبوا فشل المؤتمر إلى العرب فعرضوا الاقتراح المذكور لاعتقادهم أن الوفد الفلسطينى سيرفضه و ستسأيره الوفود العربيه، و هذا ما حصل، و لكن على ماهر أفسد خطتهم، و أظهر أنهم هم الذين لا يريدون حل قضيه فلسطين إلا وفق ما يريد اليهود.

أما الخطوه الكبرى نحو تعريب مصر و إبرازها عربيه صريحه، و اعتبارها جزءا لا يتجزأ من الأمه العربيه فهى الخطوه التى خطأها مصطفى النحاس يوم كان رئيسا للوزراء سنه ١٩٤٣. فدعا الحكومات العربيه إلى ما أسماه (مفاوضات الوحده العربيه)، و هى أول مره ينطق بها مصرى بهذه الجملة (الوحده العربيه) باعتبار مصر جزءا من تلك الوحده.

نطق بها النحاس لا فى مجلس خاص و لا فى تصريحات عابره، بل نطق بها باعتباره رئيسا للوزاره المصريه، و كان نطقه بها فى مجلس ممثل للشعب المصرى.

ففى ٣٠ آذار سنه ١٩٤٣ ألقى صبرى أبو علم وزير العدل المصرى فى مجلس الشيوخ باسم مصطفى النحاس بيانا رسميا قال فيه و هو يتحدث عن دعوه الحكومات العربيه للمفاوضات: "...و انتهت من دراستى إلى أنه يحسن بالحكومه المصريه أن تبادر باتخاذ خطوات رسميه فى هذا السبيل فتبدأ باستطلاع آراء الحكومات العربيه المختلفه فيما ترى من آمال، كل على حدها. ثم تبذل جهودها للتوفيق و التقريب بين آرائها ما استطاعت إلى ذلك سبيلا، ثم ندعوهم بعد ذلك إلى مصر معا فى اجتماع ودى لهذا الغرض حتى يبدأ المسعى للوحده العربيه...".

و من الطريف فى هذا الموضوع أن النحاس فى بيانه هذا و هو يدعو للوحده العربيه، سسمى العرب:(الأمم العربيه). إذ ختم بيانه بقوله:

"و إنى أسأل الله أن يلهم السداد قاده الأمم العربيه...".

و ذلك من رواسب الماضى الذى كان يعتبر العرب أمما لا شعوبا يجمعها جميعا اسم (الأمم العربيه). و يبدو أنه وجد من نبه إلى هذا الأمر فقد زالت بعد ذلك كلمه:(الأمم العربيه) و حلت محلها كلمه (الشعوب العربيه).

و مما يجب ذكره أن النحاس اعتبر فلسطين كواحدة من الدول العربية،

ص: ٣١٢

فدعا مندوبا عنها للمشاوره و المذاكره كاي مندوب لأى دوله عربييه. و قد جرى هذا لأول مره.

و إذا كان الأمر قد انتهى بعد ذلك إلى قيام الجامعه العربيه لا (الوحده العربيه)، فذلك لعوامل من أهمها العامل اللبناني.

و لكن يكفى النحاس أنه أقام الجامعه العربيه التي كانت برغم عيوبها المظهر البارز لأمه عربييه واحده منها مصر.

أما إدخال مصر فى صميم العمل العربى الواحد إلى حد إراقه الدم المصرى إلى جانب الدماء العربيه الأخرى المراقه فى سبيل هدف واحد و قضيه واحده فقد كان العامل فيه هو الملك فاروق.

أقول هذا، و أنا من أشد الناس مقتا لفاروق، و من أكثرهم استبشارا بزوال عرشه، و لكنى كما مقته فى الحق فان حده هو الذى يحملنى على إنصافه حيث يجب الإنصاف.

و ذلك أنه عند ما قرر العرب دخول جيوشهم إلى فلسطين سنه ١٩٤٨ أعلن النقراشى رئيس الوزاره المصريه أن مصر لا شان لها بذلك، و أن أقصى ما يمكن أن تفعله هو أن ترسل قطعه من جيشها إلى الحدود مع فلسطين كنوع من المظاهر التأيديه المعنويه لا أكثر من ذلك. و فى خريف سنه ١٩٤٧، و خلال دوره الجمعيه العامه للأمم المتحده بدا الاتجاه نحو تقسيم فلسطين و إنشاء دوله يهوديه فيها، فكان على العرب أن يعملوا فى ميدانين: ميدان هيئه الأمم المتحده لمنع اتخاذ قرار بالتقسيم، و هذه المهمه كانت موكوله إلى وفود الدول العربيه و ما يقومون به من اتصالات مع وفود الدول المختلفه أعضاء الهيئه (١) أما الميدان الثانى فهو ميدان القوه العسكريه فى حال إقرار التقسيم، أى أن يحال بالحرب دون تحقيق التقسيم و قيام دوله اليهود و لدرس الوسائل المؤديه إلى إحراز القوه العسكريه المطلوبه دعى مجلس جامعه الدول العربيه إلى عقد دوره لبحث الأوضاع السياسيه و شتى نواحي القضيه الفلسطينيه و مناقشات الجمعيه العامه للأمم المتحده بشأنها، و بصوره خاصه لدراسه موضوع الدفاع عن فلسطين.

و انعقد مجلس الجامعه فى ٧ تشرين الأول ١٩٤٧ فى عاليه بلبنان، و حضرته وفود عن جميع الدول العربيه على أعلى المستويات فيهم عدد من رؤساء الوزارات و وزراء الخارجيه و الدفاع.

و عند ما تناول المجلس بالبحث موضوع الدفاع عن فلسطين تحمس عدد من أعضاء الوفود لا سيما صالح جبر رئيس الوزاره العراقيه و رئيس الوفد العراقى و نادوا بوجوب تدخل الجيوش العربيه النظاميه لانقاذ فلسطين. و فى غمره الحماسه التي سادت المجلس وقف محمود فهمى النقراشى رئيس وزراء مصر و رئيس وفدها إلى الجامعه حين ذاك و قال مخاطبا المجلس:

"أرجو من الاخوان الاتزان و التفكير السليم و أن لا يقرروا اليوم أمرا لا يستطيعون تنفيذه غدا. إنى أرجو من حضرات المجتمعين و بصوره خاصه من أعضاء وفد فلسطين أن يعلموا بان مصر لن تتدخل عسكريا فى فلسطين و لن تخوض غمار حرب دفاعا عنها، و لكنها مستعده أن تساهم مع سائر الدول العربيه فى عمليه جديده و معقوله للدفاع عن فلسطين و إنقاذها. أقول هذا بصراحه و صدق لكى لا ينخدع أحد بمظاهر الحماسه التي انطلقت فى هذا المجلس".

و ظل هذا رأى النقراشى و حكومته.

ثم توافد بعض قادة العرب إلى مصر للتداول مع حكومتها فى هذا الأمر، فكان أن حسم الملك فاروق الموضوع بان أرغم

النقراشى و حكومته على تبديل موقفهما، و كما قلنا من قبل فان حكومات (أحزاب الأقلية) كان فاروق هو الذى يفرضها على الشعب، و كان هو الموجه و الحاكم الفعلى فيها، فلم يسع النقراشى و حكومته إلا الخضوع لأوامر فاروق.".

ص: ٣١٣

١- يحسن هنا أن نشير إلى موقف السعوديين فى هذا الموضوع: يروى فارس الخورى الذى كان مندوب سوريا فى هيئة الأمم المتحدة عند ما عرضت قضية فلسطين على الهيئة، و كانت أمريكا تحمل لواء الدعوه إلى تقسيم فلسطين و قيام دوله اليهود، و كان العرب يناضلون لمنع ذلك - يروى فارس الخورى فى مذكراته أنه حين كان يحاول إقناع رؤساء وفود الدول بتأييد حق العرب فى فلسطين و منع التقسيم - قال له مندوب كولومبيا: لما ذا تسألوننا الوقوف إلى جانبكم و قضيتكم فى يدكم. إن هذا الرجل وحده، و أشار إلى فيصل بن عبد العزيز السعودى لو ذهب إلى البيت الأبيض و هدد بقطع البترول و كان جادا فى تهديده لانقلبت سياسه أمريكا رأسا على عقب و لوقفت منكم محايدة إذا لم تقف مؤيده. إن القضية فى أيديكم وحدكم و أنتم تدركون هذه الحقيقه فلما ذا تتجاهلونها؟! و يستطرد فارس الخورى فيقول بأنه اجتمع أكثر من مره بالأمر فيصل بن عبد العزيز رئيس وفد بلاده لدى الأمم المتحدة و قال له أرجوك أن تكتب إلى والدك برجائنا و إلحاحنا بقطع البترول عن أمريكا، و الأفضل لو يقطعه فعلا مع التهديد بعدم إعادته ضخه ما لم تصن الحقوق العربيه صيانه كامله فى فلسطين. و أنه أكد للأمر فيصل أن هذا العمل سوف يساعد إلى حد كبير فى جعل الأمريكان يفكرون ألف مره و يترددون قبل أن يقدموا على عمل فيه إجحاف بحقوق عرب فلسطين. و يقول فارس الخورى أنه التقى بعد أيام بفيصل و ساله عن جواب والده على ذلك الاقتراح فأرسل يديه فى الهواء علامه الياس. و ينهى فارس الخورق [الخورى] كلامه بقوله: فكان أن خسرنا قضية فلسطين (فارس الخورى و أيام لا تنسى، الصفحه ٣٠٥). و قد كانت هذه مواقف السعوديين فى كل أدوار ثوره فلسطين و أحداثها، فمما يرويه المناضل الفلسطينى أكرم زعيتير فى يومياته عن ثوره فلسطين سنه ١٩٣٧ - أنه بلغ من تنكر عبد العزيز بن السعود لفلسطين و ثوارها أن منع جريدته (أم القرى) التى تصدر فى مكه حتى من مجرد ذكر أخبار الثوره و أخبار رجالها فقد قال أكرم زعيتير فى الصفحه ٤٢٦ من كتابه ما نصه: "أتابع منذ مده جريده أم القرى التى تصدر فى المملكه السعوديه. و قد اشتبهت أن أقرأ فيها كلمه واحده عن فلسطين و ثورتها. و كنت قد أشرت إلى هذا باستغراب فى جريده العمل القومى، و لفت نظر الأستاذ محمد على صاحب الشورى المقروءه فى البلاد العربيه إلى هذا، فكتب فى (شوراه) عدده مرات. " و كتبت فى العمل القومى تحت عنوان (جائزه) كلمه أنهيتها بقولى: اننى أقدم جائزه هى اشتراك سنه فى هذه الصحف أو فى أى صحيفه أخرى لمن يكتشف كلمه فلسطين فى جريده أم القرى. " و اليوم قرأت فى العدد ١٤٥٦ من جريده النهار (بيروت) المؤرخ فى ١١ آب ١٩٣٨ مقالا افتتاحيا بقلم صاحبها الأستاذ جبران التوينى، حياه الله جعل عنوانه: (بعد زياره وزير المستعمرات لفلسطين، أم القرى تنشر أخبار الحرب فى إسبانيا و الصين و لكنها لا تنشر حرفا واحدا عن ماسى فلسطين). " و قد ختم الأستاذ التوينى مقاله بقوله: أمامنا العدد الأخير من أم القرى و قد ملئت صفحاته الثمان بأخبار نجد و الحجاز و أخبار الحرب فى الصين و الحرب فى اسبانيا، و ليس فيه كلمه واحده عن المآسى التى تقع فى فلسطين، أفلا تستحق فلسطين العربيه فى نظر أم القرى أن تذكر حوادثها على الأقل كما تذكر حوادث اسبانيا و الصين، و ما ذا يقول الناس عند ما يشهدون هذا الإهمال الفاضح لعرب فلسطين فى جريده تصدر فى معهد العروبه؟ "

و صرح فاروق تصريحاً قويا في هذا الشأن، و كان مما قاله ما معناه: أن موقفنا من دول العالم سيكون حسب موقف كل منها من قضيتنا و حربنا.

و كان تصريحه هذا - و يؤسفني أني لا أحتفظ بنسخه من نصه - يبرزه ملكا عربيا كاعرق الناس في العروبه و أشدهم التزاما بكل أمر من أمورها حتى دخول الحرب من أجل ذلك.

و من المؤسف أن موقف فاروق هذا استغل بعد ذلك لمحاربه سمعته أبشع استغلال فنسب إليه ما سموه بقضيه (الأسلحه الفاسده) و زعموا أنه هو الذى دبر أمرها و اشتراها مع علمه بفسادها جنيا للمال. و صدقهم الناس و تداولتها صحافتهم و مجالسهم في كل مكان، و نسي هؤلاء الباهتون أن أمجاد الجيش المصرى حين يحقق أمجادا بانتصاراته هي أمجاد لفاروق قبل أن تكون أمجادا لغيره، و أن محن ذلك الجيش هي محن لفاروق. و أن أمجادا كهذه الأمجاد لا يبيعها فاروق و لا غير فاروق ممن هو في منزلته أو دون منزلته بحفنه من الجنيهات، و أن تلك المحن لا يشتريها أى إنسان لنفسه مهما كان شأنه.

هكذا يكتب التاريخ لا سيما تاريخ العرب و الإسلام في كل زمان!...

أقول هذا، و يعلم الله أننى من أشد الناس مقتا لفاروق - كما كررت القول - و من أكثرهم استبشارا بسقوط عرشه، و لكن الحق فوق كل شيء فإذا مقتنا فاروق لسيئاته، فعلينا أن لا ننكر حسناته.

و من مواقف فاروق العرييه التي تذكر له تدبيره لجوء عبد الكريم الخطابي بطل ثوره المغرب على الاسبان، تدبير لجوئه إلى مصر. و قد روى محمد على الطاهر قصه هذا اللجوء لإحدى الصحف بما تلخصه فيما يلي:

عزمت فرنسا سنه ١٩٤٧ على نقل الأمير عبد الكريم و أسرته من منفاهم في جزيره (رون يون) في المحيط الهادى إلى جنوب فرنسا. يقول الطاهر: في ذات يوم أظنه ٢٣ أيار (مايو) سنه ١٩٤٧ تلقيت برقيه من صديق لى في عدن هو السيد حسين الأهدل يقول فيها: أن الأمير عبد الكريم الخطابي أبحر من عدن إلى فرنسا في باخره ذكر اسمها، فتأملت تلك البرقيه و أخذت أتصور صوراً شتى لغرض صديقنا من إرسالها...

ثم يقول الطاهر: كلفت أحد أصدقائى و هو يشتغل في القصر الملكى كاتبا عند رئيس الديون، بان يستفهم من هنا و هناك أين يسهر الملك فاروق في ذلك المساء و متى يعود، و فى أى قصر ينام في تلك الليله، فعاد و هو يقول أن الملك سيسهر كعادته في (مربع الأوبرج) و يغادره حوالى الثانيه صباحا إلى قصر القبه..

و فى منتصف الليل أبرقت إلى الملك فاروق بقصر القبه أقول له أن الأمير عبد الكريم الخطابي مجاهد الريف العظيم و أسير فرنسا سيمر بقناه السويس في الباخره (كاتومبا) يوم ٣٠ أيار ١٩٤٧. ثم ناشدت الملك فاروق أن ينقذ الأمير و أسرته من الأسر، و أن ينزله في كنفه.

و يسترسل الطاهر قائلاً:

و فى صباح اليوم التالى طلبت من صديقى أن يذهب إلى مدير قصر القبه و يستفهم منه عن مصير البرقيه. و بعد ساعات عاد و

هو يقول أن الملك فاروق وصل بعد الثانيه صباحا فوجد رئيس الحرس ينتظره، فسلمه البرقيه. و أن فاروق قال: ابعثوا إلى رئيس الوزراء و رئيس الديوان الملكي بان يحضرا قبل الظهر لمقابلتي.

و يكمل الطاهر حديثه: أترك الكلام عما جرى بعد ذلك للوزير كريم ثابت المستشار الصحافي للملك فاروق لأنه كان يعيش في صميم القصر.

و كانت حكومه الثوره قد سجنت كريم ثابت بعد ترحيل فاروق فخطر لها أن تستفيد من معلومات كريم ثابت عن أمور الملك الداخليه فطلبت منه أن يدون لها أهم ما كان من ذلك التاريخ، فكتب ذكرياته فنشروها في جريده الجمهوريه تباعا. و قد قال عن قضيه الأمير عبد الكريم في العدد الصادر في ٢ أيار (مايو) ١٩٥٦ ما نصه:....

فلو لا برقيه تلقاها الملك فاروق لما عرف أن عبد الكريم سيمر بمصر إلا بعد مروره بها، أو لما خطر له أن يقدم على ما أقدم عليه. فقد أبلغه مرسل البرقيه أن عبد الكريم بطل المغرب سيمر بالسويس يوم كذا في الباخره كذا في طريقه من منفاه إلى فرنسا و استحلفه باسم العروبه و الجهاد في سبيل الله أن يعمل على إنقاذه و إنزاله في مصر و استضافته فيها ليعيش هو و أهله تحت حمايه مصر و ضيافته.

و كذلك عرفت البرقيه الملك فاروق بالنبا و الخطه التي تتبع لانقاذه في آن واحد، فأعجبه الفكره و قرر تنفيذها فوراً، فدعا إليه الأمير ألابى محمد حلمى حسين و أمره أن يقابل الأمير عبد الكريم سرا عند وصول باآخرته إلى ميناء السويس، و يبلغه أنه أوفده إليه ليقترح عليه الالتجاء إلى مصر و الاحتماء بملكها.

و اتصل حلمى بك بالقصر الملكى تلفونيا من السويس و أبلغه أنه اجتمع بعبد الكريم و كاشفه بموضوع مهمته خلسه فوعده بالتفكير فيه و الرد عليه عند وصول الباخره إلى بور سعيد.

و فى بور سعيد صعد الأمير ألابى حلمى حسين بك إلى الباخره مره أخرى - و كان قد سبقها بالقطار - ليقف على رأى الأمير الخطابى، فقال له الأمير أن رأيه استقر على قبول دعوه الملك مع الشكر و الامتنان. و عند ذلك لقنه حلمى بك تفاصيل التمثيليه التي مثلت بعد ذلك لكى تستطيع السلطات المصريه أن تقول أن عبد الكريم و شقيقه الأمير محمد وضعها أمام الأمر الواقع بالتجائهما للملك (انتهى)..

و من الظلم الفاحش ما جرى على من بقى ممن شاركوا فاروق فى مسئوليته إدخال مصر فى تلك الحرب و منهم إبراهيم عبد الهادى الذى أعقب النقراشى فى رئاسه الوزاره المصريه.

كانت أولى التهم الموجهه إلى إبراهيم عبد الهادى بهذا النص:

" أتى أعمالا تعتبر خيانته للوطن و ضد سلامته فى الداخل و ساعدت على تمكين الاستعمار بالبلاد، و ذلك أنه خلال سنه ١٩٤٨ أثناء توليه رئاسه ديوان الملك السابق عمل على تنفيذ أهوائه بان زج جيش مصر فى معركة فلسطين قبل أن يتخذ الجيش أهبتة لخوض غمارها "

و فى هذا اعتراف صريح بان فاروق هو الذى أدخل جيش مصر فى معركة فلسطين.

و مع أننى انظر إلى إبراهيم عبد الهادى خلال توليه الحكم نظره ملؤها الكره و التفریح لما جنت يدها من مظالم و مغارم و اعتبر سجنه بعض ما يستحقه من دهره، فاننى أنكر على من عدوا مشاركته فى مسئوليته إدخال مصر فى الحرب الفلسطينيه تهمه يجب أن يسأل عنها و أن غلقوا ذلك بغلاف عدم الاستعداد للحرب.

و على هذا الأساس يجب أن يحاكم جميع من يخسرون الحروب بحجه أنهم دخلوا الحرب دون الاستعداد لها.

و إذا كان الذين أشركوا مصر فى حرب سنه ١٩٤٨ يجب أن يحاكموا على هذا الأساس، فما هو الشأن إذن فى الذين استدرجوا بطيشهم و رعونتهم و غوغائيتهم و خفتهم و قصر نظرهم إلى حرب سنه ١٩٦٧.

هذا استطراد كان لا بد منه و نحن نمر بذكر حرب سنه ١٩٤٨ و موقف العراق منها.

بعض الحقائق

قلت أن حكومه النقراشى دخلت الحرب بغير إرادتها، و كان من سوء الحظ أن قياده الجيش المصرى عهدت إلى (المواوى) و هو كما قيل عنه قد يصلح لكل شىء و لكن لا يصلح لقياده تلك الحرب، فكان همه التقدم و إذاعه البلاغات عن توغل جيشه فى فلسطين تاركا وراءه المستعمرات اليهوديه الحصينه، و قد أدت خطته إلى توزيع الجيش هنا و هناك و جعله قطاعا مشتته يبعد بعضها عن البعض الآخر مما سهل على اليهود الانقضاض على تلك القطع تعاونهم مستعمراتهم المنتشره وراء الجيش المصرى، مما أضاع على هذا الجيش بساله ضباطه و جنوده و جعلها عبثا.

و لما استبدلوا بالمواوى بعد ذلك القائد فؤاد صادق الذى كان كفوء فى القيادة استطاع أن يصمد بجيشه صمود الأكفاء.

و قد استغل النقراشى هزائم الجيش المصرى ليتخلص من الحرب فتلقت منه الحكومه العراقيه برقيه مطوله تعرض الواقع دون أن تحدد المطالب، بل أحاطت ذلك بغموض مقصود مما كان موضع استغراب، و لا شك أن الحكومات العربيه الأخرى تلقت مثل هذه البرقيه، و لكن لا شك أيضا أن المقصود بالبرقيه هو العراق أولا لأن قوته كانت هى الأولى.

و قد كانت الحكومه العراقيه تشرك فى كل الشئون الفلسطينيه خلال الحرب السفير اللبنانى كاظم الصلح، و منه عرفت أمر البرقيه و ما تلاها من أحداث.

فبعد تلقى البرقيه عقدت الوزاره العراقيه جلسه برئاسة الأمير عبد الإله دعت إليها فريقا من الخبراء العسكريين و شهدها جانبا كاظم الصلح و بعد طول تذاكر تقرر الرد على البرقيه بما معناه: أننا لم نعرف ما هو المطلوب منا و لا ما ستقرره مصر فى هذا الشأن لنحدد موقفنا، و قد افترضنا ثلاثه احتمالات (و هنا يذكر الاحتمالين الأولين)، ثم يصلون إلى الاحتمال الثالث و هو مواصلة القتال، و يقولون (العراقيون) أن هذا رأينا الذى نشير به، و لثلا- يطول الوقت بتبادل البرقيات فاننا أعدنا العده لكل الاحتمالات و منها الاحتمال الثالث فصدرت الأوامر إلى قطعات جيشنا فى فلسطين ليكون على تمام الاهبه لانجادكم حيث تطلبون، كما بدأنا هنا باعداد نجدات لارسالها فورا إلى فلسطين. و فى اللحظه التى تتلقى بها جوابكم ينفذ كل شىء.

و كنا نحن ننتظر فى السفاره اللبنانيه القرار العراقى و إذا بالسفير يصل حاملا إلينا صورته عن نص البرقيه.

و أكرر القول هنا أننى فى تلك الأيام لم أهتم بتسجيل النصوص و الوقائع، و لكننى أؤكد كل التأكيد أن نص البرقيه لا يخرج عن المحتوى الذى ذكرته.

و بعد أن اطمأنا إلى ما جرى مضينا إلى منازلنا و فى الصباح كان كاظم الصلح يتصل بوزاره الخارجيه ليعرف الجواب المصرى، و مضى النهار دون أن يصل الجواب، ثم لم نلبث أن عرفنا أن حكومه النقراشى أذاعت من إذاعتها فى القاهره نص برقيتها زاعمه أنها بقيت بدون جواب، فدهشنا لذلك، و أدركنا أن النقراشى يمهد للانسحاب من الحرب متذرعاً بخذلان العرب له، و أنه حين أرسل برقيته كان بحسب أن الجواب العراقى سيكون مائعا فيتمسك به و يجعله من مبررات استسلامه، و لكن لما وجدته حازما صارما تجاهله و زعم أنه لم يتلق جوابا.

و بالفعل لم تطل الساعات حتى أعلن النقراشى قبول حكومته للهدنه و استعدادها للمفاوضات و ذهب وفدها إلى رودس و جرى ما جرى (1)

الجيش العراقى المظلوم

كان قرار دخول الجيوش العربيه إلى فلسطين لابطال التقسيم و الحثول دون قيام الدوله اليهوديه منعشا لآمالنا فعلقنا تلك الآمال على الجيوش المتحفزه و على ما يمكن أن تحققه من نصر يحفظ للعرب وطنهم و شرفهم.

و لقد طلب منى أحد الأصدقاء من الضباط العراقيين أن أنظم نشيدا ينشده جنوده فى زحفهم المرتقب، و ليدرك القارئ مدى ما كانت تجش به نفوسنا من طموحات النصر أذكر هذا النشيد هنا و هو:

تل أيب جاءك اليوم العصيب

لن ثوب أو يواريك اللهب

لا قرار فى الديار أو يوافيك الدمار

الفرار للبحار سدت اليوم الدروب

الجنود فى الحدود لن تحيد أو تبيد

سنعيد بالحديد حقنا الماضى السليب

يا علم لا تضم و ترنج فى القمم

فالمهم كالضرم و الحفاظ كاللهيب

١- فى سنه ١٩٤٩ صرح عبد الرحمن الرافعى وزير التموين فى حكومه حسين سرى أنه لم يكن من مصلحه مصر الحرب مع اليهود و أن الجامعه العربيه كانت ضررا على مصر.

إن لى من على صوله المستقل

فاحمل تنجل غمره الهول الرهيب

الرجال كالرمال فى السهول و الجبال

القتال النضال كلنا داع مجيب

لن يسود لن يسود فى فلسطين اليهود

يا أسود للحدود دونكم تل أيب

تل أيب تل أيب جاء اليوم العصب

لن نثوب أو يواريك اللهب

و زحفت الجيوش و توهجت مع زحفها آمالنا، و تعلق قلبونا بكل خطوه تخطوها، و لم يخف بعض أصحابنا عدم ثقتهم بما يجرى، و كانوا يخشون مكر اليهود و طول استعدادهم لهذا اليوم، كما كانوا يتخوفون من سطحيه العرب و هوجهم فى مثل هذا الموقف، و يتحدثون عن خطوات اليهود المدروسه المحكمه منذ حلت طلائعهم فى فلسطين، و عن ارتجالات العرب فى كل ما فعلوا...

كان بعض أصحابنا يقولون هذا بجمجمه و تخافت و بحسره و ألم.

و لكن الناس - جميع الناس - و نحن منهم، أخذوا أول الأمر بما يذاع عن التقدم و التوغل، و لم يؤخذوا بالحذر و التخوف.

ثم أخذت الأنباء تتوالى و فيها ما يريب، ثم صار فيها ما يخيف، ثم صار فيها ما يبعث على الياس.

و أذكر أنى كنت أسير يوما فى شارع الرشيد على قدمى، و صدف أن كان مرورى أمام أحد المتاجر فى اللحظه التى كانت فيها إذاعه الشرق الأدنى تبدأ باذاعه الأخبار، فتوقفت لأستمع أخبارها، فإذا أول خبر تذييعه هو احتلال اليهود لمدينه (جنين)، و لن أنسى أبدا وقع هذا الخبر على.

و فى المساء كنا نستمع إلى أخبار إذاعه بغداد، فإذا بصوت المذيع يجلجل معلنا أن (جنين) فى قبضه القوات العراقيه، و أن هذه القوات تطارد العدو فى أنحاء (المثلث)، و اسم المثلث فى ذلك الحين يعنى ما يعنيه اليوم اسم (الضفه الغربيه)، و هم يقصدون به مثلث نابلس، جنين، طول كرم.

و بالرغم من أن الاذاعه العراقيه كانت رصينه إلى حد ما، فلم تكن تكثر من التبجح الباطل، و كانت أخبارها أقرب إلى الثقه بها، فاننا حسبنا أول الأمر أن هذا الخبر يراد به تهوين النازله بالادعاء بحصول ما لم يحصل... هذا فضلا عن أن أخبار إذاعه الشرق

الأدنى كانت دائما هي المصدر لأخبار الحرب الحقيقيه باعتبارها غير منتميه لأحد الفريقين.

و هي إذاعه قويه أنشأها الإنكليز فى قبرص و حشدوا لها طاقه كبرى:

إخباريه و ثقافيه، فكانت هي المسيطره على مسامع المتعطين إلى الأخبار، فلم يكن من المعقول أن تذيع خبر سقوط جنين فى حين أنها لم تسقط. ثم لم تلبث الحقائق أن انجلت: فلم تكن إذاعه الشرق الأدنى كاذبه، و لا كانت إذاعه بغداد هي الأخرى كاذبه.

و ذلك أن اليهود فاجئوا جنين بقوات كثيفه و لم تكن فيها إلا- حاميه عراقيه لا يتجاوز عدد أفرادها العشرات فاستطاع اليهود النفاذ إلى مداخل جنين مما اعتقد معه مراسلو الشرق الأدنى أنها سقطت بأيديهم.

و لكن الحاميه العراقيه القليله العدد ظلت تتصدى لليهود و تعيق تقدمهم، و فى الوقت نفسه أرسلت استغاثة إلى القائد العراقى عمر على الذى كان يسير بقواته فى اتجاه آخر. و تلقى عمر على الاستغاثة فغير اتجاهه و أسرع إلى جنين فتلقاه اليهود بقواتهم، و صمد لهم عمر على بوقاته و تصارعت القوتان بالأسلحه الناريه ثم تغامستا بالحراب.

و تلاً لأت الحراب العراقيه و تضرجت بالدم، دم اليهود التى طالما اشتاقت هذه الحراب لأن تضرج به، و جاءتها الساعه التى وضعتها وجها لوجه أمام أعدائها الألداء المتوحشين، و هذه هي فرصتها لتنتقم لمجازر دير ياسين، و لتعيد إلى الشرف العربى شموخه و رفعتة، و لن تضيع هذه الفرصه أبدا...

و أحسن البطل عمر على قيادتها و أحسنت هي الاستجابه له. و انجلى الأمر عن الهزيمه الماحقه لليهود بعد أن ارتوى الصعيد العربى بدمائهم و انتشرت جثثهم فى أطرافه من كل ناحيه.

و خاب أمل اليهود فى الاستيلاء على الضفنه الغربيه، فسلمها الجيش العراقى للعرب سنه ١٩٤٨ عربيه خالصه، و أعادها إليهم عزيزه مكرمه.

ثم سلمها العرب لليهود سنه ١٩٦٧ ذليله مهانه...

و من ماسى الدهر العربيه أو مهازله أو فواجعه أو ما شئت من نعوت أن البطل عمر على، بطل إنقاذ الضفنه الغربيه، و حامى حمى جنين و نابلس و طول كرم، سيق بعد ذلك فى يوم من الأيام مقهورا مصفدا منكوس الرأس ليحاكمه السفينه (المهداوى).

فى دار المعلمين الريفيه

لم يستطع مرور الزمن أن ينسينى أيام الحله، و كنت قد صممت على أن أتابع حياتى التدريسيه فيها و لا أنتقل منها إلى مكان آخر، و لكننى فوجئت فى ابتداء العام الدراسى الثانى بنقلى إلى دار المعلمين الريفيه التى تقع فى منطقه الرستميه من ضواحي بغداد فلم أشأ أن أعترض على ذلك، فواصلت العمل فيها، و كانت تقع على ضفنه نهر (ديالى) فى موقع جميل تحوطه المروج الخضراء و الشجر الغضبيض.

و كما أوحى الحله شعرا فقد أوحى مثله (الرستميه)، و كان كله حنينا إلى الأوطان و الأحباب.

و إذا كانت القصيده اليائيه المتقدمه المنظومه فى الحله تفيض أسى و لوعه، فالحقيقه أنها لا تمثل حياتى فى الحله التى كانت بشرا و سرورا و بهجه، و لكنها تمثل فتره معينه من تلك الحياه، هى فتره وصولى الأولى إلى الحله إذ كان لم يمض شهر على وصولى إليها حتى أتى العيد و كنت لم أمتزج بأحد من أهلها فشعرت بالغربه الأليمه و الشوق الشديد و الوحده الموحشه، فكانت تلك القصيده من وحي ذلك كله.

ص: ٣١٦

و إني لأظلم الحله إذا كانت القصيده اليائه تمثل حياتي فيها، و إنما تمثلها بعض التمثيل القصيده اللاميه التي آسف لفقداني لبعض أبياتها.

و من وحى شواطئ (ديالى) فى الرستميه هذه الأبيات:

سقت سرح (الدواوير) الغوادى و جاد رياضها المطر السكوب

تحب النفس مغناها و يهوى مسارحها الفؤاد و يستطيب

فكم راق العيون بها شروق و طاب على محانيها غروب

و فى تلعاتها كم رف ثغر و كم خفقت بواديه قلوب

يعاودنا إذا خطرت حنين و إن ذكرت يهيج بنا و جيب

أسرح التين هل فى الواد شاد و هل فى السفح غريد طروب

و هل تمشى إليك على الليالى (سروب الغيد تتبعها سروب)

أ تزهو بعدنا ثم المغانى أ يحلو السفح و الوادى الخصب

خلت تلك الخيام فلا محب يعاطيه الهوى فيها حبيب

و عطلت المراع بعد أنس و صوح بعدنا الروض العشب

ذكرناكم على شطى (ديالى) فطاب لنا بذكركم النسيب

و كنتم فى النوى ريحان قلب على شحط النوى و جدا يذوب

نايتم فالمنازل موحشات و بنتم فالربيع بها جديب

لئن طابت لياليكم فليست ليالينا لبعدهم تطيب

و أن تردوا المناهل صافيات فانا فى مناهلنا نلوب

إذا عذب الفرات لواردية يغص به على الناي الغريب

و كذلك كان مما أوحى به (الرستميه) بعد فراقها و الرحيل عنها هذه القطعه التي فقد بعضها و لم يبق منها إلا هذا الذى أذكره

هنا، و هو حنين إليها و إلى ديالى خاصه و إلى العراق عامه:

دالت الدنيا علينا يا ديالى فهجرنا "الشط" و الماء الزلالا

و تركنا فى محانيك انظلالا وارفات تملأ الوادى جمالا

كم أطلنا فى النوى عنها السؤالا و سهرنا الليل شوقا و هياما

أين فى "الفيحاء" عن عيني النخيل أين وادى دجله أين السهول

و ديالى العذب فياضا يسيل أين بغداد و شاطيها الجميل

يا ليالى الشط و الناي طويل اذكري ما عشت صبا مستهما

أين عن عيني وادى "الرستميه" أين سحر الصبح فيها و العشي

أين روضات مغانيها النديه و لييلات محانيها الوضيه

لم تزل نفسى على البعد وفيه تعشق الشط و تهوه مقاما

و أحسب أن هذه أول مره يذكر فيها ديالى و الرستميه فى الشعر العربى.

كانت دار المعلمين الرفيحه طرفه من الطرائف فيها يجتمع المئات من التلاميذ القادمين إليها من كل قريه فى العراق، من زاخو إلى الفاو كما يعبرون فى العراق. فيهم العربى القادم من الشمال و الجنوب(1) و الوسط. و فيهم التركى القادم من منطقه كركوك و فيهم الكردى القادم من كردستان. و كان تدريس قواعد اللغه العربيه و آدابها لهذه المجموعات مهمه من أشق المهمات، و لكنها فى الوقت نفسه تشتمل على أنواع من الطرف المضحكه.

و كان التلاميذ الأكراد و الأتراك يأتون إلينا و كل محصولهم من اللغه العربيه هو أنهم أصبحوا يحسنون النطق بها، و كان علينا أن نعلم هؤلاء قواعد اللغه العربيه و آدابها. و هنا كانت المشاق و ما يتخللها أحيانا من الطرف.

و قد حدثنا أحد زملائنا من مدرسى اللغه العربيه أنه اختار للاستظهار قصيده الشاعر المصرى على الجارم التى يقول فى مطلعها:

(بغداد يا بلد الرشيد)

و أنه بعد أن فسر للتلاميذ ألفاظها و شرح معانى أبياتها، و أكد فى الشرح على معنى (لوح الوجود) الوارد ذكره فى القصيده، و سأل التلاميذ هل فهمتم معنى لوح الوجود فأجابوا بالإجماع: نعم. فاطمان لذلك، ثم خطر له ليزداد اطمئنانا أن يسأل أحد التلاميذ هذا السؤال: أين هو لوح الوجود؟ و صدف أن كان المسئول تلميذا كرديا، فأجابه التلميذ: موجود فى الإداره.

و يعنى بالاداره مكتب المدير.

و مثل هذا كان يحصل دائما.

على أننا نعلم التلاميذ الأتراك و الأكراد إذا اعتبرناهم وحدهم فى هذا المستوى من المعرفة باللغه العربيه و آدابها. فقد كان بين التلاميذ العرب من هو أعرق فى الجهاله من هؤلاء. و التلاميذ الأكراد و الأتراك معذورون لأن اللغه ليست لغتهم. و لكن ما عذر التلاميذ العرب؟.

لقد كان جهدنا منصبا على أن يعرف هذا الخليط من التلاميذ مواقع الرفع و النصب و الجر من الأسماء، و مواقع الرفع و الجزم و النصب من الأفعال، و قد كانت هذه المهمه من أصعب المهام و أشقها، و كانت تحتاج منا إلى صبر و جلد و تحمل، و كنا بهذا الصبر و الجلد و التحمل نحقق الكثير من النجاح، و من الطبيعى و هذا الحال حالنا و حال تلاميذنا أننا كنا نبتعد بهم عن تعقيدات النحو لأنها ستحملهم على كره هذا الدرس و استثقاله و تنفرهم منه، بينما كنا نسعى لتحييه إياهم و جعلهم يألون دروسه، و أما فى الأدب فقد كنا نختار لهم من الشعر ما كان سهل الفهم واضح المعنى صريح الألفاظ.

مدرسه الفقراء

لقد كانت دار المعلمين الريفيه مدرسه الفقراء، و القرويين منهم بصفه خاصه، فهؤلاء لم يكن باستطاعتهم بعد أن يتموا دراستهم فى قراهم، أن يتحملوا الإنفاق على أنفسهم خارج قريتهم ليتابعوا الدراسه الثانويه، بذلك كانوا يقبلون إلى دار المعلمين الريفيه التى تتكفل بمساكنهم و طعامهم و ملابسهم.

ثم تضمن لهم بعد أربع سنوات تعيينهم فى القرى معلمين براتب خمسه دنانير لكل منهم. و قد كان الوصول إلى قبض هذا الراتب حلمهم الذهبى

ص: ٣١٧

١- كما كان فيها تلاميذ من اليمن و حضرموت.

الذى يتشوقون إلى تحقيقه، فالواحد منهم الذى ولد فى الفقر و نشأ فيه و أمضى طفولته و صباه محروما، و الذى لم تجتمع لأبيه فى يوم من الأيام خمسة دنائير كتله واحده. كان حلمه كما كان حلم أهله أن يروا فى آخر كل شهر خمسة دنائير تنهل عليهم متدافعه بين أيديهم.

و إذا كان بين هذا الخليط العجيب من التلاميذ من ذكرنا من أمره ما ذكرناه فقد كان فيهم العديد من المتفوقين بل النوايح. و قد كان يحز فى نفسى أن أتصور ضياع هذه المواهب غدا فى حياه القرى النائيه و فى تعليم صبيانها، فأخذت على نفسى إنقاذ من أستطيع إنقاذه منهم. و قد كان طريق فريق منهم معبدا، و هم الأذكاء من غير أصحاب المواهب الأدبيه، فلم يكن عليهم إلا أن يصبروا أنفسهم على تحمل الفقر سنين أخرى، و أن يرضوا بالتخلى عن قبض خمسة دنائير فى كل شهر عما قريب، و أن يرجئوا ذلك إلى مده أبعد كى يقبضوا لا خمسة دنائير، بل أضعافها، و ذلك بان يتقدموا إلى امتحانات الشهاده المتوسطه التى يؤهلهم النجاح فيها إلى دخول دار المعلمين الابتدائيه، إلا على درجه، و الأكثر راتباً عند التخرج منها.

ثم إذا كانوا يستطيعون أن يكونوا أكثر صبورا و تحملا، أن يتقدموا إلى امتحانات الشهاده الثانويه عند تخرجهم من دار المعلمين الابتدائيه، التى يؤهلها نجاحهم فيها إلى دخول دار المعلمين العاليه (الجامعيه) و بذلك يصبحون مدرسين فى المدارس الثانويه ذات الرواتب المرتفعه.

و فى هاتين المرحلتين سيكون مضمونا لهم المسكن و المأكل المجانيين، على ما هو عليه الحال فى دار المعلمين الريفيه.

ثم إذا وطنا النفس على الصبر الأطول و جدوا و اجتهدوا فقد يرسلون فى بعثات علميه حكوميه إلى الخارج فيرجعون بشهاده الدكتوراه التى يصبحون بها أساتذه جامعيين.

لقد أغرى هذا الحال فريقا قليلا فوطدوا العزم على تحقيق ما يدعو إليه، فوصل بعضهم إلى دار المعلمين الابتدائيه و تخرج منها، و لكنه لم يطلق الصبر أكثر من ذلك فوقف عند هذا الحد. و واصل بعضهم السير و راض نفسه على الصبر، فتخرجوا من دار المعلمين العاليه. و صبر الأقل الأقل منهم فعادوا بشهادات الدكتوراه من جامعات أوروبا و أمريكا.

و قد كان من ألطف ما صادفتنى أن بعض من عرفتهم تلاميذ فى دار المعلمين الريفيه عرفتهم فيما بعد و هم طلاب فى دار المعلمين العاليه أيام تدريسى فيها بعد ذلك.

أما أصحاب المواهب الأدبيه، فقد كان الأمر مهم صعبا كل الصعوبه، و لم أتمكن إلا من إنقاذ واحد منهم فقط. و قد كان فيهم من يمكن أن يكون فى قابل أيامه من أبرع الكتاب سواء فى الصحافه أو القصة أو الأدب أو تاريخ الأدب.

و مشكلتهم أنهم إذا أرادوا التخلّى عن دار المعلمين الريفيه، فلم يكن أمامهم مواصله الدراسه فى دار المعلمين الابتدائيه ثم دار المعلمين العاليه، بل كان عليهم أن يبدءوا فى شق طريقهم الأدبيه منذ الآن، و ذلك بان يلتحقوا بمؤسسه صحفيه تكتشف مواهبهم تدريجيا حتى يكون لهم فيها المكان المؤهلين له، و هذا لم يكن ميسورا، و كان إذا تيسر لا ينتج إلا راتباً قليلا لا يكفى النفقات اليوميه، و هذا ما لم يكونوا يجرءون على الاقدام عليه.

و لكثرة ما واصلت تشجيع أحدهم صادق الأزدي جاءني في يوم من الأيام و قال أنه وجد عملا في إحدى المؤسسات الصحفية براتب شهري قدره ثلاثة دنانير و لكنه عمل لا يتصل بالكتابة في الصحيفة بل ببعض شئونها الأخرى، لذلك قرر رفضه لأن الدنانير الثلاثة لا تعنى شيئا في الحياه البغداديه التي عليه أن يحياها و لأن عمله لن يكون تحريرا تبرز فيه مواهبه.

فأنكرت عليه رفضه، و قلت له اذهب الآن فاقبل العمل بشرط أن تبدأ منذ الأسبوع الأول من مباشرتك العمل بان تكتب فيما يتصل بالشئون الصحفيه، و تقدم ما تكتبه إلى رئيس التحرير رأسا، و أكد لك أنه ما أن يتأكد رئيس التحرير بانك صاحب هذه الكتابه حتى ينقلك إلى التحرير في الجريده و حتى يتضاعف راتبك ثم يتضاعف.

و بالفعل فان راتب الدنانير الثلاثة لم يكن إلا شهرا واحدا، إذ أصبح في الشهر الثاني خمسه ثم تضاعف و تضاعف، ثم جاء وقت أصبح فيه صادق الأزدي رئيس تحرير جريده من أكبر جرائد بغداد، و في الوقت نفسه كان صاحب مجله أسبوعيه سياسيه من أكثر المجلات رواجاً و شهره.

و الوفاء العراقي الأصيل كان في صميم صادق الأزدي فلقد لقيت من وفائه ما هو حري بابن الرافدين دجله و الفرات...

و من بين الذين أعياني أمرهم كان غانم الدباغ، فان غانم هذا كان أديبا موهوبا لا سيما في القصة، و قد حاولت إنقاذه من المصير الذي سيصير إليه معلما قرويا منبوذا في قريه قصيه موحشه تقتل فيها النفس قبل المواهب، و قد عز علي أن تخسر العربيه مثل هذا الكاتب المبدع، فحاولت شتى المحاولات دون جدوى.

و كان من أهم عوامل الفشل هو جبن غانم نفسه، و هو جبن لا يلام عليه، فقد كان يصعب عليه التخلي عن الحياه المطمئنه التي يحياها الآن

خليا من هموم المطعم و المسكن و الملبس... التخلي عن ذلك إلى المجهول... و قد كان شيخ الفقر الذى ظل يلاحقه منذ ولد إلى هذه الساعه، كان هذا الشيخ يلوح له فى الأفق القريب و البعيد فيرتجف رعبا منه فينهار كل طموحه.

و تخرج غانم الدباغ من دار المعلمين الريفية و عين معلما فى قريه من قرى الموصل و راح يتناول الدنانير الخمسه فى آخر كل شهر، و تركت أنا العراق فى المره الأولى، ثم عدت إليه بعد سنتين. و كان اسم غانم الدباغ لم يفارق مخيلتى، فكان أول ما فكرت به أن أعرف مصير هذا الكاتب المبدع، و كان كل ما أعرفه عنه أنه يعيش فى قريه من قرى الموصل، و لكن لا أعرف فى أى قريه هو. فأرسلت له رساله جعلت عنوانها باسم مدير معارف الموصل و رجوته فيها أن يتفضل بإرسالها إلى صاحبها، ففعل، و جاءنى جوانب غانم، فإذا هو فى قريه اسمها (الموالى)، و أن لقبه صار معلم أول، بعد أن كان مجرد معلم. و أننى أنشر هنا نص هذه الرساله لما فيها من دلالات و ذكريات:

الموالى (من قرى الموصل) فى ١٩٤٧/١/٣١ أستاذى:

تحية طيبه. حمل إلى البريد رسالتك و أنا فى شوق لها، و حملت لى سطورها هذا الخط الحبيب إلى نفسى و الذى كثيرا ما هدانى إلى محجه الصواب أيام الدراسه... و كيف لا يهفو قلبى إلى ذكراك و هى عاطره فى ذهنى كعطر الأنسام، و شهد الله أن ضميرى ليحمل آلاما ثقالا من هذا الذى قد لا يكون عقوقا، و لكنه نوع من الإهمال الذى يسيطر على مجرى حياتى فى شتى صورها و ألوانها... فليس غيابك أمدا خارج العراق و رجوعك إليه، و لحاقى وراء خبز الحياه فى أطراف الصحارى، ليس كل هذا قد محا الصورة الهادئه الوديعه المستقره فى ذاكرتى عنك.. لا و الله، و ليشهد قلمي المضطرب الآن، بين يدي أنه خط لك رسائل و لكن لأقرأها أنا فقط...

و حياتى؟! حياتى فى هذه البقعه المقفره؟! أنها فراغ هائل عميق و جسد يتهافت على بعضه، و نفس حائره فى طواياها بين الضجر و الألم و قد خلقت منها المقادير حلقه مفرغه لا تستقر على حال من الهدوء و الطمأنينه، و أيام الصبا و الشباب تذهب بها دوره الزمان المجنونه نحو الفناء و الاضمحلال لتستقر بها فى ظلمات من الحيره المبهمه و القلق الصامت المكتوم!.

لا- يؤنسنى فيها إلا- ألحان المزمارة... فهذا أعرابى يناجى صاحبتة على أنغامه و القريه نائمه على الظلام.. إن هذا الصوت الذى ينساب فى أنغام ساذجه ليشجيني كما يؤلمنى أنه يفتح فى القلب جراحات عميقه ينكاهها فى الصميم، أنه يكاد يرهق سمعى و يهد أعصابى المكدوره...

و أيام الشتاء تقبل على القريه، ما أفضح لياليها! و أنا بين جدران أربعه يعبق فى جوها أريج الطين و عطر الأرض النفاذ، و قد فغرت ثقب الكوخ أفواهما، و الريح ترسل عويلا يمتد و يتلوى فى أنين خافت..

و الليل مظلم كئيب يقطع سكونه نباح الكلاب ثم تذوب أصواتها بعيدا فى الفضاء.. السكون العميق يلفنى، و يطغى على حواسى، و يبعث فى أذنى هذا الوشيش الناعم الذى ليس إلا صدى الرهبه العميقه، و تحت ضربات الريح العابته يثن الباب و قد كلت أخشابه المتداعيه فيرسل صريرا خافتا... لقد نامت القريه و هجع سمارها، و ذو القلب المعنى لا يهجع، و القلم لا ينقطع عن الصرير فيخطط ذوب هذه النفس الحبيسه...! و أحسبني أطلت عليك و أثقلت فى ثرثره قد لا- تكون فى الواقع إلا- صدى لما

أعاني، وإلا شكوى أبثها لمن يتسع قلبه الكبير لشكائى...

لقد هصرتنى هذه الأعوام الثلاثة و أحالتنى بشرا تبدو على فمه البسمه لكثيبه، و ينشج قلبه بالبكاء.. و بكاء القلب من أمر البكاء..

أيامى هنا يا صفى القلب، ضنى للقلب و العقل و الروح.. و كبت للرغبات و موت للآمال.. أيامى تضيع بين دمي من البشر تقسو حتى فى نظراتها..

و لا يجيب صراخى المكبوت إلا صدهاء المعذب، و لا أسمع إلا قهقهات القدر تتسع و تتضخم فى تهاويل بشعه، فتحيلنى إلى صخره صماء و قد تبلدت فى نفسى عواطف الإنسان الشاعر، و شاب قلبى الفتى فى غير أوانه...

أشعر كان جسمى و روحى معا يريدان الانطلاق من هذا الجحر الأعمى يريدان العالم الحر الفسيح، يريدان الحياه بين الناس، بين أنس الصداقه، بين لهو الخلق و صحب البشر.. و لكن!! لم يبق فى جعبتى من لذه العيش و أحلامه الرغيده إلا هذه الذكريات أسدر سابحا فى بيدائها التى عفت عليها الأيام.. أناجيتها إذ أخلو إلى نفسى، و أستعيدها فترق لها روحى و تطيب، نعم لم يعد لى من لذه الحياه و هناء العمر، إلا هذه اللحظات التى عبرت شاطئى حياتى كالوهم، و قد أتساءل أحيانا أعشت فيها حقا!؟..

المفتش

فى يوم من الأيام دخل علينا الصف مفتش اللغه العربيه بهجت الأثرى، دخل بجسمه الطويل و لكن غير العريض و بعمامته البيضاء المشدوده على الطربوش الأحمر و بنظارته المتأله، دخل متعظما يتكلف الوقار و الهيبة، فكانت اسئلته للتلاميذ أسئله لا يراد بها إلا التظاهر بالعلم و التفوق و إلا محاوله أن يجد ثغره ينفذ منها إلى التجريح، و إلا أن يجد وسيله يقول فيها أنه كتب تقريرا.

و كان مركب النقص عند هذا الفريق من المفتشين الذين لم يعرفوا شيئا من الدراسات الحديثه، و الذين يعلمون أنهم دون من (يفتشونهم) علما و تجربه، و الذين نشئوا على حب الاستعلاء دون أن تكون لهم كفاءات الاستعلاء، كان مركب النقص هذا عندهم يحملهم على ركوب المراكب لخشنه و التعامل بغلظه و فظاظه محاوله لستر نقصهم.

لم يجد بهجت الأثرى ما يسال به التلاميذ من مواضع النحو إلا

الإعلال و الأبدال و أمثال ذلك من المواضيع المربكه التي كنا نتجنب الخوض فيها مع التلاميذ لئلا يتيهوا فيما لا يجوز أن يتيهوا فيه، و كنا نمر بها في تدريسينا لماما و نتجاوزها دون التعمق و الإيغال. لأنه كان حسبنا من أولئك التلاميذ أن يصلوا معنا إلى إتقان المرفوعات و المنصوبات و المجزورات و المجزومات. أما متى تقلب الواو ياء، و متى تقلب الواو و الياء همزه أو ألفا، و متى تقلب الواو و الياء تاء، مضافا إلى أمور الأبدال، فقد كنا نعتبرها أمورا ثانويه مشوشه لأذهان التلاميذ بدون طائل، و أنه ينبغي العناية بها مع التلاميذ الذين يتقنون قواعد اللغه إتقاننا جيدا لا مع التلاميذ الذين يجهلون أبسط قواعد اللغه. و قد كان بين التلاميذ من لهم قابليه تفهم تلك الأمور و كانوا قله، فكنت أخصهم بأوقات خارج أوقات الدرس أشرح لهم فيها ما لا يفيد شرحه لمجموع التلاميذ.

قلت أن بهجت الأثرى لم يجد من مسائل النحو ما يسأل به إلا- تلك المشاكل، هذا في النحو و أما في الأدب فقد كان أمره أعجب و أغرب و أضحك: لقد كان سؤاله الوحيد أن اختار تلميذا و صدف أن كان كرديا من النوع الذى يجيب عن مكان (لوح الوجود)، أنه في الاداره، و سأل: هل للشمس حاجب؟.

لقد تاه المسكين أى تيهان، إنهم لم يدرسوه في دروس الأدب العربى ما إذا كان للشمس حواجب و عيون و آذان و أناف أم لا. فما هذه الورطه؟.

لقد كان صاحبنا المفتش الهمام يقصد على ما يبدو بيت الشعر الوارد في قصيده البحترى التى يصف بها بركه سامراء و التى يقول فيها:

(و حاجب الشمس أحيانا يضحكها)

، فبدلا من أن يسأل التلميذ عن معنى البيت و ينتظر تفسيره له، لم يجد وسيله ليقال أنه كتب تقريرا أو أبدى رأيا، و لا طريقا للغمز و اللمز سوى هذا الأسلوب فى السؤال الذى كان موقنا بأنه سيريك التلميذ فيكون ذلك منفذه إلى ما يبغي.

و كما دخل بهجت الأثرى متعاضما متشامخا، خرج و قد ازداد تعاضمه و تشامخه.

و من الطريف أن الدكتور زكى مبارك، و قد كان يوما مفتشا للغه العربيه اعترف فى بعض ما كتبه بما كان يتعسف به أساتذته هذه اللغه إرضاء لحافظ التسلط فى نفسه، و أورد أمثله طريفه على ذلك.

و لكن إذا غلب حافظ التسلط على الدكتور مبارك فان وراءه دكتوراه من جامعه القاهره و دكتوراه من جامعه الصوريون. و وراءه كتاب (النثر الفنى) و أمثاله، فما ذا وراء بهجت الأثرى؟.

من أيام دار المعلمين

و من أيام دار المعلمين المعدوده يوم الفيضان الرهيب الذى طغى فيه ماء نهر دىالى حتى أغرق معسكر الرشيد المجاور لنا ثم أخذ يمشى إلينا مهددا لنا بالغرق، و قد كان لنزلاء المعسكر منفذ إلى بغداد أنقذهم من الموت غرقا أما نحن فقد أصبحنا محصورين بالماء من كل جوانبا و لا- منفذ لنا حتى جاءت ساعات أيقنا فيها بالهلا-ك لو لا- أن الماء اتجهت قوته باتجاه

(الزعرانيه) فمشى إلينا ضعيفا متباطئا مما أنجانا منه. و في حالات الياس تلك وقف واحد منا و أخذ ينشد قصيده مالك ابن الريب التي رثى نفسه بها، و هي التي يقول فيها:

فليت الغضا لم يقطع الركب عرضه و ليت الغضا ماشى الركاب لبياليا

تذكرت من يبكى على فلم أجد سوى السيف و الرمح الردينى باكيا

و أشقر خنذيذ يجرع عنانه إلى الماء لم يترك له الدهر ساقيا

فقلت له: لا ينبغي أن نرثى أنفسنا بشعر غيرنا، بل علينا أن نرثى أنفسنا بشعرنا، و أخذت أرتجل قصيده طريفه أهملها من كتبها، و لم يبق عالقا منها في ذهني سوى هذين البيتين:

فليت طريق النهر لم تجر فوقه مياه تريك الموت أحمر قانيا

تذكرت من يبكى على فلم أجد سوى الكتب و الأقلام حولى بواكيا

في القضاء

و في هذه الأثناء كانت الحرب العالميه الثانيه قد أعلنت و حلت الهزيمه بفرنسا و فقدت سيطرتها الفعليه على سوريا و لبنان و اضطرت إلى الموافقه على قيام حكم يضعف فيه نفوذ المستشارين الفرنسيين و يكون للوطنيين فيه الكثير من التأثير، لذلك رغبت في دخول القضاء، فكان أن عينت حاكما لمحكمه (النباطيه).

و قد تمت هزيمه فرنسا بذلك الشكل المهين و أنا في بغداد، فكانت أنباء توالى الهزائم الفرنسيه و معها القوى الإنكليزيه تبعث في نفوسنا الفرح العظيم، ثم كانت الهزيمه النهائيه التي سلمت فيها فرنسا و وقع مندوبوها على التسليم، فبلغ سرورنا مداه.

و كانت شماتتنا بالغه بالجنرال (غاملان) القائد العام للجيش الفرنسيه، الذي كانت فرنسا قد عينته سنه ١٩٢٦ قائدا عاما لجيشها في سوريا و لبنان ليخمد الثوره السوريه. و كان لما ناله من الذل و العزل أطيب الوقع في نفوسنا(١)، فنظم أحد رفاقنا الظرفاء أبياتا بذئيه الألفاظ لا يمكن ذكرها هنا، و لكنها مضحكه، فيها الشماته بفرنسا و الهزاء بها، و من أطرف ما فيها ذكر دخول إيطاليا الحرب بعد تضعف فرنسا، فقد ذكر ذلك بيت واحد يغرق السامع فيه بالضحك بعد أن يتحمل بذاءه ألفاظه، و كان فريق من اللبنانيين يلقب فرنسا بلقب الأمم الحنون لذلك جاء مطلع الأبيات هكذا:

أكلت أمك الحنون..... ها و دهاها من هتلر ما دهاها

و أرى أن لا بأس بذكر البيت المتعلق بدخول إيطاليا الحرب بعد تبديل كلمتين فيه:

(نالها) من أمام وجهها لوجه و أتى (الدوتشى) (فنال) قفاها

و الضمير فى (نالها) يعو؁ إلى هتلر. و الءوئشى هو لقب موؤولبنى.

و إذا كنت أبع لئفى ذكر هءىن البىىن و فىهما ما فىهما فءلك لئصوئر ما كان يعئلج فى النفوس ئجاه فرنسا و أفاعىلها فى سورىا و لبنان. و إنى

ص: ٣٢٠

١- فى الجنرال عاملان هذا يقوئ أءء الشعراء الثوار ءلال الثورة السورىة: ألا- لىء شعرى هل أبىىن لىلهو لىس بسورىا مقر لغملان.

لأكتبيهما و أنا خجل كل الخجل، طالبا من القارئ الوقور أن يقدر ظروفنا يوم ذاك...

و جئت (النباطيه) التي تكاد تعتبر قاعده جبل عامل، و إذا بي وجهها لوجه أمام مشاكل سخيغه و قضايا تافهه هي شغل الناس الشاغل، و إذا على أن أنغمر في هذه المشاكل و أنشغل في هذه القضايا، و إذا هي عملي اليومي ليلا نهارا، نهارا بسماع أقوال أصحابها، و ليلا بتدوين الأحكام.

و إذا بقلمى الذى اعتاد أن يدون خواطرى و أفكارى و دراساتى، يدون ما لا صلح له بذلك، يدون نتيجة الخصام على الأرض و التقاتل فى القرية، و التشاكس بين المترعمين.

و إذا بي لا أجد فسحة لقراءه كتاب فى التاريخ و بحث فى الأدب و قصيده من الشعر، و إذا على بدلا من ذلك أن أقرأ الكتب الجافه و المجالات السمجه: كتب القوانين، و مجلات أحكام المحاكم. فضاقت نفسى بذلك.

لا- سيما و أن منطقته النباطيه كانت مجالا لتنافس ثلاث أسر متنافسه على وجاهه البلاد و متزاحمه على مقاعدها النياييه، و كان لكل أسره أنصارها المتصارعون يوميا و المتعادون دائما و المتقاتلون أسبوعيا.

دعاوى طريقه

و كان الأمر لا يخلو أحيانا من دعاوى طريقه و أخرى مضحكه. فمن ذلك دعوى خلاصتها أن عاملا يشتغل فى حيفا أرسل مع أحد أبناء بلده (ستره) لأخيه الموجود فى البلده و الذى كان هو الآخر يشتغل فى حيفا، و قد رأى ناقل الستره أن يتجمل بها فى القرية قبل أن يسلمها لصاحبها فلبسها و صار يخرج بها و عرفها الناس عليه و فيهم المرسله إليه. و بعد شهر أوصلها إلى صاحبها، فلما رآها عرف بها (الستره) الملبوسه من المرسله معه فأقام عليه دعوى يطالبه بتعويض عن الأيام التى لبس بها الستره، و كان لا بد من تعيين جلسه للنظر بالدعوى، فلما رأيتها أمامى حسبت أن الباعث عليها غضب فورى لا يلبث أن يزول فيرجع المدعى عن دعواه، لذلك ابتدأت بها و وجهت إلى المدعى عليه كلمه تأنيب على تصرفه بما ليس له، و حسبت أن فى ذلك ما يكفى لرضا المدعى فينتهى الأمر. و لكن تبين أن المدعى جاد كل الجد فى دعواه و أنه قد سمي شهوده فى حال إنكار المدعى عليه استعمال (الستره)، و لم تفد كل محاولاتي فى رجوعه عن دعواه. و طال الأخذ و الرد، و أمامنا سيل من الدعاوى علينا إنهاؤها.

و كان علينا للسير فى الدعوى أن نستدعى الشهود و أن نعين خبيرا يحدد ما يستحقه المدعى من تعويض، و كان ذلك أمرا مضحكا.

و ثار غضبى بشكل لم أعهدده فى حياتى، لا- سيما على منصبه القضاء التى كنت أتغلب فيها على كل ما يثير الغضب خوفا من تصرف يبعثه الغضب، ففتحت فى الحال تحقيقا سألت فيه المدعى عليه هل سافرت إلى فلسطين بجواز سفر فقال: لا.

و سألت المدعى: أ لم تسافر قبل اليوم إلى فلسطين؟ فقال سافرت أكثر من مره. فقلت: هل كان معك جواز سفر فى آخر مره؟ فقال: لا.

و بذلك يجب محاكمتهمما بتهمه اجتياز الحدود بصوره غير قانونيه.

فقلت للمتداعيين انتظرا إلى ما بعد انتهاء الفصل بالدعوى لإكمال التحقيق معكما، فانتظرا.

و لما انتهت من الدعوى ثابت إلى نفسى و تذكرت أن الأمر سينتهى بكل منهما إلى حبس شهر و دفع غرامه خمسين ليره بعد إحاله دعوى أحدهما على محكمه بنت جبيل لأنه اجتاز الحدود من منطقتها، و دعوى الآخر على محكمه مرجعيون. و كان ما سجل فى المحضر قد سجل و لا يمكن تبديله، فأصبح همى الآن إنقاذهما من السجن و الغرامه، و بعد تفكير قليل رأيت أن أجعل تاريخ اجتيازهما الحدود فى زمن يشمله العفو الذى كان قد صدر قبل مده.

و فى أثناء ذلك لقيت من أفهمهما ما سيلقيان من السجن و الغرامه، فلما دخلا على الواحد بعد الآخر، قال المدعى: لقد تنازلت عن الدعوى، و قال المدعى عليه إنى مستعد أن أدفع التعويض.

و لكن كان ما كتب قد كتب.

و لما سألت كلا منهما عن تاريخ عبوره الحدود حدد التاريخ الصحيح، و هذا التاريخ لم يكن مما يشمله العفو. فقلت: لا، إنك عبرتها بالتاريخ الفلانى. و سجلنا ذلك.

و لم يسعهما الاعتراض، و هما لا يعلمان السر فى تغيير التاريخ، و ربما حسباه إمعانا فى أذاهما.

و من طرائف دعاوى الاختلاف على الإرث هذه الدعوى التى تريك مدى ثروات الفلاحين و قيمه ما يتركونه من تركات يتنازع عليها بعدهم الورثه:

فقد أقامت فاطمه مدلىج دعوى على مواطنتها عليا حسن من قريه كفر رمان تطالبها فيها بحصتها من مخلفات زوجها المشترك يوسف أحمد حمزه. و من العجيب أن هذا الزوج الذى سترى مقدار ما خلفه من ثروه لم يكن قانعا بزوجه واحده، بل كان له زوجتان.

ص: ٣٢١

أما المدعى به فهو كما جاء فى ورقه الدعوى: ما جرى تحريره بمعرفه محكمه النباطيه الشرعيه و هو: بقره شراكه مناصفه مع داود سليمان فى مزرعه الجرمق (أى نصف البقره لداود سليمان، و نصفها الثانى لزواج صاحبه الدعوى).

حماره شراكه مع البصار مناصفه، طنجره كبيره مع غطاها، طنجره عربيه بدون غطا، و ثلاثه لحف و ثلاث فرش، لكن صغير للعجين (لكن: بفتح اللام بدون مد، و فتح الكاف) هو (الوعاء الذى يعجن فيه العجين)، و طاستان صغيرتان، و صحن، و كيله حليب، و كرسي قش، و خمسه فناجين قهوه بدواويه، و إبريق شاي، و ثلاثه فناجين شاي، و غلايه قهوه، و جاروشه، و غربال، و خرج شعر.

و من طرائف الدعاوى الجزائيه دعوى مستوحاه من البلاغات الحربيه التى كانت تصدرها الدول المتحاربه، إذ كنا فى عنفوان الحرب العالميه الثانيه، و هذا نصها:

أن المدعى عليهم قاموا بهجوم عام، من الجهات الأربع بتاريخ نهار الأحد الواقع فى ١٧ تموز الساعه السابعه زواليه صباحا، على الحاكوره الشرقيه المزروعه من قبلى. و بهذا الهجوم السريع و المفاجئ سيطروا على الحاكوره و أخذوا يقلعون البطاطا و البندوره و اللوبيا و الباذنجان... إلى آخر ما جاء فى الدعوى.

و لو أن بلاغا صادرا عن مقر أحد الجنرالات فى هذه الحرب، لما كان أكثر دقه فى تعيين الزمان و المكان و تصوير نوعيه الهجوم... من هذا البلاغ الادعائى الطريف.

و لكن إذا كانت البلاغات الحربيه تنتهى دائما برد المهاجمين على أعقابهم، و تكييدهم أفدح الخسائر، و إذا كانت تحاول أن تضع أصحابها مواضع المنتصرين، فان هذا (البلاغ) من مصلحته أن يكون متواضعا معترفا بالهزيمه:

فالمهاجمون عادوا جميعا ظافرين!... و إذا كانت المصلحه الحربيه تذكر دائما القيام بهجوم معاكس. فان مصلحه صاحب هذا (البلاغ) لا تذكر إلا الاستسلام و كثره الجرحى.

و تلقيت يوما بلاغا من رقيب مخفر الدرک فى إحدى القرى لأتخذ ما يقتضى اتخاذه من إجراءات جزائيه بحق من وردت أسماؤهم فيه.

و إذا عنوان البلاغ هكذا: (حفل غناء و رقص بدون إجازة).

و لقد دهشت لهذا العنوان و استغربت أمره، فإنه لم يبلغنى أن أم كلثوم و لا محمد عبد الوهاب و لا غيرهما قد حضر أحد منهم إلى قريه من قرى هذه المحكمه للطرب و الغناء. و لم أسمع أن أحدا دعا إلى حفله راقصه فى هذه الدساكر المنتشره على رؤوس التلال و سفوح الجبال. بل الذى أعرفه أن أهالى هذه الضياع لهم من شقائهم و سوء علاقاتهم مع حكوماتهم ما يصرفهم عن التفكير فى شئون الرقص و الطرب!.

إذن ما شان حفله الغناء و الرقص التى يذكرها محضر الدرک؟.

أ تراها فتحا جديدا فى الحياه القرويه غاب عنا أمره؟! و أين كنت أنا لأطير إليها و لو كانت مخالفه للقانون؟...

و رحى أقرأ المحضر فإذا فيه ما يلى بالحرف الواحد:

"أثناء وجودنا أمام المخفر سمعنا ضوضاء و غوغاء، فتوجهنا فشاهدنا ما يزيد على الأربعمائه شخص من رجال و نساء جالسين على الكراسى و منهم ناس على الحجاره و القسم الآخر واقفون. و هناك ثلاثه رجال من العجر و معهم امرأه عجريه يعزفون على آلات الطرب و ينقرون على الطبول و الدفوف و المرأه ترقص و مقيمين بذلك حفله غناء و رقص، و ذلك قرب مقهى عبد النبى. فطلبنا صاحب المقهى فحاول الاختفاء و لدى سؤاله عما إذا كان لديه رخصه باحياء هذه الحفله أجاب سلبا. و بناء على ما ذكر صار تنظيم هذا المحضر".

و بهت عند ما أنهيت قراءه هذا المحضر، و عرفت ما هى الحفله التى عنها، و هذه خلاصه الحكايه:

مر جماعه من العجر المتجولين فى القرى، فنقروا على الدفوف و ضربوا بالطبول، فاجتمع عليهم أهل القرية و فرحوا بما رأوه و سمعوه من رقص و عزف و غناء. فتساءل صاحبنا رقيب مخفر الدرك عما إذا كان لدى صاحب المقهى الذى اجتمع الناس بقربه رخصه باحياء هذه الحفله "حفله الغناء و الرقص" كما سماها، فخشى صاحب المقهى العواقب فتوارى فى بادئ الأمر، ثم استسلم صاغرا ذليلا- ليحاسب على جريمته الشنعاء... و هى اجتماع الناس لمشاهده الرقص و الاستماع إلى الغناء بجوار مقهاه دون أن يكون معه إجازة، مع أن أكثرهم باعتراف المحضرين إما واقفون على أفدامهم أو جالسون على الحجاره...

و سألت عما جرى فى ذلك اليوم المشئوم فى القرية الوادعه، فعلمت ما يلى:

حين قبض البواسل على صاحب المقهى لمحاسبته دب الذعر فى أهل القرية المجتمعين هناك فلاذوا بالفرار، و خاف العجر فأمعنوا فى الرقص... و انفخت الدفوف و تفرق العشاق...

و هكذا تحولت الحفله البريئه اللطيفه إلى حزن...

و أعجب صاحبنا رقيب المخفر بنفسه لأنه كان أمينا على تطبيق القانون... حريصا على إباده الرقص و الغناء و الفرحة... إذا كانت بدون رخصه...

و كثرت التوسلات، و عظم الرجاء، ليصفح و يعفو و يغفر... ولكنه أبى و رفض و ثبت فى رفضه و إباءه... فتشتت الناس و ساق "المخالف" سوق المجرمين ليرتدع كل من يفكر بعد ذلك بان يفرح أو يغنى أو يضحك...

شهود الزور

و من المؤسف أن شهاده الزور كانت متفشيه، و كان ذلك من أعظم ما يضللنى و يجعلنى أتردد فى الأحكام المستنده إلى شهاده الشهود، فما يدرينى أن هؤلاء الشهود يشهدون بحق أو بباطل، و فى دعوى واحده جاء ثمانيه شهود يشهد كل أربعة منهم بما يناقض شهاده الأربعة الآخرين.

فقد كان موضوع الدعوى يتعلق فيما إذا كانت الأرض مزروعة حمصاً أو قمحاً، فشهد أربعة بأنها كانت مزروعة قمحاً و شهد أربعة بأنها كانت مزروعة حمصاً، فكيف تظمن إلى مثل هذه الشهادات التي تتكرر في كل يوم.

و قد عمدت إلى الاتصال باثنين من الفقهاء الموثوقين عندي هما الشيخ على حلاوى فى قاعية الجسر، و الشيخ محمد على نعمه فى حبوش، فكننت أبعث فاسالهما سرا عما يعلمان من أمر الشهود، و هذا أشبه بما كان يعرف فى القديم بتركيه الشهود. فكان يخبرنى كل منهما بما يعلم من أمر الشاهد المسئول عنه، و كانت لهما اتصالات بالقرى المجاوره لقريتيهما و يعرفان الكثير من أحوالها.

بيوع الأرض

و مما واجهنى فى الأيام الأولى لبدء العمل فاربكنى كل الإرباك هو أن بيوع الأرض فى قرى جبل عامل يتم تسجيلها على ورقه يوقعها البائع، و يوقع معه فقيه القرية و ثلاثه أو أربعة من القرية بصفتهم شهود على البيع، فتصبح هذه الورقه البسيطة أوثق و ثيقه.

و جاءت الحرب العالميه الثانيه فارتفع سعر الأرض و هبطت قيمه العمله الورقيه فكشر الطامعون من البائعين عن أنيابهم فتقدموا بدعاوى يطالبون بها باسترداد الأرض و استعدادهم لاعاده ما قبضوه من الثمن. و كان هذا البيع باطلا فى نظر القانون، لأن بيع الأرض لا يتم بهذه الطريقه البسيطة، بل له شروط غير مجتمعه فى هذه البيوع القرويه.

فكيف أسمح لنفسى أنا بان أحكم برد الأرض المباعه إلى بائعها، و سلبها من مشتريها بعد أن يرد إليه الثمن الذى أصبحت قيمته أقل من نصف ما كانت عليه أيام البيع.

و فكرت فى أول الأمر بان أحكم بصحه البيع و أترك لمحكمه الاستئناف أن تبطل حكمى فتكون هى التى حكمت لا أنا. و لكنى لم أجد فى هذه الطريقه حلاً معقولاً.

و بعد أسبوع من بدء عملى فى القضاء كان أمامى أكثر من عشرين دعوى فى هذا الموضوع معظمها من قرية أنصار، فأجلت هذه الدعاوى إلى أكثر من شهر لعلى أجد فى هذه المده حلاً. و وجدت الحل فالقانون كان معرباً عن القانون الفرنسى، و فيه نص بان الأرض تنتقل من مالك إلى مالك فيما تنتقل به (بمفعول العقود). و الشارع الفرنسى حين وضع القانون كان ينظر إلى الواقع الفرنسى حيث تجرى عقود بيع الأرض فى الدوائر الحكوميه و بموجب عقود و وثائق حكوميه، لا فى ديوان فقيه القرية و بموجب وثيقه قرويه تحمل توابع الفقيه و بعض أهل القرية. لذلك لم يقيد العقد باى قيد.

و ما دام (مفعول العقود) غير مقيد بشىء و غير مشترط فيه شىء، فهذا عقد صريح واضح. و ليس العقد إلا إيجاباً و قبولاً، و الإيجاب و القبول هما أساس هذه الورقه القرويه التى يستند إليها هذا المشتري القروى.

و صدرت الأحكام على هذا الأساس، و لكى أضمن عدم وجود ثغره فيها تنفذ منها محكمه الاستئناف، فقد عللت كل حكم تعليلاً دقيقاً مفصلاً، مبيناً فيه فيما بينت تقاليد القرى و عرفها فى مثل هذه البيوع. و قد كشفت لى هذه الدعاوى عن حقائق كثير من الناس المتظاهرين بالصلاح، فقد كان بعضهم فى أول من طالب باعاده الأرض إليه.

و جاءنى أحدهم و كان ذا مظهر وقور من عمامه و جبه و لحيه و سن متقدمه، فاستقبلته فى المنزل ظانا أنها زياره شخصيه، و لكن تبين أنه هو الآخر يريد استرداد أرضه معللا ذلك بأنه باع الأرض و أرسل بئمنها ولده إلى إفريقيا مهاجرا فى طلب الرزق، و أن ابنه لم ينجح فى مهجره، كان مشتري الأرض مسئول عن نجاح ابنه و عدم نجاحه.

و رحى أنتظر قرارات محكمه الاستئناف، فإذا بها تقر أحكامى، فارتحت عند ذلك كل الارتياح.

ثم إذا بى أفاجأ بشىء جديد: ذلك أن معظم المشتريين كانوا قد بدءوا يسيئون الظن بالناس، و يشعرون بان طلائع ضياع الثقة قد أطلت، و أن الزمن آخذ بالتغير، لذلك احتاطوا لحفظ حقهم بان ضاعفوا ذكر الثمن فى ورقه البيع. فإذا كان الثمن الحقيقى مثلا ألف ليره، ذكروه فى ورقه البيع ألفى ليره، و ذلك زجرا للبائعين عن أن يقدموا على طلب إعاده الأرض إليهم خوفا من دفع الثمن المضاعف الذى أقروا فى الورقه بأنهم قبضوه.

و لكن هذا الاحتراز لم يفد شيئا لأن ثمن الأرض قد ازداد أثناء الحرب أكثر من الضعف، كما أن النقد الورقى قد هبطت قيمته، لذلك فان البائع كان مستعدا لأن يدفع ضعف ما قبضه من ثمن أرضه على أن ستردها.

لقد فوجئت بان هؤلاء البائعين قد أقاموا دعاوى جديده يقولون فيها بأنهم لم يقبضوا ثمن أرضهم المسجل فى ورقه البيع كاملا، و أنهم يطلبون تحليف الشهود اليمين بأنهم دفعوا هذا الثمن بتمامه.

و قد كان هذا تديرا شيطانيا بارعا، و رأيت أنا أن المشتريين سيكونون بين أمرين: إما أن يحلفوا يمينا كاذبه فينجوا من دفع ثمن الأرض مضاعفا، أو أن يتورعوا من حلف هذه اليمين فيغرموا المال.

و لكننى وجدت الحل لذلك بان حددت نص اليمين على هذا الشكل:

(احلف بالله العظيم أن ذمتى بريئه من ثمن هذه الأرض).

و قد حاول أحد المحامين الاعتراض على هذا النص، و لكننى لم أبال به، و هكذا نجا المشترون من دفع ثمن ما اشتروه مرتين، و نجوا من حلف اليمين الكاذبه.

و على ذكر اليمين، فقد حدث مره أن وقعت فى إحدى القرى وقعه داميه استعمل فيها السلاح النارى و أدى الأمر إلى وقوع جرحى خطرين، فحضر من صيدا قاضى التحقيق و المدعى العام و بعد أن بدء التحقيق فى القرية القريبه من النباطيه جاء يكملانه فى مكتبى و استدعى الشهود و المدعى عليهم واحدا واحدا. و كان قاضى التحقيق يحلف الشهود اليمين المعتاده، فيحلفوها، و الله أعلم بعد ذلك بصحه شهادتهم أو زورها.

و كنت أعرف أنا أن الكثيرين يرون أن اليمين التى يحلفها الشاهد هى يمين باطله، لأن لا يمين شرعا على الشهاده، و حالف اليمين فى مثل هذا

الموقف ليس منكرًا ليصح تحليفه اليمين، لذلك كانوا لا يبالون بان يحلفوا يمين الشهادة، ثم يشهدوا بما يشاءون مستهينين بشهادة الزور، و من يستهين بشهادة الزور لا تهمه تلك اليمين.

و بدأ. أحد الشهود يؤدي شهادة خطره ستؤدي إذا كانت كاذبه إلى اتهام بريئين تهما جنائيه كبيره. و كنت شبه موقن بأنه يشهد زورا فاقترحت على المدعى العام و على قاضى التحقيق بان يوقفا الشاهد عن إكمال شهادته، و أن يتركا لى تحليفه يمينا خاصه يكمل بعدها شهادته فوافقا على ذلك.

فقلت له قل: إني برىء من الله و رسوله محمد بن عبد الله و من أمير المؤمنين على بن أبى طالب و فاطمه الزهراء و الحسن و الحسين و باقى الأئمة الاثنى عشر إذا كان ما أشهد به غير صحيح.

فبدأ عليه الاضطراب و التمللم و التردد، و لما رأى المدعى العام و قاضى التحقيق ما بدأ عليه أصرا بان يردد ما أقوله له، ففعل. ثم ظهر التراجع واضحا فيما يدلى به.

و بعد ذلك صار المدعى العام و قاضى التحقيق بعد أن يحلفا الشاهد اليمين المعتاده يطلبان إلى أن أحلفه اليمين الخاصه.

و هذا نظير ما ذكره محمد سيرجيه عما جرى له عند ما كان قاضيا للتحقيق فى أدلب حينما شكك بشهادة الشهود فى إحدى القضايا فسأل أحد العارفين بأحوالهم قائلا له: كيف تجرأ الشهود على حلف اليمين الكاذبه أمامى، فكان جواب المسؤل: "إحنا البدو نعتبر أن الحكومه عدوه لنا و قد جرى العرف عندنا على جواز الحلف كذبا أمام الأعداء و هم موظفو الحكومه، و لو كان ذلك على القرآن العظيم، فإذا شئت أن تكتشف الحقيقه فيجب عليك أن تحلف الشهود اليمين التى يقدسونها بالطريقه التى تعارفوا عليها. و فى هذه الحاله يجب أن يحلفوا أمامى بصفتى زعيم عشيرتهم اليمين التاليه:" و حق العود و الرب المعبود و سليمان بن داود اللى صبغ العبيد و اللى لين الحديد و اللى رفع السما من غير عمود".

و يقول القاضى سيرجيه أنه فعل ما أشار به زعيم العشيره فذكر الشهود عند ذلك الحقيقه و رجعوا عن شهاداتهم السابقه.

خلافات القرى

و كانت إحدى القرى مشهوره بنزاعات أهلها المنقسمين إلى أسرتين متنافستين، و كانت الدعاوى بينهم لا تنقطع، و قل أن يخلو أسبوع دون أن يكون لدى المحكمه دعوى من تلك القرية.

و جاءنا يوما أن شجارا عنيفا عاما حدث فيها اشترك فيه جميع رجال الأسرتين و أدى إلى جرحى كثيرين، فذهبت و معى ضابط الدرک و بدأت بإجراء التحقيق، ثم أمرت بتوقيف كل من ورد ذكره فى التحقيق و فى الطليعه رئيسا الأسرتين، و شمل التوقيف معظم رجال الأسرتين، و لم أستثن من التوقيف إلا الشيوخ و سقنا الجميع إلى سجن النباطيه و كان عباره عن غرفه واحده.

و بعد أن صار الجميع فى السجن قلت لهم: لن تخرجوا من هنا إلا متصالحين، فاصروا على عدائهم أسبوعا واحدا، و لما ضاق بهم الأمر فى السجن أخذوا يتعاتبون ثم انتهى بهم الأمر إلى المصالحه التامه، فأرسلوا إلى أن تم الصلح بيننا فافرجت عنهم، و منذ تلك الحادته لم نعد نسمع شيئا عن خلافاتهم و انقطعت دعاواهم عن المحكمه.

و كان من مشاكلى فى المحكمه، شكل عقائدى لا قضائى، هو أننا كنا فى ذلك الوقت لا نؤمن بالكيان اللبناى، و كنا نرى أن منطقتنا (جبل عامل) قد ألحقت به غصبا و بالقوه الفرنسيه، و كانت أهدافنا الوحده السوربه فى المرحله الأولى، ثم الوحده العربيه فى المرحله الثانيه.

لذلك لم نكن نقر تسميه جبل عامل باسم (لبنان الجنوبي) أو (الجنوب) باعتباره جنوب لبنان، و نرى أن كلمه (الجنوب) تعنى عندنا جنوب الجزيره العربيه أى اليمن.

و عند ما توليت أمر محكمه النباطيه كان لا بد لى من أن أرسل بين الوقت و الآخر مذكرات إلى المدعى العام الذى كان لقبه (مدعى عام لبنان الجنوبي) أو إلى غيره من الدوائر التى كانت تحمل كلها صفه (لبنان الجنوبي) أو (الجنوب).

و كان مما لا يتفق مع مبادئ الوطنيه أن أعترف باسم (لبنان الجنوبي) أو (الجنوب) اسما لجبل عامل و أن أسجل هذا الاعتراف على أوراق رسميه موقعه منى.

و لم يطل أمر إيجاد الحل، فكانت رسائلنى الموجهه إلى المدعى العام تصفه بهذه الصفه: (مدعى عام صيدا)، و كذلك الموجهه إلى غيره من الدوائر الرسميه.

و لم ينتبه أحد إلى ذلك و ظل الأمر مستمرا حتى تركت محكمه النباطيه.

ثم عدنا بعد ذلك نؤمن بلبنان العربى المنضم إلى الجامعه العربيه، و إن ظللت حتى الساعه أرفض استبدال اسم (الجنوب) باسم (جبل عامل)، و قد عبرت عن هذا الرفض فى كثير مما كتبت فى الصحف، و ليس لهذا الرفض علاقه بالكيان اللبناى، بل هو حرص منى على هذا الاسم التاريخى الذى عاش على الزمن مناره من منارات العلم و الأدب على أنه كان لى فى هذا الموضوع مشكل آخر، فقد كنت أبعث بمقالات إلى مجله الرساله المصريه، و من الطبيعى أن أوقع تلك المقالات مضيفا إلى التوقيع اسم البلد الذى أقيم فيه و هو (النباطيه). و قد كان اسم (النباطيه) وحدها لا يعنى شيئا لقراء الرساله خارج لبنان، فلا بد فى التعريف بها من ذكر اسم القطر الكائنه فيه، و قد كان محرما عندى أن أذكر النباطيه مضافه إلى لبنان، و فكرت طويلا فى هذا المشكل، و أذكر أن المقال الأول المعد لارساله إلى مجله الرساله بقى مطويا عندى أكثر من شهر لأجد الحل.

و أخيرا جازفت بان ذكرت النباطيه مقرونه باسم (بلاد الشام). و لم ينتبه أحد من (الرسميين) لذلك لأن هؤلاء ليسوا من قراء مجله الرساله.

و من طرائف الأحكام القضائيه التى أصدرتها الحكم التالى:

و هذا نصه:

أساس ٢١٩ قرار ٢٣٤ المدعى الحق العام المدعى عليه على يوسف الحائك - عدشيت باسم الشعب اللبناني فى المحاكمه العلنيه تبين أن ما نسب إلى المدعى عليه على يوسف الحائك من عدشيت هو أنه كان يحرق الأرض على رأس بقر و حمار، و أن فى هذا عدم رفق بالحمار ينطبق على القرار ٣٠١٦.

و حيث أنه قبل أن تعلن العقوبه التى يستحقها المدعى عليه، علينا أن نرجع إلى النص القانونى الذى استند إليه الدررك فى تجريمهم للمدعى عليه، فان ماده الأولى من القرار ٣٠١٦ تصرح بأنه يعاقب من ثمانيه إلى سته أشهر، و بجزء نقدى من ليرتين إلى خمس و عشرين ليره، كل من يسىء معامله حيوان بلا ضروره، أو بإتيان عمل غير جائز للبلوغ إلى غايه مقبوله، سواء كان بضربه أو بتعذيبه و كل من يحمل حيوانا على القيام بعمل يفوق مقدرته أو يؤلمه إلى آخر ما جاء فى ماده المذكوره. فهل ينطبق هذا النص القانونى على عمل المدعى عليه؟.

إن هذه المحكمه تجيب على هذا بكلمه "لا-"، و هى مطمئنه إلى هذا الجواب. فالماده القانونيه تنص على أن يكون هناك إساءه للحيوان، و أن تكون هذه الاساءه بلا ضروره، فهل فى الحرائه على الحمار إساءه إليه؟.

إذا كان المشترع يقصد الاساءه المعنويه، أو بعبارة أوضح الاهانته، فلا شك أنه ليس فى الحرائه على الحمار إهانته له، بل ربما كان فيها تكريم له، و ذلك يرفعه عن مستوى بنى جنسه الحمير و قرنه إلى فصيله أعلى هى البقر!.

و مهما يكن من أمر، فمن ذا يستطيع أن يقول أن وضع النير على العنق هو أكثر إهانته من الركوب على الظهر؟ و إذا كان المشترع يقصد الاساءه الماديه، فأغلب الظن أن لا فرق عند الحمار بين أن توقره بالأحمال الثقيله، و بين أن تشد إليه المحراث. بل ربما كانت الثانيه أقل مشقه و أخف كلفه. و على كل فمرجع ذلك إلى الحمار وحده و ما دام الحمار عاجزاً عن إيضاح هذه النقطة فتظل موضع شك و فى حاله الشك لا بد من مراعاة جانب المدعى عليه.

و حيث أن الشرط الثانى الذى تشترطه ماده إلى جانب الاساءه، هو أن تكون الاساءه بلا ضروره. و نحن نفهم من الضروره أنها هى التى تلجئ الإنسان إلى الاقدام على ما أقدم عليه. فايه ضروره ملجئه أكثر من ضروره هذا الهرم، ذى الأطمار الباليه و الفقر المدقع، و أيه ضروره أعظم من ضروره هذا الفلاح المتهدم الذى يعلن فى المحكمه أنه فقد ثوره، فعجز عن شراء غيره؟.

و حيث أنه بعد أن رأينا هذه الفقره لا تنطبق على حال المدعى عليه، فهل تنطبق عليه الفقرات الأخرى؟. أن الفقره الثانيه تنص على أن يأتى الإنسان عملاً غير جائز للبلوغ غايه مقبوله.

و حيث أن القانون لم يحدد الجواز و عدم الجواز. و لم يوضح كيف يكون العمل جائزاً، فنحن لا نستطيع أن نقول أن عمل المدعى عليه غير جائز، بل نرى فيه الجواز كل الجواز: فلاح فقير يموت ثوره، و لا- يملك نقوداً، بل يملك حماراً، فيتدب حماره العتيد مكان ثوره الفقيد، إلى أن يفرجها الله عليه، فيفرجها هو على الحمار. فاي شىء فى هذا غير جائز؟.

و حيث أنه بقى علينا أن نرى الفقره التى تقول: "كل من يحمل حيوانا على القيام بعمل يفوق مقدرته أو يؤلمه". و من ذا الذى

يستطيع أن يبين لنا ما إذا كانت الحرائث تفوق مقدره الحمار أو تؤلمه أم لا؟ فالحمار الذى يحمل أثقل الأحمال و أضخم الرجال، لا يمكن أن تفوق الحرائث قدرته. و الحمار الذى لا تؤلمه الحبال المشدوده لا تؤلمه كذلك الخشبات الممدوده!.

و حيث أن المحكمه فضلا عما تقدم، ترى للقضيه وجها آخر، فهى تتساءل: أيهما فى نظر القانون أبعد عن الرفق، أ هو أن تقذف بهذا العجوز إلى ظلمات السجن، أم أن يحرق هو على الحمار.

أما هذه المحكمه، فترى إنقاذ جسم هذا الشيخ الفقير من الحبس و جيبه من الجزاء، أقرب للرفق من إنقاذ الحمار من الحرائث، ما دام الحمار إذا لم يحرق، فسيحمل. و ترى أن حبات من القمح يزرعها المدعى عليه على حماره، فتخرج سنابلها و تؤتى أكلها، فيكون فيها فى هذه الأيام السود لقمه لجائع و بلغه لفقير، هى أجدى على القانون و على المجتمع من إلقائه فى السجن و تغريمه بالجزاء و إراحه حماره!.

لذلك، حكمت ببراءه المدعى عليه حكما وجاهيا، قابلا الاستئناف، و أعطى و أفهم علنا.

الحاكم: حسن الأمين

فى طريق الاستقاله

و فى خلال العمل فى محكمه النباطيه كان الصهاينه نشطين فى عمليات تهريب اليهود إلى فلسطين، ذلك أن الإنكليز كانوا يسمحون للصهاينه بإدخال عدد محدود من اليهود يبلغ عشرات الألوف كل عام، و هذا ما كان يسمى يوم ذاك بالهجره القانونيه، و لكن الصهاينه كانوا يعملون على إدخال المهاجرين إلى فلسطين زياده عن العدد المسموح به، و ذلك بتهريبهم عبر الحدود البريه من لبنان، فتنبته لذلك، و مع أن سلطتى فى المنطقه هى سلطه قضائيه بحته، و لا سلطه إداريه لى لأتدخل فى هذا الموضوع فقد صممت على أن أحارب هذا التهريب بكل وسيله، و كانت السلطه الاداريه يوم ذاك تتمثل بضابط للدرك، و لم يكن هذا الضابط ممن يهتمون بهذه الأمور، و لكننى استطعت أن أحمله على التعاون معى فى مقاومه تهريب اليهود، و طلبت إليه أن ينظم (دوريه) ليليه تراقب مداخل النباطيه، لأن الطريق الوحيد للمهربين هى طريق النباطيه، ففعل الضابط ذلك. و فى أول ليله تولت فيها (الدوريه) عملها قبضت على قافله من السيارات كانت منطلقه باليهود إلى الحدود الفلسطينيه، و كان بينهم يهود من أوروبا و يهود من العراق و يهود من سوريا نساء و رجالا و شبانا، فأوقف الدرك

القافلة و ساقوا الجميع إلى السجن بمن فيهم اللبنانيون سائقو السيارات التي كانت تقل اليهود.

و بكر الضابط إلى منزلي ليخبرني بما جرى و ليقول أنه كان عند حسن ظني فنفذ جميع تعليماتي.

و من العجيب أنه لم يكد الضابط يخرج حتى فوجئت و أنا على باب منزلي برجلين غربيين كانا على وشك الدخول على إلى المنزل، فتقدم أحدهما و عرف بنفسه بأنه صاحب فندق شهير في بحدون و قال أن رفيقه عراقي، فحسبت الرجل العراقي ممن سمع بي أيام إقامتي في العراق و أنه جاء يزورني، إذ كثيرا ما كنت أسعد بزياره بعض العراقيين ممن عرفتهم في العراق و ممن لم أعرفهم، فحسبت القادم واحدا منهم فهمت بالعوده إلى المنزل، و لكنني شعرت بان صاحب الفندق و رفيقه مرتبكين جدا و أنهما يحاولان الكلام، و لا أدري كيف أحسست في الحال بان الأمر يتعلق بالقافلة المقبوض عليها، فاستفسرتهم فاعترفا بذلك. و لوح الفندقى بالمال فطردهما طردا قبيحا.

و الذى حيرنى هو أن القافلة قبض عليها حول انتصاف الليل، فكيف بلغ الخبر لليهودى فى الفندق و كيف استطاع هو و الفندقى الحضور خلال هذه المده القصيره. فأدركت خطر الشبكه الصهيونيه و امتداد جذورها و تنظيم أمورها التنظيم الرهيب.

و مضيت إلى المحكمه فوجدت أمامى ملف القضية و كان الضابط قد نظمه و تركه بتصرفى. و لم أكد أبدأ بقراءته حتى طرق الباب و دخل على صديق حميم، فعجبت من دخوله، و كانت عادتى منع موظفى المحكمه أن لا يسمحوا بدخول أحد على صباحا، أيا كان طالب الاذن بالدخول، و ذلك أنى علمت بان بعض محترفى الواجهه فى القرى كانوا يوهمون المتداعين بأنهم يستطيعون التوسط لهم عندى فى دعاواهم، فكانوا يغتزمون فرصه وجودى فى الصباح قبل خروجى إلى كرسى الحكم فيدخلون على و لا يتكلمون بشيء سوى المجاملات و الاستفسار عن الصحه و الراحة و ما أشبه ذلك حتى إنهم لا يجلسون بل أن الواحد منهم يتكلم بمثل هذا الكلام ثم يمضى مسرعا، فيقابل أحد المتداعيين و يطمئنه بأنه توسط لدى فى قضيته فان جاء الحكم لصالحه أوهمه بان ذلك كان نتيجة توسطه، و إن لم يجىء لصالحه قال له بان القضية صعبه جدا.

و لقد رابنى دخول هؤلاء على فى الصباح و بعد التحرى علمت الحقيقه فمنعت أيا كان من الدخول على فى الصباح، لذلك بدوت ممتعضا من دخول هذا الصديق، فقال أنه وجد صعوبه فى الدخول على و أن الموظفين لم يسمحوا له بالدخول إلا بعد أن أقنعهم بأنه ذاهب إلى دمشق و إنى ربما رغبت بان أوصيه بشيء لوالدى. ثم دخل فى الموضوع بدون مقدمات و قال بأنه مفوض بان يدفع لى مبلغا ضخما حدده، و أن هذا المبلغ قابل للزيادة فيما إذا تساهلت فى قضيه اليهود، فطرده شر الطرد.

و قبل الإفاضه فى الحديث عما جرى، لا بد لى من أن أوضح للقارئ أن أى تساهل فى شأنهم لا يخشى معه من أيه مسئوليه.

و إنى لو أطلقتهم فى الحال و حددت يوما يحضرون فيه جلسه محاكمتهم، لما كان فى ذلك أى مؤاخذه، و إن أردت أن اتشدد قليلا فإطلقهم بكفاله كان ذلك صحيحا أيضا.

و مع رغبتى فى التشديد عليهم كنت أعلم أن إمكانيه هذه الرغبه محدوده جدا، و أنى لو حكمتهم بأقصى العقوبه و هو ثلاثه أشهر و مائه و خمسين ليره لبنانيه على كل واحد منهم لأمكنهم استئناف الحكم، و بذلك يخرجون عن يدي، و كنت واثقا أن محكمه الاستئناف ستطلقهم بمجرد وصولهم إليها. لذلك أردت أن أستعمل أقصى ما يسمح به لى القانون من التشديد عليهم

قبل أن يطلق غيرى سراحهم، و كانت وسيلتي الوحيده لذلك هى أن أقرر محاكمتهم موقوفين فييقون فى السجن حتى يوم محاكمتهم و الحكم عليهم، و بعد ذلك فليفعل بهم غيرى ما يشاء.

و كما دهشت لسرعه وصول الخبر إلى ذويهم فى بحمدون دهشت لسرعه اهتدائهم إلى اسم صديقى النباطى و اختياره هو بالذات للتوسط لدى.

و أدركت أن الشبكة الصهيونيه ستتسع و تمتد و لن تتركنى هادئا لحظه واحده، لذلك أسرع فى الحال إلى الاتصال هاتفيا بالمدعى العام فى صيدا فيكتور عيسى و لم يكن مع الأسف ممن يثيرهم ذكر اليهود و الصهيونيه، لذلك لم آت على ذكر هذا الاسم، بل أثرت فى نفسه المنطق القانونى فقط فقلت له أننا فى منطقه الحدود التى يكثر فيها تهريب الناس إلى الخارج، و أن تحت يدى الآن قافله كانت تحاول اجتياز الحدود تهريبا و إنى رأيت أن أتشدد مع أفرادها فقررت محاكمتهم و محاكمه أدلائهم و سائقى السيارات موقوفين فهل أنت موافق على ذلك؟. فقال نعم ما تصنع و ضرورى أن تتشدد فى الموضوع.

سألته هذا السؤال و سمعت منه هذا الجواب و أنا أعلم علم اليقين بأنه بعد أيام سيكون فى طليعه من يطالبنى بالتساهل معهم!..

و لم يمض يومان على توقيفهم حتى انهالت على التدخلات من كل جانب و جاءتنى الوساطات و البطاقات و الرسائل من بيروت ممن لم يكن يخطر ببالى أن يتوسطوا فى مثل هذه الأمور، بل فى غيرها من الأمور، و اشتد الضغط من كل ناحيه.

و كنت فى كل يوم أزداد علما بمدى امتداد الأخطبوط الصهيونى و مدى أحكام أمره فى كل ناحيه.

و فى اليوم الخامس من توقيفهم صح ما توقعته فاتصل بى مدعى عام صيدا هاتفيا و كلمنى بشىء من الخجل طالبا إلى التساهل و إطلاق سبيل الموقوفين بكفاله!..

فأجبتة بكل هدوء بانى لا أرى ذلك و سأحاكمهم موقوفين... و مضى يومان آخران كان الضغط فيهما لم ينقطع، و إذا بالمدعى العام يعاود الاتصال بى مصرا على التساهل، و هنا تركت هدوئى و تكلمت بكثير من الصخب و قلت له: ليس معنى اتصالى بك من قبل أنى مقيد برأيك، و قد أبديت رأيك أولا ثم بدلته ثانيا، و أنا لست ملزما بالعمل بالرأى الثانى.

فاجابنى بكل صراحه: أن بيروت تضغط على لأكلمك و أنا أفعل بناء على ضغطها، و لم أساله عنم يعنى بيروت، بل قلت له: أننى غير مستعد للإصغاء لهذا الضغط، و أقفلت سماعه الهاتف.

و بعد يومين كانت بيروت نفسها تتنازل فتكلمنى: فلما نوديت إلى الهاتف حدثت بان الطالب هو بيروت، و إذا بالمتكلم مدعى عام الاستئناف و قال بأنه يكلمنى بلسان الرئيس الأول آلفرد ثابت.

و اصطلاح الرئيس الأول كان يطلق على رئيس محكمه التمييز، و لم يكن يومئذ ما اصطلاح على تسميته بعد ذلك (مجلس القضاء الأعلى) المؤلف من مجموعه قضاة كبار، بل أن صلاحية هذا المجلس كانت كلها بيد من يسمى (الرئيس الأول) لذلك كان ذكر اسمه مخيفاً، لقوه سلطته و اتساع صلاحياته، و كان اسمه أوقع فى نفوس القضاة من اسم وزير العدل، لأن وزير العدل ليس بدائم فى وزارته فهو يتبدل بتبدل الوزارات [الوزارات] و ما كان أكثر تبدلها فى لبنان. أما الرئيس الأول فهو القابع الدائم فوق كرسية...

و طال النقاش بينى و بين مدعى عام الاستئناف، و لم أتزحج عن موقفى، ثم قال: أن الرئيس يريد أن يكلمك بنفسه، و بدا صوته أول الأمر هادئاً حياً، و لما لم أكن عاد مرتفعاً على شىء من الوقاحة، فارتفع صوتى على صوته و لكن على شىء من التهذيب. ثم أقفل السماعه.

و كنت قد حدثت بما سيجرى فدعوت ضابط الدرك ليكون الشاهد على المحادثه، و ذلك أنه كان للهاتف اليدوى يوم ذاك سماعتان يتكلم المتكلم من إحدهما و يسمع فى وقت واحد، و يضع الثانيه على أذنه الأخرى ليكون الصوت أكثر وضوحاً، فأعطيت السماعه الأخرى إلى الضابط فكان يسمع كل ما يقال، و لما ارتفع صوتى على صوت الرئيس الأول هال الضابط هذا الارتفاع - و هو الموظف المتدرج فى وظيفته من رتبه إلى رتبه، و المعتاد على الانصياع لرؤسائه - هاله أن يرتفع صوتى على صوت الرئيس فاخذ يشدنى من سترتى و يقول لى راجياً: طول بالك... طول بالك...

و منذ ذلك اليوم توقف سيل الضغوط، و لم أعين جلسه للمحاكمه إلا بعد ورود السجلات العدليه التى كان علينا طلبها من بيروت، فلما وصلت حددت موعد الجلسة، و جاء يوم المحاكمه فكان يوماً مشهوداً فى النباطيه احتشد فيه الناس ليروا النتيجة بعد أن شاع أمر الضغوط، كما حضر عدد من محامى بيروت و صيدا للدفاع، و مما أسفت له حضور من كنت أعتقد أنهم لا يمكن أن يكونوا مدافعين عن الصهاينه. و كان قد مضى على توقيف المدعى عليهم أكثر من شهر، و كان هذا أكثر ما أستطيع فعله، ثم أصدرت الحكم على كل واحد من الجميع بأقصى العقوبه و هو ثلاثة أشهر و مائه و خمسين ليره لبنانيه. و كان بين الموقوفين فتى عراقى من آل شماش و هى أسرته من أغنىاء بغداد فلما سمع الحكم أخذ يبكى، و الله وحده يعلم كم تفعل الدموع فى نفسى، و كيف أضعف أمامها و أحنو على أصحابها مواسيا مشاركا، و الله وحده يعلم أى قلب بين جنبى، قلب ينفع للمهمومين و ينفطر للموجعين...

و لكن الدمع المترقق هذه المره من العيون الصهيونيه كان له فى نفسى أثر غير الأثر الذى عرفته من قبل، و لأول مره فى حياتى أجد للدمع مثل هذا الشعور اللطيف!.. ما ذا؟! أ تبدلت إنسانيتى؟! أ تحجرت عاطفتى؟! أ عدت رجلاً غير الرجل الأول الحساس المرهف الحس؟! أ بعد أن كنت أبكى للدموع، عدت أنا نفسى أثير الدموع!.

و تطلعت فى حنايى، و جلت فى أعماقى، و تلفت فى خاطرى، و حدثت فى وجدانى، فرأيت أنى لا أزال ذاك الرجل العريق فى إنسانيته، الرجل الذى يبكى للباكين!.

الرجل الذى لا يطيق احتمال الدمع فى عينى إنسان، بل يحس و كأنه شهب من نار تنصب على جوانحه!

و أدركت للتو أن إنسانيتى وحدها هى التى جعلتنى أستطيب الدمع هذا النهار! و إننى و أنا أفجر الدموع فى هذه العيون الصهيونيه إنما أحاول أن أحبسها فى عيون الألوف من العرب الذين سيبيكهم هؤلاء الأوغاد على أرضهم و أهلهم.

و بمجرد صدور الحكم استأنفه المحامون، فكان علينا أن نرسل المحكومين موقوفين إلى صيدا، و شاقنى أن أتبع أمرهم. و كان الفصل صيفا، و رئيس محكمه صيدا و أعضاؤها متفرقون فى مصايفهم بسبب العطلة القضائيه، فواحد فى بلده سير الضنيه فى الشمال و واحد فى بلده روم فى الجنوب، و آخر فى البترون، و بسحر ساحر جمعوهم فى نفس اليوم من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، فلما اجتمعوا نظروا فى طلب إخلاء السبيل المقدم إليهم من المحكومين الموقوفين فقررروا بالإجماع إخلاء سبيلهم فانطلقوا أحرارا يعاودون محاوله الوصول إلى فلسطين، و قد وصلوا إليها - و لا شك - مع من وصلها...

و هنا قررت أن أستقيل من القضاء.

و بينا أنا أتھيا لتقديم الاستقاله و ألملم أوراقى و أستجمع أمورى صدر قرار بنقلى إلى محكمه زحله فانتدبنى رئيسها لإشغال محكمه راشيا، ثم أرسلت استقالتى و لم أنتظر قبولها، بل تركت العمل بمجرد إرسال الاستقاله.

و فى خلال ترددى على راشيا نظمت القصيده التاليه:

على القنن السماء فى الثلج نازح تغاديه أبكار الأسى و تراوح

و فى التيم من عليا البقاع متيم رمته براشيا الخطوب الفوادح

و حط به فى لجه البعد و النوى زمان كما يهوى اللثام منافع

على التيم تضوينى الهموم فاغتندى و فى الصدر من جمر الصبابه لافح

و انظر حولى لا حبيب أبته هواى و لا خل بهمى أصارح

لك الله يا قلبى أمضتلك صابرا سوانح هم فى النوى و بوارح

غرام و شوق و اضطهاد و غربه أ صخر أصم هذه أم جوانح

تطلعت أبغى من أحباى نظره فحالت جبال دونها و أباطح

و أشرفت من شم الرعان فهزنى لعينيك شوق يا (هنيده) فاضح

و أطلت فى التيم البعيد فراعنى على التيم أنى عن ديارك نازح

متى تسنح الغيد الحسان استفزنى إليك من الغيد الحسان سوانح
و إن هبت الأنسام صباحا أثارنى إليك من الأنسام فى الصبح نافع
و إن لاح بدر التم أهفو لأنه بحسنىك بدر التم فى الليل لائح
و استاف أعراف الخزامى لأنها بطيبك أعراف الخزامى فوائح

ص: ٣٢٧

و اعشق فى الدوح الطيور لأنها بصوتك فى الدوح الطيور صواح
على كل روض من صباك مشابه و فى كل حسن من سناك ملامح
أبتك فى التيم البعيد خواطرى و أشكو تباريح الهوى و أطارح
و أهوى على التيم البعيد لو أننى إليك مع الركب المغذين رائح
تكاد بوادى التيم من لوعه الأسى تغالب عيني الدموع السواح
تطول ليالينا على التيم أنها ليال بأوقار الهموم روازح
و ما كان وادى التيم فى النفس زاهرا و لكنه فى النفس أسود كالح
شعاب حباها الله خير محاسن و لكنها عند المشوق مقابح
تطل على الوادى الثلوج نواصعا فتشرق فى الوادى الذرى و البطائح
و تلمع فى السفح الصخور كأنها درارى فى سود الربى و مصابح
و تمرع بالزرع السهول نضيره و تعبق بالأطياب فيها الروائح
لقد كنت قبل اليوم بالحسن شاديا و لكننى فى التيم بالحسن نائح
فهيهات أن تحلو لعيني ساعه مطالع حسن فى القرى و مسارح
ستخمد فى التيم الجميل نفوسنا و تجمد عن وصف الجمال القرائح

إلى مصر

و كانت استقالتي فى أواخر شهر شباط سنة ١٩٤٥ و كانت قد بلغت أخبارى أصدقاء لى فى العراق فدعوني إلى الحضور إلى بغداد، فأجبتهم، و لكننى فضلت أن يكون ذلك فى مفتتح السنه الدراسيه. و كنت لم أزر مصر بعد فرأيت أن أقضى ما تبقى من شهور السنه حتى أوائل الصيف فى مصر.

فسافرت من دمشق فى القطار إلى حيفا، و منها انتقلت إلى القدسفيافا، ثم إيابا إلى حيفا.

و فى تلك الرحله أدركت حقيقه التغلغل الصهيونى فى فلسطين و مقدار ما أعده اليهود من وسائل للاستيلاء عليها. كما أدركت الفوضى العربيه فى مقاومتهم، و التنظيم فى جهودهم و حياتهم، فكان حزنى عظيما على قطعه من وطنى استحکم فيها أمر هؤلاء الغرباء الذين ينذر وجودهم بشر مستطير...

و استأنفت السفر بالقطار من حيفا إلى القاهرة فعبر بنا صحراء سينا حتى انتهينا إلى قاهره المعز الباذخه.

و فى القاهره آثرت العزله و الاستمتاع بمعالم المدينه، و التغلغل فى الأوساط الشعبيه المصريه و ما فيها من ظرف و طرافه.

و كان أول الظرفاء صاحب الفندق الذى آوانى ليله واحده، و ذلك أننى سألت قبل سفرى صديقا دمشقيا أقام فتره فى مصر عن فندق أنزل به فاعطانى اسم (فندق ريش).

فلما وصلتته كان مظهره الخارجى لا بأس به، و لكننى لما دخلته تبين لى عدم صلاحه، و لما كنت متعبا بعد ليله فى القطار، رأيت قضاء ليله فيه على أن أعادره فى الصباح.

فطلبت من صاحبه إعطائى غرفه بسرير واحد، فأجاب بان لا غرفه عنده بسرير واحد. فقلت إنى أستأجر السريرين معا، فأبى ذلك متعللا بأنه إذا رفض قبول أحد زبائنه فسيذهب إلى فندق آخر يعتاد بعد ذلك عليه فيفقد هو أحد زبائنه الدائمين. فاستسلمت للأمر الواقع على أمل أن لا ياتى أحد. و لكن لم أكد أستلقى على الفراش حتى فوجئت بقادم لم يكده يغمض عينيه حتى اندفع بشخير رهيب فلم أنم طول الليل.

و فى الصباح عنفت صاحب الفندق على ذلك و ذهبت فحجزت غرفه فى فندق الكونتينتال و عدت إلى فندق ريش لأخذ متاعى.

فسألنى صاحب الفندق عن الفندق الذى سأنتقل إليه فأخبرته بأنه فندق الكونتينتال، و سألته أليس هو أحسن من فندقك؟.

و هنا بدت النكته المصريه، فأجاب: الكنيف هناك أحسن من هنا.

ثم قلت له: ثم لا يوجد هناك من يشخر.

فقال: حتى لو كان يشخر، ذا شخيره يبقى مزيكه.

و فى فندق الكونتينتال لاحظت أن أحد المولجين بالمصعد يبدو على عكس زملائه عابسا صامتا لا يجامل الزبائن لا بإشاره و لا بكلمه.

فاستغربت أمره و خطر لى أن أستطلع أحواله، فسألته يوما أنت اسمك إيه؟ فبدا الغضب على وجهه لهذا الفضول، و لكنه لم يستطع إلا الاجابه، فقال بنفور: محمد.

و فى صباح اليوم الثانى فاجأته قائلا بكل رقه: صباح الخير يا محمد.

فلان قليلا، و أجب: صباح الخير. و لكن الغضب و النفور لم يفارقاه لحسابه ذلك فضولا مغيظا.

و لاحظت أنه يحمل دائما فى يده جريده أو مجله. و كانت جرائد الصباح تصلنى دائما إلى الغرفه فحملتها معى و فاجأته كما

بالأمس قائلاً: صباح الخير يا محمد، خذ هذه الجرائد و اقرأها.

فلان كل اللين، و أجاب: صباح الخير. شكرا. و شعرت أن هذا الكلام صادر من أعماق قلبه.

و فى الغد سبقنى هو بقول: صباح الخير، و أخذ الجرائد شاكرا.

ثم صرنا صديقين حميمين و تبين لى أنه على جانب كبير من الذكاء و خفه الروح و الاطلاع.

و كانت نغمته و عبوسه بسبب ما يراه فى الفندق الكبير من بطر و كبرياء و استعلاء و تامر، فى حين أن نصيبه من الفندق خدمه البطرين المتكبرين المستعلين المتأمرين.

و كانت الحرب العالميه الثانيه فى أيامها الأخيره، و كان رئيس الوزاره المصرى فى ذلك الوقت أحمد ماهر. و كان محمد هذا يكرهه كرها شديدا.

و فى يوم من الأيام أعلنت مصر الحرب على ألمانيا أسوه بغيرها من الدول التى أخذت تتسابق لاعلان الحرب لكى يكون لها مكان فى مؤتمر السلم القادم.

فاغتاظ محمد غيظا شديدا من إعلان الحرب على ألمانيا، فسألته و لما ذا هذا الغيظ؟.

فاجابنى بهذا الجواب الحكيم الرائع:

ده لا حرب دين و لا حرب وطن، اللى يموت فيها يموت فطيس.

و فى المساء اغتيل أحمد ماهر، فسالت محمدا عن الأخبار فاختر الموقف بهاتين الكلمتين: اتلخبطت خالص.

و قد كانت له تعليقات على نزلاء الفندق و تحركاتهم هى غاية فى الطرافه و الحكمه و السخرية.

فمن ذلك أنى كنت أجلس غير بعيد عن المصعد، فخرجت من المصعد الهابط ثلاث سيدات تجر كل منهن وراءها كلبا بمقود، فأيقنت أنه لا بد لمحمد من تعليق على هذا المشهد. فسألته: إزاي الحال يا محمد؟.

فقال:

و لا مؤاخذه من سيادتك، زى ما أنت شايف، نطلع كلاب و ننزل كلاب (بتشديد اللام فى نطلع، و الزاء فى ننزل).

و فى القاهره نظمت القصيده التاليه:

صورتها

أ صورتها أين الحيبه و الهويو أين ليالى الدل و البسمات

أ صورتها أين العشايا زواهراو أين تلاقينا على الشرفات

و أين على الشباك مجلى جمالهاو مشرقها الوضاء فى الغرفات

غداه تشنى فى الرحاب طروبهو تختال فى أترابها الخفرات

و ترنو بعينها إلى صبابهفتكسر من لحظى و من نظراتى

أ صورتها أين الخمائل غضهو أين سنا الأحباب فى الربوات

و أين على الروضات مطلع سربهمو مسراهم الزاهى إلى الحرجات

أ صورتها لم يبق غير تصورلفتنه عينها و للوجنات

لقد أطبق الهم المبرح و انطويغفؤادى على الأشجان و الحسرات

أراك فتهاجين كامن لوعتيو تذكين من وجدى و من لهفاتى

و انظر عينها عليك هوامداو عهدى بها بالحب مؤتلقات

أ صورتها ما كنت ناقعه الحشا إذا ثارت الأشواق مضطرمات

فأين كالألاء الصباح جبينهاو أين شذا أعرافها العطرات
و أين من النائى البعيد حدودهاو أين الثنايا الغر مبتسمات
و أين كمخضل الورود شفاهاتروى غليل القلب بالقبلات
لقد كنت أشكو الوجد و هى قريبهفكيف أداوى الوجد فى غرباتى
و كانت على قرب المزار مروعهفكيف و قد صرنا معا لشتات
هنيدة!.. أن تاسى على فانيفقدت بأدواء الزمان أساتى
و أن تحملى هم الفراق فإنها تقضى على الهم الطويل حياتى
يراوغنى الدهر اللثيم لعلها تلين، و لكن لن تلين قناتى
عدمنا على الدهر الكرام فما بهسوى معشر غلف القلوب جفاه
يورون بالترحيب كامن غدرهمو يخفون لؤم النفس يا لبسمات
تضيع لديهم كل نفس عزيزهو يشقى بهم فى الناس خير أباه
تلفت أستجلى جمال أحبتي على البعد فارتدت أسى لفتاتى
وددت لو أن الصبح يحمل عرفهمإلى مع الأرواح و النسومات
و إنى على الوادى أطالع حسنهمو ألمحهم فى السفح و الذروات
ذكرتك فى (النيل) البعيد فلم يطبعلى (النيل) ليلى ساهرا و غداتى
و شارفت أزهار الربى فتجهمتبعينى أزهار الربى النصرات
و طالعت فى السهل النخيل فما حلالبعذك عنى منظر النخلات
لأنت على الصبح الجميل جمالهو أنت سنا الآصال و الغدوات
إذا الفتيات الهيف رنحها الهويلويت عنانى عن هوى الفتيات
و إن غرد الشادى اقض مضاجعيو أذكى صباباتى و هاج شكاتى

فهل كنت بعدى بالغدير ملمهو هل جزت بالوادي و بالشجرات

و هل نعمت منك الرياض بنظرو طالعتها بالبشر و البسمات

القاهره آذار سنه ١٩٤٥

إلى العراق مره ثانيه

و قبيل ابتداء السنه الدراسيه سافرت إلى بغداد.

كانت أسر عراقيه محافظه تتجنب إرسال بناتها إلى التعليم العالى المختلط، فتقرر إنشاء فرع لهذا التعليم يقتصر القبول فيه على الطالبات فقط، و أطلق عليه اسم معهد الملكه عاليه و اخترت لأكون أستاذة فى هذا الفرع.

فكان عهدى الثانى فى العراق

من ذكريات معهد الملكه عاليه

من ذكريات معهد الملكه عاليه المظاهرة الرائعه التى قام بها طالباته عند ما بدت بوادر تقسيم فلسطين سنه ١٩٤٧ و شاركن فيها طالبات الثانويه القريبه من المعهد. فقد تجمع الطالبات فى باحه المعهد و عزمنا على القيام بالمظاهرة و أصررن على أن أكون معهن، و لخشيتى أن يندس فى المظاهرة بعض المندسين فيفسدون غايتها لم أجب طلب الطالبات، و لكنهن أصررن على أن أكون معهن كل الإصرار و كانت حماستهن فوق أن تقاوم، فقلت لهن ساسير معكن، و لكنى فى هذه الحال ساكون المسئول عن كل ما يجرى فى المظاهرة، و لا أحسب أن فيكن من ترضى بالاساءه إلى، لذلك سنحدد الشعارات فلا تتعدى فلسطين و قضيتها، و نحدد طرق السير فلا تتعدى شارع الرشيد و ما إليه ثم الوصول إلى دور السفارات التى أيدت العرب فى هيئه الأمم المتحده و رفضت التقسيم. فكان صوتهن واحدا بالموافقه، و قلت ساسير أنا فى أول المظاهرة فحيث اتجهت تنجه المظاهرة، على أن يكون السير فى صفوف منظمه. و هكذا كان.

و كنت بين الحين و الآخر أترك المقدمه و أرجع إلى الورا لملاحظه الهتافات، فإذا ما توجست منه قد وقع، إذ سمعت صوتا يصرخ: ما ذا تريدون؟ فتجيبه بضعه أصوات: الحريه و الخبز.

فأسرعت نحو صاحبه الصوت و بمجرد وصولى إليها كان صوتها قد انطلق: ما ذا تريدون؟ و كنت قد صرت وراءها تماما، فأهويت بكفى على رقبتها صائحا: نريد أن تخرسى.

و إذا بها ترانى فخجلت و انطوت على نفسها.

و كان من السفارات التى وصلنا إليها: السفاره التركيه، لأن تركيا يوم ذاك أيدت العرب فى رفض التقسيم، و لن أنسى حماسه الطالبات التركيات المنتميات إلى محافظه كركوك أمام السفاره التركيه عند ما وقعت

عيونهن عليها و هتافاتهن العاليه باللغه التركيه بمجرد أن رأين العلم التركي يرفرف عليها.

و طلبت إلى إحداهن أن تخطب باللغه التركيه باسمنا شاكره تركيا و أن تطلب إلى السفير رفع هذا الشكر إلى حكومته، ففعلت.

و من وحي تلك المظاهره و شده تأثرى بها كانت القصيده التاليه:

ردد على حديثه و أعد لسمعي ذكره

يا من يسائل كيف هنه أ و ما رأيت جموعه

لما مشين غواضبا يذكي العزائم مشينه

متوثبات لا تلين على الخطوب قناته

أكرم بهن و قد نفرن ثوائر أكرم بهن

هجن الحماسه فالتطت منا النفوس المستكنه

و مشت رجال للنزال يثيرها إنشاده

إيه فلسطين الشهيده لو سمعت هتافه

و شهدت فى سوح الكرامه و الاباء ندائه

يدعون للحرب العوان و للفتوح رجاله

و يثرن بأس الثائرين إلى النضال ببأسه

إيه فلسطين الشهيده لو شهدت دموعه

يبكين لا جزعا و لكن الأسى يهتاجه

فيلذن بالدمع الغزير يرد غرب همومنه

قرى عيونا إنهن بنات يعرب انه

الوثبات إلى الطيبى الثائرات إلى الأعنه

هن الحمائم يبعث الشجو الكمين هديلنه

فإذا غضبن فهن لبوات يصن عرينهنه

هن الحرائر مثل ماء المزن طهرا خلقهنه

و كما يضوع المسك طيبا فى المحامل ذكرهنه

هن الكرائم حى فى يوم الفخار كرامهنه

قد أنجبوهم للعلى فازدانت العليا بهنه

إنى سأذكر ما حبيت على الزمان جهادهنه

و معاهدا قد زانها آدابهن و علمهنه

هيهات تنسينى الليالى المنسيات دروسهنه

و من تلك الذكريات أن طالبتين من طالبات مديه الموصل تخرجتا من المعهد و ذهبتا إلى مدينتهما على أمل التعيين فى التدريس، و كانتا من الأوائل المتفوقات، فإذا بهما تصطدمان بما يصطدم به كل الناس فى البلاد العرييه - و ربما فى غيرها - بالوساطات النافذه التى هى أكثر فعلا- من التفوق و التقدم، فتعينت رفيقاتهما المتأخرات عنهما كل واحده منهن فى بلدتها، و عرض عليهما التعيين فى أماكن نائية.

و إذا بى أفاجا بوصول الرساله الآتية إلى. و أنى لأذكرها بحروفها لما تدل كل جملة فيها على أسلوب معين و معنى معين:

حضره الفاضل أستاذنا السيد حسن الأمين الأكرم، بعد التحية و السلام و السؤال عن صحتك و أحوالك متمنين لك حياه طيبه تحف بالنعيم و الرفاه، إننا خريجات معهد الملكه عاليه لهذا العام. لقد ضاقت بنا الأحوال و انسدت أمامنا الأبواب من جهه تعييننا، و قد لاقينا من الصعوبات أشدها فى هذه المده، فلجأنا إلى حضرتك الفاضله لتسعفنا بهذه القضية و تمديد المساعده إلينا. و الواقع الذى شجعنا على إرسال كتابنا هذا هو سمو أخلاقك و صفاء قلبك و حنانك لأخوى تجاهنا.

و ها نحن لا نزال رهن الدار غير ملتحقتين بمدرسه ما. مع العلم أننا المتقدمات، و من حق المتقدمات التقدم و لا سيما الثانيه و الثالثه، مع العلم أن معظم المتخرجات اللواتى معنا قد عين بمراكز ألويتهن. أ من العداله أيها الأستاذ أن تتعين المتأخرات و تؤخر المتقدمات؟.

أين العداله و أين نجدها؟ عند ما نراجع الدوائر المختصه يقدمون لنا قضاءين واقعين فى أقصى الحدود العراقيه قرب الحدود الإيرانيه و التركيه. أ هذا هو جزاء المتقدمات؟ أمثال... (و هنا تذكر أن أسماء بعض الطالبات المتأخرات) قد عين فى مركز لواء كركوك منذ شهرين. أما نحن فيعدوننا من يوم إلى يوم. و لم نحصل على فائده من هذا الانتظار، و اتضح لنا أخيرا أن وعدهم فاشل و أصبح لا أمل للتعيين عندنا.

فـرجـو من أـسـتـاذنا الفـاضـل أن يـسـعـفـنا و يـنـجـدنا في هـذا المـوقـف الحـرج و يـسـعـى لـتـعـيـننا في مـدارس مـديـنتنا (المـوصـل) أسـوه بـيـقيه رـفـيـقاتنا، و جـزاء لـانـتـظارنا و تـفـوقنا و لكـ منا جـزـيل الشـكر و فـائق الاحـترام.

١٩٤٦/١٢/٩ طـالـبتـاك المـخـلـصـتان لـطـفيـه مـجـيد لاوندفاطمه أحمد سلطان

ص: ٣٣٠

لقد رأيت في هذه الرسالة ضرباً من الوفاء لا تكليفاً بمهمه متعبه، لذلك تقبلتها بكل ترحيب و عزمت على إنجاز الفتاتين مهما كلفني ذلك من جهد و مراجعه، بل و توسل.

لقد كان شيئاً طبيعياً أن ترسل مثل هذه الرسالة إلى أستاذ عراقي في المعهد، فالطالبان عراقيتان، و الأستاذ العراقي أولى بان يستنجد به في هذا الاهتضام...

أما أن تستنجد الطالبتان العراقيتان الموصليتان باستاذهن اللبناني لانقاذهما من مازقهما فهو غير الطبيعي و غير المنتظر. و لكن هذا ما وقع!.. لقد كان الوفاء وحده، الوفاء العراقي الأصيل هو الدافع لذلك.

إنني نشرت الرسالة بنصها، مع ما فيها من ثناء على، و هذا ممجوج عندي، ممجوج أن ينشر الإنسان بنفسه الثناء على نفسه، و قد يرى القارئ في الكلام الآتي شيئاً من الثناء على النفس و هو أشد مجاجه عندي. و لكني متحمل لهذه المجاجه لأنها ستوصلني إلى ذكر ما أكبره من الوفاء العراقي.

لقد تذكرت هاتان الطالبتان و هما في محنتهما ما كانت تلقاه الطالبات منى من الرعايه لأموهمن و العنايه بشئونهن، فكانت رسالتهما إعلاناً لذلك، و كان تكليفي دليلاً على أنهما تحفظان لي ذلك.

و من هنا قلت أني فهمت الرسالة و فاء لا إشغالا لي بما ينبغي أن يشغل به غيري.

فانطلقت متصلاً بكل من له تأثير من أصدقائي، فكانوا يستغربون اهتمامي بطالبتين موصليتين هذا الاهتمام الشديد، بل أن نافذا عراقياً في وزاره المعارف لم يتردد بان يتكلم بما يدل على أن من الفضول أن يهتم أستاذ لبناني بطالبتين عراقيتين.

و لم يكن الأمر سهلاً و مضى الوقت و لم نصل إلى النتيجة، و لم أجب الطالبتين على رسالتهما لأنني أردت أن يكون الجواب مقروناً بالنجاح.

و لم تحسب الطالبتان عدم إجابتي لهن إهمالاً مني، و لا خطر لهما أن طول المده ناتج عن عدم العنايه بامرهما. لذلك أرسلتا رساله أخرى كلها أمل و استحثاث.

و لما تحقق ما نريده كتبت لهما جواباً و قلت لهما لن يطول الأمر أكثر من يومين أو ثلاثه حتى يصلهما أمر تعيينهما. و قد كان ذلك.

و كانت إحداهما: لطفيه غير قويه في النحو، و كان يربكها التمييز بين (لا) النافيه للجنس و (لا) النافيه للوحده. فلم أزل بها في الدرس حتى استقام الأمر لها، لذلك ختمت كتابي متسائلاً ممازحاً: كيف حال لطفيه الآن مع (لا)؟.

فجاءني منهما جواب تقولان فيه:

لقد تحقق رجاؤنا بفضل مساعيك فشكراً لك على عنايتك بأمرنا و ألف شكر. ابتدأنا بمباشره العمل يوم ٢٦/١٢/٣١.

ثم تسترسلان فى ثناء طويل، و أخيرا تختتمان رسالتهما قائلتين: إن لطفه لا تزال تتذكر (لا) النافيه للجنس و (لا) النافيه للوحده و الفرق بينهما و هاك أمثله على ذلك:

لا النافيه للجنس: لا خير فى علم لا ينتفع به.

لا النافيه للوحده: لا رجل فى البيت بل رجلان.

و من تلك الذكريات أن المتخرجات كن يطلبن إلى أن أسجل لهن كلمه تبقى ذكرى لعهد الدراره، كما كان بعض من لم يتخرجن يطلبن مثل ذلك. فمما سجلته للمتخرجات هذه الكلمه:

"لطفه المفتى من الطالبات اللواتى أذكرهن بكل خير لما تجلى لى فيها من الروح الأديبه الصحيحه، فقد لفت نظرى لأول مره عند ما كلفتها مع رفيقاتها و كن فى الصف الأول أن يصفن سفرهن و عودهن فى عطلة العيد، فكتبت عن ذلك قطعه جميله. و لم أكن أحسب أن فيها موهبه شعريه حتى فاجاتنى فى أواخر هذا العام بشعر فيه كل مزايا الشعر الصحيح.

على أن لطفه تجمع فى شخصها المتناقضات، فهى تنثر و تنظم، و لكن بينها و بين سيويه و قواعد سيويه عداء مستحكما فهى لا تبالى أن ترفع المنسوب و تنصب المرفوع، و هى بقدر ما تتذوق الأدب و تهضمه، لا تتذوق النحو و لا تهضمه!...

و إذا ما تذكرت دائما نثرها العذب و شعرها الحسن، فانى إلى جانب ذلك سأذكر دائما أجوبتها النحويه الطريفه التى لا تربطها بالنحو رابطه و لا- تجمعها به صلته!.. و سأذكر دائما أيام الصف الثانى (الفرع الانكليزى)، صف لطفه و زميلاتنا، و ما كان فى ذلك الصف من خلق كريم و أدب رفيع و كسل متواصل... "اه.

و مما سجلته لغير المتخرجات هذه الكلمه:

"تصرمت الأعوام و توالى الأيام، و ها هى السنه الثالثه فى معهد الملكه عاليه آخذه بالانسلاخ، و عما قريب تنقضى السنه الرابعه فينتشر هذا الجيل الكريم من الفتيات بعد أن يكون قد عب من موارد العلم ما عب، و غدا لا يبقى من كل هذه السنوات إلا أطياف تترأى من وراء الزمن، فايه أحاسيس يمكن أن تلتمع فى الذهن لمن قدر له أن يقف من هذا الجيل الصاعد موقف المعلم؟.

غدا عند ما نعود فنضرب فى آفاق الأرض و قد أصبح لكل منا وجهه هو موليتها، غدا عند ما يفصلنا عن تلميذاتنا ما لا يحصى من الأبعاد و الأزمان، غدا ستتذكر أنه كان لنا فى سالف الأيام تلميذات جمعن إلى رصانه الخلق رجاحه العقل، و ضمنن إلى التهذيب العلم الجم، و سندر أنه كان لنا بعض اليد فى إعدادهن لمستقبلهن العتيد، غدا ستكون هذه الذكرى من أحب الذكريات إلى خواطرننا.

و إذا كنت لن أنسى أيام العراق ما حييت فاننى لن أنسى - على الأخص - أيام معهد الملكه عاليه، و لن أنسى أن فتياته اللواتى ملأن نفسى ثقه بمستقبل الفتاه العربيه و أفعمن جوانحي اعتراضا بها و إكبارا لها. و قد كانت نجلاء الخطيب فى الطليه.

و إذا كان لى ما أحثها عليه فهو أن لا تهمل موهبتها الأدييه و أن تعمل على استكمال قريحتها النثريه و الشعريه.

ص: ٣٣١

و لا عجب أن تجيد و هي سليه بيت طلع منه الشعر و الأدب " اه.

آخر الذكريات

قبل يومين من تاريخ كتابه هذه الذكريات كانت آخر ذكرياتي في معهد الملكة عاليه، و عند ما أقول من يومين، فليس معنى ذلك أن تاريخ هذه الذكرى يعود إلى ما قبل يومين، بل أن تاريخها يعود إلى سنين بعيدة، فكم قد مضى من سنين على تركي معهد الملكة عاليه، و كم تقلبت بي الأحوال بعد مغادرتي العراق. و مع ذلك فان هذه الذكرى تعود إلى ما قبل يومين:

في مطلع السنه الدراسيه الثانيه في معهد الملكة عاليه كان عدد طالبات الانتساب إلى المعهد أكثر مما يستطيع المعهد استيعابه في الصف الأول، لذلك تقرر تأليف لجنة تتولى غربله طالبات الانتساب من حاملات شهاده الدراسه الثانويه.

و تألفت اللجنه من ثلاثه أساتذه عراقي و مصري و لبناني هو أنا مع وجود عميده المعهد.

و عهد إلى بسكرتيريه اللجنه فكان بيدي السجل الذي نكتب فيه أسماء المقبولات. و كانت طريقتنا في الغربله أن نطرح أسئله عامه على الطالبه نختبر بها شخصيتها و ذكاءها و عمق ثقافتها و اطلاعها العام إلى أمثال ذلك.

و دخلت إحدى الطالبت [الطالبات] فسألناها عن اسمها فقالت: م. س. ع، و لا أريد هنا أن أصرح باسمها إذ لعلها تطلع صدفة على ما أكتبه هنا و أنا لا- أريد أن تعرف حقيقه ما جرى بشأنها، و لا بد لي من أن أقول أنها لم تكن على شيء من الجمال، فطرحنا عليها ما شئنا من الأسئلة فإذا بها تجيب أعلى إجابته، و إذا بها كذلك تتوقد ذكاء، و برزت شخصيتها القويه منذ ساعه دخولها.

و لما كان في اسمها الذي ذكرته حرف (س) إذ أن اسم أبيها سلمان فقد ظهر أنها لا تستطيع أن تنطق (السين) نطقا صحيحا، بل تلفظها و كأنها (ثاء).

و لما خرجت أخذت القلم لأسجل اسمها بين المقبولات بعد أن أدت ما طلب إليها أداءه أحسن أداء، لاعتقادي أنها ستكون مقبوله بالإجماع، إذ كانت طريقتنا أن نقرر القبول أو الرفض باكثرية الأصوات، و كانت العميده تفضل عدم الاشتراك بالتصويت و تترك لنا نحن الثلاثة أن نقرر ما نشاء، و حتى هذه اللحظه لم تختلف آراؤنا فكانت قراراتنا بالإجماع.

و لما أخذت القلم استعدادا لتسجيل اسمها اعترض الأستاذ العراقي بشده، و قال أن فيها عيبا يمنع قبولها و ذلك أنها لا تحسن النطق بالسين نطقا صحيحا، و هي ستغدو في المستقبل مدرسه في التدريس الثانوي و عيبها هذا سيقبل من احترام الطالبات لها فيجب رفضها.

و انضم الأستاذ المصري إلى الأستاذ العراقي لا لشيء إلا لأنه في رأيه الأقوى فهو ابن البلد و أنا الغريب عن البلد، فتأييده للعراقي أضمن لمصلحته.

و أصررت أنا على قبولها و قلت لهما: لقد أدت ما يطلب منها تأديته أحسن أداء، فما ذنبها إذا كان الله قد خلق في لسانها هذا

العيب؟ ثم لمن تتركها مستقبلاً و أنتم ترون أنها غير مقبولة للزواج على الأرجح، أ ترميها في الشارع و هي الذكيه المثقفه أحسن ثقافه؟.

و قلت لهما عن عيها: أن كفاءتها ستغطي هذا العيب، و قد كان في لسان أحد أساتذتنا في الجماعه عيب أشد من هذا العيب، ذلك أنه و هو مسترسل في الكلام يصاب فجاه بما نسميه نحن (الوأه) إذ يعجز عن النطق و تظل شفتاه تتحركان بتصويت (وأ، و أ، و أ)، و يستمر ذلك لحظات و أحيانا دقائق. و لكن كفاءته كانت فوق أن يؤثر عليها هذا الضعف و أقوى من أن تقلل من احترامه في نفوسنا.

فلم يلتفتا لذلك و أصرا و أصررت، و أكملنا عملنا و خرجنا، و خرجا هما، و هما يعتقدان بان الأمر قد انتهى و أنها رفضت باغلبه الأصوات، و خرجت أنا و أنا مصمم على قبولها بالرغم من كل شيء، إذ أن رفضها كان جريمه أعظم من أن يتحملها ضميري، و كنت مستعدا للاستقاله من عملي في التدريس إذا كان لا بد من رفضها لأنني لا أقوى أبدا على أن أكتب بيدي قرار رفضها، و صممت على تحمل مسئوليته قبولها و لو أدى الأمر إلى إغضاب العميده. و كانت الوسيله إلى ذلك هي أن أضع اسمها مع المقبولات و أتخذ في الحال إجراءات إعلان أسماء المقبولات مما يجعل الجميع أمام الأمر الواقع الذي لا يستطيع أحد نقضه.

فأول ما فعلته أن طلبت إلى أحد الفراشين أن يعلق القائمه على باب المعهد كما هي العاده، ثم أرسلت نسخا عنها إلى الصحف و إلى الاذاعه.

و في المساء كان المذيع يذيع أسماء المقبولات و فيهن (م. س. ع)، و في الصباح كانت الصحف تنشر أسماءهن و فيهن اسمها. و لكن ذلك لم يلفت الأستاذ العراقي فلم يسمع الاذاعه و لا قرأ الصحف، و إنما استرعى انتباهه في الصباح رؤيه القائمه معلقه على الباب فقرأها فإذا بالاسم الذي أصر على رفض قبول صاحبه موجود بين الأسماء فدخل صائحا معربدا قائلا بان هذه فوضى و عدم احترام للنظام، و مثل هذا الكلام، و كنت أنا أسمع صياحه مرتاح الضمير قرير العين.

و كل ما كنت أحاذره هو غضب العميده و ما يجره من مشاكل و متاعب، و لكن تبين أن العميده كانت في قراره نفسها راضيه عما فعلته بعد أن شهدت بنفسها كفاء (م. س. ع) لذلك سكتت و لم تعلن الرضا و لا أظهرت الغضب. و في نهايه العام الدراسي و إعلان نتائج الامتحان كانت (م. س. ع) الأولى بين جميع الطالبات في مختلف فروع الدراسه.

و مضت الأيام و كرت الأعوام و نسيت أسماء جميع الطالبات و غابت صورهن عن ذهني، إلا اسما واحدا هو (م. س. ع) و إلا صورته واحده هي صورتها و هي تستمع إلى محاضراتي في الدروس باصغاء و استيعاب.

و ما زالت الأيام تكرر و الأعوام تمضي، و إذا بي أقرأ و أنا في بيروت قبل يومين من كتابه هذه السطور خيرا في مجله بغداديه بان (م. س. ع) قد نالت الدكتوراه بدرجة جيد جدا من جامعه بغداد.

يوم عزمى على ترك العراق كتبت فى الصحف ما يلى:

ص: ٣٣٢

منذ أربع سنوات عند ما تناءت عن عيني مشاهد الشام و غابت معالم السهول و الجبال و احتوتني الصحراء بوحشها تلفت إلى الوراء منشدا:

فقلت لقلبي حين خف به الهوى و كاد من الوجد الممض يطير

فهذا و لما تمض للبين ليله فكيف إذا مرت عليك شهور

و أصبح أعلام الأحبه دونها من الأرض غول نازح و مسير

و رحت أمعن في القفر الأجرد واجما مكروبا، و طفقت أمشى في البيد ساهما مطرقا أفكر فيما أنا مقدم عليه من عمل جديد و ناى مديد حتى طلعت (الرطبه) باضوائها المتلائنه فكانت ابتسامه الصحراء القطوب و ضحكه الأمل الخابي بل كانت بادره الخير في هذا السفر المضنى. و قد أشرقت نفسى لاشراق الرطبه فحسبته إشراق الراحه بعد العناء و النور بعد الظلام و لم أدر أنه إشراق عهد من أعذب عهود حياتى و تالق زمن من أحلى أزمان عيشى حتى بدت نخلات (الرمادى) و تلالأت صفحه (الفرات) و أطل سواد (الفلوجه) و لمعت ماذن (الكاظميه) و ظهرت معاهد بغداد و ماجت غوارب دجله و زخر شارع الرشيد فكانت حياتى العراقيه التى ينطوى الزمن و لا- تنطوى من ذهنى و تتمحى الأيام و لا- تتمحى من خاطرى و يتلاشى العيش و لا- تتلاشى من ضميرى!.

أربعة أعوام فى العراق نزلت فيها بغداد و الحله وجبت فيها كربلاء و النجف و الكوفه و عفك و الديوانيه و الناصريه و رحلت إلى البصره و أبى الخصيب و القرنه و الفاو و شاهدت الرافدين من ملتقاهما حتى مصبهما و تنقلت فى الغراف و حواضره و نزلت بعقوبه و كركوك و أربيل و السلیمانیه و الموصل بل تغلغت فى صميم الأرياف و القرى فبت فى العنكيه و وصلت إلى شفاثا و الأخيضر.

أربعة أعوام فى العراق توالى على فكانت أزهر صفحه فى دهري و أنضر صوره فى ذهنى و أجمل مشهد فى نفسى و عند ما أذنت هذه السنون بالزوال و مالت إلى الانطواء و عند ما ختمت حياتى العراقيه و مشيت أعاود قطع الصحراء آثبا كما عاودته ذاهبا - إذا بى و قد (تناولت عن عيني مشاهد العراق و غابت معالم السهول و الجبال و احتوتني الصحراء بوحشتها) أتلفت إلى الوراء منشدا:

و لو قال لى الغادون ما أنت مشته غداه جزعنا الرمل قلت أعود

أ تطلب يا قلبى العراق من الحمى ليهنك من مرمى عليك بعيد

ترى اليوم فى بغداد أنديه الهوى لها مبدئ من بعدنا و معيد

و إذا بى بعد أربع سنين عند تركى (الرمادى) و تخليفى ورائى سواد الفرات أقف نفس الموقف الأليم الذى وقفته عند تركى (ضمير) و تخليفى ورائى خضره الغوطه و إذا بالحنين الذى ملك على نفسى و أنا أفرى الصحراء قاصدا العراق يملك على نفسى و أنا أفرى الصحراء عائدا من العراق و إذا بالشوق الذى أضناني و أنا أهجر الشام و أؤم العراق يضمنى و أنا أهجر العراق

و أوام الشام و إذا بي لا أكاد أدري أين هو ترابي أ في قمم (قاسيون) و ذروات لبنان و سهول الغوطه أم هو في قمم (حمرين) و سهول (الرافدين) و إذا بي لا- أكاد أعلم أين هم أهلى و صحبى أ على ضفاف الليطانى و بردى و الحجير أم على ضفاف الفراتين و دىالى و الغراف، فإذا ما حن الناس إلى أرضهم و أهلهم جننت إلى أرضين و أهلين و إذا ما اشتاقوا بلادهم و قومهم اشتقت بلادين و قومين.

لقد غابت بغداد عن عيني و لكن بغداد لا تغيب عن نفسى فلا أزال أرى دجله متدفقا بين الرياض و المروج و لا أزال أبصر نخيلها متمايلا مع النسائم و الأرواح و لا تزال صورها الحلوه تتعاقب فى خاطرى غضه طريه الألوان.

و لقد انطوى العراق عن ناظرى و لكن العراق لا ينطوى من ذهنى فلا أزال أشاهده ناضر الصفحه زاهر الجبين و لا أزال أتطلع إلى الرافدين يشقان أديمه الأخضر و لا- أزال أطل على ضفافهما الكاسيه العامره فأرى الدوح الفارد و الأيك الدائح و انظر جموع الفتيان و صفوف الشيوخ و الكهول.

لقد بعد العراق عن بصرى و لكن العراق لن يبعد عن قلبى.

وداع العراق شعرا

ثم نشرت القصيده التاليه:

إنى عهدتك فى النوى متجلدا هيهات هذا اليوم أن تتجلدا

أرق الدموع فلست أول شاعر يبكى الأحبه و الديار توجدا

لمن الدموع تصونها إن لم تكن لفراقهم و لمن تجود بها غدا

و دع شذا بغداد و دع دجله و الألمعيه و البساله و الندى

لن تبصر النخل النضير و لن ترى فى الجزرتين سناءها المتوقدا

هفت النواظر للعراق فلم تب خضر الضفاف و لا النخيل بها بدا

نات الرصافه و اختفت أعلامها و الكرخ عن عيني أوغل مبعدا

بغداد غابت و انطوى نخل الربى و الشمل شمل الأوفياء تبدا

هيهات بعد اليوم وجدك ينقضى هيهات شوقك أن يلين و ييردا

تلك الضفاف و كم مرحت بظلها شغفاؤكم حن الفؤاد و كم شدا

النخل كالوسنان أسبل جفنه و النهر كالسكران هاج معريدا
و الورد كالجدلان يبسم ثغره و الطير كالولهان يهتف منشدا
و الظل كالهيمنان مد ذراعه شوقا و عاوده الحيا فترددا
قل للأحبه و الديار بعيده هيهات قلبي بعدكم أن يسعدا
الصبح يعلم كم هفوت مروعا و الليل يدري كم سهرت مسهدا
هذا الفؤاد المستهام بحبكم هيهات يخمد حبه إلا الردى
بينى و بينكم القفار قصيه ما أطول المسرى على و أبعدا
ما زلتم أدنا إلى و لم تزل أيامكم أهنا لدى و أرغدا
تلك الشواطئ ما نسيت عهدوها تلك الخمائيل ما جحدت لها يدا
يا نخل ما أبهاك عندى منظرا يا ماء دجله ما ألك موردا
ساطل أرسل فى هواك قصائدى ساظل بالحب الوفى مغردا
ساظل بالنخل النضير متيما سيظل قلبى فى الهوى متبغدا

نخيل العراق

ثم القصيده التاليه:

حى النخيل سهوله و هضابا و الشاطئين مضاربا و قبابا
و املاً من الحسن البهى نواظرا ظمأى إلى الحسن البهى سغابا
تهواه فى نور الخميلاه وادعا و على العباب موثبا غلابا
ظلا على الوجنات رف و منهلا و على الشفاه الحالامات سرايا

هذا النخيل و ما أدركت [أدركت] عهوده ألا أدركت أحبه و صحابا

كم قد وقفت عليه أتلو حسنه شعرا و أقرأ ضفته كتابا

يوحى الحياه جمالها و جلالها و العيش حربا و الزمان غلابا

يعلو هلى هوج الرياح و ينتخى كالثائرين مطامحا و رغابا

و يرق عاطفه و يعذب مبسما و يطيب ظلا وارفاه و رحابا

و دنا فكان على البسيطه روضه و علا فكان على السماء سحابا

و لكم نزلناه فكان على الأسى بشرا و كان على الأوام شرابا

هذا النخيل تباركت عذباته ما كان أروع حسنها الخلابا

تسمو على هام الفضاء غدائرا و ترف فى عين السما أهدابا

و تميمس فى كف النسيم عرائسا و تصول فى أيدى الرياح حربا

يا نخل طبت على السهول مناظرا و عذبت فى أرج الصبا أطيابا

و فتنتنى فإلى ظلالك ينتمى قلبى و تهوى نظرتى إعجابا

و ملأت نفسى فى الحياه بشاشه و لطلما ملئت أسى و عذابا

أهوى على التلعات فجرك و الضحى و البدر سال على الغصون و ذابا

و أهيم بالشاطى النضير و أشتهى فى الضفتين ربيعك المخصابا

كم قد هفت نفسى إليك و ناشدت فى البعد نهرك دافقا و الغابا

يا نخل و افاك الربيع و أقبلت أسراب حسن تفتفى أسرابا

قد عاد للربوات ناضر حسنها و زهت رباع كن أمس يبابا

النهر يشدو للرياض قصائدا تنسى المغرد لحنه المطرابا

و يسير بين الضفتين مغمغما و يمر مذعور الخطى و ثابا

و الزورق الغافى ترنحه الصبا فتمايل الأعطاف فيه طرابا
أهلا بمنصور الربيع و مرحبا بالزهر ينسج للرياض ثيابا
و يعيد للأرض الموات حياتها و يرد للدنيا صبا و شبابا
أيقظ على النخلات غافيه الشذا و استنهض الأزهار و الأعشابا
و أذع لنا سر الورود نضيره و انشر لنا النسرين و العنابا
أطلع لنا فى كل أرض روضه و بكل أفق من سناك شهابا
يا نخل قد طال الفراق فهل ترى بعد الفراق لنا إليك إيابا
سنظل نذكر فى رباك صحابه هيهات نبغى بعدهم أصحابا

أعذب أيام حياتى

إن أيام التدريس فى العراق كانت أعذب أيام حياتى، و لم أر قبلها أو بعدها أياما تضاهيها فى ذلك، سواء منها عهد التدريس الثانوى فى ثانويه الحله و دار المعلمين الريفيه، أو عهد التدريس الجامعى فى معهد الملكه عاليه، و دار المعلمين العاليه. أستثنى من ذلك الأيام التى بدأت فيها أجزاء (دائره المعارف الإسلاميه الشيعيه) تبرز إلى الوجود جزءا بعد جزء، ثم اكتملت بمجلداتها الكبار، ثم طبعت طبعتها الثالثه.

لقد فاقت أيام (دائره المعارف) بسعادتها كل الأيام إذ حققت فيها حلم الحياه، و لا أزال أنعم بسعاده تحقيق هذا الحلم و أطمح إلى الاستزاده منه، بما أضيفه كل آن من زيادات على ما أنجز.

و سبب عدوبه أيام التدريس العراقيه ثلاثه أشياء:

أولاً: مطابقه العمل فى التدريس لميولى سواء منها الأدبيه أو التاريخيه.. ثانياً: ما انطبع عليه العراقيون من الوفاء. و هو الخصله التى تسمو على كل خصله فى الإنسان، فما رأيت كالعراقى وفاء، و الوفاء ينير النفس مهما أدلهم فيها من ظلام. و أنا الذى ذقت العقوق و الجحود و الغدر فى وطنى أمر مذاق، لم يكن يحلو فى نفسى شىء كالوفاء.

ثالثاً: ما لقيته ممن تعاملت معهم من تقدير للإخلاص فى العمل و الكفاءه فيه، و ما داموا هم مخلصين أكفاء فقد كان طبيعياً أن يقدروا الإخلاص و الكفاءه.

حين يكون تعاملك مع المدرء: عبد الوهاب الركابى، و جعفر الخياط، و رشيد سلبى و مع العميده (أمه السعيد)، فلن تشعر أبداً بالغبن.

و لكن حين يكون تعاملك مع ألفرد ثابت، و أنيس صالح، و فكتور عيسى، فستشعر بالغبن، فتسعد و أنت مدرس بعيد عن وطنك، و تشقى و أنت قاض فى صميم وطنك:

أضحكتنا و رب ضحكك بكاء فتره من زماننا عمياء

خلقت من خشاره الناس رهطا عرفت بعد خلقه الآباء

لمه من بنى الشوارع عاشت حيث عاش الأعيار و اللقطاء

حشرات طلعت من طبقات الأرض لما استتبت الظلماء

و جراثيم حين لاءمها الماء تفشى من سمهن الوباء

و شتان بين أن يكون وزير الوزاره التى ينتمى عملك إليها رجل مثل الشيخ محمد رضا الشيبى و نجيب الراوى، و بين أن يكون رجل مثل حبيب أبو شهلا.

و ما أسعدك يوم يكون النافذ فى محيطك الذى تعيش فيه رجل مثل سعد صالح، و ما أشقاك يوم يكون هذا النافذ مثل أحمد الأسعد و عادل عسيان:

و كذاك اعتلاء من ليس أهلا للمعالى مصيبه و بلاء

كيف لا ترقبن كل عثار من قصير عليه طال الرداء

مطرق إن مشى كمن شغلته لحلول المشاكل الآراء

لو تصفحته وجدت ثيابا فوق جسم كأنه المومياء

-- با كالسباخ -- ل خير جل ما فى جرابه الكبرياء

أخرجوا من المغايض زهرا و نبات المغايض الحلفاء

و كذا يبطر الرخاء خفيف الوزن من حيث لم يسعه الإناء

رب داء ترى من العار شكواه و شكوى يثنيك عنها الآباء

لقد كانت العميده أمه السعيد و المدرء عبد الوهاب الركابى و جعفر الخياط و رشيد سلبى: الواحات الخضر فى صحراء حياتى الوقيد.

و كان الشيخ محمد رضا الشيبى و الشيخ على الشرقى و سعد صالح و نجيب الراوى: الضلال الوارفه التى طالما وقتنى لوافح الهجير.

أ لا طبتم و أنتم أحياء فى دوركم و مكاتبكم، الدور و المكاتب التى كانت فيها كلمه: (أهلا و سهلا) أشهى من الماء الخصر للظامئ الحران، و التى كانت تنبعث من أعماق قلوبكم لا من مظاهر شفاهكم.

ص: ٣٣٤

و طبتم و أنتم أموات في أجدانكم، الأجدات التي انطوت على أشرف ما تنطوي عليه الأجدات من شهامة و مروءة و نخوة.

و إذا كان قد حال بيني و بينكم بعد الديار، ثم المقابر التي احتوتكم و ستحتويني، فلن يحول شيء دون أن أردد ذكركم بالجميل و أنا حي، و أن تردده هذه الأوراق على الدهر و أنا ميت.

البحث و التأليف

كنت خلال إقامتي في النباطية أعتنم بعض أوقات الفراغ فاكتب بعض البحوث التاريخية و الأدبية و أنشرها في مجله (الرساله) القاهرية الأسبوعيه، و كانت يوم ذاك أوسع المجالات العربية انتشارا، و مما نشرته فيها مناقشتي لعباس محمود العقاد في بعض ما ورد في كتابه (عبقريه الامام)، و قد بلغ من دقه تلك المناقشه و صوابها و تهذيب عباراتها، أن العقاد المعروف بعناده مع من ينتقده و شدته على من يناقشه، و عدم تحمله لأيه ملاحظه - أن العقاد هذا سلم لأول مره في حياته الأدبيه، و ربما لآخر مره - سلم بصواب ما اعترضت به عليه في العدد التالي من مجله الرساله الصادر في ١٠ كانون الثاني ١٩٤٣، و جعل عنوان رده (خلاف يستحق الاختلاف)، و هذا العنوان وحده كاف بتسليم العقاد بصحة ملاحظاتي.

و صدف أن نشرت الرساله في نفس العدد الذي نشرت فيه مقالي - نشرت مقالا للعقاد يرد به على شيخ أزهري كان قد ناقشه في بعض ما ورد في كتابه (الصديقه بنت الصديق)، فحمل العقاد على ذلك المناقش حمله شعواء بقلمه الجبار، فقال بعض أصدقائي مخاطبا لي: انتظر دورك في العدد القادم!... فرددت: لا- أحسب ذلك واقعا، لأنني أظن أن العقاد إنما كان يهاجم منتقديه لأنه يستشعر من خلال كلامهم التعريض به و الإقلال من شأنه، و يعتقد فيهم سوء النيه لا حب الوصول إلى الحقيقه، لذلك كان يعاملهم بما يعاملهم، و أظنه هذه المره سيلمس العكس، و سترون... و صح ما توقعته فكان جواب العقاد منصف كل الإنصاف... و واصلت و أنا في بغداد النشر في الرساله و في الصحف العراقيه و مجله العرفان اللبنانيه و استمرت حياتي الجديده في بغداد أربع سنين دراسيه: رأيت بعدها أن على أن لا أفارق والدي بعد أن بلغ تلك السن العاليه و بدأ الضعف يتسرب إلى جسمه، فلزمته معاوننا له في إعداد موسوعته الكبرى (أعيان الشيعه) حتى توفي بعد سنتين (سنه ١٣٧١ -).

الاتصاف الانصراف إلى البحث و التأليف

ألقت وفاه والدي على عبئا ثقيلا، فقد وجدت أمامي موسوعه (أعيان الشيعه) و قد وصل فيها الوالد إلى نهايه حرف السين في خمسه و ثلاثين جزءا و ترك بقيه المواد مسودات أكثرها مشوش، و بعض التراجم لم يكتمل، و بعضها لم يكتب أصلا، فعكفت على تنسيق المسودات و ضمها بعضها إلى بعض و إلى إكمال ما لم يكتمل من الترجمات، و كتابه ما لم يكتب منها.

و بعد كفاح أكثر من أربع سنين نشرت الجزء السادس و الثلاثين من (أعيان الشيعه) مبدوءا بحرف الشين، و كان المفترض أن يتواصل السير مطردا، و لكنه كان كثير التعثر لما يعترضه من الصعوبات الماليه، و ظللت أكافح و أناضل حتى كمل (أعيان الشيعه). ثم خرج بعد ذلك بطبعته الحديثه الأنيقه.

و كنت مع ذلك عاكفا على مواصلة البحوث التاريخيه متخذا من مجله (العربي) الكويتيه أوسع المجالات العربية انتشارا، مجالا لقلمي مظهرها خفايا التاريخ الإسلامي و مصححا كثيرا من الأغلاط الشائعه التي هي على عكس ما اشتهرت به، متناولا بعض

البحوث التي تنشر بما فيها من الأضاليل، بالنقد و النقص، و ظل الدكتور أحمد زكى رئيس تحرير (العربى) يحثنى على المتابعه إذا استشعر منى تباطؤا، إلى أن توفى الدكتور أحمد زكى و قامت الأحداث اللبنانيه سنه ١٩٥٧ و انقطع خروج الرسائل البريديه من لبنان طيله سنتين كاملتين فانقطعت صلتى بمجله (العربى).

كما أخرجت كتاب (الغزو المغولى) و هو أول دراسه مستوفاه لتلك الأحداث التاريخيه الرهيبه حوى من التفاصيل و الايضاحات و التصحيحات ما جعله من أوسع المراجع للاطلاع على عصر الطاغيتين جنكيز و حفيده هولاكو.

كما أصدرت (الموسوعه الإسلاميه) و قد أردت منها أن تكون مرجعا موجزا يسهل الرجوع إليه سواء لطالب العلم و للعالم و الباحث.

و قد عنيت بتدوين رحلاتى فأخرجت من ذلك كتابا سميته (من بلد إلى بلد). و اهتمت بتاريخ (جبل عامل) الأدبى فأخرجت فى هذا الموضوع كتاب باسم (عصر حمد المحمود و الحياه الشعريه فى جبل عامل).

كما أن لى ديوانا شعريا لا يزال مخطوطا.

دائره المعارف

الإسلاميه الشيعيه

على أن أهم منجزاتى هو إصدار دائره المعارف الإسلاميه الشيعيه التى كان الدافع لاصدارها هو قراءاتى فى (دائره المعارف الإسلاميه) التى كتبها المستشرقون بعده لغات أجنبيه ثم ترجمها المصريون إلى اللغه العربيه، فقد رأيت فى دائره المعارف هذه من الأخطاء الفظيحه التى كان الدافع إليها سوء

ص: ٣٣٥

النيه ككل ما كتبه (لامانس) اليسوعى البلجيكي (1)، و الأخطاء التي كان الدافع إليها الجهل و قله الاطلاع مما كتبه غيره من المستشرقين.

و رأيت أن مترجمي دائره المعارف إلى اللغة العربيه قد علقوا على الأخطاء المتعلقة بغير الشيعه بما يصححها، و تركوا الأخطاء المتعلقة بالشيعه بدون أى تعليق ما عدا تعليقا واحدا للشيخ أحمد محمد شاكر فى بحث التقيه كان منصفاً فيه كل الإنصاف.

بل أن بعض المعلقين المصريين لم يكتفوا بشرور المستشرقين، بل زادوا تلك الشرور شرورا بما افتروا به فى تعليقاتهم عن الشيعه.

و العجيب فيهم أنهم استعانوا ببعض شيوخ الخوارج كالشيخ إبراهيم طفيش ليعلقوا على ما كتب بشأن الخوارج، و لم يفكروا بالاستعانه ببعض علماء الشيعه ليعلق على ما كتب بشأن الشيعه، مع أن ما كتبه لامانس و غير لامانس عن الشئون الشيعيه و عن رجال الشيعه هو الأحق بالتعليق لفضاعه ما فيه و عظم افتراءاته.

هذا فضلا عن مواضع شيعيه يجب أن تكتب و تبحث فى دائره المعارف، و لكنها لم تكتب و لم تبحث.

و عند ما أخذت فى تدوين تعليقاتى وجدت أنه قد تجمع لدى ماده غزيره فحرت كيف أنشرها، و أخيرا قررت أن أصدر (دائره المعارف الإسلاميه الشيعيه)، فصدرت و طبعت حتى الآن ثلاث طبعات.

و هنا لا بد من الرد على الذين ظلوا يأخذون على تخصيصى المواضيع الشيعيه التاريخيه بالعنايه، و يرون فى ذلك أمرا مذهيبا، و أكتفى فى الرد عليهم باعاده نشر مقطع من الحديث الطويل الذى أدليت به لمجله (العالم)، و هو المقطع المتعلق بهذا الموضوع و هو:

و هنا لا بد لى من أن أشير إلى من طالما اعترضوا على اندفاعى للدفاع عن حقائق اعتبروها شيعيه، و رأوا فى ذلك اتجاها مذهيبا. لهؤلاء أقول:

أن الدفاع عن تلك الحقائق لم يكن لأنها شيعيه، بل لأنها حقائق، مجرد حقائق زيفها المزيفون جهلا أو عمدا، فكان دفاعى عن الحقيقه وحدها.

و الدليل على ذلك أنى دافعت بنفس الحماسه و الاندفاع عن حقائق زيفت و لم يكن لأصحابها علاقه بالشيعه كحقيقه الملك المظفر قطز بطل معركة عين جالوت. ففى أذهان الناس جميعا أن قائد المعركه هو الظاهر بيبرس.

و آخر ما قرأته من ذلك كتاب فيليب حتى و آخر ما سمعته من أسابيع هو قول أستاذ تاريخ فى بلد عربى، سال المتسابقين فى التلفزيون عن اسم قائد معركة عين جالوت فعجزوا عن الاجابه، فقال لهم: هو الظاهر بيبرس.

و هذا القول لا نصيب له مطلقا من الحقيقه التاريخيه. و من المؤسف أن كل ما يتعلق بمعركه عين جالوت قد شوه تماما. و الذى قاد المعركه بل الذى لولاه لما جرت أصلا ليس الظاهر بيبرس أنه الملك المظفر قطز.

و الواقع أننى لم أتحمس لأحد كما تحمست للملك المظفر قطز و لم أكتب عن أحد أربع مقالات كما كتبت عنه و هو ليس بشيعى و لا علاقه له بالشيعه.

بل لأن هذا الرجل ظلّمه التاريخ و المؤرخون بصورة فظيحه. لقد أهملوه تماما فى حين أنه هو الذى لولاه لما جرت معركة عين جالوت و هو الذى قادها و هو الذى انتصر فيها!.

و هذا مثل على تزوير الحقائق التاريخيه و على ظلم المؤرخين للرجال من أمثال الملك المظفر قطز. و أنا عند ما تبينت لى هذه الحقائق التى أوردها على سبيل المثال كان لا بد من أن أتحمس للملك المظفر قطز و إعادته الاعتبار إلى موقفه و قراره و قيادته و انتصاره فى معركة عين جالوت. مع أنه - كما قلت - ليس بشيعى فالانتصار للحقيقه وحده هو الدافع.

بشاره الخورى فى مذكراته

نشر بشاره الخورى مذكراته باسم (حقائق لبنانيه)، و قد حاول فى هذه المذكرات الظهور بمظهر البطل، و لكنه عجز عن إخفاء الحقائق، فلا بد له من الاعتراف بان الفرنسيين اختاروه أداة لتنفيذ سياستهم الاستعماريه فى البلاد فعينوه أمينا عاما لحكومته لبنان، و هو يعترف بان لا قيمه لما يقرره إذا لم يوافق عليه حاكم المنطقه الفرنسى الكولونيل نياجر.

و عند ما يصل إلى ذكر اعتقال الفرنسيين لأعضاء مجلس الاداره الذى كانوا حقيقه طلاب استقلال، و رأوا بصفتهم النيابيه الممثل لل شعب اللبناني تمثيلا صحيحا أن يجاهروا بطلب هذا الاستقلال و أنهم غير مستطيعين ذلك فى ظل الحراب الفرنسيه فى وطنهم، فقرروا التسلسل إلى دمشق و منها إلى حيفا ليركبوا البحر إلى أوروبا مطالبين بالاستقلال فاكشف الفرنسيون أمرهم فاعتقلوهم.

عند ما يصل بشاره الخورى إلى ذكر هذه الحادئه - و كان يوم ذاك فى خدمه الفرنسيين أمينا عاما لحكومته لبنان - يقول:

"اطلعت على الوثيقه التاريخيه التى ضبطت مع الأعضاء المعتقلين، و لا- شك أنى كنت أوقع عليها بيدي لو لا احتواؤها على وجوب الخروج من لبنان و التوجه إلى دمشق لملاحقه المطالب الوارده فيها مما يثير اللبس".

بمثل هذا الدجل يريد بشاره الخورى أن يبرر خدمته للاستعمار الفرنسى فى الوقت الذى كان الأحرار يناضلون من أجل الاستقلال.

و نحن نقول له: و ما ذا منعك من أن توقع وثيقه أخرى لا- تحتوى على وجوب الخروج من لبنان و تواجه بها الفرنسيين و أنت فى بيروت دون الذهاب إلى دمشق؟!.

إن الذى منعك أنك كنت فى خدمه الفرنسيين و رجلا من رجالهم المؤتمرين بأمرهم و المنفذين لسياستهم.

١- كتب فردينان توتل اليسوعي في العدد الصادر في ٨٧/٥/٢٠ من جريده النهار البيروتيه بمناسبه مرور خمسين سنه على وفاه لامانس ما يلي: "كتب الأب هنرى لامانس (١٨٤٢ - ١٩٣٧) عن رجال الحملات الصليبيه فذكر الفلمند أجداده من شدوا الرحال إلى الأراضى المقدسه جنودا و أمراء و خرجوا من سهول الشمال البلجيكي، فهجروا الآل و تركوا المال و تفرقوا، و وجهتهم الجهاد فى سبيل الله و اليوم الآخر. و إن تلك العاطفه النبيله التى دفعت السواد الأعظم من رجال الغرب إلى قبر المسيح إنما هى التى دبت فى قلب الفتى، و أوحى إليه التضحيه بحياته و بما فيها من مواهب من بها الرحمن عليه، ليسير جنديا، لا بالسيف و الرمح، شان الصليبيين، و لكن بالقلم، يفتح فتوحات العلم" (انتهى). هذا ما كتبه اليسوعي فردينان توتل عن اليسوعي لامانس. و لم يكن كلام أصدق فى وصف مهمه لامانس من هذا الكلام. فالمهمه التى جرد الصليبيون سيوفهم لتحقيقها، هى المهمه نفسها التى جرد لامانس قلمه لتحقيقها. و من ذلك جميع ما كتبه فى دائره المعارف الإسلاميه.

كان من سوء حظ لبنان أن الذين قفزوا فيه إلى السلطه واستولوا على زمام الحكم فى عهد الاستقلال كانوا ممن قضى حياته السابقه فى خدمه الاستعمار الفرنسى مستهدفا مصالحه الشخصيه، لا يفهم من المنصب إلا أنه مغنم شخصى يجب أن يفوز فيه بأكثر ما يمكن من المغنم، و أن فكره (الدوله) و التخطيط لانشائها و تركيز قواعدا على أسس سليمه تكفل تطورها من حسن إلى أحسن، أن هذه الفكره لم تكن فى ذهن أحد منهم.

و فى الطليعه من هؤلاء بشاره الخورى الذى سار فى ركاب الفرنسيين منذ حلوا فى البلاد، فتدرج فى وظائفهم من أمين عام إلى قاض إلى وزير للدخليه إلى رئيس للوزراء يأتى فى كل ذلك باوامرهم و ينتهى عما ينهون عنه، و يطبق سياستهم الاستعماريه التى سموها (الانتداب). و لم يعرف فى طول تلك الفتره أن كلمه (الاستقلال) خرجت من فمه، أو عن له مفهومها على بال. و ظل كذلك إلى أن انتهى الأمر إلى أن يتنافس مع إميل إده على منصب رئاسه الجمهوريه التى كانت فى ذلك الحين مجرد وظيفه كبيره تابعه لإداره المفوض السامى الفرنسى، و راح هو و إميل إده يتسابقان على كسب رضا (ده مارتيل) و ما يمثل منصبه من تسلط فرنسى، و لا يستطيع بشاره الخورى أن يزعم أنه كان له يوم ذاك برنامج يختلف عن برنامج منافسه، أو أن له شروطا تباين شروطه، أو أنه نطق بكلمه واحده تتنافى مع الاستسلام للفرنسيين. فقد كان هو و إميل إده فرسى رهان فى تنفيذ المخططات الاستعماريه توصلا إلى المناصب و النفوذ.

و كان لا بد للمفوض السامى الفرنسى (ده مارتيل) من أن يختار بين رجله الاثنين المتنافسين، و كان ده مارتيل هذا مستهترا و كان متعلقا بزوجه أحد القناصل فى بيروت، و استطاع إميل إده أن يضمن تأييدها ففرضته على ده مارتيل، و ما ذا يهم ده مارتيل إذا كان إميل إده رئيسا للجمهوريه أو كان بشاره الخورى ما دام كل واحد منهما طوع إشارته، و لكن إذا كان فى اختيار أحدهما إرضاء للفاتنه الجميله، فعند ذلك يكون الأفضل هو اختيار من تختاره و هكذا كان ففاز إميل إده على بشاره الخورى.

و يئس بشاره الخورى من المنصب، و مع ذلك فلم يخرج عن عبوديته للفرنسيين، و كل ما فعله أنه كان يردد كلمه (الدستور)، و أى قيمه لدستور فى ظل الحكم الاستعمارى، و ما فائده العمل بالدستور الذى وضعه الفرنسيون و عملاؤهم إذا كان على العامل به أن ينفذ فى العمل به إرادته الفرنسيين؟!.

و كان ترديده لكلمه الدستور مخرجا لتخبطه بعد فشله فى منافسه إميل إده، و لو أنه كان هو الذى اختاره (ده مارتيل) لما عنت له كلمه الدستور و لا خرجت من شفثيه، و كان حلالا كل الحلال أن يسير كما سار إميل إده. و لو أن إميل إده كان هو الفاشل لوجد هو الآخر شيئا يتشبث به و يدعيه!..

و ما دمنا قد تعرضنا للمنافسه بين إميل إده و بشاره الخورى، و ذكرنا كيف أن الفصل فى اختيار رئيس الجمهوريه كان فى أيدي الخليلات الجميلات، فاننا نرى أن نذكر شيئا مما يتعلق بذاك الأمر قدر لنا أن نشارك فيه، نذكره لئلا نرى كيف كانت تقرر مصائر الأمور. لقد كنت فى تلك الأيام مرتبطا فى العمل الوطنى برياض الصلح و كنا نعمل فى خط واحد لمقاومه الفرنسيين و محاربه انتدابهم، و كان رأينا متفقاً فيما يتعلق بانتخابات رئاسه الجمهوريه، و هو أن لا-مصلحه وطنيه تدفعنا لتأييد أحد المرشحين ما دام منهجهما واحدا: هو الاستسلام للفرنسيين، فوقفنا فى أول الأمر موقف المتفرجين، ثم لما تبين أن قرار دى

مارتيل قد استقر على اختيار إميل إده، ارتأى رياض الصلح أن نناصر بشاره الخورى نكايه بدى مارتيل، فلم أوافقه أول الأمر على هذه الفكرة، ثم لما رأيت أن فى رأيه بعض المنطق عزمنا على خوض المعركة إلى جانب بشاره الخورى لأشياء إلا أن فى ذلك نوعا من المعاكسة للسلطة الفرنسيه.

و كانت تربط رياض الصلح بنائب طرابلس أمين المقدم رابطه قري و صداقه متاصله، فأرسل له من ينبئه بأنه واقف إلى جانب بشاره الخورى و أنه يأمل من قريه و صديقه الحميم أن يكون له الموقف نفسه.

فأقر أمين المقدم رياض الصلح عينا و أرسل إليه أنه ليس من المعقول أن يكون له موقف يناقض موقفه، و أنه يستطيع أن يطمئن إلى ذلك و أن يطمئن من يشاء. و اتصل رياض بشاره الخورى و أنباه أنه حين يحسب أنصاره فله أن يحسب منهم أمين المقدم.

ثم أخذت الأمور تتبلور و أخذ الكر و الفر يجريان من هنا و هناك حتى استقر الحال على تعادل الكفتين. و كان المجلس مؤلفا من خمس و عشرين نائبا، فإذا إلى جانب إميل إده اثنا عشر نائبا، و إلى جانب بشاره الخورى نفس العدد، و بقى كل منهما يحتاج إلى نائب واحد ليفوز بالرئاسه، و كان النائب المجهول الموقف، و الذى لا يدري أحد إلى من سينضم فيرجح الكفه هو أمين المقدم. و كان بشاره الخورى مطمئنا إلى وعد رياض الصلح، و رياض الصلح مطمئنا إلى وعد أمين المقدم، و لما لم يبق لحلول يوم الانتخاب إلا- أيام، أرسل رياض الصلح إلى أمين المقدم طالبا إليه وجوب الحضور إلى بيروت، فأجاب أمين أنه سيحضر صباح بعد الغد.

و خطر لرياض الصلح و لجماعه بشاره الخورى أن يرسلوا إليه من يتلقاه قبل الوصول إلى بيروت و أن يوصلوه رأسا إلى بيت رياض، فتولى هذه المهمه النائب محمد العبود و خرج يلتقى أمين المقدم.

و جئنا إلى بيت رياض مبكرين بانتظار وصول أمين المقدم، و مر الضحى و ارتفع النهار و لم يصل أمين المقدم، و مر الظهر و صرنا على مشارف الأصيل و لم يصل أمين، و طال انتظار محمد العبود و من معه فملوا الانتظار و جاءوا بعد الأصيل و حدهم إلى بيت رياض، و كثر التساؤل عما أخر أمين المقدم، و بينما نحن فى حيره من الأمر، إذا بقادم حوالى الغروب، يفاجئنا بان أمين المقدم هو الآن فى بيت إميل إده، و قد وصل إليه بعيد شروق الشمس مصحوبا ببعض أعوان إميل إده الذين رافقوه من طرابلس و مضوا به رأسا إلى بيت إميل إده، و منعوا أيا كان من الاتصال به فضلا عن الإصرار على عدم خروجه من البيت...

ثم تبين أن المساعى قد حولته إلى صف إميل إده، و اختلف فى تحديد هذه المساعى فقيل أنها الضغط الفرنسي، و قيل أنها المال، و قيل أنهما معا..

و خاف إميل إده من أن يتبدل رأى أمين المقدم تبديلا جديدا، لذلك حجزه فى البيت و منع من أن يتصل به أحد.

و أسقط فى يد بشاره الخورى و يؤس من الفوز، و كان لم يبق لموعده الانتخاب سوى يومين فقط. و هنا خطر لأحد أصدقاء رياض الصلح من أبناء النباطيه رأى هو أنه يمكن استجلاب بهيج الفضل إلى صف بشاره الخورى إذا أمكن أن يؤمن له مبلغ كبير من المال، و قال أن بهيجا ضعيف الشخصيه و فقير فيمكن إغراؤه بالمال، و لما عرض رياض الفكرة على أشرت برفضها، و قلت فيما قلته فى تعليل أسباب الرفض: أن ضعف شخصيه بهيج الفضل الذى يراه المشير سببا فى قبوله العرض، أراه أنا سببا فى رفضه له، و ذلك أن موقفا كهذا، و انقلابا كهذا الانقلاب الحاسم من صف إلى صف يحتاج إلى أعصاب قويه، و إرادته حازمه، و إلى رجل يستطيع اتخاذ المواقف الحاسمه، و بهيج الفضل عكس ذلك تماما.

و أصبر الحاضرون على تنفيذ هذه الخطه و صادفت هوى فى نفس رياض، فلم يكن بد من تنفيذها، فأرسل رياض رجلا من قبله إلى بيت بشاره الخورى الذى ظل يتابع اجتماعاته الليليه مع جماعته فى منزله، و قال لهذا الرجل أن يقابل خالد شهاب و يعرض عليه الفكرة.

فعاد الرسول يقول أنهم مستعدون أن يدفعوا مبلغا إذا كان بهيج الفضل مستعدا أن ينتخب بشاره الخورى، و أنهم يدفعون أقل إذا وضع ورقه بيضاء أو غاب عن الجلسه.

فلما جاء هذا الجواب بقى التفكير بمن يفتح بهيج الفضل بذلك، و كان بهيج محتجزا مع المحتجزين فى بيت إميل إده و ممنوعا من الاتصال بأحد أو اتصال أحد به. و ذلك أن إميل إده خاف من الضعاف و تأثير المؤثرين عليهم فابقاهم بضعه ليال فى بيته يأكلون و ينامون و لا يخرجون...

فقال أحد أبناء النباطيه أن للدكتور بهجت الميرزا الطيب فى النباطيه تأثيرا قويا على بهيج الفضل و أنه وحده يستطيع إقناعه، و أردف هذا القول بقول آخر: و هو أن فلانا - يعينى - هو الذى يستطيع إقناع الدكتور بهجت الميرزا بالقيام بهذه المهمه.

فرفضت أنا أول الأمر هذا التكليف، و لكن رياض ما زال بى ملحا على إجابته هذا الطلب حتى اضطررت إلى الموافقه طالبا أن يصحبنى رياض التامر الذى كان حاضرا فى المنزل.

فاستأجرت و رياض التامر سياره توصلنا إلى النباطيه و تنتظرنا فيها ثم تعيدنا إلى بيروت على أن ندفع لصاحبها خمس ليرات و رقيه. و جئنا الدكتور بهجت الميرزا، و تركت لرياض التامر أمر محادثته و إقناعه و كان رياض ذكيا فأحسن الحوار و اقتنع الميرزا بالمجىء معنا و القيام بالمهمه، و عدنا به إلى بيروت و أنزلناه من السياره فى مكان يقصد منه إلى بيت إميل إده، و قصدت و رياض التامر بيت رياض الصلح، و لما نزلنا من السياره مددت يدي إلى جيبى و أخرجت محفظه نقودى لندفع أجره السياره فلم يكن فيها إلا ليره واحده، و كان رياض قد فعل ما فعلت فلم يكن عنده أكثر مما عندى، فحزنا فى الأمر، و كان لا بد لنا من الدخول على رياض الصلح فصعدنا إليه فاستطال سائق السياره غيابنا فأطلق بوق سيارته إطلاقا متتابعا فأدرك رياض الصلح الأمر فقال: السائق لم يأخذ أجرته؟. كم هى الأجره؟.

قلنا خمس ليرات. فإذا رياض الصلح نفسه لا يملك هذا المبلغ ففكر هنيهه و نادى خادمه منزله و قال لها اذهبى إلى فلان - و

كان من آل دوغان صاحب دكان قريبه من منزل رياض - و استدينى لى منه خمس ليرات، فذهبت و عادت بالليرات الخمس.

و هكذا و نحن نحاول أن نلعب بمقدرات البلد، و أن نرشو بألوف الليرات الذهبية، كنا لا نملك خمس ليرات ورقية!..

أما ما كان من أمر بهجت الميرزا فإنه عاد إلينا خائبا، و لم نسأل عن سبب خيبته، هل لأنهم منعه من الانفراد ببهيج الفضل، أم لأن بهيجا رفض العرض.

و لما تم بعد ذلك انتخاب إميل إده كنت و رياض الصلح نخرج فى صباح ثانى يوم الانتخاب من منزله فلما بلغنا المنعطف الموصل إلى محطه الناصره، إذا بنا نرى أمين المقدم مقبلا- فى اتجاهنا، فلما وصل إلينا قال لرياض أنه قادم لزيارته، و كنا غير بعيدين عن منزل رياض فعاد معه إلى المنزل، و تركتهما أنا و غبت أكثر من ساعه و عدت إلى منزل رياض فاخبرنى بان أمين المقدم جاء معتذرا و أنه قال له: أننى حين كتبت اسم إميل إده و ذهبت لأضع و رقتى فى صندوق الاقتراع مررت بمقعد إميل إده و أريته الورقه و قلت له أنى أنتخبك لأن رياض الصلح أمرنى بذلك...

و لم يخب رياض الصلح فى موقف كما خاب فى هذا الموقف. فهو لم يكن يريد أن يتظاهر بمناصره بشاره الخورى، و لكن خصوم بشاره عرفوا ذلك، كما أن أنصار بشاره اتهموه بأنه لم يكن مخلصا فى مناصرته لهم و أن أمين المقدم لا يمكن أن يخرج على إرادته.

و جاءت الحرب العالميه الثانيه، و كانت هزيمه فرنسا و سيطره الإنكليز و حلولهم محل الفرنسيين فى سوريا و لبنان مع مشاركه لجماعه ده غول. و كان الإنكليز قد صمموا على إقامه (إسرائيل) على أن يرضوا السوريين و اللبنانيين باقامه حكم وطنى فيهما، فاثروا التعاون مع بشاره الخورى فى لبنان، و لو أن إميل إده هو الذى فشل فى الوصول إلى رئاسه الجمهوريه فى عهد دى مارتيل لكان هو الذى يختاره الإنكليز، و لمثل الدور الذى مثله بعد ذلك بشاره الخورى. و لكن صح فى بشاره الخورى قول: و عسى أن تكرهوا شيئا و هو خير لكم.

و الخلاصه أن بشاره الخورى وصل إلى رئاسه الجمهوريه، و كان الحكم الاستقلالى ففهمه بشاره الخورى تسلطا شخصيا و لم تعن له فكره (الدوله) ببال، و لم يفكر لحظه واحده فى التخطيط لها، بل انصب همه على كسب الأعوان و الأنصار الذين يستطيع بهم إطاله حكمه و تركيز تسلطه. و كان طريقه فى ذلك ذى شعبتين: الأولى أن يضمن فى المجلس النيابى مجموعه يستطيع بها أن يسيطر على المجلس. و الثانيه أن يضمن فى الأوساط الشعبيه مجموعه تدعمه عند الحاجه إلى الدعم الشعبى.

و فكر طويلا- فى السير فى الشعبه الأولى فهدها التفكير إلى أن اختار فريقا من النواب الذين لا مطامح لهم إلا استغلال النفوذ فاستصفاهم لنفسه و أطلق أيديهم فى مناطقهم يفعلون ما يشاءون، يقربون من يشاءون و يبعدون من يشاءون، يعطون من يشاءون و يمنعون من يشاءون. لا سيما

ثلاثة منهم كان أحمد الأسعد أحدهم.

أما فى السىر فى الشعه الثانىه فكانت إغداق الأموال على المحاسىب و الأنصار و إباحه أموال الدوله لهم، و إلك مثالا عما عرفناه مما كان ىجرى:

فقد حدثنى أحد كبار المقاولىن الذىن كانوا يتعهدون تنفيذ مشارع الدوله الكبرى فى شق الطرق، و هو بقاعى أنه أعلن عن إجراء مناقصه لمشروع ضخم تقدر نفقاته بالملاىىن، فتقدم كعاداته للاشتراك فى المناقصه، فجاءه بعض المنتمىن إلى الحكم ىطلب إليه بان لا ىشترك، فقال كىف لا أشترك و هذا عملى، فقال: إنى أنصحك بان لا تشترك، فقال: إنى لا أقبل نصيحتك و ساشترك، فتركه و مضى...

و فى الیوم الثانى استدعاه وزیر الأشغال العامه و كرر علیه النصیحه فأبى قبولها، فقال الوزىر - و كان یومئذ أحمد الأسعد -: إنى أقول لك بصراحه تامه: أنك إذا أصررت على الاشتراك فى هذه المناقصه، فستحرم منها حتما، و ستحرم فى المستقبل من الاشتراك فى أیه مناقصه، و سنجد ألف وسيله لحرمانك.

فتململ المقاول و تضجر و استنكر. فقال له الوزىر: افهم ما أقول لك، و لأنك شىعى مثلى و یهمنى أمرك و لا أرىد لك أن تخسر المقاولات فى المستقبل فانى أزیدك صراحه: إن لمسئول كبرى فى الدوله رجلا یرىد أن یغدق علیه مبلغا كبرىا من المال، و هذه أفضل طریقه لتحقيق ذلك، فیتقدم وحده للمناقصه بدون منافس، و بذلك ىحصل على المال بأسلوب قانونى لا مؤاخذه فیه... أفهمت الآن؟ فقال: لقد فهمت... ثم انسحب من المناقصه، ورسا المشروع على المحظوظ وحده، و فاز بالملاىىن بأسهل طریقه!..

أحمد الأسعد و عادل عسىران

قلنا أن بشاره الخورى اختار فریقا من النواب لا سىما ثلاثة للسىر فى الشعبه الأولى من طریقه و أن أحد أولئك الثلاثة كان أحمد الأسعد.

و هنا لا بد من بعض الحدیث عما كان من أمر هذا الشخص و أمر منافسه عادل عسىران، و عما عاثا به فى جبل عامل، و ما جنياه على هذه البقعہ العزیزه.

و من العجائب أن سلفى هذىن الاثنىن و هما كامل الأسعد عم أحمد الأسعد، و عبد الله عسىران والد عادل عسىران قد اتفقا على الخىانه فارتكبا مجتمعىن جریمه من أقذر الجرائم هى وشایتهما أثناء الحرب العالمیه الأولى بالزعیم العربى المناضل عبد الكرىم الخلیل عند جمال باشا و ترتیبهما من ىشهد علیه و یدینه، مما أدى إلى شنقه مما لىس هنا مكان تفصیله.

ثم اختلف خلفاهما حىن آل الأمر إلیهما على اقتسام الغنائم و الاستئثار بالأسلاب و تنابذا و تعادىا فى ذلك، فشقى بهما جبل عامل و ضاعت حقوقه و اهتضم أهله و امتهنت كرامته على أیدیهما.

لقد سلط بشاره الخورى أحمد الأسعد على جبل عامل و حكمه فى البلاد و العباد و وضع كل قوى السلطه فى خدمته للانتقام

من كل من يقف في وجهه.

فكان من فظائع بشاره الخورى أنه سلط على بقعه مليئه بذوى المروءه و النخوه و الشهامه و كرم النفس، سلط عليها من هو صفر من هذه الصفات:

لو لا زمان خثون في تصرفه و دوله ظلمت ما كنت إنسانا

شر العصور و في العصور تفاوت عصر به تتقدم الأوغاد

و لم تكن أى معامله تجرى في دوائر الحكومه لأى إنسان إذا لم يأت بتوصيه من أحمد الأسعد، فطغى هذا و بغى، و قد كان يمكن أن يستغل هذا الموقف لمصلحه البلاد و أهلها، و لكنه كان أتفه من أن يفكر في ذلك!.

و بينما لم يستطع أحمد الأسعد في أول انتخابات حره تجرى في البلاد في ظل الحكم المزدوج إنكليزيا و فرنسيا خلال الحرب العالميه الثانيه لم يستطع إلا أن يكون واحدا من قائمه تضم سته نواب، و لكى يتضح لك الأمر يكفى أن تعلم أن القائمه كانت تضم كلا من محمد الفضل و على العبد الله و عادل عسيان و كاظم الخليل و رشيد بيضون، و ليس بين هؤلاء واحد يمكن أن يكون محسوبا على أحمد الأسعد، بل كان كل واحد منهم مستقلا بنفسه عن الآخرين. بينما كان الأمر كذلك في أول انتخابات حره، إذا بالأمر ينتهى بعد أن سلط بشاره الخورى أحمد الأسعد على البلاد و العباد أربع سنوات إلى أن الذى جاء في الانتخابات الحره منفردا، يجيء في هذه الانتخابات على رأس قائمه من المطاويح ينجح كل أفرادها و يسقط خصومه كلهم!...

و عند ما سقط بشاره الخورى و جاء عدوه كميل شمعون، قرب إليه عادل عسيان منافس أحمد الأسعد، و سلطه على البلاد و العباد تسليط بشاره الخورى لأحمد الأسعد، و إذ بأحمد الناجح على رأس قائمه في انتخابات بشاره الخورى، يسقط في انتخابات كميل شمعون، و ينجح عادل عسيان.

و كما طغى و بغى أحمد الأسعد في عهد بشاره الخورى، طغى و بغى عادل عسيان في عهد كميل شمعون.

و ضاعت البلاد و مصالحها و كرامتها و كرامه أبنائها بين الطاغيين الباغيين.

و قد كان في جبله عادل عسيان في الأصل جبروت و تكبر و عجرفه و غرور، ثم جاءه المنصب فزاده ذلك على هذه الصفات استعلاء على الناس، لذلك تحاماه كل من يحس بكرامته و شخصيته، مثلما تحاموا منافسه أحمد الأسعد.

و قد اضطر أحد الكرام بعد أن أوقعه الزمن في متاعب لم يكن له قبل بها، لأن يلجا إلى عادل عسيان مستنجدا به، و كان هذا الكريم شاعرا فعاد بخيبته من عجرفه عادل و استعلائه و جبروته، عاد ناظما هذه الأبيات الثلاثه:

علقت آمالي على عادل فلم أجد عدلا و إحسانا

أوقفنى الدهر على بابه و الدهر قد يوقف أحيانا

فرحت استعطف ذا غلظه و أسال اليسر "عسيرانا"

و هذا هو شان العاملين يكون الشعر حاضرا عندهم فى كل ما ينوبهم من أحداث.

ص: ٣٣٩

و لم تكن هذه الأبيات الثلاثة هي كل ما قاله شعراء جبل عامل في عادل عسيران، فقد سبق له أيام كان مضطهدا من بشاره الخورى أن كان يصاحب الشاعرين موسى الزين شراره و عبد الحسين عبد الله، فلما تولى كميل شمعون و زال عنه الاضطهاد و أصبح رئيسا للمجلس النيابي، صدف أن كان الشاعران يقفان معا، فإذا بهما يريان سياره عادل عسيران [عسيران] مقبله باتجاههما، فكان من الطبيعي عندهما أن يحييهما متذكرا مواساتهما له في أيامه الماضيه، و لكنه مر دون أن يلتفت إليهما و دون أن يتنازل فيحييهما و لو من بعيد، فارتجل عبد الحسين هذين البيتين:

أيا سياره المغرور سيري ففى مسراك (طن) من غرور

لقد مر (الرئيس) و لم يسلم على موسى و لا العبد الفقير

و كما كان عادل عسيران موضوعا للشعراء العاملين، كان كذلك أحمد الأسعد، و يؤسفنى أن لا يحضرنى الآن شىء مما قيل فيه (1) و مما يختلف فيه أحمد الأسعد عن عادل عسيران أن أحمد الأسعد كان مقرا بقدر نفسه فلا يتفهبق و لا يتشدد بالوطنيه، فى حين أن عادل عسيران كان فى أول المنتخبين لمرشح الصهاينه و مرشح رئيسهم (بيغن) لرئاسه الجمهوريه اللبانيه (بشير الجميل)، فعل ذلك عادل عسيران [عسيران] لأنه توهم أن النفوذ الاسرائيلى سيقبى هو المسيطر، فمصالحه تقضى بالسير فى الركاب الاسرائيلى.

ثم لما عرض ما سمى باتفاق (١٧ أيار) على المجلس النيابي، كان عادل عسيران فى أول المسارعين إلى الموافقه عليه، و هو الاتفاق الذى يعترف باسرائيل و يقر الصلح معها و بحكم نفوذها على لبنان.

ثم لما جلا الاسرائيليون عن لبنان و استعاد السوريون نفوذهم عليه إذا بعادل عسيران منتخبا مرشح الصهاينه لرئاسه الجمهوريه و المعترف باسرائيل الداعى إلى الصلح و التعامل معها و أحكام نفوذها على لبنان، إذا بعادل عسيران هذا، يعود متشدقا متفهبقا بالوطنيه.

و لم يسكت الشبان الوطنيون المناضلون على فعله عادل عسيران فهاجموا مكتبه فى بيروت مع مكاتب و بيوت غيره من رموز الخيانه و أحرقوها.

ندوات أدبيه فى شقرا

كانت قد أقيمت فى بلده شقرا حسنيه كبيره رحبه، فرأيت أن نتخذ منها قاعه محاضرات، فكنت بين الفينه و الفينه أدعو أبناء القرى المجاوره إلى حضور محاضره فيها تتعلق بتاريخ جبل عامل الأدبى و السياسى.

و فى إحدى المرات دعوت إلى مهرجان شعري عاملى احتفالا بمرور ألف عام على ذكرى الشريف الرضى. فاحتشد لذلك مجموعه من شعراء جبل عامل الشبان، و توسعنا فى الدعوه لحضوره توسعا كبيرا، و كان مأمولا أن يكون من أعمار المهرجانات الشعريه العرييه و أبعدها صدى.

و قبل اليوم الموعود لاقامه المهرجان بيوم واحد، و بينما كنت فى الصباح فى بيروت أعد حقيبتى للذهاب إلى شقرا للاشراف

كم غرد الشادى به و لكم هفت فى نادىك قلوبنا إعجابا

فهنا على الذروات رف قصيده و هناك فى الندوات شع كتابا

و هنا تفرق بالهوى أغروده و هنا تالق بالآباء شهابا

فى الليل للسمار منه منادم يجلو الهموم و يطرد الأوصابا

و يعيد للقلب المشت يقينه و يرد للغاوى هدى و متابا

هو فى الهدايه و التقى علم الذرا و هو المجيب إذا الصريخ أهابا

هو فى القريض مناره السارى إذا عم الظلام و كل نور غابا

هو فى الالباء إذا النفوس تخاذلت طود يظل إلى العلى و ثابا

شقراء كرمت الرضى و طالما كان الرضى لكل فضل بابا

تلك الحجازيات و الغرر التى كانت لكل متيم محرابا

شقراء كم غردتها أنشوده و تلوتها فى الناديين خطابا

و لكم بكيه لدمعه فى كربلاء يرثى الهدى و الأهل و الأصحابا

أهلا بالويه القريض و مرحبا بالوافدين أحبه و صحابا

فى المؤتمرات العلميه

دعيت للمشاركه و المحاضره فى بعض المؤتمرات العلميه منها:

١ - المؤتمر العلمى العالمى الذى دعيت إليه جامعه خراسان فى مدينه (مشهد) لمرور ألف سنه على ميلاد أبى جعفر الطوسى و قد حضرته وفود من أنحاء العالم الإسلامى و من المستشرقين و أساتذته الجامعات الغربيه المهتمين بالدراسات الإسلاميه و حضره من المغرب علال الفاسى السياسى المعروف، و قد بالغ منظمو المؤتمر فى تكريمه و العناية به، و خرجوا على الأصول المتبعه فى مثل هذه المؤتمرات بان يتولى رئاسه كل جلسه واحد من وفود البلدان المدعوه، فجعلوه رئيسا دائما للمؤتمر. و لكنه مع ذلك لم ينس أنهم يخالفونه فى المذهب فلم يسلموا منه. فقد حاضر فى إحدى الجلسات عالم كندى متخصص بالدراسات الإسلاميه فأبدى إعجابه ببعض الأفكار الشيعيه، فاغضب هذا الكلام علالا فلم يملك نفسه من أن يعلق على كلام المحاضر محاولا نقضه.

و صادف فى إحدى الجلسات أن كانت فى يوم جمعه، و قبيل حلول موعد الصلاه طلب أحد العلماء الايرانيين الحاضرين رفع

الجلسه لأداء صلاة الجمعة فرجع علال الجلسة و طلب إلى الحاضرين الالتقاء جميعا لحضور الصلاة فذهبنا جميعا و معنا علال و كان بيننا مندوب يمانى و كان مسرورا بهذا المؤتمر و مشاركته فيه و متعاطفا كل التعاطف مع منظميه، و كان مرتاحا كل الارتياح للانتباه لموعد صلاة الجمعة، و كان علال قد ألفه فكان يبوح إليه بالكثير مما فى نفسه، و مما أسر به إليه أنه بعد الانتهاء من صلاة الجمعة عاد إلى الفندق فأعاد صلاته.

هذا و فى مذهب علال الفاسى أن الصلاة تصح وراء البر و الفاجر و لكنها لم تصح عنده وراء الامام الشيعى.

و قد كان وقع كلام علال أليما فى نفس صديقه اليمانى، فلم يستطع إخفاءه عنى.

لقد نجح المؤتمر كل النجاح، و كان موضع إعجاب جميع المنصفين، و كان للشيخ محمد واعظزاده الخراسانى أمين عام المؤتمر فضل كبير فى هذا النجاح. ٢ - الملتقى التاريخى الذى دعت إليه وزاره الثقافه التونسيه لدراسه التاريخ الفاطمى، و انعقد هذا اللقاء فى مدينه (المهديه) العاصمه الفاطميه التى بناها الخليفه الفاطمى عبد الله المهدي، و سمى لقاء (القاضى النعمان) و هو عالم الدوله الفاطميه و قاضيها.

و قد حدث لى شىء طريف فى وصولى إلى العاصمه تونس. فقد حددت للسفاره التونسيه فى بيروت يوم سفرى بعد أن طلبوا منى ذلك ليخبروا به تونس، و ليكون مندوب منهم فى وداعى. و كنا فى تلك الأيام نعيش الأحداث اللبنانيه الأليمه و دوى الرصاص ينطلق من كل مكان، و فى فتره هداً فيها الدوى و كان ذلك قبل الموعد المحدد لسفر الطائره بساعتين، رأيت أن أبكر فى الذهاب إلى المطار فذهبت و أنهيت معاملات السفر ثم مضيت إلى قاعه المسافرين. و بعد ذلك جاء مندوب السفاره فلم يجدنى بين المسافرين المتهيين لانتهاء معاملاتهم، فاعتقد أنى عدلت عن السفر فى هذا اليوم فرجع إلى السفاره دون أن يرسل (التلكس) إلى تونس منبثا بموعد وصولى (١) و لما هبطت فى مطار تونس لم أجد أحدا فى انتظارى فتعجبت من ذلك و رأيت شرطيا فقصصت عليه الأمر فمضى بى إلى رئيسه فى مخفر المطار الذى رحب بى و اتصل بمحافظ المطار - كما يسمونه هناك - فدعانى إلى مكتبه و لا أدرى مع من تهاتف، ثم قال لى بكل أدب: أنهم يسألون هل معك بطاقه الدعوه، فسألته مع من تهاتفت؟ فقال مع رؤسائه. فقلت أن الأمر لا يتعلق برؤسائك، إنه يتعلق بوزاره الثقافه.

و كان قد مضى علينا أكثر من ساعتين فى أخذ و رد، و كان المساء قد دنا، و لا أحد من وزاره الثقافه بمكتبه، و لا أدرى بمن أتصل بعد ذلك، ثم قال لى: بعد قليل يكون هنا مندوب وزاره الثقافه و هم يأسفون جدا لما حصل، ثم وصل المندوب معتذرا متعجبا من عدم وصول الخبر إليهم، ثم مضى بى إلى الفندق، و قال أن مكان انعقاد الملتقى هو مدينه المهديه و ستاتى فى صباح الغد سياره لتوصلنى إلى المهديه.

و فى الصباح سافرت إلى (المهديه) و أنزلونا فى فندق (المهدى).

و كان التونسيون الذين لقيتهم سواء فى العاصمه أو فى المهديه على أعلى درجات التهذيب و اللياقه و الكياسه.

و لقد شعرت فى المهديه و فى فندق المهدي بانسراح نفسانى كبير، و عدت إلى الماضى البعيد إلى العصور الأولى للدوله الفاطميه لا سيما عصر الخليفه العظيم المعز لدين الله و عصر شاعره المبدع محمد بن هانى الأندلسى.

هذه الدوله التي لم تلق دوله من ظلم الناس مثلما لقيت، و يكفى أن أعدى أعدائها هم الذين كتبوا تاريخها فسعوا إلى طمس فضائلها و تشويه محاسنها و اختلاق المساوى لها.

و كنت عند ما أسير فى شوارع المهديه و أتذكر أن هذه الدروب كانت دروب المعز و هذه المسالك هى التي كان يسلكها، و أنه من هنا انطلق لتحقيق الوحده العربيه الكبرى التي حققها هو و من تلاه، محاولا أن يعيد بها وحده العالم الإسلامى.

ثم أتذكر كيف أن الجيش الفاطمى قد استرد من البيزنطيين ما احتلوه فى شمال بلاد الشام، ثم ردهم فى محاولاتهم المتكرره لاحتلال بلاد الشام

ص: ٣٤١

١- عرفت ذلك بعد رجوعى إلى بيروت.

كلها، ثم صدهم مرتين عن محاولتهم الوصول إلى القدس.

و أتذكر الأسطول الفاطمي العظيم الذي أصبح سيد البحر المتوسط فهزم البيزنطيين في البحر كما هزمهم الجيش في البر.

و أتذكر قصائد ابن هاني في وصف المعارك البريه و البحريه و انتصاراتها العظيمه، لا سيما قصيدته في وصف الأسطول، و قصيدته في معركة (المجاز).

و أتذكر أن كل ذلك كان انطلاقه الأول من هنا من المهديه، من بين هذه البيوت المتراصه حولي، و من على هذه الطرق الممتده أمامي.

ثم أتذكر ذلك الوهج العلمي المتالق الذي شع على العالم الإسلامي من قاهره المعز و الذي عبر عنه المؤرخ المصري الدكتور محمد كامل حسين بقوله في بعض ما قال: (فالقاهره الفاطميه أصبحت مطمح أنظار العلماء، و محط رحال الطلاب. و في العصر الفاطمي استطاعت مصر أن تنتزع زعامه العالم الإسلامي في الحياه العلميه).

و أتذكر أن الشعاع الأول لكل ذلك قد انبثق من هنا من هذه المدينه التي أسير الآن في دروبها.

ثم أتذكر ما جناه الجانون على ذلك التاريخ باحقادهم و عصبياتهم و افتراءاتهم، فيتجاذبنى في المهديه عاملان: عامل الزهو بوقوفي على مراتب الفاطميين الأولى، و عامل الأسى على ما انصب على تاريخهم المجيد من ظلم و بغى.

و انعقد اللقاء في جلسته الأولى، و كانت السفاره التونسيه قد سلمتني قائمه بعناوين الموضوعات التي ترى وزاره الثقافه أن يبحثها المحاضرون، فاخترت منها هذا العنوان: (المهديه قاعده حكم و عقيدته).

و جعل المشرفون على اللقاء محاضرتي المحاضره الأولى حيث افتتحوا بها الملتقى، فتحدثت فيها بايجاز لا يسمح الوقت بأكثر منه عن المهديه قاعده الحكم و العقيدته مدعما أقوالى بما لا يستطيع نقضه من الوثائق التاريخيه الثابته.

و لم تكن قاعه المحاضرات واسعه لأن الدعوه كانت مختصه بطبقه معينه من المثقفين لا سيما في التاريخ. و أشهد أن الحاضرين قابلوا المحاضره بمنتهى التقدير و صفقوا لها طويلا معترفين بحقائقها المجلوه أمامهم، و قد جرى بعدها نقاشات طويله كانت تستزيد التفصيل في بعض ما أوجزت به فأزيد تفصيلا و إيضاحا.

و كان بين شهود الملتقى وزير الداخليه طاهر بلخجه لأنه من أهل المهديه، فدعانا إلى وليمه فخمه، و تنوع الحديث فقلت موجه الكلام إليه في الدرجه الأولى: أنه لشيء مسر أن تنتبه تونس إلى تاريخ الفاطميين فتحاول إنصافه و من أولى منها بذلك، و عسى أن يكون هذا اللقاء الخطوه الأولى في سبيل الإنصاف.

فلم يعجبه هذا الكلام و رد عليه: بان في الأمر سلبيات و إيجابيات.

فلم أشأ أن أساله عن هذه السلبيات لأنى أعرفها حق المعرفه، و هي سلبيات لا يمكن تحويلها إلى إيجابيات بعد أن ترسخت في

النفوس مهما كان لديك من حجج دامغه. و أدركت عقم البحث فسكت.

و دعانا والى المهديه إلى وليمه حضرها رئيس الجمهوريه الحبيب بورقيبه، و كنت قد لقيته سنه ١٩٤٧ فى بغداد فى حفله تكريم أقامتها له نقابه المحامين حين كان يطوف البلاد العربيه فى سبيل استقلال تونس فتحدثنا هناك مليا و قارنا بين الاستعمار الفرنسى فى سوريا و لبنان و بينه فى تونس، و قلت له يوم ذاك: أرجو أن نلتقى فى تونس و قد نالت استقلالها.

و كان الفرنسيون قد رفضوا إعطائى سمه دخول (فيزا) عند ما طلبتها و أنا فى باريس، فقلت له: سيأتى اليوم الذى أطلب فيه هذه السمه من السفاره التونسيه و أدخل تونس.

و لم أشأ و نحن على المائده و كنا نجلس متقابلين أن أذكره بهذا لأنه اليوم فى عالم آخر لا يذكر فيه شيئا من ذلك الماضى.

و تذكرت ما جرى للأديب العراقى مشكور الأسدى الذى كان فى القاهره طالبا فى جامعته عند ما كان الحبيب بورقيبه لاجئا إليها، شريدا معدما يكاد لا يجد قوت يومه، و كيف أنهما تحابا و تصافيا فكان الحبيب يلزمه و لا يفارقه لا سيما على وجبات الغداء التى لم تكن تتجاوز يوميا صحنا من الفول المدمس الذى كان الحبيب يرى حصوله عليه نعمه يتمنى دوامها.

و قد كان مشكور الأسدى مغتبطا بما صار إليه رفيقه القديم من رئاسه و نعيم و نفوذ، و كان يمنى النفس بان يزور تونس يوما ليرى رفيق البؤس فى أسعد أيامه.

و جاءت الفرصه و ذهب مشكور فى مهمه صحفيه فاعرض عنه الحبيب و تجاهله، لأن رؤيته له و مجالسته تذكره بالأيام السود و هو لا يريد أن يتذكرها.

٣ - مؤتمر أدباء العرب و مهرجان الشعر العربى الذين انعقدا معا فى بغداد، و قد دعيت إليه شاعرا لا ناثرا فألقيت فيه قصيده باسم لبنان هى الآتيه:

حب يظل على المدى متجددا و هوى يعود به الوفاء كما بدا

بغداد يا حلم النفوس إذا هفت شوقا و يا لحن المحب إذا شدا

الوجد فيك كما عهدت و لم يزل شوق الأحبه ما عرفت توقدا

من رافديك كما تبسم دجله عبر الضحى و كما الفرات تنهدا

بالحب بالعهد الوثيق و بالوفا صبغنا القلوب موده و الأكبدا

كم كان طيفك للأحبه مسعفا إن ليج شوقهم و ذكرك مسعدا

هذى العروبه فى مواكب زحفها هبت إليك تجمعا و تحشدا

صوت من الأدب الرفيع يشدهم و نداء صدق فى حماك تردددا

صوت (الرضى) إذا ترنم بالهوى و إذا استجاش إلى الوغى و إذا حدا

صوت تردده الشعاب و تنتخى قمم الجبال تحفزا و توعدا

للثار للمجد المهيض لساعه فى ضفه الأردن تنتظر العدا

يا هاتفا فى الواد عز مجيبه و مناديا فى السفح طال به النداء

من ضفه الأردن يصرخ داعيا و من المهامه و الذرا مستنجدا

من مطلع (النقب) العزيز مذلا بيد العدا و من الحمى مستعبدا

من أربع هانت فلا متصبر بعد الهوان بها و لا متجلدا

يا هاتفا ما الياس يخفت صوته و مناديا للثار ما نادى سدى

ص: ٣٤٢

لن يشرب النقب الرحيب و يرتوى يوما بغير دم اليهود مبدا
تلك الربوع المعرقات عروبه تأبى لها النخوات أن تنهوا
هذا العراق و ما رأيت كمجده أبقى على مر الزمان و أخلدا
سل فى البيان العبرى أمثله من رتل الآيات فيه وجودا
البصره الفيحاء أبصر ثغرها فى ظلمه التاريخ يلمع فرقدا
و جرير يهتف بالغرام و ينثنى صوت الفرزدق بالمفاخر منشدا
كانت على الأيام أسطع كوكب علما و أزهاه تقى و تعبدا
أنى لأسمع فى الخيال هتافها و أرى مواكبها تؤم المربدا
و الكوفه الخضراء ألمح وجهها عبر الزمان نضاره و توردا
فى كل زاويه تريك حضاره و بكل ركن ثم تبصر معهدا
رعت البيان فضيله و محبه و حوته حين حوته فى الدنيا هدى
يا كوفه الجند استطالت عزه و شات طريفا فى الحياه و متلدا
جددت سالفه المنابر شاعرا فذ القويض و ناثرا متفردا
من قبتيك و من منارات العلى شعت على الكون الهدايه فاهتدى
حيث أرضك مهطعا لجلالها و لثمت تربك خاشعا متعبدا
متخيلا نور (الامام)، و وجهه جلى بمشرقه الضلال و بددا
أعلى ميادين الكفاح بطوله و أنار داجيه الظلام تهجدا
أرنو إلى الأطلال عل بها سنا من نور غرته و عل بها صدى
إنى لأستوحى الطلول فخارها شرف الكتاب و مجده و السؤددا
و الألمعيون استفاض حديثهم بحرا تدفق بالمعارف مزبدا

متحلقين على الحقيقه ما رأوا فى دهرهم إلا الحقيقه مقصدا

ذكرى (على) فى رحابك غصه و سبيل نهجك لا يزال موطدا

لا تتركى القصد القديم فر بما كان القديم تقدما و تجددا

و فى هذا المهرجان لقيت الشعر اليمانى الزيدى إبراهيم الحضرانى فأنست به كل الأنس، و عرفت منه الكثير من شئون اليمن، و مما عرفته شيوع قصيده (الأزريه) هناك و أن الكثيرين يحفظونها عن ظهر قلب و قد أنشدنى هو ما يحفظه منها.

كما أنشدنى قصيده تمثل حنين اليمنيين إلى النجف و من فى تراه و أتذكر منها هذين البيتين:

آن أن تلثم الشفاه البقاعا بعد أن شأقت القلوب سماعا

قد رضعنا هوى مغانيك أطفالا و همنا بها أفاعا

٤ - المؤتمر الإسلامى العالمى الذى دعا إليه الداعى الفاطمى محمد برهان الدين أمام البهره فى بومباى بالهند.

و البهره هم بقايا الحكم الفاطمى الذين انتقل معظمهم إلى الهند و استقروا فيها و صار اسمهم (البهره) و رئيسهم سلطان البهره. و السبب فى تخليهم عن اسم (الإسماعيليين)، أن الذين انشقوا عن الفاطميين بقياده الحسن الصباح، ثم خرجوا عن العقيدته الإسلاميه بالغائهم الواجبات الإسلاميه و إدخالهم فى عقيدتهم ما يتناقض مع الإسلام، و الذين عرفوا فى الماضى باسم (النزاريين)، ثم فى هذه العصور باسم (الآغاخانيين) - إن هؤلاء قد انتحلوا اسم الإسماعيليين و اشتهروا به و أصبحوا لا يعرفون إلا به، و هم على ما هم عليه من العقائد المتناقضه مع عقائد الفاطميين و إسلامهم و مذهبهم، لذلك رضى بقايا الحكم الفاطمى باسم (البهره) ابتعادا عن النسبه إلى من انتحلوا اسم الإسماعيليين.

و الحقيقه أن هؤلاء الإسماعيليين (النزاريين)(الآغاخانيين) كانوا من أكبر العوامل التى أستغلها المستغلون لتشويه عقيدته الفاطميين، إذ نسبوا إليهم عقائد النزاريين فى حين أن النزاريين كانوا أعدى أعداء الفاطميين و فى حين أن عقيدتهم ظهرت بعد زوال الفاطميين.

و كانت دعوه سلطان البهره لعقد هذا المؤتمر الإسلامى الكبير محاوله لتبيان حقيقتهم، فحشدوا له من استطاعوا حشده من كبار رجال الفكر الإسلامى و حسبك أنه كان من حاضريه شيخ الأزهر الحالى و اثنان من شيوخه السابقين و مفتى الديار المصريه، مضافا إلى المصريين الآخرين من أساتذته جامعيين و مثقفين و مقراءين، إلى غيرهم من أمثالهم من وفود البلاد الإسلاميه و العربيه.

و لكن الحقيقه أن كل ذلك لم يفسد شيئا فالأموال الكثيره التى أنفقت و الجهود الكبيره التى بذلت لم تغير من التهجم على كل ما يمت إلى التشيع بصله، فقد كنت أسمع باذننى ما كان يتناول به بعض الضيوف العرب لا

سيما من أبناء الخليج مضيفيهم من الطعن و التجريح و سيئ القول.

و صدف أن واحدا من هؤلاء الضيوف شاقه أن يحضر صلاه الجماعه فى مسجد البهره مؤتما بسلطان البهره نفسه فرأى من صلاتهم و خشوعهم و تسييحهم ما أعاده إلى فطرته السليمه فعبر عن ذلك فى كلمه ألقاها فى أحد الاجتماعات قائلا فيها ما معناه: أنه تخيل نفسه يصلى مؤتما بكبير من كبراء أئمه المسلمين السالفين.

و بعد انتهاء الاجتماع و العوده إلى الفندق لقي من تأنيب الآخرين و تقريعهم له على هذا الكلام ما كنت أسمعه باذنى، و لم يفد دفاعه عن نفسه بأنه كان أمام مشهد إسلامى رائع يجلو حقيقه البهره الفاطميين لا ما يتقوله عليهم المتقولون و أنه رأى من واجبه أن يعلن الحقيقه كما هى بعد أن رآها بنفسه. و كان الرد عليه بان مجرد حضوره إلى مسجدهم و صلاته معهم هو شىء لا يغتفر، فكيف بثناؤه عليهم.

و فى إحدى الجلسات العامه للمؤتمر وقف الشيخ الصالح اللبنانى على منصفه الخطابه و راح يتحدث بلا مناسبه عن القرآن و تفسير القرآن متعاليا حتى لقد قال الدكتور أحمد الحوفى المصرى الذى كان يجلس بجانبى ما الداعى لهذا الكلام الآن و هل نحن تلاميذ أمامه ليتكلم بهذا الأسلوب.

ثم انتقل الصالح فجاء إلى مهاجمه مضيفيه دون أن يسميهم ملقبا إياهم بالباطنيين. ثم قال و هو يتحدث عن تفسير القرآن: إن زنادقه الفرس الذين عبثوا بالقرآن باسم تفسير القرآن...

و لم يصل إلى هذه الكلمه حتى كان صبرى قد نفذ، و لم يعد من مجال للسكوت فقفزت بسرعه إلى المنصفه التى يقف عليها و صحت به: اسكت إننا نعرف من تعنى بزنادقه الفرس، إن هؤلاء الذين تسميهم زنادقه الفرس قد أخرجوا للعالم الإسلامى فى القديم تفسيرين للقرآن هما التبيان و مجمع البيان. ثم أخرجوا فى هذا العصر تفسيرا ثالثا هو الميزان و أنا أتحداك أن تجد فى كل ما كتب المسلمون من تفاسير ما هو خير من هذه التفاسير.

ثم قلت له: أننا الآن فى آخر الجلسه و لا يتسع الوقت للافاضه فى القول، و سأريك غدا أن كلامك هو الزندقه. و نزلت.

و فى الليل جاءنى الدكتور نجم الدين شقيق سلطان البهره و طلب إلى أن أكتفى بما كان و أن أصبر كما صبروا و أتحمل كما تحملوا، و قال إنه قدرنا فما ذا نضع. فنزلت عند طلبه و اكتفيت بما كان.

و قد برهن البهره فى هذا المؤتمر عن كفاءه فى التنظيم و عن تعاون و تعاضد عظيمين و عن كرم فى الإنفاق و البذل فنفقات المؤتمر كانت باهظه لا تقوم بمثلها إلا الدول.

و كانت مناظرهم داخل الفندق شييا و شبانا ذاهيين آتئين مشرفين على الصغيره و الكبيره، واضعين أنفسهم فى تلبيه طلبات الضيوف، كانت مناظرهم تدعو إلى احترامهم و حبههم.

على أن الشىء غير المحبب إلى النفس هو تعاضم سلطان البهره مما يوصله إلى حد العجرفه الممجوجه.

٥ - الموسم الثقافى الذى كانت تدعو إليه سنويا وزاره الاعلام و الثقافه فى دوله الأمارات العربيه المتحده، و كان يدعى إليه كل عام واحد ممن تختارهم تلك الوزاره ليحاضر فى العاصمه (أبو ظبى) و فى الجامعه بمدينه (العين)، و كنت ممن دعوا فألقيت هناك محاضرتين تاريخيتين.

ص: ٣٤٤

٦ - مؤتمر نهج البلاغه الذى انعقد فى طهران. و من حسن المصادفات أننى التقيت فيه كلا من الشيخ محمد نجف و الشيخ مهدي الأنصارى و الشيخ محمد رضا الأنصارى. و الأول منهما من أحفاد الشيخ محمد طه نجف أحد كبار أعلام النجف فى عصره و من أساتذته والدى عند ما كان طالبا فى النجف، و قد كان والدى يردد ذكره دائما فى مجالسه مثنيا عليه كل الثناء، ذاكرا تلمذه عليه بكل خير. و لقد سررت بقاء حفيد أستاذ والدى لا سيما و هو على صفات تليق بمن ينتسب إلى ذاك الجد الكريم و كذلك كان سرورى بقاء الأنصاريين بعد أن عرفت أنهما من سلالات الأشعريين الذين عمرت بهم (قم) علما و إيمانا و كفاحا، و كان هذان الأشعريان الإخوان صوره عما حدثنا عنه التاريخ عن أسلافهما من العلم و الايمان و الشهامة و الإخلاص و حسن الخلق.

٧ - مؤتمر قداسه الحرم و أمنه المنعقد فى طهران. و قد حضرته وفود من جميع أنحاء العالم الإسلامى ما عدا بعض البلاد العربيه، و قد تجلت فيه الرابطة الإسلاميه العميقه التى تشد المسلمين بعضهم إلى بعض بجميع ألوانهم و لغاتهم، فكانوا فى هذا المؤتمر يبدون أمه واحده تجمعها عاطفه واحده و آمال واحده.

و كان من أبرز مظاهره سياده اللغه العربيه بين وفود إفريقيا السوداء، فرأينا وفد نيجيريا مثلا يلتقى وفد السنغال فتكون كلمه: السلام عليكم فاتحه اللقاء، ثم يتحاوران بلغه القرآن.

٨ - مؤتمر الشهيد السيد حسن المدرس الذى انعقد فى طهران بمناسبة مرور خمسين عاما على استشهاد.

٩ - مؤتمر الفكر الإسلامى السادس المنعقد فى طهران، و كان موضوع بحوثه: (حقوق الإنسان فى الإسلام).

مع الناشرين

باشرت طبع و نشر مخطوطات أعيان الشيعة بما تجمع لدى من مال قليل، و استمرت هكذا مواصلا النشر فى فترات قد تتقارب و قد تتباعد بحسب ما يتيسر من المال.

و كان لا بد لى فى هذه الحال من التعامل مع أصحاب المكتبات بائعى الكتب و مشتريها، سواء منهم من كان فى لبنان أو العراق أو إيران. و قد تكشفت لى فى التعامل مع هؤلاء أعجب الأعاجيب من استحلالهم أكل المال الحرام، فالواحد منهم لا يحجم عن ذلك ما استطاع إليه سبيلا.

و على العكس منهم أصحاب هذه المهنة من الغربيين، فقد تلقيت يوما طلبا من مكتبه فى مدينه (وسبادن) فى ألمانيا تطلب فيه إرسال عدده مجموعات من الكتب، فأعرضت عن إجابته الطلب بعد تجاربي مع من طلبوا أمثال هذا الطلب فى لبنان و العراق و إيرن [إيران]، فانم [فإنهم] بعد أن يصلهم ما يطلبون يمتنعون عن إرسال الثمن، مطمئنين إلى أن من يطالبهم بعيد عنهم لا يصل إليهم.

و بعد مضى فتره حدثت صديقا لى ذى تجارب فى هذا الموضوع، فحثنى على إرسال ما تطلبه مكتبه (وسبادن)، لأنها بمجرد أن تستلم الكتب المطلوبه سترسل الثمن فى الحال، و هكذا كان، و تكررت طلباتها و تكررت إجابته هذه الطلبات.

ثم وقع لى حادث غريب إذ أننى تلقيت طلبا من مكتبه جامعه برنستن فى أمريكا فأرسلت لها ما طلبت فأرسلت لى الثمن، ثم عاودت الطلب فأرسلت لها أيضا ما طلبت، و كان ثمن ما طلبته فى المره الثانيه أكثر من ضعف ثمن ما طلبته فى المره الأولى. و كانت الطلبات تأتى موقعه من (رودلف ماخ) و مكتبه بلغه عربيه سليمه. و انتظرت وصول الثمن فلم يصل، فأرسلت رساله تذكير، فلم أتلق أى جواب و تكرر التذكير و تكرر الامتناع عن الاجابه.

و حدثت صديقا لى أقام فتره فى أمريكا بهذا الأمر، فقال لى: إن رودلف ماخ هذا هو يهودى، فعند ذلك زال العجب.

و أستطيع أن أقرن هذا اليهودى الأمريكى بمن يتظاهرون بالورع و يتسمون بالأسماء الدينيه من الناشرين بائعى الكتب و مشتريها متخذين من تلك الأسماء وسيلتهم لخداع الناس بمظاهرهم و أسمائهم. فمن سموا مؤسستهم (الدار الإسلاميه) فى بيروت، و زيد فرحات الذى أطلق لحيته و ضخم عمامته و من تسمى باسم سيف الله فى قم و أشباههم هم قرناء (رودلف ماخ) اليهودى الأمريكى، و قس على ذلك...

قصائد منوعه

أشواق

يا ويح قلبى كم يلقى و كم يجد و كم تكابد هما هذه الكبد
لمن أرتل أشعارى و أنظمها و من يقرض أبياتى و ينتقد
كتمت حبك فى صدرى فضايق به صدر بجمر نواك اليوم يتقد
أن تغف عينك عن همى فان لها عينا يطول عليها بعدك السهد
الدار بعدك لا تحلو مطالعها و لا بطيب لعينى فى الهوى البلد
و الكون بعدك لا حسن و لا أرج للمستهام و لا نعمى و لا رغد
يا سرحه الحب لا ماء الصبا غدق بعد الرحيل و لا طير الهوى غرد
هذه الحياه فلا ظل ألوذ به على الهجير و لا ريا فابترد
أين المراع بالسمار حافله و أين أحبابنا من بعدنا قصدوا
هل شاقهم بعدنا للحب شائقه يوما و هل وجدوا بعض الذى نجد
وددت لو طالعت عيناي مطلعهم و شاهدت فى الربى الروض الذى شهدوا

و إننى فى الجبال الشم أرقبهم و إننى أرد الماء الذى وردوا

ص: ٣٤٥

هيهات يعذب عيشى بعد بينهم أو أستطيب غراما بعد ما بعدوا
أين (الرويس) و روضات الحمى آنفا و الذروتان و صداح الربى الغرد
و ثغر (ظمياء) خلف الروض مبتسم و شعرها الجعد حول الوجه منعقد
و وجنتاها و قد مال الدلال بها كالجمرتين بنار الحسن تتقد
يا شط دجله و الذكرى تورقنا قد طال فيك على أشواقنا الأمد
هل فى ظلالك للأشجان مطرح أم فى ضفافك للحران مبرد
ضأقت على سهول الرافدين جوى (1) بعد الأحبه و الآكام و النجد
و استوحش الشط لا تروى مناهله قلبا يلوب و نفسا كاللظى تقد
يا من حفظنا على بعد عهدهم لا ينسينكم أيامنا البعد
القلب فى الحب لا يهفو لغيركم و لا يثير سواكم شوقه أحد

بعقوبه

"هى مدينه عراقيه تقع على ضفه نهر ديالى و يخترقها فرع منه يسمى نهر خريسان (تصغير خرسان)".

هيا بعقوبه الزهر و يا ريحانه الدهر

أحب جمالك الشعرى و أعشق جوك العطرى

أفيضى الحسن ريانا و مدى الظل فينانا

فقد تروين طمانا يعانى غله العمر

ديالى نهرك العذب عليه رفرق الحب

و طاب الزهر و العشب على حافات الخضر

أزاهير و أثمار و روضات و أنهار

و فى الضفات سمار تناجى مطلع البدر

على روضاتك الفيح نضت أشجانها روحى

و فى الأجراف و السوح نضت أشجانها روحى

أحب ربيعك الضافى و مورد مائك الصافى

ألا يا ليت آلا فى معى فى ضفه النهر

أيا مجلى الأزاهير و يا مغدى الشحارير

و يا مثوى المغاوير عليك تحيه الشعر

ذكريات شعريه

و من ذكريات بغداد تلك الأيام هذه الذكرى الشعريه فى ساعه من ساعات الأصيل على ضفاف دجله فى الكرايه الشرقيه:(٢)

كرايه الشرق البهيج تالقى حول الضفاف الزاهرات و أشرقى

هيجت أشجان الفؤاد الشيق لما طلعت بكل حسن مونتق

يا ليت أحبابى بسفحى جلق يدرون ما يلقي المحب و ما لقي

كم يستطاب على شواطيك السمر و تلذلى فيك الأصائل و البكر

كم يستشير كوامنى ضوء القمر و يهيج تحنانى الظلام المعتكر

ما أجمل الصفصاف و النخل النضر متدليا بالزهر يعبق و الثمر

حول الضفاف أزاهر تتفتق و مفاتن تجلى و حسن يشرق

و على العباب مراكب تتالق و مواكب تشدو هوى و تصفق

يا نهر: كم يحلو عليك الزورق مترنحا بيد النسائم يخفق

النهر منصور الضفاف منور تزهو عليه الباسقات و ثمر

و الليل معطار النسائم مقمر يلهو الجمال بصفته و يسمر

سمراء رنحها الدلال و أسمر يلويهما كالغصن حب مسكر

ما أروع الشط المرقوق ساجيا طورا و طورا بالأواذى طاغيا
كم كان فى الهم الطويل عزائيا و لكم لمست بصفته شفائيا
ما أعذب الملاح يغدو شاديا و يروح فى الليل البهيم مناجيا
ملاح: يا حلو الشمائل أنشد ما شئت من لحن الغرام و ردد
يهتاجنى فى الليل زورقك الندى و يبيل شدوك غله القلب الصدى
أنا سامع بفؤادى المتوجد فاهتف بلحنك فى الضفاف و غرد
أنا فى الضفاف على شجونى مفرد لا طلعه تحنو على و لا يد
الأمس أضوانى فهل يضوى الغد أ فكلما خلق الأسى يتجدد
يا ليل هل يدرى هناك الهجد إنى بوادى الرافدين مسهد

ص: ٣٤٦

١- المقصود أن اليهود أقاموا قصورهم على قبورنا.

٢- الكراهه الشرقيه من ضواحي بغداد.

على عباب البحر الأبيض المتوسط

ذكرتكم و الهم فى الليل مركب و نفسى على جمر الأسى تتقلب
و من دوننا بحر إذا ثار موجه تخال الجبال الراسيات توثب
أ أحبابنا نمشى على الهم بعدكم و نالف أشجان الحياه و نصحب
و عهدكم ما لان فى البعد عهدنا بلى إنه فى البعد أمضى و أصلب
تطالعنا الذكرى على كل وجهه فندنو و إن شط المزار و نقرب
رمتنا على هوج البحار مقادر تصعد ما شاءت بنا و تصوب
إذا ما ظلام الليل أرخى سدوله علينا و عم الكون فى البحر غيهب
و زمجرت الأمواج غضبى ثوائرا و ما جد أواذى تضحج و تصخب
و أفقرت الدنيا فلا السفح ناخر و لا النهر رراق و لا الروض معشب
و رحنا على الأمواج نطفو و تاره نخال بانا للحضيض سنرسب
ذكرتكم فى وحشتى و تلفتت لأرضكم عيناى تشكو و تعتب
أ أحبابنا النائين لا كانت النوى و لا كان يوم عنكم نتغرب
ذكرتكم و البحر بينى و بينكم فكدت لذكراكم من الوجد أنحب
طلعنا بائنا على الصبح نجتلى محاسن ما أبقى الزمان المخرب
فلاحت على (الاکربل)⁽¹⁾ منها مشاهد يحار لا فكر اللبيب و يعجب
و ذكرنى الشام الحبيبه موقف على قمه "الاکربل" عال و ملعب
فحن فؤادى المستهام و هزنى إلى أرض أحبابى خيال محب
و عدنا إلى اللجاه نسيح فوقها حيارى بقفر ما لنا فيه مهرب
إذا ما مضى الصعب الممض رأيتنا نحاذر أن ياتى على الأثر أصعب

إذا ما تلفتنا على اليم لم نجد سوى لجج يعيا بهن المجرب
فانا تضيق النفس فيها و تاره ألد من الحلم النضير و أرحب
و طورا تراها العين أشام منظر و طورا تروق الناظرين و تعجب
و مالت إلى الغرب الغزاله ترتدى على شفق كالنار أو هو أعجب
و سارت فبحر باللجين مفضض يشع وافق بالنضار مذهب
و ذابت على الأمواج فالماء جمره شرارتها نجم يند و كوكب
ذبيحه حد السيف فالكون واجم لماتمها و الأفق منها مخضب
و صرنا على بحرین ماء و ظلمه يسير بنا فلکان وجد و مرکب
توالى علينا الهم لا الماء ينقضى و لا الصبر يأتينا و لا الليل يذهب
إذا ما انتهى يوم علينا تعاقبت ليال و أيام تمض و تكرب
و مرت على الليل البهيم "صقلية" كما مر بالاشراق و الزهو موكب
تفيض على الشطين نور أو بهجه فترهر ضففات و تلمع أهضب
فيا لك مرأى فى "مسينا"^(٢) كأنه على ظلمات البحر أهل و مرحب
تبسم ثغر الليل فيه و طالما توالى على الأدلاج و هو مقطب
و طالعنا الصبح الأغر بجذوه على فوهه البركان^(٣) تلظى و تلهب
تسيل كما سالت من العين عبره يؤججها بالوجد قلب معذب
ثلاثه أيام تمر و لا نرى سوى الماء يعوى فى البحار و ينبع
فأين الجبال الشم ناوى لظلها و أين الفرات العذب نسقى و نشرب
و أين سهول الغوطتين نضيره و أين على بغداد صبح و مغرب
رباع على قلبى ألد من الهوى و أشهى من النعمى و أندى و أطيب

ألا أيها البحر المديد تحيه يشيد بها قلبي وفاء و يطنب
صبحناك لا قالين عهدا تصرمت عليك لياليه يلذ و يعذب
فعدرا إذا ما ملت النفس فالجوى يمض مشوقا و التنائى يعذب
أنسى على الأمواج صباحا كأنه وجوه الحسن البيض بل هو أعذب
و عصر اجلاه للنواظر مبدع أظل له أنى تلفت أعجب
و انسام ليل حين تسرى نديه نهيم لمسراها و نشى و نظرب
ألا أيها البحر المديد أذاكر صحابا تغنوا بالجمال و أعجبوا
تلاقوا كما مرت رؤى فمشرق طوته الليالى هائما و مغرب
صبحناك حرا لا يهون و لا ينى على غمزت الدهر و الحر يصحب

على السين

فؤادى لن تراع و لن تلوبا فقدهم المسافر أن يثوبا
غدا يا قلب نقطعها جبلا منصره و نطويها سهوبا
غدا نلقى الربوع غدا نراها و نبصر ثمه الوجه الحيبا
ألا تلهيك يا قلبى الليالى تفيض بشاشه و رؤى و طيبا
تطلع هل ترى ألا ضحوكا و الا لاهيا فيها طروبا
نزلت (السين) لا يروى غراما و جئت (الألب) لا يهدى نسيبا
تحن إلى الربوع و رب صحب تناسوا أو نسوا العهد القريبا
تحن "إليهم" فى "السين" نضوا و تذكرهم بباريس كئيبا

ليله سهاد

طال السرى و بشير الفجر ما بانا يا ويح طرفى يقضى الليل يقطانا

يهفو إلى نحلات الشط ناضره و يشتهي الرند و الصفصاف و البانا

إذا استقرت عيون الناس روعه فى الليل أن حبيب النفس قد بانا

يا ساهرين لياليكم على دعه ما زلت بعدكم بالهم سهرانا

أرنو لأرضكم و البعد دونكم فاستحيل تباريحا و أشجانا

إلى جدت والدى

مشوق على (باريس) روعه البعد و أورت حناياه الكابه و الوجد

إذا ضحك السمار هاجت شجونه و إن شدت الأوتار بيكيه ما يشدو

يحن إلى الأحباب شطت ديارهم و يهفو إلى الأوطان غيبها البعد

تثير ماسيه على الشام تربه و يشجيه ما يشجيه فى جلق لحد

فيا نائيا لم ينسى الناي طلعه تفيض بها النعمى و يزكو بها السعد

و يا غائبا ما غبت عنى ساعه و لا انطوت الذكرى و لا انصرم العهد

حرام على قلبى السرور و إنما يطيب له من بعدك الهم و السهد

و يا جدثا فى الشام أنت لى الهوى و أنت لى النجوى و أنت لى القصد

هواجس بارانا Parana

"بارانا نهر جميل يخترق مدينه الروساريو الأرجنتينيه فتتمثل فيه أروع

ص: ٣٤٧

١- الأكروبول فى أثينا و من قمته يرى الناظر أثينا تحته كما يرى دمشق من قاسيون.

٢- مضيق مسينا.

٣- بركان سترومبلى.

مناظر الطبيعه. و قد وقفت عليه ساعات، و كنت قادمًا إلى الأرجنتين من بغداد:

يا قلب روعك النوى ما روعا تغفو على سفر و تصحو مزما

فى كل يوم فرقه لو أنها مرت على قلب الصفا لتصدعا

طال النوى يا ويح أيام النوى ما كان أقساها على و أوجعا

كم لذت بالبدر المنير أبته شكوى النوى لو أنه يوما وعى

و لكم أطفت على الضفاف مناجيا و لكم لجات إلى الصبا متضرعا

و تفجر القلب الجليد تشوقا و استسلم العزم الأبى توجعا

و الليل كم عريت فيه عواطفًا موجتها لو لا التجلد أدمعا

حيث "بارانا" المرقق و الدجى بغلائل القمر المنير تبرعا

و سلاسل الأنوار مرت مثلما مر الخيال الحلو ليلا مسرعا

و الساهرون مضوا على غلوائهم يتمايلون على الشواطئ رتعا

و الساهرات كأنهن كواكب منثوره أو كن منها أسطعا

أ شواطئ "الباران" ما أزكى الربى وشى الربيع صدورهن فابدعا

تلك الخمائل قد ذكرت بحسناها حسنا بدجله كان أزهى مطالعا

إن رفت الأشجار حولك غضه و ترقق النهر الخصب و أمرعا

و طلعت بالحسن المدل كأنما شطاك بالغيد النواهد رصعا

فلقد أثرت بى الحنين و طالما حن الفؤاد لدجله و تطلعا

أنا إن هفوت إلى رمالك ساعه و شممت عرف نسيماك المتضوعا

لم أنس دجله و الهوى و لياليا كانت ألد من النعيم و أمتعا

ذاك النخيل على الضفاف كأنه سرب الحسان على الضفاف تجمعا

أطلقن للنسمات خضر ذوائب و أبحن للأطيار ثغرا أمنعا

حيث "بارانا" تحيه شاعر يهوى الجمال و يستجيب إذا دعا

النهر و الروض النضير سميره و الطير بالشجو المثير مرجعا

و السحر فى نجل العيون و فى اللمى و الطهر فى الخد الأسيل مشعشا

أ شواطئ "الباران" حسبك فى الهوى إن قد شربت هواك جاما مترعا

كم قد لويت عن الغرام أعنتى و ثنيت طرفى عن رؤاه ترفعا

يا غاده "الباران" أذكيت الهوى لولاك هذا القلب ظل ممنعا

أسلمت للعينين صعب مقادتى و مشيت للخدين أسعى طيعا

إن ضاق فهمى عن لغاك فإنما قلبى يعى ما كان قلبك قد وعى

أشجى الأغانى ما يردد حبنا أشهى الأمانى ما نعيش لها معا

قلب ببارانا و شاطئ دجله ما زال بالحب العنيف موزعا

إلى نيليدا شراره

هى شاعره أرجنتينية من أصل عربى من جبل عامل، عايشت قضيه العرب (فلسطين) و تحمست لهم فى صراعهم مع الصهيونيه و تغت ببطولتهم و أمجادهم حتى كانت الكارثة عام ١٩٤٨ و ضاعت فلسطين فانقلبت يائسه منهم ناقمه عليهم. و لما التقيتها فى مدينه (الروساريو)، كانت تشكو مر الشكوى و توجهت إلى بعده قصائد إسبانيه ترجمت لى إلى اللغه العربيه، فتوجهت للشاعره بهذه القصيده:

غنيت بالشعر آفاق الهوى طربا و للكرامه هجت الشرق و العربا

قمرية الدوح أنت اليوم شاديه أم أنت لبوه غاب تنتخى غضبا

لا يوهننك ما أودى بموطننا فيوم ثارتنا الحمراء قد قربا

هذى فلسطين إن نامت فوارسها و كوكب العز فيها بالهوان خبا

فلا و عمرك لم تخمد عزائنا و لا نزلنا على حكم العدا رهبا

هيهات نهجع عن (حيفا) مصفده أو أن ننام عن (اللطرون) مغتصبا
غدا نطالع بالرايات قانيه (عكا) و نفتح (باب الواد) و (النقبا)
أما و حقك أنا لم نزل عربا ملء الأكف ندى ملء النفوس إبا
هبت على من (الروسار) نافحه كانت ألد من الأحلام عرف صبا
و هيمنت فى حنايا النفس خافقه تذكى الفؤاد و توحى الشعر و الأدبا
و طالعتنى فى الأسحار هازجه فكدت ألمس من زهوى بها الشهبأ
(نيليد) فيك من الأعراب واشجه أكرم بها حسبأ أعظم بها نسبا
كم قد وفيت لها أسمى الوفاء فما هانت لديك و لا أنكرتها سببا
أذكيت شعرك بالآمال واثبه حتى قرأنا على أبياتك اللهمأ
و صحت بالعرب و الآفاق داجيه صوتا ينير لنا الأجيال و الحقبأ
أثنت بالنثر و الأشعار معجبه و كنت أنت بنا الإكبار و العجبا
الموعد (القدس) يا (نيليدا) ثائره (و اللد) مضطربا (و الواد) مضطربا
ففضدى الزهر للأبطال ظافره و نظمى الشعر بشرا و اثرى الخطبا

وحده

فى جزيره برمودا
وحدى أقلب ناظرى هنا و أسائل المجهول أين أنا
الحلم مر فليت لى جفنا من بعده يستعذب الوسنا
و الأغنيات هوت و ما اكتملت ألحانهن و لا انتظمن غنا
يا طلعه كانت لنا أملا غضا و كانت فى النوى وطنا
مدت إلى يدا تطوقنى و الكون بالأحلام طوقنا

و الخد رف فما تشاء شذا و الثغر شع فما تشاء سنا
المهرجان و أين سورته مرت و أين مضت رؤاه بنا
عيناك حالمتان تسعره وجدا و تنديه هوى وهنا
و يفيض صدرك بالحنان فما أشكو الجوى إلا هفا و دنا
المهرجان مضى فليت لنا من بعده أملا و ليت لنا
وحدى أقلب ناظري هنا و أسائل المجهول أين أنا
وحدى أغالب لوعه غلبت وحدى أصارع بالأسى الزمنا
يا ليت أحبابي و قد بعدوا يدرون ما يلقي الحبيب هنا
سكنت حواشي الليل غير أسى فى صدرى الحران ما سكنا
أرنو لعل على الدجى حلما قلب الحبيب له هناك رنا
هذا الجمال و لست أنكره ما كان قلبى فيه مفتتنا
أجد الربى و البحر منفردا و الغيد و الأمواج و السفنا
قفرا يضحج بخاطري شجنا صحراء تزخر لوعه و ضنا

رعشات

أطل الصباح و لم ترجعى و أظلم ليلى و لم تطلعى
تكاد إذا هاجت الذكريات تفجر من لوعه أدمعى
رويت فؤادى هوى عارما أظل الحياه به حالما

فانى رنوت و أنى مشيت أرى وجهك المشرق الباسما

إلى المهرجان مشينا معا نخال النجوم لنا مهيعا

و نحسبها حلما شاردا و لحنا بثغر الهوى ممتعا

خبا النور و انتثر السامر و غاب الندى فلا حاضر

و لا خدك الحلو يحنو على و لا نهديك القلق الثائر

رأيتك فاهتز قلبي جوى و مر بنفسى خيال النوى

سارحل عنك بعيدا فمن يهدهد بعدك هذا الهوى

جفونك نديانه بالدموع و فى شفتيك النداء الصريع

و قلبك يصرخ هل من رجوع و يعلم قلبك أن لا رجوع

يداك تلوح خلف القطار و عيناك تشخص عبر القفار

و صوتك أخفاه عنى المدى و لم يبق منك سوى الادرار

مضيت على لوعتى مطرقا أرى أن ليل الأسى أطبقا

و أن العهود العذاب انقضت و لم يبق من أمل فى اللقا

ساناى إلى عالم مبهم و دهر كليلى الأسى مظلم

و حسبى حين تضج الهموم و تطغى الفواجع أن تبسمى

ساناى و حبك يهدى خطاى و طيفك فى البعد يذكى هواى

سأسأل عنك الدجى و الصبا ليشرق ليلى و تزكو صباى

ساناى و لم ترو منك العيون و لا بحت يوما بحبى الكمين

ساناى و يبقى الهوى نغمه على الثغر أو حلما فى الجفون

أ يمضى الزمان و لا نلتقى و يظما هوانا و لا نستقى

و تبقيين فى الغرب هيمانه و أمشى بشوقى إلى المشرق
ساوهى بحبك عزم السنين نجى الهيام أليف الحنين
ترفين فى خطرات الخيال فاهتف باسمك هل تسمعين؟؟
سارنو إليك وراء الغيوب سأسأل عنك الضحى و الغروب
سأسأل عنك الربى و الشذا سأسأل عنك الصوى و الدروب
سأسأل أين مضت سادره و أين استقلت بها الهاجره
سهرت على حبها ذاكره كما سهرت ليلها ذاكره
ساحيا بحبك غض الجنان رحيب الحياه نضير البيان
سيبقى غرامك فى الخالدين و يفنى الزمان و أهل الزمان
سارنو لعل سناك يبين و أعلم أن السنا لا يبين
ساهتف باسمك أن ترجعى و أعلم أنك لا ترجعين

الصحارى

إنى لتصبينى الصحارى سمحه و تروقنى فيها الطبى و الأينق
و يهيج وجدى الليل فى تلعاتها و يهزنى فيها الصباح المشرق
و تثيرنى و النخل أتلع جيده عصفوره فوق النخيل تزفوق
و مواكب يشدو جرير حولها طربا و يهتف بالفخار فرزدق
و تشوقنى و الذاريات عواصف نار القرى بين البيوت تحرق
شبت لمقرورين يصطليانها "أعشى" أضربه السرى "و محلق"
و الطلعه السمراء لوحها الضحى و لوى معاطفها الغرام المحرق
و ربابه الراعى الطروب و نغمه يشدو بها فى الليل صب شيق

و تثير أشواقى و تبعث صبوتى أطلال رامة و النقا و الأبرق
و أحن للعرب الذين تحدروا منا فسادوا فى الورى و تفوقوا

الحنين إلى الرويس

سقىا لأيام الرويس فطالما كانت لأدواء الفؤاد دواء
نلقى الجمال الغض فى ذرواته و على السفوح الماء و الخضراء
و يشوقنا الإصباح فى أفيائه و نطيب حول كرومه إمساء
قد جئته قلبا ينوء بدهره هما و يرزح شقوه و عناء
عبست له الدنيا فلم ير باسما للناس إلا أن يكون رياء
رضى الشجون من الحياه صحابه و من الزمان همومه خلطاء
حتى إذا برز الرويس و أقبلت دنياه تزخر متعه و رجاء
بعث هوى القلب القديم و هيجت للحب فيه الوجد و البرحاء
و جلت لنا الحسن الرفيع و اطلعت فى كل أفق كوكبا وضاء
يتالق الجبل الأشم به سنا و السفح و الوادى الأغن سناء
و طلعت يا ظمياء فى مرح الصبا وجهها أغر و مقله نجلاء
و كسوت ذروات الرويس بشاشه و ملأت واديه الظليل هناء
و دعوت للحب المبرح و الجوى قلبا خليا من هواك فجاء
أحبيت أفياء الرويس و إنما أحبيت من حبي لك الأفياء
فالليله القمرء فيه لم تكن إلا بوجهك ليله قمرء
و الروضه الغناء ما كانت لنا إلا بحسنىك روضه غناء
لم يحل لولاك الرويس و لم يطب أرضا و لم يعذب لدى سماء

قد كنت بهجته و كنت رواءه فسمما بعيني بهجه و رواء
تمشين فى الأرجاء عاطره الشذا فتعطين بعرفك الأرجاء
و يطل وجهك فى السجوف كأنما ألق السعاده فى السجوف تراءى
و أراك فى غسق الزمان فاجتلى نور الضحى من مقلتيك أضاء
يا أيها الجبل الأشم أ سامع نجوى يردد لها الفؤاد وفاء
إنى لأطرح فى ذراك كابتى و أرد عن قلبى بك البأساء
و أحب سفحك ما حيت و أشتهى بعد الرحيل تلاك لك الزهراء
و تهيجنى ظمياء فيك ملاحه و تثير أشواقى لها إغراء
كانت ليالينا عليك ضواحكا أبدا و أيام الهوى غراء
أرشفتنا العذب الزلال على الظما و منعنا الاكدار و الأفداء
و لمست فى واديك غر مباهجى و عرفت تحت ظلالك السراء
إن تحبنى العيش الرغيد فلن أنى أشد و بذكرك فى الحياه غناء
و أرتل الشعر الرفيع منمقا بجمالك الإنشاد و الإنشاء

حنين

أ تذكر سمراء (الفراتين) أم سلت عهود محب ما تناسى لها عهدا
أقام على الذكرى يناجى خيالها و يسأل عنها الروض و النهر و الورد
و يلمح فى الأشعار طيف جمالها و يقرأ فيها اللحظ و الثغر و الخدا
أ تعلم سمراء (الفراتين) أننى وفيت لها قربا و لم أسلها بعدا
تراءت على الدنيا فكانت رواءها و كانت بها النعمى و كان بها الرغدا

صخره

هى يا فؤادى صخره صماء لا ظلها دان و لا الأنداء

لمعت على حر الأوام كأنها بهجير عيشك واحه خضراء

ص: ٣٤٩

و رأيتها فى اليبء فارتء الظما ربا و شاعء بسمه و رءاء
ألق ىءوب عليه من نور الضءى قبس و من زهر الرببع رواء
أضءءك ىا قلبى الفقار مءيله و شءءك أشباح بها نءراء
ءءى إذا أبصرتها قلت المنى رفاء و قلت ءبلءء نءماء
هى ىا فواءى صءره صماء لا ظلها ءان و لا الأءءاء
فاظما كما شاء الهوى فبربقها و قء و ءفق ظللها رماء
ىا صءره الواءى النضبر و طالما قء سال من قلب الصءور الماء
و ضنء لا ظل و لا أءءاء و قسوء لا ماء و لا ءضراء

أشواق

سلى اللبل هل أشءاء ءبر ملاءنى و هل هزه إلا هواى و ءهيامى
و هل ءرد الواءى بءبر قصاءءى و هل نضرت أءواءه ءبر أنءامى
سلى اللبل ربان النسائم هل روء نساءمه شوقى إلبك و آلامى
ءكرءك ىا "ظماء" فبه مسهءا فءءء على الءكرى نشبى و إلهامى
و طارء إلى الشطبن نفسى و رفرء على النءلاء ءضبر روى و أءلامى

ىوم ءلا الفرنسبون عن لبنان و نحن فى بعءاء

أ أبءر القوم عن لبنان و ابءءءوا أ ءاءروا الشاطى الساءى و ما قفلوا
أبن المعافل بالأءءاء زاوءه و أبن ءولهم الأءاء و ءءول
و أبن زهوءم بالءبش منءصرا فى "مبسلون" و ما ءاهوا و ما ءءلوا
و أبن "روءبه" ىرمى النار مءبءا بان ءلق بالنبران ءشءل
بهاءءه الءقء نشوانا فان ءمءء فىها ءراءق أءكاها له ءمل

و هزه البشر و النيران طاغيه على المقاصير و البارود يعتمل
و البيض مرهفه و الخيل مرسله و الجند سادره فى الهول تقتتل
و للقواذف أنى ترمى حمم و للمدافع أنى تنتحى شعل
تساءل القوم لما جاش جائشهم أ للشآم بما ترمى به قبل؟
أ تسكتين على العدوان ضارعه للظالمين أ تستخدمى أ تنخذل
و أقبل الناس يلقون الوغى كشفا و يصطلون مناياها و هم عزل
فاسفر الصبح و الطغيان مندحر و الظالمون بصبر الشام قد خذلوا
أنا صمدنا لهم فى الروع لا خور عند اللقاء و لا جبن و لا وجل
فاليوم نهتف و الدنيا مهلهه يا للبشائر إن القوم قد رحلوا
يا سارى الريح و الأفراح قائمه ما ذا وراءك كيف الصبح؟ ما فعلوا؟
عج بالرياض التى طابت مطالعها و لذ للعين منها مريع خضل
و احمل إلينا من الذروات نافحه تروى بعاطرها الأشواق و الغلل
كيف الأحبه فى الوادى و سامرهم كيف الشواطىء و الكشبان و القلل
أنى تطيب ليالينا و قد بعدوا عن العيون و أنى تعذب الأصل
أنا لندكرهم و الشوق مضطرم و القلب مضطرب و الدمع منهمل
و نستديم هواهم إن هم قطعوا و نستريد هياما إن هم وصلوا
ما كان يشغلنا عن ذكرهم طرب بعد الفراق و لا يهتاجنا غزل
هيهات بعدهم نهفو لغيرهم أو أن تثير هوانا الأعين النجل
أ يذكرون ليالينا التى سلفت أم عادهم بعدنا النسيان و الممل

وفينا و إن كان الوفاء عذابا ألا ضل من خان العهود و خابا
تراى لنا الينبوع ثرا و لم نكن لنحسب تلك البارقات سرا
و لاح فأحيا فى الهجير جوانحا ظماء إليه فى الهجير سغابا
يموج على الصحراء ريا و روضه و يلمع فى الليل البهيم شهابا
حدونا إليه الركب أنضاء غله تراه و قد عز الشراب شرابا
و سرنا إليه و المهامه دونه يزيد بعادا إن نرده طلابا
تضييق ليالينا فان لاح ماؤه بدت فيه آفاق الحياه رحابا
و نياس فى الدنيا فان عن ذكره تعود لنا الدنيا منى و رغابا
ألا يا صفاء النبع هل جفت الربى و هل عادت الروضات فيك يبابا
و هل صوح الوادى فلا الطير حوما عليك و لا أهل الصفاء طرابا
ألا يا صفاء النبع و النبع دافق يسيل كما سال النضار مذابا
و يجرى على الرضراض وردا و نرجسا و يسرى إذا هب النسيم ملابا
أ تلقى عليك الحسن هما و كربه و نبصر أضواء الجمال ضبابا
أ تكدر يا نبع الصفاء لظامى و تلقى على الروض النضير حجابا
و تنضب إذ هم المشوق برشفه و تيبس إذ عاد المشوق و آبا
أنبع الصفاء الثر لا زلت دافقا تفيض فتونا فى الهوى و شبابا
و لا زال نوار الخمائيل ناضرا عليك و أغصان الربيع رطابا
سنرعاك يا نبع الصفاء أحبه و يبين إن لان الأنام صلابا
إذا ذكروا السلسال فاضت قلوبهم حيننا و رفت لوعه و عذابا
فلا تذكر الغدر الممض فر بما لقيت من الوافين فيك عجابا

سلام على الينبوع لا جف مأؤه و لذ على ورد الهيام و طابا

و إن ينضب الينبوع يوما فاننا سنرويه من ماء الوفاء عبايا

حماسه و أمل و استنجد

العام ١٩٤٨ كنا فى بغداد و كانت البلاد العربيه تضطرم اضطراما بما شاع عن العزم على تقسيم فلسطين و إقامة الدوله الصهيونيه.

و تتابعت أخبار معارك العرب الفلسطينين مع الصهاينه دفاعا بطوليا عن وطنهم العزيز. كما تتابعت أخبار الحماسه السوريه، و كانت النفوس تفور بالأمل و تتفجر بالعزائم. فكانت هذه القصيده من وحي كل ذلك:

ردت على مباحج الأعياد و طوت حدادى بعد طول حدادى

بشرى تجاوبت الربى بدويها و مشت على الأغوار و الأنجاد

طلعت من الشامات تهزج بالهنا و تضج بالتغريد و الإنشاد

غنت بها مصر و ردد صوتها طربا ندى الصيد فى بغداد

و تهللت بطحاء مكه و ازدهت بالبشر ثم حواضر و بوادى

و تالقت فى قاسيون مرايع خضر و ضجت بالسرور نوادى

الناعمات الغيد بعد وجومها متضاحكات للحياه شوادى

يهتفن للحرب العوان ثائرا و يهجن بأس الفتيه الأنجاد

فيجيبهن رصاص أبطال الحمى متتابع الأبراق و الأرعاد

فتميد فى البر المديد جباله و يسيل بالنيران قلب الوادى

يا ليتنى فى الشام ارتاد الذرى و أهيم فى الاجزاع و الاسناد

استاف عرف أحبتى و أراهم متسابقين لغاره و طراد

و أشارك الغازين فيها غزوه عربيه الإصدار و الإيراد

أغدو على الثكنات ثم مصاولا و أروح بين الخيل و الأجناد

أ مطالع النسمات ما هبت صبا إلا ذكرت بها نسيم بلادى
و تطلعت نفسى إلى ذرواتها و هفا لواديتها البهيج فؤادى
و تمثلت لى الصافنات مغيره و سمعت صوت الجحفل المتنادى
يمشى لنا بلس الأبيه صارخا القوم قومى و البلاد بلادى
أحمى بنيران المدافع حقها و أذود عنها بالرصاص العادى
من يستبيح حماى من يسطو على حقى و من يلوى رفيع عمادى
صممتا فقد نطق الرصاص و حسبنا أن الرصاص إلى القتال ينادى
فى سفح نابلس لهيب معارك و على جبال القدس صوت جهاد
كل يلوذ بنخوه عربيه كل يردد صرخه استنجد
يا نائرا بالنار يحمى أرضه و يذب عنها جاهدا و يفادى
لم يستكن للغاصبين و لم يدع علجا يدوس مراقد الأجداد
أنشدتنى لحن الرصاص و ربما أشجاك فى ليل الوغى إنشادى
قد صبغت فيك الشعر حرا نائرا يذكى الجبان و يستهيج الهادى
أرنو إليك فمن لظاك قصائدى نظمت و من قانى دماك مدادى
إن فاتنى بالأمس يومك أننى أهفو إليك بعدتى و عتادى
فلعل لى يوما بجنبك يرتوى فيه من الثارات قلبى الصادى
و لعلى ألقاك فى رهج الوغى و لعلى أمشى إلى استشهادى
ردد على الأسماع أنغام الطبى ناريه الترجيع و الترداد
قل للغفاه عن القتال أ لم تروا ما ذا يراوح (قدسكم) و يغادى
أ أموت فى كف اللثام و أنتم حولى و لم يهزركم استنجدى

أرد عن وردى أقتل صابرا بيد اليهود أ تستباح بلادى
يا نائمين على الحرير و ما دروا أنا ننام على فراش قتاد
متلفعين دم المعارك ما لنا إلا الحصا فى القفر ظهر و ساد
نغدو على النيران يذكيها لنا غدر اللئام و خسه الأوغاد
و نبيت لا ندرى أ نصبح بعدها أم أن عين الموت بالمرصاد
يا نائمين و ما دروا أنا هنا لسنا نذوق اليوم طعم رقاد
إخواننا و الدهر فرق بيننا مدوا لنا منكم يد الأنجاد
هذى منازلنا الشوامخ ترمى هدمها على الفتيات و الأولاد
تتساعد الأناث فى جنباتها و تطيح بالهجمات و الأعضاء
هيوأ إلينا بالبنادق بالظبى بالمال بالأرواح بالأعتاد

ربيع السيوف

و جاء الربيع و المعارك تترى فى فلسطين، و الفلسطينيون يقاتلون، و نحن نعيش فى بغداد نفس الأمل و الحماسه و الاستنجاد، و بغداد و العراق كله يتلظى إياء و حميه، فجاءت هذه الأبيات و كأنها متممه للقصيده السابقه:

حييت طالعه الربيع و إنما أزكى ربيعنا ربيع جهاد
ثارت به يافا و هبت غزه و تصايح الأجناد بالأجناد
قومى ربيعهم السيوف و عيدهم فى كل واد صرخه استشهاد
زانت دماؤهم الجبال و نضرت أشلاؤهم وجه التراب الصادى
سل عنهم ريا السهول و طيها و غضاره الأغوار و الأنجاد
هل غير محمر الدماء زهورهم و غناؤهم غير الرصاص الشادى
لو أنهم ملكوا السلاح لنازعوا جباره الدنيا زمام قياد

أربيع طبت ففى نسمك عقبه من صوت كل مناضل ذواد
و على رياضك من جراحه يعرب فى القدس طاقات من الأوراد
أربيع لن تهتاج غير حماسى بجمالك الزاهى و غير زىادى
هيهات تلوينى إليك مشاهد خضر و قومى للقتال تنادى
لا الزهر فواح العبير يهزنى فى الوادين و لا النسيم الغادى
يا منشدا غر القصائد هاتها من فيك شعرا ملهب الإنشاد
حدث عن الأبطال عن غزواتهم عن كل مقدم و كل جواد
حدث عن الوطن الذبيح و أهله كم يستغيث و يرتجى و ينادى

آمال

و جاء قرار مجلس الأمن بالتقسيم، و قال العرب "كلا" و أعدوا العده للتدخل العسكرى بعد ما ناضلوا بالقول فى مجلس الأمن:
أعيا البيان و خاب فيك المنطق النار أجدى فى الكفاح و أصدق
طيبى فلسطين الأبيه و اسلمى وطنا له يعنو الزمان و يطرق
لا تياسى فعلى يمينك فيلق ملء الربى و على يسارك فيلق
اليعربيون الأباه توثبوا من كل فج للوغى و تدفقوا
يهتاجهم للباس أروع مشتم و يهزهم للأريحيه معرق
نسلتهم الصحراء أبطالا إذا ساروا إلى غاياتهم لم يلحقوا
قولوا لمن ملأ الزمان تشدقا بالعدل أين العدل يا متشدق
أ من العدالة أن تقسم أرضنا و يباد فيها قومنا و يمزقوا
و تببت ترتع فى حماك مسودا و حماى للشذاذ نهب مطلق
أ يبيحهم وطنى الكريم و أمتى متزلف لنوالهم متملق

أين الموائيق العذاب و أين ما قد نمقوا فيها و ما قد زوقوا
صبرا فلسطين الصبور لقد دنا يوم يمض الظالمين و يرهق
المغرب الأقصى المروع هاجه أن تستضامى عنوه و المشرق
ستور مصر و العراق و مكه ستهب عمان إليك و جلق
ستغص بالقتلى السهول و ترتوى شم الجبال من الدماء و تغرق
يا نسمة الشام الحبيبه هدهدى روحا بصاليه الجوى تتحرق
أنا فى هواى بجلق متبغدد و على الفرات و دجله مدمشق
فتحملى من (قاسيون) نوافحا يشفى بعاطرها الفؤاد الشيق
و اتلى على من الحميه قصه يزهو بها وجه الاباء و يشرق
أمشت دمشق إلى النضال أ أقبلت منها الزواحف و الخيول السبق
أسرت إلى الثغر المنيع أ أسرع للفتح تحتوش العدى و تطوق
يا نسمة الشام الحبيبه عللى قلبا على الوجد المبرح يخفق
يرنو إليك و شوقه متضرم ملء الضلوع و دمعه مترقرق
هبي على من الجبال لعلى استاف عرف الطاعنين و انشق
الواردى الماء الفرات و ما دروا أنا نعص على الفرات و نشرق
و العاتيين و ما دروا أنا لهم أوفى على العهد القديم و أوثق

حديث الرزايا

و أطلت أخبار الرزايا فاستسلمت حيفا ثم يافا و تتابع الاستسلام، و لكن الأمل ظل يعيش بتهيؤ الجيوش العربيه لدخول فلسطين:

بانفحه من رياض الواد طالعه و نسمة حملت ريا فلسطينا

تروى حديث الرزايا عن منازلنا و تحمل الدمع من أجفان أهلينا

عن مطلع النار فى (حيفا) و ما شربت أرض (الجليل) دمء من أصحابنا

من السفوح من الذروات داميه من المروعين فيها و المذودينا

ما كان عرفك إلا صرخه حملت للتائرين هتاف المستثيرينا

و لا أريجك إلا الحقد مضطرا و لا عبيرك إلا النار تذكينا

أن يلونا الغدر عن آمالنا زمنا أو يثتنا الوهن حيننا عن أمانينا

ففى الجوانح عزم من فواجعنا و فى النفوس عرام من ماسينا

تلك المراع كم طافت فوارسنا فيها و كم رغمت فيها أعادينا

و كم هتفتنا على ذرواتها مرحا و كم رتعا على الصفات شاديننا

و كم صبونا بها حبا و عاطفه و كم جنينا بها وردا و نسرينا

و كم أطافت بها أكبادنا شغفا و كم أرقنا دموعا من ماقينا

تلك المراع نفنى دون حوزتها و نستमित بها فى الهول غازينا

قل للميادين و الأيام غالبه نظار نملاً بالقتلى المياديننا

و نفعم الجو طيارين إن نفروا إلى السماء أحالوها براكيننا

نظار تطلع فى الدنيا كتائبنا على المعازل تجتاح الصهاييننا

مناجاه حيفا بعد استسلامها

أ حيفا الأبيه طال النزوح فكيف الشطوط و كيف السفوح

أهانت على الخطب ملتاعه أدانت لفاتها المستبيح

إذا هب فى الليل منك الهواء ذرفنا عليك دموع الالباء

و لذنا بأسيافنا ثائرين و سرنا فلا ننثى للوراء
يلبيك منا الكمي العنيد و يهتف باسمك صوت الشهيد
و نصرخ فى الهول مستقتلين سنحفظ أوطاننا أو نبيد
لئن عثرت ببنيك الجدود و كانوا الاباه و كانوا الأسود
فصبرا توافيك أسيافنا لوامع تفرى هوادى اليهود
سنرجع بعد الغياب الطويل فتشرق حيفا و يزهو الجليل
فصبرا تصبحك أعلامنا خوفاق فوق الربى و السهول
يهودا خسئت فلست لنا نظيرا نخضب منه القنا
سياط الاسار و ذل السبا على عارضيك و عار الخنا
لئن حكم الدهر أن تغتدى خصيما يمد يد المعتدى
فزله هذا الزمان اللئيم ستغسلها كفننا فى غد

يا نخل دجله و الفرات

أهلا باشراق الملاك قد كان حلما أن أراك
يا عاشق الليل الطويل تباركت فيه رؤاك
تهوى النجوم لو أنها لثمت على شغف ثراك
و عنادل الروض النضير تود لو كانت صدراك
بوركت ما عشق الدجى و وفى له أحد سواك
يا عاشق الليل الطويل و ما سلوت و ما سلاك
أ تفر موجتك الطليقه و الدجى عان هناك
هيهات ما جلى الدجى إلا شعاع من سناك

كلا ولا عقب القريض العذب إلا من شذاك

إن الذى خلق البيان العبقري له اصطفاك

من لى على درب القريض بان أسير على خطاك

لم تمل إلا السحر شعرا حينما تملى يداك

غرد فان قلوبنا تشدو المنمق من غناك

أهلا بسلسال القريض العذب يجرى فى مداك

يا نخل دجله و الفرات لكم هفوت إلى لقاك

و تطلعت نفسى إليك لعلها يوما تراك

يا نخل دجله ما نسيت على النوى أبدا هواك

كنا فى باريس عند ما ذاع أن العرب كسروا احتكار السلاح، و أنهم اشتروه من الشرق بعد أن منعه عنهم الغرب، و أن وفدا غريبا جاء يعالج الأمر و يسأل العرب ما ذا يريدون و أن الغرب فى ضجه من هذا الأمر:

يستفهمون و قد بحت حناجرهم و يسألون و قد أعيوا و قد تعبوا

ما تطلبون؟ و قد كنا نطالبهم حتى مللنا و حتى ملنا الطلب

تلك (اللقيطه) شدتم من دعائمها حتى استقامت على أجداتنا القبيب

(1) هذى حرابكم منها هم طعنوا و ذى سيوفكم منها هم ضربوا

النار فى شرفات القدس لاهبه و فى شوارع حيفا القتل و السلب

دور الأعزه فى يافا و فى صفد ذلت لفاتحها الأطلال و الخرب

تهفو لغائبها شوقا و عاطفه حتى تكاد بها الأحجار تنتحب

و تستكين إلى الشكوى مناجيه و ترتجى عوده النائى و ترتقب

فى دير ياسين ثار لا تنام له منا العيون و لا ينسى له طلب

عزلا نقابل بالأجساد ناركم لا الصبر يعصمها منكم و لا الهرب
و اللاجئون على الأبواب ما طعموا إلا الهوان بأيديكم و ما شربوا
ثاراتنا الحمر فيكم كاللظى حنقا و حقدنا المر كالبركان يلتهب
هذا السلاح الذى تحمى بوارقه يوم الكريهه ما خطوا و ما كتبوا
هبت على النخوات الحمر نائره و جلجل البأس فيها و التظى الغضب
و ماجت اليد بالتكبير و انطلقت بعد الهوان إلى ثارتها العرب

حماسه و رثاء

كان الاعداد يجرى فى دمشق للقتال فى فلسطين سنه ١٩٤٨ و نحن فى العراق فإذا بدمشق تفاجا بوباء الكوليرا:

أ يروع أمنك يا دمشق وباء و تمضك الأوجاع و الارزاء
"لا در درك يا زمان أ هكذا" ختلا تغال الحره السماء
أ كذا تموت الأسد فى آجامها أ كذا تبيد على الكناس ظباء
تهوى الفوارس ما نضت سيفا و لم يرفع لها فوق الخميس لواء
و تطيح واهيه العزائم بعد ما رجفت بماضى عزمها الغبراء
يا ويح قلبى كيف قومى فى الحمى كيف الأحبه ثم و العشاء
إنى لأذكرهم على أهوالها فيكاد يغلب ناظرى بكاء
كانت تثير مفاخرى أنباؤهم و اليوم تبعث حسرتى الأنباء
أ مشارف الشامات هل أرج الذرى زاك و هل ربا السفوح رخاء
أعلى الظلال الوارفات بشاشه و على المروج الحائنات رواء

ص: ٣٥٢

هل فى محانى الغوطتىن كعهدنا للواردىن مباحج و هناع
أم نابها الءاء الممض و راعها قءر ىروع إذا أى و قضاء
تلك البطولة كم زهت بجمالها سوح الوغى و تباهت الهىجاء
كم رفرى النصر الممنع فوقها كم ذل حول قباها الأءاء
تلك البطولة فى دمشق فرىسه للموت تنهش قلبها الأءاء
وا لهفءاه لءائرىن ءحملوا للءرب عن أوءانهم و ءناءوا
ىءلفءون و فى الصءور لواعج ءذكى الهموم و فى النفوس مضاء
ىءساء لون عن الءىار و رزئها كىف الأبوه بعء و الأبناء
ءىى إذا ءار النضال ءواءبوا للنار لا ءور و لا إعىاء
صبرا دمشق و ما اسءكء لءالم ىوما و لا هاءء بك العلىاء
ذل الطغاه على ءماك و سمءهم ءسفا به ىءصاغر الكبراء
بأس على الهول المروع صابر و ءمىه ملء الءمى و إباء
قء كان شعرى فى بنىك ءماسه و الىوم شعرى فى بنىك رءاء

شاكىه

وىء الءىاه أ أنء الىوم شاكىه هم الءىاه و هذا الءسن ظمآن
أ وءهك العءب أشجان مبرءه و قلبك الغض بالآلام بركان
ظمىاء و الشعر مءل السءر منءلق من فىك و الءسن فى عىنىك فءان
و فى جىنىك من نور الصبا ألق و للءمال على ءءىك ألوان
أ ءءزىن و منك البشر مءلعه و ءظمىىن و منك الكون رىان
و ءءكىن ءبارىء الأسى و لكم زاء بىسمءك الغراء آءزان

عودى

عودى إلى فصول الحب يدعوننا و نغمه الشعر لم تبرح تناديننا
تهوى الرياض على شوق تواعدنا و يشتهى السفح و الوادى تلاقينا
سنملاً الكون شعرا من صبابتنا و نترع الدهر عطرا من تناجينا
عودى إلى فلم أبرح كما علمت هذى النجوم محبا فيك مفتونا
ألقي الجمال على عينيك مزدهرا و فى جبينك أستجلى التحاسينا

غضب و رضا

لما التقينا على نار من الغضب تذكى الجوانح بالتقريع و العتب
قالت أ أنت نجى الليل و الشهب أنت المعنى بنا أم أنت ذو الطرب
تشدو بشعرك لا وجد و لا حرق على الغرام و لكن فتنه الأدب
أنت الفراشه من زهر إلى ثمر طول الحياه و من جد إلى لعب
أنا الفراشه يا ظمياء هائمه و ليس وجهك غير النور و اللهب
ثم افترقنا و بسمات الرضا نغم فى الثغر أو حلم نديان فى الهدب

الخامس من حزيران

حدثت حرب الخامس من حزيران ١٩٦٧ و أنا فى مدينه كراتشى فكان من وقع أنبائها هذه القصيده:

جل المصاب عن البكاء فكفكفى دمع الدليل و عبره المستضعف
يا أمه هانت فكم من شامت فى يومها الداجى و كم من مشتف
لهف العروبه و العروبه جذوه أورى على الحدثان من أن تنطفى
للثائرين استسلموا لمذلل للشامخين تذللوا المعنف
لمقاتلين تقصفت هاماتهم فى القدس تحت الراعد المتقصف

للمطعمين استطعت راحتهم و استعطفت فى الروع من لم يعطف

للمسجد الأقصى لمحراب الهدى للطائفين على البراق لعكف

خفت الآذان على المآذن و انطوى فى المسجد الأقصى نداء المصحف

و هوى على المحراب خفق نعالهم و طغى على الترتيل صوت المعزف

لا تلکم الجمع الحسان و لا صدی آياتها للعابد المتكشف

يا أمه نامت على أحلامها أودى اليهود بعزك المتغترف

و هويت من وقفات مجدك و العلى لامض مما عرف الورى من موقف

شدى على الغمرات لا تستيئسى و امضى على الهبوات لا تتوقفى

أن يعنف الخطب الملم فداوه من عزمك الماضى بخطب أعنف

يا نشء يا أمل النفوس و يا سنا ما أنفك يبرق فى الظلام المسدف

لا تجز عن قرب يوم عاصف تختال فيه بكل سيف مرهف

و لرب يوم للعروبه ثائر و لرب يوم بالفخار مفوف

القدس يجار بالشكاه مذله و يهود بالنصر المؤزر تحتفى

و المسجد الأقصى يطأطئ راغما و القوم قومك بالتصايح [بالنصائح] تكتفى

يا نشء جد فلا اصطبار و لا ونى يا نشء لا تغرر و لا تتعسف

ايلات...

بعد فاجعه الخامس من حزيران ١٩٦٧ كنت فى لندن فحملت لنا الأنباء خبر اشتعال الدارعه اليهوديه (ايلات) بالنار المصريه، فى

عرض البحر و هى تحاول الدخول فى المياه العربيه:

ايلات!.. صوتك فى الظلام الأبعد أورى من العزمات ما لم يخمد

نار تشب على البحار كأنها فى الحندس الداجى مناره معبد

سالت على الأمواج تحرق أهلها و تريهم أن القيامه فى غد
نار و لا نار المجوس كرامه و لظى و لا برد النعيم المنخد
خشعت لها النفس الكريمه و ارتوى بعد الأوام بوهجها القلب الصدى
هى أن قنت إلى الإله محجتى و لها - على الإسلام - طول تعبدى
أيلات!.. أى يد رمتك بناها نار الجحيم و أى همه سيد
للخير، للضيف الملم، لنخوه للهول، للباس الشديد لمعتد
ردتك عن باب الكرامه و ارتمت بالنار توقد فيك ما لم يوقد
و أرتك ما لم تبصرى فى غاره يوما و ما لم تشهدى فى مشهد
نذر من الثارات إن هبت غدا وردت باسرائيل أشقى مورد
أيلات!.. أى المغرقين قذفتهم فى اليم بين محرق و مبدد
صفر من النخوات إلا أنهم ملء البرود نذاله المتهود

عزاء..

ذكرتك فى تباريح المصاب و وجهك بعد ذاك النور خابى
ذكرتك و الأسى يدوى شبابا فداه بكل نازله شبابى
فليت جراح قلبك فى فؤادى و ليت عذابك المضى عذابى
أيا ألق الرجاء بليل ياسى و يا أسنى الأمانى و الرغاب
لقد كنت البشاشه فى حياتى و أنت اليوم همى و اكتتابى

صامته

لا تصمتى فيانى منك منبتق و من عيونك و حى الشعر منطلق
كم قد شكتك لىالى الوجد صامته و كم أفاض الأسى و استرسل القلق
لا تصمتى و لغات الحب ناطقه أحنا الأحبه من أن عوتبوا نطقوا
رفت عليك صباباتى و ما برحت بنار حسنك هذى النفس تحترق
ناجيت قلبك أستجلى كوامنه لو أن قلبك فى شكواه ينطلق

من الذكريات

اشاره

فى السابع من تموز سنه ١٩٩٠ نشرت جريده السفير البيروتية ترجمه قصيده للشاعر الصهيونى أفرام تسيدون هذا نصها:

"لن نحاور"

يا مردخاى غور ساقص عليك قصه
حتى لو تخلت المنظمه عن ميثاقها حتى لو حول ياسر عرفات
اسمه فى احتفال رسمى ليكون موشيه
و حتى لو تخلى الفدائيون عن أسلحتهم و عقيدتهم و أرسلوا بطاقات التهنته
لكل بيت يهودى فى رأس السنه العبريه
حتى لو شاركتنا المنظمه فى بناء المستوطنات لليهود القادمين الجدد
و حتى لو أعلنوا أمام الملاء ان الضفنه الغربيه أرض يهوديه
و حتى لو قامت نساء فتح بنسج قبعات الصوف لجنود إسرائيل
و حتى لو استقبل أهالى الضفنه جماعات غوش امونيم بالأغانى

و الزغاريد و حتى لو اعترفوا بالدوله اليهوديه و قدموا لنا كل أموال التبرعات التي يتلقونها

و حتى لو التزم ياسر عرفات أمام الملاً باننا الذئب و هم الغنم

و حتى لو نقلوا اللاجئین إلى القطب الشمالی و رفعوا رايات الهزيمة أياما و ليالى

و حتى لو تحولت سيوفهم إلى أقلام و مساطر

فلن نجالسهم أبدا و لن نحاور

فرددت عليه بالقصيده التاليه:

لا سلم

لا سلم حتى تستباح دياركم بشبا القواضب و البنادق و المدى

و تدك بالبارود تل أبيبكم و يعود مغناها لظى متوقدا

و نردكم فى الخافقين أذله و نعيدكم انى تكونوا اعبدا

بالفيلق العربى يزحف هادرا و يكر فى رهج المعامع منشدا

ثارات يعرب لن تطل دماؤها و لظى الحفائظ لن يبوخ و يخمدا

شدوا ففى حيفا المراح على السرى غلسا و ان على ثراها الموعدا

أن يظما الوطن الجريح فلن ترى إلا دماهم للعطاشى موردا

يا شاعر السوءات دون فارتقب يوما من الولايات مرا اسودا

لا.. لن تحاور بل تكمم صاغرا و تقاد للجلاد ثم مصفدا

مؤتمرات القمه

فى أواخر شهر أيار سنه ١٩٩٠ عقد فى بغداد ما يسمونه مؤتمر القمه فعلقت على عقده بهذا المقال:

يوم وصل اليهود إلى ضفه القناه سنه ١٩٦٧ فيما اسموه بحرب الأيام الستة، و وقفوا هناك متطلعين إلى ما وراء القناه من سهوب شاسعه و آفاق بعيده كانت فى متناول أيديهم فيما يحسبون، لو أنهم تجاوزوا هذا الماء الفاصل بينهم و بينها و ما كان أسهل

عليهم أن يتجاوزوه بعد أن تمزق كل شيء، وانهارت القوى... القوى كلها ما كان منها مادة صلده تموج و تمور على وجه الصعيد، أو كان معنى كامنا في الصدور! يوم وصل اليهود إلى ضفة القناه بجيشهم المنتشى بخمره النصر الهين و جلسوا يستريحون هناك، كان كبرائهم يجلسون على مقاعدهم وراء مكاتبهم ينتظرون رنين الهواتف المؤذنه بالاستسلام لهم، و المعترفه بالواقع المرير الذى ضاع معه كل شيء.

و لكن الهواتف لم ترن و طال صمتها، و إذا بالصوت الذى حسبوه سيصلهم ذليلا خانعا على سماعات الهواتف، إذا به يجلس في الآفاق صارخا في وجوههم بلاءاته الثلاث: لا... لا... لا. كانت لاءات قمه (الخرطوم) يوم ذاك هي التي تتمثل فيها شمائل العرب: شمما و حميه و قوه عزم و بساله. كانت هي مظهر هذه الأمه الممتده بعشرات ملايينها من المحيط إلى الخليج... كانت هي الرد الحاسم على الذين تباشروا بوصولهم إلى جدار هيكل سليمان ليخطوا الخطوه التاليه التي تحتويهم من النيل إلى الفرات.

الرهوس التي نكسها صدى انات الهزيمة على رمال سينا و صحور الجولان عادت ترفعها صرخات النخوه في أجواء الخرطوم.

و انتظر العرب، و انتظروا فإذا باللاءات تنقلص و إذا ب (لا) الأولى تتحول إلى (نعم).

و لم ينتظروا تحول (اللايين) الآخرين إلى (نعمين)، إذ أن التحول الأول محاهما.

واجه هذا الوطن في تاريخه سنه ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) يوما كيووم وصول اليهود إلى ضفة القناه فى سنه ١٩٦٧.

بل لنا أن نقول أن ذاك اليوم سنه ١٢٦٠ كان أشد هولاً من يوم سنه ١٩٦٧ فإذا كان اليوم الثانى نتج من هزيمه واحده فان اليوم الأول كان ناتجا من سلسله هزائم متتابعه أضاعت الوطن فى معظه و لم تبق لبنيه امتدادا يلوذون به ليتهاوا للكره على عدوهم، لم تبق لبنيه امتدادا إلا رقعته هيهات أن تحمى و تجير.

كان الوطن يوم ذاك فى مواجهه الغزو المغولى المدمر الذى اجتاح الوطن الكبير بلدا بعد بلد حتى بلغ أبواب مصر نازله طلائعه فى مدينه (غزه).

و عند ذلك أرسل (هولاكو)، إلى حاكم مصر الملك المظفر سيف الدين قطز بن عبد الله المعزى إنذارا رهيبا حملة واحد و أربعون رجلا- من رجاله الغلاظ الشداد، هذا نصه: "إن الله تعالى قد رفع شان جنكيز خان و أسرته، و منحنا ممالك الأرض برمتها، و كل من يتمرد علينا و يعصى أمرنا يقضى عليه مع نساءه و أبناءه و أقاربه و المتصلين به و بلاده و رعاياه، كما بلغ ذلك أسماع الجميع. أما صيت جيشنا، الذى لا حصر له فقد بلغ الشهره كقصه رستم و إسفنديار.

فإذا كنت مطيعا كخدم حضرتنا، فأرسل إلينا الجزية، و أقدم بنفسك لطلب الشحنة، و إلا فكن مستعدا للقتال".

هذا هو الإنذار المخيف الذى حملة الواحد و الأربعون مغوليا إلى الحاكم المصرى، و هذا هو التهديد المروع الذى وصل إلى القاهره.

و قد كانت كل جملة فى هذا الإنذار صحيحه صادقه، فقد دانت لهم ممالك الأرض، و كل من تمرد عليهم قضى عليه و خربت بلاده. و كبراء الناس قد صاروا خدم الحضرة المغوليه.

و هبط الوفد مصر جبارا متكبرا، يزلزل بروعته العزائم و يوهى الهمم.

هبط مصر و هبط معه تاريخ أسود من الانتصارات الكاسحه، و ماض بشع من التسلط المهول، كانا كافيين للتسليم و الخذلان.

كان الأمر أخطر من أن يقطع به إنسان واحد، و كانت مصر آخر معقل، فإذا هوت لم تقم بعدها قائمه. لذلك لم يجرؤ رجل فرد، مهما أوتى من سداد الرأى و قوه العزم أن ينفرد بالقرار.

و هنا كانت الدعوه إلى ما يمكن أن نسميه (مؤتمر قمه)، مؤتمر قمه لا بمقاييسنا فى هذا العصر، بل بمقاييس ذلك الزمان.

لم يكن المدعوون إليه من أصحاب الجلاله و الفخامه و السمو و السياده، ممن لم يكن لهم وجود يومئذ، بل كان المدعوون إليه حكام المناطق المصريه، و أمراء الجيش، مضافا إليهم من انهزموا أمام المغول من حكام البلاد الأخرى و لجئوا إلى مصر.

دعا إلى مؤتمر القمه هذا، ملك مصر سيف الدين قطز. و قد حفظت لنا بعض المصادر ما يمكن أن نسميه محضرا لما جرى من النقاش و التداول فى الجلسه الوحيده التى عقدها المؤتمرون.

افتتح المؤتمر الملك المصرى متكلمنا بصراحه يقتضيها الموقف الخطير الذى وصلت إليه البلاد، فقال:

"لقد توجه هولاكو من طوران إلى إيران بجيش جرار، و لم يكن لأى مخلوق من الخلفاء و السلاطين و الملوك طاقه على مقاومته، و استولى على جميع البلاد، ثم جاء إلى دمشق و لو لم يبلغه نعى أخيه لألحق مصر بالبلاد الأخرى، و مع هذا فقد ترك فى هذه النواحي (كيتو بوقا)، و هو كالأسد الهصور و الثنين القوى فى الكمين، و إذا قصد مصر فلن يكون لأحد قدره على مقاومته، فيجب أن تتدبروا الأمر قبل فوات الفرصه".

لقد كان الملك سيف الدين قطز يعرف أن أكثر المؤتمرين انهزاميون قد استولت عليهم الرهبه من المغول، و أنهم ميالون إلى

التسليم، و لم يكن هذا من رأيه، بل كان رأيه المقاومة و القتال، و خشى إذا طرح الأمر على التصويت أن ينتهى التصويت إلى صالح الانهزاميين. لذلك بدا من كلمته أنه هو الآخر ميال إلى التسليم، فاطمان الانهزاميون إلى قراره، فلم يحزموا أمرهم و يكتلوا قوتهم بل ظل موقفهم مائعا بعض كما سنرى فى الآتى من القول:

و قد كان فى المؤتمرين رجل واحد قوى النفس، لم تؤثر فى قوته انتصارات المغول المتتابعه، و لا أضعف يقينه التهديد و الوعيد، فلما لمس لنا فى موقف رئيس المؤتمر، و لمح فى كلمته امارات الانهزام النفسى، تصدى له بقوه و حزم.

هذا الرجل هو ناصر الدين القيمرى الذى رد على كلمه الرئيس بما يلى:

"ان البلاد الممتده من تخوم الصين إلى باب مصر هى الآن كلها فى قبضه هولاء، فلو ذهبنا إليه لطلب الأمان فليس فى ذلك عيب و عار، و لكن تناول السم بخداع النفس و استقبال الموت أمران بعيدان عن حكم العقل. انه ليس بالإنسان الذى يطمأن إليه، و هو لا يفى بعهده و ميثاقه، فإنه قتل فجاه خور شاه، و حسام الدين عكه، و صاحب اربل بعد أن أعطاهم العهد و الميثاق، فإذا سرنا إليه فسيكون مصيرنا مصيرهم".

فلم يرد أحد من الانهزاميين على ناصر الدين القيمرى و تركوا أمر مصاولته إلى رئيس المؤتمر بعد أن صار فى ظنهم أنه فى صفهم.

و بالفعل تولى الرئيس بنفسه الرد على القيمرى. و انحصر النقاش فى المؤتمر بين الاثنىن القويين: سيف الدين قطز، و ناصر الدين القيمرى.

فرد الرئيس على القيمرى قائلا:

"ان كافه بلاد ديار بكر و ربيعه و الشام ممتلئه بالمناحات و الفجائع.

و أضحت البلاد من بغداد حتى الروم خرابا و يبايا. و قد قضى على جميع من فيها من حرث و نسل، فلو اننا تقدمنا لقتالهم فسوف تخرب مصر خرابا تاما كغيرها.

و ينبغى أن نختار مع هذه الجماعه التى تريد بلادنا، واحدا من ثلاثه: الصلح أو القتال أو الجلاء عن الوطن. أما الجلاء عن الوطن فأمر متعذر، و ذلك لأنه لا يمكن أن نجد مقرا لنا إلا المغرب و بيننا و بينه مسافات بعيدة".

يبدو الملك سيف الدين قطز من هذا الكلام على أعلى مستوى من الحنكه و الدهاء السياسى، بل يبدو دبلوماسيا قديرا يعرف كيف يناور و يحاور، ثم يحتفظ بالموقف السليم الثابت لآخر لحظه، هى اللحظه الحاسمه.

لقد قال ان أمامهم ثلاثه خيارات: الجلاء أو التسليم أو الحرب. ثم يرهن أن الجلاء غير ممكن، و قد كان عليه بحسب ظاهر الحال أن يبين رأيه فى الخيارين الآخرين، و لكنه لم يفعل.

انه أراد أن لا يفاجئ الانهزاميين برأيه فى وجوب المقاومة لئلا يهبوا فى وجهه هبه واحده و هم أكثره الحاضرين:

بل ترك ذلك لناصر الدين القيمرى ليزداد الانهزاميون اطمئنانا إلى موقفه هو.

لقد أسقط هو الخيار الأول (الجلاء)، فكان لزاما على ناصر الدين القيمرى أن يتولى إسقاط خيار التسليم، و قد كان ذلك، فرد القيمرى قائلا بحزم و ثبات:

" و ليس هناك مصلحة أيضا فى مصالحتهم إذ أنه لا يوثق بعهودهم "

و هنا التفت الرئيس إلى الانهزاميين ليقولوا كلمتهم، فقالوها و لكنهم

ص: ٣٥٥

شفعوها بكلام أبطل مفعولها. و كان ذلك نتيجة المناوره البارعه التى قام بها الرئيس العظيم سيف الدين قطز، و التى أوهم فيها الانهزاميين أنه من رأيهم.

كان جواب الانهزاميين ردا على كلمه القيمرى متوجهين بها إلى رئيس المؤتمر:

"ليس لنا قدره و لا طاقه على مقاومتهم، فمر بما يقتضيه رأيك".

لقد كانوا يعتقدون أنهم بكلمتهم هذه يسلحون الرئيس بسلاح قوى ليقرر التسليم مستندا إلى رأى الأكثرية، و كانوا يتصورون أنه ينتظر كلمتهم هذه لتكون حجته فيما يعزم عليه من الخضوع للمغول.

لقد كان فى الواقع ينتظر كلمتهم ليحزم أمره فى القرار، و لكنهم وقعوا فى الشرك الذى نصبه لهم ببراعته و دقه مخادعته. لم ينتبهوا أنه استدرجهم لتكون كلمتهم ذات شقين، و أنه أصبح حرا فى أى شق شاء من هذين الشقين.

لقد قالوا بالتسليم، و فى الوقت نفسه قالوا له: "فمر بما يقتضيه فأمر بما يقتضيه رأيه، فقال:

" ان رأى عندى هو أن تتوجه جميعا إلى القتال، فإذا ظفرنا فهو المراد و إلا فلن نكون ملومين أمام الخالق".

أمام هذا الجواب الحازم صمت الانهزاميون، أ لم يقولوا له: "مر بما يقتضيه رأيك". انه ينفذ ما طلبوه إليه.

إذا كان مؤتمر الخرطوم سنة ١٩٦٧ قد انجلى عن ثلاث (لاءات)، امحت كلها مع الأيام، و صار يحل محلها فى كل مؤتمر (نعم)، فيكون جواب الأعداء عنها: (لا).

إذا كان الأمر كذلك فان مؤتمر القاهره سنة ١٢٦٠ أوجز الجواب ب (لا) واحده، لم يكتبها بالحبر الذى تمحوه الأيام، بل كتبها بالدم الذى لا تمحو الأيام ما يكتب به. كتبها سيوف (عين جالوت).

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ
الزمر: ٩

عنوان المكتب المركزى

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آواده اى، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلى، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الالكترونى : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزى ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥

هاتف المكتب فى طهران ٠٢١ - ٨٨٣١٨٧٢٢

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩ شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.

مركز
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية
اصبهان
الغمامية



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

